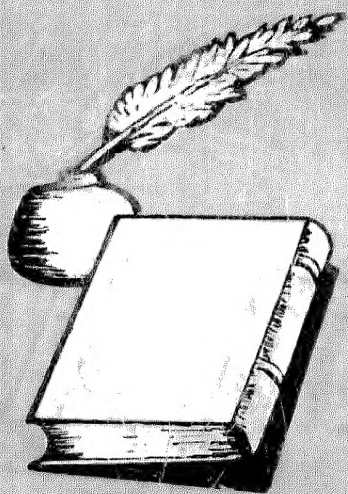


موسوعة التاريخ الإسلامى ومحاضرة الإسلامىة

— تاريخ مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى الآن :
(إنصاف تاريخ مصر — دورها الحضارى — أهم آثارها)
— الحروب الصليبية : دوافعها — أدوارها — نتائجها
(الجهاد الإسلامى فى مواجهة العدوان الصليبي)
— الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن
(الإمبراطورية العثمانية : مآلها وما عليها)



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كمبودج

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامىة
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

مكتبة النهضة المصرىة
٩ شارع مدفوع — القاهرة

الطبعة السابعة (١٩٨٦) مع إضافات واسعة وتحقيقات مهمة



مَوْزُونَةٌ التاريخ الإسلامى

واحضارة الإسلاميه

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء لتاريخ العالم
الإسلامى كله ، من مطلع الإسلام حتى العهد
الحاضر ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم
بها المسلمون في ترقية المبران وتطوير الفكر البشرى

٥

- تاريخ مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى الآن .
- (انصاف تاريخ مصر — دورها الحضارى — اهم آثارها)
- الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها .
- (الجهاد الإسلامى في مواجهة العدوان الصليبي)
- الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .
- (الامبراطورية العثمانية : ما لها وما عليها)

تأليف

الدكتور أحمد رشدي

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)
استاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الاسلاميه
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة
الطبعة السابعة (١٩٨٦)
مع زيادات واسعة وتحقيقات مهمة



مطبعة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
رؤسها حسن محمد وأولاده
٩ شارع سيدى باشا بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

التاريخ

شجاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل

أحمد شلبي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى — ١٩٦٧

الطبعة الثانية — ١٩٧٢

الطبعة الثالثة — ١٩٧٧

الطبعة الرابعة — ١٩٧٩

الطبعة الخامسة — ١٩٨٢

الطبعة السادسة — ١٩٨٤

الطبعة السابعة — ١٩٨٦

خطة البحث في هذه الموسوعة

ان خطة البحث التي اتبعتها في كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى أن ابرزها في التخطيط التالى ليصرف القارىء عنها ، ويسهل عليه متابعتها :

| | | |
|---|------------------------------------|--|
| ١ | دراسة زمنية في هذه | العرب قبل الاسلام - السيرة النبوية العطرة - عصر الخلفاء الراشدين |
| ٢ | الأجزاء الثلاثة إذ | الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها |
| ٣ | أن العالم الاسلامي وحدة واحدة . | الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسي الأول ودور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية |

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) في الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامي انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامي ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالخطيط التالي :

| | | | | |
|---|--|--|--|--|
| <p>الجزء الرابع</p> <p>— الانحلال الاسلامي وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى أوروبا</p> <p>— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر</p> <p>— السنوسية : مبادئها وتاريخها</p> | <p>الجزء الخامس</p> <p>— مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر</p> <p>— الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها</p> <p>— الامبراطورية العثمانية (تركييا) منذ ظهورها حتى الآن</p> | <p>الجزء السادس</p> <p>دخولها الاسلام حتى الآن : وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية .</p> <p>دراسة عن — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربي .</p> <p>— الدول الاسلامية الحالية :</p> <p>موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال</p> | <p>الجزء السابع</p> <p>الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن .</p> <p>دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان — اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق</p> | <p>الجزء الثامن</p> <p>التاريخ الاسلامي للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا — الاقليات الاسلامية بالصين والاتحاد السوفيتي والهند والفيليبين وسنغافورة .</p> |
|---|--|--|--|--|

وتختتم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :
الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر
عصر المظالم والهرائم

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد انور السادات

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون في ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ - الجزء الاول : (الطبعة الثانية عشرة)

- مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى - تفسير التاريخ - هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ - فائدة التاريخ - مراحل تدوين التاريخ - قضية الالتزام في كتابة التاريخ الاسلامى - علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
- تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر - حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .
- السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة - الدعوة الاسلامية وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين

٢ - الجزء الثانى : (الطبعة الثامنة)

- الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .
- انصاف تاريخ الامويين وابرار جهودهم السياسية والحضارية .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

- الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ، وبدور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة الثامنة)

- الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .
- المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .
- السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة السابعة)

- مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
- (تدوين جديد لتاريخ مصر - دورها الحضارى - اهم آثارها) .
- الحروب الصليبية : دوافعها - ادوارها - نتائجها .
- الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

كتب المؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تبلا هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٧ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ،
فالتعبير ، فالإلقاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطلاب الى مرحلة متقدمة
في القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من
الفكر الاسلامي والعربي اختيرت من امهات الكتب العربية ثم صيغت في اسلوب
مناسب ، مع أسئلة وتبرينات مفيدة .

٤٨ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)
عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفدت وإن يعساها طبعها

- ٤٩ — في قصور الخلفاء العباسيين :
- أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ٥٠ — مصر في حريين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ٥١ — الحكومة والدولة في الاسلام :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .
- ٥٢ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي .
- ٥٣ — النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامي فيها .
- وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .
- ٥٤ — الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الاسلامي :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

٦ - الجزء السادس : (الطبعة الخامسة)

الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخولها
الإسلام حتى الآن :

- دراسة من وسائل انتشار الإسلام :
- مراكز الشمال - هجرات عربية وغمر عربية - التجار - الطرق
الصوفية - مراكز داخلية .
- الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربي :
- غانة - مالي - صنفى - دول الهوسا - برنو - باجورمى -
واداي - الفونج - مقدشو - مملكة الزنج .
- الدول الإسلامية الحالية :
- موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالي - النيجر -
نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتي .

٧ - الجزء السابع : (الطبعة الرابعة)

- الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق :
- دول الجزيرة العربية من مطلع الإسلام حتى الآن :
- المملكة العربية السعودية - اليمن - جمهورية اليمن الجنوبية -
عمان - دولة الامارات العربية - قطر - البحرين - الكويت .
- العراق من مطلع الإسلام حتى الآن .

٨ - الجزء الثامن : (الطبعة الثالثة)

الإسلام والدول الإسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الإسلام حتى
الآن :

- ايران - افغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ماليزيا - اندونيسيا
الاقليات الإسلامية في الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ - الجزء التاسع : (الطبعة الثالثة)

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب - عصر جمال
عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ - الجزء العاشر :

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر أنور السادات .
- (ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب المؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية ، وإجازاتها هي :

١١ - الجزء الاول : تاريخ المناهج الإسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم في صدر الاسلام - انحرافات في عصور الظلام - وجوب تصحيحها (١)

١٢ - الجزء الثاني : الفكر الإسلامي : منابعه وآثاره تأثير المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية (الطبعة السابعة)

١٣ - الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السابعة)

في الفكر الإسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة (٢)

١٤ - الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السابعة)

في الفكر الإسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

- ١ - الاسلام والمسلمون في مواجهة المشكلة الاقتصادية .
- ٢ - مبادئ الاسلام الاقتصادية .
- ٣ - الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .
- ٤ - من تاريخ الاقتصاد في الاسلام (بيت المال : موارده ونصارفه ...) .
- ٥ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وتأثير الفكر الإسلامي فيها .

١٥ - الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة الثامنة)

نظمها - تاريخها - فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، وتطبيقاتها
التعليم وامكانته ، وحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات
العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ،
ونقابة المعلمين ، وتكاثر الفروع بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب
مواهبهم ..

١٦ - الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السابعة)

أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة - تخطيط جديد - أداء جديد .

١٧ - الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الخامسة)

في الفكر الإسلامي

- في نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

- وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ - الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الرابعة)

وتاريخ النظم القضائية في الإسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع

ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

في الإسلام

١٩ - الجزء التاسع : والعلاقات الدولية (الطبعة الرابعة)

دراسات علمية توضح النهج الإسلامي في تنظيم العلاقات بين الدول
الإسلامية والدول غير الإسلامية في المجالات السياسية والاقتصادية
والاجتماعية والعسكرية .

٢٠ - الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الرابعة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

مكتب المؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على اثنى المراجع
بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعبق ، وتشمل :

٢١ - الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة التاسعة)

— دراسة لشئى المسائل اليهودية : اليهود فى التاريخ من عهد
ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، انبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ،
يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، الثابوت
والهيكل ، الكهنة والقرايين ...

— مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء
صهيون .

— اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التيجسس ،
البابية والبهائية .

— من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ - الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة التاسعة)

— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .
— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن
خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، الجامع ،
طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ،
خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها
وتقدمها .

٢٣ - الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة التاسعة)

— الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين
فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة فى الاسلام ، الرق وموقف
الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد فى الاسلام . آراء المفكرين
الغربيين فى الاسلام ورسول الاسلام .

٢٤ - الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة التاسعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »
— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان
فى الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها :
كيشا .

— اهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والثرملنا ، وحدة
الوجود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبودية وتاريخ واتسمبها .

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

- ٢٥ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة (الطبعة الثامنة عشرة)
مع ثلاثة ملاحق مهمة
- دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
- ٢٦ — الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الآن
عرض للهجمات الصليبية الفريية عسكرية وفكرية على العالم
الاسلامى عبر العصور .

كتابان باللغة الانجليزية هما :

- ٢٧ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals
٢٨ — History of Muslim Education

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

- Negara dan Pemerintahan Dalam Islam — ٢٩
- Masjarakat Islam — ٣٠
- Hukum Islam — ٣١
- Sedjarah dan Kebudayaan Islam I — ٣٢
- Sedjarah dan Kebudayaan Islam II — ٣٣
- Sedjarah dan Kebudayaan Islam III — ٣٤
- Perbandingan Agama (Jahudi) — ٣٥
- Perbandingan Agama (Masihi) — ٣٦
- Perbandingan Agama (Islam) — ٣٧
- Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha)
- Sadjarah Pendidikan Islam — ٣٩
- Politik dan Ekonomi Dalam Islam — ٤٠
- Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam — ٤١
- Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Maschi — ٤٢
- Perang Salib — ٤٣
- Kurikulum Islam Dalam — ٤٤
- Perkembangan Sedjarah — ٤٥
- Pengajian Al Quraan — ٤٥
- Sedjarah Kehakiman Dalam Islam — ٤٦

Pustaka National
(Singapore)

كتب للمؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الاعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ،
وقصص القرآن للاولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الاجزاء التالية :

المجموعة الاولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

| | | | |
|----|---|--|---|
| ١ | ج | محمد قبل البعثة | الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة |
| ٢ | ج | من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام في مكة) | |
| ٣ | ج | الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات . | |
| ٤ | ج | الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها | |
| ٥ | ج | الرسول الداعية ومربي الدعاة | |
| ٦ | ج | (١) الرسول في بيته : زوجات الرسول — اسباب تعذد الزوجات | |
| ٧ | ج | (٢) الرسول في بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجها — الحجاب — اولاد الرسول — احفاده — خدمه | |
| ٨ | ج | الرسول بين اصحابه — الرسول يربي الفرد المسلم — الرسول يربي المجتمع الاسلامي . | |
| ٩ | ج | الرسول يربي القضاة ، ويربي القوة العسكرية ، ويربي الولاة والحكام | |
| ١٠ | ج | الرسول ونشيب — الرسول والعمل | |
| ١١ | ج | توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون | |
| ١٢ | ج | الرسول والنصارى — الرسول واليهود | |
| ١٣ | ج | الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — اهم أحداث غزوة بدر | |
| ١٤ | ج | غزوة احد والهزيمة التي اخافت المنتصر — غزوة الاحزاب وكلمة عن سلمان الفارسي | |
| ١٥ | ج | صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم . | |
| ١٦ | ج | فتح مكة — غزوة حنين واللائف — غزوة تبوك — الفترة الاخيرة في حياة الرسول | |

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ أجزاء)

- ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر بالي الدولة
الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة في عهده
ج ٢٠ (٤) علي بن أبي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي
واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن أبي وقاص (٨) أبو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء)

- ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحي — نزول القرآن
وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل
القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم
التطريب في أدائه والتكسب به
ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التي جاء بها لخير الناس في الدنيا
والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات
الرسول والمقارنة بينها .
ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغي للقرآن — وجوه الاعجاز في
القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار
في القرآن : أسرار وأعجازه .

ج ٣٤ و ٣٥ الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم

جميع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها
شرحاً مبسراً .

(الترتيب مؤقت ، وفي الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان
رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

- ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن قصة أصحاب الكهف ..
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنين — قصة ذي القرنين وبابو
ومأجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزيز — قصة أيوب عليه السلام
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٢٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :

(٥ اجزاء)

ج ٣٦ تاريخ الدولة الاموية : الانحراف في تدوينه ومحاولة انصافه
معاوية الخليفة الأموي الأول : عام الجماعة — الدهاء —
الاصلاحات الداخلية — التوسع .

ج ٣٧ عبد الملك بن مروان :
احد فتناء المدينة الاربعة .
البطولة — السياسة — الاصلاحات الداخلية — التوسع

ج ٣٨ نموذجان غريدان متعاصران :
الوليد بن عبد الملك .
عمر بن عبد العزيز .

ج ٣٩ التوسع العظيم في العهد الأموي واهم ميادينه .
ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع .
قصة استشهاد الامام الحسين .

المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ اجزاء) كالاتي :

ج ٤١ جزء عن « من شهداء الاسلام » : حمزة بن عبد المطلب —
جعفر بن ابي طالب — عمار بن ياسر — عمر المختار
ومحاكمته .

ج ٤٢ و

ج ٤٣ و ٤٤ ثلاثة اجزاء في مجلد واحد عن :

الهجمات الصليبية : على العالم الاسلامي من مطلع الاسلام
حتى الآن .

ج ٤٥ و ٤٦ جزءان في مجلد واحد عن :

شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .
انتصارات المسلمين في شهور رمضان على : قريش —
الروم — الفرس — القوط — الصليبيين — المغول —
الصهاينة .

المجموعة السابعة : الاسلام والمرأة (٤ اجزاء) :

ج ٤٧ حالة المرأة قبل الاسلام في الحضارات المختلفة .

ج ٤٨ ماذا قدم الاسلام للمرأة .

ج ٤٩ نماذج من السيدات المسلمات في مجال السياسة والعلوم .

ج ٥٠ زيجات شهيرة في التاريخ الاسلامي (بوران — قطر الندى) .

(الاجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

(لم تدخل اعداد المكتبة الاسلامية ضمن العدد الخاص بكتب المؤلف)

محتويات الكتاب

| الصفحة | الموضوع |
|--------|------------------|
| ١٧ | مقدمة مهمة |

مصر وسوريا

في عهد الولاة : من الفتح حتى سنة ٢٥٤ هـ = ٨٦٨ م

تقديم :

الفتح الاسلامي لمصر وسوريا ٢٧ — سنياء طريق
الزحف العربي ٢٨ — أهم آثار سنياء ٢٩ — العرب
في مصر وسوريا ٣٠ — نصوص من البردي تصف الفتح
الاسلامي لمصر ٣١ — ولاية مصر قبل الطولونيين ٣٢ —
تعريف بأشهر هؤلاء الولاة ٣٤ — الاسلام في بلاد
النوبة ٣٥ .
ولاية سوريا قبل الطولونيين وتعريف بأشهرهم ٤٠ .

أشهر الأحداث في عهد الولاة :

| | |
|----|--|
| ٤٢ | مكتبة الاسكندرية وموضوع حرقها |
| ٤٧ | انتشار الاسلام في سوريا ومصر |
| ٥١ | من هم أحفاد الفراعنة ؟ |
| ٥٤ | انتشار اللغة العربية |
| ٥٧ | نظم الحكم في عهد الولاة |
| ٦٣ | الحركات بمصر وسوريا حتى العهد الطولوني |

حضارة مصر في عهد الولاة والمدرسة الإسلامية المبكرة :

العلوم الاسلامية ٧٠ — علوم اللغة والأخبار ٧١ —
التصوف ٧٢ — دراسات في العلوم ٧٣ — نشاط في المجال
الاقتصادي ٧٣ .

| | |
|----|---------------------------------|
| ٧٤ | حضارة سوريا في عهد الولاة |
| ٧٧ | عواصم مصر في عهد الولاة |
| ٨٠ | آثار عصر الولاة |

الدولة الطولونية

| | |
|-----|---|
| ٨٥ | الحركات الاستقلالية بمصر |
| ٨٧ | تعريف بالدولة الطولونية |
| ٨٨ | تعريف بأمراء الطولونيين |
| ٨٨ | أحمد بن طولون وخطواته للسلطة وصعوبات في طريقه |
| ٩٢ | الأمراء الطولونيين بعد أحمد |
| | نشاط القرامطة بسوريا ٩٤ — علاقة الطولونيين بالخلافة العباسية ٩٥ . |
| ٩٨ | حضارة الطولونيين |
| ١٠١ | بين عهدى الطولونيين والاختشيديين |
| ١٠١ | عودة الاتجاه الاستقلالى |
| ١٠٢ | حالات الفاطميين على مصر |
| ١٠٢ | آثار مصر في العهد الطولونى |

الدولة الاختشيدية

| | |
|-----|----------------------------------|
| ١٠٧ | تعريف بالدولة الاختشيدية |
| ١٠٨ | تعريف بالحكام الاختشيديين |
| ١٠٩ | علاقة الاختشيد بالخلافة العباسية |
| ١١١ | بعد الاختشيد : كافور |
| ١١٣ | بعد كافور |
| ١١٤ | حضارة الاختشيديين |
| ١١٥ | المتنبى وصلته بكافور |
| ١١٧ | الحمدانيون في شمالى سوريا |
| ١١٨ | العلم والفكر في بلاط سيف الدولة |

الدولة الفاطمية

| | |
|-----|----------------------------|
| ١٢٣ | نسب الفاطميين وقيام دولتهم |
| ١٢٤ | جوهر يمهّد لاستقبال المعز |
| ١٢٦ | جوهر والدعوة الشيعية |
| ١٢٨ | المعز لدين الله في مصر |
| ١٢٩ | المعز يز بالله |

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| الحاكم بأمر الله ودراسة شاملة عن حياته ونهايته | ١٣٢ |
| نهاية أخته ست الملك ١٤٣ — الدرزية ١٤٣ — التشابه بين العقيدة الدرزية والمسيحية ١٤٧ — بعض التشريعات الدرزية ١٤٧ . | |
| الظاهر بن الحاكم | ١٤٩ |
| المستنصر وبشكلات عصره | ١٤٩ |
| باقي خلفاء الفاطميين | ١٥٤ |
| عصر نفوذ الوزراء : | |
| بدر الجمالي ١٥٧ — الأفضل بن بدر ١٥٨ — الملمون البطائحي ١٥٩ — أحمد بن الأفضل ١٦٠ — بهرام الأرمي ١٦٠ — رضوان بن البلخشي ١٦٠ — ابن السلار وابن مصلح ١٦١ — شساور وضرغام ١٦٢ . | |
| أسباب سقوط الخلافة الفاطمية | ١٦٢ |
| سوريا والحكم الفاطمي | ١٦٤ |
| الفاطميون ونشاط القرامطة بسوريا | ١٦٥ |
| مصر تقضي على القرامطة | ١٦٦ |
| انحسار ملك الفاطميين بسوريا | ١٦٦ |
| أورداسيون بحلب | ١٦٧ |
| البوريون بدمشق | ١٦٨ |
| أنايكة الموصل | ١٦٩ |
| الدور الثقافي لملكة نور الدين زنكي بالشام | ١٧٠ |
| انحصار الفاطمية بمصر وسوريا : | |
| الأزهر الشريف ١٧٢ — مجالس القصر ومجالس الدعوة ١٧٢ — علماء في الفلك والصيدلة والطب ١٧٢ — مؤرخون ١٧٣ — شعراء ١٧٤ — المعرى : شاعر سوريا الفيلسوف ١٧٤ — الهندسة والعمارة ١٧٥ — الزخرفة الإسلامية ١٧٥ — البحرية والترسانة ١٧٨ — صناعات مدنية ١٧٨ — صناعات معادن ١٧٩ — أهم آثار الفاطميين ١٧٩ . | |

الدولة الأيوبية

| | |
|-----|--|
| ١٨٥ | أصل الأيوبيين |
| ١٨٧ | الأيوبيون في مصر |
| ١٨٩ | صلاح الدين يمكن لسلطانه |
| ١٩٢ | بين صلاح الدين ونور الدين |
| ١٩٧ | صلاح الدين يوسع مملكته |
| ١٩٨ | رجال صلاح الدين |
| ٢٠٠ | شخصية صلاح الدين |
| ٢٠٢ | خلفاء صلاح الدين |
| ٢٠٩ | كلمة ختامية عن الدولة الأيوبية |
| ٢١٠ | آثار مصر في العهد الأيوبي |

المماليك

| | |
|-----|---|
| ٢١٥ | ملوك أو رقيق ؟؟ |
| ٢١٩ | مصريون ؟؟ |
| ٢٢٢ | ديكتاتورية المماليك ؟ |
| ٢٢٢ | المهام التي قام بها المماليك |
| ٢٢٤ | عيوب المماليك |
| ٢٢٥ | عصر المماليك في العالم |
| ٢٢٥ | جنسيات المماليك وطريقة تربيتهم |
| ٢٢٦ | مماليك مصر نوعان |
| ٢٣١ | السلطة من الأيوبيين للمماليك |
| ٢٣١ | شجرة الدر |
| ٢٣٤ | تولية السلطة واساليبها عند المماليك |
| | تعريف بأشهر السلاطين : |

الظاهر بيبرس ٢٣٥ — قلاوون ٢٣٧ — الناصر ٢٣٩ .

| | |
|-----|---|
| ٢٤٤ | الخلافة العباسية بمصر في عهد المماليك |
| ٢٤٥ | المماليك والتتار |
| ٢٤٨ | عين جالوت |
| ٢٥٢ | المماليك والصليبيون |
| ٢٥٣ | المماليك وبلاد النوبة |
| ٢٦٠ | استيلاء المماليك على قبرص وتهديد رودس |

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| كشف طريق راس الرجاء الصالح وأثره | ٢٦١ |
| نهاية حكم المماليك | ٢٦٥ |

حاضرة مصر في عهد المماليك :

التجارة والمال ٢٦٧ — الاقطاع ٢٦٨ — الصناعة ٢٧٠ —
الطبقات ٢٧٠ — الآثار والمنشآت ٢٧١ — العلوم
والعسارف ٢٧٤ — علماء من صفوف المماليك ٢٧٧ .

مصر وسوريا

من الفتح العثماني حتى العهد الحاضر

| | |
|---------------------------------------|-----|
| الخلاف بين المماليك والعثمانيين | ٢٨١ |
| نظام الحكم العثماني بمصر وسوريا | ٢٨٤ |
| تاريخ مصر وتاريخ سوريا | ٢٨٨ |

تاريخ مصر من الفتح العثماني

| | |
|-----------------------------------|-----|
| تقديم عن فترات هذه الحقبة : | ٢٩١ |
| ١ — الفترة العثمانية | ٢٩٤ |

أشهر الولاية في هذه الفترة ٢٩٧ — أشهر المماليك في هذه
الفترة ٣٠٠ — أشهر الأحداث ٣٠٤ .

٢ — الفترة المملوكية :

لمأذا سميت مملوكية ٣٠٦ — على بك الكبير ٣٠٧ —
من أبى الذهب الى الحملة الفرنسية ٣١٠ .

الحملة الفرنسية :

سمر الحملة وانتصاراتها الأولى ٣١٤ — محمد كريم ونضاله
ونهايته ٣١٤ — سياسة نابليون في مصر ٣١٧ .

مقاومة الحملة وجوانب المقاومة : ١ — المماليك وحسب
العصابات ٣١٨ — ٢ — موقعة أبى قير البحرية ٣١٩ —
٣ — ثورة القاهرة الأولى ٣٢٠ — (الخائن يعقوب غام
واللواء القبطى ٣٢٣) ٤ — تركيا والحملة الفرنسية
٣٢٤ — عودة نابليون ونهاية الحملة ٣٢٥ — الانقضاء
المصريون يعانون من الاستعمار الغربى ٣٣٤ — مصر
بعد الحملة الفرنسية ٣٣٦ — بروز القوة المصرية ٣٣٧ .

| | |
|-----|---|
| ٢٤١ | مصر مركزا للدراسات الإسلامية في عصر الجبرتي |
| | ملاح عصر الجبرتي ٢٤٢ — المراكز الثقافية بمصر في |
| | عصر الجبرتي ٢٤٥ — الأزهر ٢٤٥ — المدارس ٢٤٦ — |
| | المساجد ٢٤٨ — الزوايا ٣٥٠ — المنازل ٣٥٢ — أسس |
| | تهتم بالعلم جيلا بعد جيل ٣٥٤ — العلماء الوافدون ٣٥٦ — |
| | مواقف سياسية وعسكرية للتسيوڭ ٣٦٧ — المكانة |
| | الاجتماعية للعلماء ٣٧٢ — علماء في الدراسات الإسلامية |
| | برزوا في الآداب والعلوم والفنون ٣٧٤ — ملاح أخرى |
| | عن علماء عصر الجبرتي ٣٧٩ . |

٢ — الفترة الاستقلالية :

| | |
|--|---|
| | (من محمد على الى الاحتلال البريطاني) ٣٨٤ — محمد |
| | على ٣٨٤ — الزيف في تدوين تاريخ هذه الحقبة ٣٨٥ — |
| | كتابة تاريخ هذه الحقبة من جديد ٣٨٧ . |
| | محمد على والطريق للرئاسة ٣٨٨ — مشكلات في طريق |
| | الوالي الجديد ٣٨٩ — محمد على وبناء الدولة الحديثة |
| | ٣٩١ — الجيش والاسطول ٣٩١ — التعليم والنهضة |
| | الفكرية ٣٩٣ — ملكية الأرض ٣٩٤ — الاقتصاد ٣٩٥ . |

حروب محمد على :

| | |
|--|---|
| | منبهة الممالك ٤٠٠ — الحرب مع السعوديين ٤٠١ — |
| | حرب السودان ٤٠٢ — حرب اليونان ٤٠٥ — حروب |
| | الشام والآناضول ٤٠٦ — معاهدة كوتاهية ٤٠٧ — |
| | بوقعة نصيبين وانحجار جيش الترك ٤٠٧ — تدخل اوربا |
| | ومعاهدة لندن ٤٠٨ . |

| | |
|-----|---------------------|
| ٤٠٨ | نهاية محمد على |
| ٤٠٨ | محمد على في الميزان |
| ٤١٠ | ابراهيم وعباس |
| ٤١١ | سعيد |
| ٤١٢ | الخبير اسماعيل |

| | |
|--|--|
| | عهد اسماعيل وقائمة منجزاته ٤١٣ — شخصية مصر |
| | الدولية ٤١٦ — توسع وامتداد ٤١٨ — خيانة أمريكية |
| | لمصر ٤٢٠ — تطور ثقافي واجتماعي واصلاحات داخلية |

الصفحة

الموضوع

- ٤٢١ — إلغاء السخرة ٤٢١ — نصف الحكام مصريون
 ٤٢٢ — المدارس والمعاهد والكليات ٤٢٢ — دار العلوم
 ٤٢٣ ، اصلاحات اسماعيل القضائية ٤٢٩ — من سلطة
 الفرد الى سلطة الجماعة ٤٣١ .
 عيوب اسماعيل ٤٤١ — الديون وعزل اسماعيل ٤٤٣ —
 اسماعيل في الميزان ٤٤٥ — اسماعيل والتاريخ ٤٤٥ .
 ٤٤٧ جمال الدين الأفغانى
 ملامح شخصيته واماخذ عليه ٥٠ — زعامات مصرية
 سبقت الأفغانى وعاصراته ٥٥ — ضعف كتابه
 الأفغانى ٥٦ .
 ٤٥٨ الامام محمد عبده
 الأزهر ومشكلاته ٥٩ — مع الأفغانى وهل كان هذا استفاداً
 للامام ؟ ٦١ — محمد عبده المدرس والصحفى والسياسى
 والقاضى ٦٢ — مؤلفات الامام ٦٦ — منهجه الاصلاحى
 ٦٦ — مآخذ ومناقشتها ٦٧ .
 { — فترة تعدد السلطات :
 الخديوى توفيق ٧٠ — ثلاثى ردىء ٧٠ .
 الثورة العربية والاحتلال ٧١ — عرابى فى الميزان ٧٣ —
 فى أعقاب الاحتلال ٧٧ — تعدد السلطات ٧٧ — ثورة
 المهدي واخلاء السودان ٧٩ — نهاية توفيق ٨٣ .
 ٤٨٣ عباس حلمى (الثانى)
 مصطفى كامل وماساة دنشواى ٨٤ — عزل الخديوى
 ٨٦ .
 ٤٨٧ أسرة محمد على وانشاء جامعة القاهرة
 ٤٩٠ هـ — فترة الصراع
 الحرب العالمية الاولى واثرها على مصر ٩١ — سلاطين
 مصر وملوكها فى هذه الفترة ٩٣ .
 ٤٩٣ السلطان حسين كامل
 ٤٩٤ السلطان فؤاد والملك فاروق
 الحركة القومية وثورة ١٩١٩ : ٩٥ — تصريح ٢٨

الصفحة

الموضوع

- فبراير ١٩٩٩ — الملك والدستور ٥٠٠ — الملك والشعب
٥٠١ — إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحريق القاهرة ٥٠٥ .
العلاقات بين بريطانيا ومصر ٥٠٧ — الحرب العالمية
الثانية وأثرها على العلاقات ٥٠٨ — الجبهة الوطنية ٥١٠ .
الأحزاب ودراسات عنها في عهد الملكية ٥١٣ .
حدث ٤ فبراير وتحقيقه ٥١٦ .
- ٥٢٢ سعد زغلول وصراعه مع الملك والإنجليز
٥٢٧ الزعيم مصطفى النحاس وجهوده وموقف ثورة ٢٣ يوليو منه
٥٣٢ حالة مصر الاجتماعية والاقتصادية في عهد الاستقلال

٦ — فترة الاستقلال التام :

- من ثورة ١٩٥٢ الى الآن ٥٣٥ .
المؤرخ المعاصر وتدوين التاريخ ٥٣٨ .
ثورة ٢٣ يوليو وأسبيلها ٥٤٠ — عهد محمد نجيب ٥٤١ —
القبض على الرئيس محمد نجيب وهو يؤدي عمله
بعابدين ٥٤٢ .

عهد عبد الناصر : عهد المظالم والهزائم والضياع وأهم أحداثه :

- قانون الإصلاح الزراعي ومآسيه ٥٤٥ — قانون اجازات
المساكن ونتائجه ٥٤٦ — الوحدة مع سوريا وفشلها ٥٤٧ —
الاشتراكية التي افقرت الأغنياء واجاعت الفقراء ٥٤٨ —
حرب اليمن وضياع رصيد العملة ٥٤٨ — حرب ١٩٦٧ .
وانهيار جيش عبد الناصر في دقائق ٥٩٩ — أسيرة
عبد الناصر وثوراؤها ٥٥٠ — الانغلاق والانفتاح ٥٥٠ —
التوقف بالاضافة الى المظالم والهزائم ٥٥١ — شيء
كان يراد بالاسلام ٥٥٢ — احتلال اسرائيل لسيناء ٥٥٣ .
- ٥٥٤ مشكلة الملاحة بخليج العقبة
٥٥٩ كلمة عن سيناء في الماضي والحاضر
- دير سانت كاترين والمسجد الفاطمي ٥٦٤ — قرية ياميت
والعنت الاسرائيلي ٥٦٨ — طابا ٥٧١ .

عهد أنور السادات :

- السادات في الطريق للسلطة ٥٧٣ — مرتبات ومخصصات

الصفحة

الموضوع

| | |
|-----|---|
| | لاسرة عبد الناصر بيون ضرائب ثم لاسرة السادات ٥٧٥ — |
| | مصر اقتصاديا في مطلع عهد السادات ٥٧٦ . |
| | حركة مايو وثورة التصحيح ٥٧٧ — معالم عصر السادات |
| | (من سنة ١٩٧١ الى سنة ١٩٨١) ٥٧٨ — الحيدة في |
| | كتلة التاريخ ٥٨١ . |
| ٥٨٢ | ثورة ٢٣ يوليو في الميزان (كما يراها المفكرون) |
| | من هرب الملايين ؟ ٥٩٠ — الضعفاء وشيخ عبد الناصر |
| | ٥٩٠ — نقاش حول القصور والحدائق ٥٩١ — ماذا |
| | عن محاسن الثورة ؟ ٥٩٢ . |
| | عهد محمد حسنى مبارك : |
| | منجزات في عهد حسنى مبارك ٥٩٦ — آمال يتطلع الشعب |
| | لها ٥٩٧ — قرارات ضرورية مطلوبة ٥٩٩ . |
| | أحداث خطيرة في عهد حسنى مبارك : |
| ٦٠٤ | ١ — سفينة وطائرة |
| ٦٠٥ | ٢ — طائرة مصرية وفخ لىي |
| ٦١٤ | ٣ — أحداث الأمن المركزى |
| ٦١٧ | ٤ — الأزمة الاقتصادية وتسديد الديون |
| | ٥ — الأحزاب في عهد السادات ومبارك : |
| | مقدمة ٦٢٢ — السادات والمنابر للأحزاب ٦٢٢ — |
| | السادات يعين رؤساء الأحزاب ٦٢٣ — مبارك والأحزاب |
| | ٦٢٤ . |
| ٦٢٥ | الرئيس مبارك بين اهتماماته وآمالنا فيه |
| ٦٢٦ | البلاد التى سبقتنا فى الانتاج وكانت خلفنا |
| | منشآت حديثة بمصر |
| ٦٢٨ | منشآت القرن التاسع عشر |
| ٦٢٨ | منشآت القرن العشرين |
| ٦٢٩ | منشآت عهد السادات |
| ٦٢٩ | منشآت عهد حسنى مبارك |

الصفحة

الموضوع

مصر والحضارة الإسلامية

| | |
|-----|---|
| ٦٣١ | تراجع بغداد وتقدم مصر |
| ٦٣٢ | مصر عندما زحف الصليبيون على سوريا |
| ٦٣٢ | مصر عندما زحف القطار على الجناح الشرقى |
| ٦٣٥ | مصر عندما زحف الفرنجة على الجناح الغربى |

وفود العلماء من كل الجهات الى مصر :

| | |
|-----|--|
| ٦٣٦ | علماء من الشرق (ايران والعراق) |
| ٦٣٧ | علماء من الغرب (الأندلس والمغرب) |
| ٦٤٠ | علماء من الشام |
| ٦٤٢ | جهود مصر في العصر الحديث |

تاريخ سوريا من الفتح العثماني

| | |
|-----|--|
| ٦٤٥ | تقديم عن فترات هذه التاريخ |
| ٦٤٦ | ١ — الفترة العثمانية (١٥١٦ — ١٩١٨ م) |
| | الولاية ٦٤٦ — تقسيم سوريا ومشكلة لبنان ٦٤٧ — |
| | التقسيم بسوريا بعيد الجذور ٦٤٧ — لبنان وجماعات |
| | الجبيل ٦٤٨ — حمايات غربية للطوائف في لبنان ٦٤٩ — |
| | صراع الموارنة والدروز ٦٥٠ — تقسيم لبنان ٦٥١ — |
| | الحكم الذاتى في لبنان ٦٥٣ . |
| ٦٥٣ | لبنان تنفزع من سوريا وتصبح دولة مستقلة |
| ٦٥٤ | وفلسطين تنفزع من سوريا أيضا |
| ٦٥٤ | وقصة المملكة الأردنية |
| ٦٥٥ | اسرائيل أيضا جزء من فلسطين |
| ٦٥٦ | محاولات أخرى لتقسيم باقى سوريا |

اشهر الامراء والولاة :

| | |
|-----|---|
| ٦٥٧ | جان بردى غزالى — فخر الدين المعنى الاول ٦٥٨ — |
| ٦٥٨ | فخر الدين المعنى الثانى — أمراء من أسرة العظم |
| ٦٦١ | ٦٦١ — بشر الشهابى ٦٦١ — ظاهر العمر ٦٦٣ — |
| ٦٦٤ | احمد الجزار ٦٦٤ . |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---|
| ٦٦٥ | حضارة سوريا في العهد العثماني وأثرها في الحياة العربية |
| ٦٦٧ | ٢ — فترة الاحتلال الأوربي (١٩١٨ — ١٩٤٦ م) القوى التي تنازعت السلطان في سوريا : فرنسا — |
| ٦٦٧ | انجلترا — النفوذ الصهيوني — الأشراف |
| ٦٦٨ | الامبراطورية العثمانية وعلاقتها بالدول العربية |
| | ٣ — فترة الاستقلال (١٩٤٦ حتى الآن) : |
| | سوريا ٦٧٩ — الوحدة مع مصر ثم الانفصال والانتخابات |
| | ٦٨٠ — لبنان ورؤساؤه من أول الاستقلال حتى الآن |
| | ٦٨٣ — الأديان والطوائف في لبنان ٦٨٤ — الحرية |
| | الثقافية بلبنان وأخطارها ٦٨٥ . |
| ٦٨٦ | الحرب الأهلية في لبنان : بدؤها وتطورها |
| ٦٨٨ | سوريا تدخل لبنان ، واسرائيل ، وأمريكا |
| ٦٩٠ | اسرائيل ومجزرة صبرا وشاتيلا وعين الحلوة |
| ٦٩٣ | عملية فدائية ضد الولايات المتحدة |
| ٦٩٤ | مواكب الشهداء ضد اسرائيل |
| ٦٩٦ | المملكة الأردنية الهاشمية في هذه الفترة |
| ٦٩٧ | فلسطين في هذه الفترة |
| | تركيب المجتمع السوري : |
| | من ناحية الأجناس واللغات والأديان والمذاهب ٧٠٧ — |
| | الجعفرية ، من هم ؟ ٧١٠ — العلويون أو النصيرية ٧١١ . |
| | الحروب الصليبية |
| | دوافعها — أنوارها — نتائجها |
| | أسباب الحروب الصليبية : |
| ٧١٥ | ١ — الأسباب التاريخية |
| ٧١٦ | ٢ — أسباب ترتبط بالديانة المسيحية |
| ٧١٨ | ٣ — الأسباب التجارية |
| ٧١٩ | ٤ — أسباب تدخل بالنظام الإقطاعي بأوروبا |
| ٧٢٠ | ٥ — أسباب تتصل بالجبهة الإسلامية |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---|
| ٧٢٤ | ٦ — موقعة ملاذكرد |
| ٧٢٥ | دعوة البابوية للحروب الصليبية |
| ٧٢٨ | الجهاد الاسلامى يواجه الحروب الصليبية |
| ٧٣٠ | مطلع الزحف الصليبي |
| | الحرب الصليبية الأولى بإشراف البابا : |
| | سیر الحملة ٧٣٣ — الأرمن والوارنة يساعدون |
| | الصليبيين ٧٣٣ — القدس تقاوم وتسقط ٧٣٥ — المجازر |
| | والتنكيل ٧٣٥ — أمارات الصليبيين في الشام ٧٣٧ — |
| | عوامل ضعف صليبي عقب انتصار الصليبيين ٧٤٠ . |
| | الجهاد بين الحرب الصليبية الأولى والثانية : |
| | جهاد عماد الدين زنكى ونتائجه ٧٤١ — جهود علماء |
| | المسلمين ٧٤٢ — استعادة الرملة والرها ٧٤٣ — |
| | غارات مصرية متصلة على الصليبيين ٧٤٣ . |
| | الحرب الصليبية الثانية : |
| | بقيادة ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا ٧٤٥ — فشل |
| | الحملة ٧٤٥ . |
| | الجهاد بين الحرب الصليبية الثانية والثالثة : |
| ٧٤٦ | جهود نور الدين زنكى |
| | صلاح الدين الأيوبي وعصره : |
| | جهود صلاح الدين قبل موقعة حطين ٧٤٩ — موقعة |
| | حطين ووصفها ٧٥١ — بعد موقعة حطين ٧٥٥ — تحرير |
| | بيت المقدس ٧٥٦ . |
| | الحرب الصليبية الثالثة : حرب الملوك الكبار : |
| | مقارنة بين الحرب الصليبية الأولى والثالثة ٧٦٠ — ضرائب |
| | باسم الحروب الصليبية ٧٦٠ — صراع حول عكا وسقوطها |
| | ٧٦٢ — صلح الرملة ٧٦٣ — نهاية صلاح الدين ٧٦٣ . |
| ٧٦٤ | بين الحرب الصليبية الثالثة والرابعة |
| ٧٦٥ | الملك العادل يقود معسكر المسلمين |

الصفحة

الموضوع

الحرب الصليبية الرابعة :

- ٧٦٦ .. اتجاه الصليبيين ضد القسطنطينية والاستيلاء عليها ..
٧٦٨ بين الحرب الصليبية الرابعة والخامسة (زحف الأطفال ونهائيتهم)
الحرب الصليبية الخامسة :

- ٧٦٩ اتجاه الحروب الصليبية ضد مصر ..
الحرب الصليبية السادسة :

- ٧٧٢ اتفاقية يافا والتنازل عن بيت المقدس ..
بين الحرب الصليبية السادسة والسابعة :

- ٧٧٤ صراعات داخلية ..
٧٧٦ الصالح اسماعيل يستولى على بيت المقدس ..
٧٧٦ الصالح اسماعيل يعيد بيت المقدس للصليبيين ..
٧٧٧ الخوارزمية يستعيدون بيت المقدس نهائيا ..
٧٧٧ حطين الثانية وتدمير الصليبيين والخوارزمية ..

الحرب الصليبية السابعة (لويس التاسع) :

- لويس التاسع في دمياط ٧٧٩ — وفي ضواحي المنصورة
٧٨٠ — معركة عنيفة بالمنصورة ٧٨٠ — توران شاه يقود
المعركة ٧٨١ — الاستسلام واسر الملك وصحبه ٧٨٢ .

الحروب الصليبية تقرب من نهايتها :

- الظاهر بيبرس وجهوده ٧٨٥ — قلاوون ٧٨٩ — الأشرف
خليل ونهاية الصليبيين ٧٩٠ — ملاحقة الصليبيين خارج
الحدود ٧٩١ .

اسباب فشل الحروب الصليبية :

- الكنيسة ٧٩٣ — امراء الاقطاع ٧٩٣ — الاكتفاء بزحف
القتار ٧٩٤ — تجمع المسلمين وقت الشدة ٧٩٥ .

نتائج الحروب الصليبية :

- اقتباس الثقافة الاسلامية ٧٩٦ — صك النقود ٧٩٨ —

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| مقارنة عن مدى التبادل الثقافي ٧٩٩ — نواة الاستشراف | |
| ٨٠١ — تحرير رقيق أوروبا ٨٠٢ . | |
| اضرار لحقت بالمسلمين : تدمير مدن اسلامية ٨٠٤ — | |
| الاستعمار ٨٠٥ — عدم التسامح ٨٠٥ . | |
| نماذج لبطولات اسلامية | ٨٠٦ |
| الامبراطورية العثمانية | |
| الأتراك العثمانيون : نشأتهم وتطورهم | ٨١٤ |
| التوسع العثماني في آسيا الصغرى | ٨١٥ |
| النزلة العثمانية تقفز الى أوروبا | ٨١٥ |
| حروب صليبية ضد العثمانيين | ٨١٦ |
| الخطر المغولي يعترض الزحف العثماني | ٨١٧ |
| صراع بين امراء العثمانيين | ٨١٨ |
| عصر القوة : | |
| فتح القسطنطينية ولحلت من تاريخها ٨٢٠ — فتح سوريا | |
| ومصر ٨٢٦ — نشاط سليمان في أوروبا وآسيا ٨٢٧ — | |
| حصار فيينا ٨٢٨ — فتح العراق والصناعات مع الفرس | |
| ٨٢٨ — الشمال الافريقي ٨٢٩ . | |
| دور الضعف ومظاهره | ٨٣٢ |
| حصارة العثمانيين : | |
| مصادرها ٨٣٧ — الحكم المطلق ٨٣٨ — القاب السلطان | |
| ٨٣٩ — ولاية العهد وآثارها القائمة ٨٤٢ — أعوان | |
| السلطان ٨٤٥ — الاقطاع ٨٤٧ — الالتزام ٨٤٨ — تكوين | |
| الجيش ونشأة الانكشارية ٨٤٩ — البحرية العثمانية | |
| ٨٥٣ — الآثار المعمارية ٨٥٤ — اممال المؤسسات | |
| الزراعية والصناعية ٨٥٥ — المؤسسات الدينية | |
| ودوافعها ٨٥٦ . | |
| الخلافة العثمانية في الميزان | |
| حسنت العثمانيين : | |
| ١ — توسعات عسكرية فتحت مجالا للاسلام | ٨٦١ |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| ٨٦٢ | ٢ — الدفاع عن الأرض الإسلامية ضد الزحف الأوربي |
| ٨٦٣ | ٣ — مواجهة الصهيونية |
| ٨٦٤ | ٤ — حماية سيناء من اليهود |
| ٨٦٤ | ٥ — محاربة التشيع |

مأخذ على العثمانيين :

الحكم المطلق ٨٦٦ — غيبة التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية ٨٦٦ — الصراع مع الصوفيون ٨٦٨ — اهمال العرب والدول العربية ٨٦٨ .

ضعف الامبراطورية العثمانية واسبابه :

اتساع الرقعة مع سوء الادارة ٨٧٠ — ضعف السلاطين المتأخرين ٨٧٠ — تعدد الأجناس والاديان ٨٧١ — الزواج من الأوربيات ٨٧١ — انحذار الانتكشارية ٨٧٢ — الرشوة ٨٧٢ — انحلال القصور ٨٧٣ — الحروب الطويلة ٨٧٣ — القروض ٨٧٤ — اهمال مصالح الشعب ٨٧٥ — المسألة الشرقية ٨٧٧ .

| | |
|-----|--|
| ٨٨١ | انهيار الامبراطورية العثمانية ومراحله |
| ٨٨٢ | معارك ومعاهدات مدمرة |
| ٨٨٧ | العثمانيون يخسرون أكثر أملاكهم بأوروبا |
| ٨٨٩ | مواجهات وخسائر في آسيا وأفريقية |
| ٨٩٤ | ظهور مصطفى كمال وانحراف المسيرة |
| ٨٩٦ | مراحل الفناء الخلافة |
| ٨٩٧ | ثورات ضد أتاتورك وقمعها |
| ٧٩٨ | السلطان عبد الحميد الثاني : سيرته وموقفه من الدستور |
| | تركيا الفتاة ٩٠٥ — الجامعة الإسلامية ٩٠٦ — اصلاحاته والراى فيه ٩٠٨ . |
| ٩٠٩ | مدحت باشا : سيرته ونهايته |
| ٩١٢ | جماعة الاتحاد والترقى وديكتاتوريتهم |
| ٩١٣ | الصهيونية والأتحيائيون |

مصطفى كمال :

مهادنته لأوريا وصداقته للصهيونية ٩١٥ — جـنـزوره
اليهودية ٩١٧ — صلته بالماسونية ٩١٧ — سوء صلته
بأسرته واتباعه ٩١٨ — محاولاته لأرضاء الغرب ٩١٨ —
خيانة وطنية ٩٢٠ — مخالفاته للإسلام ٩٢٠ — علمانية
الثولة ٩٢١ — يناهض الإسلام ٩٢٣ .

٩٢٤ خلفاء مصطفى كمال والانقلابات ضدهم

تركيا في العهد الحاضر :

نشاط اسلامي بعد أتاتورك ٩٢٦ — مشكلة الموصل
والاسكندرونة ٩٢٩ — تركيا والمشكلة القبرصية ٩٣٢ —
نظرة الدول الاسلامية للامبراطورية العثمانية ٩٣٥ .

٩٣٩ مراجع البحث

٩٣٩ فهرس الاعلام والاماكن

فهرست الخرائط والصور

| | |
|-----|--|
| ٣٦ | مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط |
| ٧٩ | عوالم مصر الاسلامية |
| ٩٩ | مسجد أحمد بن طولون |
| ١٢٥ | القاهرة الفاطمية |
| ١٢٧ | الجامع الأزهر ومنطقته |
| ١٣٠ | الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها |
| ١٣١ | منارة مسجد الحكم |
| ١٧٦ | باب زويلة وجزء من سور القاهرة القديم |
| ١٧٦ | آثار زخرفية |
| ١٧٧ | آثار زخرفية بالأزهر |
| ١٧٧ | آثار زخرفية بالأزهر |
| ١٨٢ | آثار زخرفية بالأزهر |
| ١٩٨ | اتساع دولة صلاح الدين |
| ٢١١ | قلعة صلاح الدين الأيوبي |
| ٢٣٨ | مسجد قلاوون |
| ٢٤١ | مسجد الرفاعي والسلطان حسن |
| ٢٤٢ | منارة مسجد برقوق |
| ٢٤٢ | منارة مسجد قايتباي |
| ٢٤٣ | قلعة قايتباي بالاسكندرية |
| ٢٤٣ | أبريق من الفضة مطعم بالنحاس (العهد المملوكي) |
| ٢٤٩ | اغارات المغول وموقعة عين جالوت |
| ٢٦٢ | كشف طريق رأس الرجاء الصالح |
| ٣٩٨ | مسجد محمد علي بالقلعة : تحفة فنية رائعة |
| ٣٩٩ | مئذنة مسجد محمد علي بالقلعة |
| ٤٠٤ | اتساع سلطة محمد علي (خريطة) |
| ٥٤٣ | الرئيس محمد نجيب : ساعة القبض عليه وهو يؤدي عمله |

| | |
|-----|--|
| ٥٥٥ | مضيق تيران : مياه عربية إقليمية |
| ٥٦٥ | المسجد الفاطمي داخل سانت كاترين |
| ٥٦٨ | تجمعات مصرية على حدود غزة : تنظر للأرض العربية ولا تدخلها .. |
| ٥٧٠ | اطلال قرية ياميت تنطق بالسخط والاثمناز |
| ٥٧٠ | وثقة حزينة بجوار اطلال قرية ياميت |
| ٥٧١ | اطلال قرية ياميت تذكرنا بقسوة اسرائيل |
| ٥٨٣ | عبد الناصر صانع الهزائم وهو يحاول الهرب من الفكریات |
| ٦١٣ | الطائرة المنكوبة : الكبائن هاتى جلال |
| ٦١٣ | انطائرة المنكوبة : شاحبة سلامة المضيفة الشهيدة |
| ٦٣٣ | القاهرة : مدينة الالف مئنة |
| ٦٣٤ | من معالم القاهرة : خان الخليلى والصناعات اليدوية الدقيقة |
| ٦٦٥ | فى موكب الشهداء ضد اسرائيل : سناء مهيلة |
| ٧٣٩ | الزحف الملبى وتكوين الامارات اللاتينية |
| ٧٥٧ | تقلص ملك الصليبيين فى عهد صلاح الدين |
| ٨٣٠ | الامبراطورية العثمانية فى اقصى اتساعها |

مقدمة مهمة

باسم الله العلي العظيم أقدم هذا الجزء للقارىء العزيز ، ويعتبر هذا الجزء من الكتب التي فرحت بإخراجها فرحاً شديداً ، إنه حديث عن مصر التي ربّيت على أرضها ونشأت بين ناسها ، وتعلمت بما أنفقت من مالها ، ولعلّى أدّعت لها بعض الدّين إذ دونت تاريخها بأمانة وصدق ، مغتبطاً بما تحقّق من أمجاد ، وكاسف البال كلما كبّبت أو استبدّ بها الطامعون .

ويشمل هذا الجزء تاريخ مصر منذ دخلها الاسلام في مطلع الاسلام حتى الآن ، وهو تاريخ حافل لعبت فيه مصر دوراً واسعاً في خدمة الاسلام وأصبحت خلال فترة طويلة جداً مركز الفكر الاسلامي من جانب والقوة الاسلامية من جانب آخر ، ومن طول معاشتي لتاريخ مصر ودورها الحضارى باحثاً وكاتباً ومعلّماً ، انتصحت لى حقيقة مهمة هي :

أن تاريخ مصر يجب أن يكتب من جديد لإيضاح قضايا مهمة أو شكت الحقيقة حولها أن تختفى بسبب أو لآخر مثل :

— الحركات الاستقلالية المبكرة بمصر ودوافعها ونتائجها .

— مصر تقود النشاط الحضارى الإسلامى .

— رد الخطأ الذى يرى أن الطولونيين والاخشيديين والفاطميين والمماليك وأسرة محمد على ليسوا مصريين .

— المماليك المصريون لم يكونوا رقيقاً ، وصفقات بيعهم باطلة .

— رد الزعم الذى يرى أن الحملة الفرنسية أيقظت مصر وكانت لها نتائج حضارية .

— كتابة تاريخ أسرة محمد علي بعيداً عن الزيف والتعصب •

— هل صحيح أن الامام محمد عبده كان تلميذاً للأفغانى ؟

— سيناء : معالمها ومكانها من تاريخ مصر •

— حقيقة ثورة ٢٣ يوليو التى دمرت مصر والمصريين •

— وقضايا أخرى كثيرة ومهمة كان لابد من عرضها ودراستها ،
ويسرنى أننى قمت بذلك كله فى هذه الطبعة الجديدة (الطبعة
السادسة) •

ولاقى عصر الجبرتى عناية هامة فى هذا الجزء استقيتها من التاريخ
الحافل الذى كتبه عن مصر هذا المؤلف الكبير •

ومن مميزات هذا الكتاب أنه يشمل تاريخ مصر ودورها الحضارى
من مطلع الاسلام حتى الآن ، وهو — مع التحقيقات والتصحيحات
السابقة — مالم يجمعه سلف من قبل •

وقد امتد الحديث فيه حتى شمل عدة سنوات من حكم محمد حسنى
مبارك حتى سنة ١٩٨٦ •

ومن مميزات هذه الطبعة أن أوردت بها دراسة عن آثار مصر مرتبطة
بفترات تاريخها ، ولم يكن المؤرخون من قبل يهتمون بالآثار اهتماماً كافياً •

وفى هذا الجزء حديث عن سوريا الحبيبة (١) ، وهى شقيقة لبلادى
على مر التاريخ ، وقلب الوطن العربى الخفاق ، فى دمشق الشامخة ،

(١) سوريا التى نعيشها هنا هى التى انفردت عقدها فأصبحت سوريا —
لبنان — المملكة الاردنية الهاشمية — فلسطين (بما فى ذلك المنطقة التى
استولى عليها الضهاينة) • •

والغزوة الفيحاء أقدم هذا التاريخ الذي دُوِّن بإحساس طيب ولكن بصدق بالغ ، وقد أضفت لتاريخ سوريا كثيرا من المعلومات الجديدة على نحو ما فعلت مع مصر .

وسيمتد حديثنا عن سوريا حتى العصر الحاضر لنرى إسرائيل تعربد ضد لبنان وفلسطين ، وترتكب جرائم وصل من عنفها أن أدانها الإسرائيليون أنفسهم ، وسنرى كذلك دراسات عن الدروز والنصيرية .

وفي هذا الجزء حديث عن الحروب الصليبية ، وعن صراع الوطن العربي والوطن الاسلامي ضد الصليبيين الطامعين ، الذين يتسبون أنفسهم ظلما إلى دين السيد المسيح وهو منهم براء ، وإذا كنت لم أحضر بنفسى هذه المعارك ، فقد حضرتها بفكرى ، واستوعبتها ، ودونتها بدقة وإيجاز متخذا من الماضى عبرة للحاضر والمستقبل ، وراسما للجيل الحاضر الطريق الذى سلكه أجدادهم ، فأبعدوا عن أرضنا الطيبة أقدام الفاتحين .

وفي هذا الجزء كذلك حديث عن الامبراطورية العثمانية ، وكانت مدى عدة قرون تمثل الاسلام والمسلمين ، ولها من الحسنات والمساوئ ما يدفعنا الى التعرف عليها وعلى تاريخها الذى ارتبط بتاريخ العرب حوالى أربعة قرون .

ونحن بهذا الجزء نحقق خطوة جديدة ومهمة فى خططنا التى رسمناها ، فنستكمل دراسة قطاع جغرافى أو منطقة من أبرز مناطق العالم الاسلامى ، وهى مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى الآن ، والامبراطورية العثمانية منذ نشأتها حتى العهد الحاضر ، مع الحديث عن الحضارات التى قامت بهذه الأقطار على مر القرون ، وقد أفردنا الحروب الصليبية بحديث لأنها كانت طعنة موجهة الى العالم الاسلامى بأسره ، ثم إن أفرادها بحديث كان تنفيذنا لخططنا التى قررناها فى مقدمة الجزء الأول من هذه المسوعة ،

بأن نخصّ الموضوعات ذات الشأن في التاريخ الاسلامى بعناية خاصة ،
وأن ندرسها مجتمعة ، ليكون ذلك أقرب الى تناولها وفهمها •

وتشمل هذه الطبعة تصوير الأحداث في فلسطين ، واقتحام اسرائيل
أرض لبنان ، والصراع المرير في هذه المنطقة الحبيبة •

وبعد الجزء الخامس صدر الجزء السادس ، وهو خاص بالإسلام
والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقيا منذ دخلها الإسلام حتى الآن ،
وهو مجلد كبير الحجم ، دقيق التخطيط ، كثير المراجع ، أزال الغموض
والخس عن تاريخ هذه المنطقة وعمره بالضوء •

وصدر كذلك الجزء السابع ، وهو يشمل التاريخ الاسلامى لدول
الجزيرة العربية والعراق •

ثم ظهر الجزء الثامن : ويشمل التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية
غير العربية بآسيا •

إيران — أفغانستان — الباكستان — بنجالادش — ماليزيا —
إندونيسيا ، كما يشمل تاريخ الأقليات الاسلامية بالهند والصين والاتحاد
السوفييتى والفيلبين •

كما ظهر الجزء التاسع الذى يشمل تاريخ فترة كالحة في حياة مصر
هى فترة الحكم العسكرى الظالم إبان عهد عبد الناصر •

وأوشك أن يظهر الجزء العاشر الذى يشمل تاريخ عهد أنور السادات
بما به من نجاح وفشل •

وإذ أعزّ الله معى أيها القارىء الكريم أن يمدّنا بعونه وتوفيقه
لنصل إلى الغاية التى رسمناها ، أما أنا فأعِدُّ أن أبذل أقصى الجهد

للوصول الى هذه الغاية ، مضحيا بكل ما يستلزمه هذا العمل الكبير من جهد مادى وأدبى .

* * *

ومن الواضح أن هذا الجزء جولة طويلة في أخطر منطقة في العالم الاسلامى ، تدارسنا خلالها عددا من الدول ، وطوبنا عددا من القرون ، وقد استدعى ذلك مراجع جمة متسلسلة ، واستدعى متابعة الأحداث في العصر الحديث والرجوع الى الوثائق والصحف بعناية ومثابرة .

وهناك شئ عاتيناه بصعوبة في هذا الجزء بوجه خاص ، ذلك هو اختصار الاحداث الضخمة في هذا الحيّز المحدود من الورق ، وكانت أمامنا موضوعات واسعة ذات مراجع متعددة يمكن أن تكتب في مجلدات كثيرة ، ولكن كان أمامنا التخطيط الذى رسمناه منذ بدأنا هذه الموسوعة ، والذى يقضى بإيجاز القول دون اخلال ، لنضمن بذلك كتابة التساريخ الاسلامى كله في هذه الأجزاء العشرة ، ولكن بدون أن نغفل أى حدث ذى بال ، وقد كنت أترك الإيجاز كلما طرقتُ بابَ موضوع مهم ، فكنت أصوره تصويرا دقيقا ، وأعلق عليه بإفاضة .

* * *

وهناك صعوبة دقيقة للغاية في التأريخ للحياة المعاصرة ، جعلت أكثر المؤرخين يتحاشون التأريخ لهذه الفترة ، حتى لا يقع الواحد منهم تحت تأثير رغبة أو رهبة ، ثم لأن الصورة لا تكتمل عن الحاكم أو المسئول وهو لا يزال في معركة الحياة ، فقد يترلّ بعد رشد ، أو يرشد بعد الزلل ،

ومن أجل هذا نوجز القول عن تأريخ الأحياء عندما نصل للحديث عنهم ، فإذا أخلّوْا مناصبهم بالوفاء أو بغيرها درسناهم دراسة كاملة ، وكانت الموضوعية هى المسيطرة على منهج الدراسة ، فليس هناك مدح أو هجوم ، وإنما سرد الأحداث بدقة والتعليق عليها بإنصاف .

وتحقيقا لهذه الخطة فقد أوجزت هنا القول عن عصر عبد الناصر وعصر الساداتى ، أما الدراسة الشاملة عن هذين العهدين فقد سبق أن ذكرت أفنى خصصت لها جزأين من هذه الموسوعة هما :

١ - الجزء التاسع عن عصر عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم

٢ - الجزء العاشر عن عصر الساداتى : عصر الرجل الذى نجح ثم تألكه ، فخسر بالنجاح كما خسر سواء بالفشل •

* * *

وبعد ، لقد حوى هذا الجزء — فيما حوى — تاريخ بلادي الخبيثة ، وهو تاريخ كتبته بكل الود ولكن مع كل الدقة ، بكل الحب ولكن مع الانصاف والحق •

فاللهم أدعوك أن تتفجع بهذا الكتاب قارئه وكاتبه ، وأن تجعله خالصا لوجهك الكريم •

دكتور أحمد شلبي

المعادي في أبريل سنة ١٩٤٨ •

مِصْرُوسُورِيَا

عهد الولاية

« من الفتح إلى قيام الدولة الطولونية »

من الفتح (١٢ إلى ٥٢١ هـ) حتى سنة ٢٥٤ هـ

(٦٤١ — ٨٦٨ م)

قديم :

فتحت سوريا ومصر في عهد عمر بن الخطاب ، وأصبحتا منذ ذلك الحين تمثلان مركزين من أهم المراكز السياسية والفكرية في العالم الإسلامي ، وقد ارتبط تاريخهما ارتباطا وثيقا في أكثر الفترات بعد هذا التاريخ ، وقد جمعهما Stanley Lane - Poole (١) في بحث واحد ووضح فيه أنه في فترات الاستقلال كانت مصر وسوريا تكوينان دولة واحدة ، فقد تمت هذه الوحدة إبان العهد البطولوني والإخشيدي والفاطمي والأيوبي وعهد المماليك ، وحققها إبراهيم باشا بن محمد علي ، حتى تدخلت أوروبا وأرغمته على أن يتخلى عن سوريا ، أما عهد التبعية فكان عهد انفصال ، كما حدث في زمن الحكم العثماني أو الزحف الأوربي ، وواضح من هذا أن الانفصال يخدم الراغبين في إضعاف الجبهة التي تجعلها الوحدة هبة الجنائب عظيمة السلطان .

وتاريخ مصر وسوريا يستحق اهتماما كبيرا لمكانتيهما في المنطقة ، وفي العالم العربي والإسلامي ، وفي المحيط الدولي ، ولذلك سنسعى بدراسة هذا التاريخ وسنهتم بالأحداث الكبرى المتصلة بهذه المنطقة كالحروب الصليبية ، والنشاط الحضاري الذي رعته هذه المنطقة وغذته .

الفتح الإسلامي لمصر وسوريا :

وقد تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة (٢) عن العوامل التي ساعدت على فتح سوريا ومصر ، وفيما يلي خلاصة هذه العوامل :

١ — كانت سوريا ومصر أرضا محتلة بالرومان ، وكان في هؤلاء غطوسة عالية ، فوضعوا أنفسهم موضع السادة بالنسبة لأهل البلاد ، وفي

(١) Mnhammadan Dynustis pp. 67 ff

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ج١ ص ٥٧٢ وما بعدها من الطبعة

الثانية عشرة .

نفس الوقت كان السكان في سوريا ومصر يسمعون عن عدالة
المسرب وحسن سيرتهم •

٢ — لم يكن الجنود الرومان مخلصين في الحروب ، لأن الجند كانوا
يحاربون عن نظام يدركون أنه لا يحق لهم فيه ، يدافعون عن وطن
يملكه السادة ••• حتى اضطر القوادح إلى أن يقيّدوا الجنود
بالسلاسل حتى لا يفرّجوا •

٣ — كانت مصر تعرف بمزرعة القمح ••••

٤ — أغار القوط على أسبانيا وأخذوها من الرومان فبدأت الامبراطورية
في التصدع •

٥ — خلو الكنيسة من الحب والإخاء الروحي ، واختلاف الكنيسة القبطية
عن الكنيسة الرومانية في موضوع « طبيعة المسيح » •

٦ — قدّم بعض المصريين وبعض السوريين مساعدات للجيش الزاحف
كانت من أسباب تيسير الفتح •

سيناء طريق الزحف العربي :

وقد وصل العرب مصر عن طريق سيناء وسيناء طريق عبّره أكثر الذين
زحفوا على مصر من الشرق ، أو زحفوا من مصر إلى الشام ، فعن طريق
سيناء جاء الهكسوس إلى مصر ، وجاء الفرس والرومان والمسلمون العرب
والأتراك ، وعن طريق سيناء تحرك القراعنة إلى الشام كما تحرك
الطولونيون والأخشيديون والفاطميون والأيوبيون والمماليك ومحمد علي
باشا ، ولهذا كانت سيناء منطقة مهمة بالنسبة لتاريخ مصر ، وتجب العناية
بها أعظم عناية ليكون سكانها عمالا وزراعا •••• من جانب وجنودا من
جانب آخر •

أهم آثار سيناء :

وتحتوى سيناء معالم وآثارا قديمة وحديثة أهمها :

— دير سانت كاترين : وقد أنشئ سنة ٢٦٠م باسم دير السيدة العذراء ، وقد زارته القديسة هيلانة في مطلع القرن الرابع وبنى له جوستينيان سورا في القرن الخامس ، وسبى باسم كاترين في القرن التاسع اذ قيل ان رفات قديسة من الاسكندرية أعدمها الرومان سنة ٣١٧ أنتقل الى هذا الدير ، وأن أحد الرهبان رأى في المنام ان جثمانها على قمة جبل قريب من الدير ، فنقل جثمانها للدير .

وبالدير مكتبة نفيسة ، وتابوتان من الفضة ، رسم على غطاءهما صورة كاترين بالذهب ، وصندوقان من الفضة في أحدهما رأس القديسة وعليه تاج ذهبي مرصع بالجواهر ، وفي الثانى ذراعها مع خواتم مرصعة أيضا .

— وداخل الدير يوجد مسجد بناه الخليفة الفاطمى الأمر بن المستعلى (ت ٥٥٢٤ ت ١١٣٠م) .

— ومن الأماكن الأثرية بسيناء جبل الطور وجبال التيه وعيون موسى

— ومن الأشياء الحديثة المهمة التى تربط مصر بسيناء نفق أحمد

حمدى .

ولتبا حديث فيما بعد عن سيناء .

بعد الفتح :

وبعد فتح الشام ومصر أصبحت مصر والشام ولايتين طيلة ما تبقى من عهد الخلفاء الراشدين ، ولما جاء العهد الأموى أصبحت دمشق عاصمة الخلافة وظلت مصر ولاية تابعة للخلافة ، ولهذه الفترة خصص الجزء الثانى من هذه الموسوعة ، وجاء العهد العباسى فانتقلت الخلافة إلى بغداد ، وأصبحت سوريا ومصر ولايتين تابعتين لخلفاء العاصمة المدورة ،

وفي الجزء الثالث من هذه الموسوعة حديث مستفيض عن سوريا بعد أن انتقلت عنها الخلافة ، وبخاصة تصوير المقاومة التي أبدتها بقايا الأمويين ومنهم والاهم ، والصراع بين الدولة الناشئة والدولة الذاهية (١) ، واصر في هذا العصر حركات ثورية شملها الجزء الثالث أيضا وسنعود لها هنا بمزيد من البيان ، وبعد اثنين وعشرين عاما من مطلع العصر العباسي الثاني بدأت حياة الاستقلال لمصر وسوريا ، وكان أحمد بن طولون أول من حقق ذلك الاستقلال .

ذلك قول موجز ، نتبعه بشيء من التفصيل ، مبتدئين بعصر الولاية ، سائرين الى عصور الاستقلال .

العرب في مصر وسوريا :

كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بني جنسهم ، فقد هاجر العرب من الجزيرة العربية الى سوريا ومصر قبل الاسلام بآلاف السنين ، ويقرر أكثر المؤرخين أن أجداد « مينا » مؤسس أول أسرة من الأسر الفرعونية هم من الأجناس النمامية بدليل أن ما وصل إلينا من لغة انقراغة تشاهد فيه العنصر الإفريقي والعنصر السامي وأن الأخير غالب على الأول (٢) ، وعلى هذا فعندما دخل العرب المسلمون مصر وسوريا لم يعد لهم السكان الأصليون من الأجانب الغاصيين ، ولذلك يمكن القول ان الفتوحات الاسلامية هي عند التحقيق انقلاب اجتماعي سياسي استرد به الشرق الأدنى مجده السامي الغابر ، فقد جاء الاسلام مهييا بالشرق الى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحتها فيها سطوة الغريب ، فاستطاع الشرق بالاسلام أن يسترجع ماضيه المجيد لا في

(١) ص ٢٠ - ٤٣ ، ١٥٠ - ١٥٣ .

(٢) عمر الاسكندري وميجراج سفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثماني

ص ٦ وانظر دراسة واسعة عن هذا الموضوع في الجزء السادس من هذه الموسوعة ص ٦٢ وما بعدها .

ميدان السياسة فحسب بل في ميدان الثقافة أيضا حيث تسنى له أن يعيد سيادته الفكرية (١) .

ويمكن القول إن الفرس والمصريين والسوريين رأوا في الاسلام متنفسا وسماحة أنقذتهم من الطغيان والإكراه والاستغلال التي عاشوا تحت ضغطها مدة طويلة ، فلقد ضمن الاسلام لهم حرية الأديان ، وأعطاهم من الأعمال العسكرية نظير دفع جزية ضئيلة الا من شاء أن يدخل صفوف المدافعين عن البلاد فله أن يدخل ويعفى من الجزية مع بقاءه على دينه ، وترك المسلمون الأرض لأصحابها على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقيصرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكا للأرض ولرقيق الأرض ، وأمن المسلمون الأهلين على أموالهم ونسائهم وأولادهم ، ورأى الأهلون في المسلمين المساواة التي كانوا لا يحلمون بها (٢) ، وقد كان لرابطة الدم ورابطة التعاون والمساواة أكبر الأثر في خلق جو من القربى بين العرب وبين المصريين والسوريين في أغلب فترات التاريخ الاسلامي بهذه البلاد .

نصوص من البردى تصف الفتح الاسلامي لمصر :

ونصوص البردى المعاصرة لعهد الفتح تظهر لنا أن الغزاة المسلمين لم يكونوا مجرد غزاة مغامرين ، وانما كانوا يحملون حضارة ، كما كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحة من الحديد والرصاص ، ويقاتلون ببسالة في سبيل عقيدة اعتنقوها باخلاص ، وقد تحررت مصر بهم من الضغط البيزنطي ورحبت بأبناء الصحراء الذين نادوا فيها بحرية العقيدة كما تشهده بذلك وثائق من البردى احداها مؤرخة في ١/٨/٦٤٢م -

Hitti : History of the Arabs vol. 1 pp. 194.198

(١)

Kirk : A Short History of the Middle East p 29

(٢)

وانظر التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية للمؤلف ج١ ص ٥٩٣
من الطبعة الثانية عشرة .

الثلاثاء آخر المحرم سنة ٢٢ وتشهد نصوص أخرى من عصر الفتح بأن المسلمين الفاتحين حموا دماء المصريين وأملاكهم واحترموا شخصية البلد العريقة النابعة من حضارة قديمة * وفي كتابة الأسقف يوحنا ، المعاصر لتاريخ الفتح ، اعتراف بأن عمرو بن العاص لم ينزع شيئاً قط من أملاك الكنيسة *

ولاية مصر قبل الطولونيين :

تولى إمارة مصر منذ الفتح الاسلامي حتى استقل الطولونيين بها ستة وستون والياً ، وقد تولى بعضهم مرتين ، وبعضهم تولى ثلاث مرات ، فبلغ عدد العهود التي صدرت للولاية بمصر مائة عهد ؛ وفيما يلي أشهر هؤلاء الولاة :

عصر الخلفاء الراشدين :

- عمرو بن العاص سنة ٢١ .
- عبد الله بن سعد بن أبي سرح » ٢٥
- قيس بن سعد بن عبادة » ٣٥
- محمد بن أبي بكر » ٣٦

العصر الأموي :

- عتبة بن أبي سفيان » ٤٣
- مسلمة بن مخلد » ٤٧
- عبد العزيز بن مروان » ٦٥
- عبد الله بن عبد الملك بن مروان » ٨٤
- قرّة بن شريك » ٩٥

- محمد بن عبد الملك بن مروان » ١٠٥
- حفص بن الوليد » ١٠٨
- الحكم بن قيس » ١١١
- عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير » ١٣٢
- العصر العباسي :
- صالح بن علي سنة ١٣٣
- عبد الملك بن زيد الخراساني » ١٣٣
- يزيد بن حاتم بن قبيصة » ١٤٤
- عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس » ١٤٥
- مطر مولى المنصور » ١٥٩
- واضح مولى المهدي » ١٦٢
- ابراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس » ١٦٥
- الفضل بن صالح » ١٦٩
- علي بن سليمان بن علي » ١٦٩
- موسى بن عيسى بن موسى » ١٧١
- جعفر البرمكي « حاكم فخرى أتاب عنه عمرو بن مهران » » ١٧٦
- هرثمة بن أعين » ١٧٨
- عبد الملك بن صالح » ١٧٨
- اسماعيل بن صالح » ١٨١
- السري بن الحكم » ٢٠٠

- ابن السرى (محمد فعيد الله) » ٢٠٥
- عبد الله بن طاهر بن الحسين » ٢١١
- إيتاخ التركى » ٢٣٥
- عتبسة بن إسحق » ٢٣٨
- الفتح بن خاقان » ٢٤٢
- مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٣
- بابك التركى » ٢٥٤
- يارجوخ التركى » ٢٥٦ (١)

وستنكم كلمة موجزة عن الولاة الذين ارتبطت باسمهم أحداث ذات بال (٢) ، وكان للولاة على العموم مطلق التصرف فيما يوافق سنن الاسلام وتقتضيه العدالة ، ولكن كان لوجوه الناس وأهل الرأى وأكابر العلماء والفقهاء عند التوالى قول مسموع ورأى متبع (٣) .

عمرو بن العاص :

وأبرز الولاة عمرو بن العاص وهو أول من ولى مصر بعد أن قاد بنجاح جيش الفتح ، وقد ظل واليا عليها طيلة عهد عمر ، وعزله عثمان ، ولكنه عاد لولاية مصر من قبل معاوية مكافأة له على وقوفه بجانبه فى صراعه ضد على بن أبى طالب . ولعمرو بن العاص منشآت مشهورة بمصر ، وله كذلك مواقف اجتماعية طيبة ، فهو الذى أسس مدينة القسطنط ، وبني

(١) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحكمة فى التاريخ الاسلامى ج١ ص ٣٨ — ٤٢ .

(٢) مرجعنا الرئيسى للحديث عن هؤلاء الولاة هو كتاب الولاة والقضاة للكندى .

(٣) عمر الاسكندرى : تاريخ مصر الى الفتح العثمانى ص ١٧٢ .

جامعه الشهير ، وأعاد حفر القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر وأطلق عليها « خليج أمير المؤمنين » ، وأنشأ مقاييس النيل في مواضع مختلفة •

ومن مواقفه الاجتماعية حسن سياسته مع المصريين غير المسلمين ، فقد أعطى البطريك بنيامين كتاب : أن ، وأعاده إلى كرسيه بعد أن أقصاه عنه الرومان حوالي ثلاث عشرة سنة ، وترك له إدارة ثستون الكنيسة الدينية والإدارية ، وحث عمرو الجند العرب على الاختلاط بالسكان الأصليين والتحبب إليهم ، ونظم عمرو جباية الخراج بدون ظلم ، وإنقص المقدار الذي كان يرسله منه للمدينة ليستطيع إتمام المنشآت التي كان يشيدها بمصر ، وعرف عنه تأجيله لجمع الخراج عند ما اقتضى الصالح العام ذلك ، كما أنه جعل تحديد الخراج مشروطا بزيادة النيل ، وقرر في العهد الذي كتبه للمصريين أنه « إن نقص نهرهم عن غايته رفع عنهم بقدر ذلك » (١) •

ومن ولاية مصر المشاهير في عهد الخلفاء الراشدين عبد الله بن سعد ابن أبي السرح وقيس بن عباد الأنصاري ومحمد بن أبي بكر وقد مر ذكرهم في الجزء الأول من هذه الموسوعة •

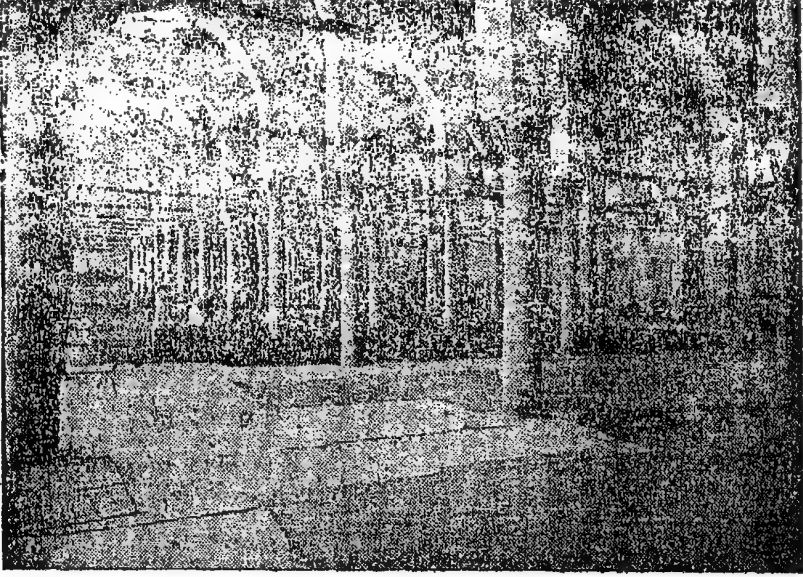
الاسلام في بلاد النوبة :

وعلى يد عمرو بن العاص وخلفه عبد الله بن سعد بن أبي السرح دخل الإسلام بلاد النوبة ، فقد قاد الثاني جيش الأول وغزا بلاد النوبة سنة ٢١هـ وحقق بعض النصر ، ثم عاد إبان ولايته فغزا بلاد النوبة غزوة موفقة سنة ٣١هـ ، ووصل في هذه الغزوة إلى دنقلة ووقف مع حكام النوبة معاهدة « البقط » وقد ظلت معمولا بها حتى عهد المماليك (٢) ، وسنعود

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٨٨ ، ١٠١ والقلقشندي : صبح الأعشى

ج ١٣ ص ٣٢٤ •

(٢) انظر تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بركلمان ج ٤ ص ١٢١ •



مسجد عمرو بن العاص بالقسطنطينية

من الداخل

لهذا الموضوع بمزيد من التفصيل فيما بعد (١) .

مسلمة بن مخلد :

ومن الولاة المشاهير في العهد الأموي مسلمة بن مخلد الأنصاري (٤٧ — ٦٠ هـ) وهو الذي أعاد بناء جامع عمرو بعد أن تشققت بعض جدرانها ، وبنى مساجد أخرى كثيرة ، وجعل لها كلها منارات عالية ، وسمح للقبط ببناء كنيسة في القسطنطينية .

عبد العزيز بن مروان :

ومن أشهر الولاة إبان العهد الأموي عبد العزيز بن مروان الذي أمضى أطول مدة قضاها وال بمصر (٦٥ — ٨٤ هـ) وكان شقيق الخليفة عبد الملك بن مروان وولى عهده ، ولكن الخليفة أغراه بالتنازل عن ولاية العهد ليجعلها في أبنائه ، فقبل ، وأعطاه الخليفة مصر نظير ذلك لتكون طعمة له ، فلم يكن يبعث إلى دمشق بشيء من الخراج ، وقد تربى بمصر أبنته طيب الذكر عمر بن عبد العزيز ، وقد اتخذ عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان عاصمة للبلاد ، فغرس فيها الأشجار والنخل وبنى المساجد والأبنية الضخمة التي تكلفت حوالي مليون من الدنانير (٢) .

عبد الله بن عبد الملك وتعريب الدواوين :

عبد الله بن عبد الملك من أشهر ولاة مصر ، ففي عهده ترجمت الدواوين بمصر إلى العربية بدل القبطية . وفي عهده بدأ كثيرون من أهل الذمة يهجرون قراهم ليتهربوا من دفع الجزية .

(١) عند الكلام عن « الممالك » عقدنا فصلا بعنوان « الممالك وبلاد

التوبة » تتبعنا فيه علاقة شمال الوادي بجنوبة .

Stanley Lane-poole : Egypt in the Middle Ages p. 29

(٢)

قرة بن شريك :

ومن ولاية مصر المشاهير قرة بن شريك ، وقد انتشرت الأساطير عنه بأنه كان واليا ظالما ، والحقيقة أنه كان سمحا عادلا ، وكل ما في الموضوع أن مسألة الهرب من دفع الجزية والضرائب التي بدأت في عهد سلفه عبد الله بن عبد الملك زادت في عهده ، واندفع الزراع من أهل الذمة ينتقلون من مكان الى مكان حتى لا يلتزموا بدفع ما وجب عليهم ، وتتبعهم قرة ليعيدهم الى مقارهم ، ليس فقط ليأخذ منهم الجزية بل ليتابعوا الزراعة التي أوشكت أن تتوقف وتهدد ثروة مصر ، ومع إلزام أهل الذمة بالأقامة فإنه اهتم بأن تكون العدالة أبرز أخلاق حكام الأقاليم ، وكان يعاقب ولاته على الأجحاف والقسوة مع الأهالي ، وكان يتجاوز عما يتعذر على دافعي الضرائب أن يدفعوه ، ويبدو أن أهل الذمة هم الذين زوجوا الإشاعة التي تتهمه ظلما بأنه ظالم .

صالح بن علي العباسي :

ومن أشهر ولاية العصر العباسي صالح بن علي عم الخليفة العباسي الأول ، وهو الذي تبع مروان بن محمد على إثر فراره من موقعة الزاب . وظل يلاحقه حتى قتل بمصر سنة ١٣٢ (١) . وظل صالح واليا على مصر بعد أن أصبحت تابعة لبني العباس ، ومن أهم المنشآت التي تنسب إليه تشييده عاصمة جديدة للجند هي « العسكر » التي أصبحت ثاني عاصمة إسلامية بمصر ، وقد بنى بها دارا للامارة ومسجدا كبيرا يعد ثاني المساجد الجامعة بعد المسجد العتيق (مسجد عمرو) .

موسى بن عيسى بن موسى :

ومن الولاة العباسيين المشاهير موسى بن عيسى بن موسى وهو

(١) انظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ٥٢ — ٥٣ من الطبعة السابعة .

أيضا من بيت الخلافة العباسية وكان أبوه وليا للعهد ، ولكنه أرغم على التنازل ، وقد عرف موسى بالعدل مع المصريين ، وكان حسن المعاملة للقبط .

السرى بن الحكم وبدء الحركة الاستقلالية :

ومنهم كذلك السرى بن الحكم (٢٠٠ — ٢٠٥ هـ) وقد اتخذ مقره في مدينة تنيس قرب بحيرة المنزلة ، وجعل ولاية مصر إرثا في أسرته ، ونجح في ذلك فتولى بعده ابنه محمد فعبد الله ، وكان السرى بذلك أول من طمع في الاستقلال بشئون مصر الداخلية .

وفي عهد السرى بن الحكم بدأت الحركة الاستقلالية بمصر تلك الحركة التي تقرر اعتناق الاسلام والاستقلال السياسي ، وقد تكمّت هذه الحركة في عهد الطولونيين والახشيديين ، وكمّلت في العهد الفاطمي كما سنرى فيما بعد .

عنبسة بن إسحق آخر الولاة العرب :

ومنهم كذلك عنبسة بن إسحق الذي ولي مصر أربع سنوات (٢٣٨ — ٢٤٢) وعرف بالعدل والورع والكفاءة العالية ، وفي عهده حاول « على بابا » ملك النوبة أن يتمرّد على المعاهدة التي كانت بين بلاده وبين مصر ، بل زحف تجاه مصر غازيا ، ولكن عنبسة هزمه ، وردّه على عقبه ، وحمله على الاستمرار في الأخذ بالمعاهدة . وقد اتهم عنبسة بمشايعة الخوارج ، فكانت هذه التهمة سببا في إبعاده عن ولاية مصر .

وكان عنبسة آخر من ولي مصر من العرب ، فإن الأتراك الذين جلبهم المعتصم أصبح لهم السلطان ابتداء من عهد المتوكل ، وتبعاً لذلك أصبحت المناصب الكبيرة والولايات العظيمة خاصة للأتراك ، وأُسقط العرب والفرس من الديوان ، وكانت مصر من هذه الولايات التي أسندت للأتراك ، ولم تمض فترة طويلة حتى آلت ولاية مصر لأحد هؤلاء الأتراك ، ولكن هذا

الوالى (هو أحمد بن طولون) استقل بمصر ثم زحف الى سوريا فشهدها الاستقلال أيضا تحت سلطانه ، وبذلك انتقل بتاريخ البلدين من عهد إلى عهد •

ولاية سوريا قبل الطولونيين :

أما سوريا فقد سبق أن ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن أبا عبيدة بن عامر الجراح تسلم قيادة الجيش من خالد بن الوليد وبعد موقعة اليرموك اتجه أبو عبيدة ببعض الجيش الى الشمال ، وتم له فتح المنطقة الشمالية الى حلب ، وقد مات أبو عبيدة في عهد عمر •

وكان يزيد بن أبي سفيان قائدا لأحد الجيوش الأربعة التي وجهها أبو بكر لفتح الشام ، وكانت وجهته دمشق ، ولما أراد أبو بكر أن يرسل مددا لهذه الجيوش كان معاوية على رأس المزد الذي أرسل ليزيد ، وحارب معاوية تحت إمرة أخيه ، وتولى قيادة الفيلق الذي فتح صيدا وبيروت وغيرها من سواحل الشام ، ولما تم النصر للمسلمين في عهد عمر ولى عمر يزيد ولاية دمشق ، كما جعل معاوية واليا على الأردن ، فلما توفي يزيد ضم عمر الى معاوية ولاية دمشق ، وفي عهد عثمان جمعت لمعاوية ولاية الشام كله ، وظل أميرا للشام عشرين عاما حتى آلت إليه الخلافة عقب عصر الخلفاء الراشدين (١) •

وأصبحت الشام مركز الخلافة الأموية فلم يعد بها ولاية بطبيعة الحال ، ولما سقطت خلافة الأمويين وقامت دولة بنى العباس ، حرص الخلفاء الجدد على أن تكون الشام لأفراد منهم أو لأقوى أنصارهم حتى يمكنهم إخضاع من تراوده نفسه بالثورة ضد الحكم الجديد سواء من الأمويين أنفسهم أو من أتباعهم والمتعصبين لهم ، ومن ولاية الشام المشاهير في العصر العباسي نذكر :

(١) انظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة .

- عبد الله بن علي سنة ١٣٢
- صالح بن علي » ١٣٦
- عبد الوهاب بن ابراهيم الإمام » ١٣٦
- ابراهيم بن صالح بن علي » ١٧٥
- موسى بن يحيى بن خالد البرمكي » ١٧٦
- عبد الملك بن صالح » ١٧٧
- جعفر البرمكي » ١٨٠
- طاهر بن الحسين سنة ١٩٨
- عبد الله بن طاهر » ٢٠٥
- المعتصم » ٢١٣
- العباس بن المأمون » ٢١٤
-
- علي بن أماجور » ٢٦٤

[هزمه أحمد بن طولون واستولى على دمشق (١)]

وهؤلاء الولاة — فيما عدا الوالى الأخير — مرّ ذكرهم فيما سبق من أحاديث فى الأجزاء السابقة ، إنهم صفوة أعلام ، وهم من بيت الخلافة العباسية أو من المقربين لبنى العباس ، ولهذا لسنّا فى حاجة لتعيد القول عنهم ، أما الوالى الأخير فليس فى تاريخه ما يستحق الذكر .

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى
ج ١ ص ٤٣ .

أشهر الأحداث في عهد الولاة

... هناك أحداث كبرى جرت بمصر وسوريا خلال عهد الولاة ، واهتم بها الباحثون والمؤرخون اهتماما كبيرا ، وسنذكر هنا أبرز هذه الأحداث .

مكتبة الإسكندرية وموضوع حرقها

لعل من الأوفق أن نبدأ استعراض هذه الأحداث بالكلام عن مكتبة الإسكندرية ، فإن التاريخ الذى يذكره أولئك الذين ينسبون حرقها للعرب تاريخ يرجع الى عهد مبكر وإلى مطلع حياة العرب بمصر ، ومن هنا لزم أن نبدأ بالحديث عن هذا الاتهام ومداه .

والإسكندرية — كما هو معروف — كانت عاصمة مصر قبل الفتح الإسلامى ، وكانت مركزا مهما من مراكز الثقافة فى العالم ، وقد استدعى ذلك أن وجدت بها مكتبة عظيمة حوت مجموعة كبيرة من الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وهناك قصة تقول إن عمرو بن العاص أحرق هذه المكتبة بإشارة من الخليفة عمر بن الخطاب ، وهذه القصة ينكرها البحث العلمى ، فمن الثابت أن يوليوس قيصر هو الذى أحرق مكتبة البطالسة العظمى حين غزا البلاد المصرية سنة ٤٨ ق م ، أما المكتبة الصغرى التى نشأت بعد ذلك فقد أتلغت بأمر الامبراطور تيودورز حوالى سنة ٣٨٩ م ، واندثرت مكتبات الإسكندرية بعد ذلك ، فلم يكن فى الإسكندرية حين الفتح مكتبة ذات شأن (١) .

وبالإضافة إلى ذلك فإن أحدا من الكتاب المعاصرين للفتح لم يشتم الخليفة أو عامله بإحراق هذه المكتبة ، ولم يذكرها ثقات المؤرخين السابقين أمثال اليعقوبى والبلاذرى وابن عبد الحكم والطبرى والكنسدرى ، ومن أخذ عنهم كابن الأثير وابن تغرى بردى والسيوطى مع أن ما كتبه هؤلاء عن تاريخ مصر يعتمد من أوثق المصادر وأدقها .

وأول من تحدث عن حادثة إحراق عمر للمكتبة هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٦هـ ولم يذكر لكلامه مرجعا ، وكان حديثه عابرا ، فقد كان يصف عمود السوارى والمساحة المحيطة به ، ثم قال عن هذه المساحة انه كان بها الرواق الذى جلس به أرسطو وشيعته للتعلم ، وبه دار العلم التى بناها الإسكندر ، وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بأمر من عمر رضى الله عنه (١) ، وقد التقت هذا الخبر منه مؤرخ مسيحي هو أبو الفرج بن العبرى فتمثله وأذاعه (٢) وجعله أسطورة منمقة مفصلة دون أن يكون له أساس . وقد عرف عن العرب حرصهم على كتب العلوم والفنون ، فهم الذين أخرجوا كتب اليونان من مخابئها ، وكانت هذه الكتب عند المسيحيين هرطقة وضلالا (٣) .

ويمكن أن نزيد اتجاها تأكيداً بمسألة مهمة ، فقد ذكرت الروايات التى تنسب للعرب حرق المكتبة « أن يوحنا النحوى قابل عمرو بن العاص بشأن هذه المكتبة » ولكن يوحنا هذا مات قبل استيلاء العرب على الاسكندرية بثلاثين أو أربعين عاما ، وهذا ينقض الرواية من أساسها (٤) .

ويسخر الباحثون المسلمون من رواية ابن العبرى وبخاصة أن بها عناصر القضاء عليها ، فهو يقول « فشرع عمرو فى تقريقها على حمامات الاسكندرية وأحرقها فى مواقدها فاستنفدت فى مدة ستة أشهر ، فاسمع ما جرى وأعجب » ويرى هؤلاء الباحثون أن الخليفة لو طلب من عمرو إحراق هذه الكتب لما كان له أن يفرقها على الأفران لأن أصحاب الأفران كانوا يستطيعون بيعها أو الاحتفاظ بها ، ثم انها كانت مكتوبة على « الكاغد » وهى مادة لا تصلح للاحتراق ، وكيف يتصور أن تبقى ستة

(١) الامادة والاعتبار ص ٢٨ .

(٢) تاريخ مختصر الدول ص ١٧٥ — ١٧٦ .

Hitti : History the Arabs vol. I p. 222 (٣)

Butler : The Arab Conquest of Egypt pp. 401 ff (٤)

أشهر مع أن حمامات الاسكندرية كانت حوالى أربعة آلاف (١) .

وقد اتجه جورحى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » الى الدفاع عن المسلمين وتبرئتهم من هذا العمل البربرى ولكنه فى كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » عدل عن هذا الرأى ومال الى اتهام المسلمين بحرق هذه المكتبة لأسباب ينقصها الحق ، أهمها أن المسلمين كانوا يرون ان القرآن الكريم صفوة العلوم والمعارف ، ولم يجدوا حاجة لسواه (٢) ، وهو استنتاج ناقص متأثر بالاتجاه المسيحى فى هذا الكاتب ، فالمسيحية هى التى رأت أن الكتاب المقدس (التوراه والإنجيل) هو كل شىء ولا حاجة لسواه .

أما المؤرخون الأجانب فقد ناقشوا هذا الاتهام وانتهوا الى رفضه ، وأن عبد اللطيف البغدادى ، ذكر ذلك عرضا عند كلامه عن عمود السوارى ، ولعله سمع كلاما كهذا من العوام أو من الحانقين على العرب ، ومن هؤلاء المؤرخين جيون وبتلر وسسديو ، وفى ذلك يقول سسديو انه لم يقع فى الاسكندرية انتهاب قط ، ويتعذر علينا أن نعتقد صدور أمر بدم بارد بمثل هذا العمل النهجى ، ولا تجد مؤرخا معاصرا لفتح الاسكندرية يروى هذا الخبر ، ويقرر التاريخ أن مكتبة الاسكندرية دمرت فى عهد يوليوس قيصر وفى عهد تيودور (٣) .

ومما يؤكد هذا الاتجاه قول أورا زيوس انه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب عند زيارته مدينة الاسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى (٤) .

(١) دكتور حسن ابراهيم . عمرو بن العاص ١١٤ — ١١٥ .

(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٤٠ — ٤٦ .

(٣) History Dèuèral des Arabes p. 150

(٤) نقلا عن : تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٣٦٣ .

وعلى هذا فاتهم المسلمين بحرق المكتبة اتهم ظالم لا يقوم على أى أساس سليم .

وقد نقل الباحث العلامة الأستاذ محمد كرد على بعض أقوال المستشرقين التى تنمى عن المسلمين هذه التهمة نفيا قاطعا ، ونقتبس بعض العبارات منه (١) .

— إن أفتيكوس بطريك الاسكندرية ، مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو ابن العاص لهذه الخزانة .

— ذكر إرفنج وكريستون وفلين وغيرهم أن ما أشيع حول حرق الخزانة ، ونسبة ذلك للمسلمين لم يكن له ذكر لدى الباحثين فى أوروبا قبل نقل كتاب مختصر الدول الى اللاتينية ، ومنذ ذلك الحين تمسك بعض الباحثين بهذه الفكرة ، وبدأوا يهاجمون المسلمين .

— قال فوت و اهلويلر فى كتابهما (جنایات الأوربيين) : إن الأسقف تيوفيل هو الذى أحرق خزانة الاسكندرية لا المسلمين ، فالدين الاسلامى لا يبيح إحراق الكتب .

— وقال بونة هورى : يجب أن نصصح خطأ شاع طوال القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا خزانة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر ، وال الحال أن العرب فى ذلك العصر كانوا أشد اعجابا بعلوم اليونان وفنونهم فما كان لهم مع ذلك أن يقدموا على عمل كهذا ، وقد أحرقت هذه الخزانة قبل ذلك بزمان طويل

— ويعلق الأستاذ محمد كرد على على حماسة المستشرقين الذين قبلوا هذا الاتهام دون بحث واستقصاء بقوله : إن هؤلاء المستشرقين

(١) الاسلام والحضارة العربية الجديدة ص ٢٦ وما بعدها .

يتمسكون بتهمة لا أساس لها ، ومن ناحية أخرى تعرض أمامهم حقائق
عن حرق الكاردينال كسيمنس كتب المسلمين في ساحات غرناطة ، فيمرون
على ذلك مرورا عابرا أو يحاولون تبرئة هذا الكاردينال من هذه الوصمة
كما أن علماء الغرب لم يكتبوا قليلا أو كثيرا عما فعله الصليبيون بمكتبة
طرابلس حين أمر سنجيل بإحراق كتب دار العلم وكان عددها أكثر من
مائة ألف مجلد •

انتشار الإسلام في سوريا ومصر

إن انتشار الإسلام في سوريا ومصر يرتبط بما كان البلدان يعانيانه في ظل الاحتلال البيزنطى قبل الإسلام ، وقد اتضح لنا من دراسة ظروف الفتح (١) أن السكان بمصر وسوريا تعاونوا في حالات كثيرة مع العرب الزاحفين للقضاء على الحكم البيزنطى ، وما إن تم الفتح حتى بدأ دخول المصريين والسوريين دين الإسلام ، بل تشير المصادر التى عاصرت الفتح الى أن عددا من المصريين من بينهم أحد رهبان دير سينا قد أسلم قبل أن يتم فتح مصر بصفة نهائية ، وكان هؤلاء أكبر عون للعرب في تقدمهم (٢) .

وما إن تم فتح مصر حتى وقعت حادثة كانت شديدة الأثر في نشر الإسلام في مصر ، فقد حدث أن ثارت قرية من قرى البحيرة ضد المسلمين ، ووقعت معركة بين المسلمين وهؤلاء ، وانتصر المسلمون في المعركة ، وأسروا بعض الأهالى ، وأرسلوا الأسرى الى المدينة المنورة ، ولكن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان حريصا على أن تكون المغارك ضد الزوم لا ضد المصريين ، فكرم الأسرى وأعادهم الى مصر احرارا ، وأمر أن يترك لهم الأمر ليدخلوا الإسلام ويكون لهم مال للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، أو أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية .

وقد كان هذا الموقف شديد الأثر على هذه الأسر وعلى كل من سمع عن هذه المعاملة ، فدخل عدد كبير الإسلام (٣) .

وكان المصريون والسوريون قد أنهكتهم الأعباء المالية التى فرضها عليهم الرومان ، وكان هناك ضغط عدائى سياسى واجتماعى لا يقل عن

(١) في الجزء الاول من هذه الموسوعة .

(٢) حنا النقيوسى : تاريخ حنا النقيوسى ص ٥٨٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٢٢ - ١٢٣ .

الضغط الاقتصادي ، وعندما استقر العرب بسوريا ومصر ظهر الفرق واضحاً بينهم وبين البيزنطيين ، فلم يكسح العرب أنفسهم موضع السادة ، ولم يعاملوا السوريين والمصريين معاملة المهزم ، بل أحس السوريون والمصريون بفيض من الحرية الدينية والاجتماعية ، وبتنظيم اقتصادي بعيد عن العسف والطغيان ف جذبهم ذلك إلى الإسلام .

وكان هناك اختلاط يتم بطبيعة الحال بين المسلمين والأقباط لسبب أو لآخر ، وقد نتج عن هذا الاختلاط أن تعرف الأقباط على دين الإسلام ، فأخذت وفودهم تدخل هذا الدين من حين لآخر ، ومن هؤلاء جماعة من المصريين تعاونوا مع المسلمين في حراسة الأقاليم الشرقية لمصر ، وأدى ذلك إلى أن اختلط هؤلاء بالحراس المسلمين ، ويوما بعد يوم أبدى المصريون إعجابهم بالإسلام والمسلمين ، وأعلنوا دخولهم دين الله (١) .

ومثل هذا الاختلاط حدث في المدن ، فقد سكن بعض المسلمين في الدور التي أخلاها الرومان بين دور المصريين وبخاصة في دمياط ورشيد ، وأتاح الاختلاط فرصة للدعوة للإسلام فاعتنقه الكثيرون من الجيران (٢) .

وكان الجيش العربي يشمل كثيراً من الفقهاء والعلماء وطلاب العلم والدارسين ، ولما تم النصر للعرب أدخل السيف المجال تفكير ، فبدأت الدعوة الإسلامية تنساب وتتسع ، وتوالى دخول الناس في الدين الجديد .

وهناك ظروف ساعدت على انتشار الإسلام ؛ منها أن المسيحية لم تكن عميقة في نفوس السكان ، فأكثرهم دخلها بعد أن أعترف بها قسطنطين ، فأصبحت دين المستعمر ، وكان السكان لذلك لا يقبلون عليها إقبالا كاملاً . ومنها ما يذكره L.R. Hall من أن السكان غيروا ديانتهم مرة فسهل ذلك عليهم تغييرها مرة أخرى ، فالدين الأقوى في الحالين جرف الدين

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٩٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب في أماكن مختلفة .

الأنصاف الذي تضمنه (١) ثم إن المسيحية كانت حاضرة بالارتباك والانقسامات والخصومات فتزعج الاعتقاد بها في نفوس كثير من السكان ، ورجعوا بالاسلام عندما تعرفوا عليه واستقروا بمبادئه .

ثم جاءت موجبة الزحف العربي التي مصر أرض النيل المتدفق ، والمياه كانت أمل السرب ، وكان تاريخ مصر وأممها مصر معزوفة وشائعة في المنطقة ، ومن هنا انتهالت القبائل الى مصر ، وفي بعض الحالات حدثت خلافات بين هذه القبائل وبين مركز الخلافة ، فلم تجد هذه القبائل بدءاً من الاستغلال بالزراعة وغيرها والاندماج بالمصريين ، وهذا أتاح الفرصة للمصريين ليتعرفوا على الاسلام ويعتقوه . وقد بدأ ذلك عندما قتل الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه ، فثار بعض قبائل لخم وجذام على ذلك ، ورفضوا البيعة لأمير المؤمنين الجديد علي بن أبي طالب حتى يتم القصاص من القتل (٢) . وسنرى نماذج أخرى لذلك بعد قليل .

ثم جاءت الى مصر هجرة عربية كبرى أيام ولاية عبيد الله بن الحبحاب في خلافة هشام بن عبد الملك ، فقد استقدم عبيد الله جماعات كثيرة من قيس وبنى نصر وبنى عامر وهوازن وسليم ، وأسكنهم بلبيس والحواف الشرقي ، وسرعان ما انتشر هؤلاء في المناطق الشرقية للنيل واختلطوا بالناس فانتشر بهم الاسلام انتشاراً واسعاً (٣) .

وكانت هناك وظائف جذابة لا يتولاها إلا المسلمون ، ولا شك أن بعض الطامعين الموهوبين دخلوا الاسلام حتى لا يحال بينهم وبين هذه الوظائف ، وتجلت هذه الظاهرة بوضوح في خلافة عمر بن عبد العزيز الذي أمر بالآتسند المناصب الادارية بمصر لمخير المسلمين (٤) ، مما حمل

(١) History of the World vol. II p. 304

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٩٥ .

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ٧٧ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٠ و ٢٦٨ .

كثيرا من أهل الذمة على الدخول في الاسلام وتعلم اللغة العربية حتى يتيسر لهم الاشتغال بالوظائف المدنية ، وأخذ المسلمون منذ ذلك الوقت في الازدياد حتى أصبحت مصر في القرن الثالث الهجرى دولة إسلامية (١) .

ويتجه Butler الى إبراز أن ضريبة الجزية كانت من أهم العوامل التي دعت المصريين لدخول الاسلام (٢) ، والحق إن هذا رأى لم يصدر عن دقة وإنصاف ، فالجزية مقدار ضئيل ، ولو فر منها الانسان ودخل الاسلام ليتخلص من دفعها لكان عليه أن يدفع الزكاة ، والزكاة أكبر بكثير ، فليس هذا القول إلا من الأقوال العابرة التي تقال دون تحقيق علمي عميق (٣) .

وتذكر بعض المراجع أن من المحتمل أن بعض السكان الاصليين أسلموا فرارا من الأوامر التي أصدرها بعض خلفاء المسلمين بإلزام غير المسلمين بلباس معين ومظاهر خاصة ، ونحن نتساءل : إذا كان حمل الصليب مثلا من هذه المظاهر فلماذا يتهرب منه المسيحيون ؟ مع أننا نراهم اليوم يحتفون بالصليبان ويجعلون منها حليةهم ، وعلى كل حال فإن رواية هذه الأمور هم من المؤرخين المسيحيين (٤) ، ومن الطبيعي أن تبدو في كتاباتهم آثار لتعصبهم لدينهم ، ومن الثابت أن خلفاء المسلمين أو أكثرهم على الأقل عاملوا أهل الكتاب في كل مكان معاملة طيبة كانت في كثير من الأحوال من أسباب دخول هؤلاء دين الاسلام (٥) .

(١) Stanley Lane - pool : A History of Egypt in the Middle Ages p. 38

(٢) The Arab Conquest to Egypt pp. 340 341

(٣) اقرأ الاقتصاد في الفكر الاسلامي للمؤلف (باب الجزية والخراج) .

(٤) انظر سير الاء البطارقة لساويرس ابن المقفع في امكنة متعددة وفيليب حتى في كتابه تاريخ سوريا وسنورد بعد قليل اقتباسنا منه فيه هذا الاتجاه .

(٥) انظر المجتمع الاسلامي للمؤلف .

ومن أسباب انتشار الاسلام في سوريا ومصر اندماج العرب في السكان الأصليين هنا وهناك ، وكان سقوط الدولة الأموية معناه ذوبان أتباعهم وجيوشهم بمصر وسوريا في السكان الأصليين ، إذ توقفت وظائف هؤلاء وانقطعت روايتهم ، وكان عليهم أن يعملوا ليعيشوا ، وحدث مثل ذلك في عهد المعتصم العباسي عندما أسقط العرب من ديوان العطاء ، فدخل العرب في غمار الناس واختلطوا بهم ، وعن طريق هذا الاختلاط انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية انتشارا ظل يتزايد من يوم إلى يوم .

ومما ساعد على انتشار الاسلام بسوريا أن خمسة آلاف من نصاري بنى تتوخ كانوا يعيشون في جوار حلب وعلى ساحل لبنان عملوا بإشارة المهدي العباسي واعتنقوا الاسلام ، ويبدو أن العباسيين أعادوا عليهم من المكرمات ووثقوا صلته بهم حتى حببوا لهم الاسلام ، واستغل العباسيون ذلك فيهم فأقاموهم حاجزا في وجه الروم إن جاءوا من البحر (١) . ويضيف Philip Hitti (٢) الى الدوافع التي حبيت للمسيحيين دخول الاسلام بسوريا ، حرصهم على الظفر بالكرامة الاجتماعية والنفوذ السياسي .

من هم أحفاد الفراعنة :

وفي ضوء هذه الدراسة الوثيقة يتحتم علينا أن نعرض بإيجاز لموضوع آثاره الأستاذ زكي شنودة المخامي مرتبطا بالجزأين الثالث والرابع من كتابه « تاريخ الأقباط » ، فقد خصص المؤلف هذين الجزأين للحديث عن تاريخ الفراعنة وحضارتهم ، بادعاء أنهم أجداد الأقباط ، وأن الأقباط وحدهم ، أحفاد الفراعنة .

وهو يقول في الجزء الثالث (٣) « فتاريخ الأقباط هو تاريخ المصريين »

(١) ابن العبري ج٢ ص ١٣٣ .

(٢) History of Syria vol. II. p. 170

(٣) تاريخ الأقباط ج٣ ص ٢ .

ويقول الدكتور باهور لبيب في تقديمه لهذا الجزء « ولا شك أن الأقباط هم السلالة المباشرة لأقدماء المصريين ، وأن تراثهم ما هو إلا امتداد لتراث أولئك الأجداد » .

وهذه الفكرة بعيدة — فيما نرى — كل البعد عن الحقائق العلمية ، ومن الواضح أنها خطرت للمؤلف متأخرة ، فقد سار في الجزء الأول سيرا طبيعيا حين تحدث عن المسيحية في مصر ، وأشهر الاضطهادات وأشهر الشهداء والبدع والهرطقات والرهبة ، وسار الجزء الثاني في هذا الطريق أيضا حين تكلم عن عقيدة الأقباط ، ثم خطرت له فكرة ربط الأقباط بالمصريين فخصص الجزء الثالث والرابع لهذا الغرض ، ولو كانت هذه الفكرة أصيلة عنده لكان الجزء الأول هو مكانها الطبيعي ، فذلك الترتيب هو من دواعي التسلسل التاريخي الذي يعرفه كل من تعرض لكتابة التاريخ .

ويبدو أنه خطر ببال الأستاذ زكي شنودة أن المصريين جميعا تحولوا من أفكارهم الدينية التي كانوا عليها قبل المسيحية إلى المسيحية ، وهو خاطر لا تؤيده الشواهد التاريخية ، فإن المسيحية كانت تعاني اضطهادا عنيفا في القرون الثلاثة الأولى ، وكان انتشارها في فلسطين ضعيفا جدا ، حتى أنكروا بعض الحواريين (١) ولم يعترف بها الرومان إلا في القرن الرابع ، وبدأت تخطو في أمن من السلطة ابتداء من القرن الخامس .

ومعنى هذا أن المسيحية مرء عليها حوالى قرنين قبل أن يجىء الاسلام مصر ، ولا يمكن أن تكون المسيحية قد غمرت المصريين أو نصفهم في هذين القرنين ، بدليل بقاء تحولهم إلى الاسلام ، وأنه لا تزال نسبة منهم تعتقد المسيحية بعد أن دخل الاسلام مصر بأكثر من أربعة عشر قرنا .

والحق أن ربط الدين بالجنس ببلادنا الحبيبة عمل لا يمكن القطع به ولا ترجيحه ، فبعض المسيحيين الموجودين في مصر وفقدوا لها فرارا من

(١) Religions of the World : Barry . ويقول Wells : بعد عيسى انهارت دعوته وتخلى عن فكرته أتباعه جميعا ، ولما اتهم بطرس بأنه واحد منهم قال : لا اعرف هذا الرجل (Outline of History 3 : 698) .

الاضطهادات التي عانها المسيحيون من الرومان ، على نحو ما فعل السيد المسيح نفسه وأمه العذراء كما ورد في إنجيل متى (١) ، وعلى نحو ما فعل كثير من خلفاء السيد المسيح مثل القديس مرقس وسواه من القديسين والمعلمين .

أما المسلمون في مصر فأكثرتهم أحفاد الفراعنة استجابوا للإسلام كما استجاب أجدادهم من قبل للمسيحية ، ولو جاز لنا أن نقول بقوله الأستاذ زكي شنودة بأن المسلمين وافدون من الخارج لجاز بالتأكيد أن نقول إن المسيحيين وافدون من الخارج قبلهم ، وهذا يعني اتهام المصريين بالتشبه بفكرهم الديني القديم وعدم الاستجابة للدعوات الدينية الواردة من الخارج وهذا خطأ كبير يصور العقاية المصرية بالجمود .

والذي لا شك فيه أن بعض المصريين مزيج من الدم الفرعوني والدم العربي الذي هاجر الى مصر والذي كان شديد الرغبة في الاختلاط ، وبخاصة إذا لاحظنا أن المرأة العربية قلما غادرت الجزيرة العربية ، وأن الرجل العربي هو الذي هاجر جنديا ومعلما ، وتزوج حيث أقام ، ومن هذا المزيج يوجد عدد كبير من أبناء مصر .

أما الكثرة الغالبة من مسلمي مصر فهي تمثل أسرا مصرية كانت قبطية ثم دخلت الاسلام ، وأحيانا كانت الأسر القبطية تتشعب فيدخل الاسلام جماعة وتبقى على المسيحية جماعة أخرى منها ، وذلك ما يحدث حتى الآن . وكان بعضهم يتجه الى علوم القرآن ويبرع فيها ، ومن هؤلاء عثمان بن سعيد (ورش) الذي تقرر المراجع أنه ينحدر من أصل قبطي ومع هذا برع في علم القراءات وانتهت إليه رئاسة القراء في مصر كما سيأتى . وانتشار الاسلام بين الأقباط هو ما يحدث نظيره في العالم كله ، فقد انتشر الاسلام بين الهنود وبين الفرس وبين الصينيين ، وليست مصر بدعسا عن غيرها .

وما أجدرنا ألا نستعمل العلم سلاحا للرغبات الخاصة .

انتشار اللغة العربية

في مجال نشر اللغة العربية نجد العرب يَمُرُّون بخطوتين هامتين ؛ ففي الخطوة الأولى عملوا على إحياء اللغات المحلية ؛ الآرامية بسوريا ، والقبطية بمصر ، وذلك ليتم لهم القضاء على اليونانية التي تخلفت عن البطالسة واللاتينية لغة الرومان ، وسرعان ما تم لهم ذلك إذ رحب به السوريون والمصريون . وتجيء الخطوة الثانية وهي نشر اللغة العربية بعد ذلك ، ولا نزاع أن الإسلام وهو ينتشر أخذ معه اللغة العربية ، فإذا جاز نشر المسيحية بدون لغة أو نشر اليهودية والبوذية كذلك ، فإن نشر الإسلام ينشر اللغة العربية كذلك لضرورة الصلاة وقراءة آيات من القرآن الكريم ، ولذلك نجد أنه بعد حوالي سبعين عاما من الفتح أصبحت اللغة العربية هي اللغة العامة في الأقطار المفتوحة .

ثم تأتي نقطة أخرى نشرت اللغة العربية ودعمت جانبها حتى مع غير المسلمين ، تلك هي تهريب الدواوين في عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد أصبح لزاما أن تتم الحسابات والمكاتبات باللغة العربية ، وكان على طلاب الوظائف في الدواوين أن يجيدوا هذه اللغة ، وقد فتح العرب باب الخدمة في الدولة لكل السكان على اختلاف أديانهم ونحلهم ، غير أن اللغة العربية كانت وسيطتهم لهذه الخدمة ، ولذلك فإننا نجد أنه بمرور الزمن وجدت طوائف غير مسلمة لا تعرف إلا اللغة العربية مما أدى إلى ضرورة ترجمة الإنجيل وبعض الكتب المسيحية الأخرى لهؤلاء .

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية سعة هذا اللسان وسلامته ، فإن هذه اللغة لم تنقف ولم تجمد ؛ هضمت ألفاظا من الفارسية والرومية والسرانية والعبرانية والقبطية والهندية وتركت ألفاظا عربية كانت مألوفة في عصر الجاهلية ، واتجهت ببعض الكلمات العربية لأداء معان أخرى غير تلك التي كانت تؤديها قبل الإسلام ، ومسعى العرب بحماسة ليجعلوا لغتهم لغة عام ، كما كانت لغة دين وأدب وسياسة ، ويقرر رينان أن هذه

اللغة ظهرت فجأة في غاية الكمال والسلاسة والعنى بحيث يمكن القول إنها ليس لها عهد بالطفولة (١) *

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية بمصر وفود القبائل العربية التي هاجرت إليها وامتزجت بسكانها ، فقد استقبلت مصر في مطلع عهدها بالاسلام كثيرا من عرب الجنوب ، ثم استقبلت إبان خلافة هشام ابن عبد الملك وفودا كثيرة من قبيلة قيس ، وقد نزل هؤلاء في منطقة بلييس وما حولها بمحافظة الشرقية ، وفي القرن الثالث هاجرت الى مصر وفود من ربيعة واستقرت بالصعيد *

وتم امتزاج العرب بالمصريين على نطاق واسع عقب سقوط الأمويين وفي خلال عهد المعتصم كما ذكرنا آنفا ، ونزل العرب ميدان الزراعة والصناعة والتجارة ، وعن هذا الطريق وكذلك عن طريق التزاوج اندمج هؤلاء بأولئك وأصبح عسيرا بعد فترة. أن نفرق بين السكان الأصليين وبين الوافدين على مصر وسوريا من العرب *

وكمل النصر للغة العربية عندما نزع كثير من العرب الرحل من البادية وانخرطوا في غمار حياة الاستقرار بالمدن الغنية المفتوحة ، وبشيوع اللغة العربية بين السكان الأصليين اضطر رجال الكنيسة في القرن العاشر أن يضعوا كتاباتهم باللغة العربية حتى يفهمها أتباعهم (٢) *

ويبدو على العموم أن انتصار العربية الفصحى ، تم قبل انتصار العامية ، وبالتالي انتشر التأليف باللغة العربية وكذلك انتشر الحديث بها في المجالات العلمية والأدبية ، قبل انتشار العامية ولغة الشارع ، ففي مصر كتب ابن الدابة سنة ٨٣٣٩ سيرة أحمد بن طولون ، وحوالي هذا الوقت كتب ابن البطريق كتابه في التاريخ ، ثم كتب ساويرس أسقف الأسمنين

(١) نقلا عن محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٨٠ .

(٢) Kilik : A Short History of the Middle East p 37

سير الأبطال البطارقة ، وازدهرت اللغة العربية في بلاط الإخشيد ، حيث ظهر الأدباء والشعراء ، وكذلك في البلاط الفاطمي خلال القرن الرابع ، وفي سوريا بدأت الكتابة باللغة العربية مبكرة أيضا ، وأقدم ما وصل إلينا مخطوطة ألفها أبو قزرة في مطلع القرن الثالث الهجري (سنة ٢٠٥) ، وكتب عبد الله ابن محمد البلوي من مؤرخي دمشق سيرة أحمد بن طولون في الثلث الثاني من القرن الرابع . ومما ساعد على انتشار اللغة العربية ، أن التحول من لغة سامية الى لغة سامية أخرى ليس به مشكلات لغوية مستعصية .

أما اللغة العامية فقد تأخر انتشارها بين الجماهير ، فالمقرئ (١) يقرر أن المأمون (١٩٨ — ٢١٨) عندما زار مصر كان يمشي والتراجمة بين يديه ، ومن الواضح أن انتشار العربية الفصحى سبق ذلك بكثير ، وبدأت الدواوين تستعمل هذه اللغة منذ آخر عهد عبد الملك (٦٥ — ٨٦) ، ثم انتشرت بعد ذلك فكثبت بها الرسائل ، ثم أصبحت لغة التأليف والتصنيف والأدب ، وعلى العموم فإن من الطبيعي أن سير الفصحى كان سريعا ، أما العامية فكان سيرها بطيئا ، وكانت مصر أسبق من سوريا في القضاء على لغتها المحلية ، أما سوريا فقد عاشت اللغات المحلية بها عهدا أطول ، فيذكر فيليب حتى أن انتصار اللغة العربية على اللغات المحلية بها لم يكتمل إلا في القرن الثالث عشر ، ومع هذا فقد بقيت هناك « جزر لغوية » لأقوام غير مسلمين كاليعاقبة والنساطرة والموارنة ، وفي عهد الصليبيين كان هناك كثير من هذه « الجزر اللغوية » وفي لبنان الماروني دافعت اللغة السوربانية المحلية عن نفسها دفاعا مريرا وطويلا حتى القرن السابع عشر ، ولا تزال السوربانية لغة الحديث في ثلاث قرى في لبنان الشرقي هي معلولا وبخعة وجيعادين ، وهي لا تزال لغة الطقس الكنسي لدى الموارنة ، وفي بعض الكنائس السوربانية الأخرى ، أما السوربان الناطقون باليونانية فلم يظهر منهم مثل هذا التعلق بلغتهم الأم (١) .

(١) الخطط : ج ١ ص ٨١ .

(٢) History of Syria pp 171 - 172

نظم الحكم في عهد الولاية

يمكن القول إن المسلمين استفادوا بالنظم والتقسيمات الادارية التي كانت موجودة في سوريا ومصر قبل الاسلام ، ولكن شيئاً رئيسياً حدث هو إدخال الطابع الاسلامى على نظام الحكم ، وقد شمل هذا الطابع الاسلامى الاتجاهات السياسية والادارية والمالية ، فأصبح أهم عمل يؤديه الوالى هو إمامة الصلاة ، وأصبحت الضرائب تتبع التعاليم الاسلامية ، وهكذا ، وسنتكلم هنا كلمة عن أبرز الوظائف التي كانت تدير جهاز الحكم في عهد الولاية :

الجهاز السياسى :

كانت البلاد مقسمة الى مناطق ، وكل منطقة كانت مقسمة الى قرى وكور ، وفي قمة الجهاز السياسى كان يجلس الوالى الذى وضعت بيده مقاليد الأمور كلها ، فكان ينوب عن الخليفة في شئون الدين وإمامة الصلاة ، وكانت له قيادة الجيش التابع له ، والإشراف على الشرطة والأمن ، وتنفيذ أحكام القضاء •

وفي الأقاليم والقرى التابعة للوالى كان هناك تقريباً جهاز مصغر الصورة لجهاز الذى يرأسه الوالى بالعاصمة ، فرئيس الإقليم أو القرية كان له في دائرته سلطة الوالى في ولايته ، أى كان يؤم الناس في الصلاة ويشرف على استتباب الأمن وتنفيذ أحكام القضاء ، وبهذا كان في نظام الحكم نوع من اللامركزية •

وكان الوالى يعين صاحب البريد الذى كان يقسوم بدور مهم في الإشراف على الكور والقرى والمناطق المختلفة ، إذ كان يحمل للوالى أخبار هذه المناطق وأخبار القائمين باسم الوالى على الأمر بها ، فكان بذلك يمثل عين الوالى التى تبصر له الأحداث في جميع أركان الولاية ، وهذا يوضح مدى أهمية هذه الوظيفة للوالى ، وبجانب ذلك كان صاحب

البريد يحمل الأوامر من الوالى إلى الأقاليم ، وكان الوالى يعين عددا من الموظفين الذين يتولون عمليّات التدوين والرسائل .

وهناك وظيفتان كبيرتان حرصت عاصمة الخلافة في أكثر الأحوال على إبقائهما في يدها وهما : وظيفة جابى الخراج ، والقاضى ، وكان ولاية الأقاليم يحرصون من جهة أخرى أن يترك لهم الأمر في هاتين الوظيفتين أيضا ، وكان الوالى إذا أشرف على شئون المال يقوى سلطانه ، وقد يهدد بسبب ذلك بالاستقلال عن عاصمة الخلافة ، ولذلك كان الخلفاء يحرصون على أن يستبقوا سلطة المال في أيديهم ، وأن يعينوا لهذه المهمة موظفا يكون تابعا لهم مباشرة ، وسرى أن أحمد بن طولون وجد من الضروري أن يتخلص من ابن المدير عامل الخراج ، إذ رأى أن سلطانه لا يتم مع وجود هذا الموظف بجانبه .

وفيما عدا هذه الوظائف الرئيسية نجد المسلمين يفسحون الطريق للمصريين والسوريين ليشتغلوا عدة وظائف ، وقد استعان المسلمون في أول الأمر بمن كانوا يشغلون الوظائف المتصلة بالمال والضرائب من بيزنطيين ومصريين ، ولكنهم أتاحوا الفرصة ليحل المصريون والسوريون محل البيزنطيين من حين إلى حين ، فلم تمض فترة طويلة حتى أصبحت هذه الوظائف في أيدي السوريين والمصريين ، ولكن لما تعام العرب فنون الإدارة ، وكثبت الجواوين بالعربية في عهد الدولة الأموية أخذ العرب من المصريين هذه الوظائف ، فثار المصريون عليهم ، وحدث صدام كانت الوظائف من أهم أسبابه وكان التصرف فيه للعرب ، فلجأ المصريون إلى تعلم اللغة العربية واعتناق الاسلام لتتم مساواتهم بالعرب ، وبالتالي لينالوا حقوقهم في هذه الوظائف (١) .

وقد تحدثنا حديثا مفصلا عن الولاية وأنواعها ، والأمور التى يكل

(١) عمر الأسكندري : تاريخ مصر حتى الفتح العثمانى ص ١٧٢ .

الخليفة النظر فيها الى ولايته في كتابنا « السياسة في الفكر الاسلامي » (١) .

النظام المالي :

قلنا فيما سبق إن كثيرين من المصريين والسوريين أسرعوا في اعتناق الإسلام ، وقد وجب على هؤلاء ما يجب على المسلمين من دفع الزكاة وغيرها مما يحتمه الفكر الاسلامي ، أما أولئك الذين لم يدخلوا الاسلام فقد التزموا بالجزية على الرعوس والتزموا بالخراج على الأرض ، ويتضح لنا مما يذكره المؤرخون أن العرب ساروا في مصر وفق نصوص الصلح التي عقدها مع المقوقس عند حصار حصن بابليون ، فلم يقتلوا أهلها بالضرائب ولم يفرضوا على المصريين والسوريين نظاما ماليا قاسيا ، ويذكر ابن عبد الحكم أن مصر فتحت صلحا بفريضة دينارين على كل رجل ، وأن الاسكندرية فتحت عنوة ، ولكن عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب يسأل عن طريقة معاملة أهل الاسكندرية ، فأجابته عمر بأن يضرب عليهم الخراج والجزية دون أن يستعبد أحدا ، أو أن يجعل أموالهم فينا (٢) .

وهكذا ألحق عمر الاسكندرية بسواها في المعاملة ، وحدث مثل ذلك أيضا في الشام ، فان عمر لم يقبل أن تقسم الأرض والسكان على الفاتحين وإنما أشار بأن يكتفى بالخراج على الأرض وبالجزية على الرعوس (٣) . وفي كتابنا « الاقتصاد في الفكر الاسلامي » دراسة حافلة عن الخراج والجزية ومقدار كل ٠٠٠ فليرجع اليه من يشاء (٤) ، وقد وضعنا بشكل خاص أن الخراج على مصر كان يتفاوت بتفاوت فيضان النيل (٥) .

(١) السياسة في الفكر الاسلامي للمؤلف ص ١٨٩ وما بعدها من الطبعة السادسة .

(٢) ابن الحكم : فتوح مصر ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) البلاذري فتوح البلدان ص ٢٢١ والخراج ليعلى بن آدم ص ٤٥ .

(٤) الاقتصاد في الفكر الاسلامي للمؤلف ص ٢٢٨ وما بعدها من

الطبعة السادسة .

(٥) انظر الطبري ج ٤ ص ٢٢٩ ، والقلقشندي : صبيح الامشي

وهناك ضرائب أخرى التزم بها المصريون في وثيقة الصلح وهي حق الضريبة مدة ثلاثة أيام للعرب الواقدين لأموار رسمية الذين ينزلون على أهل هذه البلاد .

والنظرة السريعة للنظم المالية في العهد الاسلامي بمصر والشام تقرر أن الضرائب كانت ميسرة ، وكانت أقل كثيرا مما التزم به المصريون والسوريون للرومان قبل الفتح الاسلامي ، ومن مقارنة ما ذكره Lane Poole والنسبوتي يتضح لنا أن ما كان يحضله المسلمون من ضرائب كل عام كان حوالي نصف ما كان يجمعه المقوقس قبل الفتح الاسلامي (١) . ولكن بئثر ينتل عن حنا النقيوسي ما يفيد أن العرب كانوا قساة في معاملة المصريين وتحصيل الضرائب منهم . وليس عسيرا على أي باحث أن يدرك أن حنا النقيوسي كان متعصبا ، وأن حكمه يحمل بذور رفضه ، فعباراته تنم عن السخط والكراهية وشدة التذمثر والانفعال ، مما يجعل كلامه لا يقبل بحال في ميزان التاريخ ، وليس سمح لنا القارئ أن ننقل هنا سطرا واحدا من كلامه ليرى الى أي مدى كان هذا الكاتب حائقا ، فهو يقول عند وصف الأيام الأخيرة من حياة المقوقس « إن عمرا لم تكن في قلبه رحمة بالمصريين ولم يرع العهد الذي عقده معهم ، إذ كان رجلا من الهمج » ومن الواضح أن مثل هذا التحامل يسقط قيمة البحث ، وبالتالي لا يجعله مصدرا جديرا بالاعتبار ، واعتماد « بئثر » عليه يجعلنا نحكم عليه حكما على المصدر الذي استمد منه معلوماته (٢) .

وإذا كانت هناك دوافع تعصب ديني جعلت حنا النقيوسي وبئثر يحملان على العرب والحكم العربي ، فأننا كنا نود أن تتحاشى الأقلام العربية المسلمة هذا الاتجاه وبخاصة إذا لم تكن هناك مصادر علمية موثوق بها ويمكن الاعتماد عليها اعتمادا تاما ، أقول هذا وأمامي مؤلفان عن

(١) انظر حسن المحاضرة ج١ ص ٦٤ .

(٢) انظر فتح العرب لمصر لبئثر ص ٢٦٧ وما بعدها .

هذه الحقبة بقلم واحد ، وأشهد أن روح التحامل واضحة فيهما ، وتنساب بين سطورهما دون أساس علمي على الإطلاق ، وبدون مراجع حيث تتحتم المراجع ، ولاكتف بهذه الاشارة دون تعريف بالكتابين فليست أحب أن أتتبع سقطات الناس ، وأرجو أن يعود كل كاتب الى رشده ، فقد نلنا بالاسلام مكانة مادية وأدبية كان يستحيل علينا أن ننالها بدونها .

النظام القضائي :

منصب القاضي — كما أشرنا من قبل — كان يتبع الخليفة غالبا ، وكان الخليفة أحيانا يترك للوالي سلطة تعيين قاضي ولايته ، وعندما ظهر منصب قاضي القضاة بالعاصمة كان يقوم باسم الخليفة بتعيين قضاة الأقاليم (١) . وكان الخليفة يتدخل أحيانا فيلغى حكما أصدره قضاة إذا رأى الخليفة أن الحكم لم يكن منصفاً لسبب من الأسباب ، بل كان الخليفة يعزل القاضي إذا رأى في أحكامه بعدا عن العدالة ، ويروى لنا الكندي نماذج من هذه التصرفات (٢) .

إذا أشكل أمر على القاضي بعث لقاضي القضاة أو إلى الخليفة يسأل رايه ، وكان الخليفة يجيبه عنه من عنده أو يعقد مجلسا للعلماء لإصدار رأي فيه ، وكانت المساجد هي دور القضاء يتجمع فيها المتناضون ، وكان جامع عمرو بن العاص مكانا مختارا في القاهرة لمجلس القضاء .

وطبيعي أن القضاء في الاسلام كان يستمد أحكامه من المصادر الاسلامية الرئيسية ، فكان بذلك أبعد النظم عن نظيره البيزنطي ، وكان القاضي يعتمد على القرآن والحديث والإجماع . . . وكان أحيانا يجتهد

(١) انظر تاريخ التشريع والقضاء في الاسلام للمؤلف ص ٢٦٢ وما

بعدها .

(٢) الولاة والقضاة ص ٢٤١ و ٤١٣ .

إذا لم يجد في المصادر المذكورة ما يشفي غلته ، وبعد أن انتشرت المذاهب الأربعة كان للقاضي أن يصدر فتواه تبعا للمذهب الذي يرتضيه •

أما غير المسلمين فكانوا يتبعون قضاة منهم في قضايا الأحوال الشخصية والخاصة ، وكانت أحكام هؤلاء تصدر وفق أديانهم •

وكان قاضي الولاية يقوم بالاشراف على أموال اليتامى وعلى الأوقاف الخيرية ، ويتزعم الاحتفالات الدينية •

ومن أعظم من اشتهر من القضاة بالفضل والاستقامة والعدل القاضي غوث بن سليمان المتوفى سنة ١٦٨ ، وكان لا يمنع عن الوصول إليه متظلماً قط ، ومنهم كذلك خلفه الفضل ، وهو أول من أمر بتدوين الأسباب الكاملة التي بنى عليها الحكم (١) •

وبجانب القاضي كان يوجد المحتسب ، ومهمة المحتسب معاقبة المذنب الذي لم تتجه خطيئته ضد فرد معين ، وإنما اتجهت ضد النظام العام والآداب العامة ، وعلى هذا كان المحتسب يعاقب من يسبب الازدحام في الطرقات ، كما كان يحارب الغش ويراقب الموازين (٢) •

(١) انظر تفاصيل واسعة عن التشريع والقضاء في الجزء الثامن من موسوعة النظم والحضارة الاسلامية وهو المخصص لتاريخ التشريع والقضاء في الاسلام •

(٢) انظر الحديث عن الحسبة في كتابنا « السياسة في الفكر الاسلامي » ص ٢٣٥ •

الحركات بمصر وسوريا

حتى العهد الطولوني

أخذت مصر نصيبا كبيرا في الحركات السياسية والدينية التي كانت تضطرب في انعالم الاسلامى إبان فترة الولاية ، ونقصد بمصر سكانها الذين اتخذوها وطنا لهم سواء أكانوا منحدرين من أرومة مصرية أو كانوا من قبائل العرب التي هاجرت الى مصر ، أو من الجنود والموظفين الذين ارتبطوا بمصر وامتزجت بأهلها عروقهم • وسنلم هنا المامة سريعة بالدور الذى قامت به مصر فى هذه الحركات •

الفتنة فى عهد عثمان :

تحدثنا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة عن الفتنة التى هبت فى عهد عثمان ، وعن أسبابها وركائزها السياسية والاقتصادية ، ودور عبد الله ابن سبأ اليهودى الذى ادعى الاسلام فيها (١) ، ولعبت مصر دورا خطيرا فى هذه الفتنة ، فقد كان الوالى حينذاك عبد الله بن أبى سرح ، رقى أثناء الفتنة وقبلها كان مشغولا بحروب خارجية ، فقد غزا إفريقية سنة ٥٢٧ واشتبك فى حرب مع بلاد النوبة وعقد مع ملكها معاهدة سنة ٥٣١ وحارب الروم فى موقعة ذات السوارى سنة ٥٣٤ ، وقد وجد ابن سبأ فى غياب عبد الله بن سعد بن أبى سرح عن مصر فرصة له ليتشر آراءه ويضم حوله الصفوف •

ولما علم عبد الله بن سعد بتفاقم هذه الفتنة أسرع عائدا الى مصر ، ولكن يبدو أن الأمر كان على وشك أن يقلت زمامه أو أفلت فعلا ،

(١) موسوعة التاريخ الاسلامى ج١ ص ٥٩٨ وما بعدها من الطبعة الثانية عشرة •

ولذلك رحل عبد الله بن سعد إلى المدينة ليشرح منطوية الأمر للخليفة ،
وليتفق معه على خطة للقضاء على هذه الفتنة ، وأتاب عنه من يتولى أمور
البلاد في أثناء غيابه .

وقد وجدت الفتنة في هذا التصرف فرصة لها فتفاقمت وترعما مديون
ابن أبي حذيفة الذي استطاع أن يطرأ نائب عبد الله بن سعد ، وأن يمنع
عبد الله نفسه من دخول مصر عندما حاول أن يرجع إليها ، ثم خرج من
مصر جماعة الثوار الذين اشتركوا اشتراكا فعليا في قتل الخليفة
عثمان كما وضحنا هذا الأمر في الجزء الأول .

الصراع بين علي ومعاوية :

بعد مقتل عثمان قسام صراع عنيف بين علي الخليفة الرابع وبين
معاوية الذي ادعى أنه يطالب بدم عثمان ، واتبع هذا الخلاف وتشعب ،
وظهر الخوارج فأضعفوا جبهة علي ، وقد تحدثنا عن هذا النزاع ونتائجه
في الجزء الأول من هذه الموسوعة (١) ، ونريد هنا أن نبرز دور مصر في
هذا الصراع .

أعلن محمد بن أبي حذيفة البيعة لعلي ، ولكن أنصار عثمان التفوا
حول معاوية بن خديج ، وحصلت مناوشات بين الجماعتين لم تسفر عن
حل حاسم ، وجاء معاوية بن أبي سفيان إلى مصر سنة ٤٣٦ هـ ، وأجرى
مفاوضة مع محمد بن أبي حذيفة لتظل مصر على الحياد ولم يقبل علي
ابن أبي طالب هذه النتيجة ، وولى علي مصر قيس بن سعد بن عبادة ،
وهو رجل مشهود له بالكفاءة والحكمة ، فلم يطمع معاوية أن يتغلب عليه
في ميدان السياسة ولا في الميدان العسكري ، وبخاصة أنه لم يكن ينوى
الدخول في حرب ضد مصر في هذه الأثناء لانشغاله في الاستعداد لمواجهة
علي ، فلجأ إلى وسيلة أخرى ليتخلص من قيس ، تلك هي أن أطلق

(١) ج ١ ص ٦١٢ وما بعده ، الطبعة الثانية عشرة .

الشائعات عن صلته به وتعاونيه معه ، وصدق على هذه الفرية فعزل قيس بن سعد ، وخسر بذلك كفاءة ممتازة وإخلاصا جما ، وولى مكانه محمد بن أبي بكر الذي كان أقل منه كفاءة ومهوبة ، وبعد نهاية موقعة صفين وانشغال على بالخوارج أرسل معاوية لمصر جيشا بقيادة عمرو بن العاص فاستطاع أن يكسب النصر دون كبير عناء وقتل محمد بن أبي بكر ، وعقب ذلك أعلنت خلافة معاوية وأصبحت مصر ولاية أموية .

دهرة ابن الزبير :

تحدثنا عن أطماع ابن الزبير في الجزء الثاني من هذه الموسوعة (١) ، وعن مسدى نجاحه وامتداد سلطانه عقب وفاة يزيد بن معاوية ، حتى اقتحم أتباعه الشام على الأمويين ، وفريد هنا أن نقول إن مصر كانت ضمن الولايات التي بايعت ابن الزبير ، وقد أرسل هذا عبد الرحمن بن جندب واليا له عليها ، فاعتزل سعيد بن يزيد والى الأمويين وبدأ أن الأمر تم لابن الزبير بمصر .

وظهر مروان بن الحكم وبدأ الأمويون يستعيدون مكانتهم تحت قيادته ، وكانت مصر من أهم البلاد التي وجه لها عنايته بعد أن استتب له الأمر بالشام ، فأرسل لها ابنه عبد العزيز على رأس جيش كبير ، ثم جاءها مروان نفسه ، وقد دارت معارك متعددة بين عبد الرحمن ومروان من أشهرها معركة حول الفسطاط تعرف بموقعة الخندق (٢) وانتهت بفوز مروان ، وقد أقام مروان بعد ذلك شهرين بمصر وطد فيها سلطانه وقضى على أعداء الحكم الأموي .

مصر والحركات الأموية والهاشمية :

ذكرنا من قبل أن مصر كانت تؤيد على بن أبي طالب ، ولكن سياسة معاوية ودهاء عمرو بن العاص أصبحت مصر تابعة لبني أمية ، بيد أن

(١) ج ٢ ص ٢٢٢ وما بعدها من الطبعة السابعة .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٣٧ .

شبيعة آل البيت ظلوا ينتظرون الفرص للثورة من جديد ، وفي أثناء
النشاط الشيعي بخراسان بدأ ضده يظهر بمصر ، وعندما تفاقمت الأمور
ضد الأمويين بقيادة أبي مسلم الخراساني بدأ الجند في مصر يخرجون
عن طاعة القادة الأمويين ويعضون أوامر الخليفة مروان بن محمد ، وعندما
فر هذا إلى مصر لم يجد من يحسن استقبله ويقاوم بحرارة معه فواصل
تقهقره حتى قتل .

وعلى إثر نهاية الأمويين وقيام العباسيين أحس أتباع أهل البيت
بضيق أمل ، فقد كانوا يظنون أن سقوط الأمويين سيعقبه قيام دولة
علوية ، ولذلك نجد مصر تشهد خلال العهد العباسي حركات تدعو للعلويين
أو تؤيد اللثائرين العلويين ، كما هبت بمصر حركات أموية قام بها بقايا
الأمويين أو أتباعهم .

ومن الحركات الأموية تلك التي قام بها دحية بن مصعب بن الأصبع
بن عبد العزيز بن مروان ، وقد خرج في الصعيد إبان ولاية إبراهيم—
بن صالح (١٦٥ — ١٦٧ هـ) وقد نجحت دعوته إلى حد كبير ولم يستطع
إبراهيم إيقافها ، فأرسل الخليفة العباسي المهدي واليا آخر هو الفضل
بن صالح بن علي الذي استطاع بعد نضال طويل أن يقضى على حركة
دحية (١) .

أما أتباع العلويين فقد أخذوا يظهر من حين إلى آخر وكان من
أبرز حركاتهم تأييدهم لمحمد بن عبد الله « النفس الزكية » ولأخيه
إبراهيم ، وقد حضر إلى مصر في خلال هذه المعركة على بن محمد واستطاع
أن يضم الكثيرين إلى دعوة أبيه ، وحاول أن يرسل الميرة للثائرين بالمدينة
عن طريق خابج أمير المؤمنين مما حدا بالمنصور أن يردهم هذا الخليج ،
ولم يستطع وإلى مصر حميد بن قحطبة أن يقضى على هذه الحركة ، ولكن

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٧ — ٦٠ — ٦١ .

سرعان ما جاءت الأخبار بمقتل النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، فخبأ بذلك نشاط الحركة بمصر

وفي أثناء الاضطهاد القاسي الذي صبه العباسيون على العلويين هاجر كثير من العلويين الى مصر والشمال الافريقي ، ومنهم هاجر الى مصر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي ، فقد جاءت مع زوجها إسحق بن جعفر الصادق ، ويبدو أن المصريين رحبوا بالعلويين والتفوا حولهم ، ولذلك نجد الخليفة المتوكل على الله يأمر والى مصر أن يخرج آل علي بن أبي طالب من مصر فأخرجوا الى العراق والمدينة ، ومنهم هربوا أيضا من وجه العباسيين إدريس بن عبد الله الذي كوّن دولة الأدارسة ببلاد المغرب ، وعلى كل حال فإن ثورات العلويين لقيت في مصر والشمال الإفريقي أخصب الأمكنة للازدهار ، وفي هذه المنطقة الأخيرة قامت دولة الأدارسة والدولة الفاطمية .

مصر في النزاع بين الأميين والمأمون :

وفي خلال النزاع بين الأميين والمأمون اعتمد على قوة أخواله الفرس ، واصطبغت حركته في مطلعها بصبغة فارسية ، وعُدَّ مغلوبا على أمره تسيّره قوى العناصر الفارسية ، ومن هنا انتصرت للأميين أكثر العناصر العربية فأصبح النزاع بين الأميين والمأمون الى حد كبير نزاعا بين الفرس الطامعين والعرب المدافعين عن كياناتهم ، وقد ظهر بمصر الاتجاهان جميعا ، فكانت هناك قوة تتناصر للأميين وقوة أخرى تتناصر للمأمون ، ولكن مركز الأميين بدأ يضعف بسبب ما عرف عنه من خلاعه وحشث بالعهود ، ثم بسبب عودة المأمون من خراسان وقضائه على طينيان الفضل بن سهل عليه ، وقد ظهر في أثناء هذه الفتنة عدد من القواد منهم عبد العزيز الجارود الذي استولى على شرق الدلتا ، والسري بن الحكم الذي استولى على الوجه القبلي ، وقبيلاتا لحُم وجندام اللتان أصبح لهما السيطرة على الاسكندرية والبحيرة ، وظل هؤلاء المتقلبون يباشرون نفوذهم حتى استقر

الأمر للخليفة المأمون ، فاضطر الخليفة أن يرسل الى مصر خيرة قواده : عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وكان واليا على الشام ، وقد استطاع عبد الله أن يعيد الأمن والنظام ، وقام بعدة اصلاحات نافعة ولكنه عندما غادر مصر عادت الفتنة من جديد ولم تهدأ هذه المرة إلا بحضور المأمون نفسه (١) :



تلك هي أبرز الحركات التي هبت بمصر في عهد الولاة وظروف سوريا تختلف عن ظروف مصر إبان هذه الفترة ، فقد كانت سوريا تحت إمرة معاوية أميراً فخليفة ، ثم ظلت عاصمة العالم الإسلامي حتى سقوط الأمويين ، حيث أصبحت ولاية عباسية ، وفي أثناء هذه الولاية قامت بها حركات ثائرة ، فقد اتخذ السوريون في العصر العباسي دستورهم من الكلمات التي صاح بها قائد من بنى كلب في قومه يخثهم على مقاومة بنى العباس ، مهما كانت ضحايا هذه المقاومة ، وهذه الكلمات هي : يا معشر كلب ... إنها الراية السوداء ... إقتلوا الشر قبل أن يعظم ... الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري (٢) .

وقد استجاب بنو كلب لهذا الهتاف ، فتوالت ثورات الأمويين وثورات أتباعهم بسوريا ، كما أوضحنا ذلك في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ، بل إن بعض العباسيين المتمردين على الخلافة العباسية استغلوا سخط سوريا على الخلافة الجديدة فاتخذوا من سوريا مركزاً لتمردهم ،

(١) في كتاب الولاة والقضاة للكندى دراسة واسعة لهذه الحركة وقد وضعناها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

(٢) الطبري : ج ٣ ص ٨٤٤ .

كما حدث بالنسبة لعبد الله بن علي ، وقد فصلنا الكلام عنه في الجزء الثالث أيضا .

ومن الثورات التي نسبت للأمويين ، ثورة الثائر المقتنع ، وهو رجل مجهول النسب ، وإن ادعى بعض أتباعه أنه سفياني وكان هذا الثائر لا يظهر للناس إلا مقتنعا فعُرف بالثائر المقتنع أو البرقع ، وقد اتسع نفوذه فتيحه حوالي مائة ألف رجل أكثرهم من الفلاحين ، مما يدل على أن بذورا اقتصادية كانت تغذي هذه الثورة ، وقد حقق كثيرا من الانتصارات حتى أوقع به الخليفة المعتصم (١) .

(١) ابن عساکر : الجزء الخامس ص ٣١١ .

حضارة مصر في عهد المولاة والمدرسة الإسلامية المبكرة

كانت مصر تعاني أزمة ثقافية قبيل الفتح الإسلامي ، فالأديرة التي كانت تمثل مراكز للثقافة أصبحت قبيل الفتح تقف موقف العداء من الفكر الإغريقي بسبب الاختلاف حول طبيعة المسيح ، وقد أدى ذلك إلى أن وصلت الحضارة الإغريقية إلى درجة الاحتضار والذبول في القرن السادس ، وكما انصرف الرهبان عن الثقافة الإغريقية انصرفوا كذلك عن اللغة اليونانية واتجهوا إلى إحياء اللغة القبطية (١) ، التي أولاهها العرب كثيرا من عنايتهم بعد الفتح كما سبق القول .

وجاء الاسلام بأفانين من الفكر ، وللإسلام ثقافته وحضارته ، ولحصر تاريخها المجيد فلا عجب أن وجد الإسلام في مصر أرضا خصبة يزرع بها مبادئ فكره وثقافته ، وسنلم هنا بحضارة مصر في هذا العصر :

العلوم الإسلامية :

جذبت مصر إلى ربها مجموعة من المحدثين والفقهاء والأفذاذ ، وأنتجت مصر مجموعة لا تقبل عن الوافدين موهبة وكفاءة ، ومن هؤلاء وأولئك تكونت بمصر مدرسة للدراسات الإسلامية صارت المدارس الأخرى في مختلف العواصم الإسلامية ، وكان على رأس هذه المدرسة عبد الله بن عمرو بن العاص الذي يقال إنه أسلم قبل أبيه ، وكان محدثا وفقها ممتازا ، ويحيى بعده فقيه مصر وشيخها يزيد بن أبي حبيب الذي وكل له عمر بن عبد العزيز أمور الفتيا وقصد مات سنة ١٢٨ هـ ، وعبد الله بن لهيعة الذي تولى القضاء بمصر حوالي عشر سنوات من سنة ١٥٥ حتى وفاته سنة ١٦٤ هـ (٢) ، ثم الليث بن سعد البصري وصل

(١) بل : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربي ص ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠ .

القمة بين الفقهاء والمفكرين وكان سوريا نبيلاً سخياً فقيهاً يجيد الحديث والشعر ، وقد عرض عليه المنصور ولاية مصر فامتنع ، ولكنه كان أعلى مقاماً من الوالى والقاضى ، وكان إذا رابه من أحد المسئولين شىء كاتب فيه الخليفة فيعزل ، وتوفى سنة ١٧٥ هـ .

ومن علماء مصر سعيد بن عبد الله بن أسعد المغافرى (١٧٣) وعبد الرحمن بن القاسم بن جنادة (١٩١) وعبد الله بن وهب (١٩٧) وعبد الله بن عبد الحكم (٢١٥) وأبناؤه عبد الحكم (٢٣٧) وعبد الرحمن (٣٦٨) الذى خلف لنا كتابه القيم « فتوح مصر » .

ويعتبر الإمام الشافعى مصرى . فى الفترة الأخيرة من عمره ، فقد قدم إلى مصر سنة ١٩٨ وجلس فيما يصنف ويعلم حتى مات بها سنة ٢٠٤ ، ومن أشهر مؤلفاته بمصر كتاب الأم والإمامى الكبرى والرسالة والسنن ، وقد اتبع المصريون مذهب الشافعى وأجلّوه محل مذهب مالك الذى كان واسع الانتشار بمصر قبل ذلك ، وترك الشافعى بمصر تلاميذ أجلاء واصلوا ما بدأه من دراسات وأبحاث ، منهم أبو يعقوب يوسف البويطى وعبد العزيز ابن عمران الخزاعى والربيع بن سليمان الأزدي .

وبرزت مصر بوجه خاص فى علم القراءات ، ومن علماء مصر المشهورين فى هذا المجال عثمان بن سعيد (ورش) الذى ينحدر من أصل قبلى ، والذى انتهمت إليه رئاسة القراء بمصر ، وقد توفى سنة ١٩٧ ، ومنهم كذلك أبو يعقوب يوسف بن عمرو المصرى الذى خالف ورشاً فى علم القراءات وقد توفى سنة ٢٤٠ هـ .

علوم اللغة والأخبار :

نهضت مدرسة اللغة والأدب والأخبار بمصر على نحو ما نهضت مدرسة الدراسات الإسلامية ، ومن زعماء هذه المدرسة ابن ناطر المغافرى المصرى (١٢٨) ، وأحمد بن يحيى التجيبى المصرى (٢٠٥) ،

وعبد الملك بن هشام مؤلف سيرة ابن هشام الشهيرة (٢١٨) وهو عراقي الأصل ، ولد بالبصرة ، ثم هاجر الى مصر عندما سمع عن مدرستها العلمية المبكرة ، وظل بها حتى مات ، وسرح الغول الذي كان إماما في العربية وعلوم الدين ، وكان معاصرا للشافعي ، وكان الشافعي يعجب به ويفصاحته (١) .

وقد تخطت الحركة الثقافية بمصر حدود مصر فأثرت على الشرق والغرب جميعا ، وذلك عن طريق الذين وفدوا الى مصر واغترفوا من معين المعرفة بها وعادوا بمعارفهم إلى الأندلس أو إلى الشرق .

التصوف :

يزدان هذا العصر بظهور ثوبان بن ابراهيم المصري المشهور بذى النون المصري ، وقد تلقى العلم عن مالك والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ثم صار وحيد زمانه في العلم والورع والزهد ، واتجه ذو النون إلى التصوف فجاء في فيه ، ولكن أهل مصر أنكروا عليه اتجاهه وشكوه للخليفة المتوكل ، فطلب الخليفة أن يرسل له ذو النون مقيدا ، ولكن ذا النون لم يأبه وأم يخف ، وراح وهو في القيد يقول : هذا من هبات الله تعالى وعطاياه ، وكل فعالة عذب حسن طيب ، وأخذ ينشد :

لك من قلبي المكان المصون كل لوم عليّ فيك يهون
ولما أدخل على المتوكل وعظه حتى أبكاه ، فأطلق الخليفة وشاقه وأعاد مكرما (٢) .

ويعتبر ذو النون من مؤسسي مذهب الفيض والعقيدة الصوفية .

(١) السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة من ٢٥٢ .

(٢) ابن خلكان : بغيات الأعيان ج ١ ص ١٠١ .

دراسات في العلوم :

وبجانب الدراسات الاسلامية والأدبية كانت بمصر دراسة علمية شملت الطب والكيمياء ، ومن تذكر أسماؤهم في هذا المجال أبحر الطبيب الذي كان بارعا في الطب إبان خلافة عمر بن عبد العزيز وذو النون المصري الذي يروى أنه اشتغل بالفلسفة والكيمياء بجانب التصوف .

نشاط في المجال الاقتصادي :

واهتم ولاية مصر اهتماما كبيرا بالزراعة إذ أن مصر خصبة الأرض ، ونيلها دائم الجريان ، ويقرر المؤرخون المصريون أن الولاية العرب اهتموا اهتماما واضحا بحفر الترغ وإقامة الجسور وبناء القناطر ، وبنى العرب مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان في مياهه ، ليكون ذلك مقياسا واضحا للزراعة وللضرائب التي تجبى من الزراعين (١) .

وازدهرت في مصر أنواع من الصناعة ، ومن أهمها صناعة البناء ، وللمصريين تاريخ مجيد في العمران عثروا به منذ عهد الفراعنة ، فنلا غرو أن ظهر هذا الفن في طابع اسلامي ، ومن أجل ذلك كانت المساجد والعواصم التي بنيت في عهد الولاية تعتبر آية في الفخامة والإبداع ، ومن الصناعات التي ازدهرت كذلك في مصر في عهد الولاية صناعة الزجاج والنسيج والجلود والحلى والعمود والفخار .

ونشطت التجارة أيضا في عهد الولاية ، وكان موقع مصر داعيا إلى هذا النشاط ، يصف النويري هذا الموقع كما يصف حاصلات مصر ، وصلاتها التجارية في عبارة تدل على إحاطة بالخطوط التجارية التي ترتبط مصر بها وتتبادل عن طريقها حاصلاتها فيقول : إنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلم (السويس) ينقل

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر من ١٥١ والخطط للمقريزي ج ١

إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما يستقل إلى فرضة بلد الزوم وأقاصى الإفرنجة وقبرص ، وسائر سواحل الشام والشعور إلى حدود العراق ، ومن جهة الإسكندرية يحتمل إلى فرضة إقريطش وصقلية والمغرب كله حتى طنجة ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن (١) .

وفي مجال التجارة كذلك كانت مصر تقوم بدور الوسيط التجارى ؛ أى تشتري وتبيع مستغلة موقعها الممتاز ، كما كانت تصدر منتجاتها من الخبواب والمنسوجات وتشتري لوازمها من الأخشاب والمعادن .

✕ حضارة سوريا في ذلك العهد

كانت سوريا في مكان خطير هيئ لها أن تصبح مركزاً لمد المسلمين بأنواع من الفكر في علوم شتى ، فقد كان العلماء السريان يجيدون اللغة اليونانية وعلى صلة وطيدة وقديمة باليونان ، فعملوا على ترجمة علوم اليونان إلى السورانية ، ونشطت بذلك مدارسهم الشهيرة في الرها وحران وأنطاكية قبل الاسلام ، وفي ظل الاسلام وبخاصة في العصر العباسى الأول وجد السريان تشجيعاً عظيماً من الخلفاء فراحوا يترجمون إلى العربية خير ما حفلت به السورانية واليونانية ، وشملت إضافات وتعليقات فيها طابع الخلق والابتكار .

وفي الدراسات الإسلامية يبرز في سوريا في هذا الامام الأوزاعى (عبد الرحمن بن عمرو) ، وقد ولد في بعلبك سنة ٥٩٣هـ ثم انتقل إلى بيروت ، وفي مطلع العصر العباسى الأول كان يعتبر من خيرة الاعلام المشاهير ، ويروى ابن خلكان (٢) أن سفيان الثوري يبلغه مقدم الأوزاعى

(١) النويرى : نهاية الأرب ١ ص ٣٤١ .

(٢) وغيات الاعيان ج ١ ص ٢٧٥ .

فخرج حتى لقيه وسار في مقدم ركبته ، وكان كلما مر بزحام صاح في الناس : الطريق للشيخ ، وقد اشتهر الأوزاعي بالعلم والزهد وتميز بالجزأة الأدبية ، وكان إمام أهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه ؛ وعندما قدم المنصور سوريا سمع الأوزاعي يعظ فأعجب به إعجابا شديدا ، وكان له مذهب شائع في الشام ، وقد بقي بعده حوالى القرنين ثم حل محله المذهب الحنفي ، وسار مذهبه إلى الأندلس ثم حل محله المذهب المالكي .

ومن الشعراء المشاهير الذين ظهروا في سوريا في ذلك الوقت أبو تمام والبحتري ، وقد زار أبو تمام يقاعا كثيرة بالعالم الاسلامي ، غزا مصر حيث اشتغل بشاقية الماء ، ثم زار الحجاز وأرمينية وفارس والعراق ، ثم استقر أخيرا ببغداد واتصل ببلاط المعتصم وأصبح من شعرائه ، وقد رافقه في حملته على عمورية ، ووصف انتصاراته أروع وصف ، فسجلت قصائده الخاود لوقعة عمورية ، وقد تحدثنا عن ذلك في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ، ويقول ابن خلكان عنه انه كان وحيد عصره في ديباجة لفظه ورصانة شعره وحسن أسلوبه ، وله كتاب الحماسة الذي يدل على غزارة فضاه ، وإتقان معرفته بالشعر (١) .

أما البحتري فأحد فحول الشعراء ، يضعه النقاد بين أبي تمام والمتنبي ، ويروى ابن خلكان (٢) عن أبي بكر الصولي أن البحتري كان يقول : أول أمرى في الشعر ونباهتى فيه أنى صرت إلى أبى تمام وهو بحمص فعرضت عليه شعري ، وكان يجلس ولا يبقى شاعر إلا قصده وعرض عليه شعره ، فلما سمع شعري أقبل على وترك سائر الناس ، فلما تفرقوا قال لى : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف حالك ؟ فشكوت خلة ، فكتب إلى أهل معرة النعمان وشهد لى بالحذق وشفع لى إليهم ، وقال لى امتدحهم . فصرت إليهم فأكرموني بكتابته ، ووظفوا لى أربعة آلاف

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٥ .

درهم ، فكانت أول مال أصبته ، ولما ظهر نبروغ البحتري اتخذ طريقه إلى بغداد حيث أصبح شاعرا مشهورا في بلاط المتوكل ومن جاء بعده من الخلفاء ، ويرى البحتري في وصف القصور والبرك وحيوان الفلاة وهو مما يندر وجوده في الشجر الغربي (١) .

وفي مجال الصناعة والتجارة كانت سوريا تلعب دورها الهام بسبب مكانها الاستراتيجي الممتاز بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ، وقد لعبت هذا الدور على مر التاريخ كما تحدثنا في عدة مناسبات ، وعلى سواحل سوريا كان يعيش الفينيقيون ولهم في ميدان التجارة والمال باع طويل ، وكانت أسواق حلب ودمشق وبيروت عامرة بأصناف العطور والتوابل والنسيج المصبوغ والخزف المطلق بالمينا وغيرها .

(١) فيليب حتى : تاريخ سورية ج ٢ ص ١٨٢ .

عواصم مصر في عهد الولاة

الاسكندرية :

كانت الاسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح الاسلامي ، وقد فكر عمرو ابن العاص أن يتخذها عاصمة له عقب الفتح ، وبخاصة أن الروم حاولوا مهاجمتها من البحر ، فأراد عمرو أن يستقر بها ليكون أقرب إلى حمايتها والدفاع عنها ، وكتب عمرو بذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه عمر يسأله : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ فلما أجاب عمرو بالإيجاب نهاه عمر عن ذلك ، وكان مما قاله بناء على رواية السيوطي : إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في صيف أو شتاء (١) . فتحول عمرو إلى مكان الفسطاط حيث بنى العاصمة التي ظلت عاصمة الديار المصرية أكثر عهد الولاة .

الفسطاط :

وتنسب الفسطاط - في أوضح الاتجاهات - إلى فسطاط عمرو ابن العاص الذي كان قد أقامه بالقرب من حصن بابليون إبان حصار هذا الحصن .

ويزوي السيوطي (٢) أنه عقب الصلح أراد عمرو أن يجمع فسطاطه ليرحل إلى الاسكندرية ، ولكنه وجد يمامة قد اتخذت لها عشًا فسوق الفسطاط وأفرخت به ، فقال عمرو ، قد تحرمت اليمامة بنا ، وأمر أن يبقى الفسطاط حتى تطير فراخها ، وسافر إلى الاسكندرية ، فلما رفض الخليفة أن تتخذ الاسكندرية عاصمة عاد عمرو إلى مكان الفسطاط وقرر أن يقيم به عاصمته .

(١) حسن المحاضرة ج١ ص ٥٧ .

(٢) المرجع السابق .

ويروى بعض المؤرخين أن كلمة الفسطاط غير عربية بل يونانية ومعناها المدنية العسكرية ، وقد اقتبسها العرب لمدينتهم التي أقاموها في مواجهة حصن بابليون •

وتقع الفسطاط بين النيل وجبل المقطم ، فتجتمع بذلك بين القرب من الماء وللعرب حرص عليه ، والقرب من الصحراء ولهم بالصحراء شغف ، ومن مميزات هذا الموقع سهولة اتصاله بالمدينة عاصمة الخلافة بواسطة قناة تربط بين النيل عند القاهرة وبين البحر الأحمر عند السويس (القازم) ويرجع تاريخ هذه القناة للفراعنة ، وقد اهتم بها الرومان فأعادوا حفرها وسميت قناة تراجان ، ولما رُميت أعاد عمرو بن العاص حفرها وسميها قناة أمير المؤمنين ، وقد ظلت ممرًا مهما حتى ردمها أبو جعفر المنصور حتى لا ترسل الميرة عن طريقها إلى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن (النفس الزكية) الذي قاد الشيعة في أخذ ثوراتهم ضد العباسيين كما سبق •

وقد بنى عمرو الجامع المنسوب إليه في مركز الدائرة على مساحة طولها ٢٩ مترا وعرضها ١٧ مترا ، ثم اتخذت كل قبيلة من قبائل الجيش العربي خطة (قسما) أقامت فيها مساكنها ، ومن هذه الخطط ، خطة بنى تميم وبنى وائل وبنى عقبة وهكذا ، وسرعان ما اتسعت الأبنية في الفسطاط وامتدت ، وأعد العرب غير بعيد من الفسطاط مكانا ليدفن به موتاهم ، وقد دفن به عمرو بن العاص وبعض الصحابة (١) •

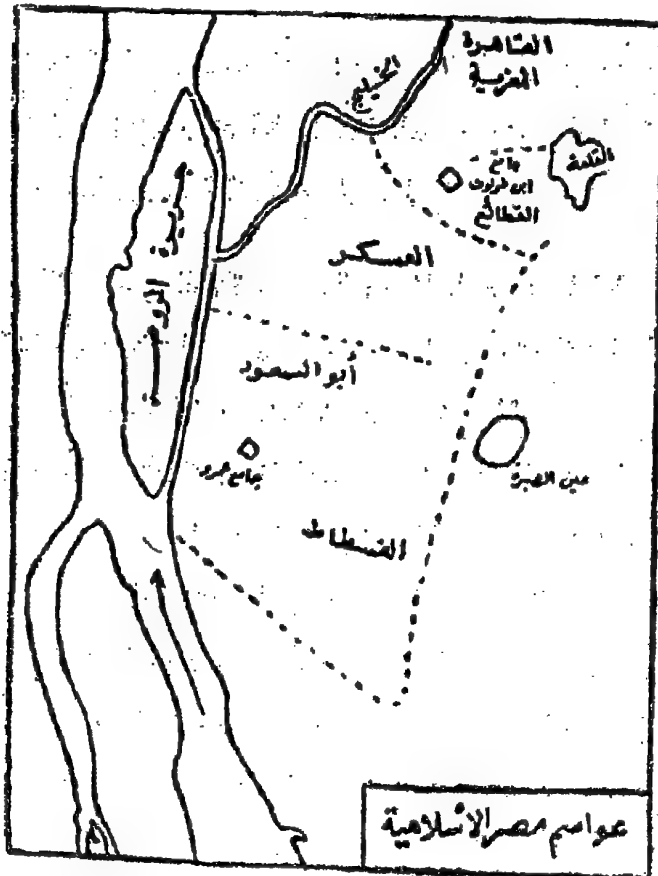
هــروان :

وظلت الفسطاط تمثل العاصمة الرئيسية إبان هذه الحقبة ، وشهد تحول عبد العزيز بن مروان عنها لأسباب صحية ، يقول ياقوت أنه وقع بمصر طاعون سنة ٧٥ هـ وواليتها عبد العزيز ، فخرج هذا يحدث عن موقع

جديد يقيم به ، فلما وصل حلوان استحسن موقعها ، فبنى بها دورا وقصورا ، واستوطنها وزرع بها بساتين وغرس كروما ونخلا (١) ، ويعتبر هذا انتقالا مؤقتا لهذا السبب الطارئ ، ومعنى هذا أن الفسطاط ظلت العاصمة الحقيقية طيلة حكم بني أمية حتى مع انتقال بعض الولاة عنها .

العسكر :

وعند سقوط الدولة الأموية وقيام دولة العباسيين ، بنى ولاية مصر من قبل العباسيين مدينة جديدة الى الشرق من الفسطاط ، سموها « العسكر » .



القطائع :

وصارت العسكر مقر ولاية مصر الى سنة ٨٢٥٤ حيث بنى ابن طولون مدينة القطائع واتخذها عاصمة له كما سنرى ، ويمكن فى الحقيقة أن تعد العسكر ضاحية من ضواحي الفسطاط أو امتدادا لها ، وموقعها الآن البغالة وزين العابدين •



آثار عصر الولاية :

من أهم الآثار المصرية التى شاهدها المسلمون الزاحفون « حصن بابليون » وكان الرومان قد أقاموا هذا الحصن جنوب القاهرة الحالية ، وقد حاصره المسلمون ستة أشهر ، ولا تزال بقاياها فى قصر الشمع •

ومن آثار عصر الولاية مجموعة من المساجد أشرنا لها عند الكلام عن منشئها • وفى قمعتها مسجد عمرو بن العاص ، وقد اشترك فى تأسيسه مجموعة من الصحابة الذين كانوا ضمن الجيش الاسلامى ، وهو أول مسجد بافريقية ، وقد كان هذا المسجد موضع اهتمام الحكام على مصر العصور ، وبجرت فيه زيادات كثيرة وبخاصة أيام عبد العزيز بن مروان ، وفى العهد الفاطمى لم يفقد جامع عمرو مكانته بل ظل موضع اهتمام الخلفاء الفاطميين والعلماء ، وقد أهداه الخليفة الحاكم نجفة كبيرة ، وكان الخلفاء الفاطميون المتأخرون يصلون به الجمعة اليتيمة ، وكان التدريس بهذا المسجد حسبة ، وكان به ثمانى زوايا يجلس فيها خيرة العلماء ومن أهمها زاوية الامام الشافعى ، ولم يبق الآن من المسجد الذى بناه عمرو إلا أرضه وبعض أجزاء فى جداره الغربى •

المقطم :

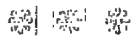
والفسطاط ، أول عاصمة اسلامية بمصر ، وجامع عمرو ، يقعان بوجه عام في سفح جبل المقطم ، ومن هنا لزم أن نتكلم كلمة عن آثار هذا الجبل التي منها القديم ومنها ما يرتبط بعدة عصور اسلامية ، وأول ما نذكره عنه أن هناك رواية تقول إنه يُدْفَن فيه غراس الجنة ، ومن هنا وجدت بجوانب منه مقابر للصالحين ومن التمس بركتهم •

ومن الآثار القديمة بالمقطم « تنثور فرعون » وقد أقيم مكانه مسجد التنور •

وبالمقطم وادى دجلة وكهف السودان ، وبه كذلك دير القصر • وقد تكلمنا عنه في كتابنا « المسيحية » ضمن حديثنا عن الأديرة وما كان بها من لهُو وعِبث •

ومن أهم الآثار الاسلامية بالمقطم مسجد « دكة القضاة » حيث كان استطلاع الهلال يتم فوقها ، ومنها كذلك مسجد الجيوشى (نسبة لأمين الجيوشى بدر الجمالى) وكان عمر بن الفارض (العصر الأيوبي) يخلو للعبادة بالقمام فيما سعى « سياحة التفرغ لله » •

وفي الجانب الغربى من المقطم توجد قلعة صلاح الدين ومسجد صلاح الدين ، ومسجد سارية الليل ، ومسجد محمد على •



ويعد هذا الترميم لآثاره من عصر الولاة ، غير شاذة أخرى انتشرت من أول فترة استقلال في تاريخ مصر وسوريا في عهد الاسلام •

الدولة الطولونية

(٢٥٤ - ٢٩٢ هـ - ٨٦٨ - ٩٠٥ م)

الحركات الاستقلالية بمصر

مع نهاية العصر العباسي الأول (سنة ٢٢٢ هـ) بدأ مركز الخلافة يضعف ، وبدأت بعض المناطق التابعة للخلافة الإسلامية تتطلع إلى الاستقلال ، وبخاصة تلك المناطق التي كان لها أمجاد وتاريخ ناصع قبل الإسلام ، فلقد اعتنقت هذه المناطق الدين الجديد وتبنّت ثقافته وحضارته ، ولكن ذلك لم يلزمها بالتبعية السياسية ، وبخاصة إذ كان مركز الخلافة قد تسلط عليه من لا يهتمون بالإسلام وثقافته وحضارته ، وكانت مصر من أبرز الدول التي اتجهت هذا الاتجاه ، فمصر لها تاريخها الفرعوني الطويل الذي يعود إلى وراء عدة آلاف من السنين ، والذي سجل ألوانا من التقدم في مختلف الاتجاهات .

وعندما جاء الإسلام أحسنت مصر استقباله ، واحتضنت فكره ، فكان إضافة مهمة لحضارة المصريين ، وفي نفس الوقت كانت المراكز الإسلامية الأولى « الحجاز ودمشق وبغداد » قد بدأت تعاني من المشكلات الداخلية ، وأصبح واضحا أنها ليست أقدر من القاهرة على حمل مسؤولية الفكر الإسلامي ونشره ، وهكذا بدأ تراجع في هذه المناطق وتقدم في مصر ، وصادف أن جاء أحمد بن طولون إلى مصر في ذلك الوقت فقابل استعدادا كبيرا لحركة استقلالية ترمى إلى أن تستعيد مصر استقلالها السياسي من جانب ، وتحمل مسؤولية احتضان الإسلام ونشره من جانب آخر ، فكانت الدولة الطولونية أول هذه الحركات الاستقلالية ، وقد استمرت هذه الحركات الاستقلالية في عهد الطولونيين ، ثم في عهد الإخشيديين ، وأخيرا حققت نجاحها الكامل في عهد الفاطميين .

ولما جاء العهد الأيوبي بعد العهد الفاطمي أعترف الأيوبيون بالخلافة العباسية اعترافا شكليا ، ولكن قيادة المسلمين ضد الصليبيين اتخذت مصر مقرا لها ، ولما جاء المماليك انتقلت الخلافة العباسية لمصر بعد أن قضى المغول على الخلافة ببغداد .

والمهم أن مصر بدأت بها الحركات الاستقلالية مبكرة ، منذ عهد
السرى بن الحكم الذى تولى إبنائه أمانة مصر بعده ، ولكن الحركة تمت
فى العهد الطولونى وسرعان ما أصبحت مصر مركز القوة والطم للعالم
الاسلامى كله .

ونضيف هنا أن المصريين حرصوا على هذه الحركة الاستقلالية منذ
قيامها ، فلما سقطت الدولة الطولونية سنة ٥٢٩٣ وعادت مصر لتكون ولاية
تابعة للخلافة فى بغداد ثار أحد المصريين وهو محمد بن على الخلعجى وكان
ضابطا بالجيش الطولونى ، وقبض ثورة ضد الوالى العباسى (عيسى
النوشرى) وانضم آلاف المصريين للثائر ، واستطاع الثوار أن يهزموا
الوالى العباسى ويستقلوا بمصر حوالى ثمانية شهور (١) .

ويصف مؤرخ معاصر (٢) هذه الثورة بأنها كانت « تنفيسا عن رغبة
المصريين فى الاستقلال » .

وقد اتخذ الاتجاه الاستقلالى مظاهر مهمة خلاصتها :

- ١ - أصبح الوالى يُخَاطَب له ويذكر اسمه بعد اسم الخليفة .
- ٢ - وضع الوالى اسمه على السكة مع اسم الخليفة .
- ٣ - تكوّن لصر جيش خاص ، وأحيانا وجهة الوالى لحرب ممثل
الخلافة كما حدث ضد الموفق وضد ابن رائق كما سنرى .
- ٤ - أصبح لصر أسطول خاص قوى .
- ٥ - أصبح والى مصر يعين القضاة بنفسه ويعين كل موظفى الدولة .
- ٦ - وأصبح الحكم وراثيا ، فعاصمة الخلافة لا ترسل واليا جديدا
للبلاذ عقب وفاة واليها .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٢ .

(٢) دكتور حسن محمود : مصر فى عهد الطولونيين والاختشيديين ص ٨٦ .

وبعد هذا الايجاز عن الحركات الاستقلالية بمصر ، نتجه الى تفصيل القول في هذه الحركات :

وقد اشتركت سوريا مع مصر في هذه الحركات الاستقلالية في جميع مراحلها .

تعريف بالدولة الطولونية

تنسب هذه الدولة إلى طولون ، وهو ينحدر من أسرة كانت تقيم في بخارى ببلاد تركستان ، وجاء طولون إلى بغداد سنة ٨٢٠ هـ إبان خلافة المأمون ضمن مجموعة من الأسرى أرسلهم نوح بن أسد الساماني إلى الخليفة ، وقد وجد المأمون في طولون بسطة في الفكر والجسم فجعله رئيساً لحرسه الخاص ، وخط بذلك طولون نحو الجاه ومهد الطريق لابنه أحمد وأحفاده نحو المجد والسيادة .

وأمرء الطولونيين هم

١ — أحمد

٢٥٤ — ٢٧٠

العباس

٢ — خمارويه

٢٧٠ — ٢٨٢

٥ — شيبان

٢٩٢

٤ — أبو موسى هارون

٢٨٣ — ٢٩٢

٣ — أبو العساكر جيش

٢٨٢ — ٢٨٣

تعريف بأهراء الطولونيين

أحمد بن طولون :

ولد أحمد بن طولون سنة ٥٢٢٠ هـ وعنى أبوه بتربيته عناية كبيرة ، فرباه كما يرمى أولاد الأمراء الأتراك في ذلك الوقت ، حرصه على الشجاعة وعلمه العلوم العسكرية في سامرا ، وأضاف الى ذلك تعليمه علوم اللغة والدين ، وتلقى أحمد الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، ثم تردد على علماء طرسوس وأخذ من معارفهم وروى عنهم الأحاديث ولما مات أبوه سنة ٢٤٠ هـ عهد له المتوكل بالقيام ببعض الأعمال التي كان أبوه يقوم بها ، ثم ولي إمرة الثغور وإمرة دمشق (١) .

وقفز المعتز إلى الخلافة بعد عزل المستعين (٨٢٥٢) وسجن المعتز المستعين في دار بواسط وجعل أحمد بن طولون حارسا عليه ، ولكن السجن احترم في السجن مكانته ، فلم يشدد الرقابة عليه ، واكتفى منه إلا بيزاول نشاطا ضد الخليفة القائم بالأمر ، ولكن قبيحة أم المعتز لم تكف بسجن المستعين وقررت قتله حتى لا يثب على ابنها ، وأرسل رجال القصر بذلك الى أحمد بن طولون ، ولكن هذا رفض أن يقتله وتكتب بذلك الى رجال القصر (٢) ، وأثر أن يتخلى عن هذا المكان الى من يستطيع تنفيذ أوامر القتل ، وعظم أحمد بن طولون بذلك في أعين الفضلاء ، وغادر ابن طولون واسط الى سحر من رأى .

وكان خافاء بنى العباس منذ عهد المعتصم يعينون الأتراك ولاية على أهم الولايات ، ولكن الأتراك كانوا يحرصون على أن يبقوا بعاصمة الخلافة لينعموا فيها بحياة الترف وليكونوا على صلة بمنطقة النفوذ والسيادة ، ومن أجل هذا كان هؤلاء الولاة يسيرون نوابا عنهم ليحكموا الأقاليم باسمهم ويبقون هم بعاصمة الخلافة (٣) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٣ ص ٤ .

(٢) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٥ — ٧ والبلوى ص ٤٠ .

(٣) لعل هارون الرشيد هو الذى ابتدع هذه البدعة منذ جعل ولاية مصر لجعفر البرمكى ، ولكنه في الوقت نفسه استبقاه بجانبه ، فأناب جعفر عنه نائباً لحكم مصر هو عمرو بن مهران .

خطوات ابن طولون للسلطة :

وجاء أحمد بن طولون الى مصر نائباً عن واليها التركي باكبك أو « بقيق » الذي كان قد تزوج أمه بعد وفاة أبيه ، وخصّ ابن طولون بالعاصمة ، ولم يدْخِلْ باكبك الاسكندرية في دائرته ، ولما مات باكبك حرص يارجوخ حمو ابن طولون على أن تكون له ولاية مصر ، ومسا إن تمّ له ذلك حتى كتب الى أحمد بن طولون زوج ابنته يقول له : تسلم من نفسك لنفسك ، وضم له الاسكندرية وكان ذلك سنة ٥٢٥٦ هـ (١) ، وعرف ابن طولون بالقوة والميل الى الإصلاح ، ثم انه جاء بعد مجموعة من الولاة عرفوا بالأنانية والتزق فكان ذلك مما حبيب الناس فيه ، وربطهم به ، وكان ابن طولون حسن الصلة بالخليفة العباسي يرسل له طرّف مصر ومتجاتها ، ولذلك ما ان مات يارجوخ حتى أقره الخليفة واليا لمصر حيث واصل إصلاحاته وهيا لنفسه جوا يضمن له الاستقلال (٢) .

اتساع ملك ابن طولون :

وفي هذه الأثناء كان بالشام عدة ولاة يتبعون الخلافة العباسية ، وكان من بين هؤلاء عبد الله بن رشيد عامل الثغور ، وقد هزم هذا في إحدى المعارك ضد البيزنطيين وأسره الروم ، فطلب الخليفة المعتمد سنة ٣٦٤ من أحمد بن طولون أن يسير لمحاربة البيزنطيين ، فلبى ابن طولون طلبه وسار بجحفله من مصر ، وقد ضمنت هبة ابن طولون له أن يمد نفوذه حتى طرسوس ونهر الفرات ، وأن يستولى على دمشق من على ابن أماجور وبهذا أصبح ملك الطولونيين يشمل مصر والشام والجزيرة ومناطق الثغور وأقره الخليفة العباسي على ذلك .

ومن فصل القول فيما بعد عن علاقة الطولونيين بالخلافة العباسية ، ونسرع هنا بأن نقرر أن ابن طولون صارع الموفق أخا الخليفة والقائم

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٧ .

(٢) الطبري : ج ٣ ص ١٦٧٠ .

بأمر الخلافة وانتصر عليه ، وقرر لعنه في الخطبة وهكذا فعل خمارويه ، ووضع كهذا مصناه استقلال تام عن بغداد ، وعندما تم صلح بين الموفق وخمارويه كان به نص أن ولاية مصر وسوريا حتى طرسوس حق لخمارويه ولولاده مدة ثلاثين عاما .

صعوبات في طريق ابن شونون

شئون الخراج والبريد

وقد واجه ابن طولون كثيرا من الصعوبات وهو يبنى ملكه ، ومن هذه الصعوبات أن شئون الخراج بمصر كانت في أول عهده في يد أحمد ابن محمد بن المدير الذي كان واسع الثراء والنقوذ ، ثم كان عامل البريد الذي يكتب للعاصمة بأخبار أحمد بن طولون يسمى « شقير » وهو من أصفياء ابن المدير ، وإذا اجتمع عامل الخراج وعامل البريد ضد الوالى شالت كفته ، ولكن أحمد بن طولون صبر وفكر حتى تخلص من الاثنين ، ويروى أنه عقب استناد ولاية مصر لابن طولون أرسل له ابن المدير مبلغا كبيرا من المال ، ولكن ابن طولون رفض تسلمه ، فأحس ابن المدير أنه أمام وال صعب القيادة ، فبدأ يدس عليه ، وكان لابن المدير مجموعة كبيرة من الحرس تحيط بالهيبة ، فأرسل له ابن طولون يذكر أن الدفاع عن الدولة يحتاج لهؤلاء الجنود ، فدفعهم اليه ابن المدير كارها ، وازداد الشد والجذب .

وحدث أن طلب الخليفة المعتمد من ابن طولون مزيدا من الأموال ، فأجاب ابن طولون قائلا : كيف أطيق ذلك والخراج في يد غيري ؟ فنحى الخليفة ابن المدير ، ونقله الى خراج سوريا ، ووافق ابن المدير على هذا لكثرة ما عانى من ابن طولون ، وضعف بذلك جانب شقير فاستطاع ابن طولون أن يقضى عليه ، ولما امتد سلطان ابن طولون الى سوريا التقى بابن المدير مرة أخرى وشرعان ما كان الغلب لابن طولون أيضا فاستسلم ابن المدير ورضى أن يفارق سوريا ببعض ماله (١) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٠ .

ثورة شيعية :

ومن الصعوبات التي هبت في وجه ابن طولون ثورة شيعية في الوجه القبلي يترعما شخص اسمه ابراهيم بن محمد وهو من نسل الإمام علي ابن أبي طالب ، ويعرف بابن الصوفي ، وقد قضى ابن طولون على مبعده الثورة بعد ضراع طويل ، وتار بمنطقة أسوان ثائر آخر يعرف بالعمرى نسبة الى عمر بن الخطاب ، ولم يهزمه ابن طولون الا بان دس عليه أحد خذمه فقتله غدرا وقدم رأسه الى ابن طولون .

ثورة العباس :

بيد أن أعظم الثورات التي عايناها أحمد بن طولون هي ثورة ابنه العباس ، وهذه الثورة - بجانب ما سببته من صعوبات عسكرية واقتصادية - كان لها جانب عاطفي لا يقل صعوبة عن جوانبها الأخرى ، فالثائر هو الابن الأكبر لأحمد بن طولون وهو مرة عينه ، وقد استخلفه أبوه على مصر عندما سار الى الشام وإطاكية .

ويتحدث المؤرخون كثيرا عن أسباب هذه الثورة :

هل هي غيرة العباس من أحمد بن محمد الواسطي كاتب أبيه وصاحب الحظوة عنده ؟

هل هي إطماع الابن أن يكون لنفسه مملكة تماثل أو تفوق مملكة أبيه ؟

هل هي بدفع من أعداء أحمد بن طولون ؟

علي أي حال لقد خرج ذلك الابن العاق وأخذ معه ما كان بخزانة الدولة من أموال ، كما أخذ قروضا من بعض التجار واتجه الى برقة والشمال الافريقي وأخذ معه الواسطي مكبلا بالسلاسل ، ولكن سرعان ما وجد ذلك الابن العاق نفسه مطوقا بقوى تفوق قواه ، فالأغلبية بتونس ، وإلياس بن منصور زعيم البربر بجبل نفوسة ، قاما في وجهه ، ومطاردة

أبيه لحقته بعد أن عجز الترغيب والترهيب عن إعادة الابن العاق إلى رشده ، ثم هرب الواسطي وعاد إلى مصر ، وانفض كثير من أتباع العباس عنه ، وأخيرا أحاطت به جيوش ابن طولون وقبضت عليه وعلى كبار أتباعه ، وأرغم العباس أن يقتل بيده كثيرين من معاونيه ، أما العباس فقد زج به في السجن حيث بقى فيه حتى اعتلى أخوه خمارويه العرش فقتله الحراس ، لأن العباس امتنع عن مبايعة خمارويه (١) .

من صفات ابن طولون :

كان ابن طولون سمحا كثير الصدقات ، فيأض الكرم ، يمد سماطه كل يوم لآلاف الطاعمين ، وكان يميل للجد ولا تجذبه أنواع اللهو ، وهكذا يكون مؤسسو الدول ، وكان ابن طولون ذكيا فطنا ، أدرك أن أخباره تنقل إلى دار الخلافة ببغداد ، فوضع له عيوناً هناك تحذره وتنقل له ما يدور بعاصمة الخلافة من أحداث واتجاهات ، وكان ابن طولون مع ذلك طائش السيف يقتل بالظنة ، ويعتمد على الجواسيس في كثير من الأحوال .

الأمراء الطولونيون بعد أحمد :

يمكن القول إن دولة الطولونيين كانت دولة أحمد بن طولون فقط ، وأن بقاء سلطان الطولونيين بعد وفاته لم يكن إلا بقوة الدفع التي بعثها منشئ الدولة ، إذ لا يكاد الباحث يجد بين الأمراء الطولونيين بعد أحمد من يستحق الذكر أو تحمد له مآثرة ، وإذا كان ابنه العباس عق وثار ، فإن أبناءه وأحفاده الآخرين كان فيهم عقوق من نوع آخر ، ذلك هو عدم

(١) عن هذا الموضوع اقرأ : البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٢٦٠ وما بعدها .

ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٥٩ — ٦٠

ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٩

وعن كتب ابن طولون لابنه العباس اقرأ : القلقشندي : صبح الأعشى

ج ٧ ص ٥ — ١٠ .

احتفاظهم بقرائه ، وعدم سيرهم سيرته ، وعدم حرصهم على أن يكونوا امتدادا صالحا للرجل المكافح .

وأول من نصادف من هؤلاء الأمراء هو خمارويه الذى تولى السلطان بعد أبيه باجماع الجند ورجال الدولة ، وكان فى هذا المطلق الهادى المستقر ما يمكن أن يساعد الأمير على حياة صالحة ناجحة ، ولكن الأمير — على الرغم مما حقق من شجاعة وانتصارات سنتحدث عنها فيما بعد — كانت حياته سرفا ونزقا تصل الى أبعد الحدود ، ويقص التاريخ هنا يضعب تصديقه من عطاءات سخية للشمراء والمغنيين ، ومن أنه كان لا يلبس الرداء إلا مرة واحدة ، وإذا ركب الحصان مرة فانه لا يعود الى ركوبه مرة أخرى ، وحتى القصور كان يسكن كل قصر عالما واحدا ثم يستبدل به سواه ، وبهذا سخر آلاف الناس ليخيطوا ثيابه ويدربوا خيوله ويبنوا قصوره ، ومن نزقه ما تحدثنا عنه فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة بخصوص زواج ابنته أسماء (قطر الندى) من الخليفة المعتضد العباسى ، وما بذله خمارويه من سرف فى هذا الزواج حتى صار هذا الزواج سببا من أسباب التدهور الاقتصادى للبلاد (١) .

وكانت أخلاقه الشخصية منحلة الى أبعد حدود الانحلال ، ويقال إن نهايته كانت نتيجة لهذا الانحلال الفاض ، فقتله خدمه وهو منعس فى ممارسة هذا الباطل (٢) .

وبعد خمارويه تولى ابنته أبو العساكر جيش ، وهو ضبى فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان كلبه فى نزقه والبحث عن مسراته وسرعان ما أبعد رجال السياسة والأدب وقرب الجهلة والمصارعين ، وأوقع بمن شك فى ولائه التتكيل والدمار ، وأساء الى أبناء الأسرة الطولونية ، بل قتل بعض

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى ج٣ ص ٤١١ — ٤١٢ .

(٢) ابن عسكرك : تاريخ دمشق ج٥ ص ١٧٨ .

كبار هذه الأسرة ، وكل هذا أثار عليه الناس ، فهاجم الثائرون قصره وقتلوه ونهبوا القصر واعتدوا على ما سواه من الأملاك ، وكان ذلك بعد عام واحد من توليته الحكم .

واختار الثائرون أبا موسى هارون ، وكان أيضا في الرابعة عشرة وجعلوا عليه وصيا ، ولم يكن هناك من سبيل لإصلاح الحال ، فقد انهارت الأسرة ، وكثرت الطوائف بين رجالها ، وعمّ الدس والفنك ، وأذنت الأمور بنهاية الفولة .

نشاط القرامطة بسوريا :

القرامطة من الشيعة المتطرفة ، لهم صلة نسب بالاسماعيلية والفاطميين الذي سيظهرون فيما بعد ، ويقال إنهم ينسبون إلى حمدان قرمط (١) ويرجح الباحثون أن لفظ قرمط لفظ سورياني معناه « المعلم الشرى » (٢) ، ولم يكن يقبل أحد في جماعتهم إلا بعد اختبارات طويلة ومراسم خاصة ، وقد بدأ نشاط القرامطة حوالي سنة ٢٢٧ هـ بالقرب من الكوفة ، وبعد حوالي تسع سنوات أصبح للقرامطة دولة مستقلة على الضفة الغربية للخليج العربي ، ومن هذين المركزين نشر القرامطة الخراب في كل مكان ، ويبدو أن سوريا تناسبت اتجاهها السنّي ورحبت بالاتجاهات المتطرفة بسبب ما عانتها من اضطهاد العباسيين ، وبالإضافة إلى هذا فقد وجد القرامطة الفرصة سانحة لهم ليسيظروا على سوريا بعد أن ضعف الأمراء الطولونيون ، وكانت فيالق القرامطة يقودها ابن ذكرويه ، وقد حاصر دمشق واحتل حمص وحماة ومعرة النعمان وبعثك وسلمية حيث أصبحت الأخيرة مركزا للحشاشين من الاسماعيلية ، ودعى لابن ذكرويه على كثير من منابر سوريا ، وفي أثناء زحف القرامطة على سوريا قتل هارون بن خمارويه ،

Bernard Lewis The Origins of Iama'ilism pp 122

(١)

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص ١٨٩ بالهامش .

وازدادت الحال سوءاً ، ولكن الزحف العباسي قضى على القرامطة
وانتهى عهد الطولونيين (١) .

نهاية الطولونيين :

كانت الدولة الطولونية تتهاور بسرعة بعد أحمد بن طولون كما ذكرنا .
ويبدو أن صلة النسب بين المعتضد الخليفة العباسي وبنى طولون قد
أطالت عمر هذه الدولة بعض الشيء ، ولذلك نجد أنه بعد وفاة المعتضد
يسرع الخليفة المكتفي بإرسال جيش للقضاء على الطولونيين وبخاصة
ليوقف زحف القرامطة ، وكان هذا الجيش بقيادة محمد بن سليمان الكاتب ،
تؤيده قوة بحرية سارت في النيل حتى واجهت الفسطاط ، وفي أثناء هذا
الزحف العباسي ، قتل أبو موسى هارون على يد رجاله وتولى شيبان بن
أحمد بن طولون عرش مصر ، وقد حاول هذا أن يجمع حوله الجيوش
لصد الزحف العباسي ، ولكن الذين استجابوا له كانوا قليلين ، وانضمت
الكثرة الغالبة إلى محمد بن سليمان ، ولم يجد شيبان بداً من التسليم
للزحف الجارف .

وقد قبض محمد بن سليمان على أفراد الأسرة الطولونية وبعث بهم
مكبلين إلى بغداد ، كما صادر أموالهم وأموال قادتهم والأغنياء بدولتهم ،
ويبدو أن الخليفة المكتفي اتهم قائده (محمد بن سليمان) باختلاس بعض
هذه الأموال ، فأمر به فقبض عليه وصودرت أمواله .
وبذلك انتهت الدولة الطولونية سنة ٥٢٩٢ وعادت مصر ولاية
عباسية .

علاقة الطولونيين بالخلافة العباسية

كان الخليفة العباسي إبان عهد أحمد بن طولون هو المعتضد ، وكان
ابنه « المفوض » ولي عهده ، وكان السلطان الحقيقي في مطلع عهد المعتضد
وقبله منذ عهد المتوكل في يد المماليك ، وقد تسبب عن قبض هؤلاء على

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٩ .

السلطة أن اضطربت الأحوال في الدولة الإسلامية وتفككت عراها ، ورأى المماليك أن السبيل الوحيد لاعادة الوحدة الإسلامية والقوة للدولة أن يترك السلطان الحقيقي لبنى العباس ، فاختر المعتد أخاه الموفق ليكون المسيطر على الأمر والقائد العام للجيش ، وقد استبد الموفق بالسلطة ، فلم يكن للمماليك معه سلطان ، ولم يكن للخليفة معه سلطان كذلك ، حتى ليروى أن الخليفة قال شعرا يصف فيه أحواله ويؤسسه في حين استبد أخوه بالسلطان والثراء ، وفيما يلي هذه المقطوعة الشعرية :

ليس من العجائب أن مثلى يرى ما قلّ ممتنّاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

وبعد وفاة الموفق تولى ابنه المعتضد الذي كان أكثر أطماعاً من أبيه ، فظلم الموفق بن المعتد من ولاية العهد ، وأخذ ولاية العهد لنفسه ، فلما مات المعتد انتقلت اليه الخلافة .

ويروى أن تقرر أن ولاية أحمد بن طولون بالخليفة المعتد كانت طيبة حتى ليخال أنه حاول أن يهرب إلى مصر ليجيش في دعم ابن طولون ، وقد ذهب ابن طولون بالفكرة وشجع أمير المؤمنين على ذلك ليقوى به موقفه الموفق الذي كان سيبرء الصلة به كما يشرى فيما بعد ، وبعد المعتد مات وذهبت إليه مائة مائة ، ولكن الموفق مكّم بذلك ، فكتب إلى ابن طولون كتاباً جاء حامل الموصّل والجزيرة ، فالحق بالخليفة عند الرقة وأعاده إلى مصادره .

أما النفرة التي كانت بين الموفق وأحمد بن طولون ، فيرجع سببها إلى أن الموفق أحس باتجاه ابن طولون إلى الاستقلال ، ثم أن الموفق كان مشغولاً بحرب الزنج واحتاج من أجل ذلك إلى أموال كثيرة فكتب إلى ابن طولون بذلك ، فيد أن ابن طولون لم يرسل ما كان الموفق يطمع فيه ، وإنما أرسل أقل منه بكثير ، ولما بعث له الموفق يؤنبه ويحاسبه ردّ عليه ابن طولون رداً شديداً جاء فيه : « وإن العمل الذي أنا بسبيله ليس له ، والكتابة في

أهوره ليست إليه ، وتقليدى ليس من قبله ، ولا أنا من ولاته (١) « وكان ذلك تمردا من أحمد بن طولون على مكانة الموفق ، فأذّن ذلك بحرب طويلة قادما إسحق ابن كنداج سالف الذكر ، ولم تسفر الحرب عن نتيجة ، وبخاصة لأن الموفق كان مشغولا بثورة صاحب الزنج (٢) .

ومن الواضح أن خطاب أحمد بن طولون للموفق ، و... له يعتبران أدلة واضحة على الاتجاّات الاستقلالية لمصر وسوريا .

ومات ابن طولون وورث خمارويه عداء أبيه مع الموفق ، وقد أراد الموفق أن يقضى على خمارويه وعلى سلطان الطولونيين ، وكتب إليه بعض النصر في مطلع الأمر ، ولكن خمارويه أظهر شجاعة نادرة ، وهزم جيوش الموفق وجيوش أمى الموصل والأنبار اللذين أيّده ، ثم عقد صلحا مع الموفق على أن يكون حكم مصر والشام والثغور لخمارويه وأولاده مدة ثلاثين عاما ، وحدّدت المبالغ التى تدفعها مصر سنويا لعاصمة الخلافة (٣) وأصبح سلطان الطولونيين ممّتا من برقة إلى الفرات بل إلى أبعد من ذلك (٤) .

وعندما آلت الخلافة الى المعتضد أراد خمارويه أن يدعم صلته به فعرض عليه أن يتزوج ابنة على (الخليفة المكتفى فيما بعد) من ابنته قطر الندى ، ولكن الخليفة وافق على المصاهرة على أن تزف الفتاة إليه هو ، وقد سبغت هذه التريجة — التى تحدثنا عنها فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة — مزيدا من القرب بين القاهرة وبغداد .

ونسرع هنا بأن نذكر أنه كما حارب الطولونيون الموفق صاحب النفوذ فى الخلافة العباسية ، فقد حارب الإخشيديون محمدا بن رائق الذى كان له النفوذ فى بغداد آنذاك ، والموقفان من أكبر الأدلة على حرص مصر على الحركة الاستقلالية التى وضحناها من قبل .

(١) ابن الدابة : سيرة أحمد بن طولون ص ٢٠ — ٢٤ .

(٢) Lane-poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 69

(٣) IBiD P. 73

(٤) غيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٨ .

(م ٧ — موسوعة التاريخ ج ٥)

حضارة الطولونيين

النظم : السكة والحسبة والشرطة ٠٠٠ :

كان الطولونيون كما سبق القول أول حكام مستقلين بمصر ، فليس عجيبا أن يهتموا بدعم سلطانهم ، وأن يضعوا الخطط لتنظيم سياسى واستقرار اقتصادى ، ومن أهم المظاهر السياسية انسى ابتدئها أحمد بن طولون يدعم سلطانه أن وضع اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة ووضع اسمه على السكة ، واتخذ الحجاب والكتاب والموائد والمواكب ، ونظم ابن طولون الشرطة ليعتمد عليها فى حفظ النظام واستتباب الأمن ، كما نظم القضاء والحسبة ، وكان يولى القضاة بنفسه ، لأن ذلك مظهر مهم من مظاهر الاستقلال ، ومن أشهر القضاة بكار بن قتيبة الذى رفض الموافقة على لعن الموفق على المنابر عندما طلب ابن طولون منه ذلك ، مما جعل ابن طولون يزج به فى السجن .

الجيش والاسطول :

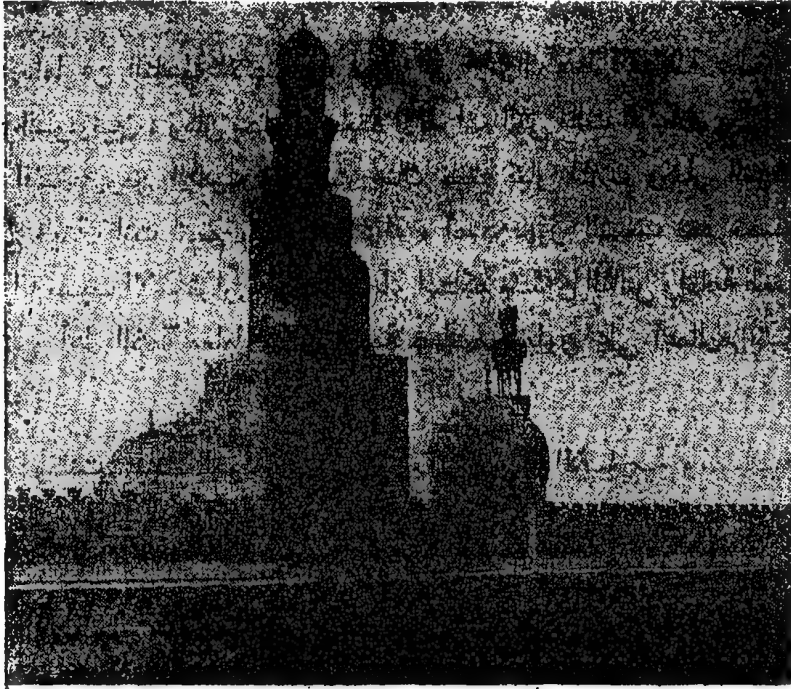
ومن مظاهر الاستقلال تكوين الجيش ، وقد عنى ابن طولون بذلك عناية كبيرة ، فبلغ تعداد جنوده مائة ألف من السودان والترك والعرب والمصريين ، وقد زاد عدد الجيش فى عهد خمارويه زيادة كبيرة ، وكان الجيش الطيلونى مزودا بأحدث الأسلحة التى كانت معروفة فى هذا العصر .

واقترضت السراجل الطويلة التى كانت تابعة للطولونيين أن يكون لهم أسطول عظيم ، وقد عنى أحمد بن طولون من أجل ذلك بدار الصناعة بجزيرة الروضة ، وبنى بها عددا كبيرا من السفن ، كما عنى خمارويه بالأسطول عناية كبيرة . وحصن ابن طولون مدينة عكا ، وأنشأ بها قاعدة بحرية ، وكان البرج الذى يطلو سورها المزوج من القوة بحيث صمد بعد ذلك بثلاثة قرون فى وجه ملوك من ملوك الصليبيين مدة سنتين ، كما صمد سنة ١٧٩٩ لاندحية نابليون البنية (١) .

(١) غزيب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص ١٨٧ .

عاصمة جديدة :

ودن مظاهر الاستقلال أن أقام أحمد بن طولون عاصمة خاصة به هي القطائع شمال القسطنطينية ، وقد بناها على نظام مدينة سامراء عاصمة العباسيين آنذاك ، وبنى بها مستشفى عظيما ، ومسجدا فخما ، وكثيرا من المباني الرائعة ، وقد بقيت القطائع مزدهرة حتى قدم الجيش العباسي بقيادة محمد بن سليمان فخر بها وأحرق دورها .



مسجد أحمد بن طولون

النواحي الاقتصادية والاجتماعية :

أما الناحية الاقتصادية فكانت موضع عناية الطولونيين ليضمنوا للبلاد الرخاء والاستقلال ، ولهذا شجعوا الصناعة ، وكانت صناعة النسيج أهم الصناعات في هذا العهد ، كما أسسوا مصانع للأسلحة ، وتقدمت في عهدهم صناعة ورق البردي ، وصناعة الصابون والسكر والخزف .

وفي مجال التجارة ظلت مصر وسوريا تزاو لان نشاطهما التجارى مستغلين موقعهما في ذلك الشأن ، فأصبحتا حلقة اتصال بين تجارة الشرق

والغرب ، وكانتا تتقاضيان ضرائب جمركية على البضائع التي تمر بهما ، وكانت هذه الضرائب تصل أحيانا الى مبالغ كبيرة .

واهتم الطولونيون بالزراعة وقد استلزم ذلك أن يعنوا بتطهير نهر النيل واقامة الجسور وشق الترع ، وشجع أحمد بن طولون الفلاحين على امتلاك الأرض ، وقال من الضرائب وكل ذلك إلى تنشيط الزراعة وبلوغها مبلغا عظيما .

أما عن الناحية الاجتماعية فيبدو أن الأتراك حظوا بمكانة عظيمة في عهد الطولونيين ، وكان بجانبهم طبقة الأشراف التي نالت الإجلال والتعظيم من الشعب ومن الأمراء ، وكانت هناك طبقة كبار الملاك وكبار التجار ، وهي طبقة كانت تنعم بالنعى والثراء ، أما جمهور الشعب فقد تحسنت أحواله بسبب الاستقرار وبسبب اهتمام الحاكم بشئون الناس وإقامة العدل ، ولقي أهل الذمة معاملة طيبة كريمة جعلتهم يقبلون على أعمالهم بشغف واطمئنان .

وكانت عناية الدولة كبيرة بإحياء الأعياد الاسلامية والمسيحية والوطنية كعيد الفطر وعيد الأضحى ، وعيد الميلاد وعيد الغطاس ، ووفاء النيل ، وكان من أهم المظاهر في هذه الأعياد ، ألعاب الفروسية التي اهتم بها الطولونيون اهتماما كبيرا ، كما اهتم الطولونيون بالعمارة والآداب والعلوم ، ولا يزال الجامع الطولوني شاهداً صدق على اهتمامهم بالعمارة والعلوم الهندسية ، ويجدير بالذكر أن مؤذنة هذا المسجد هي أقدم المؤذنة التي لا تزال قائمة في مصر ، وهذا المسجد هو المسجد الوحيد بمصر الذي غلب عليه الطراز العراقي ، أما المساجد الأخرى فقد غلب عليها الطراز الذي تأثر إلى حد ما بالفن اليوناني المعماري (١) ، وكان هذا الجامع مدرسة تعقد بها حلقات العلم ويجلس فيه كبار الفقهاء والمعلمون للتدريس والافتاء ، كما كان البلاط الطولوني مركزا يجتذب اليه الشعراء والأدباء ويشجع بالعلوم والمعارف .

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص ١٨٧ .

بين عهدي الطولونيين والإخشيديين

عادت مصر وسوريا ولايتين تابعتين إلى العباسيين بعد سقوط الدولة الطولونية ، وظلتا كذلك إحدى وثلاثين سنة حتى قامت دولة الإخشيديين فاستقلت بهما من جديد ، وقد انفصلت مصر عن سوريا في أغلب سني عهد الولاية ، ووقعت معظم بقاع سوريا خلال أطول فترة منها في يد منغصب مغامر هو ابن رائق ، وقد تولى الحكم في مصر عدة ولاية جمع بعضهم بين ولاية مصر وسوريا كلها أو أجزاء منها ، وأول وال في هذه الحقبة هو محمد بن سليمان الكاتب الذي قضى على الطولونيين ولكن سرعان ما استدعاه الخليفة المكتفى وقبض عليه وعين بدله عيسى بن محمد النوشري ، وظلت ولايته حوالي خمس سنوات ، ومن الولاية كذلك تكين التركي ، وقد حكم مصر أربع مرات ، ومنهم أيضا زكا الرومي وهلال بن بدر وأحمد بن كيغلق ومحمد بن طغج .

عودة الاتجاه الاستقلالي :

وفي عهد عيسى النوشري قامت محاولة لاستعادة السلطة للطولونيين ، وقد ترعّم هذه المحاولة محمد بن علي الخالنجي ، وكان أحد قواد الطولونيين ثم انضم إلى محمد بن سليمان الكاتب وخرج معه من مصر إلى حلب ولكنه هناك فارقه وعاد إلى مصر وقاد جماعة من المصريين ودعا لإبراهيم بن خمارويه ، ودعا لنفسه نائباً عنه في ظل الخلافة العباسية ، وقد لقيت دعوته كثيراً من النجاح واستطاع أن يستولي على العاصمة ، وفرّ من وجهه عيسى النوشري ، ولكن الخليفة العباسي أرسل له من العراق جيشاً إثر جيش حتى استطاع أن يقضى على حركته ويقبض عليه ، وبلغت المدة التي سيطر فيها الخالنجي حوالي ثمانية أشهر (١) .

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٢ .

حملات الفاطميين على مصر :

وكانت الخلافة الفاطمية قد أعلنت بتونس سنة ٢٩٧ هـ أى بعد سنوات قليلة من سقوط الطولونيين ، وتطلع الفاطميون إلى مصر ، وسرعان ما أرسلوا جيوشهم لاحتلالها ، وفي الفترة بين سقوط الطولونيين وقيام الإخشيديين بلغت الحملات الفاطمية على مصر ثلاثة (٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٢١) وقد فصلنا القول عن هذه الحملات من الجزء الرابع من هذه الموسوعة (١) ، وقد تسبب عن هذه الحملات وعن حياة الضعف التي كانت تمر بها الخلافة العباسية ببغداد ، أن اضطرب الأمن بمصر وسوريا ، وعجز الولاة عن السيطرة على الأمور ، وبخاصة أن الخلافة العباسية حرمت ألا تدع الخراج في يد الوالى مضافة أن تتكرر حركة الاستقلال الطولونية ، وقد سبب ذلك مزيدا من الضعف للولاة .

ولم يبق من شيء يفكر عن هذه الفترة إلا إشارة للأسرة الماذرائية التي تولت أعمال الخراج ، وكان لها دفع مرتبات الجنود فنافست بذلك الولاة في أكثر سنوات هذه الحقبة ، ومن أشهر أفراد هذه الأسرة الصالح بن أحمد الماذرائي (٢) .

أثر مصر في العهد الطولوني :

من أهم أعمال أحمد بن طولون أنه بنى مدينة القطائع التي ذكرناها عندما تكلمنا عن عواصم مصر الإسلامية ، ولم تكن القطائع على نسق المدن الإسلامية ، أى لم تكن دوائر يقع المسجد وبيت الإمارة في مركزها ، وإنما كانت مقسمة إلى « قطائع » أى حارات تبعا للسكان .

وكان بالقطائع قصر عظيم لابن طولون ، ولكن ضاعت معالمه ، فقد هدمت الخلافة العباسية آثار الطولونيين ، إذ اعتبرتهم متمردين ،

(١) انظر ص ٢٩٢ — ٢٩٥ من الطبعة الثانية .

(٢) Lane poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 77

فأرادت الخلافة أن تضر بهم حتى لا يسير الآخرون سيرتهم ، ولم يبق
من آثار الطولونيين إلا المسجد الذي لم تستطع أيدي الغضب أن تمتد إليه •

والمسجد الطولوني طراز عراقي لتأثر أحمد بن طولون بحياته في سُرّ
مَنْ رأى ، وتعتبر مؤذنته أقدم مؤذنة بالقاهرة •

وإنها لخسارة عظيمة في نطاق الآثار أن تضيع معالم ما شيده
الطولونيون ، فإن الوصف الذي وصل إلينا عن القصر الشاهق الذي بناه
أحمد بن طولون ووسّعه ابنه خمارويه يدل دلالة عظيمة على مدى التقدم
التي وصلت له مصر آنذاك ، وعلى رقى العمارة وفخامة الزخرفة وإبداع
الحدايق •

الدولة الاخشيديّة

(٢٢٢ - ٢٥٨ = ٩٤٥ - ٩٦٩ م)

تعريف بالدولة الإخشيدية

لقب الإخشيد لقب* كان يعمل ملوك فراعنة في بلاد ما وراء النهر (١) ، وقد استطاع محمد بن طنج بن جف أن يحصل على هذا اللقب من الخليفة الراضى تقديرا لخدماته وتكريما له ، إذ كان ينحدر من الأسرة المالكة بذي البقاع ، فعرفت الدولة التي أقامها بمصر وسوريا بالدولة بالإخشيدية .

وقد اتصل « جف » جد الإخشيد بخلفاء العباسيين : المعتصم قالوائق فالتوكل ، أما طنج أبو الإخشيد فقد اتصل بخدمة الطولونيين في عهد خمارويه ، ولمح في بلاطهم ، وحقق انتصارات عظيمة ضد الروم ، فكافأه خمارويه بأن جعله واليا لدمشق وقد استطاع أن يرد القرامطة عنها ، ولكن طنج أظهر الخيلاء والكبر فساخت علاقته بخمارويه مما أدى إلى دفعه إلى السجن بدمشق ومعه محمد ابنه ، ومات طنج في السجن ، وأطلق سراح محمد فبدأ يعمل من جديد لكفالة بغداد ليستعيد مكانته ، وقد رضى عنه الخليفة المقتدر فولاه دمشق بعد سقوط الطولونيين ، ثم أضاف له الخليفة القاهر ولاية مصر بشكل مؤقت ، ولكن سوء الأحوال في دمشق لم يسمح له بمنازعتها فأناب عنه من يحكم مصر باسمه وفى هذه الأثناء كانت الأحوال في مصر تسير من سيئ إلى أسوأ ، وكان الفاطميون يندفعون نحوها ، فلم يجد الخليفة الراضى الذي جاء بعد القاهر بدا من اللجوء إلى محمد بن طنج ليلبى أمورها ولاية أميلة حتى يوقف أطماع الفاطميين ويعيد لمصر حياة الاستقرار ، فجاء محمد سنة ٣٣٣ وبدأ يؤسس دولته ثم شملت الحجاز لدولة الإخشيديين ، وظلت الجهاز مرتبطة بمصر عدة قرون بعد

(١) من الألقاب التي اقتبسها الخلفاء العباسيون ومنحوها لبعض أبائهم للتكريم على نصيب الإخشيد لقب خاقان وهو لقب ملوك الترك ، والإخشيد وهو لقب ملوك اثرويسنة ، وذلك نسبة لقب القيصر لملك الروم وكسرى ملك الفرس والتغلى لملك الحبشة وفرعون ملك مصر .

ذلك ، وفي سنة ٣٣٣ حصل الإخشيد على حقوق وراثية لأسرته في البلاد التي كانت تحت يده ، ودخل بذلك في عداد الدول المستقلة .

وفيما يلي تخطيط بأمراء الإخشيديين :

١ — محمد بن طنج ٣٢٣ — ٣٣٥ هـ

٢ — أبو القاسم أنوجور ٣٣٥ — ٣٤٩ هـ ٣ — أبو الحسن علي ٣٤٩ — ٣٥٤ هـ

بوصاية كافور للاتنين

٤ — كافور ذاتيا ٣٥٤ — ٣٥٦ هـ ٥ — أبو الفوارس أحمد بن علي ٣٥٦ — ٣٥٨ هـ

وكان كافور العبد الحيشي ومعلم وادى الإخشيد وصيا على كل منهما ، مستبداً بالأمر دونهما ، فلما مات أبو الحسن على عثن كافور وألبا على مصر والشام ، وانتسب لسادته فأصبح يعرف بكافور الإخشيدى ، ولما مات بعد سنتين تولى أبو الفوارس أحمد بن علي ، ولكن الأحداث كانت أكبر منه ، فأخلى الطريق بعد عام أو نحو العام إلى جحافل الفاطميين .

تعريف بحكام الإخشيديين

محمد بن طنج الإخشيدى :

جاء الإخشيد إلى مصر سنة ٣٣٣ هـ وألبا عليها وعلى الشام ، وكانت قد اضطربت أحوال هذه الولاية من الداخل وهددها الغزاة من الخارج ، وكان عليه أن يبذل جهداً كبيراً لتعيد الاستقرار والسلام لهذه الولاية الكبيرة ، ومن المشكلات التي صادفها في الداخل مقاومة عامل الخراج محمد ابن علي الماذرائي الذي ينحدر من أسرة الماذرائي التي تحدثنا عنها من قبل ، والتي كان لها نفوذ وأطماع ، وهو من هذه الوجهة قريب الشبه بابن طولون عندما قابل نفوذ ابن المدبر ، ومن المشكلات كذلك مقاومة أنصار الوالي السائق أحمد بن كيغلخ ، وقد استطاع أن يقضي على المقاومة قضاء تاماً ويقضي على عناصر الشعب بالداخل .

وتطلع الإخشيد بعد ذلك الى ردة العدوان الخارجى ، فاستطاع أن يرد الفاطميين عن مصر وأن يوقف زحفهم عليها (١) ، وانشغلت الخلافة الفاطمية عن مصر بثورة ابن كيداد ، وقد حاول الفاطميون أن يجذبوا لوم الإخشيد وأن يحثوه على نشر دعوتهم بولايتهم ، لكن الإخشيد حرص على أن تنقري علاقته طيبة مع العباسيين وأن يظل فى نطاق المذهب السنى .

علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية :

أما علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية فكانت قريبة الشبه بعلاقة أحمد بن طولون بها ، فكما كان الموقف متغلبا على الخليفة العباسى وعدوا لابن طولون فاننا نجد هنا شخصا آخر يشغل نفس المكانة ، وذلك الشخص هو محمد بن رائق أمير الأمراء الذى كانت له الغلبة على الخليفة « المتقى » آنذاك والذى حاول أن يستولى على الشام بل أن يمد سلطانه الى مصر ، أما الخليفة فقد وقف موقفا سلبيا ، ويبدو أن هواه كان مع الإخشيد ، حتى أن الإخشيد أغراه بالقدوم الى مصر والإقامة بها ، ولكن الخليفة لم يستطع ذلك ، ودارت معارك بين ابن رائق والإخشيد لم يكن النصر فيها حاسما لأى من الطرفين ، وعقيد صلح بينهما بأن يكون شمالي الشام لابن رائق وجنوبيه مع مصر تابعا للإخشيد ، ثم أن الإخشيد استرد شمالي الشام عقب وفاة ابن رائق (١) .

وهذا الموقف أيضا هو امتداد للحركة الاستقلالية التى تكلمنا عنها من قبل على أن الإخشيد لم ينعم بذلك النصر الذى حققه ، فقد هاجمه الحمدانيون الذين أصبح لهم النفوذ فى بغداد ، وتكونت لهم دولة فى الموصل سنة ٣١٧ ثم استولت على حلب سنة ٣٣٣ ، وسرعان ما أرسل الإخشيد جيشا كبيرا بقيادة غلامية فانتك وكافور ، ثم سار بنفسه الى ميدان المعركة سنة ٣٣٣ ، واستطاع أن يحقق نصرا كبيرا وأن يوقع بجيش سيف الدولة ،

(١) ابن خلدون : المعبر ج٤ ص ٣٩ .

(٢) الكنى : تاريخ مصر وولاتها ص ٢٨٨ — ٢٩١ وابن الأثير : الكامل

فى التاريخ ج٨ ص ٢٩٢ .

ويقول الدكتور فيليب جتي (١) إن سيف الدولة قام بمحاولات عديدة للاستيلاء على سائر سوريا ، ولكن حاكم مصر الداهية أفسد خطته ، وهزم جيوشه في اشتباكين كبيرين ولم يبق له غير منطقة حلب ، وأجبره على الخضوع فيها لسيادة مصر .

وينبغي ألا ننسى شيئا من الأحداث هنا والأحداث التي مر ذكرها عن علاقة الطولونيين ببغداد ، ذلك الشبه هو أن مصاهرة تمت بين الأخشيديين من جانب وبين ابن رائق من جانب آخر ، ثم بين الأخشيديين من جانب وبين الحمدانيين من جانب آخر ، وهذا يدل على أن المصاهرة كانت تلعب دورا كبيرا في عالم السياسة .

وكما قلنا من قبل كان الخليفة المتقي على صلة طيبة بالأخشيديين ، وقد خطر له أن يقبل دعوة الأخشيديين للانتقال إلى مصر والتخلص من سلطة الأتراك ولكن ظروفًا متعددة حالت دون ذلك ، ومع هذا فقد حرص الخليفة أن يقر أي جانب الأخشيديين ماديا وأدبيا ليلجا له عند الحاجة ، فمد سلطانه بأن ولاه مكة والمدينة بالإضافة إلى مصر والشام ، كما جعل هذه الولاية له ولأولاده مدة ثلاثين عاما ، وبمضت بعد ذلك قرون عديدة ومقدرات الحجاز رهن بمقدرات مصر (٢) .

وينبغي أن نختم كلامنا عن الأخشيديين بعبارة نقتبسها من أبي المحاسن ابن تغري بردي قال : وكان الأخشيدي ملكا شجاعا مقداما جازما متيقظا ، حسن التنبؤ ، عارفا بالحروب ، مكرما للجنود ، شديد البطش ، ذا قوة مفرطة لا يكاد أحد يجترأ قوسه ، وله هيئة عظيمة في قلوب الرعية ، وكان متجملًا في مركبه وملبسه ، وكان موكبه يضاهي موكب الخلافة ، وبلغ عدد مماليكه ثمانية آلاف مملوك ، وكان قوي التحرز على نفسه ، وكان

(١) تاريخ سوريا ومصر وفلسطين ج ٢ ص ١٩١ .

(٢) فيليب جتي : تاريخ سوريا ص ١٩١ .

مما ليكه يحرسونه بالنوبة عندما ينام ، ويوكل الخدم بجوانب خيمته ، ثم لا يتق باحد حتى يمضى الى خيمة القرائين فينام فيها (١) .

وتوفي الاخشيدي بدمشق سنة ٥٣٣٥ هـ ودُفِنَ بببيت المقدس .

بعد الإخشيدي :

يمكن القول إن دولة الاخشيدين بمصر كانت تتكون من شخصين اثنين ، أحدهما منشىء هذه الدولة محمد بن طنج الذى تحدثنا عنه آنفا ، والثانى حاكمه كافور ، ومجانبا كافور كسان هناك اثنان من الدشمى لا يحسب لهما حساب في تاريخ الدول ، هما أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن على ابنا الاخشيدي ، وكان الاخشيدي قد أخذ البيعة قبل وفاته للأول على القواد والجند والأعيان ، فلما مات الاخشيدي صارت الولاية إلى أنو جتور ، وكان في الرابعة عشرة من عمره وتولى كافور الوصاية عليه ، واستمرت مدة ولايته أربع عشرة سنة ، أى أنه في خلالها تجاوز عهد الصبا الى الشباب والرجولة ، ولكنه مع ذلك لم ينل من السلطان طائلا ، وظل كافور ممسكا بزمام الأمور بيد من حديد ، وأطلق للشباب المال لينعم به وبما يحققه من متع رخيصة ، ويقال إن أنوجور فكر مرة في السيطرة الحقيقية على الأمور ، وبدرت منه بوادر ثورة على كافور ، واستعد الخروج الى الشام ليطلب من حاميتها أن تساعد ضد كافور ، ولكن أمه خافت عليه ، فأخبرت كافورا بذلك وسعت للمصلح بين الإثنين : ومات أنوجور عقب ذلك مما دعا الى الظن بأن كافورا دس له سماً في الطعام .

وبعد أنوجور تولى أخوه أبو الحسن على ، ومع أنه كان في الحادية والعشرين من العمر ، إلا أن كافورا نصب نفسه وصيا عليه واستبد بالأمر دونه ، ولما تحركت نفسه لإبعاد هذا الوصى المتسلط ، اشتد كافور عليه وحال بينه وبين الناس ، فأصبح سجيناً في قصره ، ثم قيل إنه مات

وأنطلق الظن أيضا بأن كافورا قضى عليه كما انطلق عقب وفاة أنوجور ، وكانت مدة ولايته خمس سنين وشهرين •

وظل كافور بعد موت أبي الحسن يدير الولاية مدة سنتين كما كان يديرها من قبل بمعاونة الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات ، وبعد فترة أظهر كافور كتاب بيعة من الخليفة العباسي له ، فأصبح حاكما مباشرا على مصر وسوريا وبلاد الحجاز ، وهكذا أصبحت مقاليد الأمور في هذه المنطقة الحساسة في يد عبد أسود استراه الاخشيد بثمانية عشر دينارا ، ويصفه ابن خلكان بأنه كان شديد السواد ، بصائفا ، مثقوب الشفة العليا ، بطينا قبيح المنظر ، مشقوق القدمين ، ثقيل البدن (١) ، ولكنه الاسلام الذي فرض المساواة بين أتباعه : فرفع بذلك إلى أوج الشهرة أناسا من أوضاع الأصول (٢) .

وكان عهد كافور قاتما مثله ، فقد كثرت فيه الزلازل ، وشبت النيران ، وتعرضت بلاد الشام لغزوات القرامطة مرة أخرى ، وتعرضت مصر لغارات ملك النوبة ، وانخفض ماء النيل ، واشتد الجلاء (٣) .

وإذا كنا قد اقتبسنا من ابن خلكان الأوصاف الخلقية المزرية لكافور ، فمن الحق أن نقبس من ابن تغري بردي حديثا عن مواهب كافور وأوصافه الخلقية ، قال : أبو المحاسن : كان كافور يذني الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرا عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وكان عظيم الحرمة ، له من الغلمان الروم والسيود ما يتجاوز الوصف ، زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد ، وكان كثير الخلع والهبات ، خيرا بالسياسة ، فطنا ذكيا ، جيد العقل ، داهية ، كان يهادى العز صاحب

(١) وفيات الأعيان : ج ١ ص ٤٣١ .

(٢) نيايب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٩٢ .

(٣) القريري : الخطط ج ٢ ص ٢٣١ .

المغرب ويظهر ميله اليه ، ويذعن بالطاعة لبني العباس ، ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء ، ويتم له الأمر (١) .

بعد كافور :

توفى كافور بعد سنتين من ولايته فأُسندت الأمور الى أبى نصرار بن أحمد بن على بن الأخشيد ، وكان صبيا فى الحادية عشرة ، فقتولى الحسن ابن عبيد الله بن طنج الوصاية عليه ، واستبد هذا بالأمر وقبض على جعفر ابن الفرات ، ولكنه ضعف عن تسيير الأمور وبخاصة وسط المجاعة القاسية التى أصابت البلاد ، فثار عليه الناس ، ففر من مصر الى الشام ، وكان هذا التدهور فى مصر ، وما صاحبه من تدهور فى الخلافة العباسية من الأسباب التى يسرت على الفاطميين الزحف إلى مصر ، ذلك الزحف الذى شرعناه فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

حضارة الإخشيديين

يمكن القول إجمالاً إن اتجاهات الحضارة فى العهد الإخشيدى ليست بعيدة عن اتجاهاتها فى العهد الطولونى ، لقرب الصلة الزمنية بين العهدين ولكثرة وجوه التشابه ، ولكن يلاحظ أن الصلة بين الإخشيديين والخلافة العباسية كانت أقوى من الصلة بين الطولونيين وهذه الخلافة ، ولعل من مظاهر ذلك أن الإخشيد لم ينشئ عاصمة خاصة ينافس بها عاصمة الخلافة ، وإنما اكتفى بزيادة العمران بالفسطاط ومد ضواحيها ، ومن منشآته بها القصر الجميل الذى بناه فى الروضة وسماه المختار ، والبستان الذى أطلق عليه فيما بعد البستان الكافورى ، ويجوار هذا البستان أنشأ الإخشيد ميدانا فسيحا سُمى ميدان الإخشيد ، ومن المظاهر الاستقلالية التى برزت فى العهد الإخشيدى ضرب السكة وعليها أسماء الإخشيديين بجانب اسم الخليفة ، وظهور منصب الوزارة فى مصر لأول مرة منذ الفتح الإسلامى ، وقد تولاهما أبو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ، ولما مات سنة ٣٢٧ عيّن

(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .

ابنه جعفر مكانه ، وظل يشغل هذا المنصب حتى نهاية الدولة الاخشيدية ،
ويُعرف عنه أنه صادر بعض أموال البارزين ، ومنهم يعقوب بن كلس
مما حدا بيعقوب الى الهرب الى الشمال الافريقي وحث الفاطميين على
الزحف إلى مصر .

منصب الحاجب :

ومن المناصب التي ظهرت في البلاط الاخشيدى منصب الحاجب
أيضا ، ومن أهم الذين شغلوا هذا المنصب فاتك الرومي .

القضاء في العهد الإخشيدى :

وقد عنى الاخشيديون بالقضاء ، واختاروا لهذا المنصب أعظم
العلماء ، ومن أشهر قضاة الاخشيد محمد بن بدر الصيرفي ، والحسين بن
أبى زرة الدمشقي ، ومن أشهر قضاة كافور عمرو بن الحسن الهاشمي ،
وأبو الطاهر الزهلي ، الذي ظل على قضاء مصر حتى دخلها الفاطميون ، وكان
الاخشيد يجلس للنظر في المظالم كل يوم أربعاء ، وحذا حذوه كافور في
ذلك .

جيش الإخشيديين :

وكان جيش الاخشيديين كبيرا بلغ أربعمائة ألف جندي فيما عدا
حرس الإخشيد الخاص ، وكان الاستقرار والقوة طابع هذا الجيش .

الناحية المالية :

وقد نعمت البلاد بالرخاء والثراء خلال أكثر عهد الاخشيديين ، ولكن
يؤخذ على الإخشيد أنه كثيرا ما كان يلجأ لمصادرة الأموال ، وربما يُعتدَر
عنه بأنه كان ينفق هذه الأموال في الأعمال النافعة التي تحتاج لها الدولة ،
كما أن أكثر من صادر أموالهم كننت تحوم الشبهة حول ثرواتهم ، ومما
أثر عنه حول المصادرة قوله : المصاهرة مشقومة وأنا مضطر إليها ، ومما
أنفقتها قط إلا في سفر إلى عدو* (١) ، وإذا كان الاخشيد قد صادر أموال

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٣٦ .

بعض الأغنياء فإنه كان — مع ما عُرِف عنه من الحرص — يُعنى بالفقراء ويقدم لهم العون المالى من حين لآخر ، وقد سار كافور فى مضمار السخاء على الفقراء شوطا طويلا ، فيروى أنه كان فى عيد الأضحى يُفْرَج حمل بغل من الذهب وكشوفاً بأسماء المحتاجين ، ويُنْبِث عنه من يمرُّ على هؤلاء وينق أبوابهم ، ويسلم كلاً منهم نصيبه من هذه المنحة قائلاً : الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدي يهنئك بالعيد ويقول له اصرف هذا فى منفعتك (١) .

العلم فى البلاط الإخشيدي :

وكان للعلم والأدب دولة ذات بال فى البلاط الإخشيدي ، وقد نبغ من العلماء عدد كبير فى هذه الحقبة منهم أبو إسحق الزوزى (٣٤٠هـ) وكان من أئمة الدين ووسع المعرفة كثير التكاليف ، ومنهم على بن عبد الله المعافى قاضى الاسكندرية (٣٣٩) ومن المحدثين الحسن بن رشيق المصرى الذى ولد سنة ٢٨٣ وتوفى سنة ٣٧٠ هـ . ومن النحاة أحمد بن الوليد التميمى المصرى ، ومن المؤرخين أبو عمرو الكندى ، ومن الشعراء كشاجم ، وكثيرون سواهم من أهل العلم والأدب .

كافور والمنتبى :

وقد عاش الشاعر النابه أبو الطيب المنتبى أربع سنوات فى بلاط كافور ، ومدحه بأخلاق القصائد ، وكان أبو الطيب يطمع أن يسند له كافور ولاية أى عملا كبيرا ، وقد أغدق عليه كافور العطايا ، ولكنه لم يكل له ما كان يطمع فيه من أعمال ، ولما سئل كافور عن ذلك أجاب : إن من ادعى النبوة يستطيع أن يدعى الملك والسيادة ، فغضب عليه المنتبى وهجر مصر وهجا كافور بأقذع أنواع الهجاء .

(١) دكتور على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٤٥٧ .

من مدائحه لكافور :

ومن مدائح المتنبى لكافور في فترة اقباله وآماله قصيدته البيئية ذات الشهرة الواسعة والمعاني الرائعة ، ومنها :

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| قواصد كافور توارك غيره | ومن قصد البحر استقل السواقيا |
| فجاعت بنا إنسان عين زمانه | وخلئت بياضا خلفها وماقيا |
| أبا كل طيب لا أبا المسك وحده | وكل سحاب لا أخص الغواديا |
| إذا كسب الناس المعالي بالندى | فإنك تعطي في نذاك المعاليها |
| وغير كثير أن يزورك راجل | فيرجع مأكا للعراقين واليها |

المتنبى يتعجل تحقيق أماله :

فلما طال انتظار المتنبى للولاية التي طمع فيها كتب لكافور يتعجله :

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| وفي النفس حاجات وفيك فطانة | سكوتي بيان عندها وخطاب |
| وما أنا بالباغى على الحب رشوة | ضعيف هوى ، يترحمى إليه ثواب |
| وما شئت إلا أن أدل عواذلى | على أن رأيى في هواك صواب |
| وأعلم قوما خالفوني فشرهموا | وغربت ، أنى قد ظفرت وخابوا |
| وما كنت لولا أنت إلا مهاجرا | له كل يوم بلدة وصحاب |

هرب وهجاء :

ثم يئس من أن ينال ما تمناه فغادر مصر وكان من هجائه لكافور قوله :

| | |
|------------------------------|--------------------------------|
| إنى نزلت بكذابين ، ضعيفهم | عن القرى وعن الترحال مردود |
| جود الرجال من الأيدى وجودهم | من اللسان فبلا كانوا ولا الجود |
| أكلما اغتال عبد سوء سيده | أو خائنه فله من مصر تمجيد |
| صار الخصى أمام الأبقين بها | فأضر مستبعد والعبد معبود |
| لا تشتر العبد إلا والعصا معه | إن العبد لأنجاس منا كيد |

من علم الأسود المخصى مكرمة أقومته البيض أم آباؤه الصيد ؟
أم أذنه في يد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

آثار الإخشيديين بمصر :

ليس للإخشيديين بمصر آثار باقية سوى مشهد آل طباطبا .

الحمدانيون في شمالي سوريا

أشرنا عند الكلام عن محمد بن طنج إلى الحمدانيين ونشاطهم بين الموصل وحلب ، ونريد هنا أن نذكر مزيدا من التفصيل عن هذه الأسرة التي حكمت جزءا من سوريا فترة من الزمن .

تنسب هذه الأسرة إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب التي كانت مسيحية الديانة ، ومنها الشاعر الأموي الأخطل : وقد استطاع حمدان إبان فترة اضمحلال الخلفاء العباسيين أن يستقل بقبيلته في منطقة قريبة من الموصل حوالي سنة ٢٦٠ هـ . وفي سنة ٢٩٢ هـ عيّن أبو الهيجاء عبد الله ابن حمدان حاكما للموصل وما حولها ، وقد أتاح هذا الوضع الفرصة للحمدانيين ليقوى جاههم وتبرز قوتهم ، وفي سنة ٣٠٧ هـ عيّن إبراهيم ابن حمدان حاكما لدير ربيعة ، وخلفه أخوه داود سنة ٣٠٩ هـ . وفي سنة ٣١٢ هـ أصبح سعيد بن حمدان حاكما لمنطقة نهاوند كما عيّن آخرون من الأسرة في مناصب متعددة ، وخلف حسن أباه عبد الله على ولاية الموصل ، ثم أضيفت له ديار بكر ودير ربيعة ، وفي سنة ٣٣٠ هـ أنعم عليه الخليفة العباسي بلقب ناصر الدولة ، كما أنعم على أخيه على باقرب سيف الدولة ، وجعله حاكما لواسط ، ولكن هذا استطاع أن يأخذ حلب من الإخشيديين سنة ٣٣٣ هـ كما ذكرنا من قبل ، وبهذا أصبح مواجهها لقوى البيزنطيين ، ودار صراع طويل بين سيف الدولة وبين البيزنطيين كانت به

انتصارات وهزائم للحمدانيين (١) ، ولكن المتنبى شاعر الدولة استطاع بشعره أن يجعل الهزيمة نصرا ، وأن يسجل مواقف للبطلانة لمدوحه : وكان سيف الدولة شيعيا غير متطرف ولذلك استطاع بعد سقوط الاخشيديين ودخول الفاطميين مصر والشام أن يكون على علاقة طيبة بالخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، وبعد سيف الدولة بدأت دولة الحمدانيين في الانحلال ، ثم امتد ملك الفاطميين فشمّل منطقة حلب معيدا بذلك وحدة مصر وجميع مناطق سوريا •

وأمرء الحمدانيين بحلب هم :

سيف الدولة ٨٣٣٣

|

سعيد الدولة ٨٣٥٦

|

سعيد الدولة ٨٣٨١

|

شريف ٣٩٤

علي ٣٩٢

العلم والفكر في بلاط سيف الدولة :

وقد ازدان بلاط سيف الدولة بنخبة ممتازة من رجال الأدب والفن تكاد لا تباريها إلا حلقات خلفاء بغداد في أيام عزهم ، فقد ضمت الفيلسوف الشهير والموسيقى البارع أبا نصر الفارابي ، ومؤرخ الأدب العربي اللامع أبا القرج الأصفهاني ، والواعظ البليغ ابن نباتة ، والعالم اللغوي ابن خالويه ، والنحوي الشاعر ابن جني ، والشاعر الفارسي أبا فراس ،

وفوق هؤلاء جميعا الشاعر الأشهر أبا الطيب المتنبي (١) ، وكان سيف
الديلة بين هؤلاء — كما يقول الثعالبي — واسطة قلادتهم وعزة الزمان
ودعامة الاسلام ، وكان به سدّاد الثغور وسدّاد الأمور (٢) .

ولنسر الآن الى عهد جديد حافل بالازدهار في مطلعته ، وملئ
بالصراع في خاتمته ، ذلك هو العهد الفاطمي بمصر وسوريا .

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ص ١٩٧ .

(٢) بتيمة الدهر : ج ١ ، ص ٨ — ٩ .

الدولة الفاطمية

(٣٥٨ - ٥٦٧ هـ = ٩٦٩ - ١١٧١ م)

نسب الفاطميين وقيام دولتهم

في الجزء الرابع من هذه الموسوعة (١) تحدثنا بإفاضة عن نسب الفاطميين ، وأثبتنا أنهم من نسل السيدة فاطمة الزهراء ، ورددنا الادعاء السدى يقول بغير ذلك .

وتحدثنا هناك أيضا عن قيام دولتهم بالشمال الافريقى ، وكان الشمال الافريقى أو اليمن هو المكان المختار لقيام الدولة الفاطمية على أمل أن يكون بعدهم من مركز الخلافة العباسية ضمانا للسلامة والنجاح في اقامة الدولة الجديدة .

وكان الشمال الافريقى أهم لدى الفاطميين من اليمن ، لأن وجودهم في الشمال الافريقى سيفتح لهم المجال للتحرك الى مصر ليحققوا طموحهم الأكبر في تكوين دولة اسلامية كبرى تتخذ مصر مركزا لها .

وفي الجزء الرابع كذلك حديث عن المحاولات الفاشلة التى قام بها الفاطميون لضم مصر إلى سلطانهم ، ثم عن المحاولة التى حقق بها جوهر الصقلى هذا الهدف، وتحدثنا كذلك عن انتقال المعز لدين الله اليها ليجعلها مركز سلطانه وقاعدة تتسع منها دولته لتصل الى أقصى الشرق كما وصلت في افريقية الى أقصى الغرب ، وهناك في ذلك الجزء وأسلنا كلامنا عن افريقية بعد انتقال المعز لمصر ، وهنا سنتكلم عن سلطان الفاطميين بمصر بعد انتقالهم اليها ، وعندهم يَعدُّ قمة الاتجاهات الاستقلالية التى ظهرت مبكرة ثم برزت مع قيام الدولة الطولونية والاخشيديّة ، وفي العهد الفاطمى اتجه الاهتمام للحضارة الاسلامية فأضافت الى الاتجاه الاستقلالى اتجاها حضاريا بقى زمامه في مصر على مر التاريخ عقب ذلك .

(١) ص : ٢٨٥ وما بعدها من الطبعة السادسة .

جوهر يمهد لاستقبال المعز :

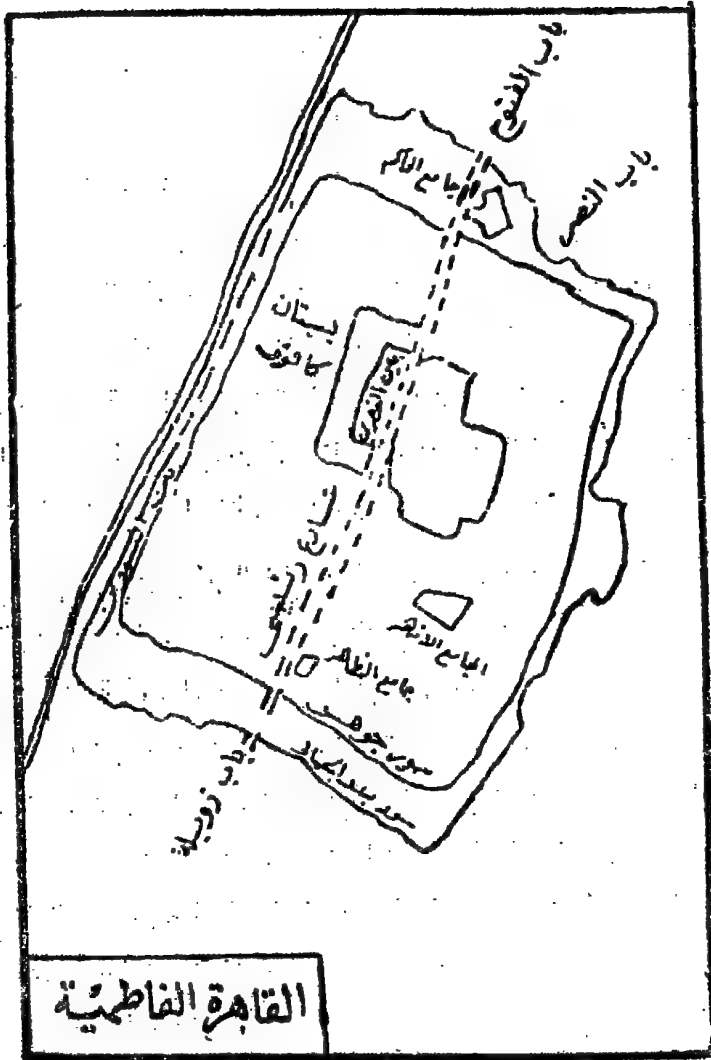
حكم جوهر مصر باسم الخلافة الفاطمية منذ فتحها حتى قدوم المعز ، وهى مدة أربع سنوات (٣٥٨ — ٣٦٢) وقد تغلب جوهر خلال هذه المدة على العقبات ، وقضى على المتاعب ، وأعد العدة لاستقبال الخليفة الفاطمى بما يليق به من جلال وعظمة ؛ فكتب خط جهور فى أول امسية له بالعاصمة مدينة جديدة الى الشمال من القطنع سماها المنصورية وقسمها خططا ، ولما دخل المعز لدين الله البلاد خلع عليها اسم القاهرة المعزية ، أى مدينة المعز التى تقهر كل المدن (١) .

وفى نفس الامسية وضع جوهر أساس قصر فخم لينزل به الخليفة عند قدومه (٢) ، وبنى جوهر الجامع الأزهر : (وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة فى السابع من رمضان سنة ٣٦١) ، وجعل على رأس كل مصلحة من المصالح الحكومية اثنين من الموظفين أحدهما مصرى ليرعى شئون المصريين والثانى مغربى ليرعى مصالح المغاربة الذين استقدمهم جوهر معه .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج٢ ص ١٠٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ١٢٠ ، المقرئى : اتعاظ

الحنفا ص ٧٢ .



جوهر والدعوة الشيعية :

ومن ناحية الدعوة الشيعية عمل جوهر بتؤدة على نشرها وتقويتها بمصر ، ففي أول الأمر نجد جوهرًا ينشر وثيقة (١) يشترط فيها على نفسه العدل واسقاط الرسوم الجائرة ، وترك الناس على مذهبهم الذي يريدونه ، فلما استقر له الأمر منع جوهر لبس السواد وهو شعار العباسيين وحاول نشر الخضرة وهي لبس آل البيت ، وأمر جوهر أن يزداد في الأذان العبارة « حتى على خير العمل » ، وأن يزداد في خطبة الجمعة الصلوات والتسليم على الإمام علي المرتضى ، وفاطمة البتول ، والحسن والحسين سبطي الرسول ، والأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، وقصر جوهر المناصب المهمة على الشيعة من مصريين أو مغاربة ، فتدفق الطامعون على إعلان قبولهم لهذا المذهب ، بل أظهر بعضهم التعصب له (٢) .

وينبغي أن يتضح أن الفاطميين في مصر أحسبوا أنهم يعاملون شعباً له ثقافة وفكر ، فقللوا من تعصبهم للتشيع ليضمنوا لأنفسهم الاستقرار والهدوء وبخاصة في أول عهدهم بدخول مصر .

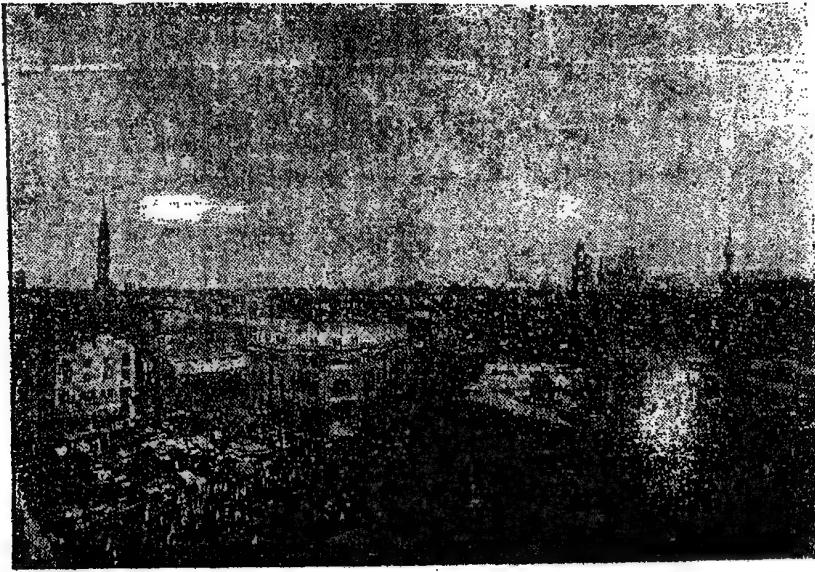
وفيما يتعلق بالاضطرابات الداخلية قضى جوهر على كل المناوئين للسلطة الجديدة ، فقاوم جماعة القرامطة التي كانت تتقاضى إتاوة من حكام دمشق ، ثم قُطِعَت الإتاوة بامتداد ملك الفاطميين إلى الشام ، فأنار هذا التصرف زعماء القرامطة ، وقاموا بحملة عنيفة استولوا بها على دمشق وحاولوا مهاجمة مصر ، ولكن جوهرًا تصدَّى لهم بجيش كبير ، فشقت شملهم واستعاد دمشق منهم ، وقد جدد القرامطة نشاطهم ضد الفاطميين بعد حضور المعز لمصر ، ولكن المعز استمال بعض قادتهم بالمال ، الذي كان أكثره مزيفاً ، وانقصر بالسلح على الباقيين (٣) . وسنزيد هذا الموضوع شرحاً فيما بعد .

(١) اقراهما في اتعاظ الحنفا للمقريزي ص ١٤٨ - ١٥٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ .

(٣) انظر تاريخ مصر إلى الفتح العثماني تأليف عمر الاسكندري والميجر

سندج ص ١٩٤ .



الجامع الأزهر ومنطقته

وسار جوهر شوطا واسعا في الفتوحات والتوسع ، فضم بلاد النوبة ،
واعترفت مكة والمدينة بسلطان الفاطميين ، واعترف له الأمير الصناداني
وإثنى حلب بالسيادة •

ورأى جوهر بعد هذا أنه آن الأوان لحضور المعز الى مصر ، فكتب
اليه بذلك فخرج المعز من المنصورة في شوال سنة ٣٦١ ووصل القاهرة
في رمضان سنة ٣٦٢ وتسلم زمام الأمور من جوهر ، وخلق على هذا
القائد خلعة مذهبية وقلده سيفاً ، وقدم اليه عشرين فرسا مسرجة ، وخمسين
ألف دينار تقديرا لما حققه من نجاح وما قدمه للدولة من خدمات ،
ولكن السيفان لا يجتمعان في جراب واحد كما يقولون ، فلم يكن هناك
بد من أن يتوارى جوهر عن الأنظار ليكمل تألق الخليفة • وليتجه كل
الاجلال اليه ، واذلك صرف جوهر عن دواوين مصر وجباة أموالها والنظر

في أحوالها (١) ، وبدأ نهجه يختفى ، ثم توارى بعد قليل عن مسرح السياسة المصرية (٢) . ولكن نفوذه العسكرى استمر بعد ذلك فقد قاد جيوش الفاطميين للقضاء على افتكين والحسن زعيم القرامطة بالشام سنة ٩٧٦ ووطد سلطان الفاطميين فيها ، ثم عاد الى مصر سنة ٩٧٩ حيث توفى بالقاهرة في نفس العام .

المعز لدين الله في مصر (٣٦٢ — ٣٦٥ = ٩٧٢ — ٩٧٥) :

حمل المعز معه الى مصر أهله ونوويه وحمل كذلك جثث آبائه ، وهذا يدل على أنه كان ينوى أن يتخذ من مصر عاصمة له يحكم منها امبراطورية كبيرة كان يحلم بها ، فلم تكن مصر بالنسبة له أرضا ضمها لسلطانه ، وإنما كانت مركزا يتبعها ما خضع له من بلدان .

وعهد المعز بمصر عهد قصير ، فقد توفى بعد ثلاث سنوات من وصوله ، ولكن هذه الفترة كانت حافلة بالاصلاحات وبوضع النظم الطيبة السمحة ، فقد أطلق سراح المسجونين من الاخشيديين واتباع كافور ، ونشر العدل وحسّن الادارة ، وكبح جماح جنده ، ومنعهم من البقاء خارج ثكناتهم بعد الغروب ، وبألغى نظام الالتزام وجعل الصلة مباشرة بين الدولة ودافعي الضرائب ، وكان شديد التسامح مع المسيحيين ، واستعمل كثيرين منهم في المناصب المهمة ، وعمل كسوة للكعبة في غاية الفخامة والعظمة ، وأمر بعمل خريطة للعالم من الحرير الأزرق وضّح عليها كافة أقطار العالم (٣) .

وفي ضوء هذه الاصلاحات أصبح عهد المعز عهدا نهضرا ، نمت فيه ثروة البلاد نموا محسوسا ، واستقرت الأمور ، وعم الأمن ، وأصبحت القاهرة مركزا للعلم والضيء في عالم تلك الأيام .

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ١١٨ .

(٢) دكتور على ابراهيم حسن : جوهر المقتلى ص ١٠٨ — ١١٠ .

(٣) دكتور زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٣ .

المعز ووسائل الدعوة للتشيع :

وبذل المعز نشاطا ملحوظا لخدمة الدعوة الشيعية ونشرها ، واستعمل لذلك العلماء والشعراء ، فجلس العلماء يحاضرون الخاصة ، وراح الشعراء يتحدثون للخاصة والعامة عن المبادئ الشيعية ووجوب اتباعها ، فقد كان الشعر صحافة تلك الأيام ، كما اقترح الفاطميون مناسبات متعددة يحتفلون بها ، حيث تجرى في هذه الاحتفالات رسومٌ ونظم تجسد الدعوة وتقربها الى القلوب ، فكانوا يحتفلون بستة موالد : مولد النبي ، ومولد علي ، ومولد فاطمة ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر ، وكانوا يحتفلون كذلك بعاشوراء وعيد الغدير وغيرها من المناسبات (١) .

وتوفي المعز لدين الله سنة ٣٦٥ فخلفه ابنه العزيز .

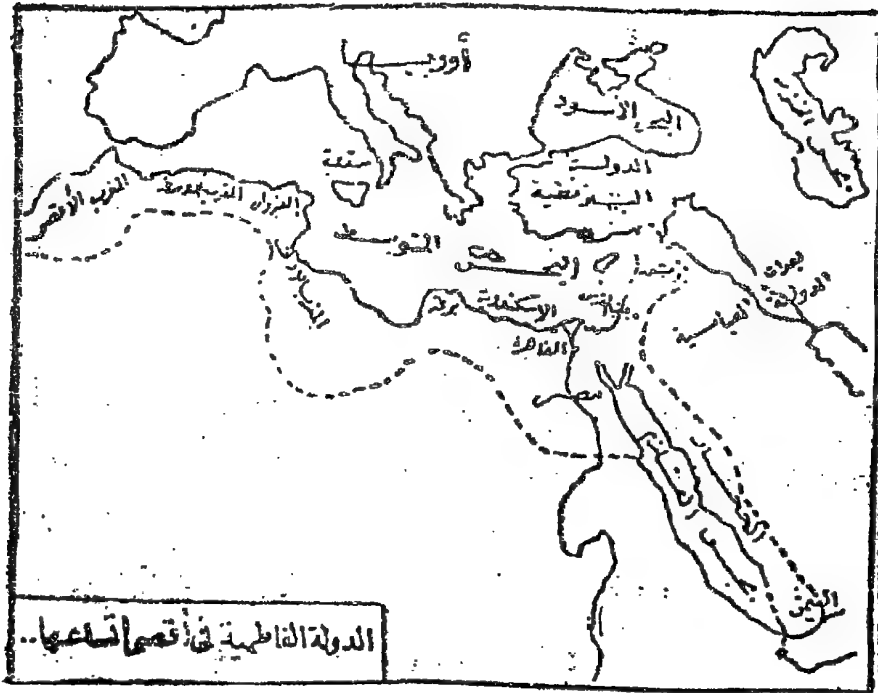
العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ = ٩٧٥ — ٩٩٦) :

تولى العزيز بعد أبيه وكانت سنه عشرين سنة ، ومع أنه كان في مطلع الشباب يميل للصيد ويولع به فقد كان شهما نبيلًا جريئًا ، ساس البلاد بحكمة وتسامح ، وقاد الجيوش ببطولة وشجاعة . ويعتبر عصر العزيز أزهى عصور الدولة الفاطمية بمصر .

وقد اتسع ملك الفاطميين في عهده اتساعا عظيما ، فقد خطب له في جميع الاقطار الواقعة ما بين المحيط الاطلسي والبحر الاحمر ، بالإضافة لليمن والحجاز ودمشق ، حتى الموصل أحيانا ، ولم تكن خلافة مصر في عهده منافسة لخلافة بغداد فحسب ، بل إنها فاقت هذه الأخيرة وأخملت ذكرها ، واكتسبت لنفسها قوة بحرية بحيث أصبحت الدولة الاسلامية الكبرى الوحيدة في شرقى البحر المتوسط (٢) .

(١) انظر ما كتبه المؤلف بافاضة عن المذهب الاسماعيلي في مصر وجهود الفاطميين لنشره في كتابه : تاريخ التربية الاسلامية ص ٣٧٨ — ٤٢٠ من الطبعة الثامنة .

(٢) Hitti : History of the Arabs pp. 734 - 735.



ولعل هذا التوسع هو الذي دفع بالخليفة ليرتكب الخطيئة التي ارتكبها من قبله خلفاء بني العباس وعانوا من شرها كثيرا ، وتلك الخطيئة هي أنه بدأ يجلب الترك والزنج ويعتمد عليهم في الأمور العسكرية بجانب البربر الذين قدموا مع جوهر ثم مع أبيه ، وعلى هذا وجد في مصر أصناف من الرجال العسكريين أصبحوا فيما بعد سبب اضطراب الدولة وانحلالها عندما جاء خلفاء لم يستطيعوا أن يحكموا عليهم النفوذ والسلاطان .

اصلاحات العزيز :

وللعزيز اصلاحات اجتماعية وثقافية مهمة ، فهو الذي بدأ ببناء الجامع الذي أتمه من بعده ابنه الحاكم وعرف باسمه ، وأنشأ بالقصر مكتبة عظيمة بلغ عدد ما بها من مجلدات مئات الآلاف ، ويقول أبو شامة (١) إنه كان بها مليون كتاب في مختلف العلوم والفنون ، كاللغة

(١) الروضتين ج١ ص ١٠٠.

واللغة العربية والحديث والتاريخ والسير والفلك والدين والكيمياء ،
وهو الذى حول الجامع الأزهر الى جامعة تلقى بها الدروس والمحاضرات .



منارة مسجد الحاكم

وينسب للعزیز أنه تشدد فى نشر المذهب الشيعى ، وألزم المصريين
أن يعتنقوه كما حتم على القضاة أن يصدرُوا أحكامهم وفق قوانينه .

وعرف عن العزیز تسامحه الیاسع مع أهل الذمة ، ولعل ذلك راجع
الى زواجه من سيدتين مسيحيتين ، أو الى أنه كان يخاف أهل السنة على
دعوته الشيعية أكثر من خوفه عليها من أهل الكتاب ، وكان من بين وزرائه

يعقوب بن كلثوم وهو يهودى أسلم وأجاد مذهب آل البيت وكتب فيه ، وجلس يعلمه فى الأزهر ، وهو الذى نصح للعزیز بتحويل الجامع الأزهر الى جامعة دينية (١) ، ومن بين وزراء العزیز وزير مسيحي هو عيسى بن نسطورس وقد ظل على مسيحيته على الرغم من شغله هذا المنصب الكبير ، وكان متعصبا لبنى دينه مما أثار عليه جماعة المسلمين ، وتولى وزارة العزیز كذلك منشئا لليهودى ، وكان طبيب العزیز بالله وطبيب ولده الحاكم من بعده نصرانيا يدعى أبو الفتح منصور بن معشر المصرى وكانت له مكانة سامية فى الدولة (٢) .

وقد أحس العزیز خطر هذه السياسة فتخلى عن أهل الذمة وغرهم أموالا كثيرة ثم عاد فصيح عنهم بشفاعة ابنته ست الملك وتأثير زوجته النصرانية (٣) .

وتوفى العزیز فى رجب سنة ٣٨٦ هـ فى مدينة بلبيس وهو فى الطريق الى الشام قاصدا غزو الروم .

الحاكم بأمر الله (٢٨٧ — ٤١١ = ٩٩٦ — ١٠٢٠) :

نحن الآن أمام شخصية غامضة هى شخصية الحاكم بأمر الله ، شخصية كثرت عنها الأبحاث كثرة بالغة اشترك فيها المستشرقون والشرقيون ، ولا يزال الباحثون حتى اليوم يكتبون عنه دراسات مقتضبة أو مستفيضة ، ومع هذا فلا يزال الحاكم بأمر الله غامضا حتى ليبدو أنه انطوى ومعه كثير من الأسرار والأخبار .

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان : ج ٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(٢) ابن العبري : مختصر تاريخ الدول ص ٣١٦ . ويقول الدكتور عبد المنعم ماجد (نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ص ٤٨) انه فى عهد العزیز والحاكم لم يحمل لقب الوزير الا ابن كلثوم .

(٣) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٨١ .

ويوشك هؤلاء الباحثون أن يتفقدوا على شنود في الحاكم بل اضطراب في عقله وانحراف في تفكيره ، واعتقادي أن مصدر ذلك الاتفاق بين الباحثين أن الواحد منهم يأخذ قضية من الآخر فيسلم بها ويحاول أن يجد مزيدا من الأدلة لتأكيدهما ، ومع أن طبيعة هذا الكتاب الاختصار والايجاز فأننى أريد أن أسلك في بحثى عن الحاكم طريقا جديدا بالأا أدرسه تحت تأثير بكاتب أو باحث ، وبالأا أجعل قضية من القضايا عنوانا لدراساتى ثم أحاول أن أدلل عليها بما يؤيدها ، اننى أريد أن أسلك طريقا آخر ، أريد أن أجمع المعلومات من هنا ومن هناك حتى تقود هذه المعلومات الى نتيجة من النتائج نعتنقها أو نؤيدها :

سبا الحاكم بين الأهواء والاضطراب :

وبادئ ذي بدء نذكر أن الحاكم تولى الخلافة وعمره احدى عشرة سنة ، وفتح عينيه فوجد نفسه خليفة على ملك فسيح مهيده له أبوه وجدته ، وعيّن عليه برّجوان التركى وصيا ، وكانت السلطة بينه وبين ست الملك أخت الحاكم لأبيه وقضى هذا الوصى كما قضت ظروف القصر والحياة الشيعية أن يثقلن الحاكم علوما خاصة ، في قمتهما التشيع والمبالغة فيه ، ومنها كذلك علوم الفلسفة وعلوم الفلك ، وطبيعى أن الحاكم اطلع بوسيلة أو بأخرى على علوم غير علوم الشيعة ، فاثرت هذه فيه ، وأوقفه ذلك أمام طريق مزدوج ، ولعل الحاكم رغب في مزيد من العلوم المعتدلة ومن الدراسات الهادئة ، ولكن رجال القصر والمشرفين على تعليمه وثقيفه ، ما كان لهم أن يتجهوا به هذه الوجهة فحرموه ما شاء ، ومنحوه ما شاءوا ، فقد كان اتجاهه يحمل في طياته انهيار النظام الفاطمى وبالتالي انهيار سلطان أصحاب الجاه في مصر ، واندماج مصر من جديد في اطار النظام السنّى

زحام العناصر في القصر والمجتمع :

ونما الحاكم فتفتحت عيناه على قصر يعج بعناصر متعددة من الناس : بربر وعرب ومصريين وأتراك وزنج ، ولكل من هؤلاء أهداف واتجاهات ، وفي القصر كذلك أديان متعددة ، فأمر الحاكم مسيحية وزوجة أبيه أم أخته

ست الملك مسيحية كذلك ، وبه أيضا عناصر يهودية وشيعية وسنية ولا دينية محايدة ولا دينية هدامة متطرفة ، والقصر صورة مما في المجتمع الفاطمي من اتجاهات وأديان ومذاهب ، وكان المجتمع الاسلامي في عهده — وليس فقط المجتمع الفاطمي — يمر بأقسى فتراتة ، ففي أسبانيا ضعف وانحلال بعد عصر المنصور بن أبي عامر وأولاده ، وفي العراق تفكك البويهيين وتشيعهم وعدوانهم حتى خلفاء بني العباس ، وعدم نبولهم في الوقت نفسه الالتحاق بالفاطميين الشيعية .

جوانب مضيئة في حياة الحاكم

جهود اجتماعية للحاكم :

وتؤكد كل المراجع التي بين أيدينا أن الحاكم كان في السنوات الأولى من حكمه شديد العناية بأداء واجباته كرئيس للدولة ، متفانيا في خدمة البلاد والعمل على إسعادها وازدهارها ، فكان يفتل بالناس في الشوارع والأسواق ، يتعرف على مشكلاتهم ، ويحاول حلها ، ولم يفتن بما عثر عن الخلفاء السابقين من ترف في اللباس والمراكب والحرس ، وأصبح الناس في عهده يعيشون في أمان ، وينامون في بيوتهم وأبوابهم مفتوحة .

يقول المقرئ في حرانت إحدى وتسعين وثلاثمائة : ان الحاكم واصل الركوب في الليل في كل ليلة وكان يسير من موضع الى موضع ومن شارع الى شارع ومن زقاق الى زقاق ، وأمر الناس بإضاءة الشوارع والأزقة . . . ومنع حرسه من أن يحولوا بينه وبين الناس ، وقال : لا تمنعوا أحدا ، فأحرق الناس به وأكثروا من الدعاء له (١) .

وفي سنة ٣٩٢ هـ أصدر الحاكم قرارا بمنع كل المنكرات وإبطالها ، وبذلك قضى على المسكرات وأراقها ، كما قضى على القمار بكل أنواعه (٢) .

(١) اتعاظ الدنيا ج ٢ ص ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤ .

وفي سنة ٣٩٥ أصدر الحاكم أوامر مشددة للنظافة ، فأمر بكس الشوارع والأرقة ، كما أمر بقتل الكلاب الضالة (١) .

وفي سنة ٣٩٩ أمر ألا يدخل أحد الحمامات العامة بدون مژر ، وكتبست الحمامات بعد ذلك وقبض على من خالف هذا الأمر وشهر بهم (٢) .

جهود اقتصادية للحاكم :

واهتم الحاكم اهتماما كبيرا بالتجارة ، وحرص على سلامة الطرق ، وقضى على اللصوص والمحتالين ، كما حرص على سلامة المكاييل والموازين ، وأخذت الحسبة في عهده مكانا مرموقا .

واتجه الحاكم للزراعة التي ازدهرت مع الاهتمام بالنيل وفروعه وبيع بعض الأنواع الزراعية الجديدة التي استقدمها ، ووصل من عنايته بالزراعة أن استقدم من البصرة الحسن بن الهيثم العالم الطبيعي والرياضي الشهير ، الذي نقض في كتابه الرئيسي « كتاب المناظر » نظرية أفلاطون القديمة القائلة بأن الإبصار يكون بخروج شعاع من البصر إلى المبصرات ، وقرر عكس ذلك ، وهو الأمر الذي انتهى إليه الفكر الحديث ، والحق أن الحسن تعهد للحاكم بأن يعدل فيضان النيل الذي كان أساس خصوبة التربة المصرية (٣) .

ويرى بعض الباحثين أن مشروع الحسن بن الهيثم كان نواة التفكير في العمل الذي تم في عصرنا الحديث وهو السد العالي .

وربما نسال عن الأسباب التي جعلت ابن الهيثم لا يعمل على تنفيذ هذه الفكرة ؟

(١) المرجع السابق ص ٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٦ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٩٤ .

والذى تشير له المصادر أن ابن الهيثم عندما رأى الآثار المصرية العظيمة خطر له أن ذلك المشروع لو كان ممكنا لما غفل عنه المصريون القدماء مع براعتهم فى ألوان من النحت والفنون والعلوم .

وبجوار الحسن بن الهيثم ازدان بلاط الحاكم بمجموعة من العلماء سنتحدث عنهم عند حديثنا عن الحضارة الإسلامية فى العهد الفاطمى

اهتمام* بالعدالة فى القضاء :

ويقرر الكندى أن الخليفة الحاكم أراد أن يحول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير حق ، فأمر بأن يضاعف للحسين بن على بن النعمان رزقه وصلاته واقطاعياته ، وشرط عليه ألا يتعرض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه (١) وفى ملحق الكندى (٢) أن الحاكم مرةً أجاز بعض الرجال للشهادة بأن أقرّ عدالتهم ، ولكن قاضى القضاة أعلمه أن بعض هؤلاء لا يستحقون التقدير ولا يوثق بهم فى شهادة ، فأذن له بتصفحهم ، وإقرار من يرى اقراره منهم ، ولم يتمسك برأيه فيهم .

وهذه النصوص واضحة الدلالة على أن هذا الحاكم كان مخلصا لدولته كفتا لحمل أعبائها ؛ عالما بكرم العلماء .

دار الحكمة :

وهو موضوع آخر يئسب للحاكم فيضعه فى القمة من المفكرين المثقفين هو إنشاء دار الحكمة سنة ١٠٣٩٥ هـ أى وهو فى العشرين من عمره ، وكانت دار الحكمة التى أنشأها هذا الخليفة مركزا علميا على المستوى ، جمع له الخليفة خيرة العلماء فى جميع الفنون والعلوم ، وأجرى عليهم المرتبات الكبيرة ، وهى لهم الوسائل ليتفرغوا للبحث والدراسة والتأليف ، فألحق

(١) إل لآ والقضاة ص ٢٩٧ .

(٢) ملحق الكندى ص ٨٢ .

بدار الحكمة مكتبة عظيمة حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة أخرى في ذلك العهد ، وهياً للملتحقين بدار الحكمة من طلاب ومطالعين أرزاقاً كافية ، ووضع تحت تصرفهم الأوراق والمصادر (١) ، فورثت بذلك ما كان لبيت الحكمة في بغداد من نشاط علمي زاهر وزادت عليه ، ويمكن القول إنه لما يؤس من اصلاح الدراسة في الأزهر آنذاك تركه في دراسته المذهبية المتعسبة وأنشأ دار الحكمة تخدم العلم للعلم بدون تأثير مذهبى أو سياسى .

الحاكم والمرأة :

وفي سنة ٥٣٩٤م حظر الحاكم على النساء كشف وجوههن وراء الجنازات والبكاء والعويل وخروج النائحات خلف الجنازة (٢) .

ثم اتجه الحاكم الى مزيد من الدقة ومزيد من الغيرة على النساء ، فقرر أن تقر النساء في بيوتهن ، وألا يخرجن منها لغير ضرورة ، وتنفيذاً لذلك منع صانعى الأحذية من صنع أحذية لهم ، بل قتل بعض من خالفن تعليماته (٣) .

يقول المقرئى في ذلك : لما أقرطت النساء فى الخروج بالليل أمر الحاكم ألا تخرج امرأة بعد العشاء ، فان ظهرت نكثت بها ، كما أعان ألا تكشف امرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ، ولا تتبرج ، ومنع النساء كذلك من الإقامة فى المقابر وإطالة الزيارة (٤) .

(١) المقرئى : اتعاط الحنفا ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) يحيى بن سعيد الورقة ١١٥ ب .

(٣) المرجع السابق ١٢٤ والخط للمقرئى ج ٢ ص ٢٨٩ ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١٢٧ واتعاط الحنفا للمقرئى ج ٣ ص ١٢٠ .

(٤) اتعاط الحنفا ج ٢ ص ٣٨ ، ٥٣ ، ٧٣ .

إيقاف سب السلف :

وأمر الحاكم أن يكف الناس عن سب السلف ، وعاقب من ارتكب هذا الانحراف ، بل وصل الأمر إلى قتل واحد لأنه تهادى في ضلاله فسب السيدة عائشة ، وأصدر أمره للشرطة بشأن يقبضوا على من يقوم بسب السلف فكف الناس عن هذا العمل ، وفي سنة ١٣٩٧ هـ أمر بمحو ما هو مكتوب على المساجد والأبواب وغيرها من سب السلف فمحي ذلك كله ، وطالب متولى الشرطة حتى أزال سائر ما كان منه (١) .

الحاكم الخليفة الزاهد :

وفي سنة ١٤٠٠ هـ أعلن الحاكم منهاجا جديدا لم تعرفه سيرة أكثر الخلفاء ، فقد قرر أن يعيش على طريقة الزهاد الأولين من المسلمين ، وأن يطرح الدنيا وشؤونها بعيدا ، فاقصر في مطعمه ومشربه على ما تدعوه إليه الحاجة لتفاسك الجسم دون زيادة أو مغالة ، وأغلق مطبخ دار الخلافة ، ومنع الناس من تقبيل الأرض بين يديه ، ومن السجود له ، ومن مخاطبته بمولانا ، وترك ركوب الخيل ، وصار يركب الحمير ويختلط بالناس بلا مظلة وبلا طراد (٢) بين يديه ، وأسقط الألقاب وجميع الرسوم والمكوس المستحدثة ، وأعاد للناس كل ما كان قد أخذ من أملاكهم وعقارهم في عهده أو عهد أسلافه بمصادرة أو بغير حق ، واعتق سائر ممالكه من الإناث والذكور ، وحررهم جميعا أوجه الله تعالى (٣) ومنع الحاكم زراعة العنب ، واتهم المزارعين أنهم يزرعون الكروم لعمل الخمر .

(١) المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٩ .

(٢) الطراد هم الذين يفسحون الطريق أمام الملوك .

(٣) يحيى بن تميم الانطاكي : مخطوط بباريس رقم ٢٩١ ورقة

١٢٢٢ — ١٢٩٠ نقلا عن الحضارة الإسلامية لأدم متر ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧

والقرنيزي : انماط الحنفية ج ٢ ص ١٢٦

جوانب قاتمة تنسب للحاكم

ونناقشتها

ذكرنا فيما سبق الجوانب المضيئة في حياة الحاكم ، ولكن هناك جانباً آخر أميل الى الظلام نذكره فيما يلي ونناقشه :

سفك الدماء :

يُذكر عن الحاكم أنه كان مولعاً بسفك الدم ، قتل الوصي برجوان ودبر اغتيال الوزراء الستة الذين جاءوا بعد هذا الوصي ، أو على الأقل دبر اغتيال أكثرهم ، وقتل قائد قواته الحسين بن جوهر ، والقاضي حسين ابن النعمان ، والفضل بن صالح من أعظم قواد الجيش ، وهو الذي قضى على ثورة أبي ركة ، وقتل رجاء بن أبي الحسين ، وقتل غلاب بن مالك قائد الشرطة ، وقاضى القضاة مالك بن سعيد .

والحاكم قد فعل ذلك كله ، ولكن المقرئ يذكر أسباب هذه التصرفات مما يتيح فرصة واسعة للحاكم للدفاع عن نفسه ، فمثلاً يذكر أن برجوان استقل بلذاته وأقبل على سماع الغناء ، وكان شديد الطرب يجتمع المغنين من الرجال والنساء ، ويكون معهم كأحدهم ، ولا يخرج من داره حتى يمضى صدر من النهار ، وإذا عرضت عليه الأمور أمضى منها ما يختار من غير مشاورة ، وكان كثير الدالة على الحاكم ، ويقول الحاكم أنه كان سيء الأدب جداً ، وأنه في بعض الحالات كان يجعل خُفَّه مقابلاً لوجه الحاكم وغير ذلك من الأمور التي كانت تحتم القضاء عليه (١) .

ويروى المقرئ قصة مؤامرة قام بها بعض رجال الحاكم ضده وقد نُقِلَت أخبارها الى الحاكم ، فلقى المتآمرون جزاء خيانتهم (٢) .

(١) اتعاط الحنفا ج ٢ ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .

وقَتِّلَ القاضي حسين بن النعمان لأنه استولى على أموال اليتامى
وكان قدرها عشرين ألف دينار (١) .

وقَتِّلَ مالك بن سعيد لأنه أخذ جانب ست الملك التي كانت شديدة
العدا للخليفة الحاكم وقد خافه الحاكم على نفسه (٢) .

— وينسب له أنه أصدر أوامر مضحكة لأسباب تافهة ، فقد حرّم
الملوخية لأن معاوية كان يحبها ؛ وحرّم الجرجير لأن عائشة كانت تستطيه ،
كما ينسب إليه أنه أصدر أوامر متناقضة ، فقد أوصى بمزاولة النشاط
بالليل ، والنوم بالنهار ، ثم عدل عن رأيه .

وليس هناك أبدا ما يسدل على صحة هذه الادعاءات وأغلب الظن
أن أعداءه نسبوها إليه لمهاجمته أو اخترعوها بعد وفاته .

وينسب للحاكم أنه اصطنع نظام التجسس فجعل له عيوناً من
النساء يدخلن البيوت وينقلن إليه أخبارها ، وكان يلقي بهذه الأخبار أمام
ذويها على أنها من معارفه هو ومن صور مقدرته التي تمكنه من معرفة
الغيب (٣) .

تلك خلاصة موجزة لما أورده المؤرخون عن أعمال الحاكم خيرها
وشرها ويجب أن ننظر لها نظرة علمية محايدة محللين وباحثين لنقودنا هذه
الأعمال الى نتيجة أقرب ما تكون الى الحقيقة .

ويادى ذى بدء نستطيع أن نقول بيقين لا يحتمل شكاً مما اقتبسناه
أنفاً من المقرئى والكندى ويحيى بن سعيد وكارل بروكلمان ومن انشاء

(١) و (٢) اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٥٩ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٠٦ .

الحاكم لدار الحكمة وهو في سن العشرين أن الرجل كأن ذكيا وطموحا ، وكان لا يسيى على النسيق الذي أريد له أو سارت الدولة عليه ، فالوصى تركى الجنس وأمه مسيحية وهما يوجهانه وجهة لا يرتضيها ، والأزهر يسيى في دائرة شيعية لا تقنعه ، وفي نفسه رغبة الى الإصلاح عبّر عنها في عدة صور كذا رأينا ، ولكن التقاليد تسيطر على القصر ، ورجال البلاط يرون في اتجاهاته قضاء على نفوذهم وعلى كيانهم ، وتعارضت اتجاهات الحاكم مع نفوذ أخته ست الملك تلك التي سنراها تدبّر جريمة قتله ، وقد ذكرنا أن الحاكم قد اكتشف مؤامرة أو مؤامرات ضده للقضاء عليه من هذا النوع ، وأنه أنزل سخطه وعقابه على من اشترك فيها من القادة والوزراء مما يفسر لنا قتل الوصى برجوان وغيره من القادة والزعماء ، وعندما تلوثت يد الحاكم بالدم لحقته الشكوك ، ولم تعد الثقة متوفرة بينه وبين رجال قصره .

ويبدو أن المرأة جانبها الصواب في عهده حتى أنه اتهم أخته ست الملك بما يشينها ، فراح الحاكم يضع القيود التي يحمى بها المرأة أو يكبح جماحها فعند ذلك نزقا منه ، وليس بنزق اذا قيس بمقياس عصره وبمقياس الخلل الذي دب في القصور في تلك الأثناء .

أما نظام التجسس فهو وسيلة اتبعت ولا تزال تتبع في أرقى الممالك ، ولا شك أنها كانت نتيجة للشكوك التي عاشها الحاكم في أخريات أيامه ، فالحاكم في رأينا كان في أول حياته طرازاً ممتازاً ولكن اتجاهاته اصطدمت بالآراء التي كانت سائدة في قصره ولدى كبار رجالاته ، وأحدث ذلك صراعا في نفس الحاكم وفي المجتمع ، وكانت وفاة الحاكم غامضة كحياته ، والأرجح إن أخته ست الملك دبّرت قتله بعد أن اتهمها بما يشينها وخافت من سخطه ، وقد خرج مرة ليلا راكبا حمارا الى مرصدي كان يخلو فيه

لنفسه بجبل المقطم ، ولم يعد الحاكم من هذه الرحلة ، وعثر الناس على حماره وملابسه ملوثة بالدماء فعرفوا أنه قتل (١) .

نهاية الحاكم :

يصف لنا المقرئ أحداث الأيام التي تلت غيبة الحاكم وصفا يؤكد مسؤولية أخته عن قتله وتدبيرها لنهايته ، كما يفيد هذا الوصف أن هذه الجريمة نزل قصاصها بالأخت بعد فترة قصيرة ، يقول المقرئ (٢) :

وليلتين بقيتا من شوال سنة ٤١١ هـ فقَدَ الحاكم ، وسبب فقده أن أخته ست الملك كانت امرأة حازمة ، وكانت أسن منه ، وكان الأمر بيدها طفولة الحاكم ، فلما بلغ الحاكم الرشد ، وتخلص من برجوان ، وأراد أن يأخذ كل السلطة من أخته قام صراع بينهما ، واستمر هذا الصراع طويلا حتى بلغت العلاقة بينهما نهاية السوء ، وفي بعض المناقشات سنة ٤١٠ دار كلام بينهما فرماها بالفجور ، وقال لها أنت حامل ، ووصلت العلاقة بذلك إلى قمة الجفاء ، فراسلت ست الملك سيف الدين حسن بن علي بن دواس من مقدمي كتامة ، وكان قد تخوف من الحاكم ، وتواعدا على قتل الحاكم وتحالفا عليه ، وأحضرت ست الملك عبيدین وحلفتهما على كتمان الأمر ، ودفعتا إليهما ألف دينار ليقتلاه .

ولما أراد الحاكم الصعود للجبل كعادته حاولت أمه منعه لتخوفها عليه ، ولكنه أصر على ما أراد وركب حماره ، ودخل الشعب الذي كان يدخله ، وكان العبدان يختفيان فيه ، فخرجا عليه وضرباه حتى مات ، وقتلا تابعه وحماره ، وحملا جثته إلى أخته فدفنته ، وقتلت أعوانه الذين خافت أن يثوروا لغيبته .

واضطرب الناس لغيبة الحاكم ، فأرسلت إليهم : انه أخبرني أنه

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٢ ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢) اتعاط الحنفا ج٢ ص ١١٥ — ١١٧ .

سيعيب سبعة أيام وأنه يواصلني بأوامره ، ورتبت رسلا يتظاهرون بالمضي للحاكم والعودة بأوامره ، وفي أثناء ذلك اشتدت شوكتها وكف الناس عن الاستتصاء في المسألة ، فأحضرت ابن دواس واتنقت معه على البيعة للظاهر بن الحاكم ، وأظهرته للجماهير ، وعلى رأس تاج جدّه العزيز ، غنغذ ابن دواس ذلك ، وبائع الناس الا غلاما تركيا فانه قال : لا أباع حتى أعرف خبر مولاي الحاكم ، فقتل هذا الغلام .

نهاية ست الملك :

اتجهت ست الملك للقضاء على ابن دواس فقتلته ، وقتلت جميع من عرف سر نهاية الحاكم ، ولكن أيامها لم تطل بعد ذلك فماتت بعد فترة قصيرة .

وكتب تاريخ الحاكم إثر وفاته ، وقد عادت السلطة الى من اضطهدهم ، أولئك الذين كان يهمهم أن يبرزوه معتوها أو مجنونا أو مدعيا للالوهية ، ليصرفوا الناس عن البحث عن القنلة ، أو الكشف عما في القضية من أسرار ، وقد فطن الدكتور فيليب حتى لوقف التاريخ من الحاكم فقال : اتهمه عدونوا الأخبار من خصمه بغرابة الأطوار (١) .

الدرزية

كانت بايران طوائف تدبر المكائد ضد الاسلام والمسلمين ، وهؤلاء ظهوروا منذ قهر الاسلام بلاد ايران ، وحوّل جماهير شعبيها من عبادة النار والملوك الى عبادة الله الواحد الأحد .

فقد كان بايران آنذاك بقايا يهود « سجن بابل » وقد تحالف هؤلاء مع الذين أفلتوا من رجال القصور ، وتظاهر هذا الحلف بالاسلام وكونوا ما أسميناه في الجزء الثاني من هذه الموسوعة « مدعى الشيع »

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٢٢ .

وأخذ هؤلاء يعملون بجد^١ لإفساد العقيدة الإسلامية كما أفسد اليهود من قبل العقيدة المسيحية عن طريق بولس وحو^٢لوا إلى التثليث ، وحولوا عيسى إلى إله

والمهم هنا أن هذه الطائفة عندما سمعت عن اضطراب الحاكم ، لم تنزع وقتا ، وأوفدت أحد أشرارها ليزيد النار اشتعالا ، فحضر إلى مصر سنة ٤٠٨ هـ داعية " أعجمي " ، أو كما يقول الأنطاكي غامض النشأة (١) وكان الهدف من حضوره أن يعيد للحياة نشاط القرامطة المنحرف الذي كان قد خبا وتوقف (٢) .

وهذا الداعية اسمه محمد بن اسماعيل الدرزي ، ويلقب « أنرشتكين » ، واتصل هذا بالحاكم ، وكان الحاكم آنذاك في حاجة إلى من يساعده في الصراع الذي كان يواجهه ، ومعنى هذا أنه اتصل به في فترة ضعف بشرى .

الدرزية تؤاخذ الحاكم :

وبدا الدرزي يعظن تعظيم الحاكم ، وانتقل من التعظيم إلى رفعه عن مستوى البشرية ، ثم اندفع ليعظن ألوهية الحاكم ، على نحو الادعاء بالوهمية عيسى أو ألوهية الإمام علي ، فالنمط هو هو يهودي^٣ النشأة والأسلوب ، ومما قاله الدرزي في هذا المجال « الحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأن مولانا جل ذكره هو ابن العزيز أو أبو علي ، لأن مولانا سبحانه هو هو في كل عصر وزمان ، يظهر بطريقة بشرية عندما يشاء » وقد أنكر عليه الناس ذلك ، وقامت فتنة ضده قتل فيها هو وبعض من معه ، ونهبت^٤ داره (٣) .

وانتساب هذا إلى العجم يربط بينه وبين الانحرافات التي ظهرت في فارس ، والتي تولى كبرها من^٥ أسميناهم آنفا « مدعى التشيع »

- (١) تاريخ يحيى بن سميد الأنطاكي ص ٢٢٠ .
- (٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣١٥ .
- (٣) المقریزی : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١١٣ .

فهؤلاء المنحرفون لم يقتنعوا بما فعلوا في مناطق ايران ، بل خرج منهم هذا الداعية لينفث السم في مصر ، وليجعل من بئسَرِ إلها ، ولكن طبيعة مصر لم تقنع بهذا الانحراف الذي وجد له أرضا خصبة في ايران ، فثار المصريون على هذا الداعية وقتلوه .

وظهر بعد ذلك داعية آخر اسمه حمزة بن أحمد وتلقب بالهادي ودعا الى مقالة الدرزي ، ولم ينجح مذهبه في مصر أيضا ، فعبرها الى جبال لبنان حيث البداوة والبساطة التي مهدت له سبل النجاح ، فظهر مذهب الدرزية ببلاذ صيدا وبيروت وساحل الشام (١) وفي حوران وجبل لبنان الغربي والجبل الأعلى من أعمال حلب (٢) .

واذا كان المقرزي يجعل محمد بن اسماعيل سابقا لحمزة بن أحمد ، فإن بعض المراجع الأخرى تقول بالعكس ، وهناك مراجع تذكر أنهما متعاصران وأنهما اختلفا لأن الدرزي تعجل في الكشف عن المذهب الجديد بمصر قبل الوقت المناسب .

وهناك طبقة ثانية من دعاة الدروز يذكر المؤرخون منها بهاء الدين السموتى ، وأبا ابراهيم التميمي ، وأبا عبد الله بن وهب .

وتتجه العقيدة الدرزية الى أن الله تجسّد في صورة الحاكم ، وفكرة تجسّد الله في صورة انسان فكرة وُجِدَت قبل ذلك بأمَدٍ طويل منحدره من الفكر الهندي ، أو من التعاليم المسيحية ، ووَجِدَت لدى الباطنية والقرامطة والاسماعيلية مجالا بصورة أو بأخرى وقد انتهر الدرزي فرصة الاضطراب في عهد الحاكم الذي أشرنا اليه من قبل وفرصة تأييده ومعارضته ، فراح يتظاهر بتأييده تظاهرا قريبا الشبه بما ادعاه

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين ج٤ ص ٢٦ .

« مدعو التشيع » مع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه اذ عدوه لها أو صورة للاله (١) .

وقد وقف على كرم الله وجهه موقفا حاسما من هؤلاء الكفرة ، أما عن الموقف من الدرزي فقد اتضح لنا أن المصريين ثاروا عليه وأنه لم يجد في مصر تربة مناسبة لأفكاره فرحل من لم يقتل الى بعض مناطق الشام كما ذكرنا ، أما موقف الحاكم نفسه من الدرزي وفكره فلم توضحه المراجع توضيحا كافيا ، ويبدو أن الحاكم لم يؤيد هذا القول بدليل أنه لم يجد له تابعين في القصر ، وربما جاز لنا أن نظن أن الحاكم لم يعارضه معارضة صريحة لحاجته إلى الأعوان آنذاك .

الخلافة الفاطمية تتبرا من الانحراف :

وعقب نهاية الحاكم اتجهت الخلافة الفاطمية الى سحق بقايا هذا المذهب وطهرت مصر من دعاة ، وأعلن الظاهر بن الحكام تبرئته وتبرئة ذويه من هذا الانحراف ، وأعلن « أنه هو وأسلاته الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون لله العلي العظيم ، ولا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ، وأن من خرج منهم على حد العبودية فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٢) .

لماذا لبنان ؟

والذي ساعد على أن يجد هذا المذهب له أتباعا في جبال لبنان ، أنه كان يعيش في هذه المناطق رجال كانت الآراء الشيعية المتطرفة قد غزتهم من قبل ، وقد مهدت هذه الآراء الشيعية الطريق للدرزية لتتجج في هذه الجبال .

(١) انظر الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف عند الحديث عن « مدعى التشيع » .

(٢) يحيى الأنطاكي : ص ٢٣٦

ويعيش الدروز حياة شبه قبلية في سوريا ولبنان ومن أشهرهم بنو الأطرش وآل جنبلاط ، وبنو أرسلان •

التشابه بين العقيدة الدرزية والمسيحية :

وعقيدة الدروز في أصلها ترى أن الحاكم بأمر الله لاهوتا وناسوتا (كالمسيح) وهو وان كان بشرا في الظاهر فهو في الحقيقة الاله المعبود وقد اتخذ لنفسه صورة انسية كما ذكرنا •

وعندما اغتيل الحاكم أشاع قادة الدروز أنه تحول الى « غيبة » مؤقتة تعقبها « رجعة » ف « طفرة » وذلك هو نفس التخطيط الشيعي الذي قال به مدعو التشيع في عدة مناسبات ، ومع عدة أشخاص •

ويقول الاستاذ محمد فريد وجدى : (١) ان معتقدات الدروز ظلت في طي الكتمان حتى استولى ابراهيم باشا على معابدهم عندما فتح الشام فوجد في كتبهم كنه مذهبهم تفصيلا ، وكلمة الشهادة عندهم توحى بهذا المذهب المنحرف لأنها تتضمن الإيمان بأن الحاكم إله " جاء في صورة بشر •

بعض التشريعات الدرزية :

ومما وجد في وثائقهم فيما يتعلق بالشريعة عدم الموافقة على تعدد الزوجات ، وعلى اباحة الطلاق بكثير من اليسر ، ولا شرعة المطلق لمن طلقها ولو تزوجت شخصا آخر ، وهم يحرصون على حجاب المرأة حجابا كاملا ، ولا يتبع الدروز نظام المواريث في الاسلام (٢) •

وقد أسقط الدروز عنهم بعض العقائد الاسلامية كالصلاة والصوم والحج ، والتزموا بخصال بديلة تسمى الخصال التوحيدية أهمها صدق اللسان ، وحفظ الاخوان ، والبراءة من الطغيان ، والتوحيد لله والخضوع

(١) دائرة معارف القرن العشرين (مادة درزية) •

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣١٨ - ٣١٩ •

التام للارادة الالهية ، وقد أصبحت هذه القاعدة الاخيرة المشتمة على عقيدة القضاء والقدر عاملا فعالا في التعليم الدرزي .

واللدروز كتب مقدسة تنقسم بالبدائية ، وتردد هذه الشعارات ، وهم يرون أن الحاكم تجلّى لهم وقرر لهم هذه التعاليم .

اجاويد واتباع :

وينقسم المجتمع الدرزي من حيث العقيدة قسمين ، قسم الأجاويد وهم الذين يعرفون أسرار الدعوة ، وقسم الأتباع وهم الذين يتبعونها دون معرفة الأسرار ، ومن الممكن أن يتطور التابع ويتعلم ليصبح من الأجاويد .

الأمير شكيب أرسلان :

وهناك عالم شهير من علماء العصر الحديث ينسب للدروز وهو شكيب أرسلان مؤلف كتاب « حاضر العالم الاسلامي » وهذا العالم لم تستوعبه الأفكار الضالة التي تنسب للدزية بل هو معتدل كل الاعتدال في فكره ، وهو يصفهم وصفا يوحى بالاعتدال فيهم ، يقول في ذلك : الدروز فرقة من الفرق الاسلامية أصلهم من الشيعة الاسماعيلية الفاطمية ، وإذا قيل أن الدروز من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالاسلام ، فالجواب أن الدروز يعلنون أنهم مسلمون ، وأنهم يقيمون جميع شعائر الاسلام ، ويعلنون أن من خرج على ذلك فهو ليس بمسلم .

والاتجاه المعتدل للدروز يرى أن الحاكم ليس بمعبود ، وإنما هو ولي الله وخليفته ، وأنه أمير المؤمنين ، ولدى الدروز طبقة تعرف بالمنزهين ، وهم أهل ورع وزهد ، وبعضهم لا يتزوج ، ومنهم من يصوم الدهر كله ، ومنهم من لا يذوق اللحم ولا يشرب الخمر .

والمعتقد أن الفكر الذي عبّر عنه شكيب أرسلان يمثل جمهورا كبيرا

بين الدرزية الآن ، فالفكر الاسلامى الصحيح عرف طريقه لهذه المناطق
فى فترات متعددة على مرّ التاريخ واستطاع أن يعيد إلى الرشد كثيرا
من الدروز .

الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ = ١٠٢١ — ١٠٣٦) :

تولى الظاهر بعد أبيه وكان فى السادسة عشرة من العمر ، فقامت
عمته ست الملك بإدارة شئون الخلافة ، ولما ماتت أمسك
الظاهر بمقاليد الأمور بمساعدة الوزراء الذين بدأ نفوذهم فى الظهور ،
وقد عاد الظاهر الى السياسة التقليدية التى تمرد عليها أبوه ، فتساهل
مع أهل الذمة وأطلق للمرأة العنان ، وعثى بأمور الزراعة (١) ، ولكن مجاعة
اجتاحت البلاد بسبب انخفاض ماء النيل فعزلت الاتجاه الاصلاحى فى
الزراعة ، وفى عهد الظاهر قامت فتن فى الشام ضد الحكم الفاطمى ولكنها
أخمدت ، بل أضاف ولاية الفاطميين بالشام مزيدا من المناطق الى سلطان
الظاهر .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ .

المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ = ١٠٣٥ — ١٠٩٤) :

كان المستنصر فى السابعة من عمره عندما مات أبوه الظاهر ، وكان
الجرجرائى الوزير صاحب النفوذ عند موت هذا الخليفة ، فأعان البيعة
للمستنصر ، وقد ظل المستنصر فى الحكم ستين سنة ، وهى مدة لم يعمرها
فى الحكم خليفة مسلم ، ثم هى مدة حافلة بالهركات والاضطرابات
والتغييرات ، وفى أثناءها نقلت السلطة الفاطمية نهائيا من أيدي الخلفاء
الى أيدي الوزراء ، وجاء ما يعرف فى التاريخ الفاطمى بعهد نفوذ الوزراء .

ويمكن القول ان المستنصر لم تكمل حياته مع الترف خلال هذا الحكم

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ٢٢٥ .

المديد ، ففى عهد طفولته استبد به الوزراء ، ولما نما قابله اضطرابات الجيش بسبب قادته وفرقه المتعددة الأجناس والمشارب ، وفى العهد المعروف بعهد الشدة المستتصية أخذ المستتصر نصيبه كاملا كأي فرد من الشعب فى المجاعة والحاجة ، وعندما زالت هذه الشدة وعاد شعاع الرخاء كان السلطان قد تحول الى الوزراء نهائيا ، وعاش المستتصر بقية عمره قاننا بما يمنحه له الوزراء .

الجيش الفاطمى وعناصره :

كان الجيش الفاطمى مبعث قلق وفوضى خلال عهد المستتصر ، ومن ثمَّ يجمل بنا أن نتحدث عن عناصر هذا الجيش وعن حركاته المدمرة :

كان البربر هم عماد الجيش الفاطمى الأول ، قلى أكتافهم قسام سلطان الفاطميين بالشمال الافريقى ، وبسيوفهم فتحت مصر ، فكوثوا بذلك العنصر الرئيسى للجيش الفاطمى الأول .

ولما جاء العزيز استعان بالأتراك كما سبق القول ، وسرعان ما أصبح هؤلاء عنصرا مهما من عناصر الجيش الفاطمى .

وكان بنو حمدان على رأس قوة عربية ضاربة يكوئون عنصرا ثالثا فى هذا الجيش .

وجاء عنصر جديد للجيش إبان عهد المستتصر ؛ فقد كانت أمه سودانية ، فأكثر من جلب السودان ومنحتهم السلطة والنفوذ فأصبحوا قوة رابعة يحسب حسابها .

وبين هذه العناصر وُجد فريق عسكرى مصرى الجنسية بدأ يأخذ مكانه بين تلك العناصر .

وكان الوزراء فى العهد الأول يقلطون من سلطة قادة هذه القبائل ، فقد كان للوزراء الكلمة الأولى ، ولكن السلطة المدنية انهارت بعد الوزير الحسن البيازورى (٤٤٢) فوضح الخلاف بين عناصر الجيش ، وقامت

المعارك الحربية بين هؤلاء وأولئك ، ومن أهم المعارك التي حدثت في هذا المضمار معركة كوم الريش سنة ٤٥٤ بين الأتراك والبربر والغرب في جانب بقيادة ناصر الدولة الحمداني وبين السودان في جانب آخر ، وهزم السودان في المعركة ولكن هزيمتهم لم تكن حاسمة ، فقد انسحبوا الى الصعيد ، واكتفى المنتصرون بذلك فلم يلحقوا بهم لإبادتهم . وترك الصعيد تحت رحمة السودان يعيثون به وينشرون الفوضى . أما المنتصرون فقد عادوا يعيشون بالقصور ويغيرون الوزراء ، على أن الحلف بين ناصر الدولة والأتراك لم يطل عهده ، فقد ثار الأتراك عليه لاستهانتهم بهم ، وطلب الأتراك من الخليفة عزله ففعل ، ولكن ناصرا رفض الرضوخ لقرار الخليفة ووقعت معارك حربية بين الخليفة والترك من جانب وناصر الدولة وأتباعه من العرب والبربر من جانب ، وقد هزم ناصر الدولة أولا ولكنه عاد وانتصر ، بيد أن الأيدي الخفية استطاعت أن تقتك به وبأهله في الظلام ، وكان من نتائج هذه المعارك وتلك الفوضى المترتبة عليها أن توقفت الزراعة وأصبحت السرقة وقطع الطريق من معالم العصر ، ولم ينقذ البلاد الا بدر الجمالي الذي استدعاه الخليفة وأسلمه زمام الأمر .

ويمتاز عهد المستنصر ببعض المتناقضات والمفارقات : تسامح ديني وتعصب ، رخاء وجوع ، توسع وانكماش ، ويجدر بنا أن نوضح هذه المفارقات ، ففي توضيحها اظهر لمعالم هذا العصر .

التسامح الديني والتعصب :

في مطلع عهد المستنصر كانت العلاقات طيبة مع المسيحيين في الداخل ومع بيزنطة المسيحية ، فترك للمسيحيين حرية العبادة ، وواصل المستنصر سياسة أبيه في رفع القيود عن المسيحيين وحسن معاملاتهم ، أما مع بيزنطة فقد كانت هناك معاهدة سلم ، كانت بيزنطة بمقتضاها تورد القمح اجر ايان أزمتهما .

غير أن بيزنطة توقفت عن تنفيذ هذه المعاهدة ، ومالت الى مضادقة

العباسيين الأقوياء وإهمال الفاطميين الذين لم تعد بيزنطة في حاجة لاتقاء شرهم لضعفهم ، وكان من نتيجة ذلك أن وقف المستنصر موقف عداء من بيزنطة ومن المسيحيين بالداخل لاتهامهم بالإيعاز لحكام القسطنطينية باتباع هذه السياسة الجديدة . ففرضت عليهم الضرائب ، وأقفلت بعض الكنائس وألقي القبض على بعض القسوس .

الرخاء والجوع :

نعم الخليفة والشعب برخاء واسع في مطلع عهد المستنصر ، وقد وصف ناصرو خسرو هذا الرخاء وصفا مفصلا ، وكان قد زار مصر سنة ٤٣٩ فرأى حوائيت الصاغة مكتظة بما فيها من جواهر ثمينة ، ورأى محلات تغيير العملة وبها كميات كبيرة من العملات المتعددة ، وهذه المحلات وتلك كثيرا ما كانت تترك مفتوحة ويدعها أصحابها ويذهبون للصلاة أو الأمر من الأمور فقد كان الأمن منتشرا ، والرخاء شاملا ، فلم يكن بالناس حاجة الى السرقة أو الخطف .

ويتحدث ناصرو خسرو عن ثراء الخليفة فيروى أنه بالإضافة الى القصور والدور والأرض كان يملك صندوقا به عشرة أرتال من أندر الجواهر ، ٢٥٠ رطلا من الأحجار الكريمة ، وثلاثين ألف قطعة من البللور الفاخر ، وآلاف الأثواب الحريرية الغالية وسيوفا من الذهب ، وسيف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وسيف الحسين بن علي ، وسيف جعفر الصادق ، ومسيحة من الأحجار الكريمة قيمتها ثمانون ألف دينار ، وسروجا لا تحصى وأسلحة ورمحا وأكوابا وصحافا كلها من الذهب الخالص أو مطعمة بأندر الجواهر ، وكانت له حصيرة من الذهب زنتها ثمانية عشر رطلا ، وفي خزانته ثلاثون مليون دينار من الذهب (١) .

(١) اقرأ خطط المقرئى ج١ ص ١٤٤ وكوز الفاطميين للدكتور زكى

ويقول ابن اليسر ان قوائم هذه الممتلكات شغلت كتابا كبيرا رآه بنفسه (١) ، ومما زاد في ثراء المستنصر أنه ورث عمته الأميرتين ابنتي المعز ، وكانت ثروتهما تقدر بحوالى خمسة ملايين من الدينار .

وضاع هذا الثراء كله من الخليفة ومن الشعب بسبب اضطراب الجند وتوقف الزراعة وماتلا ذلك من نهب وسلب وتدمير ، وقد أرغم الجند الخليفة أن يبيع ممتلكاته ليدفع لهم أجورهم ، فكان يبيعها لهم حسبما يقدرزون ، وفدر الخبز وانتشرت المجاعات ، فأصبح رغيف الخبز يساع بخمسة عشر دينارا ، وشارك الخليفة شعبه في الجوع ، فالقصر خلا من أثائه اللهم الا من حصيرة قديمة ، أما طعامه فكان رغيفين كل يوم ، تبعث له بهما بنت أحد العلماء ، أما أسرة الخليفة وأمه فقد هاجرتا من مصر لانتقاء الجوع وعصيان الجند ، وفي وسط هذه الأزمات أكل الناس الكلاب والقطط ، ودمر الجند المكتبة التليدة ، واستعملوا جلودها أحذية لهم (٢) .

التوسع والانكماش :

امتد سلطان المستنصر الى اليمن وحضر موت وقوى سلطانه في الحجاز بالاضافة الى مصر وسوريا والشمال الافريقى ، ووصل امتداد سلطانه الى غايته عندما تغلب البساسيرى على بغداد وخطب للخليفة المستنصر (٣) .

ولكن هذا التوسع بدأ يتوقف ويحل محله انكماش وانحسار ، فالمعز بن باديس أعلن استقلاله بالشمال الافريقى ، بل أعلن تبعية بلاده للمذهب السنى ، والبساسيرى آلت حركته للفشل وعادت بغداد لخلفاء

(١) تاريخ مصر ص ١٤ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٢ ص ١٠٣ .

(٣) انظر الجزء الرابع من موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف .

العباسيين ، وحركات آل مدراس بدأت تحكم سوزيا حكما استقلاليا لا يربطه بالمستنصر الا خيط ضئيل ، ونشط السلاجقة فاقطعوا الحجاز من الفاطميين ، وضاعت صقلية واستولى عليها النورمانديون سنة ٤٦٣ وحتى في مصر حاول الحمدانيون إبان انتصاراتهم أن يخطبوا لخلفاء العباسيين ، ولكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح .

وفي وسط هذا الاضطراب قرر المستنصر أن يستدعي بدرأ الجمالي حاكم عكا الأرمني وأن يسلمه زمام الأمر لعل في يده يكون الدواء ، فكتب اليه بذلك سرا ، واشترط بدر أن يحضر بجنوده فوافق الخليفة ، وجاء بدر الى مصر سنة ٤٦٥ في ثوب زائر ، وسرعان ما تسلم السلطة بنجاح ، وانتقل بذلك السلطان من أيدي الخلفاء الفاطميين الى أيدي الوزراء ، وسنخصص هذا العهد بدراسة خاصة فيما بعد .

باقى خلفاء الفاطميين

إبان العهد الفاطمي الثاني ، أو عهد نفوذ الوزراء ، تولى الخلافة ستة من الفاطميين ، نكتفي هنا بأن نورد أسماءهم ، أما حديثنا فيتجه الى الوزراء الذين أصبحوا في الغالب رؤساء الدولة ، وفي يدهم كل السلطان ، واتجهت لهم كل الأضواء ، حتى أنهم كانوا يعزلون خليفة ويعينون آخر ، فهم بذلك أجدر بأن تكون أسماؤهم عناوين البحث مكان أسماء الخلفاء التي انزلت الى الظل في أكثر الأحوال .

ونحن نميل الى هذا الاتجاه مخالفين الاتجاه العام للمؤرخين الذين ظلوا يديرون الحديث تحت عنوان الخلفاء ، وما كان الخلفاء آنذاك رؤساء للدولة بالمعنى الحقيقي ولا مدبرين لأمرها ، وبخاصة أن أكثرهم تولوا الخلافة وهم دون سن الرشد ، فالأمر كان في الخامسة والظافر في السابعة عشرة ، الفائز في الخامسة والعاضد في التاسعة .

وخلفاء هذا العهد هم — مع أرقامهم — في سلسلة خلفاء الفاطميين
بعد المهدي والقائم والمنصور والمعتز والمعز والحاكم والظاهر والمستنصر :

٩ — المستعلى بن المستنصر (٤٨٧ — ٤٩٥ = ١٠٩٤ — ١١٠١) ووزر
له : الأفضل بن بدر الجمالي (كان وزير المستنصر بعيد
موت بدر واستمر في الوزارة بعد موت المستنصر) •

١٠ — الأمر بن المستعلى (٤٩٥ — ٥٢٤ = ١١٠١ — ١١٣٠) ووزر له •
الأفضل (بقي بعد موت المستعلى حتى سنة ٥١٥ فاعتقل)
ثم وُزِّرَ له المأمون البطائحي من ٥١٥ إلى ٥١٩ (صلب)

١١ — الحافظ بن محمد بن المستنصر (٥٢٤ — ٥٤٤ = ١١٣٠ — ١١٤٩)
وحالة الوزارة في عهده كانت كالآتي :
بدون وزراء من سنة ٥٢٤ — ٥٢٥ •

• أبو علي أحمد بن الأفضل من ٥٢٥ إلى ٥٢٦ (اغتيل)
• يانيس (مملوك أرمني) ٥٢٦ (سُمِّ في نفس العام) •

الحسن بن الحافظ من ٥٢٦ إلى ٥٢٨ •
سليمان بن الحافظ ٥٢٨ (مات بعد شهرين) (ابن الخليفة)

أبو المظفر بهرام من ٥٢٩ إلى ٥٣١ (مسيحي أرمني انتخبه
الجنود) •

• رضوان بن الولخشى ٥٣١ (قر في نفس العام) •
• بدون وزراء من ٥٣١ إلى ٥٤٤ •

١٢ — الظافر بن الحافظ (٥٤٤ — ٥٤٩ = ١١٤٩ — ١١٥٤) ووزر له :
سليمان بن محمد بن مصال ٥٤٤ — ٥٤٨ تنافس
على بن السلار ٥٤٤ — ٥٤٨ وعدم استقرار

العباس بن أبي الفتوح ٥٤٨ — ٥٤٩

١٣ — الفائز بن الظافر (٥٤٩ — ٥٥٥ = ١١٥٤ — ١١٦٠) ووزر له :
طلائع بن رزيك (حيلة عهد الفائز)

١٤ — العاضد بن يوسف بن الحافظ (٥٥٥ — ٥٦٧ = ١١٦٠ — ١١٧١)
ووزر له : رزيك بن طلائع ٥٥٥ — ٥٥٨
شاور بن مجير بن نزار ٥٥٨

ضرغام بن عامر اللخمي ٥٥٨ (قتل سنة ٥٥٩)

شاور (مرة أخرى بعد قتل ضرغام) (٥٥٩ — ٥٦٤)

شيركوه ثم صلاح الدين ابتداء من سنة ٥٦٤ (١)

وقبل أن نتحدث عن وزراء هذا العهد نذكر الملاحظات الآتية :

١ — خلال هذا العهد قام بعض الخلفاء بمحاولات لاستعادة السلطة ،
وتبدو هذه المحاولات مما نلاحظه في القوائم السابقة حيث خلت بعض
العهود من الوزراء أو جعل الخلفاء وزراءهم من بنيتهم ، وقد دبر الأمر
مؤامرة قتل فيها الأفضل ، ولكن هذه المحاولات كانت تنتهي بالفشل
وتعود السلطة للوزراء مرة أخرى .

٢ — بعض وزراء هذا العهد — حتى قبل شيركوه وصلاح الدين —
عارضوا الفكر الشيعي وأظهروا ميلهم للمذهب السني ، ومع هذا أبقوا
على الخلفاء الفاطميين ليظل السلطان في أيدي هؤلاء الوزراء ، فقد خافوا
أن يكون التحاقهم بخلفاء بغداد معناه نهاية سلطانهم ، ومن هؤلاء الأفضل
ابن بدر الجمالي وأحمد بن الأفضل ، وترتب على هذا توقف تسلسل
الخلفاء فانه بناء على الفكر الشيعي تكون ولاية العهد لابن الخليفة الأكبر ،
فلما توقف الفكر الشيعي أهملت هذه الفكرة ، وحال الأفضل دون تولية
نزار أكبر أبناء المستنصر وولى بدله المستنصر .

(١) هذه القوائم من معجم الانساب والاسرات الحسكية لزاملو ج١
ص ١٤٨ - ١٥٠ .

٣ — قلنا ان هذا العصر هو عصر نفوذ الوزراء ، ولكن مع هذا كان هناك وزراء لم يلعبوا دورا ذا بال في الحياة العامة ، فجزفهم التيار ليخلو الطريق الى سواهم •

٤ — في هذا العصر بدأت الحروب الصليبية التي كانت سببا في تباطؤ وزراء وقيام آخرين ، بل في إسقاط أسر حاكمة وقيام أخرى محلها ، ولن نتحدث عن هذه الحروب هنا بل سنتحدث عنها حديثا مستقلا عقب الانتهاء من الحديث عن تاريخ مصر وسوريا •

مصر نفوذ الوزراء

بدر الجمالى :

بدأ عصر نفوذ الوزراء بسلطة بدر الجمالى ، وقد حضر في ثوب زائر كما قلنا آنفا ، ومعه جنده ، وكان حضوره عن طريق البحر ، وخدع الأتراك وقادة جيش المستنصر فاستأذنهم في زيارة الساحل ، فاذنوا له وأحسنوا استقباله ، وبعد قليل أقام حفلا كبيرا لهؤلاء القادة وعيّن لكل منهم رجلا من رجاله ليأتى له برأس هذا القائد ، ونجحت المؤامرة ، ووقف رجال بدر في اليوم التالي أمامه وكل منهم يحمل رأس القائد الذى كلف بقتله ، وأعلن بدر حينئذ عن مهمته التي جاء من أجلها وتسلم قيادة الجيش كما تسلم إدارة البلاد ، ولذلك سمي رب السيف والقلم ، وسرعان ما قضى على عناصر أخرى من المشايخين والمنافسين ، فلما دانت له العاصمة والوجه البحرى صعد إلى مصر العليا ففقضى على نفوذ السودانيين ، وعادت البلاد الى السكون والسلام ، واستطاع أن يستعيد كثيرا من أمتعة الخلفاء التي كان الجند نهبها أو أخذوها نظير مرتباتهم ، ويقال أن قارئ قرآن تلا في حضرة الخليفة المستنصر قوله تعالى « ولقد نصركم الله ببدر » ولم يكمل الآية فأحسن له الخليفة والوزير (١) •

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٢

وبدأت الحياة من جديد تسير في طريقها الطبيعي ، فعاد الزراع الى أرضهم وباشر التجار تجارتهم ، وأعفاهم بدر من الضرائب ريثما يستعيدون نشاطهم ويجددون ثراءهم ، فلما أعيد فرض الضرائب بعد ذلك كان الدخل أوسع مما كان عليه قبل الشدة .

ولم يستطع بدر أن يستعيد بلاد الشام لانشغاله بالأمر الداخلي وازدهار قوة السلاجقة التي امتدت الى هذه المناطق .

ومن أعمال بدر الجمالي ذلك السور الفخم الذي أحاط به القاهرة ، وتجديد أبواب زويلة والفتوح والنصر ، وبناء جامع الجيوشي على ظهر المقطم ، وقد نسب له هذا الجامع إذ كان يدعى أمير الجيوش .

ومات بدر الجمالي سنة ٤٨٧ و مات بعده في نفس العام الخليفة المستنصر .

الأفضل بن بدر الجمالي :

عين بدر الجمالي ابنه الأفضل وليا للعهد ، وهي ظاهرة هامة في هذا العصر أن تكون تولية الوزارة بعهد من الوزير السابق ، وهذا يدل على مدى ما وصل له هؤلاء الوزراء من نفوذ ، ولم يكتف الأفضل بأن يزاوئ نفوذ أبيه وسلطاته الواسعة مع الإبقاء على الدواوين كما كانت في عهد أبيه ومع ترك بعض المظاهر للخليفة ، بل خطا خطوة جديدة ، فنقل دواوين الحكومة الى داره ، واستبد باقامة اللوائيم في الأعياد ، واتخذ مجالس للعطاء (١) .

ومات المستنصر — كما قلنا — والأفضل وزير الدولة فحرص الأفضل على أن تكتمل السلطة له ، ولذلك لم يضع في كرسى الخلافة « نزارا » : الابن الأكبر للخليفة السابق بل تجاوزه ارشده وعين المستعلى ، وكان

(١) دكتور حسن ابراهيم : الفاطميون في مصر ص ٢٣٠ .

ضعيفا في العشرين من عمره ، وثار نزار لهذا التصرف وساعده فريق من الإسماعيلية هم « الباطنية » ولكن كان النصر للأفضل ودفع نزار رأسه ثمن هذه الثورة •

وفي عهد الأفضل مات المستعلى سنة ٤٩٥ فولى مكانه ابنه الأمر وعمره خمس سنوات ، فكان الأمر كله للأفضل ، ولما شب الأمر وجد نفسه مسلوب السلطة ، فحاول أن يستعيد بعض السطان ولكنه صادف تحديا سافرا من الأفضل ، وذهب الأفضل في تحدييه الى حد التخلي عن مذهب الشيعة وابطال الاحتفالات بالأعياد الشيعية بما فيها عيد ميلاد الخليفة واغلاق دار العلم ، وكانت وسيلة الأمر الوحيدة لاستعادة السلطان هي أن يدبر مؤامرة للتخلص من الأفضل ، وتم له ذلك بمساعدة المأمون بن البطائحي وبعض الباطنية سنة ٥١٥ ، وتظاهر الأمر بالسخط على اغتيال وزيره وقتل قاتليه من الباطنية (١) •

ومن منشآت الأمر جامع الأقمر ، ومسجد آخر داخل كاتدرائية سانت كاترين بمسينا •

ويقول ابن خلكان ان الأفضل خلف من الأموال والجواهر والخيول والرقائق ما لم يسمع به مثله ، ويعدد ابن خلكان بعضها وهي تدل على عودة الثراء للقصور بعد ما أصاب مصر من أزمات اقتصادية في عهد المستنصر (٢) •

المأمون بن البطائحي :

أخذ المأمون بن البطائحي مكان الأفضل بعد مصرعه ، وفي عهده استعاد الأمر شيئا من نفوذه ، ولكن البطائحي لم يهنا طويلا بالسلطان ، فقد عاش بين أطماع الخليفة من جهة وظهور أحمد بن الأفضل من جهة أخرى ، وقد استطاع أحمد أن يثار لأبيه فقتل المأمون بموافقة الأمر ،

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٢٢٢ •

(٢) وفيات الاعيان : ج١ ص ٢٢٢ •

ولكن الأمر حرص على أن يظل السلطان في يده ، فلم يمنح الوزارة لأحمد ،
بيد أن هذا أصبح له نقوذ وأضح في الحياة العامة ، حتى نال الوزارة
بعد الأمر •

أحمد بن الأفضل :

استطاع أحمد أن يستعيد السلطان لبنت بدر الجمالي عقب وفاة
« الأمر » ، وكان الخليفة في عهده هو « الحافظ » ، ويبدو أن أحمد كان
يدرك أن المؤامرة التي سقط فيها أبوه دبرت بمعرفة القصر الفاطمي ،
ولذلك اشدد أحمد في الاستهانة بالخلفاء ، وحرّمهم السلطة نهائيا ، ومنع
الناس من زيارة الخليفة إلا باذن منه ، واستولى على ما في القصور من
تجف ، ومنع ذكر اسم الخليفة في الخطبة ووضع اسمه بدل اسم الخليفة ،
وقل من الاهتمام بالمذهب الشيعي وجعل بعض القضاة من رجال السنة •

ومرة أخرى دبر الحافظ مؤامرة للتخلص من أحمد بن الأفضل وتم
له ذلك ، ولكن السلطان لم يجد طريقة للخليفة بل رسا على الوزير
الأرمني بهرام •

أبو المظفر بهرام الأرمني :

انتخبه الجند بعد أحمد ، ولذلك سرعان ما أكثر من عدد الجنود
الأرمن ، وفي عهده عبث هؤلاء بالأمور واعتدوا على الأهالي وأموال الناس ،
وكان الوزير مسيحيا فجار على المسلمين ، فاستجد المسلمون بوالى
الغربية رضوان بن الولخشى ، فاستجاب لهم هذا ، وحدث صراع بين
الاثنين وهزم بهرام في هذا الصراع وآل السلطان لرضوان ، وهرب بهرام
إلى أسوان •

رضوان بن الولخشى :

لقب رضوان نفسه بلقب الملك ، وهو أول وزير يحمل هذا اللقب في

العهد الفاطمي (١) ، ومن أهم أعماله القضاء على سلطان الأرمن ومصادرة أموالهم ، وتجريد الخليفة من السلطة ، وثار عليه الخليفة لذلك ، واستعان الخليفة ببهرام ، فهزم رضوان وقتل : وظل بهزام في القصر مستشارا للخليفة دون أن يعيده للوزارة .

ابن السلار وابن مصال :

اثنان يتنافسان على الوزارة مع مطلع عهد الظاهر بن الحافظ ، واتخذ هذا التنافس دورا جديدا ، فقد بدأت الاستعانة بالسلطات الأجنبية ، وكانت تتمثل آنذاك في سلطة نور الدين صاحب حلب ودمشق ، وفي الصليبيين بإمارات الشام ، وكانت الاستعانة بالأجانب في هذا الدور مقصورة على الاستعانة بنور الدين ، ولكن الصليبيين حرصوا على ألا يتيحوا لنور الدين أن يسيطر على مصر ، ففي ذلك ، تطويق لهم وهزيمة لاماراتهم ، ومن ثم دخل الصليبيون حلبة السباق لتكون لهم مصر كما سنشرح هذا عند الكلام عن الحروب الصليبية .

وفي النزاع المسلح بين ابن السلار وابن مصال أخذ الخليفة جانب الأخير حتى قتل ابن السلار ، ولكن ابن مصال قتل بعده بقليل ، ثم قتل الخليفة بيد نصر بن عباس وراح عباس هذا يقتل ابني الخليفة وأقاربه (٢) . فثار لذلك أهل القاهرة فهرب عباس وابنه نصر ، وقتل عباس وقبض على ابنه الذي سئل به وصلب .

طلائع بن رزيك وابنه :

طلائع بن رزيك أصله من الشيعة الإمامية بالعراق ، وقد وفد لمصر وتقرّب للفاطميين ، فولاه الخليفة الفاطمي منية بنى خصيب بالصعيد ،

(١) المقرئى : الخط ج ١ ص ٤٤٠ وأبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر

ج ٣ ص ٤٦٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٧٨ .

فلما زادت الفوضى عقب مقتل الخليفة الظافر استتجد نساء القصر بطلائع بن رزيك ، فحضر طلائع وتسلم الوزارة وتلقب بالملك الصالح ، وعين الفائز ابن الظافر خليفة ، وكان في الخامسة من عمره واستبد بالأمر وقضى على الفوضى ، وأعاد الأمن إلى نصابه ، وتوفي الفائز بعد ست سنين فعيّن طلائع العاضد خليفة سنة ٥٥٥ ، وتزوج العاضد بنت طلائع ، ثم نجح العاضد في تدبير مؤامرة قتل فيها طلائع ليتخلص من تسلطه ولكن العادل بن طلائع تسلم مكانة أبيه ، فثار عليه شاوور أمير الصعيد وقتله بعد سنتين من وزارته وتولى مكانه (١) .

شاوور وضرغام ونهاية الخلافة الفاطمية :

يمثل شاوور وضرغام آخر حلقة في فوضى الوزارة الفاطمية ، وشاوور كان ذا نفوذ في الصعيد ، فخلفه العادل بن طلائع فعزله ، ولكنه جمع جموعه وهاجم القاهرة ، واحتل قصر العادل وقتله ، وجعل نفسه وزيرا مكانه ، وطفى وهو وأولاده ، أما ضرغام فمن المغاربة ، وقد رأى كبرياء شاوور وطفيان أولاده ، فثار عليه ونخلعه وأرغمه على الهرب ، ولكن شاوور ذهب يستجد بنور الدين ، ويحثه على فتح مصر ، فاستجد ضرغام بالصليبيين ، واستجاب نور الدين والصليبيون ، وأصبحت مصر هدف عدوان من الخارج ، وبلغت حملات نور الدين ثلاثا ، وكانت بقيادة شريكوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وفي الحملة الأولى قتل ضرغام ، وفي الثالثة قتل شاوور كما سنشرح ذلك عند الكلام عن الأسرة الأيوبية ، وتقلد أسد الدين شريكوه وزارة العاضد ، ولكنه مات سريعا فتولى صلاح الدين هذه الوزارة ، وقضى على ثورات الجند السودانيين وقتل زعماءهم ، وأعاد البلاد إلى الأمن والهدوء ، ثم قطع اسم الخليفة من الخطبة ودعا للخليفة العباسي « المستضيء » ، وكان العاضد مريضا ، فسرعان ما مات ، واستقل صلاح الدين بمصر باسم نور الدين زنكي .

(١) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج ١ ص ٢٢٠ و ٢٣٩ .

أسباب سقوط الخلافة الفاطمية

١ - الحروب الصليبية :

تعتبر الحروب الصليبية العامل الأساسي لسقوط الدولة الفاطمية ، فقد اتجهت كل القوى لتخليص البلاد الاسلامية من طغيان الصليبيين ، وأصبح انتقال السلطة من أسرة مسلمة الى أسرة مسلمة أخرى أمرا هينا مادام في ذلك النجاة من الفرنجة ، ومما يدل على ذلك أن بعض الحكام أسلموا بلادهم للسلطان نور الدين طواعية ليحميها من غزو الصليبيين ، ومن أجل موقع مصر و ثرائها اتجه الصليبيون اليها وعبروا أن بقاءهم بإمارات الشام رهن بتسلطهم على مصر ، وبالتالي اتجه المصريون الى الترحيب بأية قوة اسلامية تدفع هذا الخطر ، وكان نسبور الدين هو هذه القوة المأمولة فلم يقاوموا الانضمام اليه بل أيذوه

٢ - المغالة في التشيع :

ومن الأسباب كذلك مغالة الفاطميين في التعصب للتشيع التي عادت للظهور مما جعل المصريين يؤيدون أية حركة تعيدهم للفكر السني .

٣ - ضياع الشمال الافريقى :

وقد اتجه الفاطميون في توسعهم الى الشرق وأهملوا الى حد ما الشمال الافريقى حيث أتباعهم الأولون ، فكان ذلك من أسباب ضياع هذه المنطقة ، أو قل ضياع جناح مهم من جناحي القوة الفاطمية .

٤ - أزمات داخلية :

وكانت سلطة الوزراء ، وعناصر الجيش ، والأزمات الاقتصادية ، وتولية كثير من الخلفاء وهم أطفال ، من دواعي انحلال الدولة وسرعة زوالها .

سوريا والحكم الفاطمي

تحدثنا فيما سبق عن ضم سوريا لمصر في مطلع العهد الفاطمي ، ونريد هنا ونحن نؤرخ لمصر وسوريا أن نذكر الخطوط التاريخية لسوريا خلال الخلافة الفاطمية .

كان الفاطميون يعدون سوريا جسرا يصلهم لتحقيق أغراضهم في تكوين امبراطورية لهم في بلاد المشرق الاسلامي ، وكانت سوريا قبيلهم تابعة للاخشيديين ، فرأوا أن من حقهم وقد ورثوا الاخشيديين في مصر أن يرثوهم في الشام أيضا .

ومن عوامل الرغبة في فتح الشام كذلك أن الفاطميين اعتبروا سوريا خط الدفاع عن مصر ضد أي هجوم عباسي ، كذلك رأى الفاطميون أن سوريا هي المركز الذي يمكن منه القضاء على القرامطة الذين بدعوا بتمردهم على الفاطميين وكانوا من أعوانهم من قبل ، ومن علامات هذا التمرد مهادنة القرامطة للاخشيديين نظير ضريبة اتفقوا مع الوالي الاخشيدي على دفعها لهم (١) .

هذا من جهة الفاطميين ، ولكن عقبات كثيرة وقفت في وجههم ، واستلزمت منهم جهودا كبيرة ليغالوا هذا الأمل ، بل أثارت سوريا عليهم كلما بدا لهم أنهم سيطروا عليها ، وهذه العقبات هي الخلاف المذهبي ، وقوة القرامطة ، وقلة الحنكة السياسية في القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الذي عهد له بالزحف إلى سوريا ، ثم بروز السلاجقة الذين كانوا في قمة قوتهم في حين كان العهد الفاطمي يؤذن بالانحيار ، وأخيرا ظهور الصليبيين في هذه المنطقة في آخريات هذا العهد .

(١) الدكتور حسين إبراهيم ، ودكتور طه شريف : المعز الدين الله ص ٩٢ .

وبين الشد والجذب من هنا وهناك ، وقفت سوريا • وفيما يلي أبرز الحركات التاريخية المرتبطة بسوريا خلال هذا العهد :

الفاطميون ونشاط القرامطة بسوريا :

عندما استقر جوهر بمصر أرسل القائد جعفر بن فلاح ليأخذ بسوريا من الولاة الاخشيديين ، وكان هؤلاء الولاة من أسرة الاخشيد ، فالحسن الاخشيدى كان واليا على الرملة ، وشمول الاخشيدى كان والى دمشق ، وفاتك الاخشيدى كان واليا على طبرية ، وقد تحقق النصر لجعفر ، فبعد أنه لم يحسن معاملة الأهلى ، ولم يطمئنهم الى حرية الاعتقاد ، فهبوا ثائرين ضده واستتجدوا بالقرامطة الذين ساء لهم أن تقطع عنهم الاتاوة التى كانوا يأخذونها من حاكم دمشق نظير عدم هجومهم عليها ، وقدّر هذه الجزية ٣٠٠٠٠٠ دينار ، وقامت معركة بين جعفر بن فلاح والحسن بن أحمد القرمطى انتصر فيها الأخير وقتل جعفر واستولى القرامطة على دمشق (١) •

ولم يكن القرامطة ينوون الاستمرار فى احتلال دمشق لبعدها عن مقرهم بالاحساء ، ولذلك أخلوها بعد أن نالوا ما استطاعوا حمله من المال ، ووقعت دمشق فريسة فى أيدي الرزم المسيحيين ثم فى أيدي أفنكين التركى الشرابى غلام معز الدولة بن بويه ، وكان من أكابر الحنف فى بلاط بغداد ، واستطاع بمؤازرة بعض العناصر الناقمة فى دمشق أن يستولى على المدينة ، ودعا أفنكين للخليفة العباسى ، وتحالف مع القرامطة الذين تناسوا اتجاہهم العقائدى فى سبيل المال والثراء (٢) •

وظهر القرامطة مرة أخرى يهاجمون يافا وصيدا وعكا ، وكانوا هم وأفنكين مصدر قلق طوال عهد المعز ، فاما جاء العزيز حاول جوهر أن

(١) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ج٢ ص ٣٤٨ - ٣٥٠ •

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٧٩ (انظر الهامش) •

يتغلب عليهما ولكنه لم يفلح لأن التحالف بينهما ومؤازرة سكان الشام لهما جعل هذا الجانب يرجح الجانب الفاطمي ، ومن أجل هذا سار العزيز بنفسه ونزلهما سنة ٣٦٨ وحقق عليهما نصرا مؤزرا فقتل من جيشهما حوالي ٢٠.٠٠٠ جندي وأسير أفكين وهرب الحسن القرمطي بعد الهزيمة ، ثم استولى الفاطميون على حلب من الحمدانيين ، وأصبحت سوريا بذلك ضمن ملك الفاطميين (١) .

مصر تقضى على القرامطة :

وفي الجزء السابع من هذه الموسوعة تفاصيل الحروب بين المصريين والقرامطة ، وتصوير الانتصارات الهائلة التي حققها المصريون ضد القرامطة والتي وضعت نهاية لدولة القرامطة ، فليرجع لذلك من يشاء (٢) .

انحسار ملك الصليبيين بسوريا :

وابتداء من عهد المستنصر بدأت الدولة الفاطمية تنقلص شيئا فشيئا ، وتعرضت أملاكها في سوريا الى زحف من المرداسيين والسلاجقة الذين بدأت دولتهم في النمو والتطلع الى الشام ، كما تعرضت الى زحف الصليبيين ، فاستولى المرداسيون على حلب سنة ٥٤١٤ هـ (١٠٢٣) ، واستولى السلاجقة على بقاع شتى من سوريا ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري ، وآلت أملاك السلاجقة في سوريا — عقب انحلال هؤلاء — الى الدولة البورية والى آل زنكي ، واستولى الصليبيون على بيت المقدس من الفاطميين كما استولوا على مدن أخرى بالساحل كما سنشرح ذلك فيما بعد . وتقلص بذلك سلطان الفاطميين فلم يعد يشمل مع مصر الا شريطا ضيقا جنوبي فلسطين .

وسنتكلم فيما يلي كلمة عن كل من المرداسيين والبوريين وآل زنكي :

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧ — ١٩ .

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٧ ص ٤٠٩ وما بعدها .

المرداسيون

(حلب)

٤١٤ - ٤٧٢ = ١٠٢٣ - ١٠٧٩

ينسب المرداسيون الى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بنى كلاب العربية ، وقد هاجم هذا بأتباعه من البدو بلدة حلب حوالي سنة ١٠١١ ، ثم انسحب منها ، وفي سنة ١٠٢٣ قام سكان الشام بثورة ضد الفاطميين كما سبق القول ، استظم أهل حلب المدينة الى صالح ، وظل صالح يدافع عن المدينة حتى قتل سنة ١٠٢٩ في معاركه مع المصريين ، فقام ابنه شبل الدولة مقامه ، ولكن جيوش الفاطميين قتلته أيضا سنة ١٠٣٧ ، بيد أن ابنا آخر لصالح هو معز الدولة استطاع أن يسيطر مؤقتا على المدينة ، ولكن الفاطميين عادوا فأخذوها منه ، ولكن ملك الفاطميين تقلص عنها نهائيا سنة ٤٥٢ (١٠٦٠) فاستعادها رشيد الدولة بن شبل الدولة .

ولم تعرف حلب الاستقرار بعد ذلك ، فقد كانت تعيش بين أطماع البيزنطيين والمرداسيين والعقيليين . وسقطت أخيرا في أيدي العقيليين سنة ٤٧٢ (١٠٧٩) (١) ولكن سرعان ما احتواها ملك السلاجقة وانحدرت منهم الى الأتابك ، فكانت دمشق من نصيب البوريين ، وحلب من نصيب آل زنكي ثم امتد سلطان آل زنكي الى دمشق أيضا .

البوريون

(دمشق)

٤٩٧ — ٥٤٩ = ١١٠٣ — ١١٥٤

كان طوغتكين أحد القادة في جيش السلاجقة التابع لاسلطان تنش ،
وفي سنة ٤٨٨ (١٠٩٥) عين أتابك للأمن دقاق بن تنش أمير دمشق ، وسرعان
ما سلب السلطة منه ، وطوغتكين جد أسرة البوريين التي تنسب إلى ابنه
وخليفته (بوري) وأمرأؤها هم :

٤٩٧ = ١١٠٣

سيف الاسلام ظاهر الدين طوغتكين

٥٢٢ = ١١٢٨

تاج الملوك بوري

٥٢٦ = ١١٣١

شمس الملوك اسماعيل

٥٢٩ = ١١٣٤

شهاب الدين محمود

٥٣٣ = ١١٣٨

جمال الدين محمود

٥٣٤ = ١١٣٩ (١)

مجيد الدين أيتي

واستولى عليها تور الدين زنكي سنة ٥٤٩ (١١٥٤)

آل زنكي

(الموصل — الجزيرة — سوريا — مصر)

كان عماد الدين زنكي أتابك التي تنش السلجوقي أمير حلب ، وبعد
تنش عين عماد الدين حاكما للموصل والجزيرة وخران وحلب سنة ٥٢١ —
٥٢٢ وكانت الحروب الصليبية على أشدها ، وكانت كفة الصليبيين راجحة

فترعم عماد الدين جماعة المسلمين المكافحين ، وحقق نصرا عظيما ضد الفرنجة — كما سنرى عند الكلام عن الحروب الصليبية — وبعد عماد الدين انقسمت مملكته بين ولديه نور الدين محمود الذى آل له شمال سوريا والذى حل محل أبيه فى زعامة الجبهة الاسلامية ضد المسيحيين الصليبيين ، وسيف الدين غازى الذى حكم الموصل ومناطق أخرى من العراق (١) ، وقد اتسعت مملكة نور الدين فشملت دمشق ثم امتدت الى مصر ، وبعد موته آل السلطان لابنه اسماعيل وهو فى الحادية عشرة ، ولكن صلاح الدين الأيوبي كان قد استقر بمصر حتى قبل موت نور الدين ، ومد سلطانه بعد موته فشمّل سوريا واليمن والحجاز وصدر قبرار الخليفة العباسى بتوليته هذه البقاع .

وفيما يلى قوائم الأمراء من آل زنكى كما أوردها ستانلى لين بول (٢)

اتابكة الموصل

| | |
|------------|---------------------------------|
| ١١٢٧ = ٥٢١ | عماد الدين زنكى |
| ١١٤٦ = ٥٤١ | سيف الدين غازى (الأول) |
| ١١٤٩ = ٥٤٤ | قطب الدين محمود |
| ١١٦٩ = ٥٦٥ | سيف الدين غازى (الثانى) |
| ١١٨٠ = ٥٧٦ | عز الدين مسعود (الأول) |
| ١١٩٣ = ٥٨٩ | نور الدين أرسلان شاه (الأول) |
| ١٢١٠ = ٦٠٧ | عز الدين مسعود (الثانى) |
| ١٢١٨ = ٦١٥ | نور الدين أرسلان شاه (الثانى) |
| ١٢٢٩ = ٦١٦ | نصير الدين محمود |

بدر الدين لؤلؤ (وزير متغلب) ٦٣١ = ١٢٣٣

اسماعيل بن لؤلؤ ٦٥٧ = ١٢٥٩

الى ٦٦٠ = ١٢٦٢

استولى عليها المغول

أتابكية الجزيرة

معز الدين سنجر شاه ٥٧٦ = ١١٨٠

معز الدين محمود ٦٠٥ = ١٢٠٨

محمود

ضمها الأيوبيون

أتابكية سوريا

نور الدين محمود بن زنكى ٥٤١ = ١١٤٦

الصالح اسماعيل ٥٦٩ = ١١٧٣ الى ٥٧٧ = ١١٨١

ضمها الأيوبيون

الدور الثقافي لمملكة نور الدين زنكى

أشرنا آنفا الى الدور السياسى الضخم الذى قام به نور الدين لخدمة العالم الاسلامى ولتجميع كلمته أمام الزحف الصليبي ، وسيأتى لنا مزيد من هذا الحديث عند الكلام عن الحروب الصليبية وعن الدولة الأيوبية ، ولكن دور نور الدين لم يكن عسكريا فقط ، بل انه لعب دورا ثقافيا مهما للغاية ينبغى أن نشير إليه هنا .

فى آخر القرن الثالث الهجرى بدأ الفاطميون يكوّنون دولة فى الشمال الافريقى ثم زحفوا الى مصر سنة ٣٥٩ ، وهنا وهناك بدءوا ينشرون مذهب

الشيعية ويقاومون مذهب أهل السنة ، وفي نفس الفترة كان البويهيون قد حققوا انتصارا على بقايا الأتراك المماليك وبدعوا سلطانهم على الخلافة العباسية سنة (٣٣٤) وبالتالي عملوا على نشر التشيع ومقاومة المذهب السني ، وهكذا حقق الشيعة نجاحا في الشرق والغرب وتقهقر أمام سلطانهم النفوذ السني .

وجاء السلاجقة للحكم (٤٤٧) فبدعوا يعيدون الأمور إلى نصابها ، وقام الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك بدور كبير في إحياء الدراسات السنية والتقضاء على بقايا التشيع ، وتنسب إلى هذا الوزير « المدارس النظامية » التي جلس الغزالي يعلم في إحداها والتي كان لها نصيب كبير في تنشيط المذهب السني ومقاومة التشيع ، واقتبس نور الدين زنكي هذا الاتجاه من نظام الملك ، فنشر في مملكته بحلب ودمشق مدارس كتلك التي أنشأها نظام الملك ، فكان بذلك امتدادا له ، كما كان امتدادا لأبيه « عماد الدين » في الانتصارات العسكرية ، وجاء صلاح الدين الأيوبي فسورت مملكة نور الدين في الأمرين جميعا ، أي حلّ محله في مقاومة الصليبيين ، كما نقل اتجاهاته الثقافية إلى مصر فأنشأ بها مدارس لخدمة المذهب السني امتدادا لمدارس نظام الملك في العراق ومدارس نور الدين في الشام ، وعلى هذا نجد نور الدين زنكي فصلاح الدين الأيوبي يمثلان الحلقين الثانية والثالثة في الصراع العسكري ضد الصليبيين وفي إحياء الدراسات السنية ، أما الحلقة الأولى فيمثلها عماد الدين زنكي في الصراع العسكري ويمثلها نظام الملك في إحياء الدراسات السنية (١) .

(١) اقرأ تفاصيل هذا النشاط الثقافي بكتابنا « تاريخ التربية الإسلامية » .

الخضارة الفاطمية بمصر وسوريا

الأزهر الشريف :

اهتم الفاطميون اهتماما كبيرا بالحركة العلمية في اتجاهاتها المختلفة ، وأبرز هذه الاتجاهات كان تنظيم الفكر الشيعي ونشره على أوسع نطاق . كما سبق القول ، ويمكن اعتبار يعقوب بن كلس مثالا لهذا النشاط المذهبي ، فعلى الرغم من انشغاله بشئون الوزارة نجده يخصص وقتا ليؤلف الكتب والرسائل في عقيدة المذهب وفقهه ، ويطلب من العزيز تحويل مسجد الأزهر إلى جامعة شيعية تدرس فيها مبادئ التشيع ، بل يجلس هو في الأزهر لتدريس هذه المبادئ ، وبعد فترة اتسع الأزهر لألوان من الفكر بجانب تدريس التشيع .

مجالس القصر ومجالس الدعوة :

اتخذ الخليفة من داره أحيانا ندوة يجتمع فيها عليه القوم وساداتهم لدراسة أصول المذهب وطرق نشره . ومن الوظائف المهمة التي استحدثها الفاطميون وظيفة داعي الدعوة ، وهي تشبه وزارة الدعاية والاعلام في الدول الحديثة ، وكانت يختار لها الضالعون في الفكر الشيعي والعارفون بأسرار الدعوة ، وكان داعي الدعوة يشرف على الدعاية للمذهب ونشره في العاصمة والأقاليم عن طريق المجالس والندوات والمحاضرات والمؤلفات ، وكثيرا ما كان داعي الدعوة هو قاضي القضاة .

وشجع الفاطميون شعراء المذهب لينشروا قصائدهم بين الجماهير . . . وكان الشعر آنذاك يمثل صحافة العصر ، فإذا كانت الندوات والمجالس العلمية اتجهت للمثقفين فإن الشعر كان وسيلة الدعاية للمذهب بين العامة .

علماء في الفلك والصيدلة والطب . . . :

وبجانب المذهب الشيعي اهتم الفاطميون بخدمة فروع أخرى من العلم والمعرفة ، وقد سبق أن تحدثنا عن دار العلم التي أنشأها الحاكم

وكيف كانت مركزا للثقافة والفكر ، وبجانب ذلك على الحاكم بدراسات أخرى ، فلقد ازدان بلاطه بعلى بن يونس ألمع من أنجبته مصر من الفلكيين . وبالحسن ابن الهيثم كبير علماء الطبيعيات المسلمين والاختصاصي في علم البصريات والذي لا تقل المصنفات المنسوبة اليه في الرياضيات والفلك والفلسفة والطب عن المائة (١) ، وأهم الكتب التي اشتهر بها كتاب المناظر الذي ترجم الى اللاتينية وطبع سنة ١٥٧٢ ، وكان له أثر كبير في نشر علم البصريات في العصور الوسطى ، وأغلب كتاب العصور الوسطى الذين عالجوا هذا الموضوع يبنون مؤلفاتهم على كتاب ابن الهيثم المذكور ، وفي مؤلفات روجر براكون وليونارد دى فنشى ويوهان كبلر آثار لهذا الكتاب ، ولقد ناقض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس القائلة بأن العين ترسل شعاعا بصريا الى الشيء المرئي ، وقال إن شعاعا ينبعث من الشيء للعين ، وقارب في بعض تجاربه حد اكتشاف العدسات المكبرة نظريا (٢) .

ومن العلماء الذين ظهروا في هذا العصر أيضا عمار بن الموصلي وله كتاب في أمراض العيون عنوانه « المختف في علاج العين » وهو مخطوط يوجد قسم منه بمكتبة الاسكوريال (٣) .

كما اشتهر عدد من الأطباء والفلاسفة من أعظمهم على بن رضوان الذي تولى منصب رئيس الأطباء في بلاط الخليفة العزيز ، وألف كثيرا من الكتب في الفلسفة والمنطق .

مؤرخون :

واشتهر كذلك في العصر الفاطمي بعض المؤرخين ، منهم ابن زولاخ

(١) أبى الصيعة ج٢ ص ٦١ وما بعدها ، والقنطري ص ١٦٧ - ١٦٨ .

وابن حلكان ج٢ ص ١٢٧ .

(٢) Hitri : History of the Arabs pp 744 - 745 (٢)

(٣) نقس المرجع .

الذى ألف كثيرا من الكتب في تاريخ مصر زمن الاخشيديين والفاطميين ،
ومنهم أيضا ابن منجب الصيرفي الذى تولى ديوان الانشاء أواخر العصر
الفاطمى ، ويعتبر كتابه « الإشارة الى من نال الوزارة » حجة في تاريخ
هذا العصر .

شعراء :

وفي هذا العصر ظهر كذلك عدد من الشعراء في مقدمتهم ابن هانيء
الأندلسى الذى نظم ديوانا في مدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ،
ومنهم كذلك عمارة اليمنى صاحب الديوان المشهور باسمه الذى مدح فيه
الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وعمارة هذا هو الذى دبّر ثورة
محمد الحكيم الأيوبي لقوة تعصبه للفاطميين (١) .

شاعر سوريا الفيلسوف :

ومن أبرز شعراء سوريا في هذا العصر أبو العلاء المعري (٣٦٣ =
٩٧٣ - ٤٤٩ - ١٠٥٧) الشاعر الفيلسوف رهين المحبسين (البيت
والعمى) ، وكان قد رحل الى بغداد في طلب العلم ، ويبدو أنه اتصل فيها
ببعض الشيوخ الذين يتجهون اتجاه المعتزلة وبيع بعض الفلاسفة المتأثرين
بالمذاهب اليونانية وبفلاسفة اليهود ، وكان لهؤلاء أثر في حياته وشعره ،
ولم يكن المعري مداحا للعظماء والخلفاء ، بل كان زاهدا ، ويروى أنه
عندما احتل جيش المستنصر الفاطمى بلدة المعرة قدم قائده الجيش الى
المعري ما في خزانة المدينة من مال ، ولكن المعري رفضه (٢) ، وكانت له
هبة عظيمة عند الحكام ، فيروى أنه ذهب مرة ليتوسط لدى صلاح بن
مراحم لينطلق سراح ميتين من وجهاء المدينة كان صلاح قد اعتقلهم ،
فاستجاب له صلاح في الحال وأطلق سراحهم (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٧٤٥ .

(٢) ياقوت : معجم الادباء ج ٢ ص ٥٩ .

(٣) فيليب حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢١٥ .

والمعري هو مؤلف رسالة الغفران التي يُعْتَقَد أن دانتي ألف الكوميديا الإلهية على غرارها : وقد التزم المعري في أكثر شعره الاتجاه الفلسفي ، وله معان سبق بها عمر الخيام ، ومن ناحية القافية التزم المعري في أكثر شعره ما لا يلزم ، أي جعل قافيته مكونة من حرفين ، ولذلك سُمي ديوانه « اللزوميات » ، ! يوم لا يلزم « ومن شعره على هذا النسق قوله :

ضحكتنا ، وكان الضحك منا سفاهة وحق لأبناء البسيطة أن يبكوا
يحطمننا ريب الزمان كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد له سبغة

الهندسة والغفران :

وفي الفن وهندسة البناء ترك الفاطميون آثارا خالدة في قمتها مدينة القاهرة والأزهر والمساجد الكثيرة التي تحمل أسماء خلفائهم ووزرائهم ، ولا يزال باب زويلة ، وباب النصر ، وباب الفتوح شاهد صدق على ما وصلت له عظمة البناء في هذا العصر ، وقد بلغت القاهرة في عهد الفاطميين شأوا بعيدا من الرقي والتقدم ، فكانت بها الأسواق العامرة والبساتين الغناء ، والعمائر الشامخة وغيرها مما أفاد المقيزي في وصفها في خطه .

الزخرفة الإسلامية :

أخذت الزخرفة الإسلامية عناصرها من ثلاثة أشياء :

١ — آيات من القرآن الكريم تكتب بالخطوط الجميلة .

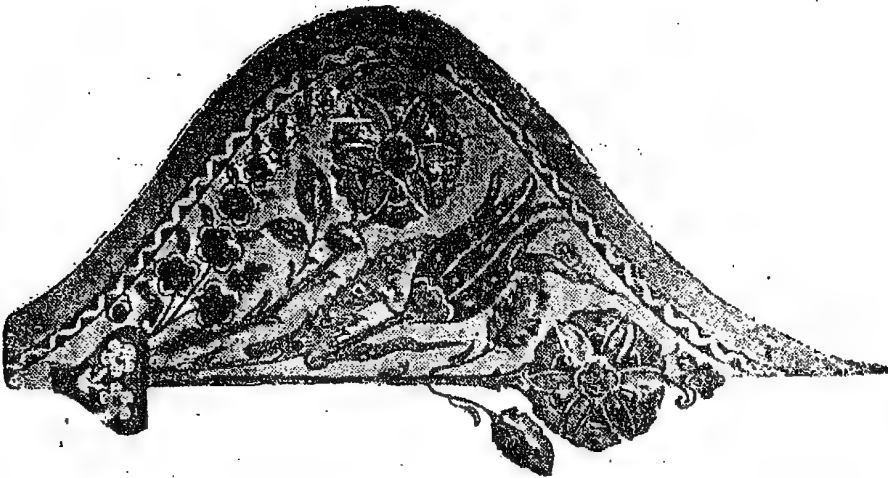
٢ — الأشكال الهندسية .

٣ — أوراق الشجر .

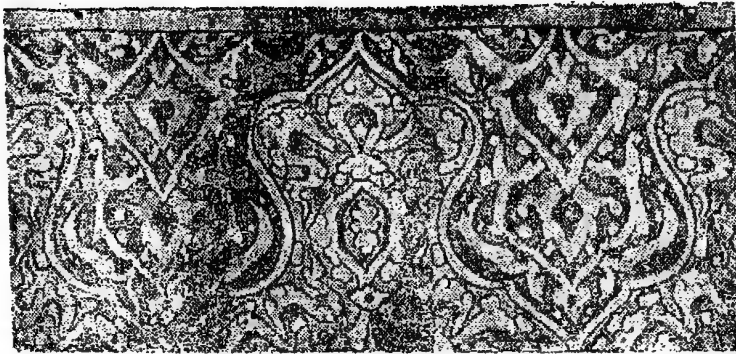
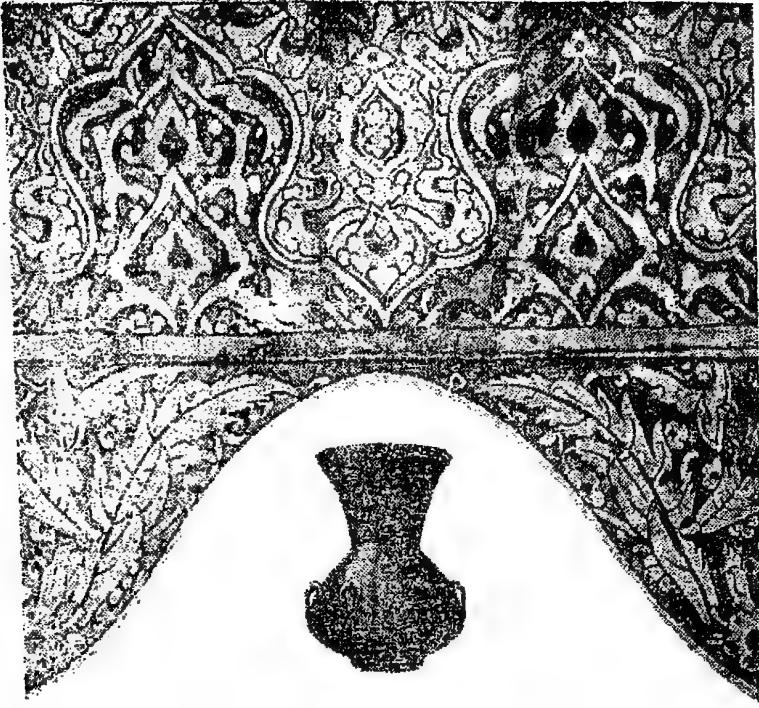
ومع هذا بعض نماذج الزخرفة التي ظهرت في الجامع الأزهر وفي غيره من الآثار الإسلامية بالقاهرة .



باب زويلة وجزء من سور القاهرة القديم



آثار زخرفية بمصر



آثار زخرفية بالأزهر

(م ١٢ - موسوعة التاريخ ج ٥)

البحرية والترسانة :

وقد ورث الفاطميون بحرية الأغالبة ، كما قلنا في الجزء الرابع من هذه الموسوعة ، ولما جاءوا الى مصر أدركوا ضرورة تقوية بحريتهم ، إذ هددتهم بحرية الروم دائما ، ولهذا أنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده ترسانة لإنشاء المراكب الحربية في الروضة وفي الاسكندرية ودمياط ، وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة في الموانئ الشامية مثل عكا وصور وعسقلان ، وكذلك في عيذاب على البحر الأحمر : وأنشأ المعز أيضا دارا للصناعة السفن بالمقس بنى بها ستمائة سفينة ، وكان على رأس الأسطول الفاطمي عشرة قواد ، عليهم رئيس يدعى أمير الأسطول ، وأفرد للأسطول ميزانية ضخمة (١) .

وعنى الفاطميون عناية كبيرة بالصناعات المتعلقة بتجهيز الجيوش واعداد العدة الحربية التي كانت عمادهم في المحافظة على دولتهم وفي محاولة توسيعها .

صناعات مدنية :

ومن الصناعات المدنية التي اشتهرت في العصر الفاطمي صناعة المنسوجات ، وقد بلغت الذروة في الجودة والجمال ، واشتهرت بها مدينة دمياط ، وكانت منسوجات مصر تصدر الى العراق وغيره من البلدان : ولعل من أسباب الاهتمام بالمنسوجات أن عادة الفاطميين كانت تجرى بتقديم الأكسية لجميع موظفي الدولة في الشتاء والصيف ، ومن أجل هذا أنشأ المعز لدين الله هارا عرفت بدار الكسوة ، وكانت منسوجاتها تتناسب مع مراكز الذين يستمنح لهم هذه الملابس ، ومنهم الوزراء والقضاة ، وكان للفاطميين بجانب دار الكسوة دار تعرف بدار الديباج لصناعة الحرير ، وقد بلغت مخصصات دار الكسوة لعمل الملابس سنة

(١) دكتور على ابراهيم مصر في العصور الوسطى ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

٥١٦ هـ مبلغ ٦٠٠٠٠٠ دينار ، وكانت الحلل تقدم للأمراء والوزراء والأشراف في عيد الفطر ، ولذلك سمي هذا العيد بعيد الحلل (١) ، وكان الخلفاء يتنافسون في الإنعام على كبار الدولة ؛ وقد روى عن العزيز قوله : أحبُّ أن أرى النِّعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر : إليهم الخيل واللباس والضياع والعقار (٢) .

وعنى الخلفاء بزركشة الملابس وتطريزها بخيوط من الذهب ومن الفضة أحيانا ، وكانت كسوة الكعبة وملابس كبار الرجال تردان بالطراز الفاخر ، وامتدت الزركشة الى الفرش والبسط والخيام وشرابيات السفن ، وكان من أمتعة قصر الخليفة المستنصر الذي نهبه الثوار في أثناء الشدة فسطاط الخليفة الظاهر ، وكان منسوجا من خيوط الذهب ومقاما على أعمدة من الفضة ، وبلغت قيمته أربعة عشر ألف دينار (٣) .

صناعات معادن :

وعنى المصريون في هذا العصر عناية كبيرة بصناعة المعادن وبخاصة من الذهب والفضة ، كما عنوا بالنقش على الخشب وحفره وتطعيمه بمختلف الأحجار ، وكانت لهم عناية بالغة بصناعة الزجاج والخزف وبالرسم الرائع على هذه الصناعات المهمة ، وقد خلف العهد الفاطمي ألوانا من الصحاف ومجموعة رائعة من أواني الذهب ذات النقوش البديعة والأواني الخزفية ذات الرسوم العجيبة مما يشهد لهذا العصر بالنبوغ والمجد .

أهم آثار الفاطميين :

يعتبر عصر الفاطميين أغنى فترة مصرية بالآثار ، وهو عهد طويل وعريض بإنجازاته وآثاره ، وأهم آثار الفاطميين مدينة القاهرة التي

(١) دكتور على إبراهيم : مصر في العصور الوسطى ص ٣٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٤١٨ .

(٣) دكتور زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ٦٣ .

كانت تسمى قبل وصول المعز « مدينة المنصورية » ثم أطلق المعز لدين الله عليها « القاهرة المعزية » .

الأزهر : التاريخ والفكر :

على أن أهم آثار الدولة الفاطمية هو « الأزهر » الذى لعب دورا كبيرا فى خدمة الاسلام والمسلمين ، وتجاوز عمره ألف سنة ، وقد وضع أساسه سنة ٨٣٥٩ وافتتح للصلاة سنة ٨٣٦١ ، وجلس به على بن النعمان مدرسا سنة ٣٦٥ ثم أعلن يعقوب بن كلس نقله الى جامعة سنة ٣٧٨ وعين له هيئة تدريس .

وكان يجلس به قاضى القضاة والمحاسب .

وكان الأزهر فى أكثر تاريخه يهيئ لطلاب العلم كل وسائل الراحة ، فما ان يصل الطالب الى الأزهر حتى يجد أن مشكلاته قد حُلَّت ، فالرواق يضمن له السكنى ، والجراية تضمن له الطعام ، والحلقات مفتوحة ليختار منها ما يناسبه .

وكان يدرس بالأزهر الفقه الشيعى ويقوم بتدريسه آل النعمان : ويدرس به التاريخ الاسلامى ويقوم بتدريسه السبى المصرى ، ويدرس به الحديث ويقوم بتدريسه القضاة ، وكان هذا يدرس به أيضا أنبياء الأنبياء ، وهو العلم الذى يسمى الآن « مقارنة الأديان » بعد نوع من التعديل فى طرق تدريس هذه الأنبياء .

وكان يُدرّس به النحو ، ومن مشاهير من جلسوا لتعليمه ابن بابشاذ والشاطبى .

وكان يُدرّس به الطلاب ومن علم به هذه الادة الحسن بن الخطيب .

وبخاصة خلفاء الفاطميين وسلاطين المماليك ، فخطى الأزهر بمزيد من

الأوقاف وأضافوا له أروقة إلى أروقته وزينوا محاريبه ، كما وهبوا له المناير والقناديل الثمينة ، وأنتشرت به زخارف غاية في الروعة والجمال ، ولكنه عانى بعض الإهمال في العهد الأيوبي وفي العهد العثماني .

وبالأزهر ٢٩ رواقا للصعايدة والشرافوة والبحاروة . . . ثم للجرمين وجاوة والسليمانية والمغاربة والأتراك والسنارية والجبرتية والأكراد والهنود والشوام

وبه ١٣ محرابا و ٦ مآذن و ٧ مزاوِل لمعرفة الوقت و ٩ أبواب أهمها باب الزينين والمغاربة والعباسي والجوهرية .

ومن أهم مساجد العصر الفاطمي مسجد الحاكم ، وقد أسسه العزيز وأتمه وخطب به وصلى فيه ، ولكن الحاكم أتم ملحقاته وزينته وفرشه فنسب له ، وكان هذا المسجد يقع خارج سور القاهرة ، فلما بنى بدر الجمالي سوره أدخل هذا المسجد داخل السور مما يلي باب الفتوح .

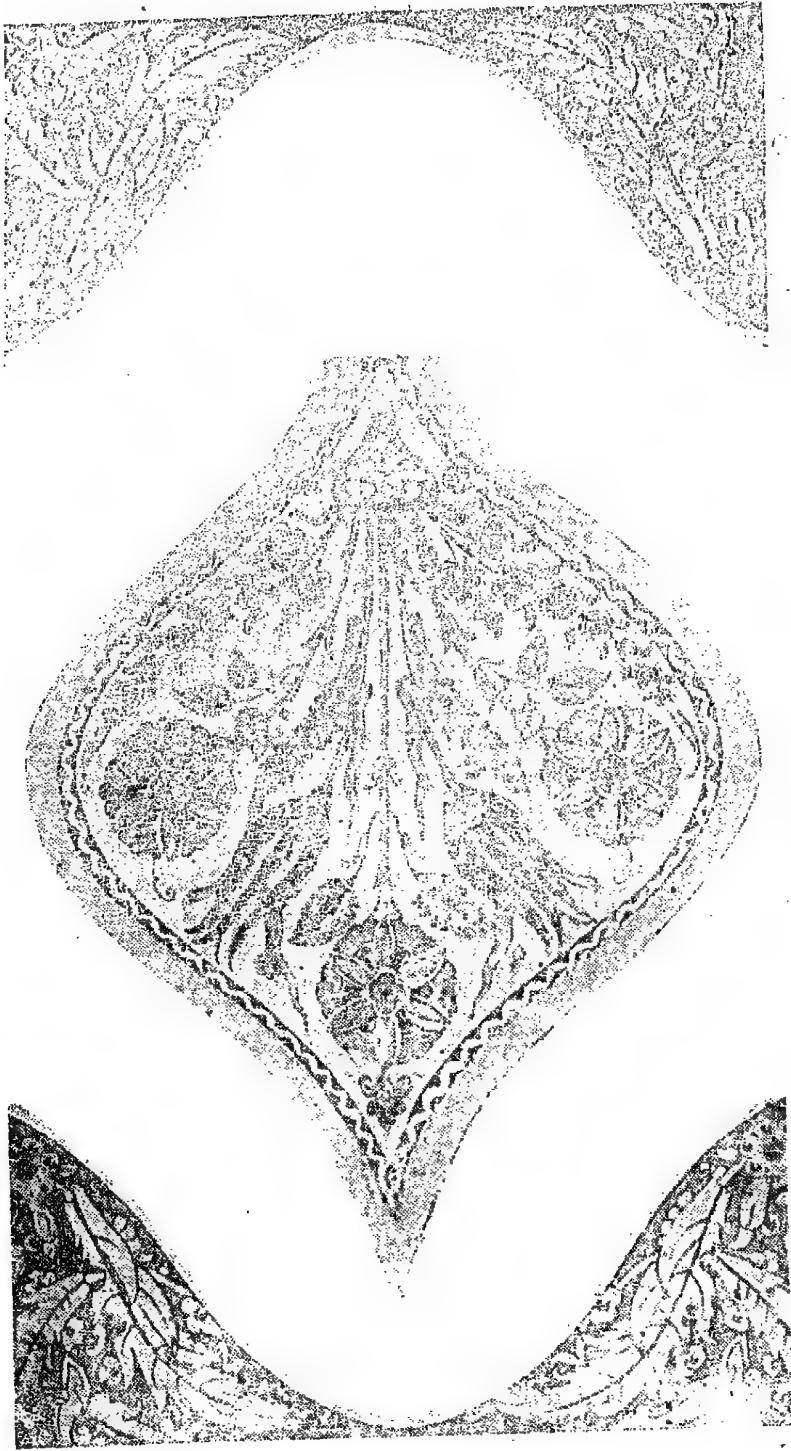
وكان للحاكم مدفن بناه بإشرافه ليدفن به ، ولكنه قُتِلَ وأُخفيت حنثه فلم يدفن فيه ، ومسجد الحاكم يسمى أيضا الجامع الأنور .

ومن مساجد العهد الفاطمي جامع الصالح طلائع بن رزيك ومشهد الجيوشى وكثير من المشاهد .

ومن الآثار الفاطمية أسوار القاهرة المنيعه ، وأبواب القاهرة : بساب الفتوح وباب النصر وباب زويلة .

ملك الفاطميين :

امتد ملك الفاطميين في فترات ازدهارهم من نهر العاصى بالشام حتى حدود مراكش ، ومن منطقة الخرطوم بالسودان الى آسيا الصغرى ، مما جعل سلطانهم يفوق كثيرا من ممالك ذلك العصر .



آثار زخرفية بالأزهر

الدَّوْلَةُ الْيُونَنِيَّةُ

(٥٦٤ - ٥٦٤٨ = ١١٦٩ - ١٢٥٠ م)

أصل الأيوبيين :

يعدّ وفیات الأعیان لابن خلکان من أهم المراجع التي عنيت عناية كبيرة بالأيوبيين ، وبخاصة صلاح الدين ، فقد ترجم ابن خلکان لأكثر أمراء هذه الأسرة وقادتها ، وذكر كل ما يتصل بها في هذه التراجم ، وخص صلاح الدين بأطول ترجمة وردت في هذا المؤلف (١) : حتى يمكن أن تصبح كتابا قائما بذاته ، وتمتاز بأنها جمعت من المعلومات ما لم يورده مرجع آخر حتى ابن شداد في كتابه عن صلاح الدين « المحاسن اليوسفية » ، وبجانب ابن خلکان هناك كتب كثيرة اهتمت بالأيوبيين إذ كان هؤلاء قادة الدفاع عن الاسلام في الحروب الصليبية ، فوجدوا من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين عناية كبيرة ، ومن الكتب الكثيرة عن الأيوبيين نقتبس خلاصة وافية نؤرخ بها لهذا العصر :

تنحدر الأسرة الأيوبية من أصل كردى ، وكان شادى جد صلاح الدين وأقدم من نعرف معرفة واضحة في الأسرة (١) ، يعيش في بلدة « دوين » من بلاد أذربيجان قريبا من الكرخ ، وكان شادى من خيرة الرجال وذوى الهمة ، وكان له صديق اسمه بهروز ينزل منه منزلة الأخ ، وحدث أن بهروز وقع منه خطأ عوقب عليه ، فلم يستطع بعد ذلك البقاء في دوين ، فهجرها الى العراق حيث عمل في خدمة السلطان مسعود بن غياث الدين السلجوقى ، وفي هذا البلاط لمع بهروز ، فأسند له السلطان ولاية بغداد وأقطعته مدينة تكريت : وفي هذا المجد لم ينس بهروز رفيقا صباه شادى ، فاستدعاه هو وأهله وجعله حاكم تكريت بالنيابة عنه ، وكان مع شادى ولدها نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) وشريكوه ، وتنسب الأسرة الأيوبية الى نجم الدين أيوب سالف الذكر ، ومات شادى بعد فترة فتولى مكانه ابنه الأكبر نجم الدين ، ولكن حدث خلاف بين

(١) ابن خلکان : وفیات الأعیان ج٢ ص ٣٧٦ وقد اورد ابن خلکان له نسبا وصله الى آدم ، ولكنه غير موثوق به .

شريكوه وبين أحد بطانة بهروز المقيمين بتكريت ، فقتله شريكوه : وغضب بهروز لذلك ، وأرسل حاكما جديدا الى تكريت وطلب من نجم الدين أن يسلمه السلطان وأن يهاجر من تكريت هو وأهله ، وفي تكريت ولد صلاح الدين ويقال انه ولد في نفس الليلة التي بدأت فيها رحلة أهله وذويه منها (١) . ولعل موقف بهروز لم يكن فقط بسبب اعتداء شريكوه على أحد بطانته ، بل لإحساسه بنمو نفوذ نجم الدين وأهله ، وخوفه من عاقبة صلات الود التي كانت تتطور بين هؤلاء وبين سكان المدينة .

الخبر لا يضيع :

وقبل أن ندع تكريت نذكر حادثا وقع بها ، وكان ذا أثر فيما جاء بعد ذلك من أحداث :

كان عماد الدين زنكي أتابك الموصل قد سار بجيشه لمساعدة السلطان مسعود ضد الخليفة العباسي المسترشد ، ولكن عماد الدين زنكي هُزم في المعركة ، وعاد ومعه غلول جيشه يحمل أعباء الهزيمة وخوف المستقبل ، وفي الطريق الى الموصل مر بتكريت في حالة من الألم واليأس ، فالتقى بعصاه بها : وأسلم أمره الى حاكمها نجم الدين بن شادي ، فأكرم نجم الدين وفادته وأحسن استقباله وساعده على اجتياز دجلة ، وقدم له الزاد والعون ، وأنهى بذلك حيرته ويأسه ، وكان ذلك أيضا مما أغضب بهروز ، فقد كان بهروز في صف الخليفة ضد عماد الدين زنكي (٢) .

ولهذا نجد نجم الدين عقب خروجه من تكريت سنة ٥٣٣ هـ يتجه الى الموصل ليستعين على مشكلات الحياة بالرجل المدين له بالعون والمساعدة ، بعماد الدين زنكي (٣) .

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٨٤ — ٨٥ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٧ .

(٣) تدمري قلعي : صلاح الدين الأيوبي ص ٢٨ — ٢٩ .

وفي رحاب عماد الدين تمارش الأسيرة الأيوبية ، فقد أصبح نجم الدين وأخوه شيركوه من خيرة القواد ، وقتل عماد الدين بعد ذلك واختلعه أولاد من بعده ، بل إن نور الدين تغلب على رافق أخيه ، وأصبح صاحب اليد الطولى وكان ذلك بمساعدة الأيوبيين ، ولم تفلح هذه المحاولة أن يتهم دمشق لأنه رافق دمشق ، أما صلاح الدين وتغلب عليهم بالبيعة والاستاذية ، حتى صاروا لثقة العرب في تلك المنطقة ، وبما حفظ القرآن الكريم ونالوا ما سوسم الشريعة ، بالإيمان إلى ما سوسمته الفروسية والسيد والرسى بالسوازم وغيرها من ضرورات الجهاد .

الأيوبيون في مصر :

سيطر نور الدين على حلب ثم على دمشق كما سبق القول ، ورأى أن سيطرته على مصر ضرورة ليكمل التفتاه بحلول الصليبيين حتى يستطيع أن يقضى عليهم ، وليستعين ببراء مصر في مشروعاته ، ثم لينشر المذهب السني بها بدل مذهب الفاطميين .

وقد أتاحت فوضى الوزارة في مصر إبان عهد العاضد الفرصة لنور الدين ليتدخل في شئونها ، وبلغت حملات نور الدين على مصر ثلاثا كانت كلها بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وكانت الحملة الأولى سنة ٥٥٩ هـ استجابة لطلب شاور الذي هرب إلى الشام من وجه ضرغام واستجد بنور الدين ، وحضرت هذه الحملة إلى مصر مع شاور وقضت على ضرغام ، ولكن شاور لم يوف بوعده لنور الدين ، وسرعان ما أنقلب ضد الذين أعادوه إلى السلطة ، وبلغ من خيانتة أن استعان بالصليبيين لينقذوا البلاد من جيش نور الدين ، فحضر له الجيش الصليبي الذي كان قد أعد لمساعدة ضرغام ضد شاور ، وطوق الصليبيون

جيش أسد الدين شيركوه في بلبيس ، ولكن نور الدين أعد العدة لمهاجمة الصليبيين في الشام فخاف هؤلاء ، وأخيرا اتفق الطرفان على إخلاء مصر ، ونفذ الاتفاق .

أما الحملة الثانية فكانت سنة ٥٦٢ هـ ، وقد حضرت لمقاومة الصليبيين الذين عادوا الى مصر بناء على طلب شاور ليثبتوا عرشه الذى كان يهتز تحته ، وحدثت بين الجيشين معركة كبرى هي معركة « البابين » بالقرب من المنيا ، وقد انتصرت جيوش نور الدين انتصارا كبيرا ، وعقب ذلك انسحبت جيوش الصليبيين تجاه الشمال كأنها تريد العودة إلى فلسطين ، وبقي شيركوه ببعض الجيش في المنيا أما باقى الجيش فقد قاده صلاح الدين إلى الاسكندرية لرد هجوم صليبي آخر وافد من صقلية ، وانتهاز الجيش الصليبي المنهزم هذه الفرصة فأسرع خلف صلاح الدين ، وبذلك حوصر جيش صلاح الدين بالاسكندرية ، ومرت فترات قاسية بصلاح الدين أظهر خلالها ضرورها من البسالة وظهرت فيها شخصيته وحسن ادارته ، وتحطم الحصار لاصراره من جهة ، ولإسراع عمه لمساعدته من جهة أخرى ثم لهجوم نور الدين على القدس من جهة ثالثة ، وتم الاتفاق بين جيش نور الدين وبين الصليبيين على إخلاء مصر مرة أخرى : ونفذ الاتفاق .

أما الحملة الثالثة فكانت سنة ٥٦٤ هـ ، وكان سببها أن خلافا وقع بين شاور والفرنجة لأنه لم يوف لهم بما تعهد به اليهم من أموال ، فهاجم الفرنجة مصر واحتلوا بلبيس ، وأعملوا في سكانها القتل والسلب ، وحينئذ اتصل الخليفة العاضد سرا بنور الدين زنكى وطلب عونه ضد الصليبيين وضد شاور ، فحضر شيركوه لثالث مرة ، وتردد صلاح الدين هذه المرة في مصاحبته لما عاناه إبان الحصار في الاسكندرية ، ولكنه عاد وقبيل

الحضور ، وقد تظاهر شاور بالترحيب بهذه الحملة وذهب لاستقبال شيركوه ، ولكن صلاح الدين قبض عليه وصدرت أوامر الخليفة بالقضاء عليه فقتل ، وأسندت الوزارة الى شيركوه ، ولكن هذا مات بعد شهرين فألقت الوزارة الى صلاح الدين ، وتوالى الأحداث على ما ذكرنا في نهاية الدولة الفاطمية ، فقد قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين ، وخطب باسم الخليفة العباسي واسم نور الدين ومات الخليفة العاضد عقب ذلك ، وعادت مصر الى أحضان المذهب السنّي .

صلاح الدين يمكن سلطانه :

بدأت سلطة صلاح الدين بمصر سنة ٥٦٤ هـ ولكنه لم يستطع الخلافة الفاطمية إلا سنة ٥٦٧ هـ ، ومعنى هذا أنه مرت ثلاث سنوات كان السلطان على مصر من الناحية العملية في يد صلاح الدين ، ولكنه كان يعترف بالخليفة الفاطمي ، وكان في نفس الوقت تابعا لنور الدين زنكي وقائدا من قواده ، وكان صلاح الدين لهذا يدعو لل اثنين في الخطبة ، كما كان يضع الخطط للتخلص من الاثنين جميعا ، ولكن كان عليه قبل كل شيء أن يمكن لسلطانه في البلاد ليكون ذلك عوناً له فيما سيقابله من مشكلات .

بدأ صلاح الدين ذلك بأن أظهر العدل بين الناس وعاملهم بكرم السجايا ونبيل الصفات ، وأظهر التسامح مع أتباع المذهب الشيعي الذي كان منتشرا بالبلاد ، كما سوى في معاملته بين أتباع الديانات المختلفة فأبرز 'صفة أصيلة في نفسه هي التسامح الديني ، وأتاح للأقباط حرية التدين الى أقصى حد ، وكان من نتائج ذلك أن أحبه الأقباط محبة شديدة حتى ليذهب أحمد زكي (باشا) الى أنهم وضعوا صورته في كنائسهم ، ويستشهد على ذلك بأدلة كثيرة منها أن الشاعر عبد المنعم الأنديلي زار

مصر في ذلك الحين فدهش لها رآه من حب القبط لصالح الدين ، فنظم قصيدة طويلة في هذا المعنى جاء فيها :

فَحَطَّوْا بِأَرْجَاءِ الْهَيْكَلِ صُورَةَ لَكَ اعْتَقَدُوْهَا كَاعْتِقَادِ الْأَقَانِمِ (١)

واتجه كذلك بجهوده نحو المصريين جميعا فرفع عنهم المظالم ، وخفف الضرائب والمكوس التي كانت ترهقهم ، وأصدر أوامره بأن تكون جبابة الضرائب بمصر ببسر وسهولة ، واستمال بذلك قلوب الناس ، كما بذل الأموال مما كان أسد الدين شيركوه قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئا يخرج به للناس فاستجاب له العاضد راضيا أو كارها ، وفي هذه الأثناء كان صلاح الدين يقف من الصليبيين موقفا حازما ، فقد رد بعنف عدوانهم على دمياط ولم يقف طويلا موقف المدافع ، وإنما راح يهاجم الصليبيين في معانقهم ، فابتدأ بذلك طور جديد في تاريخ الحروب الصليبية ، وأصبح الفرنجة مدافعين وكانوا من قبل مهاجمين ، وطالما غنم منهم الغنائم في هجماته وأمن منهم تجار المسلمين وأرضهم ، وبهذا أقبل المصريون على صلاح الدين وأحبوه واتخذوه لهم زعيما وقائدا ، ناصروه والتفوا حول رأيته وتأييده بذلك أن يخطو في أمن نحو أهدافه .

عزل العاضد :

أصبح العاضد مسلوب السلطة ، ولم يبق له إلا اسم هزيل يذكر في الخطبة ، وبجواره اسم نور الدين السنى الذى يخطب في بلاده لخلفاء بنى العباس ، وأصبح أمر مصر بيد صلاح الدين السنى كذلك ، فكان ذلك أمرا عجبا ، ولهذا ما أن أحس صلاح الدين باستقرار الأمر له حتى فكر في القضاء على هذا الخيط الضئيل الباقي من الفاطميين ، وبخاصة أن نور الدين زنكى كان يحث صلاح الدين من حين إلى حين

(١) نقلا عن صلاح الدين الأيوبي لقدري تلعبى ص ٤٣ .

أن يخطو هذه الخطوة . وكان العاضد آنذاك مريضا منزويا في بيته ، ويروى أن صلاح الدين أحس بشيء من التردد في إعلان عزل العاضد وإسقاط الخلافة الفاطمية ، فأوعز إلى أحد أتباعه أن يفعل ذلك في أحد المساجد ليرى رد الفعل عند الجماهير ، ولكن أحدا لم يجرئ ساكنا ، مما دعا صلاح الدين أن يأمر جميع خطباء المساجد أن يفعلوا ذلك في الجمعة التالية ، وكان ذلك سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وكان العاضد آنذاك قد اشتد مرضه فلم يتعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننقص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله ، فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم ، ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء ثلاثة أيام واستولى على قصره فوزع بعض ما بالقصور على قومه وأتباعه ، وأعتق بعض الجوارى ، ونقل أهل العاضد إلى مكان خاص ووكل بهم من يحفظهم وأغدق عليهم الخيرات ، أما مكتبة القصر فقد وكلها صلاح الدين إلى القاضي الفاضل فأبقى منها ما أبقى ، وأحرق ما يباليغ في التشيع ، وباع بعض محتوياتها وأدخل ثمنه في بيت المال (٢) ولم ينتقل صلاح الدين إلى دار الخلافة وإنما بقي بدار الوزارة حيث كان .

وسار صلاح الدين في استكمال الخطوات التي تتبع إسقاط الفاطميين والحاق مصر بالخلافة العباسية ، فخطب للخليفة المستضيء بالله العباسي ، وعزل القضاة الشيعة وأقام قاضيا شافعيًا في القاهرة ، فاستتاب هذا عنه القضاة الشافعية في جميع البلدان (٣) ، ويقول المقرئ إن صلاح الدين هو من قضى القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي ، فلم يستتب هذا عنه في إقليم مصر إلا من كان شافعي المذهب ، فاختلف

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٩٤ .

(٢) ابن خلكان : المرجع السابق ص ٢٨٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

مذهب الشيعة حتى فقيد من مصر كلها ، ومن منشآت صلاح الدين المرتبطة بذلك مدارسه الشافعية التي أقامها في مصر ، ومنها المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق والقمحية والسيوفية والناصرية بالقرافة ، والصلاحية ببيت المقدس ، والصلاحية بدمشق (١) .

نيول الفاطميين :

على الرغم من أن مصر قد استجابت لصلاح الدين وأسدت الستار على التشيع ، إلا أن فئات خاصة أحست بضسارة تصيها بسبب زوال الفاطميين ، فلا غرو أن يبدأ هؤلاء بإثارة المتاعب في وجه صلاح الدين لعله يكون من الممكن أن يعودوا بعقارب الساعة الى الوراء ، وأهم هذه المؤامرات تلك التي قام بها نجاح الخصى الأسود الملقب « مؤتمن الخلافة » الذي كان زعيما للسودانيين في مصر ، فيروي أنه كتب للفرنجة يطلب منهم الزحف على مصر ، ووعدهم بأن يضرب صلاح الدين من الخلف عندما يتجه هذا لمقابلتهم ، بيد أن رسالة مؤتمن الخلافة وقعت في يد رجال صلاح الدين ، فأدرك صلاح الدين ما يراد به ، وعرف ما يكتفه له مؤتمن الخلافة من خيانة وغدر ، فأوعز الى بعض رجاله بالقضاء عليه ، وتم له ما أراد .

ولكن القضاء على مؤتمن الخلافة أثار الجند السودان ، وكانوا أكثر من خمسين ألفا ، وكانوا إذا قاموا على وزير أذلثوه واستباحوه وربما قتلوه (٢) ولكن صلاح الدين لم يكن من طراز هؤلاء الوزراء الضعفاء ، بل هب يكسر صولة هؤلاء النافرين وأوعز الى بعض اخوته فالتجهوا الى المحلة التي يعيش بها السودان وأشعلوا فيها النار ، وهرع

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٦٣ — ٣٦٥ والنعمي ٣ : ١٠ والانس الجليل

٢ : ٣٩٣ واقرا كذلك تاريخ التربية الاسلامية للمؤلف ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٢) عماد الدين بن شداد : المحاسن اليوسفية ص ٤٧ .

السودان لينقذوا نساءهم وأطفالهم ، وطاردهم صلاح الدين في تفتقرهم فقضى على الكثيرين منهم وقبض على بعضهم ، ولكن سطوة السودان لم تنته بهذه المعركة فان كثيرين منهم فروا الى الوجه القبلى ، وبذلك ظل الصعيد مثار شغب واضطراب على صلاح الدين حوالى ست سنوات ، وكان يترغم السودانيون في هذه الحركات رجل يسمى كثر الدولة ، وهو من أبناء الصعيد ، ولم تنته هذه الفتن بالصعيد إلا سنة ٥٧٠ هـ وكان الملك العادل أخو صلاح الدين قائدا لجيوش أخيه في هذه المعارك .

ومن الحركات التى أثارت المتاعب في وجه صلاح الدين تلك الحركة التى قام بها الشاعر عمارة اليمنى ، فقد استطاع عمارة أن يضم إليه كثيرين من الثائرين على الدولة وبعض السودانين والتركمان وبعض الأكسراد الذين دب في نفوسهم الحسد ضد صلاح الدين ، وأن يضم كذلك بعض الذين كانوا كبار موظفى الدولة الفاطمية : أمثال عبد الجبار بن إسماعيل داعى الدعاة ، وابن كامل قاضى القضاة وغيرهما ، ثم اتصل عمارة اليمنى بقوى الأعداء بالخارج يستجدى تعاونهم معه ، فاتصل بملك الفرنجة ببيت المقدس ، وبملك صقلية النورماندى ، وبراشد الدين سنان رئيس الاسماعيليه الحشاشين ، ويمكن القول إن هذه كانت أعنف الحركات التى تعرض لها صلاح الدين ، وبخاصة هجوم أسطول صقلية الذى حاصر الاسكندرية وقبسا في ضربها بالمجانيق والدبابات مدة ثلاثة أيام ، ولكن صلاح الدين استطاع أن يتغلب على هذه الفتنة ، وساعدته الظروف إذ اضطرب توقيت الحملات الخارجية ، وقضى صلاح الدين على الهجوم الصقلى قبل أن يبدأ زحف الفرنجة ، ثم قبض على المتآمرين وأنزل بهم صورا من العقاب ، وقتل عمارة اليمنى سنة ٥٦٩ هـ .

بين صلاح الدين ونور الدين :

عندما تخلص صلاح الدين من الفاطميين ، كان عليه — ليكمل سلطانه — أن يتخلص من سيادة نور الدين زنكى ، وكان نور الدين زنكى

يعزله نور الدين أو يقبض عليه وهو بعيد عن مصر حصنه الحصين ، وقد تكررت محاولة نور الدين وتكرر معها تهرب صلاح الدين ؛ ومن ذلك أن صلاح الدين خرج مرة ليهاجم الفرنجة في مدينة الشوبك بفلسطين رجاء أن يستعيدها منهم حتى يعيد الطريق التجارى بين مصر والشام ، وقد نجح صلاح الدين في حملته ، ولكنه علم أن نور الدين قادم لمساعدته فأسرع بالعودة الى مصر ، وقد كان في هذا دليل على اتجاه صلاح الدين مما أحفظ نور الدين عليه .

على أن نور الدين أراد أن يثبت من الأمر فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها الى منازل الفرنجة عند مدينة الكرك وذكر أنه هو سيقدم لمساعدة صلاح الدين في هذه المعركة من ناحية الشمال ، وقد قبل صلاح الدين في بادئ الأمر ، ثم عاد ونكص مدعيا أن خروجه سيتيح الفرصة لشيعه العلويين ليقوموا بحركة مضادة له ، ولكن هذا العذر لم يكن مقبولا لدى نور الدين وتأزمت الأمور ، وأشيع أن نور الدين سيقدم على مصر ليستردها من قائده المتمرّد ، فجمع صلاح الدين أهله وذويه ليستشيرهم في الأمر ، فقال تقي الدين عمر ابن أخى صلاح الدين : إذا جاء نور الدين قاتلناه ومنعناه من دخول البلاد ، ووافقته غيره من أهله ، ولكن نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) صاح فيهم منكرا ذلك ، واستعظم هذا القول ، وقال : لو حضر نور الدين لقرجلنا له وقبلنا الأرض بين يديه ، ولو أمرنى أن أضرب عنق ابنى لفعلت ، وهذه البلاد لنور الدين ، ولو أراد عزل صلاح الدين لسمعنا له ولأطعنا ، ونصح نجم الدين ابنه أن يرسل لنور الدين يقول له : بلغنى أنك تريد التحرك لتسترد مصر منى فأى حاجة الى هذا ؟ يرسل المولى مندوبا يضع في رقبتى منديلا ويأخذنى إليك ، فما هنا من يمتنع عليك .

وكتب صلاح الدين بذلك ، وكتب عيون نور الدين اليه ما سمعوه

من نجم الدين ، فهدأت الأحوال وتحسنت العلاقات (١) . على أن
انتظار صلاح الدين لم يطل فإن نور الدين مات سنة ٥٦٩ وخلا الجو
لصلاح الدين من هذا الخصم الخطير .

بعد نور الدين :

لقد تركت وفاة نور الدين فراغا كبيرا في هذه المنطقة الخطيرة والفترة
الحرجة ، فقد كان رجلا عظيما أرهق الفرنجة ، وأنزل بهم كثيرا من
الهزائم ، ولم يكن هناك من يملأ هذا الفراغ بسهولة ، فابنه اسماعيل
الذى نودى له بالسلطان بعده كان في الحادية عشرة من العمر ، وكانت
حمايته والإشراف عليه موضع نزاع بين كمشتكين الأتابك وشمس الدين
محمد عبد الله بن المقدم ، وكان سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود
بن عماد الدين زنكى (ابن عم اسماعيل) مستعبدا بالموصل وشمس الدين
على بن الداية على قلعة حلب : ولم يكن صلاح الدين حتى ذلك الوقت
أعظم شهرة من هؤلاء ولا أثبت قدما ، بل كان واحدا من الطامعين ، ولكن
حركة التنازع بالشام كانت خطيرة ، إذ كان الفرنجة واقفين بالمرصاد ،
يتحينون الفرص للكسب والتدخل ، وكان المتنازعون للأسف يلجأون
للفرنجة طالبين العون والنجدة ضد بعضهم البعض ، وقد وصف صلاح
الدين هذه الحال للخليفة العباسى أبلغ وصف بقوله : وتوافت إلينا
الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشقت
الأمر وتقطعها ، وإن كل قلعة حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع
إليه طالب ، والإفرنج قد بنوا قلاعاً يتخطفون بها الأطراف الإسلامية ،
ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم
وعوقبوا وصودروا ... (٢) .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص ٣٨٥ .

(٢) عماد الدين بن شداد : المحاسن اليوسفية ص ٦٧ .

وفي وسط النزاع بين قواد نور الدين رأى ابن المتقدم بدمشق أن كفة كمشتكين رجحت فاستطاع أن يسجن ابن الداية ويستولى على حلب ، ثم خاف ابن المتقدم عاقبة ذلك على نفسه وأتباعه فأرسل الى سيف الدين غازي يطلب منه أن يحضر الى دمشق ليحكمها وينجيها من كمشتكين ، ولكن سيف الدين لم يستجب له ، فأرسل هذا يدعو صلاح الدين لذلك ، وكانت مصر آنذاك تنعم في ظله بالاستقرار ، مما رجح كفته إذا قيست بالاضطراب الذي غمر بلاد الشام ، وأيد الخليفة العباسي هذه الدعوة فزحف صلاح الدين للشام سنة ٥٧٠ هـ بعد أن هادن الفرنجة ، وخاض في الشام بعض المعارك كتب له في نهايتها النصر المؤزر ، ودانت له بلاد الشام فيما بين ٥٧٠ و ٥٧٢ وامتد نفوذه إلى الموصل ، ثم استولى على حلب سنة ٥٧٨ بعد وفاة اسماعيل ابن نور الدين (٥٧٧) : وبذلك امتد سلطانه من النيل الى الفرات فيما عدا معقل الفرنجة ، وقد أحسن صلاح الدين الى الأمراء المهزومين وتصالح مع بعضهم ومنحهم المال والإقطاع ، وكتب له الخليفة العباسي بالولاية على مصر والشام .

صلاح الدين يوسّع مملكته :

تكلّمنا آنفاً عن تأسيس مملكة صلاح الدين على أنقاض مملكة نور الدين زنكي ، ولكن صلاح الدين كان أبعد طموحاً ، فقد أراد أن يضم الى المملكة التي ورثها عن نور الدين ممالك أخرى وبقاعاً لم يسبق لنور الدين أن حكمها ، وقد استطاع صلاح الدين أن يحقق هذا الحلم خلال سلطانه بمصر ، وكان أبرز هذه البقاع ما استعاده صلاح الدين من الفرنجة بالشام وما أنزله بهم من خسائر سارت بذكرها الركبان وقوضت صرح حياتهم ، وفتحت الطرق لن جاء بعده ليكمل رسالته وليزيل هذا الكابوس من أرضنا المقدسة : وسنتكلم عن هذه الانتصارات في بحثنا عن « الحروب الصليبية » .

وبجانب الأرض المقدسة التي استعادها صلاح الدين من الفرنجة

مد صلاح الدين مملكته الى بقاء أخرى خلال حكمه بمصر ، فقد أرسل أخاه طوران شاه الى شواطئ شمالي إفريقية فاستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس من النورماندين سنة ٥٦٨ ، ثم أرسله الى بلاد النوبة والسودان فاستولى عليها ، ثم بعث به إلى اليمن فاحتلها وضمها إلى سلطانه سنة ٥٦٩ ودانت له كذلك انجاز التي كانت تابعة لمن يستولى على الساطة بمصر منذ العهد الإخشيدي كما سبق القول .



رجال صلاح الدين :

أنتجت أسرة صلاح الدين الأيوبي مجموعة من الأبطال في السياسة والحرب ، كانوا خير عون لصلاح الدين في المهام التي حملها ، ويعتبر

والده نجم الدين أيوب رجل حكمة من الطراز الأول ، وقد لعب دورا كبيرا في تهئية الأحوال بل توثيق العلاقات بين ابنه وبين نور الدين على ما رأينا ، وقاد إخوة صلاح الدين جيوشه وحققوا له ألوانا من النصر في معارك عهده ضد الصليبيين وفي اليمن وشمالى إفريقيا : ويعتبر العادل سيف الدين وطوران شاه أخوا صلاح الدين في القمة بين رجاله .

ومن رجال صلاح الدين كذلك وزيره بهاء الدين قراقوش ، وكان بطلا عظيما ، خاض المارك مع صلاح الدين ، وبنى سور القاهرة وقلعة الجبل (قلعة صلاح الدين) وقناطر الجيزة ، وكان واليا على عكا عندما اقتحمتها جيوش الصليبيين ، فوقع في الأسر وافتداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار ، وقد جرت الأساطير بتعسفه وظلمه ، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك ، ولا يوجد دليل على صحة هذا الادعاء ، ومن رجال صلاح الدين الكاتب الشهير ابن العماد الأصفهاني الذي خدم من قبل نور الدين ، ثم رافق صلاح الدين في حملاته جميعا ، وقد كتب مؤلفا أرخ به لفتح القدس يسمى « الفتح » أو « الفتح القسسى في الفتح القدسى » ، ومع عنايته بالمحسنات اللفظية فيه ، يبعد من أوثق ما يصور هذا الفتح العظيم ، وله ديوان شعر كبير ، وأعظم شعره ما صوّر به الصروب الصايبية ، وترجم عن الفارسية كتاب « فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور » لأنوشروان بن خالد في تاريخ السلاجقة .

ومن رجال صلاح الدين كذلك بهاء الدين بن شداد الذى كتب بسيرة صلاح الدين ، والقاضى الفاضل وكان أيضا من رجال الفاطميين ، ثم عني بالإدارة في عهد صلاح الدين ، ومنهم الفارس أسامة ابن منقذ ، مؤلف كتاب الاعتبار ، وقد كان من رجال نور الدين ثم انضم تحت لواء صلاح الدين ، وهو يصور في كتابه هذا مغامراته في الحرب والسلم ، وفي الطرد بصورة خاصة .

إن رجال صلاح الدين كانوا صفوة ممتازة ساعدت الرجل العظيم على تحقيق آماله .

شخصية صلاح الدين

يُبرَزُ الغربيون عند حديثهم عن صلاح الدين أنه كان كروياً ، ويريدون بذلك خلق عملية انزال بينه وبين العرب ، وهذه مغالطة ينبغي إبراز زيفها ، ففي المجتمع الاسلامي التقت جنسيات عدة ، وأغلبها انماع في هذا المجتمع وأصبح جزءاً منه . حتى هؤلاء الذين تماسكوا حيناً كالمالِك والبويهيين والسلاجقة آل أمرهم إلى الذوبان في هذا الخضم الزاخر ، ولقى حتفه منهم من حاول أن يستمر على انزاليته وهو في وسط البحر الصاخب .

على أن صلاح الدين الأيوبي ولد في أرض عربية ، ودرج في القلوات العربية ، وتربى على التقاليد الاسلامية ، وتطورت حياته على النمط العربي الاسلامي ، وكانت الآداب العربية متعته ، أفسح لها فازدهرت في قصره وعهده أيما ازدهار ، وكان أكثر جنده من العرب ، وبعضهم من قوميات مختلفة ، ولكن اللغة العربية كانت لغة الجميع ، والثقافة الاسلامية كانت البوتقة التي انصهرت فيها كل هذه الجموع ، فغدوا يُعرفون بها وفي ظلها يجاهدون (١) .

وتأثر صلاح الدين بالجماعة أنتى عاش بينها وأصبح في النهاية قائداً لها ، وتأثر في هذه الجماعة كذلك ، وإن الباحث إذا عدَّ صفات صلاح الدين وأخلاقه ، يجدها مزيجاً من شهامة العرب وسماحة الاسلام ، ومن مواهب صلاح الدين الشخصية ، القيادة الماهرة ، والسياسة البارة ، وحب العفو ، والوفاء للصديق ، والنبل مع العدو مع الكرم السابغ والعلم الزاخر ، ومع تشجيع العلم ورعاية العلماء ، وهذه كلها صفات نجدها في كثير من القادة المسلمين مقاربة أو متفاوتة بتفاوت شخصياتهم ، وقد احتفى كتاب الغرب وملوك الغرب بصلاح الدين وسيرته على نحو ما

(١) قدرى قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ص ٥٥ .

احتقى به المسلمون ، فقد كان الجانب الإنساني بصلاح الدين موضع دهشة الغربيين في فترة لم يكن للجانب الإنساني فيها مجال •

أما بطولة صلاح الدين ، واحتماله الشدائد ، وتخطيطه للنجاح ، فقد فاقت كل وصف ، لقد أحدث صدعا ضخما بجبهة الفرنجة ، ولم يلتئم هذا الصدع بعده ، بل ظل يتسع في عهد من جاعرا بعده وساروا سيرته ، حتى هوى ذلك الصرح الذي بناه الفرنجة في أرضنا الطيبة •

وليس من شك في أن قلة صئيلة من أمراء المسلمين يمكن أن تضارعه من حيث تجرده عن أية نزعة إلى الكسب الشخصي ، ومن حيث انصرافه إلى خدمة الدولة ورعاياها ليس غير ، ولم يستطع أعداؤه أنفسهم إلا الإقرار له بالشهامة والنبيل في معاملة الخصم المظلوم (١) •

ومما يدل على زهد صلاح الدين ، وبعده عن الكسب الشخصي أنه وزّع على أتباعه وعلى المسلمين جميع الكنوز التي وقعت في يده من قصور الفاطميين ، عقب نهاية الخلافة الفاطمية ولم يترك لنفسه شيئا منها (٢) ، وعندما مات إسماعيل ابن نور الدين واستولى صلاح الدين على ملكه ، عفا عن كل ثروته وتركها لأهل الملك الراحل ، وهكذا لم يخلف هذا السلطان العملاق إلا سبعة وأربعين درهما وقطعة واحدة من الذهب (٣) ، كما لم يخلف دارا ولا عقارا ، وكان يفوز . إن بقيت الديار لنا قلنا كل ما فيها ، وإن ضاعت منا ضاع ما يملكه كل فرد واستولى عليه العدو (٤) ، ولكن الذكرى التي خلفها صلاح الدين لا تزال كنزا يفوق كل تقدير في الشرق والغرب على السواء •

وتوفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ ، وله من العمر خمس وخمسون سنة تاركا ذكرا معطرا وسيرة زاهية ستبقى على مر الزمن •

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج٢ ص ٢٣٢ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص ٢٤١ .

(٣) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٨ ص ٩ .

(٤) شاهنشاه بن أيوب : ذيل النوادر ص ٢١٩ .

خلفاء صلاح الدين

يمكن القول إن بذور انهيار دولة صلاح الدين قد بدأت مع وفاته ؛ فإن ملكه الفسيح سرعان ما تقطعت أوصاله ، إذ قسم المملكة بين أولاده وإخوته وغيرهم من فروع الأسرة ، فجعل السلطنة العامة لابنه الأفضل أكبر أولاده وجعل له دمشق وجنوبي سوريا ، وجعل مصر لابنه العزيز ، وجلب لابنه الظاهر ، وكانت العراق وديار بكر لأخيه العادل ، وتولى أفراد من أسرته جماء وحمص وبلبك واليمن ، ولكن سرعان ما دب الشقاق بين هؤلاء بعضهم البعض مما أضعف الدولة وقلل نشاطها .

ولقد كانت الدولة مقسمة على هذا النحو في عهد صلاح الدين ، بمعنى أنه وليّ إخوته وأفراد أسرته أجل الولايات وأعظم الأعمال كما قلنا من قبل ، ولكنّ كلا من هؤلاء كان تابعا له يعلن تبعيته ، ولا يقوى أن يبدى أى اتجاه استقلالى ، ولعل صلاح الدين كان يعتقد أن ولاء هؤلاء سيظل للسلطان الأفضل ، وسيبقون جميعا حوله خاضعين له مكونين معه كتلة إسلامية قوية ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق ، وحلّ محلّ الوثام خصام ، إذ لم يكن الأفضل يشبه صلاح الدين في مواهبه العسكرية والإدارية أو يقرب منه .

وعلى العموم فقد رجحت كفة الملك العادل على منافسيه ، فضمّت تحت سلطانه أكثر بقاع مملكة صلاح الدين ، فقد ضم دمشق سنة ٥٥٩٢ من الملك الأفضل ، كما استطاع أن يستولى على مصر سنة ٥٥٩٦ من المنصور بن العزيز ، ولم تبق من بلاد الشام إلا حلب التى ظلت خاضعة لاذرية صلاح الدين حتى سنة ٦٥٨ هـ ، وحوالى سنة ٥٩٧ هـ استولى على شمال العراق وعين من أولاده من حكمها باسمه ، ومات العادل سنة ٦١٥ هـ ، وتولى أبناؤه السلطان في مملكته في فروع متعددة على نحو ما تم بعد موت صلاح الدين ، غير أن السلطان ظل في أبناء العادل بهذه

البقاء حتى سقوط الدولة الأيوبية ، ولم يتحول عنهم كما تحول عن أبناء صلاح الدين ، مع ملاحظة أن الناصر يوسف من سلالة صلاح الدين وهو ملك حلب ضم إليه دمشق سنة ٦٤٨ هـ عند سقوط الأيوبيين وقيام دولة المماليك بمصر ، وقد استردها المماليك فيما بعد ؛ أما حماه وحمص واليمن ، فقد كانت تابعة للأمراء من الأسرة الأيوبية ينحدرون من أبناء عمومة صلاح الدين .

وبسقوط الأفضل سنة ٥٩٢ هـ عادت مصر لتكون المركز الرئيسى لسلطان الأيوبيين بزعامة أولاد الملك العادل الذين استطاع أكثرهم أن يمدوا نفوذهم الى سوريا ، وقد عاشت سلطة الأيوبيين بمصر حتى سنة ٦٤٨ هـ ثم أفسحت الطريق للمماليك الذين كان استراهم الملك المصالح نجم الدين أيوب وجعلهم خاصته وبطانته ، وقضى على غالبية أمرائه وعين المماليك محلهم ، وكان هؤلاء يظهرون غاية الاخلاص لسيدهم ، ولكنهم بعد موته لم يستطيعوا أن يظلوا على ولائهم لابنه توران شاه ، واتخذوا جانب شجرة الدر زوجة أبيه. والتي تنحدر من المعين الذى انحدروا منه وتآمروا معها على توران شاه وقتلوه ، وبدأ بذلك سلطانهم سنة ٦٤٨ هـ .

ولما استبد المماليك بمصر ثبتت دمشق حاباً مدة عشر سنوات حتى اكتسحها المغول سنة ٦٥٨ فى زحفهم المدمر ، وبعد معركة عين جالوت عاد سلطان المماليك الى دمشق وحلب ، ومن سلاطين « حماة » الأيوبيين ينبغى أن نذكر المؤرخ الكبير « أبو الفدا » الذى حكم من سنة ٧١٠ هـ الى سنة ٧٢٣ هـ ، أما سلطان الأيوبيين بالحجاز فقد انتقل سنة ٦٢٥ هـ الى الدولة الرسولية باليمن .

وكانت الحروب الصليبية أهم الأحداث التى شغلت العهد الأيوبي ، ولذلك نكتفى الآن بهذا القدر من الكلام عن صلاح الدين وخلفائه ، وسيمتد لهم الحديث مرة أخرى عند الكلام عن الحروب الصليبية .

والقوائم الآتية تبين أهم ملوك الأيوبيين في البقاع المختلفة :

صلاح الدين ٥٦٤ - ٥٨٩

وأولاد صلاح الدين

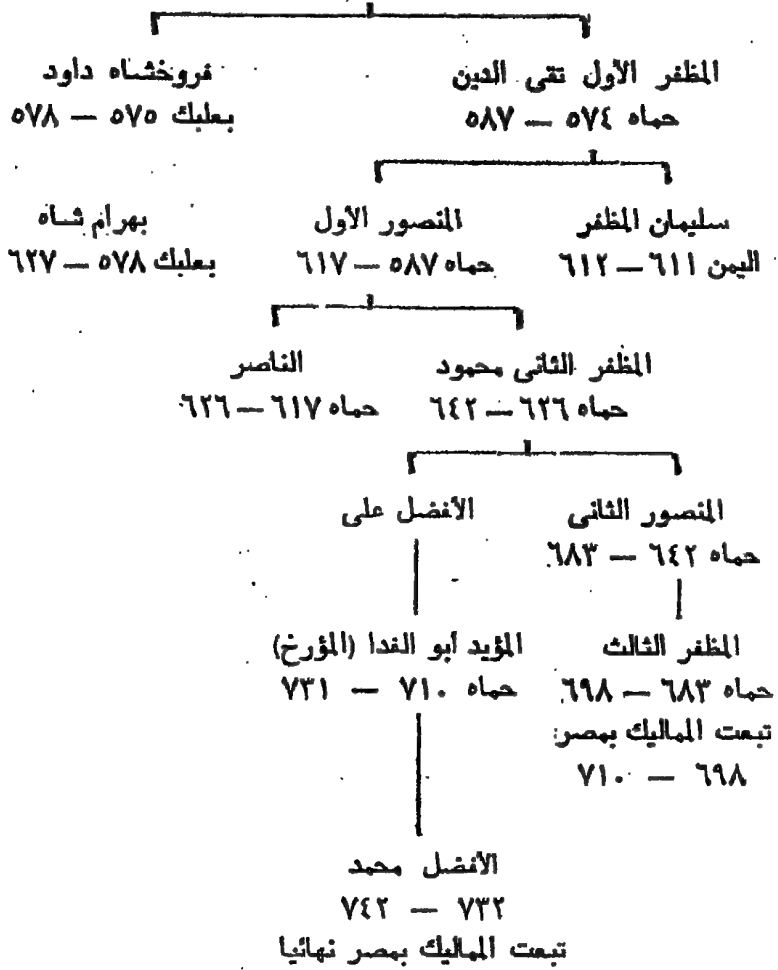
| الأفضل بدمشق | العزیز ببصر | الظاهر ب حلب |
|--|--|--|
| ٥٨٢ - ٥٩٢ | ٥٨٩ - ٥٩٥ | ٥٨٢ - ٦١٣ |
| كانت معه في حياة أبيه ، ثم عزله العادل واستولى على دمشق سنة ٥٩٢ (توفي الأفضل سنة ٦٢٢) | منصور ٥٩٥ - ٥٩٦ عزله العادل واستولى على مصر سنة ٥٩٦ | (كانت معه في حياة أبيه وبعده) العزیز بن الظاهر ٦١٣ - ٦٣٤ الناصر يوسف (*) ٦٣٤ - ٦٥٨ |
| (*) استولى أيضا على دمشق سنة ٦٤٨ عقب قيام دولة المماليك بمصر كما سبق القول . | | |

العادل : الموصل ٥٨٩ - دمشق ٥٩٢ - مصر ٥٩٦ - توفي سنة ٦١٥
أهم أولاد العادل

| الأشرف موسى | المعظم عيسى | الصالح اسماعيل | الكاظم محمد |
|--|-------------------------------|----------------|---------------------------|
| ٦٠٧ - الموصل (قبل وفاة العادل) ثم بعد وفاته | دمشق ٦١٥ حتى وفاته سنة ٦٢٤ | دمشق ٦٣٧ - ٦٤٣ | مصر ٦١٥ - ٦٣٥ دمشق ٦٣٥ |
| ضم حمص سنة ٦١٧ الناصر داود ضم دمشق سنة ٦٢٦ دمشق ٦٢٤ - ٦٢٦ (توفي سنة ٦٣٥) عزله الأشرف موسى وضم دمشق | | | |

| | | |
|-------------------------------|--------------------------------------|------------------------|
| الصالح نجم الدين أيوب | المسعود يوسف | العادل الثاني |
| مصر ٦٣٧ | اليمن ٦١٢ - ٦٢٥ | مصر ودمشق ٦٣٧ - ٦٣٥ |
| دمشق ٦٤٣ حتى وفاته سنة ٦٤٧ | (أخذها منه الصالح اسماعيل بن العادل) | |
| المعظم توران شاه | | |
| مصر ودمشق ٦٤٧ - ٦٤٨ | | |
| الملك الأشرف مظفر الدين موسى | | |
| مصر ودمشق ٦٤٨ (عزله يوسف) | | |

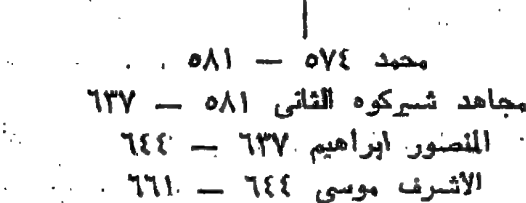
(اولاد شاهنشاه اخي صلاح الدين)



سيف الاسلام (اخو صلاح الدين) اليمن ٥٧٧ - ٥٩٣



اولاد اسد الدين شيركوه (عم صلاح الدين) في حمص



الأقطار التي حكمها الأيوبيون

| | |
|-----------|-----------------------|
| ٥٦٤ | مصر : صلاح الدين |
| ٥٨٩ | العزیز عثمان |
| ٥٩٥ | المنصور محمد |
| ٥٩٦ | العاذل سيف الدين |
| ٦١٥ | الکامل محمد |
| ٦٣٥ | العاذل الثاني |
| ٦٣٧ | الصالح نجم الدين أيوب |
| ٦٤٦ — ٦٤٨ | المعظم توران شاه |

وقد حكم السلاطين الخمس الأخيرون سوريا أيضا — وانتقل السلطان بغداد توران شاه اسميا الى الملك الأشرف مظهر الدين موسى وعمليا الى شجرة الدر ، ثم عزل ابيك الملك الأشرف وتزوج من شجرة الدر ، وانتقل السلطان الى المماليك .

| | |
|----------------------------------|------------------------|
| ٥٨٢ | دمشق : الملك الأفضل |
| ٥٩٢ (ثم أخذ مصر سنة ٥٩٦) | العاذل سيف الدين |
| ٥١٦ | المعظم شرف الدين عيسى |
| ٦٢٤ | الناصر صلاح الدين داود |
| ٦٢٦ (كان حاكما للعراق سنة ٦٠٧) | الأشرف موسى |
| ٦٣٥ | الصالح إسماعيل |
| ٦٣٥ (سلطان مصر) | الکامل |
| ٦٣٥ (سلطان مصر) | العاذل الثاني |
| ٦٣٧ (سلطان مصر) | الصالح نجم الدين أيوب |
| ٦٣٧ (استعاد السلطة) | الصالح إسماعيل |

الصالح نجم الدين أيوب ٦٤٣ (سلطان مصر مرة أخرى)
توران شاه ٦٤٧ (سلطان مصر)
الناصر صلاح الدين يوسف ٦٤٨ (سلطان حلب)
إلى ٦٥٨
(اكتسحها المغول ثم استعادها المماليك)

حلب : الظاهر غياث الدين ٥٨٢
العزیز غياث الدين ٦١٣
الناصر صلاح الدين يوسف ٦٣٤
(ضم دمشق سنة ٦٤٨ كما سبق)
إلى ٦٥٨
(اكتسحها المغول ثم استعادها المماليك)

الموصل : الأوحى نجم الدين أيوب ٥٩٧
الأشرف موسى ٦٠٧ (ضم دمشق)
المظفر غازي ٦٢٨
إلى ٦٤٣
(اكتسحها المغول)

حماء : المظفر الأول تقي الدين نمر ٥٧٤
المصور الأول ٥٨٧
الناصر كلج أرسلان ٦١٧
المظفر الثاني ٦٢٦
المصور الثاني ٦٤٢
المظفر الثالث ٦٨٣
(سلاطين المماليك) ٦٩٨

المؤيد أبو الفدا ٧١٠ (المؤرخ الشهير ، استقل بحماه عن المماليك)
الأفضل ٧٣٢ — ٧٤٢
(عادت السلطة للمماليك)

٥٧٤ حفص : محمد بن شيركوه

٥٨١ مجاهد شيركوه

٦٣٧ المنصور ابراهيم

٦٤٤ الأشرف موسى

إلى ٦٦١

(آلت السلطة للماليك)

٥٦٩ الحجاز : المعظم توران شاه بن أيوب

٥٧٧ سيف الاسلام بن أيوب

٥٩٣ معز الدين إسماعيل

٥٩٨ الناصر أيوب

٦١١ المظفر سليمان

٦١٢ إلى ٦٢٥ مسعود صلاح الدين يوسف

(آلت السلطة لبني رسول باليمن الذين بدعوا سلطانهم نوابا عن الأيوبيين)

كلمة ختامية

عن الدولة الأيوبية

في هذه الكلمة نجيب عن سؤالين مهمين :

١ — هل اقتصر نشاط الأيوبيين على الناحية العسكرية أو كان لهم مجال في الناحية الحضارية ؟

٢ — هل كان صلاح الدين في نضاله يسعى لتكوين مجد شخصي له ؟
في الإجابة عن السؤال الأول نقرر أن الناحية العسكرية لم تشغل الأيوبيين عن النشاط الحضاري ، وقد أشرنا من قبل إلى أنهم ساروا بمصر ودمشق سيرة نور الدين في فتح المدارس وذلك ليوجهوا عقول الناس إلى التفكير السني بعد أن عاشت مصر ودمشق زهاء قرنين في إطار التفكير الشيعي ، وكانت مدارس الأيوبيين كثيرة العدد بحيث تمكنت من تحقيق أهدافها في وقت قصير ، ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهلين حتى الخدم أسهموا في إنشاء المدارس ورعاية العلم (١) .

وبالإضافة إلى المدارس حدث تطور حضاري في مصر وسوريا نتيجة التفاعل بين المسلمين والصليبيين ، وسندرس هذا التفاعل بشيء من التفصيل عقب الحديث عن الحروب الصليبية .

وبخدم صلاح الدين فن العمارة خدمات عظيمة في القدس والقاهرة ، فأما في القدس فقد كان له فضل تجديد المسجد الأقصى الذي اتفذه الصليبيون قصرا لهم ، وترمينه بالفسيفساء والرخام ، ليس هذا فقط بل لقد أقام فيه منبرا نفيسا لا يزال باقيا حتى اليوم .

أما في القاهرة فقد شيد القلعة المشاهقة المعروفة باسمه ، وبدأ في إنشاء السور الذي يحصون القاهرة من كل هجوم قد تتعرض إليه .

(١) انظر تاريخ التربية الإسلامية للمؤلف ص ١٢١ من الطبعة الثامنة .

وللإجابة عن السؤال الثانى نقرر أننا لا نستبعد على أى قائد أو زعيم أن يكون له طموحه الشخصى أو آماله الخاصة ، ولكن براءة الزعيم تبدو لو استطاع أن يوفق بين هذا الطموح وبين آمال الشعب الذى يتزعمه . وقد كان صلاح الدين يسير فى هذا الاتجاه ؛ فقد كان العالم العربى يميل الى الوحدة ، إذ أن التشكك سبب الكارثة والاحتلال الصليبي ، وكان العالم الاسلامى يميل الى التكتل ليقف فى وجه التكتل الصليبي ، وليستعيد الأرض السليبية ، وقد وجد العالم العربى والاسلامى فى صلاح الدين خير معبر عن هذه الآمال .

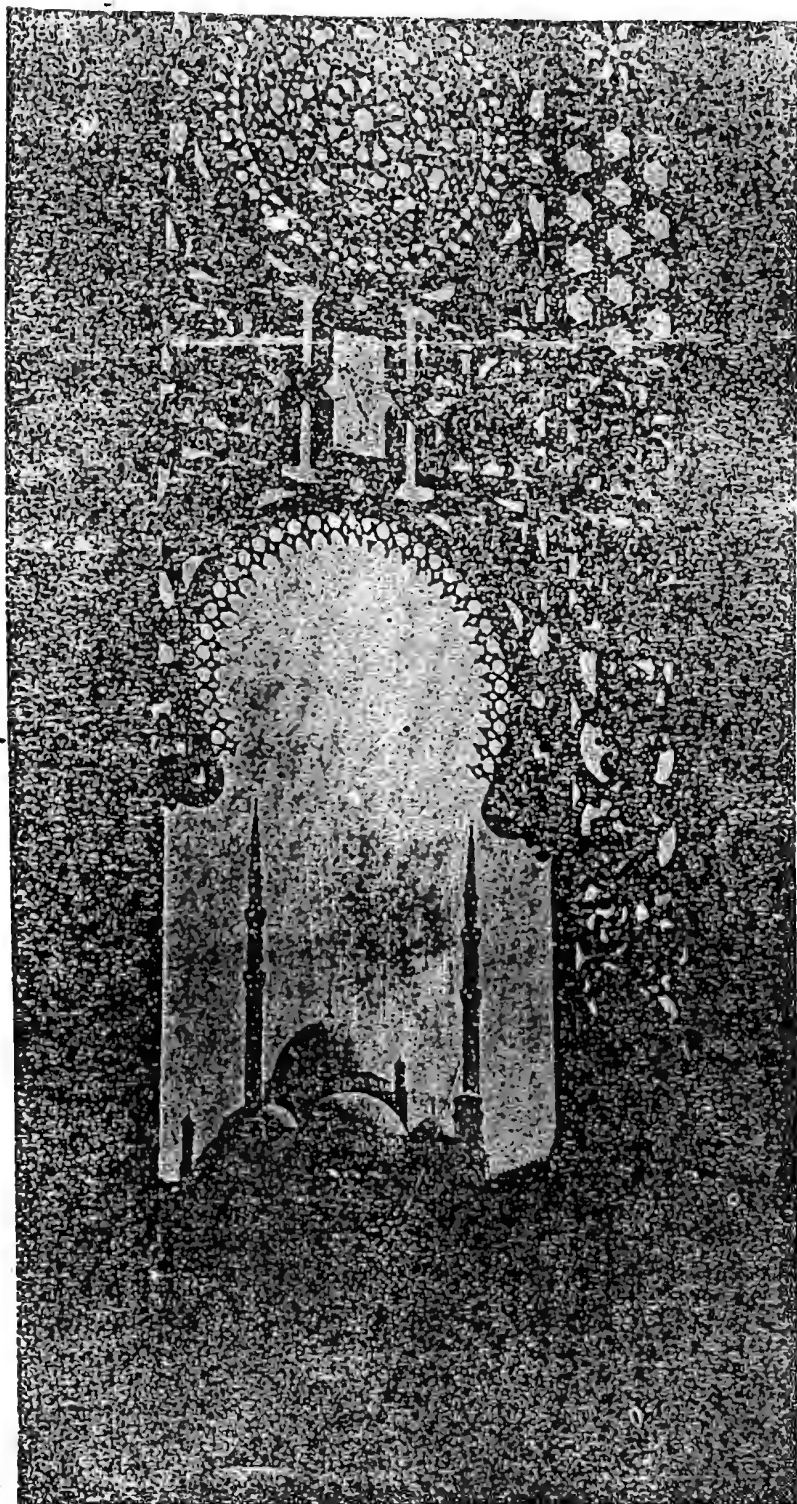


آثار مصر من العهد الأيوبي :

قلعت آثار الدولة الأيوبية لانشغالها بالحروب الصليبية من جانب ، ولاهتمامها بنقل البلاد الى المذهب السنى من جانب آخر ، وأهم آثار مصر فى هذا العهد قلعة صلاح الدين الأيوبي ، وهى آية فى الدقة والاعتقان ، وقد دخل عليها كثير من التغيير .

ومن آثارها كذلك مشهد الإمام الشافعى الذى مات بمصر سنة ٥٠٤هـ ثم بنى مشهده فى عهد الدولة الأيوبية ، ولعل ذلك كان جزءا من نشر المذهب السنى والحقاوة بالعلماء السنيين . وقد بنى الأيوبيون مجموعة كبيرة من المدارس التى كانت امتدادا لمدارس نور الدين زنكى بالشام ، تلك التى كانت بالتالى امتدادا لمدارس نظام الملك الوزير السلجوقى بالعراق وإيران ولا تزال بمصر آثار وامتدادات لهذه المدارس الأيوبية .

أما الآثار المعنوية لصلاح الدين فهى تلك التى ترتبط بزهده فى المال العام ، وبطولاته التى دمّرت الصليبيين ، وتلك آثار لن تنساها الأجيال الإسلامية ، وسيظل الباحثون المسلمون يتمنون أن يحاكيها القادة والرؤساء على مر الأجيال إن أرادوا أن يسطروا سيرتهم ، وأن يضمنوا رضاء الله ورضاء الأجيال منهم . إنها آثار شاهقة تتضاءل أمامها كل الآثار .



قلعة صلاح الدين الأيوبي

الممالك

(٦٤٨-٩٢٣=١٢٥٠-١٥١٧ م)

المالِك

نحن الآن أمام عصر لا يزال يكتنفه الغموض ، وبالتالي يحتاج إلى دراسات جديدة تبعث فيه الضوء ، وسنشير فيما يلي نقاطا مهمة ترتبط بالماليك ونحوها ، تجلية غموضها :

مملوك أو رقيق ؟ ؟

ماليك جمع مملوك وهو شخص اشترى بالمال ، وحقيقة اشترى بعض الخلفاء والسلطين أناسا بالمال ، ولكن السؤال المهم هو : هل هؤلاء كانوا حقيقة ماليك وأرقاء يبيح الشرع بيعهم وشراءهم ؟

ويذكرون ان العز بن عبد السلام امتنع عن المبيعة للظاهر بيبرس لأن بيبرس رقيق مملوك للأمير علاء الدين البندقدار ، ومن ثم لا تجوز ولايته ، ولم يبايع له العز بن عبد السلام حتى ثبت له أن البندقدار باع بيبرس الى الملك الصالح نجم الدين الذي اعتقه بعد ذلك .

والذي نحب ان نقرره أن هؤلاء ليسوا بماليك ولا أرقاء ، وأنهم أحرار تماما ، وأن بيعهم باطل ، لقد كانوا جميعا صفقات غير مشروعة ، كان الأب يبيع ابنه ليندفعه الى المجد في القصور وهو ما يسمى « الرق الصناعى » وكان الأقوياء والنخاسون يخطفون الأطفال ويستولون عليهم عنوة ، ثم يعرضونهم للبيع ، والاسلام يرفض هاتين الوسيلتين ولا يقبل أيا منهما لتكون مصدرا للرق .

فالرق في الإسلام يجىء عن طريق الحرب الدينية التى يقصد بها الجهاد فى سبيل الله لرد اعتداء يقوم به غير المسلمين على المسلمين ، بشرط ألا يكون الأسير وقت أسره مسلما ولو كان فى جيش الأعداء ، وبشرط أن يضرب الإمام عليه الرق (١) .

(١) انظر بموضوع « الرق وموقف الاسلام منه » بكتاب الاسلام للمؤلف

ذلك وحده هو مصدر الرق في الإسلام ، مع ملاحظة أن الرسول لم يسترق حرًا قط (١) ومع ملاحظة الآية الكريمة التي توضح أنه بعد الحرب والأسر يكون المن على الأسرى أو إطلاقهم نظير فدية ، قال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فعربوا فحرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منكم بعد وإما فداء » (٢) .

فإذا جئنا لتطبيق هذه المبادئ الإسلامية يتضح لنا بشكل لا يوجد معه الشك أن هؤلاء ليسوا أرقاء ولا ممالك ، ونسوق فيما يلي بعض الاقتباسات التاريخية التي توضح حقيقة الأمر .

يذكر المقرئ (٣) أن الأطفال الذين كانوا يعرضون للبيع كانوا ينتمون إلى قبائل بدائية بسيطة جاهلة ، تعيش في فقر وشظف من العيش ، حتى كان الآباء يضطرون لبيع أبنائهم للتخلص من تحمل تبعاتهم ، ولكي يضمنوا لهم مستقبلًا أفضل مما ينتظرهم في بلادهم .

وهكذا كانت تتم هذه الصفقة تخلصًا من نفقات الأولاد وعجزًا عن أداء الالتزامات نحوهم ، أو كانت وسيلة لدى الآباء ، ليدفعوا أبناءهم إلى القصور والمجد وهو في الحالتين « رق صناعي » كما أسميناه في مكان آخر (٤) ، وليس رقا يعترف به الإسلام ، ولا يمكن في مجال إسلامي أن ينتقل الإنسان من الحرية للرق عن هذا الطريق .

وهناك أطفال اختطفوا من ديارهم وأسرههم ، يذكر ابن تغري بردي (٥) أن حكام بعض الولايات وبخاصة السامانيون فيما وراء

(١) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٢) محمد الآية الرابعة .

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٥ تحقيق الدكتور زياده .

(٤) انظر بحثًا عن « الرق الصناعي » في كتاب « الإسلام » للمؤلف .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١ ، ٣ .

النهر دأبوا على إرسال بعض الممالك هدايا للخلفاء ، أو جزءا من الخراج المفروض على هذه المناطق التي لم تكن دخلت الاسلام بعد . ولا يعرف الاسلام خراجا يشمل « الانسان » ، فالخراج والجزية مقادير مالية تدفع تبعا لقوانين دقيقة (١) .

وفي اسبانيا كان يباع للامراء صبيان خطفوا أيضا بهذا يسمى « السبى » فقد دأب الجرمان على سبى الصبيان والنساء من بلغاريا وألبانيا ويوغسلافيا ... وكانوا يبيعونهم للمسلمين بالأندلس ، وقد أطلق المسلمون عليهم اسم « الصقالبة » (٢) .

ويقص لنا التاريخ الافريقى (٣) أن بعض الزعماء الأفارقة وبعض النخاسين كانوا يحترفون اختطاف الأطفال ، أو يأخذونهم فدية لبعض الأمور ، أو يرغمون الآباء على تسليم بعض أطفالهم ليترك لهم باقى الأطفال على نحو ما كان يتبع فى السخرة ثم يباع هؤلاء فى سوق النخاسة للملوك والسلاطين والقادرين على العموم ، ومن الأطفال الأفارقة الذين اختطفوا عنوة تكوّن الملايين من زنوج الولايات المتحدة فيما بعد ، ومنهم كانت تتكون بعض فرق الجيش بالبلاد الاسلامية .

وإذا كانت بلاد تركستان وبلاد ما وراء النهر والديلم والخزر والسودان والنوبة ... هى المراكز الرئيسية لجلب الرقيق . فى القرن الثالث الهجرى والقرون التالية ، فإن من المؤكد أن هذه البلاد لم تكن فيها حروب شرعية تبيح الاسترقاق .

ثم — وهذا شئ مؤكد أيضا — أن الممالك كانوا يجلبون الى مصر والى غيرها وهم فى أعمار الزهور ، فيذكر المقرئى (٤) أن الرسم كان

(١) انظر الاقتصاد فى الفكر الاسلامى للمؤلف .

(٢) دكتور احمد الضاوى : الصقالبة فى اسبانيا ص ١٢ — ١٣ .

(٣) انظر الجزء السادس من هذه الموسوعة .

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢١٣ .

ألا يجلب التجار إلا الممالك الصغار ، ويذكر ابن عباس (١) أن الأشرف
برسبای جلبه بعض التجار إلى البلاد الشامية فاشتراه الأمير دقمق مع
جملة ممالك صغار ، •

ونتيجة هذه الدراسة فإن من نسميهم ممالك هم في الحقيقة أحرار
ولا يقبل الإسلام أن نزج بهم في مجال الرق ، ولنتذكر قوله عمر بن
الخطاب : كيف استبعدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، ولنتذكر
تصرف عمر عندما اقتحم الجيش الإسلامي بلاد فارس وبلاد الشام
ومصر ، فقد رفض الخليفة أن يَعدَّ المغلوبين أرقاء ، وتركهم
أحرارا على أن يدفعوا الجزية إلا إذا دخلوا الإسلام فيكون لهم ما
للمسلمين وعليهم ما على المسلمين •

إن الإسلام يسمى إلى الحرية ، وحرام أن يتجه المسلمون للرق
والاسترقاق ، وقد عاث هذا التصرف المقيت في العالم الإسلامي اندفاعا
إلى ما كان معمولاً به في البلاد غير الإسلامية ، ومعنى هذا أن المسلمين
اتجهوا في هذا الطريق وجهة غير المسلمين ، وهذا مالا يقره الإسلام •

وكان الدافع على رواج هذه التجارة أنها - كما يقول ابن حوقل (٢)
كانت مصدر اليسر والغنى للنخاسين الذين كانوا يتخذون من خوارزم
وسمرقند وغيرها مراكز لهذه التجارة ، ومن الدوافع أيضا أن الملوك
والسلاطين والأغنياء ، وجدوا بغيتهم في هؤلاء الأرقاء ، فراعب الخدمة
وجدوا في صبيانهم ، وراعب الحراسة وجدوا فيهم عندما يقدمون
للشباب ، والمتجه للعاطفة رأى في الفتيات الرقيقسات تحقيق أمنيته ،
والاسترقاق كله بهذه الطرق حرام وليس من الإسلام في شيء •

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ١٥ •

(٢) صورة الأرض ص ٤٨١ - ٤٨٢ •

فلنقلها الآن كلمة قوية ؛ أن الممالك الذين مستكلم عنهم هنا لم
يكونوا من وجهة نظر الشرع الاسلامى أرقاء ، حتى اذا جهلوا ذلك أو
نقل عنه علماء ذلك الزمان .

مصريون ؟ ؟

موضوع آخر نظرحه هنا هو جنسية هؤلاء الممالك ، فهم قد جىء
بهم من أمكنة مختلفة كما رأينا ، وبذلك كانوا ينتمون الى جنسيات متعددة ،
ولكن يجب أن يلاحظ ما يلى :

أولا - ينتمى هؤلاء الى مناطق اسلامية غالبا ، والعالم الاسلامى عالم
واحد ، والمسلمون أمة واحدة قال تعالى « ان هذه امتكم أمة واحدة »
وكان العالم الاسلامى فى القرون الأولى لا تفصل حدود بين أجزائه ،
وكان العالم ينتقل بين ربوعه من حلقة علمية بقطر الى حلقة أخرى بقطر
آخر ، وكذلك كان الطالب والتاجر والعامل ينتقل دون حواجز ، ولم يكن
انتقال المسلم من بلاد فارس أو ما وراء النهر الى مصر الا كالاتقال من
أسيوط للقاهرة أو من حلب الى دمشق أو نحو ذلك ولذلك فإن المؤرخين
يسمون ممالك مصر « الأمراء المصريون » (١) .

وكانوا هم أيضا يسمون أنفسهم « مصريين » يذكر ابن حجر (٢)
أن الأمير تنكر نائب الشام قال ذات يوم لأحد موظفى ديوان الانشاء
بدمشق : « ما فى دمشق مصرى إلا أنا وأنت » وكانوا كذلك يفتخرون
بالانتساب لمصر ، ففى مراسلات التهديد بين تيمورلنك وبرقوق قال برقوق
نحن سهامنا عربية ، وسيوفنا يمنية ، وقلوبنا مصرية (٣) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج١٦ ص ٢٠٧ السخاوى :
الضوء اللامع ج٣ ص ٤٤ الجبرئى حوادث سنة ١٢٣٠ .
(٢) الدرر الكامنة ج١ ص ٥٠٤ .
(٣) النجوم الزاهرة ج١٢ ص ٥١ .

ثانياً — لم يأت هؤلاء الى مصر غزاة محتلين كالفرس والروم والانجليز ، وانما جاءوا أفراداً ، وكانوا في الغالب في سن الصبا ونشأوا لا يعرفون اهم وطننا الا مصر ، وكانوا — عندما آل لهم السلطان — يحكمون مصر من الداخل أى لا يخضعون لتعليمات من الخارج ، كما كانوا يحكمونها لصالحها ، فلا يربون ثراءها لموطن آخر .

ثالثاً — ارتبط هؤلاء بمصر ارتباطاً وثيقاً لدرجة أن بعضهم وقع في أسر تيمورلنك عندما هاجم الشام وبقي هؤلاء مدة مع تيمورلنك الذى عنى بهم ووكّل لهم وظائف ممتازة ، ومع هذا فقد تسللوا عندما استطاعوا ، وعادوا الى مصر (١) .

رابعاً — وصل المماليك الى درجة عالية من القوة والنفوذ ، ولكن لم يحاول أى منهم أن يعود الى بلده على الرغم من معرفته لمصدر أسرته ، بل إن الكثيرين منهم أرسلوا يطلبون آباءهم وأهليهم للاستقرار بمصر (٢) .

خامساً — اتجه الباحثون المصريون الى اعتبار المماليك شخصيات عربية إسلامية فشملت سلسلة أعلام العرب عدداً منهم مثل العدد ٢٨ عن الناصر محمد بن قلاوون والعدد ٥٢ عن الأشرف قنصوه الغورى .

سادساً — تمت زيجات كثيرة بين المماليك وبنات العلماء والمفكرين مما يدل على اندماجهم بالمصريين في حالات كثيرة (٣) ، وكان الذين يزول سلطانهم السياسى من المماليك ينفضون في طيات الشعب تماماً .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٥٢٦ — ٥٢٧ .

(٢) المرجع السابق ج ١١ ص ١٨٣ والسخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٨٤

(٣) انظر نماذج في « المماليك المصريون الذين لمعوا في ميدان الفكر »

ص ١٠٠ رسالة الدكتوراه للمرحوم الدكتور محمد عامر باشرافى .

سابعاً — عائلات كثيرة وقبائل متعددة وفدت الى مصر على مر التاريخ من بلاد شتى ، ثم ذاب هؤلاء وأولئك في الشعب المصرى ، وأصبحوا جزءاً منه تماماً ، ولم يبق مما يربطهم بجذورهم البعيدة الا القاب تنمى عن هذه الجذور وعن الأقطار التى وفدوا منها ، ولا يلتفت الناس عادة الى هذه الأتساب الا عند التعمق والتخصص ، ومن هذه الألقاب الجبرتنى والعلبى واليمنى والحجازى والنجدى والشامى والتلمسانى والمغربى ، وكثير من المصريين لهم جذور تركية أو عربية أو سودانية وإن لم يظهر فى اسمائهم لقب ينمى عن ذلك ، وقد حدث العكس أيضاً فبعض المصريين رحلوا الى أقطار أخرى واستقروا بها ومعهم لقب « المصرى » الذى تراه بوضوح فى السودان والعراق .

وعلى هذا فالطولونيون والافطسيونيون والفاطميون والأيوبيون ومن نسميهم المماليك وأسرة محمد على مصريون مائة فى المائة ، وقد نقل الفاطميون معهم جثث آبائهم وأجدادهم عندما جاءوا من تونس الى مصر ، وكتب الملك السابق فاروق وصيته أن يدفن بتراب مصر بعد أن نفى من البلاد .

وقد يكون بعض هؤلاء ضعيفاً أو حتى خائناً ، ولكن هذا شئ آخر ، فالخيانة تحدث أحياناً فى كل البلاد من المواطن الأصلى أو الوافد ، وهى نقص فى التربية والخلق ، وعندما تكتمل التربية والخلق فالإنسان لا يخون وطنه ولا أوطان الآخرين ، ولا يرتكب هذا الانحراف .

وقد اندفع أنور السادات فى يوم من الأيام فقال إن عبد الناصر كان أول حاكم مصرى لمصر منذ حوالى ألفى عام ، وذلك ادعاء باطل ، كان نوعاً من الملق من جانب ، وكان من جانب آخر ليثبت أنه هو نفسه ثانى حاكم لمصر من المصريين ، وذلك قول لا يتفق مع العلم ولا مع التاريخ وبخاصة إذا لاحظنا أن بعض الأسر المالكة فى أوروبا وافدة من أقطار أخرى .

ديكتاتورية المماليك :

في إحدى المحاضرات العامة التي ألقاها استاذ تاريخ قبال : إن المماليك كانوا يحكمون مصر حكما دكتاتوريا ، وعلى الرغم من نفوذ العلماء الذي كان واضحا طيلة عصر المماليك ، فاننى سألت المحاضر سؤالاً هادئاً هو : كيف كانت نظم الحكم في الأقطار الأخرى خلال عصر المماليك ؟ وهل كانت الديمقراطية سائدة في تلك الأقطار ؟ وذكرت المحاضر بأسماء بعض ملوك الانجليز في القرن الثالث عشر مثل الملك هنرى الثانى وابنه الملك جون حيث خلع الابن أباه بمؤامرة خائنة ، وتسلب على الأمراء ورجال الكنيسة .. ومثل هذا حدث في فرنسا وألمانيا .

ما أشد الخطأ عندما نحكم على عصر سابق بقيم عصر حاضر ، لقد خلّق الاسلام الشورى وجعلها مبدأ من مبادئ الحكم ، ولكن المسلمين تخلوا كثيرا من المبادئ الاسلامية في عصور الظلام ، وطغت عليهم موجة العصر الذي عاشوه ، لقد كانت الديكتاتورية هي سياسة ذلك العصر للأسف في كل البلاد والأوطان ، أو على الأقل في أكثرها .

المهام التي قام بها المماليك :

في مطلع الإسلام كان العرب مسيطرين على أمور الشرطة والحرب ، ولم يكونوا يسمحون للموالى بشيء من ذلك ، فلما بدأ الرقيق يظهر كان عملهم يتجه للخدمة ، وقد ظل هذا حتى سقوط الدولة الأموية ، وفي مطلع الخلافة العباسية ظهر موالى الترك والروم والبربر ، وكانوا — وبخاصة في عهد المهدي والرشيد — بطانة للخلفاء ، فملئوا بهم المواكب في الأعياد وأصبحوا زينة في أيام السلم ، واكتافا العصبية الخليفة (١) ثم أسندت لهم حراسة الخليفة وضمان سلامته .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٧٠ .

فلما جاء المعتصم تغير الأمر ، فلقد واجه الخليفة حروبا كثيرة في الداخل والخارج واجه الزط ، وبابك الخرمي ، والروم ، فاحتاج الى تقوية جيشه ، ولم يكن يثق بالعرب مخافة أن يكون اتجاهم علويا ، ولم يكن يثق بالفرس لأنهم حاولوا الاستيلاء على السلطة من المأمون قبل أن يعود الى بغداد من مرو ، وكان الذي تولى ذلك الفضل بن سهل وأخوه الحسن ، ولهذا رأى ضرورة تقوية جيشه بعناصر عرفت بالشجاعة والبطولة من غير العرب والفرس ، فلجأ الى الأتراك وكون منهم جيشه .

وبدأ بذلك تدفق الأتراك ونظائهم ليكونوا عناصر الجيوش في كثير من البلدان ، وبدأ ظهورهم في مصر في عهد الطولونيين وفي عهد الاخشيديين والفاطميين والأيوبيين ، وكانت جنسياتهم متعددة .

وهنا نعود الى مصر لنسأل سؤالا مهما هو : لماذا لم يتكون جيش من الشباب المصرى عندما بدأت الحركة الاستقلالية بمصر ؟

والاجابة أن التاريخ القديم والحديث يذكر أنه كانت هناك جماعات تستأجر للدفاع والحرب ، سُمّيت في الماضى « أحابيش » أو تجمّعات عسكرية ، وسُمّيت في الحاضر « مرتزقة » ولم يكن هناك في العصور الوسطى من ضرر في الاعتماد على هؤلاء في شئون الحرب لتخصصهم وبطولاتهم ، فكما تشتري الدول الآن الآلات الحربية ، كانت الدول تستأجر الرجال .

أما أهل البلاد فكانوا يعملون في التنمية الاقتصادية والثقافية ، فكانت شئون الزراعة والتجارة والصناعة تشغلهم ، كما كانوا يعملون في ميدان الفكر والبحوث والعلم .

ومع هذا فاننا نجد أن خمارويه عندما وجد من بين المصريين من لا يشغله العمل الاقتصادي أو الثقافي ، تقدم وجمع هؤلاء وكون منهم

فرقة مهمة من فرق الجيش سماها « المختارة » وكان أعضاؤها معروفين بالشجاعة وشدة البأس وعظم الأجسام (١) ومثل هذا حدث في مختلف العصور ، وبخاصة في جيوش صلاح الدين وقطز وبيرس ومحمد علي ، فكان المصريون يمثلون نسبة كبيرة في هذه الجيوش وأحياناً النسبة العظمى .

عيوب :

إن حديثنا السابق عن الممالك لا يعنى الانحياز لهم أو خلوهم من العيوب ، فقد كانت فيهم عيوب واضحة مصدرها أنهم جاءوا من مناطق مختلفة ، وبذلك كونوا جماعات كثيراً ما ظهر التنافر فيها ، وطالما نشأت عن التنافر حروب وصراعات .

ومن عيوبهم أنهم كانوا يشعرون عن الشعب ، عند استقدامهم ويعيشون في معسكرات خاصة ، مما جعلهم يهسون بالانزالية من جانب ، وتباعدون من جانب آخر لارتباطهم بسلاطين البلاد ارتباطاً وثيقاً .

وقد ذكرنا من قبل أن بينهم كان صفة باطلية من وجهة النظر الإسلامية ، ولكن هذا التفكير لم يصل إلى عقولهم ، وربما لم يتعرف آنذاك ، ومن هنا فكان إحساسهم أنهم رقيقوا بالمال ، وقد تكون عند الكثيرين منهم عقدة نقص لهذا السبب ، وكان لها رد فعل عنيف في تطلعاتهم للسيادة .

ومن عيوبهم أن القوة كانت المسيطرة على مجتمعهم ، ولا سيطرة للحكمة أو للمهبة غالباً ، وعلى هذا فهم كانوا مستعدين للخضوع للقوة كما فعلوا مع المعتصم والموفق والمعتضد ، وابن طولون ، كما كانوا مستعدين أن يخضعوا الآخرين لقوتهم إذا شاهدوا في الآخرين جوانب ضعف أو تخاذل ، ومن هنا كان المقلق طابع الحياة في العصر المملوكي ،

(١) ابن تيمية بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٩ .

فإذا لم يكن السلطان قويا مهيب الجانب فإنه يكون عرضة للشورات
وضياع النفوذ .

عصر الممالك في العالم :

لقد تحدثنا عن الممالك في مصر ، ونحب أن نقول ان عصرا طويلا
كان الممالك فيه هم نواة الجيوش في بقاع مختلفة وأقطار متعددة ، ولعل
بدء ظهورهم مع العباسيين في عهد المعتصم كما ذكرنا من قبل ، ثم هذا
حذوهم السامانيون ، وسبكتين في الدولة الغزنوية وأمراء الأندلس
وبخلافها ، كما كان العبيد والممالك يكونون الجيوش في العهد الاقطاعي
بأوروبا .

جنسيات الممالك :

والممالك الذين نتحدث عنهم الآن لا يسمون أتراكا لأنهم ليسوا
من بلاد تركستان فحسب ، وانما هم من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز
والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ماوراء النهر ، ففيهم
عنصر الأتراك وفيهم الشراكسة والروم والأكراد ، وبعضهم من البلاد
الأوروبية أيضا .

طريقة تربيتهم :

وكانت تربية هؤلاء الممالك وتدريبهم تمر بمراحل متعددة ، فان
تجار الرقيق يجلبون أعدادا منهم ويعرضونهم على السلاطين ، وكان
السلاطين يختارون منهم أحسنهمقامة وصحة ، ومن يبدو عليه الذكاء
والنجابة ، فإذا تمت عملية الشراء وضعهم السلاطين في أبراج خاصة
بهم ، ورتبوا لهم من الفقهاء والعلماء من يلقنونهم الدين والعلوم
ويأخذونهم بملازمة الفرائض ، فإذا تم ذلك وتقدمت بالممالك السن
تجاه الشباب ، وكمّلوا الى مدربين عسكريين لتلقينهم النظم العسكرية
وفنون الحرب ، فإذا نتم للملوك ذلك انتقل لخدمة سيده ليلحق بحرسه

الخاص أو بديوانه أو بجيشه ، وسواء كان عمله هنا أو هناك فإن مواهبه قد تدفعه الى الصدارة •

ممالك مصر نوعان :

ولنعد للحديث عن الممالك الذين حكموا مصر وسوريا بعد الدولة الأيوبية ، وقد اتفق المؤرخون على تقسيم هؤلاء الممالك قسمين ، القسم الأول يعرف بالممالك البحرية ، وهؤلاء جلبهم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي جمع من الممالك ما لم يجمع غيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء العسكر من ممالكه (١) ، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة وحشدهم بها ، ومعظم هؤلاء الممالك من الأتراك ، واختار منهم الصالح فرقة للأسطول سميت الفرقة البحرية أو الفرقة الصالحية ، ولذلك يسمى هؤلاء الممالك : الممالك البحرية ، أو الممالك الأتراك ، والتسمية الأولى أشهر • ويرى فيليب حنّى أنهم سموا البحرية لأنهم كانوا يقيمون بجزيرة الروضة التي يحيط بها النيل ، وكان النيل يدعى عندهم بالبحر (٢) • وقد حكم هؤلاء الممالك من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٣٨٢ ، ومن الواضح أن هؤلاء الممالك انحدروا من أصول مختلفة ، ولا يربطهم دم ولا عنصر ، وإنما يربطهم شيء واحد هو أنهم ممالك اشتروا بالمال ، وإن كان أكثرهم أتراكا كما ذكرنا •

أما القسم الثاني فمجموعة أخرى من الممالك ليست مما جلبه الأيوبيون ، وليسوا أشتاتا ينتسبون الى عناصر مختلفة ، وإنما هم شراكسة اشتراهم السلطان قلاوون أحد الممالك البحرية الذين تحدّثنا عنهم آنفا ، وقد كان يطمح في إقرار السيادة في ذريته وتم له ما أراد ، فقد حكم هو وأولاده وأحفاده أكثر من قرن (من سنة ١٢٧٩ الى سنة

(١) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ •

(٢) تاريخ سوريا : ص ٢٦٨ •

١٣٨٢) ثم استولى أحفاد مماليك البرجية على الحكم سنة ١٣٨٢ وظلوا يحكمون مصر حتى سنة ١٥١٧ •

وسمى هؤلاء شراكسة نسبة الى بلادهم ، وهى بعض بلاد الكرج « جورجيا » بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وهى جزء من أقاليم الاتحاد السوفيتى فى العصر الحاضر ، وتوجد منطقة تعرف باسم شركس (Circassia) تمتد على الشاطئ الشرقى للبحر الأسود ، سكانها يعرفون بالشراكسة ، وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية والجمال ، وكانت تجارة الرقيق بينهم رائجة حتى أنهم كانوا يبيعون أبناءهم وبناتهم •

ويسمى هؤلاء المماليك أيضا « المماليك البرجية » وقد أطلق عليهم هذه التسمية السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عندما قسم المماليك السلطانية الى طوائف ، وأسكن طائفة الشركس فى أبراج القلعة ، وكان عددهم آنذاك ٣٧٠٠ مملوك (١) وسلاطين المماليك الشراكسة كلهم من أصل شركسى ، ماعدا اثنين هما خشقدم وتمريغا ، فقد كانا من أصل يونانى •

وسلاطين المماليك البحرية هم :

أولا : السلاطين قبل قلاوون

- | | |
|------------------|--------------|
| ١ — أيك | ٥٦٤٨ = ١٢٥٠م |
| ٢ — على بن أيك | ٥٦٥٥ = ١٢٥٧م |
| ٣ — قطز | ٥٦٥٧ = ١٢٥٩م |
| ٤ — الظاهر بيبرس | ٥٦٥٨ = ١٢٦٠م |

(١) الدكتور ابراهيم طرخان : مصر فى مصر دولة المماليك الجراكسة

- ٥ — بركة خسان بن بييرس ٨٦٧٩ = ١٢٧٧ م
٦ — سلامش بن بييرس ٨٦٧٨ = ١٢٧٩ م

ثانيا : عهد قلاوون وابنيه خليل والناصر

- ٧ — قلاوون ٨٦٧٩ = ١٢٧٩ م
٨ — الأشرف خليل بن قلاوون ٨٦٨٩ = ١٢٩٠ م
٩ — الناصر محمد بن قلاوون [سلطته الأولى] ٨٦٩٣ = ١٢٩٣ م
١٠ — كتبغا ٨٦٩٤ = ١٢٩٤ م
١١ — لاجين ٨٦٩٦ = ١٢٩٦ م
الناصر محمد قلاوون [سلطته الثانية] ٨٦٩٨ = ١٢٩٨ م
١٢ — بييرس الجاشنكير ٨٧٠٨ = ١٣٠٨ م
الناصر محمد بن قلاوون [سلطته الثالثة] ٨٧٠٩ = ١٣٠٩ م

ثالثا : اولاد الناصر

- ١٣ — أبو بكر بن الناصر محمد ٨٧٤١ = ١٣٤٠ م
١٤ — كجك بن » ٨٧٤٢ = ١٣٤١ م
١٥ — أحمد بن » ٨٧٤٢ = ١٣٤٢ م
١٦ — إسماعيل بن » ٨٧٤٣ = ١٣٤٢ م
١٧ — شعبان بن الناصر محمد ٨٧٤٦ = ١٣٤٥ م
١٨ — حاجي بن » ٨٧٤٧ = ١٣٤٦ م
١٩ — حسن بن » ٨٧٤٨ = ١٣٤٧ م
٢٠ — صالح بن » ٨٧٥٢ = ١٣٥١ م
حسن بن الناصر محمد [سلطته الثانية] ٨٧٥٥ = ١٣٥٤ م

رابعاً : أحفاد الناصر

- ٢١ — صلاح الدين بن حاجى ٥٧٦٢ = ١٣٦١م
- ٢٢ — شعبان بن حسن ٥٧٦٤ = ١٣٦٣م
- ٢٣ — على بن شعبان ٥٧٧٨ = ١٣٧٦م
- ٢٤ — حاجى بن شعبان ٧٨٣ — ٥٧٨٤ = ١٣٨١ — ١٣٨٢م
وسلاطين المماليك البرجية هم :
- ١ — برقوق ٧٨٤ — ٥٨٠١ = ١٣٨٢ — ١٣٩٨م
في خلال ساطنة برقوق استطاع يلبغا أن يتغلب عليه
ويعيد للسلطة حاجى المملوك البحرى لمدة عام واحد (٧٩١ —
٥٧٩٢) ثم استطاع برقوق أن يستعيد مكانته .
- ٢ — فرج بن برقوق ٥٨٠١ = ١٣٩٨م
- ٣ — عبد العزيز بن برقوق ٥٨٠٨ = ١٤٠٥م
- فرج للمرة الثانية ٥٨٠٩ = ١٤٠٦م
- ٤ — العادل المستعين بالله (الخليفة العباسى) ٥٨١٠ = ١٤١٢م
[أصبح سلطاناً مع الخلافة] .
- ٥ — المؤيد شيخ ٥٨١٥ = ١٤١٢م
- ٦ — أحمد بن المؤيد [لم يكمل العام في الحكم] ٥٨٢٤ = ١٤٢١م
- ٧ — سيف الدين ططر ٥٨٢٤ = ١٤٢١م
- ٨ — محمد بن ططر [لم يكمل العام في الحكم] ٥٨٢٤ = ١٤٢١م
- ٩ — الأشرف بارسبای ٥٨٢٥ = ١٤٢٢م
- ١٠ — يوسف بن بارسبای [حكم ٩٤ يوماً] ٥٨٤٢ = ١٤٣٨م
- ١١ — حقمق [تشققت] ٥٨٤٢ = ١٤٣٨م

١٢ — عثمان بن جقمق [لم يكمل العام في الحكم] ٨٥٧ = ١٤٥٣م

١٣ — سيف الدين اينال ٨٥٧ = ١٤٥٣م

١٤ — أحمد بن اينال [حكم أربعة أشهر] ٨٦٥ = ١٤٦٠م

١٥ — قسقدّم ٨٦٥ = ١٤٦١م

١٦ — بلباي ٨٧٢ = ١٤٦٧م

١٧ — تيمشور بٹا (*) ٨٧٢ = ١٤٦٨م

١٨ — قايتباي ٨٧٣ = ١٤٦٨م

١٩ — محمد بن قايتباي (**) ٨٩٠١ = ١٤٩٥م

٢٠ — الظاهر قانصوه الأشرفي ٨٩٠٤ = ١٤٩٨م

٢١ — أشرف جانبلاط ٨٩٠٥ = ١٤٩٩م

(حاول مملوك اسمه طومان باي الاستيلاء على السلطة ولكن الأمر لم يستقر له)

٢٢ — الأشرف قانصوه الغوري ٨٩٠٦ = ١٥٠٠م

٢٣ — طومان باي [الثاني إذا اعتبرنا سلطة الأول] ٨٩٢٢ = ١٥١٦م

إلى ١٥١٢ (١)

(*) عزله خير بك وتسلطن ليلة واحدة ثم زحف قايتباي .

(**) عزله قانصوه خمسائة وتولى بدله مدة ثلاثة أيام .

(١) هذه القوائم من زامباورو Stanley Lane-Poole

وفيما يلي دراسة عن أهم الأحداث في العصر المملوكي :

من الأيوبيين إلى المماليك

استطاعت الحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع أن تحتل دمياط واتجهت إلى القاهرة ، وسار الملك الصالح لمقابلة الحملة ، ورابط في المنصورة ، ولكنه مرض هناك مرض الموت ، بيد أن السيدة أم خليل شجرة الدر سرّية الملك الصالح أرسلت تستدعى توران شاه بن الملك الصالح ، ودارت المعارك بين الجيش المصري وبين الصليبيين ، ومات الملك الصالح والمعارك تدور ، فأخفت شجرة الدر وفاته : وظلت تصدر الأوامر باسمه ، وأبدى الجيش المصري بقيادة المماليك براعة قبائقة ودارت المعركة في أزقة المنصورة وشوارعها ، فسقط من جيش الفرنجة ألف وخمسمائة قتيل ، وأسر عدد كبير كان من بينهم لويس التاسع نفسه ، وقد سيق مكبلا بالأغلال إلى دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان حيث سجن (١) ، وحضر توران شاه عقب الواقعة فأسلمته شجرة الدر السلطة وأعلنت وفاة الملك الصالح .

شجرة الدر :

وكانت شجرة الدر ذكية حازمة مخلصمة خلال هذا الموقف الدقيق كما رأينا ، وكانت تتطلع إلى اعتراف بالجميل من توران شاه ، ولكنه بدلا من ذلك ظهرت عليه علامات الريبة فأخذ يتشكك في أمانتها تجاه ثروة أبيه ، كما أنه لاحظ بؤادر غرور من المماليك فأظهر النية لكبح جماحهم ، وتهدهدهم . ويروى أنه كان يشرب الخمر ويصّفق منجوعة من الشموع أمامه وهو سكران ، ثم يمسك بسيفه ويضربها واحدة واحدة وهو يردد : « هكذا أفعل بالبحرية » ، وكان كلما ضرب شمعة ذكر اسم واحد

١ (١) المتريزي : السلوك ج١ ص ٢٥٦ وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٦٧ .

من الزعماء (١) . وكان أن تأمرت عليه شجرة الدر والمماليك فيقتلوه بعد سبعين يوما من توليته الملك .

واتفقت كلمة المماليك على أن تتولى شجرة الدر سلطان البلاد ، وتولته فعلا حوالي ثلاثة أشهر (٢) ، ولكن الخلافة العباسية استعرت أن تكلّى الأمر امرأة ، ويقول المقرئى أن الخليفة أرسل للمماليك يقول :

إن كان الرجال قد عُدِّموا عندكم فأعلمونا لنرسل إليكم رجلا (٣) . ونتيجة لذلك فكرت شجرة الدر في التخلي عن عرش مصر ، فتزوجت عز الدين أيبك وتنازلت له عن العرش ، ولم يكن أيبك ذا شخصية قوية ، مما يفيد أن شجرة الدر اختارته ستارا لتحكم من ورائه ، ولكن أيبك أراد أن يستبد بالسلطان دونها ، فحصل بينهما صراع انتهى بأن دبرت شجرة الدر قتله ، ثم قتلها فيه ابنه .

بقى اسم صغير ينبغي أن نذكره قبل أن يتم الأمر للمماليك ، ذلك هو الصبى الأيوبي الأشرف موسى وهو ابن توران شاه الذى وضعه المماليك مع أيبك كسلطان شرعى على أن يكون أيبك وصيا عليه ، ولكن أيبك سرعان ما عزله واستبد بالأمر ، وبغزل الأشرف واستبداد أيبك بالأمر دون شجرة الدر ، انتهى ملك الأيوبيين وأصبح الأمر فى مصر للمماليك .

وفى هذه الأثناء زحف الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب وضم إليه دمشق ، بل أنه زحف على الديار المصرية للقضاء على ما اعتقده تمردا من المماليك على أسرته « سبتمبر ١٢٥٠ » ، وقد دار نضال بين الأيوبيين والمماليك انتصر المماليك فى نهايته « فبراير ١٢٥١ » ، بيد أن الخلافة

(١) السلوك للمقرئى . ج ١ ص ٣٥٩ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ١٩٠٣ وخطط المقرئى ج ٢

ص ٣٢٧ .

(٣) كتاب السلوك ج ١ ص ٣٦٨ وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٩٠ .

العباسية أنصت بالخطر الذي يهدد العالم الاسلامى بسبب زحف التتار تجاه العراق ، فتدخلت بين المماليك والأيوبيين ، وتم اتفاق في أبريل ١٢٥٣ على أن تكون مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس والساحل للمماليك وتكون بقية الشام للأيوبيين (١) .

ولكن التتار تقدموا وقضوا على الخلافة العباسية وزحفوا تجاه الشام ، فأسرع الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب الى اعلان خضوعه للتتار ، وأرسل ابنه بذلك الى هولاكو ومعه مجموعة من التحف والهدايا ، ولكن هولاكو تغلب عليه حرصه على سفك الدم والتدمير فادعى أن عدم حضور الناصر بنفسه يعد إهانة شخصية له وزحف على حلب فدمرها ، واتجه الى دمشق فأنزل بها مثل ما فعل بحلب ، ولم يوقف زحفهم إلا المصريون في موقعة عين جالوت التى سنتكلم عنها فيما بعد ، والمهم هنا أنه بهزيمة التتار على يد المماليك التقت الشام ومصر مرة أخرى تحت حكم واحد ، وأعيد الحصار حول الصليبيين .

وظلت السلطة في أيدي المماليك البحرية مدة ١٣٢ عاما كما رأينا في القوائم السابقة ، وكان المماليك البرجية منذ اشتراهم قلاوون وأسكنهم برج القلعة بعيدين عن معركة السلطان ، ولكن عندما اضطربت الأحوال إبان عهد أحفاد الناصر ، بسبب تولية الأطفال وثورات العربان وتمرد الحكام في الشام ، بدأ المماليك البرجية يزجون بأنفسهم في المعركة ، فتولى برقوق الوصاية على حاجى حفيد الناصر وكان طفلا في التاسعة من عمره ، وقد استطاع برقوق أن يحث الخليفة العباسى والقضاة والأمراء على عزل هذا السلطان الصبى وإسناد الأمر له رجاء أن يعيد الاستقرار والأمن للبلاد ، وقد انتقلت بذاك السلطة من المماليك البحرية الى المماليك البرجية .

تولية السلطة وأساليبها

بملاحظة الحديث عن سلاطين دولتي الممالك نفوس أن الممالك البحرية حاولوا تقليد سادتهم الأيوبيين في نظام الوراثة ، وقد بدأ الظاهر بيبرس بخلق نظام ولاية العهد فجعلها لأولاده من بعده ، وإذا كان الظاهر لم ينجح في تثبيت ولاية العهد في أسرته ، فإن قلاوون نجح في ذلك فبقى الملك في بيته حوالي مائة عام حتى سقطت الممالك البحرية كما ذكرنا من قبل .

ويبدو أن نظام التوارث فشل ، ولذلك لم يأخذ به الممالك البرجية أخذا حقيقيا ، مع أن أكثر السلاطين حاولوا تعيين أولادهم ليلوا الأمر بعدهم ، وكان الممالك الآخرون يتظاهرون بالموافقة ويقدمون البيعة ويقسمون عليها الأيمان ، بل ينفذونها فعلا عقب وفاة السلطان ، ولكنهم سرعان ما يضيّقون بالسلطان الصبي ويعزلونه ليتولى الأمر متغلب منهم وهو ما نشاهده بملاحظة قائمة الممالك البرجية ، ويقول Lane - Poole في ذلك بعد أن أورد قائمة الممالك البرجية إنه لا يوجد أكثر من ملكين من أسرة واحدة ولذلك فليس هناك ما يدعو إلى رسم شجرة للسلاطين .

وقد تسبب عن هذا الموقف من السلاطين البرجية أن كثر الخلاف بينهم ، وأصبحت ولاية السلطة معركة لا تنقطع ، ويزيد أوارها إذ خلا العرش أو تولاه طفل من أبناء السلاطين ، وقد دعا ذلك بعض العقلاء إلى ازدياد هذا المنصب والحرص على عدم تلبه ، لما يحوطه من قاي وضرب ، ومن الذين زهدوا فيه الأمير أربك الذي أريد لهذا المنصب ، فاقسم بالطلاق ألا يقبله ، كما رفض السلطان قايتباي أن يعهد لابنه محمد بولاية العهد خلال مرضه لإدراكه أنه يضعه — لو فعل — في أتون دائم اللهب .

وليس العدول عن إخضاع هذا المنصب للتوارث ناشئا عن ديمقراطية ، بل كان ناشئا عن أطماع غمرت الجميع وجعلت كل واحد

من الممالك يحس أنه جدير بشغل هذا المنصب ، وعلى هذا كان ذلك العهد عهد مؤامرات وعمل في الظلام ، وخيانات دنيئة ، وهذا النظام على العموم كان سائدا خلال العصور الوسطى في المجتمعات الاقطاعية ، فالسلطان وملكية الاقطاع يجتمعان لمن يستطيع أن ينالهما بمؤامراته وسيوفه ، وكما ينالهما الاقطاعي يفقدهما بنفس الوسيلة .

تعريف بأشهر السلاطين

من مراجعة القوائم السابقة عن سلاطين الممالك ، نلاحظ أن بعض السلاطين لم يظهر لهم دور يستحق الذكر ، وكان عدد كبير منهم في سن الطفولة والصبا ، فلم يكن غير ستار تحكم من خلفه قوى متضاربة ، ومن أجل هذا سنقصر هنا كلامنا على السلاطين الذين لعبوا دورا مهما في التاريخ .

الظاهر بيبرس :

إذا كان قُطُز قد انتصر على التتار في موقعة عين جالوت ، فقد شاركه في تحقيق هذا النصر قائد جيشه الظاهر بيبرس ، ولذلك فنحن نتخطى قُطُز لنقف وقفة عند بيبرس الذي يُعدُّ في القمة من سلاطين الممالك ، وسنرى اسمه بارزا في النضال ضد التتار ، وفي النضال ضد الصليبيين ، وسنراه كذلك مؤسسا للخلافة العباسية في القاهرة ، وطموحا في استعادة بغداد من التتار ، ونُدْعُ هذا إلى حينه لنتكلم عن نواح غيرها في هذا السلطان العظيم .

كان بيبرس إداريا حازما ، دأب العمل لترقية شؤون بلاده وتنمية مواردها ، حفَرَ الترغ وأصلح الحصون ، وأسس المعاهد وبنى المساجد ، وكان له مقام كبير بين أمراء مصر حتى هابوه وخشوا بأسه ، ولم يكن أحد منهم يجروء على الدخول عليه إلا بإذنه ، وكان شجاعا ضربت الأمثال ببطلته وشهامته ، وكان مثالا للحاكم العادل ، يجلس للنظر في

المظالم بنفسه ، ويعطف على الفقراء والمعوزين ، وكانت حكومته استبدادية ولكنها كانت مستتيرة ، وقد وضع بييرس أسس دولة الممالك ، وابتدع طرقا لحكمها ، واستحدث كثيرا من الوظائف الهامة ، ووجه عنايته للجيش ، ورفع شأن الأسطول المصرى بعد أن اضمحل في أواخر عهد الدولة الأيوبية ، وأصلح نظام القضاء بأن عين قضاة من المذاهب الأربعة للفصل في الخصومات ، وأصدر عدة قوانين لرفع المستوى الخلقى في مصر ، ومنها أن أمر بمنع بيع الخمور وأقفل الحانات ونفى كثيرين من المفسدين (١) .

ومن أعماله الجيدة القضاء على فرقة الحشاشين بسوريا ، تلك الفرقة التي عبثت بالقيم والمبادئ ، وامتد نشاطها في الدس والاغتيال حتى أصبحت خطرا جسيما ، وقد تم لبييرس سحق هذه الفرقة في سوريا إلى الأبد (٢) .

وفي سنة ٦٧٤هـ استدار بييرس الى بلاد النوبة التي بدأ بها لون من التمرد على المعاهدة التي تربطهم بمصر والتي تحدثنا عنها من قبل وقد استطاع بييرس أن يقضى على هذا التمرد ، ويرغم الثائرين على الخضوع لنصوص المعاهدة ، وسنرى تفصيل ذلك فيما بعد .

وقد امتد ملك مصر في عهد بييرس من الفرات الى الحجاز وجنوب الجزيرة العربية وشمل كذلك بلاد الشام وبيت المقدس وسواكن وغيرها على البحر الأحمر ، وخضع له عرب الصحراء وكثير من سلاطين المغول ، وتبادل السفراء مع امبراطور الروم وشيد مسجدا في الأستانة ، وأرسل له خان المغول ابنته ليتزوجها .

(١) دكتور على ابراهيم : مصر في العصور الوسطى ص ١٦٥ يتصرف :

(٢) انظر ما كتبناه عن هذه الفرقة في الجزء الثامن ص ١١٨ — ١٢٢

وانظر تاريخ سوريا لفيليب حتى ج٢ ص ٢٤٧ .

وقد عثيَ بيبرس عناية كبيرة بالعلوم والمعارف ، وإصلاح الري والزراعة ، ولم يغال في فرض الضرائب مع كثرة حروبه ، بل خفّضَهَا إلى أصغر حد كاف للقيام بمشروعاته العظيمة (١) .

ومن آثاره مسجده بالحسينية المعروف بجامع الظاهر ، والمستشفى المعروف بمستشفى قلاوون بالنحاسين .

أما ما عُرِف عنه أحيانا من القسوة والميل الى الغدر فيمكن أن يُعَدَّ نتيجة طبيعة للظروف المحيطة به ، وللفوضى التي كانت طابع المماليك .

وهناك عكَمٌ شهير عاصر الظاهر بيبرس ، ويقال إنه اتصل به ، وهو السيد أحمد البدوي ، وينسب الرواة لهذا الولي ألوانا من المكرات يتصل بعضها بالحرب وأسرى الحروب التي ملأت تاريخ هذه الحقبة ، ولمنا هنا نتحدث عن كرامات الأولياء فلهذه حديث مفصل في مكان آخر (٢) ؛ ولكننا هنا نقرر أن التاريخ الصحيح لم يَرَوِ شيئا عن صلات السيد البدوي بهذه الحروب ولا بنتائجها ، ويروى بعض الباحثين (٣) أن السيد البدوي مفتري عليه ، وأن رواية الأخبار وخَدَمَ الضريح على مر الزمان اختلقوا كثيرا مما نسب اليه لفتهال عليهم النذور .

قلاوون :

بعد ثلاثين عاما من قيام دولة المماليك البحرية تولى قلاوون الحكم ، وبقي السلطان في بيته حتى نهاية هذه الدولة ، وسنرى صراع قلاوون

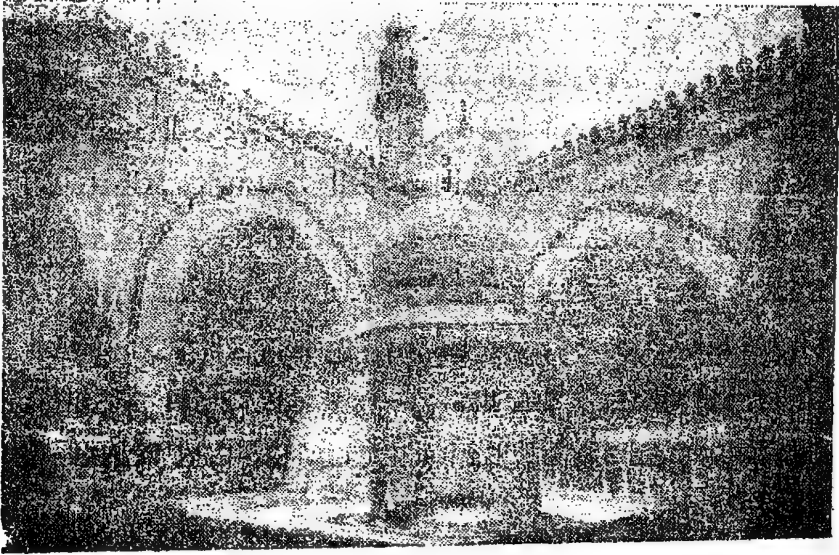
(١) عمر الاسكندري وسيفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثماني ص ٢٢٤ .

(٢) الحياة الاجتماعية في التفكير الاسلامي للمؤلف .

(٣) انظر « السيد احمد البدوي : شيخ وطريقة » للدكتور سعيد

عاشور ص ١٤٥ .

ضد الصليبيين وضد التتار ، ولكننا هنا نتحدث عن مظاهر أخرى ترتبط به ، فقد سار قلاوون سيرة بييرس في العدالة وإدارة شئون البلاد والتقرب إلى الشعب ، وهو الذي جلب الممالك الشراكسة كما ذكرنا من قبل ، ويبدو أنه عاش في حراستهم في أمّـن فلم يلجأ كثيرا إلى سفك الدماء ، وتنسب له كثير من المنشآت العظيمة ، ومن أهمها المسجد والضريح والمستشفى التي أقامها على رقعة من أرض القصر الفاطمي الصغير الغربي بشارع المعز لدين الله بالنجاسين ، ومكان المستشفى الآن مصحة لأمراض العيون أقامتها وزارة الأوقاف سنة ١٩١٥ •



مسجد قلاوون

وكان لقالوون ثلاثة أبناء هم : علاء الدين وخليل والناصر ، وكان علاء الدين ممتازا ، وكان موضع حب الجميع حتى أن أباه فكر في توليته السلطة بكد له وهو حي ، ويقال إن أخاه خليلا نفيس عليه هذه المكانة قدس له السم فمات . ولم يعين قالوون خليلا وليا لعهد لهذا السبب ، وقال عندما عرّض عليه هذا الأمر : أنا ما أولئى خليلا على المسلمين (١) . كما أن قالوون لم يول ابنه الثالث لصغر سنه ، وترك الأمر لقادة المسلمين ، وهو موقف طيب يحسب لقالوون في الميزان ، ولكن السلطة بعد قالوون آلت على كل حال لابنه خليل (الأشرف خليل) الذي كان له دور عظيم في القضاء على الصليبيين وسنذكره فيما بعد .

الناصر محمد بن قالوون :

هو الابن الثالث لقالوون ، تولى بعد أخيه الأشرف خليل ، وقد تولى الناصر الحكم ثلاث مرات ، وكان عندما تولى في المرة الأولى في التاسعة من عمره ، وقد استمرت ولايته هذه المرة عاما واحدا ، ثم اغتصب كتبغا فالمنصور لاجين الملك منه مدة أربع سنوات ، وكان عهدهما مليئا بالفتن والاضطراب ، وأعيد الناصر للسلطة للمرة الثانية ، ولكنه كان لا يزال دون سن الرشد (في الرابعة عشرة) ، فاستخف به الأمراء ، وعلى الرغم من أن سلطانه امتد هذه المرة عشر سنوات إلا أنه لم يستطع أن يوقف الاستهانة التي بدأ الأمراء يعاملونه بها منذ مطلع هذه السلطنة ، فاضطر إلى الرحيل إلى الكرك تاركا حياة المؤامرات والدسائس والاستخفاف ، واغتصب بيبرس الجاشنكير « بيبرس الثاني » ، السلطان لنفسه مدة عام ، ولكن الناس كانوا يدركون أن الناصر أكثر إخلاصا منه وكفاءة ، فكتبوا له يطلبون عودته ، وعاد الناصر ليتولى السلطة للمرة الثالثة وابتدأ هذه السلطة وقد اكتمل نضجه وازدهر شبابه إذ أصبح في منتصف العقد الثالث ، وقد دامت ولايته هذه ثمانية وثلاثين عاما ، وكانت —

(١) المقريزي : السلوك ج١ ص ٧٤٥ .

بالإضافة الى طولها الزمني - حافلة بجلال الأعمال ، وسندع الآن موقفه الجبار ضد التتار والصليبيين لتحدث عن بعض اصلاحته واتجاهاته ، ويقول المؤرخون إن القاهرة في عهد الناصر كانت حاضرة لإمبراطورية شاسعة متحدة ، وبسطة نفوذها على اليمن والحجاز بالإضافة الى مصر والشام ، وخطب ودها ملوك من أوروبا وآسيا .

ولم يكن نشاط الناصر مقصورا على الحروب والغزوات ، بل امتد الى الناحية الاجتماعية والعمرانية ، فَعَنِيَّ بالشئون الداخلية للبلاد ، ومما يذكره له التاريخ أنه حَدَّدَ الأثمان حتى لا تصعب على الفقراء ، وألغى كثيرا من الضرائب التي كان يلتزم بها جماهير الشعب ، واستعاض عنها بضرائب على كبار الموسرين ، وتشدد في منع شرب الخمر وفي حفظ الآداب ، ونشط في نشر العلوم والمعارف ، واهتم بفتح المباني وبالنقوش العربية اهتماما كبيرا ، وهو المنشيء لقناطر المياه الموصلة بين القلعة والنيل ، وإن كانت قد نسبت خطأ الى صلاح الدين ، ووصل بين النيل والاسكندرية بترعة ، وأنشأ طريقا عظيما بجانب النيل ، كان بالإضافة إلى فائدته كطريق ، يَرُدُّ المياه وقت الفيضان (١) .

وليس بعد الناصر سلاطين يستحقون الذكر إلا كلمة صغيرة عن السلطان حسن بن الناصر الذي بنى المدرسة العظيمة المعروفة الآن بجامعة السلطان حسن بجانب القلعة .

(١) عمر الاسكندري وسيفدج : تاريخ مصر حتى الفتح العثماني ص ٢٣٦ .



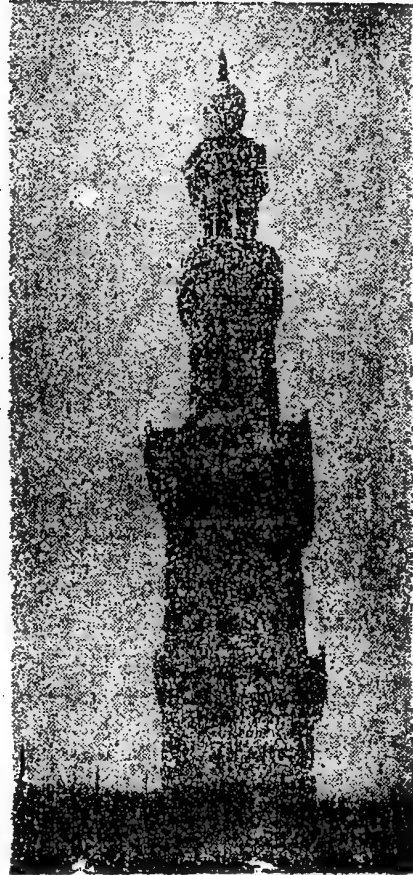
مسجد الرفاعي والسultan حسن

أما المماليك البرجية فليس بينهم من يستحق أن نقف عنده ، وكان عهدهم عهد اضطراب وقلق ، كثر تغير السلاطين حتى كان منهم من حكم ليلة واحدة أو بضعة أيام أو بضعة شهور ، ومن بين سلاطين الجراكسة يمكن أن نذكر برسبای ، ولعله أقوى من ولى السلطنة منهم ، وإن لم يكن أفضلهم ، ونذكر كذلك برقوق وجقمق ، وقليتبای وهم أطول السلاطين عهداً ولهم آثار ذات شأن من أهمها مسجد برقوق ومسجد قايتبای ، وقلعة قايتبای بالامسكندرية .

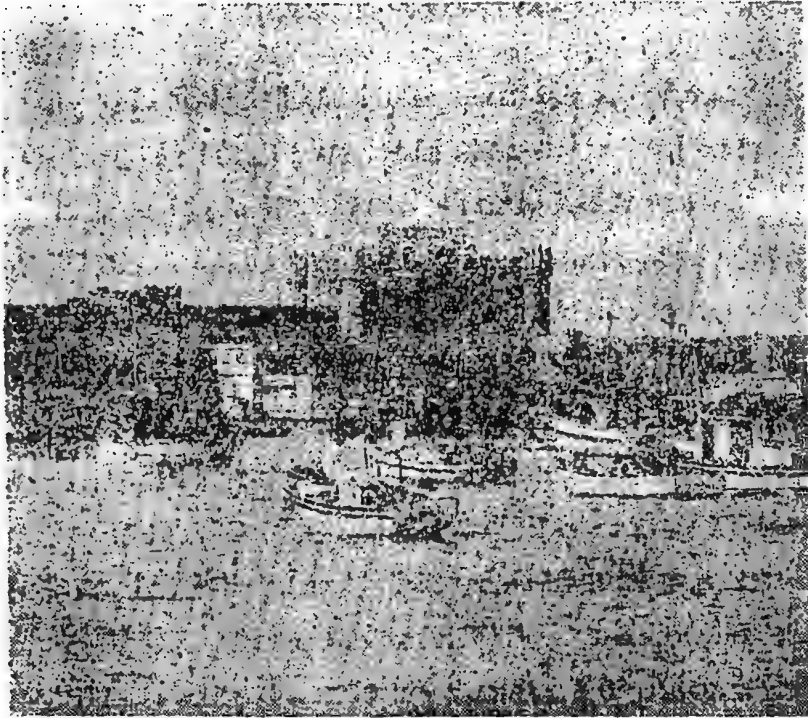
وكان من أسباب عدم الاستقرار في هذا العهد — بالإضافة الى الاضطراب الداخلى — غارات البدو التي تكررت على مصر في عهدهم ، وغارات قراصنة الفرنجة في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وكشف طريق رأس الرجاء الصالح ، ومنافسة العثمانيين للمماليك ، تلك المنافسة التي انتهت بزوال دولة المماليك ودخول مصر وسوريا ضمن الإمبراطورية العثمانية كما سنرى فيما بعد .



منارة مسجد قايتباي



منارة مسجد برقوق



قلعة قايتباى بالاسكندرية



إبريق من الفضة مطعم بالنحاس — العهد المملوكى

الخلافة العباسية في مصر

كان إحياء الخلافة العباسية بمصر حدثا مهما من الأحداث الكبرى التي جرت في عهد المماليك ، فقد سقطت بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) في أيدي التتار على يد هولاكو وجنوده ، وقتل الخليفة العباسي وانتهت الخلافة العباسية ببغداد ، وبعد سنتين من ذلك بدأت سلطنة الظاهر بيبرس ، وسرعان ما فكر في إعادة الخلافة العباسية ، فاستدعى سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) أحد أبناء العباسيين الذين فروا من وجه الزحف المغولي واسمه أبو القاسم ، وعقد مجلسا حافلا حضره القضاة ورجال الدين والأمراء والعظماء ، وثبت في هذا الاجتماع نسب هذا الوافد ، وبايعه الحاضرون بالخلافة ليكون خليفة الاسلام والمسلمين ، ولقب « المستنصر بالله » ، ثم أخذت له البيعة على الناس على اختلاف طبقاتهم ، وبعد أن تمت هذه المراسم والتقاليد قلد الخليفة الظاهر بيبرس حكم البلاد جميعها باسمه ، وحكم ما سيفتحه الله عليه بالدعوة أو بالسيف ، ونقشت السكة باسم الخليفة والسلطان ، ودعا لهما الخطباء في المساجد في صلاة الجمعة (١) .

وبهذا التصرف أحاط بيبرس عرش المماليك بالقداسة والإجلال وأصبحت سلطتهم شرعية .

وقد زادت أطماع بيبرس ، فأراد أن يسترجع بغداد من المغول وبخاصة أنه كان قد أوقع بهم حديثا (سنة ١٢٦٠م) هزيمة ساحقة في عين جالوت فأعد جيشا كبيرا جعل الخليفة العباسي قبائده ، وسيّره ليسترجع عاصمة آبائه وأجداده ، ولكن المغول تصدوا له وقضوا عليه ، ولما علم بيبرس بمقتل الخليفة حزن عليه واستدعى عباسيا آخر هو أبو العباس أحمد ، وبعد أن ثبت نسبه تمت بيعته على النحو السابق ،

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج١ ص ٥٠ ، وابن اياس ج١ ص ١٠١ .

وبالتالى أعاد الخليفة تقليدَ بييرس الولاية على البلاد الاسلامية ، ثم أدرك بييرس أن من الخير له أن يستبقى الخليفة فى القاهرة ، ليكون الخليفة منفذا لرغباته ، فذلك أحسن من انتقال الخليفة الى بغداد على فرض الانتصار على المغول ، لأن الخليفة فى بغداد سيتصرف على نحو مغاير لتصرفه وهو فى القاهرة ، أو سنتحكم فيه قوى أخرى كذلك التى تحكم فى الخلفاء العباسيين ابتداء من العصر العباسى الثانى .

وهكذا أعيدت الخلافة العباسية فى القاهرة ، وعاشت بها طيلة حكم المماليك البحرية والبرجية ، ولكنها لم يكن لها حول ولا طول ولا رأى فى سياسة الأمور ، وإنما كان عملها أن تبارك سلطة من حصل على السلطة بسيفه ، وقد ظلت هذه الخلافة العباسية بمصر حتى الفتح العثمانى .

المماليك والتتار

إذا كان الأيوبيون قد مهدوا الطريق للمماليك لينتصروا فى الانصال ضد الصايبيين ، فإن أحدا لم يمهّد الطريق للمماليك ليوقعوا بالمغول ، وعلى العكس خرت قوى كثيرة فى آسيا وأوربا أمام زحف المغول المدمر ، ولذلك عُدَّ انتصار المماليك عليهم حماية للحضارة العالمية التى كانت — لولا مصر والمماليك — على وشك أن تنهار وأن تدوسها أقدام المغول المخربة التى أتت على كل مدينة فى كل وطن حلت فيه ، ولنعدّ للمسألة من أولها :

كان المغول قبائل همجية وحشية تنفث فى النهضة الآسيوية الشاسعة التى تمتد من أطراف الصين الى أواسط آسيا ، باحثين عن الرزق والمراعى ويبدون أن المراعى الحرة التى لا يملكها أحد لم تف بحاجتهم ، فعمدوا الى الاستيلاء على المراعى والمزارع المملوكة للآخرين ، وأم يكن استيلاؤهم عليها استيلاء من يرغب فى الاستقرار والاستثمار ، وإنما كان استيلاء الباحث عن الفائدة السريعة دون عناء أو جهد .

هذا مظهر من مظاهر حياة المغول في حركاتهم الأولى ، ومظهر آخر أنهم كانوا مدمرين يأتون على كل ما يقابلهم من مظاهر الحضارة ؛ فقد كانوا يرون الحضارة وسيلة للقضاء عليهم ، فأخذوا يهدمون المباني ، ويحرقون الكتب ، ويقتلون المفكرين والعلماء .

وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، استطاع جنكيز خان أحد زعماء هذه القبائل أن يكون منها وحدة ، أصبحت آنذاك خطرا على الحضارة الانسانية ، وقدر له التراجع فبسط سلطانه على معظم الصين وبلاد التركستان حتى حدود إيران .

وقف خلفاء جنكيز خان على أبواب العالم الاسلامي ، وآلت قيادتهم الى هولاكو حفيد جنكيز خان الذي زحف بجيوشه الجريئة على العالم الاسلامي حتى وصل بها بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وقبض على الخليفة وأباح العاصمة لرجالته مدة أربعة أيام ، ثم قتل الخليفة نفسه وكثيرا من أفراد أسرته ، وزالت بذلك الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) .

ومن بغداد زحف هولاكو الى الشام ، فاحتل حلب وأعمل السيف في خمسين ألفا من سكانها ، ثم احتل حماه ودمشق وعقد معاهدة مع أنطاكية اللاتينية للتعاون ضد المسلمين ، ولاقى المسلمون في دمشق وغيرها من مدن الشام ألوانا من الذلة ، وأظهر المسيحيون الشرقيون النشفي فيهم والانتقام منهم ، فسارت مواكبهم تحمل الصليبان ، وألزموا المسلمين القيام لهذه المواكب واحترام هذه الصليبان ، ومما ساعدهم ذلك أن « كيتوبوقا » نائب هولاكو كان مسيحيا متعصبا ، ومغوليا شديد القسوة على المسلمين (١) .

وعقب احتلال دمشق تقدم المغول بسرعة فاحتلوا نابلس وقتلوا

(١) الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص ١٢٥ . وانظر الجزء السابع من هذه الموسوعة للجؤلف .

حاميتها ، ثم تقدموا الى غزة دون أن يلقوا مقاومة ، وأصبحوا بذلك بالقرب من حدود مصر ، ويتجه ابن العبري الى أن المسيحيين الشرقيين ألحوا على هولاكو ليندفع بجنوده الى مصر ، ولم يكن هولاكو يريد ذلك ، وتحت ضغط المسيحيين وافق هولاكو على أن يتجه قائده وخليفته لتحقيق هذه الأطماع (١) وعاد هولاكو الى إيران ليسهم في تدبير أمر "عاصمة بعد وفاة أخيه الأكبر منكوقا آن سنة ٦٥٥هـ وقيام خلاف بين أخوييه قوبيلاي وأريق يوكا ، وكان هولاكو يؤيد تولية الأول عرش السلطة ، وقبل أن يبرح هولاكو الشام أرسل الى قطز سلطان مصر رسالة قاسية يهدد فيها ويتوعد ، ومما جاءه فيها قوله : قد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وقتلنا معظم العباد ، فعلينا بالهرب ، وعلينا الطلب ، ولكن أى أرض تؤويكم وأى بلاد تحميكم ، خيولنا سوابق ، وسيفوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال (٢) .

وتلقت مصر هذه الرسالة ، ودار حولها نقاش ، وكان معنى الاستسلام أن يضيع العالم الاسلامي ، إذ لم يكن قد بقى إلا مصر بعد سقوط العديد من دول الاسلام تحت سلطان المغول ، وأحست مصر بمسئوليتها تجاه الاسلام والمسلمين مع ما في ذلك من مخاطرة ، ولم يكن من الممكن الاتفاق مع المغول فقد عرف هؤلاء بنقض العهود ، والقضاء على المسلمين ، ولم تبق إلا المواجهة ، وعلى هذا اتفق السلطان قطز وأمير الأمراء قائد الجيوش بيبرس ، وكل القادة المصريين ، وتنفيذا لذلك صدرت الأوامر بقتل سفراء المغول الذين حملوا التهديد ، وكان ذلك إيذاناً بقيام الحرب .

ولم يقنع الجيش المصرى بموقف الدفاع من داخل الحصون ، ذلك النظام الذى كان يلجأ له الأمراء فى البلاد المختلفة التى هاجمها المغول ، فقد كان ذلك يقيح للمغول أن يسحقوا الحصون ويدفنوا أعداءهم فى

(١) تاريخ مختصر الدول ص ٢٨٠ .

(٢) الرسالة فى السلوك لأقمرى ج ١ ق ٢ ص ٢٧٠ - ٢٢١ .

حصونهم ، وتحاشيا لذاك لجأ المصريون للهجوم ، فزحف بيبرس ، واقتحم غزة وقضى على حاميتها ثم زحف قطز الى عكا ، وسمح له الفرنجة باجتياز طرقهم إذ كانوا يثقون في المسلمين أكثر مما يثقون في المغول .

عين جالوت :

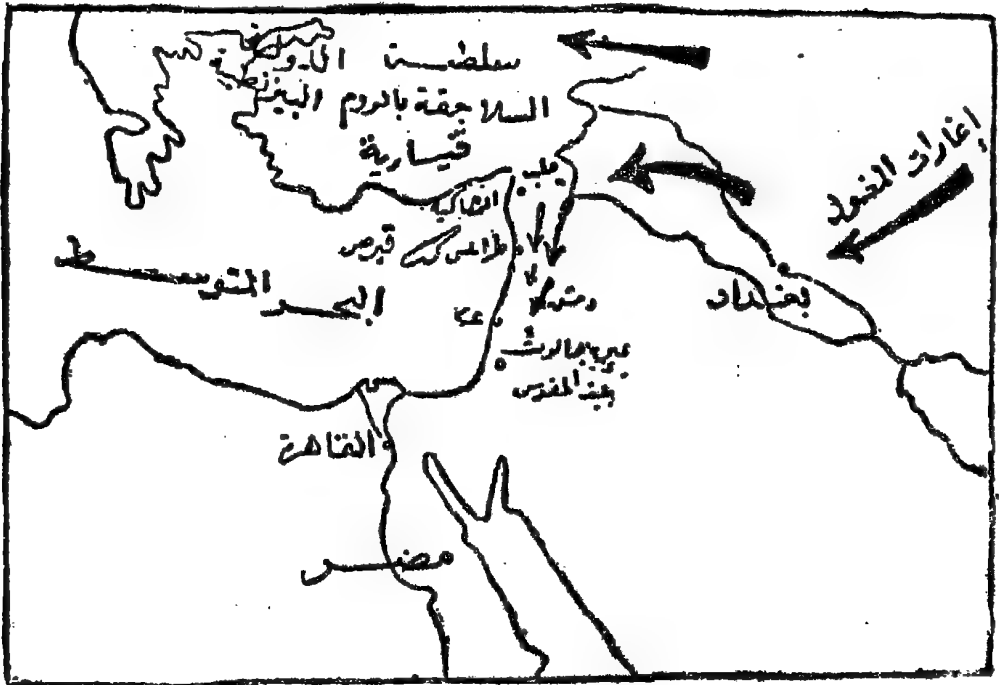
شهدت عين جالوت التي تقع بين بيسان ونابلس معركة من أخطر معارك التاريخ ، فقد اتجه لها كيتوبوقا مزجرا عندما وصلته أنباء اندحار جيشه في غزة واتجه لها كذاك جيش مصر اللجب ، وكان اللقاء في يوم ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ (١) ، وقد أعد قطز خطته للمعركة اعدادا عبقريا ، فقدم بعض جيشه بقيادة بيبرس ، واختفى مع بقية الجيش خلف بعض التلال القريبة ، ونزل كيتوبوقا المعركة بكل جيشه ، وعندما حميت المعركة تقدم قطز من مكمنه فأحاط بجيش المغول وكانت معركة

(١) بمناسبة هذه الموقعة الخطيرة التي حدثت في رمضان نذكر ان هذا الشهر المبارك شهر عدة مواقع فاصلة خاضها المسلمون بنجاح عظيم ، ومن هذه المواقع :

- غزوة بدر الكبرى في سنة ٢ للهجرة .
- فتح مكة سنة ٨ للهجرة .
- غزوة تبوك سنة ٩ للهجرة .
- فتح المسلمين لجزيرة رودس سنة ٥٣ هـ .
- نزول المسلمين شواطئ اسبانيا وغزو بعض الثغور الجنوبية سنة ٩١ هـ .
- انتصار طارق بن زياد على الالك رودريك في ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ .
- ونصل الى قمة النجاح في العصر الحديث في العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ حيث الانتصار العظيم على اليهود وعبر القنساء وتدمير خط برليف ..

واعتقادي ان حدوث هذه المعارك في شهر رمضان لم يكن مصادفة ، بل كان منحة من الله الكريم لهذا الشهر المبارك ، واعتقادي كذلك ان النجاح في هذه المعارك كان بعون الله مثلته الآية الكريمة التي نزلت في غزوة بدر وهي قوله تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى « ولو حدثت هذه المعارك في عهد نزول القرآن لكان من الممكن تكرار هذا المعنى .

هائلة بدأت من الفجر وظلت حتى منتصف النهار ، ويقال أن قطز
أحس باضطراب في جيشه والمركة تدور فخلع خوذته وألقاها على
الأرض وصرخ : وا إسلاماه واندفع يضرب في استماتة وقوة حتى
هزيم المغول هزيمة كاملة ، وسقط الجيش المغولي بين قتل وأسير
وجريح ، ولما اتضح النصر للمصريين عرض بعض المغول على قائدهم
أن يهرب بحياته وأكثه رفض ، وظل يصارع وحده حتى سقط جواده
وأخذ أسيرا ، وعندما وقف بين يدي قطز أطلق لسانه بكلمات قد
وسباب فصدر الأمر بالقضاء عليه (١) .



ولم يشمل بيبرس — وقد آل له سلطان مصر — بالنصر الذي أحرزه
مع قطز في عين جالوت ، بل انه لاحق المغول تجاه الشمال حتى أوقع

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٧٩ .

بهم هزيمة أخرى في قيسارية (قيصرية) بآسيا الصغرى واسترد بذلك مملكة الروم السلجوقيين التى كان المغول قد استولوا عليها (١) .

نتائج انتصارات عين جالوت :

يمكننا أن نوجز نتائج عين جالوت فى النقاط التالية :

١ — عودة الوحدة بين مصر وسوريا ، فقد كانت بعض ولايات سوريا تأبكت على سلاطين مصر إثر قيام دولة المماليك كما قلنا من قبل .

٢ — يعتبر انتصار المماليك فى عين جالوت انتصارا للحضارة وإنقاذا للبشرية من هؤلاء الهمج الذين لو لم تدر عليهم الدائرة لامتد ضررهم ، ولما كان من السهل درء خطرهم عن العالم والإنسانية .

٣ — القضاء على الفكرة التى كانت سائدة عند الدول المسيحية بأن الجيش المغولى جيش لا يقهر .

٤ — عجلت عين جالوت بزوال الصليبيين من الشام .

٥ — سلمت مصر وآثارها من الخراب الذى كان طبيعة النصر المغولى .

٦ — ارتفعت سمعة مصر بسبب ما حققته من انتصار على المغول وعلى الصليبيين .

٧ — أعادت الهزيمة بعض الرشد الى المغول ففكروا فى الاسلام ، ودخل الكثيرون منهم فيه .

(١) عمر الاسكندرى والميجر سيفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثمانى

بعد عين جالوت :

لم يكن النصر في عين جالوت ومما بعدها مصادفة ، إذ تكرر هذا النصر عدة مرات ، فقد أعد المغول عدتهم من جديد للزحف على مصر والشام ولكن شعبنا العظيم كان يصدهم ، وينزل بهم هزيمة إثر هزيمة ، ففي عهد السلطان قلاوون هاجم المغول حمص فزحف عليهم قلاوون وأوقع بهم هزيمة كبيرة ، أوقفت هجومهم عدة سنوات ، وفي عهد الناصر أغار المغول على دمشق واحتلوها ، ولكن الناصر أعد لهم جيشا ضخما والتقى بهم بالقرب من دمشق في موقعة « عين الصفير » فأوقع بهم هزيمة كبرى وأسر منهم عشرة آلاف جندي واستعاد دمشق ، وأدرك المغول صعوبة انتصارهم على شعب مصر ف عقدوا مع سلاطين مصر صلحا سنة ٥٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) وعاشت مصر حتى نهاية هذا القرن في مأمن من غارات المغول .

المغول في عهد تيمورلنك :

في مطلع القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ظهر تيمورلنك في أواسط آسيا ، وقاد جحافل المغول مرة أخرى ، واحتل بغداد و صار الى حلب فاحتلها ، ولكن بعد أن ضحى بعدد ضخم من رجاله ملأت جثثهم الخندق المحيط بالمدينة ، وكان ذلك في عهد السلطان فرج بن برقوق ، ومن حلب زحف تيمورلنك الى حمص وبعلبك ودمشق فاحتلها بعد صراع طويل ، ودمر منشآتها ومظاهر الحضارة بها ، ثم اتجه الى العثمانيين بآسيا الصغرى فسحق جيشهم عند أنقره واجتاح بروسيا وأزمير وأسر بايزيد الأول (١) ، ومن حسن حظ المماليك والعثمانيين أن تيمورلنك لاقى حتفه سنة ٤٠٤ هـ ، وشب نزاع بين خلفائه انتهى الى فتنة داخلية استنفدت قواهم جميعا ، وأتاحت للمماليك استعادة شمال الشام .



(١) ابن عريشاه : عجائب المقدور في اخبار تيمور ص ٦ ، وابن اياس

مواكب النصر :

وقد غنيت المراجع العربية بوصف مواكب النصر المملوكية العائدة من حرب المغول ، وفيما يلي وصف لموكب من هذه المواكب ، ذلك هو موكب السلطان الناصر بن قلاوون في عودته الظاهرة من المعارك التي أشرفنا إليها آنفا ، يقول أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) إن القاهرة تزينت من باب النصر الى باب السلسلة بالقلعة ، وتفاخر الناس في الزينة ونصب الأقواس والقلاع ، واتصلت الزينات في منظر بهيج ، وهضر أهل الريف الى القاهرة للفرجة ، على الزينة وعلى موكب السلطان ، وحضر العرب بخيولهم وخرجت جماهير الشعب مزينة بالحلى والجواهر واللآلئ والحريز ، واحتشد الناس في الطرقات وعلى أسطح المنازل .

ولما وصل السلطان الناصر باب النصر ترجل سائر الأمراء ، وكان أصحاب الزينات يقدمون لعسكر السلطان شراب الليمون من أحواض أعدوها لهذا الغرض (١) .

ويضيف المقرئ ويصفه للأسرى ورعوس القتلى فيقرر أن الأسرى كانوا آلافا وكانوا مقيدين بالسلاسل ، وكانت رعوس القتلى معلقة في رقابهم وكانت طبولهم تسير أمامهم تعلن عن هزيمتهم وانتصارات السلطان المظفرة (٢) .

المماليك والصليبيون

سنحدث فيما بعد حديثا منفصلا عن الحروب الصليبية ، نفصل فيه القول عن الدور الذي قام به المماليك في هذه الحروب العنيفة ، وفي كامة موجزة هنا نقرر أن المماليك عندما انتصروا في عين جالوت أعادوا وحدة

(١) التيجوم الزاهرة : ج ٨ ص ١١٦ .

(٢) السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٩٣٨ — ٩٤٠ .

مصر والشام ، أو قل أعادوا احكام الحصار حول الصليبيين ، فكان ذلك وسيلة لإكمال الانتصارات الضخمة التي بدأها صلاح الدين الأيوبي ، والمماليك هم الذين أسقطوا امارة انطاكية و امارة طرابلس والجزء الذي كان باقيا من مملكة بيت المقدس ، وأهم أبطال المماليك الذين لعبوا دورا في هذه الحروب هم الظاهر بيبرس و قلاوون والأشرف خليل الذي على يده سقطت عكا ودمرت آخر الحصون الصليبية واستسلمت كل البلاد التي كانت باقية لهم ، وانتهى عهد الصليبيين في الشرق .

المماليك وبلاد النوبة

نقرر أولا أن بلاد النوبة في التاريخ الوسيط تشمل ما يعرف الآن بشمال السودان تقريبا ، فهي تمتد من أسوان حتى مكان التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق « الخرطوم حاليا » ثم تمتد مشتملة مناطق من حوض النيل الأزرق ضاربة الى الشرق حتى أطراف الحبشة ، وضاربة الى الغرب مشتملة أجزاء واسعة من كردفان ودارفور .

وكان المصريون القدماء يطلقون على هذه البقاع اسم « خنت » ، ومعناها الأراضي الجنوبية ، إذ كان وادي النيل شماله وجنوبه يكون مملكة الراحنة (١) ، ثم ظهرت كلمة « نوبة » ابتداء من عصر البطلمية حوالي سنة ٢٠٠ ق.م ، وقد ظهرت هذه الكلمة فيما يبدو متصلة باسم شعب كان يعيش بها آنذاك ، وعلى مر التاريخ ظلت هذه البلاد متفاعلة تماما مع الأجزاء الشمالية من الوادي ، أو متحدة معها ، وكانت الوحدة هي الغالبة ، زاحفة من الشمال أو منبثقة من الجنوب ، وكان الانفصام يوجد أحيانا إذا خضع الوادي لسلطان أجنبي ، وفي هذه الحالة كانت حركات الاستقلال والوحدة تسير جنبا الى جنب ، وأوضح مثال لذلك ما قامت به دولة كوش في الجنوب ، فانه على إثر تولية الملك شاشنق الأول لليبي

Budge E, A : History of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia (١)
Vol, I p. I.

حكم مصر هجر طيبة مجموعة من سلالة الكهنة الى الجنوب ، وأنشئوا دولة كوش واتخذوا « ناباتا » عاصمة لها ، ثم أخذوا يعملون لتحرير الشمال ووحدته مع الجنوب ، ونجحوا في هذه المحاولة ، وعاد ملوك كوش الى العاصمة الموحدة طيبة وأسسوا الأسرة الخامسة والعشرين ، ولما زحف الآشوريون على مصر انكس الكوشيون وعادوا الى الجنوب والى عاصمتهم القديمة (١) .

ولم يكن الانفصال يستطيع أن يمس الصلات الثقافية والاجتماعية التى تربط بين الشمال والجنوب برباط وثيق ، ويمكننا أن نرى ذلك فى كثير من العادات المشتركة واللهجات .

ودخلت المسيحية مصر منذ مطلع العهد بالمسيحية ، وقد وجد الهاربون من غنت اليهود وطغيان الرومان فى مصر مأوى أسوة بالسيد المسيح وأمه اللذين لجأ الى مصر والمسيح طفل هربا من هؤلاء وأولئك واضطهد الرومان المسيحيين فى مصر كما اضطهدوهم فى كل البلاد التى حكموها ، فلجأ الى الجنوب جمع من القسس هاربين من الاضطهاد ، وبدأت المسيحية بذلك تدخل جنوب الوادى ، واتخذ سكان الوادى شماله وجنوبه الدين وسيلة لمقاومة الرومان واظهار سخطهم على حكمهم ، وفى القرن السادس الميلادى كانت المسيحية قد استطاعت أن تعم أكثر شعب النوبة وتكوّن مملكتين ، احدهما مملكة مصرية فى الشمال وعاصمتها دنقلة ، والثانية مملكة عكوة فى الجنوب وعاصمتها سوبا ، وفى سنة ٥٨٠م أصبحت المسيحية الدين الرسمى لهاتين المملكتين ، أما شرقي السودان (البجة) وغربه وجنوبه فقد ظلت على وثنيتهما فترة طويلة ، وانتقلت غالبا من الوثنية الى الاسلام فيما بعد (٢) .

(١) دكتور مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) محجوب زيادة : الاسلام فى السودان ص ١٦ .

ودخل الاسلام مصر في عهده المبكر ، وسرعان ما أدرك قساده المسلمين أن الزحف لابد أن يسير من الشمال الى الجنوب ، فأرسل عمرو بن العاص قائده عقبة بن نافع لبلاد النوبة ، ولكن هذه الحملة لم تحقق نجاحا يذكر ، وأن كانت قد أبرزت ضرورة الارتباط بين الشمال والجنوب ، وعاد المسلمون لدخول بلاد النوبة مرة أخرى بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وانتصرت هذه الحملة ودخلت دنقلة سنة ٦٥٢ م ، ثم عقدت مع مملكة مقرة اتفاقية « البقظ » وتعتبر معاهدة تبادل اقتصادي بين مصر ومقره ولا تحقق هذه المعاهدة فوائد ذات بال لمصر ، ولكن كانت رباطا بين الجارتين ، ولذلك حرصت مصر على أن يظل العمل بها قائما كرمز للعلاقات بين شطرى الوادى ، وقد كان ايقاف العمل بها مدعاة لحملات حربية تقوم بها مصر على النوبة ، كذلك التى قام بها صلاح الدين الأيوبي بقيادة أخيه توران شاه ، وإن كانت هناك أسباب أخرى لهذه الحملة ، وقد ظلت هذه المعاهدة معمولا بها حوالى ستة قرون .

وجاء عهد المماليك والارتباط بين الشمال والجنوب يتخذ معاهدة البقظ أساسا له ، وكان الاسلام قد انتشر في بلاد النوبة بين الأفراد ، وكانت مجموعات عربية قد هاجرت من الشمال الى الجنوب تحت ضغوط مختلفة (١) ومع هذا فالممالك التى كانت قائمة حتى مطلع عهد المماليك ظلت على المسيحية ، وقد أخذ المماليك أنفسهم بالقضاء على الصليبيين

(١) عند سقوط الدولة الأموية هرب كثير من بنى أمية وانصارهم ، واتخذ بعضهم طريقه الى بلاد النوبة عبر مصر أو عبر البحر الأحمر ، وهاجر من مصر الى النوبة عدد كبير من العرب عندما بدأت دولة أحمد بن طولون بمصر ، وكان أحد شيوخ ربيعة واسمه أبو المكارم هبة الله حظيا عند الحاكم بأمر الله الفاطمى لأنه قضى على الثائر (أبى ركوه) ، وقد منح الحاكم هبة الله لقب كنز الدولة ، وأصبحت ربيعة تعترف ببني كنز ، ونعم اولاد كنز الدولة بمكانة عظيمة في جنوب مصر حول اسوان ، ولكن العادل سيف الدين الأيوبي هاجهم فهاجروا الى بلاد النوبة .

في مصر ، فالقضاء على الصليبيين وعلى التتار كان هو النسب البذى يتقدم به الممالك لينالوا السلطة على مصر وما ينتبعها من أقطار ، وفي هذا الصراع بين الممالك والصاييين ظهر بشكل أو بآخر تأييد الممالك المسيحية بالنوبة للصليبيين ، وبخاصة عندما اقتحم الظاهر بيبرس ميناء سواكن واستولى عليها إثر اعتداء حاكمها على بعض التجار المصريين ، وكانت هذه الميناء هى التى يبحر منها مسيحيو النوبة في طريقهم الى الأمكنة المقدسة بفلسطين ، وبدأ على إثر ذلك توتر بين الشمال والجنوب ، وزاد التوتر حدة عندما قام الملك داود ملك مقرة بهجوم على أسوان أسر فيه جمعا كبيرا من المسلمين سنة ١٢٧٢ م ونهب ثروات الناس ، كما اعتدى على ميناء عيذاب ، وكانت من موانئ مصر الكبرى على البحر الأحمر في ذلك العصر (١) ، وكان الظاهر بيبرس مشغولا في معارك كبرى عند حدوث هذه الغارة ، فاكثفى بإرسال حملة تأديبية ردت المعتدين وهرست الحدود وعادت بالأسرى النوبيين ، ثم جاء دور الحملات المنظمة التى تمت في عهد بيبرس وقلاوون والأشرف خليل والملك الناصر ، وقد تطورت نتائج هذه الحملات بالعلاقة بسين النوبة ومصر تطورا انتهى بسقوط الممالك المسيحية وقيام مملكة اسلامية في النوبة ، وفيما يلي حديث به شيء من التفصيل عن هذه الحملات :

ويبدأ حديثنا التفصيلي بالكلام عن الظاهر بيبرس وجهوده في هذا المجال ، ويعتبر الظاهر بيبرس قمة سلاطين الممالك ، وقد قلنا من قبل إن نسب الممالك كان بما يحققونه للإسلام من انتصارات ، وقد وقعت نعمة هذا الهدف في أول أمرها على الظاهر بيبرس ، وقد حقق الظاهر أهدافا ضخمة ضد التتار والصاييين ، فلا غزو أن يثنى تجاه الجنوب وبخاصة ليتأثر من داود الذى كانت عواطفه مع الصليبيين ، وقد أتيحت للظاهر بيبرس الفرصة عندما استنجد رجل اسمه « شكندة » يطالب

بعرش « مقرة » سالفه الذكر ، وكان ابن أخيه « داود » قد انتزعه منه ، فانتهاز الظاهر بيبرس هذه الفرصة ليقضى على داود ، غاعد جيشا ضخما زحف على بلاد النوبة سنة ١٢٧٦ ، والتقى هذا الجيش بجيش داود فهزمه وفر داود ، وتم تتويج « شكندة » في دنقلة في نفس العام ، وعقدت معاهدة معه تعيد الرباط الوثيق بين النوبة ومصر ، وتجعل سلطان مصر هو في الحقيقة سلطانا على كل الوادى ، وأهم شروط هذه المعاهدة ما يلى :

١ — يصبح الملك شكندة تابعا لسلطان مصر ونائبا عنه في حكم بلاد النوبة .

٢ — على سكان بلاد النوبة بعد أن طلبوا الأمان أن يدخلوا الاسلام أو يدفعوا الجزية .

٣ — أن تكون بلاد العلا وبلاد الجبل ملكا خاصا لمصر .

وهناك شروط أخرى يمكن أن تدخل ضمن الشرط الأول ، ولكن المهم أن « مقرة » أضحت جزءا من السلطة المصرية وأن سلطان مصر أصبح بيده عزل ملوك النوبة وتعيينهم ، وأن مصر استعادت استعادة ثامة بلاد العلا وبلاد الجبل ، وهى حوالى ربع بلاد النوبة ، وكانت جزءا من مصر ضاع منها عقب انسحاب القوات الرومانية في عهد دقلديانوس (١) ، ثم إن النوبيين بهذه المعاهدة أصبحوا أهل ذمة ، ولهذا أنشأ السلطان بيبرس ديوانا سماه ديوان النوبة لمراقبة جمع الجزية والخراج وتعيين العمال (٢) .

(١) دكتور مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ص ١٤٩ — ١٥٠ وانظر الهامش .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٢٣ .

وقتل شكندة في العام الذي توفي فيه ببيرس ، فقفز على عرش النوبة أمير يدعى « برك » متجاهلا أن تعيين الملوك بالنوبة لا بد أن يتم بموافقة القاهرة ، وكان السلطان في مصر قد آل الى قلاوون فأرسل هذا جيشا قبض على برك وقتله وولى مكانه أميرا يدعى سيمامون . وهذا الوضع أقنع ملوك علوة بالنوبة العليا بقوة سلطنة مصر واصرار ملوكها على مكانتهم بالنسبة لبلاد النوبة ، فتقرب ملوك علوة أيضا من سلاطين مصر وأعلنوا لهم الولاء ، وتمت بذلك تبعة مملكتى النوبة لمصر ، ولكن سيمامون كان كثير الحنث والغدر فاستهدفت بلاده لعدة حملات كان يفر منها ويختفى ثم يعود للظهور عقب عودة الحملة ، فتعود الحملة أزجره وهكذا ، وانتهى الأمر بأن أقر قلاوون سيمامون على الملك بعد أن أقسم على الولاء والطاعة والامثال ودفع الجزية .

وفي أثناء عهد قلاوون كان الاسلام قد زاد انتشاره في الجهة الغربية وظهرت دول اسلامية مثل الكانم وبرنو ، وكانت تربطها بمصر علاقات وتقامم مما جعل المملكة المسيحية شبه محصورة وسط نطاق من الدول الاسلامية المتفاهمة (١) .

وعقب وفاة قلاوون انتهز سيمامون الفرصة فتمرد على سلطة مصر من جديد ولم يرسل ما تعهد به من جزية وضرائب ، فأرسل له الأشرف حملة كبيرة ، ففر هذا كعادته منها ، وسارت الحملة حتى وصلت أرض الفيلة والقردة والخنازير والزرافات والنعام ، مما يشير الى أن سلطة مصر وصلت الى جنوب السودان ، واختفى سيمامون فلم يظهر له أثر بعد ذلك ، وراث سلطات مصر ملكا جديدا هو Boudemma وكان من الأمراء المسجونين بمصر قبل ذلك .

وجاء دور الناصر محمد ، وفي عهده كان ملك النوبة المسيحي اسمه كيرنيس وهو آخر الملوك المسيحيين ، وقد ظهر منه تنكر لسيادة مصر

(١) دكتور سعيد عاشور : العصر المايكي في مصر والشام ص ٨٢ .

سنة ١٣١٦ فامتنع عن تنفيذ معاهدة البقط ، وقد رأى السلطان الناصر أن الوقت قد حان لتعيين ملك مسلم على بلاد النوبة ، إذ كانت جموع المسلمين قد كثرت ، وافتتز الملك الناصر فرصة تمرد كيرنجيس فأرسل حملة بقيادة الأمير عز الدين أيك واصطحبت الحملة معها أحد النوبيين المسلمين واسمه عبيد الله برشنبو ، وكان قد تربى في مصر واعتنق بها الاسلام ، ورأى الملك الناصر أن تعيينه سيضع العلاقات بين مصر والنوبة وضعا جديدا ، وعندما أحس الملك كيرنجيس بهذه الرغبة من السلطان الناصر ، أرسل ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين إلى السلطان الناصر ومعه رسالة جاء فيها : إذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولي البلاد لمسلم فهذا مسلم وهو ابن أختي ، والملك ينتقل إليه من بعدى (١) ، ولم يسمع الملك الناصر لهذه الرغبة وعين برشنبو ملكا ، ودارت عدة مناورات انتهت بأن استقر الملك لكنز الدولة الذي نشر الاسلام وتوطدت أقدام العرب في عهده بصورة واضحة ، فكنز الدولة — كما سبق أن ذكرنا — ينحدر من أرومة عربية أصيلة وهو مسلم وأمه من أسرة ملوك النوبة ، وسرعان ما بنى المسلمون مسجدا كبيرا على أنقاض الكنيسة المسيحية بدنقلة ، وكان ذلك في شهر يونيو سنة ١٤١٨ ، وبذلك انتهت المسيحية من مملكة مقرة ، وبإسلام هذه البلاد انتقلت العلاقات بينها وبين مصر إلى طابع جديد ، هو طابع التعاون والود والتبادل الثقافي والتجاري ، وتوقفت الجزية بطبيعة الحال ، وفي الجزء السادس وأصلنا دراستنا فشرحنا نهاية دولة علوة أيضا وقيام مملكة إسلامية تحل محل الدولتين المسيحيتين (٢) .

(١) التويرى : نهاية الأرب ج ٢٠ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢) ج ٦ ص ٣٠٥ وما بعدها .

استيلاء المماليك على قبرص وتهديد رودس

استولى المماليك في عهد السلطان بارسباى على جزيرة قبرص وهددوا جزيرة رودس ، وكانت جزيرة قبرص قد خضعت لسلطة ريتشارد قلب الأسد منذ عهد الحروب الصليبية ، وأصبحت قاعدة لإمداد الصليبيين بالمعونة العسكرية ، وبعد طرد الصليبيين من الشام أصبحت هذه الجزيرة ملجأ للشرازم الأخيرة من الصليبيين الذين طردوا من الأرض الإسلامية ، وبخاصة الاستبارية (فرسان القديس يوحنا) ، كما أصبحت الجزيرة ملجأ للقراصنة ولأعداء العرب والمسلمين ، ومن هنا بدأ التوتر يظهر بين قبرص ودولة المماليك ، وهاجم القبرصيون سواحل مصر والشام عدة مرات في مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد اضطر بارسباى أن يفكر فى احتلال قبرص ، فأرسل لها بضعة سفن لجس نبض القوة بالجزيرة ، فعادت هذه السفن بالغنائم والأسرى ، مما شجع بارسباى الى الزحف للاستيلاء عليها ، وقد تم ذلك سنة (٨٣٠ هـ = ١٤٢٦ م) وبخرت الجزيرة أمام قوى مصر وأسر ملكها وجىء به الى القاهرة ، وظل بها حتى افتدى نفسه بغدية كبيرة ، وبقيت الجزيرة تحت سيطرة مصر ، وظلت تدفع جزية سنوية حتى دخل العثمانيون مصر (١) .

أما رودس — وكان الاستبارية قد انتقلوا اليها — فقد حاولت مناصرة جزيرة قبرص ، ولكن قوى المماليك تصدت لها فى عهد السلطان جقمق وغزتها ثلاث مرات حتى أسكتت حسها (٢) ، ثم خضعت رودس أخيراً للسيادة العثمانية سنة ١٥٢٢ ، ومنذ ذلك التاريخ انتقل مركز الاستبارية الى جزيرة مالطة ، حيث ظلوا الى أيام نابليون بونابرت الذى

(١) الدكتور سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٤ وما بعدها .

(٢) السيوطى : غزوات قبرص ورودس ص ١٤ — ١٥ .

قضى عليهم متخذاً من ذلك وسيلة للدعاية لدى المسلمين (١) .

كشف طريق رأس الرجاء الصالح وأثره

في أواخر القرن الخامس عشر استطاع البحارة البرتغاليون أن يجدوا طريقاً إلى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول إفريقيا ، وبدون المرور في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، ويعرف الطريق الجديد بطريق رأس الرجاء الصالح ، وقد اشترك عدد من البحارة البرتغاليين في المحاولة التي أدت لهذا الكشف ، وكان النجاح النهائي على يد « فاسكودي جاما » الذي بدأ رحلته سنة ١٤٩٦ .

وقد سبب هذا الكشف لمصر وسوريا خسارة مالية فادحة ، فقد كانت التجارة عبر دولة المماليك رائجة رواجاً كبيراً ، لأن مصر والشام حلقتا محل المراكز التجارية الصليبية التي كانت موجودة قبل سقوط الصليبيين ، ثم لأن الطرق البرية بين أوروبا وآسيا (عبر الأناضول) قد دمرتها تحركات المغول فأصبحت التجارة بين آسيا وأوروبا بحرية ، ومعنى ذلك أن أصبحت مصر والشام تلعبان دوراً هاماً فيها بواسطة البحر الأحمر والبحر المتوسط ، وهكذا كانت سواحل مصر الشمالية أسواقاً يزدُّ لها الأوروبيون من حين إلى آخر لبيعوا من حاصلاتهم ، وليبثاعوا من حاصلات الهند والصين والهند الصينية وإندونيسيا ، هذه البضائع التي كانت تنقل إلى الاسكندرية وإلى الموانئ العربية الأخرى ، ولكن البرتغاليين استطاعوا أن يكشفوا الطريق إلى الهند والشرق الأقصى بواسطة الدوران حول إفريقيا ، ودون حاجة إلى الموانئ المصرية ، وقد خسر المماليك بذلك خسارة فادحة ، إذ كان جل اعتمادهم على الضرائب التي يجيئونها من هذه التجارة العظيمة .

(١) دكتور إبراهيم طرخان : مصر في عهد المماليك الشراكسة ص ١١٤ .



ولم تكن الخسارة بإهمال البحر المتوسط وتحول التجارة العالمية عنه واقعة على دولة المماليك فحسب ، وإنما أصيبت بها كذلك المراكز التجارية بجنوب أوروبا وبخاصة البندقية ، ولذلك اتفق السلطان العورى مع البنادقة على حرب البرتغال في محاولة لاستعادة مكانة البحر المتوسط ، وأنشأ السلطان العورى لذلك أسطولاً كبيراً ، أسهم فيه البنادقة بالأخشاب اللازمة ، وسرعان ما ظهر هذا الأسطول في المحيط الهندي وتمتدّى للأسطول البرتغالى ، ووقعت معه موقعة بحرية بالقرب من شواطئ بمباى ، انتصر فيها المصريون انتصاراً كبيراً ، ولكن البرتغاليين سرعان ما أعدوا أسطولاً آخر لمواجهة المصريين ، وحدثت موقعة أخرى أمام بمباى سنة ١٥٠٩ م انتصر فيها البرتغاليون انتصاراً ثبتت مركزهم الحربى وكسب النصر للطريق الجديد ، وكان من عوامل هذا الانتصار أن دولة المماليك كانت تمر في هذه الأثناء بفترة الصراع التى سبقت الصدام بينها وبين العثمانيين .

وقد أدرك السلطان سليم — بعد فتح مصر — خطورة هذه الخسارة وبخاصة أن البرتغال أغرت المراكز التجارية بشمال البحر المتوسط بالتحول للخط الجديد ، فحاول أن يستعيد للبحر المتوسط مكانه التجارى ، لا عن طريق الحرب مع البرتغاليين ، وإنما عن طريق إغراء المراكز التجارية بجنوب أوروبا باستمرار استعمال الطريق القديم وعدم التعامل مع الطريق الجديد ، فعقد مع البنادقة معاهدة تجارية سنة ١٥١٧ كانت روح التساهل فيها واضحة رجاء جذبهم مرة أخرى ، وكان مما ضمنته لهم هذه المعاهدة أن منحه قناصلهم فى الاسكندرية والموانئ الأخرى حق الفصل فى قضايا رعاياهم ، كما ضمن تيسير وصول سفنهم للموانئ المصرية ، وتيسير التعامل مع ممثليهم على العموم ، وفى سنة ١٥٢١ م

عقد السلطان سليمان معاهدة أخرى مع البندقين في ثلاثين فصلا ،
ثبتت فيها الامتيازات السابقة وزاد عليها ، وحصل الفرنسيون على
امتيازتهم الأولى سنة ١٥٣٥ والإنجليز سنة ١٥٨٥ م ، والعجيب أن
هذه الامتيازات لم تأت بطائل فيما يخص بإحياء الخط التجارى عبر
البحر المتوسط ، وعلى العكس أصبحت أساسا للامتيازات التى منحت
لهما بعد شيئا عذلا للترك والبلاد التابعة لهم ، ولم تتخلص منها هذه
البلاد إلا بعد صراع طويل .

نهاية حكم المماليك

إن نهاية المغول في العراق وغربي آسيا ، أوقفت قوتين كبيرتين وجها لوجه ، هما قوة العثمانيين وقوة الدولة الصفوية ببلاد فارس ، ومع أن كلا منهما قوة إسلامية ، إلا أن الصفويين كانوا من غلاة الشيعة ، وكان الأتراك سنيين ، وهذا فرّق بينهما إلى حد كبير ، وكانت دولة المماليك بحكم موقعها تتوسط هاتين القوتين ، وقد شب نزاع طويل بين العثمانيين والصفويين انتصر فيه العثمانيون في النهاية ، ودخل سليم الأول العراق سنة ١٥١٢ م وكان سلطان المماليك آنذاك هو قانصوه الغوري (١٥٠٠ — ١٥١٦) وقد اتهمه سليم بممالة الصفويين ، وبأنه آوى بعض اللاجئين السياسيين من الأمراء العثمانيين الخارجين عليه ، وأخذ لذلك يعدّ العدة للهجوم على مصر ، وقد استطاع سليم الأول أن يرشّو بعض أتباع الغوري مثل خير بك نائب حلب وجان برّدى الغزالي نائب حماة ، كما كان الجيش الانكشاري يستعمل الأسلحة النارية ذات الرمي البعيد في وقت كان المماليك لا يزالون يعتمدون على البطولة الشخصية ، ولما دارت المعركة في مرج دابق سنة ١٥١٦ أظهر قانصوه الغوري وبرجاله بطولة خارقة ، ولكن خير بك الفائز قائد الجناح الأيسر انهزم برجاله في ساعة حاسمة ، فدارت الدائرة على المماليك وسقط قانصوه ميتا ، واستولى الجيش العثماني على رجاله وأمواله (١) .

وتولى طومان باي السلطنة بعد قانصوه ، والتقى بجيش العثمانيين عند الريدانية (المباسية) سنة ١٥١٧ . وخافه أيضا بعض أتباعه فهاجرت عليه الهزيمة ، ولجأ طومان باي إلى حسن بن مرعي وأخيه شكري من زعماء العربان وكانت له عليهم يد ، وعلى الرغم من أنهم أقسموا ألا يخونوه ، فانهم سرعان ما أسلموه للسلطان سليم الفاتح الذي شنقه على

(١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٣ ص ٤٤ وما بعدها .

باب زويلة في إبريل من نفس العام ، وانتهت بذلك دولة المماليك ، وبدأ حكم العثمانيين بمصر ، والمؤرخ المصرى فى العصر الحديث يضع تعليقا قصيرا على هذا الانتقال هو أن مصر تحولت من الاستقلال الى التبعية .

ماقبة الغدر :

بقيت كلمة خاضة بالغدر الذى قام به حسن بن مرعى وأخوه بالسلطان الذى لجأ لهما ، فإن يد المقدر عاقبت الغادر وثأرت منه ، فقد انتهت حياة حسن بن مرعى وأخيه شكرى على نحو ما انتهت عليه حياة طومان باى بل بمزيد من النكفى والسخرية ، فقد أصدر خير بك أمره بإعدامهما الثمرد ظهر منهما وخيانة بدت فى تصرفاتهما ، فأعدمهما الشراكسة وشرب بعضهم من دمهما ، وقطعت أجسامهما بالسيف قطعا وعلقت رأساهما فى عنق قرص طومان باى ، الذى كان يركبه يوم لجأ إليهما ، وطيف بهما فى القاهرة بين فرح الناس وسرورهم ، ويقول ابن إياس إن عيال السلطان طومان باى لسا رأوا رأس حسن بن مرعى معلقة فرحوا وأطلقوا الزغاريد وتخلقوا بالزعران (١) .

وينبغى أن نوضح حقيقة كبيرة الأهمية هى أن الاسلام كان عاملا مهما من بين العوامل التى كسبت للعثمانيين النصر ، وقد وقفت مصر وسوريا بنجاح أمام الصليبيين وأمام المغول ، وباسم الاسلام انتصرت فى نضالها مع هؤلاء وأولئك ، ولكن الزاحف هذه المرة كان مسلما ويشيد بإجماع كلمة المسلمين وانتصار السنة ، ولا شك أن هذا كان له ثقل يذكر فى ميزان القوى المناضلة .

حضارة مصر في عهد المماليك

التجارة والمال في عهد المماليك :

تحدثنا من قبل عن التجارة وكيف أن دولة المماليك كانت تستغل موقعها أروع استغلال بعد سقوط الإمارات الصليبية وبعد تدمير المغول للطرق البرية ، ونضيف هنا أن تجار مصر وسوريا أصبحوا وسطاء في هذه التجارة الرائجة ، واستخدموا في ذلك رجوس أموال كبيرة ، واتخذوا لهم وكلاء في عدن والخليج الفارسي والهند والشرق الأقصى ، ورحل بعضهم ليعيش في هذه المراكز ، ليمشرو النشاط التجاري الهائل البضى كانت دولة مصر تحميه وتربح عن طريقه ثروة كبيرة ، وقد توقف جل هذا النشاط — كما قلنا من قبل — بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، إذ باشرت أوروبا التجارة مع الهند بواسطة هذا الطريق الجديد وحلت لشبونة محل الاسكندرية والسواحل العربية وانقطع بذلك مصدر كبير من مصادر الثروة الى حكومة مصر والشعب العربي ، وخاصة أن التجارة بين أوروبا وبين الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح كانت — مع بعد المسافة — أيسر من التجارة عبر مصر ، فهنا كان يلزم أن تنقل البضاعة من السفن بالبحر الأبيض الى السفن بالبحر الأحمر بواسطة القوافل البرية ، وأما عن طريق رأس الرجاء الصالح فان السفن تنقل البضاعة مباشرة الى هدفها دون حاجة الى تحكم المماليك وتكاليف الوسطاء والعمال ولذلك نجد أن التجارة تحولت كلها أو أكثرها الى هذا الطريق الجديد (١) .

(١) يلاحظ أن فتح قناة السويس أعاد لهذا الخط التجاري قيمته ، فقد أصبحت المسافة من أوروبا الى الهند متصلة اتصالاً مائياً وأقرب بكثير من طريق رأس الرجاء الصالح ، بيد أن الفائدة هنا هي فقط في دفع ضرائب العبور في القناة ، وليس فيها من حاجة لايد مصرية كثيرة كما كانت الحال أبان عهد المماليك .

الزراعة :

وتحدثنا من قبل عن الزراعة ، وأشرنا الى ما بذله أكثر سلاطين المماليك من العناية بالترع والجسور ، ونهضت الزراعة نهضة واسعة في ظل الأمن ، ولكن الاضطرابات التي حدثت في بعض العهود قللت من النشاط الزراعي ، على أن الفلاح على العموم كان مظلوماً ، مثلاً ، فإذا اهتم المماليك بالزراعة فإن مصدر ذلك رغبتهم في الحصول على ثروات أكبر ، أما الفلاح الكادح فلم يكن ينال مما تخرجه الأرض إلا الكفاف ، وعاش في دولة المماليك تابعاً وكل أمره كان في يد مالك الإقطاع .

الإقطاع :

والحديث عن الإقطاع الذي أشرنا إليه آنفاً يحتاج الى تفصيل وإبانة ، ومن المجيب أن الإقطاع في العصر المملوكي لم يكن مقصوراً على الأرض ، وإنما تعداها الى موارد الدولة الأخرى ، فكما تقطع مساحة من الأرض الى أمير من الأمراء ، تقطع جزية مجموعة من أهل الذمة أو ضرائب المكوس الى أمير آخر ، ولم يقلب الناصر محمد بن قلاوون هذه السياسة ، ففصر الإقطاع على الأرض ، ولكن هذا لم يستمر بعده فعمادت جميع الموارد تقطع حتى نهاية عهد المماليك (١) .

وكان الإقطاع يتبع سياسة القرايط على اعتباره أن الدخل كله أربعة وعشرون قيراطاً ، للسلطان أربعة قرايط وللأمراء والمنح عشرة ، وللأجناد عشرة ، هذا من ناحية الكم ، أما ناحية الكيف فتتبع هذا الترتيب التنازلي بمعنى أن السلطان يخص نفسه بأجود الأراضي وأيسر الإيرادات تحصيلاً ويليها الأمراء ثم الأجناد .

وكانت هناك مساحة محدودة للأوقاف ، ولكن هذه كثيراً ما كانت تمتد لها يد الإقطاع ، بأن يحلها السلطان ثم يقطعها .

وطبيعى أن الاضطراب الذى شمل عصر المماليك ، مسَّ التنظيم الإقطاعى بمعنى أن أحدا لم يكن يضمن استمرار الإقطاع له أية فترة من الفترات ، فكل انقلاب يعقبه إعادة التوزيع بقصد حرمان أتباع السلطان السابق ومنح أتباع السلطان الجديد ، وكان هناك إعادة توزيع أحيانا فى عهد السلطان نفسه ، ويكون ذلك جزئيا أو كليا حتى يتمكن السلطان من مكافأة المجدين وتقليل الإقطاع الممنوح لمن نسب لهم الإهمال أو ضعفوا عن القيام بتبعاتهم ، وكان الإقطاع أحيانا يؤخذ كله من هؤلاء ، وقد تكون إعادة التوزيع ناتجة عن حاجة السلطان لإقطاعات جديدة يمنحها لبعض أنصاره أو لبعض الطامعين المطالبين بمزيد من الدخل ، وفى هذه الحالة يستولى السلطان على بعض إقطاعات من أصحابها ، ومن عوملوا كذلك ابن إياس المؤرخ الشهير فقد استرد السلطان بعض إقطاعاته ليمنحها الى بعض عبيده الذين ما فقتوا يطلبون مزيدا من العطاء (١) .

والإقطاعات التى أشرنا إليها آنفا كانت كما رأينا مرتبطة بالوظائف ، ومن هنا كان ينتقل الإقطاع من شخص الى آخر تبعا لوظيفته ، وهو بذلك إقطاع استغلال لا إقطاع تمليك ، ومن هنا كذلك حرص كثير من الناس على أن يكون لهم مال ثابت يورثونه ذويهم خوفا على الإقطاع الذى يتمنح ويمنع ، وكان طريقهم للحصول على ذلك المال الثابت أن يشتروا من بيت المال قطعة من الأرض بمدخراتهم الخاصة ، وإن كان هذا المال أيضا عرضة للمصادرة ، إذا شاء السلطان ذلك .

وكانت وفاة شخص من المقطع اليهم فرصة للطامعين لينالوا ما كان يهده ، ومن هنا تعجل بعض الناس وفاة المرضى أو كبار السن ، بل ربما قتلوا ذلك الشخص بطريق أو بآخر كما حدث فى عهد السلطان الغورى

الذى ثبت له ذلك فحرم القتل من الإقطاع الذين ارتكبوا ذلك الجرم
الأتيم من أجله (١) .

حياة الإقطاعيين :

وكان الأمير المملوكي في إقطاعه يبدو كأنه سلطان في مملكة صغيرة ،
تكاد تكون مستقلة ، فهو يقيم في قصر ضخم ، حوله الحشم
والأتباع ، وله حرسه الخاص وله كذلك مماليكه ، الذين يشتريهم بماله
ويربهم ليكونوا حرسه وأتباعه ، وهو يدبّر شؤون إقطاعه ، فهو حاكم
مطلق بين فلاحيه وموظفيه ، يقضى بينهم أو يعين لهم القضاة ، ويفرض
عليهم الضرائب ، وليس من حقهم مغادرة الإقطاع ، فإن غادروه أعيدوا
له قسرا وربما عوقبوا على هذا التصرف .

الصناعة :

ومن جهة الصناعة فقد نشطت بعض الصناعات في هذا العصر ،
كصناعة النسيج والأواني المعدنية والزجاج والجلود وأصبحت لمصر
شهرة واسعة فيها ، وكصناعة الأسلحة والسفن ، واشتهرت في هذا
العهد الصناعات الدقيقة وفن الزخرفة ، وقد تحدثر الينا من هذا العهد
نماذج رائعة من المصنوعات الفنية الحديدية ، والأدوات النحاسية
والأواني الزجاجية والمحفوظات الخشبية ، وهما يستحق إشارة خاصة
هنا الأدوات النحاسية ، والزهرينات ، والأباريق والأطباق والشمامسة
والمباخر وغلافات القسرآن ، وجميعها زاهرة بضروب الزركشة
والتزيين (٢) .

الطبقات في العصر المملوكي :

وقد أشرنا في أحاديثنا السابقة إلى الطبقات في المجتمع المملوكي ،

(١) دكتور ابراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة

ص ٢٥٧ .

(٢) فيليب حتي : تاريخ سوريا ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

وقد كان الفلاح في القاع بين هذه الطبقات ، وكان التجار والصانع في منزلة أعلى من الفلاح ، إذ أن التجار والصناع كانوا يعيشون غالبا في المدن بعيدين عن الإقطاع وما فيه من إذلال وقد يكون لبعضهم ثراء جدير بالذكر ، أما أمراء الممالك فكانوا في القمة في هذا المجتمع ، ويغلب أن يكون أعضاء الجيش من الممالك المستوردين ، أما أبناء الممالك فلم يكن لهم أن يلتحقوا بالجيش وإنما كانوا يباشرون العمليات الإدارية والكتابية ، أما النابيهون من السكان الأصليين ، فكان يمكن أن توكل لهم الوظائف الحسابية والقضائية والتعليمية .

وهناك طبقة أخرى ظهرت في المجتمع المصري في مطلع عهد الممالك وهي طبقة طوائف التتار التي فرّت من حكم قادتهم ولجأت الى مصر ، وقد اعتنقت هذه الطوائف الدين الاسلامي وأخذت على أخلاقه ، وقد رحب بهم سلاطين الممالك وبخاصة بيبرس رجا أن يتخذهم أعوانا له وينتفع بما عرّف عنهم من قوة وشجاعة ضد منافسيه في الداخل وأعدائه في الخارج ، وقد أسكنهم حتى (الحسينية) وكان فيهم جمال رائع مما جعل هذا الحي يشتهر بالجمال .

وطبيعي أن الممالك وهم يعيشون في جو عسكري اهتموا بالالعاب الفروسية وسباق الخيل ولعب الكرة بالصولجان ، كما اهتموا بإحياء الحفلات في الأعياد الاسلامية والمسيحية والوطنية .

الآثار والمنشآت :

وقد نهض فن العمارة إبان عهد الممالك نهضة واسعة ، وآية ذلك تلك المؤسسات العظيمة من مدارس ومساجد ومستشفيات التي تزدان بها القاهرة والاسكندرية وغيرها حتى الآن ، وهي بما تحويه من هندسة وزخرفة تتك على مدى الرقى الذي وصل اليه فن العمارة في هذا العهد .

وقد ذكرنا أهم منشآت الممالك البحرية عند الكلام عن أشهر

سلاطينهم أما مؤسسات الممالك البرجية وآثارهم فأهمها قبة يشبك الدوادار التي أنشأها خلال سلطنة قايتباى ، والمعروف مكانها اليوم بالقبة الفداوية ، وكثيرا ما استضاف الأمير بشبك السلطان قايتباى بها ، وكانت هذه القبة مكانا ينزله السلاطين للاستراحة والاستجمام عند خروجهم من القاهرة أو عودتهم إليها .

وكان للأمير أزيك قصر ضخم في المنطقة التي عرفت باسمه وهي الأزيكية .

واهتم هؤلاء الممالك ببناء المساجد وبخاصة السلطان قايتباى الذى بنى عدة مساجد منها مسجد باب الخرق (الخلق) ومسجد وحوض سبيل بالعباسية ومسجد بالصحراء ، ومدرسة وضريح بالقرافة الشرقية .

ومن المساجد الشهيرة جامع المؤيد بجوار باب زويلة وكانت به مكتبة كبيرة ، ومسجد الغورى بالقرب من الأزهر ، وله مسجد آخر خلف ميدان القلعة وهو الذى بنى مؤذنة الأزهر ذات الرأسين (١) .

ووجه الممالك عنايتهم للمدارس فبنى مبرقوق مدرسته بين القصرين ، وبنى الأمير جمال الدين الأستاذار في عهد السلاطان فرج مدرسته التى نسبت إليه فعرفت بالجمالية ، وبنى الأشرف برسباى ثلاث مدارس إحداها بسرياقوس والثانية بالقاهرة وهى المعروفة بالأشرفية والثالثة بالصحراء وقد دُفن بها .

(١) مجالس السلطان الغورى : نشره الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٢٣ وما بعدها وانظر تاريخ المساجد الاثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب : ج ١ ص ١٢١ - ١٢٢ .

ومن أهم آثار برقوق وابنه فرج الصريح والخانقاه بمقابر الماليك . والعجيب أن الماليك كانوا كثيرا ما يستعملون في مدارسهم ومساجدهم مواد البناء يأخذونها قسرا من أصحابها أو ينهبونها من مؤسسات أخرى ، وكانوا كثيرا ما يلجئون الى السخرة فيرغمون العمال على العمل دون أجر في هذه المنشآت التي كان المفروض أنها خيرية .

ومن منشآت هؤلاء الماليك مجموعة من الأبراج والقلاع الحربية ، ومجموعة من القناطر والجسور والخلاجان .

وكان لكل أمير أو سلطان شارة تسمى « رنك » ينقشها على سلاحه وأدوات منزله ومبانيه ، فكان منهم من اتخذ الأسد شارة له ، أو الصقر وهكذا .

مزيد من الكلام عن آثار مصر في عهد الماليك :

يعتبر عهد الماليك عهداً غنيا بالآثار ، وقد امتدت هذه الآثار من مطلع عهد الماليك حتى نهايته كما ذكرنا آنفاً ، فمن مطلع عهد الماليك يبرز مسجد قاهر التتار (قطز) في القصير إحدى قرى غاقوس ، وعن نهاية عهد الماليك تبرز آثار السلطان الغورى وبخاصة مئذنته ومدرسته بالغورية وبين هذين توجد مجموعة ضخمة من المساجد من أهمها :

— مسجد الظاهر ببيرس بحى الظاهر .

— مسجد وقبة قلاوون بالبحاسين .

— مسجد السلطان حسن بالقلة .

— مسجد برقوق .

— مسجد قليتباي .

ويكثر في العهد المملوكي تشييد الخوانق والتكايا والسبل ،
والخانقاه تعتبر أهم هذه المنشآت ، ومعنى الخانقاه : دار موقوفة لسكنى
الزهاد والصوفية ، وينفق عليهم من أوقاف يحددها أهل الخير ،
ولعل أقدم خانقاه بالقاهرة هي خانقاه سعيد السعداء التي أوقفها صلاح
الدين الأيوبي على فقراء الصوفية الوافدين عنى مصر ، ورتب لهم
جميع حاجاتهم من طعام وأكسية •

ومن خوانق مصر خانقاه بيبرس الجاشنكير وهو السلطان رقم (١٢)
في قائمة سلاطين المماليك البحرية ، وخانقاه الناصر محمد بن قلاوون
ولا تزال موجوده حتى الآن وتعرف « بالخانكة » •

أما التكايا فمؤسسات عرفت في العصر المملوكي أيضا ، وكانت
أمكنة تضم العاطلين حيث يجدون بها حاجاتهم فلا يقدمون على مغامرات
وحرركات اضطرابات ضد السلطة •

أما السبل فأمكنة تقدم الشراب للمارين مرورا سريعا حيث يجدون
مكانا يستظلون به وقتا قصيرا ويشربون أو يأخذون حاجتهم من الماء
ثم يواصلون رحلتهم ومسيرتهم •

ولا تزال آثار التكايا والسبل موجودة في حي الدراسة والعباسية •

العلوم والمعارف :

يزدان عصر المماليك في مصر وسوريا بنخبة ممتازة من الفحول والعلماء في
مختلف الميادين ، بحيث يصعب أن ينافسه عصر آخر ، وإن اسم كل
واحد من هؤلاء العلماء يحمل معانى كثيرة ، ويشير الى تفوق ونضج في
ميدان الثقافة والفكر ، وسنذكر بعض هؤلاء فيما يلي مرتبين حسب تواريخ
وفاتهم :

• وأول من تقابل الطبيب العظيم « ابن أبي أصيبعة » (١٢٦٩ م) وقد تعلم الطب على أبيه في دمشق ثم استكمل دراساته الطبية في البيمارستان الناصري في القاهرة ، وقد وضع تراجم للأطباء في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ويحوى ٤٠٠ ترجمة •

ويجىء في تاريخ الوفاة بعده ابن خلكان (١٢٨٢ م) وهو أبرز مؤلفي السير في الاسلام ، وقد جمع في كتابه العظيم « وفیات الأعيان » ترجمة حياة ٨٦٥ من الأعيان والعظماء ، ويعد كتابه مرجعا هاما للباحثين والدارسين •

وعمل ابن خلكان أوحى لمؤلفين متعاصرين أن يسيرا على نهجه ، أحدهما الكتبي الحلبي (١٣٦٣ م) الذي أكمل عمل ابن خلكان بكتابه « فوات الوفيات » وهو يضم ٥٠٦ تراجم ، أما الكاتب الآخر فهو الصفدي (١٣٦٣ م) وقد كتب كتابا بعنوان « الوافي بالوفيات » وبه ١٤٠٠٠ سيرة •

ثم يجىء على بن النفيس (١٢٨٨) وكان رئيسا للأطباء في مستشفى قلاوون •

وبعد ذلك يجىء الدمشقي (١٣٢٦) وقد ألف « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » •

ومن علماء هذا العصر المشهورين ابن تيمية (١٣٢٨) وهو يقف في القمة بين الشيوخ والفقهاء ، وقد رفع صوته ضد تقديس الأولياء وتقديم الذنور لهم ، وهو المذهب الذي اعتنقه الإصلاحيون في نجد فيما بعد •

ومن مؤرخي هذا العصر « أبو الفدا » (١٣٣٢) صاحب التاريخ والسير ، ومؤلفاته تدعو للإعجاب والتقدير : والحديث عن أبي الفدا

ميشدختا لأحدث عن صديقه ابن نباته المصرى (١٣٦٦) الذى كان من الشعراء الممتازين •

ومن علماء هذا العصر ابن فضل الله العمرى (١٣٤٩) الذى شغل منصب صاحب الخاتم فى بلاط المماليك بالقاهرة ، وهو مؤلف « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » •

ومن فقهاء العصر السبكى (١٣٥٥) وقد ولد فى بيت بالمنوفية ، وكان رئيس الشافعية فى عصره ، ومن مؤلفاته طبقات الشافعية وشفاء السقام فى زيارة خير الأنام الذى يرد به على ابن تيمية •

وقد عاش فى هذا العصر ابن خلدون (١٤٠٥) المؤرخ والباحث الاجتماعى العظيم ، وهو الذى قرّر لأول مرة أن الأحداث التاريخية تقوم على أسس اقتصادية وجغرافية واعتبارات محددة ، وألزم دراسة ذلك عند دراسة التاريخ •

ومن مفكرى هذا العصر محمد بن عيسى الدميرى (١٤٠٥) مؤلف كتاب : حياة الحيوان •

ومن مفكرى هذا العصر كذلك ابن دقماق المصرى (١٤٠٦) وهو مؤلف : الانتصار لواسطة عقد الأمصار •

ونصل الى القلقشندى (١٤١٨) صاحب الموسوعة العظيمة المسماة : صبح الأعشى فى صناعة الأنشاء •

ثم المؤرخ المصرى العظيم المقرئى (١٤٤٢) وهو مؤلف الخطط والسلوك واتعاظ الحنفا ورسالة عن النقود • • •

ويجئ بعد ذلك إمام العصر ابن حجر العسقلانى المولود المصرى

حياة (١٤٤٩) وهو مؤلف : الدرر الكامنة في علماء المائة الثامنة ، والاصابة في تاريخ الصحابة وفتح الباري في شرح أحاديث البخارى .

ثم يجىء العيني (١٤٥١) وقد ولد في حلب وولى التدريس والقضاء في القاهرة ، وكان يجيد التركية والعربية وساعده ذلك على تأليف موسوعته العظيمة « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » .

ونصل الى مؤرخ شهير وهو من عنصر المماليك وهو ابن تغرى بردى (١٤٦٩) وكتابه : النجوم الزاهرة من أشهر الكتب في تاريخ مصر والقاهرة .

ومن علماء العصر الإمام السخاوى (١٤٩٦) مؤلف عدة كتب من أهمها النور اللامع في علماء القرن التاسع (الهجرى) .

ويجىء بعد السخاوى تلميذه وندته الإمام السيوطى (١٥٠٥) وهو صاحب الموسوعات الكثيرة وبخاصة في الدراسات القرآنية .

وتختتم هذه الدراسة بنموذج مملوكى شهير هو ابن اياس (١٥٢٣) مؤلف كتاب « بدائع الزهور » في تاريخ مصر .

علماء من صفوف المماليك :

أشرنا فيما سبق الى بعض المؤرخين الذين برزوا من صفوف المماليك واشتغلوا بتدوين التاريخ ، ولم يكن التاريخ وحده هو الذى جذب بعض المماليك ليقروا السيادة والسلطة ولينخرطوا فى صفوف العلماء ، فاق كثيرين من المماليك اتجهوا للعلوم الشرعية كالأمير عام الدين سنجر ، وقمر بن عبد الله الشهاب ، واتجه آخرون الى الأدب مثل شهاب الدين بن بلبك والسلطان قنصوه النورى ، بل اتجهوا كذلك للرياضة والفلك والطب والكيمياء ، وقد خصصت دراسة علمية لذلك

تفاقت رحت موضوعها وأشرفت عليها حتى اكتملت وحصل المرحوم محمد محمد عامر على درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وعنوانها « المماليك المصريون الذين لمعوا في ميدان الفكر » فليرجع إليها من أراد المزيد من المعرفة عن نشاط المماليك في هذا المجال .

وهناك مجموعة من الأبطال برعوا في كتابة المؤلفات في الشئون الحربية ومن هؤلاء :

— عماد الدين موسى اليوسفى ١٣٥٧ وهو مؤلف كتاب « كشف الكروب في معرفة الحروب » .

— محمد بن منكى (١٣٧٧) مؤلف « التدبيرات السلطانية في سياسة الصنائع الحربية » .

— سيف الدين الماردينى (١٣٧٨) مؤلف « بقية القاصدين في العمل باليادين » .

مِصْرُ وَسُورِهَا

من الفتح العثماني حتى العهد الحاضر

الخلافة بين المماليك والعثمانيين

سننتحدث في هذا الجزء فيما بعد عن نشأة العثمانيين ، وتطورهم من إمارة صغيرة الى امبراطورية شاسعة ، فلندع ذلك الآن لنتحدث عن الأحداث التي سبقت وعاصرت قضاءهم على دولة المماليك ودخولهم سوريا ومصر .

ولا ننسى أننا أوردنا عند الكلام عن نهاية المماليك تصورا لعلاقاتهم مع العثمانيين التي انتهت بالحرب وهزيمة المماليك ، ولن نكرر هنا ما سبق أن أوردناه ، وإنما سنضيف بضع نقاط كانت ذات أثر كبير في مجريات الأمور آنذاك .

لقبده رحب المماليك ترحيبا واضحا بالانتصارات التي حققها العثمانيون ضد بيزنطة ، وعندما سقطت القسطنطينية شاركت مصر وسوريا العثمانيين في أفراحهم وفي مواكب النصر التي ازدهرت هنا وهناك بمناسبة هذا الحدث البهيج ، ولكن إسقاط القسطنطينية زاد أطماع العثمانيين ، ولذلك حرصوا — وقد ورثوا الامبراطورية البيزنطية — أن يثروا الامبراطورية الاسلامية ، وبخاصة أنهم من حماة الاسلام ، ومن العاملين على انتشاره وانتصاره ، وتحقيقا لهذا الهدف احتلوا بغداد التي كانت عاصمة الاسلام فترة طويلة من الزمن ، ثم اتجهوا الى مصر قلب العالم الاسلامي آنذاك ، حيث تتخذ الخلافة العباسية مركزها الجديد .

أما الأحداث التي سبقت الحروب ومهدت لها فهي اتهام مصر بممالأة الصفيين ، وحماية اللاجئين الأتراك أعداء السلطان سليم ، وهناك إمارة صغيرة ساعدت على حدة الخلافة بين المماليك والعثمانيين ، تلك هي الإمارة الغادرية إحدى الامارات التي قامت على أنقاض دول التتار في أرمينيا وديار بكر ، وكان أميرها من أبناء ذى القادر ، وكان

لمصر نفوذ في هذه الولاية ، والمماليك لحق بمعين لأمرائها ، وحدث أن أحد الأمراء من أسرة ذى القادر المناوئين للأمير الذى عينه المماليك ، لجأ إلى العثمانيين وطلب عونهم لتصبح الإمارة له ، فاستجاب له العثمانيون ، وأمدوه بالعتاد والرجال ، حتى قضى على منافسه التابع للمماليك وأخذ الولاية لنفسه ، واعترف بنفوذ العثمانيين على ولايته ، ولم يحتج السلطان الغورى على ذلك ، كان رد السلطان سليم على هذا الاحتجاج أن أرسل له رأس الوالى الذى كان تابعا له ، وكان معنى ذلك إعلان الحرب .

ونقطة أخرى يجدر بنا أن نوضحها ، هى أن جيش العثمانيين كان — بالإضافة إلى العتاد الحديثة التى تكلمنا عنها من قبل — كثير العدد وافر الحماس ومتمدد الكلمة والغاية ، ولكن جيش المماليك آنذاك كان قليلا ، وكانت عناصر الفرقة واضحة به ، فعكفى الغورى ومماليكه كانوا في جانب ، وكان المماليك الآخرون في جانب آخر ، ثم إن دولة المماليك كانت تعاني اضطرابا اقتصاديا قاسيا بسبب تحول التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح كما ذكرنا .

ومع كل هذا فقد استطاع الغورى أن يصمد وأن يكسب النصر في عدة جولات في مرج دابق سنة ١٥١٦ ، لولا انسحاب الخونة في المساعات الحرجة ، وبهزيمة مرج دابق أصبحت سوريا خاضعة للعثمانيين .

وسقط الغورى قتيلًا ولم يتعرف أحد على جثته ، ويقال ان بعض رجاله قطع رأسه حتى تسلم جثته من التشويه .

وقد حاول السلطان سليم بعد انتصاره في مرج دابق أن يسترضي طومان باى الذى خلف الغورى ، فراسله ليحكم مصر باسمه ، ولكن طومان باى رفض ذلك ، وأعد نفسه لمعارك أخرى ، ومع أنه هُزم في موقعة الريدانية (العباسية) فقد واصل الصراع في أمكنة أخرى بأحياء القاهرة ، وظلت المعارك تدور في شوارع القاهرة عشرين أيام . وشهدت

أحياء الصليبية والسيدة زينب وبولاق ووردان مواقف جديرة بالتقدير ، ولكن العثمانيين انتصروا في النهاية ، وعندما لم يجد طومان باي وسيلة للكفاح لجأ الى أحد رؤساء الأعراب بالبحيرة واسمه حسن بن مرعي واختفى عنده واستحلفه ألا يخونه ، ولكن ذلك البدوي خان أميره وبعث للسلطان العثماني بأمره كما ذكرنا من قبل ، فأرسل السلطان جنسده فقبضوا عليه ، وجاءوا به الى السلطان ، وقد استبقاه السلطان عدة أيام ، وكان يحسن استقباله ويسأله عن شئون مصر وإدارتها وجباية خراجها ، حتى إذا عرف منه ما أراد أسلمه الى جبل المشنقة في ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧) ، وانتهت بذلك دولة المماليك وأصبحت مصر وسوريا خاضعتين للحكم العثماني .

وقد بقي السلطان سليم بمصر ثمانية أشهر ، سن خلالها بعض الأنظمة الادارية ، ونقل الى القسطنطينية أكثر ما في القلعة ومنازل الأمراء والسلاطين والمساجد والزوايا والأربطة من النفائس والذخائر والكتب حتى أعمدة الرخام ومراكبته .

ونفى من مصر الى القسطنطينية الخليفة العباسي وأكثر العلماء والقضاة وكل من له نفوذ وإمارة بمصر .

ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين بإجادة العمل فيها من كل الطوائف ، فجمع له منهم نحو ألف صانع فنقلهم الى الاستانة لينشروا الصناعات الدقيقة فيها ، وقد رجع بعضهم الى مصر بعد عهده وبقي آخرون هناك ، ويقال إنه قضى في مصر بذلك على نحو خمسين صناعة ، فكان كل ذلك سببا في تاخر مصر في مجال الصناعات .

أما ولاية مصر فاختار لها السلطان سليم في أثناء إقامته أكبر وزرائه (يونس باشا) واليا عليها ، ثم رجع عن ذلك قبل سفره من مصر وولى

عليها الخائن « خير بك » وولى « على الشام الخائن الآخر » جان بردى الغزالي .

نظام الحكم العثماني بمصر وسوريا :

إن فلسفة الحكم عند العثمانيين كانت تقوم — كما يقول فيليب حتى — على أن الشعوب المغلوبة رعيّة يتعهدهم الراعى لمصلحته ، فهم بمثابة المواشي الإنسانية (يَحْلَبُونَ) أو (يَجْرَثُونَ) حسبما يشاء الراعى ، ولهم أن يعيشوا ماداموا أولا لا يسببون المتاعب وثانيا يستغاثون ، وفي مصر وسوريا كان هناك شعب أكثره من الفلاحين والصناع والتجار لا يطمحون الى الانخراط في سلك الجندية ، ولا يسعون لتولى المناصب الكبرى ، فليعيشوا ليكدحوا ولينالوا خُسْنِ الطعام والثياب ليؤخذ منهم ما تبقى بعد ذلك للنسيد الراعى ، ولكن (القطيع) لا بد له من (كلاب حراسة) غير أن الكلاب هناك لا تتولى فقط الحراسة كالشأن في الكلاب مع الغنم ، بل تتولى كذلك جمع المال لنفسها وللراعى ، وردع من يتنوق للحرية أو يفكر فيها (١) .

تلك هي خلاصة فلسفة الحكم عند العثمانيين في جميع البلاد التي فتحوها ، فلا يعنيه أمر البلاد في قليل أو كثير ، وانما يعنيه أن يتخذوا الوسائل لدوام خضوعها اليهم ، والعجيب أنهم عادوا الممالك وحاربوهم ، ولكنهم سرعان ما اتخذوهم سلاحا أو جلادين يطعنون به الشعب المصرى والسورى ، حتى ليرى أن السلطان سليم حاول أن يستبقى طومان باى لولا أن الممالك الذين كانوا حوله خافوا من ذلك على أنفسهم وأخافوا السلطان سليم منه فأعدمه ، وكسان إعدامه حدثا فرديا ، أما موقف السلطان سليم بوجه عام من الممالك فيوضحه وصيته بهم ألا ينالهم

(١) انظر تاريخ سوريا للدكتور فيليب حتى ص ٢٠١٢ .

أذى ، ويوضحه تركه السلطة في أيديهم وعدم المساس باقطاعاتهم وبتقاليدهم بعد أن أطمأن اليهم ، ونتيجة لذلك كان ترف الممالك في العهد العثماني يفوق ترفهم قبل ذلك ، فقد تخلّص الممالك في العهد العثماني من المسؤولية ، فإذا كانوا إبان سيطرة الكامطة مسئولين عن البلاد فانهم في هذا العهد غير مسئولين ، إذ أنهم في الظاهر يعملون لحساب سواهم وبناء على توجيهاته ، ولذلك انغمسوا في الترف في المسكن والملبس بعد أن كان في حياتهم الأولى كثير من الخشونة وشظف العيش شأن الجندي المكافح .

ولما جاء السلطان سليمان بعد أبيه السلطان سليم زاد تقريبه للممالك ، إذ استعان بهم في حروبه بجزر البصر الأبيض ، فأبدوا في الحروب ضروبا من الشجاعة والاستبسال فكافأهم السلطان سليمان بأن أذن لمن شاء منهم أن يعود إلى مصر ليعيش في ظل السيادة العثمانية ويدين بالطاعة للباشا الوالي ممثل هذه السيادة ، فأسرع أكثرهم إلى العودة لمصر (١) .

وعلى هذا غنح أمام اتفاقية غير مكتوبة ، وقد أغفل المؤرخون أو أكثرهم إبرازها ، وخلاصتها إضعاف الشعب العربي لتدوم تبعيته للعثمانيين ، واقتسام خيرات البلاد بين الممالك والعثمانيين .

وفي ضوء هذه الفلسفة رسم السلطان سليم سياسته بمصر وسوريا ، فبعد أن تم له فتح مصر ، أمضى بها ثمانية أشهر للتعرف على أحوالها كما سبق القول ، ووضع قواعد الحكم الجديد بها ، وتنظيم العلاقة الاقتصادية بينها وبين العاصمة العثمانية ، وفي طريق عودته من مصر

(١) الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار « التمهيد للكتاب » .

الى بلاده توقف طويلا بسوريا لنفس الأغراض ، ونتيجة لهذه الدراسة أعلن نظام الحكم الجديد الذى يقضى بأن تكون هناك سلطات ثلاث بينها مقاليد الحكم ، وهذه السلطات هي :

أولا — الـوالى :

ويلقب الـوالى بالباشا وهو نائب السلطان ، ووظيفته إبلاغ أوامر السلطان الى عمال الحكومة ، والإشراف على تنفيذها ، وعليه جمع الضرائب ، وإرسال المقررات المفروضة على الولاية الى الخزانة العامة بالقسطنطينية ، ومن واجباته أيضا إرسال المؤن والكسوة الى الحرمين الشريفين ، وكذلك الإشراف على دار سك النقود التى بالقلعة ، وتقديم حسابها ، وتدين أرزاق جنود الإنكشارية بمصر وأرزاق رجال الشرطة ، ويتولى تعيين شيوخ البلد والصناع من الممالك بعد موافقة السلطان ، وهو المسئول عن حفظ الأمن ونشر العدالة .

ثانيا — الديوان :

ترك السلطان سليم بمصر حامية تتألف من نحو اثني عشر ألف جندي ، يتكون منها ست فرق « وجاقات » ورؤساء كل فرقة يسمى « الوجاقية » ورئيس الوجاقية يسمى « الأغا » ونائبه أو وكيله يطلق عليه الكخيا أو « الكتخدا » ويتكون من الوجاقية مجلس شورى الباشا المعروف بالديوان ، ويجتمع الديوان أربع مرات فى الأسبوع ، ومهمته النظر فى الشؤون الاقتصادية والإدارية ، ولا يجوز للوالى أن يتخذ قرارا فى أمر من الأمور إلا بعد الحصول على موافقة الديوان .

ثالثا — السناجق :

السناجق هم حكام الأقاليم ، ولكل منهم فى إقليمه سلطة كاملة ، وهو يباشر رئاسة جميع الشؤون الإدارية والاقتصادية ، ويكون السناجق

من الممالك ، ورئيسهم في مصر هو سنجق القاهرة ، وفي الشام سنجق دمشق ، ويلقب « شيخ البلد » وهو يلي الوالى في الأهمية ، ويشغل مكانه لو خلا لسبب من الأسباب حتى يجيء الوالى الجديد ، ولذلك كان يطلق عليه « كخيا الوالى » أى نائبه ، كما كان للآغا كخيا في تنظيمات النوجاتية ، وبالإضافة الى السنجقة كان للممالك يشغلون عدة مناصب كبرى في مصر منذ مطلع العهد العثمانى ، منها وظيفة « الدفتر دار » ويشبه وزير المالية في العهد الحاضر ، و « الخازن دار » ووظيفته تسليم الخراج سنويا الى الحكومة العثمانية ، وأمر الحج ووظيفته مصادبة الكسوة وقيادة الحجاج الى بيت الله الحرام وتوزيع الصدقات بالأماكن المقدسة ، وأمراء البحر الثلاثة وهم قباطين ثغور دميـاط والسويس والاسكندرية التى تمثل أبواب مصر البحرية .

وتبعاً لهذا التقسيم عين خير بك واليا لمصر مكافأة له على خيانتة ، أما سوريا فقد قسمت الى ثلاث ولايات هى : ولاية حلب وولاية دمشق وولاية طرابلس ، وتضم كل منها عدة سناجق ، وقد جعلت ولاية دمشق وهى أهم ولايات الشام مكافأة للخائن الثانى جان بردى غزالى ، وجعل له الاشراف على الولايتين الأخيرتين بحيث أصبح النائب عن السلطان في سوريا كلها .

التنظيم الاقتصادى :

ذلك مجمل القول عن التنظيم السياسى ، أما التنظيم الاقتصادى وهو الهدف الأسمى للعثمانيين فقد سار على النحو الذى كان متبعاً إبان عهد الممالك ، وقد كان من أهم ما عنى به السلطان سليم القيام بمسح الأراضي في مصر وسوريا وتخصيص مقدار منها للأجناد ومقدار لنفقات الوالى ، ومقدار للسناجق ، وما عدا ذلك سمي بالأراضى الديوانية أى التابعة للديوان الأعظم بالآستانة ، وسار العثمانيون سيرة سلاطين الممالك في استغلال هذه الأراضى بطريق الالتزام بالزيادة ، بحيث يتعبد

الملتزم بدفع مقدار محدد من المال لكل عام عن مساحة محددة من الأرض ،
يَجْبَى من فلاحى هذه الأرض ما يستطيع من أموال ، وكان يشترك في
المزايدة أغنياء الممالك وكبار التجار وبعض الموظفين (١) .

ومن الواضح أن هذا التنظيم الاقتصادي كان قاسيا جدا على
الفلاح ، وركز الثراء كله في أيدي الملتزمين وأيدي السناجق ، فكان هؤلاء
وأولئك سادة يحيون في بذخ وترف ، أما الفلاح فكان عبدا يعمل بعنف
ولا يكاد يجد الكفاف .

تاريخ مصر وتاريخ لسوريا :

في ظل هذا النظام أو في إطار هذا التخطيط انفصلت سوريا عن مصر ،
بعد أن ظلت مرتبطة بها طيلة العهود الاستقلالية منذ حكم الطولونيين ،
وأصبح لكل من مصر وسوريا قدره وتاريخه ، صحيح أن التنظيم كان
واحدا ، ولكن الولاة كانوا مختلفين ، وجذعت أحداث هنا وأحداث هناك
وسعت الهوة بين الشقيقتين ، وقد ذكرنا في مطلع هذا الكتاب أن الاستعمار
كان يفرق بين مصر وسوريا ، ونحن الآن في فترة استعمار مريـر فرق
بين الشقيقتين ، ومن هنا كان لزاما علينا أن ندرس تاريخ كل منهما على
حدة في هذه الفترة حتى نعود فنلتقى في ظل وحدة ستضم الشقيقتين
مرة أخرى .

(١) انظر رأى الاسلام في الالتزام بكتابتنا « الاقتصاد في الفكر الإسلامي » .

تاريخ مصر من الفتح العثماني

تقديم :

دخل العثمانيون مصر سنة ١٥١٧ وفي سنة ١٩١٤ أُعْلِنَتْ الحماية الانجليزية على مصر وقُطِعَ آخر خيط كان يربط مصر بالإمبراطورية العثمانية ، قرون أربعة طويلة ومريّة ارتبطت خلالها مصر بهؤلاء الغزاة الذين لم يكن لهم همٌ إلا خدمة مصالحهم ، وهناك في الاستانة قام رجل ادعى الخلافة الاسلامية ، رجل يعيش في كثير من الأحوال لنفسه ولنزواته وخلياته ، يزعم أنه يجلس في المكان الذي جالس فيه يوما أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وباسم هذا اللقب طال عمر حامل هذا اللقب بالاستانة ، وكانت رائحة الفضائح تفوح أحيانا فتزكم الأنوف ، ولكن المسلمين يرونها خطيئة فردية ويتمنون لو جاء لهذا خلف جدير بهذا اللقب ويحصل مسؤولياته ، ويحيى سلطان على هذا النمط ، ولكن المسلمين أيضا يظلون على أملهم رغبة في الحرص على بقاء الوحدة الاسلامية ، وربما هبت ثورات في وجه هؤلاء الخلفاء ، ولكننا كنا نشاهد مقاومة لهذه الثورات نابعة أحيانا من الأرض التي نبتت فيها الثورة ، حفاظا على الوحدة الاسلامية أن تتحل .

شيء مهم نريده أن يثبت في نفوس القراء والمثقفين ، هو أن الانصواء تحت الخلافة العثمانية لم يكن يُنْتَظَر اليه على أنه تبعية أو احتلال ، وأكبر دليل على هذا أن وفود الجزائر سارت من تلقاء نفسها تطلب الانصواء أيضا تحت الخلافة العثمانية ، وكانت هناك في الشرق الأقصى مملكة إسلامية في جزيرة سومطرة في حرب مع هولندا فطلب أن تحتويها الخلافة العثمانية ، وهكذا استطاعت هذه السلطة العثمانية أن تستغل هذا اللقب الكريم ، وأن تستغل دين الاسلام لتحقيق مآربها الذاتية ، بوسيلة واحدة هي خداع هذه الشعوب .

ولنعد الى مصر لنقرر أن هذه القرون الأربعة لم تتسر على نمط

واحد ، وانما تغيرت الملامح فيها من حين الى حين ، ويمكننا بوجه التقريب أن نقسم هذه المدة الى أربع فترات ، لكل منها طابع يكاد يكون خاصا بها ، وهذه الفترات هي :

١ — من الفتح العثماني الى على بك الكبير (١٧٦٣ م) ، وأبرز طابع لهذه الفترة (أنها فترة عثمانية) بكل ما في الحكم العثماني من خصائص وخال ، وقد طالت هذه الفترة بسبب تنافس المماليك كما سنرى بعد قليل .

٢ — من على بك الكبير الى محمد على (١٨٠٥ م) وأبرز خصائص هذه الفترة (أنها فترة مملوكية) رجحت فيها سلطة المماليك على سلطة العثمانيين ، ومن أهم أحداث هذه الفترة سياسيا الحملة الفرنسية ، ومن أهم أحداثها الفكرية الدراسة الرائعة التي قدمها عنها الجبرتي المؤرخ العظيم ، وقد غنينا عناية تامة بهذين الموضوعين .

٣ — من محمد على الى الاحتلال (١٨٨٢ م) ويمكن أن نسمى هذه الفترة (فترة الاستقلال) فان العلاقات بين مصر وتركيا كانت قد ضعفت الى درجة جعلت محمد على يهاجم الأرض التركية ، ويحقق نصرا عليها .

٤ — من الاحتلال الى مطلع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ م) ويمكن أن نسمى هذه الفترة (فترة تعدد السلطات) ، فالاحتلال الانجليزي كان يمثل أقوى حلقات النفوذ ، ولكن العثمانيين لا يزال لهم حقوق شرعية في البلاد ، وبجانب هذين هناك الحكام من أسرة محمد على ، ولهم على كل حال لقب السلطان ، ثم هناك سلطة الشعب التي بدأت تبرز في هذه الفترة في صورة حركات شعبية لها تخطيط وُغاية ، من أهمها نضال الحزب الوطني .

تلك هي أهم الأقسام التي يمكن أن نقسم لها فترة الحكم العثماني ولكن تبقى فترتان متميزتان صارعتا الاستعمار الانجليزي الذي خلف

الحكم العثماني ، وينبغي أن نتحدث عنهما لفصل بحديثنا عن مصر الى العهد الحاضر وهاتان الفترتان هما :

— من الحرب العالمية الأولى حتى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وأهم طابع لهذه الفترة أنها كانت فترة (صراع) وقد ختم هذا الصراع بالثورة المذكورة .

— فترة الاستقلال من سنة ١٩٥٢ حتى الآن ، ومن الواضح أن الاحتلال البريطاني لم ينته سنة ١٩٥٢ ، ولكنه في الحقيقة انتهى حكما ، من سنة ١٩٥٢ حتى تم الاتفاق على تصفيته على ما سنوضحه في حينه ، ويدخل في هذه الفترة تلك السنوات المريعة التي احتل فيها العدو الصهيوني جزءا من أرضنا (سيناء) عقب حرب يونيو سنة ١٩٦٧ . وقد ظل جائنا حتى زعزعت حرب ١٩٧٣ حياته وكيانه ، وقد استطاع جيش مصر أن يعبر القناة ويقيم له مراكز في سيناء ، ثم تدخلت الولايات المتحدة فأسوقفت زحف مصر ، ولكن المفاوضات أكملت جانب النصر ، فجلت إسرائيل عن سيناء وعادت لنا أرضنا الطيبة تماما في ابريل سنة ١٩٨٢ .

وستتحدث عن هذه الفترات كل على حدة فيما يلي :

١ — الفترة العثمانية ١٥١٧ — ١٧٦٣

يبدو لأول وهلة أن هذه الفترة طالت ، ولم يقفز المماليك قفزة واضحة لاسترداد السلطة من العثمانيين خلالها ، وإكن الواقع أن العثمانيين إبان هذه الفترة ضعف سلطانهم ، ولكن القوى الأخرى حرصت على الإبقاء عليهم ستارا تحكم من ورائه ، وكانت المنافسة بين العناصر الطامعة في الحكم هي التي أطالت هذه الفترة الى هذه الحد ، وقد زار مصر في سنة ١٧٦١ — أى قبيل الحركة الاستقلالية التي قام بها على بك الكبير الذي كان شيوخا للبلاد — رحالة دانمركى اسمه « كارستن نيبور » Neibuhr ، ووصف حالة مصر إذ ذاك قائلا : « إن القاهرة كانت مسرحا للشغب والقتال ، والأحزاب في حروب داخلية مستمرة ، وكانت تلك الأحزاب تضم فيما بينها أنصارا من رجال الحامية يقتتلون في بعض الأحيان في الشوارع والطرق ، وكانت منافسات أولئك الزعماء هي السبيل الوحيد الذي حفظ للدولة العثمانية ظلا من السلطة والسيادة ، إذ كان كل زعيم يخشى على نفوذه من وصول زعيم آخر الى حكم مصر ، ويفضل وجود الباشا العثماني الذي فقد سيطرته وضعف نفوذه على مجيء زميل يتحكم في مصير البلاد ، ويكون له من القوة ما يقضى به على منافسيه ، وظل الباشا العلوية في يد هؤلاء الزعماء من المماليك والقواد حتى أن نيبور يقول انه في خلال اقامته القصيرة في مصر خلع ثلاثة باشوات من الولاية على أثر ثورات قام بها الزعماء بعضدهم أنصارهم » (١) .

ويوضح الجبرتي التنافس بين زعماء المماليك بقوله : إن المماليك استقل سلطانهم في القرن الأول للحكم العثماني ، ولكنهم كانوا فريقين ، فريق « الفقارية » نسبة الى زعيم اسمه ذو الفقار ، وفريق « القاسمية »

(١) نقلا عن الامة العربية للدكتور عبد الحيد البطريق ص ١٧ — ٨١ .

نسبة الى زعيم اسمه قاسم ، وكان التنافس شديدا بين الفقارية والقاسمية ، وقامت بين الفريقين حروب طويلة (١) .

وينبغي أن نحاول تتبع خطوات الضعف الذى انتاب العثمانيين بمصر ، ونتعرف على أسبابه ، ويميدو لنا أن البذور الأساسية لهذا الضعف تكمن فى الخلاف الذى نشب منذ عهد مبكر بين الوجاقية والوالى ، فقد كان طابع الجنود العثمانيين التمرد ، ولذلك لم يستكينوا لسلطان الوالى ، وظلوا يناوئونه من حين الى حين ، حتى فكر « أوييس باشا » الذى أصبح واليا سنة ١٥٨٧ م أن يسمح للمصريين وللعرب بالانخراط فى سلك الجيش ، وكان يقصد بذلك أن يرى جيلا لا يميل الى التمرد ، وأن يتخذ من هؤلاء قوة ضد الجنود العثمانيين ، ولكن الجنود العثمانيين لم يسمحوا بذلك ، وقساموا باضطراب وقتن واسعة أرغمت أوييس على التراجع عما قصد .

وفى هذا النضال بين الوالى وبين الجنود العثمانيين رجحت كفة الجنود ، حتى أصبح الوالى لعبة فى أيديهم يعزلونه أو يبقونه ، ويردون الولاة الجدد إذا لم يرضوا عنهم .

وقد وقف المماليك موقف المشاهد للأحداث السعيد بها ، وكان الخلاف بين القوتين العثمانيين يزيد فى قوة المماليك ونفوذهم ، بيد أن الخلافات الداخلية بين المماليك ، تلك التى أشرنا لها فيما سبق أرجأت استعادتهم للسلطة ، كما أرجأها كذلك ترقب الأحداث ليمكنهم استعادة السلطان دون صراع طويل ، وحدث أن حروب العثمانيين فى أوروبا استلزمت سحب أكثر الجنود العثمانيين من مصر للاشتراك فى هذه الحروب ، وقد تسبب عن ذلك أن وقف المماليك وجها لوجه أمام الوالى ، ولكن هذا كان سلطانه قد أصبح ضئيلا متهاويا من شدة ما عانى من تمرد الجنود

(١) الجبرى : تهيد المؤلف لكتابه عجائب الآثار .

العثمانيين ، وقد أتاح ذلك للمماليك أن يستكملوا نفوذهم ، وبخاصة أن على بك الكبير كان قد ظهر على مسرح الأحداث كما سنرى ، وكان شخصية جديرة بهذا الانتقال الذى سنشرحه فى الفترة التالية من فترات الحكم العثمانى وهى الفترة المملوكية .

والآن نواصل كلامنا عن أهم مظاهر الفترة العثمانية :

الباشا :

سبق أن تكلمنا عن الباشا الوالى ومهامه ، ونريد هنا أن نقتبس من الجبرتى مزيدا من الحديث عن ممثل الحكومة العثمانية بمصر ، يقول الجبرتى : كان إذا عين أحد رجال الدولة العثمانية واليا على مصر ، ينتقل إليها بأهله وحشمه ، فإذا بلغ القاهرة أعدوا له دارا ينزلها ليقضى بها ليلته الأولى ، ثم يخرج لاستقباله رؤساء الحجاب يمسكون بأيديهم عصيا طويلة ، ولذلك سموا « أرباب العكاكيز » ويتأولونهم فى الموكب رؤساء الجنود الإنكسارية وترجمان الوالى وأمراء المماليك ، ويذهب هذا الموكب الى الدار التى نزل بها الوالى ليلته الأولى فيصطحبه ليدخل به القاهرة من باب النصر ويسير به وسط جموع الرجال والنساء الذين يقفون فى الطرقات والشرفات لتحية الوالى الجديد ، فإذا وصل الركب الى القلعة ، المقر الرئيسى للوالى أطلقت المدافع تحية للوالى ، وبعد أن يستريح ثلاثة أيام يعقد الديوان ، ويجتمع أصحاب الشأن كالأمراء والعلماء وشيخ الأزهر ونقيب الأشراف وشيخ السادة البكرية وكبار التجار ، ويثلى فرمان التولية عليهم جميعا ، ويخلع الباشا عليهم خلعاً ، تتناسب مع مقام كل منهم ، ويضيف الجبرتى قوله : إن ولاية مصر كانوا لا يقيمون فى مناصبهم غالبا إلا سنة أو بعض سنة ، إذ كانت الاستانة تخشى أن يستبدوا بالسلطة ، ويستقلوا عن الخلافة ، وكان إذا زاد حكم الوالى عن السنة الواحدة صدر له فرمان جديد بتثبيتته فى عمله سنة أخرى ، وإذا عزل تقدم إليه أرباب العكاكيز يبلغونه أمر العزل ، ويمشون أمامه

في نزوله من القلعة ، ويستولون منه على مهام دار سك النقود ، ولا يجوز له أن يمارح القاهرة حتى يحاسب على أموال الدولة الموكولة إليه ، ويبادر الأمراء بتعيين نائب الوالى من بينهم حتى يحضر الوالى الجديد (١) .

الالتزام :

فيما يتعلق بسياسة العثمانيين نحو الأرض الزراعية بمصر ، ألغى السلطان سليم النظام الإقطاعى الذى كان سائدا في عهد المماليك ، وأحل محله نظام الالتزام ، ومعنى الالتزام أن الحكومة كانت تملك كل أرض مصر ، وتعطى بعضها للحاكم والبعض لنفقات الجند وللسناجق ، وتطرح الباقى للمزايدة مقسمة الى أجزاء بين الراغبين فيها مقابل مبلغ محدد يدفعه فوراً أو منجما من قسوس عليه المزايدة ، وفي مقابل ذلك كان الملتزم يحل محل الحكومة في السيادة والإمارة على الأرض التى رست عليه ، فيجبى من الزراعيين ما يشاء ، وكان نصيب أمراء المماليك من الالتزام عظيما ، وكان لبعضهم حق الالتزام على أرض قرية أو عدة قرى ، وكثيرا ما أصبح الالتزام حقا يتحدد الملتزم أو يرثه أبناؤه من بعده ، ومن الواضح أن حال الفلاح في ظل الالتزام كان بؤسا ولما وشقاء (٢) .

اشهر الولاة في هذه الفترة

يمكن القول عموما إن الولاة لم يكونوا في مناصب يحسدون عليها ، فقد وُضعوا منذ أول العهد بين شقي الرحى ، فقد كانت الاستانة تخشى استقلالهم ولا تثق بهم ثقة كاملة ، ومن هنا قيدت سلطانهم ، وحددت فترة ولايتهم ، وكان هناك الجنود ينتقصون ساطة الوالى من حين الى حين ، وهناك كذلك المماليك الذين كانت لهم سيطرة كاملة

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ص ١٦ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع ص ٢١ وما بعدها .

على الأقاليم ، ومن هنا لم يسجل التاريخ لأى من الولاة مكانة ممتازة ، ولم يكن همهم أكثرهم — وقد دفعوا إتاوة كبيرة لتعيينهم — إلا أن يغنموا أكبر مغنم. قبل أن تنسحب السلطة منهم ، وكان كثير منهم ينهبون ويختلسون ، حتى إذا أحسوا بالعزل أو الإبعاد بنوا المساجد والأربطة ليتظاهروا بالخير ولينالوا عطف الناس وربما غفران الله على ما ارتكبوا من آثام .

وعلى العموم فاستكمالا للدراسة التى نقوم بها ينبغى أن نذكر عددا من أشهر الولاة فى هذه الفترة .

خير بك :

هو أول الولاة العثمانيين ، وقد أشرنا إليه من قبل وذكرنا أنه تولى الولاية مكافأة على خيائته ، وقد انصرف عنه الناس إيان ولايته ، وظهر ازدرأؤهم له واحتقارهم للإثم الذى ارتكبه ، وقد اضطر نكايه فى المسلمين الذين انصرفوا عنه أن يقرب إليه اليهود والنصارى ، ولكن ذلك زاد من كراهية الناس له ، فراح يحاول أن يسترضى الناس بإطلاق المسجونين وتوزيع الأموال على المساكين وتشجيع المعاهد الدينية ، ولكن ذلك لم يغن عنه شيئا ، وقد ظل فى كمده حتى مات بعد خمس سنوات من ولايته ودفن فى مسجده بالتبانة بالقرب من باب الوزير بجهة الخيريكية المسماة باسمه ، ومن الملاحظ أن مدته كانت طويلة لتناسب الجهد الذى قدمه للزحف العثمانى ، ولم يلقب بالباشا وإنما ترك له اللقب الذى كان مستعملا مع المماليك وهو لقب « بك » ، وبدأ لقب الباشا مع الولاة الذين أوفدتهم القسطنطينية بعده .

وخير بك اشتراه قايتباى وانتقل فى الوظائف من سلطان الى سلطان حتى أصبح صاحبا للسلطان الغورى فنائباً لمدينة حلب ، حيث بدأ يحوك مؤامرة ضد سيده .

مصطفى باشا :

هو أول الولاة الذين أوفدتهم القسطنطينية ، وكسان زوج أخت السلطان سليمان القانوني ، وكانت تتمثل فيه العنجهية التركية بأدق مظاهرها ، فكان لا يعرف اللغة العربية ولم يحاول تعلّمها ، بل كان يظهر احتقاره للمتكلّمين بها ، وكان يتعاضم على المصريين ويترفع عن التعرف عليهم .

أحمد باشا :

أهم ما ينسب إلى أحمد باشا الوالي الثالث أنه حاول الاستقلال بمصر ، فأمر بضرب السكة باسمه والدعاء له في الخطبة وقد دفع رأسه ثمنا لذلك .

سليمان باشا :

تولى سليمان باشا سنة ١٥٢٥ م ، وله إصلاحات اقتصادية وإدارية ذات بال ، فهو الذي مسح الأراضي ورتب الضرائب ، وشيد كثيرا من المباني النافعة ، وقد اشترك في حرب مع البرتغال تنفيذا لأمر القسطنطينية لأن سفن البرتغال اعتدت على بعض موانئ البحر الأحمر ، وفي أثناء الحرب ناب عنه خسرو باشا في ولاية مصر ، ثم عادت الولاية لسليمان باشا بعد انتهاء الحملة وظل بها حتى استدعى للاستدانة ليصبح الصدر الأعظم بها .

سنان باشا :

تولى ولاية مصر مدة عامين فتح في خلالها بلاد اليمن سنة ١٥٦٨ م ، ومن منشأته مسجده ببولاق وهو من أعظم مساجد العصر العثماني بمصر ، وقد بنى على النمط البيزنطي ، وكان محبوبا من الأهلى كثير الإصلاحات والميراث .

مسيح باشا :

تولى سنة ١٥٧٤ م ، واستمرت مدة ولايته ست سنوات ، وكان من أكثر الولاة عفة واستقامة ، وكان شديد الحرص على نشر الأمن وإقامة العدل .

أويس باشا :

إن أعظم حادث ينسب لأويس باشا — هو كما ذكرنا من قبل — محاولته تجنيد المصريين وثورة الجنود العثمانيين عليه لهذا ، وفي عهده حدث زلزال ضخم انقلب بسببه جبل المقطم .

قرة مصطفى باشا :

ولى مصر سنة ١٦٢٢م ، وبدأ عهده بشدة أعادت الأمن الى نصابه ، وأخافت الجنود العثمانيين الذين دأبوا على الفتن منذ عهد أويس باشا ، ولكنه أخذ يرتكب مع الأهالى ما كان يرتكبه معهم الجنود الثائرون من سلب ونهب حتى أنه عُدَّ نفسه وارثا لكل الموتى أو لأكثرهم ، مما جعل الناس يضجون بالشكوى منه ، وفي عهده ظهر وباء شديد وتلته أوبئة متعددة فى العهود التى جاءت بعده ؛ فقضت على كثير من القرى بالخراب والدمار ، وأتاحت الفرصة مرة أخرى للجنود العثمانيين ليستأنفوا الفوضى التى كانت ديدنهم كلما أتاحت الفرصة وخفَّ ضغط الولاة .

أشهر الممالك فى هذه الفترة

من الطبيعى أن أسماء الممالك اختفت فى القرن الأول للفتح ، واتجه التاريخ الى تسجيل المظاهر العثمانية لهذا العهد ، وكان الممالك يعيشون خلف الستار ، ينظمون أنفسهم ويعدون قوتهم للبروز من جديد ، وقبيل نهاية القرن السابع عشر . أخذوا يبرزون للحياة العامة ويلعبون دورا

فيها ، ذلك الدور الذي أكمله على بك الكبير كما سنرى عند دراسة الفترة التالية •

والآن نعطي صورة سريعة لأمرء المماليك الذين برزوا في هذه الفترة العثمانية التي نحكي الآن قصتها •

الأمير إيواز بك :

اسمه العربي كما يقول الجبرتي « عوض » وحرّفته اللغة التركية التي ليس بها حرفا العين والضاد إلى إيواز ، وقد تولى منصب شيخ البلد سنة ١٦٩٥ م ، وقد ظهرت شهرته على إثر انتصاره في مكافحة الفوضى التي أثارها بعض الأعراب بالوجه القبلي ، ثم انتدبته الآستانة لمحاربة والي الحجاز وهو أحد الأشراف الثائرين على سلطان القسطنطينية ، فقاتلهم وانتصر عليهم ، ولما عاد كبر شأنه وعلا صيته فنفس عليه بقية المماليك هذه المكانة ، فاحتالوا عليه حتى قتلوه ، ومن ممالিকে الأمير محمد بك جركس الذي سنتكلم عنه فيما يلي :

محمد بك جركس :

ظهرت كفاءته قبيل موت سيده الأمير إيواز ، وفي سنة ١٧١٦م قاد فيلقا من الجنود لمساعدة الدولة العثمانية في حروبها بأوربا ، ولما عاد بعد سنتين كان سيده قتل ، ولم يقنع الأمير جركس بابن سيده إسماعيل بك وثار عليه ، ولكن هذا انتصر على جركس وقبض عليه ونفاه من مصر ، بيد أن جركس استطاع أن يدخل البلاد متكررا ، كما استطاع بمعاونة أصدقائه أن يغتالوا إسماعيل بك ، وبذلك خلا الجو لجركس •

ويقول الجبرتي عنه إنه كان عسوقا جبارا سار في الناس أسوأ سيرة ، وكان له أتباع على شاكلته ، يأخذون ما يحبون من الباعة بغير

ثمن ومَنّ امتنع منهم قتلوه ، ويخطفون النساء والأبناء ، ويدخلون
حوانيت التجار ثم لا ينصرفون حتى ينالوا ما يريدون •

واشتد الخلاف بين الوالى وبين الأمير جركس ، وحاول كل منهما
أن يضم الى جانبه العلماء ، قادة الشعب بالإغراء أو التهديد ، وظهر
من بين الأمراء الفقارية أمير اسمه عثمان بك ذو الفقار ، فقاتل جركس
قتالا طويلا واستطاع فى النهاية أن يحيط به من كل جانب فسقط جركس
فى النيل ومات ، واستقرسل الفقاريون فى التكتيل بالقاسمين الذين كان جركس
ينتسب لهم فقتلوا منهم الألوف وكان ذلك سنة ١٧٣٩ م •

عثمان بك ذو الفقار :

لقد ظهر فى أفق القاهرة خلال حكم الإرهاب الذى نشره جركس
بك القاسمى طائفة من الأمراء الفقارية ، وكان سيد الموقف فيهم عثمان بك
ذو الفقار الذى تولى الإمارة سنة ١٧٣٥ •

وكان عثمان بك طاهر اليد واللسان ، كريما عادلا ، أنصف المظلومين
وجعل للفصل فى خصومات النساء ديوانا خاصا ، وكانت أحكامه وفقا
للمشريعة الإسلامية ، وكان يباشر الحسبة بنفسه ، واختفت الرشوة فى
عهده أو قلت بعد أن كانت عملا شائعا قبله ، ولم يصادر أحدا فى ماله ،
ولا أخذ إتاوة على ميراث كما كان يفعل غيره من أمراء المماليك والعثمانيين •

وحولت السلطة بالآستانة لحسابه إيراد بعض الأوقاف التى كانت
وفقا على الفقراء ، ولكن عثمان بك نفر من هذا وقال عن هذه الموارد إنها
دموع الفقراء ، ولا تقبلها نفسى ، واتخذ عثمان بك من أهل العلم والفضل
جلساء ومعاونيه ، ويقول الجبرتى انه أول من دعا بالباشا الوالى الى
وليمة بقصره الخاص ، وكان الأمراء قبله يسعدون الوالى الى ولائهم
بقصور الحكومة •

ومع هذه الفضائل حسده الممالك وتجمعوا ضده ، فأثر أن يدع مصر الى الآستانة ليقتضى بها بقية عمره ، وفى سنة ١٧٤٤ غادر مصر الى القسطنطينية وقد امتد به العمر هناك فمات بعد ثلاثين عاما ، ويقول الجبرتى ان خروجه من البلاد أصبح تاريخا لمعاصريه ، يؤرخون به أحداثهم وأخبارهم (١) .

رضوان بك كتخذا :

كان رضوان بك صنوا للأمير عثمان ورفيقا له فى صباه ، وقد أعانه عثمان بك بجاهه حتى جعله كتخدا الوالى ، وعرف رضوان بك ذلك الجميل لعثمان بك فترك له رتبة الرياسة وقنع بالقصور والترف ووظيفته الجديدة . وكان من أجمل قصوره قصره الذى كان يشرف على بركة الأربكية ، وقد أباح للناس دخول حدائقه ، والاستمتاع بمفاتنها ، وكان هذا الأمير كريما سخيا سمحا ، مدحه شعراء مصر فكان منهم ندماءه وجلساؤه .

عبد الرحمن كتخدا :

يُعتبر عبد الرحمن كتخدا صنيعه من سنائع عثمان بك ذو الفقار ، فمع أن عبد الرحمن كان ينحدر من معدن عريق ، إذ كان أبوه سيدا للامراء المعاصرين له ، لكن ثراء الأب وجاهه استولى عليهما أحد عتقائه واسمه سليمان بك ، وعاش عبد الرحمن فى ضيق من العيش حتى سنة ١٧٣٩م ، حيث استطاع عثمان بك ذو الفقار أن يرد له ما سلب من أموال أبيه منتهزا فرصة موت سليمان بك ، وبسبب هذه المساعدة أصبح عبد الرحمن أحد أعوان عثمان بك ذو الفقار .

ولعبد الرحمن كتخدا مآثر عظيمة إذ يُنسب له إنشاء عدد كبير من

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ص ٢٩ — ٣٠ .

المساجد وتجديد عدد آخر ، كما ينسب له إنشاء كثير من الملاجىء ومكاتب التعليم والزوايا • وهو الذى بنى المشهد الحسينى ومسجده والمشهد الزينبى ومشهد السيدة نفيسة ، وأضاف الى بناء الجامع الأزهر زيادة كبيرة من ممتلكاته •

صالح بك القاسمى :

أحد الأمراء القاسمية كان عظيما سيدا سليم الصدر لا يجب الأذى ، وقد عاش فى عصر واحد مع على بك الكبير ، ولذلك جرت بينهما أحداث ستكون موضع حديثنا فى الفترة التالية وهى فترة الاستقلال •

أشهر الأحداث فى هذه الفترة

لقد رأينا فيما سبق بعض صور الاضطراب والفوضى بين جماعتى المماليك ، القاسمية والفقارية ، ويبرز لنا الجبرتى مصدرا آخر من مصادر النفوذ فى هذا العهد الذى تعددت مصادر النفوذ فيه وسببت الاضطراب والفوضى ، وذلك المصدر الجديد هو بعض القبائل العربية التى كانت موجودة فى مصر ، وبخاصة عرب الهوارة بالوجه القبلى وبنو حبيب بالوجه البحرى ، وكان زعيم الهوارة هو همام بن يوسف ، وقد اتخذ عاصمته قرية فرشوط إحدى قرى مركز نجع حمادى ، وامتد نفوذه على باقى القبائل التى كانت تعيش فى مصر من أسوان الى بنى سويف ، وقد تحالف هذا الزعيم مع الأمراء القاسمية الذين يتزعمهم صالح بك القاسمى ، وقد سلك همام بن يوسف مسلك زعماء المماليك فى شرائه ممالك لحسابه وتدريبهم وتجنيدهم لحمايته ، حتى أصبح واسع البأس مرهوب الجانب ، فنافس بذلك المماليك ، ولكن سماحة العرب وجودهم كانا بارزين فى خلقه •

أما زعيم بنى حبيب فهو الشيخ سويلم بن حبيب ، وقد اتخذ بلدة

دجوة بمديرية القليوبية مركزا له ، وكان له السلطان على كثير من مناطق
الوجه البحرى وبخاصة على مديرتى القليوبية والشرقية ، وكانت له
سيطرة على فرعى النيل من بولاق الى رشيد ودمياط ، وكان له بالنيل
مراكب تسمى الخراجات عليها رجال علاظ شداد يجبون باسمه من
السفن الصاعدة والهابطة ما يفرضون من ضرائب وإتاوات .

٣ — الفترة المملوكية (١٧٦٣ — ١٨٠٥)

لماذا سُميت مملوكية ؟

أطلقنا على هذه الفترة « الفترة المملوكية » إذ بدأنا نرى فيها أمراء المماليك يفوق سلطانهم سائر الحكام ، وقد بدأ هذه السياسة على بك الكبير الذي لم يكتف بالتمرد على سلطان العثمانيين ، بل راح يرسل قواده للتعق في بلاد الدولة العثمانية ، ومنذ ذلك العهد أصبح الولاة يخافون المماليك ويخضعون لسلطانهم ، فمراد بك كان يصعد الى القلعة ليتملى على الوالى ما يشاء بل كانوا يعزلون الوالى أحيانا ، وطالما كانت القسطنطينية توافقهم على ذلك وترسل لهم واليا جديدا ، ولا شك أن مثل هذا الوالى الجديد كان لابد أن يسير في الطريق الذى يرسمه المماليك وإلا كان نصيبه العزل كسلفه .

وشهد هذا العصر مظهراً آخر من سلطان المماليك ، ذاك هو منعهم الجزية السنوية التى كانت تتحمل إلى القسطنطينية ، ثم إنهم كثيراً ما صرحوا بأن البلاد بلادهم وأن العثمانيين دخلاء عليهم .

وجاءت الحملة الفرنسية في أخريات هذه الفترة ، وكان من أهدافها القضاء على المماليك ، ولكن الحملة فشلت ، وعاد السلطان مرة أخرى الى المماليك .

وقد اضطر العثمانيون الى إعادة غزو مصر لاسترداد سلطانهم ، وخاصة عندما توقف إرسال الجزية السنوية . وقد قابلهم المماليك يدفعونهم بالقوة ، صحيح أنهم انهزموا ولكن مواجعتهم القوة بالقوة تضعهم ، لا في موقف التابع كما كانوا من قبل ، بل في موقف المنافس وصاحب الحق ، ولما خرج الجيش العثمانى بعد هذه الجولة ليشارك في الحرب ضد روسيا عاد المماليك يستأنفون سلطانهم مرة أخرى .

من أجل ذلك أطلقنا على هذه الفترة « الفترة المملوكية » وتبدأ هذه الفترة بعلى بك الكبير الذى آن لنا أن نتحدث عنه .

على بك الكبير :

قبل الحديث عن على بك الكبير يجدر بنا أن نذكر لمحة عن الحقبة التي سبقتة والتي مهدت الطريق اليه ليصل الى السلطة ، ففي سنة ١٧٤٥م كان على رأس المماليك ابراهيم بك ورضوان بك وينتميان الى المماليك الفقارية ، وكان النفوذ في مصر قد أصبح في أيدي المماليك ، فحبرت الآستانة مؤامرة يمكن أن تسمى بالسهم الأخير في جمعتهما ، تلك هي إرسال والٍ عثرف بالشجاعة والكياسة للقضاء على المماليك بطريق التآمر ، وقد اختير لهذا العمل محمد راجب باشا ، الذي شغل منصب الصدارة العظمى في بلاده فترة من الزمن ، واستطاع راجب باشا فعلا أن يقضى على عدد كبير من المماليك ، ولكن ابراهيم بك ورضوان بك أدركا ما يراد بهما وبذويهما ، فثاروا على الوالى وحاصروه وعزلوه ، وأمسك المماليك بالسلطة علانية ولم يعد للوالى بعد ذلك أى نفوذ ، و ابراهيم بك هو استأخذ على بك الكبير ومربيه ، فلما مات ابراهيم سنة ١٧٥٥ م وتلاه نده رضوان بك في نفس العام بدأ على بك يظهر مع طبقته من الأمراء الذين جاؤوا بعد هذين الزعيمين .

وعندما أصبح على بك الكبير في الطبقة الأولى بين ممالك مصر ، كانت الأحوال بالبلاد قد ساءت الى أبعد حد ، فالخصومة بين زعماء المماليك شديدة ، وزعماء القبائل العربية يكوّنون بمصر دولا داخل الدولة ، وقطاع الطريق منتشرون هنا وهناك ، والرّشوة سائدة بين الموظفين ورجال الحسبة ، وأهل هذه الأحداث هي التي صبغت على بك بالصبغة القاسية التي سنراها واضحة فيه .

وكان على بك كما يقول الجبرتي شديد المراس قوى الشكيمة ، عظيم الهمة ، لا يحب اللهو ولا المزاح ، ولا يعرف إلاّ الجد ، ويترّوى أنه جرت مشاورة انتقليده مشيخة البلد ، فزكاه بعض المماليك وعارض آخرون ، ولما بلغه الأمر صاح قائلاً : إني لا أتقليد الإمارة إلاّ بسيفي ،

ولا أَرْضَى العون من غيرى ، وظل يعمل مع عبد الرحمن كتحذا وتظاهر بحبه والاخلاص له ، فاعتز به عبد الرحمن وركن اليه وجمع عليه قلوب الأمراء ، فخلع عليه الباشا الوالى خلعة الرياسة ومشیخة البلد ، وكان ذلك سنة ١١٧٧ هـ = ١٧٦١ م ، وكان على بك عظیم الهیبة متوقد الذكاء - اذق الفرانسة كثير القراءة لکتب التاريخ وسیر الملوك ، وكان یرى فی العثمانیین مغتصبین ، وأن السلطنة ینبغى أن تعود لأصحابها الشرعیین « الممالیک فی رأیه » .

وقد بدأ على بك نضاله فأوقع بقطاع الطريق والمفسدين ، وقطع دابرهم ، وعرج على الموظفين الذين يقبلون الرشاوى ، فأنزل بهم أقسى العقاب ، وراح للعابثین بالأمن والمستهترین یضربهم بید لا ترحم .

وكان فی أثناء ذلك یكثر شراء الممالیک وتربیتهم ، حتى أصبح له بهم جاه عظیم ، وكان فی قمتهم مملوکه الکبیر محمد أبو الذهب ، فانبرى بسلطانه وبأتباعه یضرب بقسوة كل من یقف فی طریقہ ، ویصادر ما احتاج له من مال ليقوَّى نفسه ، ویعدّ جنده ، ولما وصل الى غاية عظمی فی القوة والبأس ، انبرى الى أعدائه الکبار من زعماء الممالیک وأخذ یضربهم الواحد بعد الآخر ؛ یستصفى أموالهم ویقتلهم أو ینفیهم ويرد على رجاله ما كان بأیدی هؤلاء من الأموال ، بل وصل به أن أوقع بسیده عبد الرحمن كتحذا فنفاه الى الحجاز ، وقد بقى هذا فی منفاه اثنى عشر عاما ولم يرجع الا وهو حطام لم یلبث أن مات ، وكان کبیر الممالیک القاسمیة یدعى صالح بك القاسمی ، وكان على بك یضمّر له السوء ، فلما نفى عبد الرحمن كتحذا أمر القاسمی أن یشیعه الى منفاه ، فلما خرج صالح بك یشیع عبد الرحمن كتحذا أرسل على بك فی أعقابہ أمرا ثانيا بنفى صالح بك الى غزة ، ولكن صالح بك استطاع أن یفر والتف حوله أبناء شیعته ، وفی الوقت نفسه تخلى أتباع على بك عنه وحاولوا القضاء علیه ، ولكن على بك فرّ منهم ولجأ الى عدوه السابق صالح بك وطلب حمايته ، وأعطاه المواثیق على الود والاخلاص ، فصدقه صالح بك القاسمی ،

وساعده حتى استعاد مكانته ، وحينئذ أخذ يقتل أولئك الذين تخلوا عنه ، وأسرف فيهم قتلا وخنقا بلا رحمة ولا شفقة ، ووصل الى قمة ججوده إذ أسرع وتآمر ضد صالح بك الذى حماه وخر^١ صالح قتيلا بسيوف أتباع على بك (١) .

ولم يسلم شيوخ العرب من فتك على بك الكبير ، فقد قتل شيخ الحباية ونهب أمواله وخرّب دياره ، وقتل شيخ الهوارة وخرّب عاصمته وبدّد أعوانه .

وبهذا دانّت له البلاد من أسوان الى الاسكندرية ، ولم يعد فى مصر من يناقسه ، ودفعه ذلك الى أن يتجه صوب سوريا عقابا لواليتها عثمان بك العظم الذى أفسح صدره للمماليك الفارين من على بك وقسوته ، وقد سار فى غزوّه حتى وصل حلب ، بل أمر قواده أن يتقدموا الى الأرض العثمانية فاتحين ، وبسبب هذه الانتصارات منح لقب الكبير فأصبح يسمى على بك الكبير .

ويبدو أن أكثر قواده ملّوا القتال وسفك الدماء ، فاتفقوا على مخالفة سيدهم ، وفى قسوتهم ربيبه وزوج ابنته محمد أبو الذهب ، وأيدت القسطنطينية هؤلاء الخارجين ، وأمدتهم بالمال والسلاح ، فانصرفوا على على بك وألقوا القبض عليه على الرغم من مساعدة ظاهر العمر حاكم الشام وحليف على بك الكبير ، وعلى الرغم من مساعدة الروس الذين كانوا يؤيدون الثوار ضد الحكم العثمانى ، وكانت معركة الصالحية هى المعركة الفاصلة بين على بك والثائرين عليه ، وفيها سقط على بك جريحا ، وحمل الى منزله حيث مات بعد عدة أيام سنة ١١٨٧م = ١٧٧٢م ، وخلا

(١) أنف أحد أتباع على بك من أن يشترك فى هذه الخيانة وهرب الى الشام خوفا من سيده وسنراه فيما بعد واليا لعكا ومدافعا عنها ضد هجمات نابليون ، وهو أحمد باشا الجزار .

الجو لمحمد بك أبو الذهب وقد استطاع هذا أن يستصدر أمرا من الآستانة بمحاربة ظاهر العمر عقابا له على تأييده لعلى بك ، ولما صدر له هذا الأمر فتحت له بلاد الشام البلدة تلو البادية دون عناء كبير ، ولكن أيام أبي الذهب كانت قصيرة فقد مات سنة ١٧٧٥ وأسلم موته البلاد الى خلاف مرير .

من أبي الذهب الى الحملة الفرنسية :

بعد موت محمد بك أبو الذهب برز في مصر ثالث من المماليك هو : إسماعيل بك ، وإبراهيم بك ، ومراد بك ، وقد طمع إسماعيل بك في أن تكون السيادة في يده لأنه أقدم الثلاثة ، وأقواهم علاقة بعلى بك الكبير ومحمد بك بو الذهب ، ولكن اتحاد إبراهيم بك ومراد بك أبعد عنه السيادة وضمها لهما ، واعتكف إسماعيل كأنه يعتزل السياسة ، ولكن كثيرا من المماليك الساخطين التفتوا حوله ، وأدرك مراد بك ذلك فدبر مؤامرة للقضاء عليه ولكن إسماعيل فر من المؤامرة ، ثم عاد يقود جيشا كبيرا اقتحم به القاهرة واستولى على السلطان ، ولكن أحد أتباعه واسمه حسن الجداوى خانة وهر في أوج انتصاره وانضم الى خصومه ، فهرب إسماعيل الى الشام وآل السلطان الى إبراهيم ومراد بك مرة أخرى ، وعاشت مصر فترة مليئة بالنكبات والآلام فقد كان مراد بك غسوبا ظالما محبا للمال مَبْغِضا للعدالة ، يقتل ويصادر وينهب ويعذب من لحظة الى لحظة ، وقست الطبيعة على الشعب كما قسا عليه الأشرار فاجتاحت الأوبئة البلاد وهبط منسوب النيل واشتدت المجاعة .

ولم يجد الناس ملجأ من هذا العسف الا العلماء ، دقوا أبوابهم واستعانوا بهم لرد الظلم عنهم ، ومن أبرز علماء هذا العصر الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ أحمد العروسى شيخ الأزهر والبكرى

نقيب الأشراف ، والشيخ أحمد الدرديري من كبار العلماء ، وكان هؤلاء يحاولون — دون جدوى إيقاف تيار الظلم والطغيان •

وتعالت صيحات الشعب واتجه بهتافه نحو الاستانة ، ولكن هذه كانت في شغل عنهم ، بيد أن الجزية المقررة اتمّ تصل الى الاستانة منتظمة ، وهنا فقط تحركت وأرسلت بعض الكتائب البحرية بقيادة القبطان حسن باشا الى الاسكندرية وفرح الناس ظانين أنها حملة انتقاذ وسلامة ، وتظاهرت الحملة بذلك في بادئ الأمر ، فأصدر حسن باشا منشورات قبال فيها •

— لا تخشوا شيئاً فان أول ما أوصانى مولاي السلطان أوصانى بالريعية •

— كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران وتقبلونهما حكاما عليكم يسوءونكم العذاب والظلم •

وأحسن الناس استقبال الحملة ؛ ولكن الحملة التي جاءت لرفع الظلم أنزلت مزيدا من الظلم بالناس ، فقد انتشر الجنود ينهبون ويسلبون ، وصادر حسن باشا أموال المالك ونساءهم وذويهم وراح يبيعهم في الأسواق ، ولم يكتف حسن باشا بما صادر من أموال المالك ، بل راح يفرض الضرائب الباهظة ويجبى الأموال بكثرة ، فضجّ الناس منه وعلا صراخهم ، وام تطل إقامته في مصر على أي حال ، فقد اشتبك العثمانيون في حرب مع روسيا ، فاستدعى حسن باشا وفيلقه للاشتراك في هذه المعركة الكبرى ، فعادر مصر بعد أن عين اسماعيل بك شيخا للبلاد والجدوى أميراً للحج ، وعاد الصراع غير المباشر بين اسماعيل من جهة وبين إبراهيم ومراد من جهة أخرى ، ولكن الطاعون الكبير الذي اجتاح البلاد سنة ١٧٩١ التهم اسماعيل بك فيمن التهم ، وكان إبراهيم

بك ومراد بك يتربصان في الصعيد ، وظن علماء مصر ومهمهم السيد عمر
مكرم أن المملوكين قد تهذبوا أخلاقهما ، فأوفدوا السيد عمر مكرم
لاستدعائهما الى القاهرة ، ولكن هذين جاءوا الى القاهرة ليستأنفا حياة
القوة وابتزاز الأموال من جديد ، وكان الشعب يثور ولكن الثورة كانت
تخمد بالقوة ؛ أو بالسياسة وظلت هذه الفترة على أى حال « فترة
مملوكية » ، وبقيت مصر في هذا العناء ، ثم جاءت الحملة الفرنسية
التي تستحق عملا يكاد يكون مستقلا وسنقوم به فيما يلى :

الحملة الفرنسية

مقدمة :

يعتقد بعض الباحثين أن الحملة الفرنسية استمرار للحروب الصليبية التي سيأتى ذكرها والتي تعد مشروعا فرنسيا ، وكان طابع الانتصارات فيها طابعا فرنسيا ، ومنذ فشلت الحروب الصليبية ظل الفرنسيون يتطلعون الى مصر لموقعها الاستراتيجى من جانب ، ولثرائها من جانب آخر ، ثم ليوضع فى يمد فرنسا مصير الدول الأوربية التي كومت امبراطوريات شرق السويس كبريطانيا فى الهند وهولندا والبرتغال فى الشرق الأقصى ، وهناك سبب رابع ينبغى أن نذكره هنا ، وهو اضطراب السلطة فى مصر وضعف جيشها ، مما أوحى للفرنسيين أن فتح مصر لن يأخذ منهم جهدا كبيرا ، وتنفيذا لهذه الأسباب فكر لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ م فى غزو مصر ولكنه عدل عن هذه الفكرة إبقاء على علاقاته بتركيا ، وفى عهد لويس السادس عشر كتب سفير فرنسا بالأستانة سنة ١٨٧١ يبحث حكومته على فتح مصر ، وكان مما جاء فى رسالته قوله : « إن جيش مصر ضئيل ، والجنود لسم يقفوا فى ميدان حرب منظمة ، وليس لديهم مدفع واحد » .

وهكذا كان هناك تدبير قديم لترخف فرنسا لاحتلال مصر ، وقد رأى نابليون أن يحقق أهل فرنسا فى هذا المضمار ، فأعد العدة لهذا الزحف الذى كان يقصد استعمار مصر أولا ، ويقصد ثانيا السيطرة على الطريق الذى يصل بين دول أوروبا ومستعمراتها فى الشرق الأقصى ، حتى تكون هذه الدول تحت رحمته .

إعداد الحملة :

تولى قيادة الحملة نابليون بونابرت أنبغ قسواد العصر الحديث ، وكانت تتألف من ٣٦ ألف جندي ، ومن عدة سفن حربية ، وصحب نابليون

معه عددا من الضباط الأكفاء ، وطائفة من العلماء المتخصصين في مختلف العلوم والفنون ؛ من تاريخ واثار ومن هندسة وطب وكيمياء وغيرها •

سير الحملة وانتصاراتها الأولى :

وأبحرت الحملة من ميناء طولون الفرنسية في ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ ووصلت الى ميناء الاسكندرية في أول يوليو من العام نفسه بعد أن استولت على جزيرة مالطة في الطريق ، ولما أحس السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية بالخطر أرسل يخبر ابراهيم بك ومراد بك ويطلب مساعدات حربية ، وتقدمت الحملة تجاه الاسكندرية فاحتلتها على الرغم من المقاومة العنيفة التي أبرزها السكان بقيادة حاكمها البطل ، وستحدث عن محمد كريم بعد قليل •

وعقب الاحتلال الاسكندرية تقدمت الحملة تجاه القاهرة ، ولما وصلت « دمنهور » واجهت استعدادا سلبيا وائجابيا من السكان سنشير اليه عند حديثنا عن محمد كريم بعد قليل ، وقد اضطرت الحملة لذلك أن تعود الى الاسكندرية لزيد من الاستعداد •

وتقدم نابليون للقاهرة بعد ذلك فوقعت أولى المعارك عند شبراخيت بين الفرنسيين والمماليك بقيادة مراد بك ، ولكن المماليك لم يستطيعوا الثبات أمام المدفعية الفرنسية ، فانسحبوا تجاه القاهرة •

وعند امبابه وقعت الموقعة الثانية ، وفيها أبدى المماليك والمصريون الذين كانوا معهم بسالة وشجاعة أدهشت الفرنسيين ، ولكن ذلك لم ينعن شيئا أمام الأسلحة الفتاكة الحديثة •

محمد كريم ونضاله ونهايته :

أشرنا آنفا الى مقاومة محمد كريم حاكم الاسكندرية للحملة الفرنسية ، ومن حق هذا الرجل علينا أن نبرز جهوده في هذا المجال ، فهو أسوة طيبة للمكافحين المخلصين •

ويقرر التاريخ أن محمد كريم عندما أحسَّ باتجاه الاسطول الفرنسى الى الاسكندرية ، قام بتحسين المدينة بقدر ما وسعته الحيلة ، ولما قرب الاسطول من المدينة دافع عنها دفاعا مستميتا من قلعة قايتباى ، وعندما دخلت الحملة الاسكندرية جمع محمد كريم القوى الوطنية حوله ، حتى أدخل القلق فى حياة المعتدين بسبب الهجمات المتتالية التى تعرضوا لها منه ومن رجاله ، ورفض تسليم المدينة ، وقاوم المعتدين حتى آخر سهم فى كنانته •

وقد قبض عليه نابليون ، ولكنه سرعان ما أطلقه ليخدعه بذلك ، وليجذبه ويجذب المصريين للترحيب بالحملة والتعاون معها ، ولكن محمد كريم انطلق يحرض أهل البلاد على المقاومة ، ويحثهم على عدم التعاون مع الفرنسيين ، ومنع الماء والدواب عنهم ، ومواجهتهم بالحرب والمقاومة فى كل مكان ، ومضى يكتل الشباب سرا ويدفعه الى حمل السلاح والتصدي للفرنسيين فى كمين وكمين للإدالة بهم ، ولم يدخر فى سبيل ذلك وسعا ، ووضع ماله كله فى سبيل هذه الغاية ، ولم يعرف الراحة ، وظل يعمل جاهدا على إقلاق هؤلاء المحتلين وتنغيص اقامتهم ، وتمزيق كل جبهة يحاولون إقامتها •

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل ترعم حركة واسعة فى سبيل المقاومة السليبية عندما عول نابليون على احتلال « دمنهور » إذ سرعان ما اختفت دواب الحمل وقرب الماء ولم يجد الفرنسيون رجلا واحدا يعاونهم ، أو يقدم لهم شيئا ، وقد أشرنا لذلك من قبل •

وكان من نصيب هذه الحملة الهزيمة المحققة والعودة من منتصف الطريق ، وقد وصف الجزال « ديموى » ما لقيه هو وكتيبته من المشقة ، ووصف الخسائر التى لحقتها وكيف نال ذلك من هيئة الجيش الفرنسى فى الاسكندرية •

نال ديموى : لقد منعوا تزويد الكتائب بالماء ، وهربوا الجمال

لكيلا يستعين بها الفرنسيون ، ولقيت القافلة غننا ومشقة بعملهم هذا .

ولم يجد نابليون بدا من اعادة اعتقال البطل محمد كريم ، فقبض عليه في ٢٠ يوليو وحكم عليه بالاعدام ، إلا أن يفتدى نفسه بفدية مالية ، ولكنه رفض أن يدفع الفدية مع امكان ذلك ، ورفض أن يجمعها الشعب له ، وقال : إن دمه سيكون معولا يقوِّض قوة المحتل الأثيم .

وعندما سيق الى المقصلة كان يهتف بالشعب قائلا : قاوموا : اليوم بى ، وغدا بكم ، ونفذ فيه حكم الاعدام في السادس من سبتمبر سنة ١٧٩٨ (١) .

بيان نابليون :

دخل نابليون القاهرة عقب انتصاره في موقعة إمامية ، واتجه بعد ذلك لتثبيت سلطانه ، فأصدر بيانه الذي أراد به خداع المصريين وتهديتهم ، وفيه أبرز أن اتجاهه الحقيقي هو القضاء على المماليك الذين كان يعتقد أنهم غرباء عن مصر وأن المصريين يسعدون بطردهم .

وقد أورد الجبرتي نص البيان كاملا ، وأهم النقاط التي وردت فيه هي :

- ١ — إدعاؤه الايمان بالله وبقرآنه وبنبيّه .
- ٢ — إدعاؤه الوفاق مع السلاطين العثمانيين والتقدير لهم حتى لا يستجلب سخطهم .
- ٣ — إغراؤه المصريين بالالتفاف حوله لينالوا المراكز السامية والمرتبات الرفيعة .
- ٤ — إنذار من تسول له نفسه معارضة الفرنسيين .

(١) انظر ما كتبه عنه الأستاذ أنور الجندى في كتابه « من اعلام الحرية في العصر الحديث » .

٥ — يبرز البيان أن الممالك درجوا على اضطهاد الرعايا الفرنسيين والتككيل بهم ، وتعويق تجارتهم •

٦ — ويبرز البيان كذلك فساد الممالك وانحرافاتهم وأن الحملة جاءت لإنقاذ البلاد منهم •

٧ — وبالبيان نقطة دقيقة يجدر بنا أن نوردها في نصها ، يقول البيان :
خبروني بالله عن الميزة التي تفرد بها الممالك عن بقية الناس حتى اقتصوا بملك مصر وحدهم ، ونعموا دون سائر الخلق بمحاسنها من الجوارى الغانيات والخيال المسومة والقصور العالية •

وكان نابليون يريد بذلك منافسة الممالك أو أن يحل محلهم لينعم بما في مصر من محاسن •

سياسة نابليون في مصر وإنشاء الديوان والمجمع :

ظن نابليون أن انتصاره في موقعة إمبابة وضع حداً لمقاومة الممالك والمصريين ، فأخذ يتجه لبعض الأعمال التي توحى بالاستقرار ، فاتجه لاسترضاء الباب العالي والاتصال به مع ابداء الود والاحترام ، ثم اتجه الى المصريين يسترضيهم ويجذبهم نحوه ، فأنشأ الديوان ، وكان الديوان يمثل حكومة أهلية في مصر وأعضاؤه تسعة يختارون بالانتخاب ، وقد اختير له المشايخ : الأشرقاوى والبكرى والصاوى والفيومى والعريشى والسرسى والسادات ومحمد الأمير والسيد عمر مكرم •

وأعلن نابليون أن من سلطات هذا الديوان تعيين رؤساء البوليس والإشراف على الأسواق وبعض التنظيمات الاجتماعية •

وأنشأ نابليون بجانب الديوان المجتمع العلمى ليقوم بالأبحاث الصناعية والطبيعية والتاريخية التي ترتبط بمصر ، وجعل له أربع لجان للرياضة ، والاقتصاد السياسى ، والآداب ، والفنون •

وأمر برسم خرائط لمصر والنيل ولغروعه ، وأنشأ مطبعة عربية
وفرنسية ، وأصدر صحيفة فرنسية ، واهتم المجتمع بإنشاء المحاجر
الصحية ، ومنع دفن الموتى في المنازل والمساجد ...

والذى يتابع هذه الأعمال من نابليون في ذلك الوقت الجكر يدرك
أنه كان متفائلاً ، وأنه ظن أن الأمور قد استقرت له ولكن ذلك كان شيئاً
بعيد النال ، فان المصريين لم يكونوا يقبلون أن تحتل بلادهم جماعة من
« الكفار » ولذلك وقفوا موقف المتربص .

أحداث القلوة وجوانبها

ونتوقف الآن لتتابع التحركات التى أحاطت بالحملة الفرنسية
ولنشرح نتائجها :

أولاً — الممالك وهرب العصابات ضد الحملة :

اتضح للممالك أن الجيش الفرنسى يملك من الأسلحة ما لا يملكون
وأن مولجته المباشرة ستكون شديدة الضرر بهم وبأتباعهم ، لأن
الفرنسيين يستطيعون ضرب التجمع المصرى بما فى أيديهم من أسلحة
جديدة ، ومن هنا فقد اتجه الممالك الى خطة جديدة كان واضحاً أنهم
يستطيعون بها أن يتغلبوا على القوة الفرنسية وهذه الخطة هى الاعتماد
على حرب العصابات التى لا يمكن أن ينتصر فيها الفرنسيون لأنهم
لا يستطيعون تجزئة حملتهم الى فرق كثيرة تتابع العصابات المصرية
الملوكية .

ونفذ الممالك هذه الفكرة ، وقسموا أنفسهم الى عصابات كثيرة
غمرت القطر كله تقريباً ، وانضم لهم عدد هائل من المصريين لمكافحة
« الكفار » الذين اقتحموا البلاد ، وقد أنزلت هذه العصابات بالفرنسيين
هزائم متعددة ، وهذا المعنى هو ما قصده الأستاذ اسماعيل عبد الله فى
بحثه عن « الجوانب العسكرية للحملة الفرنسية » ، وهو فى ذلك يقول :

إن مهارة المماليك وقدراتهم القيادية ، وثقافتهم العسكرية مكنتهم من التغلب على نقص التسليح كما ونوعاً وكمية عدده بالقياس الى عدوهم ، فاستخدموا حرب العصابات في المدن لتفتيت قوة نابليون الذي كان يعتمد على الضربة المكثفة التي تثير الذعر وتدعو للاستسلام ، وهي التي اتبعها في معركة إمبابية ، وقد استطاع المماليك أن يكشفوا أسلوبه ، ولم يتمكنوه من تكرار هذه الضربة بعد ذلك ، كما كانوا على درجة عالية من التنظيم في معاركهم ، وأكبر دليل على ذلك اخلاء كثير من المدن أمام الغازي .

ويقرر الأستاذ اسماعيل عبد الله أن ما أشيع من طعون في المماليك لم يكن الا من اختلاق الحملة لضعاف المقاومة المصرية ، واحداث خلافات بين أبطالها أو إحداث نوع من عدم الثقة بين المصريين والمماليك .

وقد استمرت حرب العصابات حتى انتهت الحملة ، وخلال هذه الحملة أدرك المصريون براعة الدور الذي قام به أكثر المماليك ، ولذلك اتجهوا لإعادتهم للقاهرة عقب جلاء الفرنسيين كما سنرى فيما بعد .

ثانياً — موقعة أبي قير البحرية (أغسطس سنة ١٧٩٨) :

قلنا آنفاً إن الحملة الفرنسية وصلت الاسكندرية في يوليو سنة ١٧٩٨ وقد كان الأسطول الانجليزي يتابع من بُعد تحركات الأسطول الفرنسي منذ أبصر من ميناء طولون ، وكان نلسن يقود الأسطول الانجليزي في البحر المتوسط ، فلما أدرك هدف الأسطول الفرنسي تركه فترة من الزمن حتى تعمق نابليون في مصر بجنوده وأحس بحارة الأسطول بالأمن على الساحل ، وحينئذ تقدم نلسن البحار ذو المواهب الفذة وحاصر الأسطول الفرنسي في خليج أبي قير ، ودارت بين الأسطولين معركة أجالت البحر الى جحيم متقد ، وقد بدأت المعركة في الساعة الثالثة بعد الظهر من أول أغسطس ، وفي الساعة الثامنة أصيب بروديس قائد الأسطول الفرنسي بقنبلة قصت عليه ، وفي منتصف الليل كان الأسطول الفرنسي

حطاما ، ولم ينج منه إلا ما أسره الانجليز أو سفن قليلة فرّت الى مالطة .

وكانت نتائج موقعة أبى قير البحرية عميقة، فقد وضعت الأساس لانهيار آمال الفرنسيين في اقامة امبراطورية في الشرق ، وعزلت جنودهم بمصر عن بلادهم ، وقضت بالتفوق المطلق للأسطول الانجليزى على سواء ، ولولا شخصية نابليون القوية لما كان للفرنسيين أى بقاء في مصر بعد هذه الموقعة .

ثالثا — ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) :

ترك المصريون زمام الأمر في فترة من الفترات للعثمانيين باسم الاسلام ، وتركوا زمام الدفاع عن البلاد للمماليك باعتبارهم متخصصين في الشؤون العسكرية ، ومتحملين مسؤولية السياسة ، ولكن المصريين فوجئوا باحتلال البلاد بجيش من الكفار « كما أطلق عليهم المصريون » ينحدر من أحفاد الصليبيين ، وفي الفترة الأولى من هذا الاحتلال لم يظهر للأتراك العثمانيين نشاط في مواجهة الفرنسيين ، بل أدعى نابليون في بيانه إنه على وفاق معهم ، مما قلل الأمل في الاعتماد عليهم .

وانحل جيش المماليك بعد معركة امبابية ، وهذا وذاك جعل مسؤولية الدفاع عن البلاد تقع على عاتق المصريين ، وكان علماء الأزهر هم قادة العهد الجديد ، وقد تعاون هؤلاء العلماء مع الحملة في مطلع عهدها بمصر ظانين أنها جاءت لغیر الاستقرار ، ولكن سرعان ما اتضح لهم أن نابليون يريد الاستقرار بمصر ، وهذا دفعهم لتحمل المسؤولية في الدفاع عن البلاد ، وشجعهم على ذلك هزيمة الفرنسيين في موقعة أبى قير البحرية ، كما شجعهم على ذلك أيضا تشدد الفرنسيين في جمع الضرائب واستيلائهم على أموال الأوقاف ، وهدم كثير من المباني الأثرية بحجة التنظيم ، وهدم أبواب الحارات والدروب ، وميل الجنود الفرنسيين للخلاعة والفجور ، وإعدام حاكم الاسكندرية السيد محمد كريم .

الأزهر مركز القيادة لثورة القاهرة :

وقد اتخذت الثورة مركزها في الأزهر الشريف حيث تجمعت الجموع الكثيرة يحملون أسلحتهم ، ويحضون الناس على مقاومة العدو المستعمر ، وكانت هذه الثورة مفاجئة للفرنسيين لأنهم ظنوا أنهم استمالوا المصريين وخدعوهم بما قاموا به من دعاية ، وفي ضوء هذا الظن خرج الجنرال (ديبوي) حاكم القاهرة العسكري ومعه بعض رفاقه يقتحم جموع المتظاهرين ، وكان يظن أنهم سينفضون ، ولكن الجموع تكاثفت عليه ، وطعنه الثائرون طعنة أردته قتيلا ، وكان ذلك شرارة أثارت العاصفة ، فقد صدرت الأوامر للجيش الفرنسي أن يدمر الأزهر ، وأن يقتل الجماهير دون رحمة . ويصف الجبرتي ما فعله الجيش الفرنسي بقوله : تتابع الرمي من القلعة والكيهان حتى ترعزت الأركان ، وهدمت حيطان الدور وسقطت بعض القصور (١) ، ولما انتهى الضرب زحف الفرنسيون الى الجامع الأزهر فدخلوه بخيولهم وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ، وصدرت تعليمات نابليون بقتل كل من تسبب له الاشتراك الفعلي في المعركة ، ويقول نابليون في مذكراته : فقد الثائرون ألفى قتيلا وفي كل ليلة كانت تقطع رؤوس حوالى ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الأهالي ، وأظن أن هذا سيكون درسا قاسيا لهم ، وفقدت مصر في الثورة وذيولها حوالى أربعة آلاف قتيلا ، وقضت هذه الثورة على خيوط الثقة الضئيلة التي ظن أنها وجدت بين المصريين والفرنسيين ، وأصبح واضحا أن استقرار الفرنسيين بمصر مستحيل ، وأن المسألة لا تتعدى إجراءات تنظيمية يعقبها الجلاء ١٠

وباندلاع ثورة القاهرة أصبح واضحا أن هناك قوتين مصريتين تتناضلان الحملة ، وهاتان القوتان هما :

- ١ — المماليك في حرب العصابات الشاملة .
- ٢ — الأزهر بعلمائه وطلابه وأتباعهم من الأهالي .

(١) الجبرتي : عجائب الآثار . أحداث شهر صفر سنة ١٢١٣ هـ .
(م ٢١ — موسوعة التاريخ ج ٥)

من نتائج ثورة القاهرة الأولى :

قضت ثورة القاهرة الأولى على خيوط الثقة الضئيلة التي كانت بين المصريين والفرنسيين ، فأخذ نابليون يعلن ما كان خافيا ، واتخذ إجراءات عنيفة ضد المصريين كانت شديدة الأثر في دعم سوء الظن بالحملة وأهدافها ، ومن هذه الإجراءات ما يلي :

١ — ألغى نابليون الديوان الذي كان قد شكله من قبل ، وأعلن تشكيله من جديد على وجه لا يتفق مع رغبات المصريين ، فقد ضم له ممثلين من جميع الطوائف والجماليات التي كانت تعيش في مصر ، وكان بعضها غير حريص على الأهداف الوطنية •

٢ — هدم الفرنسيون الكثير من المباني والمساجد التي تقف في طريق الحملة الى الأزهر ، ليسهل على الجنود اقتحام الأزهر الذي أصبح يمثل مركز المقاومة •

٣ — تكوين فرق عسكرية من مقطوعى الأروام وبعض العناصر المسيحية التي تعاونت مع العدو ، وكان يعقوب فام من أبرز من مثلوا الخيانة الوطنية آنذاك وستكلم عنه بعد قليل •

٤ — زالت الفكرة التي كانت عند الفرنسيين والتي ترى أن المصريين ميالون للمسالمة ، واتضح للعدو أن مسالمة المصريين للعثمانيين كانت باسم الاسلام ، وتعاونهم مع المماليك كان باعتبار المماليك جزءا من المصريين •

٥ — على أن أخطر نتائج ثورة القاهرة هي أن ثورات كثيرة قامت على أثرها بكل المدن والقرى من أسوان الى الاسكندرية ورشيد ، واشتركت فيها طبقات الشعب جميعا ، وكانت تقمع ثورة لتنبثق أخرى دون مبالاة بالضحايا والخسائر •

يعقوب فام الخائن واللواء القبطى :

فى وسط الصراع الذى قام به المصريون جميعا ضد الحملة الفرنسية كان هناك للأسف انحراف عن المسيرة تمثّل فى المعلم القبطى يعقوب فام الذى تعاون مع الفرنسيين وكان يصحبهم فى حملاتهم داخل القطر ، ويسهّل لهم مهامهم ، ويدلهم على عورات البلاد ، ويقول الجبرتى عنه :
سافر عدة كبيرة من عسكر فرنساوية الى جهة الصعيد ، وصحبتهم يعقوت القبطى ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبات (١) .

إنها خيانة لا يغفرها له التاريخ .

ومما يذكر أن رجال الدين المسيحي لم يكونوا راضين عن الجنرال يعقوب ، وكان بينه وبينهم مشاحنات كثيرة (٢) .

ويقول الأستاذ الصحفى محمد حسنين هيكل فى كتابه « خريف الغضب » (٣) إن يعقوب شكّل ما عرف باسم « اللواء القبطى » الذى عمل فى خدمة الفرنسيين ، ومنح يعقوب لقب « جنرال » وأصبح فيما بعد قائدا مساعدا للجنرال « دوسيه » على رأس القوة التى اتجهت للصعيد لتقاوم بعض صور النشاط العسكرى فى الصعيد .

ويذكر محمد حسنين هيكل أن البطريك عارض الدور العسكرى الذى قام به يعقوب ورفاقه .

وكانت نتيجة الخيانة الطبيعية ، فإن الفرنسيين الذين استعانوا بالخائن كانوا فى داخلهم يحتقرونه ، وقد كان الخائن يظن أنهم سيكافئونه

(١) تاريخ الجبرتى : أحداث شهر ربيع الاول سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨) .

(٢) انظر وثائق التاريخ بقلم الانبا غرغوريوس ص ١٧ وما بعدها .

(٣) لم نحدد صفحات الكتاب لائى قرات صغورا لصفحات جريدة « الوطن » التى نشرت الكتاب وهذا الموضوع نشر يوم الجمعة ٦ مايو سنة ١٩٨٣ .

على خيانتة فانسحب معهم عندما انسحبوا من مصر سنة ١٨٠١ ومعه بعض رفاقه من الخونة ، وتذكر الرواية أنه مات على الباخرة التي كانت تنقله الى فرنسا ، وأغلب الظن أن الفرنسيين دبوا نهايته .

أما باقى الخونة الذى بقوا فى مصر ، فقد انما عوا في الشعب وأخفوا خيانتهم حتى تنوسيت هذه الخيانة المريرة بسبب تسامح الشعب وطيبته .

رابعا - تركيا والحملة الفرنسية :

كان تدمير الأسطول الفرنسى وثورة القاهرة الأولى من أهم الدوافع التى دفعت تركيا لأخذ نصيب فى مقاومة الحملة الفرنسية ، وقد وجدت تركيا ألا مناص لها من دخول المعركة لترد على ادعاءات نابليون التى قال فيها إنه على وفاق مع السلطان العثمانى ، ثم لتستعيد مكانتها فى مصر بعد أن أوشك الزمام أن يصبح فى أيدي المصريين .

وتتفيذا لهذا الاتجاه أعلنت تركيا الحرب على فرنسا فى أواخر سنة ١٧٩٨م وتحالفت مع انجلترا لهذا الغرض ، وأعد السلطان جيشا للزحف على مصر .

ووجد نابليون أن سياسة الهجوم أنسب من سياسة الدفاع فزحف على الشام ليهاجم القوى العثمانية التى تحاول أن تندفع الى مصر ، وليواجه الأتراك الذين أرادوا الهجوم عليه ، وقد بدأت حملة نابليون على الشام فى فبراير سنة ١٧٩٩ ، فاستولى فى طريقه على العريش ثم غزة وبافا واستسلمت له الحامية التى كانت بتلك المناطق إذ لم تكن قادرة على المقاومة ، ولم يتم الاستسلام الا بعد أن أمنها نابليون ، وتعهد بسلامتها ، ولكن نابليون كان هذا السهد وأعمل السيف فى هؤلاء المستسلمين ، فحمل بذلك مسؤولية هذا العمل الاجرامى أمام الله والتاريخ .

وبعد ذلك تقدم نابليون الى عكا ، وقد صمدت هذه لقوات نابليون

صمودا رائعا ولم يستطع فتحها ، كما لم يستطع التفاهم مع قواتها
لنستسلم اذ أن خلق الضر حال دون هذه المفاوضة ، وكان لجهود أحمد
باشا الجزار أثر كبير في صمود عكا .

واتجه نابليون الى حصون عكا ودورها فسلط عليها مدافعه فدمرت
الكثير من مبانيها ولكنه عجز عن اقتحامها فاكتمل بهذا متظاهرا بالنصر :
وقرر العودة الى القاهرة ولكن قواته تعرضت لصراع الطبيعة فأصابها
الطاعون في طريق العودة ففقد على الكثير منها ، كما أزهقت هذه القوات
بالحرارة عندما دخل موسم الصيف فنال ذلك من نابليون ومن قواته .

موقعة أبي قير البرية :

اتجهت تركيا لضرب الحملة في مصر فأرسلت جيشا كبيرا بقيادة
مصطفى باشا وقد استطاعت هذه القوة أن تحتل قلعة أبي قير ولما علم
نابليون بذلك سار الى القلعة وجرت معركة برية هائلة انتصر فيها الجيش
الفرنسي وأسر القائد العثماني .

وبعد أن ذكرنا التحركات التي أحاطت بالحملة الفرنسية ، ووضعت
الأساس لفشلها ، نتيجة لرصد الأحداث التي وضعت نهاية لهذه الحملة
المسكورة .

عودة نابليون الى فرنسا :

أدرك نابليون أن آماله في مصر قد انهارت وأنه لا يستطيع أن يحقق
أحلامه بين ثورات الشعب ومهاجمة تركيا وحصار بريطانيا ، ويبدو أنه
لم يستطع أن يتحمل آثار الهزيمة فأثر الفرار والعودة الى فرنسا متذكرا
بعد أن أناب عنه كليبر ليصبح قائدا للحملة وذلك في أغسطس سنة ١٧٩٩ .

الحملة البحرية التركية (نوفمبر ١٧٩٩) :

اتجهت تركيا الى الصراع البحري بعد أن فشلت حملتها البرية

فأرسلت أسطولا في نوفمبر سنة ١٧٩٩ بقيادة السيد على بك ومساعدة السير سيدنى سميث الأدميرال الانجليزى ، وقد هزمها الفرنسيون عند عزبة البرج •

المفاوضات واتفاقية العريش « يناير ١٨٠٠ » :

كانت أكبر المهام التى عئى بها كليبر هى حراسة الجنود الفرنسيين ريثما يفاوض الانسحاب ، وقد جرت مفاوضات بين فرنسا وتركيا وانتهت هذه المفاوضات بمعاهدة العريش فى يناير ١٨٠٠ وهى تقضى بجلاء الفرنسيين عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم فى مدى ثلاثة أشهر على سفن فرنسية وتركية ، ولكن انجلترا رفضت هذه الشروط وأصرّت على أن يعامل الفرنسيون معاملة أسرى الحرب فيما يتعلق بالأسلحة والعتاد ، فلا بد من تسليم هذه الأسلحة لضمان خروجهم سالين بأنفسهم : وقد كانت انجلترا تتجه هذا الاتجاه لما كانت تدركه من حرج موقف الحملة الفرنسية ، ذلك الحرج الذى عبر عنه تقرير كليبر الى حكومة فرنسا عقب هرب نابليون وكانت انجلترا قد استطاعت أن تعرف مضمون هذا التقرير •

وهكذا عادت الأمور الى جو الصراع بعد أن توقف تنفيذ اتفاقية العريش •

معركة عين شمس (مارس ١٨٠٠) :

عاد العثمانيون الى القتال البرى فأرسلوا حملة لمحاربة الفرنسيين وقد أسرع كليبر لمواجهةهم عند عين شمس ، وقد انتصر الفرنسيون فى هذه المعركة وأرغموا الأتراك على الانسحاب للحدود الشرقية •

ولكن هذه المعركة كانت لها نتائج خطيرة اذ أنها أشعلت ثورة القاهرة الثانية التى سنتحدث عنها فيما يلى :

ثورة القاهرة الثانية (مارس وأبريل ١٨٤٠) :

انتهز المصريون — كما قلنا انفاً — خروج كليبر وأكثر جيشه من القاهرة وقاموا بما يسمى ثورة القاهرة الثانية ، وقد حاصر الثائرون ما تبقى للفرنسيين من جيش داخل المدينة ، وسرعان ما انضم للثائرين أعداد كبيرة من المماليك والأتراك العثمانيين ، وكانت هذه الثورة أطول وأقسى من ثورة القاهرة الأولى ، فقد أقام الثائرون المتاريس وحفروا الخنادق وأنشأوا معامل للبارود في الخرنفش وأسهم الأغنياء بالأموال الواسعة ، واشترك كل الأهالى من المسلمين والأقباط في هذه الثورة الهائلة ، ومن أبرز الشخصيات التى ينبغى أن تذكر هنا السيد المخروقى كبير التجار ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وجرجس الجوهري من زعماء الأقباط .

وقد احتاج كليبر الى جهد واسع لإخماد هذه الثورة ، وبذل تضحيات واسعة ليستعيد القاهرة من القوات المصرية الهائلة التى سيطرت عليها حوالى شهرين ونصف شهر .

نهاية كليبر :

ولما تم النصر للقوات الفرنسية لم يقف تأثير من المصريين ذلك الموقف القاسى الذى وقفه نابليون عقب إخماد ثورة القاهرة الأولى ، بل اتجه كليبر الى التظاهر ببعض الإصلاحات كتبظيم المجمع العلمى ، وإنشاء بعض المصانع ، ولكن الزمن لم يسعفه فقد سقط بطعنة من سليمان الحلبي فى ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ وأذن ذلك بمزيد من ضعف الحملة وعسر حياتها .

كلمة عن سليمان الحلبي :

وينبغى أن نورد كلمة عن سليمان الحلبي ، فهو من مواليد حلب بسوريا سنة ١٧٧٧ ، وقد رحل الى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف ،

وكان ذلك إبان وجود الحملة الفرنسية بمصر ، وقد أخذ على عاتقه أن يفتال كبير دفاعا عن مصر وعن الاسلام ، وشجعه بعض العلماء على ذلك ، وقد استطاع أن ينفذ خطته وقبض عليه عقب ذلك وحكم بإعدامه ونفذ الحكم فيه ، وأحرقت يده اليمنى ، وترك بعد موته طعاما للطيور الجارحة كما حكم بالإعدام على ثلاثة من رجال الأحرار تعاونوا معه هم : عبد الله النعزى ومحمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وقد ذهب هؤلاء ولكنهم تركوا ذكرا طيبا في مجال الوطنية والدفاع عن الاسلام .

عهد الجنرال مينو :

عقب قتل كبير تولى مينو قيادة الحملة ، ولم يكن في كفاءة سلفه ، وكانت الأمور حول الحملة تسير في انحدار ، وقد واجه مينو تصميمين من انجلترا وتركيا للقضاء على قواته ، وقد نزلت حملة انجليزية عند أبى قير في مارس ١٨٠١ واتجه مينو لمواجهةها ، ولكنه هزم وارتد الى الاسكندرية وتحصن بداخلها ، أما الانجليز المنتصرون فقد اتجهوا للقاهرة ، والتقوا في الطريق بالقوات العثمانية ، وقطعت القوات الانجليزية والعثمانية الطريق بين مينو في الاسكندرية وباقى قواته بالقاهرة .

واتجهت القوات الفرنسية في هذا المأزق الى طلب الصلح ، ووافقت عليه انجلترا وتركيا حقنا للدماء ، وإدراكا أن الفرنسيين في هذا المأزق قد يتصرفون تصرف اليائس فتكثر الضحايا ، وقد وافق قائد الحامية الفرنسية بالقاهرة (بليار) ثم وافق مينو في الاسكندرية على الخروج تبعا لشروط اتفاقية العريش .

ومما دفع فرنسا الى الاتفاق موت الأمير الخائن مراد بك الذى كان قد تحالف مع الفرنسيين ، وكان موته في مايو سنة ١٨٠١ .

وتم جلاء الفرنسيين عن مصر في أغسطس سنة ١٨٠١ .

الخداع والزيف

حول نتائج الحملة الفرنسية

توشك المراجع المصرية والعالمية أن تشجع على أن الحملة الفرنسية كانت لها نتائج حضارية باهرة ، والذي لا شك فيه أن خديعة فرنسية وأوروبية كانت خلف هذا الاعتقاد الخاطيء ، لقد كانت أوروبا تتطلع الى الزحف الى الشرق ، وكانت تحاول أن تصنع حملاتها بخديعة حضارية ، كأنما خطط الأوروبيون للتقدم الى بلاد الشرق الاسلامى والى افريقية يحملون مشاعل النور .

والحق إن فرنسا وسواها من دول الاستعمار الأوربى أو الأمريكى لم تأتى الى الشرق الا لمحاربة الاسلام من جانب ، ولسلب ثروات الشرق من جانب آخر ، ومن العبث أن يفكر انسان أن هؤلاء كانوا حملة إصلاح أو دعاة حضارة لبلاد الشرق .

وعلى الرغم من أن انجلترا اشتركت بنصيب كبير فى تدمير الحملة الفرنسية ، فانها اشتركت بنصيب كبير أيضا فى نشر هذا الوهم وهذه الخديعة بأن الحملة حققت لمصر تقدما حضاريا ، فمثل هذا الوهم يعين الزحف الأوربى الذى كان يتأهب للانسياب نحو الشرق .

وأذاعت أوروبا هذه الخديعة ، واهتمت فرنسا بوجه خاص بنشر هذه الفرية ، وللأسف وقع بعض المصريين والشرقيين فى الفخ ، وصدقوا تلك الأكذوبة فراحوا يروجونها ويكتبون عنها ودخلت المدارس والجامعات ، وتلقاها التلاميذ والطلاب الأبرياء واعتقدوها الكثيرون منهم ، ونحن هنا نحاول أن نحق الحق وأن نبرز بطلان هذا الادعاء بالحقائق التالية :

١ — قالوا أن الحملة كتبت كتابا مهما عن مصر عنوانه « وصف مصر » وهذا صحيح ، ولكن هذا الكتاب لم يترجم حتى الآن للغة العربية ، وكل ما تترجم منه هو أجزاء قليلة ترجمها الأستاذ المرحوم زهير الشايب في السبعينات من القرن العشرين أى بعد حوالى قرنين من انتهاء الحملة ، وبعد أن تغيرت معالم مصر بدرجة كبيرة ، ثم بعد أن كتب المصريون ما يعنى عنه .

٢ — ويقولون إن مصر تطلعت بسبب الحملة الى التغير الهائل الذى حدث فى أوروبا ، وبدأت مصر تقتبس من المدنية الغربية بعد ذلك .

ولكن الباحث فى تاريخ مصر بعد الحملة يجد أن مصر عادت لحياتها الحافلة بالقوضى بسبب صراع السلطات ، ولم تتجه لاقتباس أية مدنية ، وكانت السنوات التى تلت الحملة حتى عهد محمد على سنوات حالكة ، وأن التغير الذى طرأ على حياة مصر بدأ مع محمد على الكبير ، فهو وحده صاحب العقيلة الجديدة التى قضت على القديم وفتحت أبواب الجديد ، فانفتحت مصر به على العالم .

٣ — تحدثوا عن « الديوان » وهو أسلوب الدعاية لجذب بعض المصريين لصفهم عن طريق الوظائف اللامعة ، ولم يظهر لهذا الديوان أى أثر ، وقد وضعنا أن نابليون ألغاه بعد ثورة القاهرة الأولى وأعاد تشكيله على نمط لا يرعى مصالح البلاد .

٤ — تحدثوا عن تخطيط لمصانع وقناطر وجسور ، وإذا صح ذلك فهو تخطيط لم يدخل أبداً إلى حيز التنفيذ .

٥ — يتحدثون عن حجر رشيد ، مع أن العثور عليه كان مجرد مصادفة ، ولم تفك رموزه الا بعد نهاية الحملة بحوالى ثلاثين عاما .

٦ — وهناك أشياء كالشورى والوعى الصحى والشورى فى

الحقيقة كانت خداعا والوعى الضمى كان إحياء للوعى الإسلامى المصرى ،
وليس فيه أى جانب للإبتكار هو يؤكد الأستاذ محمد حسنين هيكل ذلك بقوله :
إن كثيرا من أفكار الحملة الفرنسية كانت أقرب الى روح الاسلام (١) .
ويتحتم على الباحث المنصف أن يتذكر ما يلى وهو يدرس هذا
الموضوع .

أولا : دخل الفرنسيون مصر فى يوليو سنة ١٧٩٨ ، وفى أوائل
أغسطس أى بعد حوالى شهر واحد كان الأسطول الفرنسى قد قضى
عليه ، وبذلك انتهت آمال الفرنسيين فى مصر وأصبحوا سجناء لا هم
لهم إلا الوصول إلى وسيلة للعودة الى بلادهم ، وأسرع نابليون بالهرب
متمكرا ، وكل هذا يوضح أنه لم يكن هناك وقت للإصلاح ، ولا جهود
للأعمال الحضارية إن كانت خطرت بالبال ، ويتقدم الأسطول الفرنسى
توقفت الصلات بين الحملة وبين فرنسا تقريبا ، وأصبح على قادة الحملة
أن يعتمدوا على السلب والنهب والضرائب لتغطية نفقات الجيش ، وهذا
زاد الأمور حدة وتأزما .

ثانيا : ادعى نابليون الاسلام وكذلك ادعى مينو وهو من أكبر قواده ،
وهذا يوضح سهولة الادعاء بأنهم جاءوا لرعاية الحضارة أو أنهم أسهموا
فعلا فى خدمة الحضارة وكلها دعاوى باطلة .

ثالثا : لقد كانت سنوات الحملة الفرنسية بمصر ثلاثا وهى مدة
قصيرة جدا ، ثم إن الحروب كانت خلالها مشتعلة ، اشترك فيها المصريون
بكافة طبقاتهم وبلادهم ، واشتركت فيها بريطانيا وتركيا ، وكل هذا يجعل
من العبث الاعتقاد بأن اتجاها حضاريا قد بدأ لهذه الحملة .

رابعا : ذكرنا من قبل أن صراعا مريرا دار بين هذه الحملة وبين

(١) خريف الغضب المنشور بصحيفة « الوطن » يوم الجمعة ٦ مايو
سنة ١٩٨٣ .

المصريين ، وأن آلاف المصريين قتلوا ، ولا يمكن في مثل هذا الجو أن تقوم أى اتجاهات حضارية ، فطبيعة الحضارة تحتاج الى استقرار وثقة .

خامسا : لم يكن هدم البوابات نوعا من الترقى ، وإنما كان لتمكين السيطرة على الشوارع والأزقة التى كانت دائما مصدر خطر على المستعمر .

سادسا : لقد أحضر نابليون معه مطبعة ولعل استعمالها كان مقصورا على بيانات التخدير والتحذير للشعب المصرى ، وقد أخذتها الحملة معها عند انسحابها ، مما يدل على أن المظاهر الحضارية كانت لخدمة الحملة لا لخدمة مصر .

سابعا : وهو شئ مهم جدا ؛ لقد استعمرت فرنسا عدة أقطار فى آسيا وأفريقية ، وامتد هذا الاستعمار أحيانا عدة قرون ، ولم تشهد هذه الأقطار تقدما حضاريا تركه المستعمر ، بل ترك دائما الخراب والدمار .

ثامنا : وضحنا من قبل أن الأوامر صدرت للجيش الفرنسى بتقديم الأزهر الذى اتخذ منه المجاهدون مركزا لجهودهم وأن الجنود الفرنسيين ضربوه بالقنابل والفرقعات حتى زلزلت أركانه ، ثم دخلوه بخييلهم ... ووضح جدا أن هذه الأفعال قمة الغوغائية ، فان الفرنسيين بذلك حاربوا حضارة الاسلام وحضارة مصر متمثلة فى الأزهر الشريف الذى كان ولا يزال منارة فكر للعالم الاسلامى كله ، وبهذا نقرر أن الفرنسيين كانوا ضد الحضارة وليسوا بناة حضارة .

تاسعا : وأبو الهول الذى يقف شامخا منذ آلاف السنين لم يسلم من عدوان الغوغائية والفوضى ، فقد وجّه له هؤلاء الأوغاد ضرباتهم ، حتى كسروا أنفه ، وهذا يدل على سوء تقديرهم للحضارات ، وأنهم لم يحضروا لحركة تنمية حضارة أو بناء مدنة .

الاستعمار الانجليزي نتيجة من نتائج الحملة الفرنسية :

العاشر : إن الباحث المنصف يجد الحملة الفرنسية فتحت على مصر باب المتاعب والاستعمار ، فقد لفتت أنظار الانجليز الى أهمية مصر كطريق للهند ، فأدركت انجلترا خطر قيام دولة كبيرة كفرنسا في مصر ، فاشتركت في تدمير الحملة لهذا الغرض ، بل اتجهت الى ضرورة السيطرة على مصر بطريق أو بآخر منذ ذلك الحين ، وقد بدأ ذلك في وقت مبكر ، فقد انتهزت انجلترا وجود قوات فرنسا بمصر ودخلت البلاد عند أبى قير في مارس سنة ١٨٠١ ، ونسارت هذه القوات تجاه القاهرة ودعت بعض زعماء المماليك للانضمام لها ضد الفرنسيين ، وقد حدث ذلك فعلا ، فوصلت قوات انجلترا الى القاهرة في يونيو ١٨٠١ ، وخرج الفرنسيون عقب ذلك في أغسطس من العام نفسه ، ولكن الانجليز توانوا في الجلاء عن البلاد ، ولم يخرجوا الا في سنة ١٨٠٣ بعد مفاوضات ضعبة . وعاود الانجليز محاولاتهم ، فأرسلوا حملة فريزر التي سنتحدث عنها بعد قليل ، ولكنها أيضا منيت بالفشل .

والحركة التبشيرية أيضا :

ولم تقنع انجلترا بالمحاولات العسكرية ، فسرعان ما اتجهت لنوع جديد يكسبها النفوذ في مصر ، وكان هذا النوع مرتبطا بالحركة التبشيرية التي كانت لها أهداف سياسية ودينية ، وقد وصلت الى مصر أول ارسالية بريطانية تبشيرية سنة ١٨١٥ ، وتبعتها إرساليات متعددة الإجناس ، وكان الغرض من هذه الحركات التبشيرية كسب النفوذ من جانب ، وإحداث فجوة بين المسلمين والأقباط من جانب آخر .

ما أشق ما حملت الحملة الفرنسية الى مصر وإلى الشرق من نتائج وقد كان الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ هو أحد النتائج المشؤمة للحملة الفرنسية .

الأقباط المصريين يطالبون من الاستعمار الغربى ، لماذا ؟

وبمناسبة محاولة إيقاع خلافات بين المسلمين بمصر وبين الأقباط نقرر أن أقباط مصر كانوا فى الغالب يبرهنون على وطنية عالية ، ويتفقون مع المسلمين فى التصدى للمحاولات الاستعمارية الغربية ، وبخاصة أن تجربة المسيحيين المصريين مع المسيحيين الغربيين كانت مريرة وشاقة ، فلم يحدث أن حمل الرومان أو الاغريق أو الصليبيون أى نوع من الحرية أو الخير للمسيحيين فى مصر ، فقد كان مسيحيو الشمال يدينون بالمذهب الكاثوليكي ، وكان المسيحيون المصريون يتبعون المذهب الأورثوذكسى ، ومن هنا فان المسيحيين الغربيين كانوا يعدّثون المسيحيين المصريين هراطة يجب القضاء عليهم ، وقد منعهم الصليبيون عندما كانت لهم السلطة على القدس من زيارة المدينة المقدسة ، كما منعوا المسلمين سواء بسواء ، وعندما حقق الصليبيون بعض الانتصارات فى دمياط فى الحملات الصليبية المتأخرة ، خطفوا أولاد الأقباط وباعوهم الى أسقف عكا لتعميدهم تبعا للعقائد الكاثوليكية ، وعندما أستطاع الملك بطرس ملك قبرص قبيل نهاية الحروب الصليبية من احتلال الاسكندرية بعض الوقت أسرع جنوده بالقيام بحركة نهب وسلب لكل الأموال دون تفرقة بين مسلم وقبطى ، كما راح هؤلاء يقتلون دون وازع كل من عارضهم ، وكثيرا ما كان الأقباط من ضحاياهم كما كان المسلمون ، دون تفریق .

وقد أدرك المسيحيون الغربيون هذه النتيجة ، فعدّلوا من سلوكهم ومن كراهيتهم للمذهب الأورثوذكسى ليكسبوا لهم أنصارا من الأقباط ، وكان ذلك تضحية بالعقيدة من أجل السياسة ، ولكن نتائج هذا الاتجاه ليست موضع الحديث الآن .

إن زحف الغرب على الشرق سُمّي « استعمارا » وهى كلمة مدلولها اللغوى متصل بالعمران ، ولكن هذا المدلول مُتَّعِدٌ تماما ، وأصبح مدلولها هو الخراب والحرمان والضغط والظلم .

ويبدو أن فرنسا أرادت كلمة خداعة جديدة ، فتحدثت عن التطور الحضارى الذى قدمته لصر ، وتلك أكنوبة تشبه كلمة « استعمار » .

حجر رشيد :

وبمناسبة الحديث عن حجر رشيد نذكر أنه حجر من البازلت يحمل نصبا مكتوبا بثلاث لغات هى الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ، والنص عبارة عن شكر الكهنة للملك بطليموس الخامس على مساعداته التى قدمها للمعابد .

وقد عثر جنود الحملة الفرنسية على هذا الحجر سنة ١٧٩٩ على مقربة من قلعة سان جوليان قرب رشيد ، وأهمية هذا الحجر ترجع الى أن اللغة اليونانية كانت معروفة آنذاك ، وبمقارنة اللغة الهيروغليفية بها أمكن فك رموز الهيروغليفية ، وبالتالي أمكن التعرف على كثير من الأفكار والعلوم المصرية القديمة التى كانت مكتوبة بالهيروغليفية ولم تكن فى متناول المعرفة حتى ذلك التاريخ .

ومنذ عثر على حجر رشيد حاول الباحثون اجراء هذه المقارنة وحل الرموز الهيروغليفية ، ولكن قُدِّر أن يتم ذلك على يد العالم « شمبليون » الذى كان بمصر سنة ١٨٢٨ - ١٨٢٩ وبواسطته اتضحت اللغة الهيروغليفية لغة مصر القديمة ، واستطاع هذا أن يترجم كثيرا من نصوصها وأن يضع لها أول أجرومية لقواعدها .

مصر بعد الحملة الفرنسية

خاضت الحملة الفرنسية بمصر قوة إنجليزية تحتل الاسكندرية وبعض مناطق بالقاهرة ، وخلفت الأتراك الذين طمعوا في استعادة سلطانهم ، وخلفت المماليك بقيادة زعيمين كبيرين هما عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى (١) ، وخلفت قبل كل شيء وبعد كل شيء شعبا يتوق الى الحرية ، ويريد أن ينالها بنضاله وكفاحه .

مؤامرات للتخلص من المماليك :

فأما الانجليز فقد أدخلوا البلاد بعد أن ثبتوا حكم الأتراك ، وأما الأتراك والمماليك فقد وقعوا في خلاف مستمر ، قصد العثمانيون التخلص من المماليك وأراد المماليك التخلص من العثمانيين ، ومن الوسائل التى استعملها العثمانيون ضد المماليك تلك المؤامرة التى دبرها المقتبطان حسين باشا إذ دعا زعماءهم للاجتماع به على إحدى سفن الأسطول للتشاور فى شئون البلاد ثم أطلق القذائف على زورقهم : وقد قتل فى هذه المؤامرة عدد منهم وجرح آخرون ، وفى القاهرة جرت مؤامرة أخرى ضدهم قبل جلاء الانجليز ، ولكن الخامية الانجليزية حمت كثيرين منهم ممن لجئوا إليها ، وعلى كل حال فقد أكلت الحملة الفرنسية بعض المماليك ، وقضى العثمانيون على بعض ما تبقى منهم ، ولم يبق من المماليك بعد ذلك إلا قلة ضئيلة يترعما محمد بك الألفى وعثمان بك البرديسى ، وكان أولهما مؤيدا من الانجليز وأكثر حنكة وذكاء ، ولكن دولة المماليك على أى حال كانت على وشك الأفول فلم يستطيعوا مقاومة الأحداث ، وقد قضت عليهم نهائيا المؤامرة التى دبرها ونفذها محمد على بالقلعة ، والذين نجوا من المماليك بعد ذلك اندمجوا فى غمار الشعب ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

(١) مات مراد بك كما سبق ، وكان ابراهيم بك قد وصل الى الشيوخة فلم يعد له ذكر .

ضعف النفوذ العثماني :

وأما العثمانيون فقد مثلهم بعد جلاء الفرنسيين خسرو باشا الذي عيّن واليا سنة ١٨٠١ ، ولكن سرعان ما دبّ الخلاف بينه وبين الجنود العثمانيين بسبب تأخر مرتباتهم ، وتحولّ الخلاف الى مشادة وعنف ، فحاول طاهر باشا أركان حرب خسرو باشا أن يتوسط لحل المشكلة ، ولكن خسرو اتهمه أنه يمالئ المتمردين ، فانضم طاهر باشا فعلا الى المتمردين ، واضطر خسرو باشا أن يهرب بأسرته الى دمياط ، وعيّن طاهر باشا قائم مقام الوالى حتى ترد تعليمات الأستانة بشأن الوالى الجديد ، غير أن طاهر باشا سرعان ما لقي نفس المصير الذى لقيه خسرو باشا ، إذ ثار عليه الجند أيضا لنفس الأسباب وقتلوه ، وعين الباب العالى بعده على باشا ، ولكنه لم يتمكن من الوصول الى القاهرة وبقي محاصرا في الاسكندرية حتى قتل سنة ١٨٠٤ ، وعين بعده أحمد خورشيد باشا ولكنه لم يستطع أن يكبح جماح الجند ولم يرض الشعب المصرى كما سنرى .

بروز القوة المصرية :

ونجىء الآن الى القوة التى كانت تتربص بالأحداث ، وهى قوة الشعب المصرى التى استردت كيائها وتصدت لمقاومة الفرنسيين ، وأصبحت تحس أن من حقها أن تجنى ثمار هذا الانتصار ، فرفضت هذه القوة أن تعود الأمور الى ماكانت عليه قبل الحملة وإلى هذه القوة مال ضابط كان يقود فيلقا من الفيالق العثمانية بمصر ذلك هو محمد على ، وقد حصل على ثقة الشعب فى النضال الذى كانت البلاد تخوضه ، وعندما هوت قوى المماليك واضطرب أمر الدولة العلية فى مصر اندفع الشعب يفرض إرادته فخلع خورشيد وعين محمد على ، وبدأت بذلك فترة جديدة أسميناها « الفترة الاستقلالية » وسنعرض لها بالحديث بعد قليل .

وقبل أن ندع العثمانيين (١) يجدر بنا أن نقتبس بعض تعليقات المؤلفين عن هذه الحقبة القاتمة .

تركيا تتحدر للنهاية :

يقول محمد صبرى : إن تركيا ما كان يعنيها أن تسود الوحدة والنظام في مصر أو في أية ولاية من ولاياتها ، وإنما كل ما كان يعنيها هو الخراج الذي تجبيه من هنا وهناك ، ولا ضعفت تركيا حركة ضعفها الأطماع من الداخل والخارج ، وأثرت ذلك على الولايات الخاضعة لها ، وكانت كثرة التغيرات في عاصمة الخلافة ، من العوامل التي دفعت الجيش بمصر في القرن السابع عشر إلى العبث بالنظام وقتل الولاة ، ففي سنة ١٦٠٤ قتل الجيش التركي إبراهيم باشا الوالى ، وعلمت رأسه على باب زويلة ، ففقد الولاة هيبتهم في أعين المصريين ، وأتاح ذلك الفرصة لنشاط قوة المماليك (٢) .

والمماليك ينحدرون كذلك :

ولما عاد النفوذ للمماليك كان هؤلاء في هذه الفترة غيرهم في الفترات السابقة للفتح العثماني ، ويصف « فولنى » المستشرق الفرنسى حياة الفرد منهم بأنها أصبحت سلسلة من جرائم القتل والفرد والمؤامرات والحسائس ، وقد انقطعت بينهم وبين الناس وبين بعضهم البعض الآخر ، أسباب المحبة والعطف وصلات القرابة والرحم ، ومن هنا انتشر انحدار بين الرجل ووليه ، وبين العتيق ومعقته ، وفقد المماليك النظام والطاعة ، وبذلك لم يبق لهم شيء من الروح الجرمية التي هي أهم ما يحتاج لها الجندى : وأصبحت بيوت البكوات من المماليك مواخير تعمرها القذارة وترخر بالدعارة ، بعد أن كانت في الماضى مثالا للطهارة والاستقامة ،

(١) تصور هنا أن العهد العثماني قد انتهى ، لأنه في الحقيقة لم يعد له نفوذ يذكر .

(٢) تاريخ العصر الحديث ص ٢٢ .

وتورط المالك في الرذيلة ، ومعاقرة الخمر والفسق ، والسلب والنهب ،
والترف ، وكانوا من قبل أكثر ميلا للنزاهة والبساطة والترحم .

بؤس الشعب المصرى وضرورة التغيير :

أه! الشعب فقد كان في أتعس حال في الماضي وشقاء ، انصرف الى العناية
والتنجيم والسحر والخرافات والبطالة ، وانقطع ما بينه وبين العالم
الخارجي من صلات ، كما انقطع ما بينه وبين ماضيه من صلات ، ولم
يكن أحد يأمن على أملاكه إلا بصعوبة وشدة ، وكانت العقوبة تحمل
بالواحد منهم دون محاكمة ، ولو كانت عقوبة الإعدام ، وكسان الغنى
يُعَد جريمة حتى أن الأغنياء لم يروا وسيلة للاحتفاظ بما لديهم من المال ،
إلا بالتظاهر بالفاقة والمتربة (١) .

مقارنة بين العثمانيين والمغول :

ويقول غوستاف لوبون (٢) : وعلى ما بين الترك والمغول من شبه في
الهمجية كان المغول أكثر استعدادا للثقافة ، فالمغول ، وإن لم يكونوا أهلا
لإبداع حضارة جديدة كما أبدع العرب ، استطاعوا أن ينتفعوا بحضارة
العرب الذين ، وإن زال ملكهم في الشرق ، ظلت حضارتهم تهيمن عليه .
ولكن الترك كانوا أهل حرب وقتال ، ولم يكونوا أهلا ليصمدوا في سلم
الحضارة ، ولم يقدرُوا على الانتفاع بتراث العرب فضلا عن إيمانه ،
ويروى غوستاف لوبون قول العرب « لا ينبت العشب على أرض يطؤها
الترك » ويعلق عليه بقوله : والحق أنه لم ينبت .

(١) نقلا عن محمد صبرى ص ٢١ — ٢٢ .

(٢) حضارة العرب ص ١٤٦ و ١٤٧ .

ونتيجة لهذه الأحوال المضطربة حل الجذب في البلاد ، فأصبحت
أخصب البقاع فلوات جرداء ، وشلت حركة التجارة والزراعة والصناعة
وهي حال يتول إليها كل بلد زراعى لا توجد فيه حكومة تسهر على مصالحه ،
وتكفل الأمن وتنشئ الطرق والجسور والقناطر وتتعهد بها ، وقد عبّر
نابليون عن ذلك أدق تعبير حين قال : إن الإدارة الحسنة في مصر تكفل
النيل الغلبة على الصحراء ، والإدارة المعتلة تكفل للصحراء الغلبة
على النيل .

مصر مركزا للدراسات الإسلامية في عصر الجبرتي

مقدمة :

في ابريل سنة ١٩٧٤ أقيمت الجمعية التاريخية المصرية مهرجانا حافلا عن :

« عبد الرحمن الجبرتي وعصره »

بمناسبة مرور ١٥٠ عاما على وفاة المؤرخ العظيم .

وقد اشترك في هذا المهرجان عدد كبير من المؤرخين والباحثين من مصر ومن أقطار العالم ، وأسندت لى الجمعية التاريخية الكتابة في هذا الموضوع : « مصر مركزا للدراسات الإسلامية في عصر الجبرتي » كجانب مهم من جوانب عصر الجبرتي ، وقد قمت بذلك ، واختير هذا البحث ضمن البحوث التي أقيمت ونوقشت في المهرجان ، ويمكن القول إنه لاقى كثيرا من التقدير ، ويسرني أن أثبت هذه الدراسة هنا ، فهذا هو مكانها الطبيعي في سير التاريخ بالنسبة لمصر .

وقد كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المركز الرئيسي الذي أشع نور المعرفة حول هذه الفترة ، ولهذا كان كتابه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » أهم مرجع قدم المادة العلمية لهذا البحث وأمثاله من البحوث التي تدور حول هذه الفترة ، وبدون كتاب الجبرتي كانت معارفنا عن هذه الحقبة ستظل ناقصة .

وفي تقديري يمتد عصر الجبرتي حوالى قرن من الزمان ليشمل شيوخه ومعاصريه وبعض تلاميذه ، وذلك من حوالى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثالث عشر تقريبا (١٧٣٧ — ١٨٣٤م) ، وتلك هى الحقبة التى ستدور حولها دراستنا في هذا البحث .

المدرسة المصرية المبكرة للدراسات الإسلامية :

وفي التقديم لدراستنا عن عصر الجبرتي ، وكيف كانت مصر مركزا للدراسات الإسلامية خلاله ، ينبغي أن نعود الى الوراء هنيهة لنرى المدرسة المصرية وهي تنشأ وتتطور في خدمة العلوم الإسلامية بوجه خاص ، والعلوم العامة بوجه عام :

لقد جذبت مصر إلى رباها منذ مطلع الإسلام مجموعة من المحدثين والفقهاء الأفاضل ، وأنتجت مصر مجموعة لا تقبل عن الوافدين موهبة وكفاءة ، ومن هؤلاء وأولئك تكونت بمصر مدرسة للدراسات الإسلامية ضارعت المدارس الأخرى في مختلف العواصم الإسلامية ، وقد تحدثنا عن هذه المدرسة بشيء من التفصيل فيما سبق (١) .

ثم حملت مصر أكثر العبء في خدمة الفكر عندما اضطربت الأمور في بغداد بعد العصر العباسي الأول ، ثم استقلت مصر تقريبا بخدمة العلم وأصبحت ملجأ العلماء عندما اجتاحت الصليبيون قلب العالم الإسلامي في سوريا ، وزحف النصارى على الجناح الشرقي ، وزحف الأسبان والبرتغاليون على الجناح الغربي (٢) .

وأصبحت مصر بذلك أزهى مركز فكري في العالم الإسلامي كله ، وشاع ذلك المثل الذي يتكرر في كثير من الأقطار الإسلامية والذي يقول : من لم ير مصر لم ير عز الإسلام .

وحملت مصر مسئوليتها الإسلامية بكفاءة وجدارة ، على الرغم من أن المالك آلت لهم السلطة بعد الدولة الأيوبية ، وكان أكثر هؤلاء

(١) انظر ص ٦٧ — ٧١ من هذا الكتاب .

(٢) سنذكر تفاصيل ذلك عند حديثنا عن « مصر والحضارة الإسلامية » .

لا يستمتعون بعقلية علمية غالباً ، أو عبقرية تشييد وتعمير ، ولكن العلماء أقاموا سلطانهم غير مباليين بالحاكم .

وجاءت الدولة العثمانية بعد المماليك ، وكان عهدها عهداً حافلاً بالصراع الداخلي والصراع الخارجي ، ولم تكن عقلية القادة العثمانيين بناءة أو خلاقة ، فمشلوا في المجال الثقافي الدور الذي مثله المماليك قبلهم ، أو قل بتعبير أدق إن المماليك والعثمانيين امتزجوا معا وكانوا في مستوى متقارب من حيث الثقافة والفكر ، ولكن الشعب المصري حمل مسؤولية الفكرية بنجاح على الرغم من انحراف القادة ، وقد عاصر الجبرتي هذه الفترة التي سنحاول أن نعرض أشعة الفكر الاسلامي خلالها ، لنراها وهي تثبت جذورها وتنمو فروعها على الرغم من الاضطراب السياسي الذي كان سائدا آنذاك .

ملاحع عصر الجبرتي

لقد عاصر الجبرتي فترة من أخطر الفترات في تاريخ مصر ، عاصر الصراع بين المماليك والعثمانيين على الحكم ، وعاصر الحملة الفرنسية وهي تقتحم البلاد ، وتتخذ صورا مختلفة لتخدع المواطنين ولتنسيبهم دون جدوى مرارة الاستعمار ، وعاصر الفترة الكالحة التي تلت خروج الحملة الفرنسية من مصر حيث بدأ صراع جديد ضد أرض الكنانة كان المماليك والعثمانيون والانجليز أبرز أطرافه ، ولكن الجبرتي عاصر شيئا أهم من ذلك كله ، ذلك هو بروز الشخصية المصرية واستقلالها استقلالاً كاملاً شديد الدوى في التاريخ ، فإن مصر ارتبطت بتركيا باسم الإسلام ، ولذلك لم تعمل مصر بحماسة للتخلص من العثمانيين على الرغم مما عانتها منهم .

أما صلة مصر بالمماليك فكانت صلة تتبعث من الاعتقاد السائد بأن المماليك ليسوا أغرابا عن البلاد ، وهم في مصر لا وطن لهم سواها ، ولا يستغلون البلاد لصالح أي بلد آخر ، كما ذكرنا من قبل ومن هنا يسميهم

الجبرتي « الأمراء المصريين » ومن هنا كذلك كان لفيف من العلماء يعمل على تصفية الخلافات التي تنشأ بين بعضهم والبعض الآخر .

وجاء الفرنسيون وقد أساءوا فهم هذا التصرف المصرى الذى أشرنا اليه ، فاعتقدوا أن المصريين ميالون للسلم ، وأنهم سوف يرحبون بأية سلطة تحل محل العثمانيين والمماليك وبخاصة إذا كانت أحسن من هؤلاء وأولئك ، وكانت هذه غلطة كبرى دفع الفرنسيون ثمنها غاليا ، لأنهم لم يدركوا الأسباب الحقيقية لمسألة المصريين للعثمانيين والمماليك .

ولكن الاحتلال الفرنسى فتح عيون المصريين على شئ مهم فيما يتعلق بعلاقتهم بالعثمانيين ، فإن هؤلاء تركوا مصر وحدها فى الصراع ضد المستعمر الفرنسى ، وحمل المصريون وحدهم كل العبء فى هذا الصراع ، ولم يكن معهم سلاح يؤبه به ، ولكن كانت معهم العقيدة الراسخة والدماء التى تزلزل قسوى المستعمرين ، والأمل الذى لا يعرف الحدود ، واشتركت كل مدن مصر وقراها فى هذه الثورات ضد الفرنسيين من أسوان الى الاسكندرية ورشيد ، واشتركت فيها كل طبقات الشعب ، وكانت تقمع ثورة لتفور أخرى غير مبالية بالدماء والضحايا كما ذكرنا من قبل ، وعندما حقق المصريون آمالهم ، وحمل الاستعمار الفرنسى عصاه وأخلى البلاد لم تهدأ ثورات المصريين بعد ذلك ضد أولئك الذين خدعهم من قبل فظلت صرخة المصريين تدوى ضد العثمانيين من جانب ، ومن جانب آخر ضد المماليك الذين كانت أخلاق الكثيرين منهم قد ساءت كما ذكرنا من قبل ، وتم التخلص عمليا من السلطين ، وأصبح أمر مصر بيد المصريين وأصبحت الشخصية المصرية محددة المعالم ، وكان العلماء المسلمون قادة هذا التحول الكبير ، وقد آن لنا أن نعيش مع هؤلاء العلماء ونرى مصر وهى مركز مهم للدراسات الاسلامية خلال هذا العصر .

المراكز الثقافية بمصر في عصر الجبرتي

والمراجع التي بين أيدينا تصور لنا مدى النشاط الفكري الذي كان موجودا بمصر في تلك الفترة ، فنتحدث عن مراكز ثقافية تقف معالم شامخة لخدمة الدراسات الاسلامية هنا وهناك ، كما نتحدث عن الباحثين والطلاب ، وتصورهم نحلا يسعى ليجتني الرحيق من الأزهار •

الأزهر :

وقد تنوعت المراكز الثقافية في هذا العصر ؛ فمنها المدارس ، ومنها المساجد والزوايا ، ومنها بيوت العلماء التي نافست هذه وتلك في اشعاعاتها ، ويعدّ الأزهر قمة المراكز الثقافية بمصر ، فمن الواضح أن الأزهر واصل رسالته العظمى خلال هذا العصر كما واصلها عبر العصور المختلفة ، ووقف جامعة شاهدة ترعى كل العلوم الاسلامية ، وتحرس الاسلام والوطن الاسلامي ولن نطيل هنا حديثنا عن الأزهر ، فالأزهر جامعة الشرق الأولى منذ أسس حتى اليوم ، ولنترك الأزهر لشهرته لنعايش بعض المراكز الثقافية الأخرى •

ولكننا نذكر عن الأزهر شيئا ليس شائعا هو ذكرته صحيفة الوطن القبطية في ٥ مايو سنة ١٩١٦ من أنه كان للأقباط قديما رواق بالأزهر يتلقون فيه العلوم المنطقية والشرعية ، وأن ممن درسوا بالأزهر قديما أولاد العسال وهم من كبار مثقفي القبط ، ولهم مؤلفات مهمة ، ومن تعلم بالأزهر حديثا من الأقباط ميخائيل عبد السيد صاحب صحيفة الوطن ، وقد أنتقل الى دار العلوم عندما أنشئت ، ومنهم وهبي تادرس الشاعر الذي كان يحفظ القرآن ويكثر الاقتباس منه ، وفرنسيس العتر الذي كان يحضر دروس الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٢ (١) •

(١) انظر هذه الصحيفة وكتاب « المسلمون والأقباط » للأستاذ طارق

المدارس :

بعد الأزهر تقف مدرسة أبى الذهب عملاقة بين مدارس هذا العصر ، ويذكر الجبرتي (١) أن أبا الذهب (١٧٧٥ - ١٨٨٩) بناها تجار الجامع الأزهر ، وكان محلها خرائب اشتراها أبو الذهب من أربابها ، وأمر ببناء مدرسته فيها ، ورتب لنقل الأتربة وحمل الجير والرصاص والطين عددا كبيرا من قطارات البغال والجمال ، واستعمل في بنائها الأحجار العظيمة ، فكان الجمل لا يستطيع أن يحمل إلا حجرا واحدا ، وتم بناؤها سنة تسع وثمانين ومائة وألف ، وقد نقشت هذه المدرسة بأجمل الألوان والأصباغ ، وأعدت لها نوافذ عظيمة كلها من التماس الأصفر الجيد الصنع ، وكان للمدرسة فناء فسيح مفروش بالرخام والمرمر ، في وسطه نافورة بديعة ، وحول الفناء مساكن للمثوقة والطلاب ، وأعدت فيها أمكنة للمفتين الكبار ليجلسوا بها حصّة من النهار لإفادة الناس بعد إملاء الدروس ، وفُرشت المدرسة بالحصر ، ومن فوقها الأبسطة الرومية في الداخل والخارج حتى فتحات النوافذ ودرجات السلم ، وعملت بها دواوين للدراسة كانت غاية في الروعة والابداع ، كما بنى معها مسجد عظيم أسس تأسيسا عظيما ، وقرر أبو الذهب في مدرسته الشيخ أحمد الدرديري مفتى المالكية ، والشيخ عبد الرحمن العريشي مفتى الحنفية والشيخ حسن الكفراوي مفتى الشافعية ، وكان هؤلاء يقومون بالتدريس إلى جانب الإفتاء ، وعين معهم مجموعة كبيرة من المدرسين الذين كانوا يعملون بالأزهر مثل الشيخ على الصعدي والشيخ محمد الأمير ، والشيخ حمد يونس ، والشيخ أحمد السمنودي ، والشيخ على الشنويهي والشيخ محمد الحفناوي ، والشيخ محمد الطحلاوي والشيخ حسن الجداوي ، والشيخ أبو الحسن القلعي ، والشيخ البيلى ، والشيخ محمد الحريري ، والشيخ منصور المنصوري ، والشيخ أحمد جاد الله ، والشيخ محمد المصليحي وعين في وظيفة التوقيف الشيخ محمد الصبان ، وجعل بها خزانة عظيمة للكتب وعيّن محمد أفندي حافظ خازنا لها ، وعين الشيخ محمد

(١) تاريخ الجبرتي : ج١ ص ٤١٨ وما بعدها .

، الشافعى نائباً له ، ورتب للمدرسين الرواتب المنخبة التى تتفاوت بحسب أقدارهم ، كما رتب للطلبة رواتب طيبة ، وقد افتتحت المدرسة ب صلاة الجمعة فى مسجد ها ، وعقب انقضاء الصلاة ألقى الشيخ الصعدي درساً ، ولما انقضى منه ، قدم الأمير لكبار الشيوخ الخلع الثمينة ، كما أنعم على الخدم والمؤذنين بقطع الذهب والمساعدات الكبيرة .

ومن المدارس الشهيرة بهذا العصر المدرسة الصلاحية التى بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب ونسبت له ، وكانت المدارس الصلاحية منتشرة فى أنحاء شتى بالبلاد ، ومنها المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعى ، وكان يتولى التدريس بها الشيخ الصاوى ، الذى رشح لشيخه الجامع الأزهر عقب وفاة الشيخ أحمد العروسى وكان ينافس فى هذا الترشيح الشيخ عبد الله الشرقاوى ، واستقرت الوظيفة للأخير وبقي الصاوى مدرساً بالمدرسة الصلاحية مما يدل على مكانة هذه المدرسة ، ويقول الجبرتى (١) إن شيخ الأزهر لا تتم له مكانته إلا إذا كان مدرساً بالصلاحية ، وقد لعبت الصلاحية دوراً كبيراً فى خدمة الفكر الإسلامى وخرج منها كثير من الشيوخ والقادة والمفكرين .

ومن مدارس ذلك العصر مدرسة الأشرفية التى كان يعلم بها الإمام محمد ابن أحمد الخالدى الشهير بابن الجوهري (١١٨٢ = ١٧٦٨) ، ويذكر الجبرتى (٢) أنه كان يميل الى التعفف والانعجام عن خلطة الناس والترهد عما بأيديهم فأحبه الناس لذلك وصار له أتباع ومريدون كانت المدرسة تمتلئ بهم ، وكان منهم مجموعة كبيرة من علماء العصر الذين نهلوا من فيض علمه ، ثم راحوا يعملون هنا وهناك ، خالقين امتداداً فكرياً لشيخهم فى عدد من الأماكن والمعاهد .

ولا يزال للشيخ الجوهري صيت ذائع فى مضر والعالم العربى

(١) الجبرتى : ج ٤ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٦٤ .

والإسلامى لعلمه وفضله ، وجهده فى خدمة الثقافة الإسلامية ، وقد اعترفت الدولة حديثا بمنزله مكانا من الآثار الجديرة بالرعاية .

وهناك مدارس كثيرة على هذا النمط تحدث الجبرتى عن نماذج كثيرة منها ، فلندعها الآن لتحدث عن طائفة أخرى من المراكز الثقافية وهى المساجد والزوايا .

المساجد :

وعن المساجد نذكر حقيقة كثيرة التردد هى أن القاهرة كانت تعرف بأنها مدينة الألف مؤذنة ، ومعنى ذلك أن المساجد كانت بمصر فى عصر الجبرتى كثيرة كثرة بالغة ، كما لا تزال حتى اليوم ، وكان أكثرها يتبع الفكر الإسلامى الأصيل عن المساجد ، وهى أنها ليست دور عبادة فقط وإنما يمكن أن تسمى مجمعات فكرية ودينية ، فكان يتم فيها التقاضى والتعليم ، وفى بعض زواياها مكاتب لتعليم الأطفال ، كما كان يوجد بها منازل للطلاب الغرباء ، والمدارس لعصر الجبرتى يجد صعوبة كبيرة لاختيار نماذج لهذه المساجد ، فإنها كانت كلها مصادر فكر وإشعاع ، جلس بها العلماء ، وتحلق حولهم الطلاب ، وكان التعليم يدور بها كل يوم من وقت مبكر يبدأ بعد صلاة الفجر وأحيانا قبل الصلاة ، ويستمر طيلة اليوم تقريبا ، وفى بعض المساجد كانت هناك حلقات متعددة مختلفة المناهج والعلوم ، ولذلك كان يطلق على كل شيخ من شيوخ هذه المساجد لقب « شيخ عمود » فبجوار الأعمدة المتعددة كان يجلس عدد من العلماء .

على أن هناك مساجد كان لها صيت أوسع فى مجال التعليم ، وكانت تمثل جامعات علمية بجوار مكانتها كمساجد ، ومن هذه جامع عمرو وجامع شيخون ، ومسجد الامام الشافعى ، وجامع المحمودية ، ونعطى فيما يلى نموذجا لواحد من هذه المساجد هو جامع المشهد الحسينى ، ففى هذا المسجد تصدى للإقراء والتدريس مجموعة عظيمة من شيوخ العصر ، وفطاحل المفكرين ومن هؤلاء الشيخ سليمان بن عمر العجيلى المعروف بالجمال (١)

(١٨٠٤ — ١٧٨٩) وينسب العجيلي الى مَنِيَّة عجيل إحدى قرى محافظة الغربية حيث تلقى مبادئ العلوم الإسلامية ، وقد جاء الى القاهرة لمزيد من التعمق في الدراسات الإسلامية فلازم الشيخ الحنفى فشملته بركاته ، وأخذ عنه فكره واتجاهاته الصوفية ، كما تفقه على غيره من فقهاء العصر ، حتى برع وعظم شأنه ، فنوه به الشيخ الحنفى وجعله أماماً وخطيباً بالمسجد الملاصق لمنزله على الخليج ، ثم علت به همته فجلس للتدريس بالمشهد الحسينى ، وكان يعلم الفقه والتفسير والحديث ، وكثر عليه الطلبة يدونون من إملائه وتقريراته ، وقرأ المواهب والشمائل ، وضحى البخارى وتفسير الجلالين بهذا المشهد بين المغرب والعشاء وكان يحضر دروسه أكابر الطلبة وتوفي سنة ١٢٠٤هـ = ١٧٨٩م وبعد الشيخ سليمان جلس أخوه الشيخ عبد الرحمن مجلسه يعلم أيضا على نمط ما كان أخوه يفعل وقد جذبت حلقته كثيرين من مجاورى الأزهر والعامية وكان خير خلف لخير سلف (١) ومن هؤلاء أيضا الشيخ عبد الوهاب الشبراوى (١٢١٣ — ١٧٩٨) الذى تفقه على علماء العصر ، وحضر دروس الشيخ عبد الله الشبراوى والحنفى وللبراوى والأجهورى وغيرهم ، ثم تصدر للإقراء والتدريس والإفادة بالمشهد الحسينى ، وكان يحضر دروسه جمع غفير من الناس ، وكان شديد الميل لتدريس كتب الحديث كالبخارى ومسلم وكان — كما يقول الجبرتى (٢) — حسن الإلقاء ، سلس التقرير ، جيد الحافظة ، جميل السيرة ، مقبلا على شأنه ، ويذكر الجبرتى كذلك أن الرجل لم يعط جهده كله للعلم وإنما اتجه كذلك لخدمة الوطن عن طريق السياسة فحرَّك المظاهرات ضد الفرنسيين إبان احتلالهم للبلاد حتى أصبحت مجالسه منابع للثورات ومصادر قلق للمستعمر ، ولم يجسد الفرنسيون بدًّا من القبض عليه وقتله ، كما أخفوا قبره حتى لا يكون ذلك القبر مصدر ازعاج لهم كما كان صاحبه فى حياته ، ولكن روح الشيخ

(١) الجبرتى : ج٤ ص ٢١٦ .

(٢) الجبرتى ج٥ ص ٦١ .

ظلت تدفع تلاميذه ومريديه ليقاوموا المستعمر الأثيم حتى كتب للمصريين النص *

ومن المساجد الشهيرة كذلك مسجد كتخدا بالأزبكية ، وقد جلس فيه مجموعة كبيرة من العلماء والمفكرين يعلمون العلم وينشرون المعرفة ، ولعل في قمة هؤلاء الشيخ محمد عبد المعطى الحريرى (١٢٢٠ = ١٨٠٥) ، ويذكر الجبرتى (١) : أنه اشتهر في مطلع حياته بجودة الخط ، فكان ينسخ بعض الكتب لكبار الشخصيات ، ويأخذ على ذلك أجرا عاليا ، وكان شافعى المذهب ثم تحنف وحضر على أشياخ المذهب مثل الدلاجى والعدوى ولازم الشيخ حسن المقدسى ملازمة كلية ، وانتسب له وعرف به ، وتلقى عنه الكتب المشهورة في المذهب ، كما تلقى باقى العلوم على المولى والحفنى والشيخ على العدوى ، وكان يكتب الأجوبة عن الفتاوى على لسانه ، ولما توفي الشيخ العدوى أخذ مكانه بجامع كتخدا بالأزبكية وسكن بالدار المخصصة للمدرس ، وكانت في رحاب الجامع المذكور ، وكان شديد التأثير في دروسه حتى كان وعظه شديد الوقع على الناس لخلوّه من التصنع ، وقد قصده الناس للفتوى والإفادة من كل مكان وأقبلت عليه الدنيا ، وكان مرتبه عاليا من وقف عثمان كتخدا ، وانحصرت فيه وظائف الحنفية كالتدريس في مدرسة المحمودية والمحمدية وغيرها فكان يجلس في بعضها بنفسه وينيب عنه من يعلم في المدارس الأخرى ، وكان مسموع الكلمة لدى الأمراء ، عظيم الهبة بينهم ، ولذلك ترى عتقاء أحمد أغا يتفقون على اختياره ليكون حكما بينهم عندما دبت المنازعات بينهم بعد موت سيدهم *

الزوايا :

ومن المراكز الثقافية في هذا العصر الزوايا وهى مكان كان ينشأ بجوار المساجد غالبا ، وكانت الدراسة في الزوايا تميل للاتجاهات الصوفية بالإضافة الى الدراسات الإسلامية العامة ، وقد حفلت مصر في عصر الجبرتى بمجموعة كبيرة من الزوايا من أهمها زاوية الخضرى التى جلس

فيها الشيخ أحمد الحمص الشافعي (١١٨٦ = ١٧٧٢) الذي تتلمذ على الشيخ البراوي حتى مهر وتفقه ، ثم التحق بحلقة الشيخ الشمسي الحنفي والشيخ علي الصعدي وغيرهما ، ثم تصدى للتدريس والافتاء في حيانة شيوخه ، متخذاً من زاوية الخضري مركزاً علمياً توافد عليه فيه طلابه ومريدوه (١) ومنها كذلك الزاوية التي كانت قريبة من المشهد الحسيني وكان يجلس فيها كثير من العلماء من أهمهم الشيخ أحمد بن شاهين الراشدي (١١٨٨ = ١٧٧٤) الذي ينسب إلى بلدة راشدية بالخرسانية ، وكان بارعاً في الحساب والفرائض وهو من تلاميذ الشيخ حسن الجبرتي ، وكان حسن التلاوة للقرآن الكريم ، حلو الأداء ، مع معرفته بأصول الموسيقى ولذلك ارتبط به كثير من الأمراء ، ويقول عنه الجبرتي (٢) إن قراءته كانت مثل سلاسل الذهب في حسن السبك ، وقد انتفع به كثير من الأعلام وكان يمتاز بكمال العفة والوقار ، وكان الناس يتمنون أن يسمعوا تلاوته ، قوله من كان يحصل على مكان حوله بسبب الزحام الذي كان يحيط به .

ومن الزوايا الشهيرة الزاوية الملحقة بالجامع الكبير بالمنصورة ، وقد أنشأها الشيخ الوافي الشافعي السندوي (١١٩٩ = ١٧٨٤ م) وجلس بها حيث تجمع حوله عدد كبير من المريدين ، وعقب وفاته جلس ابن أخيه عبد الله بن إبراهيم مكانه ، وقد تلقى هذا مختلف المعارف عن عمه ، وعن الشيخ أحمد الجالي ، وكان يميل للابتعاد عن الناس ، فلا يقوم لأحد ولا يدخل دار أحد ، ويذكر الجبرتي (٣) أنه نزل ضيفاً على الشيخ وهو في طريقه إلى دمياط سنة (١١٨٩ = ١٧٧٥) ويقول الجبرتي أنه دخل على الشيخ في حجرته فوجده نيراً بشوشاً ، رحب بضيوفه من العلماء ، وقدم لهم ألواناً من الحلوى والشراب ، ويختتم الجبرتي كلامه عنه ، أنه مات ولم يخلف بعده مثله .

(١) تاريخ الجبرتي : ج ١ ص ٣٧٥ .

(٢) تاريخ الجبرتي : ج ١ ص ٤٠٩ .

(٣) تاريخ الجبرتي : ج ٢ ص ٩٩ .

ولعل من أبرز الزوايا بالقاهرة زاوية الشيخ الدرديري (١٢٠١ هـ = ١٧٨٦م) الذي كان أوجد وقته في الفنون العقلية والنقلية كما يقول الجبرتي^(١) وكان شيخ الاسلام وبركة الأنام ، وقد أسس زاوية بخط الكعكين وسبب انشائه لهذه الزاوية أن مولاي محمد سلطان المغرب كانت له صلات وهبات يرسلها لعلماء الأزهر وأهل الحرمين من حين إلى حين وفي سنة ١١٩٨ = ١٧٨٣ أرسل هبة من هذه الهبات للشيخ الدرديري وتصادف عندما تلقاها الشيخ الدرديري أن كان بمصر ابن لمولاي محمد سلطان المغرب وكان هذا عائدا من الحج ونفذ ما معه من النفقة والأموال ، ولما عرف الشيخ الدرديري ذلك أسرع إلى ابن السلطان وقدم له العطية التي أرسلها أبوه وقال : كيف لنا أن نفقك في مال الرجل وابنه يعاني من الحاجة ، ولما عرف السلطان ذلك أرسل للشيخ عشرة أمثال الهبة مجازاة للحسنة بعشرة أمثالها فبنى الشيخ الدرديري بها هذه الزاوية .

المنازل :

وهناك مركز ثقافي كان واسع الانتشار كبير الفائدة ، وهذا المركز هو بيوت العلماء والأمرء ، فعلى الرغم من أن المسلمين لم يعدوا المنازل مكانا صالحا للتعليم العام ، لأن السكان والطلاب جميعا لا يجدون الراحة واليسر في التوفيق بين هدوء المنزل وجلاله وبين حلقة الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط^(٢) ، على الرغم من ذلك اقتضت الضرورة أحيانا أن تقام الحلقات العلمية بالمنازل ، لأن ذلك كان مفخرة لأصحاب البيوت من العلماء الذين لم يستطيعوا أن يجمعوا المريدين حولهم ، لقلة بضاعتهم من العلم فجمعوهم في بيوتهم حول شيوخ العصر ، وهناك كذلك بعض العلماء منعته ظروف الصحة أو غيرها من الظروف من الانتقال إلى المراكز الثقافية الأخرى بالمدارس والمساجد والزوايا : فاندفع طلابهم نحوهم ، يأخذون عنهم في بيوتهم ، وكانت متعة العلماء بالتعليم واسعة فرحبوا

(١) تاريخ الجبرتي : ج ٢ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) تاريخ التربية الإسلامية للمؤلف ص ٦٧ .

بمريديهم في بيوتهم ، وبذلك لعبت المنازل دورا كبيرا في مختلف العصور والبلدان ، وسنعطى فيما يلي نموذجين أحدهما من بيوت العظماء والآخر من بيوت العلماء :

ويتحدث الجبرتي (١) عن منزل الحاج أحمد بن محمد الشرابي (١١٧١ = ١٧٥٧) وكان من أعيان التجار ومشاهيرهم ، وهو ينحدر من بيت مجد وعز ، وكانت أسرته في غاية الخنى والرفاهية ومكارم الأخلاق ، وكان يتردد على منازلهم العلماء ، وكانت هذه المنازل مشحونة بكتب العلم النفيسة للإعارة وانتفاع الطلبة ، وكان آل الشرابي لا يكتبون على هذه الكتب ما يفيد أنها وقفية ، ولا يدخلونها في مواريتهم مع أنهم كانوا يشترونها بأعلى الأثمان ، وكان من عادتهم أن يضعوها على الرفوف المفتوحة ولكل من دخل إلى بيتهم من أهل العلم أن يأخذ ما يشاء من الكتب بالإعارة ، ولو لم يكن معروفا لديهم ، وكان يترك للمستعير أمر رد الكتاب ، فان رده أعاده إلى مكانه ، وإن استبقاه أو باعاه لا يسأل عنه ، وفي بعض الأحيان كان يباع الكتاب لهم مرة أخرى ، بل عدة مرات دون أى تأشيف ، وكانوا يقدمون طعاما في غاية الجودة لزواد مجالسهم العلمية ، وكان الأمراء بمصر يترددون على منازلهم دون دعوة ، ودون تحديد وقت ، وعلى هذا خدمت هذه البيوت الفكر ، وكانت منارات عالية الشأن كثيرة المآثر .

أما بيوت العلماء فكثيرة وشهيرة ، ولعل بيت الشيخ حسن الجبرتي يمكن أن يعد نموذجا لهذه البيوت ، فقد كان بيته فسيحا مفتوحا للشيخ والعلماء ، وكانت حلقات الفكر فيه لا تكاد تتوقف وهناك طائفة من الشيوخ كانوا لا يكادون يبرحون منزل الشيخ ، منهم الشيخ محمود الكردي والشيخ عبد الرحمن البشبيشي ، والشيخ محمد الفرماوي والشيخ العزيزي ، والهاباوي ، وهناك جماعات من غير الشيوخ كانوا كذلك يرتادون

(١) ج ١ ص ١٠٤ .

بيت الشيخ حسن بانتظام ، ومنهم محمود النيشي والتونسي وهناك عدد من المهاجرين كان يرى في بيت الشيخ حسن مثابة علمية يتحتم عليهم أن يرتادوها ، ومن هؤلاء ابن السويدي البغدادى ، وابراهيم الصورى ، كما كان هناك عدد وفير من المريدين تجذبهم خزانة الكتب التى يملكها الشيخ للاطلاع أو النسخ ، والى جانب هؤلاء جميعا كان يفد لزيارة الشيخ عدد جم من الأمراء والأعيان والتجار ، اما للتبرك وأما للاستئناس ، وبيت الشيخ مفتوحة رحابه للجميع ، مبذول خيره لهم على السواء (١) .

وهناك منزل آخر ينبغى أن نشير اليه بإيجاز هو منزل الشيخ مصطفى الرئيس البولاتى (١١٩٤ = ١٧٨٠) وهو مريد للشيخ حسن الجبرتى ، وكان ملازما له ، وكان الشيخ حسن يحبه لتجانيبه ، وعينه مدرسا بجامع السنانية وجامع الواسطى ، والمهم هنا أن بيته أصبح مثل بيت أستاذه ، ويصفه الجبرتى (٢) بقوله : وصار بيته مثل المحكمة فى القضايا والدعاوى والخصومات ، وكان فيه شهامة وقوة جنان وصلابة .

أسر تهتم بالعلم جيلا بعد جيل

وننتقل من بحثنا عن المراكز الثقافية الى موضع آخر هو أن كثيرين من العلماء وجدوا فى العلم خير الدنيا والآخرة فنشأوا أو ودهم فى نفس الطريق الذى سلكوه ، وتكونت بذلك بيوت علم بمصر كانت تتوارث الدراسات الاسلامية كابرا عن كابر ، ومن الأسر العلمية التى ازدهرت فى عصر الجبرتى نذكر بعض النماذج :

ولعل فى مقدمة ما نذكر من بيوت العلماء بيت إمام السنة عبد الخالق ابن أبى بكر الأشعرى الزبيدى (١١٨١ = ١٧٦٧) ، ويقول الجبرتى (٣)

(١) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ص ٢١ .

(٢) الجبرتى : ج ٢ ص ٦٠ .

(٣) الجبرتى : ج ١ ص ٢٨٧ .

عنه إنه من بيت عام وتصوف ، جدّه الأعلى محمد بن محمد بن أبي القاسم وحفيده عبد الرحمن بن محمد ، وكان الشيخ عبد الخالق تلميذاً لشيوخ عصره بمصر وبالحرمين حيث وفد الى مكة حاجاً وطالبا وزار المدينة كذلك حيث تلقى عن الشيخ محمد الكردي ، ولما عاد الى مصر التفت حوله طلابه فأخذوا عنه كثيراً من الفكر في مختلف العلوم الإسلامية •

ومن هؤلاء الشيخ عيسى بن أحمد الزبيرى (١١٨٢ = ١٧٦٨) وقد برع في الدراسات الفقهية براعة فائقة حتى سمي بالشافعى الصغير ، وله مؤلفات كثيرة وشروح واسعة على متون العصر ، وكان يملئ ويفيد ويدرس ويعيد حتى توفي فاستقر ابنه العلامة الشيخ أحمد مكانه في التدبير والتدريس وتحاط حوله تلاميذ أبيه ، فواصل رسالته على أحسن وجه •

ومن هؤلاء الشيخ مصطفى بن محمد الطائى (١١٩٢ = ١٧٧٨) الذى تفقه على والده وتخرج على يديه ، وبعد وفاة والده تصدر في مجالسه ودرس وأفتى ، وكان أماما ثبتا منتقنا مستحضرا مشاركا في العلوم والرياضيات وله مؤلفات كثيرة في فنون شتى (١) •

ومن هؤلاء عبد الرحمن الحسينى العيدروسى القزيمى ، نزيل مصر وهو من أسرة عريقة في العلم والمعرفة ، يعدّ الجبرتيّ منها عددا ، ويصفهم جميعا بعمق الفكر واتساع المعرفة ، ولا غرو فهذا الامام ينحدر من جعفر الصادق فأسرته عريقة الجذور طيبة الفروع ، ويقول الجبرتي (٢) عنه انه طوّف البلاد ثم جاء مصر بعياله ، فألقى بها عصاه واستقر به النوى وهرع اليه الفضلاء للتلقى ، وخضع له أكابر الأمراء على اختلاف طبقاتهم ، وصار مقبول الشفاعة عندهم لا ترد رسائله ، ولا يحرم سائله ، وطار صيته في المشرق والمغرب وتعددت رحلاته الى مختلف بلاد

(١) الجبرتي : ج ٢ ص ٣٤ •

(٢) الجبرتي : ج ٢ ص ٣٥ •

القطر ، ثم خرج من مصر حيث زار كثيرا من بلاد العالم الاسلامى ،
وأخيرا عاد الى مصر حيث توفى بها سنة (١١٩٢ = ١٧٧٨) .

ومن هؤلاء الامام العلامة الشيخ أحمد بن عيسى تلميذ والده
عيسى بن أحمد الزبيرى ، وتلميذ رفاق هذا الوالد ، ويقول الجبرتى عنه :
إنه لما توفى أبوه جلس مكانه فى الجامع الأزهر واجتمع عليه طلبة أبيه
واستمرت حلقة درس والده على ما كانت عليه من العظم والجلالة والرونق
حتى توفى سنة (١١٩٢ = ١٧٧٨) .

وهناك بيوت علم كثيرة تُصادف الباحث فى هذا العصر الملىء
بالمكرمات والحافل بالدراسات كبيت الحريرى والحفناوى والطهطاوى
والزبيرى والسجاعى ، والجناحى وغيرهم كثيرون .

العلماء الوافدون

فى مطلع هذه الدراسة ذكرنا أن مصر استقبلت الوافدين والمهاجرين
من الشرق ومن الغرب فخطوا بها عصا التسيار ، واتخذوها وطنا لهم ،
ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر وطنا للدراسات الاسلامية لا يستغنى باحث
فى هذه الدراسات عن ارتياده والارتباط به ، والذي يدرس عصر الجبرتى
يجد أن مصر استقبلت خلال هذا العصر كثيرا من الباحثين الذين جاءوا
يستزيدون من الدراسات الاسلامية ، وكثيرا من العلماء الذين أرادوا أن
ينشروا العلم ولم يجدوا كمصر مكانا يحقق لهم هذا الأمل ، ولا يكاد
يوجد قطر من أقطار العالم الاسلامى لم يقد طلابه وعلماءه الى مصر
فى هذا العصر ، ومن مدارس تاريخ الجبرتى يرى الباحث أن
وفودا من العلماء جاءوا من بغداد ومن دمشق والحجاز وبلاد الروم
والحبشة وغزة وخان يونس والقدس واليمن ، كما جاءوا من فارس والمغرب
والجزائر وتونس ، وأن كثيرين من هؤلاء ذاع صيتهم فى مصر واستوطنوها
وعاملتهم مصر كما تعامل أبناءها ، ومنهم من أسندت لهم أرقى المناصب ،

ومنهم من لقي الغنى والجاه في مصر ، وسنتحدث فيما يلي عن بعض نماذج من مشاهير العلماء الذين وفدوا الى مصر واستقروا بها وذاع منها صيتهم ، وتعمقت فيها جذورهم ، ولعل في قمة هؤلاء أسرة الجبرتي التي يتحدث عنها الشيخ عبد الرحمن الجبرتي (١) فيقرر أن جده السابع عند الرحمن الذي اليه ينتهي علم الجبرتي بالأجداد ، هو الذي ارتحل من بلاد جبرت في الحبشة ، فذهب الى « جُدَّة » ثم الى مكة حيث جاور بها فترة من الزمن ، ثم انتقل الى المدينة المنورة فجاور بها سنتين ولقى بالحرمين عددا من الأسيخ ، ثم عاد الى جدة ومنها جاء الى مصر عن طريق بحر القلزم ، فدخل الى الجامع الأزهر وجاور برواق الأحباش ، ولازم حضور الأسيخ ، واجتهد في التحصيل ، وتولى شيئا على الرواق ثم تزوج بمصر واستوطنها ، ويتسلسل الجبرتي متحدثا عن أجداده حتى ينتهي الى والده الشيخ حسن الجبرتي (١١٧٩ = ١٧٦٥) فيطنب في الحديث عنه ، وفي ذكر أوصافه وكراماته ودراساته (٢) ، وقد اتسعت الحياة للشيخ حسن الجبرتي وأفسحت له الدنيا بمصر ، فعاش بها في نعيم وغنى ، ويذكر المؤرخون (٣) أنه كانت له ثلاثة منازل أحدها على شاطئ النيل والثاني ببولاق تجاه جامع ميرزه جوربجي والثالث في خطة الصناديقية شمال الجامع الأزهر ، وله في كل واحد من هذه المنازل زوجة وسراي وخدم ومماليك وعبيد ، وكان يتنقل بين منازل يحف به أصحابه وتلاميذه ومريدوه ، فيعقد لهم حلقات التدريس ، ويملي عليهم ما شاء من العلوم الدينية والوصفية والعقلية والنقلية حتى اذا فرغ من أملائه انفضَّ البعض عنه ، وانتشر البعض الآخر في الحجرات أو خزائن الكتب ، وقد يبقى منهم من يحضر الطعام معه أو يبيت عنده .

ومن العلماء الوافدين على مصر الشريف على بن موسى (١١٨٦ =

(١) ج ١ ص ٣٨٨ .

(٢) ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) الأستاذ خليل شيبوب . عبد الرحمن الجبرتي ص ٥ وما بعدها .

(١٧٧٢) ويتصل نسبه بالامام زيد الشهيد بن الامام على زين العابدين بن الامام الحسين ، وقد ولد ببيت المقدس ونشأ بها ، وقرأ القرآن الكريم على شيخ مصرى هو الشيخ مصطفى الأعرج المصرى ، فغرس فى نفسه حب مصر ، ولذلك طاف الشريف عدة بلاد واكنه اتجه الى مصر فى النهاية ، فجلس للتدريس بالمشهد الحسينى وعلا ذكره وانتشر صيته ، وكانت له فى النثر طريقة رائعة فكان لا يتكلف الاسجاع ، ويصف الجبرتى (١) أسلوبه بأنه أحسن من الروض جاد به الغمام ، وأنه فى الترسل يسير على سجية بادرة ، وفكرة قنطرة ، كما يصفه بأنه كان ذا جود وسخاء ، وكرم ومروءة ووفاء لا يدخل فى يده شئ من متاع الدنيا إلا بذله لسائله ، وأغدق به على طالبه ، وكان منزله بقرب المشهد الحسينى موردا للاملين ، ومحطاً لرحال الوافدين ، وكان يحب الخيل المنسوبة ، وكان اصطبله دائماً لا يخلو من اثنين أو ثلاثة ، كما كان يجيد الفروسية وركوب الخيل واللعب بالرماح .

ومما ينسب لهذا الشريف أنه كان يبرز انحراف اليهود وتضليلهم ، ويعددهم من شريعة موسى ، ولذلك يقال إن وفاته جاءت على يد رجل يهودى تقرب منه ، وأظهر الولاء له ، فلما مرض الشريف فصده اليهودى بسلاح مسموم غمات فى أثر ذلك .

ومن العلماء الوافدين ذوى الشهرة الواسعة محمد بن محمد السنبوى الأزهرى الشهير بالأمير (٢) (١٢٣٣ = ١٨١٦م) وهو رجل مغربى الأصل ، نزلت أسرته بمصر ، وقبـد عنى الشيخ الأمير بتلقى الدراسات الاسلامية على شيوخ العصر ، فدرس عقائد النسفى والأربعين النووية وموطأ مالك ، كما درس الهيئة والهندسة والفلكيات والحكمة ، ولما علا شأنه تصدر لإلقاء الدروس ، وشاع ذكره فى الآفاق وبخاصة

(١) ج ١ ص ٢٧٣ .

(٢) ج ٤ : ٢٨٤ .

ببلاد المغرب التي كانت تفخر به ، وكان سلطان المغرب يواليه بالصلات والتهنئات كل عام .

وقد وصل من علو ذكره أنه كان يلقى بعض محاضراته بدار السلطنة يصنّف الشيخ الأمير عدة مؤلفات اشتهرت بنهاية الدقة ، منها كتابه في الفقه المسمى « المجموع » وعدد كبير من الحواشي على الشذور ، والأزهرية والرحبية في الفرائض ، وله مؤلف اسمه مطلع النيرين فيما يتعلق بالقدرتين .

ومن الشيوخ الوافدين على مصر ذوى الشهرة الواسعة السيد محمد مرتضى الزبيدي (١) وهو وافد من اليمن هبط الى مصر سنة (١١٦٧ = ١٧٥٣م) وسكن بخان الصاغة ثم راح يحضر دروس شيوخ وقته كالشهابيين الملوّى والجوهري ، والشمس الحفنى وغيرهم كالبيدي والصعيدى والمدابغى وأخذ عنهم جميعا وأجازوه وسافر ثلاث مرات الى الصعيد ووضع رسالة عن رحلاته تلك ، ثم تزوج واتخذ مسكنا آخر له بعطفة العسال وانصرف الى التدريس والتأليف ، وكان التأليف فى تلك الأيام لا يعدو حاشية على متن ، أو تعليقا على حاشية تدور موضوعاتها على بعض المسائل الفقهية المتعارفة ، ولكن مرتضى الزبيدي سلك طريقا آخر غير هذه الطريق فوضع معجمه الشهير المعروف بتاج العروس فى أربعة عشر جزءا ، وساخ فى وضعه عدة سنين ، ولم يشأ أن يخرج للناس كما تخرج المؤلفات العادية ، بل أقام مأدبة عظيمة يوم إخراجها دعا إليها المشايخ والطلاب وأبرز لهم تلك العروس وطلب منهم أن يذكرها محاسنها ومباهجها فتهافتوا عليها جميعا يقرّظونها نثرا وشعرا فكانت هذه الدعوة سببا فى إذاعة خبر هذا الكتاب والتعريف به ، حتى أن محمدا أبا الذهب لما فرغ من بناء مسجده المعروف باسمه أمام الأزهر وأضاف اليه

خزانة كتب كبيرة أفهموه أنها لا تستكمل نفاستها إلا إذا ازدانت بهذا المعجم فاشتره بمائة ألف درهم (١) .

وقبل أن نطوى الحديث عن الشيوخ الوافدين نبرز ما سبق أن أشرنا إليه من قبل ، وهو أن هؤلاء الوافدين كانوا يجدون في مصر كل إجلال وتقدير ، ولم يخطر بالبال قط أنهم غير مصريين ، وقد وصل بعضهم الى أسمى المناصب في مصر ، فالشيخ حسن العطار (١٢٥١ = ١٨٣٥) وهو مغربي الأصل ، فقد أصبح شيخا للأزهر ، والشيخ أحمد اليونسي (١٢١٨ = ٨٠٣) الذي جاء الى مصر من خان يونس ثم أصبح كبير القضاة بالمحكمة العليا ، وكان عضوا في الديوان الذي عينه الفرنسيون أبان وجودهم بمصر ، كما حظوا جميعا برخاء العيش وبألوان من الثراء اتضحت فيما أوردناه عنهم من أحاديث .

المصريون بالخارج :

وقبل أن ننتهي من الحديث عن العلماء الذين وفدوا الى مصر واستوطنوها يجدر بنا أن نقرر أن العكس حصل أيضا ، أي أن كثيرين من المصريين خرجوا من مصر لينشروا العلم خارجها فحملوا تلك الرسالة الفكرية الى أماكن شتى في العالم الاسلامي ، واستهانوا بالخربة ليحملوا للمسلمين أفانين الفكر الاسلامي ، واذا كنا الآن نرى المصريين يعارون الى مختلف الجامعات والمدارس بأقطار متعددة يحملون اليها رسالة الفكر من القاهرة ، فإن ذلك امتداد للعصور الماضية حيث كان العلماء المصريون يندفعون للخارج هنا وهناك ناقلين الى الأقطار الاسلامية إشعاعات من الدراسات الاسلامية التي تربت في القاهرة ، وسنعطي هنا نماذج قليلة لهذا اللون من العلماء الذين كانوا من الكترة بحيث لا يمكن حصرهم .

(١) ج ٢ ص ١٩٦ وما بعدها ، وانظر خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي ص ٣٩ - ٤٠ .

وأول من نذكر من هؤلاء الإمام الثبت الشيخ عمر الطحلاوي المالكي (١١٨١ = ١٧٦٧) الذي تلقى معارفه على سلسلة طويلة من شيوخ العصر ، وتمهر في الفنون والعلوم ، وجلس يعلم بالجامع الأزهر وبالمشهد الحسيني ، واشتهر أمره وطار صيته ، فانتسعت حلقاته اتساعا كبيرا وكان مشهورا بعذوبة البيان وجودة الالتقاء ، وكانت له هبة عالية ووقار وجلال ، وكان لكلامه وقع في القلوب ، ومن أجل هذا اختاره الأمراء المماليك ليكون رسالهم الى الآستانة كوسيط بينهم وبين الخلافة العثمانية ، وقد استقبل هناك أحسن استقبال ونجحت وساطته ، ولكن المهم هنا أن الطلاب هناك والشيوخ انتهزوا فرصة وجود الشيخ بينهم فأحاطوا به ، وطلبوا اليه أن يجلس منهم مجلس المعلم ، وأن يفيض عليهم من معارفه ، فجلس في مسجد أيا صوفيا وألقى هناك دروسا في الحديث ، وتلقى عنه أكابر العلماء ، ووفد الى حلقاته طلاب العلم من مختلف بلاد الروم كما يسميها الجبرتي (١) .

وطالت مدته هناك ، ولولا أنه كان من الضروري أن يعود الى مصر لينقل للامراء نقائج وساطته لكان من الممكن أن تدوم اقامته هناك أو أن تطول أكثر مما طالت .

وإذا انتقلنا الى نموذج آخر والتقينا بالمحدث الفقيه الشيخ على بن عمر القناوي ، فإننا نلتقي بما يمكن أن نسميه جامعة متنقلة فلقد كان الشيخ واسع المعرفة في المعقول والمنقول وكأنما أحس بالتزامه أن ينشر ما عنده من فكر في نطاق واسع فنظر الى العالم الاسلامي كله كأنه قطر واحد ، ووضع خطته بأن يتخطى المسافات والبلدان ليجلس هنا وهناك معلما وأستاذًا ، وعندما ينظر الانسان الى الأقطار التي زارها ، ويتذكر أن وسائل المواصلات كانت آنذاك بسيطة متوانية ، تعثره الدهشة مما حققه الشيخ من أسفار وأفضال ، حيث شملت رحلاته الحرمين . وجدة والبصرة ، وبغداد ، وخراسان ، وكابل ، وقندهار ، وبنارس ، وبلاد

جاوة ، وصنعاء وزبيد ، وغيرها من البلاد الإسلامية وكان في كل منها يجلس معلما ، ويفيخ من معارفه على الطلاب والمفكرين ، وقد استقبله الملوك والأمراء بكثير من هذه البلاد ورحبوا به وأكرموه ، كما احتفت به الشعوب الإسلامية حينما نزل ، ويذكر الجبرتي (١) أنه لم يكن بالمال رتبان يمكن أن يجمع منه الكثير في أسفاره تلك ، ولكن ذلك لم يكن هدفا له ، وقد مات بمصر سنة (١١٩٨ = ١٧٨٣) وليس له ميراث يذكر .

ومن العلماء الذين حملوا العلم والمعرفة من القاهرة الى سواها من البلاد الإسلامية الشيخ محمد الحسيني (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذي تعمق في الدراسات الإسلامية فبرع براعة فائقة ، ويذكر الجبرتي (٢) أنه ورد الى اليمن ، وجلس بها وعلم فيها ، واتخذ من زبيد مركزا له حيث تجمعت حوله أعداد كبيرة من الطلاب الراغبين في العلم ، وانتقل الى بيت المقدس وهناك جلس معلما كما جلس في الخليل ونابلس ، ومن فلسطين عاد الى مصر فجال في بلادها وبخاصة مدن الصعيد وقراه ثم سافر الى الخارج مرة أخرى فزار نابلس ثم دمشق وهناك تجمع حوله علماءها ، واعترفوا بفضله ونالوا من علمه وفكره ، ومن دمشق عاد مرة أخرى الى نابلس ومرض هناك ، ولما حاولوا نقله الى مصر ليلفظ بها أنفاسه الأخيرة قال لهم أن بلاد الاسلام كلها وطن له لا يفرق بين دار ودار . وهكذا لقى ربه هناك .

العلماء بين الترف والزهد

كثير من علماء عصر الجبرتي جمعوا مع العلم ترف العيش وحياة الرخاء ، فكانت لهم قصور شاهقة وأرض زراعية شاسعة ، وخدم وحشم ، وغناية كبيرة بالمظهر واللباس ، وكانوا بذلك يمثلون الفكر الاسلامي الذي

(١) ج ٢ ص ٨١ — ٩٠ .

(٢) ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

يرى أن لا رهبانية في الاسلام ، والذي يحث على أن الاسلام لا يتنافى مع المتع الحلال تبعاً لقوله تعالى : « قل مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ (١) » .

ومن أجل هذا الاتجاه وجد من العلماء من اشتهر بالأناقة وحسن المنظر وجمال السمات ووجاهة الطلعة وجمال الهيئة ، كالشيخ على العزيزي (٢) (١١٩٩ = ١٨٨٤) والشيخ محمد المهدي الحفني (١٢٣١ = ١٨١٤) (٣) ومن جذبت حاقته كثيرا من النساء بسبب ما امتازت به هذه الحلقة من ترف مع تعفف وبراعة في الفكر ويسر في الثاني (٤) .

وسنعيش فترة مع أغنياء العلماء ، وقد اتجهوا جميعا الى استعمال غناهم في خدمة العلم والاتفاق على الطلاب ، ورفع قيمة العلم والعلماء وبخاصة عند أولئك الذين يهتمون بالغنى ويجاثون الثراء .

فأول من نذكر من هؤلاء الامام الزبيدي الذي تحدثنا عن كتابه فيما سبق ، ويطلق الجبرتي حديثه عن الزبيدي (٥) فيذكر فيما يذكر عنه أنه بب. أن ترك مسقط رأسه زبيد ارتحل الى مكة ومنها سار الى الطائف ، وتعمق هنا وهناك في الدراسات الاسلامية والعربية ، ويروي الجبرتي عن الزبيدي قوله أن أحد شيوخه شوقه الى دخول مصر بما وصفه له من عامائها وأمرائها وأدبائها ، وما فيها من المشاهد الكريمة ، فاشتقت نفسه لمصر ، ثم جاءها سنة ١١٦٧ = ١٧٦٠م ، وسكن بخان الصاغة ، وسرعان ما علا فضله وانتشر صيته واتسع ثراؤه ، فراج أمره ، وترونق حاله ولبس

(١) سورة الاعراف : الآية ٣١ .

(٢) الجبرتي : ج ٢ ص ٩٥ .

(٣) الجبرتي : ج ٤ ص ٣٣٣ .

(٤) الجبرتي : ج ٢ ص ٥٣ و ٢٠٠ .

(٥) الجبرتي : ج ٢ ص ١٩٦ وما بعدها .

الفاخر وركب الخيول المسوومة ، ثم أخذ يطوف بلاد مصر ، وكان الناس يتلقونه بالترحاب والإجلال ، ولما عاد من رحلته انتقل الى منزل جديد بسوقية اللالا بالقرب من جامع محرم أفندي القريب من مسجد شمس الدين الحنفى وكانت تلك الخطة آنذاك عامرة بالأكابر والأعيان ، فأحدقوا به واستأنسوا ، والتف حوله التلاميذ وكانوا يجدون في قصره الكبير نزهة وممتعة بالإضافة الى ما يحصلون عليه من علم ومعرفة ، واستمر صيته في ذيوع حتى عرفه ملوك الاسلام في مختلف البلدان ، وترادفت عليه منهم الهدايا والصلوات كما بعثوا اليه طيور البيغاء وطرائف الهند ، وأنواع العود والعنبر والعطر ، حتى أصبح بيته يضاهى بيوت الأمراء أو يزيد عليها ، واتسعت حلقتة ، وعمل المآدب للضيوف وأكرم الوافدين اليه من الآفاق البعيدة والقريبة ، وتعهده كثيرا من الطلاب ، وكان يجيد التركية والفارسية الى جانب العربية ، ولذلك دعاه خلفاء العثمانيين لزيارة بلادهم والقاء الدروس بها .

ومن هؤلاء الشيخ ابراهيم محمد الشرابى (١١٧١ = ١٧٥٧) الذى يصفه الجبرتى بأنه أعز الأخوان وأخلص الأصدقاء والخلان ، وأنه من أهل بيت عرف بالثروة والمجد والعز والكرم ، ويوضح أن من أبرز صفاته حرصه على فعل الخير ومكارم الأخلاق ، وتقديم الزاد ليوم المعاد ، والصدقات الخفية التى كان يتفقد بها طلبة العلم المنقطعين للدراسة ، كما كان يشتري المصاحف والألواح ويوزعها على الأطفال المسلمين ، وكان يتفقه على العلامة عبد العليم الفيومى فكان ينفق عليه وعلى عياله بسخاء وكرم ، وهكذا تجدنا مع عالم فاضل تعهد شيوخه كما تعهد تلاميذه ، واتخذ ماله وسيلة لخدمة العلم والمعرفة (١) .

ومن العلماء الذين كثر غناهم وامتد ثراؤهم الشيخ أحمد بن الحسن الشهير بالجوهري ، وقد جاءت له هذه التسمية لأن والده كان يبيع الجواهر

فعرف به ، وقد اشغل الشيخ الجوهري بالعلم ، وجد في تحصيله حتى أصبح من أئمة العصر ، ويورد الجبرتي عددا هائلا من شيوخ الجوهري الذين علموه وأجازوه ، كما يتحدث عن حلقاته العلمية التي تجمع بها عدد كبير من الطلاب كانوا ينالون من علم الشيخ ومن ماله ، وظل كذلك حتى توفي سنة (١١٨٢ = ١٧٦٥) •

وهكذا حفل هذا العصر بنخبة من الشيوخ كان لهم ثراء عريض ضمن لهم رفاهية العيش ، كما ضمن لتلاميذهم يسر الحياة وطلب العلم •

ومع هذا الغنى الذي نعم به بعض علماء هذا العصر ، نجد طائفة أخرى من العلماء اتجهوا للزهد وأعرضوا عن المال ، وكأنما رأوا في المال مشغلة لهم فآثروا التفرغ للعلم وخدمته قانعين من الحياة بأبسط طعام وأخشن لباس ، وسنعطى فيما يلي بعض نماذج لهذا النوع من علماء العصر ومفكره •

أول من نذكر من هؤلاء الشيخ الناسك أستاذ الجبرتي محمود الكردي الخلوتي (١) (١١٩٥ = ١٧٨٠) وكان أبوه واسع الثراء ، ولكن الشيخ كان متعففا عن المال يميل الى التجرد والمجاهدة والزهد ، وكان أخوه كثير اللوم له على ما يفعله من مجاهداته وتقشقاته ، ولكنه لم يكن يصيخ لأخيه ، وظل في اتجاه الزهد والحرمان دون اكتراث بلوم أو توجيه ، ولما مات والده ترك ما يخصه من إرث لإخوته ، وواصل زهده وتفرغه لنيل العلم وتقديمه للطلاب •

ومن هؤلاء العلماء الزهاد كذلك الشيخ محمد الشنواني (١٢٣٣ = ١٨١٧) الذي تلقى العلم عن جلة الشيوخ في عصره كالشيخ فارس والدردير والفرماوى ، وتفقه على الشيخ عيسى الداوى ، وأجازوه هؤلاء الشيوخ فأقام حلقة بالجامع المعروف بالفكهاني بالقرب من مينه ، وكان الشيخ

مذهب النفس كثير التواضع ، معرضا عن الدنيا اعراضا تاما ، خشن الثياب ، يخدم نفسه ، ويعنى بنظافة الجامع حتى أنه كان يكتسه بنفسه ويسرج قناديله بيده ، ولما توفي الشيخ عبد الله الشرقاوى اختاروه لمشيخة الأزهر ، ولكنه امتنع وهرب الى مصر العتيقة زهدا فى المظاهر والأضواء ، ولكن علمه كان يرشحه لهذا المنصب فلاحقه أولو الأمر حتى أحضروه قبرا عنه ، وعينوه شيخا للأزهر ، ولكنه ظل ملازما للتواضع والزهد ، ولم يقطع حلقته بجامع الفكهانى (١) .

ومن العلماء الزهاد كذلك الشيخ محمد بن شاهين الراشدى الذى برع فى الحساب والفرائض وعلوم الشريعة ، وكان كثير الشيوخ ، ومن أخص شيوخه الشيخ حسن الجبرتى ، وفى ذلك يقول الجبرتى : إن الراشدى رافق الشيخ الوالد وعاشه مدة طويلة ، وتلقى عنه وهو أحد أصحابه من الطبقة الأولى وظل محافظا على وده ومؤانسته ، ولما جلس ليعلم تحلق حوله عدد كبير من الطلاب ، مأخوذين بسعة اطلاعه منتفعين بحسن عرضه للموضوعات حتى طبقت شهرته الآفاق ، ولكنه مع هذا كان حريصا على الزهد ، وصيام الدهر ، وقيام الليل بين عابد ومعلم ، ولما بنى أبو الذهب مدرسته أراد أن يكون خطيبا بها ، فامتنع ، فألح عليه وأرسل له صرة عيها دنانير ، فأبى أن يقبل ذلك ، ورد هذا المال الوفير ، فلم يكن للمال فى دنياه حساب ، ولكن أبا الذهب داوم إلحاحه حتى ألزمه بأن يخطب فيها أول جمعة بها ، وألبسه فروة سمور وأعطاه صرة دنانير ، واكن الرجل كان بعيدا عن هذا الاتجاه زاهدا فى الأضواء والأموال ومن أجل هذا دعا الله ألا يخطب بعد ذلك ، فنزل به مرض أقعده عن الذهاب ، فتفرغ لتلاميذه من جديد حتى توفي سنة (١١٨٨ = ١٧٧٤ م) (٢) .

(١) ج ٤ ص ٢٩٤ .

(٢) ج ١ ص ٤٠٨ .

وهناك عدد وفير من هذا اللون من الشيوخ كان الواحد منهم يقنع بأن يكسب رزقه عن طريق تجارة صغيرة يزاولها أو كتب ينسخها أو صناعة يدوية يقوم بها غير مكترث بمال ولا ساعيا لجاه ، ولعلنا نذكر من هؤلاء الشيخ أحمد السنبلأوى (١١٨٠ = ١٧٦٦) (١) ، والشيخ محمد زين (١١٩٦ = ١٧٧٢) (٢) والشيخ على حجازى (١١٨٢ = ١٧٦٨) (٣) ، وسواهم كثيرون .

مواقف سياسية وعسكرية للشيخ

كان التمزق السياسى يغمر مصر فى عصر الجبرتى ، فالامبراطورية العثمانية كانت تعاني ألوانا من الاضطراب فى مختلف الانحاء ، فلم تكن يدها قوية بمصر ، وتطلعات الدول الأوروبية كانت واضحة تجاه مصر ، وكانت هذه الدول ترى فى مصر درة الشرق ، ومفتاح أفريقية ، وهمة الوصول الى قارة آسيا ، وكان المماليك يتقدمون وينكصون ، يتقدمون ويتأخرون ، وكان الصراع يدور بينهم وبين العثمانيين ، ويدور صراع بين بعضهم والبعض الآخر ، وكانت مواقفهم فى مواجهة قوى الغرب مواقف غير قوية ولا بأسلة .

وكل ذلك ترك فراغا كبيرا فى قيادة الشعب ، فتقدم العلماء ملء هذا الفراغ ، وأصبح العلماء ملجأ الناس فى الشدائد وممثلهم الذين ينطقون باسمهم ، وقادتهم فى الصراع ضد القوى التى تناهض البلاد ، وأصبح الأزهر لا يمثل مركزا علميا فقط ، بل يمثل كذلك دارا للشورى ومحرابا للسياسة ، كما أصبح ثكنة عسكرية تتربى الأبطال المناوئين ، وهكذا نجد العلماء هم الذين يهددون المماليك اذا انحرفوا أو جاروا ويلزمونهم بالعودة للصواب ، كما نجدهم يتصدون للحملة الفرنسية ولحملة فريزر ويقودون

(١) ج ١ ص ٢٨٥ .

(٢) ج ٢ ص ٧٢ .

(٣) ج ١ ص ٣٣٧ .

الشعب ، ويقدمون الضحايا لرد الأعداء ، ويعزلون الولاة الجائرين ويعينون من يشاءون لحكم البلاد ، والحديث عن دور العلماء في هذا المجال طويل وممتع ، ونكتفى بأن نعود الى الجبرتي لنقتبس سطورا قليلة في هذا الشأن •

ذكر الجبرتي (١) أن الحاكم حسين بك المعروف بـ « شفت » بمعنى يهودى كان رجلا طاغيا جبارا يصادر أموال الرعية ، ويتوهم على البيوت ، وأنه ذهب بجنوده الى بيت أحمد سالم الجزار شيخ درايش البيومى فنهب ما فيه حتى الفراش وحلى النساء ، فحضر أهل الحسينية الى الجامع الأزهر ومعهم الطبول والتفت حولهم العامة وبأيديهم العصى وتفرقوا في أنحاء الأزهر وأغلقوا أبوابه وصعد بعضهم الى مآذنه يرمون ويضربون الطبول وانتشر فسريق منهم في الأسواق القريبة من الأزهر ثم قابلوا الشيخ الدردير فذكروا له ما حدث ، فغضب لحرمان الله وقال لهم فى غد نجمع أهل الأطراف والحدارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معهم ، ونهض بيوت المماليك كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، فارتاع المماليك وأوفدوا رسلهم الى الشيخ الدردير ناديين طالبين اليه أن يرسل قائمة بما نهبه حسين بك وجنوده ليردوه اليه ، وفعلوا ردوا اليه جميع ما اغتصبوه •

وكثيرا ما كانوا يلفتون نظر الحكام الى أن طاعة الحاكم واجبة اذا لم يخالف الشرع ، وأن قاعدة الحكومة الاسلامية هى أنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وفى أحد المواقف صب الشيخ على الصعيدى غضبه على الأمير يوسف بك الكبير فى وجهه ، ولعن من باعه ، ومن اشتراه ، ومن جعله أمير ، فاسترضاه الأمير ونزل على مشورته وأخذ بأرائه (٢) •

وكان الشيخ الدردير شجاعا مقداما لا يخشى فى الحق لومة لائم ،

(١) ج ٢ ص ١٠٣ •

(٢) ج ١ : ٤١٦ •

وقد حدث يوما والشيخ في مولد السيد البدوي أن صادر أحد الحكام أموال بعض الرعية فطلب من بعض أتباعه أن يذهب الى هذا الحاكم ليطلبوا اليه رد الأموال المغصوبة ، ولكنهم خشوا أن يذهبوا اليه ، فركب الشيخ بنفسه وتبعه كثير من العامة حتى دخل مقراً هذا الحاكم وهو راكب دابته ، وأغلظ له القول فاضطر الى ارضائه وارجاع ما اغتصبه من أموال .

وفي سنة ١٢٠٩ = ١٧٩٥ ، حدث عدوان من أحد زعماء المماليك على بعض فلاحي مدينة بلبيس ، فحضر وفد منهم الى الشيخ عبد الله الشرقاوي ، فغضب وتوجه الى الأزهر فجمع شيوخه وأغلقوا أبوابه وأمروا الناس بترك الأسواق والمتاجر ، وركب الشيخ في اليوم التالي وتبعهم كثير من الناس الى بيت الشيخ محمد السادات ، واحتشدت جموع عديدة من الشعب فأرسل اليهم الأمراء أحدهم وهو أيوب بك الدفتردار فسألهم عن أمرهم فقالوا : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكرات « أي الضرائب » وخشى إبراهيم بك زعيم الأمراء مغبة الثورة فأرسل إلى العلماء وكانوا يقضون ليلتهم داخل الأزهر قائلاً لهم : إنه يؤيدهم في غضبهم ويبريء نفسه من تبعة الظلم ويلقيها على كاهل شريكه مراد بك ، وأرسل في الوقت نفسه إلى مراد بك فرداً ما اغتصبه من أموال ، وأرضى نفوس المظلومين .

واستطاع الشعب تحت قيادة علمائه أن يرغم الخليفة العثماني على عزل واليه المستبد بمصر خورشيد باشا ، فقد قاد السيد عمر مكرم ومعه طائفة من العلماء جموع الشعب وحاصر هذا الوالي بالقلعة ، وأعلن عزله ، فأرسل اليه خورشيد باشا رسولا يقول له : كيف تغزلون من ولاء السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فأجابه عمر مكرم بقوله : « أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، وأنت رجل ظالم ، وللناس أن يعزلوا

الحاكم الظالم ، وأن يخلعوه حتى الخليفة نفسه ، فالسلطان إذا سار في الناس بالجور كان من حق الرعية أن يعزلوه ويخلعوه » .

ولم يلبث السلطان العثماني أن نزل على حكم العلماء فعزل هذا الوالي الجبار ، وهنا تتجلى سماحة السيد عمر مكرم حيث أرسل حاشيته من الإبل حملت متاع الوالي والمحاصرين معه ، وأنزلهم في ضيافته بضعة أيام ليحييهم من غضب الشعب ويسير لهم سبيل النجاة .

وعندما غزا الفرنسيون مصر بقيادة نابليون قاومهم الشعب مقاومة عنيفة تحت قيادة علماء الأزهر حتى اضطروا نابليون إلى أن يعود إلى فرنسا في أواخر أغسطس سنة ١٧٩٩ تاركا خليفته كليبر قائدا للحملة الفرنسية بمصر فاغتاله طالب أزهرى هو سليمان الحلبي في يونية سنة ١٨٠٠ ، وقد أعدم هو وأربعة آخرون من شيوخ الأزهر وطلابه ، وكان نابليون قد أعدم من قبل ثلاثة عشر عالما من علماء الأزهر سنة ١٧٩٨ ، وبعد كفاح مرير خرجت الحملة الفرنسية من مصر سنة ١٨٠١ وفتحت أبواب الأزهر بعد أن ظل مغلقا زهاء عام .

ولما جردت إنجلترا حملتها على مصر تحت قيادة الجنرال فريزر سنة ١٨٠٧ ثار الشعب تحت قيادة علماء الأزهر ، وقام السيد عمر مكرم بحشد المقاومة وإقامة الاستحكامات الدفاعية ، وحفر الخنادق حول القاهرة ، وكان يذهب صباح كل يوم مع الجماهير المحتشدة حيث يقوم العمال بعمل الاستحكامات الحربية ويظل سحابة نهاره بينهم ، وكان أحيانا يشاركونهم إقامة هذه الاستحكامات ، فيثير فيهم طاقات من الحماسة والوطنية ، وحب الاستشهاد وباعت هذه الحملة بالفشل والخسران (١) .

ولقد استطاع علماء الأزهر أن يفرضوا على الخليفة العثماني الوالي

الذى ارتضوه وهو محمد على باشا بعد أن أخذوا عليه العهد والمواثيق وأغلظ الأيمان .



وبعد هذا الموجز السريع عن نشاط العلماء في المجال السياسى والعسكرى ، نقتبس من الجبرتى لقطات سريعة من طائفة أخرى من العلماء ارتبطت بهم مواقف رائعة ، فالعالمان الكبيران الشيخ أحمد الشرقاوى (١٢١٣ = ١٧٩٨) والشيخ يوسف المصلى (١٢١٣ = ١٧٩٨) قتلتهما الفرنسيون لترغمهما المقاومة (١) . وكان الشيخ محمد بن عبد الكريم (١٢١٥ = ١٨٠٠) مهيب الجانب بحيث كانت شفاعته لا ترد (٢) ، وكان محمد بك الألفى يستغيث بالفقهاء (٣) . وكان محمد على يطلب من عمر مكرم أن يجمع مالا للجند كلما حزه أمر (٤) ، وقصدى العلماء لمحمد على باشا يعارضون بعض آرائه ، ويطلبون رفع المظالم (٥) ، وكان العلماء يزورون البلاد ويتعرفون على مشاكل كل الناس ، كما كانوا إذا اشتد الغلاء يعملون تسعيرة للمواد الغذائية ويفرضونها على الحكومة والتجار (٦) .

الجبرتى ينتقد الحاكم بصراحة :

أما الشيخ عبد الرحمن الجبرتى نفسه ، فيبرز لنا جلال العلماء وضيئتهم فيما كتبه عن حكام العصر غير هياب ولا خائف ، فهو ينتقد الديوان الذى أقامه محمد على باشا نقداً مرأ ، ويلوم سياسة الباشا الذى أبقى دار الضرب على ذمته ، وجعل خاله ناظراً عليها ، كما يلومه لأن نفسه طمعت إلى مصادرة بعض الأموال حسداً منه لبعض الناس الذين رأهم يتجملون في ملابسهم ومراكبهم ويقول عنه بالحرف الواحد : لأن*

(١) ج ٣ ص ٦١ .

(٢) ج ٢ ص ١٦٤ .

(٣) ج ٤ ص ٣ .

(٤) ج ٤ ص ٥١ .

(٥) ج ٤ ص ٨ و ٩ .

(٦) ج ٢ ص ١٣٦ .

من طبعه داء الحسد والشبه والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم (١) ويثور الجبرتي مدافعا عن الفلاح الذي تؤخذ منه الغلال بأسعار رخيصة وتباع لحساب الحكومة بأسعار مرتفعة (٢) كما يعارض استمرار غلاء الأسعار وبخاصة في الأوقات التي لا يستغنى عنها الفقير ولا الغنى ، ويورد نماذج لهذه الزيادات ^{الضخامة} ، كما يشهر بالباشا لأنه وضع يده على بعض الأراضي المملوكة للناس ليزرعها لحسابه (٣) ، ويعيب على الباشا ظلمه في تحصيل بعض الجمارك المرتفعة التي يتسبب عنها ارتفاع الأسعار على المستهلكين (٤) .

المكانة الاجتماعية للعلماء

كان للعلماء في عصر الجبرتي مكانة اجتماعية عالية تفوق مكانة الساسة والحكام ، ويذكر الجبرتي عن الشيخ علي أحمد بن مكرم الله العدوي (١١٨٩ = ١٧٧٥) أنه كان يستقبل كل من تعسر عليه قضاء حاجة ، ويكتبها فإذا تجمع لديه قائمة طويلة بمطالب الناس ذهب الى الأمير وأخرج القائمة من جيبه ، وأخذ يقص ما فيها واحدة بعد واحدة ويأمر الأمير بقضاء حاجات الناس ، والأمير لا يخالفه ، ولا ينتنئ عنه ، ويضيف الجبرتي عن هذا الشيخ أنه كان لا يثرب الدخان في مجلسه تعظيما للعلم ولآله ، وإذا دخل منزلا من منازل الأمراء توقف هؤلاء عن شرب الدخان ، فان رأى آلة من آله كسرهما ولو كانت في يد كبير الأمراء (٥) .

وحدث مرة أن كان الشيخ حسن الجبرتي راكبا دابته وعائدا الى بيته فالتقى بموكب الأمير أحمد البارودي ، وحاول الشيخ أن يفسخ لموكب

(١) ج ٤ ص ١٣٨ .

(٢) ج ٤ ص ١٤٠ .

(٣) ج ٤ ص ١٤٢ .

(٤) ج ٤ ص ١٥٦ .

(٥) ج ٤ ص ١٥٧ .

الأمير وينحرف في جانب من الشارع ولكن الأمير عندما رآه نزل عن فرسه وخف إلى الشيخ يقبل يده ويلطفه (١) .

من الإمارة إلى العلم :

ولعل هذه المكانة التي كان يحظى بها علماء المسلمين هي التي دفعت بعض الأجناد والأمراء ليتخلوا عن الجندية والإمارة ، وينضموا في سلك الطلاب والفقهاء ، ومن هؤلاء الشيخ حسن المعروف بابن الكاشف (١٣٢٩ = ١٨١٣) الذي انخلع عن طبقة الأمراء ، وأخذ يحفظ القرآن ويجوده ، والمتون ويتدارسها ، وتزيها بزى الفقهاء ، والتحق بحلقات شيوخ عصره حتى أصبح من خيرة العلماء المصريين ، وكان يقول إن ما حصل عليه من العلم وجاهه أرفع بكثير مما تركه من وجاهة الإمارة ، ومكانة الأجناد (٢) .

من المسيحية للإسلام :

وفي هذا النطاق كذلك نذكر إن بعض الطموحين من غير المسلمين دخلوا الاسلام ، وتعمقوا في الدراسات الإسلامية ، ولعبوا دورا كبيرا في حياة مصر في هذا العصر ، ومن هؤلاء الشيخ محمد المهدي الحفنى (١٣٣٠ = ١٨١٤) (٣) ووالده كان من الأقباط ، وأسلم هو على يد الشيخ الحفنى ، واهتم هذا به حتى منحه اسمه ، ولأزم دروس أشياخ العصر ، كالشيخ العدوي والأجهوري والدرديري والبيلى والجمال والشرقاوى واجتهد في التحصيل ليلا ونهارا ، حتى مهر وأنجب ، وتصدر للتدريس بالأزهر ، فكانت له حلقة واسعة ويروى عنه أنه لما حضر الفرنسيون إلى مصر قام بدور إيجابى في حماية الناس من عسفهم ، فكسان يبعث الأمان للفارين من الهاربين ، ويطلب منهم العودة للبلاد ، كما يقدم الضمانات المختلفين من الأجناد والناس ليظهروا ويباشروا أعمالهم في أمن ، وكان يحمى دورهم وحریمهم ويدافع عنهم في غيابهم ، ويقول الجبرتي عنه أنه

(١) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي ص ٢١ .

(٢) ج ٤ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

(٣) ج ٤ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

سد بمقله تقويا واسعة ، وداوى برأيه جروحها وفتوها عميقة ، فكان بذلك
حصنا للناس وحمى للآخر .

وهكذا كان للعلماء في عصر الجبرتي مكانة سامية دونها كل مكانة
وكل رئاسة .

علماء في الدراسات الإسلامية

برزوا كذلك في الآداب والعلوم والفنون

كانت الدراسات الإسلامية طيلة عصر الجبرتي أساسا لكل الدراسات
الأدبية والمدنية ، فكان الطبيب والرياضي والفلكي والأديب يعرفون
الدراسات الإسلامية ويجيدونها قبل أن يصلوا الى الدراسات الأدبية
أو المدنية ، وقد ظل الحال على ذلك حتى عصر محمد علي الذي اختار من
بين الأزهرين من يرسلهم للتخصص في الدراسات العلمية في أوروبا ،
وسنعيش فيما يلي مع بعض علماء المسلمين الذين برعوا في الدراسات
الإسلامية ولكنهم أجادوا معها ألوانا من الآداب والعلوم والفنون :

وأول من نذكر من هؤلاء العالم الأديب محمد بن رضوان السيوطي
الشهير بابن الصلاحى (١) (١١٧٨ = ١٧٦٤) ، وقد تلقى ابن الصلاحى
العلوم الإسلامية عن الشيخ محمد الحنفى وغيره من علماء العصر حتى
حقق في الدراسات الإسلامية مكانة عالية ! ولكن أكثر شهرته انتضحت
في الدراسات الأدبية فكان له شعر رائع مختلف الاتجاهات والصور وقد
روى الجبرتي منه ما يزيد عن عشرين صفحة يمكن أن تكون ديوانا مهما ،
ويذكر الجبرتي : أن له مقامة بديعة في مدح سيدنا رسول الله ، وغرراً من
الشعر في أغراض متباينة ونقتبس من شعره ما يلي :

هات لى قهوة الششك من شفاهك واسقنيها على فخامة جاهك

(١) ج ١ ص ٢٦٥ وما بعدها .

عاطنيها يا أوحسد العصر لطفاً ويهديع المثال في أشباهك
يا غزالاً لو صرور البدر شخصاً ليضاهيك في البها لم يضاهك

وكتب الى بعض الاخوان وقد أهدى اليه منديلاً :

يا كاملاً أحبت مكارمه الندى فمدا لأمرض القلوب طيباً
وردت هديتك التي كانت لنا كقميص يوسف إذ أتى يعقوباً
منديل شرك حين جاء مبشراً بالود سر خواطراً وقلوباً

ومن هؤلاء العلامة أبو العرفان الشيخ محمد بن علي الصبان (١٢٥٦ = ١٧٩١) الذي حفظ القرآن والمتون واجتهد في طلب العلم وحضر أشياخ عصره ، وجهابذة مصره ، وقرأ عليهم علوم العصر ، وبرع فيها براعة فائقة ، ثم مال مع ذلك الى الأدب والعروض ، غالف في العروض رسالة مهمة ، واهتم بالمناظرات الأدبية ، وكان له في النثر كعب على :
وفي الشعر كأس ملي كما يقول الجبرتي (١) ، ومن شعره نقتبس المقطوعة التالية :

أثيم جنى ذنباً ورحب الحمى حلاً فهل من رضا عنه تجود به فضلاً
إليك أبا الأنوار قد أبت مخلصاً بمن ذا الذي يا سيدي قط مازلاً
أعيذك أن يسمى لبابك عائد وتكسوه ممن أجل ذنب له ذلاً
إذا أنت بالغفران والمصحح لم تجد فمن منه نرجو العفو والصفو والبذلاً

ومن العلماء الأديباء قاسم بن عطاء الله المصري (١٢٠٤ = ١٧٨٩) الذي قرأ العلوم الإسلامية وتضلّع في الأدب والتواشيح والزجل ، وكان سريع الارتجال في الشعر ، وكان شعره في غاية الجودة وقد برع كذلك في فن التاريخ وكان فيه معروفاً بالدقة والوضوح والسلامة .

(١) ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٢) ج ٢ : ١٨٤ .

ومن فقهاء العصر الذين برعوا في الأدب والشعر الشيخ محمد السنباوى (١) (الزهرى (١٢٢٢ = ١٨١٦) الذى انتهت له الرياسة في العلوم في الديار المصرية وشاع ذكره في الآفاق ، ووفد له الطلاب من كل صوب ، وكان له مع ذلك شعر جميل نقتطف منه ما يلى في الغزل :

أيها السيد المدال ضاعت في الهوى هييتى وأنسييت نسكى
يا لك الله لا تمل لسسوائى وتحكم ولو بما فيه فتكى

وإذا اكتفينا بهذا القدر من العلماء الأدباء واتجهنا شطر العلماء الذين برزوا في الدراسات العلمية والفنية نجد عددا وافرا حقق كبيرا من التقدم في هذه الدراسات ، وأول من نذكر في هذا المجال الشيخ أحمد بن عبد المنعم الدمنهورى (١١٩٢ = ١٧٧٨) الذى تولى مشيخة الأزهر سنة ١١٨٢ = ١٧٦٧ ، وهو يذكر سندا طويلا ، ودراسات واسعة نقتبس منها ما يلى : أخذت عن أستاذنا الشيخ محمد الريحانى متنا كثر والأشباه والنظائر وشيئا من المواقف في بحث الأمور العامة ، وأخذت عن الزعترى الميقات والحساب والمقنطرات ، كما درست معه منظومة الياسمين في الجبر والمقابلة ، والمنحرفات السبط المردينى في وضع المزاويل ، وأخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم كتاب الموجز واللمحة الحقيقية في أسباب الأمراض وعلاقتها ، وبعضها من قانون ابن سينا ، وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومى أشكال التأسيس في الهندسة ، وكذلك علم الهيئة والمساحة ، وقرأت على الشيخ محمد الشحيمى منظومة علم الأعمال الرصيدية وروضة العلوم ، وبهجة المنطوق والفهوم لمحمد بن ساعد الأنصارى وهو كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علما ، كما قرأت عليه رسالة في علم المواليد تشمل دراسة الحيوانات والنباتات (٢) .

(١) ج ٤ ص ٢٨٤ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٢٥ - ٢٧ .

وفي الفلك والهيئة نقابل الشيخ رضوان الفلكي (١) (١١٣٢ = ١٧١١) ، وهو صاحب الزيج الرضواني الذي حرره على أصول الرصد الدقيق ، وهو مؤلف كتاب أسنى المواهب ، وكتب أخرى كثيرة في الحسابات والتحقيقات ولله جداول حسابية بارعة ، وقد استطاع أن يرسم الأرض على شكل كرة من النحاس الأصفر ، ونقش حولها الكواكب المرصودة ومن تأليفه النتيجة الكبرى ، والنتيجة الصغرى ، وكانتا في عهده مشهورتين متداولتين بأيدي الطلبة بآفاق الأرض ، وله كتاب عن طراز الدرر في رؤية الأهلة والعمل بالقمر .

ومن العلماء الذين اشتهروا بالبراعة في الفلك كذلك الشيخ عبد الله ابن خزام الفيومي (٢) (١١٩٥ — ١٧٨٠) الذي تولى الافتاء فمسار فيها بالدقة والتحرى ، وكان له معرفة تامة بالفلك والهيئة والميقات وعنده لذلك آلات كثيرة دقيقة .

وقد برع في الموسيقى الشيخ حسن ضيائي (٣) (١١٨١ = ١٧٦٧) أحد أعيان عصره في الدراسات الإسلامية ، وكان مع ذلك له براعة في الخط العربي ، واجادة له ، كما كان له معرفة واسعة بعلم الموسيقى وأوزانها ، ويجيد استعمال كثير من آلاتها .

ومن العلماء الذين برعوا في علم الحساب والرياضيات الشيخ محمد بن اسماعيل (١١٨٥ = ١٧٧١) ، وكان له باع واسع في الدراسات الإسلامية مستحضرا للمسائل الفقهية والعقلية ، ويقول عنه الجبرتي (٤) أنه لما بلغ المنتهى في العلوم المشهورة تساقطت نفسه للعلوم الحكيمة

(١) ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) ج ٢ ص ٧١ .

(٣) ج ١ ص ٢٨٥ .

(٤) ج ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

والرياضية فالتجه لتعلمها ، فبرع فيها براعة عظيمة ، وأصبح في الرياضة والصلب والهندسة لا يشق له غبار .

وقد برع في الحساب والرياضيات كذلك الإمام العلامة محمد بن يونس الطائي ^(١) (١١٩٢ = ١٧٧٨) كما برع فيها كذلك الشيخ محمد بن موسى الجناحي ^(٢) (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذي دفعته الرغبة في التعرف على قسمة المواريث الى إجادة الحساب ، ثم أحب الرياضيات ، فأجاد الجبر والمقابلة وآلف في الرياضيات رسائل مهمة ، وكان له في تحويل النقود بعضها إلى بعض رسالة نفيسة تدل على براعته وغوصه في علم الحساب كما كان بارعا في حساب الكسور والقسمة والجذور ، مما انفرد به بين علماء عصره .

ومن برع في الطب من العلماء الشريف العقيف الشيخ محمد بن زين ^(٣) التاريمى الأصل (١١٩٦ = ١٧٨١) نزيل مصر ، وكان واسع المعرفة بالمقول والمنقول وله معرفة دقيقة بدقائق علم الطب ، وكانت وصفاته الطبية تهب الشفاء للمرضى ، وتزيل عنهم وصب الآلام .

ومن الشيوخ الأفاضل الذين كان لهم معرفة بالطب الشيخ حسن الجبرتي ^(٤) الذي كان يحتفظ في بيته بالوان من الدهون يعالج بها كثيرا من الأمراض والجراح ، كما كان له معرفة بكثير من الآلام وعلاجها .

وهكذا حمل رجال الدراسات الإسلامية عبء الفكر في اتجاهاته المختلفة ولم يتركوا مجالا علميا إلا طرقوه بمقدار ما أتبع لهم من جهد وطلاقة .

(١) ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) ج ٢ ص ١٢٥ .

(٣) ج ٢ ص ٧٢ .

(٤) ج ٢ ص ٤ .

ملاح أخرى عن علماء عصر الجبرتي

لغات أجنبية :

لا يزال عندنا أفانين من الفكر أجادها علماء الدراسات الإسلامية في هذا العصر فقد كان منهم من أجاد اللغات الأجنبية ، وكان خطه فيها غاية في الجودة ، ومن أجل هذا كان هؤلاء سفراء مصر الى الخارج اذا حزب أمر ، ومن هؤلاء الشيخ على بن محمد الجزائري الأصل والمصري الثقافة والفكر (١١٨٥ = ١٧٧١) ويقول عنه الجبرتي (١) إنه زاحم العلماء بمنالجه في تحصيل أنواع العلوم وأجازته كثير من شيوخ العصر ، وكان يعرف اللسان التركي ، وقد جعله هذا على صلة وثيقة ببعض أمراء الأتراك وبخاصة الأمير أحمد آغا .

ومن هؤلاء محمد بن اسماعيل السكندري (١١٨٣ = ١٧٦٩) الذي كان يعرف الألسنة الثلاثة ، العربية والفارسية والتركية ، مع ميل الى المخاورات واللطائف الأدبية ، ويقول عنه الجبرتي (٢) ان رسائله في الألسن الثلاثة كانت غاية في الفصاحة مع حسن خط ووفور خط ، ومهابة عند الأمراء وكان والده اسرائيليا ، فأسلم وحسن اسلامه ، وكان يزور الشيخ حسن الجبرتي في أخريات حياته ، ويقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتي انه رأى كتاب بهارستان لولانا جامي مكتوبا بخط يد السكندري ، وقد أحسن في كتابته وأتقن في سياقه ، كما رأى للسكندري كتابا آخر فيه بعض التوارد ومجموعة من الشعر بالألسن الثلاثة ، ويطنب الجبرتي في مدحه والثناء عليه إطنابا طويلا ، ويقتبس من كلامه ما يدل على إبداع وعمق وروعة .

ومن هؤلاء كذلك حسن الدرويش (١٢٣١ = ١٨١٥) الذي كانت له مشاركة في كل فن من الرياضيات والأدبيات ، والمعقول والمنقول كما

(١) ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢) ج ١ ص ٣٣٩ .

كانت له معرفة بلغات كثيرة حتى كأنه خالط أهلها وعاش في ديارها وكان يعلم هذه اللغات لمن أراد أن يتعرف عليها ، ويعلم اللغة العربية للأعاجم الذين يفدون الى مصر (١) .

ولا يمكن أن نطوى صفحة الحديث عن العلماء الذين أجادوا اللغات الأجنبية دون أن نتحدث عن الشيخ حسن الجبرتي الذي كان يعسوف اللغة الأميرية ويجيد اللغة التركية ويخاطب بها الأمراء حتى كأنه منهم ، بل يضيف مترجم حياته أن جماعات من الأفرنج قصدوا بيته ، وأخذوا عنه علم الهندسة وذهبوا الى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم ، وأخرجوه من القوة الى الفعل ، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه (٢) .

وظيفة المعيد :

وقد عرفت المدارس المصرية في ذلك العصر وظيفة المعيد ، وكان المعيد يجلس في حلقة أستاذه أقرب ما يكون الى الأستاذ ، ويتلقى الدرس مع الطلاب ، فاذا انتهى الشيخ من القاء درسه وغادر المكان بدأ المعيد يشرح ما غمض من ذلك الدرس على الطلاب ، ويجيب على أسئلتهم ، ومن الممكن أن يعود الى أستاذه إذا سئل سؤالاً لم يعرف الجواب عنه ، وهكذا عرفت حلقات التدريس بمصر في عصر الجبرتي تلك الوظيفة التي تهتم بها الجامعات في العهد الحاضر ، لتكوّن أستاذة المستقبل ومن المعيدون الذين تحدّث عنهم الجبرتي الشيخ عبد القادر بن خليل (١١٨٧ = ١٧٧٣) الذي لازم الشيخ ابن الطيب ملازمة كلية حتى صار معيدا لدروسه : وهو رومي الأصل ، وقد جاء الى مصر ، ثم خرج منها طوّافاً معلماً ، وعاد لها — كما يقول الجبرتي (٣) بالفوائد الغزار وبما حمل في طـول غيبته من النوادر والأسرار .

(١) ج ٤ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٢) ج ١ : ٣٩٧ .

(٣) ج ١ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .

ومن هؤلاء الشيخ محمد بن موسى الجناحي (١) (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذي كان معيدا للشيخ الصعدي ، ومنهم كذلك الشيخ الجداوي وسليمان العجيلي والسمنودي والأجهوري والعدوي والصاوي والدسوقي .

ومن الواضح أن كلا من هؤلاء تخطى بعد حين وظيفة المعيد ، وأصبح قمة من قمم الفكر وعالما عظيما من علماء العصر ، وقد تحدثنا عن أكثرهم فيما سبق من لدراسات .

علماء معبرون :

ومن الناس من يعتقد أن الانكباب على العلم ، والسهر ليلته ، والجلسة لتعليمه تضر بالصحة وتضعف الجهد ، لما تسببه من إرهاق ، ولكن الباحث في عصر الجبرتي يشاهد كثيرين من العلماء المعمّرين الذين طعنوا في السن على الرغم من جهودهم الكبيرة في خدمة العلم والمعرفة ، فالإمام العالم الشيخ علي بن محمد الشناوي (٢) (١١٨٦ = ١٧٢٢) الذي انتهت إليه الرياسة في زمنه عاش حتى جاوز المائة ، وكان طيلة عمره ممتعا بالحواس ، ثاقب الفكر ، ومن جاوزوا المائة كذلك الشيخ سليمان بن محمد البحيري (٣) (١٢٢١ = ١٨٠٦) الذي ظل يملأ على تلاميذه حتى ليلة وفاته ، ومن الشيوخ المعمّرين كذلك الشيخ خالد بن يوسف الديار بكري (٤) (١١٩٣ = ١٧٧٩) وأصله من ديار بكر ، وفد الى مصر ولازم حضور الأشياخ بها ، وزامل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في حلقة السيد محمد مرتضى بجامع شيخون حيث تلقيا دروس الصحيح ، وزامله كذلك في جامع أبي محمود الحنفى حيث تلقيا « الأمانى والشمائل » ثم اتجه الشيخ خالد للوعظ والتدريس ، وطال عمره حتى أصبح من المعمّرين ذوى اشتهار في ذلك العصر .

(١) ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) ج ٤ ص ٢٤ .

(٣) ج ٤ ص ٥٧ .

(٤) ج ١ ص ٤١١ .

ومن الشيوخ المعمرين كذلك الشيخ أحمد بن عبد السلام (١١٨٨ = ١٧٧٤) (١) والشيخ زين الدين القاسم العبادي (٢) (١١٨٨ = ١٧٧٤) والشيخ محمد أبو السعود المكنى (٣) (١٢٠٢ = ١٧٨٧) وقد تجاوز التسعين ، والشيخ أحمد البرماوى (٤) (١١٣٨ = ١٧٢٥) .

وهكذا نجد في عصر الجبرتي شيوخا تخرج على أيديهم عدة أجيال وظالت أيامهم في خدمة الفكر والإسلام ، وكان عمرهم الطويل مصدر يمن وبركة على الدراسات الإسلامية .

وفرة المؤلفات :

وقد دون علماء هذا العصر مجموعة من الكتب والمؤلفات في مختلف العلوم والفنون ولو قدر لهذه المجموعة أن تبقى مخطوطة أو مطبوعة كانت ثروة هائلة ، ومكتبة رائعة ، ولكن ما بقى منها — على كل حال — يصور مدى الجهد الذي بذله رجال هذا العصر في خدمة العلم والمعرفة ، وقد أورد الجبرتي صفحات طويلة عدد فيها مؤلفات علماء عصره وكنموذج من هذا الجهد نقتبس ما كتبه عن مؤلفات الشيخ الدمنهورى (١١٩٢ = ١٧٧٨) فمنها حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون ، ومنتهى الإرادات في تحقيق الأشعارات ، وإيضاح المبهم في معانى السلم ، وإيضاح المشكلات في متن الاستعارات ، ونهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف ، والحذاقة بأنواع العلاقة ، وكشف اللثام عن مخدرات الأفهام على البسطة ، وحسن التعبير في القراءات العشر ، وتنوير المقلتين بضياء وجه الوجهين بين السورتين ، والفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى ، وطريق الاهتداء بأحكام الإمامة والامتداء على مذهب أبى حنيفة ، وإحياء

(١) ج ١ ص ٤١١ .

(٢) ج ٤ ص ١٦٥ .

(٣) ج ٤ ص ٧٦ .

(٤) ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧ .

الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد ، والدقائق الألعية على الرسالة الوضعية ، ومنع الأثيم الحائر على التمدادى فى فعل الكبائر ، وعين الحياة فى استنباط المياه ، والأنوار الساطعات على أشرف المربعات ، وخلاصة الكلام على وقف حمزة وهشام ، والقول الصريح فى عالم التشريح ، وإقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة ، وغيض المنان بالضرورة من مذهب التعمان ، وشفاء الظمان بسر قراءة القرآن ، وإرشاد الماهر إلى كنز الجواهر ، وتحفة الملوك فى علم التوحيد والسلوك ، والزهر الباسم فى علم الطلاسم ، ومنهج السلوك إلى نصيحة الملوك ، والمنح الوفية فى شرح الرياض الخلفية فى علم الكلام ، والكلام السديد فى علم التوحيد ، وبلوغ الأرب فى اسم سلاطين العرب •

ويختتم الجبرتى حديثه عنها بقوله إنه اطلع على أكثرها وانتفع بما ورد فيها •

وبعد ، لقد كان عصر الجبرتى عصرا حافلا يبدو فيه اضطراب الساسة ونشاط العلماء ، وقد استطاع الجبرتى أن يصور لنا هذا العصر أدق تصوير ، فجعل القارئ يحس — وهو يقرأ ما كتبه الجبرتى — كأنه يعيش هذا العصر من جديد ، يتفعل بالأحداث فيه ، وتبهره مواقف العلماء وما بذلوه من جهد لخدمة مصر بوجه عام ، وخدمة الدراسات الإسلامية بوجه خاص ، وقد استطاع العلماء أن يدفعوا عن مصر كثيرا من الضر ، وأن يجعلوا مصر فى هذا العصر مركزا للدراسات الإسلامية ، فكان عصرهم بذلك امتدادا للنشاط العلمى الذى مارسته هذه البلاد عدة أجيال من قبل ، وكان عصرهم أيضا مهينا لنهضة عظمى بدأت بعد حين ، ولا تزال تخطو وتحاول أن تحقق لمصر وللعالم العربى والإسلامى المكان اللائق فى دنيا الفكر والعلوم •

٣ — الفترة الاستقلالية

من « محمد على » الى الاحتلال البريطانى

طال بشا الحديث عن الفترة السابقة التى أسميناها « الفترة المملوكية » لأنها حوت الحملة الفرنسية بما قدمناه عنها من دراسات مهمة فيها الكثير من الجديد ، ولأنها شملت كذلك دراسات رائعة اقتبسناها من الجبرتى عن هذه الفترة •

وننتقل الآن للحديث عن « الفترة الاستقلالية » ونطلق عليها الفترة الاستقلالية « لأن نفوذ تركيا فى الواقع قد تقلص فى مصر ، حتى لم يعد يحسب له حساب ، ثم إن الممالك الذين كانوا يأتون من الخارج فوجا بعد فوج ضعف شأنهم أو زال ، والجيش المصرى تطور ليكون مصريا حقيقة ، وتغلب كبار ضباطه بمرور الزمن على العقبات التى كانت فى طريقهم أو على أكثرها ، وبدأت العناصر المصرية فى الميادين المختلفة تظهر وتقرض نفسها ، فسلسلة الأبطال المصريين لم تنقطع طيلة هذه الفترة التى نتحدث عنها ، من عمر مكرم الى عرابى • ومحمد على وأولاده وافقدون على مصر ، ولكنهم بعد قليل لم يجدوا سواها وطنا ، وقبـد نحتهم مصر ألوانا من الجاه فحرص بعضهم عليها ليستمر له هذا الجاه والنفوذ ، وخانها بعضهم ليستمر له الجاه أيضا ، ولكن مصر فى الموقفين لم يكن يدفعها نفوذ يذكر من الخارج ، الى أن جاء الاحتلال أو ظهرت معالـه ، ومن أجل هذا كان جديرا بنا أن نسمى هذه الفترة « الفترة الاستقلالية » •

محمد على وأولاده

الزيف فى تدوين التاريخ :

إن الحديث عن محمد على وأسرته فى عصرنا حديث ليس سهلا ، فقد اتجهت الجهود منذ قيام عصاية ٢٣ يوليو إلى التقليل من قيمة الأسرة العلوية،

بل إلى الطعن فيها والنيل منها ، وأصبح هذا التاريخ الظالم هو المادة التى تقدّم للتلاميذ فى المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية وهو المادة التى تتكلم بها وتنطلق بها ألسنة وسائل الاعلام الأخرى (١) ولم تكن هذه الأسرة وحدها هى التى ظلمها كتّاب عصر الثورة ، بل إن أكثر عظماء التاريخ المصرى الحديث أسدل ستار من الضباب فوق تاريخهم ، وحجبت جهودهم وأعمالهم عن الجيل الحاضر ، فلا تكاد تسمع كلمة حق عن مصطفى النحاس الذى كان زعيم الشعب والناتق بلسانه هوالى ربع قرن ، ولا تكاد تسمع كلمة عن الدكتور محمد حسين هيكل ، وهو مفكر وسياسى مصرى عظيم ، ولا تسمع عن الرائد الدينى الكبير حسن البنا الا ما يمسه ويشين دعوته، ولم ينبج من كتّاب عصر الثورة الا قلة من القادة الأوائل كمصطفى كامل ومحمد فريد ، أما القمم السياسية ، والفكرية التى لها جماهير شعبية غفيرة ، فقد اتجهت كل المحاولات لطمس تاريخها والهجوم على كل تصرفاتها ، وسأقتبس فيما يلى لقطات سريعة مما يتقدّم لأبنائنا فى مدارس الحكومة ٥

الزيّف مقرر على التلاميذ

من كتاب التاريخ المقرر على الفرقة السادسة الابتدائية :

— كان فى الحامية العثمانية الموجودة بمصر ضابط ألبانى يدعى « محمد على » (أريت هذا التعبير الذى ينمّ عن جهل وخشونة) ٠

— رفض محمد على أن يشاركه زعماء الشعب فى حكم البلاد ، وانفرد بشئون الحكم دون أن يشاركه الشعب فى ذلك ، وبدأ فى فرض الضرائب على المصريين ، ونقض بذلك عهده للمصريين ٠٠٠٠ وأصبح حاكما مستبدا بشئون مصر ٠ (كتب هذا لإرضاء عبد الناصر ، كأنّ عبد الناصر هو الذى أشرك الناس معه فى حكم البلاد !!) ٠

(١) بهذه المناسبة نستذكر الاسفاف الذى يظهر فى التمثيليات التليفزيونية مثل التمثيلية الغنائية « أوبريت الليلة العظيمة » التى تصور الخديوى اسماعيل فى صورة لا يرسمها الا جاهل بالتاريخ أو منافق .

— بسط محمد على النفوذ العثماني على أنحاء الجزيرة العربية وعلى السودان (للأسف نسي المؤلف بعد لحظة هذا الكلام حينما تحدث عن حرب محمد على للعثمانيين) •

— لم يكن محمد على يهدف الى تحقيق الوحدة العربية ، بل كان همه أن يكون لنفسه ملكا عريضا له ولأسرته ، ولذلك لم يعمل محمد على ما فيه الخير للبلاد ، بل كان همه استغلال ثروات البلاد العربية لمصلحته الخاصة فسئم الناس حكمه وتمنوا القضاء عليه • (ما رأى المؤلف في ثراء أشرف مروان وأسرّة عبد الناصر وعصمت السادات ؟؟) •

— كان اسماعيل مسرفا بطبيعته فتوسع في القروض الأجنبية لإقامة قصوره ورحلاته واستراحاته وحروبه ، ولتقديم الرشاوى إلى السلطان العثماني بين الحين والآخر ، وكانت هذه القروض من أهم الأسباب التي نتج عنها الاحتلال البريطاني •

(نسي المؤلف قروض مصر في عهد الثورة ، كما نسي أن أوروبا احتلت كل أفريقية وآسيا في هذه الفترة الحالكة من التاريخ ، وكان الاحتلال يتم لسبب أو لآخر أو بدون سبب) •

— كانت الأحزاب فاسدة ومتنافسة على الحكم ، وتخضع لرغبات الملك والإنجليز •

— حديث طويل ورائع عن مصطفى كامل يثنى عليه ويذكر أن أسرته مصرية كريمة ، وجهوده ميمونة في الداخل والخارج ، ومثل ذلك فيما يتعلق بمحمد فريد ، فاذا وصل الأمر إلى ثورة ١٩١٩ لا نجد كلمة ثناء على سعد زغلول ، ولا على دستور ١٩٢٣ الذي انبثق في عهد مبكر ، والذي قيل عنه إن البلاد لم تحظ بدستور مثله حتى الآن ، وإذا جئنا إلى معاهدة ١٩٣٦ نجد أن المؤلف لم يستطع ذكر اسم النحاس الذي عقدها ، وقال « وتفاوضت مصر مع إنجلترا ٠٠٠ » ونجده يبرز ما أسماه عيوب هذه المعاهدة

ويختتم كلامه بقوله : ٠٠٠ حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو بقيادة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر فانقذت الموقف وحققت الجلاء والاستقلال .
(يلاحظ أنه كتب هذا بعد وفاة جمال عبد الناصر ، وإسرائيل تحتل سيناء وقد دمرت مدن القناة وللروس في مصر قواعد خطيرة ، ومع هذا يتحدث المؤلف عن الجلاء والاستقلال) .

ذلك هو الزيف التاريخي عن أسرة محمد علي ، كما نراه في مقرر الفرقة السادسة الابتدائية وهذا الزيف ينمو مع نمو التلميذ المصري ، فتجده مضاعفا في المرحلة الإعدادية ، والمرحلة الثانوية ، ونجد صورا منه في التلفزيون والاذاعة .

كتابة تاريخ هذه الحقبة من جديد :

ومن أجل هذا الزيف علت الأصوات بأن تاريخ هذه الحقبة ينبغي أن يكتب من جديد ، وقد حاولت بإصرار أن أكون أمينا كل الأمانة فيما أكتب ، إذا أن إحساسي عميق كل العمق بمسئولية المؤرخ أمام الله وأمام الناس ، ولذلك أعيد أن أكون منصفًا كل الإنصاف ، فأثني على من يستحق الثناء ، وأهاجم من خان البلاد أو سبب لها كارثة من الكوارث وسنرى في محمد علي وأسرته مواقف تستحق التقدير والثناء ، وتلك سببرزها ونثنى عليها ، وسنرى من بعض السلاطين والملوك انحرافا بل خيانة ، وتلك سببرزها أيضا ونهاجمها ، ومثل هذا ما سنفعله في عصر ما بعد أسرة محمد علي ، فالعرض التاريخي سيتخذ الأمانة الحقيقة دستور ، والخوف من الله نهجه مع كل الناس وبخاصة مع أولئك الملوك والرؤساء الذين عاصرنا عهدهم وعشنا الحياة معهم ، ورأيت بنفسى تصرفاتهم ، تلك التصرفات التي ألقى على كاهلي مع قلة من المؤرخين مسؤولية تدوينها لهذا الجيل ولما يأتي من أجيال .

ذلك عهدى أخطو في ظله نحو تدوين تاريخ هذه الفترة ومن الله التمس العون والسداد .

محمد على والطريق للرياسة

ولد محمد على في قوكنه ، على الساحل المقدوني ببلاد اليونان سنة ١٧٦٩ ، وكان عمه يشغل منصب « نائب الوالي » وهو منصب عظيم آنذاك ولم يحظ محمد على بتربية مدرسية يعتد بها ، ولذلك أثر الاستغال بالتجارة ، فعمل في تجارة التبغ ، وكان التبغ من أهم السلع في تلك المنطقة .

وخلال الحملة الفرنسية أرسل السلطان سليم الثالث حملة بحرية الى مصر سنة ١٧٩٩ ، وكلف عم محمد على أن يرسل كتيبة مؤلفة من ثلاثمائة شخص الى مصر ، فأرسلها بقيادة ابنه الصغير يساعده ابن عمه محمد على ، وسرعان ما تولى محمد على القيادة الفعلية ، واشترك في بعض المعارك ضد الفرنسيين ، وسار في سلم الترقية حتى أصبح الشخص الثالث بين قادة العثمانيين بمصر ، فلما تمرد الجند على خسروباشا وقتلوا طاهر باشا بدأ نجم محمد على يتألق ، وعينت الأستاذة خورشيد واليا على مصر ولكن محمد على استطاع بحيلته أن يرتبط بالماليك ، واتخذ البرديسي بوجه خاص ثكافة له ، وكان البرديسي طموحا في قسوة وجهل ، فوجده محمد على مركبا سهلا ، وطالب الجند بمرتباتهم فخلّى محمد على بينهم وبين البرديسي ، وراح هذا الأحق يقترض الضرائب بعنت ويجمعها بقسوة ، مما أثار عليه الشعب والجند ، واضطر أخيرا أن يهرب الى الشام .

ولم يبق أمام محمد على إلا خورشيد الوالي الجديد ، وقد جاء هذا الى البلاد بعنجهية الأتراك وشغبهم ، وكان محمد على في الوقت نفسه حريصا على التقرب من زعماء المصريين وشيوخهم ، وارتكب جند الوالي الجديد بعض المفاصد مما زاد في ثورة الشعب ، ونتيجة للسياسة المملوكية والعثمانية ، اجتمع زعماء الشعب ، وأعلنوا عزل الوالي خورشيد باشا واختيار محمد على واليا عليهم في مايو سنة ١٨٠٥ ، وألبسه السيد

عمر مكرم والشيخ الشرقاوى خلة الولاية ، ولم يخضع خورشيد لقرار العزل الصادر من « الفلاحين » (على حد قوله) وتحصن بالقلعة ، ولكن الحكومة العثمانية وجدت من الحكمة أن توافق على ما ارتآه الشعب المصرى ، وصدر بذلك فرمان فى يوليو سنة ١٨٠٥ •

ولم تكن تركيا مخلصه فى هذا التصرف ، وانما أرادت به تهدئة الأحوال مؤقتا ، بدليل أنها بعد عام واحد أرسلت لمصر واليا جديدا اسمه موسى باشا بدلا من محمد على الذى قررت نقله الى سلانيك ، ولكن الشعب المصرى أجهد هذه المحاولة فثبت ضعف تركيا أمام العزيمة المصرية •

مشكلات فى طريق الالى الجديد :

لم تضع هذه العوامل حداً لمتاعب محمد على ، فالماليك لا يزالون يهددون مركزه ، وبخاصة أنه لم يعد ممثلا لتركيا فقط ، وانما لأنه أصبح أيضا ممثلا للشعب المصرى الذى اختاره ، وتركيا لم تكن راضية عن محمد على ، وانما أرغمت على تعيينه ، ولذلك كانت تتحين الفرص للتخلص منه ، والانجليز كانوا يحتضنون محمد الألفى زعيم الماليك ، وقد وضعوا معه مخططا إبان زيارته لانجلترا ، ليعملوا على وضعه فى مكان القيادة ، وليضمن لهم تيسيرات اقتصادية وسياسية فى البلاد ، والشعب المصرى ممثلا فى شيوخه كان أيضا عقبة فى طريق الالى الجديد الذى يرى فيهم منافسين له فكان ينوى التخلص من سيطرتهم حتى يخلو له الأمر •

وساعدت الظروف محمد على فتخلص من هذه المشكلات واحدة واحدة ، فمن جهة تركيا استطاع أن يصل إلى اتفاق معها ، على أن يدفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف جنيه ، وقد رضيت تركيا بذلك إذ أيد مستشاروها إبقائه فى منصبه ، وأما الماليك فقد ساعده الحظ إذ مات البرديسى سنة ١٨٠٦ والألفى سنة ١٨٠٧ وأعمل محمد على الحيلة أو

الرشوة بالمال أو المناصب مع باقى الممالك حتى سنة ١٨١١ ، فقام بمذبحة القلعة التى أشرنا لها من قبل وسنتحدث عنها بعد قليل ، والتى قضى بها محمد على على ذلك العنصر قضاء مبرما .

حملة فريزر :

أما الانجليز فقد هالهم ميل محمد على تجاه فرنسا ، وكانوا قد أعدوا حملة بقيادة الجنرال فريزر لمؤازرة حليفهم محمد بك الألفى ، ولكن هذا مات قبل وصول الحملة بيد أن الحملة لم تتوقف وسارت تجاه مصر وفى مارس سنة ١٨٠٧ احتلت الاسكندرية بدون مقاومة ، إذ أثر حاكمها التركى « أمين أغا » أن يبيع المدينة برشوة حصل عليها من الانجليز ، واتجهت الحامية الى رشيد فحاصرتها ، ولكن الشعب هب يناضل فى حماس وقوة ، فانتصر على المعتدين وردهم على أعقابهم ، وطلب الانجليز مفاوضة محمد على للجلاء ، وتم جلاؤهم سنة ١٨٠٧ ، وينبغى أن نوضح أن فريزر لقى الهزيمة على يد أبناء الشعب فى رشيد والحمام ، قبل أن يصل محمد على من الصعيد ، ولما وصل محمد على الى الميدان قابله طلب الانجليز بالتفاوض للجلاء ، فآتمه وجنى بذلك نتائج جهود الشعب المكافح .

والتف الشعب المصرى حول محمد على ، ولما اختلف هذا مع عمر مكرم أبعده الى دمياط ، وتلك عقوبة بسيطة جدا اذا قورنت بما انزله عبد الناصر بمخالفيه حتى سن رفاقه الذين قاموا معه بما يسمى « الثورة » (١) .

والحكام من أسرة محمد على هم :

١ — محمد على سنة ١٨٠٥م : تولى عن الحكم ١٨٤٨ وتوفى سنة ١٨٤٩ .

٢ — ابراهيم بن محمد على سنة ١٨٤٨ م ، توفى فى نفس العام .

٣ — عباس الأول (ابن طوسون بن محمد على) سنة ١٨٤٨ م .

(١) اقرأ عن الصراع بين عبد الناصر وزملائه فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

- ٤ — سعيد بن محمد على سنة ١٨٥٤ م •
 - ٥ — اسماعيل (ابن ابراهيم بن محمد على) ١٨٦٣ م (اتخذ لقب خديوى — ثم عزل سنة ١٨٧٩) •
 - ٦ — توفيق بن اسماعيل سنة ١٨٧٩ م •
 - ٧ — عباس (الثانى) اسمى (ابن توفيق) سنة ١٨٩٢ م (عزله انجلترا سنة ١٩١٤ م) •
 - ٨ — حسين كامل بن اسماعيل سنة ١٩١٤ م (اتخذ لقب سلطان سنة توليته) •
 - ٩ — أحمد فؤاد الأول بن اسماعيل سنة ١٩١٧ (اتخذ لقب ملك سنة ١٩٢٢) •
 - ١٠ — فاروق بن فؤاد سنة ١٩٣٦ (عزله الثورة فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢) •
 - ١١ — أحمد فؤاد الثانى (طفل ، ابن فاروق عزله ثورة يوليو وأنهت حكم أسرة محمد على وأعلنت النظام الجمهورى فى ١٨ يوليو سنة ١٩٥٣) •
- وسنورد اهم الأحداث التى جرت فى عهد كل من هؤلاء عند حديثنا عن الفترة التى وُجِدَ فيها ، وسنعمد أكثر الاعتماد على المراجع المحايدة فى هذه الدراسة •

محمد على وبناء الدولة الحديثة

اهتم محمد على اهتماما كبيرا بأن يجعل من مصر دولة حديثة تلحق بركب التقدم الأوروبى الذى كان محمد على على صلة بنهضته ، وفيما يلى أهم معالم هذا الاتجاه مع بيان أبرز ما شاب ذلك من عيوب :

أولاً — الجيش والاسطول

من الواضح أن الحياة فى مصر منذ مطلع عهد محمد على ، كانت تحتاج إلى جيش ، لضمان الاستقلال فى الداخل ، ثم لتحقيق الأطماع التى بدأت فى تصرفات محمد على من يوم الى يوم •

وقد حاول محمد على أن يُحْدِثَ من سلطة الجنود الآرناود « الألبانيين » ولكن هؤلاء حاولوا الفتك به ، ولذلك عمل على تشتيتهم ، ثم وكل للكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) أن ينظم الجيش المصرى تنظيما حديثا .

وسليمان باشا الفرنساوى (١٧٨٨ — ١٨٦٠) أحد الضباط الفرنسيين الذين كانوا ضمن جيش نابليون الذى زحف الى مصر ، وقد بقى بمصر عقب انسحاب الجيش الفرنسى ، وتمصر واعتنق الاسلام ، فألحقه محمد على بالجيش المصرى سنة ١٨١٩ ، وعينه مدربا للمشاة بأسوان ، ثم تدرج فى مناصب الجيش حتى أصبح رئيسا للأركان ، ووكل له محمد على مهمة تكوين جيش مصرى يضارع الجيوش الحديثة وقد اشترك فى أغلب الحملات العسكرية التى شنها محمد على ، وتوفى بالقاهرة ودفن بمصر القديمة .

وكان جيش محمد على فى أوج الأمر من مماليكه ، ومن ممالك آخرين قدمهم أعيان القطر ، ولكن هؤلاء لم يألوا النظام وحاولوا الاعتداء على قائد الجيش ولذلك تخلص منهم فى الحروب السودانية ، وجند بدلا منهم جنودا من السودان ، من أهالى كرفقان وسنار ، ولكن هؤلاء نسم يحققوا آمال محمد على ، ولم تلائمهم الأجواء خارج السودان ، فبدأ محمد يتخذ جنوده من المصريين ، وأثبت هؤلاء كفاءة ممتازة ، فى حمل المسئليات التى نيظت بهم ، وعنهم يقول « كلوت بك » فى تقرير له : إنه حدث فى معركة قونية أن ترك جميع المرضى الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح أسرتهم فى المستشفى قاصدين الى ميدان القتال ليشاركوا اخوانهم شرف الانتصار أو شرف الموت ، وان فتوح الشام وانتصارات حمص وقونية ، أثبتت للأتراك ، سوء المصريين الذاتى عليهم باعتبارهم أفرادا ، كما أثبتت شوكتهم باعتبارهم جموعا تسوقها قواعد خطط القتال وتدبيره .

ومع هذه الكفاءة الممتازة فقد ظل الجنود المصريون يخضعون للقيادات الأجنبية من الأتراك وكان ذلك إجحافاً بهم ، كما كان من الأسباب التي أحدثت الثورة العربية .

وبنى محمد على لهذا الجيش القلاع والحصون كما أدرك أن قوة الجيش المصرى لأبد أن يدعمها أسطول يحمى الشواطئ الطويلة التى تطل عليها مصر ، ومن أجل هذا اتجه الى انشاء أسطول كبير اشترى بعض سفنه من الخارج ، وبنى سفناً أخرى بالداخل ، وقد استلزم ذلك أن ينشئ « دار صناعة » عند بولاق لصناعة الأجزاء التى تتكون منها السفن ، وكانت هذه الأجزاء تنقل بطريق البر إلى السويس ثم تجمّع هناك وتنزل إلى البحر الأحمر ، كما أنشأ « داراً للصناعة البحرية » بالإسكندرية ، وكان رئيس الصناع اسمه « الحاج عمر » وقد أصبحت دار الصناعة المصرية ترسانة تضارع دور الصناعة الكبرى آنذاك وألحق بها مدرسة لتفريج الضباط البحريين ، ورغبة في مزيد من التقدم أرسل بعثات إلى أوروبا لدراسة أحدث العلوم البحرية ، ومن أجل هذا سرعان ما أصبح لبحر أسطول حربي كبير يشمل ثلاثين قطعة ، ويعمل عليه الآلاف من البحارة والضباط والجنود .

وقد استلزم الجيش والأسطول ألواناً من الصناعات ألحقت بالترسانة ومنها أقسام لعمل البوصلات والنظارات وسبك الحديد ، ومادة الطلاء ومخازن الذخيرة والمهمات .

ثانياً — التعليم والنهضة الفكرية

فتحت الحملة الفرنسية العيون تجاه العلم ، واحتاج الجيش الذى أنشأه محمد على إلى ألوان من الثقافات العسكرية والمدنية ، ومن هنا اتجه محمد على إلى انشاء المدارس والجامعات لتفريج المئات من المثقفين لشؤون الحكومة والدواوين وحاجات الجيش ، وبخاصة أن توظيف المتخصصين الأجانب كان يكلف الدولة نفقات ضخمة .

وقد أرسل محمد على سنة ١٨٢٦ أول بعثة مصرية الى فرنسا ، وكانت تتكون من أربعين شابا زيد عددهم فيما بعد ، وكان مسيو « جومار » مديرا لهذه البعثة .

ولما عاد أعضاء البعثات اعتمد عليهم محمد على ، وأحلهم محل الأجناب الذين كانوا يشغلون مناصب كبرى في الدولة ، وقد نجح أعضاء البعثات المصريون في مهمتهم أكبر نجاح ، ولا تزال أسماؤهم تتردد كرواد للفكر والحضارة في البلاد ، ومن أهمهم : رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك .

وأنشأ محمد على بمصر مجموعة من المدارس العليا مثل مدرسة الطب التى أنشأها كلوت بك ، ومدرسة الهندسة ، ومدرسة الصيدلة ، ومدرسة الزراعة ، ومدرسة الآلسن ، والمدارس الحربية المختلفة ، كما أنشأ عددا من المدارس الابتدائية والثانوية ، وقد وجه محمد على عنايته كذلك إلى الأزهر ، فقد وجد فيه معينا يستمد منه حاجاته من الطلاب لتغذية المدارس العالية وليكونوا أعضاء للبعثات .

ومن منشآت محمد على الثقافية المطبعة الأميرية في بولاق ، كما أنه أصدر أول صحيفة يسميها « الوقائع المصرية » باللغة العربية ، واللغة الفرنسية سنة ١٨٢٨ .

ثالثا — ملكية الأرض

كان الاقطاع سائدا في عهد المماليك ، وأحلّه السلطان سليم محله نظام الالتزام ، فلما انتهت نفوذ العثمانيين وعاد النفوذ للمماليك عاد سلطان المماليك على أكثر الأرض الزراعية ، وبجانب ذلك كان شطر من الأراضي موقوفا على المساجد ومعاهد العلم والتكايا ، وكان المشايخ والعلماء يديرون هذه الأوقات ، وبقي جزء ضئيل من الأرض يسير على نظام الالتزام الذى فرضه العثمانيون في أول عهدهم ، وكانت هذه هي

الحال في أول عهد محمد على ، فلما قضى على المماليك حل محلهم في السيطرة على الأرض التي كانت خاضعة لهم ، ثم ألغى الأوقاف وملتزمى الأرض ، وعلى هذا أصبحت كل الأرض الزراعية مملوكة للدولة يستغلها محمد على لحساب الدولة . وأصبحت العلاقة مباشرة بين الحكومة والفلاحين .

واستثناء من هذا النظام حقق محمد على الملكيات الآتية :

— الوسايا : والوسية قطعة أرض كانت تمنح للملتزم نظير قيامه بأعباء الالتزام عندما كان الالتزام موجودا في أول عهد محمد على ، وهذه الأرض غير أرض الالتزام وكانت معفاة من الضرائب ، وقد أبقاها محمد على هبة للذين كانوا ملتزمين .

— الأبعاديات : سميت الأبعاديات بهذا الاسم لأنها استبعدت من مجموع الأراضي المسوغة ، وقد وهب محمد على كثيرا من الأبعاديات لكبار الموظفين ورجال الجيش ، وكانت كذلك معفاة من الضرائب .

— الجفالك والشغالك : وهى الاقطاعات الواسعة التى منحها محمد على لأفراد أسرته وكبار حاشيته ، وكانت أيضا معفاة من الضرائب .

وكانت ضرائب الأرض تتبع خصوبتها ، وكانت الضريبة تتراوح بين أربعة قروش ونصف وتسعة وأربعين قرشا للفدان .

رابعا — الاقتصاد

اصلاحات زراعية مهمة :

في عهد محمد على حدثت مجموعة كبيرة من الإصلاحات الزراعية التى قصد بها تنمية الزراعة ، ومن أهم الإصلاحات التى أنتمها محمد على بناء القناطر الخيرية على رأس الدلتا ، وقد أفادت في تنظيم توزيع المياه على فرعى النيل ، وكان من أغراضها أن تعود بالفائدة على أرض الصعيد .

ومن اصلاحاته كذلك انشاء ترعة « المحمودية » بالبحيرة وقد نسبت الى السلطان محمود ، وترعة المنصورية بالدقهلية كما أنشأ مجموعة أخرى من الترع والجسور والقناطر ، واستلزم انشاء بعض الجسور اقامة مدن ، أصبحت فيما بعد مدنا كبيرة ، ومن هذه مدينة الزقازيق التى أنشئت بمناسبة إنشاء قناطر بحر ميس . وقد زادت رقعة الأرض المسالحة للزراعة زيادة كبيرة بسبب هذه المنشآت .

ومن الاصلاحات الزراعية التى تُنسب الى محمد على أنه أدخل للبلاد حاصلات جديدة كالقطن والدخان وأشجار الزيتون وغيرها .

ولكن الفلاح المصرى لم ينعم بهذه النتائج كما ينبغي وذلك لانتشار الاحتكار الذى يقول عنه المؤرخ عبد الرحمن الرافعى : إن احتكار الحكومة للحاصلات الزراعية عمل ينطوى على الظلم والإرهاق ، وفيه مصادرة لحق الملكية ، وحرمان للمالك من الاستمتاع بحقه ، ومن الانتفاع بتراحم التجار على الشراء ، ذلك التراحم الذى ينجم عنه مضاعفة الثمرة للبائع (١) . وتلك للأسف سياسة اتبعت مضاعفة في عهد الثورة الناصرية .

الصناعة :

وفي مجال الصناعة أدخل محمد على للبلاد مجموعة الصناعات المهمة بالاضافة الى مصانع الأسلحة وذلك مثل مصانع الغزل والنسيج ومصانع سبك الحديد ، ومصانع السكر والورق والصابون والزجاج .

وقد سرى مبدأ الاحتكار من الزراعة الى الصناعة لما كان يدره الاحتكار من الأرباح الطائلة ، وقد شمل الاحتكار كل شئ ، يقول الجبرتى : شمل الاحتكار كل ما يصنع بالمكوك وينسج على نول ، من

(١) تاريخ الحركة القومية ج٣ .

جميع الأصناف ، من ابريسم وحرير وكتان إلى الخيش والحصير ، في سائر الإقليم المصرى طولاً وعرضاً من الاسكندرية ودمياط إلى أقصى بلاد الصعيد (١)

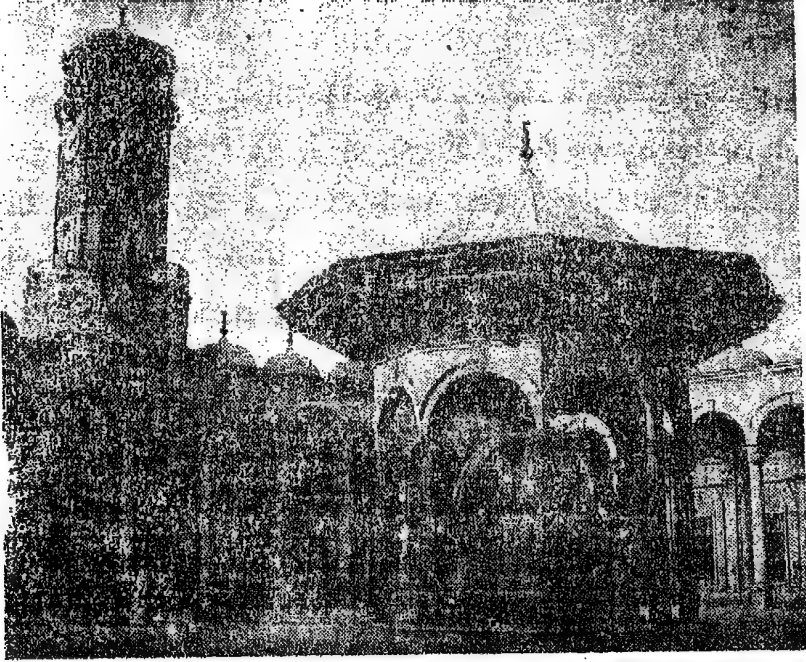
(وقد مرّ الزمن وانتهت أسرة محمد على ، وأوشكت أن تنلوى القرن العشرين ، ومع هذا فالاحتكار الزراعى الذى شكاه منه عبد الرحمن الرافعى يوجد بمصر الآن منذ فرضه جمال عبد الناصر ، والاحتكار الصناعى قائم كذلك فيما يسمى القطاع العام الذى خلقه جمال عبد الناصر ، وجعله يملك أكثر الصناعات أو كلها) •

التجارة :

أما فى مجال التجارة فقد حقق عهد محمد على انتعاشاً واسماً لها وذلك بسبب التطور الذى شهدته الزراعة والصناعة ، وما تحقق من تغطية مطالب الشعب ، ثم ما تحقق من فائض للتصدير ، وقد ساعدت الطرق البرية التى مهدها محمد على من انتعاش التجارة الداخلية ، كما ساعد الأسطول التجارى وإصلاح ميناء الإسكندرية على انتعاش التجارة الخارجية :

المنشآت المعمارية :

ومن أهم منشآت محمد على جامعہ فى القلعة ، وهو تحفة فنية رائعة • وسنعرض فيما يلى بعض صور حديثة لأجزاء منه ، وهى تدل على قدر عظيم من التطور فى مجال هذه المنشآت •



مسجد محمد علي بالقلعة تحفة فنية رائعة



مئذنة مسجد محمد علي بالقاهرة

هروب محمد على

خاض محمد على مجموعة من الحروب قام بها أحيانا ليظهر ولاءه للباب العالي ، وقام بها أحيانا أخرى ضد الباب العالي ، إذ كان ينوى أن يحقق بها طموحا واسعا ، ولكن الظروف كانت أقوى منه ، فحالت دون تحقيق أحلامه كاملة ، وفيما يلي كلمة قصيرة عن أهم هذه الحروب :

مذبحة المماليك سنة ١٨١١ :

ترتبط مذبحة المماليك بحروب نجد التي سنتحدث عنها عقب هذا ، فان محمد على أحس أن من الخطر أن يبعث بجيشه إلى الخارج ، ويترك المماليك يكوّنون سلطة كبيرة بالداخل ، فقد خاف أن ينتهزوا هذه الفرصة ويثوروا عليه ، وكانت شوكة المماليك — كما ذكرنا من قبل — ضعيفة بسبب ما نالهم أيام نابليون وبعده ، ولذلك استقر رأى محمد على أن يقضى عليهم حتى تتحرك جيوشه بالخارج وهو في مأمن من الأحداث والانقلابات ، وقد انتهاز فرصة إعداد الجيش للسفر إلى الجزيرة العربية ، فدعا الأعيان والكبراء ومن بينهم المماليك لتوديع هذا الجيش ، واحتشد الناس في القلعة ورحب بهم محمد على ، ثم بدأت الجموع تتحرك حتى وصل موكب المماليك إلى مضيق تصعب الحركة فيه ، وهنا استدار من سبقوهم واستعد من لحقوهم ومن كانوا كامنين في الجانبين ، وهطل الرصاص من كل جانب ، وعملت السيوف عملها ، ولم ينج منهم أحد تقريبا ، ثم صدرت التعليمات بالقضاء على من تبقى ممن لم يحضر الاحتفال ، وكان ذلك نهاية العهد بالمماليك ، فقد قُتل أكثرهم ونجت قلة ضئيلة انماعت في الشعب فلم يعد لها أثر .

ومثل هذا التصرف حدث كثيرا في التاريخ كنكبة البرامكة في عهد هرون الرشيد . وكحادثة الخندق أو الحفرة في عهد الحكم بن هشام

بالأندلس ويرى مرتكبوها أنهم بها ينفذون الشعب من الصراع
ويتحاشون ثورات خطيرة النتائج .

الحرب مع السعوديين سنة ١٨١١ — ١٨١٨ :

ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية بفكر اصلاحى
رائع (١٦٩٦) وخلاصة مذهبه القضاء على التوسل بالأنبياء والأولياء ،
وهدم مزاراتهم وقبابهم ، ومحاربة التدخين والموسيقى ، وقد تحدثنا عن
حركة التوحيد التى يسميها البعض الحركة الوهابية بكثير من التفصيل
في الجزء السابع من هذه الموسوعة عند الكلام عن تاريخ الجزيرة العربية ،
والذى نريد أن نقوله هنا ، أن هذا الفكر عظم في مطلع القرن التاسع
عشر بمعرفة محمد بن سعود أمير نجد ، فاحتل هذا مكة والمدينة سنة
١٨٠٣ ومنع حجاج مصر والأتراك من الحج لوجود قباب في بلادهم ،
وصار بذلك خطرا على نفوذ الدولة العلية ، فطلب العثمانيون من محمد
على القضاء عليهم ، وانتهم محمد على هذه الفرصة ليعيد صلة مصر بالحجاز ،
ثم ليتخلص من الجنود الألبانيين الذين كانوا يثيرون المتاعب ضده ويتمردون
من حين إلى آخر ، فأعد حملة كبيرة ووضع على رأسها ابنه طوسون ، ولما تمثر
هذا في الانتصار ، خرج محمد على بنفسه فلقق به ، وحقق بعض النصر ثم
عاد ، وعقد طوسون صلحا مع السعوديين ، ثم مات عقب عودته الى
مصر ونقض السعوديون الصلح ، فأرسل محمد على ابنه ابراهيم الذى
استطاع أن يدمر « الدرعية » عاصمة السعوديين سنة ١٨١٨ وجاء اليه
أميرهم عبد الله وسلم نفسه ، فأرسله ابراهيم الى الآستانة حيث أعدم ،
وكانت المروءة تقضى ألا يفعل ذلك (١) .

(١) اقرأ احاديث منفصلة عن هذه الأحداث في الجزء السابع من هذه
الموسوعة .

وعلى كل فقد عادت أفكار محمد بن عبد الوهاب الى الانتعاش ،
ولا تزال سائدة في المملكة العربية السعودية حتى اليوم ، ومنها تنتشر
الى كثير من البقاع •

ومما يذكر أن المذبحين العرب والأجانب كانوا يعتمدون على الجبرتي
في تصوير هذه الحروب وفي ذكر أسبابها ونتائجها ، وكانوا يدينون محمد
على تبعا لرأى الجبرتي ، ولكن عثرت على كتب كتبها مؤرخون سعوديون
هم عثمان بن بشر (١) ومحمد بن عبد الله الأنصاري (٢) والشيخ إبراهيم
بن صالح (٣) وهي تذكر أن السعوديين هم الذين نقضوا العهد وهاجموا
المصريين وحلفاءهم ، وهم يلقون تبعة هذه الحروب على الجانب السعودي •

وفي عهد الملك العظيم عبد العزيز آل سعود قرر الملك فتح بلاد
الحجاز للحجاج وإن وجدت القباب في بلادهم ، ورأى أن تسير دعوة
الإصلاح سلمية ، أحسن الله جزاءه (٤) •

حرب السودان سنة ١٨٢٠ :

ربط النيل بين مصر والسودان برباط مقدس ، وعلى مر التاريخ
حرص حكام مصر من وطنيين أو فاتحين على أن يسيروا مع النيل جنوبا
لاعتقادهم أن حوض النهر يكون وحدة واحدة ذات عناصر مشتركة
اقتصاديا وجغرافيا ، وهناك كذلك عناصر تاريخية بين سكان الوادي شماله
وجنوبه ، جاءت نتيجة للروابط التي نمت بين هؤلاء السكان في عهد
الفراعنة والفرس والرومان والبطالسة والعرب وبخاصة العرب المسلمون ،

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد ص ١٨٢ — ١٨٣ •

(٢) تحفة المستفيد ص ١٤١ •

(٣) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ١٤١ •

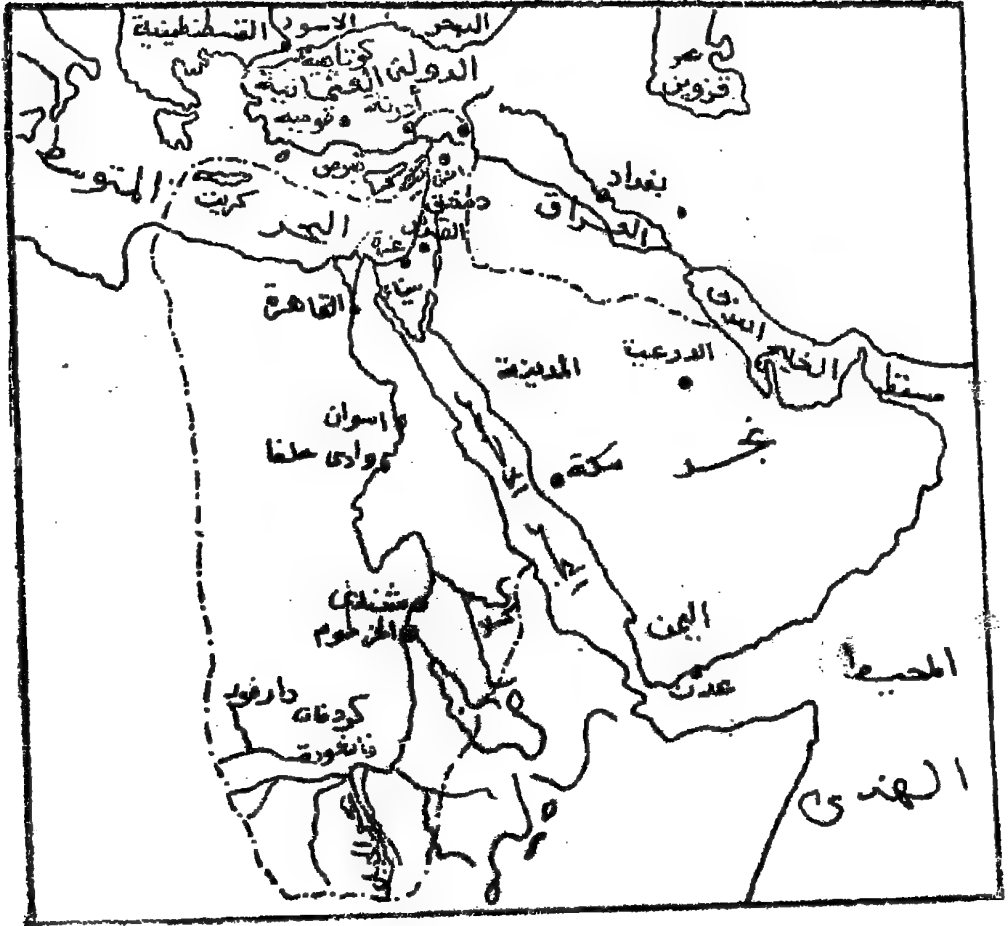
(٤) اقرأ تفاصيل ذلك في الجزء السابع من هذه الموسوعة ص

ولعل هذا كان السبب في زحف محمد على الى السودان ؛ هذا بالاضافة الى رغبته في القضاء على المماليك الذين فروا الى بلاد النوبة ، ورغبته في القضاء على من بقى بجيشه من الجنود الألبانيين كثيرى الشغب وإحلال السودانين في الجيش محلهم ، ومن أطماعه في السودان كذلك البحث عن الذهب لينفذ مشروعاته الواسعة .

وعرض محمد على رأيه على مستشاره العسكري محمد بك لاطوغلى ، وأعدت الحملة برا وبحرا بقيادة اسماعيل بن محمد على وتقدمت الى الجنوب ، وكان مع الحملة مجموعة من علماء الشريعة الإسلامية ليدعوا المسلمين بالسودان الى الوحدة والمواخاة وليدعوا غير المسلمين الى الدخول في دين الله ، وحقق اسماعيل مجموعة من الانتصارات ، ففتح بربر وشندى وسنار ، ثم أرسل محمد على جيشا ثانيا بقيادة ابنه ابراهيم فسار محاذيا للنيل الأبيض ، وسار اسماعيل محاذيا النيل الأزرق ، ثم عاد ابراهيم لمرض أصابه ، وقفل اسماعيل بعده عائدا ، فلما بلغ شندى حصل خلاف بينه وبين نمر ملك شندى فدبر هذا مكيدة أحرق فيها اسماعيل وبعض خاصته في أثناء وليمة أقامها لهم .

واتجه محمد بك الدفتر دار صهر محمد على الى شندى للانتقام من الملك نمر ، وقد استطاع هذا أن يدمر شندى ، ولكن الملك نمر فر منه تجاه الحبشة وأسس الدفتردار مدينة الخرطوم سنة ١٨٢٢ عند ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض .

ومن الواضح أن حملة السودان لم تحقق الكثير من أغراضها ، ولكنها وصلت بين القطرين الشقيقين بهذه الصلة السياسية ، ولم يمعن محمد على في حرب السودان بل توقف عند الخرطوم اذ استدعاه الباب العالي لإخماد ثورة اليونان ، وقد تحدثنا حديثا مستقيضا عن التوسع المصرى في السودان وفي افريقية بالجزء السادس من هذه الموسوعة .



اتساع سلطة محمد علي

حرب اليونان سنة ١٨٢٣ :

كانت تركيا في مطلع القرن التاسع عشر في منتهى الضعف ، وقد تركها موقف السلطان محمود الثانى من القضاء على الإنكشارية بدون جيش تقريبا ، وفي هذا الوقت ثارت اليونان متأثرة بالثورة الفرنسية التى نادى بمبادئ الحرية والمساواة ، ولم يجد الباب العالى وسيلة لإخماد هذه الثورة إلا محمد على .

وفرّح محمد على بهذا الموقف الذى يجعله منقذا ونديًا للباب العالى بعد أن كان تابعا ، وعيّن الباب العالى محمد على واليا على جزيرة إقريطش سنة ١٨٢٣ وأمره بإخماد الثورة هناك ، فسار لها إبراهيم باشا وهزم الثوار ، ثم عينه الباب العالى واليا على بلاد المورة وأمره بإخضاعها ، فسار إليها إبراهيم باشا وأخضعها بعد جهد كبير ، وبعد توضّحات واسعة ولكن روسيا وانجلترا وفرنسا تحركت لمساعدة اليونان وقررت إرسال عمارة بحرية تحت قيادة القائد الانجليزى « كدّر نجتون » وبخلت هذه العمارة خليج « نوارين » حيث كانت ترسو البحرية المصرية التركية ، وحدث بعد ذلك احتكاك بين بعض الزوارق والبعض الآخر فهبت المعركة (أكتوبر سنة ١٨٢٧) وكان القائد الانجليزى يتحين الفرص للقضاء على البحرية المصرية التى بدأت تتخذ مكانها فى البحر المتوسط ، واستمرت المعركة ثلاث ساعات دمرت فيها البحرية المصرية والتركية تماما وقتل عدة آلاف من البحارة المصريين والأتراك ، وكانت خسارة الطرف الآخر قليلة .

ولم يعد لمصر بقاء فى اليونان بعد تدمير الأسطول ، وقد هدد كدّر نجتون بتدمير الإسكندرية اذا لم ينسحب إبراهيم من اليونان ويتعهد برد الأسرى .

وانسحبت مصر من اليونان ووافقت تركيا على استقلال اليونان فى معاهدة أدونة فى سبتمبر سنة ١٨٢٩ ، وخسرت مصر فى حرب اليونان

حوالى ثلاثين ألفا من الجنود ، ونفقات باهظة ، وعمارته البحرية الكبيرة ، ويمكن القول إن مصر لم تريح شيئا .

هروب الشام والأناضول من سنة ١٨٣١ :

كانت خسارة مصر في حرب اليونان فادحة كما رأينا ، وطمع محمد على في تعويض من الباب العالى ، واتجهت أطماعه للشام فطلبها من الباب العالى نظير جزية كبيرة ، ولكن الباب العالى كان يعمل لهدم محمد على وانتقاص سلطانه ، لا لبنائه ومد ملكه ، فرفض ملتمسه .

وراح محمد على يدبر الأمر لينال ما يريد معتمدا على القوة ، واتخذ لذلك عدة أسباب :

— أن حدود مصر الطبيعية من ناحية الشمال هى جبال طوروس الفاصلة بين الأناضول وسوريا .

— أن الاستيلاء على سوريا سيمد النشاط المصرى بطاقة بشرية ، وطاقة اقتصادية تتمثل فى الأخشاب والفحم والنحاس والحديد :

— سوريا كانت كثيرة القلق تحت نير العثمانيين .

— فتح والى عكا بلاده للمهاجرين من مصر ، ولم يستجب لنداء محمد على بردهم .

وبدأت الحملة من البر ومن البحر فى أكتوبر سنة ١٨٣١ فاحتلت غزة وإيافا وهيفا دون مقاومة تذكر ، ثم حاصرت عكا وأسقطتها وسلم قائدها « عبد الله باشا الجزائر » نفسه فى مايو سنة ١٨٣٢ ، ودخل الجيش المصرى دمشق فى يونيو سنة ١٨٣٢ وانتصر المصريون انتصارات حاسمة على الأتراك فى موقعة حمص (٩ يوليين) ودخلوا حلب (٢٦ يوليو) ، وانتصروا فى بيلان (٣٠ يوليو) وتم بذلك فتح الشام ، وسقط آلاف الأتراك قتلًا ، وجرحوا ، وأسرى ، وفقد الأتراك ذخائر هائلة .

وتخطى جيش مصر حدود الشام الى آسيا الصغرى فدحر جيشا كبيرا يقوده الصدر الأعظم رشيد باشا في موقعة قونية (ديسمبر ١٨٣٢)
ووقع الصدر الأعظم أسيرا ، وتوغل الجيش متطاعا الى آسيا الصغرى
والعراق وتركيا الآسيوية •

معاهدة كوتاهية :

وهرعت تركيا تطلب مساعدة روسيا ودول أوروبا فاستجابت هذه
للنداء ، ففى هذه الاستجابة تدمير لتركيا ولحمد على جميعا ، وهو هدف
أوروبا ، وانتهى هذا التدخل بمعاهدة كوتاهية (مايو ١٨٣٣) التى قضت
بضم سوريا وولاية أدنة الى محمد على وبأن يثبت على كريت والحجاز
بالإضافة الى مصر ، على أن يجلو عن الأناضول ، وكان هذا انتصارا لمصر •

بيد أن تركيا بدأت تفتيق من كبوتها ، وعقدت معاهدات مع دول أوروبا
وبخاصة روسيا وانجلترا ، وكانت الأخيرة حريصة على إضعاف قوة محمد
على لأنه فى طريقها الى الهند ، ثم إن ثورات داخلية بدأت تهب ضد
ابراهيم فى سوريا بتأييد تركيا وبزعامة رجال الاقطاع الذين أخذت
اقطاعاتهم أو زيدت عليهم الضرائب ، وقد قضى ابراهيم على أكثر
هذه الثورات بتأييد حليفه بشير الشهابى ، ولا أحس محمد على بأصبع
تركيا فى دفع هذه الثورات بدأ يفكر فى اعلان استقلاله عنها ، بل أعلن
ذلك فى مايو سنة ١٨٣٨ ، وبدأت الحرب من جديد •

موقعة نصيبين واندحار جيش الترك :

وفى موقعة نصيبين (يونيو سنة ١٨٣٩) اندحر جيش الترك ووقع
أكثره بين قتيل وأسير ، ومات بعدها السلطان محمود وتولى بعده السلطان
عبد المجيد وعُين خسرو باشا صدرا أعظم ، فدفع ذلك التغيير فوزى
باشا قائد الأسطول التركى والعدو للدردنيل لخسرو أن يلجأ بالأسطول الى
مصر ويطلبه لحمد على •

تدخل أوروبا ومعاهدة لندن :

وتدخلت أوروبا من جديد واتفقت دول أوروبا في معاهدة لندن (يوليو ١٨٤٠) ، على شروط أهمها أن يردَّ محمد على لتركيا كريت والامكنة المقدسة وأدنة والشام وتبقى مصر وديّة وراثية له ولأسرته ، وأن تكون له عكا والجزء الجنوبي من الشام مدى حياته على أن يدفع جزية للباب العالي ويظل تابعا له ، على أنه إذا لم يقبل ذلك في مدى عشرة أيام ، فقد ولاية الشام وأجبرته دول أوروبا على الانسحاب والقبول .

ورغض محمد على في بادئ الأمر هذه الشروط القاسية فتقدمت إنجلترا لارغامه بالحيلة وبالقوة وقدمت المساعدات للتأثرين ضده ، واحتلت أهم المواقع بالشام وهددت الاسكندرية ، فأكره محمد على على الاستجابة وانسحب من الشام كله ومن جزيرة العرب ، ولم يبق له الا مصر وراثية بضمان الدول ، وفقد الجيش المصرى آلاف الرجال وهو ينسحب من الشام كما فقد كثيرا من المعدات .

نهاية محمد على

كانت السنوات الباقية من عمر محمد على مريرة ، فآثار الحرب وآثار الجهد ، وهبوط النيل ، كل ذلك خيم على الشعب ، بل أثر في أعصاب محمد على فاضطربت صحته واعتزل في أبريل سنة ١٨٤٨ ثم مات في أغسطس سنة ١٨٤٩ .

محمد على في الميزان

لا شك أن محمد على أنقذ مصر مما كانت تعانيه من أهراق فتاكة قبل عهده ، فقد خلصها من فوضى المماليك ومن ظلام العثمانيين ، ووضع بذلك نهاية لقرون مريرة مرت بها مصر خلال هذين المهدين الكالخين .

ودفع محمد على الضوء الى مصر عن طريق البعثات العلمية التي أرسلها الى أوروبا وعن طريق المدارس والمعاهد العليا التي أنشأها بمصر ، وكون محمد على لاصر قوة عسكرية هائلة جعلت العدن والصديق يحسب حسابها ، واهتم محمد على بالزراعة اهتمام عارف خبير ، ولا تزال القناطر انتى أنشأها على النيل خير دليل على جهده .

ويمكننا أن نعرف قَدْرَ محمد على وقدر بعض خلفائه من بعده لو قارنا حالة مصر بعد الحرب العالمية الثانية بحالة سواها من الدول العربية التي ظلت تحت سلطان العثمانيين حتى الحرب العالمية الاولى ، ثم تسلمها الاستعمار الاوربي من العثمانيين حتى تحقق لها الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية ، ويقول المطلعون ان من أسباب المسبق الذي أحرزته مصر هو استقلال محمد على بها عن العثمانيين في عهد مبكر ، وما حققه من انجازات لم يكن لها مقابل في البلاد العربية الأخرى .

ويقول أحد الباحثين : ان محمد على هو مؤسس مصر الحديثة الذي بنى جيشها الوطنى ، وحرر ارادتها من التبعية التركية ، وأنشأ صناعاتها ، وشيّد معاهد العلم والتكنولوجيا فيها ، ونظم زراعتها ورفقائها ، وجعل منها أقوى دولة في الشرق الأوسط ، وبنى كثيرا من جسورها الخضرية مع أوربا (١) .

ذلك هو الجانب المضيء عن محمد على وما أكثر الجوانب المضيئة في حياته ، ولكن هناك جانبا آخر ليس مضيئا فان محمد على بنبشاطه وطموحه ازعج الدنيا حوله ، فتركيا لم تكن ترضى أن يكون لها تابع في مثل قوتها أو أكثر منها قوة ، ودول أوربا لا ترضى أن تستبدل « بالرجل المريض » على ساحل الشام وعلى ضفاف النيل دولة ناهضة فتية ، وكان محمد على يزج بأتباعه الألبانيين في حروب الوهابيين والسودان ليتخلص منهم ،

(١) بحث بمسابقة الاهرام الصادرة في ١٥/٨/١٩٧٥ .

والعجيب أنه لم يفتن الى أن الدولة العلية تعامله بنفس السلاح فتزج به في حرب إثر حرب لتضعف قوته وتدمر نشاطه ، وساعدتها دول أوروبا لتحقيق نفس الهدف ليس فقط في اليونان الأوروبية المسيحية ، بل أيضا في الشمام الآسيوية المسلمة ، ولعل محمد على جهل هذه الحيلة عبس السنين الطويلة ، ونتيجة لذلك لاقى محمد على ولاقت مصر كثيرا من عنت الأعداء .

ونقطة أخرى نثبتها هنا هي أن جيلنا لا يرضى عن موقف محمد على من الحجاز ، ولا عما أنزله بالدرعية من دمار ، ولعل الإحساس العربى آنذاك لم يكن قويا ، يحول دون هذا العدوان الذى نستكره الآن ونستهجنه وللأسف نواجهه حتى اليوم صراعا يدور بين عربى وعربى أو بين مسلم ومسلم .

إبراهيم وعباس

كان إبراهيم جزءا من حياة أبيه ، وقد رأيناه يقود أكثر جيوشه وينفذ خطته ويجنى ثمار انتصاراته وأعباء هزائمه ، ولهذا ليس هناك ما تضيفه عند الحديث عنه ، على أن فترة حكمه كانت قصيرة للغاية وكانت كلها في حياة أبيه ، فقد تولى في أبريل سنة ١٨٤٨ وتوفى في نوفمبر من العام نفسه .

وجاء بعده عباس بن طوسون بن محمد على ، (١٨٤٨ — ١٨٥٤) وتتلخص أعماله في أنه كان يرى أن تقدم الشعب ليس من مصلحة الوالى ، فراح يعمل على العودة بهذا الشعب الى الوراء ، فأغفل المدارس والمصانع وقضى على كل معالم النهضة ، وراح يساعد تركيا في حروبها رجاء أن تغير نظام العرش ليصبح لأكبر أولاد الحاكم بدلا من أكبر أفراد الأسرة ، ولم ينجح في ذلك ، وقد قتل سنة ١٨٥٤ في قصره ، ويقال ان مسألة ولاية العهد كانت السبب في هذا المصير . وبسميت « العباسية » باسمه وكانت من تبارك تسمى « الريدانية » .

(سعيد ١٨٥٤ — ١٨٦٤)

هناك اصلاحات جديدة بالذکر تنسب الى سعيد ، فقد أصدر قانون الاراضى المعروف باللائحة السعيدية فى أغسطس سنة ١٨٥٨ وهى تبیح ملكية الأرض ، وقد أقبل المصريون على شراء الاراضى اقبالا عظيما حتى أصبح بعض المصريين من كبار الملاك ، وأصدر سعيد كذلك قرارا بقبول المصريين فى الوظائف الكبرى ، فأصبح ثلث مآمر المراكز منهم ، وكذلك ثلث معاونين ، ومن أبرز الحكام المصريين الشريعى بك مدير الجيزة وسليمان بك مدير بنى سويف ، وألقى سعيد الاحتكار الزراعى ، وأتم الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة الذى بدأه عباس ، وفى نظام الجيش جنّد أبناء المشايخ والعمد بعد أن كان التجنيد مقصورا على أبناء الفلاحين (١) .

ومن أغلاط سعيد أنه أرسل حملة لمساعدة فرنسا فى حربها بالمكسيك لا لشيء الا لصداقة شخصية بينه وبين نابليون الثالث وأكثر من منح الامتيازات للأجانب ، تلك الامتيازات التى بدأت فى عهد المماليك ومطلع عهد العثمانيين ، وبدأ سعيد فى الاستدانة ، وهو الذى منح امتياز شق قناة السويس بشروط مجحفة لمصر ، وقناة السويس سلاح — كما يقولون — ذو حدين ، فاذا استطاعت مصر حمايتها واستغلالها كانت لمصر خيرا وبركة ، أما اذا كسنت بابا نفتحها للأجانب ونجلب بسببه استثمار مصر والسيطرة عليها لصالح الدول القوية التى تستعمل القناة ، فلا كانت القناة .

وقد أعطت مصر للقناة كل شيء : الأرض ، والمال ، والرجال ، نظير ١٥ ٪ من الأرباح ، ولكن سرعان ما فقدت مصر هذه الأرباح بسبب الديون التى تراكمت عليها ، وهكذا أصبحت القناة عبئا على البلاد ما كانت تستطيع حمله ، وكانت تكاليفها ١٨ مليوناً من الجنيهات دفعت مصر منها حوالى

(١) مذكرات عربى ص ١١ .

١٧ مليوناً ، وكان امتيازها لمدة ٩٩ سنة تنتهى سنة ١٩٦٨ ، ولكن مصر أتمتها فى يوليو سنة ١٩٥٦ ، وقد تسبب عن هذا حرب وصراع (١) .

ومات سعيد فى يناير سنة ١٨٦٣ .

الخديوى اسماعيل

(١٨٦٣ — ١٨٧٩)

يعتبر الخديوى اسماعيل مشكلة أمام المؤرخ النصف ، فللرجل أعمال مجيدة حقاً سنراها مجددة وزاهية فيما بعد ، وله كذلك أخطاء صنعها بنفسه ، أو نسبت له وفرضت عليه فرضاً بسبب الزحف الاستعماري الذي كان عنيفاً آنذاك ، والذي اتخذ افريقية هدفاً له فى وقت كان الخديوى اسماعيل يمدد نفوذه وسلطانه بإفريقية بنجاح عظيم ، فوجد الاستعمار أن القضاء على اسماعيل خطوة ضرورية لتحقيق النصر للقوى الأوروبية الزاحفة ، فرسم الاستعمار الخط ليشوه سمعة الرجل واصطنع قصة الديون ليزعزع أركانه .

وكان السلطان العثماني يخاف أن يتمرد اسماعيل عليه كما تمرد من قبل جدّه محمد على ، فلما ضيق الاستعمار الأوروبي الخناق على اسماعيل اتجه الخديوى الى السلطان العثماني ليقوى به ضد المستعمر المسيحي ، فانتهاز السلطان فرصة ضعف اسماعيل ، وبدل أن يقف معه وقف مع أعدائه وكتب وثيقة عزله التي كان يعمل لها الأوروبيون .

وبعد عهد اسماعيل أشرف أعداؤه على كتابة تاريخه فتنوسيت أعماله المجيدة وأبرزت أخطاؤه ، ولكن الحق لن يموت وسنحاول كتابة تاريخ اسماعيل بكل الدقة والانصاف ما استطعنا لذلك سبيلاً :

(١) عن تأميم قناة السويس ونتائجه اقرا الجزء التاسع مع هذه الموسوعة .

شهادة باحث انجليزى :

فى سنة ١٨٦٩ أى فى عهد اسماعيل زار مصر وليام راسيل وكتب يصف القاهرة بقوله : أنها أكثر تحضرا من القسطنطينية ، وهى غنية بالمنظر الشرقى والتقاليد الاسلامية ، وكان قد تمّ تجفيف مستنقعات الازبكية فى عهد محمد على ، ولكن اسماعيل كانت فى جعبته خطط أكبر ، فقد أصبحت الازبكية فى عهده حديقة رسمية فينانة مليئة بالنوافير والأشجار والمقاهى ، وأقيم فيها ناد للمبارزة يديره فرنسى ، وقامت الفنادق حول مربع الازبكية مثل شبرد والفندق الشرقى الكبير وغيرها من الفنادق الحديثة ، وفتح اليونانيون والاوربيون محلاتهم فى الشوارع المجاورة وملأوها بالمأكولات الاوربية وكافة وسائل الراحة التى يبحث عنها السياح قبل صعودهم فى النيل ، وأقيمت دار للأوبرا كتب « فيردى » خصيصا لافتتاحها أوبرا عايدة ، وهكذا أصبح فى مقدور زوار الشتاء أن يتمتعوا أنفسهم فى القاهرة كما لو كانوا فى الريفيرا .

عهد إسماعيل وقائمة منجزاته

إذا استعرضنا عهد اسماعيل فأننا نواجه قائمة حافلة بجلائل الأعمال ، ويمكننا أن نقسم هذه الأعمال ثلاث مجموعات :

- ١ — توسع وامتداد .
- ٢ — تطور ثقافى واجتماعى .
- ٣ — تطور سياسى وانتقال من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة .

وسنذكر فيما يلى القائمة الخاصة بكل مجموعة ثم ننتج ذلك ببعض الدراسات والتفاصيل عن هذا العهد :

١ - توسع وامتداد

- ١٨٦٦ ضم سواكن ومصوع لولاية مصر •
- ١٨٧١ رفع العلم المصرى على غندوكرو عاصمة مديرية خط الاستواء •
- ١٨٧٢ اعلان شـفول مملكة أونـيورو بالسودان فى أملاك مصر •
- ١٨٧٤ بسط الحماية المصرية على مملكة أوغندا •
- ١٨٧٤ فتح سلطنة دارفور •
- ١٨٧٥ فرمان بضم زيلع وبربرة لولاية مصر •
- ١٨٧٥ فتح هرر •
- ١٨٧٥ حملة مكـيلوب باشا للصومال •

٢ - تطور ثقافى واجتماعى

- ١٨٦٣ تشكيل ديوان المدارس وانشاء المدارس التجهيزية والابتدائية بالقاهرة والاسكندرية ، واصدار أول لائحة للتعليم فى مصر •
- ١٨٦٣ انشاء خمس مدارس بالسودان •
- ١٨٦٣ افتتاح دار الآثار المصرية •
- ١٨٦٥ انشاء مدرسة أركان حرب •
- ١٨٦٥ احياء جريدة الوقائع المصرية وظهور الجريدة العسكرية المصرية •
- ١٨٦٥ انشاء مدرسة المهندسخانة •
- ١٨٦٥ ضم نظام البريد الى الحكومة •
- ١٨٦٦ انشاء مدرسة الطب البيطرى •
- ١٨٦٧ نظام الاصلاح القضائى •
- ١٨٦٧ انشاء مدرسة الادارة والقانون (الحقوق) •
- ١٨٦٧ وقف جفلق الوادى لنشر التعليم •

- ١٨٦٨ • افتتاح مدرسة العمليات ببولاق والمدرسة البحرية بالاسكندرية •
- ١٨٦٨ • انشاء مدرسة المساحة والمحاسبة •
- ١٨٦٩ • تكليف صموئيل بيكر بمقاومة النخاسة في السودان وإبرام معاهدة مع انجلترا في هذا الشأن بعد ذلك •
- ١٨٦٩ • انشاء المدرسة المصرية ببافيس •
- ١٨٦٩ • » دار الأوبرا المصرية •
- ١٨٦٩ • » مدرسة اللسان القديم « اللغة الهيروغليفيه » •
- ١٨٦٩ • » دار الآثار العربية •
- ١٨٧٠ • » دار الكتب •
- ١٨٧٠ • الأمر بجعل اللغة العربية اللغة الرسمية بالدواوين •
- ١٨٧١ • انشاء مدرج المحاضرات العامة بدرب الجمايز •
- ١٨٧٢ • » مدرسة دار العلوم •
- ١٨٧٣ • انشاء مدرسة السيوفية ثم مدرسة القربية للبنات •
- ١٨٧٤ • قانون داخلية المدارس المصرية ولائحة دار المعلمين •
- ١٨٧٥ • افتتاح مدرسة العميان والخرس •
- ١٨٧٥ • تأسيس الجمعية الجغرافية •
- ١٨٧٨ • انشاء مدرسة الألسن •

٣ — تطور سياسى وانتقال من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة

- ١٨٦٦ • انشاء مجلس شورى النواب وصُدور لائحته وافتتاحه •
- ١٨٧٨ • انشاء مجلس النظار •
- ١٨٧٩ • توسيع اختصاصات مجلس شورى النواب •
- ظهور الصحافة وتطورها ، وظهور الرأى العام وتهيئة •

والآن نتجه الى دراسة فيها شيء من التفصيل عما حققه عهد اسماعيل لمصر ، وبعد ذلك نتدارس عيوب اسماعيل وما ارتبط بها من غفلة واهمال لنستطيع أن يكون حكمنا منصفاً أو أقرب الى الانصاف :

شخصية مصر الدولية :

كان عهد الولاة العثمانيين عهد تخلف واضطراب وظلم ، وكان والى — كما وصفناه من قبل — لا يهتم الا بالاستيلاء على ما تصل اليه يده من الأموال ليستعيد ما دفعه من رشاوى وليجعل حظه من الثراء عظيماً قبل أن يبتعد عن الحكم وعن البلاد ، وابتداء من عهد محمد على تخلصت مصر من هذا البلاء ، فلم يعد ولاية مصر يجلبون لها من الخارج ، ويدفعون الرشا لينالوا الولاية ، بل استقر الحكم لحمد على وأولاده ، صحيح أن محمد على ينحدر من أرض غير مصرية ، ولكنه لم يعد له وطن غير مصر ، وارتبط مجده بأمجاد مصر ، حتى أن مَنْ كان من هذه الأسرة يموت خارج البلاد كانت وصيته تحوى في أهم بنودها أن يوارى جثمانه في تراب مصر ، وصحيح أن آخر ملوكهم هرب الى بنوك أوروبا كثيراً من الأموال ، ولكن كثيرين من الذين تولوا السلطة بعد هذه الأسرة ارتكبوا نفس الخيانة .

وعلى كل حال فقد ضمنت العهود والمواثيق التى أشرنا لها عند الحديث عن محمد على أن تكون مصر له ولأولاده من بعده ، ولم ينل محمد على هذه الخطوة الا بحد السيف بعد أن أوقع الهزائم المتكررة بجيوش العثمانيين ، وبعد أن استولى على أسطولهم ووقف على أبواب عاصمتهم ، وكان معنى هذا أنه يقف منهم موقف الند للند ، وليس تابعا كما كان غيره من الولاة .

وبناء على ذلك ظهرت شخصية مصر وأصبح لها كيان يكاد يكون مستقلاً . ولم تعد تربطها بالعثمانيين الا روابط هزيلة لا تهز الاستقلال ولا تتال منه .

وفي عهد اسماعيل حصلت مصر على مزيد من النفوذ الذي قوَّى مركزها الدولي وأثبت لها كيانا أقرب الى الاستقلال عن العثمانيين ، فقد حصل على فرمان سنة ١٨٦٦ يجعل وراثته العرش لأكبر أبنائه من بعده ثم لأكبر أبناء هذا الابن وهكذا بدلا من أكبر أبناء أسرة محمد على كما كان ينصُّ فرمان سنة ١٨٤١ وقد ضمن هذا مزيدا من الاستقرار من جانب كما حدد من يتول له السلطان من جانب آخر دون تدخل السلطان العثماني .

وفي سنة ١٨٦٧ حصل اسماعيل على فرمان يخوِّله هو وخلفاؤه لقب خديوى بدلا من الوالى أو الباشا مع رفعه الى مرتبة المصدر الأعظم العثماني ، وبموجب هذا فرمان أصبح للخديوى الاستقلال فى الادارة والتشريع والشئون المالية ، ومنح الحق فى عقد الاتفاقات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب فى داخل البلاد وشئون الضبط للجاليات الأجنبية .

وفي سنة ١٨٧٣ استصدر الخديوى « فرمان الكبير » الذى جمع المزايا التى حصلت عليها مصر فى فرمانات السابقة منذ عهد محمد على ، وقد نص فى هذا فرمان على حق مصر فى عقد المعاهدات التجارية ، وحققها فى زيادة الجيش الى أى عدد ، وبناء السفن الحربية (١) .

وهكذا نجد أن اسماعيل عمل على تحقيق غرضين كبيرين .

أولهما : تحرير مصر من الأغلال التى كان ينوء بها استقلال البلاد ، ولم يكتف اسماعيل بما حققه فى مجال الاستقلال عن تركيا ، بل أعاد النظر فى الامتيازات التى كان سعيد قد منحها لشركة قناة السويس ، كما خلص مصر من مساوئ التشريع القنصرى ، وفاوضت مصر دول العالم مباشرة دون وساطة تركيا .

(١) من بحث للدكتور محمد حامد فهمى نشر فى كتاب عن « اسماعيل » .

ثانيهما : رفع اسم مصر بين الدول ، باشتراكها في كثير من وجوه النشاط الدولي ، كالاتشارك في حركة تحرير الرقيق ، وإقامة قسم خاص بمصر في معرض عالمي عقد بباريس سنة ١٨٦٧ ، واشتراك مصر سنة ١٨٧٤ مع الدول المؤسسة لمؤتمر البريد الدولي وعددها ٢٢ دولة (١) .

توسع وامتداد :

يقولون عن اسماعيل انه أراد أن يجعل مصر قطعة من أوروبا وهذا صحيح ، ولكن اسماعيل لم ينس قط أن مصر جزء من إفريقية ، ومن هنا اتجه اسماعيل في فتوحاته الى افريقية وامتد في هذا المجال امتدادا واسعا فحقق الحلم الذي كان يراود جده « محمد علي » وتقدم بفتوحاته بوادي النيل حتى ضم منابعه العليا وارتفعت رايات مصر على كل بقعة في شاطئيه .

ومما يروى عن اسماعيل أنه وضع أخشاب السفن بعد اعدادها على ظهور الإبل ، وسارت الإبل بها حتى تخطت منطقة الشلالات ثم تم تركيب السفن لتسير في النيل سنة ١٨٦٩ وبذلك فتح غندوكرو سنة ١٨٧١ وسُميت الإسماعيلية ورفعت عليها الراية المصرية .

وتقدم الجيش المصري الى « ما سندي » فعاهده ملكها « كابريقة » على اطاعة أمير مصر ، ثم نقض عهده وحارب الحامية المصرية فهزمته وأقامت على عرشه منافسه « ريونجا » فبقى هذا على عهد الطاعة بقية حياته .

وبلغت أنباء الفتح ملك أوغنده فأرسل الوفود بالهدايا الى قائد جيش مصر ، معلنا ولاءه لصاحب الأريكة المصرية ، معترفا بسلطانه من مجرى النيل الى الشاطئ الشرقي من إفريقية .

(١) من بحث للاستاذ محمد رفعت عن مكانة مصر الدولية بالكتساب السابق .

وفي أثناء ذلك كانت الحملات المصرية تتقدم في إقليم البحيرات فأطلقت على إحداها اسم « بحيرة إبراهيم » ونزلت بسفينة بخارية في بحيرة « البروت » رُكبت هناك بعد أن حُملت أجزاؤها من الخرطوم فكانت أول سفينة شهدها الناس في أواسط القارة الإفريقية ، وكان للعلم المصري الذي ع على ساريتها شأن عظيم مقترن في نفوس الأهليين بشأن البلاد التي تصنع هذه الأعاجيب .

وقد أعلنت وزارة الحربية المصرية دول أوروبا ضم إقليم البحيرات الى مصر ، ونشرت النبا في الوقائع المصرية سنة ١٨٧٦ .

وكانت سلطنة دارفور من البلاد التي تذكر في فرمانات التولية التي تصدر من سلطان الدولة العثمانية الى ولاية الديار المصرية ، ولكنها كانت في الواقع بمعزل عن مصر وعن تركيا معا في الادارة والشئون العسكرية ، ففتحها اسماعيل باشا أيوب بمعاونة الزبير باشا أواخر سنة ١٨٧٤ .

وفي الوقت الذي كانت حملات اسماعيل توالى الكشف والارتياح بإقليم البحيرات كانت عينه لا تغفل عن التخوم الشرقية بين مجرى النيل والبحر الأحمر ، فاستأجر سواكن ومصوع وزيلع وبربرة من الدولة العثمانية ثم تملك هذه البقاع ، وأرسل الى هرر سنة ١٨٧٥ حملة بقيادة محمد رعوف باشا تمكنت من فتحها بغير كبير عناء .

وسير في تلك السنة حملة بحرية قوية لإتمام فتح الصومال فتقدمت فيه تقدما سريعا ، ثم عاقها عن المضي في فتحه الى النهاية قيام مشكلة سياسية بين الخديوي وبريطانيا حول مناطق النفوذ على المحيط الهندي ، فاكتفى بما وصل اليه ، وتفاهم الفريقان على الاعتراف بنفوذ مصر في شمالي الصومال .

(١) سطور من مقال للاستاذ عباس محمود العقاد بالكتاب السابق .

وقد تشرد عصر اسماعيل في التاريخ القديم والحديث بمزية لا يضارعه فيها عهد من العهود منذ قيام الدولة المصرية على أيدي الفراعنة الى اليوم ، فقد مضت على قيام هذه الدول المصرية آلاف السنين ، فلم يتوحد مجرى النيل قط خلال تلك الاحقاب الطوال في ظل راية واحدة الا في عهد واحد هو عهد اسماعيل ، وكفى بذلك تنبيها باهرا يذكر لصاحبه المجيد في صحائف الفتوح (١) .

وقد ادخلت مصر في هذه البقاع ألوانا من العمران والمدنية ، حتى كان الزحف المصري يرصف بأنه زحف النور والحضارة على تلك البقاع ، فقد فتحت مصر المدارس والمستشفيات ، ومهدت الطرق ونظمت التجارة ونشرت الأمن والقوانين وقضت على تجارة الرقيق ، وانطلق علماء الأزهر الذين كانوا يرافقين الحملات يدعون للإسلام وينشرون مبادئه وأخلاقه ، حتى كان اقبال الناس على التبعية لمصر شرفا وكسرا لحائط الجمود بين المدنية والتخلف .

وسنرى فيما بعد أثر هذه الانتصارات في اثاره أوروبا ضد اسماعيل وضد مصر .

خيانة أمريكية لمصر :

وقد نزلت بمصر هزيمة وحيدة في افريقية ، ولم تكن هذه الهزيمة بسبب ضعف وانما بسبب خيانة ، ففي أثناء الحرب بين الأتراك ومصر سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ ارتكب أركان الحرب الأمريكيون الذين كانوا موظفين في الجيش المصري خيانة عظيمة وبخاصة الجنرال (لورنج) ، الذي وضع اسماعيل ثقته فيه ، ولكنه كان ينقل أسرار الجيش المصري الى الأتراك بواسطة أحد المبشرين الفرنسيين ، وعندما بدأت المعركة ، أعلن خيانتته هو ومن معه من الضباط الأجانب ، فأخلوا الطريق للعدو ، ومنعوا الجنود

(١) من مقال للاستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهوري في الكتاب السابق .

المصريين من أداء واجبهم ، وتقهقر هؤلاء والمعركة تدور ، وكان الخونة يلبسون شارة اتفق عليها حتى لا يمسهم الأحباش بسوء ، وقد ذكر الزعيم أحمد عرابي ألوانا من المخازى والخيانات عن هذا الموضوع بكثير من التفصيل (١) •

تطور ثقافى واجتماعى واصلاحات داخلية :

شهدت مصر فى عهد اسماعيل تطورا عظيما فى مختلف الشئون بالداخل واتجهت يد الاصلاحات الى شتى المرافق ، وقد أوجز القنصل الأمريكى فارمن فى تقريره الرسمى المؤرخ فى ٢٧ يونيو ١٨٧٨ أعمال اسماعيل ونتائجها بقوله : « ومهما يكثر القول ضد اسماعيل يبق شىء واحد لا جدال فيه هو أن مصر تقدمت فى أعوام حكمه الستة عشرة فى جميع نواحي المدنية الحديثة أكثر مما تقدمت فى مئات السنين التى سبقت حكمه ، ومصر مدينة بهذا التقدم كله تقريبا لاسماعيل » •

وستنورد فيما يلى موجزا سريعا لما تحقق لمصر فى ذلك العهد من منجزات ثقافية واجتماعية معتمدين على الحقائق الملموسة وعلى الأرقام ، حتى نظل فى نطاق الإنصاف والدقة •

إلغاء السخرة :

وأول ما نذكره أن اسماعيل عنى عناية كبيرة بالمصريين ، فقرر إلغاء السخرة التى كان سعيد قد التزم بها ، اذ كان هذا قد التزم فى عقده مع شركة قناة السويس بتقديم أعداد وفيرة من المصريين ليعملوا بطريق السخرة فى أعمال الحفر ، ولكن اسماعيل توقف عن تنفيذ هذا المنكر ، وشب خلاف بين اسماعيل وبين الشركة من أجل هذا الموضوع ، وانتهى هذا الاختلاف بالاحتكام الى نابليون الثالث امبراطور فرنسا

الذى حكم بأن تدفع مصر لشركة القناة ثلاثة ملايين ومائة وستين ألفاً من الجنيهات ليعفى المصريون من هذه السخرة ، ودفعها اسماعيل •

نصف الحكام من المصريين :

ومن عناية اسماعيل بالمصريين أنه جعل نصف الحكام منهم ، بعد أن كان المصريون لا يشغلون إلا ثلث المناصب في عهد سعيد كما ذكرنا من قبل ، وعندما ظهر مجلس النظار في عهد اسماعيل كان أكثر النظار من المصريين •

المدارس والمعاهد والكلليات :

فإذا جئنا الى التعليم وجدنا أن اسماعيل أعطى التعليم جهداً واسماً ، وأنفق عليه بسخاء ، وقد عثى عناية كبيرة بالتعليم في مختلف مراحله ، ونالت البنات عناية واسعة من اسماعيل ، فأنشأ لها مدرسة السيوفية ومدرسة القربية اللتين اندمجتا فيما بعد في المدرسة السننية •

ومما ينسب الى اسماعيل أنه أعاد ديوان المدارس الذى يعتبر نواة لوزارة التربية والتعليم ، وأصدر لائحة التعليم الابتدائى في المدن والقرى فقد أنشئ في عهد اسماعيل ٤٨١٧ مدرسة وكان عدد المدارس قبله ١٨٥ فقط وربط بين الكتاتيب وبين المدارس الابتدائية وأكثر من المدارس التجهيزية والفنية والعالية ، فأقام بذلك نظاماً قومياً للتعليم المصرى •

وكان نشاط اسماعيل في التعليم الفنى والعالى نشاطاً مزدوجاً ، أعاد من جانب المدارس العالية والفنية التى كان محمد على قد أنشأها ثم أهملت من بعده مثل : مدرسة الطب ، ومدرسة المهندسخانة ، ومدرسة العمليات ، وأنشأ من جانب آخر طائفة جديدة من المدارس العالية

كمدرسة الإدارة التي أصبحت فيما بعد مدرسة الحقوق ، ومدرسة
الأسن التي تحولت الى مدرسة المعلمين العليا ، ودار العلوم وسنتكلم
عنها فيما بعد ، هذا بالإضافة الى مدارس حربية وبحرية كثيرة •

وعنى اسماعيل بالبعوث ، فاختار مجموعة من الشبان أوفدهم الى
فرنسا وانجلترا وإيطاليا وغيرها لدراسة الطب والهندسة والقانون والفنون
الجميلة ، وبلغ عدد أعضاء البعث في عهده مائتى شخص • كما نال
الأزهر عناية اسماعيل واهتمامه •

المخطوطات والفنون :

وعنى اسماعيل بجمع المخطوطات النفيسة من منازل العلماء ، ومن
المساجد والأضرحة ، وأنشأ لذلك دار الكتب التي أودعها هذه المخطوطات
كما أودعها عشرات الآلاف من الكتب فى الفنون والعلوم المختلفة •

وعنى اسماعيل بالآثار المصرية ، وأنشأ لذلك : دار الآثار وأمر
بتشييد دار الأوبرا ، واستخدم فى تجميلها عدداً كبيراً من المصورين
والفنانين والرسامين (١) •

وقبل أن نترك نشاط اسماعيل فى مجال التعليم الى سواء من
المجالات الأخرى ينبغى أن نتكلم كلمة عن إحدى منشآت اسماعيل
العملاقة ، عن « دار العلوم » •

دار العلوم :

أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ٣٩٥ هـ بمصر بعد أن قضى
الصراع ببغداد على بيت الحكمة الذى أنشأه هرون الرشيد أو ابنه
المأمون ، وجمع الحاكم فى دار الحكمة خيرة العلماء من جميع المجالات
للبحث والدراسة والتأليف ، وكان إنشاؤها بجانب الأزهر الذى كان آنذاك

(١) من مقال للأستاذ الدكتور عبد الرازق السنهورى فى الكتاب السابق •

منهمكا في الدراسة المذهبية الشيعية لتكون دار الحكمة منطلقة من قيود الاتجاهات المذهبية .

ويبدو لي أن التاريخ أعاد نفسه بصورة أخرى ، ففي عهد اسماعيل كان الأزهر مثقلا بالقديم متمسكا بالحواشي والألفاظ على ما شرحنا في مكان آخر (١) ، فأنشأ على مبارك « دار العلوم » لتدرس بها الدراسات المختلفة منطلقة من كل قيد ، واستعار لها كلمة « دار » من « دار الحكمة » تجديداً لماضي هذه الدار التي كانت جزءا من نهضة مصر الثقافية .

وكانت مصر تابعة — ولو من الناحية الاسمية — لتركيا خلال عهد الخديوى اسماعيل ، وكانت جامعة الأستانة تسمى « دار الفنون » ومن ثم سميت كثير من المنشآت العلمية والفنية في عهد اسماعيل بدار فظهرت دار العلوم ودار الكتب ودار الآثار العربية ودار الأوبرا وكان المضاف اليه يحدد طبيعة المؤسسة ؛ فدار الكتب مخصصة للكتب ، ودار الآثار مخصصة للآثار وهكذا ، وكانت دار العلوم مخصصة للدراسات العلمية والشرعية والعربية ، فقد كان يدرس بها الحساب والهندسة والكيمياء والطبيعة والعلوم الإسلامية من فقه وتاريخ وحضارة وفلسفة ، والعلوم العربية من نحو وصرف وأدب ، فلا عجب أن سميت « دار العلوم » .

هل كانت هذه التسمية استمرار لدار الحكمة ؟ أو تقليداً واقتباساً من « دار الفنون » بالأستانة ؟ أو كانت جمعاً بين الاثنين ؟ قد يكون هذا أو ذاك .

وارتبطت « دار العلوم » في أول مراحلها بدار الكتب التي أشرنا إليها من قبل ، ففي نفس البناء بجوار الكتب والمخطوطات خصصت قاعة

(١) انظر نصل « دراستي في الأزهر » بكتابي « المجتمع الاسلامي » .

للمحاضرات في الأدب واللغة والهندسة وغيرها ، وكان يقوم بإلقاء هذه المحاضرات كبار الأساتذة المصريين والأجانب في العلوم الإسلامية والعربية وفي الهندسة وعلوم الطبيعة والكيمياء ، ومن هؤلاء الشيخ حسين المرصفي للأدب ، والشيخ عبد الرحمن البجراوى للفقه ، واسماعيل الفلكي للفلك ، ومن الأساتذة الأجانب هنرى بروكاش للتاريخ العام ، وثرانس باشا للهندسة ، ومسيو بكتيت للطبيعة ، وكانت هذه المحاضرات تلقى لكبار رجال وزارة المعارف ، وكبار الموظفين في السكك الحديدية والمساحة وبعض المتفوقين من طلاب الأزهر والمدارس العليا (١) .

وقد أثبتت هذه المحاولة نجاحاً ملحوظاً ، وهذا شجع على مبارك باشا أن يجعل هذه الدراسة مستقلة عن دار الكتب ، فاستصدر مرسوماً في يونيو سنة ١٨٧١ بإنشاء مدرسة « دار العلوم » واختير للتدريس بها كبار الأساتذة في الدراسات الإسلامية والعربية وعلوم الطبيعة والكيمياء والهندسة والحساب ، وأصبح المتخرجون منها يعلمون هذه المواد في مدارس الدولة .

دار العلوم والاحتلال البريطاني :

هناك وثيقة خطيرة يتحتم علينا أن نشير إليها هنا ، وهي تبين رأى الاحتلال في هذه الدار ، ولهذه الوثيقة قصة نبدأها من أولها :

عقب الاحتلال البريطاني كان هناك مستشار انجليزي بكل وزارة من الوزارات ، وكانت السلطة الحقيقية مركزة في يد هؤلاء المستشارين ، وكان على كل مستشار أن يقدم للمعتد البريطاني تقريراً موجزاً عن الأمور المهمة في الوزارة التي يعمل بها ، وكان هؤلاء المستشارون يتبادلون هذه التقارير لتوحيد سياسة الاستعمار في كل الوزارات ، وكانت هذه

(١) انظر تقويم دار العلوم الذي وضعه المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد .

التقارير سرية للغاية ، لأن هدفها خدمة الاستعمار مهما كان أثر ذلك على البلاد والسكان •

ولننتقل الآن الى نقطة أخرى في طريقنا لهذه الوثيقة فقد كان مدير مكتبة وزارة المالية صهرا للأستاذ الدكتور مهدي ، وحدث أن زار الدكتور مهدي علام صهره بالمكتبة ، ومن الطبيعي أن حب الاستطلاع دفع الدكتور مهدي للتعرف على بعض ما في المكتبة من كتب ووثائق ، فراح يطلع هنا ويقرأ هناك •

ويبدو أن مستشار وزارة المالية أخلى منصبه فجأة ، فنسى — وهو يجمع أوراقه — تقرير دنلوب المستشار الانجليزي لوزارة التربية والتعليم الى كرومر ممثل بريطانيا أو المعتمد البريطاني وكان تقرير دنلوب عن التعليم في مصر ، ووقع هذا التقرير في يد الدكتور مهدي علام فرأى فيه حديثاً عن دار العلوم ، فأغراه هذا أن يقرأه بدقة ، لأن الدكتور مهدي ابن بار من أبناء دار العلوم ويهمه أن يعرف رأى الانجليز السري في هذه الدار •

وخلاصة هذا التقرير التي وعاما ذهن الأستاذ الدكتور مهدي علام وحفظها من طول ما رواها هي :

إن من أخطر الامكنة على الاحتلال البريطاني في مصر مدرسة « دار العلوم » لأن طلبتها يقومون بتدريس جميع المواد في مدارس الدولة ما عدا اللغة الانجليزية ، وهم يتصلون بشباب الأمة ، ولهم عليهم تأثير واسع عن طريق الثقافة الدينية والمدنية ، فهم بهذا أشبه ببؤرة نار متقدة ضد الاحتلال ، وينبغي التخلص من هذه الدار بأي طريق من الطرق •

ويربط الأستاذ الدكتور مهدي علام ومعاصروه بين هذه الوثيقة وبين ألوان العناء التي شهدوها في هذه الدار وهم طلاب بها •

فيبدو أن قفل الدار لم يكن عملاً سهلاً ، وأن الاحتلال كان يتحاشى المواجهة الصريحة ، ومن أجل هذا اتجه الاحتلال الى محاربة هذه الدار بطرق أخرى حتى يقضى على نفوذها أو يجعله قليلاً للغاية ، وكان من آثار هذا الاتجاه ما يلي :

١ — لم يكن يجوز للطلاب أن يرسب في دار العلوم ، فاذا رسب فُصِّل ، ويجوز له أن يتقدم من الخارج مرة واحدة ، وطبيعى أن هذا أخاف الطلاب فتحاشى الكثيرون الالتحاق بها .

٣ — كانت الدراسة تبدأ في يناير وتنتهى في ديسمبر ، وكان يُقصد بهذا إبعاد طلاب هذه الدار عن الجماهير ، ويقصد به كذلك مضايقتهم حتى لا يقبل الآخرون على الالتحاق بها .

٣ — كان مرتب المتخرج في دار العلوم ثمانية جنيهاً ، ومرتب المتخرجين في المدارس المناظرة لها اثني عشر جنيهاً .



ويتضح من هذه الوثيقة مقدار العناية الذى احتملته هذه الدار في عهد الاحتلال .

وعانت دار العلوم ألواناً أخرى من الصراع بينها وبين الأزهر وبينها وبين أقسام اللغة العربية بكليات الآداب ، ولكنها خرجت من هذه المعارك سليمة وهى تحمل الرسام الذى أضفاه عليها الإمام محمد عبده عندما قال قولته الشهيرة :

« تموت اللغة العربية في كل مكان وتحيا في دار العلوم » .

ودار العلوم منذ سنة ١٩٤٦ كلية من كليات جامعة القاهرة ويتزايد طلابها وطلباتها بشكل ملحوظ ، والإقبال عليها واضح من كل الدول العربية والإسلامية فيأتى بها عدد كبير من هذه الدول ، ويقوم المتخرجون

فيها والمتخرجات بتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كل مكان بالعالم العربي والإسلامي والغربي ، ولأستاذتها دور كبير في خدمة الدراسات العربية والإسلامية ، بما نشره من كتب في كل مجال ، وبمحاضراتهم العامة والخاصة بمصر وبربوع العالم وجامعاته ، وبمقالاتهم التي تغمر مجلات العالم وصحافته في مختلف الدراسات الإسلامية والعربية ، وبما يذيعونه على الناس في أجهزة الراديو والتلفزيون .

وهناك كلمة أخيرة حول تسمية هذه الكلية ، فإنها حين انضمت للجامعة اتجهت بعض الأنظار للتخلص من الاسم القديم حتى لا تتعدد الإضافات ، وحتى تكون تسميتها الجديدة مطابقة لما يدرس بها من مواد ، فاقترح لها اسم « كلية الدراسات الإسلامية والعربية » أو نحو ذلك ، ولكن أكثر المفكرين تمسكوا باسمها القديم ، فقد رأوا فيه تراثاً ينبغي الحفاظ عليه ، وقد أصبح له مدلول في العالم كله هو رعاية الدراسات الإسلامية والعربية تراثاً وتطويراً ، وقد أطلق اسم « دار العلوم » على ١٤ معهداً من معاهد العالم تقوم بهذه المهمة في نيجيريا والهند وماليزيا وغيرها من الدول ، واستلزم ذلك أن تحافظ « دار العلوم » على اسمها ، وأن تسبق هذه التسمية بكلمة « كلية » التي تسبق أسماء كل كليات الجامعة .

خريجو دار العلوم في مختلف المناصب :

بقي أن نقول إن الإحصائية الرسمية التي صدرت سنة ١٩١١ في كتاب « التعليم في مصر » توضح أن المتخرجين في دار العلوم منذ عهد المبكر كانوا يشغلون مناصب متعددة في « نظارة المعارف » كما كانوا قضاة ومستشارين ورؤساء محاكم في « نظارة الحقانية » واشتغل بعضهم بنظارة الخارجية ونظارة الداخلية والخاصة الخديوية ، وبعضهم اشتغل معلماً بجامعة كمبردج واكسفورد بانجلترا واشتغل بعضهم بالمحاماة والأعمال الحرة ولا يزال المتخرجون في دار العلوم يعملون في مختلف

الأعمال وبخاصة في الاذاعة والتليفزيون والصحافة بجانب مناصب وزارة التربية والتعليم •

والباخرة تسير باسم الله مجراها ومرساها •



اصلاحات اسماعيل القضائية :

وينسب الى اسماعيل حركة الإصلاح القضائي التي أزلت المحاكم القنصلية وقللت من مطالب الامتيازات الأجنبية ، وكان هذا الإصلاح خطوة في سبيل انشاء المحاكم الأهلية ، والقضاء على الامتيازات نهائياً •

أعماله الهندسية والزراعية :

أما الأعمال الهندسية التي تنسب الى اسماعيل ، فهي جديرة بالتقدير والإعجاب ، فقد حفر اسماعيل شبكة من الترع عددها ١١٢ ترعة ، وبلغ طول هذه الترع ١٣٠٠٠ ك ٠ م ، وأعظم الترع ترعة الابراهيمية وهي من أعظم الترع في العالم كله ، ويبلغ طولها ٢٦٨ كيلو متراً ، ومتوسط عرضها ١١٤ متراً وهي تبدأ من أسيوط وتنتهي عند أشمنت بمديرية بنى سويف ، فهي تغذى المحافظات الثلاث أسيوط والمنيا وبنى سويف ويفضلها تحويل نظام الري في هذه المحافظات من ري الحياض الى الري الصيفى ، وتبلغ مساحة الأرض التي انتفعت بهذه التربة ٨٥٠٠٠٠ فدان وهناك ترعة ثانية استمدت اسمها من اسمه هي ترعة الاسماعيليه التي تتلقى الماء من النيل عند شبرا ، وتنتهى الى الاسماعيليه ، ثم تتفرع فرعين أحدهما ينحدر الى السويس والآخر يصعد الى بورسعيد ، وقد أخذ منها فرع عبّر الى سيناء ، وقد حملت هذه التربة عناصر الحياة الى محافظتى القليوبية والشرقية ومنطقة القناة ، وبجانب هاتين الترعين الكبيرتين أنشأ اسماعيل عدداً من الترع

التي تختلف أطوالها وأعماقها — كما اتجه الى الترغ والرياحات القديمة فعمقها وأعاد حفر ما انطمس منها ، وقد ضم اسماعيل بذلك ما يقرب من مليونى فدان للأراضى المنزرعة •

وأنشأ اسماعيل مجموعة من القناطر والجسور ، ومن أشهر الجسور التي أنشأها كوبرى قصر النيل ، والكوبرى المعروف بكوبرى البحر الأحمر ، وقد ربط بهذين الكوبريين بين القاهرة والجيزة ، ووسع اسماعيل ميناء السويس والاسكندرية وأعد بهما المنارات اللازمة لإرشاد السفن ، ومهد اسماعيل آلاف الأميال من الطرق ، ومن هذه الطرق طريق الأهرام ، وأنشأ اسماعيل شبكة واسعة من السكك الحديدية ربطت بين المدن والقرى بالداخل كما ربطت بين مصر ووادي حلفا وشندى ومصوع ، ومهد اسماعيل في مصر والسودان شبكة من الخطوط التلفرافية ، وأنشأ عدة مكاتب للأغراف ، وكان البريد في مصر يتبع الجاليات الأوربية ، ولكن اسماعيل اشترى ادارات البريد ، وأنشأ مصلحة مصرية للبريد سنة ١٨٦٥ ، وأنشأ مكاتب لها بلغ تعدادها ٢١٠ مكتباً •

واهتم اسماعيل اهتماماً كبيراً بردم البرك والمستنقعات ، ومد أنابيب المياه العذبة ، واهتم بالمدن اهتماماً كبيراً فخط بها الشوارع ، وأنشأ الميادين والجسور ، وأقام المتاحف والمسارح ، وشيد المساجد والمدارس ، وأثار طرقاتها بغاز الاستصباح ، وفي القاهرة والاسكندرية مجموعة كبيرة من الشوارع والقصور ارتبطت بحركة الإصلاح التي قام بها اسماعيل • وبسبب جهود اسماعيل في القاهرة والاسكندرية لم يحتاج الأجانب أن يقيموا لهم أحياء خاصة بهم كما فعلوا في أكثر عواصم آسيا وإفريقية (١) •

وعنى اسماعيل بأن يخطو بالصناعات خطوات ثابتة للأمام فطوّر

(١) من مقال للمهندس حسين حسرى في الكتاب السابق .

ما كان موجوداً بمصر وأدخل للبلاد صناعات جديدة ، فطور الطباعة ، وأنشأ صناعة الطوب والبلاط والورق والنسيج والسكر .

من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة

- من الحق أن نقرر أن العهد كان غالباً عهد سلطة الفرد في العالم ، وأن الحكم الاستبدادي كان طابع الحياة في الامبراطورية العثمانية التي كانت مصر تمثل جزءاً منها ، ومن الحق أن نقرر كذلك أن قليلين جداً من الحكام في التاريخ من تنازلوا عن سلطاتهم الاستبدادية ، ولجأوا الى الشورى . وقد شهدت مصر في عهد محمد علي وعهد اسماعيل خطوة في الطريق الى الشورى ، وهي خطوة قصيرة المدى ولكنها فتحت الطريق للسير الى الأمام .

وقد جاء محمد علي باختيار الشعب ، وقد حاول الانفراد بالحكم عنهم ولكنه على كل حال لم يكن كباقي الولاة العثمانيين ، لأنه أحس أن مصر بلاده ، وأن شعبها هو الذي اختاره ، وأن سلطات العثمانيين لعزله لم يعد لها وجود ، ومن هنا أراد أن يوثق صلته بالمصريين الذين أصبحوا عدته وعونه ، فأنشأ المجلس المخصوص ومجلس شورى القوانين ، ولكن لم يكن لهذه سلطان ذو بال ، وسرعان ما ذوت ، بيد أن هذا الاتجاه ظل ينتظر من يعيد له نبض الحياة ، حتى جاء اسماعيل فخطا خطوات الى الأمام في هذا السبيل وسلم فيما يلي إلمامة سريعة بالاتجاهات التي نقلت الكثير من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة .

أولاً : مجلس الشورى :

كان محمد علي — كما ذكرنا من قبل — قد أنشأ مجلساً يضم أولى الأمر في البلاد وذوى الرأي فيها ، وسماه مجلس الأعيان ، وكان مجلس الأعيان ينعقد بالقلعة ويستشير محمد علي في الشؤون العامة ، وتعطل هذا المجلس في أيام عباس وسعيد ، فلما جاء اسماعيل تقدم في هذا المجال

خطوة مهمة ، إذ أصدر في أكتوبر سنة ١٨٦٦ أمراً بتأسيس مجلس شورى النواب ، وانعقد المجلس في أول مرة في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ وافتتحه اسماعيل بكلمة جاء فيها :

« كثيراً ما كان يخطر ببالي إيجاد مجلس شورى النواب ، لأن من القضايا المسلمة التي لا يئثر نفعها أن يكون الأمر شورى بين الراعى والرعية ، ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى « وشاورهم في الأمر » وبقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » ولهذا استسببت افتتاح ذلك المجلس بمصر تتذاكر فيه المنافع المفيدة ، وتبدي به الآراء السديدة » .

وكان أعضاء مجلس شورى النواب ينتخبون من الشعب ، ويقرر التاريخ أنهم لعبوا دورا كبيرا في تطوير الحياة النيابية بمصر ، ولأنهم حرصوا على أن يكون المجلس أداة فعالة في الإصلاح ، وطلبوا بحرية النشر ، وفرض الضرائب على الأجانب أسوة بالمصريين ، وقد ظهرت في هذا المجلس زعامات مصرية قوية ، من أبرزها عبد السلام المويلحي رئيس المجلس الذي استطاع بمعاونة النواب أن يخطو بمجلس الشورى خطوات واسعة كانت الأساس لقيام الحياة النيابية بمصر ، بل في الشرق كله .

ولا بد هنا أن نذكر أن ممثلى الأمة تمسكوا بالنظام الشورى حتى عندما انحرف عنه رياض باشا ناظر الوزراء وأراد تعويقه ، فقد ذهب هذا الى مجلس الشورى ليبلغ الأعضاء قرار الخديوى اسماعيل بحل المجلس فصرخ فيه عبد السلام المويلحي قائلاً : إننا هنا بسلطة الأمة ولن نخرج إلا على أسنة الحراب ، وأضاف المويلحي :

أن جميع الدول الراقية في أوروبا .. وفي أمريكا لها مجالس نيابية .

فقال رياض باشا : هل تريد بهذه العمائم .. وبهذه البلغ
(الأخذية الريفية) أن تقلد أوروبا ؟

فرد المويلحي : أن العبرة بالرؤوس .. لا بالزى !

فصاح رياض باشا : أنتم عصاة ! أنتم همج !

فنادى المويلحي مصطفى وهبى باشا السكرتير العام لمجلس شورى
النواب وطلب أن يقيد فى المضبطة خرفيا كل ما دار من حديث بين النواب
ومناظر الوزراء .. وقال : « حتى اذا ما نشر هذا فى الجرائد ، واطلع
عليه القراء علموا من هم الهمج : النواب أم النظار ؟ » •

وحاول رياض أن يمنع الصحف من نشر هذه الكلمات ولكن أحدا
لم يستجب له ، ونشرت الصحف جميع ما دار فى هذه الجلسة • واضطر
الخدوي للتراجع حتى لا يقابل ثورة الجماهير ، وعزل رياض سنة ١٨٧٩
واستدعى شريف باشا لتأليف الوزارة •

وقبل أن نترك رياض باشا نذكر أن من مساوئه أنه عطل صـحيفتى
« مصر » و « التجارة » لما كان ينشر فيهما من المقالات الوطنية القوية
وأنه كان وثيق الصلة بالأجانب ، ولكن من محاسنه ما يذكره عنه الأستاذ
أحمد أمين أنه كان ذا رغبة إصلاحية فى تنظيم الشئون المالية وتهذيب
العقول ، وتشجيع الآداب ، وأنه أبطل السخرة والضرب بالكرباج (١)
ولكنه على العموم لم يكن زعيما محبوبا لدى الجماهير •

ثانيا - مجلس الوزراء :

كان محمد على قد أنشأ مجموعة من الإدارات تشرف كل منها على
جانب من جوانب ادارة البلاد ، وسميت هذه الإدارات بالدواوين وقد

(١) زعماء الإصلاح ص ٣٠٠ و ٣٠٢ •

تأسست هذه الدواوين تبعاً للاحتياجات الادارية ديواناً بعد ديوان ، وأنشئ آخرها سنة ١٨٣٧ ، وحينئذ صدر القانون المسمى « السياسة » أى التنظيم السياسى ، وقد شمل هذا التنظيم سبعة دواوين هى :

- الديوان الخديوى (الداخلية)
- ديوان كافة الايرادات (المالية)
- ديوان الجهادية (الدفاع)
- ديوان البحر (البحرية)
- ديوان المدارس (التربية والتعليم)
- ديوان الامرنجية والتجارة المصرية (الخارجية)
- ديوان الفاوريقات (الصناعة)

ومن رؤساء هذه الدواوين يتكون المجلس المخصوص الذى كان يعاون محمد على فى إدارة شئون البلاد ، وهو شديد الشبه بما يسمى مجلس الوزراء الآن ، وكان هذا المجلس أشبه بالمجلس التنفيذى لأن السلطان الحقيقى كان فى يد محمد على .

ثم قضى عباس على هذا المجلس كما قضى على غيره من صور النشاط .

وفى عهد اسماعيل عندما بدأ التدخل الأجنبى فى الشئون المصرية تكونت لجنة التحقيق العليا الأوربية ، وفى ابريل سنة ١٨٧٨ ذكرت هذه اللجنة فى تقريرها أن كل المفاصد وقوضى الأوضاع المالية فى مصر ناتج أساساً عن السلطة المطلقة التى يمارسها الخديوى فى البلاد .

وتبعاً لذلك أوصت هذه اللجنة أن يشترك مع الخديوى مجلس وزراء وادعت أن ذلك يخلى الخديوى من المسئولية ، ورغبة من هذه اللجنة الأوربية فى أن يتحقق لها ما تشاء تدخلت فى تحديد من يرأس هذه الوزارة ،

بل أصرت على أن يكون بها وزير انجليزى وآخر فرنسى ذاكرا أنها بهذا التكوين تكون أعلى كفاءة وتستطيع أن تقف في وجه الخديوى ، وبعد حيل كثيرة أصدر الخديوى اسماعيل في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ أمرا بتشكيل أول نظارة مسئولة بمصر ، وكانت برئاسة نوبار باشا .

ولدت بذلك أول وزارة بمصر ، وكانت آنذاك تسمى « النظارة » إشارة الى تبعية مصر للامبراطورية العثمانية ، فلما انقطعت هذه التبعية سنة ١٩١٤ بإعلان الحماية على مصر ، أصبحت النظارة وزارة ، وبمولد النظارة المصرية تغير نظام الادارة الذى كان متبعا من قبل ، وانتقل لها جزء من سلطة الخديوى ، وكان خطاب الخديوى الى رئيس النظار يفيد هذا الاتجاه وقد جاء فيه : « أردت أن أؤكد لكم ما توجه قصدى اليه وثبت عزمى عليه من اصلاح الادارة وتنظيمها على قواعد مماثلة للقواعد المرعية في ادارات ممالك أوروبا ، كما أنى أريد — عوضا عن الانفراد بالأمر — قوة من مجلس النظار بمعنى أنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعدا بالاستعانة بمجلس النظار والمشاركة معه . »

ولنعد الى أول رئيس للنظار بمصر وهو نوبار باشا لنقرر أنه رجل أرمنى الأصل مسيحي الدين ، كانت عواطفه وميوله في جانب بريطانيا (١) ، وقد وصفه جوردون في مذكراته بأنه أرمنى وضع ، وكان من بين أعضاء هذه الوزارة وزير انجليزى ووزير فرنسى ومن أجل هذا سميت الوزارة المختلطة ، ولم يطل عمر هذه الوزارة بسبب هذا العنصر الأجنبى فيها ، ولأنها اتجهت شيئا اتجهت اليه من مظاهر الاقتصاد الى تعطيل المرافق العامة ، وأحالت ٢٥٠٠ من رجال الجيش الى الاستيداع ، مما هيج رأى العام والجيش فاضطرت الوزارة الى الاستقالة .

واتجهت الأنظار بعد ذلك الى تعيين الأمير توفيق رئيسا للوزارة ،

(١) سافر نوبار الى لندن سنة ١٨٧٧ لتمهيد الطريق لفرض حماية بريطانيا على مصر (مصر المعاصرة للدكتور مصطفى صفوت ص ٥٦) .

ولكن وزارته لم تكن أحسن من سابقتها فأخلت الطريق الى أول وزارة وطنية برياسة شريف باشا ، وقد أبعد شريف العنصر الأجنبي من وزارته ، ولكن الأوربيين تألبوا عليه ، بيد أن الشعب أيده وأيده كذلك الخديوى اسماعيل ، فكان أن عملت الدول الأوربية على خلع اسماعيل ، وتولى توفيق العرش بعد أبيه فقدم شريف استقالته للخديوى الجديد ، ولكن الخديوى توفيق طلب منه إعادة تشكيل الوزارة تهدئة للأحوال ، بيد أن توفيق سرعان ما لاحظ اهتمام شريف بالحياة الدستورية الحقة التى لا تناسب ميوله ولا اتجاهات الدول التى جاءت به الى الحكم ، فعارض ميول شريف مما دفع هذا الى الاستقالة فى أغسطس سنة ١٨٧٨ •

وأراد توفيق أن يعود بالبلاد الى الوراء ، فألف وزارة يرأسها هو ، ولكن ذلك قوبل باستياء عام اذ كان معناه العودة للحكم المطلق ، فاستدعى توفيق رياض باشا من أوربا وطلب منه تشكيل الوزارة فشكلها فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، ولم يكن رياض مرضيا عنه ، وكانت ميوله استبدادية ، وكان ينفذ آراء ساداته الانجليز الذين آثروا — كما يقول اللورد كرومر — جر الخيوط من وراء ستار ، وعدم الظهور على المسرح إلا قليلا (١) ، واكتفى رياض بالغاء أنواع من الضرائب الجائرة منها الضريبة الشخصية والجمارك الداخلية ، ولكن ذلك كان أقل كثيرا من أمانى البلاد .

وإذا سرنا بعد ذلك مع الوزارة المصرية نجد أن وزارة رياض قابلت عاصفة الحركة العربية ، ولم يستطع رياض أن يوفق بين ميوله الاستبدادية وولائه للانجليز وللخديوى وبين الفكر الذى كانت الحركة العربية تتبناه ، فأقيلت وزارة رياض برغبة العرايين وتولى شريف باشا فى سبتمبر سنة ١٨٨١. ولكن هذا رأى أن يخلى الطريق للزحف العربى فاستقال وتألقت وزارة عربية برياسة البارودى فى فبراير سنة ١٨٨٢ وبعد بضعة شهور تم الاحتلال البريطانى (يوليو ١٨٨٢) كما سنرى فيما بعد •

(١) من مذكرات اللورد كرومر .

ومع الاحتلال البريطاني واجهت الوزارة المصرية مشكلات خطيرة أهمها :

١ — تعيين اللورد كرومر في وظيفة الوكيل البريطاني والقنصل العام بمصر عقب الاحتلال ، وقد ظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٠٧ وكان خلال هذه المدة يعتبر مصدر السلطات بمصر ، فموافقته كانت ضرورية لاختيار رئيس الوزراء ، وكان مسموع الكلمة في اختيار الوزراء ، وعندما تخطى الخديوى عباس الثانى هذا التقليد الاستعماري وعين فخري باشا رئيسا للوزراء في يناير سنة ١٨٩٣ دون موافقة كرومر ، هدد كرومر بالخلع من منصب الخديوى ، فترجع الخديوى عباس ، واستقالت وزارة فخري باشا بعد ثلاثة أيام من تشكيلها . ودعما لنفوذ كرومر عين هذا مستشارين من الانجليز للوزارات المصرية المختلفة يتكون منهم برياسته ما يمكن أن يعتبر مجلس الوزراء الحقيقي ، كما عين مفتشين من الانجليز بالمديريات كانوا بمثابة عيون له في تلك المديريات .

٢ — ولكن التاريخ يسجل كثيرا من المقاومة التي أبدتها رؤساء الوزارات والوزراء للسلطة الانجليزية ، فقد رفض شريف باشا سنة ١٨٨٤ أوامر الانجليز لاخلاء السودان ، وفضل أن يستقيل على ارتكاب هذا المنكر ، وجاء بعده نوبار فوافق على مطالب الانجليز ، ووقف سعد زغلول موقف شريف من السودان سنة ١٩٢٤ عقب مقتل السردار ، وجاء بعده زيور ليستجيب لمطالب الانجليز ، على أن هناك صراعا مشهورا يرتبط باسم سعد زغلول أيضا حينما كان وزيرا للتربية والتعليم (١٩٠٦ — ١٩١٠) فقد قاوم تعليمات دنلوب دون هوادة .

ويرتبط بالمقاومة كذلك ما يذكره التاريخ عن احجام رجال السياسة عن تأليف وزارات أحيانا حتى لا ينزلوا عن جماهير الشعب ، وقد ظلت البلاد بدون وزارة سنة ١٩١٩ مدة أربعين يوما حتى أعاد حسين رشدي باشا تشكيل وزارته في ٩ ابريل .

٣ — وتعرضت الوزارات المصرية للألوان من الهجوم مصدره القوى الوطنية التي كانت تتربص بالوزراء الذين يخضعون للمحتل الغاصب ، وقد بلغت هذه المقاومة مداها عندما دفع الحماس الوطني أحد المواطنين ليقتل بطرس غالى رئيس الوزراء لاتجاهه للموافقة على مد امتياز شركة قناة السويس •

٤ — وحدث بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ تغيير واضح فى تقييم الشخصيات ليتم اختيارهم لمنصب الوزارة ، فقد أصبح ماضى-يهم السياسى ومكانتهم الحزبية تعادل أو تزيد عن مكانتهم الادارية أو الفنية التي كانت موضع التقدير من قبل •

ولكن الذى يتتبع اتجاهات حزب الوفد يرى أنه كان يحرص على اختيار شخصيات لها كفاءة ممتازة ليضمها للوزارة وإن لم يكن مكانها واضحا بين شخصيات الحزب ، ومن هؤلاء الدكتور صلاح الدين والدكتور طه حسين •

٥ — اختفت وزارة الخارجية من بين الوزارات المصرية فترة خلال سعار الاستعمار اذ اعتبر الوكيل البريطانى هو المسئول باسم حكومته عن صلات مصر بالدول الأخرى •

٦ — بعد قيام الحكومات الدستورية بمصر بدأ صراع مرير بين فؤاد وفاروق من جانب وبين الوزارات الوفدية من جانب آخر كما سنرى تفاصيل ذلك احصائيا بعد قليل ، وقد ظل الصراع محتدما بين القصر وحكومات القصر من جانب وبين الحكومات الوطنية من جانب آخر حتى نهاية عهد الملكية بمصر •

ثالثا — الصحافة :

بدأت الصحافة المصرية فى عهد اسماعيل ، وقد شجعها اسماعيل فى أول الأمر ليستعين بها على الانجليز ، بيد أن هذه الصحافة أصبحت فى الغالب تمثل رأى العام ، وتقاوم ما وسعها الحيلة تتدخل الانجليز أو

محاولة الخديوى العودة للاستبداد ، وكانت جريدة « أبو نظارة » التى أنشأها يعقوب صنوع سنة ١٨٧٧ من أولى الصحف المصرية ، وكانت واسعة الانتشار بين الشعب وشديدة التأثير فيه ، وكانت كثيرة الانتقاد لأعمال إسماعيل .

ومع « أبو نظارة » ظهرت جريدة « مصر » سنة ١٨٧٧ وكان من بين محرريها سليم نقاش وجمال الدين الأفغانى ، وأسس سليم نقاش وبشارة نقلا جريدة « الأهرام » فى نفس الفترة أيضا ، وأصدر ابراهيم اللقانى جريدة « مرآة الشرق » سنة ١٨٧٨ ، كما أنشأ ميخائيل عبد السيد جريدة « الوطن » ، وتوالى ظهور الصحافة بعد ذلك .

وعلى الرغم من انحراف بعض الصحف وتأبيدها التدخل الأجنبى أحيانا ، فان أكثر الصحف سارت فى الخط الوطنى وكان الشعب فى منتهى الذكاء ، فقد انفص عن الصحافة المنحرفة ففضى عليها ، ولم يجدها نفعا تأييد الانجليز أو القصر ، اذ لم يعد لها قراء فلم يبق له أى تأثير أما الصحافة الوطنية فقد سارت تؤيد الإصلاح ، وتعمل على حراسة حقوق الشعب ، ورد المعتدين على هذه الحقوق .

رابعا — الجيش :

كان عملا أهوج ذلك الذى أشرنا اليه من قبل وهو احالة ٢٥٠٠ من رجال الجيش الى الاستيداع فى عهد توبار وقد ثار الجيش لذلك ، وتراجع توبار واستقال ، وعاد رجال الجيش اليه ، ومنذ ذلك الحين ظهر الجيش قوة من قوى المعارضة الوطنية ، وأصبح وقوفه فى وجه الاستبداد والافترادية عملا عاديا ، وظلت هذه القوة تنمو حتى تسلم عرابى قمة المعارضة الوطنية كما سنرى فيما بعد .

خامسا - الرأى العام :

من الحق أن تقرر أن الرأى العام فى مصر كان دائما موجودا ، ولكن صوته كان يكبت حيناً ، وكان حيناً آخر يتغلب على الصعاب فيرتفع ويزمجر ، وقد رأيناه مدويا فى عهد الحملة الفرنسية ، ورأيناه بارزا حين عزّل الوالى العثمانى وعين محمد على واليا على مصر ، ورأيناه صاحبا وهو يناضل فريزر قبل أن يصل محمد على من الصعيد بجنوده وعتاده .

وفى آخر عهد اسماعيل ظهرت زعامات قوية من أبرزها شريف باشا الذى أصبح بفضل مواقفه القوية بطل الوطنية المصرية فى عهده ، وانضم إلى شريف ، مهر لطفى وشاهين باشا وراغب باشا وسلطان باشا مكونين « الحزب الوطنى » وأرسلوا أديب اسحق الى باريس ليصدر جريدة « مصر القاهرة » على نفقتهم ، وكانت توزع سرا فى مصر ، ثم انضم الى هؤلاء عرابى وعبد العال وعلى فهمى والبارودى وسليمان أباطة وحسن الشريعى ومحمود فهمى .

وكان لهؤلاء الزعماء مكانتهم بين الجماهير ، فكانت حركاتهم مؤيدة من الرأى العام ، وكان صوتهم عميق الصدى بين الجماهير ومعبرا عن مشاعر المواطنين .

وفى هذه الفترة الحساسة ظهر بمصر زعيمان من نوع جديد آنذاك ، زعيمان لم تكن السياسة هى كل ما يشغلها بل أضافا الى ذلك عمقا فى الاتجاه الاسلامى ، ودعوة للتجديد والاجتهاد والانطلاق ، وهذان الزعيمان هما :

١ - العلامة جمال الدين الأفغانى .

٢ - الامام محمد عبده .

وكل منهما جدير بحديث خاص نقوم به عقب الانتهاء من سيرة اسماعيل .

عيوب اسماعيل

لعلنا فيما سبق حاولنا أن نُلِمَّ بمآثر اسماعيل ، وألا نغفل شيئا مما قدمه لصر من أياد وأفضال ، وقد آن الأوان لتحدث عن عيوبه ونضع في الكفة الأخرى مثالبه ، لنستطيع بعد ذلك أن نرى أى الكفتين ترجح وأيهما تشيل .

قضية الديون :

ولا شك أن قضية الديون هي أبرز العيوب التي لصقت باسماعيل ، ولا شك أنه كان هناك إهمال وغفلة في موضوع الاستدانة ، وقد تسبب عن الإهمال والغفلة صور من العناء لبلادنا الحبيبة .

والحديث عن الديون له عناصر :

أولها : ما مقدار هذه الديون ؟ وماذا حصل في أرقامها من عبث ؟

وثانيها : فيم أنفقت هذه الأموال التي استدانها اسماعيل ؟

وثالثها : هل كانت هذه الديون هي السبب الحقيقي لعزل اسماعيل ؟

وستتكم عن هذه العناصر واحدا بعد الآخر .

١ — مقدار الديون والألاعيب حولها :

تدل الوثائق على أن القروض التي اقترضتها مصر في المدة من ١٨٦٣ الى ١٨٧٣ كانت ٦٨٤٩٧٠٠٠٠ جنيه ، ولكن المبالغ الحقيقية التي تسلمتها الخزانة المصرية هي ٤٣٧٨٧٠٠٠ جنيه ، ومن الواضح أن العمولات والسمسرة قد أخذت جزءا كبيرا من هذا الدين يزيد عن الثلث ، ومن الواضح كذلك أن جزءا من هذا الدين عَقِدَ في عهد سعيد باشا ، وكانت فوائد هذه الديون تقرب من أربعة ملايين جنيه سنويا ، مما جعل من الصعب تسديد الفوائد وأقساط الديون في وقت واحد ، وفكر اسماعيل

في توحيد أكثر الديون ، فعقد قرضا بمبلغ ٣٣ مليونا من الجنيهات ، ولكن الذي وصل فعلا للخزانة المصرية من هذا المبلغ هو ٢٢/٤٠٠/٠٠٠ بمعنى أن عمولات السماسرة والأتعاب المنوعة استغرقت حوالى عشرة ملايين .

ومن الممكن أن نقرر أن هناك غفلة وتهاونا لا يمكن غفرانها وتشمل الغفلة مبدأ الاستدانة لغير ضرورة قاهرة ، كما تشمل أضاعة جزء كبير من الدين للوسطاء والعمولات .

٢ — فِيم أنفقت هذه الديون :

إن الوثائق تقرر أن ٤٦ مليونا أنفقت في التزامات مصر تجاه حفر قناة السويس ، والتحلل من الالتزامات التي كان قد ارتبط بها سعيد باشا ، كما أنفق جزء كبير منها في إنشاء الترع النيلية التي أشرنا لها من قبل ، وإنشاء الجسور (الكبارى والقناطر) وإنشاء مصانع السكر ، وميناء الاسكندرية ، وأحواض السويس ، والسكك الحديدية ، والتلغراف والمناير ، ويذكر بعض الباحثين المحدثين هذه الحقيقة فيقرر أن الخديو أنفق أكثر هذه الأموال في حفر قناة السويس وفي حفر الترع وتوسيع الرقعة الزراعية بمساحة مليون فدان وفي ربط مصر بالسكك الحديدية والتلغراف وفي بناء جيش وطنى قوامه نحو مائة ألف مقاتل ، بعد أن كان ١٨٠٠٠ مقاتل وقد بنى به امبراطورية إفريقية نيلية تضارع امبراطورية محمد على العربية ، فرفع العلم المصرى على أوغندا وألغى تجارة الرقيق حيثما سارت جنود مصر . كذلك نعرف أنه تسلم البلاد وليس فيها إلا نحو ١١٥ مدرسة وتركها بعد ١٦ سنة فيها ٤٥٠٠ مدرسة بعضها للبنات ، ولم تكن فيها صحيفة واحدة فعرف عهده قرابة ٣٠ صحيفة ومجلة ، ولم يكن فيها نظام قانونى وأصبح فادخل فيها أحدث قانونى مدنى وجنائى وإدارى كان معروفا في عصره (قانون نابليون) ولم تكن في مصر هيئة تشريعية فأنشأ اسماعيل فيها أول برلمان مصرى ، بدأ استشاريا صوريا في ١٨٦٦ ثم نصج واستأسد عبر ١٢ سنة حتى شارك اسماعيل في ١٨٧٩

في قيادة الحركة الوطنية ضد النفوذ الأوربي ، ثم ظاهر الثورة العربية الشعبية في سنة ١٨٨٢ (١) .

على أنه كانت هناك وجوه اتفاق فيها صور من البذخ ، وكان من الممكن تأجيلها أو تقليلها ، ومن هذه اقامة القصور الشامخة وتأسيسها بأفخر الأثاث ومنها الاحتفال الباهر بافتتاح قناة السويس وقد تكلف حوالي المليون من الجنيهات مع ملاحظة أن بعض المبالغات تصوّر هذا الحفل وكأنه كان وحده سبب الديون ، ومنها الحملات العسكرية الكبيرة التي دفع بها اسماعيل للخارج لمساعدة تركيا أو غيرها ، وقد تكلفت تكاليف باهظة ، وهذه الأشياء نعييها وننتقدها بشدة .

٣ — الديون وعزل اسماعيل :

في الفترة التي كانت مصر تتجه الى افريقية في عهد محمد علي ثم في عهد اسماعيل كانت قوى أوربا المنسحبة من أمريكا قبيل حرب الاستقلال (١٧٧٨) وبعده ترى في افريقية أملاها بعد أن فقدت الأمل في أمريكا ، ومن هنا حدث صراع بين أوربا ومصر .

على أن أوربا كانت قلقّة منذ عهد محمد علي وكانت تخشى أن تصبح مصر دولة عظيمة بافريقية ، وقد عبر مترنيخ عن موقف أوربا بقوله سنة ١٨٢٧ أن نشوء دولة افريقية جديدة ، عظيمة بمواردها ومركزها الجغرافي يهدّد من أكبر الأخطار التي تتهدد أوربا .

وقد كان خطر اسماعيل في افريقية أوسع من خطر جده لاتساع ملكه وعظم تأثيره ، ومن هنا تكتل الأوربيون ضد اسماعيل ، وقرروا ضرورة إبعاده من الطريق ، واتخذوا الوسائل للكيد له وكانت الديون وسيلتهم لذلك ، فادعوا أنه مسرف مبذر ، يستدين لينفق على ملذاته ولهوه فأساءوا بذلك

(١) من بحث جريدة الأهرام يوم ١٥/٨/١٩٧٥ .

سمعته ، ثم أرادوا تنفير الناس منه وإيقاف موجة الإصلاحات التي كان يقوم بها ، فالزموه بإنشاء صندوق الدين ، وعيّن فيه مندوب لكل دولة دائنة ، كما ألزموه بتعيين مراقبين أجنيين لحساب الحكومة ، أحدهما للإيرادات والثاني للمصروفات ، واتجه كل هذا النفوذ الأجنبي لاسداد الديون بدون نظام ، مما سبب توقف كل الإصلاحات وفصل بعض الموظفين ، ومما أثار الارتباك والفوضى ، فأصبح وجود اسماعيل يمثل عائقا في تيار الحياة ، وانتهت الأزمة بخلع الخديوى اسماعيل في يونيو سنة ١٨٧٩ وتولية ابنه توفيق ، ورحل اسماعيل الى أوروبا ، وظل يعيش بها حتى سنة ١٨٨٨ ، ثم انتقل الى الأستانة فعاش بها حتى مات سنة ١٨٩٥ ، ونقل جثمانه الى القاهرة .

وقد وضّح (فارمان) قنصل أمريكا في مصر آنذاك مأساة عزل اسماعيل في تقرير بعث به الى حكومته في ٨ يوليو ١٨٧٩ ، وقد اقتبسنا فقرات من هذا التقرير في الجزء السادس من هذه الموسوعة (صفحة ٣٣٧ - ٣٣٨) وضع فيها أن حكومة الخديوى اسماعيل كانت أفضل حكومات الشرق ، بل كانت هي الحكومة الشرقية الوحيدة التي انفردت بمعالجة التقدم والرقى في كل ما يتصل بأسباب الحضارة الحديثة ، وأن من يستعرض ما تمّ في عهده من التقدم يجد أنه كان عظيما جدا ، ويقرر « فارمان » أن المسألة المالية لم تكن الا مجرد أعذار لتجمل من الممكن تنفيذ خطط سياسية معينة ، ولم يمسح يسبق أن اعتُبر عجز الدولة عن دفع ديونها سببا يخول الدّيل الأجنبية الحق في أن تخلع حاكمها أو أن تغير حكومتها .



وقد مر قرن على عصر اسماعيل فماذا على مصر من ديون بعد هذا القرن ؟ وفي أى النواحي انفقّت هذه الديون ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تحتويها دراسائنا التفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر في الجزء التاسع من

هذه الموسوعة ، وهى على العموم توضح السرقات كما توضح أن طرق
الانفاق فى القرن الحالى كانت مآسى تدمى لها القلوب ، وليس بها أى
جانب ذى بال من جوانب الإصلاح .

اسماعيل فى الميزان :

ليس من العسير بعد هذا الشرح أن نقرر أن اسماعيل كان حاكما
عملاقا ، وكان عهده منعطفًا هائلا فى تاريخ مصر السياسى والحضارى ،
ولا شك أن حسنات اسماعيل ترجح ما ارتكبه من سيئات رجحانا عظيما ،
ونضعه فى القمة مع القادة والمشاهير ، ومرة أخرى نقرر أن له أخطاء ،
وأن بعضها جسيم ، وقد ذكرنا هذه الأخطاء وانتقدناها ، ولكن حسناته
فى الكفة الأخرى كانت أعظم وأكبر .

اسماعيل والتاريخ :

اصطنعت أوروبا الوسائل لعزل اسماعيل كما رأينا وأخفت الأسباب
الحقيقية التى دفعته لعزله وهى التخلص منه ليخلو لها الجو بافريقية ،
وبعد أن تم لها ما أرادت اتجهت لتزييف التاريخ ، فراحت تصور الديون
كأنها شبح مزعج ، وتدعى أنه أنفقها فى السرف والترف ، غير ذاكرة
نواحى العمران التى اهتم بها ، والمؤسسات العلمية والاجتماعية التى أسسها ،
فدونت عن الرجل تاريخا غير صادق ، وانتقل هذا التاريخ من جيل الى
جيل دون تمحيص ، وساعد على ذلك أن معلمى الأجيال التى تلت اسماعيل
تلقت ثقافتها فى انجلترا الدولة المحتلة فتأثر هؤلاء بما قرعوا وما سمعوا
عن اسماعيل ، وظل الرجل مظلوما عند الكثيرين حتى راح جيلنا يحقق
ويدقق ليكتب كلمة الانصاف لوجه الحق ، ونرجو أن يكون التوفيق قد
حالفنا فى رفع هذا الحيف عن وجه مشرق من وجوه قادة هذه البلاد ،
ولا شك أنه كانت فيه غفلة ارتبطت بهذه الديون وبالوسطاء فيها ، ولكن
الديون لم تكن قط سببا فى عزل حاكم البلاد .

بعد اسماعيل :

لقد طاب لنا أن ننصف محمد على وحفيده اسماعيل ، فذلك هو حق
الأفذاذ من الناس ، ولكن الحال تغير بعدهما وشهدت مصر مجموعة من
أحفاد محمد على كانوا الى الخرق والانحراف أقرب ، وسندرس تاريخ
هؤلاء فيما يلي « وسنرى فيهم من خان البلاد مثل تروفيق ، ومن خان
الدستور يوم أصبح لمصر دستور مثل فؤاد وفاروق ، فقد عاش هؤلاء أعداء
للشعب ووضعوا بمواقفهم الأثيمة خيوط النهاية لهذه الأسرة .

وقبل أن نخطو لهذه المرحلة نقدم ترجمة موجزة لكل من جمال الدين
الأفغانى والامام محمد عبده ، فالتاريخ الذى ندوّنهُ يعنى بالاحداث ،
ويعنى كذلك بالمفكرين ، وبالقائم الحضارية التى يرفع هؤلاء المفكرون لواءها :

جمال الدين الأفغانى

أجمل الإمام محمد عبده سيرة جمال الدين الأفغانى أجمالا دقيقا ، فذكر أن الناس اختلفوا في أمره فكانه حقيقة تجلّت في ذهن كلِّ بما يلائمه ، ومن أجل هذا عمد الإمام الى ايضاح حقيقته التى يعرفها من طول العشرة ، وعن محمد عبده وسواه من الباحثين نقل الأستاذ محمود أبو رية نقولا كثيرة لم يؤلف بينها (١) ، ولكنها على كل حال مادة يمكننا أن نقتبس منها ومن سواها صورة واضحة لجمال الدين :

— ينتمى جمال الدين الأفغانى الى أسرة حسينية النسب ، كان لها قدر كبير من السيادة في بعض مناطق أفغانستان بالقرب من كابول ، وقد ولد سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) وتعلم اللغة العربية والعلوم الاسلامية والعقلية بها ، ثم انتقل الى الهند فاسترد من العلوم وحج سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م) وبدأت بعد ذلك حياته الحافلة على ما يلي :

— في بلاده اشترك في بعض الحملات الحربية مؤيدا أحد الأمراء واسمه محمد أعظم ضد اخوته ، وتم لهذا الأمير النصر ، فزاد اقباله على جمال الدين ، ولكن رضا الملوك لا يدوم ، والانتصار تعقبه هزائم ، وهذا ما حصل بالنسبة لجمال الدين مما اضطره للرحيل عن أفغانستان الى الهند ومن الهند وفد الى مصر فبقى بها مدة قصيرة ثم سافر الى الأستانة مركز الخلافة في عهد السلطان عبد العزيز .

— في الأستانة لقي ترحيبا واسعا ، ولكن سرعان ما دب صراع محتدم بينه وبين بعض رجال الدين والسياسة ، واشتدت الخلافات بينه وبينهم ، وكان جمال الدين حاد الطبع فأخذت منه الحدة مبلغا ولجَّ في طلب المخاصمة ، مما سبب صدور الأمر بجلأته عن الأستانة سنة ١٨٧١ .

(١) جمال الدين الأفغانى : تاريخه ورسالته بمبادئه .

— حضر من الاستانة الى مصر ، وكان رياض باشا ذا نفوذ في الادارة المصرية آنذاك فرحب به رياض وعين له مرتبا مناسباً ، وجلس في بيته يعلم ويقرأ لمن وفدوا عليه ، وكان الخديوي اسماعيل يشجع كل الكفاءات العلمية فوجد جمال الدين في رحابه آمناً واطمئناناً طيلة ثماني سنوات .

— ولما تولى توفيق الأمر بعد أبيه ساعت ظنونه بالأفغانى ، وبخاصة أن بعض العلماء ثار عليه لانتقاده المذاهب والأفكار المسلم بها ، ولقراءته كتب الفلسفة ، والكتب المنحرفة ، وكان رد الأفغانى أن الثابتين في ايمانهم لهم النظر في كل العلوم سواء وافقت مذهبهم أو خالفته ، وعلى كل حال لم تعد مصر أرضاً مناسبة له ، فنفى منها سنة ١٨٧٩ ، ومنها سافر الى الهند فأوروبا ، وقد أسهم البارودى في اتخاذ قرار نفي الأفغانى من مصر (١) .

— في أوروبا ذهب الى لندن ثم باريس ، ومنها استدعى الإمام محمد عبده وكان هذا منفياً أيضاً بسورية عقب الثورة العراقية ، وأصدرا معا صحيفة « العروة الوثقى » وقد صدر منها ١٨ عدداً في المدة من مارس الى أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، ثم توقفت لأنها كانت مثيرة فمنعتها إنجلترا من دخول الهند وغيرها من البلاد الواقعة تحت سيطرتها .

— عاد الى ايران سنة ١٨٨٦ بدعوة من الشاه ناصر الدين ، وأدناه الشاه منه ، ولكن العلاقة سرعان ما ساءت بينهما فغادرها الى روسيا ، ولكن الشاه طلبه بعد ذلك وألح في طلبه ، ولكن العلاقات ساءت من جديد فنفى الى خارج الحدود (الى البصرة) .

— ومن البصرة سافر مرة أخرى الى لندن واشتد في محاربة الشاه بقلمه ولسانه .

— استدعاه السلطان عبد الحميد الى الأستانة ولّح في طلبه فسافر اليها سنة ١٨٩٢ وطلب منه السلطان أن يكف عن الهجوم على الشاه فأجاب الأفغانى قائلا : ما كتبت أنوى ترك الشاه حتى أنزله قبره ولكنى لأجلك قد عفوت عنه ، ويعلق الأستاذ أحمد أمين على هذا بقوله : وقد ارتاع السلطان لمثل هذا القول (١) .

على أن الشاه قتل بعد ذلك بقليل بيد رجل أطلق عليه الرصاص وهو يصيح : خذها من يد جمال الدين ، وقد اتهم جمال الدين بتدبير هذه الجريمة ، ولكنه نفى ذلك بشدة ، وحسبى أننى أؤيد براءته ، ولكن الشبهة كان لها أثرها فى بلاط الخليفة بالأستانة (٢) .

— وقد ظل جمال الدين بالأستانة حتى توفى سنة ١٨٩٧ ، ويقول الأستاذ أبو ريه أنه مات مسموما ، بل يتجه أنه دعى للأستانة ليتخلص الخليفة منه ، ولا يمكن قبول هذا الرأى لأنه عاش فى الأستانة بعد وصوله اليها خمس سنوات ولو كان القضاء عليه هدفا للسلطان ما انتظر عليه هذه المدة .

أخلاق الأفغانى واتجاهاته الإصلاحية :

يتحدث الإمام محمد عبده عن أخلاق الأفغانى فيذكر « أنه كان فيه حلم عظيم ، ولكنه إن دنا منه أحد ليمس شرفه أو دينه انقلب الحلم الى غضب تنفص منه الشهب فاضى أسدا وثابا ، وكان عصبيا حديد المزاج ، وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة » وقد كتب له الامام محمد عبده مرة خطابا وأرسله اليه دون توقيع على الأستانة يلمح فيه لبعض الأشخاص والقضايا حتى يأخذ الأفغانى حذره ، فهاج الأفغانى وأرغى وأزبد ، وكتب

(١) زعماء الإصلاح ص ١٠٠ .

(٢) أبو رية ص ١٢٨ .

للإمام كتابا قاسيا ، ويعلق الأستاذ أحمد أمين على هذا الخطاب بقوله :
لقد كتب جوابه هذا وقد ملكته الحدة ، وكم ملكته (١) ، وكان طموحا الى
مقاصده السياسية يتعجل الوصول اليها اذا لاحت له بارقة ، وكثيرا ما كان
التعجل سبب الحرمان ، وكان شديد الزهو بنسبه الشريف ، شديد الوطأة
على الحكام يعاملهم بالعجب والخيلاء ، عصبيا دمويا في مزاجه (٢) .

أما عن اتجاهات الأفغانى الإصلاحية فيقرر الامام محمد عبده
أن الأفغانى كان واسع المعرفة ، دقيق التعبير ، مستمرل الأسلوب ، ومن
أعرف الناس بالاسلام ، وكان قادرا على النفع بالافادة والتعليم ، ولكنه
وجه كل عنايته الى السياسة فضاع استعدادة هذا ، ويقول محمد عبده
اننى أعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم ، كل همهم فى السياسة واهمالهم
أمر التربية الذى هو كل شىء وعليه يبنى كل شىء ، ولو أن جمال الدين
صرف قدراته للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة ، وقد عرضت
عليه سلوك سبيل التربية ، وأكدت له أن ذلك سيكون الطريق الأمثل لنشر
الإصلاح المطلوب فقال لى : إنما أنت مثبط (٣) .

ذلك مجمل سيرته ، وتعريف باتجاهاته وأخلاقه ، وننتقل بعد ذلك
الى ابراز نقاط مهمة تتصل بالأفغانى وتساعد على رسم صورة دقيقة
لاتجاهاته حتى يتضح دوره الحقيقى فيما ينسب اليه من بعث الحركة
الفكرية بمصر ، فقد لاحظت مبالغة مائلة من بعض الكتاب فى ذلك ، وتلك
المبالغة تجافى الانصاف ، وتخفى جهود المصريين فى بعث هذه الحركة :

١ — كان الأفغانى يقول بالجامعة الاسلامية ، وكان بادىء ذى بدء
يزمى الى ايجاد حكومة اسلامية واحدة ، ثم ظهر له استحالة هذا الهدف

(١) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ١٠٨ .

(٢) أبو ريه ص ٣٧ .

(٣) انظر الأستاذ محمود أبو ريه ص ٥٠ وأحمد أمين ص ٨٠ .

فاتجه إلى الدعوة للتحول بين ممالك المسلمين على أن يحكم كل ملك مملكته تبعاً للتعاليم الإسلامية ، وعندما نادى بحكومة إسلامية واحدة كان مفهومها أنه يقصد اندماج المسلمين تحت سلطان الخليفة المستبد الجائر ، السلطان عبد الحميد ، ويطلق الأستاذ أحمد أمين على موقف الأفغانى فى الأستانة بقوله انه كان فى عاصمة العثمانيين يعيش فى قفص من ذهب أُنحِكم بابه (١) .

٢ — ومثل دعوته للجامعة الإسلامية إتجاهه الذى عاش فيه فترة من الزمن ليقيم اتحاداً بين الأديان ، وهو يقول انه أخذ يوسع نظريته خطاً ، ويخط أسطراً ، ويحرر رسائل وأخيراً عاد عن نظريته والاختفاق ملء إهابه (٢) .

٣ — انتسب الأفغانى للماسونية وانضم إلى المحفل الماسونى الاسكتلندى بمصر ، ولما وجد أعضاء لا يتدخلون فى السياسة ، والأفغانى عمله كله متصل بالسياسة استقال منه ، وأنشأ محفلاً ماسونياً آخر (٣) .

ومن عجب أن الرجل لم يجد طريقاً آخر يخدم أغراضه غير الماسونية التى كانت وما تزال مرنج الريبة والشك ، والتى يعتقد أنها مؤسسة يهودية الجذور .

٤ — ويقول عنه الأستاذ أبو ريه انه كان ينقد المذاهب المسلك بها حتى مذهب أبى حنيفة (٤) ويتوسع فى اتیان بعض المباحث (٥) .

٥ — عاش الأفغانى فترة طويلة فى ظل رياض باشا ، وقد رأينا فيما

(١) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٨٣ و ٩٩ .

(٢) الأستاذ محمود أبو رية ص ١٧٦ .

(٣) أبو ريه ص ٩٢ .

(٤) أبو ريه ص ٩١ .

(٥) أبو ريه ص ٤١ .

سبق أن رياض قاوم النظام الدستوري ، كما قاوم حركة الإصلاح التي نادى بها عربى وزملاؤه ، وأن وزارته أقيمت برغبة العرابيين سنة ١٨٨١ •

وعاش كذلك فترة في ظل نوبار الأرمنى المسيحى الذى تحدثنا عنه من قبل ، ثم إن قرار نفيه قد صدر من البارودى باشا الذى كان ناظر الأوقاف آنذاك ، ومن الواضح أن البارودى كان قوة هائلة في الحركة العرابية ، ومن هنا فتح ندهش من الذين يقولون إن جمال الدين كان من مؤيدى الحركة العرابية ، فقد نفى من مصر قبل أن تبدأ ، وكان نفيه على يد زعيم من زعمائها هو البارودى كما سبق •

٦ — وأبرز شيء في حياة الأفغانى أن السخط والقلق والثورة كانت دائما في ركابه أنشئ حل ، وقد رأيناه كذلك في أفغانستان والهند ومصر والأستانة وإيران وكان من الطبيعى للمصلح أن يجيد التأتى ، وأن تكون دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة كما علمنا القرآن الكريم ، وأن يقيم علاقات طيبة يتخذها وسيلة لتحقيق اصلاحاته ، ولكن الأفغانى غفل تعاملا عن هذا السلوك •

٧ — كثيرون من الناس يبالفون في القول ، ويضمون نتائج لا تتفق مع المقدمات التي يوردونها ، وهم لذلك يجعلون جمال الدين الأفغانى موقظ الهمم في مصر ، ويأعت النهضة بها (١) ونقول لهؤلاء إن جمال الدين عاش في أفغانستان وفي الأستانة وفي الهند وفي روسيا وفي إيران مستين طويلة ولم تشر جهوده أية ثمرة ، ولو كان الفضل راجعا اليه لنشر فكره حيث كان ، وقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين ذلك فكتب عنه يقول : لقد جرب السيد أن يغير بذورا في فارس والأستانة فلم تثبت ، ثم جربها في مصر فالتبنت (٢) •

(١) انظر ما كتبه عنه الأستاذ الشيخ الباقورى في تقديمه لكتساب أبو ربه •

(٢) زعماء الإصلاح ص ٦١ •

من هنا فاننا نذكر الكتاب بفضل مصر وبالفكر المصرى الذى لم يغيب عن الوجود والجهود مهما كانت الأحوال • والأستاذ أحمد أمين ينبه الى أن مصر كانت ثائرة ضد المراقبة الثنائية ، وأن الخديوى اسماعيل كان يشجع أى نقد ضد التدخل الأجنبى ، ويؤيد الصحافة الوطنية مثل « الوقائع المصرىة » و « مصر » و « التجارة » ، حتى أصبحت البلاد أشبه بمستودع بنزين ، وجاء جمال الدين فكان أشبه بعود ثقاب ، ولولا هذه الظروف لخابت دعوته فى مصر كما خابت فى الأستانة (١) •

٨ — ومما يؤيد هذا الاتجاه أن الدروس المنتظمة التى كان يعلمها جمال الدين فى بيته بخان الخليلى كانت فى المنطق والفلسفة والتصوف ... وهى علوم كان الشيخ حسن الطويل يقوم بتدريسها فى نفس الوقت ، وكل ما كان من فضل لجمال الدين هو بعض الشروح والتعليقات التى كان يمكن أن تموت لولا الجو الثائر الذى صادفه جمال الدين الأفغانى بمصر •

٩ — عندما أبعد الأفغانى عن ايران وذهب الى انجلترا اتجه هناك لكتابة المقالات العنيفة ضد الشاه وحكومته وكان يستخدم فى ذلك أقسى الإلفاظ •

ويعلق الأستاذ أحمد أمين على ذلك بقوله « وهذه زلة كبيرة من جمال الدين دعاه اليها حديثه ، وحبسه للانتقام ، اذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية اسلامية فى بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل فى شئوننا الداخلية ، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، ويغسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كل الناس » •

« لقد كان محدث باشا فى موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم ، اذ نفاه « عبد الحميد » وأخذ رجاله من دست الوزارة الى السفينة ، لاهمال ولا ثياب ولا أهل • ومع هذا فما إن وضع قدمه فى أوربا حتى أخذ يسمى فى دفع الشر

عن أمته ، ويتكلم الكلام الكثير في فضل الأتراك على أوروبا ، ولا ينطق بكلمة في ذم عبد الحميد ، في الحق إنها كانت غلطة من غلطات « السيد » دعا إليها حدة مزاجه (١) .

١٠ — وأخيرا فالباحث في التاريخ يجد أن شباب الجيل الذي عاش فيه جمال الدين ، لم يرفع جمال الدين إلى الدرجة التي يضعه فيها الجيل اللاحق ، وكان الشباب في عهد جمال الدين يعرضون عنه في أخرج الأوقات ولا يرتضون رأيه ، وأما أنا على ذلك دليل قاطع ، فإن الفيلسوف « رينان » ألقى في السريون محاضرة أبرز فيها ثلاث نقاط هي :

١ — خطأ المؤرخين في قولهم علوم العرب وفنون العرب وتقدم العرب . .

٢ — الاسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر .

٣ — التعصب العربي بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها .

ولما نشرت هذه المحاضرة تصدى للرد عليها الأستاذ الفرنسي « مسمر » فألقى محاضرة أنصف فيها العرب والاسلام .

وتحضر الشباب المسلمون في باريس بتعريب هذه المحاضرة ونشرها ، وبعد بضعة أسابيع كتب جمال الدين في نفس المجلة (الدنيا) ردا على رينان ولكنه كان ردا هادئا مدح فيه رينان وأعلن بأنه استفاد من آرائه ولذلك لم يقبله الشباب المسلمون بباريس ، فلم يهتموا بترجمته أو نشره .



وقد اتهم العلامة الأفغانى بالإلحاد ، ولسنا نرى ذلك فيه بأى حال من الأحوال ، ولكن تهمة الإلحاد كانت سهلة عند بعض الناس يرمون بها من دخن السجاير أو جلس في المقهى ، ولعل مرجع هذا الاتهام

الى ما يقوله الأستاذ أحمد أمين (١) إن الأفغانى كان يدين بعقيدة المتصوفة
وهى مبهمة غامضة تنتهى بوحدة الوجود ... وعلى كل حال فجهود جمال
الدين لخدمة الاسلام والمسلمين أقوى من أن تدع حياة لهذا الاتهام الباطل .

والآن نستطيع أن نقرر وبخاصة فيما يتعلق بدوره بمصر أن جمال
الدين الأفغانى قام بدوره فى تحريك الهمم بمصر وبالعالم الاسلامى ،
وفى إثارة الشعوب الاسلامية ضد الظلم والاستبداد الذى ينبع من الداخل
أو يرد من الخارج ، ولكننا نؤكد أنه كافح مع الكافرين ، وأن الوعى بمصر
كان شديدا قبل مجيء الأفغانى بعشرات السنين ، وقد رأينا مظاهر هذا
الوعى فى مواقف مختلفة وبخاصة مع مطلع القرن التاسع عشر .

كما نقرر أنه كان فى جمال الدين حدة فى الطبع ، واتجاهات فكرية
غير موفقة ذكرناها فيما سبق ، وقد حال هذا وذاك دون نجاحه فيما كان
يمكن أن ينجح فيه ، وهذه الأشياء توضع فى الحساب وتذكر عند تقويم
الرجال .

زعامة مصرية سجلت الأفغانى وعاصمته :

وكلمة حق نقررها هى أن زعامات فى الوطنية والدين والاسترسال
للغوى كانت موجودة قبل الأفغانى فلما جاء الأفغانى اشترك فى تنمية
هذه الحركات ، فظهر جيل تلقى عنه وعن سواء من الرواد ثم خرج هذا
الجيل يحمل الأعباء فى كل اتجاه ، وإذا كنا نعرف الرواد فى مجال السياسة
والدين فإن محمد عبده يذكر بين رواد الاسترسال اللغوى عبد الله باشا
فكرى وخيرى باشا ومصطفى باشا فهمى .

وأخيرا فنحن لا نتجه أبدا لنفهم حق الرجل ، ولكننا نضع المقدمات
ونستنتج منها النتائج ، ويدهشنا أن بعض الناس يضعون نفس المقدمات
ولكنهم يقتبسون نتائج شاعت وإن كانت لا تناسب المقدمات كما قلنا من

(١) زعماء الإصلاح ص ١١٢

قبل ، وفي كلمة موجزة نقرر أن مصر عرفت النهضة في عدة مجالات قبل أن يضع الأفغانى قدمه على تربة هذه البلاد ، ومن الرواد الذين سبقوا الأفغانى أو كانوا في أوج مجدهم عند مقدمه نذكر الجبرتى (١٨٢٥) وحسن العطار (١٨٣٣) ورفاعة الطهطاوى (١٨٨٣) ومحمد شريف وعبد الله النديم (١٨٩٦) وعبد الله فكرى (١٨٩٠) وعلى مبارك (١٨٩٣) ثم جاءت الحلقة التى ضمت الأفغانى وقد نشأ عن هذه الحلقة جيل ممتاز من أمثال محمد عبده وأحمد عرابى ثم سعد زغلول وعبد الكريم سليمان . . . ولعب هؤلاء ، أدوارا عظيمة في مختلف المجالات بمصر .

ضعف كتابة الأفغانى :

بقى أن نتكلم كلمة عن الآثار المكتوبة لجمال الدين الأفغانى فنذكر أن أهمها رسالته في « الرد على الدهريين » و « تنمة البيان في تاريخ الأفغان » ثم مقالات عدة في الصحف والمجلات .

وكتابه في الرد على الدهريين عنوانه الكامل « رسالة في إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم ، وإثبات أن الدين أساس المدنية وأن الكفر يفسد العمران » وقد رد فيه على نظرية داروين في النشوء والارتقاء ، وعلى المادية التى تقول إن المادة أساس كل شئ ، وليس هناك سوى المادة ، واستطرد ليذكر أهمية الاسلام للإنسان ، ومزايا هذا الدين للفرد والمجتمع ، وأن الاسلام احترم العقل واحتكم اليه ، وساوى بين الناس دون تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو اللغة . وقد كتب الأفغانى هذا الكتاب باللغة الفارسية ، وترجمه الشيخ محمد عبده الى العربية بمساعدة بعض من يجيد الفارسية .

أما كتابه عن تاريخ أفغانستان فهو كتاب قليل الصفحات قليل الفائدة ، يتحدث بسجع لا تقبله الأذن وأسلوب لا يستساغ ، وهو يفصل القول في فترة قصيرة جدا : ولذلك فمن الخطأ أن يسمى تاريخ أفغانستان لأنه تاريخ

فرد واحد تقريبا من ملوك أفغانستان ، وقد قرأته وأنا أدوّن الجزء الثامن من هذه الموسوعة ، ولكنى لم أجد فيه فكرة واحدة تستحق الاقتباس •

وفي مقالات الأفغانى كانت تبدو رغبته فى توحيد المذاهب والقضاء على وسائل الخلافات بين المسلمين ، وضرورة الأخذ بنظام الشورى ، والقضاء على الاستبداد وعلى البدع والخرافات •

وعلى العموم فإن جهود الأفغانى فى مجال الكلمة المكتوبة كانت قليلة ، حتى أنه لم تكن له بحوث بقلمه فى مجلة العروة الوثقى كما سنرى فيما بعد ، ويبدو أن الكلمة المكتوبة لم تكن تستطيع أن تحمل الثورة التى كان يفيض بها دائما فى أحاديثه •

رحمه الله وأجزل ثوابه •

الإمام محمد عبده

الحديث عن الإمام محمد عبده محبوب الى النفس ، فقد اتسع فكر الإمام لكل ميدان من ميادين الاصلاح ، كتب في العقيدة ، ومقارنة الأديان ، والتفسير ، واشتغل بالتربية ، والقضاء ، الصحافة ، وقرأ الانسان اليوم ما كتبه الامام في القرن الماضى وفي مطلع هذا القرن فيحسن أنه سبق جيله بعبدة أجيال ، ولننش مع الامام ، فترة لنرى هذا النموذج الرائع الذى ينبغى أن يحتذى الأفاضل نهجه .

وأول ما نبدأ به تعريف سريع بالإمام لنرى خطوات حياته :

ولد الإمام محمد عبده سنة ١٨٤٥ بمحلة نصر بمحافظة البحيرة ، وغلبها حفظ القرآن ثم التحق بالجامع الأحمدي بطنطا ، ولم يرقه التعليم بالأزهر ومعهده ، فعاد الى قريته ليشغل بالزراعة ثم عاد مرة أخرى للجامع الأحمدي ، وبعد أربع سنوات اتجه الى القاهرة والتحق بالأزهر سنة ١٨٦٦ واتصل بجمال الأفغانى سنة ١٨٧٢ عندما كان هذا بمصر سنة (١٨٧٢ - ١٨٧٩) .

وفي سنة ١٨٧٧ حصل الإمام على شهادة العالمية الأزهرية ، ثم اشتغل بالتدريس في دار العلوم والأزهر ومدرسة الألسن .

وفي سنة ١٨٧٩ عُرِّل عن التدريس بهذه المعاهد وأُمر بالاقامة في قريته لا يبرحها ، وذلك في نفس الوقت الذى نفى فيه جمال الدين من مصر وذهب الى أوروبا .

وفي سنة ١٨٨٠ اكتفى بإيعاده عن الطلاب واستدعى ليكون محمرا بالوقائع المصرية ، وفي آخر العام أصبح رئيس تحريرها .

وجاءت الثورة العربية فاشتراك فيها وأيدها ، ولا أخذت حوكم

مع زعمائها وحكم عليه بالنفي من البلاد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ،
فسافر الى بيروت ، وبقي بها ضِعف هذه المدة لسخط الخديوى عليه .

واستدعاه جمال الدين الأفغانى الى أوروبا حيث اشتركا فى اخراج
مجلة « العروة الوثقى » حتى توقفت كما ذكرنا عند الكلام عن جمال الدين .

وفى سنة ١٨٨٩ أذن له بالعودة الى مصر وعين قاضيا بمحكمة بنها
الأهلية ومنها انتقل الى محكمة الزقازيق فمحكمة عابدين ، وفى العام التالى
عين مستشارا بمحكمة الاستئناف الأهلية ثم مفتيا للديار المصرية سنة ١٨٩٩
وعضوا فى مجلس شورى القوانين .

وفى سنة ١٨٩٤ عين عضوا فى مجلس إدارة الأزهر .

وتوفى الأستاذ الامام سنة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م .

وأبرز مؤلفات محمد عبده كتابه « الاسلام والنصرانية مع العلم
والمدنية » و « رسالة التوحيد » و « تفسير سورة عم » ، وبعض سور
أخرى من القرآن الكريم .

تلك هى مراحل حياة الامام ومؤلفاته ، ولنا وقفات تحليلية قصيرة
مع هذه المراحل والمؤلفات :

محتده ونشأته الأولى :

كتب محمد عبده عن أبيه بأنه كان واسع النفوذ فى البلدة ، يقصده
الناس والحكام ، وأن أمه كانت كثيرة العطف على الفقراء والمحتاجين ،
وقد تعلم فى صباه الرماية والسباحة ، وحفظ القرآن فى القرية ، وجؤوده
بالجامع الأحمدي ، وكان حطة واضحا وأقرب الى الجمال .

الأزهر ومشكلاته :

التحق الإمام بالجامع الأحمدي وهو أحد معاهد العلم الأزهرية ،

وقد رأى الإمام في هذا الجامع كثيرا من البدع والخرافات التي أُرغمت ،
وهي ترتبط بالنذور وطلب كل شيء من السيد البدوي الذي كان يهرع اليه
الناس من كل حدب ، وبالإضافة الى هذه البدع التي كانت ترتكب باسم الدين ،
رأى محمد عبده طريقة التعليم العقيمة بالأزهر من ناحية موضوعاتها وكتبها
وأدائها ، فأفزعته ، وهو يصفها ويصف حاله معها بقوله « قضيت سنة
ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة التعليم ، فأدركني اليأس من النجاح ،
وهربت من الدرس ، واختفيت عند أخوالي هربا من أبي ، ثم عثرت على
أخي وأخذني الى المسجد الأحمدي وأراد إكراهي على طلب العلم فأبيت ،
وقلت له : قد أيقنت ألا نجاح لي في طلب العلم ، ولم يبق علي إلا أن
أعود الى بلدي واشتغل بالزراعة » وتغلبت عليه وعدت للبلدة
وتزوجت على هذا الأساس سنة ١٨٦٥ » .

ويكمل الأستاذ كلامه عن الأزهر بقوله « وهذا الأثر هو الذي يجده
٩٠٪ من الأزهريين ، ولكن أغلبهم تفتشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا
شيئا ، فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال وهم في أحلام
الاطفال ، ثم يبتلى بهم الناس ، وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية ،
لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده رغبة في الاسترشاد
ويؤثرون من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس
بعلمه » .

والتقى بعد ذلك بخال أبيه واسمه الشيخ درويش ، وهو شخصية
مستترة فيها جانب من التصوف ممتزج بمتعاليم السنوسية والوهابية وكان
هذا اللقاء ذا أثر كبير في محمد عبده ، ومنبع هذا الأثر هو شخصية الشيخ
درويش ، وما كان يحظى به في مجتمعه من اجلال وتكريم ، بسبب علمه
ومعارفه ، مما جعل محمد عبده يتمنى أن يكون مماثلا له ، ومن جهة
أخرى فقد اتجه الشيخ درويش لتطويع محمد عبده ، ولتوجيه اتجاهات
مختلفة ، فمرة يعطيه كتابا سهلا في الآداب والأخلاق فيستسيغه محمد عبده

ويقبل عليه ، ومرة أخرى يثبت في روعه أنه سيقابل في مستقبله علوما كثيرة
جديرة بالتقدير وأن العلوم التي أفزعته ليست كل شيء ، وتأثر محمد عبده
على كل حال ، وعاد الى الأزهر من جديد ، ولم يقنع بعلوم الأزهر بل
أنصاف لثقافته ألوانا من الفكر يوما بعد يوم .

وتخرج من الأزهر ، وعلم فيه ، ولكنه لم يقنع بالنظم التي كانت
سائدة ، بل اتجه لتربية العقل ، وتهذيب الأخلاق ، والتعرف على الحركات
العالمية ، ومن هنا فقد كان يقرأ لبعض طلابه تهذيب الأخلاق لمسكويه ،
كما كان يدرس التوحيد وتاريخ المدنية في أوروبا ، وعلم الاجتماع والعمران ،
ووثق صلته بالحياة العامة مما جعل شخصيته تتجه اتجاها فريدا في حينه .

واتجه محمد عبده لإصلاح الأزهر وبخاصة بعد أن أصبح عضوا في
مجلس ادارته ، وبعد أن اختط نهجا جديدا في التأليف وفي دراسة العلوم
الاسلامية .

ولكن كانت هناك جماعة ترى الاصلاح ضلالا ، فوقفت في سبيله ،
ولم تمكنه من تنفيذ اصلاحاته بالأزهر ، وهاجمته ، ومات هؤلاء وبقي فكر
محمد عبده ومنهجه يصارع الأحداث وسيظل يصارع حتى يتم له النص .

مع جمال الدين الأفغانى :

حضر جمال الدين الأفغانى الى مصر سنة ١٨٧١ وسمع المثقفون عنه
فزاروه وجلسوا اليه ، وجرت في مجلسه محادثات وبحوث اشترك فيها أكثر
الحاضرين ، وأبرز محمد عبده اتجاهاته وشرح خواطره ، ويتجه بعض
الناس الى جعل محمد عبده تلميذا للأفغانى ، وعندي أن هذا الاتجاه
لا يستقيم ؛ فمحمد عبده كانت له شخصيته ، وكان يختلف مع الأفغانى
في نقاط هامة هي :

١ — الأفغانى كان يبذل جهده كله في السياسة ، وقد انتقد محمد

عبدہ فیہ هذا الاتجاه ، وعابه علی نبیاء المسلمین ودعاهم الی العناية بالتربية
كما ذكرنا من قبل •

٢ — الأفغانی كان یمیل للثورة ، اذ كان حاد الطبع كما وصفه الإمام ،
أما محمد عبدہ فیمیل للشرح والعرض والتيسان •

٣ — اصلاحات محمد عبدہ كانت نابغة من تجربته التي لم يمر بها
الأفغانی وتجربة محمد عبدہ هی ملاحظاته وحياته بالجامع الأحمدی
وبالأزهر •

ومن هنا فمحمد عبدہ لم یکن تلميذا للأفغانی وإنما كان مفكرا عاصره
وعمل معه ، انتفع به حیثما أراد ، ولا نقول أنه نفعه ، فالأفغانی كان
عازفا عن التلقی وتغيير برنامجہ ، وقد رأیناه عندما دعاه محمد عبدہ
للعناية بالتربية والتقليل من الحماسة فی السياسة یقول له : أنت مثبط •

والذي أكد لنا أن محمد عبدہ لم یکن تلميذا للأفغانی أن منهاج محمد
عبدہ الاصلاحی معروف وستورده فيما بعد ، وعندما نقارن هذا المنهاج
بجهود الأفغانی لا نجد صلة بينهما ، وهذا يؤكد أن منهاج محمد عبدہ نابغ
من تجربته ومن ذاته ، صحيح أن محمد عبدہ ذكر أنه تعلم من الأفغانی ،
ولكن يبدو لی أن ذلك من باب المجاملة من جانب وأنه من جانب آخر كان
فی المجال العام ، ولكن لا ریب عندی فی أن لمحمد عبدہ خطا خاصا منبثقا
من داخله •

• محمد عبدہ المدرس :

عنى محمد عبدہ عناية كبيرة بالتدريس ، فوقف مدرسا بالأزهر ویدار
العلوم ومدرسة الألسن ، وكان التدريس عنده وسيلة لتربية النفس وبعث
روح الوطنية والدين به ، وتعليم الشباب حقوقهم لدى الحاكم وواجباتهم
نحوه ، ومحمد عبدہ بذلك يضع النموذج للمعلمین ألا یقفوا أمام المنهاج

سندنة ، بل أن يجولوا ويصولوا في الموضوعات التي تشغل بال الطالب وتجذب نفسه ، وكان محمد عبده بذلك رائدا عظيما ومربيا كبيرا ، وقد أدرك أنه يستطيع أن يقيم له مدرسة فكرية بجوار المعاهد التي يعلم بها ، فجلس بمنزله بذرب سعادة ليؤممه كل طالب معرفة دون ملاحظة سن أو حرص على نيل درجة علمية ، واتجه كذلك لتأليف الكتب في الموضوعات التي كانت تشغل الأذهان فملا فراغا واسعا بين المثقفين ، وأصبح بذلك مدرسة متعددة الجوانب ، وقد أدرك الخديوى توفيق خطره فأبعده عن موقف العلم . وعندما عفا عنه اتجه لتوجيهه للصحافة أو القضاء وليس لمعاهد العلم .

محمد عبده الصحفي :

اتجه محمد عبده للصحافة منذ مطلعها في مصر ، فقد كان أحد كتاب جريدة الأهرام من العام التالى لانشائها أى من سنة ١٨٧٦ وكانت آنذاك أسبوعية ، واتخذ في الأهرام طريق المقال الذى يعالج قضية من القضايا الدينية أو الاجتماعية .

وعندما اتجه الخديوى توفيق للعفو عن محمد عبده أصر على أن يبعده — كما قلنا آنفا — عن التعليم فعينه محررا في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) ثم جعله في آخر العام رئيس تحريرها ، وكان هذا التصرف وهما من الخديوى ، فقد كانت الوقائع الرسمية مقصورة على نشر البيانات الرسمية والقرارات الحكومية ، وحسب الخديوى أن محمد عبده سيسير بها في هذا النطاق ، ولكن هذا انتقل بها مسافات واسعة للأمام فقد جعل منها منبرا ينبعث منه صوت الفكر ، ومدرسة واسعة النطاق تحرك كلماتها النفوس وتهيج العواطف ، وذلك بأن عقد بها دراسات عن الإصلاح المنشود ووجوه ووسائله ، ودعا الى التعاون على الخير ، وحذب فكرة الحرية ورفع المظالم عن الشعب ، وعاب على الشعب كسله وتواكله ، ونادى بإصلاح التعليم وجمل على الرشوة ، وبين أن الحق

للقانون لا للقوة ، وعالج اصلاح المجتمع والأسرة ، وانتقد الذين يريدون الرقى طفرة ووثوبا ، ودعاهم الى أخذ سبيل الاصلاح بالتدريج .

وتحدث عن تطهير الاسلام من البدع ، وضرورة العودة للإسلام الصحيح ، « مباشرة الاجتهاد في الأمور التي جدت بعد عصر الاجتهاد » .
وحارب السفرة ، ودعا الى السلام والائفاء بين الناس .

وهكذا قدم محمد عبده للصحافة طريقا لم يكن معروفا من قبل ، وخلق على الصحافة من عقله وفكره فذاع صيته وعلا شأنه .

وعند ما نفى من مصر وسافر الى بيروت استدعاه الأفغانى ليصدرا معا « العروة الوثقى » وقد تكلمنا عنها من قبل ، ويقول محمد عبده : كان الفكر للأفغانى والعبارة لى ، وكان الغرض منها السعى لجمع كلمة المسلمين وابقاظهم من رقسادهم .

ومن المجالات التى حظيت بعناية الإمام « المنار » التى كان يصدرها رشيد رضا وكان لعلم الإمام فيها جولات عظيمة .

وهكذا كانت الصحافة مدرسة وجد فيها محمد عبده بديلا لما فقدته من وقفات فى معاهد التعليم .

محمد عبده والثورة العربية :

قلنا من قبل إن طريق محمد عبده للإصلاح كان الكلمة والدعوة بالحكمة ، ولم يكن يرى أن تكون الثورة فى يد العسكريين (١) ولكنه مع هذا كان يدخر فى داخله فكرا وطنيا متأججا ضد الظلم والغشم الذى كان يمثلته الخديوى توفيق والاستعمار ، ولذلك ما إن هبت الثورة العربية حتى تناسى خطته الهادئة واندمج فى الثورة ، وزاد من اشتعالها ، وألقى فيها

من عقله ووطنيته مازادها قوة ولهيبها ، ولذلك حوكم مع من حكموا بعد فشلها وكانت عقوبته النفي ثلاث سنوات وثلاثة أشهر بعيدا عن البلاد فرحل الى بيروت •

ولكن وطن الإمام كان فسيحا : نراح ينشر فكره حيث حل : وعمل لتحقيق أهدافه في كل مكان نزل به ، وكان له في بيروت منتدى يؤمه كثير من المريدين والمثقفين •

محمد عبده والقضاء :

وعندما عاد محمد عبده من المنفى أبعدته الخديوى عن المعاهد والصحافة جميعا وعينه في القضاء والافتاء ظنا منه أن ذلك ينأى به عن تربية الأجيال ولكن محمد عبده خطا في هذا المجال خطوات طيبة ، وكان من أهم الأعمال التى قام بها في هذا المجال التقرير الذى قدمه سنة ١٨٩٩ عن الحالة التى آل لها القضاء الشرعيون (١) واقترح في نهايته إنشاء مدرسة لتخريج القضاة الشرعيين ، وتغلب هذا الاقتراح على تعويق اللورد كرومر الذى كان لا يريد للمحاكم الشرعية قوة أو وجودا ، وتكونت لجنة برئاسة محمد عبده وقدمت تقريرا بضرورة إنشاء مدرسة للقضاء الشرعى وأنشئت هذه المدرسة وكان لها مكان محمود في عالم الفكر والقضاء •

ومما عمله الإمام وهو في مناصب القضاء أن أدرك ضرورة إجادته للغة الفرنسية التى كانت تستعمل منها أكثر القوانين آنذاك ، حتى يأخذ مكانته بين القضاة والمستشارين الذين يفخرون بإجادة هذه اللغة ، وقد استطاع أن ينجح في هذا المجال فأجاد اللغة الفرنسية قراءة وكتابة وحديثا وكان يقول : من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوروبية فلا يعد عالما في هذا العصر •

(١) انظره في كتاب « تاريخ التشريع والقضاء في الإسلام » للمؤلف ص ٣٠٥ — ٣٠٦ •

مؤلفات الإمام :

يمد الإمام محمد عبده من رواد العصر الحديث الذين اتجهوا نوعاً ما إلى إحياء علم « مقارنة الأديان » بكتابه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » الذي وضع فيه موقف الإسلام والنصرانية من المعرفة والحضارة ، ومن مؤلفاته تفسير « جزء عم » وهو مطبوع متداول وتفسير سور أخرى من القرآن الكريم نشرت له في مجلة « المنار » وقد نحا نحواً جديداً في منهاجه في التفسير فاهتم بفهم الدلالة اللغوية للآيات الكريمة ، وطرح البدع والخرافات والاسرائيليات ، واستخدم العقل فيما انتهى له التقدم العلمي مما له صلة بالقرآن الكريم ، ومن مؤلفاته « رسالة التوحيد » وقد صور في هذه الرسالة العقيدة الإسلامية تصويراً سليماً .

منهاج الإسلام الاملاحي :

كتب الشيخ محمد عبده بقلمه في ترجمته لنفسه ، ملخصاً لمنهاجه الاملاحي قال فيه : « أرفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى ، واعتبار الدين من موازين العقل البشري التي وضعها الله لتردد من شططه ، وتقلل من خلطه وخطئه ، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، والعين على هذا الوجه يمد صديقاً للعلم باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة .

« وأما الأمر الثاني : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ، سواء كان ذلك في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومعالجتها أو فيما يكتبه الأفراد في الصحف أو المراسلات ، أو كان في

الترجمات من لغات أخرى ، وكانت أساليب اللغة العربية متمثلة بين أشكال وأنماط غريبة ، وبين سجع وجناس ردى .

« وهناك أمر آخر كنت من دعاة والناس جميعاً في عمى عنه ، زبُذُدر عن تعقله ، ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .. ، نعم كنت ممن دعا الأمة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها .

« دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول أو الفعل .

« جهرنا بهذا القول ، والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس عبيد له وأى عبيد .

« نعم إننى فى كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أننى كنت روح الدعوة ، وهى لا تزال فى كثير مما ذكرت قائمة .

« ولا أبرح أدعو الى عقيدتى فى الدين ، وأطالب بإتتمام الإصلاح فى اللغة ، أما أمر الحكومة فقد تركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبيره ، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال ، فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن . والله المستعان » .

مأخذ ومناقشتها :

عاد محمد عبده من المنفى بعد أن قضى به ست سنوات أى ضعف

المدة التى حكم عليه بها تقريبا ، وكان ذلك بسبب سخط الخديوى
توفيق عليه ، وفى مصر واجه محمد عبده الانجليز وتوفيق فماذا كان
رأيه فيهما ؟ •

إن محمد عبده وضّح رأيه فيهما إيضاحاً دقيقاً ، فقد سأله وزير
الحربية الانجليزى السؤال التالى : ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن
وراحة تحت سلطة الانجليز ؟؟؟؟؟ ؟ فأجاب محمد عبده بقوة قائلاً :
إن المصريين يحبون أوطانهم حب الشعب الانجليزى لبلاده ، والنفرة من
ولاية الأجنبي من طبيعة البشر ، هذا بالإضافة الى التعاليم الإسلامية
فى هذا الشأن •

وعن الخديوى توفيق يقول محمد عبده : إن توفيق باشا أساء إلينا
أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخول الانجليز بلادنا • ورجل مثله انضم الى
أعدائنا أيام الحرب ، لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، إننا لا نريد
خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية •

ومع هذا فعندما عاد محمد عبده من منفاه ، وجد أن السلطة
الكاملة فى يد الإنجليز ، وأن نفوذهم قد امتد الى جميع المواقع ، وأن
وسيلة الإصلاح الذى ينشده لابد أن تكون عن طريقهم ، ومن هنا قدم
تقريره عن اصلاح التعليم الى اللورد كرومر ، وطلب صورا مختلفة من
الإصلاحات عن طريقه ، وقد أثار عليه هذا الاتجاه كثيرين من الناس ،
فالخديوى اتخذها وسيلة ليثار لنفسه منه ، والحزب الوطنى عارض فيه
هذا الاتجاه ، بقيادة الأزهر كانوا ينافسون محمد عبده ويضيقون
بإنبعاثاته الإصلاحية التى تهاجم فكرهم وتراثهم فانضموا الى معارضيه ،
وفى هذا الجو عانى محمد عبده فترات مريرة وشهّرت به الصحف
والمجلات ، وكان يحاول ، بلئن على حساب أعضائه وصحته • ومات

رحمه الله ، واحتفلت الحكومة بتشيع جنازته ، ولكن الخديوى أنعب من
اشتراك فى تشييع جنازته من رجال الحاشية وأعوان القصر ..

وإذا كان محمد عبده قد مات فإن أفكاره لم تمت ، وكيف تموت
أفكار حافلة بالأصالة والعمق ؟ لنجد أصبح محمد عبده الآن موزع الرضا
والتقدير بين أكثر طبقات الأمة •

رحم الله محمد عبده ، فقد كان من خيرة من عرفتهم البلاد فى
الوطنية والعبقرية والعمل الدائب لخير الإسلام والمسلمين •

٤ — فترة تعدد السلطات

من الاحتلال البريطانى الى الحرب العالمية الأولى

١٨٨٢ — ١٩١٤

الخدبوى توفيق (١٨٧٩ — ١٨٩٢) :

عُزل اسماعيل وتولى توفيق كما رأينا من قبل وكان توفيق ضعيفاً ، يحس من أول يوم أنه مدين بعرشه الى القوة الأوروبية التى جاءت به الى هذا العرش ، وكان الوعى العام يقوى ، وثورة الشعب على السلاطين الذين جلبوا له الدئىن والنفوذ الأجنبى تشتد ، وكل هذا دفع « توفيق » الى أن يلقى بنفسه فى أحضان الغرب لينتقى بهم حـولة المصريين .

توفيق ورياض ورفقى : ثلاثى ردىء :

وكان شريف قد استقال وجاء بعده رياض ، ولهذا حظوة لدى الأوروبيين حتى كان ينعكـد ممثلاً لهم ، ومحققاً لـزغباتهم ، فنافس بهذه المكانة الخديوى الذى كان لا يريد أن يشاركه أحد فى القرب من أولياء نعمته ، ثم كان وزير الحربية فى هذه الوزارة هو عثمان رفقى ، وهو شركسى متعصب ، تخطى المصريين فى الترقية وقصرها على بنى جنسه ، فقدم زعماء الجيش المصريون (عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى) شكوى ضده وطالبوا بعزله ، وكان نتيجة ذلك أن استدعاهم عثمان رفقى الى ثكنة قصر النيل وهناك قبض عليهم وزج بهم فى المعتقل ، ولا تأخرت عودة هؤلاء الزعماء زحفت قوة من الجند وأخرجتهم بالقوة من المعتقل ، وسار هؤلاء جميعاً الى « عابدين » فيما يعرف بمظاهرة عابدين الأولى مطالبين بالإنصاف والعدل وبسرعة عزل رفقى من الوزارة وتم لهم ذلك فى فبراير سنة ١٨٨١ .

ومن هنا بدأت الأحداث تتوالى عرابى الذى سرعان ما انتقل

من ممثل للجيش الى ممثل للأمة ، إذ تلقى توقعيات الأمة بتفويضه للحديث باسمها ، وانتقل من قائد يناهض الاضطهاد الواقع على الضباط والجنود الى زعيم يرد الاعتداءات عن المصريين ويناهض أعداءهم ، وبهذا أصبحت ثورة عرابى حركة قومية يتمثل فيها اندم العربى والفكر الإسلامى ، واتجهت هذه الحركة الشعبية لتواجه القوى المختلفة التى تأكفت ضد مصالح الشعب ، فلنبداً حديثنا بإيجاز عن عرابى وعن الثورة العرابية ونتائجها :

الثورة العرابية والاحتلال

نضع فيما يلى الخطوط العريضة لجريات الأحداث فى هذه الفترة الدقيقة :

— عزّل رفقى باشا وعين محمود سامى البارودى بدلا منه وزيراً للحربية ، فى فبراير سنة ١٨٨١ وعُدّ هذا انتصاراً لعرابى وزملائه .

— بدأ عرابى يوسع فى سلطانه ، فلم يكف بأن يكون متحدثاً باسم الجيش ، وإنما أخذ يجمع التوقعيات من الأهالى والأعيان ليتحدث باسمهم ويطالب بتحقيق آمالهم الوطنية كما ذكرنا آنفاً .

— عُدّ البارودى مسئولاً عن ذلك وعن جرأة رجال الجيش ، فعزله رياض فى أغسطس سنة ١٨٨١ وعين بدلا منه داود يكن وزيراً للحربية وهذا ابن أخى الخديوى فئاتر ذلك رجال الجيش .

— قام عرابى بعد ذلك بمظاهرة عسكرية فى ميدان عابدين (سبتمبر سنة ١٨٨١ وهى مظاهرة عابدين الثانية ، قدم فيها مطالب الأمة الى الخديوى ، وهذه المطالب هى إقالة وزارة رياض ، وتشكيل مجلس نواب ، وزيادة عدد الجيش ، وإنصاف الضباط المصريين .

— واستجاب الخديوى مكرها لهذه المطالب فعين شريف رئيساً

للوزارة ، وتم تكوين مجلس شورى النواب الذى أصر على فحص الميزانية فأثار بذلك مخاوف إنجلترا وفرنسا ، وقررتا ضرورة التدخل الحازم فى شئون مصر ، وأعلنتا مسئوليتهما لحماية عرش الخديوى ، وعقد ذلك تدخلا صريحا فى شئون مصر ، ولكن الخديوى رحب به .

— واستقالت وزارة شريف لعدم استطاعتها التوفيق بين الاتجاهات المختلفة ، وتألقت وزارة البارودى فى فبراير سنة ١٨٨٢ وعين عرابى وزيرا للحربية بها ، وكمل بذلك نفوذ العرابيين ، وزاد قلق الدول الاستعمارية .

— وحدثت مؤامرة جرمسية للقضاء على عرابى ، ولكن أحد المتآمرين أفشى سرها فقبض عرابى على المتآمرين وفيهم رفقى باشا ، ووقعت عليهم عقوبات تشمل النفى والتجريد من الرتب والأوسمة ، ويبدو أنه كان للخديوى يد فى هذه المؤامرة ، ولذلك حاول التخفيف من الأحكام التى صدرت ضد الذين قاموا بها ، ولكن الحكومة رفضت ذلك ، وظهرت إشاعات باتهام الخديوى ، وبالتفكير فى إخلاءه ، فألقى هذا بنفسه بين أحضان إنجلترا وفرنسا .

— أرسلت إنجلترا وفرنسا أسطولا مشتركا الى مياه الاسكندرية لحماية الخديوى ولحمية الجاليات الأوروبية ، وسافر الخديوى من القاهرة الى الاسكندرية ليكون على مقربة من هذا الأسطول ، ثم انسحب الأسطول الفرنسى وانفرد الأسطول الانجليزى بالبقاء .

— خشى عرابى من تدخل الأسطول فأخذ يحصن المدينة ويرمم قلاعها .

— حدث شجار بسيط بين رجل مالطى وبين رجل مصرى ، وتطور هذا الشجار الى خلاف بين المصريين والأجانب ، وساد الهرج والاضطراب .

— طالب قائد الأسطول التوقف عن أعمال القرميم والتحسين ،
ولما لم يستجب له عرابي ضرب المدينة في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم احتل
الجنود الانجليز المحينة في الثالث عشر من نفس الشهر ، وسارع عرابي
لقاومتهم وأنزل المصريون بهم كثيراً من الخسائر ، ولكن الانجليز استداروا
ليدخلوا مصر من الجهة الشرقية عند قناة السويس ، ولم يكن ذلك قد
غاب عن عرابي ، فقد حاول ردم القناة ولكن ديليسبس طمأنه بأن حيدة
القناة لا تسمح للسفن الانجليزية الحربية بالعبور بها ، وخدع عرابي
بهذا الوعد وركز نشاطه في الشمال ، ولكن الانجليز استداروا ودخلوا
من القناة ، وأسرع عرابي لمقابلتهم عند التل الكبير ولكنه هزم في المعركة
هناك ووقع أسيراً .

— عضد الخديوي الانجليز ودافع عنهم من أول زحفهم ووصف
هذا الزحف بأنه مشروع ، وعزل عرابي وعده خائناً ، وكل هذا كان
من أسباب هزيمة العرابيين واحتلال مصر ، وفي أثناء الصراع انضمت الدولة
العلية الى الخديوي والى الانجليز في هذا العدوان ضد عرابي وضد
الشعب المصري .

— وهوكم عرابي وزملائه فصحر الحكم عليهم بالإعدام . ثم
خفف الى النفي والتجريد من الرتب العسكرية ومصادرة أملاكهم ، ولم
ينفذ حكم الإعدام إلا في سليمان داود الذي أمر بحرق الاسكندرية
حتى لا تقع في أيدي الانجليز ، ونفى زعماء الثورة الى سيلان ، ومات
منهم في النفي عبد المال حلمي ومصمود فهمي ويمقوب سامي ، وعاد طلبه
عصمت والبارودي وعرابي وعلى فهمي فقصوا آخر أيامهم في الوطن
وماتوا به .

عرابي في الميزان :

قبل أن ندع عرابي يجدر بنا أن نقرر ان الحماسة الوطنية عنده
كانت أعق عن الحرص والاستعداد ، لقد كانت كل القوى تقف في وجهه

عرايى ، كان الباب العالى يقف ضده ، وكان الخديوى يعارضه لأنه عرف أن النهضة الوطنية سيكون فيها قصاء عليه ، وكان الانجليز والفرنسيون ودول أوروبا بوجه عام ترمجر وتتطلع لالتهام إفريقيا ، ولكن ذلك فيما يبدو غاب عن ذهن عرايى ، كان الشراكسة والعناصر الأجنبية بالجيش والحكومة يناهضونه ، والرتسوة اللعينة كانت تنساب فى الظلام فتقتل بسمومها بعض الضباط أمثال الخائن على يوسف الذى أدخل الطريق للانجليز عند التل الكبير ، وكان بعض ذوى المصالح يطمعون فى إقطاع الخديوى ومكافأة الانجليز ، فأزروا القوى المعتدية ، ومن هؤلاء عرب الهنادى وعبد الشهيد بطرس وآخرون . ولم يُعَدَّ عرايى لهذه القوى العدة اللازمة ، وزاح بجيش قليل العتاد والذخائر يواجهه كل هذه القوى .

وخُدع عرايى أيضاً بكلمة قالها له ديلينبىس بأنه لن يسمح لأية قوى باختراق حياد القناة ، ونسى عرايى أن ديلينبىس أكثر حياءً لبلاده وللخديوى الذى يمثل مصالح الغرب من حبه لمصر ولشعب مصر .

لقد كان عرايى رجلاً عسكرياً حسن النية ، ولكنه لم يكن سياسياً ، وقد كان من الممكن أن يقنع عرايى ببعض ما حصل عليه من مطالب للامة دون أن يبائع فيطلب أسعى الأهداف من غير وسائل كافية لتحقيق مطالبه ، فسلكهم المجد يحسن أن يرقاها الإنسان درجة درجة ، ولكن عرايى أراد الطفرة ، ولم يكن الوقت قد آن لذلك ولا كانت معه مؤهلاتها فسقطت وسقطت معه البلاد تحت الاحتلال .

تضاييا حول عرايى :

بقيت نواح مهمة تتصل بعرايى وبالثورة العرابية نشير لها فيما يأتى :

أولاً — لقد ذكرنا آنفاً أن الخديوى توفيق كان خائناً كالخ الوجه ، وكان الشعب كله يقف منه موقف العداء ، لأنه ألتى بنفسه فى أخضار

عدو البلاد ، ولكننا يجب أن نذكر أن هذه الخيانة لم تكن طابع الأسرة المالكة كلها ، فقد كان منها عدد كبير في قمة الشرف والأمانة والوطنية ، فعندما احتاجت الثورة للمال تقدم الشعب بسخاء ليساعد الثوار ، وتقدم مع الشعب عدد كبير من الأسرة المالكة في قماتهم الأميرة « خوشييار » أم الخديوى اسماعيل التى تبرعت بالكثير مما تحتاجه الحركة العربية واقتدى بها كثيرات من الأميرات •

واستمر تأييد المخلصين من الأمراء والأميرات لعرابى بعد هزيمته ، فقدمن له الهدايا وهو في طريقه الى المنفى ، وكن يصرحن بأن الحركة كانت لخير مصر والمصريين ، ولذلك كان تأييدها واجبا على كل مصرى ومصرية •

إننا نحى هؤلاء المخلصين الأوفياء بنفس القوة التى نلن بها الخونة والانتهازيين •

ثانيا — من النقاط غير الواضحة في التاريخ أن عرابى عقب هزيمته أسرع للقاهرة وسلم نفسه لسلطات الاحتلال البريطانى والانسان يتساءل : هل فعل عرابى ذلك لثقتة في عدالة هذه السلطات وثقتة كذلك في أن حنق الخديوى لن يرحمه وسيدفع به للمقصلة ، فاحتوى عرابى بأخف الضررين ؟

وقد كان من نتائج هذا التصرف من عرابى أن اتهمه بعض المفكرين بأن الثورة كانت صناعية ، وأن اتفاقا سابقا حدث بين عرابى والانجليز ليقوم بثورة يفتح بها الباب لدخول الانجليز ، وساعد على ذلك أن الانجليز عملوا بكل الجهد حتى لا يحكم على عرابى بالاعدام •

والذى يعرف خلق الأوربيين يدرك أن نجاح الاحتلال يضع نهاية للحق ، ويدفع هؤلاء لإظهار نوع من التسامح لجذب القلوب نحوهم ، وتهدة الشعور تجاههم ؛ ومن أجل هذا نجد أن الشعب الانجليزى

يسهم في توكيل محام انجليزي ليدافع عن عرابي ، وعلى الرغم من الصراع بين عرابي والانجليز ، فان شعور الكثير من الانجليز كان يتجه لاحترام المواطن المخلص لبلاده ، ولذلك لا نستبعد أن ينال عرابي احترام الانجليز .

ثالثا — من سياسة الانجليز بعد احتلال مصر أن عملوا على تحقيق بعض آمال المصريين التي كان المصريون شديدي الحرص على نيلها ، لقد حاربوا السخرة والظلم ووضعوها حدًا للتفوق الشركسي في المجتمع وفي الجيش ، وكانوا بذلك يطمعون في التقرب من المصريين ، وخلق طبقة من المصريين تدين للانجليز بمكانتها الاجتماعية والاقتصادية .

وهذا الموقف يساعدنا كذلك على فهم النقطة السابقة وهي موقف سلطات الاحتلال من عرابي ورفاقه لنفس الغرض الذي ذكرناه وهو خديعة المصريين والتقرب اليهم .

ويرى المؤرخ أن الطبقة الجديدة من المصريين التي تكوَّنت على هذا النحو هي التي ساعدت على قيام ثورة ١٩١٩ وهي التي قادت الثورة ، بعد أن خلا الميدان من الأتراك والشراكسة ، وظهرت طبقة مصرية تماما تعبر عن احساس المصريين .

رابعا — وبالتالي فإن نجاح ثورة ١٩١٩ ووضع الدستور وقيام البرلمان والوزارات المصرية وما تلا ذلك من تمصير واسع للنظام الاقتصادي وجعل الوظائف المصرية للمصريين ، والامتناع في امتلاك الأراضي والثراء وإنشاء الجامعات وما تلا ذلك من بروز طبقة عالية الثقافة بمصر ... كل ذلك مهد لحركة الجيش سنة ١٩٥٢ التي قضت على الحكم الملكي الذي وضع توفيق بذور فساد ، ولم يتوقف فيه هذا الفساد حتى اختفى .

وعلى العموم فإن فشل عرابي استتبع الاحتلال المريع ، الذي قاومته

مصر أكثر من سبعين عاماً ، قدمت خلالها أغلى الدماء لتتراجع أقدام العدو اللعين عن الوطن المقدس .

في أعقاب الاحتلال :

كان من الخدع التي قامت بها بريطانيا بعد الاحتلال أن أذاعت أن احتلالها للبلاد احتلال مؤقت ريثما تستقر سلطة الخديوى ويتم الاطمئنان على سلامة الرعايا الأجانب ومصالحهم ، ولكن أعمالها كانت تتم عن إصرار على تطويل الاحتلال ، فقد اتجهت لفحص شامل لحالة مصر ، وعهدت بذلك الى اللورد « دوفرين » فاقترح إنشاء جيش صغير جديد يرأسه ضباط من الانجليز وتكون المواد والأسلحة اللازمة له من إنجلترا ، ولذا أغلقت المصانع التي كانت موجودة بمصر ، كما أزيلت البحرية المصرية وعطلت ترسانة الاسكندرية ، وأصبحت مهمة الجيش المحافظة على الأمن الداخلى ، واقترح دوفرين كذلك إلغاء الحكم النيابى كما اقترح بعض الإصلاحات مثل تنظيم الرى وتخفيف الضرائب عن الفلاحين واصلاح الشرطة ، وقنع بعض الناس بهذه الإصلاحات ، وبالهدوء الذى أعقب العاصفة ، وراح آخرون لا يشغلهم شيء عن تحرير بلادهم من العدو أو من الأعداء الذين تألبوا عليها ، ولئن فشلت ثورة عرابى فينبغى أن نتذكر أنها كانت تمثل حلقة فى سلسلة الثورات التى هبت لتحرير مصر من العثمانيين والمماليك الطغاة ومن الخونة من أسرة محمد على ، واذا قُصِى بالفشل على حلقة من سلسلة الثورات فلم يكن ذلك فى الواقع إلا نقلا لقوتها الى الحلقة التالية ، وهذه هى طبيعة الثورات فى كل الأزمنة وكل الأرجاء .

تعدد السلطات :

ترك فشل ثورة عرابى البلاد خاضعة لعدد من السلطات : كان فى قمتها الانجليز ، وكان منها العثمانيون الذين كان لهم السلطان الشرعى ، ومنها الخديوى الذى كان الحاكم المباشر ، ومنها الشعب الذى سرعان

مما بدأ ينفخ عن نفسه غبار الهزيمة ويهب من كبوته ، ومن أجل هذا سمينا هذه الفترة بفترة تعدد السلطات .

على أن سلطة الانجليز أصبحت فوق كل السلطات ، وكان اللورد كرومر — الذى يمثل انجلترا — هو الحاكم الفعلى لمصر ، وقد دامت سطوته ٢٤ عاما بدأت بالاحتلال وانتهت عقب مأساة دنشواى ، ومن الناحية المالية صدر مرسوم بإلغاء الرقابة الفئائية ، وأصبح المستشار المالى الانجليزى هو صاحب الأمر والنهى فى الشؤون المالية .

تثبيت الاحتلال :

أما العلاقة بين انجلترا والباب العالى فقد بدا واضحا فى أول الأمر أنه لا بد من تسويتها بطريق أو بآخر ، فقد استغلت انجلترا الباب العالى فى احتلالها لمصر ، ولو بدأ الاحتلال بدون تأييد الباب العالى وبدون تأييد الخديوى لصادفت انجلترا ألوانا من المتاعب ، ومن أجل هذا أرادت انجلترا من حين الى آخر أن تظهر للباب العالى حُسْن نواياها واستعدادها للجلاء ، ولكن ذلك كان مغلفاً فى نطاق السياسة البريطانية لمطابقة ، وفى وسط هذه الاتجاهات عقد اتفاق مبدئى بين انجلترا والباب العالى فى أكتوبر سنة ١٨٨٥ ، وقد نص فيه على أنه اذا تمَّ للدولتين اقرار الأمور فى مصر ، يقدم مندوبا الدولتين فيها تقريراً الى حكومتها ، وحينئذ تنظر الدولتان فى عقد اتفاقية تتسحب بها الجيوش البريطانية فى فترة مناسبة وفى ١٥ يناير سنة ١٨٨٦ أعلن لورد سولسبرى فى رسالة الى مندوبه فى تركيا : إن حكومة جلالة الملكة عندها كل رغبة فى إرضاء الباب العالى من ناحية الجلاء وان كانت لا تستطيع لظروفها الخارجية تعيين موعد قريب لهذا الجلاء قبل أن تطمئن الى سلام مصر الداخلى والخارجى ، وأن هدف انجلترا هو حيدة مصر ، ولكن انجلترا لا بد عاملة على المحافظة على النظم التى أقامتها فى وادى النيل ، حتى لا تضيق سدى هذه التضحيات التى قدمتها ، وطالما حافظت الحكومة المصرية على مركزها ولم يقع أى اضطراب فان المرغوب فيه ألا يبقى بأرض مصر جنود أجنس واحد .

وبعد مباحثات طويلة ظهر أن إنجلترا تصرص على أن تطول إقامتها بمصر ، وأنها تستعمل جانب التسوية ، والارضاء بالألفاظ ، وأخذت تتكلم عن حماية الأجانب ، واستخدام ضباط انجليز في الجيش المصري ، بل تريد تصريحاً بحقها في العودة إذا جدد ما يستلزمها ، واشترطت انجلترا موافقة الدول ذات الشأن على هذا الاتفاق .

وعلى الرغم من أن السلطان وافق على مشروع هذه الاتفاقية فإن الدول رفضتها إذ رأت فيها اعتراها من السلطان بحق انجلترا في السيطرة على جيش مصر وفي إعادة احتلالها في مناسبات كثيرة ، ووضحت روسيا وفرنسا أن هذه الاتفاقية تقتضي على حيدة الدولة العثمانية ، وأضافت فرنسا أنها تقتضي على التوازن الدولي في البحر المتوسط ، وصرحت الدولتان بأنه إذا نشأت هذه الاتفاقية كانتا في حيل من احتلال أي جزء من أجزاء الدولة .

ومرّ الزمن وزاد تمسك انجلترا بمصر أو التضح بعد غموض ، وأرضت انجلترا الدول الأوروبية في المعاهدة السرية التي عقدت سنة ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا والتي أطلقت يد انجلترا في مصر نظير إطلاق يد فرنسا في سوريا ولبنان وفي الشمال الإفريقي كما أرضت روسيا في معاهدة ١٩٠٧ حيث وافقت لها على بعض مناطق النفوذ ، ووافقت ألمانيا وإيطاليا على هذه التسويات نظير أطماع أقرت انجلترا بالموافقة عليها . وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى وانضمت تركيا إلى جانب ألمانيا ، أعلنت انجلترا قطع العلاقة بين تركيا ومصر ، كما أعلنت فرض حمايتها على مصر .

ثورة المهدي وإخلاء السودان

كانت الثورة العربية وما اتصل بها من الاحتلال المشؤم أهم حادث في تاريخ مصر في عهد توفيق ، وكان الحادث المهم الثاني في هذا العهد هو ثورة المهدي وإخلاء السودان ، وقد تحدثنا عن « السودان » حديثاً مستقيماً

خاصا في الجزء السادس من هذه الموسوعة ، وذكرنا عند الكلام عن محمد على زحفه على السودان ، وأهدافه من هذا الزحف وما تحقق له من هذه الأهداف .

وقد أقامت مصر في عهد أسرة محمد على بعض الإصلاحات في السودان كانشاء مدينة الخرطوم ومدينة كسلا ، وتوطيد الأمن ، وادخال بعض المزروعات ، ولكن السودان حملت مع مصر نتائج حروب محمد على الفاشلة ، وعانت مصر والسودان معا نزق عباس وديون اسماعيل ، وبالإضافة الى هذه المتاعب المشتركة كان بعض الباشوات ولاة السودان يسيئون معاملة الأهالي ويقسون في تحصيل الضرائب أحيانا مما جعل بعض السودانين يحسون أنهم يعاملون ، لا كجزء من الوطن الواحد ، بل كمستعمرة تزرع تحت ثقل المحتل ، والحق أن المصريين في مصر كانوا يعاملون نفس المعاملة ويعيشون تحت وطأة هذا العبء نفسه ، ولكن السودانين كانوا بعيدين عن مركز السلطة بالقاهرة ، فثاروا على أسرة محمد على كما ثارت عليها مصر من حين الى حين .

وشيء آخر حدد الوقت المناسب لثورة السودان ، ذلك هو التدخل الأجنبي في شئون مصر بسبب الديون ، وامتداد هذا التدخل الى السودان ، ثم الاحتلال البريطاني لمصر ، والخوف أن يمتد هذا الاحتلال الأثيم الى السودان إن لم يتخلص السودان من سلطان مصر تخلصا نهائيا .

كل هذا جعل السودانين يلتفون حول المجاهد السوداني محمد أحمد الملقب بالمهدي الذي ولد في دنقلة سنة ١٨٤٣ ودرس في شبابه الدراسات الاسلامية والتعاليم الصوفية ، واشتهر باللباقة والذكاء ، ثم كاتب علماء السودان ورؤساء القبائل يدعوهم للالتفاف حوله والجهاد في سبيل الله والوطن ، واستجاب له أكثر السودانين ، وكانت مصر مشغولة بالثورة العربية فنظم أمره ، ولم تنشأ انجلترا أن تدخل في حرب مع السودان ، ولذلك نصحت باخلاء السودان وبخاصة بعد هزيمة الحملة التي قادها

« هكس باشا » وإبادتها وقتل قائدها (نوفمبر ١٨٨٣) ، وقد سبقت هذه الحملة حملات أو محاولات قام بها الولاة بالسودان ولكن المهدي انتصر عليها جميعا وكانت إنجلترا تقصد أن تعزل السودان عن مصر ، ثم تعود فتفتحه ليكون لقمة سائغة لها ، وهذا ما حدث وقد وضحنا ذلك في الجزء السادس ، ولم يوافق شريف رئيس الوزراء على اخلاء السودان - كما قالته المشهورة « إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » ولكن الانجليز كانوا أصحاب الكلمة العليا ، فاستقال شريف ليخلى الطريق الى نوبار الذى قبل الوزارة على أساس اخلاء السودان ، وانتدب الجنرال « جوردون » الذى حكم السودان عدة سنوات فى عهد اسماعيل باشا لينفذ اخلاء السودان وليسحب القوات المصرية منه ، ولكن قوات المهدي حاصرت بالخرطوم وقضت عليه .

وينبغى هنا أن نتوقف قليلا عن السير فى مجريات الأحداث لنذكر أن كتابا صدر حديثا (١٩٦٦) يصوّر حياة جوردون ونهايته ، ومؤلف الكتاب هو انتونى ناتنج الوزير البريطانى المحافظ الذى استقال من وزارة إيدن استنكارا لعدوانه على مصر ، وعنوان الكتاب هو « جوردون شهيد فى غير محله » ويبرز ناتنج أن جوردون لم يكن كما أشيع قديسا وإن تظاهر بذلك ، فليس قديسا من كان يشتأجر لضرب حركات الشعوب فى الصين وفى افريقية ، والحق أنه كانت تؤثر فيه عوامل من الشذوذ ، فتظاهر بالتدين أحيانا ، واندفع أحيانا أخرى يطلب الموت ، فالمت وحده يرحمه مما يحس به من رغبات شائنة ، ومن رسائله التى نشرت بعد موته واستدل بها على جانب الشذوذ فيه قوله : أعجبتنى السيدة « فلانة » انها جميلة ورييقة ، ولكنى لا أطمع فى الزواج منها لأنى ميت والمت لا يتزوجون . . . وقد كان الميت فيه هو الرجل ، والذى ليس رجلا لا يتزوج امرأة .

من أجل هذا كان جوردون يريد الموت ، لأن الموت يشبه النار التى يشعلها اللصوص بعد عمليات السطو ، فالنار تمسح بصمات أصابعهم وتخفى معالمهم وتضلل العدالة ، ومن أجل رغبته فى الموت ألقى بنفسه فى عدة

مشارك طاحنة ، ولكن الموت كان يتخطاه ، ربما ليطول تعذيبه ، وقد بلغ به اليأس مبلغه إبان حركة السودان ، فلم يدافع عن نفسه بل أبعد جنوده ، وألقى بنفسه على السرير ينتظر الموت الذي كان فيه نجاته .

ولنعد بعد ذلك إلى أحداث السودان لنقرر أن الانجليز أحصوا قبيل نهاية جوردون بسوء الحالة بالسودان وبأن أتباع المهدي طرّقوا باب الخرطوم ، فأرسلت الحكومة الانجليزية « اللورد ولسلى » لانتقاد جوردون واسترداد الخرطوم ولكن جوردون قُتل قبل أن يصل « اللورد ولسلى » فآثر الإنجليز التوقف عن السير في العمليات الحربية بالسودان وصدرت الأوامر باستدعاء ولسلى وانسحاب القوات المصرية من الجنوب في يونيو سنة ١٨٨٥ .

تصفية ممتلكات مصر :

وأغلب الظن أن هذه كانت سياسة تتوى بها انجلترا تنفيذ خطتها الاستعمارية لصالحها وصالح أوروبا ، فانه بعد سقوط السودان سوّعت انجلترا مع إيطاليا وفرنسا ومع بلجيكا وألمانيا أمر الممتلكات المصرية على البحر الأحمر وفي حوض النيل الأعلى ، ولم يبق لمصر الا بعض الموانئ القليلة التي ظلت حتى سلمها زيور الى انجلترا عقب مقتل السردار لى ستاك سنة ١٩٢٤ (١) .

وفي هذا العهد (عهد نجاح الحركة المهدية) لم يستطع السودان المحافظة على أطرافه وممتلكاته أمام الاستعمار الأوربي الذي كان يرمي الى تقسيم القارة ، فأخذت انجلترا بربرة وبعض مديرية خط الاستواء ، وأخذت الحبشة هرر ، واستولت إيطاليا على مصوع .

(١) انظر تاريخ المفوضات المصرية البريطانية ص ٢٣ للأستاذ شفيق غريمال .

انجلترا وأطماعها في السودان :

ولم ينجح السودان نفسه من الاستعمار الأوربي ، فان الجلاء عن السودان لم يكن في الحق لضعف قوة إنجلترا أمام جيش المهدي ، ولكن الإخلاء كان وسيلة لعزل السودان عن مصر ليكون ذلك خطوة في طريق استيلاء إنجلترا عليه استيلاء مباشرا وكاملا ، وقد حققت إنجلترا ذلك على مرحلتين ، ففي المرحلة الأولى استعادت السودان باسم مصر ولكنها سرعان ما رفعت العلم الانجليزي مع العلم المصري دليل اشتراك في السلطة ، ثم استولت على السلطة الحقيقية ، ولم تدع لمصر مكانة ذات بال ، وذلك بمقتضى معاهدتى ١٨٩٩ ، وكان السدى وقعهما باسم مصر بطرس غالى الرجل المشكوك في إخلاصه للوطن .

أما المرحلة الثانية فكانت استكمال السلطات لها ، واخراج الجيش المصري من السودان سنة ١٩٢٤ وكذلك اخراج الموظفين المصريين كما ذكرنا عند الحديث عن السودان في الجزء السادس من هذه الموسوعة .

نهاية توفيق :

وجاءت بعد ذلك نهاية توفيق ، أو قتل نهاية ذلك العهد الحالك الذى خسرت فيه مصر اتساعها وخسرت استقلالها ، ومات الرجل سنة ١٨٩٢م تاركا أمراء الفكرىسات .

عيسى حلمي (١٨٩٢ - ١٩١٤)

كان عباس غائبا عن مصر عندما مات أبوه ، اذ كان ملتحقا بجامعة فيينا ، وبعد وفاة توفيق صدر فرمان عثمانى أن يخلف عباس أباه ، على أن تستند أمور البلاد الى رئيس النظار مصطفى فهمى باشا حتى يعود الخديوى الجديد .

وعاد الخديوى من الخارج ، شابا متفتحا كبير الآمال ، وأحسن الشعب استقباله والاحتفاء بمقدمه ، وكانت سنة لم تتجاوز الثامنة عشرة ، فظهر منه اقبال على الشعب ، ورغبة فى تحقيق آماله ، وأحس كرومر باتجاه الشاب الجديد ، فحاول أن يوقفه عند حده وأن يضغط عليه ، ولم يستجب الشاب لهذا الضغط ، بل انحاز الى العناصر الوطنية التى بدأت تظهر بزعامة مصطفى كامل ، واتضح بعد فترة أن هوة واسعة أصبحت واضحة بين كرومر ومعاونيه فى جانب ، وبين الخديوى والشعب فى جانب آخر ، وكانت انجلترا تتمسك بأن يكون لها الرأى فى الشؤون الكبرى وبخاصة فى تعيين رؤساء الوزارات ، ومن هنا ظهرت مجموعة من رؤساء الوزارات كان اخلاصهم الوطنى مشكوكا فيه ، وكانت سياستهم ضدى للرغبات الانجليزية أكثر من أن تكون صدى للامانى الوطنية ، ومن هؤلاء مصطفى فهمى سالف الذكر ، ورياض باشا ، ونوبار باشا ، وبطرس غالى باشا ، أما الجبهة الوطنية فقد شهدت فى مصطفى كامل روحا وثابة ونهضة عظيمة ، وأدركت تركيا أن الانجليز لا يبنون الجلاء عن مصر فانضمت لهذه الجبهة ، وأيدت الخديوى وأنعمت على مصطفى كامل بلقب الباشاوية .

مصطفى كامل وبأسة دنشواى :

وراح مصطفى كامل يزور بلاد القطر ويدعو الأعيان والكبراء لمؤازرة الحركة الوطنية ، فانضم له الوجهاء والمثقفون ، ودوى صوته فى كل مكان بمصر وبالأخارج يهاجم الانجليز ويدعوهم للجلاء عن البلاد ، وصدرت صحيفة اللواء ، وكان بدء صدورها فى يناير سنة ١٩٠٠ وكتب فيها مصطفى كامل ومحمد فريد وشوقى الشاعر واسماعيل صبرى وغيرهم ، وأصبحت اللواء مدرسة لبث الروح الوطنية ، واهتم مصطفى كامل وأعوانه بتقوية الصلات التاريخية والوطنية التى تربط بين المسلمين والأقباط ، فأضعف النمرة الدينية التى كانت انجلترا تعمل على تقويتها ، ثم حدثت

ماساة بنشواى (١٩٠٦) وتبدى فيها استبداد المستعمر وفقدان الجانب الانسانى فيه ، فقد راح ينتقم من فلاحى هذه القرية (بمديرية المنوفية) بقسوة لا يعرفها ضمير الحق ، لأنهم اتهموا بقتل أحد الجنود الانجليز ، وحوكم المتهمون محاكمة صورية ، وصدرت الأحكام باعدام أربعة منهم وجلد ثمانية ، وبالأشغال الشاقة على اثنى عشر ، ونصبت المشانق بالقرية ، ونفذ حكم الاعدام علنا ، كما نفذ كذلك حكم الجلد .

وكانت المحكمة برئاسة بطرس غالى ، وتولى الهلباوى الدفاع عن وجهة النظر الانجليزية ضد المصريين ، وهكذا وقف الاثنان ضد مصر . ولم تغفر لهما مصر هذه الخيانة ، أما الأول فسقط بيد فدائى مصرى سنة ١٩١٠ لهذا الموقف ، ولأنه اتجه الى الموافقة على مد امتياز شركة قناة السويس كما سيأتى ، وأما الثانى فكانت عقوبته مريعة طويلة ، كانت الازدراء والاحتقار ، وامتد به العمر ليرى عيون الناس نقذه بالشر ، وقلوبهم تلغنه ، وضاع ماله حتى عرك الفقر وانفض من حوله نوره ، حتى مات ذليلا كسيرا ، ولا تزال اللعنات تنزل على الاثنين وعلى كل خائن لوطنه وبنى جنسه .

لقد كانت هذه الحادثة وبالا على الاستعمار ، فقد أمسك بها مصطفى كامل وراح يبرز خلالها بالداخل والخارج طغيان كرومر ودولة كرومر ، واضطر الانجليز أن يتقهقروا ويسحبوا هذا الطاغية من البلاد بعد أن باشر سلطات لحدود لها خوالى ربع قرن .

ومات مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ فأخذ محمد فريد مكانه ، وفى إبان زعامته أرادت شركة قناة السويس سنة ١٩١٠ أن تمد امتيازها ، وكان بطرس غالى رئيس الوزراء آنذاك يميل الى الموافقة ، ودار نقاش عنيف بين الحكومة وبين أعضاء الجمعية العمومية ، وقاد محمد فريد الجماهير معارضا اتجاه الحكومة والشركة ، وأتهم بطرس غالى بالخيانة لكثرة ما نسب له من أشياء تقتضى مع الوطنية ، فأطلق عليه ابراهيم الوردانى أحد

الشبان الفدائيين الرصاص ففضى عليه (١٩١٠) وسلم نفسه فحكم عليه بالاعدام ، وبسبب هذا الوعي القومى خمد مشروع الشركة .

سياسة الوفاق وعزل الخديوى :

ومع أحداث الوعي بمصر كان الوعي بتركيا ينمو ويشتد ، فنجمت سنة ١٩٠٨ الحركة الدستورية وأعلن الدستور ، وكان لهذا أثره فى الحماسة المصرية ، وساعد على ذلك أن ممثل بريطانيا بعد كرومر ، وهو « السير إلدن غورست » سار على سياسة تغاير سياسة خلفه ، أطلق عليها « سياسة الوفاق » فاشتدت الحركة الوطنية ، ولكن سياسة الوفاق كانت ترمى قبل كل شئ الى وفاق مع الخديوى بآرائه وتوسيع سلطانه ، وقد جذبت هذه السياسة ذلك الخديوى من جانب الشعب الى جانب المستعمر ، فأصبح هذا يخشى إن انتصر الشعب أن يسلب منه السلطان الذى وضعه الانجليز بين يديه ، فانهاز للانجليز وابتعد عن معاضدة الحركة الوطنية .

وتوفى إلدن غورست سنة ١٩١١ وخلفه كتشنر ، فتوقفت « سياسة الوفاق » بين الانجليز والخديوى ، وآثر اللورد كتشنر أن يتقرب الى الشعب ، فأقام الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ التى جاءت محل الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ، كما عمل على حماية الفلاح ، وحول ديوان الأوقاف الى وزارة حتى لا يكون للخديوى الاشراف على هذه الأوقاف ، وكانت الحرب العالمية الأولى تطل على العالم ، وكانت تركيا تتقف ضد انجلترا ، فانهاز الخديوى للأتراك ، ولذلك ما إن أعلنت الحرب حتى عكزل الانجليز الخديوى وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وأنهت السيادة العثمانية بذلك الى الأبد ، وانتقلت مصر بهذا من عصر الى عصر .

أسرة محمد على وإنشاء جامعة القاهرة

تحدثنا من قبل عن المؤسسات العلمية التي أنشأها محمد على والخديوى اسماعيل ، فكان لهما الفضل فيما أحرزته مصر من سبق علمى فى المنطقة ، وقد حدث شىء رائع فى هذا المجال فى عهد الخديوى عباس حلمى ، هو قيام جامعة القاهرة أو الجامعة الأم كما نسميها ، وقيامها بهبة مالية ضخمة قدمتها الأميرة فاطمة الزهراء ابنة الخديوى اسماعيل ، ونثبت فيما يلى خلاصة كلمة تاريخية عن نشأة هذه الجامعة كتبها الدكتور عبد الحميد سلطان ، قال :

فى ٣٠/٩/١٩٠٦ نشر الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد خطابا من مصطفى كامل الغمراوى وهو من أعيان بنى سويف يطالب فيه بإنشاء « الجامعة المصرية » قائلا أن ارتقاء المعارف فى مصر لن يتم إلا بإنشاء مثل هذه الجامعة ويعلم تبرعه بمبلغ ٥٠٠ جنيه لهذا الغرض النبيل ، فحاز سبق الشرف وكان أول المتبرعين ، وفى خلال أيام معدودة أرسل سعد زغلول وقاسم أمين رسالتين الى الصحف يعلنان استعدادهما للاكتتاب فى هذا المشروع بل إن سعد زغلول خطا خطوة مهمة لتنفيذ هذه الفكرة فقد تولى الدعوة لعقد اجتماع لهذا الغرض ، وفى هذا الاجتماع تشكلت اللجنة التأسيسية لمشروع الجامعة المصرية برئاسته ، وتم الاجتماع الأول لها فى بيته يوم ١٢/١٠/١٩٠٦ وحضر الاجتماع ٢٧ عضوا مؤسسا كان من بينهم مصطفى كامل الغمراوى وقاسم أمين ومحمد فريد وعبد العزيز فهمى وعبد العزيز جاويش وويصا واصف وحفنى ناصف وعبد الله أباطة ، وقد بلغت تبرعات الجميع فى ذلك اليوم حوالى خمسة آلاف جنيه .

وفى ٢٨/١٠/١٩٠٦ استقال سعد زغلول من رئاسة اللجنة لأنه أصبح وزيرا للمعارف وتولى رئاستها قاسم أمين لمدة شهرين فقط ثم تنحى عن الرئاسة للأمير أحمد فؤاد الذى صار فيما بعد سلطانا على مصر ثم ملكا عليها .

ومن أهم التبرعات التى حصلت عليها الجامعة فى عصرها المبكر مبلغ ٢٦ ألف جنيه بالإضافة الى ٣٠٠ فدان أوقفها لصالحها كل من الأمير يوسف كمال وحسن شريف باشا وحسن بك زايد بالتساوى .

وفى ٢١/١٢/١٩٠٨ تم افتتاح الجامعة المصرية رسميا فى احتفال حضره الخديو عباس حلمى فى مقرها المؤقت بقصر جنالكس حيث بدأت الدراسة فى نفس اليوم ، وهذا القصر هو الذى كان يشغل مكان الجامعة الأمريكية فى ميدان التحرير وقد تم استئجاره بمبلغ ٤٠٠ جنيه سنويا وكان ذلك يمثل عبئا كبيرا على موارد الجامعة الوليدة التى بدأت تتعثر مالياً ، وهكذا ورغم كل العقبات فقد تم ميلاد الجامعة وتحول الحلم الى حقيقة ولكنها كانت تحتاج الى دعم مالى كبير فإن إنشاء الجامعة المصرية ثم استمرارها كاد يصبح من الأمور التى يصعب تحقيقها لولا أنه فى عام ١٩٠٩ تقدمت الأميرة فاطمة الزهراء ابنة الخديو اسماعيل وشقيقة الأمير أحمد فؤاد وأنقذت الجامعة من عثرتها بتبرعاتها التى فاقت كل الخيال فقد أوقفت عليها أربعة آلاف فدان كانت تملكها فى القهلية ، كما وهبتها مجموعة كبيرة من الحلى والمجوهرات ، وأهنت اليها الأرض التى أقيمت عليها إدارة الجامعة وكلياتها فى الجيزة ، أى أنها قد تبرعت من مالها الخاص بما يساوى ١٠٠ مليون جنيه بعملة تلك الأيام لمشروع بناء الجامعة وقد تم الاحتفال بوضع حجر الأساس لها فى الأرض التى تبرعت بها الأميرة وذلك فى يوم ٣٠ مارس ١٩١٤ .

ومن الغريب والمثير للخيال انه فى احتفالات العيد الماسى لجامعة القاهرة تبارى الجميع فى ذكر كل من تبرع للجامعة من الرواد الأوائل ولكنهم كادوا ينسون اسم الأميرة فاطمة اسماعيل الى أن ذكره أجدهم على استحياء وهذا طبعاً لأنها أخت الملك فؤاد وعمة الملك فاروق مع انه لولاها لما تمت الجامعة بعد مولدها بقليل .

وهكذا نرى الأمير يوسف كمال يقدم للجامعة مائة فدان ،

أما الأميرة فاطمة الزهراء فقد قدمت كل ما كانت تملكه فأنقذت الجامعة من نهاية كان يمكن أن تكون مريعة .

وإننا نتساءل مَنْ مِنْ ورثة عبد الناصر والسادات وأصهارها يستطيع أن يقدم مما ربح ما يعادل أو ما يقرب مما قدمته الأميرة العظيمة ؟ وبعض هؤلاء قد امتد ثراؤه وشغل الناس بأمواله التي تفوق أحياناً أموال دولة بأكملها ، ولنتذكر في هذا المجال أشرف مروان زوج بنت الرئيس وصاحب البلايين ولنتذكر كذلك عثمان أحمد عثمان الذي يقرض الدول أحياناً بعض ملايينه ، ويأتى بعد هذين كثيرون مثل عصمت السادات وآخرون ، إنها صيحة لعلها تفتح القلوب .

• — فترة الصراع

من الحرب العالمية الأولى الى ثورة ١٩٥٢

كسب الإسلام — كما قلنا — الزحف العثماني على مصر هبة خدعت الكثيرين من المصريين فترة طويلة ، وطال — باسم الإسلام — ارتباط العثمانيين بالعرب ، واحتملت الشعوب الإسلامية قسوة الأتراك العثمانيين حفاظاً على وحدة كلمة المسلمين ، وأملًا في مجيء خليفة صالح ، فلما وضِع الانجليز حداً للسيادة العثمانية وأعلنوا الحماية على مصر ، لم يعد هناك ما يخضع المصريين ، وبدأت مصر تعبر عن نفسها وتتسام زمام أمرها بعد زوال عهد العثمانيين • وإذا كانت قسوة الحرب وضجيج المدافع ووعود المستعمر قد أرجأت ثورات المصريين ، فإن انتهاء الحرب كان بدءاً لصراع مرير وثورات متلاحقة ضد الانجليز ، بسبب احتلالهم للبلاد من جانب ، وبسبب استبدادهم بالشعب وسلب أمواله إبان الحرب من جانب آخر ، ولهذا سمينا هذه الفترة « فترة الصراع » وقد مهد هذا الصراع للثورة التي ألغت الملكية ، ولم يبق بعد ذلك للمستعمر كيان ، فقد كان عصر الاستعمار قد ولى وجاء للعالم عصر الحرية والاستقلال ، ولم يكن الوقت الذي أمضاه المستعمر بعدها بمصر إلا فترة نزع لانزع ، وكان الاستعمار يبحث عن الوسيلة للنجاة بعد أن ضاعت كل آماله في البقاء •

وهناك لئون آخر من الصراع في هذه الفترة ، ذلك هو الصراع الذي كان الملك والأحزاب أطرافاً فيه ، وهذا الصراع كان صراعاً على السلطة ، فقد رأت بريطانيا أن الجبهة الوطنية متصددة ضدها بعد قطع علاقة مصر بتركيا ، فحاولت النشاط المعارض لها الى نشاط داخلي بين الملك والشعب ، فالملك (١) يريد أن يكون مستقداً ، فراح يلتصق

(١) فؤاد نفاروق ، فقد شغلا كل هذه الفترة فيما عدا ثلاث سنوات للسلطان حسين كامل قضاها والحرب مشتبعة فلم يكن في يده سلطة .

الوسائل لينتسم الاستبداد بطابع قانوني ، وهده تفكيره أو مستشاروه الى أن يتخذ بعض الأحزاب أدوات في يده يضرب بها ممثلى الشعب ، وعاشت البلاد في هذا الصراع ذلك الأمد •

ولنعمد بهذه الفترة بشيء من التفصيل :

الحرب العالمية الأولى وأثرها على مصر :

هذه هى أول حرب تشترك فيها كل دول العالم تقريباً ، ومن ثم سميت العالمية ، وقد اشتركت فيها الدولة العثمانية اشتراكاً مباشراً ، ولهذا كانت هذه الحرب شديدة الخطر على العالم العربى الذى كان تابعا قبل الحرب للعثمانيين •

وكانت الشرارة التى أشعلت النار تتمثل في قتل ولى عهد النمسا وزوجته بيد طالب من الصرب (يوغسلافيا) ، واحتجت النمسا احتجاجاً قاسياً وأملت شروطها بنظر ذلك ، ورفضت الصرب بعض هذه الشروط ، فاجتاحتها جيوش النمسا ، وكانت روسيا تمد نفسها حامية لدول البلقان فتدخلت ضد النمسا ، فانضمت ألمانيا الى النمسا ، وانضمت فرنسا الى روسيا ، فالعداوة بين فرنسا وألمانيا شيء تقليدى وبخاصة بعد انتصار الألمان في حرب السبعين (١٨٧٠) ، واجتاحت الجيوش الألمانية بلجيكا في طريقها الى فرنسا منهكةً بذلك حياض بلجيكا ، فتدخلت بريطانيا لحماية حياض بلجيكا ، ثم انضمت تركيا وبلغاريا الى ألمانيا ، وانضمت إيطاليا واليابان والصين وأمريكا والبرتغال إلى فرنسا وروسيا وبريطانيا فتكون من هؤلاء ما يعرف بالحلفاء •

وقاسى العالم كله أهوال هذه الحرب ، وبلغ ما دمرته من البشر حوالي ١٥ مليوناً بين قتل وجريح ومشوه ، ولم يكن لمصر ناقة فيها ولا جمل ، ولم يكن مأولاً قط أن تتال أية نتيجة لو انتصر هذا الجانب أو ذاك ، ولكن كان من المؤكد أن يقع عليها الضرر على أى حال ، وهو

ما حدث ، ولم يستطع المؤرخون الغربيون أن يغفلوا ما حملته مصر من متاعب ، فقد قرر بروكلمان أن حشوداً كبيرة من الفلاحين المصريين جئدت للعمل قسراً داخل البلاد وخارجها ، وأن مصر احتملت ألواناً من الآلام في حرب لم تكن يوماً في مصلحتها ، وأن الفلاحين اقتتلوا من بيوتهم وانتزعت منهم ماشيتهم وأنعامهم ، وأن المجاعة ثقلت وطأتها على الطبقات الفقيرة (١) .

وإذا ذهبنا الى مراجع إنجليزية أخرى مثل تقرير لجنة ملنر (وستحدث عنها فيما بعد) ومثل الكتاب الذي نشره الكولونيل الجود عن « مصر والجيش » نجد تفاصيل مريرة لما أصاب الشعب المصرى في أرزاقه وأمواله ، من استيلاء على المحصولات والدواب ، وتسخير العمال في الأشغال والحركات العسكرية ، واستخدام المرافق العامة كالسكك الحديدية ، واستعمالها حتى تلفت من كثرة الاستعمال ، وتحويل مباني المدارس الى مستشفيات ، وكالضسارة الفادحة التى نزلت بالمزارعين بسبب التحكم في أسعار أقطانهم ، ومزاحمة الأهلى في غذائهم ، وجمع الأموال منهم في مناسبات مختلفة

ويعلق الأستاذ شفيق غربال على هذه التكتبات بقوله : كل هذا لا يعدل الجراح التى أصابت المصريين في عزتهم وكرامتهم وأمنهم ، فقد رأى المصرى نفسه غريباً في بلاده ، ورأى هذه البلاد تتحول الى معسكر هائل تحشد فيه أخلاط الناس من أحمر وأصفر وأبيض ، ورأى نفسه وما يملك مسخراً لخدمة هذا المعسكر ، ورأى أن بلاده قد أصبحت قاعدة للغزو والتسلط ، تحركت منها حملة لاقتحام مضيق الدردنيل والاستيلاء على القاعدة الإسلامية الكبرى « القسطنطينية » ، وتحركت منها حملات أقلام الفخابرات والدعاة الغربيين

للتأثير على العرب ، كما تحركت فيما بعد الحملات نحو فلسطين والشام شرقاً ، ونحو ليبيا غرباً (١) .

وفي خلال هذه الحرب بدأ الغرب ينفذ سياسته بعيدة العمق والمدي ، فاحتل فلسطين وأسند الانتداب عليها الى بريطانيا التي سرعان ما عملت على تنفيذ وعد بلفور المشؤوم الذي مس فلسطين ومصر والبلاد العربية بلفظاء .

سلاطين مصر وملوكها في هذه الفترة :

سلاطين مصر وملوكها في هذه الفترة ثلاثة هم : السلطان حسين كامل والسلطان فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) والملك فاروق ، وسنتكلم كلمة عن كل واحد من هؤلاء وعن أشهر أحداث عصره :

السلطان حسين كامل

مع مطلع الحرب العالمية ، ومع إعلان الحماسية على مصر عزلت إنجلترا الخديوى عباس حلمي لأنه أيّد تركيا في موقفها من الحرب ضد الحلفاء ، واتجه الانجليز الى الاستبداد بالسلطة في البلاد ، وخطر لهم ألا داعى لسلطان يحل محل الخديوى المخلوع ، ثم عدلوا عن هذه الفكرة سيراً مع سياسة الخديعة التي كانت الحرب تدعوهم الى اصطناعها ، فاختراروا للسلطنة رجلاً يرضى بالاسم ولا يحفل بمقتضياته ومستلزماته ، ذلك هو حسين كامل وهو عم الخديوى المخلوع وأكبر أفراد الأسرة العلوية سناً ، وقد استهجن المصريون موقفه وعدوه خائناً لأنه وقف مع أعدائهم الانجليز ، وقد وصلت الحماسة ببعض الشبان المصريين الى تدبير القضاء عليه ، فألقى عليه أحدهم قنبلة فتأذى

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية : ص ٤٦ .

ولكنه نجا منها ، ولعل هذه الوصمة التي لحقت حسين كامل هي التي دفعت ابنه الى أن يرفض منصب السلطنة بعد وفاة أبيه ، وأن يتخلى تخلياً صريحاً عن حقه في العرش ، وفتح السلطان حسين كامل بالمنصب دون أن يشترط أى شرط لصالح البلاد التي سيصبح سلطاناً عليها ، ويأوهم الأسناذ شفيق غريال هذا السلطان ووزيره رشدي لأتباعه لم ينتهزا فرصة حاجة إنجلترا الى معونة مصر زمن الحرب ليطلبا منها عهداً بالجلء بعد الحرب أو بإعادة حقوق مصر لبنيتها (١) .

ولم يطل عهد السلطان حسين إذ توفي سنة ١٩١٧ ، وليس هناك من عمل يمكن أن يستند اليه ، فقد كانت السلطة كلها في يد الحاكم الانجليزى (المندوب السامى) وبخاصة إذ كانت الحرب المسعورة تدور بقسوة وشراسة .

السلطان فؤاد والملك فاروق

أورد كارل بروكلمان سطورا قليلة تسمى حسين كامل والسلطان فؤاد وموقف الانجليز تجاه هذا وذاك ، قال : خسرت بريطانيا بوفاة حسين كامل سندها الرئيسى في البلاد ، وبدأ لها أن تضم مصر الى إمبراطوريتها ، ولكن البريطانيين آثروا آخر الأمر أن يفتاروا سبيلا أكثر حصافة ، فداروا عواطف المصريين وأسندوا الأمر الى الأمير أحمد فؤاد أخى السلطان على الرغم من أنه كان يحيا في الغالب في إيطاليا ، وكان قد أصبح غريبا عن البلاد أو يكاد (٢) .

وقد ظل فؤاد سلطانا على مصر حتى صدر ما يعرف بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فاتخذ فؤاد لقب « ملك » .

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .

(٢) تاريخ الشعوب الاسلاية ج ٦ ص ٤٦ — ٤٧ .

وأبرز الأحداث في عهد فؤاد هي الحركة القومية التي أريد بها استعادة الحقوق الوطنية من الإنجليز الغاصبين ، وقد تدخل الملك فؤاد فالملك فاروق فيها تدخلا أرجأ نتائجها ، فكل منهما لم يكن يريد أن تتحقق آمال البلاد على يد حزب الوفد الذي كان يضم الممثلين الحقيقيين للشعب خوفاً على سلطانه من هؤلاء الممثلين ، ونهذا خلق أحزاباً يسميها الباحثون أحزاب القصر ليضرب بها ممثلي الشعب ، وقد انتفع الملك بهذا الصراع الذي دار بين الجبهتين ، أما ممثلو الشعب الحقيقيون فإنهم في آخر وزارة لهم هددوا من حماستهم بعض الشيء ضد القصر ولكنهم مع هذا لم ينالوا رضا القصر ، لأن القصر كان يدرك خطر الشعب وممثليه عليه .

ويدافع زعماء الوفد عن أنفسهم بأن ذلك التساهل لم يكن قط تساهلاً في حقوق البلاد ، وإنما كان نوعاً من التساهل الشخصي ، ليكون ذلك وسيلة للبقاء في الحكم رغبةً التمكن من خدمة الشعب وآماله في الداخل ، وحل قضيته مع المستعمر ، ولقد لجأ ممثلو الشعب لهذه السياسة بعد أن أبعدوا فقرات طويلة من الحكم ، ففسد الحكم بالداخل وهدأت الحماسة لمقاومة الاستعمار . وهو دفاع تأخذ به الأغلبية الساحقة من الوفدیین لأنه الوسيلة لتحقيق آمال الشعب في الداخل والخارج ، والوسيلة لقطع الطريق على أحزاب القصر الذين كانوا يرضون بالفتات على حساب الصالح العام .

ومات فؤاد سنة ١٩٣٦ فخلفه ابنه فاروق وهو صبي دون سن البلوغ ، فحكمت مصر بمجلس وصاية ريثما بلغ الملك هذه السن ، وكان فاروق صورة من أبيه ، وكل ما بينهما من فرق هو رعونة الصبا وطيش الشباب في الابن ، ولنعد إلى هذه القضية بشيء من التفصيل :

الحركة القومية وثورة ١٩١٩ :

قلنا فيما سبق إن الشعب المصري احتل ألوأنا من الظلم خلا ،

الحرب ، وكانت وعود بريطانيا وسيلة من وسائل التخدير ، فلما انجابت الحرب هب الشعب يطالب باستقلاله ويدعو المحتل أن يرحل عنه .

وقلنا كذلك إن الإسلام كان العامل الذي أطال سلطان العثمانيين على مصر وعلى سواها من الدول العربية ، أما أن تخضع مصر لبريطانيا فشيء لا يرضاه الوطنية ولا يرضاه الإسلام ، وعلى هذا هبت ثورة ١٩١٩ •

وشيء آخر نريد أن نضيفه هو أن حركات المقاومة المصرية كانت كثيرة ومتتابعة ، وكانت تتجه ضد كل الذين اعتدوا على حقوق البلاد ، وقد رأينا منها ثورة على بك الكبير ، وثورة مصر كلها ضد الحملة الفرنسية ، وثورة مصر ضد تركيا لصالح محمد علي ، كما رأينا الثورة العربية التي واجهت عدة قوى ، وبعدها جاءت الحركة الوطنية التي عبر عنها مصطفى كامل ومحمد فريد ، وعلى هذا فتورة سنة ١٩١٩ حلقة مهمة في النضال الوطنى المتصل •

وكانت هذه الثورة التقاطاً من المصريين لحقهم في تقرير مصيرهم ، فقد التقط المصريون هذا الحق وباشروه ، لتسوية ما بينهم وبين إنجلترا من مشكلات ، ولم يخطر ببال إنجلترا — كما يقول الأستاذ شفيق غربال — أن التسوية الحقيقية بينها وبين مصر ستكون مع الأمة المصرية نفسها (١) :

وقائد الحركة القومية هذه المرة هو سعد زغلول ، وقد سبق له أن شغل عدة مناصب ، تشكك من أرقى المناصب في الدولة ، ففي سنة ١٩٠٦ شغل منصب وزير المعارف فجعل اللغة العربية هي لغة التعليم بدلاً من الإنجليزية ، وأسهم في إنشاء الجامعة المصرية وفي سنة ١٩١٠ شغل منصب وزير الحفانية (العدل) وفي سنة ١٩١٣ انتخب وكيلاً

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ١ - ٢ •

للجمعية التشريعية ، وقد اكتسب في هذه المناصب مكانة مرموقة ، وفي خلال الحرب لم يكن هناك سبيل للمنطق والحرية ، وإنما كان لسان القوة هو الناطق المسيطر ، فلما وضعت الحرب أوزارها وأعلنت مبادئ الرئيس ولسن الخاصة بحق تقرير المصير هب سعد زغلول من مكانه وجمع حوله لفيفا من المناضلين وأعلن تكوين الوفد المصري في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وراح يطنب من المندوب السامي السير ريجينالد وينجت Reginald Wingate أن يأذن له ولرفاقه في السفر الى انجلترا ليطالبوا بإعلان استقلال البلاد ، فرفض المندوب السامي ذلك ، فاتجه سعد وزملاؤه وجهة أخرى هي استعدادهم للسفر الى باريس ليدافعوا عن قضية البلاد أمام مؤتمر الصلح ، وعدت بريطانيا هذا تمرداً منهم ، كما رأت تغلغل الحركة الوطنية في نفوس المواطنين ، فأرادت أن تقضى عليها ، فألقت القبض على زعماء البلاد : سعد زغلول وإسماعيل صدقي ومحمد محمود وحمد الباسل ونفقتهم الى جزيرة مالطة ، وأشعلت بذلك لهيب ثورة جارفة يصفها بروكلمان بقوله : أصبحت البلاد كلها في حالة تفرد وثورة ، وقطع كل اتصال مع القاهرة ، وخاصر الثوار الحاميات الانجليزية الصغيرة في مصر العليا ، واستعملت الطائرات لنقل الجنود الحاضرين ، ووقعت سلسلة من الاعتداءات على الجنود البريطانيين (١) ، وبقيت البلاد بدون وزارة فترة طويلة .

وأسهمت المرأة المصرية بنصيب كبير في هذه الثورة ، فخرجت السيدات مطالبات بالحرية لمصر ، وأبدین ضروبا من البسالة والقوة ، واشترك الفلاحون والعمال بكل شجاعة في هذه المظاهرات ، واتجه بعضهم لقطع السكك الحديدية حتى يصيب التشلل خطوط الانجليز داخل البلاد .

وأنتجت هذه الثورة نتيجتين مهمتين ، إحداهما تغيير المندوب

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٥ ص ٥٠ — ٥١ .

(م ٣٢ — موسوعة التاريخ ج ٥)

المسمى وإسناد هذا المنصب الى اللورد ادموند أللنبى Edmund Allenby
الذى كان قائد حملة فلسطين ، والنتيجة الثانية لجنة ملنر Milner
لدراسة أسباب الثورة .

وأطلق أللنبى سراح المعتقلين وذهبوا الى باريس من مالطة ، ولكن
بعد أن دفع النفوذ البريطانى زاسن الى أن يعلن أن تقرير الصير لا ينطبق
على الدول المستعمرة ومنها مصر ، ودفع هذا النفوذ أيضا مؤتمر الصلح
أن يرفض الاستماع لمطالب مصر ، وهذا مما زاد الثورة اشتعالا ، وجعل
المصريين يقاطعون لجنة ملنر التى كانت تبأشر عملها فى مصر وسعد ورفاقه
فى باريس ، فعادت لجنة ملنر الى انجلترا واستدعى سعد ورفاقه للتفاوض
مع ملنر فى انجلترا ، فاستجابوا بعد أن توسط لذلك عدلى يكن ، وظلت
المفاوضة حوالى ثلاثة أشهر ولكنها لم تسفر عن أية نتيجة ، واقترحت لجنة
ملنر اثر ذلك أن تعترف بريطانيا باستقلال مصر بشرط أن توافق مصر على
بقاء قوة عسكرية فى الأراضى المصرية ، كما اقترحت تعيين مستشار
بريطانى فى وزارة الحقانية وآخر فى المالية ، وألا تعقد مصر معاهدة
سياسية مع أية دولة بغير موافقة انجلترا ، وأن تمنح بريطانيا حق
حماية الأجانب من تطبيق القوانين المصرية عليهم . وقد رفض الشعب
المصرى ذلك .

تلك هى أول مفاوضة ، وللحديث عن المفاوضات وعصرها دراسات
دقيقة دونها المرحومان الأستاذ شفيق غربال والدكتور محمد حسين
هيكل ، ومنهما نقتبس لفظات قصيرة تناسب الاطار الذى حددته لنا
هذه الدراسة :

— فى فبراير سنة ١٩٢١ سافر عدلى رئيس الوزارة آنذاك للمفاوضة
مع كيمزون ، ولكن سعدا أعلن أنه — باسم الشعب — لا يؤيد عدلى فى
مفاوضاته ولا يلتزم الشعب بنتائجها » لأن رئيس الوزارة عينه

المندوب السامى ، وهو بذلك ليس إلا موظفا من موظفى الحكومة الانجليزية يسقط ويرتفع بإشارة من المندوب السامى « وكان من جراء ذلك أن كثرت الاضطرابات ، وفشلت المفاوضات ، فألقت السلطات الانجليزية القبض على سعد وخمسة من زملائه ، هم فتح الله بركات وعاطف بركات وسينوت حنا ، ومصطفى النحاس ، ومكرم عبيد ، ونفقتهم الى سيلان ، ومن هناك الى سيشل فى ديسمبر سنة ١٩٢١ ، ثم حوّل سعد الى جبل طارق •

تصريح ٢٨ فبراير :

اتجه الجانب الانجليزى بتوصية اللنبى الى العمل الفردى دون أن يلزم مصر بالتحفظات التى وردت فى مشروع ملتر ، فصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وفيه أعلنت انجلترا انتهاء الحماية على مصر ، وأن مصر مستقلة ذات سيادة ، وأن انجلترا تتمسك بنقاط أربعة لتسوى فيما بعد فى مفاوضات ودية ، وهذه النقاط هى :

١ — تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر •

٢ — الدفاع عن مصر ضد أى تدخل أجنبى •

٣ — حماية الأقليات ومصالح الأجانب •

٤ — السودان •

وأعلن فؤاد (!!) عقب ذلك وثيقة استقلال مصر واتخذ لقب « ملك » •

— ألف عبد الخالق ثروت الوزارة اثر ذلك ، وشكلت لجنة وضعت الدستور الذى يعرف بدستور سنة ١٩٢٣ ، وأفرج عن سعد ورفاقه ، وجرت الانتخابات فحصل الوفد على أغلبية ساحقة ، وافتتح البرلمان فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وألف سعد زغلول أول وزارة برلمانية •

الملك والدستور :

وقف الملك فؤاد موقف الحياد خلال الصراع بين الشعب الشاثر المطالب بحريته وبين المستعمر الانجليزى ، فلما بدت انتصارات الشعب وحقق بعض النتائج التى سعى لها وضحى من أجلها ، تقدم هذا الملك ليجنى ثمار كفاح الشعب ، وليأخذ لنفسه السيادة التى انتزعها الشعب من فم المستعمر •

ويبدو أن نتيجة جهود سعد ورفاقه أذهلت الملك فؤاد ، فهو يخاف التجمع الشعبى الذى لا بد سيعمل على الحد من نفوذه طبقا للدستور ، ولذلك كان هذا الرجل حربا على الدستور وحربا على حزب الأغلبية ، وكان موقفه ذلك يمثل السبب الرئيسى فى تأخير حصول مصر على استقلالها التام ، وقد وجد الانجليز فى اتجاهه ضالتهم ، فأيدوه فى حربهم ضد ممثلى الشعب وقادته ، وأيدوه فى ترقيفه ارادة الشعب ، وإذا كان المصريون قد زرعوا قوى بريطانية سنة ١٩١٩ فى ثورتهم العارمة ، فانهم الآن اتجهوا ليضرب بعضهم بعضا بتقريظ الملك ، وتفرغ الانجليز للفرجة ، وأكبر دليل على ذلك أنه عندما مرض الملك باعث الشقاق وحاميه ، ونصير الاستعمار وراعيه أشار الانجليز باجتماع الأحزاب تحت رئاسة النحاس زعيم الأغلبية ، وسلموا بالمعاهدة التى حققت بعض ما كان يطمع فيه المصريون ، ومرة أخرى نقرر أن مرض الملك فؤاد ، وطفولة ولى العهد ، جعلوا الانجليز يحسون بفراغ كبير ، وسلموا ببعض ما كانت الأمة تطالب به •

ولنعد الى تصوير سريع للحرب التى شنها الملك على الدستور ، ولنأخذ الأرقام رائدا لنا فى هذا المجال :

— كان يوم ١٥ مارس (سنة ١٩٢٤) عيدا للدستور •

— أوقف الملك هذا الدستور سنة ١٩٣٥ •

— أعيد الدستور سنة ١٩٢٦ •

— أوقفه مرة ثانية سنة ١٩٢٨ •

— أعيد سنة ١٩٢٩ •

— ألغى سنة ١٩٣٠ واستبدل به دستور صدقي العجيب الذي كان ذا طابع رجعي ، إذ جعل الدستور منحة من الملك ، وجعل للهيئة التنفيذية حق التشريع ، وجعل للملك حق إهمال أى قانون يقره البرلمان •

— ألغى دستور صدقي سنة ١٩٣٤ وبقيت البلاد بلا دستور حتى أعيد دستور ١٩٣٣ في ديسمبر سنة ١٩٣٥ •

— ثم استقر رأى الملك على أن يبقى هذا الدستور لكن على أن يكون حبرا على ورق فقط ، لا حياة فيه ولا مدلول له ، وسيتضح ذلك من ملاحظة الفترات القصيرة التي أمضاها حزب الأغلبية في الحكم ، فقد كانت أحزاب القصر مضطرة حتى سنة ١٩٣٥ أن توقف الدستور أو تلغيه لتحكم ، ورؤى بعد ذلك أن تحكم بأية صورة من صور التحريف والتزوير ، دون اعتبار لهذا الشيء المنسطور ، وذلك مزيد من الانحدار والاستهتار •

والعجيب أن رجلا اسمه أحمد زيور لا يمثل إلا نفسه بل لا يمثل نفسه ، تولى رئاسة الوزارة سنة ١٩٢٤ وأجرى انتخابات ، فلما فاز حزب الوفد واختير سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب قرر زيور الأئيم ، بايعاز الملك طيما ، حل مجلس النواب بعد بدء انعقاده بيوم واحد •

الملك والشعب :

وبعد أن أوضحنا كيف كان فؤاد حربا على الدستور ، نلتفت الآن لنبين كيف كان فؤاد وابنه من بعده حربا على الشعب ممثلا في حزب الأغلبية (حزب الوفد) ، ووسيلتنا الدقيقة لاثبات ذلك أن نورد قائمة

بالوزارات منذ ثورة ١٩١٩ إلى ثورة ١٩٥٢ ليظهر لنا أن المدة التي قضها حزب الأغلبية في الحكم كانت ضئيلة جدا :

رشدى باشا سنة ١٩١٩ رأس لجنة وضع الدستور فيما بعد
فترة بدون وزارة إبان ثورة ١٩١٩ *

محمد سعيد سنة ١٩١٩

يوسف وهبة » ١٩١٩

عدلى يكن » ١٩١٩

عبد الخالق ثروت » ١٩٢٢ أسقطه الملك لنفسه بمواد في الدستور

توفيق نسيم » ١٩٢٢

يعقوب إبراهيم » ١٩٢٣ صدر الدستور في عهده

سعد زغلول » ١٩٢٤ أول وزارة انتخابية

أحمد زيور سنة ١٩٢٤ أرضى الاستعمار والملك ، وكان ستارا

لحكم القصر ، وحل البرلمان يوم بدء انعقاده

عدلى يكن } سنة ١٩٢٦ وزارتات ائتلاف — سعد زغلول رئيس
عبد الخالق ثروت } » ١٩٢٧ مجلس النواب

مصطفى النحاس » ١٩٢٨ وزارة وفدية بعد تصدع الائتلاف —
أقيمت في نفس العام

محمد محمود » ١٩٢٨ حكم ديكتاتوري — تعطيل الدستور

عدلى يكن » ١٩٢٩ وزارة انتقالية لأجراء انتخابات —
فوز الوفد

مصطفى النحاس » ١٩٣٠ وزارة وفدية

اسماعيل صدقي » ١٩٣٠ استبعاد وتغيير الدستور

- عبد الفتاح يحيى » ١٩٣٣
توفيق نسيم » ١٩٣٤ ألغى دستور صدقي
[ثورة شباب الجامعات — الجبهة الوطنية]
علي ماهر سنة ١٩٣٦ وزارة انتقالية لإجراء انتخابات —
فوز الوفد
مصطفى النحاس » ١٩٣٦
محمد محمود (آخر ديسمبر) » ١٩٣٧ في عهده تألقت الهيئة السعدية
علي ماهر » ١٩٣٩
حسن صبري » ١٩٤٠ في عهده ألغى صندوق الدين
حسين سري » ١٩٤٠
مصطفى النحاس » ١٩٤٢
أحمد ماهر سنة ١٩٤٤
محمود فهمي النقراشي » ١٩٤٥
إسماعيل صدقي » ١٩٤٦
النقراشي » ١٩٤٦
إبراهيم عبد الهادي » ١٩٤٨
حسين سري » ١٩٤٩ في وزارتين : ائتلافية يوليو — نوفمبر
ومحايدة نوفمبر — يناير
مصطفى النحاس » ١٩٥٠
علي ماهر » ١٩٥٢
نجيب الهلالي » ١٩٥٢
حسين سري » ١٩٥٢
نجيب الهلالي » ١٩٥٢

ولنا تعليقات على هذه القائمة :

١ — كانت المدة قصيرة جدا في كل مرة من المرات التي تولى رئاسة الوزارة فيها سعد أو النحاس ، فكانت أحيانا شهورا قليلة ولم تتخط السنة إلا في حالات استثنائية ، ففي مرة كان فاروق قاصرا ، ولم يستطع مجلس الوصاية أن يقوم بهذه الحماقة ، فما أن وصل الصبي الى ما سُمى بالرشد حتى أقال وزارة النحاس بعد بضعة شهور ، ومرة أخرى كانت إبان الحرب العالمية الثانية ، وقد فرض الاستعمار الانجليزى النحاس فرضا على الملك ، فقد زحف مايلز لامبسون السفير البريطانى بالدبابات وأرغم الملك أن يأتى بحزب الوفد الى الحكم تقريبا الى الشعب فى أزمة الحرب وظل النحاس أكثر من سنتين على الرغم من الملك ، فلما بدأت انتصارات الحلفاء ، تخلى الانجليز عن الشعب وزعيم الشعب فأقاله فاروق ، وفى مرة ثالثة جاء النحاس لينقذ سمعة القصر وسمعة مصر عقب هزيمة فلسطين ، وصفقات الأسلحة الفاسدة ، وسنشردها بإقامة بعد قليل .

٢ — كان اخراج النحاس ينتهى بإقالته دائما ، ولم تعرف الإقالة لأى رئيس من الرؤساء الآخرين .

٣ — فى بعض الحالات رأى القصر وأعوانه والانجليز أن تدمير مصر أيسر من بقاء حزب الأغلبية فى الحكم ، وأول حادثة تؤيد هذه القضية مقتل السردار لى ستاك Lee Stack سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام سنة ١٩٢٤ ، وقد جرى اغتياله فى أحد شوارع القاهرة . واصبح العدالة تشير الى أن قتله مدبر للنكايه بمصر وبحزب الأغلبية الحاكم ، ويتضح هذا من الاثذار الذى قدمه اللورد اللنبى الى سعد زغلول ، وفيه يطلب مطالب لا علاقة لها البته بمصرع هذا السردار ، فهى — بالإضافة الى الاعتذار ودفع دية ثقيلة (نصف مليون جنيه) وتتبع المجرى والثأر منهم — تحتم أرجاع الجيش المصرى من

السودان ، وتقرر ضرورة الموافقة على أن تزرع السودان أرضا لا حدود لها في الجزيرة بعد أن كانت المعاهدات تقضى بأن الأرض المنزرعة لا تتجاوز ٣٠٠٠٠٠ فدان ، والموافقة التامة على أن تقوم بريطانيا بحماية المصالح الأجنبية في مصر . ورفض سعد بطبيعة الحال هذا الانذار ، واحتلت بريطانيا جمرك الاسكندرية ، وجاء القصر بزيور الأثيم ليوافق على كل شيء ، فكل شيء أهون من سعد في رأى القصر ورجال القصر .

إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحريق القاهرة :

وحدث آخر شهدناه ليس أقل خطرا من مصرع السردار الانجليزى ، ذلك هو حريق القاهرة الحبيبة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، فقد بجىء بالنحاس الى الحكم عقب كارثة فلسطين كما أشرنا من قبل ، وكانت الكارثة عملا أسهم فيه فاروق بنصيب كبير عن طريق الأسلحة الفاسدة التى كسب فيها القصر وأعواته عدة ملايين من الجنيهات ، وخسرت مصر كل شيء ، ثم عن طريق نزوات الملك ولذائذه ، وهذا السبب مكن للنحاس هذه المرة ، وممكن له كذلك موقفه الجريء من معاهدة ١٩٣٦ فقد صاح فى البرلمان : باسم الشعب وقعت هذه المعاهدة وباسم الشعب أعلن إلغائها ، وترتب على هذا الإلغاء أن توقفت المصريون الذين كانوا يعملون فى القاعدة البريطانية عن العمل فأصبحت القاعدة بالشلل ، وتوقف التجار عن امداد القوة الانجليزية بالطعام والمطالب الأخرى ، فأخذت جرعة الماء تكلف الانجليز ثمنا باهظا ، ونشط الفدائيون من الطلاب والشباب نشاطا كبيرا ، فأخذوا يتخطفون الجنود الانجليز ويقتضون عليهم ، وأوجد حزب الأغلبية عملا لكل من توقف عن العمل

وشجع الفدائيين ، والمهم أن هذا وسواه مكن لحزب الأغلبية في النفوس ، فلم يكن في مقدور فاروق أن يثقل الوزارة في هذا الجو من النجاس ، فلعبت أصبعه القذرة متضامنة مع الانجليز والخونة ، فأشعلت النار في عاصمتنا الحبيبة ، ورأى كاتب هذه السطور القاهرة وهي تحترق ، واشترك مع جمع من الشبان المخلصين في اطفاء النيران وإيقاف الشغب ، ويشهد الله أن دموعنا كانت تهطل بغزارة ونحن نعمل في اطفاء اللهب ، وقد هدأت صرخاتنا من حماسة الغوغاء المخدوعين ، وكانت القاهرة تحترق والملك (يعتقل) كبار رجال الجيش في مأدبة أقامها لهم بالقصر حتى لا ينقذوا العاصمة من الدمار ، وعلى حطام القاهرة أقام فاروق زعيم الأغلبية .

العلاقات بين بريطانيا ومصر

نعود لاستكمال الكلام عن العلاقات بين بريطانيا ومصر ، وقد شرحنا الجولة الأولى من هذه العلاقات ، تلك الجولة التي انتهت بتصريح ٢٨ فبراير الذي حقق نوعا من الاستقلال وشيئا باهتا من الديمقراطية سبق أن شرحناه .

وجاءت الجولة الثانية التي أريد بها تصفية التحفظات الأربعة التي ذكرها تصريح ٢٨ فبراير ، وبدأت هذه الجولة سنة ١٩٢٤ وانتهت بمعاهدة ١٩٣٦ ، وقد اشترك فيها عدد كبير من الزعماء كما يلي :

سعد ملك ونالد : ١٩٣٤ :

طالب سعد بسحب جميع القوات البريطانية ، وسحب المستشار البريطاني القضائي ، والعدول عن دعوى حماية الأجانب والأقليات بمصر ، وعن دعوى الاشتراك في حماية قناة السويس ، ورغبت بريطانيا هذه المطالب ، وخافت من أن يشغل سعد ثورات ضدها كذلك التي هبت سنة ١٩١٩ ، فقامت بالإيعاز بطريق أو بآخر بقتل السردار ، للتخلص من سعد ، ولزيد من تضيق قبضتها على مصر كما سبق القول .

ثروت — تشمبرلن : ١٩٣٧

(في وزارة الائتلاف الوفدي الدستوري)

اتفقت في هذه المفاوضة وجهات النظر على أكثر النقاط السابقة ، ولم يكن هناك خلاف إلا في نقطتين :

- ١ — تمسكت بريطانيا بضرورة بقاء بعض الضباط والعاملين من أبنائها بالجيش المصري ، على أن يكونوا بعثة عسكرية .
- ٢ — تمسكت بريطانيا بإبقاء عدد من موظفيها في إدارة البوليس

والأمن لصالح الأجانب ، ريثما يستقر الأمر في مسألة الامتيازات ، وفي هذه الأثناء تصدع الائتلاف ، وأسندت الوزارة لزعيم الوفد سنة ١٩٢٨ الذى أعلن عدم موافقته على هذا المشروع •

فعاد ثروت دون نتيجة ، وسرعان ما أقيمت حكومة الرشد •

محمد محمود — هندرسون ١٩٢٨ :

أوشك الاتفاق أن يتم على النحو السابق ، ولكن بريطانيا تمسكت بأن يصدق برلمان منتخب انتخاباً حراً على هذه المعاهدة فعاد محمد محمود لأنه كان يعرف أن أى انتخاب حر سيقضيه عن الحكم •

النحاس — هندرسون ١٩٣٠ :

كانت المفاوضات السابقة ترجى الكلام عن السودان ، فلما جاء دور النحاس أثار مشكلة السودان ، وأصر على أن تكون هجرة المصريين اليه غير محدودة إلا بشرط الأمن والصحة ، وأن يعود الحكم الثنائى على أن تكون مدته عاما واحدا ، ثم تتم الوحدة بين مصر والسودان • وقشلت المفاوضات على صخرة السودان •

الحرب العالمية الثانية وأثرها على العلاقات

إن الحديث عن الحرب العالمية الثانية يستتبع عودة للوراء لنتذكر نتائج الحرب العالمية الأولى ، فقد خرجت ألمانيا من هذه الحرب جريحة مهزومة ، واستبد بها المنتصرون ، ومن أجل هذا كانت تسمى بجدة للنصر ، وتبحث عن الزعيم الذى يثار لها ، وفي هذا الجو ظهر هتلر ، والتفت ألمانيا حوله باعتباره القائد والرائد الذى يسترد للبلاد مكانتها ، وفي سنة ١٩٣٢ وصل هتلر الى الحكم فأصبح رئيس الوزارة ، وفي سنة ١٩٣٤ أصبح رئيس الدولة بالإضافة الى رئاسة الوزارة •

وبينما كانت ألمانيا تنتجها نحو القوة كان العالم يعاني من الأزمة المالية الطاحنة التي حلت به ابتداء من سنة ١٩٢٩ ، وقد أعاد هتلر سبب هذه الأزمة الى جشع اليهود واستبدادهم الاقتصادي ، فاتخذ اليهود مختلف الحيل للايقاع به ، وواجه هتلر بجسارة خيانات اليهود ، كما واجه سطوة الحلفاء التي نكلت بألمانيا عقب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، فاتجهت سياسته الى التخلص من معاهدة فرساي وبالتالي إلى إضعاف فرنسا وأغضت بريطانيا الطرف عن تصرفاته الأولى ، ولكنها سرعان ما أحست بالتزامها بمواجهته ، فاتجهت الى تسوية أمورها مع مصر حتى تتفرغ الى هذا الصراع الذي بدأ يهدد العالم في الثلاثينات .

وقبل أن نواصل حديثنا عن أثر التهديد بالحرب العالمية الثانية في العلاقات بين مصر وبريطانيا نستكمل حديثنا عن أهم الخطوات التي قادت لهذه الحرب وعن أهم معالمها :

— في سنة ١٩٣٥ أعاد هتلر التجنيد الإجباري ، واستعاد اقليم السسار .

— في سنة ١٩٣٦ أعاد تحصين منطقة الراين ، وبدأ يطالب باسترجاع المستعمرات الألمانية .

— في سنة ١٩٣٨ نجح هتلر في ضم النمسا ، واستعد لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا حتى اضطرت الى أن تتنازل لألمانيا عن الأقاليم التي طالب بها هتلر .

— وفي سنة ١٩٣٩ ضمت ألمانيا ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا .

— وفي سنة ١٩٣٩ عقد هتلر ميثاق عدم اعتداء مع روسيا في ٢٣ أغسطس ثم اندفع يغزو بولندا ، وكان ذلك مطلع الحرب . إذ أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب عليه .

وكانت البلاد العربية وبخاصة مصر وليبيا مسرحا من مسارح الحرب العالمية الثانية ، فقد كانت ليبيا خاضعة لاطاليا وكانت ايطاليا تخوض الحرب بجانب ألمانيا ، وكانت مصر خاضعة لانجلترا وقد زحفت الجيوش الايطالية الألمانية بقيادة روميل من ليبيا فاحتلت بعض المواقع المصرية ، وحققّت هذه القوات ألوانا من الانتصارات في سنى الحرب الأولى سواء في الميدان الأوروبى أو في الشمال الأفريقى ، وفى سنة ١٩٤١ بدأت الحرب تأخذ منحى جديدا ، ففى هذا العام هاجم هتلر روسيا ، وحقق أشواطا من النصر فى الفترة الأولى ، ولكن الميدان الروسى شغله عن استمرار الانتصار فى الشمال الأفريقى ، ويعتبر شهر نوفمبر ١٩٤٢ بدء تحول بالنسبة للحرب فى المنطقة العربية ، ففى هذا الشهر بدأ روميل فى التقهقر غربا أمام زحف مونتهجرى ، واستمر مونتهجرى فى الزحف حتى استعادت قوات الحلفاء بقيادته مرسى مطروح واتجهت تحتل طبرق فبنى غازى ، فمصراته ، قطرابلس ، واستمر تقهقر القوات الألمانية الايطالية الى تونس ، ومنها أبهرت هذه القوات المهزومة الى أوروبا .

وفى نفس الوقت كانت قوات ألمانيا تواجه هزائم متتالية فى الميدان الروسى والميدان الأوروبى ، وفى سنة ١٩٤٥ أطبقت قوات الحلفاء على ألمانيا ودمرتها ، وقضت على جيوش النازى وانقهر هتلر .

ولنعد الآن لنبين أثر التهديد بهذه الحرب على العلاقات بين مصر وبريطانيا :

الجبهة الوطنية - مايلز لامبسون ١٩٣٦ :

(تكونت الجبهة من ٨ وفدين و٦ من الأحزاب الأخرى
برئاسة مصطفى النحاس)

تكونت هذه الجبهة سنة ١٩٣٥ نتيجة للثورة الوطنية التى قام بها الشبان واستجاب لهم الزعماء ، وفى الوقت نفسه كانت بريطانيا فى

حاجة لاتمام معاهدة مع مصر لتضمن نوعا من الاستقرار في هذه البلاد ، فقد كانت نذر الحرب العالمية الثانية تظهر ، وكانت ايطاليا في الحبشة تزار ، وكان فؤاد يئن من المرض وليس له وريث رشيد يقف عوناً للاستعمار بعد وفاته ، وفي هذا الجو تمت معاهدة ١٩٣٦ وأهم نصوصها :

— المادة الأولى : ينتهى احتلال مصر عسكريا .

— المادة السابعة : تقدم مصر لبريطانيا جميع المساعدات اللازمة داخل حدودها في حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة .

— المادة الثامنة : موافقة مصر على احتفاظ بريطانيا بقوات عسكرية في منطقة القناة لا يتجاوز عددها عشرة آلاف جندي و ٤٠٠ طائرة حتى يتفق الطرفان على استطاعة الجيش المصرى حراسة القناة دون عون .

— المادة الحادية عشرة : الحكم القنائى يعود للسودان وتكون هجرة المصريين اليه دون قيد .

— المادة الثانية عشرة : المسئولية عن أرواح الأجانب وأماليهم من اختصاص حكومة مصر .

— المادة الثالثة عشرة : نظام الامتيازات لا يلائم روح العصر وينبغى إلغاؤه .

— المادة السادسة عشرة : مدة المعاهدة عشرون عاما ، ويمكن اعادة النظر فيها اذا طلب أحد الطرفين ذلك بعد هذه المدة ، كما يمكن اعادة النظر فيها بعد عشر سنوات اذا اتفق الطرفان على ذلك .

وكانت هذه المعاهدة خطوة على الطريق ، ومن مميزاتها البارزة إلغاء

الامتيازات الذى تم فى مونترية فى العام التالى بناء على هذه المعاهدة ، وتخفيف قسوة الاحتلال ، وان ظاك جاثما ، وفى مسألة السودان تقرر العودة لاتفاقيتي يناير ويوليو سنة ١٨٩٩ .

بعد الحرب العالمية الثانية :

جاءت الجولة الثالثة للمفاوضات بعد الحرب العالمية الثانية بسبب التغيير العميق فى الحياة العالمية الذى أحدثته هذه الحرب ، فطالبت مصر بالنجلاء التام عن مصر والسودان ، واتخذت مصر فى هذا الشأن الخطوات التالية :

— مذكرة قدمها النقراشى فى ٢٠/١٢/١٩٤٥ الى الحكومة البريطانية ، ولكن هذه تمسكت بمعاهدة ١٩٣٦ .

• — مفاوضة بين صدقى الذى تولى الوزارة بعد النقراشى وبين بيفن ، انتهت الى المشروع الذى يُعرف بالدفاع المشترك ، ولكن الشعب ثار على هذا الارتباط وأسقط الوزارة والمشروع .

— قررت الحكومة السعودية التى جاءت بعد صدقى عرض القضية على مجلس الأمن ، وراح النقراشى الى المجلس حيث صرخ فى وجهه الانجليز قائلا إنهم قراصنة ، ولكن مجلس الأمن لم ينصف مصر لوقوعه تحت سيطرة الانجليز والأمريكان وأوصى بمفاوضة مباشرة بين الطرفين ، ولعل مما أضعف جانب النقراشى أن حزب الوفد أبرق للمجلس بعدم شرعية المتحدث باسم مصر .

— وجاءت حكومة الوفد للحكم بالانتخابات الحرة التى أجراها حسين سرى ، فبدأت المفاوضات من جديد بين صلاح الدين وبين بيفن ، و طال أمدها دون نتيجة ، فاضطرت الوزارة الوفدية الى اتخاذ موقف فردى ، فأعلنت سنة ١٩٥١ قطع المعادثات وانهاء العمل بأحكام معاهدة ١٩٣٦ وباتفاقيتي ١٩ يناير و ١٠ يوليو ١٨٩٩ الخاصيتين بالسودان ،

وتعديل مواد الدستور بما يتفق ووجهة النظر المصرية ، وبناء على هذا ألغيت جميع الاعفاءات المالية التى كانت ممنوحة للسلطات العسكرية البريطانية ، وامتنعت الجمارك عن بذل التسهيلات الجمركية ، كما توقفت السكك الحديدية عن نقل مهمات الجيش البريطانى ، ومنع هبوط البعثات العسكرية البريطانية بالمطارات المصرية ... وقد كان — من الممكن أن تتجح هذه الخطوة ، ولكن مما يؤسف له أن الأحزاب الأخرى لم تقف موقفًا وطنيا في هذه الأزمة التى وقفت فيها مصر وجها لوجه أمام المستعمر الغاصب : وعلى اثر الأحداث التى تلت إلغاء المعاهدة تأزمت الأمور كما شرحنا من قبل بين الانجليز والمصريين وأقيمت الوزارة بعد حريق القاهرة ، وجاءت وزارات القصر مرة أخرى ، فلم يكن لها من فضل إلا أن قربت قيام الثورة التى حملت عبء المرحلة الأخيرة في العلاقات بين مصر وبين بريطانيا ، وسنشرح هذا الجزء في حينه .

الأحزاب :

هل كانت في مصر أحزاب ؟

في الحق أن الانتخابات المتعددة التى جرت بمصر في جو من الحرية أثبتت أن جماهير الشعب تقف حول حزب واحد هو حزب الوفد ، وقد اتضح ذلك من أول انتخابات جرت عقب صدور دستور سنة ١٩٢٤ وتكرر ذلك كلما أجريت انتخابات حرة سواء تلك التى أجراها عدلى يكن أو على ماهر أو حسين سرى .

وقد بلغ من ارتباط الشعب بحزب الوفد أن مرشحيه كانوا ينجحون عند رؤساء الوزارات في الدوائر المخططة ، بل حدث في دائرة المراغة شيء جدير بالذكر هو أن هذه الدائرة كان بها بعض الشيوخ والعلماء الأجلاء من غير الوفديين ، وكانوا يظنون أن تكون الدائرة مؤيدة لهم ، فرشح سعد زغلول ضد شهابا مسيحيا هو « بطرس حكيم » وكان ذلك قمة

التحدي ، ونجح مرشح سعد وسقط منافسه ، فقد قال سعد : ان
المسيحيين لا بد أن يكون لهم ممثلون في البرلمان ، وقد أخفرت هذه
الدائرة ليمثلها أحد المسيحيين ، وأيد الشعب اتجاه زعيمه (١) .

وبجوار حزب الوفد كانت هناك جماعات أسمت نفسها أحزابا
وليست في الحق إلا تكتلات خلقتها القصر وأمدّها بعونه ، ليسارع بها حزب
الجمهير ، وهي عبارة عن أسر وأفراد يجمع بينها كرهها لحزب الأغلبية
واتجاهاته وقياداته ، ويجمع بينها خضوعها للقصر واستمداد السلطان
منه ، وليس لها حول سوى ذلك ، وكان بعضها أداة في يد القصر للتكيد
بالشعب ، وكانت هذه الأحزاب تدرك بوضوح أن وسيلتها الى الحكم
هي ارضاء السيد الرابض في « عابدين » ، فاصطنعت الوسائل لارضائه
والخضوع اليه ، وكان هذا السيد يدرك أن وسيلته للتكيد بالشعب
هو اصطناع هذه الأحزاب الزائفة ، ولكن ذلك لم يحتج منه الى جهد ،
فهذه الأحزاب كانت تفسية تعرج اليه لتتال من فتاته كلما دعاها .

ونقرر بدقة وعمق من تتبع الأحداث أن أحزاب القصر هذه لم
ينجح في الانتخابات فيها فرد واحد بحكم افتقائه اليها ، أما القلة القليلة
التي كانت تنجح فان نجاحها كان بسبب مكانة شخصية أو نفوذ خاص ،
وكان الوفد يرشح أحيانا بعض شبابه في دوائر باشوات أحزاب القصر ،
وكان الباشوات يبذلون أقصى الجهد وأعلى المال لكي ينتصروا على
هؤلاء الشبان الذين لم تكن لهم بضاعة إلا الانتماء لحزب الوفد .

وشيء آخر عمد اليه الملك لينال من حزب الأغلبية ، ذلك هو اغراءه
ووسائله المتعددة لإحداث فرقة فيه وخلق عمليات انفصال به ، وربما كان
نجاح فاروق في هذا الميدان أقوى من نجاح أبيه ، ففي عهده انسلخت

(١) رواية الأستاذ ابراهيم مرج الوزير الوفدي سابقا .

قوى كبيرة من الوفد متمثلة في الهيئة السعدية ، وفي الكتلة الوفدية ، وفي نجيب الهلالي ومن التفه حوله ، وأغرى فاروق مكرم عبيد الذي طالبت صحبته للنحاس باشا ، فأخرج « الكتاب الأسود » يسنن به حربا على من كان بالأمس زعيمه ورئيسه ، ولكن هذه الحرب كانت فاشلة وانفض عنه الناس .

ويتهجه خصوم الوفد الى نقده ذاكرين أنه ضم الى جموعه رجال الإقطاع وأنه من الصعب التوفيق بين أمانى الشعب ومصالح الإقطاع ، ويقولون إن أمجاد الوفد كانت قائمة على موقفه الأبي من القصر ، ولكنه في السنين الأخيرة عمد — كما قلنا من قبل — الى سياسة الملاينة رجاء أن يرضى الملك ، ولكن الملك ما كان ليرضى عن قوى تدعّمها الشعوب ، وأخيرا فأحزاب الأقلية تهاجم استجابة الوفد للدعوة لتولى الحكم في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ اثر الانذار الانجليزى الذى بعث به مايلز لامبسون للملك ونصه : « إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف وزارة ، فان جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » . ويتساءلون : لماذا جاء الوفد الى الحكم في هذه الظروف ؟

وقد انتهز خصوم الوفد هذه المواقف ليشهروا به ، ولكن رجال الوفد يردون هذه الاتهامات ويؤكدون أن الأثرياء لم يكونوا قط عقبه في طريق أى اصلاح ، وأن الزعامة الوفدية لم تخضع قط للقصر ، وسنرى فيما بعد أن مصطفى النحاس ظل حتى آخر دقيقة قبل الثورة وهو يقف موقف المناضل من القصر وأعوانه ، كما يذكرون أن أحزاب الأقلية تولت الحكم عدة مرات دون تأييد إلا من الانجليز وأذناب الانجليز ، فكيف ساغ لهم أن يتكلموا عن هذا الموضوع ؟ ثم إذا طلب ممثل الأمة ليتولى حق الأمة هل كان له أن يتنحى عن واجبه ؟

حادث ٤ فبراير :

وهذا الحادث جدير بكلمة تفصيلية ، فان أعداء الوفد لا يزالون يثيرونه ، معتقدين أنهم بذلك قد أمسكوا بسلاح يطعنون به الحزب الحقيقي الوحيد الذي عرفه تاريخ مصر المعاصر . وأحدث ما نعرفه من ذلك صحيفة « جريدة مصر » في يناير ١٩٧٨ وكانت هذه الجريدة تمثل حزبا قصير العمر هو حزب مصر العربي الاشتراكي ، وكان هذه الصحيفة كانت لعنة ضد الحزب صاحب الجريدة ، فلم تمض الا شهور قلائل حتى هرب أعضاء الحزب جميعا لينضموا الى الحزب الوطني الديمقراطي الذي كونه الرئيس أنور السادات في نفس العام ، ونظر رئيسي حزب مصر « ممدوح سالم » حوله فلم يجد أحدا من نوابه وأتباعه وشعبيته التي ادعاهما فترة من الزمن ، فاستقال من رئاسة الحزب ، والتف حزبه في طيات النسيان والظلام ، واختفت « جريدة مصر » الى غير رجعة ، وعلى كل حال فسنستكلم عن أحزاب عهد السادات في الجزء العاشر من هذه الموسوعة .

ماذا قالت جريدة مصر ؟

عندما أعلن قيام حزب الوفد الجديد في يناير سنة ١٩٧٨ كتبت جريدة مصر مقالا الافتتاحي بعنوان : عودة حزب ٤ فبراير .

واحتوى هذا المقال نفس العبارات القديمة التي قيلت سنة ١٩٤٢ مثل : عاد الوفد على أسنة الرماح البريطانية وغيرها من العبارات الجوفاء .

ومن الواضح أن القصر كان قد تردى في القاع ، وساعت سمعته كثيرا ، وكان يدير الأمر به عصابة من الدمى تستجيب لها وزارات الأقليات وكان الإنجليز في فترة الاحتلال لمصر ضالعين مع القصر ، فالإنجليز ، والملك كانوا أعداء للشعب ويخافون القوى الشعبية ، ولذلك كان الملك بموافقة الإنجليز يلجأ للأحزاب الصناعية ، أحزاب الأقليات ليكون منها

الوزارات ، وكانت هذه الوزارات بالتالى تعمل بجهد لارضاء القصر والانجليز والضغط على كل الاتجاهات الشعبية .

ولكن الإنجليز فى ظروف الحرب أو التهديد بها كانوا يحتاجون لتهدة الشعوب ، ويخافون ثوراتها ، ومن هنا كانوا يختلفون مع الملك فى هذه الظروف ويحرصون على وزارة ممثلة للشعب تمثيلا حقيقيا لإرضاء الشعوب .

وفى يونيو سنة ١٩٤٠ كان على ماهر رئيسا لوزارة مصر ، وكانت ايطاليا قد دخلت الحرب العالمية حديثا ، وكان الانجليز يشكون فى ولاء على ماهر وبخاصة فى تلك الظروف الحرجة ، فتقدم الانجليز يطالبون الملك بمطالبن : أولهما تنحية رئيس وزرائه على ماهر عن الحكم لشكهم فى ميوله مع ألمانيا وايطاليا وثانيهما تشكيل حكومة صديقة لبريطانيا تتولى تنفيذ المعاهدة نصا وروحا ، واستجاب فاروق للإنذار البريطانى فقدم على ماهر استقالة حكومته وبادر الملك بتكليف أحد كبار المستقلين من أصدقاء الانجليز وهو حسن صبرى بتشكيل حكومة جديدة فى ٢٧ يونيو عام ٤٠ كانت تضم ستة من الوزراء المستقلين وعشرة وزراء تمثل أحزاب الأقلية : ٤ من السعديين و ٤ من الدستوريين وممثل واحد لكل من الحزب الوطنى وحزب الاتحاد .

وهذا الموقف هو الذى تكرر تماما فى فبراير سنة ١٩٤٢ ، فقد ضعفت اوزارة حسين سرى — التى جاءت للحكم سنة ١٩٤٠ عقب وفاة حسن صبرى — ولم تستطع مواجهة الأحداث وبخاصة عندما زحف روميل تجاه حدود مصر ، وهتف بعض الشبان المصريين : « تقدم يا روميل » فحينئذ تقدم الانجليز بطلب الى الملك أن يستدعى النحاس باشا لتكليف وزارة شعبية ليستطيع أن يضمن تأييد الشعب وعدم ثورتهم على النظام القائم .

ولكن الملك رفض ذلك لكرهه شخصية للنحاس باشا ، ولم يقف

الموقف الذى وقفه قبل ذلك بعامين ، وكان من نتيجة ذلك أن ساق الانجليز الدبابات والعربات المدرعة البريطانية لتضرب الحصار حول قصر عابدين فى الساعة التاسعة مساء يوم ٤ فبراير ٤٢ ، وبعد أن ألقى السفير على فاروق بياناً حمله فيه مسئولية انتهاك المادة الخامسة من المعاهدة قدم اليه وثيقة تنازله عن العرش كى يوقعها وعندئذ انهار فاروق وطلب من السفير فى ذلة واستجداء أن يمنحه سرسة أخرى وطلب الاجتماع بزعماء الأحزاب ، فاجتمعوا فى القصر ، ووضع الملك الأمر بين أيديهم وتركهم ، وطلب زعماء الأحزاب من النحاس أن يؤلف وزارة قومية تمثل فيها كل الأحزاب فرفض النحاس ليقينه أن مثل هذه الوزارات لا تتجح ، وكان عجباً أن يكون تأليف النحاس باشا لوزارة قومية مقبولا لدى الأحزاب ، أما تأليفه وزارة وفدية فيعد مجيئاً للحكم على أسنة رماح الانجليز !!

لقد كان عزل الانجليز للملك فرصة لادى الوفد للقضاء على الملك الضال الذى حاول النحاس باشا خلعهُ سنة ١٩٣٧ ولكن الانجليز حموا الملك الى أن عزلته ثورة ٢٣ يوليو بعد ذلك ، وتعننته بأقذع التعنوت ، ولكن الوفد لم يستغل رغبة الانجليز سنة ١٩٤٢ لعزل الملك لسببين مهمين : أولهما — أن خلع الملك فى تلك الظروف على يد الانجليز والحرب العالمية فى أوج لهيبها كان سيضع مصر فى موقف يخشى منه .

ثانيهما — إن فاروق تضرع للنحاس باشا أن ينقذ الموقف المصرى ويؤلف الوزارة ، وقال له : إنك الوطنى الوحيد ، وإن قبولاك الحكم تضحية منك تضيقها الى تضحياتك السابقة التى يعرفها الجميع . وقد أثبت النحاس باشا هذه العبارات فى كتاب تأليف الوزارة ، ونصها :

... وقد أعربتم جلالكم المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة عن ثقتكم فى شخصى وأثبتتم عنى انكار الذات ، وذكرتم أن هاتين الصفتين الكريمتين يقضيان على أن أتقدم لإنقاذ الموقف وأتحمل مسئولية تطورات لم يكن لى يد فيها .

فلما انكشفت الغمة عن الانجليز وتراجع الألمان ، واتحسر الضغط الانجليزى عاد الملك من جديد الى أحزاب الأقلية التى كانت دائما تتجاهل الشعب وتعيش فى رحاب القصر والانجليز ، فألقت هذه الأحزاب الوزارات ، وراح زعماءها يرمون الأبرياء بما فيهم من عيوب ومثالب .

عود الى الحديث عن الأحزاب :

تحدثنا آنفا عن الأحزاب فى عهد الدستور لنبرز أنها كانت تتمثل فى اتجاهين : اتجاه الأمة ويمثله حزب الوفد ، واتجاه القصر وتمثله أحزاب متعددة لم يكن لها هم إلا الخضوع للقصر الذى كان بالتالى خاضعا للانجليز .

وإذا عدنا الى ما قبل الدستور وجدنا مصر عرفت الأحزاب أيضا ، ومن أشهر الأحزاب آنذاك حزب الأمة الذى أنشئ سنة ١٩٠٧ برئاسة حسن عبد الرازق باشا ، والذي كان يهادن دولة الاحتلال ويدعو للاستقلال الذاتى ، وكان لهذا الحزب صحيفة تسمى « الجريدة » شغل لطفى السيد رئاسة تحريرها .

ومن أحزاب ذلك العهد كذلك حزب الإصلاح الذى أسسه سنة ١٩٠٧ الشيخ على يوسف ، وكانت صحيفة « المؤيد » لسان حاله ، وكان ينجاز للخدوى .

وبعد هذين الحزبين نورد تعريفا بأهم الأحزاب الأخرى وهى :

— الحزب الوطنى : أسسه مصطفى كامل سنة ١٩٠٧ .

ولمصطفى كامل تاريخ وطنى حافل أشرنا اليه آنفا ، ونضيف هنا أنه كان شابا ثائرا ، ظهر نشاطه السياسى وهو طالب بالجامعة ، وقد خدمته الظروف فدفعته الى الزعامة وهو فى مطلع الشباب ؛ فإن العثمانيين كانوا يتطلعون الى عودة نفوذهم بمصر ، ويبحثون عن قيادة بمصر

تأييدهم ويؤيدونها ، وهنا التقى بهم مصطفى كامل فأنعموا عليه برتبة الباشوية ودفعوه الى الزعامة ، وبالتالي كان مصطفى كامل يدعو للتعاون مع الامبراطورية العثمانية ، وفي نفس الوقت كان سلطان مصر (عباس حلى) شابا يناهض الانجليز ويصارع بقاءهم في البلاد ، فأيد مصطفى كامل كذلك ، وسقط الاستعمار الانجليزى سقطته الكبرى في حادثة دنشواى الأثيمة ، فانتهزها مصطفى كامل فرصة وراح بالكلمة المقولة والكلمة المكتوبة يهاجم الاستعمار الانجليزى بمصر ، ومات مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ وهو في مطلع الشباب أى في الرابعة والثلاثين من العمر وآلت رئاسة الحزب الى محمد فريد الذى جاهد جهادا صادقا ضد الاستعمار حتى مات غريبا سنة ١٩١٩ ، وبوفاته أو قبل ذلك بفترة انتهى العصر الذهبى للحزب وإن ظل قائما من الناحية الاسمية ، وقد تعاون زعماء الحزب الوطنى بعد ذلك مع أحزاب الأقلية وقنعوا بالفتات ورحبوا بكراسى الحكم .

بقى عن مصطفى كامل وعن الحزب الوطنى نقطتان مهمتان توضحان بعض زوايا التاريخ .

أولاهما : لولا الظروف التى ساعدت مصطفى كامل ، والتى ذكرناها من قبل ما استطاع أن يصل لما وصل اليه من صيت في هذه السن المبكرة ، وبخاصة أنه لم توجد نتائج ذات بال لجهوده ، ثم إن عبد الناصر بعد ثورة ١٩٥٢ عمد الى إغفال دور حزب الوفد وزعمائه ، وجماعة الإخوان المسلمين وزعمائهم ، وراح ينتقخ في دور مصطفى كامل والحزب الوطنى ، وكان ذلك تنفيذاً لسياسته التى حاول بها القضاء على كل القوى الحقيقية بالبلاد .

ثانيهما : آلت زعامة الحزب الوطنى الى حافظ رمضان منذ سنة

• ١٩٢٣

ولن نتحدث عن حياة هذا الرجل الشخصية ، مع أن بها ما يمس

حياة مصر ، ولكننا نروى حادثة واجدة توضح كيف كان الرجل خسالى الرفاض فى مجال الثقافة الإسلامية ، فقد روى لى الأستاذ نجيب المطيعى حفيد الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية سابقا أنه سمع حافظ رمضان يقرأ آية من القرآن الكريم كانت ضمن خطاب سيلقية ، وحرّف حافظ رمضان الآية وهو يقرأها ، فاندفع الأستاذ نجيب يصيح له خطأه ، فضحك حافظ رمضان ضحكة عالية طويلة ، ولما سأله الأستاذ نجيب عما يضحكه قال له : إنك تردنى فى حماسة وغضب كأننى أخطأت فى البخارى !!

يا الله !! كيف صكّح مثل هذا الرجل لثل هذه الزعامة فى مصر ؟

— حزب الوفد : تأسس فى ١٣/١١/١٩١٨ مع صحوّة الشعب فى ثورته الكبرى بزعمارة سعد زغلول فمصطفى النحاس ، وظل يمثل الأغلبية حتى حلت الأحزاب ، وستحدث بعد قليل عن شخصية سعد زغلول وشخصية مصطفى النحاس .

— حزب الأحرار الدستوريين : أوجده على فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ ويقول عنه أحد الكتاب « كان أعضاؤه فى أكثر موافقهم يعملون للوصول الى الحكم بأى ثمن ، وعلى حساب مصلحة البلاد العليا ، وهو الحزب الذى انتهك حرّمات الدستور واستباح مقدساته ، وقال أحد رؤسائه « عبد العزيز فهمى » عن الدستور إنه ثوب فضفاض ، وجاء للحزب رئيس آخر هو محمد محمود الذى مثّل على مسرح السياسة المصرية الدكتاتورية الحمقاء ، فأطلق على نفسه « ذا القبضة الحديدية » وأوقف العمل بالدستور « (١) » .

وقد تحدث عبد الرحمن الرافعى أحاديث طويلة عن الوفد وعن

الأحرار الدستوريين ، وكان — كما يقول الأستاذ شفيق غريال — يعامل الوفديين أحياناً بالعتب وأحياناً بالإنكار وأحياناً بالرضا ، ولكنه لم يغير رأيه في الدستوريين أبداً ، فكانوا في نظره دائماً وصوليين ونفعيين ورجعيين (١) .

— حزب الاتحاد : — قد أنشأه القصر سنة ١٩٢٥ برئاسة حسن نشأت كبير الأمناء بالقصر ، وكان من أعضائه على ماهر .

— حزب الشعب : — وقد أنشأه صدقي سنة ١٩٣٠ ، وكان عدواً للشعب على الرغم من هذه التسمية .

— الحزب السعدى : — ألفه أحمد ماهر والنقراشى بعد انشقاقهما على الوفد سنة ١٩٣٨ .

— حزب الكتلة الوفدية : — أسسه مكرم عبيد بعد انشقاقه على الوفد سنة ١٩٤٣ .

وهناك قوى ادعت أنها مستقلة ، وكان معنى الاستقلال عدم الانتماء الى الأحزاب رسمياً ، وإن كانت تميل الى كراهية الوفد والتعاون مع سواه على تفاوت بين الأشخاص ، وأبرز هذه القوى على ماهر بعد استقالته من حزب الاتحاد وحسين سرى وحسن صبرى .

(١) عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة فى عدة أمكنة ، وشفيق غريال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ١٥ .

سعد زغلول ومصطفى النحاس

في حديثنا عن الحركة القومية ونتائجها ، وعن المذجزات التي حققتها هذه الحركة في الداخل والخارج ، وفي حديثنا عن الأحزاب وعلاقتها بالشعب وبالقصر يقفز لهذه الدراسة شخصان من العمالقة ، مناح مصر كل الجهد وكل العرق ، ونالا من مصر كل الود وكل الولاء ، هذان هما سعد زغلول ومصطفى النحاس ، ومن عجب أن هذا وذاك لم ينجبا أطفالا وكأنهما استعاضا بالأولاد جماهير الشعب التي أخلصت لهما أكثر من الأولاد والأحفاد ، ومن عجب كذلك أن يمرتا في تاريخ واحد هو الثالث والعشرون من أغسطس (سنة ١٩٢٧ للأول وسنة ١٩٦٥ للثاني) وكأنهما قنعا بذكرى واحدة لهما تظل تجمع بين اسميهما وهما في عالم الخلود كما جمعت الدنيا بينهما في ميدان كفاح واحد ؛ ويلتقي الاثنان كذلك في ظاهرة قل من قنع بها من القادة والزعماء ، وهي الرضا بالكفاح في حياتهما حتى اذا ماتا لم يتركا شيئا من المال ظاهرا أو مستترا ، بل أن الزعيم مصطفى النحاس استبدل بجانب من معاشه مالا كان في مسيس الحاجة اليه كما قال مريده عبد الفتاح حسن (١) .

وكان يقال عن سعد إنه من يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى وفاته سنة ١٩٢٧ كان تاريخه الشخصي تاريخ مصر (٢) ، وذلك اسمى ما يوصف به زعيم يعترف له الشعب بالتقدير والحب والولاء ، ويمكننا أن نقول عن خليفته الزعيم البطل مصطفى النحاس إنه حمل اللقب بكفاءة نادرة مع سعد ، واستقل بالعبء بعد سعد بنفس النضج والإخلاص والمواهب الممتازة ، وارتبط به تاريخ مصر منذ وفاة سعد سنة ١٩٢٧ حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ ، وقد بقي هذه المدة الطويلة عملاقا هائلا لم تضعفه الأحداث ولم تتل منه مؤامرات الأعداء ، وظل كالطود الشامخ ، يلتف حوله الشعب كله ، ويعيش هو للشعب كله ؛ ويصفه الباحثون (٣) أنه

(١) الأخبار في ٢٤/٨/١٩٧٥ .

(٢) انظر ترجمة سعد زغلول في الموسوعة العربية الميسرة .

(٣) مقال المصور في ١٢/٩/١٩٧٥ .

كان خلال هذه المدة قائد مصر وضميرها ، وأنه بلغ الذروة في الشجاعة والاقدام والتضحية بكل شيء من أجل مصر وأبناء مصر .

ومن أوجه التشابه بين الزعيمين أنهما عملا بإخلاص لتقوية الروح الوطنية بين أفراد الشعب ، لا فرق بين مسلم ومسيحي ، وبذلك لم يتيحا فرصة للمستعمر ليتخذ من الدين وسيلة للتفريق بين الأمة ، وإذا استعرضنا مريدى سعد ومصطفى النحاس وجدنا نخبة طيبة من المسيحيين كانت تحتل الصفوف الأولى بالحزب مثل سينوت حنا ومكرم عبيد وإبراهيم فرج ...

وعندما قامت الثورة واعتزل النحاس الحياة السياسية أو أرغم على ذلك ، بقيت الروابط المتينة بينه وبين مريدى ومؤيديه ، وكانت أحاسيس الولاء تنتظر الفرصة لتعلن عن نفسها ، وللأسف جاءت الفرصة ولكنها كانت مريرة ، كانت وفاة البطل سنة ١٩٦٥ بعد اختفاء زاد عن ثلاث عشرة سنة ، ولكن هذه السنين الطوال ، لم تقو على أن تزرع النسيان في نفوس الناس على الرغم من أن الأوامر طيلة هذه المدة كانت تمنع ذكر اسمه بالصحف ، وعلى الرغم من المحاولات التى أرادت تشويه اسمه أو النيل من سمعته ، وما إن أذيع خبر الوفاة حتى انطلق الشعب غير مكثرت بالوعيد وبقوى الشر التى كانت تحكم البلاد آنذاك ، وراح يحمل الجثمان الطاهر ، ويهتف بالشكوى الى الله مما يعانى بعد أن أبعد الزعيم الحقيقى عن الشعب الذى عاش معه واليه ، وكان مريدى النحاس يفعلون ذلك وهم يتوقعون الضر من قوى الشر ، وقد وقع الضر فعلا فقبض على مئات منهم وظل بعضهم في السجن لهذا السبب عدة سنوات حتى مات (١) .

وبعد وفاة سعد وجد الشعب الفرصة ليعلن لهذا الزعيم عن العرفان بالجميل ، فإن حزب الوفد حمل باسم الشعب هذه المسئولية ، فأقيم

(١) انظر نماذج من هؤلاء في كتاب « مصر في حربين » للمؤلف ص ٦٦ .

للزعيم ضريح عظيم ، وحُوِّل منزله الى متحف ، وأقيمت له التماثيل الشاهقة في أعظم الأمكنة بالقاهرة والاسكندرية .

ولكن مصطفى النحاس اختفى عن ميدان السياسة في عهد عبد الناصر حيث كانت شريعة الغاب هي شريعة مصر ، وحيث غاب القانون وطالت غيبته ، وحيث كان من مظاهر العصر أن يُعْتَدَى على كل الكفاءات ، وأن يسدل الستار على الماضي ، وأن تظهر مصر وكأنها ولدت من جديد بدون تاريخ سابق أو جهود قامت بها الأجيال الماضية . وعلى هذا لم ينل مصطفى النحاس حقه ولا جزءا منه ، بل برزت محاولات أضرنا لها من قبل لتغمر الرجل ولتتال منه ، وعلى هذا فحق مصطفى النحاس علينا حق مزدوج أن ننصفه من الظلم ، وأن نحيطه بما يستحق من أضواء واعتراف بالجميل .

وبالإضافة الى أوجه التشابه التي أوردناها بين الزعيمين ، هناك تشابه في السلوك ، وهذا التشابه يرويه لنا الأستاذ محمد كامل البنا سكرتير مجلس الوزراء في عهد مصطفى النحاس ، فهو يقول : سألت النحاس باشا كيف تتقابلون الملك وكيف تسلمون عليه ؟ فقال : إن جميع رؤساء الوزارات والوزراء ما عدا المرحوم سعد زغلول وأنا يسلمون عليه ويقبلون يده ، أما سعد وأنا فتعودنا مع الملك فؤاد والملك فاروق أن نتحنى انحناءة بسيطة ونسلم عليه دون تقبيل يده وكذلك تعودنا في كتاب الرد على التكليف بتشكيل الوزارة أن نكتب له (يا صاحب الجلالة) بينما يكتب جميع الرؤساء سوانا (مولاي صاحب الجلالة) .

وكان سعد زغلول شديد الاعتزاز بالتشعب ويمكنه منه قائدا وزعيما ، كما كان شديد التمسك بالحقوق التي كفلها الدستور ، فعقب الانتخابات البرلمانية الأولى في يناير سنة ١٩٢٤ التي أجراها يحيى ابراهيم رئيس وزراء تلك الفترة ورمب فيها نفسه أمام أحد مرشحي الوفد ، وحصل الوفد على أغلبية ساحقة ، عقب ذلك أصبح الملك فؤاد في ١٧ يناير أمرا لزعيم الوفد سعد زغلول بأن يؤلف الوزارة الجديدة ،

ولكن الملك لم ينس أن يضع في أمر التكليف غمزة لا تناسب حقوق الأغلبية ، فذكر أن اختيار سعد لتأليف الوزارة جاء عن صدق ولاء سعد وعظيم خبرته وحكمته وبسداد رأيه في تصريف الأمور ولكن سعد فطن للأمر ، ولم تخدعه أساليب المدح في شخصه ، فكتب في خطابه للملك الذي ألّف به الوزارة أن الانتخابات العامة أظهرت بكل جلاء إجماع الأمة على التفافها حول الحزب الذي يرأسه وأن تأليفه للوزارة التي عهد له بها قد نبع من إرادة الأمة .

ولما جاء موضوع الشيوخ الذين يعينون نشأ نزاع جديد تمسك فيه سعد كما تمسك فيه النحاس من بعده فقد رأيا أن حق تعيين الشيوخ ليس للملك وحده ، بل له من خلال الوزارة .

وابتداء من وزارة سعد التي أشرنا إليها آنفاً طرأ تقليد جديد على العلاقات بين بريطانيا ومصر ، فقد كان من المتبع قبل ذلك أن يبادر رئيس الوزراء الجديد بزيارة المندوب السامي ، ولكن المندوب السامي بادر بزيارة سعد في مكتبه عقب تأليف الوزارة .

وفيما يتعلق بالسودان نجد لسعد موقفاً رائعاً ، ففي ١٧ مايو سنة ١٩٢٤ ألقى سعد تصريحاً في مجلس النواب اعترض فيه على وجود السردار بالسودان بل وعلى منصب السردار نفسه قال فيه « لا يتفق مع كرامة الدولة المصرية أن يكون الرئيس الأعلى لقواتها أجنبياً بل ولا الرئيس الأدنى أيضاً ، ولكن هذا كان من قبل ويجب علينا أن نمحوه كما أن إقامة السردار بالسودان لا تتفق مع مصلحة العمل وهذا واقع من قبل ويجب أن نتخذ الوسائل لإزالة ذلك » . وفي الأسبوع التالي قال سعد في المجلس « من المحال ترك السودان غنيمة باردة للإنجليز » . وفي نوفمبر أبرق اللورد اللنبي إلى حكومته بأنه ينتظر الفرصة المناسبة لتحدي الحكومة المصرية ، وجاءت هذه الفرصة بحادثة اغتيال السردار في ١٩ نوفمبر التي عبر عنها الجنرال ويفل قائلاً « إن الأقدار قد أرسلت جثة السردار حلاً لموقف لم يعد محتملاً ، فقد تقدم المندوب السامي

البريطاني في مظاهرة عسكرية بإنذار الى رئيس الوزارة حمل كل المهانة للحكومة المصرية مما كان لا يمكن أن تقبله حكومة ذات كرامة أو حكومة حريصة على الاستقلال الوطنى ناهيك بحكومة يرأسها سعد .

ولم يكن أمام الوزارة الشعبية في مواجهة أعمال القوة التى شرع البريطانيون في القيام بها لتنفيذ الإنذار إلا التقدم باستقالتها الى الملك في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ وقبل الملك الاستعفاء في اليوم التالى وطويت بذلك صفحة من أهم صفحات تاريخ الوزارات المصرية (١) .

وجاء زيور ليستجيب لكل مطالب الانجليز كما ذكرنا من قبل .

مصطفى النحاس :

تحدثنا فيما سبق عن سعد زغلول ومصطفى النحاس معاً ، فقد كان الثانى امتداداً حقيقياً للأول ، ولكنا هنا نضيف للنحاس سطوراً أخرى ، فقد كان العناء الذى قابله النحاس أكثر مرارة من ذلك الذى قابله سعد لطول المدة من جانب ، وللمساعار الذى اندفع فيه الملك فؤاد وفاروق من جانب آخر ، ثم لوجود أحزاب القصر أدوات للتكيل بالشعب ، وقد ظهرت هذه الأحزاب الوهمية في عهد النحاس أكثر من ظهورها في عهد سعد ، ولكن مصطفى النحاس كان جديراً بحمل العبء ، ومقاومة كل هذه القوى الجائرة ، وتذكر الوثائق مواقف كثيرة من التحدى قام بها مصطفى النحاس ، وهى تدل على رسوخ قدم ، وعمق إيمان واتجاه أكيد للحرص على مصلحة الشعب دون سواء .

وأول ما نذكره أن مصطفى النحاس كان من الرعيل الأول الذى حمل المسئوليات مع سعد ، فقد صرخ معه ضد الانجليز عقب الحرب العالمية الأولى ، ونفى مع سعد الى سيشل سنة ١٩٢١ .

(١) رحلة وسط الوثائق البريطانية (الأهرام في ١٥/٨/١٩٧٥) .

وعندما أُلِّف سعد وزارته الأولى سنة ١٩٢٤ كان النحاس وزيرا للمواصلات بها ، كما كان وزيرا في الوزارة الائتلافية التي رأسها عدلى يكن سنة ١٩٢٦ وكان سعد زغلول رئيس مجلس النواب ، وبعد وفاة سعد اختير مصطفى النحاس بالإجماع خلفا لسعد في رئاسة الوفد ورئاسة مجلس النواب .

النحاس والملك :

وعاش مصطفى النحاس صلبا في مواجهة استبداد الملوك ، ويروى أنه طلب مرة من الملك الإنعام على أحد الوزراء برتبة الباشوية ، ولكن الملك رفض ، فصاح النحاس في الملك : أنا لسانك . وتمّ للنحاس ما أراد ، ويعتبر هذا التعبير « أنا لسانك » أرقى ما تصل له الديمقراطية في معاملة الملوك .

وفي مرة أخرى حاول الملك أن يتدخل في الشؤون الحزبية الخاصة بالوفد عندما عتّب على قرار الحزب بفصل أحد أعضائه ، ولكن مصطفى النحاس لم يحتمل هذا التدخل وضرب المائدة ضربة احتجاج اهتزت لها كل الأدوات التي كانت على المائدة (١) .

وهذه المواقف وسواها حدثت في الوزارة الوفدية الأخيرة مما يدل على أن النحاس باشا ظل صامدا على مر السنين حتى آخر لحظة ولم يضعف أبدا أمام طغيان الملك الذي اتخذ عدة وسائل لاضعاف حزب الوفد ، وقد رأى الملك أن الأحزاب لم تغنه شيئا فلجأ للأزهر ، وعن طريق بعض الزعامات فيه اتجه كثير من الأزهريين لمعارضة الوفد ، وراح كثير من هؤلاء يناصرون الأحرار الدستوريين في الانتخابات ، وصرفت لهم بعض المكافآت المالية لهذا الغرض فأخذوا يخطبون في الجماهير ويطوفون بالقرى ولكن دون جدوى .

(١) من كلمة نشرها المرحوم الأستاذ عبد الفتاح حسن في صحيفة الاخبار بتاريخ ١٩٧٥/٨/٢٤ .

بقيت نقطة أثارها أحد أعداء مصطفى النحاس ، وقد وجد فيها بعض الحاقدين وسيلة للنيل من الرجل العظيم ، وهذه النقطة هي الادعاء بأن النحاس قبّل يد الملك فاروق ، وراوى هذه الحادثة هو حسين سرى ، وقد أخذها موسى صبرى مطعنا في الرجل العظيم ، ولكن قوى الحق اتجهت لقتل هذه الشبهة الحقيرة ، وفي الحق أن هذه الشبهة وُلدت ميتة ، ويكفى أن مصدرها حسين سرى الذى كان منافسا شديداً للعداوة لمصطفى النحاس ، وكذِبره في هذا الادعاء ظاهر ، وقد رد عليه عبد الفتاح حسن رداً مفصّلاً أثبت به محاضرات جلسات محكمة الثورة فقال إن طرفي الواقعة اثنان : الملك والنحاس ، والملك لم يقل هذا أبداً قبل رحيله أو بعد الرحيل ، والنحاس باشا أنكر ذلك وما كان يمكن أن يقبل ذلك ، وقد ادعى حسين سرى أنه كان وراء ستار وخلف حجاب يتصنت لما يجرى من حديث بين الملك والنحاس ، وموقف التجسس هذا ينحط بالرجل فلا يجعل كلامه موضع اعتبار ، ويؤيد كلامنا ضد حسين سرى كتاب الاستقالة الذى قدمه مصطفى مرعى من الوزارة التى كان يرأسها هذا الرجل ، وقد جاء في كتاب الاستقالة أنه (مصطفى مرعى) لا يقبل أن يبقى في وزارة يرأسها رجل مثله .

ولا يزال موسى صبرى وأسئلته يتشدقون بهذه القصة على أنها نقيصة ارتكبها النحاس ، ونحب أن نصرح أن زعماء كهذا طالت زعامته ، وكثر أعداؤه ، ثم لا يجد هؤلاء فيه مطعنا إلا هذه المسألة لجدير بكل تقدير ، لقد عجز أعداؤه وما أكثرهم عن أن يجدوا في الرجل ثلثة تمس وطنيته وجهاده وتضحيته وأمانته ، فراحوا يتغنون بهذه الحادثة الكاذبة ظانين أنها تساعد على النيل منه ، ولكن هذا الموقف ينال منهم ويرفع من قدر الرجل الذى لم تعلق به شبهة ، مع وجوده في تيار السلطة والصراع من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٥٢ .

الزعيم الفقير :

بقيت عن مصطفى النحاس نقطتان سمعتهما حديثا من مريده الأستاذ
ابراهيم فرج وزير الشؤون البلدية في وزارة الوفد الأخيرة .

أما النقطة الأولى فيرجع العهد بها الى مطلع الثلاثينات ، ففي سنة ١٩٣٢
كان صدقي رئيسا للوزارة وقد خلق له حزبا وحكومة من هواة الجاه ولو
على أشلاء الناس والبلاد ، واتجه صدقي بكل قواه للنيل من زعيم البلاد ،
ووصل في تعسفه إلى حدّ محاولة أن يجيعه (وليسمح لى القارىء أن
أضع هنا بين قوسين حادثة مشابهة هي أن عبد الناصر حاول بإصرار أن
يجيع كثيرين من الناس في عهده ، وكان كاتب هذه السطور واحدا منهم ،
فيبدو أنه كان تلميذاً مخلصاً لإسماعيل صدقي : انظر تفاصيل ذلك في
الجزء التاسع من هذه الموسوعة) فأصدر صدقي قرارا يقضى بأن مدة
نفي النحاس باشا في سيشل لا تحسب في معاشه ، وبذلك انخفض
المعاش من ١٢٠ جنيها إلى ٧٠ جنيها ، ويقول الأستاذ إبراهيم فرج
إنه فوجيء بهذا الوضع الذى كان لا بدّ أن يحدث أزمة اقتصادية في
حياة النحاس لأن ابراهيم فرج كان وكيله ، وكان يقبض معاشه كل
شهر فيرسل لأخت الزعيم في سمود ١٥ جنيها ويرسل لأولاد أخيه بطوان
٢٥ جنيها ويسلم مدير بيت الرئيس ٦٠ جنيها لحاجات المنزل ، ويعطى
القدر الباقي (٢٠) جنيها للنحاس باشا للمصاريف الخاصة الثرية ،
وكان معنى تخفيض المعاش الى ٧٠ جنيها أن يحدث ارتباك واضح في
اقتصاد الزعيم الذى عاش فقيرا ومات فقيرا ، وقد قام ابراهيم فرج
برفع دعوى ضد هذا القرار الظالم ووافقه طلعت حرب أن يقدم للزعيم
سلفة ريثما يبتث القضاء في الدعوى ، وقد حكمت المحكمة بالغاء هذا
القرار وإعادة المعاش إلى ما كان عليه .

ونحن هنا نحى الزعيم الذى لم يكثر بالمال وآثر الخلود ونشفق
على أولئك الذين تطلعوا للمال لأنفسهم وذويهم فنالوه ، وفقدوا
الخلود إلى الأبد .

مدفن الزعيم :

أما النقطة الثانية فتتصل بخاتمة حياة هذا الزعيم فقد اتجه تلاميذه ومريدوه أن يطلبوا ممن كانت بيدهم السلطة عند وفاة النحاس باشا أن يسمحوا بأن يدفن زعيم مصر مع سلفه سعد زغلول في نفس الضريح ، ولكن هؤلاء كانوا — فيما يبدو — يرتجفون من أى لقاء يتم بين الزعيمين ولو كان ذلك بعد صعود روحيهما إلى الباري الأعظم ، ورفض هؤلاء ذلك الطلب العادل وأبعد جثمان الرجل إلى مكان بعيد في مقابر الجماهير بالبساتين ، وأغلب الظن أن الأجيال القادمة ستحقق للزعيمين اللقاء وستنجح فيما لم ينجح فيه الذين حاولوا هذه المحاولة يوم وفاة الزعيم الخالد .

وبعد ، تلك كلمة قصيرة قصدت بها وجه الله ، وقصدت بها إبراز الوفاء والعرفان بالجميل لمن يستحق الوفاء والعرفان بالجميل ، جزى الله مصطفى النحاس خير جزاء على ما قدم للموطن والمواطنين من جهود وأعمال ، ولبت خلفاءه في حزب الوفد يقرمون سيرته بإمعان وينهجون نهجه ، فذلك هو الطريق الأمثل لنجاحهم إن أرادوا النجاح ، وليعلموا أن الشعب مفتوح العينين قوى البصرة ، وهو لا يؤيد إلا من يستحق التأييد .

حالة مصر الاجتماعية والاقتصادية في عهد الاستقلال

يمكن القول إن أساس تاريخ مصر الحديث وضع في هذه الفترة ، فقد انقضى الاستعمار العثماني بكله وقسوته ، وأما الاحتلال الانجليزي فقد وجدّ صورا من المقاومة فبدأ يتقهقر ويضمحل نفوذه ، ومع تقهقره واضمحلال نفوذه أخذ يظهر النفوذ المصرى ، وفي هذا العهد ظهرت الوزارات المصرية الصميمة ومجالس النواب ، وفي ظل هذا وضع أساس نهضتنا الحديثة .

صحيح أن اختلاف الزعماء عاق البلاد عن مزيد من التقدم ، ولكن أسس التقدم وضعت فيه على أي حال .

وسنذكر فيما يلى لمحة سريعة عن صور التطور التي نعمت بها البلاد خلال هذه الفترة :

في مجال التعليم :

في مجال التعليم نهضت البلاد نهضة واسعة ، فكثر بها المدارس كثرة هائلة ابتداء من رياض الأطفال حتى التعليم الجامعى ، ومن مفاخر هذه الفترة أنها قضت على الازدواج في التعليم فلم تعد هناك مدارس أولية ومدارس ابتدائية بل أصبحت جميع مدارس المرحلة الأولى ابتدائية تصب في المدارس الاعدادية بواسطة امتحان منتظم ، صحيح إن تنظيم هذه الخطة تم بعد الثورة ولكن بذورها ترجع الى السنين التي سبقت الثورة ، ومن مفاخر هذه الفترة أن أنشئت بها جامعات مصر التي لها مكانة عظمى في العالم ، ومن الحق أن الجامعة المصرية القديمة أنشئت في العقد الأول من هذا القرن ، ولكنها أصبحت جامعة رسمية حكومية بها كل نظم الجامعات ودرجاتها منذ سنة ١٩٢٥ ، وجاء بعدها جامعة

الإسكندرية فجامعة عين شمس فجامعة أسيوط ، وقد نال الأزهر عناية كبرى في هذه الفترة فصدرت قوانين إصلاحه ، وأنشئت به الكليات وكثرت المعاهد وانتشرت في عدة بلدان .

في مجال الزراعة :

وفي هذه الفترة نظم الري والصرف وتم بناء قناطر نجع عمادي ووجهت عناية كبرى للزراعة وأنشئ المتحف الزراعي وكثر استصلاح الأراضي .

في مجال المواصلات :

ونالت المواصلات اهتمام الحكومات ، فكثرت الخطوط الحديدية وخطوط البرق والتليفونات وعمت الطرق المرصوفة أرجاء البلاد .

في المجال الاقتصادي :

واستمررا لذكر الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية في هذا العهد نقتبس بضعة سطور من كتاب « مصر بين ثورتين » ، يقول المؤلف (١) :

ومن نتائج ثورة ١٩١٩ اليقظة الاقتصادية : فإن المصريين رأوا أن مدافعة الاحتلال من شعب أعزل لن تجدى إلا إذا حورب المحتل حربا اقتصادية ، وعمدت البلاد إلى الاعتماد على نفسها ، والأخذ بنظام الاكتفاء الذاتي ، وكان أن نجحت فكرة الدعوة إلى إنشاء « بنك مصر وشركاته » على يد طلعت حرب ورفاقه بعد أن أخفقت هذه الفكرة قبل ذلك بسنوات ، فتم تأسيس هذا المصرف سنة ١٩٢٠ .

المرأة : ومن نتائج هذه الفترة الواضحة اشتراك المرأة اشتراكا فعليا

(١) محمد مصطفى عطا : مصر بين ثورتين : ص ٦٣ . (سلسلة اخترنا لك) .

٦ - فترة الاستقلال التام

من ثورة ١٩٥٣ حتى الآن

هذه الفترة تُعدُّ من التاريخ المعاصر بالنسبة لى ، فقد بدأتُ على مدرسا للتاريخ بجامعة القاهرة من ١٥ مايو سنة ١٩٥١ ومنذ ذلك الحين عنيت بتدوين تاريخ مصر المعاصر ، وأحمد الله أن هذه العناية أثمرت كتابين عن هذه الفترة ، هما :

١ - ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم (عهد محمد نجيب وعهد جمال عبد الناصر) : عهد المظالم والهزائم وهو يمثل الجزء التاسع من موسوعة التاريخ الإسلامى •

٢ - ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم (عهد أنور السادات) وهو يمثل الجزء العاشر •

وقد أصدرتُ قبل ذلك كتاب « مصر في حربين » وهو يتحدث عن بعض ملامح العصرين جميعا ، ففقيه دراسة موثقة عن أسباب الهزائم التى منيت بها مصر فى عهد جمال عبد الناصر ، وأسباب الانتصار الذى حققته مصر فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ التى دبر لها وأدارها أنور السادات ، وقد أخرجت هذا الكتاب على وجه السرعة ريثما يتم إخراج الجزء التاسع والعاشر من هذه الموسوعة •

وقد صدر الجزء التاسع الخاص بعصر جمال عبد الناصر ، وصوِّر العصر أدق تصوير ، أما الجزء العاشر الخاص بأنور السادات فهو على وشك الظهور إن شاء الله •

وعلى هذا فإن عملى فى هذا الجزء من الموسوعة (الجزء الخامس) يتجه أساسا لتصوير تاريخ مصر الإسلامى كله ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر ، وإبراز دور مصر فى خدمة العالم الإسلامى ورعاية الثقافة الإسلامية ، ويتجه بعد ذلك لتحديث موجز عن عهدى عبد الناصر والسادات

تاركا التفاصيل للجزأين التاسع والعاشر المذكورين ، ومن هنا فإننا في هذا المكان نبرز الحلقة الأخيرة من حلقات العلاقة بين مصر وبريطانيا .

المفاوضات مع الانجليز في عهد الثورة :

انكسرت المفاوضات مع الانجليز في عهد الثورة بسمة لم تتوافر لها من قبل ، وأصبح المفاوض المصري يملك زمام الأمر كله ، فليس هناك ملك يخشى أو أحزابٌ قصر تنكُّور ، وكانت المفاوضة معناها الاتفاق على الجلاء وعلى تحديد المدة اللازمة لذلك .

ووصل الطرفان إلى حل سريع في مسألة السودان ، فقد عقدت اتفاقية في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ كان طابعها الصراحة في مواجهة الحقائق ، فأعطت الشعب السوداني الحق في تقرير مصيره بعد انسحاب القوات العسكرية البريطانية والمصرية ، وبعد انتهاء فترة انتقال حدد لها ثلاث سنوات ، وبذلك انتهت أصعب مشكلة في المفاوضات ، وقد تحدثنا في الجزء السادس عن تنفيذ هذه الاتفاقية ، وما حدث من تغيير في الخطة عند التنفيذ .

أما عن المفاوضات في المسائل الأخرى فقد اتخذت بريطانيا طريقا ملتويا في أول الأمر ، فتوقفت المفاوضة بسبب ذلك ، وبدأ كفاح الفدائيين ، ذلك الكفاح المنظم الذي وضع حدا للمساومة ، لأنه أقلق المستعمر وأزعجه ، وجعله يدرك أنه في حاجة إلى من يحميه في البلاد التي جاء لحمايتها وبدأت المفاوضة في هذا الجو مرة أخرى ، وفي سرعة هائلة وقعت اتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وقد وقعها جمال عبد الناصر عن الجانب المصري وسير رالف ستيفنسون السفير البريطاني عن الجانب البريطاني ، وخلاصة هذه الاتفاقية جلاء قوات الاحتلال في مدى عشرين شهرا تبدأ من تاريخ توقيع الاتفاقية ، وعندما يتم الجلاء يحتل الجيش المصري قاعدة القتال ، ويدير المنشآت والورش في هذه القاعدة مديون

مصريون ، وبريطانيون لا يتجاوزون الألف ، ومدة هذه الاتفاقية سبع سنوات من تاريخ توقيعها ، تظل خلالها قاعدة القتال على أهبة الاستعداد والعمل ، وللجيش البريطاني الحق في العودة لها إذا هوجمت تركيا أو إحدى الدول العربية خلال هذه المدة ، وتمّ الجلاء في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ .

وبعد ذلك بقليل أسفرت بريطانيا عن نواياها الحقيقية ، وعن أن ما نسبه معاهدات الصداقة ليس في الحقيقة إلا زيفا ، فما كادت مصر تستعمل حقها في تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ حتى زمجت بريطانيا وراحت تتحالف مع فرنسا ، ومع إسرائيل أشد التحول عداء لمصر ، وبدأ العدوان الثلاثي في ٢٩ أكتوبر ، وأغارت القوات الجوية البريطانية والفرنسية على مصر بينما كانت إسرائيل تدخل سيناء ، وسرعان ما قطعت مصر علاقاتها مع إنجلترا وفرنسا في ٣١ أكتوبر ، ثم نزلت ميدان الجهاد ، وبمساعدة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي انسحبت القوات التي كانت قد نزلت أرضنا الطاهرة ، في نفس العام ومطلع العام التالي ، والمهم هنا أن الحكومة المصرية أعلنت في أول يناير سنة ١٩٥٧ إلغاء اتفاقية الجلاء مع بريطانيا ، واعتبار هذه الاتفاقية منتهية من الساعة السادسة مساء ٣٠ أكتوبر وهي ساعة بدء العدوان البريطاني ، وفي يوم ١٢ فبراير سنة ١٩٥٧ رضخت بريطانيا لهذا الإجراء واعتبرت معاهدة ١٩٥٤ منتهية .

وأسدل الستار على هذه العلاقة المريبة بين بريطانيا ومصر .

نقد هذه المعاهدة :

وهناك كلمة عن هذه المعاهدة التي وقّعها عبد الناصر ، وتلك الكلمة هي أن المعاهدة أضاعت السودان ، ولو وافق النحاس أو غيره من الزعماء على ما وافق عليه عبد الناصر لتمت مثل هذه المعاهدة من وقت طويل .

وكان استقلال السودان خطرا على السودان وعلى مصر ، فقد قسم
القطر الواحد قطرين ، وأحس القطران بذلك الخطر فسراحت مصر
والسودان تعالجهما بما يسمى التكامل ، ولكنه علاج قليل الجدوى .

إن بعد السودان عن مصر ، وبعد مصر عن السودان خطر سياسى
واقتصادى ضد البلبيين ، وقد أدرك الجيل الذى ذلك ، وتمسك بالوحدة ،
ولكن عبد الناصر كان أبعد ما يكون عن فهم حقائق التاريخ .

والسماح لآلف من البريطانيين بالبقاء فى القناة ، والسماح لانجلترا ،
بالعودة للقاعدة إذا هوجمت تركيا أو احدى الدول العربية ، كل هذا
يجعل هذه المعاهدة عملا أخرق ، كأن عبد الناصر كان يريد معاهدة بأى شكل
من الأشكال .

وقد جهل عبد الناصر أن الظروف بمصر وبالعالم قد تغيرت ، ولولا
هذا الجهل لانتفع المفاوض المصرى بنهاية فاروق الذى كان يحمى
الاستعمار ويحميه الاستعمار ، ولانتفع كذلك ببروز قوة أمريكا والاتحاد
السوفييتى وباتجاه بريطانيا للأفول ، ولكن أنى لعبد الناصر أن يفهم
هذه التغيرات ؟ وقد انتفعت أقطار كثيرة بهذه التغيرات العالمة فحصلت على
معاهدات اشرف من المعاهدة المصرية كالهند واندونيسيا مع أن هاتين
معاهدات اشرف من المعاهدة المصرية كالهند واندونيسيا مع أن هاتين

المؤرخ المعاصر وتدوين التاريخ

بقيت كلمة قلتها فى الطبعة السابقة من هذا الكتاب ، ثم تغيرت
الأحوال كثيرا ولكنى أبقيتها فى هذه الطبعة كما كانت ، فذلك حق التاريخ ،
وهذه الكلمة ترتبط بتدوين التاريخ المعاصر وموقف المؤرخ منه ، وهذا
نصها :

المفروض أن المؤرخ المعاصر إذا كان مخلصا فطنا من جانب ، وكامل

تاريخ يرتبط بالدين الإسلامى وقواعده وآدابه وسلوكه ، والكذب فيه من أبشع الفجور كما قال رسول الإسلام •

ولكن أمامى عقبة صعبة هى قلة الوثائق التى تنير لى السبيل ، فهناك أحداث لم تنشر وثائق عنها حتى الآن ، ومن هذه الأحداث سقوط المحاكمات الجائرة التى قام بها عبد الناصر ورفاقه ، وحرب اليمن ، والهزيمة فى الحرب ضد إسرائيل سنة ١٩٦٧ والمحاكمات التى جرت بعد حركة مايو سنة ١٩٧١ ، إذ جرت هذه المحاكمات وتلك بطريقة سرية فلم تذع الحقائق التى ترتبت عليها الأحكام القضائية ، واختفاء مجوهرات أسرة محمد على وقلة الوثائق فى هذه الأحداث ونظائرها لا يلقى الضوء على المشكلات ، فلا يتيح الفرصة لدراستها وإبداء الرأى فيها بدقة ١٠

ومع هذا فسأحاول جاهدا أن أجعل ما سأكتبه أقرب للحق والواقع •



ثورة ٢٣ يوليو وأسبابها :

- الأسباب التى مهدت للثورة ودفعت الشعب لحسن استقبالها هى :
- عبث الملوك بالدستور وبحقوق الأمة ، وعداؤهم للسافر لحزب الأغلبية الذى كان يمثل الأمة أقوى تمثيل •
- حرب فلسطين وما كشفت عنه من تهاون وخيانات •
- الاستعمار الطاغى الذى اتخذ من القصر ورجاله ومن سادة الإقطاع عونته ودعاماته •
- حريق القاهرة الذى اتخذ أساسا لإقالة حكومة الوفد (حكومة الأغلبية) ولم تستطع الوزارات أن تستقر بعد هذه الإقالة ، فضلا المكان ولم يوجد من يشغله بنجاح •

برنامج الثورة :

طلع فجر الثالث والعشرين من يوليو على صوت يعلن الثورة على هذه الأوضاع ، ويعلن برنامج المستقبل كالآتي :

— القضاء على الاستعمار وأعوانه .

— القضاء على الإقطاع .

— القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .

— إقامة عدالة اجتماعية .

— إقامة جيش وطنى قوى .

— إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وهى مبادئ لم تعرف الطريق لتصبح واقعا ، فقد كان قادة الثورة جماعة لا يربطهم ودة ولا هدف ، ولم تكن لهم ثقافة أو خطة ، فلم تحقق هذه الثورة لمر أى كسب ، وجنت على البلاد والعباد ، وسرى ذلك مفصلا فى الجزء التاسع والعاشر . من هذه الموسوعة .

عهد محمد نجيب

ظهر محمد نجيب قائدا للثورة صباح الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، وكان محمد نجيب واسع الشهرة بين المثقفين ومعروفا لدى الجماهير ، وكان يحمل رتبة « اللواء » وهى أعلى رتبة يحملها فرد من أفراد « الثوار » وقبل قيام الثورة كان هناك انتخاب لنادى القسوات المسلحة ، وكان محمد نجيب مرشح أغلبية الضباط ، واعترض الملك فاروق عليه وأراد أن يكون رئيس الفادى من أعوانه ، ولكن محمد نجيب نجح على الرغم من تدخل الملك ، وكانت هذه الأسباب هى التى جعلت الرجل موضع تقدير الجميع وحبهم ، فلما ظهر قائدا لثورة الجيش رحب

الشعب بهذه الثورة وأيّدوها ، والتف الناس جميعا حوله ، فأصبحت ثورة الجيش هي ثورة الشعب .

ومحمد نجيب من مواليد سنة ١٩٠١ بالخرطوم ، تلقى علومه بالسودان ، والتحق بالمدرسة الحربية ، وتدرج في المناصب العسكرية حتى نال رتبة « اللواء » سنة ١٩٥٠ وخلال خدمته العسكرية درس القانون ونال ليسانس الحقوق واجازة كلية الأركان ، وفي ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ أُلّف الوزارة ، ثم عيّن رئيسا للجمهورية عند إلغاء النظام الملكي بمصر في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ فكان أول رئيس لجمهورية مصر .

على أن الأمور سرعان ما تغيرت كما وضّحنا ذلك بالتفصيل في الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، فلم تكد الثورة تطمئن على تأييد الشعب للتغيير بسبب الكراهية التي كانت تغمر نفوس الشعب لفاروق ونزقة ورجاله ، أقول أن الثورة لم تكد تطمئن لهذا التأييد حتى برز شخص لم تكد الجماهير تعرفه ، ذلك هو البكباشي جمال عبد الناصر ، وكانت له خطط شريفة وأعوان من الصف الثاني في كل مكان ، فقبض على محمد نجيب ، وأصبح رئيسا للثورة ورئيسا للوزارة ثم رئيسا للجمهورية ، وللأسف تم القبض على محمد نجيب وهو يزال عمله بمكتبه بقصر عابدين .

القبض على الرئيس محمد نجيب :

من المعروف أن الاعتداء على أي موظف أو أي شرطي وهو يؤدي عمله يعتبر عملا فظيما يحاكم عليه القانون بقسوة ، فما بالك بالاعتداء على رئيس الجمهورية ، وهو بملابسه الرسمية وجالس في مكتبه بقصر الرئاسة ؟

إننا نقدم للقارئ صورة شنيعة توضح رئيس الجمهورية وقد أمسك به جنديان من رجال عبد الناصر ، واقتاده الى الاعتقال :



الرئيس محمد نجيب ساعة القبض عليه في أثناء تأدية عمله

والصورة تبرز الذعر والدهشة على وجه رئيس الجمهورية ، وهى بالتالى تتكلم عما نال المواطن العادى من عنت فى ذلك العصر المظلم ، فاذا كان رئيس الجمهورية يقبض عليه على هذا النحو ، ويقتاد للاعتقال دون مسائلة ، فكيف كان الحال مع الآلاف من المصريين العاديين ؟

لابد يوما أن يحاكم هؤلاء الأثمون •

وقد ظل محمد نجيب فى الاعتقال عشرين عاما ، ووجرت له أحداث فظيعة رويناهما عند حديثنا عن عبد الناصر الطاغية فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، ومات أبناؤه وهو فى الاعتقال ، فلم يسمح له بالخروج للجنزة ، ولا بذكر اسمه فى النعى • يا لها من قسوة بشعة لا تحترم الحياة ولا الموت •

وقد مات محمد نجيب فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٨٤ رحمه الله رحمة واسعة •

عهد عبد الناصر : عهد المظالم والهزائم والنسيان

لم يستطع عبد الناصر أن يحقق شيئاً من برنامج الثورة ، فقد كانت تطلعاته كلها لأمجاد الشخصية ولاسعاد أسرته ، وقد ناقشنا ذلك بالتفصيل في الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، وفي عهده توالى الهزائم على مصر في حرب سنة ١٩٥٦ وفي حرب اليمن (١٩٦٢ - ١٩٦٧) وفي حرب ١٩٦٧ ، حتى أصبح الناس يتندرون بأن طائرات الورق يمكن أن تغلب طائرات عبد الناصر ، إذ لم تعرف مصر الانتصار في عهده في أى موقع أو موقعة ، وقد عاش شعب مصر أسوأ فترات التاريخ طيلة هذا العهد المرير ، فعانى الظلم والقلق والسجون والاعتقالات والمصادرات والسرقات ، وقد سئل عبد الناصر من أحد رفاقه هذا السؤال : لماذا هذه المبالغات في القسوة ؟

فأجاب : إنها لحمايتكم ، وبدونها ستكونون فريسة للغاصبين من الشعب .

وهذا اعتراف صريح ودقيق .

أبرز أحداث هذا العهد

فيما يلي نسجل أبرز أحداث هذا العصر :

— إقصاء الملك فاروق في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ثم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ وبذلك استبعد ملك ولكن جلس على عرش مصر ملوك وملوك كانوا أكثر طغياناً من فاروق .

قانون الإصلاح الزراعى وماسيه :

— إصدار قانون الإصلاح الزراعى في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، وقد اتضح منه أنه كان يرمى لإذلال الأغنياء وإفقارهم ، وقد دمر هذا القانون الثروة الزراعية بمصر بسبب تفتيت الملكية ، وقد قال الساداتى يصف اشتراكية عبد الناصر : إنها اشتراكية الفقر .

وكان ضمن هذا القانون أن يكون إيجار الفدان من الأرض الزراعية سبعة أمثال الضريبة أى حوالى عشرين أو ثلاثين جنيهاً ، وأن المالك ليس من حقه أن يسترد الأرض الزراعية من زراعتها ، حتى لو كان هو نفسه يريد أن يزرعها •

ونفسى الثوار الجهلة هذا القانون الذى أشدوه ، فقد تغيرت الأمور المالية تغيراً هائلاً بعد حزب ١٩٧٣ وحدث تضخم عظيم ، وعلت الأسعار فتجاوزت عشرين ضعفاً أحياناً ، والقانون هو هو ، بمعنى أن الزارع يدفع للمالك ثلاثين جنيهاً لفدان قصب إيراده عدة آلاف من الجنيهاً أو لفدان قطن محصوله يزيد بسهولة عن ألف جنيه •

وثبء أطفال كان أبوهم أو أمهم أجرت أرضها الزراعية للغير وعجز الأطفال عن استرداد أرضهم ليزرعوها •

إنها مجموعة من المآسى والمظالم قننتها الجهال ونسوها ونسيها من جاء بعدهم حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ •

قانون إيجارات المساكن :

ومثل ذلك يقال من إيجار الشقق والفيلات حيث توجد شقق ضخمة فى الزمالك والمعادى وجاردن سيتى إيجار الواحدة منها حوالى ثمانية أو عشرة جنيهاً ، فى حين نجد حجرة فى البدروم بها سرير وكرمى يصل إيجارها إلى مائة جنيه لأنها تسمى مفروشة •

إنها النتيجة الطبيعية عندما يتولى الأمر جهال ، لا يخافون الله •

وكانت نتيجة ذلك أن توقف القطاع الخاص تماماً عن البناء للاستغلال ، وقامت أزمة الاسكان ، التى تزداد من يوم إلى يوم ، واندفع الناس إلى المقابر يعيشون بها ، ومن كثرة الذين يعيشون فى

المقابر أقامت وزارة التربية مدارس من أحواش الموتى ، ولا أحد يعالج المشكلة ، لأن هذه هي الحياة التي لابد أن تنتج عن حكم الجهال •

— في فبراير سنة ١٩٥٣ تم الاتفاق المصري البريطاني بشأن السودان الذي اتخذ أساسه حرية تقرير المصير ، وبرقصات صلاح سالم في الجنوب ، وأموال مصر التي نثرت هنا وهناك انتزع للسودانيين أن ارتباطهم بمصر سيكون حافلا بالضرر فاختاروا الانفصال عن مصر ، وكان ذلك مثار ضرر لمصر والسودان جميعا •

— بعد مسألة السودان كان الطريق ممهدا لمعاهدة بين مصر وبريطانيا فبدأت مفاوضات انتهت باتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ تلك الاتفاقية التي ألغاه الجانب المصري اعتبارا من ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ووافق الجانب الإنجليزي على هذا الإلغاء في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٧ كما سبق القول •

— تم الجلاء في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ واعتبر ذلك اليوم عيدا قوميا ، ومما يذكر أن جيوش بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الاستعمارية قد جلّت عن المستعمرات في العالم كله ، فلم يعد العصر عصر استعمار بجيوش •

تأميم قناة السويس ونتائجه :

— في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ أعلنت مصر تأميم قناة السويس ، وتلا ذلك أحداث انتهت بالعدوان الثلاثي ثم انسحاب المعتدين كما سبق القول ، وفي الجزء التاسع حديث مفصل عن أهداف التأميم ونتائجه الخطيرة •

الوحدة مع سوريا وفشلها :

— في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ تمت الوحدة بين مصر وسوريا في « الجمهورية العربية المتحدة » برئاسة جمال عبد الناصر بناء على اقتراح

سوريا ، وبعد استفتاء شعبى فى البلدين ، وفى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ تمّ الانفصال ، ولم تقاوم مصر اتجناه سوريا للانفصال وظلت مصر تحتفظ باسم « الجمهورية العربية المتحدة » حتى جاء عهد أنور السادات كما سنرى فيها بعد ، وقد كانت الوحدة مطلباً شعبياً ، ولكن سوء إدارة جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر قضى على هذه الوحدة ، بل خلق جواً من الحقد بين السلطتين فى سوريا ومصر ، وعندما عهد عبد الناصر بمن مقاومة المنشقين بسوريا اتجه بغيله وحقدّه الى المصريين فانزل بهم صنوفاً من التعذيب عقب الانفصال .

الاشتراكية التى أفقرت الأغنياء وأجاعت الفقراء :

— صدرت القوانين التى عرّفت بالقوانين الاشتراكية ، وقد وضعت فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة أن اشتراكية عبد الناصر أفقرت الأغنياء وأجاعت الفقراء ، وقد وصفها الرئيس أنور السادات فى خطابه فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٦ بقوله : أنها كانت صنفاً يتنى ليمجد ، ولم يكن يباح لأحد أن يناقشها أو يتدارسها ، وأنها كانت « اشتراكية مزاجية » أى لا يحكمها قانون ولا مبادئ .

حرب اليمن وضياع رصيد السنة :

— حرب اليمن من سنة ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٦٧ ، وهى مأساة مريرة تحدثنا عنها بأفاضة فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

ويرى بعض الناس أن حرب اليمن من إيجابيات عبد الناصر ، لأنه بها نقل اليمن من ظلام العصور الوسطى إلى النور ، ونقول لهؤلاء أن مهمة الرئيس أولاً أن يهتم بشعبه ، ولا ينفق ثراء بلاده خارجها إلا إذا اكتفى شعبه ، فمالال مال الشعب قبل كل شيء .

ونقول ثانياً إن ظلام العصور الوسطى كان فى طريقه للانكماش فى

العالم كله ، سواء دخل عبد الناصر اليمن أو لم يدخلها • لقد تتركنا عبد الناصر جياعا ، وراح لليمن يبدل الذهب ذون حساب فأفنى رصيد العملة ودمّر الجنيه المصرى •

ونقول ثالثا لهؤلاء ، إن عبد الناصر قتل من اليمنيين الكثير ، ودمّر الكثير ، ولذلك غرس الحقد في نفوس اليمنيين ، وقد كانت اليمن من أول الدول التي استجابت لقطع جميع العلاقات مع مصر في مؤتمر بغداد ، ولا تزال على موقفها حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ على الرغم من أن بعض الدول العربية أعادت العلاقات مع مصر •

ونقول رابعا لهؤلاء الذين يعدون حرب اليمن من منجزات عبد الناصر ، ألا تتفقون أيها الكتاب أموالكم على المحتاجين هنا وهناك وتتركون أولادكم جائعين ؟ إنكم أن فعلتم ذلك — ولستم بفاعليه — تستطيعون أن تمدحوا عبد الناصر لأنه أجاع شعبه وأضاع ثراء بلاده من أجل اليمن والكونغو وغيرها من البلاد •

حرب ١٩٦٧ وانحيار جيش عبد الناصر في دقائق :

— الحرب مع اسرائيل سنة ١٩٦٧ ، وهذه الحرب كانت الموضوع الرئيسى لكتابنا :

« مصر في حربي ١٩٦٧ و ١٩٧٣ : دراسة مقارنة »

ولم تكن حربا بالمعنى الصحيح ، وانما كانت نزقا من القيادة ، ومن يوم إلى يوم تتكشف مواقف مخزية من الذين أعلنوها ، أو كان في يدهم سلطات إدارتها ، ويكفى أن نذكر أن المنافسة بين الرئيس ومشيريه كانت من أهم أسباب الهزائم ودوافعها ، وفي الجزء التاسع من هذه الموسوعة تفاصيل واسعة عن هذا الموضوع •

وينبغى أن نذكر أن خليج العقبة والملاحة فيه تعد من المسائل

الحساسة التي سببت الصراع بين مصر وإسرائيل : ولهذا فإننا سنشرح بعد قليل قضية خليج العقبة والملاحة فيه .

وتبقى كلمة نطوي بها عهد عبد الناصر هي أنه مات في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ويقول الباحثون إن عبد الناصر مات بالهزيمة المدمرة سنة ١٩٦٧ مع الآلاف الذين دفعهم إلى الموت ، ومع الملايين العرب الذين دفعهم بهذه الهزيمة إلى الخزي والعار .

أسرة عبد الناصر وثراؤها :

ومن مخازى عصر عبد الناصر بالإضافة إلى الهزائم المتكررة وإلى الظلم والتكيد بالأبرياء والاعتقالات التي ابتدأت برئيس الجمهورية « محمد نجيب » ثم امتدت للشعب كله ، بالإضافة إلى هذا ، هناك مشكلة السرقات التي شملت مجوهرات أسرة محمد علي كما شملت قوت الشعب وشراءه ، وقد ظهر هذا الثراء في أيدي أولاد عبد الناصر وأصحابه ، فقد ذكرت صحيفة الأخبار في ٢٤ أغسطس سنة ١٩٨٤ أن المهندسين من أولاد عبد الناصر قد وصل حجم أعمالهم العادية بمصر مائتي مليون جنيه ، وأن أشرف مروان زوج ابنة عبد الناصر قد اشترى مجموعة أسهم في دار نشر كبرى بإنجلترا بمبلغ ١١ مليون جنيه استرليني .

يا ترى كم مائة مليون يملك هذا الشاب ؟ وكم مائة مليون يملك أبناء عبد الناصر الآخرون وأحفاده وكم مائة مليون يملك الآخرون ممن اشتركوا مع عبد الناصر في الحكم ؟

الانفلاق والانفتاح :

كان عهد عبد الناصر عهد انغلاق اقتصادي ، فلا نستورده شيئاً من الخارج حتى ولا الدواء ، وكان الفقر هو المظهر العام للشعب ، ومع

الفقر الحرمانُ وشظف العيش . وفي نفس الوقت كان عبد الناصر وأعوانه يجمعون المال ويخزنونه •

وجاء الانفتاح في عهد السادات ، وكان انفتاحا أهوج ، فأخرج أتباع عبد الناصر مدخراتهم وما اختزنوه من أموال باهظة ، وظهـر في أفق الحياة المصرية اصطلاح جديد ينمى المال بسرعة هو « التصدير والاستيراد » فظهر أصحاب الملايين وأصحاب المليارات •

التوقف بالإضافة إلى المظالم والهزائم :

تعودنا أن نصف عهد عبد الناصر (١٩٥٢ — ١٩٧٠) ومن كانوا معه من رجال عصابته بأنه عهد المظالم والهزائم ، أى عهد هتك الأعراض ، والإذلال ، والابجاعة ، والمصادرات ، والاعتقالات ، وزوار الليل ، والتعذيب والكلاب البوليسية التى تنهش الأجسام ، والفصل من الوظائف ، والقلق وقوانين الإسكان الغبية وكل ما يستطيع الانسان جمعه فيما يتعلق بالظلم والعريضة والقسوة على الأفراد والجماعات •

ثم الهزائم المتكررة الفتاكة سنة ١٩٥٦ وفي اليمن (١٩٦٢ — ١٩٦٧) ومعركة اليمن أكلت كل شيء الرجال والسلاح - الرصيد ، ثم معركة أو خيبة ١٩٦٧ التى مسحت ما تبقى ومسحت الطاغية نفسه •

ولكن ليس هذا كل شيء فيما يتعلق بعصر عبد الناصر ، وليست السرقات التى أشرنا اليها آنفا هى كل شيء ، بل ان هناك الداء الذى استشرى وسبب مصر خسائر جسيمة ، انه الذى نسميه « التوقف » ومعنى التوقف أن كل حركات الإصلاح التى تلزم لكل دولة قد توقفت تماما ، لأن الرجل أسرع في مطلع عهده يرسل أنور السادات وأمين شاذلي إلى الشرق الأقصى ، إلى اندونيسيا ليهد نفوذه الى هذا المدى البعيد ، وهناك قدم المعونات والآمال • وأسرع فأرسل صلاح سالم صغير السن

وقليل الثقافة إلى الباب الزرقاء بالعراق إلى نوري السعيد ، وأرسل أسلحته وجهيشه إلى الكونغو وغيرها وكل هذا صرفه تماما عن المرافق بمصر ، ويوما بعد يوم وعاما بعد عام ، توقفت المرافق بل قتل* أو سكت أن تتوقف الحياة ، فالتليفونات خرسا تماما ، وكانت مثل قطعة من الحديد ، والمجارى طفت في كل شارع ، حتى في جاردن سيتي والزمالك والمعادي ، والكهرباء بدأت تنقطع ، والمواصلات تعثرت ، والطرق تكسرت ، والمدارس والمعاهد نالها التدمير ، وقل مثل هذا عن المستشفيات والامساكن وجميع أنواع المرافق .

وبينما كان التوقف يصيب بالشلل كل هذه المرافق كان تعداد السكان يزيد ويزيد ، مما كان يستدعي ليس فقط تحسين المرافق بل تطويرها وإصلاحات واسعة لها .

ولكن الرجل وصحبه كانوا مشغولين عن ذلك أو جاهلين بما يلزم أن يكون ، فلما انقضى عهد ، كانت الأمية قد انتشرت ، والحياة قد توقفت ، ولم يبق في مصر إلا صوت الدعاية الجوفاء التي خلفها الرجل ، وأنفق عليها ما تبقى بالخرانة بعد السرقات والتنفقات الخارجية ، وظلت هذه الدعاية تزعج فترة حتى خفت صوتها ، إذ توقف المد الذي كانت تنتهبه من أمواله .

لنا نكتب هذه الأشياء ليس فقط لنندد بالماضي ولكن لنحذّر زعماء الحاضر والمستقبل من الوقوع في مثل هذا الباطل ، فتلاحقهم اللعنات إلى الأبد كذلك التي تلاحق روح هذه العصابة ، منبئة هذه اللعنات من الذين معهم الضيم أو الذين يسكنون في المقابر وهم أحياء .

شيء كان يراد بالإسلام :

هذا العنوان وضعت في الجزء التاسع من هذه الموسوعة وهو الجزء الخاص بتاريخ عهد الناصر ، وفصلت تحته عدة نقاط ، نوجزها فيما يلي :

١ — حلء هيئة كبار العلماء •

٢ — كان شديد القسوة على جماعة الاخوان المسلمين ؛ ألقاهم جميعا في السجون ، وعرضهم للتعذيب البشع ؛ وأجاع ذويهم ، رغبة أن يدفعهم للرذيلة •

٣ — قتل شنفقا صفوة من علماء المسلمين في قمتهم الشهيد سيد قطب •

٤ — أجرى ما أسماه « تطوير الأزهر » الذي اقتبسنا ما يقوله عنه الأزهريون وسواهم بأنه تدمير لا تطوير •

— الثورة والاحتلال :

قلنا عن هذه الفترة إنها « فترة الاستقلال التام » ونعنى بذلك أننا تخلصنا من الاحتلال البريطاني ، ولكننا لا ننسى أن عبد الناصر جلب بهزائمه احتلالا أخطر على مصر ، ذلك هو احتلال الصهاينة لسيناء ؛ وهو احتلال كان يدعى ملكية الأرض ، ولا يسعدُ بالجلء ، ثم هو احتلال لأقذر وأقسى طائفة عرفها التاريخ ، ولم تتحرر هذه الأرض إلا بعد عبد الناصر ، بل لا تزال هناك ذبول ، منها منعنا من تسليح سيناء كما نشاء ، ومنها « طابا » التي لا تزال تحت سلطان العدو ، فليربط القارىء بين عبد الناصر واحتلال جزء من البلاد •

وبعد قليل أى بعد حديث قصير عن « الساداتى » سفتكلم عن « ثورة ٣٣ يوليو في الميزان » حيث يؤهل أن نضيف مجموعة أخرى من حملات أو جهالات هذه العصابة التي حكمت مصر ردتاً من الزمن •

مشكلة الملاحة بخليج العقبة

تاريخ المشكلة وتطورها :

— لم يكن لإسرائيل وجود على خليج العقبة عند توقيع اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية في ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، إلى أن أخلت القوات الأردنية — بدون أى مبرر — منطقة بير قطار وبلدة أم رشرش (إيلات) يوم ٩ مارس ١٩٤٩ واحتلتها القوات الإسرائيلية في اليوم التالي وأنشأت ميناء إيلات ، وتقدمت مصر وقتها باحتجاج إلى لجنة الهدنة .

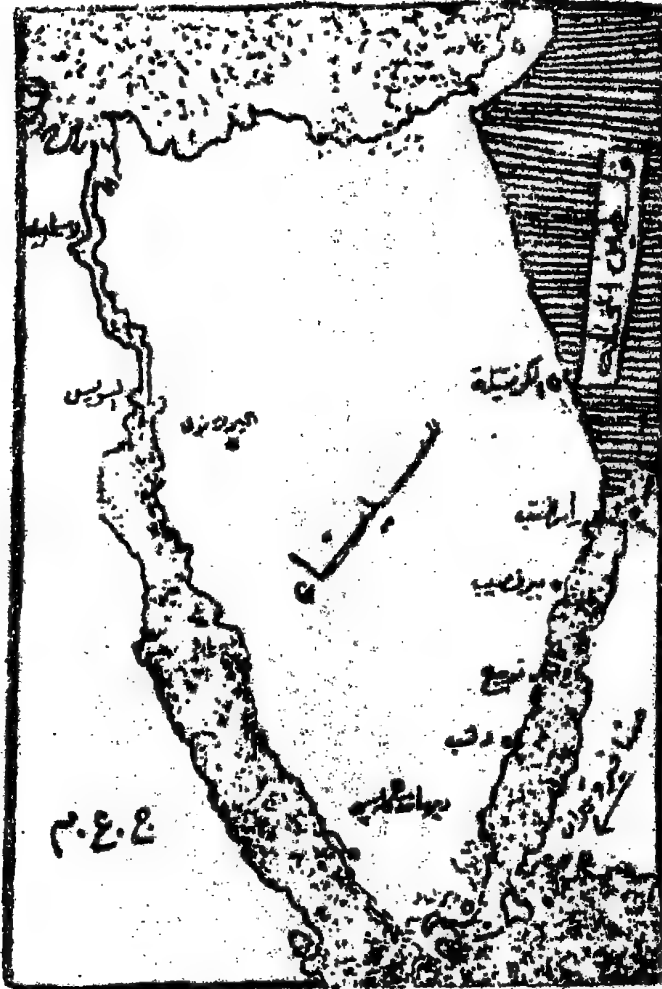
— في ٣ ابريل ١٩٤٩ تم توقيع اتفاقية الهدنة الأردنية الإسرائيلية دون أن تثير الأردن مسألة احتلال إسرائيل للمنطقة .

— اتفقت الحكومة المصرية مع المملكة العربية السعودية ، على أن تقوم القوات المصرية باحتلال جزيرتى « صنافير » و « وتيران » وهما الجزيرتان اللتان تتحكمان من الناحية الشرقية في مدخل خليج العقبة .

— قامت القوات المصرية بتركيب مدفعية سواحل في منطقة « رأس نصرانى » وفي « شرم الشيخ » سيطرت تماما على الملاحة في الخليج ، وشرم الشيخ تقابل تيران من الجهة الغربية لخليج العقبة .

وأصبح المرور بهذا المضيق خاضعا لإشراف مصر ، ولا يجوز لإسرائيل أن تستعمل هذا المضيق على الإطلاق ، وأخذت مصر منذ ذلك التاريخ تباشر حقها في تفتيش كل السفن التى تريد عبور مضيق تيران .

— وقد حدث في شهر يوليو ١٩٥١ خلال حكم وزارة النحاس باشا أن خالفت السفينة الإنجليزية « امبايرروتش » (Empire Roach) التعليمات الخاصة بالمرور ، فأوقفتها السلطات البحرية وحجزتها ٢٤ ساعة ، ووضعت حرسا عسكريا على ظهرها ، وقد احتجت السفارة البريطانية على هذا الإجراء في ١١ يوليو ١٩٥١ دون جدوى ، وكذلك قدم السفير البريطانى بالقاهرة في ٢٩



(مضیق تیران مياه عربيه اقلبيه)

يوليو ١٩٥١ ، مذكرة إلى وزير الخارجية المصرية موضحا فيها استعداد حكومة المملكة المتحدة بقيام السلطات الجمركية المصرية في السويس بإجراء التفتيش على السفن غير الحربية التي تبحر إلى ميناء العقبة ، على أن تقوم السلطات الجمركية بها بإخطار السلطات البحرية في جزيرة « تيران » حتى لا تقوم بزيارة هذه السفن وتفتيشها مرة أخرى ، وقد وافقت وزارة الخارجية المصرية على هذا الإجراء في نفس اليوم ، وجاء في كتاب وزير الخارجية أن هذه التدابير والإجراءات « مطابقة لحقوق مصر في موانئها ومياها الإقليمية » ، وبذلك تكون المملكة المتحدة قد اعتبرت الإجراءات التي اتخذتها السلطات المصرية بخصوص الملاحة في خليج العقبة إجراءات مطابقة لأحكام القانون الدولي .

— حاولت إسرائيل سنة ١٩٥٤ أن تحصل من مجلس الأمن على قرار بأحقيتها في المرور بفتحة السويس وخليج العقبة ولكن مجلس الأمن لم يتخذ قرارا في صالحها .

— وجاء الاعتداء الثلاثي سنة ١٩٥٦ فانسحبت القوات المصرية من سيناء ، وسارعت القوات الإسرائيلية فاحتلت شبه جزيرة سيناء ومنطقة شرم الشيخ بوجه خاص ، وعندما بدأ انسحاب القوى المعتدية رفضت إسرائيل الانسحاب إلا بشروط أهمها :

(أ) مرابطة القوات الدولية في منطقة شرم الشيخ عقب انسحاب القوات الإسرائيلية في خليج العقبة .

(ب) أن تكفل القوات الدولية في منطقة شرم الشيخ حرية الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة .

ورفض السكرتير العام هذه الشروط وذكر أن القوات الدولية لن تستعمل لحل أية مسألة سياسية أو قانونية ، ولن تتعدى وظيفتها محاولة منع وقوع الأعمال الحربية .

— ويعد مفاوضات طويلة أعلنت جولة طير وزيرة خارجية إسرائيل في اجتماع الجمعية العامة في أول مارس ١٩٥٧ أنها قد تلقت مذكرة من وزير خارجية الولايات المتحدة بتاريخ ١١ فبراير ١٩٥٧ ، يؤكد فيها أن الولايات المتحدة تعتبر خليج العقبة ومضيق تيران من المياه الدولية ، وهي لذلك ، تعلن عن عزم إسرائيل ، على الانسحاب من شرم الشيخ ومن قطاع غزة .

— ولكن الدكتور محمود مسوزي وزير الخارجية أعلن في نهاية النقاش الذي دار في الجمعية العامة أن التصريحات التي أدلى بها مندوب إسرائيل وبعض مندوبي الدول الأخرى بشأن انسحاب القوات الإسرائيلية المعنوية لا يمكن أن يكون لها أي أثر على حقوق مصر أو على مشروعية هذه الحقوق ، من غير قيد أو شرط .

وأخفت القوات الدولية — بموافقة مصر — أماكنها على الحدود بين إسرائيل ومصر ، كما تسلمت منطقة شرم الشيخ المطلة على المضيق من جنود إسرائيل ، وفي ستار من القوات الدولية وبموافقة غير مكتوبة من عبد الناصر بدأت إسرائيل تستعمل خليج العقبة دون أي سند قانوني فكان ذلك من أهم الأسباب لنشوب حرب ١٩٦٧ التي تحدثنا عنها في كتاب خاص . ولعل مما يلقي ضوءا على موضوع الملاحة أن نذكر هنا بعض نصوص اتفاقية جنيف للمضايق ، وبخاصة النصوص التي كان لها صلة أو صدرت خصيصا من أجل مشكلة تيران ، ووجهة النظر المصرية المعاملة بهذا الخصوص .

تتمس الفقرة الرابعة من المادة ١٦ من اتفاقية جنيف المنعقدة في ٢٩ إبريل ١٩٥٨ على ما يلي :

« لن يكون منسلك أي وقف للمرور البريء للسفن الأجنبية عبر المضائق التي تستخدم في الملاحة الدولية بين جزء من البحار العليا وجزء آخر من البحار العليا ، أو مياه البحر الإقليمية لدولة أجنبية » .

وتكاد تكون هذه الجملة الأخيرة قد وضعت خصيصا كى تنطبق على حالة مضيق تيران الذى يصل بين مياه خليج العقبة ومياه البحر العالى .

— وقد خالف هذا النص الذى يسوده التحيز لإسرائيل ، الحكم الذى أصدرته محكمة العدل الدولية فى قضية مضيق كورفو عام ١٩٥١ ففى ذلك الحكم أوضحت المحكمة المعيار الذى يميز المضائق الدولية التى لا يجوز تقييد الملاحة فيها وحددت لذلك أساسين :

(أ) أن كون المضيق موصلا بين بحرين من البحار العالية ، وهذا الشرط لا يتوفر فى مضيق تيران ، لأنه يربط بين بحر عال ومياه إقليمية .
(ب) أن يكون المرفق الدولى قد تواتر على استعمال المضيق فى الملاحة البحرية الدولية . ومضيق تيران لم يسبق له أن استعمل لهذا الغرض ، ولا يجوز الاحتجاج بما حدث فى أثناء وجود قوة الطوارئ الدولية فى شرم الشيخ .

— بالإضافة الى ذلك فإن تطبيق الفقرة الرابعة من المادة ١٦ من اتفاقية جنيف لا يؤدى إلى إيجاد مبرر لمرور السفن الإسرائيلية فى مضيق تيران لأن شروط هذه الفقرة لا تنطبق على المضيق لما يأتى :

(أ) حكم الفقرة خاص بالمضيق الذى يصل ما بين أجزاء البحار العالية ، أو ما بين البحر العالى والبحر الإقليمى ولا ينطبق هذا على هذه الحالة ، إذ أنه يفصل بين البحرين حوالى ٩٧ ميلا من المياه المطلقة التابعة للسيادة المشتركة لكل من السعودية والأردن ومصر .

(ب) إن مرور السفن الإسرائيلية بمضيق تيران لا يمكن أن يوصف بالمرور البرئ الذى تشترطه الفقرة الرابعة ، إذ أن مرور هذه يعد ضارا بالسلم وحسن النظام وأمن الدولة الشاطئية وهى مصر .

(ج) إن أحكام اتفاقية جنيف لا تسرى إلا فى حالة السلم وبذلك لا تسرى على الأوضاع القائمة الآن بين مصر وإسرائيل نظرا لحالة الحرب القائمة بينهما .

كلمة عن سيناء : في الماضي والحاضر

في دراستي عن « اليهودية » ضمن سلسلة « مقارنة الأديان حديث طويل عن سيناء يرتبط بالفترة التي أقصل خلالها العبرانيون بالمنطقة من عهد يعقوب (إسرائيل) إلى عهد خروج بني إسرائيل من مصر وفترة التيه .

ولعل من الأفضل أن نقدم كلمة شاملة وموجزة عن تاريخ سيناء ، ويمكن الاعتماد على الكتاب السابق وعلى الكتب التالية :

١ — تاريخ سيناء تأليف نعوم شقير .

٢ — سيناء : الطبيعة والتاريخ والانسان والأهل الذي أصدرته دار الهلال : يونيو ١٩٧١ وكنت واحدا من كتّابه .

٣ — دير طور سيناء تأليف افانجلوس بابا يوانو وترجمة صليب خوري وفيليب دحابره .

٤ — سيناء أرض المصارع والقداسة تأليف Burton Bernstein الذي لخصه الأستاذ محمد أنعزب موسى .

وفيما يلي هذه الكلمة الموجزة عن أرض سيناء الحبيبة :

سيناء أرض مصرية :

سيناء أرض مصرية منذ قديم الأزل ، وأحداثها لا تتفصل عن أحداث مصر ، وتاريخها جزء لا يتجزأ من تاريخ مصر .

وقد كانت سيناء دائما هي العقبة العvisية التي ينبغي على أي جيش أن يتغلب عليها ويغزوها من أجل الحصول على جائزة أكبر ، سواء كانت هذه الجائزة في الغرب (مصر) أو في الشرق (سوريا وفلسطين) .

وشهدت سيناء ما لا يقل عن ٥٠ حربا كبرى في تاريخها الطويل ،
قديمًا ووسطًا وحديثًا ، كما شهدت مرور عشرات الجيوش شرقًا وغربًا ،
مما كان يقطع سلامها الهادئ ، الصامت المستتب .

أهداف الفراعنة في سيناء :

وقد سيطر الفراعنة على سيناء ، منذ أقدم العصور وجعلوها جزءًا من
الوطن المصرى المقدس ، وبالإضافة إلى ذلك كان هدفهم ذا ثلاث شعب :

- ١ — حماية الوادى من الغزاة .
- ٢ — والسيطرة على طرق الحرب والتجارة .
- ٣ — واستغلال مناجم النحاس والفيروز في منطقة سيرايت الخادم .

وعلى جبال المنطقة نَقَّسَ المصريون انتصاراتهم على السكان
المطليين الساميين . وخلال الأسرات الأولى توسع المصريون في عملية
استغلال مناجم المنطقة ، وفي البداية تأثروا فكريًا بالساميين الذين
أخضعوهم ، فأنهم قبلوا عبادة القمر المستقرة في المنطقة ، ولكن بدلًا
من « سين » أصبحت المراسم تقدم إلى الإله المصرى « تحوت » وهو
أيضًا إله « القمر » في البابليين المصريين الذى نراه ممثلًا على جدران
مناجم سيناء في شكل القرد (البابونى) أو في شكل الطائر (ايبيس) .
وعلى هذه الجدران أيضًا نجد صورة الفراعنة الأوائل الذين « سحقوا
البرابرة » وحكموا كل مصر من أمثال سنفرو وخوفو اللذين استغلا
مناجم الفيروز ، وأقسما أن يحميا قداسة سيناء .

صراع بين المصريين والهكسوس :

وغزا الهكسوس مصر عبر سيناء وحكموا البلاد في ١٧٠٠
١٥٨٠ ق.م . وفي عصرهم تدهورت صناعة التعدين في سيناء ، وهجرت

المناجم ، فقد ركز الهكسوس على إقرار السلام في الوادي ، أى إخضاع المصريين وتركوا تطوير الحضارة وهى مهنة المصريين ! ولكن فى الأسرة الثامنة عشرة طردهم المصريون من البلاد ، واستأنفوا بعثاتهم الى سيناء ، وفى سيرابيت الخادم أنشأ معبدا رائعا تكريما لحتحور ، ربة الفيروز ، والحب ، والمرح ، والفرح ، فى شكل بقرة ، وأرسلت هدايا ثمينة من الفراعنة الى معبد « الأم حتحور إلهة الفيروز » بسيناء . وفى المقابل نقل الفيروز السينائى الى معابد وادى النيل ، وحول معبد حتحور المقدس فى سيرابيت الخادم نشأت مجموعة ضخمة من المؤسسات لا تزال آثارها وأطلالها قائمة .. أفنية وصروح وحجرات وحمامات وأروقة ونصب وعمد ومنصة احراق للأضاحى بالإضافة الى ثكنات كبيرة للجنود المصريين الذين وكلت اليهم مهمة إقرار الأمن وحماية المناجم من الطامعين .

سيناء والحروف الأبجدية :

وخلال هذه الفترة تقريبا وقع حدث ثقافى ذو أهمية بالغة فى سيرابيت الخادم . فقد ظهر على جدران المنجم بعض النقوش ذات الشبه بالرموز الكنعانية ، كانت تحويرا ضخما للهروغليفية المصرية ، فبدلا من الصور التى تعبر عن كلمات كانت هناك رموز تعبر عن أصوات أساسية يمكن عن طريق إعادة تركيبها أداء كلمات جديدة لا حصر لها . وكانت هذه بداية الابجدية السينائية ، وهى حلقة الوصل بين الهروغليفية المصرية والابجدية الفينيقية . وأصبحت الابجدية السينائية أم الابجديات التالية كلها .. بما فيها الابجديات الأوروبية القديمة والمعاصرة .

سيناء معبر للجيوش المصرية والغازية :

وخلال الألف سنة التالية لذلك ، وحتى أسرة البطالمة قبل المسيح بعدة مئات من السنين ، شهدت سيناء سلسلة طويلة من الغزوات والانتصارات ، فقد احتلت مصر الشرق ، ثم احتلت هي بدورها ، فقد غزتها جيوش الآشوريين والحيثيين والبابليين والفرس والاعريق ، وهزت هذه الغزوات المتلاحقة سلطة الفراعنة المهيبة وسيطرت على طرق التجارة بين الشرق والغرب . والعبرانيون الذين كانوا عبيد المصريين ثاروا عليهم وغرّوا شرقا من مصر الى سيناء وطبقا للقوات تاهوا في سيناء أربعين عاما بعد الخروج خلال حكم رمسيس الثاني على الأرجح (١٣٠٠ ق.م) قبل أن يدخلوا الى أرض الميعاد حاملين رسالة التوحيد وتاركين خلفهم سيناء كإقليم مصري مهجور سرعان ما عاد الى حياته البدائية .

البطالمة والرومان :

وابتداء من القرن الرابع ق.م . أبدى البطالمة اهتماما متجددا بشبه الجزيرة ، فأرسلوا البعثات اليها ، وبنوا بعض الموانئ على طول ساحلها المطل على البحر المتوسط ، وهناك واجهوا قوة النبطيين الصاعدة ، وهم شعب سام من شرق نهر الاردن ، كان مقره البتراء ، واحتل النبطيون العقبة ، وفتحوا طريقا من العقبة الى غزة ، وسيطروا على طرق المواصلات في سيناء ، وعبر طرق تجارتهم تركوا على جدران سيناء نقوشهم الآرامية ، واستطاعوا أن يصمدوا في مواجهة البطالمة ولكنهم في النهاية انهزموا أمام الرومان عام ١٠٦ ق.م .

وأصبحت مصر محمية رومانية ثم بيزنطية من عام ٣٠ ق.م . الى عام ٦٤٠ م وخلال هذه القرون السبعة زادت أهمية سيناء العسكرية والتجارية والاجتماعية ، فقد أنشأ الرومان سلسلة من المراكز العسكرية الحصينة

على طول الساحل السينائي للبحر المتوسط تفصل بين الواحد والآخر مسافة ١٤ ميلا (طول مسيرة يوم للفرقة الرومانية) وبعض آثار هذه المراكز لا تزال قائمة الى اليوم .

سيناء في العهد المسيحي :

وتدهورت الامبراطورية الرومانية الغربية ليصعد في أثرها نجم الامبراطورية البيزنطية الشرقية ، وفي العصر البيزنطي بلغت سيناء قمة جديدة من حيويتها ، وأهميتها ، والسبب في كلمة واحدة هو : المسيحية ، ففي القرن الرابع الميلادي اعتنق الامبراطور قسطنطين وأمه الامبراطورة هيلانة الديانة المسيحية وقرروا لأسباب تكتيكية ودينية أن يطورا الأراضى المقدسة وسيناء وهبت رياح النفوذ البيزنطي والثقافة البيزنطية تكتسح شبه الجزيرة ، ففي رينوكولوروم (العريش) مثلا أقيمت كاتدرائية ودير وصوامع للرهبان ، واتسعت المدينة لتغطي ثمانية أميال مربعة ، وظهرت الكاتدرائيات تباعا في المدن السينائية الأخرى . وكانت سيناء حتى قبل انتصار المسيحية النهائي قد أصبحت ملاذا للهاربين بالعقيدة الجديدة من وجه الكفرة والطغاة ، فمنذ القرن الثاني الميلادي لجأ الكثيرون من المسيحيين الفارين من فلسطين ومصر الى وادي فيران وهو واد خصب نسبيا ذو ماء وخضرة في الجنوب الغربي من شسبه الجزيرة ، وهؤلاء قدسوا جبل سريمل باعتباره طور سيناء الذي عليه تجلى الله لموسى ، وازدهرت المنطقة وأصبحت مقرا لابرشية صغيرة . وفي عام ٣٣٧م زارت الامبراطورة العجوز هيلانة الأراضى المقدسة ووصلت الى جبل موسى حيث أعجبت بتلك المستوطنة في وادي فيران وامرت ببناء كنيسة صغيرة فيها للعدراء المقدسة ، وقام الامبراطور جوستنيان في عام ٥٣٠ م بتوسيع هذه الابرشية الصغيرة كي تعتبر كنيسة منيعة وقلعة وديرا .

دير سانت كاترين :

وفي القرن التاسع الميلادي سمي هذا الدير بدير سانت كاترين ،
وذلك عندما بدأت شهرة هذه القديسة الشكندرية تزداد وتأخذ الطابع
العالمي .

وقصة هذه القديسة تبدأ من مطلع القرن الرابع ، فقد دخلت هذه
الفتاة المسيحية وهي في عمر الزهور ، وتقول الرواية إنها رأت السيد
المسيح في المنام يخطبها ويقع خاتماً في أمعها ، وفي الصباح وجدت
الخاتم فعلاً ، وقد ذهبت الى والي الرومانى تدهوه للمسيحية ، وقد
أعجب بها والي ولكنه أرادها أن تعود للوثنية فيزوجها ، ولما امتنع
أحضر لها خمسين فيلسوفاً لافتناعها فاستطاعت أن تؤثر فيهم وتحولهم
للمسيحية .

وحيث أن أصدر والي قراره بإعدامها .

وتستمر الرواية لتقول أن الملائكة حملوا جسم القديسة الى قمة
جبل قريب من الدير السابق ، ورأى أحد الرهبان في النوم أن جسم
القديسة قريب من الدير ، فلما استيقظ ذهب الى قمة الجبل فوجد الجسم
فصله ودفنه في الدير ، ومنذ ذلك الحين أطلق على الدير « دير سانت
كاترين » .

مسجد وسط الكاترانية :

وقد بنى الخليفة الفاطمي « الأمر » (٤٩٥ - ٥٥٢٤ = ١٩٠٩ -
١١٣٠م) مسجداً داخل دير سانت كاترين ، وكان إنشاء هذا المسجد
رادعاً للأعراب الذين كسانوا أحياناً يهاجمون الدير بعاطفة دينية
منحرفة ، ولذلك يقولون أن هذا المسجد حمي الدمر كما أن الدير حمي
المسجد .



المسجد الذي بناه الخليفة الفاطمي الأمر بن المستعلى داخل
كاتدرائية سانت كاترين (يحمى الكنيسة وتحميه الكنيسة)

سيناء في العهد الاسلامي :

ولنعد الى مطلع الاسلام في مصر لنقرر أن سيناء شهدت دخول قوات
الاسلام في طريقها غربا لفتح مصر وشمال أفريقيا • وقد سارع مواطنو
سيناء الى القنلى عن عقائدهم الوثنية واعتناق ديانة أبناء عمومته من
البدو القادمين عبر خليج العقبة • وقد كوفئوا على ذلك بأن كلفوا بمسؤولية
حماية طرق الحج عبر شبه الجزيرة الى مكة •

وقد ظل بدو سيناء يقومون بهذه المهمة عدة قرون •

سيناء والحروب الصليبية :

واصطدمت الفتوحات الاسلامية بالمصالح المسيحية وكانت النتيجة
اندلاع الحروب الصليبية التي كلفت سناء مائة سنة أخرى من الغزو

والاحتلال والأذى . كان الهدف الأول للصليبيين الاستيلاء على القدس لتكون مقرا لمملكة مسيحية في الأراضي المقدسة ، وتحقيق هذا الهدف بعد أن سفكت دماء كثيرة في عام ١١٠٠ م ونتيجة لذلك اقتطعت شريحة من سيناء تمتد من رفح الى العقبة وضمت الى مملكة الفرنج . كما استولى الصليبيون على مدينة أوستراسين الرومانية القديمة وأبقوها تحت سيطرتهم عدة سنين ، وعبر سيناء قدم الصليبيون الى مصر في أربع حملات كان آخرها في عام ١١٦٠ ، ووحد المسلمون في مصر وسوريا قواهم ضد الخطر الداهم وهزموا بقيادة صلاح الدين قوات الصليبيين على مشارف القاهرة وتعقبوهم في انسحابهم عبر سيناء حتى غزة .

وقرر الصليبيون اغاظة المسلمين بقطع طريق الحجيج الى مكة ، وأقاموا لهذا الغرض قلعتين صليبيتين على رأس خليج العقبة أكبرهما في جزيرة فرعون (وتعرف أيضا بجزيرة كورال) وتمكنوا بذلك ، ولفترة من الزمن ، من قطع الحج الى مكة بما في ذلك الطرق البرية والبحرية . وأقام المسلمون من جانبهم قلعة عسكرية لهم فوق جبل سيناء لحماية الطريق الجنوبي الى مصر في مواجهة الصليبيين . وفي عام ١١٧٠ استولى صلاح الدين على منطقة العقبة ، وما أن حل عام ١١٨٢ حتى كان يقود قواته الصغيرة عبر وسط سيناء في الحملة الأخيرة والكبرى ضد الصليبيين والتي انتهت بتحرير القدس .

سيناء في العصر الحديث :

كان عهد ثورة ٢٣ يوليو عهدا مشئوما بالنسبة لمصر بوجه عام ، ولسيناء بوجه خاص ، فقد أبقت الثورة على القيود التي كان الانجليز قد وضعوها على

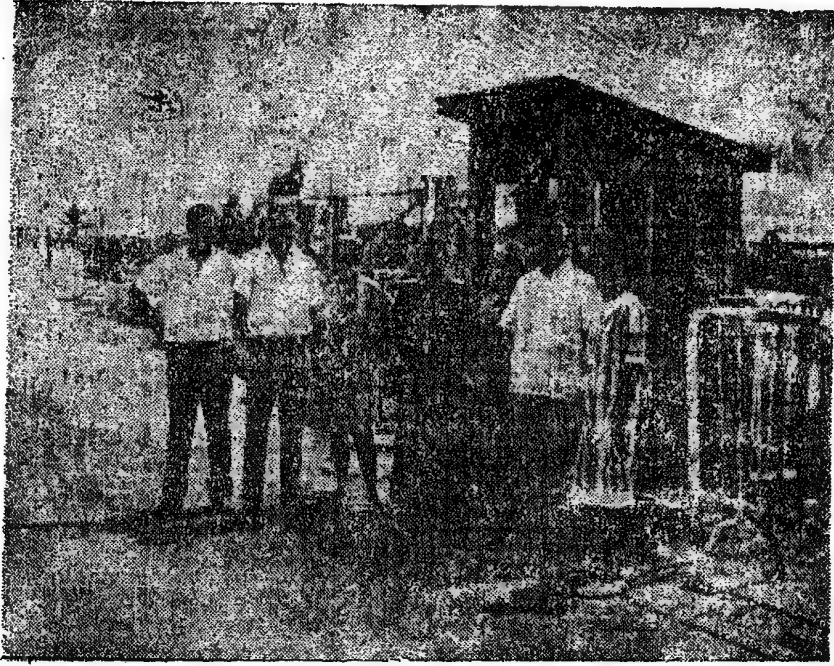
المصريين بحيث لا يكون من السهل دخولهم سيناء ، فعاشت سيناء وكأنها ليست جزءا من الوطن .

ولم تنل سيناء حظا يذكر من الرعاية والتعمير خلال عهد عبد الناصر ، وعلى العكس واجهت وسائل التخريب للأرض وللذمم ، فقد اقتحمتها جيوش اسرائيل سنة ١٩٥٦ بمساعدة بريطانيا وفرنسا ، ولم تخرج منها اسرائيل الا بأوامر مشددة من الولايات المتحدة التي لم يؤخذ رأيها في هذا الاحتلال ، وقد تركت اسرائيل ذبولها في سيناء ، وكانت هذه تتمثل في قوات طوارئ دولية كانت تعسكر في شرم الشيخ لتضمن السماح لاسرائيل بالملاحة في خليج العقبة .

وفي مايو سنة ١٩٦٧ طلب عبد الناصر من السكرتير العام للأمم المتحدة سحب هذه القوات ، وأغلق الملاحة أمام السفن الاسرائيلية فقامت على أثر ذلك كارثة يونيو التي دمرت المعدات وجنود عبد الناصر الذين سيقوا دون نظام الى الكارثة ، واحتلت اسرائيل سيناء من جديد ، وطال احتلالها هذه المرة ، فلم تخرج منها الا في ابريل سنة ١٩٨٢ بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وبعد جهد ومفاوضات وتوضيحات واسعة .

وكان لحرب ١٩٦٧ نتائج أخرى خطيرة ، فقد احتلت اسرائيل خلالها الهضبة السورية (الجولان) وغزة والضفة الغربية .

وقد زرت سيناء في سبتمبر سنة ١٩٨٥ ، وعند الحدود التي تفصل سيناء عن غزة التفتت بوفود مصرية كانت تزور المنطقة أيضا ، وتطلعنا الى الأرض العربية بغزة ، ولكننا كنا نَمُدُّ لها الطرف ولا نستطيع أن نَمُدَّ لها الخطا ، وتذكرنا هذه الحرب الخاطفة التي خسرنا فيها كل شيء بسبب ضعف القيادة وجهلها . حسابهم على الله .



تجمعات مصرية على حدود غزة
تتظر للأرض العربية ولا ندخلها

قرية ياميت في سيناء :

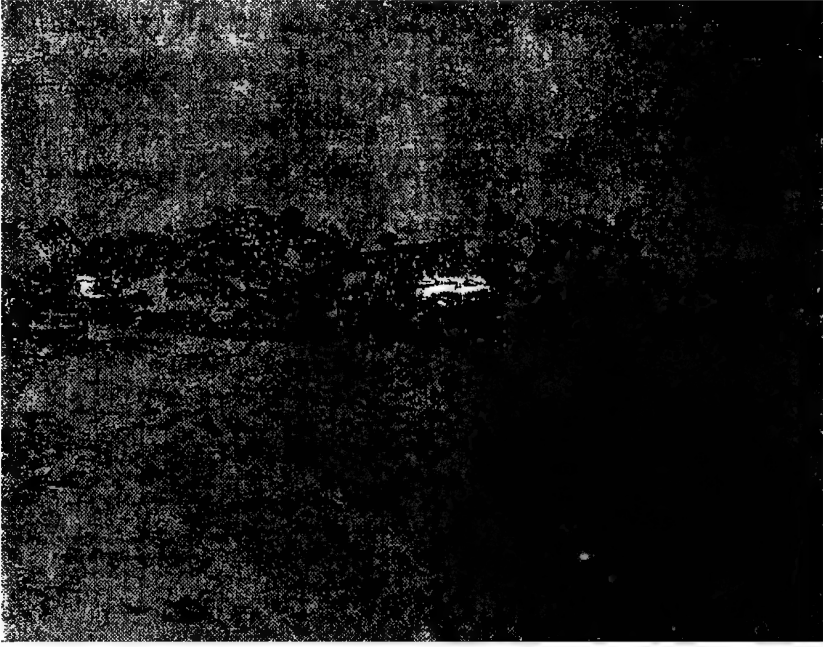
وقبل أن نترك سيناء نذكر أن الاتفاق كان قد تم في عهد الرئيس السادات بين مصر وإسرائيل لتجلو إسرائيل عن سيناء ، وقد تنازلت مصر عن كثير من اتجاهاتها لتحصل على هذا الجلاء ، فمثلا اعترفت بإسرائيل ، وقررت تبادل التمثيل الدبلوماسي معها ، وخاصمتها العرب من أجل ذلك ، وقبلت مصر شروطا مجحفة فيما يتعلق بإعادة تسليح سيناء ، ٥٥٥٥ ومع هذا لم تكن إسرائيل مخلصه في هذه المعاهدة ، وانما وافقت عليها لتنتزع اعتراف مصر بها ، ولتعزل مصر عن العرب ، ثم تبدأ بضرب العرب وهم بدون مصر ، فأسرفت في عدوانها على لبنا نوعلى الفلسطينيين ، وضربت

المفاعل الذرى فى العراق وضربت بعض قرى تونس وهددت كل الدول العربية .

وفىما يتعلق بعلاقاتها بمصر لم تسر اسرائيل سيرا محمودا بل كانت علاقاتها بمصر حافلة بالخدیعة والذکران والعدوان ، فلم تسلم « طابا » لمصر وهى جزء لا ینفصل عن سیناء ، ووقفت من یامیت موقفا بعيدا عن روح المعاهدة ، ویامیت قرية هائلة بنتها اسرائيل فى المسافة بین العریش ورفح ، وجرت مفاوضات لتتركها اسرائيل عند الجلاء أو لتبیع المبانی لمصر ، ولكن هذه المفاوضات فشلت ، فقد رفضت اسرائيل كل العروض ، وطمعت أن یبقى بها سكان صهاينة تحت سلطة مصر ، وطبیعی أن هذا الطلب رفض رفضا قاطعا ، وكانت النتيجة أن دمرتها اسرائيل تدمیرا تاما عقب اخلائها .

وقد زرتها فى أغسطس سنة ١٩٨٥ ، وشاهدت بقایا خراسانة نادرة المثال قوة وصلابة ، وقد تفككت وتساقطت سقوفها بفعل التفجیر العنیف ، ولا بد أن قدرا كبيرا من أدوات التدمير قد استعمل فیها بحيث لم یترك حجرة واحدة فى هذه القرية الكبيرة ، ولم یبق بها الا المعبد الذى لم یزد الصهاينة هدمه .

ومع هذا بعض الصور التى التقطناها لأنقاض القرية ، وهى تدل على هذه الجريمة ضد العمران وضد العلاقات الودية والانسانية .



أطلال قرية « ياميت » تنطق بالسخط والاشمئزاز



وقفة حزينة بجوار الأطلال



حديث : مستظل هذه الأطلال تذكرنا بقسوة اسرائيل وبعدها عن
الصفاء والانسانية .

طابا :

بقي من سيناء جزء لا يزال موضع خلاف بيننا وبين اسرائيل ، ذلك
هو « طابا » وهي منطقة تمثل جزءا لا يتجزأ من أرضنا ، ولكن اليهود
يعدون جشعهم لهذا الجزء ، وللتعريف بالمشكلة نورد دراسة موجزة
وواضحة عن هذه المشكلة :

— طابا هي نقطة على الساحل الغربي لخليج العقبة — تقع داخل
الحدود المصرية بثلاثة أو أربعة أميال . وهي على بعد ستة أميال من
جنوب ليلات . وترجع أهميتها الى قرب آبار البترول منها — بالإضافة
الى تحكمها في الممرات التي توصل الى سيناء من رأس الخليج فضلا عن
تحكمها في طريق غزة .

— نصت المعاهدة المصرية الاسرائيلية على أن تتسحب اسرائيل من سيناء كلها لتمارس مصر سيادتها الكاملة على المنطقة التي تمتد الى الحدود المعترف بها دوليا بين مصر وفلسطين في فترة الانتداب ، وكانت « طابا » بالتاكيد داخلة ضمن الحدود المصرية .

— وعند تنفيذ هذه المعاهدة ادعت اسرائيل أن منطقة « طابا » لا تدخل ضمن الحدود المصرية ، وتمسكت مصر بموقفها وبحقها الثابت ، فتم الاتفاق في ٢٥ ابريل ١٩٨٢ (أى عند اتمام انسحاب اسرائيل من سيناء) على أن يتم انسحاب اسرائيل من هذه المنطقة ولا تدخلها السلطات المصرية وتوجد بها القوة متعددة الجنسيات الى أن يتم الاتفاق بشكل نهائي .

— ومع ذلك قامت اسرائيل ببناء فندق سياحي في وادي « طابا » توسيعا للأقاليم التي تحيط بميناء ايلات ، وقد تم ذلك دون إبلاغ الحكومة المصرية ، أو تم في غفلة الحكومة المصرية أو بتساهلها .

— ولا يزال الصراع قائما للانتهاء من هذه المسألة بالمفاوضة أو بالتحكيم .

عهد أنور السادات

مقدمة :

حديثنا عن السادات هنا حديث قصير ، فللسادات جزء خاص من موسوعة التاريخ الاسلامي هو الجزء العاشر يصف السادات وعهده وصفا دقيقا وأرجو أن يوفقني الله لإصداره قريبا إن شاء الله .

اسم السادات :

إن الاسم الحقيقي الثابت في شهادة ميلاد أنور السادات وفي ملف خدمته هو :

محمد أنور الساداتي (١)

ولذلك سنتعمل هذا الاسم الحقيقي من حين إلى حين ، تذكيرا للحق وارتباطا بالأمور الرسمية .

وبناء على التاريخ وقواعد اللغة العربية هناك « الشيخ السادات » الذي كان له جاه عظيم في عهده ، وكان مع عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوي واليكري ... أعضاء الديوان الذي أنشأ نابليون .

أما « الساداتي » فاسم ينسب إلى « السادات » فهو ليس من أسرته ولا يحمل اسمه ولكنه قد ينسب له بسبب من الأسباب .

السادات والسلطة :

كان السادات أحد زعماء ثورة أو حركة يوليو ، ولعله كان من أذكي زعماء هذه الحركة ، وكان بالتأكيد من أكثرهم ثقافة ، ويبذوانه لاحظ جبروت عبد الناصر وسطوته فتعاشاه ، فمرة يعمل لإرضائه بأن يؤلف

(١) في كتاب الأستاذ عبد الله أمام « قضية عصمت السادات » أورد المؤلف هذه القضية التي ذكرناها هنا ، واستند إلى صورة زكوفرافية لتقرير سري سنوي صادر من وزارة الحربية والبحرية المصرية سنة ١٩٥١ .

كتابا يمنحه فيه ويرفعه الى السماء كما يقولون وعنوان الكتاب هو :
« يا ولدى هذا عمك جمال » .

ومرة كان يفتح له بيته ليكون المكان الوحيد الذى يرتاده ويمضى
به سهراته ، وكانت طلاقة السادات وثقافته تهيبء الابتسامة للزعيم .

ومرة كان يجلس مجلس القاضى فى محكمة الثورة أو محكمة الشعب
ايصدر الأحكام التى ترخصى عبد الناصر ضد من يكرههم ويحقد عليهم .

على أننى أتصور أن ذكاء السادات ساعده ليتخلص من هذا الجو ،
فاتجه أو وجهه حسن حظه ليكون الأمين العام للمؤتمر الاسلامى أو أن
يكون رئيسا لمجلس الأمة ، وهذا قلل ارتباطه بالسلطة الطاغية .

على أن عبد الناصر قضى على زملائه تماما الواحد بعد الآخر ، عزل
بعضهم ، وسجن آخرين ، وقتل من لم يقو على عزله أو سجنه ، ومن
هنا خلا الجو للسادات ، فاستدعاه عبد الناصر وعينه نائبا لرئيس
الجمهورية سنة ١٩٦٩ عندما كان جمال عبد الناصر على وشك أن يسافر
الى الاتحاد السوفييتى .

ولما مات عبد الناصر أصبح أنور السادات رئيسا مؤقتا للجمهورية
تبعاً لدستور ذلك العهد ، وواجه السادات بذلك عقارب السلطة ومراكز
النفوذ ، وساعده ذكاؤه مرة أخرى فتظاهر بأن أحنى رأسه لهم وتملقهم ،
وبدا كأنه سيكون طوع أيديهم ، وفى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠ أجرى
استفتاء لرياسة الجمهورية ، وقد قضى هذا الاستفتاء باختياره رئيسا
للجمهورية .

وتمكننا للملك والانحناء للعاصفة دخل السادات مجلس الشعب عقب
اختياره رئيسا للجمهورية ، واتجه لصورة عبد الناصر ، وانحنى أمامها
انحناء طويلة جلبت عليه سخط الكثيرين ، ولم تشف غليل الحاسدين
والأعداء ، فالانحناء والركوع لا يكون الا للخالق الأعظم .

مرتبات ومخصصات بدون ضرائب :

ومن وسائل الملق الذي أبداه السادات ليصل الى غايته أن أسرع في فترة الهلع الذي كان يعم البلاد عقب وفاة عبد الناصر ، أن أَرْضَى أسرة الزعيم وأَرْضَ مراكز القوى ، فاتَّخَذَ مجلس الوزراء أول قرار له ، وكان خاصا بمنح زوجة عبد الناصر وأولاده جميع مرتباته ومخصصاته بدون ضرائب ، وأن تظل تعيش في قصر الدولة الشاسع الفاخر طيلة حياتها ، ويظل لها كذلك قصر الاسكندرية •

لقد كان هذا تصرفا لا يرتضيه عقل ولا ضمير ، وهو تصرف لا تعرفه أية دولة من الدول ، وقد تكلمت الصحف عن زوجة تشرشل الذي قاد بريطانيا في أخطر معارك التاريخ ، ثم — بعد موته — أخذت تبيع ما عندها من تحف لتستكمل حاجاتها في الحياة ، ومثل هذا قيل عن الزعيم العظيم شارل ديغول الذي قاد فرنسا واستعاد لها استقلالها بعد أن اكتسحتها جيوش النازي ، وبعد وفاته عاشت زوجته بما عندها من مال وما استحققت من معاش ، ولما مات رئيس جمهورية الولايات المتحدة « هارينج » كان على زوجته أن تغادر البيت الأبيض فورا ، ولكنها لم يكن لها مسكن خاص فبقيت بغسة أيام ريثما وجبوا لها حجرة في فندق •

أما مصر فيجري عليها ما جرى ، ولا تزال مصر حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ تدفع هذه المبالغ الباهظة على الرغم من الضيق الاقتصادي الذي تعاشيه ، وعلى الرغم من الثراء الفادح الذي ظهر في أيدي أولاد عبد الناصر والذي تجاوز الملايين أو المليارات ، ولسنا نعرف الى متى ستظل مصر تدفع مئات الآلاف لسيدة تعيش وحدها بعد زواج أولادها في هذا القصر المنيف أو تنقله لتعيش متنقلة في عواصم العالم •

ويبدو أن السادات هيا ذلك لزوجة عبد الناصر وأولاده حتى يتيح فرصة لتكرار ذلك مع أسرته بعد وفاته ، فقد تقرر مثل ذلك للسيدة جيهان السادات وأولادها منه (ولين لأولاده الأخريات من زوجته الأولى

السيدة اقبال) ولذلك فمصر تدفع الآن (١٩٨٦) مرتبات ومخصصات بدون ضرائب لثلاثة رؤساء وهي البلدة الوحيدة التي تفعل ذلك .

ويلاحظ أن كلمة مخصصات كلمة رهيبة ، فالمخصصات تشغطي التزامات الرئيس التي يستلزمها منصبه ، والرئيس قد مات ، ولم يعد يشغل هذا المنصب ، فكيف بالله تدفع هذه المخصصات لزوجة لم تعد تواجه هذه الالتزامات والمسئوليات .

وإذا كانت زوجة عبد الناصر تعيش غالبا في لندن ، فإن زوجة السادات تعيش غالبا في الولايات المتحدة ، وقد ذكرت الأنباء أنها أرسلت من هناك أطباء متخصصين لعلاج « نستاس » لها بالقاهرة ، وحق لها أن تفعل ذلك فعلى الشعب الفقير يدفع لحسابها بسخاء .

وكلمة أخيرة عن هذا الموضوع هي : هل سنظل نفعل ذلك ؟
ومعنى هذا أننا في يوم من الأيام سندفع مرتبات ومخصصات للأعداد الكبيرة من الرؤساء ، وهي نكبة ونزيف لا بد من إيقافه .

مصر اقتصاديا في مطلع عهد السادات :

عندما تولى أنور السادات السلطة كانت مصر تعاني أشد البلاء من الهزائم التي نزلت بها في عهد جمال عبد الناصر ، ومن الاضطراب الاقتصادي الذي كان قد أكل كل ثراء مصر ، وتركها على النحر الذي رسمه أنور السادات إذ قال : ان مصر كانت كشخص تزف كل دمه ، وخلت شرايفه من الدم .

وكانت مصر بالاضافة الى ذلك تعاني من سخرية العالم بعد هزيمة ١٩٦٧ وتعانى القطيعة من كثير من الدول ، وأخذ أنور السادات يتحسس طريقه برفق في الميدان السياسى والعسكرى والاقتصادى حتى انفجرت مشكلة مايج التي نتحدث عنها فيما يلى :

حركة مايو :

شهور قليلة مرت بين بدء رئاسة السادات للجمهورية في ١٥ أكتوبر ١٩٧٠ وبين حركة ١٥ مايو من العام التالي ، وهذه الشهور كانت حافلة بالتربص والاعتبار ، فقد سبق أن أشرنا الى أن السادات لم يكن على وفاق مع المحيطين بعبد الناصر ، وكان يُعتَبَر دخيلا عليهم ، فكانت الكراهية متبادلة بين الطرفين ، ولكن ذكاء السادات جعله يحنى الرأس خلال الفترة الأولى ليظفر بالرئاسة ، فلما تم له ما أراد ، بدأ يدبر المكائد ليتنقض على هؤلاء .

وفي نفس الوقت كان هؤلاء يدبرون الخطط للتخلص منه ، وكان الأسبق سينال الفوز ، فالضربة الأولى كثيرا ما تكسب النصر لصاحبها ، واستقر رأى السادات على أن يضرب بسرعة قبل أن يتعرض لهجوم أعدائه ، واعتمد في ذلك على شخصين مهمين أحدهما لقيادة الجيش وهو الفريق محمد صادق ، والآخر لقيادة الشرطة وهو ممدوح سالم ، واتفق معهما سرا على أن يكون الأول وزيرا للدفاع ، والثاني وزيرا للداخلية وفي لحظة خاطفة استولى كل منهما على السلطة التي أصحرت السادات قرارا بتعيينه فيها ، وتم القبض على القيادات العسكرية والسياسية المقاومة للسادات ، وفي قمتهم على صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف ومحمد فوزى ولم يكن لأحد من هؤلاء مكان في نفوس الشعب ، فبارك الشعب نهاية هذه الشرذمة التي طالما نكلت به وامتصت دماءه وأعانت عبد الناصر عليه وقد جرت محاكمة هؤلاء ، فأدينوا وصدرت ضدهم أحكام مختلفة ، وعلى الباغي تدور الدوائر .

ويلاحظ المطلعون أن السادات قبض على أعدائه الذين كانوا ينافسونه ، ليتمكن لسلطانه ، ولم يقبض على باقى أعداء الشعب ، فاللصوص ، وتجار المخدرات ، والذين أثروا بالباطل لم يُصَيِّبهم منه سوء .

ثورة التصحيح :

بقيت كلمة تدعو للسخرية هي استعمال كلمة « ثورة » فلقد قام بعض بحركته التي دمّرت البلاد والعباد وأسموها « ثورة » وهي في الحقيقة طلاح الحقيقى ليست الا انقلابا ، ثم قبض السادات على أعدائه ، ثم أخرى استعمال كلمة ثورة فقد طابت له هذه الكلمة فأسمى حركة من أعدائه « ثورة » أو « ثورة التصحيح » .

وبعقب ثورة التصحيح أعيد تكوين مجلس الوزراء والاقتصاد والبرلمان ومجلس الشعب ومجالس الادارات ، كما أعيد انتخاب مجالس القضاء والأندية وأصبح للحكم وجه ساداتى جديد .

ويعتبر عهد أنور السادات عهدا يختلف في قيمه واتجاهاته اختلافا كبيرا عن عهد سلفه ، وقد ظهرت به معالم من النور ، ووجدت به بعض ملامح التقدم ، وان ظهرت بجانب ذلك بعض البقع السوداء ، فإن هذا العهد هو :

١ - عودة اسم مصر ، ففي أول سبتمبر ١٩٧١ صدر اعلان دستورى باسم « جمهورية مصر العربية » .

٢ - اطلاق الحريات الى حد كبير ، وسيادة القانون فيما لا يناقض رغبات الرئيس ، وعلان الدستور الدائم وهو أيضا دستور غير شعبى وسفوى عيويه عند الحديث عن عصر حسنى مبارك .

٣ - أنهى عقود الخبراء السوفيت ، واستعاد القاعدة الحربية التي كانت قد منحت لهم ، فأنقذ مصر من الشيوعية الممّدة .

٤ - العيور وهزيمة اسرائيل ، وقد سقط من اسرائيل عدد ضخم

من الجنود والضباط قتلى وجرحى وأسرى ، واستعادت مصر قنصاة السويس ، واهتزت إسرائيل اهتزازا عنيفا في كل مجال وتأزمت الأمور عند الأعداء حتى صح أن يقال اننا صدّرنا الى إسرائيل حالات التمزق التي كان يعيش فيها العرب عقب هزيمة ١٩٦٧ •

٥ — أعيد فتح قناة السويس للملاحة الدولية في ٥ يونيو ١٩٧٥ واختيار ٥ يونيو لذلك كان ذكاء من السادات ليداوى جراح هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ •

٦ — اعلان فك الارتباط الثانى فى أواخر أغسطس سنة ١٩٧٥ وبمقتضاه تقرر انسحاب إسرائيل الى ما خلف الممرات فى سيناء ، كما تقرر أن تعود منابع بترول أبو روديس والبلاعيم الى مصر ، وهكذا حاربنا وابتصرنا فاستطعنا أن نستعيد القناة ، وجزءا من سيناء مجاورا لها ، ثم تفاوضنا واستعدنا باقى سيناء ولكن بشروط فيها نوع من انتقاص السيادة ، وعلى كل حال فالحديث عن معاهدتى كامب ديفيد سيأتى بالتفصيل فى الجزء العاشر •

٧ — من أبرز معالم هذا العهد أن عادت الانتماسة لشفاة المصريين ، وأمن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، وذلك ما لم يتحقق لهم طيلة العهد القاتم السابق •

٨ — ومن الاصلاحات الداخلية التى برزت فى عصر السادات انشاء المدن الجديدة : العاشر من رمضان ، والسادات ، ومايو ، والسلام ، وانشاء نفق أحمد حمدى والطرق الكثيرة والكبارى العلوية ، واصلاح التليفونات

٩ — حاول أنور السادات أن يخلق فى البلاد جوا من الديمقراطية ، ولكنه حرص على أن تكون ديمقراطية مستأنسة أو خاضعة له ، وهذه فى الحقيقة لا يمكن أن تكون ديمقراطية حقيقية ، وعلى كل حال فقد اتجه للاتحاد الاشتراكي ليخلق فيه ما أسماه « منابر » لليمين واليسار والوسط ، ثم اتجه لخلق الأحزاب فكلّف « ممدوح سالم » أن يؤلف حزب

مصر ، وكلف إبراهيم شكرى أن يؤلف حزب العمل ، وظهر حزب الوفد الجديد ، وكانت هذه ديمقراطية عرجاء ، ولنا حديث طويل عن الأحزاب والديمقراطية والدستور بعد عبد الناصر ، ويستفاد من هذا الحديث ضمن أحاديثنا عن عهد حسنى مبارك بعد قليل .

١٠ — كانت زوجة أنور السادات تسمى نفسها « سيدة مصر الأولى » ومن الواضح أنها تتحذر من دم ليس عريقا فى المصرية ، ولذلك كان هذا اللقب يؤذى شعور المصريين دون استثناء ، وكنا نهتف دائما بأننا جميعا خدم مصر وليس أحد سيدها لها ، ولكن هذه السيدة عشقت هذا اللقب اللعين الذى جرّ عليها كثيرا من السخط واللعنات ، والذى لم تستغله زوجة عبد الناصر ولا زوجة حسنى مبارك .

١١ — بالإضافة الى ما حققه أنور السادات من انتصارات فى المعركة ، نجده قد حقق نصرا فى المفاوضات مما أتاح الفرصة لاستعادة سيناء وإعادة فتح قناة السويس واستعادة بترول المنطقة ، ولكن الساداتى عقب ذلك تآكله وتكبر وتجبر ، وكان عليه أن يشكر الله وينحني إليه .

١٢ — وفى عهد السادات — للأسف — ظهر كثير من الانحراف والافهام والاثراء على حساب الشعب وكان ذلك نتيجة لما سمي « الانفتاح » فقد ظهرت طائفة مسعورة لكسب المال بأى وسيلة من الوسائل ، عن طريق ما سمي التصدير والاستيراد أو عن طريق تغيير العملة وظهر كثير ممن يملكون الملايين أو المليارات بدون وجه حق .

١٣ — وفى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٨١ أى قبل نهاية الساداتى بشهر أصدر هذا أوامره باعتقال حوالى خمسة آلاف شخص من المصريين وزج بهم فى المعتقلات ، وكان فيهم الشيخ الكبير والشاب والرجال والنساء والمسلمون والأقباط والشيوعيون والإخوان المسلمون ، فكان التشفى ظاهرا فى هذا العمل المزرى .

وفي السادس من أكتوبر ١٩٨١ سقط السادات في حادث المنصة ،
وسبحان الباقي وسيشمل الجزء العاشر من هذه الموسوعة ان شاء الله
تفاصيل ما أوجزنا هنا من أحداث .

الحيدة الكاملة في تدوين التاريخ :

وفي ختام حديثنا الموجز عن أنور السادات نبرز نهجنا في الدراسة ،
ذلك النهج الذي يقوم على الحيدة المطلقة ، فقد مدحنا أنور السادات في
حركة مايو حين خلصنا من بعض أعداء الشعب ، ومدحناه بعمق في
إعداده لمعركة رمضان ، وإدارته لها ، واستعادة سيناء ، وإعادة فتح
قناة السويس ، واستعادة مصادر البترول المصري ، وهذه مواقف جديرة
بالتقدير ، وانتقدناه في قضايا أخرى كما مر .

ونريد هنا أن نثني على صحيفة « الوفد » : فإنها — على الرغم
مما عانى حزب الوفد وزعيمه من تصرفات السادات — كتبت في عدد
١٩٨٦/٥/٢٢ الكلمة التالية وبجوارها صورة السادات :

يومان خالدان في تاريخ مصر :

يومان عزيزان على المصريين جميعا ، خالدان في تاريخ مصر وشعبها
العريق ، اجتمعا معا في أسبوع واحد ، واحتفل بهما كل بيت وكل قلب
يخفق بحب هذا الوطن . اليوم الأول هو الخامس عشر من مايو ،
الذي تحطمت فيه قيود المصريين ، وانهارت دولة الظلم والظلام
والارهاب . واليوم الثاني هو العاشر من رمضان ، يوم حرب التحرير
الخالدة ، وذكرى استرداد الأرض والكرامة : وصفحة التاريخ المشرقة ،
التي سطرها أبناء مصر وأبطالها بدمائهم الطاهرة ، إننا في هذه الذكرى ،
نتوجه بالتحية الى أبطالنا ، ونترحم على شهدائنا ، ونذكر الرجل الشجاع
الذي كان صانع القرار الجسور في اليومين . . الرئيس الراحل
أنور السادات .

ثورة ٢٣ يوليو في الميزان

هذه « القفزة » التي تُسمَّى نفسها ثورة ، والتي يسمِّيها بعض الناس « عصابة » أو انقلابا ، قامت سنة ١٩٥٢ ، واستغرقت حماستها ونارها عهدي عبد الناصر والسادات مع خلاف كبير بين المهديين ، وبخاصة بالنسبة للإصلاحات والاضطهادات ، .. أقول أن هذه الثورة انقضت بانقضاء عهد السادات ، ولم يبق لها إلا ملامح قليلة في عهد محمد حسني مبارك ، ملامح من بقايا هيئة التحرير التي تحركت إلى الاتحاد القومي ، فالإتحاد الاشتراكي ، فحزب مصر ، فالحزب الوطني الحاكم عند كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ .

ومعنى هذا أن الثورة لم تختف بعد ، فلا يزال دستورها هو الدستور المعمول به ، ولا تزال مؤسساتها قائمة ، ولا تزال كثير من القوانين الفاسدة التي أصدرتها معمولا بها ، وعلى كل حال فالأمل أكثر الآن في أن تطوى صفحات هذه الثورة ، وأن نبدأ من جديد حياة جديدة ، سائلين الله أن يعوضنا عن عشرات السنين التي أضاعها الجهل وسوء التدبير ، وأن يساعدنا لنعيد العمران لبلادنا التي دمرتها هزائم عبد الناصر الساحقة (انظر صورته بعد هزيمة ١٩٦٧) على الصفحة التالية .

وقد كتبت عن هذه العصابة كثيرا حتى ظن بعض المتسرعين أنني متحامل ، أو متشدد ، والحق أنني أدوّن التاريخ بكل إنصاف ، وأحسُّ وأنا أدوِّنه بالمسؤولية الكبرى أمام الله وأمام الناس ، ولأجل أن أزيد الموضوع إيضاحا أنقل فيما يلي آراء صفوة من المفكرين المصريين في هذه الثورة وبخاصة في الديكتاتور الظالم عبد الناصر .



منظر لصانع الهزائم

وهو يحاول الهرب من هزيمة ١٩٦٧ فيلاعب نفسه « الشطرنج » ولكن
تلاحقه أصداء الهزيمة الساحقة ، وتدق رأسه أرواح الآلاف الذين
دفع بهم للموت ، وتركت جثثهم للوحوش والهوام في سيناء .

محمود أبو الفتح والثورة :

يقول الأستاذ محمود أبو الفتح في إحدى مقالاته يصور ما حدث
لمصر خلال هذه الثورة :

« في مطلع عهد الثورة فقدت مصر أهم العناصر التي تحمي الإرادة
المستقلة وهي الحرية ، والاكتفاء الغذائي ، والتقدم الانتاجي ، ثم
سار الحاكم في أسلوب حكمه كالآتي :

**** ضرب الحاكم كل الحريات واستباح القتل والشنق والتعذيب
الوحشي والاعتداء على شرف السيدات .**

**** إباح الحاكم للانتصار كل ما يمكن تصوره من جرائم الاثراء
الحرام .**

**** انقضت الشهوات الجامحة على الثروات كانتقاص الوحوش
الجائعة ، وسرعان ما اختفت الثروات وتم احتلال القصور وخطف
المناصب .**

**** انتقاص "رهيب وصل الى القمة للبحث عن الرفاهية في صورة
مصايف في جزيرة الشاي بحديقة قصر المنتزة يمتنع على أى مصرى أن
يقربها أو يدخل أرضها ."**

**** المتاحف والقصور حافظت عليها الثورات الهمجية في فرنسا
وفي روسيا . . . أما في مصر فقد نهبت واختفت المجوهرات والتحف التي
كانت في قصور أسرة محمد على ، وحتى رخام مقبرة أسرة محمد على
قد نهب وسرق . . تصورا بيتا بينى برخام مسروق من مقبرة !!**

**** وكل ذلك يتم والويل كل الويل لمن ينقد أو حتى يتهم
زيفا بأنه ينقد . . فقد أصبح القانون وأجهزة « الأمن » لحماية الجريمة !!**

ودفن الحاكم المصرى عزة مصر :

**** ولأول مرة في تاريخ مصر منذ العهد الفرعونى يمسد الحاكم**

يده يطلب المعونات • • يطلب الاكل • • ويمدها لن • • لأمريكا • •
التي يباهى بأنه يعاديه ويحارب امبرياليته • •

• • ويستطيع كل انسان أن يدرك مدى سعادة حكام أمريكا إذ
يرون حاكم مصر يطلب الغذاء منهم •

• • اغتقرت مصر وضاعت ثرواتها وبدأ حاكم مصر يقترض ويطلب
المزيد من المساعدات من الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية •

• • وتم دفن استقلال الإرادة الوطنية المستقلة ، فالجائع الذي
يلتمس المعونات والقروض ليس له إرادة وليس له استقلال •

خبراء وقواعد عسكرية وانكشارية :

• • ١٧ ألف خبير روسي يسيطرون على كل أمور مصر وخصوصا
جيش مصر •

• • قاعدة بحرية على أرض مصر لاساطيل الاتحاد السوفيتي •

• • الجيش المصري يتم قتل شبابه بحجة الدفاع عن لومومبا
في الكنفو وفي سبيل تحرير اليمن •

• • ولا يمكن الجيش من الدفاع عن أرض الوطن ، بل يتدف به
تدفقا في نزق وطيش لم يُعرَف تاريخ « نيرون » بمثله ليموت الآلاف
وتتدمر أسلحة بالآلاف الملايين ويستولي العدو على بترول مصر ويجلس
جنود العدو وقد أدلوا أحذيتهم في مياه قناة السويس التي كان الحاكم
الفاشل يباهى بتأميمها •

انتصارات • • وانتصاضات :

• • قضى الله أمره وتغير الحاكم وحقق الحاكم الجديد بسرعة
مذهلة عدة انتصارات ، إذ أنهى تغفل الخبراء الأجانب ، والقاعدة الحربية
الأجنبية ، وخفف القيود على الحريات الشخصية للمصريين ، ثم توج
الانتصارات إذ أنماح لجيش مصر الباسل فرصة الانتقام من العدو •

*** كان من الممكن أن يقفز بمصر ، ولكن مسرة أخرى انقضت
الشهوات التي لا تشبع على الثروات ، وكأن الوليمة قد أعيد نصبها
للكواسر الجائعة .

*** وعم الفساد وانتشر وارتفعت أرقام الديون ارتفاعا رهيبا ..
وتضخمت امتيازات « الثوار » والمحاسيب .

وأصبحت مصر :

*** وهكذا أصبحت مصر من دولة تملك إرادتها المستقلة بتأييد
شعبها ورخاء اقتصادها إلى دولة فقدت إرادتها لأنها في حاجة إلى ٧٠٪
من قوت الشعب .

*** تحولت مصر من دولة دائنة إلى مدينة . من دولة سليمة
المرافق إلى دولة مدمرة المرافق ومن دولة ينعم شعبها بالقناعة والرضاء
إلى دولة تعج بالرشوة والفساد وضياع مئات الملايين ...

*** وأخيرا وليس آخرا تحولنا من دولة كانت لها أحزابها التي
تتكون بأرادة شعبها وكانت لها صحافتها الحرة وقانون انتخاب مثالي ..
إلى ما نحن فيه ..

ومع ذلك يحتفلون :

*** رغم كل هذه الحقائق لا تزال الحكومة تحتفل بعيد تلك
« الثورة » وتسميه العيد القومي .. ولكن ليس في الأمر غرابة فالحزب
الذي يحكمنا هو الذي أيد كل ذلك والذي انتفع من كل ذلك .. ولا يغير
الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

جلال الدين الحمامي والثورة :

ولنترك الأستاذ محمود أبو الفتح إلى كاتب حر آخر ، هو الأستاذ
جلال الدين الحمامي ، وله عن الثورة وعهدها كتب وبحوث ضافية ،

ولكننا نقتبس منه كلمة قالها في الأخبار يوم ١٩٨٦/٢/٩ عن زعماء الثورة الذين ينشرون مذكراتهم بالصحافة العربية ، قال سيادته :

يعرض أقطاب عهد ما بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ « في هذه الأيام » أوراقهم السياسية على شعوب العالم العربي ، إذ لا تخلو جريدة أو مجلة عربية من « حلقات مسلسل » يكتبها هذا أو ذاك من الشخصيات التي حكمت مصر ، وأمسكت بخيوط سياستها الخارجية والداخلية • ومن مضمونها يمكن أن تحكم على نوعية العقول التي حكمت مصر وقادتّها الى هذه التركة المثقلة التي دوخت الشعب وجعلته يفقد اتزانه ويفرق في بيون خارجية ومشكلات داخلية متراكمة •

ومع هذا ورغم كل ما فعلوا فانهم يطفون الآن على السطح بلا خجل أو حياء ويتكلمون ، ولا يعتذرون بل وتسمح لهم الحريات — التي خاصموها وعطلوا ممارستها لسنوات فوق سنوات — بعودتهم كي يكونوا جزءا يتفاعل مع مجيع يحاول ازالة آثار عدوانهم على كل شيء •
مصطفى أمين والثورة :

أما الكاتب العملاق الأستاذ مصطفى أمين ، فهو يمثل الآن قلب الحرية الخفاق ، وهو يكتب كل يوم ما يجيش بنفوس المصريين ويصبر عن مشاعرهم ، ولا يتوقف قلمه عن عرض مساوئ هذا العهد الأسود ، ولذلك لا نستطيع أن نقتبس منه شيئا ، فكل ما يكتبه يمكن أن يكون قبسا من النور يبرز أوكار الخفافيش ، ومخابئ الطفاة الذين حكموا مصر في هذا العهد القاتم ، ونحيل القارئ الى « فكرة » ففيها في أكثر الأيام تنديد بالطغمة الفاسدة التي أخذت يوما مكان الزعامة ، وكان جديرا أن تختفى في ركن مظلم مع السفاكين واللصوص •

وفي « فكرة » بتاريخ ١٩٨٦/٣/٢٢ يصف أسباب ما نعانيه اقتصاديا بقوله :

قد بدأت المصيبة عندما بعنا احتياطي الذهب لتصرف على حرب اليمن ، وعندما اشترينا مصانع قديمة نصف عمر على أنها مصانع جديدة ، وعندما خسرنا أسلحتنا في الحروب التي خسرناها •

وعندما أرسلنا قواتنا الى الكونغو لتسند نومومبا ، وأرسلنا قواتنا الى العراق لتحمي عبد السلام عارف ، وعندما أرسلنا طيراننا الى نيجيريا ليضرب سكان يافرا بالقنابل ، وعندما أرسلنا جيوشنا لتحمي السلال في اليمن ، كل هذا وغيره من المغامرات هو الذي أرهق الجنيه المصري الذي كان في يوم من الأيام يساوي خمسة دولارات وكان أعلى من الجنيه الاسترليني بقرشين ونصف قرش ، كنا نصدر القمح وأصبحنا نستورده ، ونصدر الأحذية وأصبحنا نستوردها ، ونصدر مختلف أنواع القطن والحرير وأصبحنا نستوردها !

دكتور نعمان جمعة والثورة :

ويذكر الأستاذ الدكتور نعمان جمعة بعض ما تبقى في عهد حسنى مبارك من أسباب الاضطراب الاقتصادي ويقرر ضرورة الاسراع في إلغائها والتصرف بشأنها وهى :

مجلس الشورى ، والمجالس القومية المتخصصة ، واكاديمية البحث العلمى ، (اكتفاء بالمركز القومى للبحوث) وهيئة الكتاب الجامعى ، وجهاز المدعى الاشتراكى ، ومحاكم القيم ، وعديد من السفارات والقنصليات ، وبعض الوزارات ، ومخصصات عائلتى رئيسى الجمهورية السابقين ، وبيع أراضي العمورة المحيطة بقصريهما ، والمبسادة الى مراقبة الميزانيات السرية التى ينفق من خلالها على شراء معدات الجيش ونفقات الرئاسة ، ومنع سفر أى موظف رسمى الى الخارج وأداء أى عمل مطلوب بواسطة سفاراتنا ، وتأجير قصور أسرة محمد على فى أنحاء مصر كفنادق عالمية لآثامه أثرياء العالم ، وعلى رأس هذه القصور « المنتزه » ورأس الحكمة ، وكنج « ريوط » •

دكتور ابراهيم عبده والثورة :

وننتقل الى كاتب خامس هو الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده الذى كتب فى ١٣/٢/١٩٨٦ يقول :

وأحب أن أبصّر أبناءنا الذين أسعدهم الحظ فلم يعيشوا مثلنا أيام عبد الناصر ، فقد سَجَنَ عشرات الألوف من المواطنين ، وليت الأمر قد اقتصر على السجون ، فقد صُحِبَ السجن تعذيب هؤلاء المواطنين بكى* مواضع حساسة من أجسامهم ، وتعليقهم كالذبائح ، وضربهم بالسياط ، ليعترفوا بجرائم لم يرتكبوها ، ومن المضحكات المبكيات أن بعض إخواننا الأقباط قبض عليهم وسجنوا وعذبوا على أنهم من خلايا الإخوان المسلمين ؟ !! ولم يقف الأمر عند هذا التعذيب الوحشى ، بل تعداه الى كفر لا ترضى عنه شرائع الأرض والسماء ، فكان زبانيته يأتون بزوجات وبنات المسجونين ، وكم فسقوا وهتكوا من أعراض ، وكم من ضحاياهم ماتوا نتيجة التعذيب ؟ فضلا عن مصادرة أملاكهم وطردهم من بيوتهم والاستيلاء على مقتنياتهم .. وهذا الذى أحكيه لكم يا شباب أسجله نقلا عن أحكام المحاكم التى أدانت عهده ، ووصفته بأحط الأوصاف ، وفى حكم منها صورت المحكمة لنا كيف أمر بتدريب الكلاب مواطاة الرجال وهو ما لم يفعله الفاشيون والنازيون ، ولا مر على سجن الباستيل ؟ !

ثم ماذا يا شباب ؟ أحدثكم عن آخر مآسى عبد الناصر فى سياسته الداخلية ، فقد كان له صديق حميم يدعى عبد الحكيم عامر الذى رقيه من رتبة الرائد فى الجيش الى رتبة اللواء متخطيا فى ذلك جميع زملائه أربع درجات ونصبه قائدا عاما على الجيش ! ثم رقيه الى رتبة المشير وهى ذروة الترقيات ، ثم اختلف معه عقب هزيمة ١٩٦٧ فاعتقله ثم دس السم وقتله ، ودعنا من حياته الخاصة حين كان فى الجيش فى رتبة الرائد أو فى رتبة المشير .. فقد ذكرت الصحف منذ عدة أيام أن بناته

سُرِقَ قصرُهم ، وأن التحقيق في أمر السرقة كشف لنا أن خدم البنات قد بلغ عددهم سبعة عشر خادما وخادمة !! وأن المسروقات مجموعة من الجواهر النادرة !! ونجو ألفى جنيه كانت موجودة في البيت للمصاريف العاجلة ، فمن أين لهم كل ذلك الشراء !!

من هرب الملايين ؟

ويستمر الدكتور ابراهيم عبده فيروى ما يلي :

يقول كاهن الناصرية الأكبر (يقصد محمد حسنين هيكل) أن خمسة وأربعين بليوناً (بلياراً) من الدولارات ، خرجت من مصر الى حسابات بعض المصريين في بنوك الخارج ! ومما لا شك فيه أنه يعنى بذلك عبد الناصر وحاشيته وأولاده وأصهاره .

والفساد كله بدأه عبد الناصر فهو الأستاذ في هذه المجالات : الديكتاتورية ، التعذيب ، سرقة الأموال ، الجهل بالسياسة ثم سار تلاميذه في طريقه ولا يزالون يسيرون ، وقد ذكرت صحف القاهرة في فبراير ١٩٨٦ أن ٧٠٠ قضية اختلاس قد حرركتها النيابة ، وأن عصابة يتزعمها وكيل أول وزارة الصناعة قد قبض عليها متلبسة برشوة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات لتجيز إقامة مصنع ألماني للورق في الصعيد .

إنها آثار الزعيم الذي لا يزال بعض الجهال يصفقون له .

الضعفاء وشيخ عبد الناصر :

ومات عبد الناصر ، ووسد التراب ، ولكن خياله كان يلاحق الضعفاء ، وسطوته كانت لها سيطرة ، ولهذا انحنى السادات أمام صورته بمجلس الشعب ، وهو تصرف وثئى ما كان يليق ، ثم انطلق مجلس الشعب يقرر منح أسرة عبد الناصر مرتباته ومخصصاته بدون ضرائب ،

ويمنحها قصرين شاسعين بالقاهرة والاسكندرية وما حولهما من الحدائق
والمنتزهات ، مع السيارات والتليفونات * * * *

ووافق أنور السادات على ذلك كأنه كان يمهّد لتصرف مماثل
لأولاده من بعده ، وقد نال ذلك أيضا من مجلس الشعب الذى لم يكن
فى عهد عبد الناصر أو السادات يمثل رأى الشعب على الاطلاق *

نقاش حول القصور والحدائق :

وجاءت الأزمة الاقتصادية التى تركزت أسسها فى عهد عبد الناصر
للاسباب التى ذكرناها ، واتجه الناس جميعا للمساهمة فى تسديد ديون
مصر ، وفى محاولة الحصول على موارد تساعد على تخفيف هذه الأزمة ،
وكان من ذلك ما كتبه الكاتب لفتتنازل أسرنا الزعيمين عن مئات الأفدنة
بين القصرين الكبيرين بالمعمورة ، وهنا شحذ خالد عبد الناصر قلمه
ليدافع عن هذه الأرض ، وذكر أنها تراث الزعيم ، ومنها صدرت
القرارات التى غيرت وجه الحياة فى مصر والعالم العربى * * * *
ويشبهه — للأسف بالأهرام والقلعة — يالله *

وعلق الأستاذ وجيه أبو ذكرى فى « الأخبار » يوم ١٥/٤/١٩٨٦
على هذا الرد ساخرا بقوله : بودى أن أرى البيت الذى أصدر الزعيم فيه
قرار دخول قواتنا الى اليمن ، وقرار حرب يونيو ١٩٦٧ بدون استعداد ،
وقرار الانسحاب من سيناء الذى ترك الأرض والرجال والآلات لإسرائيل *

والذى صدرت به قرارات التعذيب والاضطهادات وزوار الليل ؟

وانبرى أحد كتّاب صحيفة « الوفد » وهو المهندس محمد منير
يسأل :

— اذا كان قصر المعمورة وملحقاته مثل الأهرام والقلعة ، فاخرجوا
منه فهو ملك للشعب كالأهرام والقلعة *

— واذا كان قد صدرت منه قرارات لصالح الأمة العربية ، فلتسهم الأمة العربية في شرائه ووقفه للتاريخ .

— ثم انبرى هذا الكاتب يخاطب ابن عبد الناصر فقال له :

واذا كنتم عريصين على التراث والتاريخ لماذا لم تقوموا بشراء شقة شارع الجلالى حيث تزوج أبوك وأنجب ولماذا لم تحتفظ بالسريتر الحديد الأسود كتراث وذكرى للوالد العظيم ؟ لماذا التشف والرياش فقط لا غير .. واذا كنت عاشقا للذكرى فأمامك حارة اليهود .. لماذا لا تعودون الى حارة خميس عيسى رقم ٣ بحارة اليهود حيث عاش عبد الناصر شبابه .. عودوا الى حارة اليهود فهى الأصل والتاريخ الأول الواجب الحفاظ عليه .. وليس قصر المعمورة الذى بنى من مال الشعب المظلوم ، لماذا لا تدعو الأسرة والأحباب لجمع خمسين مليون جنيه مثلا — وأنتم القادرون على دفع المليارات — لشراء قصر أو أهرام المعمورة من الشعب المطحون ؟

وتراجعت الأسرتان أمام هذا الضغط الشعبى وتنازلتا عن قصرى المعمورة ، ولكنهما للأسف لم تتنازلا عن قصور القاهرة وعن الممتلكات والمخصصات ، ليستمر لهما سيل الترف بينما مصر تئن من الديون التى جلبتها الثورة فأحنت ظهر البلاد .

ماذا عن محاسن الثورة ؟

واذا كانت مساوىء الثورة قد شملت كل شىء ، فاننا نسأل سؤالا مهما هو : أليس لهذه الثورة من محاسن ؟

ان المتسرعين يذكرون أن من محاسنها جلاء المستعمر الانجليزى ، والسد العالى وقانون الاصلاح الزراعى ، وانهاء الملكية الفاسدة ، ومساعدة اليمن والكنغو . . .

أما الاستعمار فقد انكشف من العالم كله واختفى ، ولم يكن محتاجا الى ثورة ليجلو ، وأما السد العالي فمشكلة شديدة التعقيد ، وبعض المهندسين الكبار عارضوه ، ولا يزالون يعارضونه ، وقد عرف النيل أنواعا من السدود على مر التاريخ ، وفي الجزء التاسع أوردنا دراسات مفصلة عنه ، واقتبسنا آراء كبار المهندسين ، وأما الملكية فكانت في عهدها الأخير فاسدة فعلا ، ولكننا قضينا على ملك ووضعنا في السلطة ملوكا كثيرين لا نزال نعاني من سلطاتهم ، وأما مساعدة اليمن والكونغو بما يحتاجانه فسخرية وجهل ، كأن تطعم محتاجا في الطريق وتترك أهلك وولدك يتضورون من الجوع ، وقد أقفلت روسيا أبوابها وكانت تعيش خلف ما يسمى « الستار الحديدي » حتى بنت نفسها ، ولكن عبد الناصر كان متعجلا يريد أن يحكم العالم بسرعة ، فخر في الطريق وخرت معه مصر . وأما قانون الإصلاح الزراعي فقد فتكت الملكية ، ولم يكن قط لهدف الإصلاح ، وإنما كان لضرب بعض الناس الذين اعتقدت الثورة أنهم لا يؤيدونها .

وعلى كل حال فإننا نقرر أنه لا توجد محاسن لدولة حُرمت الإنسان من حقوقه ، ونكلت به ، فالإنسان قمة ما خلق الله ، واضطهاده هو اضطهاد لكل القيم ، وقد نكل عبد الناصر بالجميع بما في ذلك من كانوا أقرب الناس اليه كمحمد نجيب وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين ، فما بالك بالآخرين .

محاسن الثورة في رأى رجالها :

في ٢٩ / ٥ / ١٩٨٦ طالعنا صحيفة الأخبار بمقال للأستاذ موسى صبرى ، وهو ضليح في ولائه للثورة ، وفي هذا المقال يوجز الكاتب محاسن الثورة ومساوئها ، ونحن ننقل كلماته عن ذلك فيما يلي :

عبد الناصر غير وجه التاريخ ، من ملكية فاسدة يحميها الاستعمار البريطاني ، الى جمهورية تحكم باسم الشعب . قضى على الاقطاع .

(م ٢٨ — موسوعة التاريخ ج ٥)

ملك المعدمين • انتصف لحقوق العمال • أعاد قناة السويس الى المصريين •
ألهب بثورة مصر حركات التحرير وثورات الاستقلال في العالم الثالث •
هذه الأمجاد تقابلها أخطاء وخطايا أهدرت الحريات في ظل نظام حكمه •
هذا هو عبد الناصر في رأى أحد كتّابه فلتنناقش هذا الرأى مناقشة سريعة :
غير وجه التاريخ : كلام عام يقول به من لا يجد حقائق يرونها ،
ويمكن أن يفهم أنه جعل وجه التاريخ قائما •

— الملكية : كانت فعلا فاسدة ولكن الملوك والأباطرة الذين جاءوا
بعد فاروق كانوا طغاة فاقوا فاروق في كل شيء ، وما كان فاروق بجوارهم
شيئا •

والأ يتقى موسى صبرى ربه عندما يقول : إن عبد الناصر حول
السلطة الى جمهورية تحكم باسم الشعب ؟؟ وكيف سمى الديكتاتورية
الفاصلة حكما باسم الشعب ؟ حسابه على الله •

— تنفى على الإقطاع : لم يكن عندنا إقطاع ولكن ملكيات كبيرة ،
والفرق عظيم بين الإقطاع والملوكيات الكبيرة وبالقضاء على الملكيات الكبيرة
أصبحنا نشترى رغيف الخبز من أعدائنا ، واختفت أرضنا الزراعية التي
ورثناها من عهد الفراعنة •

— ملك المعدمين : المعدمون في زيادة فقرا وعددا •

— الأعمال : صرخة تدوى بمصر الآن لتحسين الانتاج والجد في
العمل •

— إعادة قناة السويس : في الحق أنه بهزائمه أضاع قناة السويس
فقفلت من سنة ١٩٦٧ الى سنة ١٩٧٥ •

— حركات التحرير في العالم الثالث : تقابلها حركات الاستعباد في
مصر ، وكيف يهتم بالعالم الثالث ويهمل بلاده ؟

— أما جملة موسى صبرى الأخيرة « أخطاء وخطايا أهدرت الحريات
في ظل نظام حكمه » هذه الجملة صادقة ، وهي تمنح كل محاسن إن كانت
هناك محاسن •

عهد محمد حسنى مبارك

(من ١٣ أكتوبر ١٩٨١)

خصصنا جزءا من موسوعة التاريخ للحديث عن عصر عبد الناصر هو الجزء التاسع ، وخصصنا الجزء العاشر للحديث عن عصر أنور الساداتى ، فقد كان كل منهما من صناع ثورة ٢٣ يوليو ، وبانتهاء عصر أنور الساداتى نحسب بأن مصر عادت رويدا رويدا الى الحياة الطبيعية ، وأن ظلام هذه الثورة قد زال ، وان كانت آثار هذا الظلام لا تزال باقية كما ذكرنا من قبل ، وكما سنذكر فيما بعد .

ومن أجل هذا لا نخصص جزءا من الموسوعة للحديث عن حسنى مبارك أو من يخلفه ، بل نعود لنرصد تاريخ مصر ، بعد أن زال هؤلاء الذين كانوا لا يمثلون مصر تمثيلا حقيقيا ، وبخاصة عبد الناصر الذى كان بحق عدوا ظاهر العداوة لمصر وتراث مصر .

وقد كان أنور الساداتى قد تخلص نهائيا من بقايا أعضاء مجلس قيادة الثورة ، عقب حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وكان حسين الشافعى عند هذه الحرب لا يزال نائبا لرئيس الجمهورية ، وكان سيادته قانعا باللقب وامتيازاته الأدبية والمادية فى حدود مكتبه الفاخر وسيارته الأنيقة ، ولم يكن له أى نفوذ فى الداخل أو الخارج .

وبعد حرب أكتوبر أنهى أنور الساداتى مهمة حسين الشافعى وعين محمد حسنى مبارك نائبا لرئيس الجمهورية ، وقال إن هذا الرجل يمثل جيل أكتوبر .

ولم يكن لنائب الرئيس نفوذ يذكر طيلة عهد الساداتى اللهم الا رسائل وافكارا يحملها من والى الساداتى .

وكان حسنى مبارك يجلس بجوار الساداتى على المنصة ، وشاهد حسنى مبارك عن قرب مصرع السادات وهو وسط جيشه وفى كامل أبهته ، واعتقادى أن هذا المشهد لن ينساه حسنى مبارك لأنه هزء كل من شاهده هزءاً غنياً ، فلم يكن الفرق بين الموت والحياة الا شعره بسيطة •

وعلى كل حال فقد حفظ الله حسنى مبارك ، وبعد أسبوع جرى استفتاء اختير بمقتضاه حسنى مبارك رئيساً للجمهورية •

منجزات فى عهد حسنى مبارك :

لقد مضى على عهد حسنى مبارك حوالى خمس سنوات حتى الآن ، وأبرز أحداث هذه الفترة هى :

— اكتمل فى عهده الانسحاب الاسرائيلى من سيناء فى ابريل سنة ١٩٨٢ •

— ألغى قرار الاعتقال الذى كان الساداتى قد أصدره ضد رجالات من زعماء مصر ، وخرج الزعماء من المعتقلات اليه حيث استقبلهم وحادثهم واستمع منهم •

— عادت مصر تواصل نشاطها فى المؤتمر الاسلامى ، وكانت عضويتها به مجمدة ، ومما يذكر ان الرئيس الراحل المرحوم سيكوتورى رئيس جمهورية غينيا والرئيس الباكستانى محمد ضياء الحق كان لهما دور كبير فى استعادة مصر لمكانتها •

ومن الحق أن نقرر أن مواقف متعددة وقفها حسنى مبارك من قضايا افريقية والعرب والعالم رجحت كفته ولفتت الأنظار اليه ، وقربت بينه وبين من كانوا يقفون من مصر ومن الساداتى مواقف العداء •

— حدث فى عهد حسنى مبارك تقارب ملموس بين مصر والعرب ،

وقد كان السادات يساعد العراق في حربها ضد ايران ، وواصل حسنى مبارك ذلك بكثير من الاهتمام ، كما كانت له مواقف قوية ضد اتجاهات اسرائيل العدوانية على الفلسطينيين وعلى لبنان ، وكل هذا قارب بين مصر والعرب •

— وقف حسنى مبارك وقفة طيبة للسماح للأحزاب المعارضة بالظهور ، فسمح لحزب الوفد باستئناف نشاطه ، وأيد إلغاء القرار الذى كان يقضى بحرمان رئيسه محمد فؤاد سراج الذين من الحقوق السياسية •

— ظهر فى عهده مزيد من الحريات الصحفية للمعارضة •

— بدأت بعض الإصلاحات الداخلية تظهر للناس مما أحيى الأمل فى حياة أفضل •

آمال يتطلع الشعب لها :

ولكننا نريد أن نقول كلمة للحق والتاريخ ، لقد كانت سياسة عبد الناصر سياسة جور وانغلاق وسرقات أتاحت الفرصة لكثير من الاتباع أن يحصلوا على الثراء بوجه غير مشروع ، ولكنهم أخفوه وتظاهروا بالفقر •

وجاء أنور السادات كما قلنا من قبل فابتكر سياسة الانفتاح ، وكانت هذه فرصة للصوص الماضى أن يظهروا ثراءهم ويعملوا على تنميته بصور خارقة جعلت الغنى مركزًا فى أيد قليلة ، وأضيف هؤلاء للصوص العهد الجديد •

ماذا فعل حسنى مبارك إزاء ذلك ؟ وما هى سياسته فى هذا المجال ؟

لم يتضح موقفه بعد من هؤلاء الصوص الذين لم يسألوا قط : من أين لك هذا ؟

ودستور السادات لا يزال معمولاً به ، وهو الذى يتيح لرئيس الجمهورية أن تتجدد رياسته عدداً غير محدود أى أن يبقى مدى الحياة ، فهو نظام ملكى مقنع ، أو هو فى نظر التاريخ أسوأ من النظام الملكى لأن الأسر المالكة العريقة تحرص على مكانتها من الشعب وتعمل لخيرها ، وتقف أمام أى عضو منها ينحرف عن الغاية أما النظام الجمهورى بهذا الوضع فقد جمع أسوأ ما فى النظام السياسية .

واختفاء" للأيدى العاملة فى جميع الحرف والصناعات تماماً ، مع زحام فى الإدارات وأمام مكاتب القوى العاملة .

ودفع" للمواهب للعمل بالخارج استمراراً لهيوية الدولار مع توقف النشاط بالداخل فى مجالات متعددة .

وترك" لقرارات طائشة أصدرها عبد الناصر ولم يفكر خلفاؤه فى مراجعتها ، وقد أشرنا لها من قبل كإيجارات الأرض الزراعية وإيجارات المساكن حتى أصبح إيجار الفدان أقل من ثمن أردب من القمح مع أنه ينتج فى العام الواحد عشرة أردب من القمح وعشرة من الثرة ، وعدم إمكان أخذ الأرض من زارعها حتى إذا كان المالك فلاحاً يريد أن يزرعها بنفسه .

وأما إيجار المساكن فقضية لا نظير لها فى العالم ، ففى الزمالة وجاردين سيتى والمعادى شقق فخمة إيجارها بعد التخفيضات الناصرية ستة جنيهات أى ثمن بطيخة كثيراً ما تكون رديئة ، ويسكن بهذه الشقق أصحاب الملايين ، فكان النظام يرمى الأغنياء على حساب الفقراء ، وكان هذا سبباً مهماً من أسباب أزمة الإسكان فمستأجر هذه الشقة لا يتركها وإن ملك العمارات والفيلات ، ويدفع إيجارها الزهيد ويبقيها مقفلة للظروف أو للترف ، وقد تحدثت عن هذا الموضوع فيما سبق ، ولكنى آثرت التكرار لعل هناك من يستفيد بالتكرار ، حتى نرفع ظلماً طال السكوت عليه ، وأنا فى ذلك أتبع المنهج القرآنى ، ففى القرآن الكريم تكرر لبعض

الآيات أو بعض الأفكار ، ونقول في تفسير ذلك ان الله سبحانه وتعالى يكرر لعل من فاته الانتفاع بأية أن تقابله مرة أخرى فينتفع بها (١) .

وأشياء أخرى كثيرة ينبغي أن تمتد لها يد حسنى مبارك والا شارك في المسئولية الخطيرة التى تهز البلاد والعباد .

قرارات ضرورية مرجوة :

ومن نبض الجماهير ، ومما تذيعه الصحافة الحرة يتضح أن هناك قرارات لا تحتمل التأخير ، وينبغي إصدارها سريعا ، وفي قمتها :

١ — تعديل الدستور ، ولن أخوض هنا في عرض هذا الدستور ، وعرض ما ينبغي تعديله أو حذفه منه ، وأكتفى بالاشارة بضرورة تعديل المادة (٧٨) والمادة (١٣٩) بحيث يكون انتخاب رئيس الجمهورية ونائبه بالترشيح المطلق والانتخاب الشعبى المباشر ، وأن يكون ذلك لمدة لا تتجاوز أربع سنوات يمكن تكرارها مرة واحدة فالرئيس عندما يطول بقاءه في الحكم ينسى الشعب تماما وينسى مشاكلة أراد أو لم يرد .

والمادة (٣٢) بحظر انشاء الرتب ، نريدها واقعا لا خيالا ، فلقب الباشا لم يتوقف أبدا عن الذين وضعوا هذا النص ، ولو خاطبهم أى واحد بدون اللقب كان عليه أن يتحمل نتيجة سوء أدبه ، وتقسيم المجتمع المصرى الى عمال وفلاحين وفئات أسطورة يجب القضاء عليها (المادة ٢٦) .

والمادة (٨١) التى تمنع رئيس الدولة من الكسب عن طريق الشبهات والبيع والشراء والايجار مع الدولة يجب أن تشمل أسرته أيضا حتى الدرجة الرابعة مثلا .

٢ — الغاء مخصصات أسرته عبد الناصر والسادات والتبنيه التي
عدم تكرار هذه المهزلة •

٣ — استرداد مجوهرات أسرة محمد على وقصور هذه الأسرة
والانتفاع بها لصالح الشعب •

٤ — تصحيح كثير من القرارات الطائشة التي أصدرها الديكتاتور
وبخاصة ما يرتبط منها بالعلاقة بين المالك والمستأجر الذي تكلمنا عنه آنفا.
احتراما لحق الملكية الذي كفلته الأديان وكفله الدستور •

٥ — تعويض أدبي على الأقل للذين وقع عليهم الضيم في عهد
عبد الناصر بدون أسباب حقيقية •

٦ — الحرية الحقيقية لقيام الأحزاب وللانتخابات ، والغاء
الانتخابات بالقائمة •

٧ — مشكلة التعليم في مصر :

مشكلة التعليم في مصر مشكلة خطيرة ، ومن الخجل أن توجد هذه
المشكلة في مصر التي تحاول أن ترعى التعليم في بلاد المنطقة كلها ، فهي
كالبحر الذي يدل الناس على الطريق ، ولكنه يسير فيه مسيرة العميان •

انها مشكلة من بقايا عبد الناصر ، ويبدو أن المسؤولين ينظرون الى
قرارات عبد الناصر على أنها مقدسة لا يجوز تعديلها أو إلغاؤها ، وقد
حكمتنا الرجل بأقصى ما يعرف من جهل وجور ، وعندما اختفى ترك
قوانينه حياة تواقع بنا ما أوقعه في حياته •

تعال بنا ندرس معا مشكلة التعليم وما بها من متناقضات ومفارقات :

— يقولون ان التعليم بالمجان ، وهناك اجماع على أن هذه

المقولة أكذوبة أو أسطورة ، فقد أوشك التعليم أن يختفى من المدارس ،
وهكت الدروس الخصوصية بالبيوت محل التعليم بالمدارس ، وهذه
الدروس تكلف أضعاف ما كان يتكلفه أولياء الأمور عندما كان التعليم
بمصرفات ! !

— يدفع الكثيرون من الأسر آلاف الجنيهات لأطفالهم ليلتحقوا
بمدارس الحضنة ، أما الطالب بكلية الطب والهندسة فلا يدفع شيئاً !!

— بعض الحاصلين على الثانوية العامة لا يحصلون على درجات
تؤهلهم للالتحاق بالجامعات بمصر ، أو لا يحصلون على درجات تؤهلهم
لِلالتحاق بالكليات التي يريدونها ، وهنا يلعب المال دوره ، فيلتحق بعضهم
بجامعة القاهرة فرع الخرطوم ، أو جامعة الاسكندرية فرع
بيروت ، أو جامعة في بلغاريا أو العراق أو الباكستان ، ويتكلف هذا
الوضع آلاف الجنيهات وصورا من العناء ، والانحراف ، فاذا قلنا :
افتحوا في مصر جامعة أهلية بمصرفات ، متع ذلك ، وهو منطق غير
مفهوم ، أن تفتتح مصر جامعة بمصرفات خلف الحدود ولا تفتحها
داخل البلاد .

— والتعليم مجانا كما ذكرنا ، وهناك مئات الطلاب يذهبون
للجامعة بسيارات فخمة ، ويعيشون في بذخ ظاهر ، ولا أحد يدرك لماذا
نعطى من لا يستحق أخذ العطاء .

— وقد فتحت الجامعات بسعة ، فوفد لها كثيرون جدا ممن
لا تؤهلهم مواهبهم للحياة الجامعية ، ونقابل طلابا في الجامعة كان أجدر
بهم أن يتجهوا للصناعة أو الزراعة فذلك أجدى لهم وللوطن . ويتخرج
من الجامعات كل عام أفواج وأفواج ، ولا يجدون عملا عدة سنوات ،
حتو تمن عليهم القوى العاملة بوظيفة يأخذون عن طريقها مرتبا دون أن

يؤدوا عملا ، وينتقل هؤلاء من طابور العاطلين تماما الى طابور الموظفين
اسما ، العاطلين حقيقة •

ومرتب خريج الجامعة اربعون جنيها ، ومرتب خادمة من الفيلبين
مائتا دولار !!

— واذا كان هناك عاطلون من هذا النوع ، وكذلك من خريجي
المدارس المتوسطة ، فهناك نقص كبير جدا في الأيدي العاملة في الزراعة
أو الصناعة أو الحرف وهي معادلة عجيبة لا توجد في غير مصر ،
وقد أوشكت المزارع ألا تجد من يعمل بها ، وأصسكت الأعمال الحرة بنقص
كبير في كثير من مستويات العمل بها ، لأن كل انسان ينتظر الوظيفة ولا
يفكر في العمل ، وذلك هو جيل الثورة اللعينة ، فطالما كان عبد الناصر
يقول : ان الحرية أن نهىء لكم رغيف الخبز ، وأن نعيّن أبناءكم في
الوظائف •

— في مصر اثنتا عشرة جامعة ، وكليات تنتشر في أكثر المدن ،
بالإضافة الى جامعة الأزهر وكلياته ومعاهده ، وبالإضافة الى عدد هائل
من المدارس بمختلف درجاتها وتخصصاتها ومع هذا فالأمية
تزيد من عام الى عام ، حتى أصبحت مصر في القاع بالنسبة لارتفاع
الأمية ، وهو شيء يدعو للخجل والحسرة •

اقتراحات :

ان نظم التعليم واضحة وموجودة في أرقى دول العالم ، ويتحتم
أن نعيد النظر في أسلوب التعليم في مصر ، وفيما سمي مجانية التعليم ،
وذلك حرصا على التعليم وعلى مستقبل البلاد بوجه عام ، وخلاصة هذه
النظم هي :

— التعليم الابتدائي يكون بالمجان ويكون شاملا لكل الأطفال حتى

تقضى على أممية الجيل القادم اذا كنا عجزنا عن القضاء على أمية جيل
الشبورة •

— بعد الابتدائي تتجه غالبية الأولاد الى الأعمال والحرف في كل
المجالات وينتج الأولاد المتفوقين أن يدخلوا المرحلة التعليمية التالية التي
تكون بمصروفات الا للناهبين الفقراء •

— الفقراء النابهون يتعلمون بالمجان في كل مراحل التعليم ، وينبغي
أن تصرف لهم بالاضافة للمجانبة معونات كافية تساعدكم على مواصلة
التعليم •

— يختار لكليات الجامعات اعداد من الطلاب تتناسب مع حاجة
الدولة مع زيادة قليلة لاحتمال طلبات اعارة للخارج ، لنستطيع بذلك أن
نقضى على طابور الحاصلين على شهادات جامعية ، ويقفون تحت رحمة
القوى العاملة •

— وأخيرا فلا بد من تحسين حالة المعلم حتى لا يلجأ للدروس
الخصوصية التي خرّبت الذمم في كثير من الحالات •

— وتوجد مدارس ثانوية حرة (أهلية) وجامعة أهلية لمن أرادوا
أن يتعلموا ممن لم تسمح لهم مواهبهم بالالتحاق بالمدارس والجامعات ،
وتكون هذه بمصروفات تغطى كل التكاليف دون استثناء •

والعجيب أن الذين يدافعون عن مجانية التعليم يستندون إلى ورود
ذلك في الدستور ، كأن الدستور كائن مقدس ، وكم بالدستور من أخطاء
وانحرافات •

أحداث خطيرة في عهد

حسنى مبارك

تحدثنا آنفا بإجمال عن عهد حسنى مبارك ، ولكن هناك بعض القضايا التى رصدها التاريخ خلال هذا العهد تحتاج الى مزيد من التفاصيل ، وهذه القضايا هى :

- ١ - سفينة وطائرة •
- ٢ - طائرة مصرية وغرق لىبى •
- ٣ - أحداث الأمن المركزى •
- ٤ - الأزمة الاقتصادية •
- ٥ - الأحزاب السياسية بعد عبد الناصر •

وستتدارس هذه الأحداث فيما يلى :

١ - سفينة وطائرة :

هناك حادثان متشابهان حدثا فى نهاية سنة ١٩٨٥ ، ووجه التشابه أن كلا منهما يتصل بطائرة مدنية من طائرات « مصر للطيران » •

طائرة مصرية وقرصنة أمريكية :

والحادث الأول ارتبط بسفينة ايطالية - اسمها « اكيلى لاورو » وكانت تحمل مئات الأنفس سيطر عليها وهى فى عرض البحر الأبيض بعض « الارهابيين » ووجهوها الى سوريا ولكن سوريا رفضت قبولها ، ودفعت التساهمة مصر الى التدخل ، وحدث اتصال بين مصر وبين المختطفين ، فطلب هؤلاء زعيما اسمه « أبو العباس » فقد كانوا يعملون بارشاده ، وجاء أبو العباس واستسلم المختطفون ، ونجت السفينة ،

ثم ظهر أن امريكا عجزوا كان بها وأنه قد قتل ، واتَّهِم المختطفون بقتله ،
اذ اعتقِدَ أنه لم يكن هناك من يُقدِّم على هذا العمل غيرهم •

ورأت مصر أن تقدم هؤلاء المختطفين الى منظمة التحرير بتونس
لحاكمتهم ومعهم زعيمهم أبو العباس ، ووضعتهم في طائرة مصرية طارت
بهم تجاه تونس ، ولكن تونس التي كانت قبل ذلك بأيام تعرضت لعدوان
اسرائيلي سافر ، رفضت استقبال الطائرة بعد أن كانت قد وافقت على
ذلك من قبل •

وأخذت الطائرة طريق عودتها للقاهرة ، ولكن مجموعة من الطائرات
الحربية الأمريكية اعترضت طريق الطائرة المصرية وأمرتها بالهبوط في
قاعدة عسكرية بصقلية ، وكان الاعتراض خشنا ومثيرا مما أغضب المصريين
جميعا ، وتعرضت العلاقة بين مصر وأمريكا الى أزمة قاسية •

والعجيب أن الزعيم « أبو العباس » أفضى بعد ذلك بحديث قال
فيه انه نجح في تحقيق الهدف الذي أراده ، وهو إساءة العلاقات بين
مصر وأمريكا ، وكأنه كان يرى أنه خدعنا بهذا التصرف •

٢ — طائرة مصرية وفخ ليبي :

ومرت أيام ليست كثيرة وجاء الحادث الثانى ، وللتقديم للحديث
عن الحادث الثانى نذكر أن بعض الليبيين المعادين للنظام الليبي يعيشون
في مصر ، وهم للأسف يزاولون بعض الأنشطة ضد هذا النظام ، وقد
أوقد الى مصر بعض عملاء النظام الليبي ليفتكوا بهؤلاء المنشقين في
أثناء اجتهاع كانوا قد دبروا له في الاسكندرية •

وقد أفشى واحد من هؤلاء سر هؤلاء العملاء ، فأتاح الفرصة لرجال
المخابرات المصريين ليتتبعوا هؤلاء العملاء ويقبضوا عليهم •

وثار النظام الليبي وبدأ يدبر أمرا ضد مصر ، ويبدو أنه رصد

لذلك مبالغ ضخمة ، وفي اعتقادي أن مصر ثملت بالقبض على هؤلاء العملاء ، ونسى المسئولون أن يأخذوا الاحتياطات اللازمة التي تحميهم من ثأر الزعماء الليبيين ، فكان ذلك أساسا لفكبة الطائرة المصرية الثانية تلك الفكبة التي حدثت في الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر .

الثأر الليبي يفتك بالأبرياء :

كانت طائرة ركاب مصرية (للأسف هي نفسها الطائرة المسابقة المشنومة) قادمة من أثينا للقاهرة ، وبعد دقائق من طيرانها ظهر بها خمسة من الارهابيين أعلنوا سيطرتهم على الطائرة ، وبلغه أخرى اختطفوها ، وأرغموا قائدها على الهبوط بها في مطار « لوقا » بمالطة وارتبط الشك بليبيا ، لأن المختطفين طلبوا مقابلة السفير الليبي بمالطة ، وحضر لهم السفير ، ولكنه سرعان ما انسحب وغادر البلاد فوراً الى طرابلس .

وتتابعت عقب ذلك الأحداث الأليمة ، فالتائرة كان بها حوالي تسعين راكبا من جنسيات مختلفة ، وكان بها أربعة حراس مصريين ، ولما ظهر المختطفون أطلق الحارس نيرانه على واحد منهم فأرداه قتيلا ، وتعرض عقب ذلك لنيران المختطفين الآخرين الذين جعلوه هدفا للتعذيب ، فكانوا يطلقون نيرانهم على أماكن من جسمه غير قابلة لأزيد من تعذيبه ، وقالت وسائل الاعلام المصرية انهم أخذوا يهددون بقتل راكب كل ساعة ، بل بدعوا يقتلون فعلا ، بل اتجهوا لجعل المدة ربع ساعة .

لم تكن للمختطفين مطالب الا أن يترَ ودوا بالوقود ليواصلوا رحلتهم ، ولكن الطائرة كان قد حدث بها عطب نتيجة النيران ، ثم انه لم تكن هناك وجهة معينة لهم اذ رفضتهم كل الدول التي ذكروا انهم سيسيرون اليها .

وتأزمت الأمور ، فرأت مصر أن تهاجم الطائرة بواسطة رجال الصاعقة ، وتم ذلك فعلا ، ولكن النتيجة كانت مريعة جدا ، فما ان دخل رجال الصاعقة من باب البضاعة أسفل الطائرة ووجهوا نيرانهم للمختطفين

حتى ألقى المختطفون بقنابل حارقة (فسفورية) في مقدمة الطائرة ومؤخرتها ، وأصبح الموت جماعيا بالنار والدخان والرصاص ، فمات ستون راكبا وقُتِلَ الارهابيون الا واحدا منهم ، وربما جاز القول انه لم ينج أحد من هذا النجيم ، أما ما يقال عن نجاة ثلاثين أو أربعين من الركاب : فأغلبهم من الذين أطلق المختطفون سراحهم أول الأمر من النساء ، يضاف لهم بعض الجرحى والذين عثر عليهم بين الموت والحياة ، فضمتهم المستشفيات .

وتعليقنا على هذا الحادث من عدة وجوه :

أولا : كان على مصر — بعد أن ازدادت حدة الخلاف بينها وبين ليبيا — أن تبذل جهدا كبيرا في حراسة طائراتها ، وقد يكون من ذلك أن يوجد بهداخل هذه الطائرات احتياطات كتلك التي تستعمل في المطارات للتأكد من عدم وجود أسلحة مع الركاب ، وألا تكفى بالاحتياطات في المطارات المختلفة .

وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت مدعوا لحضور حفل افتتاح مؤتمر السيرة والسنة بقاعة الامام محمد عبده قبل هذا الحادث بحوالى أسبوعين وعند مداخل القاعة تعرضت أنا وسواى لأجهزة التعرف على الأسلحة ، وتعرفت هذه الأجهزة على مفاتيح السيارات التي كان يحملها المدعوون .

ليت المسئولين اهتموا بالطائرات على هذا النحو .

ثانيا : إن مطار أثينا بالذات ترتبط به بعض الشبهات ، فمنذ فترة ليست طويلة خطفت طائرة أمريكية بواسطة ركاب صعدوا لها من مطار أثينا ، وعلى هذا فقد كان على المسئولين المصريين أن يوجّهوا عناية أكبر لهذا المطار .

والذى نحس به أن خيانة حدثت ، فلا يمكن أن تقرب للطائرة كل هذه الأسلحة دون أن تتعرف عليها الأجهزة المستعملة بالمطارات ، ويقال

ان الملايين قد قدّمت رشوة لتيسير دخول الارهابيين وأسلحتهم ، وأنهم دخلوا بطريق غير عادى •

ثالثا : كان رئيس وزراء مالطة فى مستوى المسئولية ، فقد انتقل للمطار وبات به مع بعض الوزراء المختصين ، وكان ذلك مع شدة البرد ، وهذا يدفعنا للعجب أن نذكر أنه فى نفس هذا الوقت حيث الشده قد بلغت قممها ، كان الرئيس حسنى مبارك يزور بعض القرى بالقليلوبية ، وأعدت له استقبالات حافلة ، ارتفعت فيها الزغاريد وكثرت التهتافات ، ورقصت الخيول التى كان يركبها رجال الحزب الوطنى ، ووضعوا على صدورهم شارات الحزب •

ولم ينس التلفزيون المصرى أن يذيع هذه الاستقبالات مما جعلنا نرى فى وقت واحد طائرة مخطوفة ، رابضة فى أنين وقلق ، عليها ركاب مصريون أو ضيوف على مصر ، يعانون القتل والتعذيب والتهديد ، ورئيس وزراء مالطة يشارك فى الأسى بنفسه وجهده •

وبجانب ذلك أذاع التلفزيون المصرى أخبار زيارة الرئيس للقرى وما أُعدَّ لهذه الزيارة من هتافات وتصفيق وخيول راقصة ، وتجمعات يملأ المرح قلوب أصحابها •

وكأنما أحس المسئولون بعد فوات الأوان استتكار الناس لهذا الوضع فأوعزوا لاحدى الصحفيات أن تسأل الرئيس فى المؤتمر الصحفى الذى عقده يوم الثلاثاء ٢٧/١١/١٩٨٦ سؤالاً نوردته هو واجابته فيما يلى :

يسأل رأى العام عن قيام سيادتكم بجولة الى قرى الدقهلية فى وقت اختطاف الطائرة فما هو تعليقكم على ذلك ؟

قال الرئيس •• من غير المعقول انه من أجل طائرة مختطفة تقف البلد بأكملها ، هذه دولة لها مؤسسات تعمل وتخطط وكان كل شئ تحت

السيطرة ، وفي كل خطوة أخطوها كان يبنى وبين المسئولين اتصال لمعرفة آخر التطورات وكنت أعطى التعليمات من آن لآخر .

وليس هناك من يقول إن البلدة يجب أن تقف بأكملها ، أى ليس هناك من يرى أن تقفل المستشفيات والمدارس والمتاجر ولكن تأجيل الزيارة لهذا الحادث كان ممكنا ، وذلك لا يوقف مسيرة البلاد .

وفي اعتقادي أن الرأي العام قد يسمح بالزيارة تنفيذا لتخطيط واستعداد سابق ، ولكن في صمت يناسب حالة الحداد والجد التي كان ينبغي أن تسود البلاد .

وفي صحيفة الأخبار الصادرة يوم الاثنين ١١/٢٥ رأى القارىء صورتين متجاورتين ؛ احدهما للطائرة المنكوبة والدخان ينبعث منها ، والثانية للجماهير التي حشدت لتعزى وترقص وتهتف .

وعن هذه المفارقة المريرة كتب الأستاذ أحمد أبو الفتح في صحف ٢٨ / ١١ / ٨٥ يقول :

*** وسط الهم والقلق على حياة الركاب والحزن على من قتلوا سمعت الزغاريد ففزعت وصرخت وتصورت أن أصواتها آتية من بعض الجيران

*** وكانت الفجعة الكبرى عندما اكتشفت أن الزغاريد آتية من التلفزيون ...

*** الزغاريد يذيعها التلفزيون في الوقت الذي أعلنت فيه صحف

الصباح الحكومية أن الخاطفين للطائرة قد قتلوا سبعة من الركاب !
وهددوا الباقين •

*** هل انعدم الاحساس الى هذه الدرجة ؟

وتواصل تعليقاتنا على هذا الحادث فنقول :

رابعا : هل كان إنهاء هذه الحالة بواسطة رجال الصاعقة هو الحل
الوحيد لمواجهة الأزمة ؟

وهل طريقة الاقتحام التي حدثت كانت الطريقة الوحيدة ؟ ومن
المعروف أن الكوماندوز المصريين الذين اقتحموا الطائرة في مالطة ينتمون
الى فصيلة لمكافحة الارهاب تلقت تدريبات مكثفة في الولايات المتحدة وألمانيا
الغربية وأن قنابل الشلل والغاز المسيل للدموع والعصى الكهربائية والأسلحة
الأوتوماتيكية الخفيفة هي الأسلحة النموذجية لهذه القوة الخاصة .

الم يكن من الممكن استخدام هذه الأسلحة النموذجية حتى يحالفنا
الحظ في انتقاذ الركاب •

وهل غفل رجال الصاعقة والمسؤولون عن احتمال وجود قنابل
مفقوزة مع الارهابيين ؟

وقد أكد تقرير الطبيب الشرعى في مالطة عقب تشريح أكثر من نصفه
جثث ضحايا حادث طائرة الركاب المصرية أن جميع الضحايا تقريبا قد لقوا
مصرعهم بسبب الاختناق والحرق نتيجة النيران التي اشتعلت في الطائرة
بعد أن فجر الارهابيون ثلاث قنابل داخلها لحظة اقتحامها بواسطة قوات
الصاعقة المصرية •

وأكدت المصادر الطبية التي اشتركت في عملية تشريح جثث الضحايا
ان ثلاثة أشخاص قد ثبت أنهم قتلوا بالرصاص .

والمأمول أن عملية الاقتحام قد تخيف في المستقبل من يحاول أن
يقدم على مثل هذه الجريمة لأنه سيرى فيها حتفه .

والذي يتابع أقوال قائد الطائرة البطل يدرك أنه فتح المجال عدة
مرات لاقتحام الطائرة بطريقة أيسر ، ولكن أحدا لم يستغد بمحاولاته ،
فقد فتّح باب الطائرة للطعام وللمضيقة الشهيدة التي خرجت وعادت ،
وكان يروجو أن يدخل رجال الصاعقة في ثوب عمال طعام أو ممرضين .

خامسا : ان الذي يكتب عن هذا الموضوع لا يمكن أن ينسى بطلين
عظيمين من أبطال مصر ، هما قائد الطائرة الكابتن هانى جلال وكبيرة
المضيفات الشهيدة شادية سلامة ، فبين الدماء والدموع التي كانت تغمر
الطائرة أراد الارهابيون أن يرسلوا رسالة الى المسؤولين في المطار ، وطلبوا
من قائد الطائرة أن يختار لهم من يحمل هذه الرسالة ، ووقع الاختيار على
كبيرة المضيفات « شادية سلامة » ، ويقول رئيس شركة مصر للطيران :

بمجرد هبوط الطائرة على أرض المطار في مالطة . . طلب الارهابيون
تكليف احدى المضيفات لابلاغ رسالة للمسؤولين بالمطار . . فاختار الكابتن
هانى جلال رئيسة المضيفات للقيام بهذه المهمة . وعندما حذرها المختطفون
من عدم العودة الى الطائرة وأبلغوها أنهم سيقومون بنفس الطائرة
بركابها وكل من فيها اذا هي رفضت العودة مرة أخرى . أعطاهما قائد
الطائرة اشارة فهمت منها انه يطلب منها عدم العودة والنجاة بنفسها . .
ورغم تكرار نفس الطلب بعدم العودة للطائرة من المسؤولين بالمطار لرئيسة

المضيفات •• فانها أصرت على العودة مرة أخرى للطائرة بعد ابلاغ الرسالة •
وانتهزت هذه الفرصة لاعطاء صورة مفصلة لكل ما تجرى على الطائرة
وعدد المختطفين والقتلى وأماكن تركز الإرهابيين في مقدمة ومؤخرة ووسط
الطائرة •• وقد استشهدت شادية أثناء عملية الاقتحام واختنقت من
الدخان ••• •• ١١

واحتاج الارهابيون الى ارسال رسالة أخرى ، واختاروا هذه المرة
قائد الطائرة لحملها ، وذلك بعد أن أطمأنوا الى شخصيات طاقم الطائرة
الذين لا يعرفون الأتانية ، وانما يعملون لأداء الواجب على أعلى مستوى ،
وخرج قائد الطائرة وبلغ الرسالة وعاد يحمل روحه على كفه •

تحية اجال لهانى ، ودعاء للشهيدة شادية •



الكسابتن هانى جلال



شادية سلامة المضييفة الشهيدة

٣ - أحداث الأمن المركزى :

الأمن المركزى أو شبح الذعر والتدمير والعدوان ؟

كان الأمن المركزى حاميا للسلطة ولكنه انقلب عليها ، وأصبح نارا تكتوى به هذه السلطة .

كنا نراه حول الجامعة وفي الأثرقة والمنهضيات كان الدولة تخفيه عن الأنظار لإحساسها أنه ممقوت من المثقفين والجماهير على السواء .

وفي ليلة ظلماء هب هذا الأمن المركزى يضرب مصر ، مما يدل على أنه غير جدير بالثقة التى حملها ، وقد أعلن رئيس الجمهورية بيانا بذلك جاء فيه :

« فى ساعة مبكرة من مساء أمس الثلاثاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٦ سرى شائعات مغرضة لا أساس لها من الصحة فى أوساط المجندين بمعسكر قوات أمن الجيزة بأول طريق مصر اسكندرية الصحراوى مفادها انه تقرر منذ فترة التجنيد للأفراد الملتحقين بقوات الشرطة لمدة عام .. وقد استغلت بعض العناصر المخربة تلك الشائعات الكاذبة لتحريض زملائها الجنود فى المعسكر وأثارة مشاعرهم مما أدى الى خروج مجموعات كبيرة منهم الى الطريق العام تورطت فى ارتكاب كثير من أعمال العنف والتدمير اسفرت عن اتلاف عدد كبير من السيارات وأشعلت النار فى الفنادق والمنشآت السياحية الواقعة بالقرب من المعسكر المذكور .

« وقد أدى هذا التصاعد والشائعات التى صاحبته الى امتداد الشغب الى بعض معسكرات الأمن فى المواقع المجاورة فانطلقت مجموعات منها مسلحة بالأسلحة النارية والعصى التى كانت فى حوزتها أثناء عودتها من مواقع خدمتها وانغمست فى عمليات التخريب والاتلاف ضد المحال العامة

والمنشآت السياحية ووسائل النقل وقتلت واصابت بعض حراس الأمن
في هذه المؤسسات .

« وفي الساعات الأولى من صباح اليوم شهدت بعض معسكرات الأمن
بمحافظة القاهرة والجيزة والقليوبية وأسيوط وسوهاج والاسماعيلية
أحداثا تخريبية مماثلة نجمت عنها اضرار بالغة شملت ثلاثة فنادق
سياحية كبرى وتحطيم عدد كبير من سيارات المواطنين وسيارات الاوتوبيس
وعربات النقل ووحدة المترو .

كما امتد التخريب الى مستودع لتعبئة الأرز في أسيوط ومستودع
آخر في سوهاج ، واقتحام سجن طره ، وإطلاق سراح بعض المسجونين
فيه . »

وفي ضوء هذا الوضع أعلن محافظ الجيزة أن الخسائر بمحافظته
هي :

* تم احتراق ١٠٨ سيارات بشارع الهرم ويمكن انتظار الفنادق ،
منها ٩٦ سيارة خاصة برواد الفنادق والعاملين فيها و ١٢ سيارة ميكروباس
ونقل عام .

* احترقت أيضا أربع فنادق هي الجولي فيل وهوليداي إن سفنكس
وهوليداي إن بيرامز والفاندوم ومدخل فندق مينا هاوس . وكذلك ٢٨
مطعما وكازينو ومحلا عاما .

* تم احتراق واجهتي قسم شرطة الهرم وقسم شرطة السياحة
ومكتب بريد الهرم وكشك تصوير بميدان الجيزة ونقطة شرطة المنيرة
بامبابة .

وبالإضافة الى هذا هناك تدمير حدث في منطقة المعادي وفي بعض
جهات أخرى من القطر ، وقد قدم النائب العام حصرا للمنشآت التي

خربها المتهمون وهي ٢٥٦ منشأة منها ٩ فنادق و ٤٢ منشأة سياحية و ٦٥ منشأة قطاع عام أو حكومة و ٢٠ منشأة شرطة و ١٢٠ منشأة خاصة .

أما السيارات التي خربت واحترقت فقد بلغ عددها ٢٠٠٦ سيارات منها ٢١٩ سيارات حكومية و ٤٦٢ سيارة شرطة ، وسيارات خاصة بالمواطنين عددها ١٣٣٥ سيارة .

وذكر أن عدد القتلى ٥٤ عسكريا و ١٦ مدنيا والمصابون ١٥٨ عسكريا و ٤٨ مدنيا .

وأعلن النائب العام أن تحقيقات النيابة العامة أكدت أنه لا تأمر ولا تحريض على القيام بهذه الأحداث من الداخل أو الخارج ، وليس للمتهمين انتماء سياسى ، وأضاف أنه بالإضافة الى اشاعة المدّ سنة كانت هناك أسباب مساعدة لإحداث هذه الفتنة هي :

- * وسائل الاعاشة لهؤلاء الجنود سيئة .
- * أماكن الإيواء حالتها لا تسمح بإقامة مناسبة .
- * عدم منحهم اجازات ، وزيادة فترات تشغيلهم .
- * سوء معاملة بعض الضباط لهم الى حد التعذيب .
- * عدم وجود رعاية صحية مناسبة .
- * أماكن المسكرات غير مناسبة في مواجهة منشآت سياسية على جانب كبير من الترف .

وأعلن النائب العام أن نتائج التحقيقات تؤكد ان قوات الأمن على مستوى الجمهورية عددها ٣٠.٠٠٠ لم يتحرك منها الا نفر قليل .

وقد استنكر الشعب المصرى بجميع طبقاته وأحزابه وهيئاته هذا

الشعب ويخاضة من فئة يفترض فيها أن تكون حارسة للأمن لا مثيرة للفرع ، وكان موقف الشعب من الفتنة موقفا محدودا جعل من اليسير القضاء عليها .

واستقال فقط وزير الداخلية « أحمد رشدي » بعد هذه الأحداث ، ويقول المطلعون أن الخسائر هنا كانت أضعاك خسائر حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ الذي أقيمت وزارة الوفد بسببه .

٤ — الأزمة الاقتصادية الطاحنة وتسديد الديون :

ورث العصر الحاضر أعباء اقتصادية ثقيلة خلفتها العهد السابق ، فالحروب الكثيرة الفاسدة ، والسرقات المتتالية ، والبذخ والإسراف ، ومحاولة شراء الذمم ، والصحافة التي كان يصدرها عبد الناصر في بيروت لتسبح بحمده ، واللاجئون الذين استقدمهم عبد الناصر ١٠٠٠٠٠ .

ثم القضاء على النشاط الزراعي بصجة تصنيع البلاد ، وضعف ذلك التصنيع الذي كان يسير بصورة ارتجالية ، والوظائف التي استحدثت في الداخل والخارج ، كل ذلك وسواء مما نعرف وما لا نعرف قضى تماما على ثرائهم ، وأصبحنا دولة مهينة الجناح .

وأهل عبد الناصر المرافق تماما ، فلما انقضى عهده أو قبيل ذلك كانت التليفونات صامتة لا تتكلم ، والمجاري مندقمة لا تتوقف ، والطرق منهارة أخرجت ما في جوفها ، والاسكان لا نشاط له مما دفع الأحياء للسكنى مع الأموات في القبور ، وحاول السادات أن يرفع الأمر فلجأ للقروض ، وجاء أن التسديد فأصبحت أقساط الديون وفوائدها عبئا تنوء به الميزانية المصرية .

وبينما مصر تترج تحت هذه الأثقال إذ طرأت أحداث اقتصادية ضاعفت المشكلة ووصلت بها الى حافة الخطر ، وهذه الأحداث هي :

— هبوط أسعار البترول هبوطا شديدا وصل الى ثمانى دولارات للبرميل أى ما يقرب من تكاليف إنتاجه •

— تأثرت بذلك قناة السويس تأثرا شديدا فانخفض عائدها الى درجة كبيرة •

— بدأت دول البترول العربية تستغنى عن بعض العاملين بها من المصريين تمشيا مع قلة دخلها فقل ما كان يرسله المصريون من عملة حرة •

— نقصان السياحة نقصانا ظاهرا بسبب حركة الأمن المركزى التى حرقت الفنادق وهددت السياح •

واستحكمت الأزمة استحكما قياسييا ، وأخذت تهدد سمعة مصر •
وأبناء مصر عثروا على مر التاريخ بحب بلادهم والتفانى فى الدفاع عن سمعتها ، ولذلك قامت دعوة شعبية بالمساهمة فى تسديد الديون المصرية ، وانقضى الجميع يتحدثون عنها ويستجيبون لها ، فكتب الأستاذ جلال الدين الخفامى عدة مقالات فى هذا الشأن ، وقاد حركة ضخمة لتحقيق هذا الأمل ، وكان لهذينه أصداء هائلة عند الكثيرين من الكتاب والباحثين ، واستجاب الشعب بكل طبقاته تقريبا لهذه الدعوة •

ولكن الأوضاع الرسمية قاومت بتصرفاتها وأعمالها هذا المشروع العظيم ، فبينما يندفع الشعب ليعين الدولة فى حمل أعبائها ، اتجهت وزارات مختلفة الى نفقات لا توصف فقط بأنها اسراف ، بل يمكن أن توصف بأنها خرق وبعد عن العقل والمنطق ، وعدم ادراك لحالة البلاد التى كانت تستدعى الاجتهاد للتوفير فى كل مجال •

فما رأيك فى احتفال بعيد فضى للتليفزيون تتفق فيه مئات الآلاف على مظاهر كاذبة •

وماذا قدم التليفزيون أكثر مما يلزم أن يقوم به •

وما بالك في مباريات كرة تنقل بواسطة الأقمار الصناعية مما يجعلها تتكلف الآلاف والملايين لتسجيل مشاهدتها بدلا من انتظار عرضها عن طريق شريط سيصل للقاهرة بعد يوم أو يومين .

وما بالك بدعوة وزراء الإعلام الأفارقة لاجتماع غير عادي بالقاهرة مع ما يتكلفه هذا الاجتماع والضيافة والحراسة من نفقات باهظة .

وقبل أن يعود هؤلاء الى بلادهم يدعى وزراء الداخلية الأفارقة لاجتماع في القاهرة

ثم يدعى رجال الصحافة الأفارقة ، وعددهم مئات ينتسبون لعشرين دولة .

ثم تقوم وزارة الثقافة بعمل مهرجانات حافلة لرجال الفن وتسخر في توزيع الأوسمة عليهم ، وتدعو رجال الصحافة لحضور هذه المهرجانات بما يستلزمه ذلك من تذاكر للسفر وفنادق للإقامة وغيرها ، وقد أحسن مندوب صحيفة الوفد بما في ذلك من إسراف في هذا الوقت فأعاد للوزارة تذاكر السفر واعتذر ، وكتبت صحيفة الوفد في ٢٨/١١/١٩٨٥ نقول :

✽ مصطفى شردي رئيس تحرير « الوفد » وسعيد عبد الخالق نائب رئيس التحرير تلقيا « شنطتين » فاخرتين من وزير الثقافة واكتشفت « العصفورة » أن كل شنطة بها دعوة من الوزير لحضور مهرجان احتفالات معابد فيلة بالأقصر ، وتذكرة ذهاب وإياب للأقصر ، وميدالية فاخرة وشريط كاسيت ، وأصبحت « العصفورة » بذهول ، بعد حصة بسيطة ، اكتشفت خلالها ، أن كل شنطة بمحتوياتها بالإضافة الى الإقامة في فندق ٥ نجوم طوال أيام المهرجان تبلغ حوالى ١٠٠٠ جنيه ، واقتترحت « العصفورة » على رئيس التحرير ونائبه ، التبرع بالشنطتين الى صندوق سداد ديون مصر ، ووافقا بسرعة ، وأكدوا رفضهما لهذه

الدعوة • والتبذير السافر ، في وقت اضطرت فيه الدولة الى جمع تبرعات من المواطنين لسداد ديون مصر ، كما أن بلادنا تعيش « محزنة » بسبب حادث اختطاف الطائرة المصرية •

وأعضاء البرلمان يرسلون وفدا منهم الى الولايات المتحدة ليسمعوا لخطاب الرئيس حسنى مبارك هناك ، وربما ليصفقوا لبعض مقاطعه •
ولصوص هنا وهناك من كبار المسئولين يحكم عليهم بالسجن وهكذا وجد المصريون أنفسهم أمام ما يمكن أن يسمى « القرينة المقطوعة » فالتشعب يحاول أن يساعد ولكن المسئولين منزعجون بالبعثرة عن اليمين واليسار •

• فتوقف مشروع تسديد الديون

وأخذت الحكومة تبذل الجهد لتحصل على بعض الأموال من المواطنين ، فصاعفت الرسوم على رخص السيارات ورسوم استخراج جوازات السفر ، وألزمت الذين يسافرون للخارج أن يدفعوا رسوما لذلك ولكن هذه الأشياء التى أرهقت الكثيرين لم تأت بأية نتيجة ذات بال •
وبينما كان المواطنون يبعثون عما أصابهم من ضرائب جديدة ، نشرت صحف المعارضة قائمة خطيرة عن أولاد السادة الذين حصلوا على شقق من الدولة ، وفى هذه القائمة ظهرت أسماء كثيرين جدا من علية القوم ، ولم يزل أحد من أبناء الشعب العاديين أبى حظ فى هذه الشقق •

ولا تزال البلاد ترزح تحت وطأة هذه الأزمة الاقتصادية ، والله المسئول أن يحصى بلادنا من نتائجها •

ومن العجيب أنه في وسط صيحات الألم من هذه الأزمة ، وفي وسط محاولات التخفيف منها بالوسائل التي ذكرناها لم يحاول أولو الأمر أن يوقفوا سيل المال الذي تدفعه خزانة الدولة لأصحاب الملايين من أولاد عبد الناصر أو أولاد السادات ، مما جعل الكثيرين يفسقون بفكرة المساهمة في تسديد الديون ، وإن كنا نصيح بأن تخفيف الآم وطننا واجب بصرف النظر عن عقوق بعض أبنائه أو سوء تصرفهم ، كما يتقدم الابن البار لمساعدة أبيه أو مساعدة أمه ولو كان هذا أو ذاك قد أضاع ثراه بالإسراف وسوء التصرف .

واتخذت صحف المعارضة قضية الديون وتسديدها مادة لتقترح لها الحلول المناسبة ، وفي مقال طويل نشره الدكتور ابراهيم عبده بصحيفة الوفد ، يقترح سيادته وسائل حاسمة لتسليم الديون ، ومن الوسائل التي اقترحها ما يلي ، وقد ذكرنا أكثرها فيما سبق :

- ١ — إيقاف دفع المخصصات للرئيسين السابقين
- ٢ — التقليل من عدد الوزراء ووكلاء الوزارات ومن في مرتبتهم فقد بلغ هؤلاء عدة آلاف .
- ٣ — عدم استعمال القمر الصناعي في عرض المباريات والخطب .
- ٤ — استعادة مجوهرات أسرة محمد علي وهي كافية لتسديد الديون مهما بلغ قدرها .
- ٥ — وزير الدولة للشئون الخارجية يمضى عمره مسافرا ومعه وفد . لماذا ؟
- ٦ — إعادة النظر في ميزانية مجلس الشعب ، وفي مدى الحاجة لمجلس الشورى .
- ٧ — الحد من الدعوات والاستضافة إلا للضرورة القصوى .

٥ - الأحزاب في عهدي السادات ومبارك :

ذكرنا في الجزء التاسع من هذه الموسوعة أن الانتفاضة العسكرية التي سمت نفسها ثورة ، ألغت الأحزاب بمصر وصادت أموالها في يناير سنة ١٩٥٣ ، وأعلنت محلها كائناً مقيناً كريهاً للناس هو ما سمي « هيئة التحرير » وقد صدر أول بيان عنها في ١٥ يناير سنة ١٩٥٣ .

وسرعان ما أحس عبد الناصر بابتعاد الناس عن هذه الهيئة واحساسهم إنها جسم مصطنع فحولها الى ما أسماه « الاتحاد القومي » سنة ١٩٥٦ ووضع دستوراً على هواه .

ووقف المصريون من هذه المؤسسة موقفهم من الهيئة التي سبقته فحولها عبد الناصر الى ما أسماه « الاتحاد الاشتراكي » عقب قوانين المصادرات التي أسماها « التحول الاشتراكي » وكان ذلك سنة ١٩٦١ .

وعجزت هذه المحاولات أن توجد علاقة بين الحاكم الطاغية ومعه المتنفعون ومراكز القوى الخطرة وبين الشعب ، وظلت هذه المؤسسات نيولاً للحاكم وبعيدة عن آمال الشعب وتأييده .

السادات والمنابر فالأحزاب :

وجاء عصر السادات وأدرك بذكائه بُعد الجماهير عن السلطة ، وأراد أن يحقق نوعاً من القرب الديمقراطي ، ولكن محاولته كان يشوبها الحذر والقلق ، وكانت محاولة عرجاء ، وقد ابتدأ محاولته بأن ابتكر موضوع « المنابر » في ظل الاتحاد الاشتراكي ، وكان هذا ابتكاراً مسقيماً لأن الناس كان يكرهون أو يحتقرون الاتحاد الاشتراكي وكل ما يتصل به ، وكان السادات قد عبر عن اتجاه الشعب حين قال إن

البند الخاص بالديمقراطية الذي ورد في البيان الأول للثوار لم يعرف طريقه للنور •

وقد زاد ابتكار المنابر بعدا عن الناس عندما أوعز السادات لرجل تربطه به رابطة مصاهرة هو « المرحوم محمود أبو رية » بأن يؤلف منبرا ، وكان السادات يرمى الى أن يجعل في الاتحاد الاشتراكي منبرا يميل لليمين ومنبرا يميل لليسار ومنبرا وسطا •

السادات يعيّن رؤساء الأحزاب :

ووقف الشعب موقف الساخر من هذه المحاولة ما دامت امتدادا للاتحاد الاشتراكي ، ولذلك كانت هذه المحاولة قصيرة العمر ، وأذن السادات بقيام الأحزاب بدل المنابر ، ومن الغريب حقا أن يكون قيام الأحزاب بإذن ، فالمعروف أن الأحزاب اتجاهات شعبية يقيمها الشعب ، وتتخذ من نبضه قوتها ، وخلق أنور السادات حزبا أسماه حزب مصر ، ووضع على قمته ممدوح سالم رئيس الوزراء وفي غيبة من التمثل والخطط السلطيمية أصبح ممدوح سالم زعيما ، وكان هذا عملا أخرق ، فالزعماء تخلقهم الشعوب ، ولا يمكن أن يخلقها الرؤساء ، ويجوز حزب مصر أوعز أنور السادات الى أحد وزرائه وهو « ابوهيم شكري » أن يؤلف حزبا أسماه حزب العمل ، وألف مصطفى كامل مراد حزب الاتحاد ، وألف خالد محيي الدين حزب التجمع • وبدأت الأحزاب تدب في حياة مصر ، ولكنها كانت أحزابا من الورق •

وكان قانون الأحزاب يخاف من كلمة « الوغد » ، حتى لا يثبّت من جديد ذلك العملاق الذي حاربت الثورة دون هوادة حوالى ربع قرن ، ولذلك كان في قانون الأحزاب بند " ألا تعود الأسماء القديمة للأحزاب للظهور ، وكان هذا عنقا فمهم الناس دوافعه •

وجرت حركة عجيبة فإن أنور السادات تطلع للزعامة الشعبية فخلق

حزبا جديدا أسماه الحزب الوطنى الديمقراطى وأضاف كلمة الديمقراطى حتى يبيح لنفسه قيام حزب يحمل اسم « الحزب الوطنى » وهذا الاتجاه جعل حزب الوفد يعود مرة أخرى للوجود باسم « حزب الوفد الجديد » .

وفيما يتعلق بالحزب الوطنى الديمقراطى نذكر أنه هو حزب مصر وكل ما حدث فيه هو تغيير الرئيس ، وكان أشرف لأنور السادات أن يتزعم حزب مصر ويجعل « ممدوح سالم » نائبا للحزب مثالا ، ولكن السادات أعلن قيام حزب جديد ، وهول السادة الذين كانوا أعضاء هيئة التحرير فالاتحاد القومى فالاتحاد الاشتراكى فأعضاء حزب مصر ، هولوا الى الحزب الجديد الذى يرأسه رئيس الجمهورية وتركوا « ممدوح سالم » وهذه فى حزبه قصير العمر ، وتوقفت صحيفته « مصر » التى كانت حديثة عمر معه .

أما حزب الوفد فهم تطل أيامه فالحياة العسكرية لا تسمح بالديمقراطية الحقيقية ، وكان عمره مائة يوم ثم جمده نشاطه بسبب التحديات التى واجهها ، وبسبب صدور قرار بحرمان رئيسه « محمد فؤاد سراج الدين » من حقوقه السياسية .

وانتهى عهد السادات على هذا الوضع .

مباركة والأحزاب :

وجاء عهد مبارك فسمح فعلا بظهور الأحزاب ، ونال محمد فؤاد سراج الدين حكما يبطلان حرمانه من الحقوق السياسية ، كما صدر حكم آخر بأن حزب الوفد الجديد لم يحل نفسه بعد المائة يوم وإنما جمده نشاطه ، ومن حقه أن يظهر وقتما يرى الوقت مناسباً .

وظهر حزب الوفد ، وكان معبرا دقيقا وحقيقيا عن اتجاهات شعبية ،

فلم يأخذ مقرا له من دور الحكومة ، وأصدر صحيفة « الوفد » دون أن يطلب معونة من الحكومة ، وسرعان ما أصبح له مقار في كل عواصم المحافظات وفي غيرها من المدن ، ونجحت صحيفة « الوفد » نجاحا هائلا .

وعند كتابة هذه السطور في منتصف عام ١٩٨٦ كان بمصر الأحزاب الآتية :

١ — حزب الوفد الجديد ، ومما يذكر أن كلمة « الجديد » توضع صغيرة الحجم تنفيذا للقانون الذي يمنع أسماء الأحزاب القديمة ويتضح من تصغيرها رغبة الحزب في استئناف اسمه ونشاطه ، وحذف أكثر من ثلاثين عاما عانت مصر خلالها شبر عناء من الثورة ورجالها .

٢ — الحزب الوطنى الديمقراطى .

٣ — حزب العمل الاشتراكى .

٤ — حزب التجمع .

٥ — حزب الاتحاد .

٦ — حزب الأمة .

ويتطلع المخلصون للوطن الى انتخابات حرة تماما ليعرف كل حزب ثقله ومكانته في الدولة ، ونرجو ألا يطول انتظارنا لهذا اليوم .

تلك هى أهم أحداث عصر محمد حسنى مبارك حتى منتصف شهر يونيو سنة ١٩٨٦ سجلتها من يوم الى يوم بكل الإنصاف والدقة .

الرئيس مبارك بين اهتماماته وآمالنا فيه :

نحن نلاحظ بوضوح اهتمامات الرئيس مبارك بافتتاح كوبرى أو

بمشاهدة معارض « الأسر المنتجة » ... ولا بأس في ذلك ، ولكن المطلوب من رئيس الدولة أهم وأعظم ، وقد تحدثنا من قبل عن تعديل الدستور لتأخذ بلادنا جيو الاستقرار الحقيقي بأن يكون اختيار رئيس الجمهورية ونائبه بالانتخاب المطلق ، وأن تختفى إلى الأبد بدعة الانتخاب بالقائمة ، فقد أفرزت هذه الانتخابات هياكل لا صلة لنا بالناخبين ... وطلبنا رئيس الجمهورية أن يوقف النزيف الذى تدفعه مصر المدينة المرمقة للعائلات المترفة الثرية ، عائلات عبد الناصر والسادات •

ونطالب رئيس الجمهورية باسترداد أموال مصر التى هربها أصحاب النفوذ للخارج ، وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل قد قدر هذه الأموال بعدد من المليارات ، وفى عدد الأخبار الصادر فى ١٩٨٦/٤/٣٠ نقلت الأستاذة مها عبد الفتاح سطورا من تقرير « مؤسسة مورجان الأمريكية » جاء فيها أن مصر من بين الدول الفقيرة التى خرجت منها مليارات الدولارات بطريق التهريب أو التحويل للخارج • نحن نطالب بمحاولة جادة لاستعادة هذه الأموال ومعرفة الذين خانوا البلاد ، ونقلوا ثرائها ، وتركوها تعاني الأزمات •

وموضوع آخر مهم يتحتم أن ينال عناية الرئيس وحكومته ، ذلك هو موضوع النقص الغذائى الذى نعانيه ، والذى يجعل لقمة العيش فى أيدي أعدائنا •

وننبه الى السبق الذى أحرزته دول كثيرة كانت مثلنا تعاني ، وتستورد ، ولكنها بسرعة حققت الكفاية ، بل اتجهت لتصدير فائض كبير ، أما نحن فى عهد الثورة القاحلة فاننا نتراجع من يوم الى يوم •

تقول التقارير إن الصين استطاعت — بعد أن حققت حاجة الالف مليون نسمة من سكانها — أن تصدر القمح والقطن وغيرهما من الحاصلات •

وكانت بنجالادش تثير اشفاق العالم لنقص مواردها في الغذاء ،
ولكنها قفزت الى تحقيق الكفاية ومحاولة التصدير .

أما الهند التى كانت بلاد مجاعات فقد أصبحت تصدر كثيرا
حاصلاتها بعد أن حققت الكفاية وما فوق الكفاية .

ومثل هذا يقال عن أندونيسيا ونايوان والفيلبين ، وتحاول تركيا
إصلاح ثمانية ملايين من الهكتارات للزراعة .

ثم نطالب الرئيس مبارك بإزالة آثار الماضي ، تلك الآثار الكئيبة
التي سمح لها الرئيس مبارك بالحياة حتى الآن ، وهى لا تستحق الحياة
لحظة واحدة ، ومنها محاكم أمن الدولة ، ومحكمة القيم ، وقانون حماية
الجبهة الداخلية ، وقانون حماية الوحدة الوطنية ... فليست هذه
القوانين إلا قيودا للشعب لصالح الحاكم .

ماذا فعلت هذه القفزة التى تسمى نفسها ثورة ؟ إنها بتخليها
يمكن أن تسمى ثورة على الخير والإصلاح ، ولكنها انتهت على كل حال ،
والعصر الحاضر لا يمكن أن يستمر دون حراك ، إن العبء ثقيل ، ولكن
النهوض به لا يحتمل أى تأخير ، حتى تلحق بركب العالم الذى يسرع
الخطا ، ومن عجب أن تسبقنا دول كانت أكثر منا تخلفا ، ولكنها النتيجة
الطبيعية عندما تحكم البلاد بالأنانيين الجهلاء .

منشآت حديثة بمصر

شهدت مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين نهضة عمرانية عظيمة في مجال المنشآت العمرانية ، التي أصبح بعضها في عداد الآثار المهمة ، وبعضها من علامات النهضة الحديثة •

ومن منشآت القرن التاسع عشر نذكر :

— مسجد محمد علي بالقاهرة ، وهو تحفة نادرة ، أكمل به محمد علي بهجة القلعة وجلالها •

— مسجد وضريح أبي الحجاج الأقصري الذي توفي سنة ٦٤٢ هـ وسنتكلم عنه بعد قليل ، وقصد بنى ضريحه بالأقصر في القرن التاسع عشر •

ومنشآت القرن العشرين :

أما القرن العشرين فقد شهد مجموعة هائلة من المنشآت ، أقيم بعضها قبل الثورة ، وأقيم الحشد ضيقا في عهد أنور السادات وحسنى مبارك وبخاصة في عهد الأخير ، ولا ينسب لعبد الناصر منها إلا المسجد العالى مع ما حوله من الكلام مدحا أو هجوما أوردناه في الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، وكانت منشآت السادات وحسنى مبارك لدفع عجلة الحياة التي أوشكت على التوقف أو توقفت فعلا لإهمال المرافق تماما خلال عهد عبد الناصر •

والمنشآت التي تمت في القرن العشرين قبل الثورة هي :

— مسجد السيدة زينب التي توفيت بمصر في القرن الأول وبنته وزارة الأوقاف في القرن العشرين (وبهذه المناسبة نذكر أن المشهد

الحسيني أقدم من المشهد الزينبي بكثير ، فعندما نقل رأس الإمام من عسقلان للقاهرة سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) بنى له مشهد ، ثم ظل يتطور مع الزمن اتساعا وفخامة حتى العهد الحاضر (١٩٨٦ م) .

— مسجد السيدة سكينة بالخييفة •

— مسجد السيدة عائشة بالقلعة •

— مسجد زين العابدين (ابن علي زين العابدين بن الامام الحسين) •

— مسجد وضريح عبد الرحيم الغناوى الذى توفى سنة ٥٩٢ وبنى ضريحه فى القرن العشرين •

ومنشآت عهد السادات هي :

— نفق أحمد حمدي الذى يمر تحت قناة السويس ، فيصل سيناء بالوطن الأم ، وهو عمل هائل من الناحية الوطنية والناحية العمرانية ، وستذكره الأجيال دائما بكل الثناء والتقدير •

— الكبارى العلوية وبخاصة كوبرى ٦ أكتوبر و ١٥ مايو ، وقد أنقذا حركة المرور بين الجيزة والقاهرة وكانت امتداداتهما كبيرة الفائدة •

— هذا بالإضافة الى اعادة الحياة للتليفونات وعلاج محدود لمشكلة الصرف الصحى والاسكان •

وأهم منشآت عهد حسنى مبارك هي :

— امتدادات واسعة جدا فى شرايين الحياة ، أى فى الطرق والكبارى تلك التى اقتطعت الصحارى ، وامتدت للريف والحضر ، ومنها

كذلك الامتدادات الهائلة لكوبرى ٦ أكتوبر و ١٥ مايو وكوبرى باغوص
وكوبرى مهمشة ، ومترو الأنفاق *

— الجراجات متعددة الطوابق •

— الأنفاق التى عملت بدل الكبارى العلوية أحيانا مثل النفق فى
طريق المطار ونفق شيراتون القاهرة •

— اعادة بناء جامع عمرو بن العاص وتوسيعه ومحاولة جعله مركزا
لجامعة إسلامية •

— وبمناسبة الحديث عن إعادة بناء جامع عمرو بن العاص نذكر أن
هذا العصر شاهد نهضة شاملة لترميم الآثار وتجميلها ، سواء فى ذلك
الآثار الفرعونية أو المسيحية أو الإسلامية ، ويمكن للرأى أن يرى نتائج
هذه التحسينات فى مواقع كثيرة ، شكرا للدكتور أحمد قديرى الذى قاد
ركب هذه الإصلاحات ، وشكرا للحكومة التى أمدته بالمال اللازم
لهذا العمل الكبير •

مصر والحضارة الإسلامية

في ختام الحديث عن مصر يجدر بنا أن نذكر كلمة عن دور مصر في خدمة الحضارة الإسلامية ، فالتاريخ يسجل أن مصر أتيحت لها ظروف لم تتح لسواها لتقدم أجلاء الخدمات لهذه الحضارة ، فقد بدأت المدرسة المصرية للدعوة للإسلام ودراسة علوم القرآن واللغة العربية مبكرة ، في نفس الوقت الذي بدأت فيه مدارس العراق بالبصرة والكوفة وبغداد (١) ، ومن الطبيعي أن العصر العباسي الأول منح مدارس العراق وبخاصة بغداد مزيداً من العناية والاهتمام ، فقد زها خلال هذا العصر بيت الحكمة الذي أنشأه الرشيد ومنحه المأمون تأييداً يقصر دونه الوصف ، بيد أن الحركات السياسية والمذهبية بعد العصر العباسي الأول صبغت بغداد بالدم والقلق ، فقد جاء عصر الأتراك المماليك ، فعصر بنى بويه ، واختفى خلال هذه العصور نفوذ الخلفاء وهان شأن الكثيرين منهم ، ولا تزدهر الثقافة في هذا الجو الصاخب المضطرب .

تراجع بغداد وتقدم مصر :

وبينما كانت بغداد تنحني أمام هذه العواصف كانت مصر تنال نوعاً من الاستقلال وصل في أكثر الأحيان إلى اكتماله ونفسه ، فالطولونيون والإخشيديون استقلوا بمصر الاستقلال الذي وصفناه ، واهتم هؤلاء وأولئك بالعلوم والمعارف وجذبوا الفقهاء والباحثين ليعيشوا في كنفهم ، وأسبغوا عليهم ألواناً من الخيرات ومنحوهم أسمى مكانة ، ثم جاء من بعدهم الفاطميون ، ولم يكن هؤلاء تابعين لبغداد بطبيعة الحال ، بل كانوا منافسين لها ، ومحاولين أن يسيطروا عليها أحياناً ، ومن ثم وجهوا عنايتهم إلى ألوان من خدمة العلوم والمعارف ، فأنشئوا الأزهر ، وأنشأ الحاكم بأمر الله بالقاهرة دار الحكمة ينافس بها أو

(١) راجع حديثاً عن « حضارة مصر في عهد الولاة » في هذا الجزء

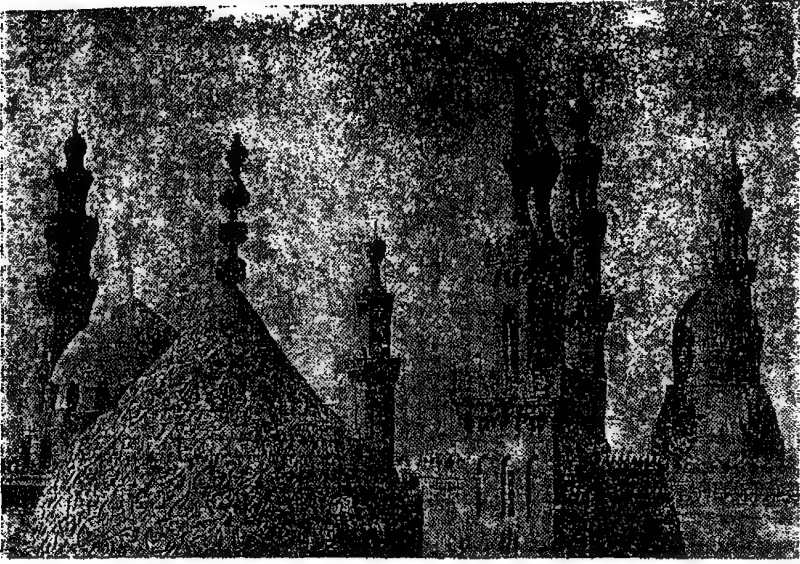
يرث بها بيت الحكمة الذى كان ببغداد ، ولا يهمننا أن الأزهر كان يعلم التشيع في وقت ما ، فالذى لا شك فيه أن الأزهر سرعان ما خدم ألوان الثقافات المختلفة في شتى الميادين ، وظل على مرّ القرون ، المنارة التى يشع ضوءها على الإسلام والمسلمين في كل الأنحاء ، وأصبحت القاهرة تسمى « مدينة الألف ليلة » كما قامت في حى الأزهر صناعات دقيقة نالت شهرة عالمية واسعة .

مصر عندما زحف الصليبيون على سوريا قلب العالم الاسلامى :

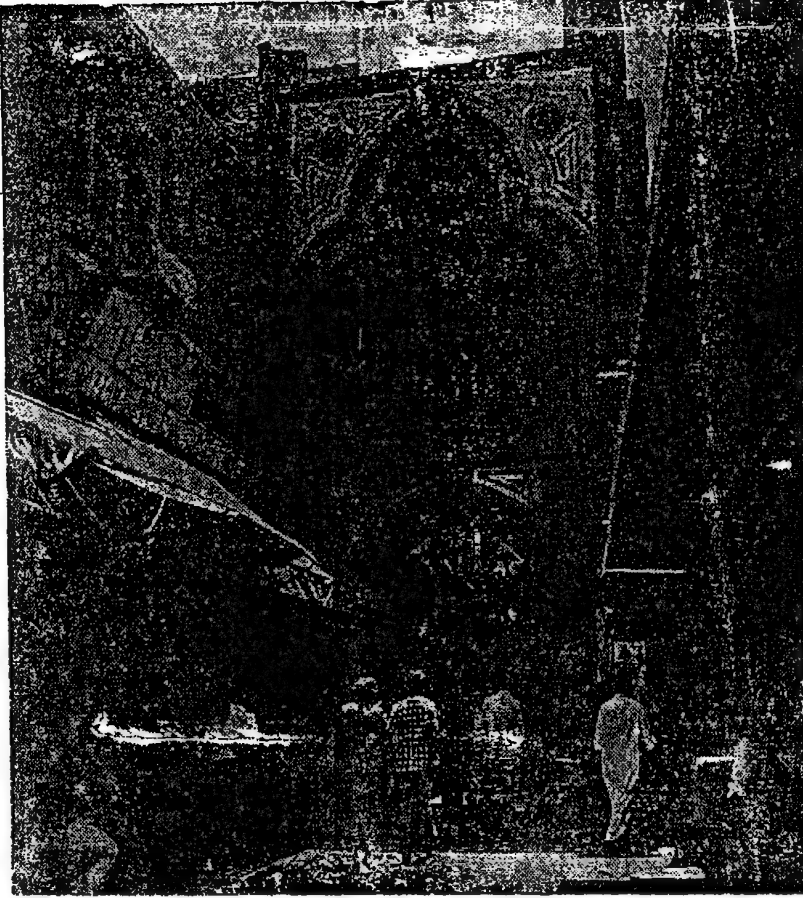
ثم حلت مجموعة من الكوارث بأكثر أقطار العالم الاسلامى ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ، شملت قلبه وجناحه الايمن وجناحه الأيسر ، فسوريا قلب العالم الاسلامى زحف عليها الصليبيون ، واحتلوا الساحل وتعمقوا بالداخل وأقاموا لهم عدة إمارات ، وبقيت المناطق التى لم يصبها الاحتلال مهددة تدافع عن نفسها ، وظلت الحروب حوالى القرنين من الزمان ، وبين قصف المدافع وصليل السيوف ضعف سمر الحضارة وتوانى نشاطها ، وقد حاول الصليبيون أن يمدوا نفوذهم الى مصر ولكن محاولتهم كانت قليلة النجاح قصيرة العمر ، فبقيت مصر يتمثل بها جانب النشاط العلمى الذى كان يعم سوريا ومصر قبل هذه الحرب ، وكانت مصر درعا عسكريا قصت على النفوذ الصليبي وأزالته من المنطقة وخلال هذه الأزمنة فرّ عدد من علماء الشام لمصر .

مصر عندما زحف التتار على الجناح الشرقى :

وحلت الكارثة الكبرى بالجناح الشرقى ، وهى كارثة زحف التتار على العراق وسوريا ، وقد صاحب التتار معهم الدمار أينما حلوا ، وكانوا أعداء للثقافة والحضارة ، ففقضوا على كل شئ ، وأزالوا معالم المجد التى كانت بعاصمة الرشيد كما أزالوا كثيرا من معالم دمشق ، أما العلماء الذين فروا من هذا السيل الجارف ، ومعهم بعض الكتب فلم يجدوا لهم وجهة إلا مصر ، ولم يستطع إلا جيش مصر أن يوقف زحف التتار



القاهرة مدينة الألف مئنة



من معالم القاهرة
خان الخليلي والصناعات اليدوية الدقيقة

ويقتلهم أظفارهم في موقعة « عين جالوت » ، والمواقع التي جاءت بعدها وحرس جيش مصر بذلك حضارة الإسلام وثقافته وبقية رجاله الباحثين فيه .

مصر عندما زحف الفرنجة على مسلمى الأندلس والجناح الغربى :

وقريبا من الوقت الذى زحف فيه التتار من الشرق ، كان الفرنجة يقضون على البقية الباقية للإسلام بالأندلس ويزحفون على الشمال الأفريقى وهو الجناح الغربى ، فيقضون على استقلاله ويحاربون الثقافة الإسلامية به ، وهب جيش مصر بقيادة صلاح الدين الأيوبي فضرب الفرنجة وأنزل بهم أشد الهزائم ، ومرة أخرى فر خلال هذا الصراع عدد كبير من العلماء والباحثين من الأندلس ومن الشمال الأفريقى ، ولم يجد هؤلاء موطناً لهم إلا مصر حيث وجدوا الأمن والملاذ الكريم .

الشرق الإسلامى والغرب والشمال هدف للصدوان :

وينبغى قبل أن نورد أسماء نماذج ممن نعرف من العلماء الذين وفدوا الى مصر من العراق والشام والمغرب والأندلس أن نضع تواريخ الهجوم على هذه المناطق حتى ندرك الارتباط بين هذا الهجوم وبين فرار العلماء الى مصر :

— بدأت الحروب الصليبية بالشام سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) وظلت حتى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) .

— وبدأ التتار هجومهم على شرق العالم الإسلامى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ووصلوا الى بغداد ودمروها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ثم زحفوا على الشام بعد ذلك .

— وبدأ انتصار الفرنجة فى الأندلس فالمغرب عقب هزيمة الموحدين فى موقعة « حصن العقاب » سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) .

ومن هذا ينتضح أن سنوات القرن السادس والسابع الهجريين (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) كانت سنوات محن بهذه المناطق ،

وفي نفس الوقت كانت مصر أحسن حالا في عهد الأيوبيين والمماليك ،
فتصدى جيشها للجيوش الزاحفة وحقق عليها نصرا عظيما •

وفي ضوء هذا نستطيع أن نذكر بعض أسماء العلماء الذين وفدوا
الى مصر خلال هذه الفترة الكالحة •

وفود العلماء من كل الجهات الى مصر

من الشرق : (العراق وإيران)

يوسف بن عبد الرحمن وشهرته أبو الحجاج :

ولد ببغداد ثم رحل الى مصر وجلس يعلم بها ، واتخذ من الأقصر
مكانا لحلقته وتوفي سنة ٦٤٢ هـ في عهد نجم الدين أيوب ، وله ضريح عظيم
بالأقصر وله كذلك مسجد فاخر •

ومما يذكر أن المنطقة التي يوجد بها الضريح والمسجد تعتبر منطقة
أديان ، اذ كان يتواجد بها معبد آمون الفرعوني ثم كنيسة مسيحية ،
وأخيرا مسجد أبي الحجاج الأقصرى •

سليم أبو مسلم :

هو من أحفاد الامام الحسين رضى الله عنه ، وقد وُلِدَ بمدينة
همدان بإيران سنة ٥٣١ هـ ، ونبغ في العلوم والمعارف وحضر الى مصر
في أواخر القرن السادس الهجرى ، وعُثِرَ بين المصريين بعلمه وزهده ،
فقلده صلاح الدين الأيوبي خطبة الجمعة بمسجد عمرو ، وطال عمره حتى
تجاوز المائة ومات سنة ٦٤٥ هـ ، وله ضريح عظيم بمدينة بحريط بمحافظة
الشرقية •

عبد العزيز عبد القادر البفردادى :

وُلِدَ في بغداد وتعلم بها مختلف العلوم الاسلامية ، وكانت بغداد
آنذاك في فترة الدمار عقب الأعصار المغولى ، ولذلك لم يطب له المقام فيها ،

فهاجر الى القاهرة ، وأكمل بها ثقافته ثم جلس يعلم بها ، وظل فيها حتى مات سنة ٧٤٨ هـ .

محب الدين البغدادى :

وهو فقيه ومحدث ولغوى وهو كذلك أحد علماء المستنصرية ، وكان يعلم بها عندما عادت لها الحياة بعد الاغصار المغولى ، ولكن الحياة في بغداد لم تطب له فهاجر الى مصر ، ورجبت به مصر ، فأصبح قاضيا للجنابلة ، ومفتيا للديار المصرية ، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٤٤ هـ .

على بن جمعة البغدادى :

ولد في بغداد ، ونال ثقافته الأولى بها ، ولكن بغداد كانت لا تزال تعيش في أعقاب الزحف المغولى ، ومن جاءوا بعدهم من الجلائريين والتركمان ، الذين لم يكن لهم معرفة بالاسلام ولا تقدير لعلمائه ، ومن هنا هاجر الى القاهرة وجلس يعلم بها حتى توفي سنة ٨٦٨ هـ .

من الغرب (المغرب والأندلس) :

الطرطوشى (ابن أبى رندقة) :

ولد في طرطوشة بالأندلس ، ودرس العلوم الاسلامية ، وتخصص في التاريخ ، وقد أحس باضطرابات الأندلس خلال عهد الطوائف ، فجاأ الى الحجاز وبغداد والبصرة ودمشق ، وانتهى به المطاف الى مصر ، وظل بها حتى مات سنة ٥٢٠ هـ ومن مؤلفاته « سراج الملوك » و « الحوادث والبدع » .

الفاقى (اليسع بن عيسى) هـ

عاش في بلنسية بالأندلس ، ودرس على شاعرها ابن خفاجة ، ثم سافر الى الاسكندرية والقاهرة ، وخدم في بلاط صلاح الدين الأيوبي ، وقد شمله السلطان بعباية ورعاية ، وأهداه منزلا على ضفاف النيل ،

وطلب منه كتابة كتاب عن المغرب ، فكتب كتابه « المغرب في محاسن أهل
المغرب » وتوفى بالقاهرة سنة ٥٧٥ هـ .

القاسم الشاطبي :

ولد بمدينة شاطبة بالأندلس سنة ٥٣٨ هـ وحفظ بها القرآن ثم ذهب
الى معاهد بلنسية فتلقى القرآن والعلوم الاسلامية حتى أصبح اماما في
مختلف الدراسات الاسلامية .

حضر الى مصر وعمره أربع وثلاثون سنة وذهب الى الاسكندرية ثم
رحل للقاهرة فاستقبله القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى وعينه
مدرسا بمدرسته « الفاضلية » وتوفى سنة ٥٩٠ هـ ودفن بمقبرة القاضى
الفاضل .

وله ابن هو محمد الشاطبي الذى دفن بالاسكندرية والذى ينسب
له حى الشاطبي لوجود ضريحه فى هذا الحى .
عبد الرحيم القناوى :

من اقليم سبته بالمغرب الأقصى ، ولد سنة ٥٢١ هـ ، وحضر الى مصر
فى عهد الخليفة العاضد ، وعينه صلاح الدين شيخا لعلماء قنبا ، وذلك
اعترافا بفضلته ، وقد التفت حوله العلماء والطلاب واستفادوا منه استفادة
واسعة ، وتوفى سنة ٥٩٢ هـ وله ضريح شهير بقنبا .

العبدري (عبد الله بن الحسين) :

اندلسى المولد ، كان فقيها من أعظم فقهاء الأندلس ، وقد وفد الى
مصر واستقر بها ، وأنشأ مدرسة ورباطا بالقرب من داره ، وتوفى
سنة ٦٢٢ هـ .

أبو الخطاب بن دحية :

هو المحدث الحافظ الأندلسى ، وفد الى مصر فى العهد الأيوبي ،
فعيّنه الملك العادل مؤدبا لابنه الكامل ، وعندما تولى الكامل الملك بنى

لأستاذه مدرسة للحديث في المكان المسمى « بين القصيرين » وتوفي سنة ٦٣٣ هـ .

أبو الحسن الشاذلي :

ينتهي نسبه إلى الامام الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولد بالمغرب بمدينة غمارة قرب طنجة حيث تلقى العلوم الإسلامية ، وطاف بالبلاد الإسلامية حتى وصل إلى مدينة « الشاذلة » فبقي فيها فترة حتى نسب لها بعد ذلك .

وهو يقول انه رأى الرسول صلوات الله عليه في المنام يطلب منه أن ينتقل إلى الديار المصرية ، فأسرع بالاستجابة وفي مصر التقى بعلماء العصر : العز بن عبد السلام ، وابن الحاجب ، وابن الصلاح ، وابن عصفور ، وتوفي أبو الحسن الشاذلي وهو في طريقه للحج عند ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، وكانت عيذاب وقتها ميناء مصر إلى جدة قبل الانتقال للسويس .

السيد أحمد البدوي :

ولد بمدينة فاس سنة ٨٩٦ هـ ، وينتهي نسبه إلى الامام الحسين وأمه مغربية ، ورحلت الأسرة إلى مكة واستقرت في طريقها لمكة بالقاهرة مدة خمس سنوات ، بعدها تمت رحلتها إلى مكة ، وعاشت بضع سنوات هناك ، وفي سنة ٩٣٤ هـ رحل أحمد إلى العراق وفي الموصل التقى أحمد مع « فاطمة بنت بري » فكانت لها مع أحمد قصة شهيرة لأنها كانت فاتنة الجمال فأرادت اغراء أحمد ، ولكنه لم يستجب لها بل نصحها فالتحقت به ودرست اتجاهاته الصوفية .

وقد جاء أحمد البدوي إلى مصر سنة ٩٣٧ ويقال أنه ذهب إلى طنطا نتيجة لرؤيا رآها .

ومن تلاميذه عبد العال وأخوه عبد المجيد .

وقد توفي بطنطا سنة ٦٧٥ هـ وله بها ضريح عظيم يعتبر من أشهر
أضرحة مصر .

محمد بن الشباط :

هو من مدينة « توزر » بافريقية (تونس) انتقل الى مصر واستوطن
القاهرة ، وحفيده محمد بن على عاد الى توزر ، وكان يعرف بالمصرى لطول
حياة الأسرة بمصر ، وتوفي في مطلع القرن السابع الهجرى .

ابن حيسان :

مؤرخ شهير ولد بغرناطة وتعلم بالأندلس ، ثم رحل الى مصر وعاش
بها يتعلم ويعلّم حتى مات سنة ٧٤٦ هـ .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

ولد في تونس ، وهو فيلسوف ومؤرخ ، وواضح علم الاجتماع ،
ودرس المنطق والفلسفة والفقه والتاريخ ، وشغل عدة مناصب سياسية ،
وكان سفير ابن الأحمر ملك قشالة .

رحل الى مصر ودرس في الأزهر وتولى قضاء المالكية ، ولما حاصر
تيمور لك دمشق قصده ابن خلدون راجيا انقاذ المدينة ، ولكن الطاغية
المغولى لم يقبل رجاءه ، ألف المقدمة التى تشمل فلسفة علم الاجتماع
وفلسفة التاريخ توفي بمصر سنة ٨٠٨ هـ .

من الشام :

عمر بن الفارض :

ينتهى نسبه الى قبيلة حليلة السعدية مرضعة الرسول عليه السلام ،
وكان أبوه يعيش في « حماه » ، ثم جاء أبوه الى مصر وشغل مناصب عالية ،

أما عمر فقد ولد بمصر سنة ٥٧٦ هـ تقريبا ، وعاش في كنف الدولة الأيوبية ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ وكان كثير السياحة في جبل المقطم .

الشيخ عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب :

وفد أبوه الى مصر جنديا في جيش نور الدين زنكي الذي كان يقوده أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي واستقر في مصر ، وقد ولد عثمان في مدينة اسنا ، ثم انتقل الأب وابنه الى القاهرة في أواخر عهد الخليفة العاضد ، وتوفي ابن الحاجب بالإسكندرية سنة ٦٤٦ هـ وله فيها ضريح شهير .

العز بن عبد السلام :

كان يعيش في دمشق في عهد الملك الصالح اسماعيل الأيوبي ، ولكن هذا الملك باع أسلحة للفرنجة فثار عليه العز ، وأوقف الدعاء له في خطبة الجمعة ، ثم حضر لمصر خفية ، وقد استقبله الأمراء والعلماء أحسن استقبال ، وعاش في مصر معززا مكرما حتى مات سنة ٦٦٠ هـ .

الشيخ محمد العتريس وأسة العتريس :

ينتهي نسب الأسرة الى الامام زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه ، وهو أحد عشرة اخوة من الذكور تلقوا جميعا تعليما دينيا وكانت لهم اتجاهات صوفية ، ومن أشهر اخوته الشيخ ابراهيم الدسوقي الذي ولد سنة ٦٢٣ هـ أما الشيخ العتريس فولد بعد ذلك ببضع سنوات ، وللشيخ العتريس ضريح بالركن الشمالي الغربي بجوامع السيدة زينب أما أخوه الشيخ ابراهيم الدسوقي فله ضريح بدسوق ، وقد وفد أفراد أسرة العتريس الى القاهرة في القرن السابع الهجري .

عمر البلقيني :

كان قاضيا بدمشق ثم جاء الى مصر ، وولى القضاء بها ، كما ولى التدريس في بعض مساجدها ومدارسها ، وتوفي بمصر سنة ٨٠٦ هـ .

وأصبحت مصر بذلك أزهى مركز فكري في العالم الاسلامي كله ،
حتى شاع ذلك المثل الذي يقول : من لم ير مصر لم ير عزَّ الاسلام .

جهود مصر في العصر الحديث :

وحدث شيء آخر في العصر الحديث ، كانت له نفس النتائج تعريبا ،
ذلك أن العالم العربي خضع للأتراك العثمانيين منذ مطلع القرن السادس
عشر ، وكان العصر العثماني حافلا بالحروب والقلق ، ولم يكن به استقرار
قط ، وكانت العناية بالثقافة في عواصم العالم العربي ضئيلة أو معدومة ،
مما جعل الظلام يجثم على البلاد العربية ، ومما أخفت صوت العلم فيها ،
وفي مطلع القرن التاسع عشر استقلت مصر ، وبدأ يتكون بها جيل من
أبنائها يحيون الماضي ويوقظون الفكر ، وسبقت مصر بذلك شقيقتيها
العربيات بحوالي قرن ونصف قرن ، وخطت مصر خلال هذه المدة الى
الأمام خطوات طيبة لخدمة العلوم والمعارف ، وأنشأت بجانب الأزهر
أنواعا من المدارس : منها العسكرية والفنية ، ومنها دار العلوم ، ومدرسة
القضاء الشرعي ، كما أنشأت دار الكتب ، وفي مطلع القرن العشرين أنشئت
جامعة القاهرة ، وتلاها سواها من الجامعات ، ولما أطل عهد الاستقلال
والتحرر على العالم العربي ، وأرادت الدول العربية أن تحيي الدراسات
الاسلامية والعربية وغيرها ، تطلعت لمصر ، فأمدتها هذه بالأساتذة والعلماء
والكتب ، وتعاونت معها ولا تزال ، تعاوننا كاملا للوصول الى الهدف
المشترك ، ودفعت مصر بعلمائها كذلك الى أكثر أقطار الأرض لتعليم اللغة
العربية والحضارة الاسلامية ، ولسنا في حاجة الى أن نورد أرقاما عن
عدد الأقطار التي استجابت لها مصر ، ولا عن عدد العلماء الذين أوفدتهم ،
لسنا في حاجة الى ذلك ، فهو من الشبوع والذبوع بحيث لا يحتاج الى
دليل .

وهكذا قامت مصر بدور كبير في خدمة الاسلام وحضارته وكل
الدراسات حوله .

تاریخ سوریا من الفتح العثماني

تقسيم :

نستطيع أن نقسم تاريخ سوريا من العهد العثماني (١) حتى الآن
ثلاثة أقسام متميزة هي :

١ — فترة العثمانيين (١٥١٦ — ١٩١٨) والبطلة خلالها كانت
للعثمانيين غالبا ، ولكن كان هناك نوع من الاستقلال لبعض المناطق في
جبال لبنان •

٢ — فترة الاحتلال الأوربي (١٩١٨ — ١٩٤٦) وتمتاز بتقسيم
سوريا إلى عدة دول عادت بعضها إلى الاندماج وبقي بعضها حتى الآن
محافظا على استقلاله كما سنرى •

٣ — فترة الاستقلال من ١٩٤٦ حتى الآن وتمتاز بالوحدة الكاملة
بين سوريا ومصر في « الجمهورية العربية المتحدة » (١٩٥٨ — ١٩٦١)
التي عُدَّت آنذاك نواة للوحدة العربية الكبرى •

وسنصف معالم كل فترة من هذه الفترات فيما يلي :

(١) من الواضح أننا درسنا تاريخ سوريا قبل العهد العثماني مرتبطا
بتاريخ مصر في نفس الفترة : إذ كان البلدان يتبعان حكما واحدا ، ويكونان
دولة واحدة •

١ — الفترة العثمانية

١٥١٦ — ١٩١٨

تتفق سوريا مع مصر في بعض ملامح الحياة في ظل العثمانيين ، وهناك ملامح أخرى اختلفت هنا عنها هناك ، ومن أبرز الملامح التي اتفقت فيها سوريا مع مصر مكانة الباشا ، ونظام الالتزام ، والنتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية للحكم العثماني ، ولن نعيد هنا الكلام عن هذه الملامح المشتركة اكتفاء بما أوردناه عنها من قبل ، وسنعنى بالملامح التي انفردت بها سوريا .

السؤلة :

كانت الولاية في سوريا منصبا دسما للباشا ، إذ لم يكن هناك مماليك كأولئك الذين كانوا في مصر ينازعون الباشا سلطانه أو ينفصون عليه عيشه ، ثم أن قرب سوريا من تركيا ضمن للولاية الباشوات نوعا من الهيبة ، ومن هنا كان تكالب الولاة على سوريا ملحوظا ، وكان الطامعون في الولاية مستعدين أن يدفعوا رشوة باهظة لينالوها ، فكثر بذلك عدد الولاة في كل من ولايات سوريا ، إذ بلغ عددهم في ولاية دمشق ١٣٣ واليا خلال السنين المائة والأربع والثمانين التي ابتدأت بالفتح العثماني (١) ، ولم يكن بين هؤلاء من أتم السنتين في وظيفته ، وكانت الحالة في حلب مماثلة للحالة في دمشق ، بل قد توالى تسعة من الباشوات على المدينة خلال ثلاث سنوات ، وكثيرا ما كان الوالى يعزل قبل أن يحصل من الولاية على ما يعوضه الرشوة الباهظة التي دفعها ، ولذلك نجد بعض الولاة يتمسكون بالولاية على الرغم من صدور فرمان بتولية وال جديد ، بل هبت أحيانا حروب طاحنة بين الباشوات الذين كانوا يتنازعون السلطة ،

وكانت عاصمة العثمانيين تترك هؤلاء الولاة في صراعهم لأنها تعرف أنها ستتقاضى الجمل ممن تكون له الغلبة منهم •

تقسيم سوريا ومشكلة لبنان :

يعتبر تقسيم سوريا أضخم ألوان العناء التي نزلت بها بلد وبالعالم العربي نتيجة للحكم العثماني ، صحيح أن الاستعمار في المرحلة التالية هو الذي أبرز هذه المشكلة ، ولكن أساس التقسيم وضع في العهد العثماني ، وسنتكلم هنا عن هذا الموضوع كله سواء ما تم في العهد العثماني أو في العهد الذي جاء بعده •

والعجيب أن يقع التقسيم في سوريا مع أنها قلب العالم العربي ، وفكرة الوحدة عريقة وأصلية في سكان هذه البلاد ، ليس فقط بين أجزاء سوريا بعضها والبعض الآخر ، ولكن بينها وبين الأقطار العربية جميعا كما سجل التاريخ ذلك عدة مرات ، وكما سنرى ذلك فيما بعد •

التقسيم بعيد الجذور :

وقصة تقسيم سوريا بعيدة الجذور ، ربما ترجع الى أيام فتحها ، فقد اشترك في فتحها عدد من جيوش المسلمين ومجموعة من القواد ، وقد اشتركت هذه الجيوش في بعض المعارك الكبرى كمعركة أجنادين ودمشق واليرموك ، ثم انقسمت جيوش المسلمين قسمين : اتجه قسم الى الشمال بقيادة أبي عبيدة ومعه خالد بن الوليد ، واتجه قسم آخر الى الجنوب بقيادة عمرو بن العاص وشرجيل ، وبقى يزيد بن أبي سفيان في منطقة دمشق ليحمي ما حققه المسلمون من انتصارات بها ، وبعد أن تم للمسلمين فتح الشام ولقى عمر بن الخطاب يزيد ولاية دمشق كما جعل معاوية واليا على الأردن ، وعين عمرو بن العاص واليا على فلسطين (١) •

(١) التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية للمؤلف ج ١ ص ٢٥٥ وبـ

بعدها ج ٢ ص ٢٩ •

ولعله منذ ذلك الحين بدأت سوريا تنتشعب إلى ولايات ، وربما أمكن القول ان هذا الصدع وضع من جديد خلال العهد العباسي ، فلعله كان ضروريا لدى العباسيين أن تظل سوريا مملكة ، إذ كانت بغداد تخشى وتبأت أهل الشام ، وأصبح ذلك شبه تقليد فيما بعد ، حتى انخلعت حلب عن الشام نهائيا وكونت مع الموصل دولة بنى حمدان في فترة من الفترات سبق ذكرها ، وحتى أن صلاح الدين الأيوبي عندما قسم مملكته جعل دمشق لأحد أولاده وجعل حلب لابن آخر ، وفي عهد المماليك كانت سوريا مقسمة إلى « نيابات » ستة ، هي نيابة حلب وحماه ودمشق وطرابلس وصفد والكرك وكان حاكم كل منها مستقلا عن الآخرين ، له قصره الذي هو صورة مصغرة من بلاط القاهرة ، وقد أبقى الأتراك الدوائر النيابية في سوريا على نحو ما كانت عليه في عهد المماليك ، ولكنهم بدّلوا بعض الشيء في نظام التسمية ، فدُعيت النيابة ولاية ، وأصبح الحاكم يُسمّى والي بدل النائب ، ثم اندمجت هذه الولايات بعضها في بعض عقب الحركة الاستقلالية التي قام بها « جان بردى غزالي » وسنتكلم عنها فيما بعد ، فأصبحت ولايات سوريا ثلاثة ، هي ولاية دمشق وحلب وطرابلس ، ثم جعلت صيدا ولاية سنة ١٦٦٠ م لتكون مركزا للرقابة على لبنان (١) . ولم تكن هذه الولايات بطبيعة الحال تقسيما لسوريا ، ولكنها على كل حال وضعت الأساس لتجزئة الوطن الواحد .

لبنان وجماعات الجبل :

والحديث عن لبنان الذي ختمنا به الفقرة السابقة يقودنا إلى موضوع يحتاج إلى مزيد من التفصيل عن حركات الانتشعب في الشام ، ففي لبنان كانت تعيش أسر اقطاعية منذ عهد الفاطميين ومنذ عهد الصليبيين ، فقد لجأ إلى جبال لبنان الحصينة جماعة الدروز الذين يرتبط تاريخهم بالحاكم

(١) فيليب حتى : سوريا ولبنان وفلسطين ج ٣ ص ٢٧٤ و ٣٠٧ —

بأمر الله الفاطمي ، كما كان يعيش هناك جماعات الموارنة معتصمين بالجبال ، وقد ادعت فرنسا مسؤوليتها عن الموارنة الكاثوليك ، متخذة الاتجاه بأن فشل الحروب الصليبية ألقى عليها مسؤوليات دينية تجاه المسيحيين الذين يعيشون في هذه المنطقة منحدرين — في ادعائهم — من التجمع الصليبي الذي كان قد أفل نجمه .

هياكل غريبة للظوائف في لبنان :

وجاء الحكم العثماني فأدرك قوة الاقطاع في لبنان ، ولكنه أدرك في الوقت نفسه أن لبنان ليس مصدر خطر عليه ، فأتجه الى مواطن الخطر في مصر وفارس ، وأكتفى من أمراء لبنان ومن تسيوخ قبائله بالتبعية الاسمية ، ولعل هذا ساعد فرنسا أن تمتد يدها الى الموارنة ما داموا ينعمون بمركز ممتاز في الامبراطورية العثمانية ، لتقوى بذلك امتيازاتهم ولتدعم سلطتها بهم، فتقدمت الى السلطان العثماني وهو في أوج مجده تطلب — باسم الصداقة والدبلوماسية — مركزا لرعاياها داخل الدولة يمتاز عن رعايا باقي الدول ، وقد نجحت سنة ١٥٣٥ في عقد معاهدة بهذا الامتياز وأضيف في هذه المعاهدة حقها في رعاية المسيحيين الكاثوليك في الدولة ، وكان المقصود من كلمة « رعاية » بعض الخدمات الدينية والثقافية ، ولم يكن هذا يضر الدولة العثمانية لأنها كانت قوية تستطيع في أي وقت من الأوقات التدخل وابقاف هذه الرعاية ، ولكن تطور الزمن ، وما أصاب الدولة من وهن ، نقل مدلول « الرعاية » الى « الحماية » وجعلها حقا ثابتا لا يمكن التخلي عنه .

وما ان حصلت فرنسا على هذا الحق حتى حصلت روسيا على حق
مثيل له بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس .

ولم يكن المقصود من هذا التدخل دينيا ، ولكن ذلك كان — كالعهد
بأوروبا دائما — استغلالا للدين للحصول على نفوذ سياسي ، وأوضح دليل

على ذلك أن إنجلترا عندما رأت تتدخل فرنسا وروسيا باسم الكاثوليكية والأرثوذكسية. تدخلت هي أيضا مدافعة عن الدروز ، وهكذا أصبحت جبال لبنان باعتبارها تتعج بالمسيحيين والدروز منعزلة من الناحية العملية عن باقي سوريا ، وأتاح ذلك لأصابع الأجانب فرصة التدخل في شئونها منذ ذلك العهد المبكر .

وفي ظل هذه الامتيازات تقدمت أوربا نحو الموارنة الكاثوليك تساعدهم وتقوى صلتها بهم ، ويقرر الدكتور غليب حتى أن المؤثرات الثقافية الغربية ممثلة في بعثات الجزويت وغيرها من الارسلالات المسيحية عرفت طريقها إلى جبال لبنان منذ سنة ١٦٢٥ م ، وأن دائرة اللاهوت المارونية في روما أتاح لنبضارى لبنان فرصة نادرة لتحصيل العلم ، فقد اختارت المتفوقين منهم ليدرّبوا في تلك الدائرة ، وبعد أن يَتَهِوْا دروسهم ، يعود بعضهم إلى الوطن ليشغلوا مناصب اكليريكية رفيعة ، ويبقى آخرون في روما يكبون على الدرس والتأليف (١) .

وكانت دول أوربا تنتهز الفرص من حين إلى آخر لتحصل على مزيد من الامتيازات للمسيحيين ، وبالتالي مزيد من حقوق التدخل باسم حمايتهم ، وكانت هذه الفرص تنمو كلما تدهورت الدولة أو تدهقرت في معركة ، وطالما حدث ذلك التدهور في عمر هذه الدولة آنذاك ، وهكذا جددت هذه الامتيازات سنة ١٧٤٠ كما جددت بفرمان الكليخانة سنة ١٨٩٩ عقب حرب القرم ، والذي كون من المسيحيين ما يمكن أن يُعَد دولة في داخل الدولة .

صراع الموارنة والدروز :

ونتيجة لذلك برز الموارنة في لبنان مؤيدين بفرنسا ، ووقف الدروز مواجهين لهم مؤيدين بإنجلترا ، ومؤيدين كذلك بالزعماء الذين كانوا يعملون

(١) المرجع السابق ص ٣٢٠ و ٣٢٢ .

للاستقلال منذ القرن السادس عشر ، (وسفتكلم عنهم عند كلامنا عن أشهر الولاة والأمراء) ، وبهواطف الباب العالي ، الذى — من أجل أن يستعيد نفوذه كاملا فى المنطقة — حرك الدروز للثورة ضد الموارنة سنة ١٨٤٢ م وكان ذلك عقب جلاء ابراهيم باشا عن سوريا ، وقد ترك هذا الجلاء القوتين المتصارعتين وجها لوجه ، وبخاصة أن ابراهيم كان يقرب الموارنة نكاية فى الدروز الذين كانوا يتجهون الى الآستانة ، وتقربا من فرنسا التى كانت ترعى الموارنة •

وهناك موضوع آخر يتصل بهذا الجلاء أيضا وهو أن ابراهيم باشا كان قد افتزع أراضى كثيرة من الدروز وسلمها للموارنة ، فلما تم هذا الجلاء حاول الدروز أن يستردوا أراضيهم من الموارنة •

تقسيم لبنان :

وهكذا تجمعت للثورة أسبابها فاندلعت ، وتحرك الباب العالي متظاهرا بالرغبة فى إخماد الثورة ، ولكن الدوافع الحقيقية كانت محاولته استعادة السلطان المباشر على الجبل كله ، بيد أن دول أوروبا تدخلت باسم الامتيازات السابقة ، فنقرر تقسيم لبنان الى منطقتين إداريتين يحكم احدهما عين من أعيان الدروز ، ويحكم الأخرى عين من أعيان الموارنة ، ويحمل كل منهما لقب « قائم مقام » • أما الأماكن المختلطة فانها تحكم بنائين يعين أحدهما القائم مقام بمنطقة الموارنة ويعين الثانى القائم مقام بمنطقة الدروز ، وهبت الثورة من جديد سنة ١٨٤٥ فعمد الباب العالي الى نزع السلاح من كل من الطرفين وعين مجلسا يتمتع بصلاحيات ادارية وقضائية الى جانب كل قائم مقام ، وكان كل مجلس يتألف من ممثلين لاختلاف طوائف الشعب (١) •

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٤ ص ٢٦ •

ولكن هذا النظام الثنائي أثبت فشله لأن القوى المحركة من الخارج كانت دائبة العمل لإثارة الفتنة ، وقد عمدت الدول الى استصدار « التنظيمات الخيرية » سنة ١٨٥٦ كما سبق القول ، فزاد هذا التصرف الأمر حدة ، وأثار ناثرة الدروز والمسلمين جميعا ، فبدأت في سنة ١٨٥٩ مذبحة هائلة كان سببها أن اعتدى بعض الموارنة على الدروز فقتلوا عددا منهم ، فهب الدروز للشار ، وسقط في هذه المجزرة آلاف الموارنة ، وخرّبت الدور ، وارتكبت الفظائع ، وامتد لهب المجزرة الى غير لبنان فدخل بعض البلاد السورية ومنها دمشق ، وتدخل بعض من عرف بالحكمة من المسلمين من أمثال عبد القادر الجزائري فتوقفت هذه المجزرة بعد أن سقط فيها ضحايا كثيرون ، وبعد أن تركت في جسم الدولة آلاما استعصت على الشفاء ، وقد تدخلت الدولة بعنف لإيقاف هذه المجزرة ، فحكمت بالإعدام على عدد من الدروز ونفت آلافا آخرين خارج الجبل ، ولكن بريطانيا تدخلت لإنقاذ أنصارها ، فأوقفت حكم الإعدام ، وعملت على السماح للمنفين بالعودة الى بلادهم .

وفي خلال هذه المجزرة اتفقت دول أوروبا أن ترسل فرنسا حملة الى لبنان لحماية أرواح المسيحيين على ألا تزيد مدة احتلالها للبلاد عن ستة أشهر ، وقد أرسلت الحملة فعلا ، ولكن الاجراءات الصارمة التي اتخذتها الدولة العلية لم تدع للحملة فرصة لإطالة مدتها بلعبان بالاضافة الى أن الدول الأوروبية أصرت على أن تخرج فرنسا حتى لا تستغل باحتلال هذه المنطقة فجلت الجيوش الفرنسية عن لبنان في يونيو سنة ١٨٦١ (١) .

(١) انظر « في التاريخ الاسلامي الحديث » للدكتور ضياء الدين الرئيس ص ١١٩ وما بعده .

الحكم الذاتي في لبنان :

ولم يكن من الممكن أن تترك احوال الجبل على هذا الوضع ،
فالحكم المباشر له يثير ثائر الموارنة ، والبعد عنه يثير ناثرة الدروز ،
ولذلك جرت مداولات طويلة بين الدول وبين الدولة الطيبة تقرر على
إثرها أن يُمنح لبنان استقلالاً ذاتياً تحت ضمان الدول على أن يكون
حاكم لبنان مسيحياً ومن غير لبنان ، وعلى أن تعترف هذه الحكومة
بالسيادة القانونية للدولة العثمانية ، وصدر بذلك قانون سنة ١٨٦٤ ،
وبذلك انسلخت لبنان رسمياً عن الأم سوريا ، وظلت لبنان تحكم في
ظل هذا القانون حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، وقد أتاح استقلال
لبنان لفرنسا مزيداً من التدخل في الميدان الثقافي وميدان المال فعملت
منذ ذلك التاريخ جاهدة ليتم صبغ لبنان بالصبغة الفرنسية .

ولعلنا نستطيع أن نتخطى بضع عقود من السنين لنضيف الى
حديثنا عن لبنان موضوعاً هاماً ، هو أنه بعد الحرب العالمية الأولى وبعد
أن حصلت فرنسا على حق الانتداب على سوريا ولبنان ، أصدر الجنرال
« غورو » قراراً في ٣١ أغسطس سنة ١٩٢١ نص على إيجاد « دولة لبنان
الكبير » مكونة من سنجق لبنان في العهد التركي مضافاً اليه مساحات
جديدة من الأرض السورية القديمة تضاعف مساحته الأصلية ، وتجعل
معظم الساحل السوري في أيدي لبنان الكبير .

لبنان تُنتزع من سوريا وتصبح دولة مستقلة :

وقد كانت المصلحة التي توخاها الجنرال غورو من ذلك أن يوسع
الإقليم الذي يتأثر ثقافياً بفرنسا ، بما يجعله دولة تستحق الوجود
المستقل ، إلا أنه كان قصير النظر في ذلك ، إذ أن معظم الاضافات
الجديدة كان أهلها من المسلمين وبذلك انكشفت النسبة المتسوية
للمسيحيين ، فبعد أن كانوا كثرة ساحقة في سنجق لبنان القديم ،
اصبحوا لا يكوّنون في الوضع الجديد أغلبية تستطيع فرنسا المسيحية

الاعتماد عليها ، فكان ذلك — حتى من وجهة نظر الاستعمار — عملاً مرتجلاً ينبىء عن قصر النظر ، فضلاً عن أنه خلق سبباً جديداً من أسباب الخلاف في بلد يشكو من كثرة الخلافات (١) ، أما الأجزاء التي ضمت الى لبنان هذه المرة فهي لواء بيروت ويشمل بيروت وصيدا وصور وطرابلس ، وأقصى أربعة هي بطبك وحاصبيا وراشيا والبقاع .

وفلسطين تنتزع من سوريا أيضاً :

وكان إخراج لبنان من سوريا أول تقسيم نزل بهذه البلاد ، وتلاه تقسيم آخر تم بعد الحرب العالمية الأولى ذلك هو انتزاع فلسطين من سوريا ، وإخضاعها للانتداب الإنجليزي بناء على ما قرره مؤتمر سان ريمو في إبريل سنة ١٩٢٠ ، وقد نصّ في صك الانتداب على أن تعمل إنجلترا لتحقيق وعد بلفور بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود .

وقصة المملكة الأردنية :

وكان أول ما اتخذته بريطانيا لتحقيق هذا الوعد أن أضافت جديداً في سياسة التقسيم ، فاقطعت من فلسطين المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن وجعلتها إمارة ، وكان الذي فعل ذلك هو هربرت صموئيل اليهودي الذي عُيّن مندوباً سامياً لبريطانيا في فلسطين وكان هربرت يقصد بذلك أن يحمي الدولة اليهودية التي يتريد إنشاءها من هجمات البدو وثوراتهم بأن يقيم على حدودها دولة صديقة للاستعمار يخضعها بما يسميه الاستقلال ، وقد اتفق هربرت صمويل مع زعماء البدو في هذه المنطقة على قيام هذه الإمارة سنة ١٩٢١ ، ثم وفد الى هذه المنطقة الأمير عبد الله بن الحسين في فبراير سنة ١٩٢٢ وكانت بعض أجزائها تابعة لسلطان أبيه في الحجاز ، وكان على رأس قوة عربية في طريقه لمهاجمة

(١) محمد حبيب أحمد : نهضة الشعوب الإسلامية ص ١٨٦ .

فرنسا في سوريا انتقاما لأخيه فيصل الذي أزالته فرنسا من ملكه وهو في مطلع العمر ، فأرادت انجلترا أن تصيد عصفورين بحجر واحد ، أى أن تثبت كيان الإمارة التي خلقتها بشرق الأردن من جهة. ، ومن جهة أخرى أن تستجيب لفرنسا حليفها التي طلبت منها إيقاف شغب الأمير عبد الله ، فعينت انجلترا أميراً على شرق الأردن وأعطته سلطة محدودة ، وفي سبتمبر سنة ١٩٢٢ استصدرت انجلترا قراراً من مجلس عصبة الأمم بإعفاء شرق الأردن من أحكام صك الانتداب المتعلقة بإنشاء وطن قومي لليهود •

وتطورت هذه الإمارة وزيدت سلطات الأمير شيئاً فشيئاً في حدود السيادة البريطانية حتى مارس سنة ١٩٤٦ حيث أصبحت الإمارة مملكة والأمير ملكاً عليها •

وعندما شبت حرب فلسطين ضم الملك الى مملكته جزءاً من الأرض الواقعة غرب الأردن واتخذ لمملكته اسم « المملكة الأردنية الهاشمية » •

ويقول الدكتور فيليب حتى (١) عن هذه الإمارة إنها خلقت لتكون دولة حابزة ما بين منطقة الانتداب البريطاني وربع القبائل البدوية الثائرة ، وقد أسهمت بوضعها ذاك في حماية الدولة الصهيونية التي كانت بريطانيا تنشئها منذ تولت الانتداب على فلسطين •

اسرائيل أيضاً في جزء من فلسطين :

ثم اقتطعت بريطانيا من فلسطين أكثر بقاعها وكونت به دولة اسرائيل •

والآن تعيش في أرض سوريا دول خمس هي : سوريا الحالية (التي تتكون من البقية الباقية من سوريا الحقيقية بعدما اقتطع منها

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٣٥٤ •

من أرض على ما سبق) ولبنان والمملكة الأردنية الهاشمية وبقية الوطن
السليب (فلسطين) واسرائيل الدولة الدخيلة التي ينبغى ألا يطول لها
في هذه المنطقة بقاء •

محاولات أخرى لتقسيم باقى سوريا :

وليس هذا كل ما نشأ بسوريا من تقسيم ، فإن السلطة الفرنسية
التي وكل لها الانتداب على سوريا عقب الحرب العالمية الأولى عمدت الى
مزيد من التقسيم في هذه الدولة فاقطعت منها لواء الاسكندرونة وجعلته
تحت إشراف حاكم عسكري ثم تهاونت فيه وأسلمته ظلما الى تركيا كما
سترى فيما بعد وجعلت من باقى سوريا بعد ذلك أربع دويلات هي
دمشق ، وحلب ، وجبل العلويين (١) ، وجبل الدروز في الجنوب على حدود
الأردن ، وكان المقصود من ذلك اتباع سياسة « فرق تسد » ولكن
الثورية السورية قضت على هذا التقسيم ، وأعلنت حكومات هذه
الدويلات الأربع رغبتها في العودة الى الاتحاد مكونة الوطن الأصلي
« سوريا الحالية » ونفذت هذه الرغبة فعلا •

(١) سنتحدث عن العلويين ومذهبهم عند الحديث عن « تركيب المجتمع
السوري » •

أشهر الولاة والأمراء

ظهر في سوريا إبان العهد العثماني مجموعة من الولاة والأمراء جديرة بالذكر ، ومن الواضح أن هناك فرقاً بين الولاة وبين الأمراء ، فالأولون تولوا المناصب بكفائتهم واختيار الباب العالي لهم ، أما الأمراء فكانوا يمثلون أسرهم بלבnan ، تلك الأسر التي كان لها السلطان فترة قصيرة أو طويلة على بقعة صغيرة أو كبيرة من الجبل كما سبق ، وكان الحكم في هذه الأسر وراثياً ، ولم يكن للباب العالي في أكثر الحالات من السلطان إلا أن يجيز تعيين من آلت له السيادة ، وسننكم فيما يلي عن مجموعة من أولئك ومن هؤلاء :

جان بردى غزالي

سبق أن قلنا إن جان بردى غزالي خان المماليك في معركتهم ضد العثمانيين ، وفتح الطريق للجيش العثماني الزاحف ، وقد كفأه السادة الجدد بأن عينوه والياً على دمشق وجعلوا له السيادة على باقى ولايات سوريا ، وقد أخذ غزالي يدعم سلطانه بالقضاء على الزعماء العرب الذين وقفوا بجانب المماليك في معركة العزو ، فاجتز رأس بعضهم كابن الحنش وابن الحرفوش ، وألقى بزعماء بنى بحتر في السجن ، ولما اطمأن الى قوة يده وغلبته على زعماء عصره في هذه المنطقة استدار لسيده العثماني وحاول أن يخلع طاعته ، وقد حدث ذلك عقب وفاة السلطان سليم سنة ١٥٢٠ وأعلن نفسه في المسجد الأموي حاكماً مستقلاً واتخذ لقب « الملك الأشرف » وضرب النقود باسمه ، ولكن سلطته لم تستمر طويلاً فإن السلطان سليمان القانوني أرسل جيشاً لجباً من الانكشارية فأباد المتمردين وقتل غزالي الخائن سنة ١٥٢١ ، وأنزل جيش الانكشارية بدمشق وضواحيها ألواناً من التخريب والتدمير والإبادة (١) .

(١) ابن اياس ج ٥ ص ٣٦٢ و ٣٧١ وما بعدها .

وجان بردى كرميله خسر بك من ممالك قايتباى ، اشتراه وأعتقه فعينه الأمير تغرى بردى فى وظيفة مشرف فى ضيعة فى الغربية يقال لها منية غزال فنسب اليها ، ثم ترقى فى الوظائف حتى صار محتسب القاهرة فى عهد الغورى ، ثم أصبح كبير الحجاب فنائب حماة ، وبهذا أصبح فى الخطوط الأمامية مع زميله خير بك ، فدبرا معاً مؤامرة الخيانة ضد الممالك ، وتقاضى ولاية دمشق ثمناً لهذه الخيانة .

فخر الدين المعنى الأول : (يرجع نسبه الى بنى مَعْن) :

عندما اشتعلت الحرب بين الممالك والعثمانيين انضم الأمراء التتوخيون الى الممالك ، أما المعنيون بقيادة فخر الدين فقد استمعوا الى نصيح أميرهم بالتريث حتى ترجسح إحدى الكفتين فينحازوا لها ، فلما رجحت كفة العثمانيين أسرع فخر الدين الى السلطان العثماني معلناً ولاءه ودعاه فى خطبة بليغة أوردما حيدر الشهابى المؤرخ اللبنانى (١) ، وكافأه السلطان على ذلك بأن ثبته فى إقطاعه ، وأيد امتيازاه ، وفرض عليه جزية خفيفة ووسع ملكه ولقبه « سلطان البر » ، واستطاع المعنيون بذلك أن يقضوا على سلطان باقى الزعماء الإقطاعيين ، وأن يكون لهم اليد الطولى على الجبل كله ، وقد ظل فخر الدين يباشر سلطانه زعيماً للدروز وللجبل حتى سنة ١٥٤٤ حيث قتل غدرا ، ويظن أن بعض عملاء الباب العالي هم الذين تخلصوا منه بهذه الطريقة .

فخر الدين المعنى الثانى :

بعد وفاة فخر الدين الأول أمير جبل الدروز ، قسام مقامه ابنه قورقوماز ولكن الباب العالي أوعز الى بعض عملائه فقتلوه بالمسم ، ولم يخلفه إلا ابنا فى مطلع الصبا سُمى باسم جده فخر الدين ،

(١) تاريخ سوريا ص ٥٦٠ .

وقد خافت أم الصبي وأنس في نفسه القدرة عاد الى منطقته حيث تولى الحكم مكان أبيه سنة ١٥٩٠ ، وقد وضع فخر الدين أمامه أهدافا ثلاثة عمل طيلة عمره على تحقيقها بأية وسيلة من الوسائل شريفة كانت أو دنيئة ، وهذه الأهداف هي :

- توسيع رقعة لبنان .
- العمل على استقلاله التام عن العثمانيين .
- العمل على جلب ألوان التقدم والازدهار الى مملكته الكبيرة المستقلة .

وبدا وسائله لتحقيق هذه الغايات ، فكان منها أن حارب جواره ووالد زوجته « يوسف سيفه » وانقرع منه إمارته بشتمالى لبنان ، وكان منها ألوان من الرشاوى قدمها لزعماء البدو في البقاع وفي المنطقة الجنوبية حتى الجليل ، ورشاوى أخرى خدر بها حماسة معارضيه بالقسطنطينية ، ولما أحس بأن قوته تزايدت ، ونفوذ عظم ، أعلن الثورة على الباب العالي سنة ١٦٠٣ ، وكانت الدولة آنذاك مثقلة بالحروب والمتاعب فعمدت الى تسوية الأمر باللين والمسالمة .

ووصل فخر الدين في وسائله لتحقيق أطماعه الى درجة بها كثير من الشطط ؛ فقد استعان بأحفاد الصليبيين ضد السلطان العثماني ، فعقد معاهدة مع فرديناند الأول أمير توسكانا بشبه الجزيرة الإيطالية ، وعمل على التقرب من البابا ومن أسبانيا ليحصل على ما أراد ، وفي

حمالية هذه القوى ، وبمساعدة المال الذي حصل عليه من فتح أسواق جديدة ببلاده للتجارة مع فلورنسا ، استطاع أن يكون جيشاً كبيراً استولى به على بعلبك سنة ١٦١٠ ومهد به دمشق نفسها ، وإزاء هذه الأطماع التوسعية والانفصالية ، أرسلت له الدولة جيشاً برياً من دمشق فأسطولا كبيراً سنة ١٦١٣ فاضطر الأمير إلى التراجع إلى إيطاليا مخلفاً إمارته في أيدي ابنه « علي » يساعده أخوه عثمان ، واستطاع هذان مع جديهما أن يوقفوا تدخل الباب العالي وباشا دمشق ، وبعد خمس سنوات عاد الأمير فخر الدين إلى لبنان وواصل فضاله بإسم ابنه علي الذي أثر أن يبقيه أميراً للامارة ، وقد استطاع الأمير فخر الدين في فضاله الجديد أن يسترد ما كان قد اقتطع من إمارته في أثناء غيابه ، كما استطاع أن يحقق مزيداً من الانتصارات ، ووجد الباب العالي نفسه مضطراً أن يعينه حاكماً على المناطق التي فتحها ، ووصل بذلك إلى العمل على تحقيق هدفه الأخير ؛ فاستقدم من إيطاليا ومن سواها من الممالك الأوربية خبراء ومهندسين نظموا له شئون الري وحسنوا له مظاهر المدينة وبنوا له أعظم القصور ، كما قرب الإرساليات الأوربية وأكثر من المستشارين الموارنة ، ومن أجل هذا كله كان يتهم في دينه ، واعتقد بعض الناس أن إسلامه كان في الظاهر وأنه كان يخفي المسيحية .

وفي ذلك العهد الجديد أخذت الدولة العلية على « فخر الدين » أنه يحابي النصارى ويواصل اتصالاته بالأوربيين ويزيد في عدد جيشه وفي عددده ، فساورتها المخاوف وبخاصة أن تاريخه مع الدولة لم يكن يدعو إلى الاطمئنان إليه والثقة به ، فقررت القضاء عليه نهائياً ، فأمر السلطان مراد الرابع واليه بدمشق كوتشك باشا أن يزحف عليه بجيش لجب ، كما وجه إليه أسطولا كبيراً بقيادة جعفر باشا ، وقد أبلى فخر الدين وبنوه في الدفاع عن إمارتهم بلاء حسناً ، ولكن الموالين له من آل سيفا وهرقوش بدعوا ينفضون عنه ، وسقط ابنه « علي » في الصراع ، ولم يجد فخر الدين وسيلة إلا الاستسلام فأخذ هو وبنوه

الى القسطنطينية حيث تم إعدامهم سنة ١٦٣٥ وقد حاول ملحم بن يونس وهو ابن أخى فخر الدين أن يستعيد سلطته ولكنه لم يحصل إلا على سلطان ضئيل تحت رقابة عثمانية حاسمة ، ومن بعده تولى الحكم ابنه أحمد الذى توفى بعد فترة بدون عقب فانقرضت بموته الأسرة المعنية .

أمراء من أسرة العظم :

أنجبت أسرة العظم مجموعة من الأمراء تولوا الإمارة عدة مرات على عدد من إمارات سوريا فكان منهم حكام على دمشق وصيدا وطرابلس وحماة وغيرها ، وكانوا على العموم موضع ثقة السلاطين بنى عثمان ، كما كانوا جديرين بهذه الثقة لشدة ولائهم ووفائهم لهؤلاء السلاطين ، ولكن ذلك لم يجعلهم بمنجاة من سخط هؤلاء السلاطين فى بعض الأحيان ، وبخاصة عندما كان يشتد ثراؤهم أو يبدو فيهم مظهر الغرور ، فحينئذ كان الباب العالى يوعز باغتيالهم أو يقبض عليهم جهرة ويعزلهم ويصادر أموالهم ، ومن أشهر ولاية هذه الأسرة اسماعيل باشا العظم الذى أسندت له ولاية دمشق سنة ١٧٢٤ . وابنه أسعد الذى تولى على صيدا ثم على حماة وأخيرا على دمشق والذى يشهد عصره ازدهار عصور الحكم العثمانى فى منطقة ولايته ، ولأسعد هذا قصر فى دمشق بناه سنة ١٧٤٩ يعتبر أروع أثر عربى ظهر فى هذا القرن ، فطرازه الهندسى وما اشتمل عليه من فنون الفسيفساء والحفر فى الخشب تمثل أروع ما بلغه الفن الإسلامى آنذاك (١) .

بشير الشهابى :

إذا أطلق هذا الاسم انصرف الى بشير الشهابى الثانى ، (بشير الكبير) ، وقد سبقه بشير آخر هو بشير الأول وجاء بعده وال يحمل هذا الاسم أيضا هو بشير الثالث .

وعندما أفل نجم المعنيين في أواخر القرن السابع عشر ، عادت البلاد الى السلطة التركية المباشرة ، بيد أن نزعة الاستقلال عبرت عن نفسها باجتماع عقده أعيان لبنان سنة ١٦٩٧ وانتخبوا الأمير بشير الشهابي (الأول) حاكماً عليهم وأرسلوا بقرارهم الى والي صيدا معلنين ولاءهم للسلطان العثماني واستعدادهم الأداء ما يفرضه عليهم عن طريق الأمير الجديد ، وقد استمر بشير الأول في الحكم الى سنة ١٧٠٧ ، وتوالى بعده أمراء من الشهابيين في فترة كثيرة القلاقل والاضطراب ، حتى جاء بشير الكبير أو بشير الثاني سنة ١٧٨٨ ، وقد استطاع هذا أن يضع حداً للقلاقل ويقضى على كل المناوئين قضاء حاسماً ، ويبدو أن مفتاح سياسته كان متجهاً نحو كراهية الأتراك بل كراهية الدين الذي استغله الأتراك لينالوا هذه المكانة ، ويقال إنه لذلك قد تنصّر سرّاً ، وأن هذا هو سبب مساعدته لنابليون عندما زحف لاحتلال الشام ، بيد أنه أرضى العثمانيين عندما أوقف زحف الوهابيين على الشام سنة ١٨١٠ وراح بعد ذلك يقوى سلطانه ، ويوسع إقليمه ، ويمد سلطانه الى الأقاليم المجاورة ، ويبدو أنه بالغ في هذا الاتجاه ، مما أدى الى إبعاده عن لبنان مدة عام واحد سنة ١٨٢١ — ١٨٢٢ وقد أمضى هذا العام في مصر حيث عقد صلة وثيقة مع محمد علي رأس الأسرة العلوية بمصر ، وكانت هذه الصلة سبباً في تعاون الاثنين عندما زحف محمد علي على سوريا وعبر جبال طوروس موغلا في بلاد الترك .

وعندما أرغم إبراهيم باشا على الانسحاب من الشام فرّ الأمير بشير الى مالطة .

وبشير الثاني كبير الشبه في اتجاهاته الاستقلالية والإصلاحية بالأمير فخر الدين ولكنه يفوقه في هذه الاتجاهات ، كما كان يفوقه في حسن السمعة والقامة ، فقد كان فخر الدين قزماً ذميماً ، ولكن بشير كان حسن القامة مهيب الهيئة .

وبعد بشير الثاني جاء بشير الثالث (١٨٤٠ — ١٨٤٢) وكان هذا

يختلف عن بشير الكبير في براعته ومكانته وميوله ، وكان ممن ترعّموا الحركة التي ثارت في لبنان ضد ابراهيم باشا عندما أراد ابراهيم أن يجرد اللبنانيين من السلاح ويزيد في الضرائب المطلوبة منهم ، وكوفيء على ذلك بأن أسفدت له إمارة الجبل بعد بشير الكبير ، ولكن سياسة الأتراك كانت قد اتجهت نحو إثارة الخلافات بالجبل بين الموارنة والدروز ليتخذوا من ذلك وسيلة لصكم لجبل حكماً مباشراً ، فبدأت سلسلة القلاقل والمذابح التي تحدثنا عنها من قبل .

ظاهر العمر :

ينحدر ظاهر العمر من أصل حجازي ، وقد انتقل أجداده من شمالي الحجاز إلى فلسطين إبان عهد صلاح الدين الأيوبي ، حيث كانت القوى الناهضة تتجمع في منطقة الكفاح ، وأبو ظاهر العمر هو « عمر أبو ظاهر » وكان عاملاً على صفد من قبيل بشير الأول ، وبعده خلفه ابنه ظاهر العمر حوالي سنة ١٧٣٧ ثم أخذ يمد نفوذه من صفد إلى ما حولها وضمّ منطقة طبرية ونابلس والناصرية ، ثم استطاع أن يضم عكا إليه سنة ١٧٥٠ * وبهذا عكّظم سلطانه وكبر شأنه وأخذ يهدد الدولة العثمانية التي لم تكن ترضى عن توسعاته تلك التي أجراها دون إذن من الدولة ، ومن أجل هذا اتجه ظاهر العمر إلى إحياء عكا وإعادة تعميرها وكانت آثار الدمار الصليبية لا تزال واضحة بها ، ثم اتخذها ثغراً يصدر منه الحرير والقمح وغيرها من منتجات فلسطين ، وبذا أصبحت عكا تمثل حصناً سياسياً واقتصادياً ، وكان ظاهر العمر قوياً في غير تعسف ، مسلماً دون اضطهاد لغير المسلمين ، فنعمت البلاد في عهده برخاء واطمئنان ظاهرين .

وتحركت الدولة للقضاء على هذه الحركة الاستقلالية ، ولكن حدث في نفس الوقت أن أعلن على بك الكبير في مصر استقلاله وزحف إلى الشام ، فتحالف معه ظاهر العمر وسار الحليان يوقعان بجيوش الدولة هزيمة بعد هزيمة ، واستطاع الجيشان دخول دمشق سنة ١٧٧١ ، وكافاه على بك الكبير بأن ضم له مدن يافا وغزة والرملة ، ووصل ظاهر العمر بذلك إلى قمة مجده ، ثم بدأ الانهيار على القوتين المتحلفتين عندما غدر محمد أبو الذهب بسيده على بك الكبير وقضى عليه وأعاد اعتراقه بالدولة العلية ، وبذلك تفرغت الدولة للقضاء على ظاهر العمر ، ورمته بمملوك آخر لعلى بك الكبير هو أحمد الجزار الذي سنتكلم عنه فيما بعد ، وقد حاصر الجزار عكا ، وظل ظاهر العمر يقاوم الحصار حتى كلت قواه وفرغت ذخيرته ، فحاول الهرب ولكن محاصريه قبضوا عليه ، وقتل عام ١٧٧٥ بعد أن كوّن دولة مستقلة مدة تزيد على ربع قرن .

أحمد الجزار :

كان أحمد مملوكاً لعلى بك الكبير في القاهرة ، وفقد أس قيه سيده القوة والصرامة ووجد غليظ القلب قليل العاطفة فعينه جلاًداً له ، وقد أظهر من التفنن في إنفاذ مهمته والرغبة في القيام بها ما أكسبه لفظ « الجزار » ، وكان شديد الافتخار بهذا اللقب ، بالغ الحرص على أن يظل جديراً به (١) .

وحدث خلاف بينه وبين سيده على بك الكبير ، يقال إن سببه ألوان الغدر التي اشتهر بها على بك الكبير ومحاولة القضاء على من

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٢٨ .

أمّتهم ، فهرب أحمد الجزار من مصر واتجه الى الدولة العثمانية التي رحبت به ، فلما انهار على بك الكبير أرسلت الجزار الى ظاهر العمر حليف على بك الكبير وزعيم الحركة الاستقلالية في عكا كما رأينا آنفاً ، وقد استطاع الجزار أن يقضى على ظاهر العمر وعلى حركته ، فعينته الدولة مكانه وامتد سلطان الجزار جنوباً وبنى الحصون وكوّن الجيوش والأساطيل ، وأصبحت عكا قلعة حصينة في عهده ، وقد بلغ أوج مجده سنة ١٨٩٩ عندما استطاع أن يوقف زحف نابليون ، وأن يصمد في الدفاع عن عاصمته صموداً قوياً ، حتى اضطر نابليون أن يوقف الحصار وأن يسحب جنوده عائداً بأذيال الخيبة ، وقد ظلّ يحكم هذه المنطقة حتى سنة ١٨٠٤ حيث مات وهو ناعم بكثير من الهدوء ورغد العيش .

حضارة سوريا في العهد العثماني وأثرها في الحياة العربية :

يمكن القول إن لبنان كان النافذة التي دخلت منها ثقافة الغرب الحديثة الى البلاد العربية ، وقد رأينا الموارنة فيما سبق يتصلون بفرنسا ، وبدائرة اللاهوت بروما كما رأينا الصلات التي عقدت بين الأمير فخر الدين والأمير بشير الشهابي من جانب وبين الإمارات الأوربية من جانب آخر ، ورأينا كذلك الصلات التجارية التي اتخذت من لبنان معبراً الى الشرق ، وعلى هذا حظيت لبنان بمرحلة متفوقة في العلوم والمعارف التي ازدهرت في القرن السابع عشر بأوروبا ، وفي لبنان ظهرت أول آلة طباعة في الشرق العربي في مطلع القرن السابع عشر وكانت تطبع باللغة السريانية وباللغة العربية مكتوبة بالحروف السورانية ، على أن الطبعة العربية ظهرت في أوروبا في أواخر القرن السابع عشر ، إذ اتجهت

الرغبة البابوية الى طبع الكتب الدينية والمدرسية لاستخدامها في المعاهد المسيحية العربية بلبنان ، ثم انتقلت هذه المطبعة الى الجبل في القرن الثامن عشر وربما في مطلعته . .

على أن الجبل ام يتسع لهذه الثقافات ولا نثمتقنين الذين كانوا يعيشون به ، فاندفعت هذه الثقافات الى الخارج ، ورحل كثير من المثقفين الى القاهرة ، حيث أصبحت مركزاً ثقافياً واسعاً ، نكسر العلوم والمعارف في كل أرجاء الوطن العربي عن طريق الصحافة الكبرى ، والمجلات واسعة الانتشار ، والمطابع التي أذاعت الفكر والمعرفة على أوسع نطاق .

٢ — فترة الاحتلال الأوربي

١٩١٨ — ١٩٤٦

لا يمكن الحديث عن فترة الاحتلال الأوربي لسوريا دون أن نوضح كيف تمّ الاحتلال ، وما المؤامرات الاستعمارية التي سبقته ، وأعدمت له وانتهت به . وسيتضح ذلك من بيان القوى التي تنازعت السلطان في سوريا .

القوى التي تنازعت السلطان في سوريا :

أولاً — رأينا فيما سبق كيف كانت فرنسا تتطلع الى سوريا ، وكيف ناصرت الحركات الاستقلالية في لبنان ، وكيف احتلت الجبل سنة ١٨٦٠ مدة عام تقريبا ولم تخرج منه الا تحت ضغط الدول ، وكيف نشرت بين الموارنة ثقافتها ولغتها ، وفي سنة ١٩٠٤ عندما عقدت فرنسا اتفاقا سريا مع بريطانيا حرصت على أن ينص هذا الاتفاق على أن تطلق يدها في سوريا ولبنان مقابل اطلاقها يد انجلترا في مصر ، وكان ذلك كله تمهيدا لفرصة قد تسنح لاحتلال فرنسا لسوريا ولبنان ، فلا عجب أن أصرت على أن يتم لها ذلك عقب الحرب العالمية الأولى .

ثانيا — تطلعت إنجلترا إلى الجزء الجنوبي من الشام (فلسطين) على الأقل ، لحماية قناة السويس ، وتأمين قواتها في مصر ، وضمان سلامة الطريق إلى الهند .

ثالثا — كان النفوذ الصهيوني قد بدأ يتضح في المجال العالمي ، وقد لعب خلال الحرب دورا عسكريا واقتصاديا وسياسيا أتاح له أن

يفرض نفسه على القوى الغربية لاتحصر هذه القوى معبرة عن آماله ،
عاملة على أن تحقق له أهدافه ، وقد تركزت هذه الأهداف قبيل الحرب
وخلالها في جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود .

رابعاً كان هناك أيضاً الأشراف ، وهم طلاب مئتك ، ولا يهمهم
أين يكون هذا الملك ولا كيف يتحقق ، على أن سوريا كانت أقرب البلاد
لكة حيث كانوا يعملون ولاية منذ عهد طويل ، ومن هنا اتجهت لسوريا
أطماعهم مع هؤلاء الذين اتجهوا بالأطماع إلى سوريا .

خامساً — هناك قوة خامسة كان لها السلطان على سوريا حتى الحرب
العالمية الأولى وكانت تطمح في أن يظل لها هذا السلطان ، تلك هي تركيا ،
بيد أن أحداثاً جرت فباعدت بين الأتراك والعرب ، وقد آن لنا هنا أن
نوضح العلاقة بين هؤلاء الأتراك وأولئك العرب :

ماذا كان أساس هذه العلاقة ؟ وكيف تطورت ؟ وإلى أى غاية انتهت ؟

هل كان الأتراك مستعمرين للبلاد العربية ؟

أو تكون منهم ومن العرب دولة اتحادية اسلامية ؟

كان الاتجاه الذي صحب الزحف العثماني يمثل الوحدة الاسلامية ،
وقد اتخذ الترك وسائل لتبذير هذا الموقف ، فحمل رؤسائهم لقب
الخلفاء ، وأصبح الدين الاسلامي دين الدولة ، ورفع الخلفاء العثمانيون
أفراداً من المسلمين الذين ينتمون الى أقطار عربية مختلطة الى مناصب
كبرى في دولتهم ، مثل أحمد عزت باشا وأبو الهدى الصيادي من سوريا
وعزيز على المصري من مصر ومحمد شوكت باشا من العراق وغيرهم .

وتأيّد هذا الاتجاه بالحركات المسيحية ضد الدولة ، تلك الحركات
التي أبرزت الجموع المسلمة ممثلة في الامبراطورية العثمانية في جانب ،
والجموع المسيحية الأوروبية في جانب مضاد ، وتأيّد هذا الاتجاه كذلك بالعداء

الذى أعلنه المؤرخين المسيحيون للامبراطورية العثمانية • وعلى العكس من ذلك وقف المفكرون والمؤرخون المسلمون موقف الذود عن هذه الامبراطورية ، واتجهت جمهرة المسلمين الى اعتبار الارتباط بالترك نوعا من التجمع الاسلامى مقتنعين بالوسائل العثمانية التى آوردناها آنفا ، وآملين فى هذا التجمع القوة التى تمكثهم من رد العدوان المسيحى الذى طالما احتشد وتآلف ضدهم ، ومما قوى عند المسلمين هذا الاتجاه ما كانوا يعانون من ضغط القوى الصليبية الزاحفة على البلاد العربية من الأندلس أو من قلب أوربا وشرقيها ، ومما قواه كذلك أن الانتصارات التركية بأوربا حملت معها الاسلام الى كثير من البقاع ، وكان الدعاة المسلمون يصحبون الجيش أو يتبعونه •

وهكذا انتصر الاتجاه الاسلامى حتى أصبح الانضمام للكتلة الاسلامية عملا مألوفًا نفذه بارباروسا بالشمال الاقريقي ، وهدد به قادة أتشييه احدى مناطق جزيرة سومطرة ، أما ما برز فى بعض الخلفاء من عيوب فقد عُدَّ خطأ شخصيا لا يدفع لفصم التجمع وانما يدعو لمحاولة إصلاح هذا الخطأ أو تغيير هذا الخليفة ، وهذا هو ما حدث عندما استطاعت « جمعية الاتحاد والترقى » بقيادة أنور ونيازى وشوكت أن تتجج فى ثورتها وأن ترغم الداهية عبد الحميد على اعادة الدستور ثم أن تخلفه سنة ١٩٠٩ ، فقد قامت الأفراح فى البلاد العربية وتغنّى شعراؤها بهذا النصر ، وكان مما قاله حافظ ابراهيم الشاعر المصرى فى هذه المناسبة •

ثلاثة آساد يجانبها الردى وإن هى لاقها الردى لا تجانبه
روت قول بشار فثارت وأقسمت وقامت إلى عبد الحميد تحاسبه
(إذا الملك الجبار صعر خده مكسيفا إليه بالسيف نعاتبه)

ولكن الدولة العلية كانت كثيرة الحروب ، وكان العرب يكتوون بفار الهزائم ولا ينالون أى نصيب من الانتصارات إن كانت هناك انتصارات ،

وتدهورت الحضارة العربية خلال هذه الفترة ، حتى أصبحت البلاد تعيش في ظلام دامس وجهل مطبق ، وكان الولاة ظالمين في الغالب ، والاقطاع مسيطرا يضع الثراء في أيد قليلة ويترك ما سواها تعاني الفقر والجوع ، وكان الشعب يئن من الآلام ويجأ بالشكوى ، ولكن الدولة العلية لم يكن يديها من أمر الرعاية شيء مادام نوثني يرسل للاستئانة هداياه ، ويواصل دفع الضريبة المقررة عليه .

ثم إن الدولة العلية منيت بهزائم ساحقة بأوربا ، وانعكست هذه الهزائم على الدول العربية لها فتخطفتها الأيدي الاستعمارية القاسية فاحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ وتونس سنة ١٨٨١ واحتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ وتحفزت ايطاليا لاحتلال طرابلس وأتمت الاحتلال سنة ١٩١١ ووقفت الدولة مكوفة اليدين إزاء هذه الأحداث .

اتجاه تركيا الى القومية التركية :

وعقب عزل السلطان عبد الحميد تولى الاتحاديون الحكم سنة ١٩٠٩ واتجهوا اتجاها قاسيا نحو ضرورة سيطرة القومية التركية وتطهير اللسان التركي من الألفاظ الغريبة ، بل راحوا ينتكرون للإسلام ، ويرفعون أسماء الخلفاء الراشدين من المساجد ، وشاعت في هذه الفترة تلك العبارة التي تمثل اتجاههم تجاه العرب والاسلام وهي قولهم « إن العودة إلى عبادة الذئب الأبيض أجزي لنا من دين العرب » .

واشتط الترك في هذه المرحلة بقوميتهم فأتجهوا الى نظام المركزية ومحاربة اللغة العربية حتى في بلادها ، وقاوموا بالعنف كل حركة تنادي بالاصلاح وتحسين الأحوال .

وهكذا تجمعت الأسباب التي تدعو الى انشقاق العرب على تركيا ، واعتبار الخضوع لها نوعا من الاستعمار ، وقد بدأ العرب نشاطهم بالتشكيلات السرية وبالجمعيات العربية ، كجمعية العربية الفتاة التي

أسست سنة ١٩٠٠ في باريس ثم نُقِلَت إلى بيروت ثم إلى دمشق ، وكذلك تأسيس حزب العهد سنة ١٩١٣ لمقاومة العنصرية التركية الطورانية ، وقامت كذلك جمعيات أخرى مماثلة ، كجمعية الاخاء العربى ، والمنقدى الأدبى ، والجمعية القحطانية وغيرها .

وظهر مجموعة من الرجال العمالقة الذين بعثوا هذا الاتجاه وغذوه بأقلامهم وخطبهم ، وفي قمة هؤلاء عبد الرحمن الكواكبي وإبراهيم اليازجى وغيرهما ، وقد أصدر الأول في ذلك كتابين هما « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » وألقى الثانى بقصائده الوطنية القوية فهيجت العرب وحمستهم نحو التحرر من ظلم الترك ، ومن شعره في ذلك قوله يخاطب العرب :

لا دولة لكم يستبدُّ أزركمُ بها ، ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك تازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

نخلص من هذا إلى أن قوة تركيا كانت في نزعها الأخير ، وأن حرصها على البقاء في سوريا كان قد أصبح ضئيلا لا أمل في تحقيقه ، وبهذا يمكن أن تبعد تركيا عن مسرح الطامعين في سوريا ، بل إن حرصها جلب عليها مزيدا من السخط ، فان جمال باشا قائد الجيش التركى والحاكم العسكرى في سوريا ولبنان عندما أحس بانصراف العرب عن الأتراك أنزل غضبه القاسى على الزعماء ، وراح يعدم شنقا وينكل بهم تنكيلا فظيحا وضع حدا نهائيا للعلاقة بين سوريا وتركيا .

سوريا من الحرب العالمية حتى الاستقلال :

إذا كانت تركيا قد أبعدت فان سوريا عند مطلع الحرب العالمية الأولى كانت تتنازعها القوى الأربعة التى أوردناها فيما سبق ، ولكن ينبغى أن يتضح أن هناك قوة خامسة كانت قد عقدت العزم على أن تنتصر مهما كلفها الصراع من دم ونضال ، تلك هي القوة السورية والقوى العربية

على العموم ، وسنرى فيما يلى ماذا تحقق لكل من هذه القوى من أطماع وآمال ، فلنتابع بايجاز مجريات الأحداث من بدء الحرب العالمية الأولى .

— دخلت تركيا الحرب في نوفمبر سنة ١٩١٤ في صف ألمانيا ، وكان ذلك منها عملا غير مفهوم ، فلم تكن صلتها بألمانيا أقوى من صلتها بالخلفاء ، وبدخول تركيا الحرب على هذا الوجه ، قررت انجلترا وفرنسا تنفيذ تقسيم الدول العربية حسبما كان مقررا في الاتفاقيات السرية ، وبخاصة اتفاقية سنة ١٩٠٤ .

— ومضت الحرب فرصة للدول العربية لإعلان مسخطها على تركيا ورغبتها في الاستقلال عنها ، وقد تجمعت كلمة زعماء جمعية العربية الفتاة وجمعية العهد بالاتفاق مع فيصل بن الشريف حسين على المطالبة باستقلال العرب ، وهكذا أصبح الشريف حسين ممثلا للفكرة العربية .

— وأيدت انجلترا اتجاه العرب ، ولوحت بالاستقلال ، وتعهدت بتنفيذه ، وتبادلت رسائل عن ذلك بين ممثليها بالقاهرة هنرى مكماهون وبين الشريف حسين ، ومجموع هذه الرسائل ثمانية وكان تبادلها في الفترة ما بين ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ و ٣٠ يناير سنة ١٩١٦ ، وقد حددت هذه الرسائل حدود المملكة العربية في المستقبل ، وضمنت استقلالها ، كما أيدت زعامة الشريف حسين الدينية والسياسية للحرب ، وتعرف هذه الرسائل في التاريخ برسائل حسين — مكماهون .

وأعلن الشريف حسين الثورة العربية في يونيو سنة ١٩١٦ وقدمت له انجلترا مساعدات مادية وأدبية كبيرة ، كان من أبرزها عشرة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ومقادير كبيرة من الأسلحة والذخائر ، كما قدمت انجلترا للشريف ، الكولونيل لورانس الذى أصبح الرأس المدبر للثورة والعقل المفكر للأشراف ، وقد استطاع هذا أن يكسو نفسه بغرورة عربية

خضع بها الشريف وأعوانه ، ودارى بها أحاسيس غربية مسيحية صهيونية متطرفة (١) ، وتقدمت الثورة بنجاح تجاه الشمال حتى دمشق وأعلن الشريف حسين استقلال العرب ، وفودى به ملكا على العرب في ديسمبر سنة ١٩١٦ •

— وفي نفس الوقت الذى كانت بريطانيا تجري مباحثاتها مع الشريف حسين وتتعهد باستقلال العرب ، كانت تجري مباحثات أخرى مع فرنسا تقسم بها ثروة « الرجل المريض » وتمت بذلك إتفاقية : سايكس — بيكو سنة ١٩١٦ وقد قبلت روسيا القيصرية هذه الاتفاقية إذ منحت من ثروة الرجل المريض ما أرادت • ويهنا من هذه الاتفاقية أنها قسمت المنطقة العربية موضع النزاع الى قسمين ، أحدهما يشمل المناطق الآتية :

١ — المنطقة الزرقاء وتمتد على الساحل السوري شمال فلسطين وتخضع لإدارة فرنسا •

٢ — المنطقة الحمراء وتمتد من خليج البصرة بحذاء حدود ايران حتى شمال بغداد وتخضع لإرادة بريطانيا •

٣ — المنطقة السوداء ويشمل فلسطين وقد تقرر أن تخضع لنظام إدارى دولى •

أما القسم الثانى فيشمل المنطقة الواقعة بين المنطقتين الزرقاء والحمراء ، وتقام دولة عربية بهذا القسم تشرف بريطانيا على الشطر المتصل بمنطقتها وتشرف فرنسا على الشطر المتصل بمنطقتها كذلك •

(١) انظر مذكرات وايزمان ص ٤٥ — ٤٦ وانظر كذلك كتاب « اليهودية » للمؤلف ص ٩٠ •

وعند نجاح الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ في روسيا ، نشرت روسيا وثائق الأرشيف السرى لروسيا القيصرية ومنها هذه الاتفاقية ، ولكن بريطانيا تتصلت منها مدعية أنها كانت محادثات عامة قد تمت قبل الثورة العربية ، وتقبل الشريف حسين هذا التفسير لشدة ثقته بحلفائه الانجليز •

— وفي نفس الوقت كذلك كانت اتجاثرا بتأييد الحلفاء تصدر تصريح بلفور في نوفمبر سنة ١٩١٧ وتتعهد بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، واكتفى الشريف حسين كذلك بتفسير خداع لا يحمل أى معنى الا تهدة الخواطر •

— انتهت الحرب في نوفمبر سنة ١٩١٨ وبدأ الاستعمار يسفر عن نياته الحقيقية ، وكان أول ما حرص عليه تعديل اتفاقية سايكس — بيكو بعد انسحاب روسيا من الميدان ، ويقضى هذا التعديل بما يلي :

١ — يكون انتداب فرنسا على كل سوريا لأن بقاء الجزء الديالى مستقلا سيسبب لها المتاعب •

٢ — تتنازل فرنسا عن الموصل لبريطانيا مقابل منحها حصة ألمانيا من بتبول الموصل •

٣ — توضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى لتعمل على تحقيق وعده بلفور •

— وكان شكرى باشا الأيوبي أحد زعماء الثورة العربية قد أعلن قيام السيادة العربية في بيروت في أكتوبر سنة ١٩١٨ ورفع العلم العربى ، وبعد أيام دخلت قوات الاحتلال سوريا وأنزلت العلم ، ثم انتهت الحرب وممرت فترة أدرك العرب فيها خداع الوعود البريطانية ، فاجتمع المؤتمر السوري في دمشق في ٨ مارس سنة ١٩٢٠ وقرر اعلان استقلال سوريا

ومعها فلسطين ولبنان دولة ذات سيادة ملكية دستورية ونادى بالأمير فيصل ملكا عليها ، ولكن بريطانيا وفرنسا لم تعترفا بهذا القرار .

— ووسط هذا الخلاف رأى الرئيس ويلسون أن يتعرف على الأحوال في هذه المنطقة فأرسل اللجنة التي عرفت بلجنة « كنج كرين King Crane Commission » وقد أخذت اللجنة تتصل بالهيئات والأفراد ، وقررت في النهاية المحافظة على وحدة سوريا بما فيها فلسطين ، فيما عدا الأماكن المقدسة التي توضع تحت إشراف دولي ، ووضع سوريا تحت وصاية لمدة محدودة على ألا تكون فرنسا هي الدولة الوصية بأي حال من الأحوال والعدول عن فكرة إقامة وطن يهودي بفلسطين ، والموافقة على جعل الأمير فيصل رئيسا للدولة ، ولكن هذه القرارات القريبة من العدالة لم تجد أي صدى عند المنتصرين .

— واجتمع المجلس الأعلى للحلفاء في أبريل سنة ١٩٢٠ في سان ريمو وفي هذا المؤتمر تمت تقسيمات المنطقة العربية ، على نحو التعديل الذي أجرى في اتفاقية سايكس — بيكو .

— وزاد بذلك الخلاف حدة ، فالمؤتمر السوري في مارس يعلن استقلال سوريا ويضع فيصل ملكا عليها ، ومؤتمر سان ريمو يضع هذه البلاد تحت الانتداب ، وقد عينت فرنسا الجنرال غورو مندوبا لها ، وقد أرسل هذا إلى فيصل إنذارا حاسما بقبول الانتداب دون قيد ولا شرط ، وإلغاء التجنيد الإجباري ، والسماح للجيش الفرنسي باحتلال حلب ومحطات السكة الحديد ، ومال فيصل إلى قبول الإنذار بل قبله فعلا ، فخلق هوة بينه وبين الشعب السوري ، ومع هذا فإن غورو لم يحفل برد الفعل السوري تجاه الإنذار قبولاً أو رفضاً بل تحرك بقواته إلى دمشق وتصدت له القوى العربية الثائرة التي لم يكن معها ذخائر تذكر ، وكان يقودها البطل

يوسف العظمة ، والتقى الجيشان عند ممر ميسلون وهو مضيق جبلى بين سوريا ولبنان ، وانتصرت القوة الغاشمة ودخلت دمشق وأبعدت الملك فيصل عن البلاد ، وبدأ بذلك عهد الانتداب المقيت .

— وقامت ثورات متتالية في سوريا ضد هذا الانتداب ، من أهمها ثورة البطل إبراهيم هنانو التي قامت في شمالي سوريا سنة ١٩٢٠ والثورة التي قامت في منطقة الفرات في نفس العام واستولت على دير الزور ، ولم يستطع الفرنسيون استردادها الا بعد عام ، وثورة حوران جنوبى دمشق في نفس العام أيضا ، على أن أعظم الثورات السورية ضد الانتداب الفرنسى هي الثورة الكبرى سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٧ ، وقد حدثت في الجبل بقيادة سلطان الأطرش ، وفيها استطاع الثوار إسقاط طائرة فرنسية ، فتوجهت لهم حملة فرنسية كبيرة ولكن الثوار أبادوها عن آخرها ، وامتدت الثورة من الجبل الى دمشق وغيرها من البلدان ، ولم تستطع فرنسا القضاء عليها الا بعد جهد كبير ، وقد أحست فرنسا بعد ما عانتها في هذه الثورة أن من المهم أن تغير سياستها ، وأن تعطى للمواطنين حقهم أو بعضه على الأقل ، وبهذا بدأت سلسلة المباحثات التي انتهت بمعاهدة سبتمبر سنة ١٩٣٦ بين سوريا وفرنسا ومعاهدة نوفمبر من نفس العام بين فرنسا ولبنان على أن فرنسا لم تقدم هاتين المعاهدتين للبرلمان الفرنسى وبذلك ظلتا معطلتين ، وضعفت الثقة بين فرنسا وبين سوريا ولبنان ، واضطرب النظام وأهلت الحرب العالمية الثانية والحالة في سوريا على هذا الوضع .

— وانهارت فرنسا أمام ألمانيا ، وبقيت سوريا تتنازعها قوة الفرنسيين القابضين لحكومة فيشى الموالية للألمان ، وقوة فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول ، وانتهى الأمر بانتصار قوة فرنسا الحرة مؤيدة بقوة جيش بريطانيا ، ودخلت هاتان القوتان سوريا في يونية سنة ١٩٤١ ، وسرعان ما أعلن الجنرال كاترو القائد العام للقوات الفرنسية الحرة ، بياننا قال فيه : « لقد أتيت لوضع حد لنظام الانتداب ، ولأعلن لكم أنكم أحرار ومستقلون ،

وعلى هذا ستكونون منذ هذه اللحظة شعوبا مستقلة ذات سيادة ، وسيكون في امكانكم أن تنظموا أنفسكم في دول مستقلة ، أو أن تتحدوا في دولة واحدة ، وفي أى من الحالتين سيؤكد استقلالكم وسيادتكم في معاهدة تبيّن فيها علاقاتنا المتبادلة ، وسوف تبدأ المفاوضات حول هذه المعاهدة بين ممثليكم وبينى في أقرب فرصة •

وفي ٢٧ سبتمبر ١٩٤١ أعلن الجنرال ديغول استقلال سوريا دون قيد ولا شرط ، وفي ٢١ نوفمبر من العام نفسه أعلن استقلال لبنان مشروطا بعقد معاهدة تحدّد العلاقات بينها وبين فرنسا •

كما أصدر السفير البريطاني في مصر السير مايلز لا ميسون باسم حكومته التصريح الآتى : « اننى مخول من قبل حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة أن أعلن أنها تعضد وتشترك في تأكيد الاستقلال الذى أعطاه الجنرال ديغول لسورية ولبنان » •

— وتحت ضغط الحرب خطت هذه الوعود نحو التنفيذ ، فقد أجريت الانتخابات العامة في سوريا سنة ١٩٤٣ وانتخب شكرى القوتلى رئيسا للجمهورية ، وعين سعد الله الجابرى رئيسا للوزارة ، وفي لبنان انتخب بشاره الخورى رئيسا للجمهورية وعين رياض الصلح رئيسا للوزارة ، وخطت الدولتان نحو تحقيق الاستقلال التام ، فأعلنت الحكومة اللبنانية أن اللغة الفرنسية لم تعد لغة رسمية ، كما أعلنت استقلالها التام ، فثارت فرنسا لذلك وألقت القبض على رئيس الجمهورية اللبنانية ووزرائه ، فهاج الرأي العام في سوريا ولبنان وفي العالم العربى كله ، وانضمت إنجلترا وأمريكا لهذا الاتجاه ، فأعيد رئيس الجمهورية والوزراء ، واتخذت الخطا لتسليم السلطات الى ذويها ، ولكن فرنسا أبدت الرغبة في الاحتفاظ بقوات لها في سوريا ولبنان ، ورغبت سوريا ولبنان هذه الرغبة •

— وتقدمت الحرب نحو النهاية وضمن الحلفاء النصر ، فبدأت فرنسا تعود القهقري في اتجاهاتها ، وصدر من دييجول تصريح في أكتوبر سنة ١٩٤٤ وآخر في يناير سنة ١٩٤٥ يقرر فيها ضرورة الاحتفاظ بمركز فرنسا المتفوق في سوريا ولبنان ، وفي فبراير سنة ١٩٤٥ أدلى بيرو وزير الخارجية الفرنسية بتصريح قال فيه : إن فرنسا مسئولة عن حفظ النظام في سوريا ولبنان وأنها تدافع عن امتيازاتها بالقوة المسلحة التي تحت تصرفها ، ووضعت فرنسا أسساً للمفاوضات تحت ضمان استقلال المؤسسات الفرنسية ، وضمان حقوق فرنسا الاقتصادية ، وضمان السماح لفرنسا بإنشاء قواعد بحرية وجوية في الجمهوريتين ، وقوت فرنسا اتجاهها بأن أرسلت إمدادات عسكرية الى بيروت في مايو سنة ١٩٤٥ ، وإزاء ذلك قررت سوريا ولبنان عدم السير في إجراءات المفاوضات واشتد التوتر بين القوات الفرنسية والقوات الوطنية وضربت فرنسا دمشق بالقتال ، فثار السوريون ثورة قوية شملت جميع أرجاء البلاد ، وهددت بريطانيا بالتدخل ، فتوقف العدوان الفرنسي ، ولكن بريطانيا بدأت تعمل أيضاً لترسخ قدمها من البلاد .

— ورفعت الحكومتان السورية واللبنانية احتجاجهما الى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وتحتّم أن تجري مفاوضات يمنح فيها صاحب الحق حقه ، وفي ٤ مارس سنة ١٩٤٦ أعلن أن بريطانيا وفرنسا قررتا الجلاء في وقت واحد على أن يبدأ في ١١ مارس وينتهي في ٣٠ ابريل فيما يختص بسوريا وقد تمّ ذلك فعلاً ، أما عن لبنان فقد تمّ جلاء الجنود البريطانية في ٣٠ يونية وتمّ جلاء الفرنسيين في آخر أغسطس من العام نفسه ، وزال بذلك كابوس الاستعمار عن سوريا ولبنان وبدأنا صفيحة جديدة من الحياة الحرة المستقلة .

٢ — فترة الاستقلال

من ١٩٤٦ حتى الآن

نحن الآن في العقد الخامس من القرن العشرين ، وقد أصبحت الشام مقسمة الى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، ولما أعلنت العصابات اليهودية قيام دولتهم وفي الوقت نفسه اتسعت مملكة شرق الأردن أصبح بالثنام خمس دول ، وليس لنا في التاريخ لسوريا العربية أن نتحدث عن الدولة التي أعلنتها العصابات اليهودية فذلك وضع مؤقت كبير الشبه بالإمارات اللاتينية التي أقامها الصليبيون بنفس المنطقة في القرن الحادي عشر ، وكما زال ملك الصليبيين سيزول ملك الصهيونيين ، وسنعود في يوم من الأيام — نرجو أن يكون قريبا — لضم هذه البقعة العربية المقدسة الى الوطن العربي ، وبالتالي للتأريخ لها في مجال التاريخ الإسلامي ، أما الآن فتتوقف أقلامنا مؤقتا عن السير في التاريخ لهذه المنطقة المنكوبة التي نرجو أن يدفع عنها الشر وتعود الى الوطن الأم ، وفيما عدا هذه المنطقة نواصل حديثنا عن دولة الشام .

سوريا :

خرجت سوريا من هذه المعمة الطويلة جريحة ، فقد فقدت أجزاء عزيزة من كيانها ، وأصبحت بعض هذه الأجزاء عداوة كإسرائيل أو مختلفة معها في المذهب ، كما حدث ذلك في فترات طويلة بالنسبة للأردن .

وقامت بسوريا مجموعة من الأحزاب اختلفت اتجاهاتها ، وظهر بها جيل من السياسيين الجدد بالإضافة الى السياسيين القدامى ، وكان كل من الطائفتين يرى أنه أحق بالسيطرة على مقاليد الأمور .

وتعرضت سوريا الى ألوان من الضغط من الاستعماريين أو من أولئك الذين ساروا زمناً في ركابهم ، فتركيا تهدد حدودها ، وحلف بغداد تدفعه القوى الاستعمارية ليضم سوريا ، والملك عبد الله يعلن في أغسطس سنة ١٩٤٧ مشروع سوريا الكبرى بقصد تجمع الشام من جديد على أن يكون ملكاً عليه ، أو على الأقل قيام دولة اتحادية من سوريا والأردن ولبنان وفلسطين ويبقى لكل دولة من هذه الدول استقلالها ، ويكون هو رئيساً للدولة الاتحادية ، وبسبب هذه الأحداث تعرضت سوريا لانقلابات عسكرية متتالية هي :

— انقلاب حسنى الزعيم في مارس سنة ١٩٤٩ •

— انقلاب سامى الحناوى في أغسطس سنة ١٩٤٩ •

— انقلاب أديب الشيشكلي في ديسمبر سنة ١٩٤٩ • ويقال إنه هو الذى دبر الانقلاب الأول ووضع على قمته حسنى الزعيم ، ثم قضى عليه ووضع سامى الحناوى حتى اشتدّ عوده فقضى على الحناوى وأعلن زعامته •

الوحدة مع مصر ثم الانفصال :

— انقلاب فيصل الأتاسى في فبراير سنة ١٩٥٤ وقد أعاد هذا الانقلاب الحياة الدستورية والانتخابات ، فأصبح هاشم الأتاسى رئيساً للجمهورية ، وصار فارس الخورى رئيساً للوزارة ، ثم أجريت الانتخابات فأصبح شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية من سنة ١٩٥٥ وصبرى العسلى رئيساً للوزارة ، وقد وصلت سوريا في هذه الفترة الى قمة التأثير بالاتجاه القومى العربى الذى ذابت فيه كل الاتجاهات والذى انبثقت عنه الرغبة في الوحدة الكاملة مع مصر ، وقد تمت هذه الوحدة في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ بناء على استفتاء أجرى في مصر وسوريا ، وأصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة ، وقد كانت هذه الوحدة تعبيراً عما يجيش في صدور العرب منذ فقدوا وحدتهم التى عاشت عدة قرون قبل الزحف العثمانى •

فهذا الانقلاب كان في الحقيقة عودة للحياة الدستورية السليمة وكان
قضاء على الانقلابات •

ويبدو أن الفصل بين سوريا ومصر من ناحية الأرض ممكن لهواة
التفرقة أن ينفثوا سمومهم ، وقد حدثت بعض الأخطاء خلال
الوحدة ، ولكن الذي نعتقد أن أرض سوريا لو كانت متصلة بأرض
مصر لما استطاعت قوة انفصالية أن تبرز وأن تتجح ، ولا تتجهت القوى
الى تصحيح الأخطاء لا الى تقسيم الدولة التي كانت أمل العرب •

وعلى كل حال فقد حدث الانقلاب ، وفيما يلي حديث عنه وعن
الانقلابات التي تلتها :

— انقلاب الانفصال في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ يقوده عبد الكريم
النحلاوي ، وموفق عاصمة ، وعبد الغنى الدهمان ، ومهيب هندی وفايز
رفاعي وفخرى عمر ، وقد تولى ناظم القدسي رئاسة الجمهورية ومأمون
الكزبري رئاسة الحكومة ، ثم جاء بعده عزة النص فمعروف الدواليبي ،
وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر رأى مصر في هذا الانقلاب بقوله
« ليس من الآنم أن تبقى سوريا قطعة من الجمهورية العربية المتحدة
ولكن من المحتم أن تبقى سوريا » •

— انقلاب ٢٨ مارس سنة ١٩٦٢ الذي أطاح بزعماء الانقلاب
السابق ونفاهم خارج البلاد ، وكان عبد الكريم زهر الدين يقود هذا
الانقلاب ويبقى ناظم القدسي رئيساً للجمهورية وتولى رئاسة الوزارة
بشير العظمة ثم خالد العظم •

وكان زعماء هذا الانقلاب يتكاثرون من فريقين رئيسيين ، أولهما
الفريق الذي يميل الى الوحدة ويسعى لإعادتها ، والثاني فريق حزب
البعث ، ولكن البعثيين استطاعوا أن يتغلبوا على الوجدوين ويتخلصوا
منهم •

— وفي يناير سنة ١٩٦٣ تم انقلاب جديد بقيادة قادة الانفصال الذين كانوا قد عادوا خلسة الى دمشق ، ولكن هذا الانقلاب لم ينجح •

— وفي ٨ مارس سنة ١٩٦٣ حدث انقلاب آخر في سوريا بقيادة اللواء زياد الحريري واللواء راشد قطيني ، وقبض زعماء الانقلاب على رئيس الجمهورية والوزراء ولجأ خالد العظم الى سفارة تركيا ، وقام مجلس ثورة يرأسه لؤي الأتاسي ، وتولى صلاح البيطار رئاسة الوزارة ، وفي هذا العهد بدأت اتصالات جديدة لإعادة الوحدة مع مصر ، بل لتوسيع نطاق الوحدة بضم العراق اليها بعد أن سقط عبد الكريم قاسم ، لكن هذا الاتجاه لم يكمل خطواته الى التجاح ، فقد استطاع البعثيون أن يستولوا على زمام السلطة ، إذ أنه في يوليو سنة ١٩٦٣ تولى أمين الحافظ السلطة وأمسك بجميع المناصب القيادية باسم حزب البعث متعاوناً مع حزب البعث في العراق •

— في فبراير سنة ١٩٦٦ هب جناح آخر من حزب البعث بانقلاب جديد في سوريا قضى فيه على « أمين الحافظ » ، وكان هذا الانقلاب بقيادة يوسف زعين وابراهيم ماحوس ، وفي ظل هذا الانقلاب أصبح نور الدين الأتاسي رئيساً للدولة •

— استولى حافظ الأسد على السلطة في مطلع سنة ١٩٧١ وفي ١٤ مارس انتخب رئيساً للجمهورية وهو الذي يشغل هذا المنصب الآن • (١٩٨٦) •

وفي سبتمبر من نفس العام أعلن قيام « اتحاد الجمهوريات العربية » من مصر وسوريا وليبيا بعد استفتاء شعبي أيدت الجماهير فيه قيام هذه الدولة الاتحادية ، ولكن الزمن مرّ دون أن يظهر لهذا الاتحاد شأن يذكر •

رعا الله سوريا ومنحها الاستقرار والسلام •

لبنان ورؤساؤه من عهد الاستقلال حتى الآن :

عقب استقلال لبنان ظل بشارة الخوري يشغل منصب رئيس الجمهورية حتى سنة ١٩٥١ ثم انتخب كميل شمعون رئيساً لهذه الجمهورية ، وظل هذا في منصبه السنوات الست ، التي حددها الدستور ، وقد حاول قبيل انتهاء المدة أن يغيّر من مواد الدستور بحيث يصبح له الحق في أن يعيد ترشيح نفسه لرياسة الجمهورية ، ولكن معارضييه كانوا أقوياء فوقفوا له بالمرصاد ، ووصلت الحالة بلبنان الى نوع من الصدام الداخلي المسلح ، فلم يستطع تعديل الدستور ، وانتخب فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية سنة ١٩٥٨ فأزال الخلافات التي كانت موجودة في لبنان ، ومشى بلبنان شوطاً نحو الاستقرار ، وفي سنة ١٩٦٤ انتخب شارل حلو رئيساً للجمهورية ، وفي سنة ١٩٧٠ انتخب سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية ، وفي مطلع سنة ١٩٧٦ انتخب الياس سركيس لرياسة الجمهورية ، وتسلم سلطاته في ٢٢ سبتمبر من نفس العام .

وقبيل نهاية مدته كان لبنان يشتعل نارا من الخلافات الداخلية ، ومن الجيوش الخارجية التي كانت تحتل بعض أراضيه ، وبخاصة الجيش الاسرائيلي الذي كان يحتل جنوب لبنان ، ووسط هذه الاضطرابات اختير بشير الجميل رئيسا للبنان في أغسطس سنة ١٩٨٢ على أن يتسلم سلطاته في ٢٢ سبتمبر ، ولكن القدر لم يمهله لتسلم هذه السلطات ، فقد لقي مصرعه في ١٤ سبتمبر من نفس العام ، وكان مصرعه في انفجار مروع دمر مبنى حزب الكتائب الذي يرأسه ، وكان بشير موجودا في المبنى الذي انهار على من فيه ، فلقى حوالي ٥٠ شخصا من زعماء الكتائب مصرعهم أيضا ، ويقال إن هذا التدبير كان جزاء له لصلته بإسرائيل .

وقد اختير عقب ذلك أخوه أمين الجميل لرياسة لبنان ، ولا زال يشغل هذا المنصب حتى الآن (١٩٨٦) مع ما يحيط به من عناء وآلام .

الأديان والطوائف في لبنان :

ولبنان ينظم حياته السياسية طبقاً للأديان والمذاهب به ، ورئيس الجمهورية ينتمي الى طائفة الموارنة ، ورئيس الوزراء ينتمي الى أهل السنة ، ورئيس مجلس النواب ينتخب من الشيعة ، ومقاعد البرلمان توزع بين الطوائف والمذاهب ، رجاء أن يخفف ذلك من حدة التفرقة الدينية والمذهبية به .

وبالنسبة للجيش مثلاً نجد إنه يتعين أن يكون القائد الأعلى ورئيس المخابرات من المارونيين ، وأن يكون رئيس الأركان من الدروز ، وأن يكون ٦٠٪ من الضباط من المسيحيين و ٦٠٪ من الجنود من المسلمين . وعندما وقع صدام الحرب الأهلية ذاب هذا الجيش حسب طوائفه وانقسم الى مجموعة انضمت للمسلمين ، ومجموعة انضمت للكثائب المسيحيين ، وثالثة انضمت للسوريين ، ورابعة وهي أصغر هذه المجموعات ظلت موالية للحكومة ورئيس لبنان . وهكذا انتهى الأمر بأن أصبح لكل طائفة وكل فئة في لبنان جيشها بينما رئيس لبنان الشرعي لا جيش له ولا قوة .

الطوائف اللبنانية :

ولا توجد في لبنان أية إحصائيات رسمية حول التركيب السكاني للمجتمع بطوائفه وطبقاته الاجتماعية إلا في حدود ضيقة ومحدودة وغير رسمية وذلك منذ بداية الثلاثينات ، وحتى المرحلة الراهنة . غير أنه في عام ١٩٧٧ أجرت المنظمة الفرنسية لتنظيم الأسرة مسحاً شاملاً لسكان لبنان وطوائفه ، كانت أبرز نتائجه بالنسبة للتوازن السكاني ما يلي :

- ١ — الشيعة ٨٥٠ — ٩٠٠ ألف نسمة ٢٨٪ .
- ٢ — الموارنة ٧٥٠ — ٨٠٠ ألف نسمة ٢٤٪ .
- ٣ — السنة ٦٠٠ ألف نسمة ١٩٪ .
- ٤ — الأرثوذكس ٣٠٠ ألف نسمة ٩٪ .
- ٥ — الدروز ٢٥٠ ألف نسمة ٦٪ .
- ٦ — الكاثوليك ٢٥٠ ألف نسمة ٦٪ .
- ٧ — الأرمن ١٦٠ ألف نسمة ٥٪ .

وهناك طوائف مسيحية أخرى قوامها ٥٠ ألفاً وهذا التعداد له دلالاته في التوازن السياسي بين الطوائف المتصارعة فالثابت إن هذه النسب توضح اختفاء التوازن بين الطوائف ، فالطوائف الإسلامية مثلاً قد نمت نموّاً يجعلها تحسّ بأنه ليس لها نصيب عادل في الثروة والسلطة .

(الأهرام في ١٨ / ٥ / ١٩٨٤ بتصرف)

ويسمح لبنان بالحرية الثقافية الى أقصى مدى ، فهناك الجامعة الأمريكية ومدراس الإرساليات ، وهناك الكليات التابعة لجامعة الإسكندرية ، الى جانب المدارس والمعاهد اللبنانية ، وإلى جانب دور النشر والصحافة مختلفة الاتجاهات التي تتخذ من لبنان مقراً لها .

الحرية الثقافية بلبنان وأخطارها :

وباسم هذه الحرية الثقافية طالما كانت لبنان أرضاً تفرج منها المطبوعات التي تهاجم الإسلام ، وترتفع منها الأصوات المأجورة ، وهذه الكلمات تكتب وفي يدي مجموعة من الكتب المنحرفة التي مسدّرت بلبنان تحت عنوان « دروس قرآنية » وهي كتب حافلة بالانحرافات الفكرية والدينية مما يجعل فكرة الحرية يساء استعمالها في كثير من الأحوال .

حروب أهلية في لبنان :

وقد شهد لبنان ابتداء من سنة ١٩٧٥ وحتى كتابة هذه السطور في شهر ابريل سنة ١٩٨٦ صراعاً دموياً عصبياً ، تارة بين حزب الكتائب والفدائيين ، وتارة بين المسلمين والمسيحيين ، ووقفت طرابلس الشام مواجهة لبلدة زغرتة فترة طويلة ، واستعملت في هذه الحروب الأهلية مختلف أنواع الأسلحة بما في ذلك الأسلحة الثقيلة ، والدبابات والصواريخ .

وقد تدخلت سوريا في هذه الحرب مرة مع الفلسطينيين ومرة ضدهم .

ويرى رئيس جمهورية لبنان أن قوات المقاومة الفلسطينية تشكلت في لبنان وأنها تكون دولة داخل الدولة ، وترى مصر أن حركة سوريا ورئيس جمهورية لبنان مؤيدة بكميل شمعون وبالمسيحيين ترمى الى القضاء على المقاومة الفلسطينية وأن اسرائيل وأمريكا تؤيدان هذه القوى .

وقد سئل محرر بصحيفة « الأهرام » عن هذه الحرب فأجاب في عدد ١٩٧٥/١٢/٢٦ إجابة فيها كثير من الحق ، وفيما يلي السؤال والجواب :

هناك تساؤلات : ما نوع هذه الحرب ؟ وما سببها ؟ وهل هي مجرد صراع سياسى أم أنها حرب أهلية طائفية ؟

وأجاب بقوله : « إن الحرب الدائرة في لبنان هي « ميني » حرب عالمية ثالثة بمعنى أن معظم الدول الأساسية في العالم لها ضلع فيها ؛ فالولايات المتحدة لها ضلع ، وروسيا لها ضلع ، وبعض الدول الثورية والاستراكية لها ضلع ، واسرائيل لها ضلع ، وبعض الدول العربية لها

ضلع ، وكل الضالعين في هذه الحرب يمدون الجماعة المتصارعة في لبنان بالمال والسلاح • ولو أن هذه الحرب كانت بأموال لبنانية لما أمكنها أن تستمر أكثر من أيام قليلة • أسبوع أو أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على الأكثر •

« كذلك يمكن تصنيف هذه الحرب في بعض أوجهها على أنها مثل حرب اليمن التي قاتل فيها اليمنى شقيقه اليمنى بأموال الغير •

« والحرب الدائرة في لبنان ليست طائفية تماماً ، وليست طبقية تماماً ، ولكن الخريطة الاجتماعية للناس تجعل هذه الحرب تبدو طائفية وطبقية في الوقت نفسه • وبشيء من التفصيل إن الحرب دائرة بين فريق من الموارنة وفريق من المسلمين وليست بين كل الموارنة وكل المسلمين » •

وهذه الكلمات تكتب وقد زادت مشكلة الحرب الداخلية في لبنان تعقيداً ، ولم تعد الحرب داخلية بل اندفعت لها عناصر خارجية ، وفيما يلي خلاصة الأحداث حتى كتابة هذه السطور في إبريل سنة ١٩٨٦ •

تطور الحرب الأهلية في لبنان

قلنا آنفا ان الحروب اتجهت — بقصد أو بدون قصد الى أن صارت حربا بين المسلمين والمسيحيين في لبنان ، ومن الأسباب التي جعلت للحرب تصل الى هذا المدى أن بعض القوات الفلسطينية هناك كانت تمارس درجة متطرفة في لبنان مما جعلها تكون دولة داخل الدولة ، بل يصفها بعض الصحفيين بأنها وصلت لدرجة أفقدت السلطة الرسمية اللبنانية شرعيتها ، وأفقدتها احترام الشعب لها ، ووقف التقدميون المسلمون اللبنانيون الى جانب المنظمات الفلسطينية ، فاستجد الجانب المسيحي بسوريا وتقول الصحافة المصرية ان السوريين رحبوا بالدعوة • وزحفوا بقواتهم داخل الحدود اللبنانية ، واشتركوا في الحرب الأهلية الى جانب المسيحيين ، ولم تقبل سوريا التدخل في الحرب ، هبا في الجانب المسيحي ، ولا كرها للجانب الفلسطيني الاسلامي ، وانما تدخلت لاشيء الا لتضع لها قدما فوق الأرض اللبنانية ، التي ما زال السوريون يعتبرونها أرضهم التي انتزعها منهم الاستعمار الفرنسي وأطلق عليها اسم « دولة لبنان » ولا شك أن هذا الاحساس جدير بالتقدير •

ورحب حافظ الأسد بالدعوة ليضرب عصفورين بحجر واحد • فهو لا يكتفى باحلال التواجد السوري المسلح ، داخل لبنان ، وانما يضيف اليه توجيه ضربة عنيفة الى المنظمات التي تمردت عليه ، •

وتهقق لحافظ الأسد ما اراده تماما •• !

فقواته احتلت لبنان ، بتأييد معظم العواصم العربية ، ويدعوه من الجانب المسيحي اللبناني ! وبنادقته ، نجحت في « تأديب » المتمردين •

سوريا تتخلى عن المسيحيين وتنضم للمسلمين :

وبعد أن حققت سوريا أغراضها بضرب الفلسطينيين وتأييدهم ،

وتثبيت أقدامها في لبنان صححت موقفها ، فقرر الرئيس حافظ الأسد توجيه قواته بتناقله ، ودباباته ، الى صدور رجال الميليشيا المسيحية المعتدية ، وأن يمد يد التحالف ، والتعاون ، الى رجال المنظمات الفلسطينية التي أعلنت ولائها له وإلى التقدميين المسلمين .

المسيحيون يطلبون العون من إسرائيل :

ونظر لبنان أول ما نظر الى الدول الغربية المسيحية ، ولكنه لم يجد منها سوى المواساة ، والكلمات الطيبة ، والمعونات الغذائية ، والطبية . واضطر المسيحيون اللبنانيون الى التحالف مع الشيطان . وكانت إسرائيل هي الشيطان المقصود . وتمت إتصالات بين الجانبين . ورحب الشيطان بالدعوة المفتوحة التي قدمت اليه . وقامت إسرائيل بتقديم السلاح للمسلحين المسيحيين . وذهب رجال الميليشيا المسيحية الى داخل إسرائيل للتدريب في معسكرات الجيش الاسرائيلي . كما تعود قادة من القوات المسلحة الاسرائيلية على الذهاب الى داخل لبنان ، لتفقد استحكامات الميليشيا ، وتقديم النصح ، والخبرة .

إسرائيل تدخل لبنان :

ولم تقنع إسرائيل بأن تعيش بلبنان في الظل ، ولم يقنع الموارنة بالأسلحة والتوجيه من إسرائيل ، فطلب حزب الكتائب من إسرائيل أن تدخل لبنان بجيشها لخراج العدو المشترك وهو الفلسطينيين والسوريون ، ودخلت إسرائيل لبنان .

الولايات المتحدة تدخل لبنان :

عندما دخلت إسرائيل لبنان اتجهت لضرب الفلسطينيين وحاصرتهم

في بيروت ، وألزمتهم مغادرة لبنان ، ولكن الفلسطينيين رفضوا الخروج .
الا اذا جاءت قوة تحمي ظهورهم في أثناء الخروج ، وقاوموا مقاومة شديدة ،
فدخلت أمريكا لبنان لهذا الغرض ، ولكنها سرعان ما خرجت من بيروت .
اغتيال بشير الجميل :

كان بشير الجميل الذي انتخب رئيسا لجمهورية لبنان كما سبق ،
قائدا من قواد الكتائب ، وشديد التعصب للموارنة ، واحست الجماعات
الأخرى في لبنان أن الرئيس ليس رئيسا للشعب كله ، وأنه منحاز لأحد
طرفي الخصومة في لبنان ، واتجهت المقاومة لحاصرته . فسقط صريعا في
الانفجار المروع الذي أشربنا له من قبل ، والتهمت لبنان نارا ، ثم اختير أمين
الجميل ، وهو أكثر هدوءا من أخيه ، ويقولون انه شخصية غير دموية .
مجزرة صبرا وشاتيلا :

انتهزت إسرائيل فرصة قتل بشير الجميل وتعاونت مع الكتائب
لانتقام مثير وغادر ، بأن دبرت لحدوث أعظم مجزرة عرفها العصر
الحديث ، وهي مجزرة مخيم صبرا وشاتيلا ، فقد خططت القوات
الإسرائيلية للقضاء على هذين المخيمين قضاء تاما بواسطة رجال الكتائب ،
وكان بيجين وشارون يمثّلان التدبير وحركة التدمير بالغة الأسي .

وقدمت القوات الإسرائيلية للكتائب السلاح وحرس الزاحفين ،
وأيدتهم بكل الوسائل فاتجه هؤلاء في المدة من ١٦ الى ١٨ سبتمبر سنة
١٩٨٢ . وهاجموا المخيمين وذبّحوا الآلاف من الرجال والنساء والأطفال
واستولوا على ما كان يملكه الضحايا من أموال وثروات .

وقد فزع ضمير العالم لهذا العدوان وهذه المجزرة فالتفت لجنة

تحقيق دولية للنظر فيها ، وقد جاء في تقريرها أن الأدلة التي تجمعت لديها تؤكد أن القوات الاسرائيلية قدمت مساعدة جوهرية للمجرمين الذين اجتاحتها مخيمى صبرا وشاتيلا في بيروت وذبحوا المئات من الفلسطينيين .. بل أن هؤلاء المجرمين كانوا يتحركون تحت قيادة اسرائيلية .

وأوضح التقرير أن اسرائيل قدمت المساعدة في التخطيط لمذبحة تستهدف الإبادة كما قدمت امدادات وتسهيلات في عمليات القتل الفعلية ، وذكر التقرير أيضا ان الهدف الرئيسى لاسرائيل من غزو لبنان لم يكن القضاء على المقاومة الفلسطينية بل تدمير شخصية الشعب الفلسطينى وتحطيم هوية الاعتراف المترايد بحقه في اقامة دولته في الضفة الغربية وقطاع غزة وكذلك تشتيت السكان الفلسطينيين عن طريق نسف مخيماتهم وارتكاب المذابح ضدهم ، وذكر أربعة من أعضاء اللجنة ان « التدمير المتعمد » للحقوق الوطنية والثقافية للفلسطينيين يمثل « أحد أشكال جريمة الإبادة » .

وكانت اسرائيل قد رفضت التعامل مع هذه اللجنة الدولية وحظرت على أى مواطن اسرائيلى الادلاء بشهادته أمامها ، وتذرعت بانها قامت بتشكيل لجنة اسرائيلية ..

وشهد شاهد من أهلها :

أما اللجنة التى كونتها اسرائيل لدراسة هذه المجزرة فقد نشرت تقريرها فى أوائل شباط سنة ١٩٨٣ ، وفيما يلى خلاصة ما أذاعته وكالات الأنباء عن هذا التقرير :

أذاعت لجنة التحقيق الاسرائيلية تقريرها عن نتائج تحقيقاتها بشأن مذابح مخيمى صبرا وشاتيلا فى سبتمبر الماضى ، وأوصت اللجنة باستقالة أو اقالة اريل شارون، وزير الدفاع ومعز الجنرال يهوشوا ساجى مدير المخابرات الحربية . وأعلنت اللجنة أن شارون ارتكب أخطاء جسيمة

بسماحه للميليشيات اليمينية بدخول المخيمات الفلسطينية رغم علمه بالنتائج التي قد تترتب على هذه الخطوة وهي ارتكاب المذابح ضد الفلسطينيين •

وقد اتهمت اللجنة مناحم بيجين بأنه اتخذ موقف اللامبالاة من القرار العسكري بالسماح للميليشيات بدخول المخيميين ، وهو لهذا يتحمل قدرا من المسؤولية •

وأدانت اللجنة بعض المسؤولين الإسرائيليين ، وعلى رأسهم أرييل شارون وزير الدفاع واسحق شامير وزير الخارجية •••••

المظاهرة الديمقراطية مفتعلة :

ومن الغريب أن هذه المظاهرة الديمقراطية المفتعلة •• لم تنتج اثرا •• فقد ظل شارون وزيرا بلا وزارة لمدة ١٨ شهرا •• ولكنه عاد مرة أخرى وزيرا للتجارة والصناعة في الحكومة الجديدة •• وكوفي شامير بأن وجد نفسه بعد هذه المذبحة بعام واحد •• رئيسا للحكومة •• ويتباهى ايتان منصبا أكبر في الجيش الاسرائيلي •• وهكذا •• والأغرب أن الشعب الاسرائيلي الذي ثار في ذلك الوقت •• عاد لينتخب الحاخام المتطرف مائير كاهن — زعيم حركة كاخ — عضوا في الكنيست •

عدد القتلى ودور اسرائيل :

وقد أذاع رالف شوينمان سكرتير الفيلسوف البريطاني الراحل « راسل » في مؤتمر صحفى عقد في نيويورك في أول أكتوبر سنة ١٩٨٢ أن المعلومات الوثيقة تؤكد أن القوات الاسرائيلية اشتركت بالفعل في مذابح صابرا وشاتيلا في بيروت الغربية ، وأن أربعة مبعوثين فلسطينيين كانوا قد توجهوا لمراكز القيادة الاسرائيلية لإعلان استسلام المخيمين قد عثر عليهم قتلى ، وأن عدد الضحايا في هذه المذبحة كان عدة آلاف •

نحن نحذر :

الليل لا يظل ليلا ، والنهار لا يبقى نهارا ، وسيجيء يوم يصبح
المغلوب غالبا كما حدث في الحروب الصليبية ، وويل للطاقة مما يرمده
التاريخ ، ونحن نرصد هذه الأحداث حتى لا يلام العرب ان هم في يوم
من الأيام ثأروا لأنفسهم .

القوة متعددة الجنسيات :

وازاء تفجر الموقف بعد مجزرة صبرا وشاتيلا طلب الرئيس اللبناني
الجديد (أمين الجميل) من أمريكا أن تدخل للمساعدة في حفظ الأمن ،
فقبلت أمريكا ، وعادت قواتها فدخلت لبنان مع بعض القوات الفرنسية
والإنجليزية والإيطالية باسم « القوة المتعددة الجنسيات » .

عملية فدائية ضد الولايات المتحدة :

تعرض مقر القيادة الأمريكية بلبنان الى عملية انتقامية بالغة الخطورة
لم يتضح بالضبط من الذي قام بها ، فهناك سيارة كانت تحمل قدرا هائلا
من المتفجرات ، وكان الذي يقودها يلبس الملابس الأمريكية ، واندفع بها
الى مقر القيادة فحواله الى كومة من التراب ، وراح المئات من الأمريكيين
وبعض الفرنسيين شحيا هذا الحادث .

وقد اختلفت الآراء حول من قام بهذا الحادث ، هل هم الفلسطينيون
الذين أرادوا الانتقام من الأمريكيان الذين يساعدون اسرائيل والذين قتل
شحيا صبرا وشاتيلا بأسلحتهم ؟

هل هم الكتائب الذين يرون أن الأمريكيان جاؤوا الى لبنان للحد
من نشاطهم والانتقام منهم ؟

هل هي اسرائيل التي لا صاحب لها والتي يهمها أن تثير في المنطقة
كل المتاعب ، ويهمها إسالة الدماء ، أي دماء ؟

هل لايران أصبح في هذه المؤامرة ؟

لم تتحدد التهمة حتى الآن ، وربما لن تتحدد أبدا .

اتفاق لبناني اسرائيلي والغاؤه :

في مايو سنة ١٩٨٣ تم توقيع اتفاق لبناني اسرائيلي كمعاهدة صلح :
ولكن اسرائيل اشترطت أن تجلو كل القوات من لبنان ، وكانت تقصد
بذلك اخراج القوات السورية ، ولكن سوريا لم تستجب طبعا لهذا الأمر ،
ودافعت عن نفسها وعن اتجاهاتها أروع دفاع مما هزء القوات الأمريكية
وهدها .

• وكان هذا الاتفاق " على كل حال قصير العمر .

ان المشكلة اللبنانية لا تزال معقدة ، لأن جذورها قديمة ومتجددة
كما رأينا ، وقد خسرت لبنان كثيرا بسبب هذه الحروب ، وخسر العالم
العربي مركزا فكريا كان يشع نورا على المنطقة بأسرها .

مواكب الشهداء اللبنانيين ضد اسرائيل :

في ابريل سنة ١٩٨٥ قادت فتاة اسمها « سناء مهيدلة » عمرها ١٦
سنة عملية انتحارية خطيرة ضد الجيش الاسرائيلي بلبنان ، وقد سجلت
البطلة حديثا للاذاعة قبل قيامها بالعملية قالت فيه انها قررت الانضمام
لمواكب الشهداء الذين استشهدوا وهم يقاومون الاحتلال الاسرائيلي للبنان ،
وكانت هذه الفتاة قد قادت سيارة مملوءة من طراز بيجو ٥٠٤ تحمل ٤٠٠
ك ج من المتفجرات وهاجمت بها قافلة عسكرية اسرائيلية ، وقد أسفرت
هذه العملية عن مصرع واصابة خمسين جنديا اسرائيليا .



سناء مهيدلة : في موكب الشهداء

اتفاق ونقصه :

وفي ديسمبر سنة ١٩٨٥ تم توقيع اتفاق السلام بين الميليشيات اللبنانية الرئيسية الثلاث « اليمينية والدرزية والشيعية » في دمشق وقد وقع الاتفاق الذي يستهدف انتهاء الحرب اللبنانية كل من : ايلي حبيقة رئيس اللجنة التنفيذية للقوات اللبنانية (عن الميليشيات اليمينية) ووليد جنبلاط زعيم الدروز ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي ونبيه بري زعيم حركة « أمل » الشيعية . وقد تم التوقيع في مكتب عبد الحليم خدام نائب الرئيس السوري وفي حضوره . وقد عقد اجتماع قصير قبل التوقيع على الاتفاق ضم لأول مرة زعماء الميليشيات الثلاثة وحضره خدام . وبعد توقيع الاتفاق تصافح الزعماء الثلاثة بينما أخذ مساعدوهم يتبادلون التهنئة .

وكان زعماء الميليشيات الثلاثة قد وصلوا إلى دمشق لتوقيع

الاتفاق لإنهاء الحرب الاهلية التي راح ضحيتها ١٠٠ ألفا قتل على الأقل خلال ١٠ سنوات وأدت الى خسائر قدرت بـ ٢٠ مليار دولار • ووصل كل من بري وجنبلاط في الصباح بينما وصل حبيقة بعد الظهر مما أدى الى إرجاء التوقيع الذي كان مقررا أن يتم في العاشرة صباحا •

ولكن هذا الاتفاق سرعان ما ضاع أثره قبل أن يجف حبره •

والله ندعو أن يرعى بلادنا العربية ، وأن يعيد للبنان هدوءه واستقراره ، ويبعد عنه شياطين الانس وفي مقدمتهم العدو الأصيل للعرب والمسلمين والانسانية : إسرائيل •

المملكة الأردنية الهاشمية :

تحدثنا من قبل عن المملكة الأردنية الهاشمية حتى وصلنا بها الى ضم الأرض الواقعة غرب نهر الأردن في أثناء الحرب التي قام بها الدرب لتحرير فلسطين من عصابات اليهود ، ولقد ورث الملك عبد الله طموح أبيه الشريف حسين عند ما ضم هذه المنطقة ، وقد ظل الطموح يدفعه فأعلن مشروع سوريا الكبرى ليضعها بطريق أو بآخر تحت سلطانه ، وليكوّن منها ومن العراق حيث كان يجلس أخوه فيصل مملكة اتحادية •

وقد قُتل الملك عبد الله في القدس سنة ١٩٥١ • وتولى الحكم بعده ابنه طلال ولكنه اتجه اتجاها عربيا عارض به خطط بريطانيا الاستعمارية ، فانضم بالجنون ، وأبعد عن العرش سنة ١٩٥٣ وتولى العرش بعد إبعاده ابنه الملك حسين ولا يزال يشغل هذا المنصب حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ فهو بذلك أقدم الملوك والرؤساء العرب الموجودين الآن ، أما الملك السابق طلال فقد عاش في تركيا بعد عزله حتى مات سنة ١٩٧٢ •

والأردن يعيش في جو من القلق لسبب بسيط هو قلة موارده ، واعتماده على الهبات والمساعدات التي يحصل عليها من دول الغرب ، وفي

خلال وزارة سليمان النابلسي ١٩٥٦ — ١٩٥٨ ، رأت مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية أن تدفع للأردن ما يكمل ميزانيته وما يجعله في غنى عن مساعدات الغرب ، وعلى الرغم من توقيع اتفاقية بذلك في يناير سنة ١٩٥٨ تنص على أن تدفع هذه الدول ١٢ مليوناً من الجنيهات للأردن كل عام لمدة عشر سنوات ، فإن الاتفاقية لم توضع موضع التنفيذ ، لأن مؤامرات العرب تدخلت — فيما يبدو — فباعدت بين الأشقاء .

وقد رأى مؤتمر القمة السابع الذي عقد بالرباط في أكتوبر سنة ١٩٧٤ أن يعود للفلسطينيين كل جزء يتحرر من فلسطين ، ووافق الملك حسين على ذلك واتخذ الإجراءات الدستورية لتنفيذ ذلك ، وهذا موقف يحمد للملك .

موقف الأردن جدير بالتقدير :

قررت أكثر الدول العربية مقاطعة مصر عقب معاهدة « كامب ديفيد » وحلكت القطيعة محل الإخاء ، ولم ترفض هذا الإجراء إلا عمان والسودان والصومال ، ومرت السنوات على هذا النحو ، ثم ارتفع صوت الملك حسين يعلن عودة العلاقات مع مصر ، وعودة تبادل السفراء ، فكان موقفاً جديراً بالتقدير من المصريين الذين تشدد رغبتهم على دوام الصلة بين الأشقاء ، ويرون أن ما بين مصر والدول العربية يعلو على القطيعة . شكراً للأردنيين على هذا الموقف العظم .

فلسطين :

نجا من فلسطين في الجولة الأولى جزء نرجو أن يكون المركز الذي ستطلق منه القوة التي تحرر الوطن السليب ، وذلك الجزء هو قطاع غزة ، وكذلك الجزء الذي ضمته الأردن إليها ، ومنذ النكبة سنة ١٩٤٨ ساح الفلسطينيون في البلاد العربية يحيطون بأرضهم المفتصة ويتربعون ساعة الزحف لتحرير هذه الأرض ، وقد بدأت الاتجاهات لابرار الكيان

الفلسطيني ، وكان مطلع هذه الاتجاهات أن سُمِّحت غزة الحكم الذاتي تحت اشراف جمهورية مصر ، وأعلن الدستور المؤقت للشعب الفلسطيني في مارس سنة ١٩٦٢ ، كما بدأ تكوين جيش فلسطيني كبير العدد قوى العدة ، وفي دورة الجامعة العربية التي عقدت في سبتمبر سنة ١٩٦٣ وافقت الدول العربية على مشروع يقضى بالمحافظة على الشخصية الفلسطينية والعمل على تجميع قوى الشعب الفلسطيني المشتت استعداداً لانبثاق العودة ، وأصبح السيد أحمد الشقيري ممثلاً لفلسطين في المجامع الدولية ، وقد اتصل بالفلسطينيين في جميع البلاد العربية واستطاع بعد الزيارات والمشاورات أن يقترح مشروع الميثاق القومي الفلسطيني ومشروع منظمة التحرير الفلسطينية ، وقد عُرِض المشروعان على المؤتمر الفلسطيني الذي عُقد بمدينة القدس في مايو سنة ١٩٦٤ وأصدر المؤتمر توصيات أهمها :

- ١ — اقرار الميثاق القومي الفلسطيني وهو يتكون من ٢٩ مادة •
- ٢ — انشاء منظمة تحرير فلسطين على أساس تنظيمين أحدهما شعبي والآخر عسكري •
- ٣ — انشاء الصندوق القومي الفلسطيني لتمويل منظمة التحرير ، وإصدار سندات تحرير فلسطين بكفالة الجامعة العربية •
- ٤ — يخصص أسبوع باسم أسبوع فلسطين يبدأ في ١٥ مايو من كل عام •

واتخذ الفلسطينيون شعاراً لهم هو « اننا عائدون » وقد بدعوا فِعْلاً في اطلاق مضجع اليهود بفلسطين اطلاقاً يكاد يكون متصللاً ، فان الفدائيين يتسللون الى بلادهم وبلاد أجدادهم ، وهم أعرف الناس بمسالكها ومساربها فينشرون الرعب والذعر بين الغاصبين •

وقد اختير ياسر عرفات مكان أحمد الشقيري ، وبذل جهدا كبيرا في إبراز قوة المعارضة ، وإن كانت لم تصل بعد الى ما يرجى لها من مكان .
وقد شهد عام ١٩٧٥ تصاعد العمل الفدائي الجريء وأنزل بالعدو كثيرا من الضربات ، وبعث الخوف والقلق في كل منزل وناد .

والصراع الآن يدور ، ويشترك فيه كل عربي وكل مسلم ، وينبغي ألا يقتصر أحد من هؤلاء في دفع نصيبه بسخاء وحماسة وأمل ، وهذا المطلب يتطلب الجهود من كل الفئات ، يتطلع الى براعة السياسة ، وعقول المفكرين ، وأقلام الكتاب ، كما يتطلع الى مال الغنى ، وبسالة الجندي ، وبقظة المشرفين .

وقد تحدثنا من قبل عن جولة يونيو سنة ١٩٦٧ وعن الفكسة التي خلفها الإهمال والانحراف ، وقد ساعد ذلك اسرائيك على ابتلاع غزة والضفة الغربية لنهر الأردن ولكن العرب يعرفون أن الحرب الصهيونية لن تكون سهلة يسيرة ، ولذلك فإن العرب ينبغي أن ينتفعوا بالنكسات كما ينتفعون بالانتصارات ، ولا بدء مما ليس منه بدء .

وقد تحدثنا في كتاب خاص (مصر في حربين) عن انتصارات أكتوبر سنة ١٩٧٣ التي استعاد بها العرب مكانهم في التاريخ السياسي والعسكري ، والتي فتحت الباب لتسوية سلمية للمشكلة الفلسطينية .

وفي مؤتمر القمة الذي عقد بالرباط في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٧٤ اجتمعت كلمة القادة — كما سبق — على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا وحيدا للشعب الفلسطيني ، وعلى أن أي جزء يتحرر من فلسطين يعود للفلسطينيين بزعامة منظمة التحرير ، وقد وافق الملك حسين على ذلك ، وهذا فتح الباب لعودة حميدة لفلسطين الحبيبة .

ووافقت الأمم المتحدة على بحث قضية فلسطين من جديد في نوفمبر

سنة ١٩٧٤ وعلى دعوة منظمة التحرير لتمثيل فلسطين في هذه الدورة ولتحدث باسم فلسطين ، وكانت قضية فلسطين قد شطبت وحلت محلها قضية اللاجئين ، ثم تنوسيت قضية اللاجئين ، ولكن انتصار أكتوبر سنة ١٩٧٣ بعث الحياة من جديد في قضية فلسطين •

وفي الأمم المتحدة ألقى ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير خطابا خطيرا نقتطف منه بعض الفقرات :

« ان الأمم المتحدة قامت وسط تحركات حربية عام ١٩٤٧ بتقسيم ما لا يجوز لها تقسيمه وهو أرض الوطن الواحد • ونحن رفضنا هذا القرار فأننا كنا مثل أم الطفل الحقيقية ، التي رفضت أن يقسم تسليمنا طفلها • حين نازعتها عليه امرأة أخرى •

« ومع ذلك • • • فقد منح قرار التقسيم المستوطنين الاستعماريين ٥٤٪ من أرض فلسطين وكان ذلك لم يكن كافيا بالنسبة لهم فشنوا حربا إرهابية ضد السكان المدنيين العرب واحتلوا ٨١٪ من مجموع مساحة فلسطين وشردوا مليون عربي • معتصبين بذلك ٥٢٤ قرية ومدينة عربية ، دمروا منها ٢٨٥ مدينة وقرية تدميرا كاملا وسحوها من الوجود ، وحين فعلوا ذلك أقاموا مستوطناتهم ومستعمراتهم فوق الأنقاض ، وبين بساتيننا وحقولنا ، ومن هنا تكمن جذور المشكلة الفلسطينية •

« ولم تكف إسرائيل بذلك ، بل شنت حربين للتوسع سنة ٥٦ و ٦٧ ضمت فيهما سيناء والجولان وباقي فلسطين حتى نهر الأردن •

« وجاءت حرب ١٩٧٣ لتؤكد للعدو عقم سياسته الاحتلالية واعتماده على شريعة القوة ولكن العدو لم يتعظ بذلك •

« ويقولون اننا ارهابيون ، والحق أن الجانب الذي يقف فيه حامل السلاح هو الذي يميز بين الناصر والارهابي فمن يقف في جانب

قضية عادلة ومن يقاتل من أجل حرية وطنه واستقلاله ضد الغزو والاحتكار والاحتلال والاستعمار لا يمكن بأي حال أن تنطبق عليه صفة ارهابي والا اعتبر الشعب الأمريكي حين حمل السلاح ضد الاستعمار البري اربابا اربابيا .. واعتبر كثيرون منكم في هذه القاعة اربابيين .. واعتبر نضال الشعوب في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية اربابا .

« إن الارهاب الصهيوني هو الذي استلب حق الشعب الفلسطيني لاجلائه عن وطنه .. واقتلعه من أرضه .. ومدون لديكم في وثائق رسمية وزعت في الأمم المتحدة أن العدو ذبح الآلاف من أبناء الشعب في قرأهم .. ومدنهم ، وأجبر عشرات الألوف تحت نار البندقية وقصف المدافع والطائرات .. أن يتركوا بيوتهم وما زرعوا في أرض أجدادهم .

« ولقد قدم شعبنا في السنوات العشر الأخيرة من نضاله آلاف الشهداء ، وأضعافهم من الجرحى والمشوهين والأسرى والمفقودين من أجل ألا يفنى أو يذوب .. ومن أجل انتزاعه حقه في تقرير مصيره على وطنه وفي عودته الى هذا الوطن .

وتعيش جماهير شعبنا الآن تحت الاحتلال الصهيوني تقاوم بكل الكبرياء المناضل فيها ، وبكل الشموخ الثوري المألزم لها .

« إننى كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية .. وكقائد للثورة الفلسطينية أتوجه اليكم أن تقفوا مع نضال شعبنا من أجل تحقيق حقه في تقرير مصيره .. هذا الحق الذي قرره ميثاق منظماتكم وأقرته جمعيتكم الموقرة في مناسبات عديدة ، وإننى أتوجه اليكم أيضا أن تمكنوا شعبنا من العودة من منفاه الاجبارى .. الذى دُفع اليه تحت طلاقات البنادق .. وبالظلم .. ليعيش في وطنه ودياره وتحت ظلال أشجار مزارعه حرا سيدا متمعا بكافة حقوقه القومية ليشارك في ركب الحضارة البشرية وفي عجالات الابداع الانسانى بكل ما فيه من امكانيات وطاقات وليحمى قدسسه

الحبشية كما فعل دائما عبر التاريخ ويجعلها قفلة حرة لجميع الأديان بعيدا عن الارهاب والفقر كما فعل عبر القرون الطويلة .

« أتوجه اليكم لأن تمكنوا شعبنا من اقامة سلطته الوطنية المستقلة ..

» لقد جئكم بامانة الرئيس بنصر الزيتون في يد وبندقية الثائر

في يدي الأخرى فلا تسقط الغصن الأخضر من يدي .. » .

وفي ٢٢/١١/١٩٧٥ وافقت الجمعية العامة بأغلبية ساحقة على

قرار بالاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في الاستقلال والسيادة الوطنية ،

وعلى قرار آخر يقضى بمنح منظمة التحرير الفلسطينية وضع « مراقب » في الأمم المتحدة .

ويدعو القرار الأول الى منح الشعب الفلسطيني حق تقرير المصير

والاعتراف بحقه في الاستقلال والسيادة الوطنية ويعطى القرار :

— أن الفلسطينيين طرف رئيسي في أية تسوية للأزمة في الشرق

الأوسط .

— تأكيد حق الفلسطينيين في العودة الى ديارهم وممتلكاتهم التي

انتهزوا منها .

— أن هذه الحقوق أمر لا غنى عنه لتسوية المشكلة الفلسطينية

ومن حق الشعب الفلسطيني أن يستردّها بكل الوسائل بما يتمشى مع

مبادئ الأمم المتحدة .

— على جميع الدول والمنظمات الدولية أن تساعد الفلسطينيين

في نضالهم .

— ينبغي استشارة منظمة التحرير الفلسطينية في جميع المسائل

المتعلقة بفلسطين .

وكانت الدول التي عارضت هذا القرار هي الولايات المتحدة
واسرائيل وشيلي وكوستاريكا وايسلندا ونيكاراجوا والنرويج .

وينص القرار الثاني على منح منظمة التحرير الفلسطينية الحق في
الاشتراك كمراقب في دورات الجمعية العامة وجميع المؤتمرات التي
تعقدها أية هيئة من هيئات المنظمة الدولية .

وتصدت يوسف تيكواه مندوب اسرائيل بعد صدور القرارين فقال
إن هذه أيام حزينة بالنسبة للأمم المتحدة ، وانهم المنظمة الدولية
بالاستسلام .

مذبحة جديدة في « عين الحلوة » بلبنان :

وقد تعرض الفلسطينيون في فلسطين وفي لبنان الى مذابح مروعة
قام بها الجيش الاسرائيلي ، وقد تحدثنا من قبل عن مذبحة صبرا
وشاتيلا ، ونحدث هنا عن مذبحة أخرى في معسكر « عين الحلوة »
وقد وقعت في ١٦/٥/١٩٨٤ وقالت عنها وكالات الأنباء ما يلي :

اقتحمت القوات الاسرائيلية مخيم « عين الحلوة » للاجئين على بعد
حوالي ٤٠ كيلو مترا جنوبي بيروت في ساعة مبكرة من صباح أمس
مستخدمة الدبابات والبلدوزرات والعربات المدرعة .

أسفرت عملية الاقتحام التي بدأت في منتصف ليلة أمس الأول
(الثلاثاء) واستمرت حتى الساعة الخامسة من صباح أمس عن تدمير
أكثر من ٢٠ منزلا ومصرع واصابة حوالي ٤٠ شخصا كانوا بداخلها
كما ألقت السلطات الاسرائيلية القبض على ١٥٠ شخصا آخرين من سكان
المخيم . وذكرت وكالة غوث اللاجئين أن القوات الاسرائيلية نسفت
٨ منازل بالديناميت بسكانها وهم نيام .

وقد وقع الحادث بعد يوم واحد من المظاهرة التي وقعت في

المخيم وصدور بيان معاد لإسرائيل احتجاجا على ذكرى (وعد بلفور) .

وكانت كلمة « الأخبار » عن هذه المذبحة هي :

مذبحة « عين الحلوة » .. مذبحة جديدة تضاف الى التاريخ الأسود للمذابح الاسرائيلية ضد الأبرياء العزل من أبناء الشعب الفلسطيني ذلك التاريخ الذي يبدأ بمذبحة دير ياسين وينتهي بمذابح صبرا وشاتيلا .

ولا يختلف سيناريو المذبحة الجديدة كثيرا .. ففي حوالي منتصف ليلة الثلاثاء حاصر الجيش الاسرائيلي مستخدما سبع عشرة دبابة ومدعة مخيم عين الحلوة الذي يسكنه ٢٥ ألفا من الفلسطينيين .. وبصد قليل اقتحم الجنود الاسرائيليون المخيم ثم انتشروا في المخيم ونسفوا بالديناميت دون هوادة ١١ مسكنا وأتلفوا عشرة أخرى : وأسفرت العملية عن اصابة العشرات واعتقال العشرات . كانت الانفجارات تدوى داخل المخيم بمعدل انفجار كل خمس دقائق . وأصيب السكان بالهلع وتذكروا ما حدث في صبرا وشاتيلا . ومما يثير الأسى والحزن في هذه المذبحة إن هذا المخيم بالذات كان قد أبيع عن آخره خلال الغزو الاسرائيلي عام ١٩٨٢ .. ولكن سكانه الفلسطينيين استطاعوا في زمن قياسي إعادة بنائه .

إن استمرار القوات الاسرائيلية في هذه العمليات التي تستهدف التصفية الجسدية للشعب الفلسطيني يستدعي من الأمة العربية كلها أن تتصدى لها لكي تكف إسرائيل عن المضي في جرائمها فإن حماية الوجود

المدنى للفلسطينيين الخاضعين للاحتلال الاسرائيلى هى مهمة كل عربى ..
وكل انسان حر شريف ومهمة كل المنظمات والهيئات الدولية .

وعلى اسرائيل أن تعلم إن العنف لن يولد الا العنف .. وإنها مهما
حاولت فلن تستطيع أن تبيد الشعب الفلسطينى .. فالشعب
لا تموت أبداً .

وسيزال العدوان من جانب والثأر الفلسطينى من جانب آخر حتى يعود
الحق الى نصابه فى المستقبل القريب أو البعيد ولن ينال اليهود الأمن فى
فلسطين بسبب هذه السياسة التى تولد الذعر لا الأمان .

النضال الفلسطينى داخل فلسطين فقط :

أعلن السيد ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير
الفلسطينية فى ٨/١١/١٩٨٥ شجب المنظمة وإدانتها لجميع عمليات
الارهاب سواء تلك التى تتورط فيها الدول أو التى يرتكبها أفراد أو
جماعات ضد الأبرياء والعزل فى أى مكان .

وأكد ياسر عرفات إن المنظمة سوف تتخذ ابتداء من اليوم كافة
الاجراءات الرادعة ضد المخالفين ، ودها عرفات — فى بيان باسم المنظمة
أعلنه فى القاهرة — المجتمع الدولى بشأن يلزم اسرائيل بوقف جميع
الأعمال الإرهابية فى الداخل والخارج .

وأعلن عرفات فى بيانه أن الأحداث تؤكد اقتناع منظمة التحرير
الفلسطينية بأن العمليات الارهابية التى تتخذ فى الخارج تسيء الى
قضية الشعب الفلسطينى وتشوه كفاحه المشروع فى سبيل الحرية .

ولكن عرفات أكد مجدداً تمسك المنظمة بحق الشعب الفلسطينى فى

مقاومة الاحتلال الإسرائيلي لأراضييه بكل السبل المتاحة بهدف تحقيق الانسحاب من هذه الأراضي •

وناشد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية كافة الشعوب المحبة للسلام في جميع أنحاء العالم الوقوف الى جانب المنظمة وهي تتخذ هذه الخطوة لانسحابهم في تخليص العالم من ظاهرة الارهاب وتحرير الأفراد من الخوف ووقايتهم من الخطر •

وأكد ياسر عرفات أن المقاومة الفلسطينية لن تبأشر نشاطها إلا في الأرض الفلسطينية المحتلة حتى يتم جلاء العدو عنها •

تركيب المجتمع السوري

هناك عوامل خطيرة ساعدت على ما شاهدناه من حركات الانقسام في سوريا ، ولا تزال هذه العوامل موجودة في سوريا الحالية وفي لبنان ، ولعلها أسهمت أيضاً في الحركة الانفصالية بين سوريا ومصر ، ولدينا بحث خطير كتبه عالم سوري هو الأستاذ محمد المبارك يبين عناصر المجتمع السوري الحالي والاتجاهات فيه ، وعنه نقتبس بعض المعلومات التي توضح لنا هذه العوامل :

فمن ناحية الجنس يوجد في سوريا الأجناس الآتية :

١ — العرب : والجنس العربي بسوريا يختلف بعضه عن بعض ، فمن عرب سوريا من وصل في الحضارة والمدنية درجة كبيرة ، ومنهم البدو الرحل بالجزيرة وحلب وجبل الدروز وغيرهما ، ومنهم جماعة يقفون بين البداوة والحضارة يرعون الإبل ويمارسون شيئاً من الزراعه .

٢ — الأكراد : ويكثرون في مناطق الحدود التركية والعراقية وعددهم حوالي ٣٥٠ ألفاً ، وأكثرهم مسلمون سنيون ، ولهم ماضٍ ناصع في الحركات الوطنية ، ولكن حركة القومية الكردية تغزوهم . كما أن الشيوعية تجدد طريقها لهم ، وبخاصة أن الأكراد يكوّنون جمهورية كردستان إلهدي جمهوريات الاتحاد السوفييتي ، ومنهم خالد بكداش أهم مؤسسي الحزب الشيوعي في سوريا .

٣ — الجركس والداغستان والشاسان : وهم مهاجرون من قفقاسيا

في أواخر القرن التاسع عشر الى ما بعد الثورة الشيوعية بالاتحاد
السوفييتي ويسكنون جنوب سوريا ، وهم مسلمون سنيون •

٤ — التركمان : ويكثرون في محافظة اللاذقية ، وهم أقلية
تركية أو تركمانية أصبحوا من سوريا نتيجة لتنظيم الحدود بين سوريا
وتركيا وهم مسلمون سنيون •

٥ — الأرمن : هاجروا الى سوريا خلال الحرب العالمية الأولى
ويكثرون في الجزيرة وبعض قرى اللاذقية ، ولهم نشاط واسع في
الصناعة والأعمال الحرة ، وهم مسيحيون ، أكثرهم يتبع طائفة
الأرثوذكس ، والباقي يتبعون المذهب الكاثوليكي •

٦ — السوريان : وقد هاجر السوريان الى سوريا من تركيا إبان
عهد الانتداب الفرنسي وعددهم حوالي ٣٠ ألفاً ، وهم مسيحيون •

٧ — الكلدان والآشوريون : وقد هاجروا الى سوريا من العراق
عقب الحرب العالمية الأولى ، وعددهم ليس كثيراً (بضعة آلاف) •

ومن ناحية اللغة : يلاحظ أن كل جنس من هذه الأجناس يتكلم
لغته ، وقد يعرف بجانبها اللغة العربية ، ولكنها أحياناً شبه رطانة ،
ولغته الأصلية عنده هي اللغة القومية ، ول بعضهم صحافة خاصة كالأرمن ،
وأندية يلتقون بها ، ومدارس خاصة لأبنائهم •

ومن ناحية الأديان والمذاهب نجد في سوريا عدداً كبيراً له أثر
عميق في المجتمع ، وذلك لميل أكثر هذه الجماعات الى الطائفية ، والتوزيع
الطائفي حسب إحصائية سنة ١٩٥٦ هو :

١ — المسلمون :

| | |
|--------------------------------|---------|
| السنيون | ٣٨٧٠٠٠٠ |
| العلويون | ٤٢٩٠٠٠٠ |
| الإسماعيليون | ٤٠٠٠٠٠ |
| الجعفريون وسنتكم عنهم فيما بعد | ١٥٠٠٠٠ |
| الدروز | ١٢٥٠٠٠٠ |

وقد مرء حديث طويل عن الدروز عند الكلام عن الحاكم بأمر الله .

٢ — المسيحيون :

| | |
|-----------|---------|
| الأرثوذكس | ٣٥٠٠٠٠٠ |
| الكاثوليك | ١٢٧٠٠٠٠ |
| بروتستانت | ٢٩٠٠٠٠ |
| كلدان | |
| نسطوريون | |

٣ — اليهود ٣٢٠٠٠٠

٤ — اليزيدية (يقصدون الشيطان) ٣٠٠٠٠

وفيما يلي لمحات عن هذه الأديان والمذاهب .

— يدخل في السنيين أكثر العرب والأكراد والجركس والتركمان .

— بعض الإسماعيلية الأغاخانية والدروز بعدوا عن الإسلام بعد شاسعا .

— الفرقة المعروفة بالعلويين يكثر بينها الغلو في التشيع وتكثر الخرافات ، ولكن بدأت أحوالهم العلمية والدينية تتحسن ، نوعا ما .
وستحدث عنهم بشيء من التفصيل فيما بعد .

— تكثر الشيوعية في المسيحيين الأرثوذكس لصلة روسيا بهذا المذهب . كما توجد بين قلة من الأكراد والأرمن ...

— يتجه الكاثوليك الى الغرب بعواطفهم ويكرهون الشيوعية .

ومن ناحية العقائد الفكرية يتضح لنا ما يأتي :

— يميل أكثر السوريين الى دعم الحركة العربية والاسلامية ، واعتبارها حركة واحدة قائلين بعدم إمكان الفصل بين الفكرتين والاتجاهين .

— يوجد حزب البعث العربى وهو يتجه بكل قواه للجانب العربى ويتناسى الجانب الاسلامى .

— توجد جماعة الإخوان المسلمين وهى تتجه للجانب الإسلامى .

— الحزب القومى السورى ويرمى لعزل سوريا عن العرب وعن المسلمين ، وتكوين قومية خاصة بسوريا ، ومؤسس هذا الحزب « انطون سعادة » .

الجمعوية :

تحدثنا في الجزء الثانى من هذه الموسوعة عن مدعى التشيع وادعاءاتهم ، وكيف تقولوا الأكاذيب عن الامام جعفر الصادق رضى الله عنه ، وقد بالغ بعض هؤلاء وقالوا ان الامامة وقفت عند جعفر الصادق السادس فى سلسلة الإمامة ، ولم تتركه الى سواه لأنه لم يمت ، وانما استقر وسيعود ، ويتسبون للامام آراء منحرفة هو منها برى ، وذلك مثل الغيبة والرجعة والتناسخ والحلول وغيرها من الاتجاهات الشاذة الوافدة ، وقد ظهرت بعض هذه الآراء فى أثناء حياة جعفر ، وتبرأ منها الإمام ، ولعن القائلين بها .

العلويين أو النصيرية :

طائفة من غلاء الشيعة يعتقد الكثيرون منهم أن الامام عليا له طبيعة إلهية ، وهم يعرفون بالنصيرية ، نسبة الى محمد بن نصير الكوفي ، وهو أحد متطرفي الشيعة (أواخر القرن الثالث الهجري) أو الى نصير مولى الإمام علي ، وهم يسكنون المنطقة الجبلية التي سمي باسم « جبال العلويين » ، وقد كونوا دولة خاصة بهم سنة ١٩٢٢ تسمى جبل العلويين وكانت اللاذقية عاصمة هذه الدولة ، ولكنها سرعان ما اندمجت في الدولة الأم (سوريا) .

ومع الشطط في الفاحية الدينية ، فقد وجد من العلويين بعض الزعماء السياسيين والعسكريين ، ومن هؤلاء صالح العلي الذي قاد ثورة ضد الغزو الفرنسي سنة ١٩١٩ .

ويذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أن النصيرية طائفة من الباطنية ، وهم يتظاهرون بالاسلام ولكنهم يدعون أن علي بن أبي طالب إله ، وأفكارهم شديدة الاتصال بأفكار الدروز ، ولهم تشريعات لا يثرها الاسلام وبخاصة فيما يتعلق بالمرأة ، والمحرمات في الزواج (١) .

ويقول عنهم الدكتور فيليب حتى ان النصيرية لهم مذهب له طابع السرية ، كهنوتي النظام ، باطني التعليم ، وهو في الحقيقة رواسب من ملل سورية وثنية مختلفة بغشاء من التعليم الشيعي المنحرف ، مع بعض مظاهر المسيحية السطحية كاحتفالهم مع النصاري بعيد الميلاد وعيد القيامة ، واستخدامهم أسماء اتفرد بها النصاري مثل يوحنا وهيلانة ويبلغ عددهم حوالي نصف مليون وأكثرهم من المزارعين (٢) .

والذي أعتقد أن هذه المعتقدات تَضَعُفُ الآن وتتجه للأفول ، فحب على ابن أبي طالب لا يمكن أن يدفع المحبين الى الاعتقاد بألوهيته ، فإن ذلك كان من اتجاهات فترات الظلام ، وهذه الفترات هي ونتائجها في الطريق للزوال .

(١) الحاكم بأمر الله ص ٢٢٢ .

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

الحروب الصليبية

دوافعها - أدوارها - نتائجها

٤٩١ - ٦٩٢ هـ = ١٠٩٧ - ١٢٩٢ م

هبت الحروب الصليبية حوالى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، وظلت مائتى عام تقريبا ، أكلت خلالها ملايين البشر واستنفدت الكثير من جهد الغرب وجهد الشرق ، وسنحاول فى هذه الدراسة تصوير الأحداث فى هذه الحروب تصويرا سريعا وشاملا .

أسباب الحروب الصليبية

اتخذت الحروب الصليبية تسميتها من الصليب دلالة على أن الدين كان أهم أسبابها ، ولكن مع حقد الصليب وحماسه فى هذه المعارك ، فقد كانت هناك أسباب أخرى تدعّم روح الشر الصليبي ، وسنحاول هنا أن نلم بأسباب هذه الحروب سواء فى ذلك الأسباب الدينية وغير الدينية ، ولكننا نسرّع فنشير على القارئ أن يطالع الكتاب الجديد الذى أصدره المؤلف مرتبطا بالحروب الصليبية وعنوانه :

الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام وامتداداتها حتى الآن

أما الأسباب الأخرى التى دفعت الصليبيين للزحف على الشرق الاسلامى فهى :

١ — الأسباب التاريخية :

يرى الدكتور فيليب (١) أن الحروب الصليبية فى وضعها الصحيح فصل متوسط من فصول تلك القصة الطويلة ، قصة الخلاف بين الشرق والغرب ، مبتدئة بحروب طروادة وفارس فى الأزمنة الغابرة ، ومفتية بالتوسع الاستعماري الأوروبى فى العصر الحديث ؛ فالحروب الصليبية حلقة من هذه السلسلة ، وقد شنتها أوربا ليس على سوريا وآسيا الصغرى فحسب ، بل على الشرق الأوسط كله .

وهذا الصراع التقليدى القديم الذى ظهر بوضوح فى النزاع بين

الفرس واليونان ، ثم بين الفرس والروم ، لم يكن مرتبطا بأى عامل دينى ، حيث أنه بدأ عندما كان هؤلاء وأولئك وثنيين ، ولكنه كان مرتبطا بالعمل الحضارى ، فبدأ صراعا بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين ، وقد ظل هذا الصراع بين الشرق والغرب يهدأ ويثور كالبركان فى هدوئه وثورته ، فلما جاء القرن الحادى عشر اشتد غليان البركان فثار متخذ الصليب فى هذه المرة أداة له ، ومظهرا لخليانه .

٢ - أسباب ترتبط بالديانة المسيحية :

ترعرت المسيحية فى أوربا ، بعد أن وجعها بولس وجهتها الجديدة وأبعدها عن رسالات السماء (١) ، وانتشرت الديانة الجديدة بين كنائس أوربا وجامعاتها ، مع أن الشرق كان المهد الحقيقى لدين المسيح .

وهناك أديان زاحمت المسيحية فى عصور مختلفة ، وذلك مثل اليهودية والبوذية والكونفوشية والاسلام ، ولكن الاسلام كان الدين الوحيد الذى زحف بقوة جارفة على المستعمرات الأوربية المسيحية فى سوريا ومصر وشمالى افريقية وضمها اليه ، ولم يكف الاسلام بهذا بل اقتحم على أوربا المسيحية أبوابها من الغرب عن طريق الأندلس ، ومن الشرق عن طريق القسطنطينية التى دق المسلمون أبوابها منذ العهد الأموى ، وكان الاسلام فى الحاليتين متجها نحو قلب أوربا ، ومتخذاً حول البحر المتوسط حركة تشبه ما يسمى فى الحروب الحديثة بحركة الكماشة .

ولا غرو إذن أن تخاف أوربا من الاسلام وتعلن عليه العداء ، على نحو ما تفعل حتى الآن ، وأن تتلمس الوسائل لتقليل أظافره والتغلب عليه .

وقبيل قيام الحروب الصليبية كانت الكماشة التى فرضها الاسلام بدأت تنفك وأعقب المد " جزر " ، وبدأت قوى المسلمين تتراجع وتنهقر ،

(١) انظر البحث العلمى الدقيق الذى كتبه المؤلف فى كتابه « المسيحية » ضمن سلسلة « مقارنة الأديان » .

ونقل إلى القول بربط أحداث الشرق بالغرب ، فسقوط الخلافة الأموية بالأندلس ، وقيام ملوك الطوائف بها ، وما تبع ذلك من هزائم متلاحقة منى بها المسلمون ، وتقهر مستمر نزل بهم في الميدان العربي (الأندلس) ، كل هذا شجع المسيحيين أن يقوموا بضربة من جهة الشرق لمحاولة تدمير قوى المسلمين من الطرفين ، ثم للقضاء على المحاولات التي كانت تظهر من حين لآخر في القسم الشرقي من العالم الإسلامي ، تلك المحاولات التي كانت ترمى إلى مساعدة المسلمين بالأندلس ، ومد يد العون إليهم حتى يستردوا قوتهم أمام العدو المسيحي .

والناظر إلى تاريخ هذه الحقبة يجد صراعا في الشام ، ومحاولات لاحتلال مصر ، كما يرى زخفا مطردا في الأندلس يعقبه محاولات لاحتلال شمال إفريقيا صادف بعضها نوعا من النجاح . فلا غرو بعد هذا أن تؤكد أن نشاطا دينيا اتضح في تاريخ المسيحية في هذه الأثناء كان يرمى إلى القضاء على الإسلام الذي مثل خلال فترة من الزمن إشارة الخطر ضد المسيحية الأوروبية .

ومن الأهداف المحددة لليقظة الدينية المسيحية في أوروبا آنذاك ، الاستيلاء على الأماكن المقدسة في فلسطين ، لتتولى الكنيسة البابوية بروما حماية هذه الأماكن المقدسة وإدارتها .

ومن الأهداف المحددة كذلك أن الكنيسة الغربية رأت أن تنتهز هذه الفرصة لتحاول بها توحيد الكنيسة المسيحية ، وجعل قيادة المسيحيين جميعا في يدها ، وقد كانت الكنيسة المسيحية قد انشقت إلى كنيسة شرقية وكنيسة غربية عقب مجمع رومة الذي عقد في سنة ٨٦٩ م ، ومجمع القسطنطينية الذي عقد سنة ٨٧٩ ، إذ قرر الأول انبثاق الروح القدس من الآب والابن ، وقرر الثاني انبثاق الروح القدس عن الآب فقط ، وأصبحت لكل كنيسة عقب ذلك مجامعها الخاصة ، ولم تعد أى منها تخضع لقرارات الكنيسة الأخرى (١) .

(١) انظر مقارنة الايمان للمؤلف : الجزء الثاني الخاص بالمسيحية .

ولهذا كله أسرعت الكنيسة الغربية بتلبية نداء البيزنطيين الذين هالهم ما حققه المسلمون ضدهم من انتصارات ، ولذلك يعتبر بعض المفكرين أن الحروب الصليبية كانت امتدادا للحروب بين البيزنطيين والمسلمين في الشام والأناضول وشمال إفريقيا خلال السنوات والقرون التي سبقت الحروب الصليبية .

ويدخل في الأسباب الدينية كذلك ما يذكره المؤرخون من أن البابا رأى في الحروب الصليبية وسيلة يحول بها الى الشرق وجوه البارونات والفرسان الذين يعكرون أمن القارة الأوربية بالحروب والمغامرات وأعمال اللصوصية ، ويسينئون الى رجال الإكليروس منكرين عليهم ما يحرصون عليه من إكرام واحترام ، ثم ان انسحاق هؤلاء في الحروب الصليبية استجابة لنداء البابا ، معناه خضوع الملوك والإقطاعيين لسلطان البابوية (١) .

٣ — الأسباب التجارية :

وهناك أسباب تجارية عظيمة الشأن جعلت التجار المشاهير بالساحل الشمالي للبحر المتوسط وبخاصة في البندقية وجنوا وبيزا ييذلون المال والسلاح للتشجيع على الحروب الصليبية ، وتلك الأسباب هي الرغبة في امتلاك بعض الموانئ على الساحل الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط لتكون هذه الموانئ مراكز لتجارة الغرب في الشرق ، ولتتصل تجارة أوروبا عن طريق هذه المنافذ بالخطوط التجارية بالشرق ، ويُعزى للتجار اليهود التشجيع على هذا الاتجاه ومساعدته ماديا وأدبيا مما يجعل اليهود أسبابا مستترة خلف إثارة الحروب الصليبية (٢) .

(١) قنرى قلجى : صلاح الدين الأيوبي ص ١٦ — ١٧ .

(٢) See : «The Jews» by James Hosmer p. 137 .

See also Medieval Europe by Ephraim Emerton p. 395 f.

٤ — أسباب تتصل بالنظام الاقطاعي بأوربا :

كان النظام الاقطاعي سائدا في أوربا قبيل الحروب الصليبية فكان لكل أمير اقطاع ، وكانت العلاقة بين أمراء الاقطاع بعضهم والبعض سيئة للغاية ، فالحروب توشك ألا تنقطع ، والتدمير سمة العصر ، وقد تسبب عن ذلك ما يلي :

(أ) رغب أمراء أوربا في الحصول على أرض جديدة في الشرق أكثر خصوبة وأمن من أرض أوربا التي خضبتها الدماء ، واستوطن بها شعب الحرب .

(ب) كانت قوانين الوراثة الاقطاعية قد خلقت طائفة عظيمة العدد من الشبان المعدمين الذين حجبهم عن الميراث والتملك إخوتهم الأكبر سنا منهم ، فهؤلاء وغيرهم من الأفاكين ذوى الآمال العريضة طمعوا في الثراء واقتناء الأملاك عن طريق النزوح الى بلاد جديدة (١) .

(ج) وجد رقيق الأرض تحت النظام الاقطاعي ، فرصة في الحروب الصليبية للتحرر من الرق وفك رقابهم ، فانضموا للصليبيين بنشاط وحماسة .

(د) كثرة الحروب بين أمراء الاقطاع أنتجت فئة من الأبطال والشجعان الذين احترقوا بالحروب ، حتى أصبحت ضروب الشجاعة هوايتهم ، وقد دفعهم ذلك الى الرغبة في إشعال نار الحروب في أرض جديدة حتى يظهروا قوتهم ويصبحوا بذلك أبطالاً عالمين .

(هـ) تعطلت الزراعة أو ضعفت في أوربا بسبب استهزار الحروب ، فتسبب عن هذا مجاعات طاحنة في أوربا ، وقد دفعت هذه المجاعات الأوربيين الى التفكير في الهجرة للشرق حيث الأمن والخصوبة والاستقرار .

(و) تسبب عن كثرة الحروب ظهور ألوان من الأوبئة بأوروبا نتيجة الجهد والجوع وأجسام الموتى التي قد يتأخر دفنها ، وكان ذلك من أسباب الميل للذهاب للشرق فرارا من هذه الأوبئة .

٥ - أسباب تتصل بالجبهة الإسلامية :

شجعت الجبهة الإسلامية المغامرة الأوروبية على هذه المجازفة الخطيرة ، وذلك للدواعي الآتية :

(أ) قبيل الحروب الصليبية كان العالم الاسلامى يعاني من الانحلال والضعف ، فدولة السلاجقة قد ذهبت شوكتها وانحلّت الى عدة دول بعد أن مات (ملكشاه) سنة ١٠٩٢ ، واقتسم أبنائه الأربعة محمود وبركياروق وسنجر ومحمد مملكته بعد حروب طويلة استنزفت قوى السلاجقة ، فظهرت سلطنات الفرس ، وكرمان ، والعراق ، والشام مستقلا بعضها عن بعض ، كما أنكر حكام المدن والولايات المعروفون بالأتابكية سيادة حفدة سلجوق .

وكان سلاجقة الشام أكثر تنازعا ، فقد استولى عليها تتش بن ألب أرسلان ، ولكن ابنه رضوان ودقاق تنازعا السلطة بعد مقتل أبيهما ، وقد اتخذ رضوان (٤٨٨ — ٥٠٧) مدينة حلب عاصمة له ، واختار أخوه دقاق (٤٨٨ — ٥٤٩٨) دمشق عاصمة له ، ودارت رحى الحرب بين الأخوين منذ سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) وشغلت جزءا كبيرا من عهديهما (١) .

(ب) كانت الخلافة الفاطمية مترنح ما نالها من ضعف حوالى ذلك التاريخ ، فقد خالف الاضطراب الذى حدث فى عهد الحاكم بأمر الله كثيرا من البلاء والفوضى لم يصلحه عهد ابنه الظاهر الذى تولى الخلافة

(١) ابن الأثير : الكامل (حوادث سنة ٤٩٠) وانظر سحيو : تاريخ العرب العام ص ٢٥٥ ومعجم الانساب والاسرات الحاكمة لزامبور ص ٢٢٣ — ٢٢٥ .

وهو صبي ، ومات الظاهر فألقت الخلافة الى ابنه الطفل « المستنصر » ،
ووضع زمام الأمر في يد أمه ويد الوزراء حتى شرب فتسلم مقاليد
الأمر ، ولكن كان عهده مليئا بالكوارث التي نشأت عن المجاعات والوباء
حتى أكل الناس الجيف ، وقد ظل المستنصر في الخلافة ٥٨ عاما
(١٠٣٦ — ١٠٩٤) ، ولما مات قبيل الزحف الصليبي كانت مصر ظاهرة
الضعف .

(ج) كانت بلاد الشام منطقة نزاع بين الفاطميين والسلاجقة منذ
وطئتها أقدام السلاجقة في عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ، وقد استطاع السلاجقة
انتزاع فلسطين من الفاطميين ، ثم استولوا على دمشق واستقر نفوذهم
في الشام في عهد تتش بن ألب أرسلان ، وبسطوا سيطرتهم على حلب
والرها والموصل ، غير أن الفاطميين تمكنوا بفضل أسطولهم القوي من
الاستيلاء على جميع مدن الساحل ومنها عسقلان وعكا وصور حتى جبيل
شمالا في عام ٤٨٢ هـ ، كما عادوا الى القدس سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م)
وظلوا فيها الى أن سقطت في أيدي الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ (١) ومعنى هذا أن
استيلاء المصريين على بيت المقدس كان قبل سقوطها في أيدي الصليبيين
بفترة قصيرة ، ولهذا لم يكن تحصينها قويا ولا الدفاع عنها راسخا مما
يسر سقوطها في أيدي الصليبيين الغزاة .

وتقول بعض المصادر أن الصليبيين حاولوا الاتصال بالفاطميين في
القاهرة للاتفاق معهم لعل ذلك ييسر حصول الصليبيين على بيت المقدس
وكان رد القاهرة حاسما ، هو السخرية من هذه المحاولة التي أرادت
استغلال الخلاف المذهبي ، وتقدم المصريون لأخذ القدس الدفاع عنها
بدل السلاجقة الذين كانوا قد أقل نجمهم .

وهكذا كانت بلاد الشام مسرحا للمنازعات بين السلاجقة والفاطميين ،

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٨٩ .

وكان السلاجقة كما أشرنا على مذهب أهل السنة ، والفاطميون على مذهب الشيعة ، وكانت أجزاء الشام التابعة للسلاجقة موضع نزاع بين الأمراء من أولاد تتش كما سبق القول (١) .

(د) ويجانب السلاجقة الذين يسيطرون على الشمال والفاطميون الذين يسيطرون على الجنوب ، كانت البلاد السورية في الداخل مجزأة الى مقاطعات عليها عدة زعماء من العرب يتمتعون باستقلال محلي ، ولم يكن للشعب فيها صيغة واحدة تتسم بها عناصره المختلفة فهناك الدروز في جنوبي لبنان والنصيرية في جبالهم الشمالية ، وجيرانهم الاسماعيلية (الحشاشون فيما بعد) قد انقسموا فرقا ثلاثا تختلف كل واحدة منها عن الأخرى ، وتختلف جميعها عن مذهب أهل السنة ، أما الطوائف النصرانية بالشام فكان الانقسام بينها عظيما على نفس النوال الذي انقسمت له طوائف المسلمين بهذه المنطقة (٢) .

(هـ) كان سلطان المسلمين بالأندلس يميل الى الأقوال ، فقبيل بدء الحروب الصليبية كان عهد ملوك الطوائف (٤٢٢ — ٤٨٤ هـ) سائدا بالأندلس ، وهو عهد — كما وصفناه في الجزء الرابع من هذه الموسوعة — حافل بالانحلال والهزائم والخيانات ، ولم تتجدد اسعافات المرابطين والموحدين التي عبرت لانتقاذ الأندلس من زحف المسيحيين ، وكل ما استطاعت أن تفعله هذه الاسعافات أن أجثت المصير المؤلم بضع سنوات ، وقد شجع هذا الوضع فرسان أوروبا الى الزحف على العالم الاسلامي ، إذ زال خطر المسلمين بأوروبا ، فالتجته كل القوى المسيحية للعدوان على المسلمين في بلاد الاسلام .

(١) انظر سلاجقة ايران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين ص

(و) كانت مواكب الحجاج المسيحيين تتفقد من أوروبا إلى بيت المقدس مكوّنة شبه مظاهرة أو فيلق حربى ، فكان الحجاج عبارة عن فوج كبير من الناس يحمل بعضهم المشاعل ، ويلعب آخرون بالسيوف ، وحولهم الطبول والزمور ، ويحيط بهم حرس مدججون بالسلاح ، وعندما كان السلطان في يد العرب قبل العهد السلجوقى لم يكن هناك اعتراض على هذه المواكب ، فقد كان التسامح الدينى من أظهر صفات العرب فلما انتقل النفوذ على بيت المقدس إلى السلاجقة سنة ١٠٧٠ لم يستطع هؤلاء أن يتسامحوا مع هذه المواكب إلى هذا الحد ، وبخاصة أن هذه الجموع مارست فعلا أعمال استفزاز واعتداء ، ويذكر غوستاف لوبون أن رئيس أساقفة ما بانس وأربعة أساقفة قادوا قافلة من سبعة آلاف حاج تشتمل على بارونات وفرسان ، فحاربت هذه القافلة الأعراب والتركماني (١) ، ولهذا السبب منع السلاجقة السلاح والمشاعل والطبول والحرس المدجج بالسلاح ، وأعلنوا أنهم هم المسئولون عن سلامة الحجاج الأوروبيين وأمنهم ، وقد أثار هذا التصرف ثائرة الغرب واعتُبرَ تضييقا على الحجاج ، ومقاومة للمشاعر الدينية ، وقضاء على تقاليد أصبحت لدى المسيحيين حقوقا لم يستطيعوا التنازل عنها .

(ز) وقد دفع التوتر رجال الدين بأوروبا أن يشجعوا بعض الشجعان والقساة ليصبحوا ركب الحجاج ليدافعوا عنه عند اللزوم ، ووجد رجال الدين في المجرمين والعصاة طلبتهم ، فأعلنوا أن الحج وحده هو الذى يكتفر عن الكبائر والمنكرات ، وقد نتج عن ذلك أن وفد للأمكنة المقدسة عدد كبير من المجرمين المفطورين على ارتكاب أخطر الجرائم ، وقابل المسلمون هذا التصرف بتشديد الرقابة ، فنتج عن ذلك مزيد من الحدة والتوتر بين الجانبين (٢) .

(١) حضارة العرب ص ٣٢٠ .

(٢) انظر حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٣٢١ .

(ح) موت على المسيحيين في مضر فترة اضطهاد في بعض سني خلافة الحاكم بأمر الله ، وقد استغل الأوربيون هذه الحركة للدعاية ضد الاسلام ، وللعمل لانقاذ المسيحيين والأماكن المقدسة من اضطهاد الحكام المسلمين .

٦ — موقعة ملازكرد (مانزيكرت Manzikert) وما تسبب عنها :

في سنة ١٠٧١ حدثت موقعة ملازكرد بين المسلمين والبيزنطيين ، وكان ألب أرسلان قائدا لجيش المسلمين ، وكان الامبراطور رومانوس الرابع قائدا للبيزنطيين ، وتعتبر هذه الموقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ ، فقد هزم البيزنطيون هزيمة ساحقة ، فقتل منهم عدد لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى كما يقول ابن الأثير (١) ، ووقع الامبراطور في الأسر ، ويروى ابن العبري أن ألب أرسلان عندما رأى الامبراطور الأسير وبخه وقال له : ألم أرسلك في المهادنة فأبيت ؟

— فأجاب الامبراطور : دَعْنِي من التوبيخ وافعل ما تشاء .

فقال السلطان : ماذا كنت تفعل لو أسرمتني ؟

فأجاب الامبراطور : القبيح .

قال السلطان : فما تظن أنني أفعل بك ؟

فأجاب الامبراطور : إما أن تقتلني ، وإما أن تشهر بي في بلادك ، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي .

قال ألب أرسلان : ما عزمت على غير هذا (٢) .

أما صدى كارثة ملازكرد في القسطنطينية فكان أن أعلن ميخائيل

(١) الكامل في التاريخ : حوادث سنة ٤٦٣ .

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول : ص ١٨٥ .

السابع امبراطورا (١٠٧١ — ١٠٧٨) ، ولا أطلق سراح رومانوس الرابع
التقى الامبراطور الجديد القبض عليه واعتبره مفرطا في حقوق البلاد
فحكّم عليه بأن تسلم عيناه ويقتل .

وفي أواخر عهد ميخائيل السابع شهدت بيزنطة ألوانا من الثورات
الداخلية ، مما عرض البلاد الى اضطراب داخلي بالاضافة الى الهزائم
الخارجية .

وكثرة هذا جعل الدولة البيزنطية غير قادرة على حماية المسيحية من
ضغط المسلمين ، وغير قادرة على حراسة الباب الشرقي لأوروبا من الغزو
الاسلامي ، وبذلك صار على الغرب الأوربي أن يقوم بدوره في حماية هذا
الباب بدلا من اعتماده على الامبراطورية البيزنطية .

دعوة البابوية للحروب الصليبية

وفي سنة ١٠٨١ اعطى الكسيوس كومنن الأول عرش الامبراطورية
البيزنطية ، وقد شغل هذا العرش حتى سنة ١١١٨ ، وبذلك يكون هذا
الامبراطور أهم انسان عاصر الفترة الخطيرة التي تشمل مطلع الحروب
الصليبية ، وهو يعتبر أول من وضع الانبيات السابقة موضع التنفيذ ،
فقد أدرك أن لا قبل لجيوشه بمواجهة المسلمين فأرسل استغاثته الى
البابا .

استغاثة بيزنطية بالبابا :

وقد تلقى البابا جريجوري السابع هذه الاستغاثة ، فرأى فيها اعتراها
ضعفيا بسلطانه المسيحي العام ، وقد كان جريجوري السابع من أعظم
البابوات وأكثرهم نشاطا ، وهو الذي جعل اختصار الباباوات يتم بطريق
الكرادلة وكان الأباطرة قبل ذلك يعينون الباباوات ، وأراد جريجوري أن
يتوج انتصاراته بأن يخضع لسلطانه الكنيسة الشرقية ، فأعلن أن
الكنيسة الغربية ستقود المعركة ضد المسلمين ، انتصارا لبيزنطة

والمسيحيين على العموم ، ولكن جريجورى مات قبل أن ينفذ هذا الوعد ، فجاءت استغاثة جديدة من الامبراطور اليكسيوس الى البابا الجديد « أوربان الثانى » ، وسرعان ما تحرك هذا البابا للاستجابة لهذا النداء ، فقد ذهب الى فرنسا وعقد هناك اجتماعا فى كليرمونت فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م وألقى خطابه الشهير الذى أعلن به بدء الحروب الصليبية ، وقد جاء فيه :

Let the truce of God be observed at Home, and let the arms of the Christians be directed to conquering the infidils.

« بأمر الله تتوقف العمليات الحربية بين المسيحيين فى أوروبا ، ويتجه هؤلاء بأسلحتهم الى هزيمة الكفرة (يقصد المسلمين) » .

وصاح البابا مخاطب الجماهير : لقد كنتم تحاولون من غير جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، فالآن اذهبوا وأزعجوا البرابرة وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار ، وامتلكوها لأنفسكم فانها كما تقول التوراة تفيض لبنا وعسلا .

وأعلن البابا أن كل من يشترك فى هذه الحروب تغفر له ذنوبه ويدخل فى حماية الكنيسة .

ولعل هذه الخطبة كانت أشد الخطب فى التاريخ وقعا وأبعدها أثرا ، هذا ولم يكن اختيار البابا جنوبى فرنسا مكانا لخطابه من قبيل المصادفة ، إذ كانت تلك البقعة من القارة الأوروبية قد اكتسحتها جموع المسلمين الزاحفة من أسبانيا ، ولذلك كان سكانها أشد استجابة لدعوة البابا لمحاربة المسلمين .

وما إن فرغ أوربان الثانى من خطابه حتى تقدم الألوف من سامعيه وحملوا الصليبان رمزا للاستجابة لحامل الصليب الأكبر وبهذا عرفت هذه الحروب بالحروب الصليبية .

ولم يكتف أوريبان الثانى بما قاله فى كثير موفت وانما أخذ ينتقل بين المدن والبلدان داعيا للحروب الصليبية ، فعقد مجمعا فى ليموج (ديسمبر ١٠٩٥) لهذا الغرض ، وكرر الدعوة نفسها فى أنجرز ومان وتورز وبواتية وبوردو وتولوز وغيرها (يناير - يونية ١٠٩٦) ، وأخيرا اصطحب البابا معه الأمير ريموند الرابع إلى مجمع نيم (يولية ١٠٩٦) ، مما يثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جدرى فى الأعداد للحملة الصليبية الأولى ، وان لم يعين رسميا قائدا لتلك الحملة (١) ، ثم ان ريموند هو الذى نبه البابا الى ضرورة الاعتماد على مساندة قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية ، فأرسل أوريبان الثانى بعثة الى جنوة لتدفعها للمشاركة فى المشروع الصليبي الكبير . ولم يلبث تجار جنوة أن استجابوا لدعوة البابا ، فأعدوا اثنتى عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلا عن ناقلة كبيرة ، وبذلك حققت جنوة لنفسها سيقا كبيرا مكنتها من اكتساب حقوق فى بلاد الشام ، وهى حقوق لم يستطيع للبيزانة أو البنادقة الظفر بها إلا بعد جهد طويل .

وأقبل الأمراء وكثير من الناس على المشاركة فى الحركة الجديدة ، ليس فقط من البلدان القريبة ، مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ، بل أيضا من البلدان البعيدة مثل اسكتلندا والدانمرك وغيرها (٢) .

وكان ضمن الجموع التى استجابت لحمل الصليب عدد وافر من أرباب الخيال البعيدة ، والنفوس المضطربة ، وعشاق المغامرات ، فهؤلاء كانوا على قدم الاستعداد دائما للانضمام الى كل حركة بارزة ، وكذلك المجرمون وأصحاب الخطايا الذين أمطوا الغفران بالحج الى الأرض المقدسة التى لمستها قدما المسيح ، ومثلهم من مثبوا بالشفاء الاقتصادى

Cambridge Mid History vol 5. p. 273. (١)

(٢) انظر الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور ج ١ ص ١٢٥ .

والاجتماعى ، فكان حمل الصليب راحة وتفرجاً لهمومهم أكثر منه
تضحية (١) .

وقد أناب أوربان عنه فى قيادة المتطوعين أحد الأساقفة واسمه ادھمار
Adhamer ليكون للكنيسة السيطرة على الحركة الصليبية ، وحدد أوربان
يوم ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ بدءاً لتحريك قوات الصليبيين ، كما حدد
القسطنطينية مكاناً لالتقاء الجيوش الأوربية المزاحفة الى الشرق ، وبعد
أن أتم أوربان هذا التنظيم غادر فرنسا عائداً الى ايطاليا فى أواخر
سنة ١٠٩٦ .

ومن الملاحظ أن فرنسا كانت الأرض التى شهدت أول صيحة تعلن
الحروب الصليبية ، ولهذا ، ولأن البابا الذى أعلنها ينحدر من أصل
فرنسى ، فإن الحروب الصليبية تعتبر مشروعاً فرنسياً ونشاطاً حربياً
فرنسياً ، وكانت الانتصارات التى حققها هذا النشاط انتصارات لها
الطابع الفرنسى ، فالامارات التى انشئت فى الشرق عقب نجاح هذه
الحروب كانت امارات فرنسية اللسان والعادات والمظاهر ، وكما يقول
الأوربيون انها كانت امارات فرنسية الحسنة والسيئات ، ولعل فرنسا
كانت أقدر من سواها على تغذية هذه الحروب بالقيادة والأبطال والأمراء
والمحاربين وما تتطلبه هذه الحروب من أعباء .

ويرى Barker (٢) أن انتداب فرنسا على سوريا بعد هزيمة تركيا
فى الحرب العظمى الأولى يعد أثراً من آثار الحروب الصليبية .

الجهاد الاسلامى يواجه الحروب الصليبية :

ويبدر بنا أن نذكر أننا سنستعمل هذا التعبير « الحروب الصليبية »
عندما يمتحن المسيحيون حرباً على المسلمين ، أما الحروب المضادة التى يشنها

(١) August Krèy : The First crusade pp. 24-25.

(٢) The Legacy of Islam p. 14.

المسلمون ضد المسيحيين فسنطلق عليها التعبير العربي الاسلامى « الجهاد » وعلى هذا فان الحروب الصليبية السبعة التى سنذكرها هنا كانت حملات مسيحية ناجحة أو فاشلة ضد المسلمين ، أما حملات المسلمين المتكررة التى انتهت بالقضاء على الصليبيين فلا تعد من الحروب الصليبية فى الاصطلاح الذى اتجبه أكثر الباحثين وجريئنا عليه فى هذه الدراسة ، على أن الحملات المسيحية كانت فى الواقع أكثر من سبع حملات ، بل أن حملات الصليبيين على الوطن العربى لم تنقطع تقريبا طيلة هذين القرنين ، ولم ينقطع الجهاد كذلك الا ليهب من جديد ، ويبدو أن السر فى تمييز الحملات السبع بالذكر يرجع الى ما حصلت عليه من شهرة ؛ بسبب ما حققت من نجاح فى الأراضى المقدسة كالحملة الأولى ، أو لخروجها تحت زعامة ملوك الغرب كالحرب الثانية والثالثة والسادسة والسابعة ، أو لاتجاهها :اتجاها غير مألوف كالحرب الرابعة التى اتجهت الى القسطنطينية ، أو الخامسة التى اتجهت الى مصر ، ومن العجيب أن تسمى الحرب الرابعة حربا صليبية مع أن الصليب كان فيها يحارب الصليب .

أما الجهاد فلم يحفل المسلمون باخضاعه الى عذر أيا كان الملك أو الزعيم الذى قاده ، إذ اعتبر المفكرون المسلمون جميع الملوك والمجاهدين وحدة متكاملة ، وتناسوا أشخاص هؤلاء ولم يذكروهم الا فى سياق التاريخ ، دون أن يجعلوا كلاً منهم وحدة قائمة بذاتها كما يفعل المؤرخون الغربيون ، وكان ذلك الاتجاه هو أيضا اتجاه الملوك والسلطين أنفسهم واتجاه الشعب الاسلامى أيضا ، إذ اعتبروا الجهاد سلسلة متصلة الحلقات يحصل كل من المسلمين عباءة فيها ، ويترك ما تبقى منها ليحمله الجيل الذى يليه .

مطلع الزحف الصليبي

بدأت حملات الحروب الصليبية بقوى شعبية هيجها بطرس الناسك وأمثاله من الدعاة المسيحيين الذين أخذوا يطوفون بأوروبا ويخطبون الناس ويدعونهم لإنقاذ الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين ، وكان بطرس الناسك أشد هؤلاء حماسة ونشاطا ، وهو جندي قديم قد تهرّب وأصبح مجذوبا شديدا للتعصب (١) ، ويقول عنه Wells (٢) أنه طراز من الرجال جديد في أوروبا وإن كان يذكرنا بعض الشيء بالأنبياء العبرانيين ، قام هذا الرجل يبشر بالحروب الصليبية لعامة الناس ، وكان يقص عليهم إن صدقا وإن كذبا ، قصة حجه إلى بيت المقدس ، ويحدثهم عن التدمير المنطوي على الاستهانة البالغة الذي أنزله الأتراك السلجوقيون بالقبر المقدس ، ويحدثهم عن ضروب التعصب والابتزاز الجائر والفظائع الوحشية والقساوات المتعددة التي ينزلونها بالحجاج المسيحيين الوافدين إلى الأماكن المقدسة ، وطوّف هذا الرجل حافي القدمين وفي ثياب خشنة وممتلئاً حملاً وحاملاً صليبا مسخما ، بأنحاء فرنسا وألمانيا وهو يخطب في كل مكان به جماهير حاشدة ؛ في كنيسة ، أو شارع ، أو سوق .

وقد استجاب لبطرس الناسك وأمثاله من الدعاة آلاف الناس وتكوّن من هذه الآلاف خمسة فيالق يطلق عليها في التاريخ «الحملة الصليبية الشعبية» ، وقد سارت هذه الفيالق متجهة إلى القسطنطينية ، وكان من مميزات أنها جموع شعبية تحركها فكرة دينية ، ولكن ليست لها قيادة عسكرية تجيد فنون الحرب ، ولا قيادة إدارية مسهوعة الكلمة ، وقد لقيت هذه الحملات الزاحفة إلى الشرق كل إكرام في البلدان الأوروبية التي كانت تمرّ بها في بدء الأمر ، ولكن لم يكد الفيلقان اللذان

(١) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٠١ .

(٢) A Short History of the Middle East p. 71 .

كاننا في المقدمة يصلان الى بلغاريا حتى التقيا بأناس أقل تعصباً فأبوا أن يثيقتهم مجاناً ، وساء هذا الرغض الصليبيين ، ولم يحجموا عن اغتصاب ما متعوه ، وعن نهب قرى تلك البلاد وذبح أهلها ، ولم يصبر الأهلون على ذلك ، فأخذوا ينتقمون لأنفسهم ويقتلون فريقاً كبيراً من الصليبيين أو يغرقونه حتى قضوا على الفيلقين (١) ، وجاء فيلق ثالث ابتدأ عمله بمذبحة أهلها في يهود أرض الراين - ذلك أن الدم المسيحي كان ثائراً ، وكان يريد العدوان على كل من يتبع ديناً آخر وبخاصة اليهود الذين كانوا أول من حاول القضاء على المسيحية وهي في أول عهدها ، ثم تمزق ذلك الجمع أيضاً في هنغاريا ، واخترق الفيلقان الأخيران أوربا بقيادة بطرس ووصلا الى القسطنطينية ، وكم كانت دهشة الامبراطور اليكسيوس وجزعه بالغين ، ذلك أنهم دأبوا على طول الطريق ينهبون وينتهكون الحرمات ، فحملهم الإمبراطور آخر الأمر عبر البسفور الى أرض السلاجقة بآسيا الصغرى ، وهناك أفناهم السلاجقة عن آخرهم ، ولم يكن لهم أى أثر اللهم إلا تقوية حماسة الأوربيين وسخطهم على المسلمين .

والآن نمشى مع الحروب الصليبية السبعة الشهيرة ، خطوة خطوة ، مع ما تخللها من جهاد قام به المسلمون ، يردون العدوان عن أنفسهم وعن ديارهم :

(١) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٢٢٢ .

الحرب الصليبية الأولى

(١٠٩٧ — ١٠٩٩)

الحروب الحقيقية التي تمثل الزحف الصليبي الأول ، كانت بقيادة الأمراء ، وكان هذا الزحف يتكون من ثلاثة فيالق كبيرة تضم نحو مائة وخمسين ألفاً يقودهم الأمراء : جودفري وبوهيموند وريموند ، وسارت هذه الفيالق تجاه القسطنطينية فوصلتها في نهاية سنة ١٠٩٦ ومطلع العام التالي ، وكان الفيالق الذي يقوده جودفري ومعه أخوه بولدوين أسبق الحملات في الوصول الى القسطنطينية ، ولقد تردد هذا القائد من بادئ الأمر في أن يقسم يمين الولاء لامبراطور القسطنطينية ، لأنه تابع للامبراطورية الغربية وهو في الوقت نفسه أمير كاثوليكي جاء على رأس حملة دعا لها البابا الكنيسة الكاثوليكية ، فهو لا يستطيع أن يكون تابعاً للامبراطور البيزنطي راعي الكنيسة الأرثوذكسية وكان هذا الموقف من جودفري سبباً في تلزم العلاقة بينه وبين الامبراطور لدرجة أدت الى حدوث نوع من الصدام المسلح بين القوتين ، أدرك جودفري بعدده أن لا طاقة له بحرب الامبراطور فقدم الولاء الذي طلب منه .

أما الفيالق الثاني فكان بقيادة بوهيموند النورماندي ، وسرعان ما قدم هذا القائد ولاءه للامبراطور وأعلن تبعيته له ، وجاء بعده الفيالق الثالث وأعداً من إقليم بروغانس بقيادة ريموند ومعه الأسقف أدهمار مندوب البابا ، وقد تردد ريموند طويلاً من أن يقسم يمين الولاء للامبراطور ، وقال أن ولاءه للسيد المسيح فقط ، ولكن وساطة مندوب البابا حسنت العلاقة بين الأمير والامبراطور ، واكتفى الامبراطور بأن يقسم ريموند على احترام حياة الامبراطور وشرفه (١) ، وتعهد

الجميع أن يردوا أملاك الامبراطورية إليها عقب استردادها من المسلمين ،
وباركهم الامبراطور وسلمهم علم القديس بطرس ، وقدم لهم المؤن
والذخيرة ، وأمدهم بفرق من جيشه للارشاد والمساعدة .

سير تسمية ونتائجها :

في مطلع عام ١٠٩٧ عبر الصليبيون مضيق البوسفور كالسيل العرم ،
ونزلوا آسيا الصغرى وهى آنذاك إمارة كلج أرسلان ، وأول عمل حربى
قاموا به كان حصار نيقية ، وقد سقطت المدينة فى أيديهم فى ١٨ يونيو
١٠٩٧. بعد حصار شهر ، واستردت بيزنطة بذلك ما فقدته فى شمال
الأناضول ، وتقدم الصليبيون بعد ذلك حيث دارت معركة حربية عند
ضورليوم الى الجنوب الشرقى من نيقية فى نهاية هذا العام ، وقد
انتصر فيها الصليبيون انتصارا حاسما استطاعوا بعده أن يتقدموا فى عدة
اتجاهات دون مقاومة تذكر ؛ فاستولوا على جنوب الأناضول وعلى
منطقة طوروس .

الأرمن يساعدون الصليبيين :

ثم اتجه بولدوين الى الرها : وكان سكانها من الأرمن المسيحيين
وقد استجدوا بالصليبيين وتعاونوا معهم ، وتبنى ملكهم « توروس »
بولدوين ليصبح وريثا له بعد وفاته ، وهذا سهل لبولدوين أن يستولى
على الرها سنة ١٠٩٨ ، واستولى فليق آخر بقيادة بوهيمند على
أنطاكية فى الثالث من يونيو سنة ١٠٩٨ بعد حصار استمر تسعة
شهور (١) .

بوهيمند يتهم على الامبراطور :

وفى أثناء هذا الحصار الذى قاسى الصليبيون فيه أهوالا وشدائد

(١) ابن الاثير : حوادث سنة ٤٩١ ، وابن خلدون : العبر ج ٥

رهبية ، تحول بوهيموند من ولائه للامبراطور الى اتجاها لخدمة أهدافه الخاصة ، فقد أبدى في الحصار ضربا من الشجاعة جعلت المحاصرين يدركون أهميته لهذه الأعمال الحربية ، بيد أنه فجأة أعلن رغبته في الانسحاب والعودة الى ايطاليا معللاً ذلك بأنه لم يكن يتوقع كل هذا العناء ، ولا يستطيع أن يصبر على رؤية رجاله وفرسانه وخيوله تتساقط صرعى من الجوع أمام أسوار أنطاكية ، وقد هزّ هذا التهديد جموع الصليبيين فتوسلوا له أن يبقى معهم ، ووعدوه بأن يسلموه الولاية عقب سقوطها ، وسار بوهيموند مزيّداً من الخطأ في هذا الشوط فاتهم القائد البيزنطي الذي كان معهم في الحصار بأنه يتآمر مع المسلمين سراً ضد الصليبيين ، وخلا بذلك الجو لبوهيموند وأسفر العداء بين الصليبيين وإمبراطورية بيزنطة (١) .

وعقب سقوط أنطاكية استولى بوهيموند على أكثر قطاعاتها واحتل ريموند القطاع الجنوبي الغربي ، ولم يقبل أن يسلمه الى بوهيموند طمعاً في أن تكون أنطاكية إمارة له ، ولم تشكل هذه الأزمة إلا عندما بدأ الزحف نحو بيت المقدس وترغمه ريموند ، وقتل بوهيموند بالبقاء في أنطاكية ، وأخذ ريموند يتطلع الى إمارة أوسع في الأماكن المقدسة (٢) .

والموارنة يساعدون الصليبيين :

وتحركت جموع الصليبيين بعد أنطاكية تجاه بيت المقدس وفي الطريق اتصل الصليبيون بالموارنة ، وهم قوم أشداء ، ومقاتلون بواسل ، فأسدى هؤلاء اليهم خدمات جليلة لمعرفتهم تلك المنطقة فكانوا الأدلاء

(١) انظر الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور ج ١ ص ١٩٥ -

١٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤ .

لهم (١) ، أما أمراء طرابلس وبيروت ففقد خانوا بلادهم وقدموا للجيش الزاحف المؤن والهدايا لينالوا السلامة لهم ولذويهم (٢) .

القدس تقاوم ثم تسقط :

وقد قاومت المدينة المقدسة — وقد كانت آنذاك في أيدي المصريين كما ذكرنا من قبل — مقاومة دامت حوالى أربعين يوما ، حققت خلالها ألوانا من الانتصارات على الصليبيين ، حتى أن الصليبيين اعترفوا بأن ضحاياهم خلال فترة الحصار كانوا أكثر من ضحايا المسلمين ، ثم سقطت بيت المقدس في يد المهاجمين في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ .

المجازر والتفكيك :

بعد سقوط بيت المقدس حدثت مجزرة اليمّة وحشية ، ذبح فيها الرجال والنساء والأطفال من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم ينضموا للصليبيين ، ويصف غوستاف لوبون (٣) هذه المجزرة بقوله : لقد أفرط قومنا في سفك الدماء وبخاصة في هيكل سليمان حيث لجأ كثير من المسلمين والنصارى واليهود ، وكانت جثث القرى تسبح في محيط من الدماء ، ولم يكف قومنا الصليبيون الاتقياء بضروب العسف والتدمير والتفكيك حتى اتبعوها ، بل عقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود والنصارى الذين كان عددهم ٦٠ ألفاً ، فأغنوهم عن آخرهم في ثمانية أيام ولم يستثنوا منهم امرأة ولا طفلا ولا شيخا .

ويقول ابن خلدون (٤) : استباح الفرنجة بيت المقدس وأقاموا في

William of Tyre vol. 2 p. 429. (١)

Ibid. p. 331. (٢)

(٣) حضارة العرب ص ٢٨٧ .

(٤) العبر : ج ٥ ص ١٨٤ .

المدينة أسبوعاً ينهبون ويدمرون وأحصى القتلى بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد المجاورين فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون *****

ويقول : Wells (١) حدثت بيت المقدس مذبحة رهيبة ، وكان دم المهجرين يجري في الشوارع ، حتى لقد كان الفرسان يصيهم رشاش الدم وهم راكبون ، وعندما أرخى الليل سدوله جاء الصليبيون وهم يكون من فرط الفرح ، وخاضوا الدماء التي كانت تسيل كالخمر في معصرة العنب ، واتجهوا الى النواوس ورفعوا أيديهم المخرجة بالدماء يصلون لله شكراً •

ويقول الأستاذ نقولا زيادة : الحملة الصليبية الأولى ، والفظائع التي ارتكبتها في طريقها وفي احتلال القدس ليست مما يشرف ، وقد تظهر لنا اتجاهات الصليبيين من خلال تصرفهم السيئ مع مسيحيي فلسطين أنفسهم ، فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت ، فتبعثر المسيحيون في جهات غاصطين وشرق الأردن ، وسار البطريك الى القاهرة ليعيش في حماية الفاطميين •

وبجوار أنقتل منهم الصليبيون بعمليات سلب ونهب كثيرة شملت ما بالبيوت من ذهب أو فضة أو متاع أو حيوان كما أخذوا قناديل الذهب من المسجد وكانت مائة وخمسين قنديلاً ، وغنموا من المساجد ما لا يقع عليه الإحصاء (٢) •

ولم يسلم الصليبيون المنتصرون لامبراطور القسطنطينية كل

(١) Sher. History of the Middle East p. 74.

(٢) الكامل في التاريخ ، الأندلس ٨٠٨ - ١٨٠ •

ما تغلبوا عليه واعدوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم خاصاً بآسيا الصغرى فقط ، فسلموه ما اقتحموه من بلاد الأناضول ، واستقلوا بما سوى ذلك فكونوا في الشرق الامارات الآتية :

١ — إمارة الرها سنة ١٠٩٨ ويحكمها بلدوين .

٢ — إمارة أنطاكية سنة ١٠٩٨ ويحكمها يوهيموند .

٣ — مملكة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ وقد اختير جودفرى حاكماً لها ، ويلاحظ أن حلم ريموند لم يتحقق فلم يقع عليه الاختيار ليكون حاكماً لبيت المقدس ، على الرغم مما كان يتمتع به من مزايا ، إذ اتهم ريموند بالإفراط في التودد لامبراطور بيزنطية ، واختير جودفرى حاكماً لبيت المقدس في يوليو سنة ١٠٩٩ ، وقد رفض أن يتخذ لقب « ملك » وأن يضع تاجاً على رأسه من ذهب حيث حمل السيد المسيح تاجاً من الشوك ، واختار أن يلقب « حامى القبر المقدس » (١) ، وعيّن لبيت المقدس بطريك كاثوليكي ، وسرعان ما توفي جودفرى ، فاختر أخوه بلدوين حاكماً لبيت المقدس بلقب « ملك » سنة ١١٠٠ ، ولم ينافسه أحد في ذلك لأن يوهيموند كان في هذه الأثناء أسيراً في يد الملك الغازي كمشتكين التركمانى (٢) .

وقد اعتبر انتصار المسيحيين في معركة بيت المقدس واستيلاؤهم على الأماكن المقدسة نجاحاً للحروب الصليبية ، إذ أنها حققت أهم أهدافها .

(١) Agiles p. 654. نقلا عن تاريخ سوريا للدكتور فيليب حتى ج ٢

ص ٢٢٩ .

(٢) ابن القلانسي ص ١٣٨ .

٤ - اماره طرابلس سنة ١١٠٩ :

لم تتوقف حروب الصليبيين بالشام بعد سقوط بيت المقدس ، فقد عهد ملك القدس الى ريموند سنة ١١٠١ أن يفتح طرابلس الشام لتكون إمارة له وهي تقع بين اماره أنطاكية ومملكة بيت المقدس ، وقد قاومت المدينة حصار الصليبيين ثمانى سنوات ولم تسقط إلا سنة ١١٠٩ ، وكان ريموند قد توفي سنة ١١٠٥ وهو يحاصر المدينة ، وقد قاد الحصار بعده وليم جوردان ، فلما مات هذا سنة ١١٠٨ قاد الحصار برتراند وفي عهده سقطت طرابلس .

ومما يذكر أن الذي حدث في بيت المقدس حدث مثله في طرابلس ، فقد كانت طرابلس آنذاك خاضعة لبقايا السلاجقة ، فلما أحس سكانها بضعف حكامها عن مواجهة الصليبيين اتصلوا بالأفضل بن بدر الجمالي بمصر ليضم طرابلس الى سلطانه ، واستجاب الأفضل وأرسل جيشا كبيرا استولى على طرابلس ، بيد أن الصليبيين شددوا من حصارهم على المدينة ، وسار أسطول مصرى لجب ليقاوم هذا الحصار ، ولكن - للأسف - قاومت الريح هذا الأسطول فتأخر وصوله وسقطت المدينة (١) .

وقبل طرابلس كان الصليبيون قد استطاعوا الاستيلاء على عكا سنة ١١٠٤ ثم صور سنة ١١٢٤ (٢) .

الصراع حول صور وتعاون المسلمين :

واتجه الصليبيون لحصار صور ، وحول صور ظهر تعاون المسلمين على الرغم من الخلافات التي كانت موجودة ، فقد تعاون طغتكين صاحب دمشق الذي كانت تتبعه صور مع الأفضل بن بدر الجمالي صاحب النفوذ في مصر

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٨ : ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : البرج ٥ ص ١٩١ - ١٩٢ .

آنذاك لرد الصليبيين عن « صور » مما جعلها تصمد وقتنا طويلا أمام الزحف الصليبي ، ويعبر طغتكين عن سبب تعاونه مع مصر بقوله : إنما فعلت ما فعلت الله تعالى والمسلمين غير ناظر في مال ولا مملكة (١) .



وكانت هذه الفتوح أهم نتائج الحروب الصليبية الأولى وقد تحققت مع هذه الفتوحات نتائج أخرى ، مثل نشأة الجمعيات العسكرية ، وتأسيس أهل البندقية وجنوة للمراكز التجارية في موانئ سورية ، ونمو

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١ .

العلاقات التجارية ببقية أجزاء آسيا ، والاتصال بها لأعمال التبشير الدينى (١) .

عوامل ضعف صليبي عقب انتصار الصليبيين :

وما إن تأسست هذه الامارات حتى أسرع الأمراء الى التخلص من الجنود الذين جاؤوا لهدف الحرب الدينية ، فقد اعتقد الأمراء أن هذه المهمة قد انتهت ، وأسرعوا متجهين لتكوين اقطاعات استغلالية لهم ، وهكذا تركت هذه الامارات في أيدي الأمراء الذين اتخذوا الدين وسيلة لتحقيق الأطماع الدنيوية ، وكانت الأرض الزراعية التى قامت بها الإمارات خصبة للغاية ، ولكن اليد العاملة أصبحت قليلة بعد أن عاد المحاربون ، وقتل السكان الأصليون أو هربوا ، وهرء الأمراء بفترة يأس عندما وجدوا إمارات لا وسائل لاستغلالها ، فاتخذوا طريقين لجلب العمال المزارعين ، يتمثل أحدهما فى السماح لمن بقوا أحياء من السكان الأصليين بالعودة لديارهم وبإلتسامح الدينى معهم ، وتشجيعهم على العمل ، أما الطريق الثانى فكان بالتآمر مع بحارة البندقية وجنوة بأن يجلبوا لهم من أوروبا وفودا كبيرة باسم الحج ويغروهم برخص التكاليف وتيسير الرحلة وجمالها ، واتخذت مع هؤلاء وسائل كثيرة لإبقائهم أو لإبقاء أكثرهم فى الامارات المفتوحة ، وعلى كل حال فقد أخذ الطابع الدينى الذى قامت عليه هذه الامارات ينهار وبرز الطابع الدنيوى ، مما كان له أعظم الأثر فى فشل الحروب الصليبية ، ومن جهة أخرى فقد أصبح واضحاً أن هذه الامارات لم تكن بها وسائل كافية للدفاع عن نفسها ضد أية هجمات يقوم بها المسلمون (٢) .

Barker : The Legacy of Islam p. 82. (١)

Emerton : Mediaeval Europe pp. 363-309. (٢)

بين الحملة الصليبية الأولى والثانية

(الجهاد بقيادة عماد الدين زنكى)

تغيرات في المعسكر الصليبي :

جدعت ظروف خطيرة في الفترة التي وقعت بين الحرب الصليبية الأولى والحرب الثانية ، وكان لهذه الظروف أثر كبير في قيام الحرب الثانية وفي نتائجها ، فمن جهة الجبهة المسيحية ضعفت جبهة الدفاع بعودة رجال الحروب كما ذكرنا آنفاً ، ثم حلَّ الشقاق محل الوفاق بين الجبهات المسيحية ، فامبراطور القسطنطينية لم يكن يتوقع أن الصليبيين قدموا لينتشئوا لأنفسهم إمارات وممالك مستقلة بسوريا ، وقد بدأ الخلاف عقب إنشاء إمارة أنطاكية سنة ١٠٩٨ . فإن الكيسوس أعلن تبعية هذه المنطقة لإمبراطوريته وأيده ريموند في ذلك ، ولكن بوهيموند تمسك بامارته واستقلالها •

وقد أراد امبراطور القسطنطينية أن يضيق على بوهيموند فلا يدع له فرصة للتوسع فساعد هذا الامبراطور ريدرد على أن يفتح طرابلس لتكوين إمارة له وبذلك يقف في طريق توسع بوهيموند •

وساعت كذلك العلاقات بين هذه الامارات بعضها والبعض الآخر ، فقد كان بوهيموند وهو أبرز العباقره الذين قادوا الصليبيين في حروبهم الأولى يطمح أن تكون أنطاكية عاصمة للمملكة وأن يمتد سلطانه الى بيت المقدس ، ولكن جودفرى قفز لمركز السيادة ببيت المقدس ، فأثار حقد بوهيموند والنورمانديين على العموم ، وزاد من هذا الحقد أن نفوذ مملكة بيت المقدس أخذ يزداد ويفتشر في كل الامارات . حتى في أنطاكية نفسها •

وهكذا كانت الجبهة المسيحية تضعف بسبب ضعف التعاون بينها ،
وبسبب الحقد بين الإمارات الصليبية من جهة وإمبراطور القسطنطينية
من جهة أخرى ، وبسبب التنافس بين الإمارات الصليبية بعضها والبعض
الآخر .

وتغيرات في الجبهة الإسلامية :

وبينما كانت الجبهة المسيحية تضعف ، كانت الجبهة الإسلامية تشتد
وتقوى حول الصليبيين فقد أفاق المسلمون من هول الضربة ، وأحسوا
بالنكبة الخطيرة ، فهبوا من سباتهم ينفضون الغبار ويعملون لاستعادة
ما فقدوه ، وقد رأوا تحالف المسيحيين على اختلاف بلادهم ولغاتهم
وأصولهم فجمعوا هم كذلك حول قائد واحد وشعار واحد سواء
في ذلك العرب والتركمان والأكراد والدروز... ولم يشذ منهم إلا بعض
إسماعيلية الساحل الذين كانوا يعملون لتكوين دولة خاصة بهم (١) .

جهود علماء المسلمين :

وقام العلماء بدور كبير لتجميع كلمة المسلمين ، فقد سارت وفود
منهم إلى الخليفة العباسي ببغداد تطلب منه التدخل لصد المسيحيين ،
وعلى الرغم من الصراع بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية فإن
الخليفة العباسي تناسى ذلك الخلاف الداخلي وكلف أمير الموصل بحمل
هذه الأمانة باسم الخلافة العباسية واسم المسلمين ، وسار العلماء كذلك
يندبون السلاطين والرؤساء والمسلمين لإنقاذ الأرض المقدسة فاستجاب
الجميع لهم ، وسرعان ما وجد الصليبيون أنفسهم أمام قوة إسلامية
كبيرة لم يحسبوا حسابها عندما اندفعوا نحو الأرض المقدسة .

(١) محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠١ .

مصر تستعيد الرملة :

وبهذا تعرضت المنطقة المسيحية الى هجوم من الجنوب قامت به مصر فاستولت على الرملة سنة ١١٠٢ بعد موقعة انتصر فيها المسلمون وقتل من الصليبيين مقتلة عظيمة (١) .

وعاماد الدين زنكى يسقط اماره الرها :

كما تعرض المسيحيون الى هجوم من الشمال أكثر قوة قامت به دول الأتراك التي تكونت في آسيا الغربية على أنقاض السلاجقة ، وكان من أهم الدول أتابكية الموصل التي آل حكمها سنة ١١٢٧ ، لعاماد الدين زنكى ، وعلى يد هذا البطل الشهير حلّ الجزر محل المدّ في الحروب الصليبية ، فقد أخذ يغير على إمارة الرها ، ويستعيد البلدة تلو البلدة حتى استطاع أن يشقّط الإمارة كلها سنة ١١٤٤ (٢) ، وقد اغتيل عماد الدين زنكى سنة ١١٤٦ فتولى ابنه نور الدين مكانه ، واتخذ حلب عاصمة له (٣) .

غارات مصرية خطيرة على الصليبيين :

وحدثت مصر دورها في بعث القلق والاضطراب في جموع المسيبيين في هذه الفترة ، وقد شهد عهد الصالح طلائع بن رزيق وزير الفاطميين غارات كثيفة على أمكنة متعددة وبلاد كثيرة كان الصليبيون قد احتلوها ، ففي سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) فتك جيش مصر بحامية صور ، واستولى على سفن الصليبيين في الميناء بما بها من رجال وعتاد ، ودخل الجيش المصرى (صور) عقب ذلك ، فحرق مؤسسات الصليبيين بها ،

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٩٦ .

(٢) عماد الدين الأصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ١٨٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٠ .

وخرّب كل ما بنوه ، وبقي الجيش المصرى فيها ثلاثة أيام ثم خرج قبل
أن تنأى نجدة صليبية لمباريته •

وفى أثناء عودة الجيش المصرى قابل بعض سفن الحجاج الصليبيين
فهاجمها وقتل منهم وأسّر •

وفى سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) هاجم الجيش المصرى غزة وعسقلان
وحقق انتصارات كبيرة •

وأرسل طلائع بن رزيك حملات بحرية الى بيروت فقتلت وأسرت
واستولت على مجموعة من الغنائم •

وهاجم الأسطول المصرى مدينة عسكا ، وأسّر من حاميتها أكثر من
سبعمئة شخص •

أبو الغارات :

وهكذا لم تتوقف هجمات مصر على المرافئ والبلدان المختلفة فى
البر والبحر طيلة عهد الصالح طلائع بن رزيك مما أضفى عليه لقب
(أبو الغارات) وقد كان موقف طلائع شديد الخطورة على الصليبيين
فقد جعلهم فى حرب دائمة لا يحسون بالأمن ، ولا ينعمون بالاستقرار •

الحرب الصليبية الثانية

بقيادة ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا

(١١٤٧ - ١١٤٩ م)

الدوافع لهذه الحملة :

كان سقوط الرها في أيدي المسلمين ، وما تبع ذلك من إحساس الإمارات الغربية بضعفها أمام قوى المسلمين التي أخذت في النهوض ، سبباً دعا إلى الحرب الصليبية الثانية ، فقد أحس الصليبيون أن بقاءهم بالشرق رهن بالعون الذي يصلهم من الغرب ، فتولت أصوات الاستغاثة إلى البابا وإلى ملوك الغرب ، واختار البابا أوجانيوس الثالث داعية يتحدث باسمه ويثير الرأي العام الأوروبي لمساعدة الصليبيين بالشرق ، وهذا الداعية هو القديس برنارد ، وقد استطاع هذا القديس أن يؤثر على لويس السابع ملك فرنسا ، وكتراد الثاني إمبراطور ألمانيا لقيادة حملة جديدة لإنقاذ الإمارات المسيحية بسوريا .

فشل الملكين وتدمير جيوشهما :

وبدأ الزحف في صيف سنة ١١٤٧ ، وكان الألمان أسبق من الفرنسيين في التحرك تجاه الشرق ، فعبروا نهر الدانوب إلى القسطنطينية ، وهناك قابلوا الإمبراطور ما نويل الذي كان شديد الحرص على سرعة التخلص منهم من غير تفكير في الطريق الذي يحقق الهدف الذي جاءوا من أجله ، وما إن وصل الألمان إلى آسيا الصغرى حتى قابلهم المسلمون فقتلوا على الأغلبية العظمى منهم ، وجاء الفرنسيون بعدهم إلى القسطنطينية فدفعهم الإمبراطور إلى آسيا الصغرى كذلك ليلقوا نصيبهم ، وبنى أكثر الجيشين قبل أن يصلوا إلى سوريا ، أفناهم المسلمون في آسيا الصغرى أو قضى عليهم الجوع والمرض اللذان فتسكا بهم فتسكا ذريعاً على طول الطريق .

وبالإضافة الى عدم التعاون بين الإمبراطور والمسيحيين الأوربيين ،
والى ما أنزله الجوع والمرض بالجيشين ، فانه لم يكن هناك وفاق بين
هذا الجيش وذاك ، ولم تكن الثقة متبادلة بينهم من جانب وبين حكام
الامارات اللاتينية بالشرق من جانب آخر •

واتجهت الشراذم التي وصلت سوريا الى دمشق فحاصرتها ، ولكن
نور الدين زنكى سار بجيشه تجاه دمشق فأسرت القوات الغربية تفك
الحصار ، ونجت دمشق من الصليبيين وعاد الملكان الغربيان يجران
أذيال الخيبة بعد فشلهما في حصار دمشق ، وكان ذلك نهاية الحرب
الصليبية الثانية ، وليس لها من أثر يذكر إلا الأسلحة التي خلفها الجيشان
ليستعملها حكام الولايات في الدفاع عن أنفسهم (١) •

الجهاد بين الحرب الصليبية الثانية والثالثة

عصر نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبي

استعادة بعض مدن إمارة أنطاكية :

أغرقت هزيمة الصليبيين في الحرب الثانية نور الدين زنكى ليواصل
هجومه ضد الامارات الصليبية في سوريا . وتم استطاع نور الدين أن
يهزم أمير أنطاكية سنة ١١٤٩ وقتل هذا الأمير في نفس العام ، فأفسح
بذلك المجال لنور الدين ، مما مكّنه من إخضاع عدة مدن من هذه
الامارة ، كما استطاع نور الدين أن يخضع باقى مدن الرها التي لم تكن
قد خضعت من قبل ، وحمل أميرها أسيراً سنة ١١٥١ ، وفي سنة ١١٦٤
تقدم نور الدين خطوط أخرى داخل أنطاكية وقبض على أميرها
بوهيموند الثالث وحليفه ريموند الثالث صاحب طرابلس ، ولم يطلقهما

إلا بعد دفع فدية كبيرة ، وقد أطلق الأول بعد سنة والثاني بعد تسع سنين (١) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن نور الدين لم يشأ أن يترك دمشق في يد حاكمها الضعيف معين الدين أنر ، الذي خاف على سلطانه من نور الدين فأثر الخيانة وحالف الصليبيين ، ولكن رجال دمشق الأبرار ثاروا على هذا الحاكم الخائن ، واتصلوا بنور الدين وسلموه دمشق لتكون حلقة من حلقات الحصار حول الصليبيين .

وهكذا أحاط نور الدين بالصليبيين من الشمال والشرق فلم تبق لهم وسيلة للتوسع ولتقوية أنفسهم إلا بالاتجاه إلى الجنوب حيث تقع مصر ، ذلك القطر الغني ، ذو التاريخ الطويل المجيد ، والذي آل أمره آنذاك إلى يد ضعيفة مرتعشة هي يد خلفاء العهد الأخير من الدولة الفاطمية .

ولكن نور الدين زنكي كان محيطا بالأحداث مدركا سير الأمور ، فقد دبر من جانبه ضرورة حماية مصر والتدخل في شؤونها لصد تيارات الصليبيين ، وساعده على ذلك نداء استغاثة جاءه من أحد المتنازعين على الوزارة بالقاهرة ، فأرسل نور الدين أحد قواده الأبطال وهو شيركوه حيث شتى انتصارات حربية كبيرة كما ذكرنا من قبل ، وعينه الخليفة الفاطمي الأخير « العاضد » وزيرا له سنة ١١٦٩ ، ولكن العمر لم يفسح لشيركوه فمات وتولى مكانه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي أصبح وزيرا للعاضد (٢) .

وهكذا طوق نور الدين الصليبيين ، وهزمهم ، وزعزع حياتهم ولم يحقق الصليبيون أي نصر في هذه الفترة إلا ضم عسقلان سنة ١١٥٣ لمملكة بيت المقدس ، وكانت عسقلان على الساحل تلعب دورا كبيرا في صد غارات الإفرنج ، ولكن انشغال نور الدين بالجيوش الشمالية

(١) عماد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) أبو شامة : تاريخ الدولتين ج ١ ص ١٥٥ . وأبو الفدا ج ٣ ص ٤٧ .

والشرقية والجنوبية أتاح الفرصة لصلياح عسقلان التي قاومت الإفرنج أكثر من نصف قرن قبل أن تستسلم .

وجرت الأحداث بمصر بعد ذلك تباعاً على نحو ما شرحنا عند الحديث عن الدولة الأيوبية ، فقد وضع صلاح الدين نهاية للخلافة الفاطمية وأعاد مصر إلى رحاب السنة ، ثم مات بعد ذلك نور الدين زنكي فابنه اسماعيل ، وسيطر صلاح الدين على مملكة نور الدين خطوة بعد خطوة ، ثم ضم لسلطانه أملاكاً أخرى لم تكن خاضعة لنور الدين .

والمهم هنا أنه بقيام صلاح الدين انتقل مركز النضال ضد الصليبيين من الشمال إلى الجنوب ، وأصبحت مصر عاصمة الكفاح ضد الغاصبين ، ولهذا اتجهت أكثر الحملات الصليبية بعد ذلك إلى ضرب هذا المركز ، ومحاولة السيطرة عليه كما سنرى .

ولنعد إلى صلاح الدين لنقرر أن خطته بدأت بالعمل على توحيد العالم العربي ، والقضاء على كل صراع داخلي فيه ، وقد استجاب له العالم العربي أو أكثره ، فلم يمض وقت طويل حتى أضاف إلى مملكته الفسيحة بلاد النوبة والسودان واليمن والحجاز .

مصر تحارب الفرنجة والصليبيين :

ثم اتجه بعد ذلك إلى الدخلاء الغاصبين فوجه لهم ضراعه وقوته ، وكان هؤلاء يحتلون مركزين خطيرين في العالم العربي ، أحدهما في الشمال الإفريقي الذي كان قد احتله التورمانديون والثاني فلسطين التي اغتصبها الصليبيون كما سبق القول ، وقد استطاع صلاح الدين أن يقضي على التورمانديين بسرعة ، فاستولى على طرابلس الغرب وتونس حتى مدينة قابس سنة ٥٦٨ هـ واتجه بعد ذلك إلى الجهاد الأكبر ضد الصليبيين .

ولنأخذ الآن في تتبع مواقف البطولة والشهامة التي وقفها صلاح الدين فضمنت له إجلال الصديق والعدو علي هر السنين :

صلاح الدين والصليبيون

يقدم Emerton مقارنة دقيقة بين صلاح الدين ومعاصريه من حكام الامارات اللاتينية ، ويجدر بنا أن نوجز هذه المقارنة فهي اعتراف مؤرخ غربي كبير يضع صلاح الدين في مكانه العظيم من التاريخ . يقول Emerton (١) :

« بعد الحرب الصليبية الثانية مرت فترة لم تقم أوربا خلالها بأى نشاط عسكري ضد المسلمين ، وفي هذه الأثناء حدث أكبر حادث في تاريخ الحروب الصليبية ، وهو ظهور صلاح الدين الأيوبي ، وبينما كان المعسكر الإسلامى يقوى بهذا البطل كان معسكر المسيحيين ينهار ، فقد كانت الامارات اللاتينية تعيش في أقصى الظروف التى يخلقها النظام الإقطاعى ، ومبال المحتلون الى الدعة يوما بعد يوم ، ونسوا ما تتطلبه حياتهم كفاحيين من مهام ومسؤوليات ، أما المعسكر الإسلامى فقد حصل في هذه الأثناء على مكانة حققها له القائد الجديد الذى كان أعظم شخصية عرفها عصر الحروب الصليبية ليس فقط في بطولته الحربية بل في صفاته الشخصية التى تضعه في القمة بين العظماء والمصلحين ، لقد كان صلاح الدين يعرف أهدافه الحربية ويجيد التخطيط لها ، وكان من رعاة الطوم والمعارف ، وكان مثالا طيبا في الوفاء بالوعد والشهامة والكرم ، وعلى النقيض من كفاءته ومن صفاته ، كان يتسم معاصروه من حكام الولايات اللاتينية ، الذين كانوا همجا وبرابرة » .

وفي مطلع عهد صلاح الدين كانت المشكلات جمة حوله (تلك التى أشرنا اليها من قبل) ولذلك اتجه صلاح الدين الى مهادنة الصليبيين ،

فظهر في سياسته معهم نوع من المسالمة ، ولكن هذه السياسة قوبلت من الصليبيين بالتحدى وبروح متعصبة ، وفي حالات كثيرة نقضوا المعاهدات بينهم وبين صلاح الدين ، وكأنما كان صلاح الدين في انتظار هذه الأحداث التي كان يُعِدُّ لها العدة منذ أمد طويل ، فانقلبت العلاقة السلمية الى حرب ضروس بدأها الفرنجة ، وقد كان هجومهم الأول قوياً عاتياً حاولوا خلاله الاستيلاء على بعلبك وغزو دمشق ، وقد حقق الفرنجة في هذه الجولة بعض الانتصارات ، فهزموا جند صلاح الدين وأسروا قائده وأسرع صلاح الدين من مصر لمعاونة جيشه في فلسطين ، ولكن ملك بيت المقدس قابله عند الرملة ودارت معركة عنيفة بين الجيشين سنة ١١٧٨ م هزم فيها جيش صلاح الدين ، وكاد نفسه يقع أسيراً ، وعاد صلاح الدين الى مصر ليعد نفسه من جديد ، وانتهر الفرنجة فرصة الانتصارات ، فراحوا يبنون القلاع والحصون وينظمون المؤن والذخيرة ، والرجال ، كما اشغلت حماستهم واتحد زعمائهم ، ولكن صلاح الدين أخذ يعد للأمر عدته فكون جيشاً كبيراً حشد له المؤن والذخيرة ، كما كوّن جيوشاً اضافية عين لها كبار القواد والأبطال ، وسارت هذه الجيوش تدك الأرض ، وسار جيش صلاح الدين فحاصر قلعة يعقوب في سهل بانياس ، وهي من أقوى قلاع الفرنجة ، ومنها كانت المؤن والذخائر ترسل الى جيوش الفرنجة ، هنا وهناك ، فكان حصارها معناه إيقاف الإمدادات عن جيوش الفرنجة ، وسار أحد جيوش صلاح الدين بقيادة فروخ شاه ابن أخيه لمقابلة بلدوين الرابع الذي حاول دخول دمشق ، وقد أنزل فروخ شاه بجيش الفرنجة هزيمة ساحقة ، وسقط بلدوين جريحاً وكان على وشك أن يقع أسيراً ، وأرسل صلاح الدين جيوشاً أخرى لتهاجم الفرنجة في بيروت وصيدا ، ثم اشتد صلاح الدين

في حصاره لقلعة يعقوب ، وضيق عليها الخناق حتى أسقطها وأسر من فيها وأمر بهدمها ، وأدرك الفرنجة ألا أمل في هذا الصراع ، فزأخوا يتشدون الهدنة من جديد ، وقد وافق صلاح الدين على مهادنة بعضهم ، وظل في صراع مع البعض الآخر ليفرق بين جموع الفرنجة من جهة ، وليردع الذين خانوا الهدنة السابقة من جهة أخرى .

ومما دفعه الى قبول الهدنة مع بعض الفرنجة ، أن أحداثاً جددت بالعالم العربي آنذاك ، وكان لابد أن يتفرغ لها صلاح الدين ، وقد أشرنا الى هذه الأحداث من قبل ، ومن أهمها أن يضم الموصل وحلب بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، ولما انتهت صلاح الدين من تحقيق أهدافه في العالم العربي عاد من جديد الى النضال مع الفرنجة ، وساعده على ذلك أن ريجلند أمير الكرك الصليبي نقض المعاهدة التي كانت بين إمارته وبين صلاح الدين ، والعجيب أن يحافظ الجانب القوي على شروط الهدنة ، ولا يحافظ عليها الجانب الضعيف ، فقد قام الصليبيون ببعض الأعمال الطائشة وبخاصة ريجلند هذا ، إذ جرد أسطولا يبعث بشواطئ الحجاز ويهاجم الحجاج المسلمين ، كما دأب على مهاجمة القوافل وسلب متاعها وأسر أفرادها ، وحدث في إحدى هذه الغارات أن أسر هذا الأمير أخت صلاح الدين وكانت مسافرة في إحدى القوافل ، وقد كان ذلك بمثابة الشرارة التي أضرمت النار وأدت الى موقعة حطين الشهيرة .

موقعة حطين :

تعتبر موقعة حطين من أشهر المعارك في تاريخ العالم ، وقد وقعت في الثالث والرابع من يوليو سنة ١١٨٧ م وحطين سهل جبلي بالقرب من بحيرة طبرية المجاورة لبيت المقدس ، وكان عسكر الإفرنج يتكون من عشرين ألفاً ، بقيادة ملك المقدس غي ده لوسينيان ، ورجلند (أرناط) أمير قلعة الكرك وقد قضى المسلمون على هذا الجيش كله ، فسقط بعض

رجاله قتل ووقع الباقون في الأسر ، وكان ملك بيت المقدس وأمر قلعة الكرك بين الأسرى •

وتتحدث المصادر العربية عن موقعة حطين فتصور بأسلوب طلي مواقف البطولة التي وقفها صلاح الدين والمسلمون في هذه المعركة ، وفيما يلي مقتطفات من هذه المصادر •

— في يوم السبت ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ — ٤ من يوليه سنة ١١٨٧ م ، التقى الناصر صلاح الدين بجيوش الصليبيين غربى بحيرة طبرية في موضع يعرف باسم اللوبيا ، وحال بجيشه دون وصول الصليبيين الى ماء بحيرة طبرية ، وطاف صلاح الدين على جيوش الاسلام ، يحرضهم على القتال ، وكلما توجه فريق من الصليبيين نحو البحيرة كان مصيره القتل أو الأسر •

— ورنث القسى وغنت الألوتار ، وبرزت السيوف في المسلا عارية ، واشتعلت الحرب ، فركباً الفرنج فرجاً ، وهيهات أن ينالوا مخرجاً ، فكلما خرجوا جرحوا ، وبرح بهم الحرب فما برحوا ، وكلما ساروا وشدثوا أسروا وشدثوا فعادت أسودهم قتنافذ ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق التنافذ •

— ولما اشتد القتال والفناء بصفوف الصليبيين ، لجأ من استطاع منهم الفرار الى جبل حطين ، وحطين قرية عندها قبر النبی شعيب عليه السلام •

— آوى هؤلاء الى جبل حطين رجاء أن يعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطين بوارق البوار ، ورشقتهم الظبا ، وفرشتهم على الربا ، ورشقتهم المنايا ، وقرشتهم البلايا (١) •

(١) ابن جبير : الرحلة ، وابن شداد •

— ويصف الأفضل على بن الناصر صلاح الدين موقعة حطين فيقول :

كنت الى جانب أبى فى ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهده ، فلما صار ملك الفرنج على القتل فى تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من يبايئهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدى ، فنظرت اليه وقد علت كآبة ، واربدة لونه ، وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا ، فصعدوا على التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا ، والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحى : هزمناهم هزمناهم : فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، حتى ألحقوا المسلمين بوالدى ، وفعل هو مثل ما فعل أولاً ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل فصحت أنا : هزمناهم هزمناهم ، فالتفت الى والدى فقال : اسكت ، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة — أى خيمة الملك — فهو يقول ذلك وإذا الخيمة قد سقطت ؛ فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى ، وبكى من شدة فرحه » .

— وقد حدث أن استسلم من نجا من القتل من الصليبيين ونزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون اليهم ، واستولوا على خيمة الملك ومن بها ، وأسروا الجنود الأحياء عن بكرة أبيهم .

— فمن شاهد القتلى فى ذلك اليوم ، قال ما هناك أسير ، ومن عين الأسرى قال ما هناك قتيل . . . وتمت هذه النصر يوم السبت ، وضربت ذلة أهل السبت على الأحد » .

— استعرض الناصر صلاح الدين بعد ذلك كبار الأسرى بعد أن صلى الله تعالى صلاة الشكر على نعمته النصر ، وأجلس ملك القدس الصليبي بجانبه وأذن له بشربة ماء مشحون ، وأجلس أرناط =

أرنولد = رينالد أمير الكرك بجانب الملك ، وهو ينوى تنفيذ نذره فيه
لإساءاته السابقة وشدة عناده فلم يكن في الفرنج أشد عداوة منه للمسلمين .

ولما ناول الملك كأس الماء إلى رجلند ؛ قال له صلاح الدين :
لم أذن لك في سقيه الماء (حتى لا يوجب ذلك أماناً له) .

وأخذ الناصر يذكر أرنولد بجرائمه : ويسأله كم تحلف وتنكث ؟ ثم
أمر بنقل الأسرى إلى موضع عينه لهم . واستحضر أرنوط (أرنولد) وقال
له : « هانذا أنتصر لحمد صلى الله عليه وسلم » فقد كان أرنولد عندما غدر
بالقافلة القادمة من مصر إلى الشام قال لها : قولوا لحمد يخلصكم . .

وعرض صلاح الدين الإسلام على أرنولد فأبى ، فاستل التمنجاء
(خنجر مقوس يشبه السيف القصير) من وسطه وضربه بها فحل كتفه
وأجهز عليه من كان عنده من الخدم . وقال الناصر : كنت نذرت دفعتين
أن أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة ،
والثانية لما أخذ القافلة غدراً (١) .

ويعلق Emerton (٢) على هذه الواقعة بقوله : إنها وضعت
سلطة الحياة والموت في يد صلاح الدين ، ولكنه استعمل هذه السلطة
في أضيق الحدود . وظهر الفرق جلياً بين معاملة صلاح الدين للفرنجة
ومعاملة الفرنجة للمسلمين التي حدثت قبل ذلك بثمان وثمانين سنة ؛
والموقف الصارم الوحيد الذي وقفه صلاح الدين كان مع أرنولد الذي
يصصفه المؤرخون بأنه كان مغامراً أهوج ، حتى لقد أنزل قواء مرة على
أرض الحجاز المقدسة ، وشاع أنه ينوى نقل جثمان الرسول محمد

(١) مقتطفات من الفتح القسبي في الفتح القسبي لعماد الدين الأصفهاني
ومن مفرج الكرب لابن واصل ومن الكامل لابن الأثير .
(٢) Midiaeval Europe p. 377.

(ﷺ) الى الكرك ؛ وأن يفرض رسوماً غادحة على حجاج المسلمين ، ولم يصده عن هذا إلا فرقة مصرية نثقلت الى هناك على جناح السرعة في أسطول جهّز بعجلة ؛ ولهذا ولسواء أقسم صلاح الدين أن ينحره بيده ، وقد حان آنذاك الوقت للبر بالقسم ، وقد حاول أرنولد أن ينال النجاة فشرب الماء في خيمة صلاح الدين معتقداً أن التقليد العربى يؤمّن من أكل طعام المضيف أو شرب ماءه ، ولكن صلاح الدين أجاب بأن هذا لا يؤمنه لأن الماء طلب ولم يقدم ، وهوى صلاح الدين بالسيف على عنق هذا الطاغية ، وقد ارتعد ملك بيت القدس آنذاك ، ولكن صلاح الدين رد الأمان الى نفس الملك بقوله : إن الملك لا يقتل الملك (١) .

بعد موقعة حطين :

كانت موقعة حطين المعركة الحقيقية التى دمرت قوى الصليبيين ، وتركت أجسامهم دامية وعقولهم خاوية ، وكانت نتائجها بعيدة المدى ، فقد سقط فيها أكثر الأمراء والنبلاء والقادة ما بين قتل وأسير ، حتى أصبحت جيوشهم لا تكاد تجد من يقودها أو من يدبر أمرها ، كما أن من مآثر هذه المعركة أن اسم صلاح الدين أصبح شديد الرهبة . وأصبح يحمل معنى الموت الزؤام للصليبيين ، فلم يعد سهلاً على جيوشهم أن تقابله ، ولم يعد عيباً أن تستسلم الجيوش اليه ، وقد انتهز صلاح الدين هذه الفرصة فراح يجنى ثمار جهاده الناجح في موقعة حطين .

اتجه صلاح الدين الى حصن طبرية فاستسلم اليه ، وسار الى عكا فاحتلها وأقام بها قليلا ، ومنها أرسل الجحافل فاستولت على

(١) ابو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٧٥ وما بعدها — وبهاء الدين ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٠ — ٦٥ .

الناصرية وقيسارية وحيفا ، ثم اتجه صلاح الدين الى صيدا فاستولى عليها ، وواصل سيره الى بيروت فاستسلمت له بعد حصار قصير ، وهكذا سقطت كل المدن الكبرى وكل القلاع في يد صلاح الدين (١) ، فأتجه الى بيت المقدس ليتوج بفتحه انتصاراته .

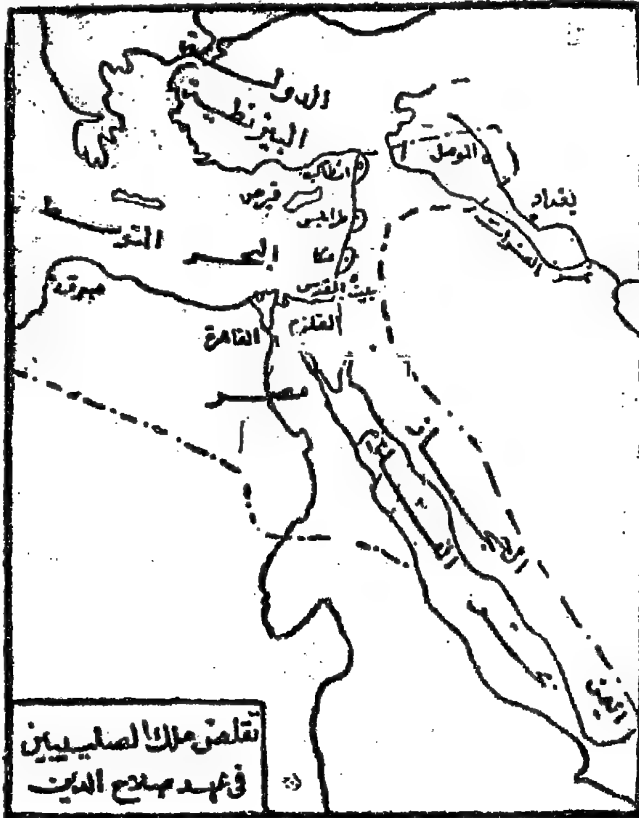
تحرير بيت المقدس :

حاول صلاح الدين أن يدخل المدينة المقدسة صلحا لما لها من مكانة روحية في نفوس المسلمين وحرصاً على أن تسلم من دمار الحرب لو هبت بها الحرب ، ولكن القدس كانت قد أصبحت أقوى حصون الفرنجة ، إذ هرب اليها كل من نجى من المعارك السابقة ، أو أفلت من حصار ، أو خرج من المدن والقلاع التي استسلمت أو فتحت عنوة ، ثم إن أمير الرملة (باليان دي ايبالين) كان أسيراً في يد صلاح الدين منذ سقوط الرملة ، وكانت أسرته في القدس ، فاستأنى باليان أن يذهب للقدس لأحضار أسرته ، وأقسم أن يبر بوعده وألا تطول بالقدس إقامته ، ولما وصل باليان استقبله جند الفرنجة وأحاطوا به ، فقد كان باليان طلبتهم وكان القائد الذي ينشدونه ليقودهم في الدفاع عن العاصمة المقدسة ، وأغراه الفرنجة بحنث عهده مع صلاح الدين فاستجاب لهم ، واستكملت المدينة به عدتها للصراع .

وأحاط صلاح الدين بالمدينة واتخذ جبل الزيتون مركزاً لجيوشه وهناك نصب المجانيق وأخذ يلقي على أسوار المدينة وابلا من الحجارة ، غفر المدافعون واحتموا بالأسوار الضخمة ، وبذلك تقدم المسلمون من الأسوار وأخذوا ينقبونها تحت وابل من السهام المتبادلة بين المهاجمين والمدافعين ، وقد اتضح للفرنجة أن النصر سيحالف العرب كما حالقهم

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .

من قبل ، ويئسوا من تحقيق أى انتصار فى ضوء ما رأوه من استماتة العرب والمسلمين ، وبهذا مال هؤلاء للصالح وطلبوه ، واتفق الطرفان على أن يفرج الفرنجة سالمين من المدينة فى مدى أربعين يوماً ، وأن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة ، والصبي دينارين ، ووفى المسلمون بهذا الوعد متناسين الدماء الغزيرة والأرواح الكثيرة التى أزهقها الفرنجة يوم انتصارهم فى بيت المقدس منذ حوالى تسعين عاماً ، وكان ضمن من خرجوا طبقاً لهذه الشروط البطريرك الأكبر يحمل أموال البيعة وذخائر المساجد التى كان الصليبيون قد غنموها فى فتوحهم ، وقال بعض المسلمين لصالح الدين : إن هذا البطريرك يقوى بهذا المال على حرب المسلمين ، فأجاب صالح الدين : الإسلام لا يعرف الغدر ، لقد



امنكاه وعلينا الوفاء • وخرج الرجل بهذا الثراء ويروى أن مجموعة من النبيلات والأميرات قُتلن لصالح الدين وهن يغادرن بيت المقدس : « أيها السلطان ، لقد مننت علينا بالحياة ، ولكن كيف نعيش وأزواجنا وأولادنا في أسرك ؟ وإذا كنا ندع هذه البلاد الى الأبد فمن سيكون معنا من الرجال للحماية والسعى للمعاش ؟ أيها السلطان هب لنا أزواجنا وأولادنا فإنك إن لم تفعل أسلمتنا للعار والجوع » فتأثر صلاح الدين بذلك ، وكانها أحس أن من واجبه أن يحمي هذه الأعراض من قسوة الطغاة ، فوهب لمن رجاله وأضاف بذلك جيّداً على شهامته وعلو نفسه •

ويقدر Stanley Lane Poole (١) أن كثيرين من الفرنجة الذين سقطت قلاعهم وبلادهم راحوا يطرقون أبواب المدن التي كانت لا تزال في أيدي الفرنجة ، ولكن هذه المدن أقفلت أبوابها في وجههم ، وقد عبر بعضهم البحر الى أوروبا وكثيرون منهم اندمجوا في غمار الحياة في ظل الاسلام فوجدوا رعاية طيبة وترحيباً كريماً ، أما المسيحيون العرب فقد عادوا في ظل صلاح الدين للعيش الهنيء الذي ضمنه لهم الاسلام فيما ضمن من حقوق لغير المسلمين في المجتمع الاسلامي •

وعاد بيت المقدس الى أحضان الاسلام ، ودوى صوت المؤذن في المسجد الأقصى ، وسكت ناقوس المسيحيين ، وأنزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من فوق قبة الصخرة •

صلاح الدين والصليبيون في رمضان :

ومما يذكر أنه عندما حلّ رمضان سنة ٥٨٤ هـ كان صلاح الدين

الأيوبى قد أحرز الانتصارات الكثيرة التى أشهرنا إليها واستخلص من الصليبيين معظم البلاد التى كانوا قد استولوا عليها ، فلما دخل رمضان أشار رجال صلاح الدين عليه أن يفتح فى شهر الصوم ، ولكنه تخوف من انقضاء الأجل قائلاً :

« إن العمر قصير ، والأجل غير مأمون وإبقاء أعداء الإسلام فى أرض المسلمين لحظة مع القدرة على طردهم منكراً لا أرتكبه » وواصل زحفه حتى استولى على مزيد من الأرض حول بيت المقدس فى منتصف رمضان •

الحرب الصليبية الثالثة

حرب الملوك الكبار

(١١٨٩ — ١١٩٢)

بسقوط بيت المقدس عادت الأحوال الى ما كانت عليه قبل الخروب الصليبية ، فإن بيت المقدس كان الهدف الرئيسى الذى سعى الغرب للسيطرة عليه ، وقد عاد بيت المقدس للمسلمين فلتبدأ المعركة من جديد .

ومع التشابه فى الهدف بين الحرب الصليبية الأولى والثالثة فإن هناك خلافاً واضحاً بين الحربين فى عدة نواح أخرى نذكرها فيما يلى :

١ — كان البابا هو رائد الحرب الصليبية الأولى ولكن الحرب الثالثة كانت منبعثة عن العثمانيين ورجال السياسة .

٢ — تقابلت فى الحرب الأولى جيوش متحدة من الغرب مع قوى متخاذلة متفككة فى الشرق ، أما فى الحرب الثالثة فقد كان الأمر بالعكس .

٣ — كان الدين من أهم الدوافع التى بعثت بالغربيين الى الحرب الأولى ، أما فى الحرب الثالثة فقد حمل بعض الغربيين السلاح واشتركوا فيها هرباً من الضريبة التى فرضت على كل من لم يأخذ فيها بنصيب .

ضرائب باسم الحروب الصليبية :

فابتداء من الحملة الصليبية الثانية فرض لويس السابع ضريبة بمقدار العشر على جميع المنقولات ، يدفعها من لم يسهم فى الحروب الصليبية ، وفرض فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد ضريبة عشر

على رجال الدين والعلمانيين جميعاً للمساعدة في الحروب الصليبية ،
ولذلك سميت هذه الفريضة « عشور صلاح الدين » (١) .

واتجهت الكنيسة كذلك لجمع ضرائب باسم الحروب الصليبية ،
ففي أواخر القرن الثاني عشر أعلنت البابوية أنه يجوز لمن لا يقوى على
المشاركة بنفسه في الحروب الصليبية أن يتبرع بمبلغ من المال يسهم
به في سير هذه الحروب ، والمتبرع بذلك تتغفر ذنوبه كالذى شارك
بنفسه في الحروب ، وكانت البابوية تمنح لدافع المال صكاً بذلك ،
وقد تطورت هذه الصكوك فأصبحت « صكوك الغفران » التى ظلت
البابوية تعتمد عليها كمورد هام من مواردها المالية ، بعد فشل الحروب
الصليبية (٢) .

وقد تولى قيادة الحرب الثالثة ملوك أوربا الكبار وهم : فردريك
برياروسا امبراطور ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب
أغسطس ملك فرنسا ، وكان فردريك أكثرهم نشاطاً وحماسة ، وقد أخذ طريق
البر ، فغرق وهو يعبر نهراً بأرمينيا بالقرب من الرها ، وانتهر جيشه
هذه الفرصة فعاد من حيث جاء ، ولم يتبع ابنه الى المعارك الا عدد ضئيل
ليس له غناء . أما الجيشان الانجليزى والفرنسى فانتخذا من أوربا طريق
البحر ، وتقابلا في صقلية حيث أمضيا الشتاء ، وفى خلال هذا الاجتماع
دب الشقاق بين القيادتين ، فأبحر كل منهما وحده ، واتجه ريتشارد الى
قبرص حيث استولى عليها فى طريقه الى فلسطين ، واتجه فيليب مباشرة
إلى فلسطين حيث حاصر عكا بمساعدة من تبقى من جنود فردريك ، وانضم
الى الحصار اللاتين المقيمون فى سوريا بقيادة الملك « غى » مع أنه كان
قد أقسم لصلاح الدين ألا يعود الى شهر السلاح فى وجهه ،

Cambridge Mediaeval History Vol. 5, p. 324. (١).

Ibid 323. (٢) . وانظر كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة

الاديان للمؤلف .

صراع حول عكا وسقوطها :

وأنتجه صلاح الدين الى المعركة ، وظهر أن كفته سترجح ، فاستجد الصليبيون بريتشارد فهتزع اليهم ، وشهدت معركة عكا أقوى هجوم من الصليبيين وأقوى دفاع من البطل صلاح الدين ، وأظهر المسلمون ألوانا من التضحيات والبطولة ، كذا أظهر الصليبيون صورا من الشجاعة ، إذ عذ الملك الكبار هزيمتهم ضربة تهدد أوروبا بالفناء ، وقد رجحت كفة الصليبيين بسبب بحريتهم القوية وسيطرتهم على المرفأ ، مما أدى الى استسلام المدينة مقابل شروط أهمها ألا يتعرض الصليبيون لقوة الدفاع بسوء ، مقابل فدية باهظة ، ولما توانى المسلمون في تقديم الفدية فتك النصرارى بأسراهم (١) ، فدل هذا التصرف على أن أسلوب أوروبا هو لا يتغير في كل زمان ومكان .

ولم يكن سقوط عكا كافيا لتثبيت أقدام النصرارى بفلسطين ، وظهر أنه ليس في مقدورهم الحصول على فتوحات أخرى ، ولم ريتشارد الحرب ، وخاف على ملكه البعيد ، فجرت مراسلات ومشاورات بين الطرفين أوردتها ابن شداد ، ونقتبس منه أهم ما جاء بهذه المراسلات (٢) :

مراسلات :

كتب ريتشارد الى صلاح الدين يقول : ان المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت ديارهم ، وتلفت الأموال والأرواح ؟ وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ، والصليب خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمئن به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء .

فأجاب صلاح الدين : القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٤ .

(٢) سيرة صلاح الدين .

مما هو عندكم ، انه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ، وأما البلاد فهي لنا واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف المسلمين ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قسرة عظيمة فلا يجوز أن نفرط فيه الا لصلحة أوفى منه .

صلح الرملة :

وقد ظلت المراسلات والمساورات مدة طويلة وانتهت بت عقد صلح الرملة في الثاني من تشرين الثاني سنة ١١٩٧ ترك للنصارى فيه قطعة ضيقة من الساحل بجوار عكا تمتد من صور حتى حيفا ، وتسمح لحجاجهم بزيارة الأماكن المقدسة عزلا من السلاح ، واحتفظ صلاح الدين بفتوحاته في اللد والرملة وعسقلان كما احتفظ بداخل البلاد وانتهت بذلك الحرب الثالثة .

ويذكر Emerton (١) أن السبب في فشل الحرب الصليبية الثالثة أن الملوك الثلاثة لم يحملوا السلاح كرجال يدافعون عن الدين وانما كملوك يعملون لامجادهم الخاصة ، أما ريتشارد الذي يعد أحد أبطال الحروب الصليبية فانه لا يمكن أن يحمل هذا اللقب الا في حدود تفكير العصور الوسطى ، فلقد كان الرجل من البرابرة الذين لا يحترمون القوانين ولا يتخلّفون بسجايا رفيعة ، ولذلك فإن ريتشارد إن صلح كقائد عسكري لا يصلح قط حاكما لامة أو مديرا لمعركة خطيرة من هذا النوع .

نهاية صلاح الدين :

مات صلاح الدين بعد هذا الصلح بفترة وجيزة وعمره خمس وخمسون سنة ، ويقول عنه كارل بروكلمان ما يلي (٢) : والحق أن حروب صلاح الدين ضد الصليبيين قد جعلته من أشهر ملوك الشرق في أوروبا ،

(١) Midiaeval Europe p. 378.

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٢ .

أما في الذاكرة الشرقية فلا يزال خالداً إلى جانب كبار الخلفاء والسلاطين كرمز لحقبة من أسعد حقب التاريخ وأهنتها ، وليس من شك في أن قلة ضئيلة من أمراء المسلمين كانت تضارعه من حيث تجرده عن أية نزعة للكسب الشخصي ، ومن حيث انصرافه إلى خدمة دولته ورعاياها ليس غير ، ولم يستطع أعداؤه أنفسهم إلا الإقرار له بالشهامة والفيل في معاملة الخصم المغلوب ، ليس هذا فحسب ، بل كان صلاح الدين بالإضافة إلى ذلك نصيراً للعلم ، وقد عاش في رحابه نفر من خيرة العلماء كابن العماد الأصفهاني الذي أرخ لفتح القدس ، وكالقاضي بهاء الدين بن شداد الذي كتب سيرة صلاح الدين ، وكالقاضي الفاضل .

رحم الله صلاح الدين ، لقد كان قائداً موهوباً تمثلت في شخصه كل المعاني التي كانت تدور في نفوس العرب والمسلمين ، فأبرزها بانتمهم العرب والمسلمين .

بين الحرب الصليبية الثالثة والرابعة

(فترة اضطراب في المعسكرين)

تتأخر هذه الفترة لدى الصليبيين بالصراع المتصل حول تنفوذ بين الكنيسة والسلطات المدنية ، وقد حاولت الكنيسة أن تستعيد مكانتها في الإشراف على الحروب الصليبية وتوجيهها ، ولكن شخصية الملك هنري السادس حالت دون ذلك ، فقد كان هنري السادس أعظم رجال السياسة في عهده ، وأعظم إمبراطور بعد شلمان ، وقد دان له بالولاء والتبعية ملك قبرص وملك أرمينيا مما مد نفوذ هنري إلى الشرق ، ودفعه لاستعادة قيادة الحروب الصليبية الامبراطورية التي قادها أبوه .

وفي معسكر الفرنج كذلك كان هناك خلاف آخر بين بقايا الصليبيين

بالشام بعضهم والبعض ، وقد ضعفت قوتهم بسبب هذا الخلاف ، وبسبب الحسد ، ورغبة كل فريق في أن يكون له السلطان والغلبة على الآخرين .

ولم يكن المعسكر الاسلامي أحسن حالا ، فإن صلاح الدين كان قد قسم الدولة بين أولاده ، فجعل دمشق وجنوبي سوريا لابنته الملك الأفضل وجعل له السلطة العامة ، وجعل مصر للملك العزيز ، وجعل حلب وشمالى سوريا للملك الظاهر ، أما الملك العادل أخو صلاح الدين فقد منح بعض الممتلكات في الجزيرة الفراتية ، وقد شب نزاع بين أولاد صلاح الدين ، وتدخل الملك العادل فأثار بعضهم ضد البعض الآخر ، وقد شجعت هذه الاضطرابات الامبراطور هنرى على العزم على الزحف للشرق .

الملك العادل يقود معسكر المسلمين :

وحدث بعد قليل تغيير في معسكر الفرنج ومعسكر المسلمين ، أما الأول فإن الامبراطور هنرى قد مات وهو يستعد للزحف ، وقد أعطى موته الفرصة للكنيسة لتعيد سيادتها وقيادتها للحروب الصليبية ، أما معسكر المسلمين فقد آل أمره الى نوع من الوحدة ، إذ استطاع الملك العادل أن يقضى على أولاد أخيه الواحد بعد الآخر . وان يتولى السلطة (١١٩٩ - ١٢١٨) في أغلب ملك صلاح الدين ، ولم يبق الأولاد صلاح الدين ، الا قطاع حلب الذى استمر تحت سلطانهم حتى زحف المغول سنة ١٢٦٠ .

وفي وسط هذا الجو جاءت الحرب الصليبية الرابعة .

الحرب الصليبية الرابعة

تتحول الى حرب داخلية بين المسيحيين

(١٢٠٢ — ١٢٠٤)

دفعت الكنيسة جماعات المسيحيين للقيام بهذه الحروب ، وكانت هذه الحروب قريبة الشبه بالحروب الصليبية الأولى من ناحية أنها كانت فرنسية القادة والروح ، ولكن هدفها هذه المرة كان مصر للمسيحيين الآتين :

١ — أصبح واضحا أن نجاح الحروب الصليبية لن يتم إلا اذا سيطر الصليبيون على مصر فقد أصبحت مصر مركز القوة الاسلامية .

٢ — السيطرة على مصر مستحقة الكسب التجارى المنشود ، فمن طريقها سيتمكن الاتصال بالبحر الأحمر والأخذ بنصيب في تجارة الهند وجزر الهند الشرقية « اندونيسيا الآن » .

الاتجاه ضد القسطنطينية :

ولكن حدث شيء لم يكن في الحسبان وجئه هذا الزحف وجهة أخرى فقد انصرف الغزاة تجاه القسطنطينية وقرروا الاستيلاء عليها ، وهذا يبين لنا الى أى حد انصرف الصليبيون ونسوا أهدافهم التى من أجلها زحفوا على الشرق ، وهى الاستيلاء على بيت المقدس ، وأصبحت السياسة والتجارة هى المحرك الحقيقى لهذه الجموع ، وقد اتضح لنا مما سبق أن القسطنطينية لم تعد تتعاون مع الصليبيين ، وأن الصليبيين لم يفوا بوعودهم مع امبراطور القسطنطينية بأن يعيدوا الى ساطانه كل ما يفتحون أو على الأقل يدفعون جزية له ويعترفون بسيادته العليا .

هذا من الناحية السياسية ، أما الناحية التجارية فيوضحها أن

المدن التجارية بإيطاليا وبخاصة فينيسيا قد نعمت بالغنى العظيم عن طريق تجارتها مع الشرق ، وكانت هذه المدن لذلك لا تريد تدمير خطوطها التجارية بالحرب ، ومن أجل هذا حرصت هذه المدن على أن تكسب السلم لهذه الخطوط ، وحرصت في الوقت نفسه على توجيه النشاط الصليبي ضد القسطنطينية لأن هذه كانت سيئة العلاقة مع العواصم التجارية بأوروبا ، ويقول (١) Emerton إن العواصم التجارية بإيطاليا لم تترد أن تقتل الإوزة التي تبيض لها بيضة الذهب .

وبالإضافة إلى الأهداف التجارية ، رحبت الكنيسة الغربية بهذا الاتجاه ، إذ وجدت به فرصة إسقاط الكنيسة المنافسة لها في الشرق . كما اعتقد الصليبيون أن السيطرة على القسطنطينية ستجعل السيطرة على سوريا سهلة ويسيرة .

الاستيلاء على القسطنطينية :

وهكذا تحولت الحروب الصليبية إلى حرب ضد المسيحيين ، ووصل الغزاة إلى القسطنطينية في يوليو سنة ١٢٠٣ وأسقطوها في أبريل ١٢٠٤ بعد مقاومه هزيلة ، وعيّن (بالوين) أول امبراطور لاتيني على القسطنطينية ، وقد ظلت القسطنطينية خاصة للأتين مدة ستين عاما ، وهكذا كانت النهاية غير المتوقعة للحروب الصليبية الرابعة (٢) .

واقسم الغزاة الغنيمة كما كانوا قد اتفقوا قبل الزحف ، فأخذت فينيسيا $\frac{3}{8}$ المنطقة التي استولى الغزاة عليها ، وأخذت الحق في تعيين البطريرك ، أما الفرنجة فكان التاج نصيبهم مع مسئولية الحكم (٣) .

(١) Mediaeval Europe p. 379.

and Mombert : A Short History of the Crusades p. 201.

Bears, Edwin : The Fall of Constantinople p. 187. (٢)

Ibid. p. 192. (٣)

بين الحرب الصليبية الرابعة والخامسة

(زحف الأطفال ونهايتهم)

لا تزال الأسباب التي دعت للحرب الصليبية الرابعة قائمة ، فبيت المقدس لا يزال في أيدي المسلمين ، ولا يزال واضحاً أن أي حرب مقدسة لابد لنجاحها أن يستولى الصليبيون على مصر ، وبينما كانت الحماسة تشتد في أوروبا لهذا الغزو كان الملك العادل يعقد سلسلة من المعاهدات مع المسيحيين كان من شأنها تخفيف الحدة وتقليل الحماسة ، وقد عقدت هذه المعاهدات في السنوات التالية : ١٢٠٢ ، ١٢٠٤ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٧ ، وكان أهم ما في هذه المعاهدات تيسير الحج ، وعدم الاعتداءات بين الجانبين ، وتعديل قليل في الحدود .

وعلى الرغم من ذلك فقد حدثت أحداث في هذه الفترة هيجت النفوس ودفعت إلى الحرب الخامسة ، وأهم هذه الأحداث زحف الأطفال الفرنسيين سنة ١١١٢ بقيادة طفل من الرعاة اسمه ستيفن لتخليص الأرض المقدسة ، وزحف الأطفال الألمان بقيادة طفل اسمه منغولا لنفس الغرض ، وقد خطف تجار الرقيق هؤلاء الأطفال وباعوهم في أسواق النخاسة ، مما أثار أهليهم وذويهم ، ودفع البابا نفسه إلى أن يتخذهم وسيلة للثأر ، فقد كتب عقب هذا الحدث يقول : لقد سجل الأطفال علينا الخزي والعار ، فبينما نفرق نحن في النوم يهب الأطفال لتحرير الأرض المقدسة (١) .

وفي سنة ١٢١٥ انعقد المجلس الأوربي فانتهر البابا فرصة هذا الاجتماع ، وحرك النار الكامنة ، ووجد استجابة لذلك ، فصدد سنة ١٢١٧ موعداً للزحف الصليبي الجديد .

الحرب الصليبية الخامسة

اتجاه الحروب الصليبية الى مصر

(١٢١٨ — ١٢٢١)

اتجهت القوى الصليبية بزحفها هذه المرة تجاه مصر ، تنفيذاً للخطة التي سبق شرحها ، وكانت مصر آنذاك تحت سلطان الملك العادل الذي لم يلبث أن مات في مطلع هذه الحملة وآل السلطان على مصر من بعده لابنه الملك الكامل (١٢١٨ — ١٢٣٨) ولكن الملك الكامل قابل في مطلع عهده ألواناً من المصاعب كان لها أثر كبير في إضعاف قوة المسلمين ، ثم إن المغول كانوا قد بدعوا زحفهم تجاه العالم الاسلامي فاستنقطوا خوارزم ، وبلاد ما وراء النهر ومعظم بلاد فارس سنة ١٢٢٠ ، وبدعوا يوغلون تجاه بغداد ، مما قسم الجهود الاسلامية وقتاً في عضد المسلمين ، يضاف الى ذلك أن الصليبيين اتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحي ليتعاون معهم في ضرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة (١) .

أما جيش الصليبيين فكان في حالة طيبة ، إذ تلقى جموعاً ضخمة من أوروبا جاءت تلبية للدعوة التي وجهها البابا إنوسنت الثالث ، ثم البابا هونوريوس الثالث من بعده ، وكان يقود جموع الصليبيين الملك يوحنا دي برين ملك ما تبقى من مملكة بيت المقدس ومعه النندوب البابوي بلا جيوش ، وتقدمت الحملة تجاه دمياط التي كانت تعتبر باباً لمصر ، وكان بها برج السلسلة الذي يُعَدُّ « قفل الديار المصرية » (١) ،

(١) Coulbeaux : His, d. Abyssinie pp. 259-266.

نقلا عن الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور ج ٢ ص ٩٦٥ .

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ج ٢ ص ١٠٩ .

(م ٤٩ — موسوعة التاريخ : ٥٠)

وقد استطاعت الحملة أن تستولي على هذا البرج في أغسطس سنة ١٢١٨ ، وأن تستولي على دمياط عقب ذلك ، ولكن بعد أن قاومت دمياط مقاومة صلبة ، وأرغمت المهاجمين على دفع أعلى ثمن لسقوطها .

ولم يسرع الصليبيون بنزحف تجاه القاهرة بل انتظروا الامبراطور فردريك الثانى الذى أذيع أنه فى الطريق للانضمام للمهاجمين ، كما أن المصريين لم يمنحوهم فرصة الزحف للقاهرة بسبب الاستعدادات الهائلة التى تدفقت من كل صوب لتحيط بالصليبيين فى دمياط ، وقد أسهم فى هذه الاستعدادات الخليفة العباسى والملك الأشرف موسى ابن الملك العادل والملك المعظم عيسى والمنصور صاحب حماة ، كما تذق الأبطال من شتى النواحي المصرية والإسلامية لمواجهة الصليبيين ، وتمكنت القوة الإسلامية من إزال كثير من الخسائر بالصليبيين فقتلوا منهم وأسروا واستولوا على كثير من المعدات والسفن الحربية والعتاد .

ولكن الملك الكامل كان حريصا على أن تنجو مصر من التدمير الصليبي ، فأتجه الى التضحية ببعض الانتصار الضخم الذى حققه معه صلاح الدين ، رجاء أن يجلو الصليبيون عن دمياط ، فرض عليهم شروطا سخية هى أن يمنحهم بيت المقدس ، ويطلق أسراهم ، ويعيد الصليب الذهبى الذى كان صلاح الدين قد أنزله من فوق قبة الصخرة عقب استردادها .

وكان المسلمون قد خربوا حاميات القدس حتى اذا استعادها الصليبيون لا يستطيعون الانتفاع بها .

ولعل الملك الكامل كان يظن أن بيت المقدس هو هدف الصليبيين ، وأن منحه لهم سيضع حدا لهذه الحرب التى طالمت وشقى بها الناس فى الشرق والغرب ، ولكن الصليبيون أعانوا عن

أهدافهم عندما رفضوا هذا العرض متطلعين الى الاستيلاء على سوريا
ومصر جميعا ، وتقدموا فعلا تجاه القاهرة •

ولم يبق أمام الملك الكامل إلا النضال ، بيد أن فكرة ذكية خطرت
ببال المصريين فجعلت الحرب تسير في جانبهم ، فقد قطع المصريون جسور
النيل فأغرقوا الأرض بالماء وعجز الصليبيون عن الاستمرار في النزحف
بل أصبحوا مهددين بالجوع والهلاك ، فطلبوا الصلح على أن يتركوا
دمياط دون مقابل ، وقد رفض بعض أمراء الأيوبيين ذلك وأصرروا على
القضاء على الصليبيين ، وأسرعوا فأحاطوا بهم من الشمال ومن الجنوب ،
ومتعوهم من العودة الى دمياط • ولكن الملك الكامل كان يريد أن يتفرغ
لمشكلاته الداخلية ، ثم إنه كان قد أذيع أن الإمبراطور فردريك على
وشيك الوصول ، فأراد الملك الكامل أن يظهر مصر من الصليبيين قبل
وصوله ، مخافة أن ينضم لهم وهم محاصرون بدمياط • وتم الاتفاق
على الجلاء دون قيد ، وجلا العدو مكلا بالخيبة والعار •

وانتهت بذلك هذه الحملة القاسية وتطهرت أرض الوطن بعون
الله والنيل الذي طالما قدّم ألواناً من العون للمقيمين على ضفافه •

الحرب الصليبية السادسة

امتداد "الحرب الصليبية الخامسة"

(١٢٢٨ — ١٢٢٩)

تعتبر الحرب الصليبية السادسة تكملة للحرب الخامسة أو ذيلا لها ، فان فردريك جاء الى سوريا ومعه حامية قليلة ، ولم يضرب ضربة واحدة ولكنه حاول أن ينتفع بالعرض الذي كان الملك الكامل قد عرضه على الصليبيين ابان احتلالهم دمياط ، وكانت هناك مشكلات داخلية كثيرة تحيط بالملك الكامل ، فأرسل فردريك الثنائي يطلب المفاوضة معه على أساس تسليم بيت المقدس ، ولكن الملك الكامل رفض المفاوضة على هذا الأساس ، فقد كان مستعدا أن يضحى بها لتتجو مصر ولكن مصر نجت بدون هذه التضحية الباهظة ، بيد أن فردريك اتخذ جانب الاستعطف واللين مع الملك ، وفي بعض المراجع أنه أرسل له رسالة جاء فيها : « أنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى فان رجعت خائبا انتكسرت حرمتى بينهم ، وهذا القدس هو سبب ضجرهم والمسلمون قد خربوا المدينة فلم يعد لها طائل ، فان رأى السلطان أن يتعم على بقبضة البلد والزيارة ، كان ذلك منه صدقة ورفع رأسى بين الملوك (١) » ولا يستبعد الباحثون أن يستعطف فردريك الملك الكامل على هذا الوجه ، فقد نشأ فردريك فى صقلية وتربى فى كنف الحضارة الاسلامية ، وشبه على حب المسلمين وحضارتهم (٢) .

التيانية يانا والتنازل عن بيت المقدس :

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فسان الملك الكامل كان يميل الى

(١) الوافى بثغويات : ذيل الباب الثانى والسبعين .

(٢) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٦٦ .

التسامح ، وكان يريد أن يتم اتفاق على بيت المقدس ، اتفاق يرضي المسلمين والمسيحيين ، وقد رأى أن العلاقة الطيبة بالامبراطور فردريك الثانى تتيح الوصول الى حل وسط ، فسار فى المفاوضات وتمت اتفاقية يانما سنة ١٢٢٩ وجعلت مدتها عشر سنوات ، وبمقتضاها سلم الملك الكامل لفردريك الثانى بيت المقدس وبيت لحم والناصره مع شريط يصل هذه البقاع بعكا التى كانت قد صارت عاصمة مملكة بيت المقدس ، منذ استولى صلاح الدين على بيت المقدس التى كانت عاصمة المملكة من قبل ، وقد نصّ فى الصلح « على أن تبقى بيت المقدس على ما هى عليه من الخرائب ولا يَجُدد سورها وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج ، وأن الحرم بما اختواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين لا يدخله الفرنجة الا للزيارة فقط ويتولاه قوام من المسلمين ، ويقيمون فيها شعائر الاسلام من الأذان والصلاة (١) » .

وبهذا بقيت عكا عاصمة المملكة اذ كانت أكثر حصانة وتسلحاً ، والنظرة السريعة ترى فى هذا الصلح خسارة ، وقد هاجمه المسلمون فى حينه وبكوا على ضياع بيت المقدس ، ودافع الكامل عن نفسه بقوله : « إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس خربة ، والمسجد على حاله ، وشعار الاسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع (٢) » .

ولم يَعدّ المسيحيون هذه الاتفاقية كسبا واضحا ، وهاجمها كثيرون منهم ، ولما نستطيع أن نوافق على تسليم شبر من الأرض الاسلامية طوعا ، وربما رأى السياسة ما لأنراه ، وقد عروا عواقب أخرى فضحوا بالقليل ليحموا الكثير ، وهؤلاء سيساعدهم ما عرّف عن الملك الكامل

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢١٠ .

(٢) المرجع السابق .

من الصفات الطيبة ، فقد ذكر أبو الفدا (١) ، أنه كان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير ، وذكر المقرئ (٢) أن الأمن كان مستتباً في عهد الملك الكامل لهيبته ويقتضه ، حتى كان الواحد يمر بالذهب الكثير والأعمال من الثياب من العريش إلى مصر فلا يحس بخوف .

وفي نفس العام عاد فردريك إلى أوروبا إذ كان البابا قرر حرمانه لأسباب كثيرة منها تباطؤه في السير لسوريا مما سبب ضياع دمياط ، فلما استعاد فردريك بيت المقدس أخذت البابوية تثقل من قيمة استرداده على الوجه الذي تم عليه ، على أن صلحا تم بين فردريك والبابا سنة ١٢٣٠ . رفع على أثره قرار الحرمان .

ونقطة أخرى تتصل بفردريك وكانت ذات أهمية عظمى بالنسبة لمستقبل مملكة بيت المقدس آنذاك ، تلك أن الامبراطور تزوج سنة ١٢٢٥ من الأميرة يولاند ابنة يوحنا دي برين ملك بيت المقدس ، وكانت الأميرة هي الوريثة الوحيدة للملكة عقب موت أبيها في نفس العام (١٢٢٥) وبهذا الزواج أصبح الامبراطور ملكا لمملكة بيت المقدس ، وظلت هذه الملكة تابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة حتى سنة ١٢٦٨ ، وسنرى بعد قليل أثر هذا الوضع على مستقبل بيت المقدس .

بين الحرب الصليبية السادسة والسابعة

(صراعات داخلية)

إن الفترة التي مضت بين الحرب الصليبية السادسة والحرب الصليبية السابعة أي بين ١٢٣٨ ، و ١٢٤٨ تعتبر فترة حاسمة في تاريخ الشام وتاريخ الاسلام على العموم ، وفي كلمة موجزة نقرر أن اضطرابا

(١) المختصر في أخبار البشر : حوادث ٦٣٥ .

(٢) السلوك : ج ١ ص ٢٥٩ .

قاسينا هز المجتمع الاسلامي آنذاك ، فبعد أن أسقط المغول دولة الأتراك الخوارزمية هاج الخوارزمية وشاروا في أرض الاسلام يعيشون فسادا ، فكانوا في تدميرهم يسيرون على أسلوب المغول أو أشد ، ثم كان الأيوبيون في تفكك وانحلال وصراع ، والسلاجقة بينهم خلاف جاء لهم في الأحداث والحروب الداخلية نصيبا كبيرا ، وفي هذه الفترة توفي الملك الكامل سنة ١٢٣٨ ، وتولى بعده ابنه الملك العادل الثاني (١٢٣٨ — ١٢٤٠) ولكنه كان ضعيفا فلم يستطع أن يقاوم أخاه الصالح نجم الدين أيوب فأخلى له عرش مصر (١٢٤٠ — ١٢٤٨) .

ولم يكن المعسكر الصليبي أحسن حالا من معسكر المسلمين ، وقد رأينا عند الحديث عن الحرب الصليبية السادسة بذور الاضطراب والقلق التي نمت من يوم إلى يوم ، فالامبراطور فردريك الثاني أصبح ملكا لمملكة بيت المقدس ، ولكن مصالحه في الغرب كانت بطبيعة الحال أهم من مصالحه في سوريا ، ولذلك سرعان ما عاد الى أوروبا تاركا مكانه خاليا ، وتاركا المملكة التي لها الاشراف على الصليبيين في الشام دون ملك مقيم يدبر شأنها بطريق مباشر وحاسم وسريع ، ثم ان اتفاقية يافا ألزمت — كما قلنا آنفا — ألا يحصن بيت القدس . ومن هنا فقدت هذه المدينة أهميتها الحربية ، وكان من السهل أن يقتحمها المسلمون في أي وقت ، لولا ما كان بينهم من خلاف ، وكان للخلاف بين الامبراطور والبابا أثر لم ينته بانتهاء الخلاف ، بل ظلت له آثار بعد ذلك .

وكان الصليبيون بالشام في اضطراب وتفكك ، وقام صراع مرير بين أمراء الاقطاع الامبراطوري النورماندي .

وهكذا وقف بيت المقدس — وهو المركز الذي كانت تمرور حوله

الأحداث العسكرية آنذاك — بين القوى المتعادلة ضففا وخورا ، وأخذ بيت المقدس يترنح مستجيبا لمن يحاول أن يتسلمه .

الصالح اسماعيل يستولى على بيت المقدس :

وفي سنة ١٢٣٩ حدثت معركة قوية عند غزة اشتركت فيها جيوش الصالح اسماعيل ملك دمشق (١) وجيوش العادل الثاني ملك مصر ، وقد مزقت هذه القوة جيش الصليبيين وقتلت ألفا وثمانمائة وأسرت عددا كبيرا ، وكان كثير من الزعماء والأمراء بين القتلى والأسرى ولم يقتل من المسلمين غير عشرة (٢) ، وقد استولت جيوش الصالح اسماعيل على بيت المقدس عقب هذه الواقعة (٣) .

الصالح اسماعيل يعيد بيت المقدس للصليبيين :

بيد أن استيلاء الصالح نجم الدين أيوب على السلطة بمصر

(١) كان ملكا لدمشق بضعة شهور خلال سنة ١٢٣٧ ثم أخلى الطريق لأخيه الملك الكامل ، وبعد الكامل جاء ابنه العادل سنة ١٢٣٨ ملكا على مصر والشام ، بيد أن الصالح نجم الدين أيوب استولى على دمشق من أخيه العادل ١٢٣٩ ثم ذهب إلى مصر فاستولى عليها سنة ١٢٤٠ ، ولكنه بعد أن ترك الشام إلى مصر قفز الصالح اسماعيل للسلطان مرة أخرى بالشام ، وقد استمر هذه المرة ست سنوات ١٢٣٩ — ١٢٤٥ ثم عاد فانهزم أمام الصالح أيوب .

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٠ .

(٣) أبو الفدا : المختصر بحوادث سنة ٦٣٧ وتري بعض المراجع أن الناصر داود صاحب الأردن هو الذي استولى على بيت المقدس دون أن تربط هذا الاستيلاء بهوقعة غزة ، ولكننا نؤثر الرأي الذي قلنا به لأن الصالح — وليس الناصر — هو الذي عاد فسلم بيت المقدس للصليبيين سنة ١٢٤٠ .

باجتماع المراجع ، وليس طبيعيا أن نفترض أن الناصر داود سلم بيت المقدس للصالح اسماعيل وهذا سلمه للصليبيين .

من الملك العادل أثار الصالح اسماعيل الذي خالف على ملكه فتحالف مع الصليبيين ضد نجم الدين وأعاد لهم بيت المقدس سنة ١٢٤٠ ، فاستهدف غضب المسلمين وشنعوا عليه وأكثروا عليه السفط (١) ، وفي اللقاء الذي أعد للصدام بين الصليبيين والصالح اسماعيل من جانب وبين الجيوش المصرية من جانب آخر سنة ١٢٤٠ استدار جند الشام المسلمون وانضموا الى القوات المصرية ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم عند غزة وأسروا منهم خلقاً لا يحصون (٢) ، ولكن المسلمين لم يعودوا للسيطرة على بيت المقدس .

الخوارزمية يستعيدون بيت المقدس :

وبعد ذلك بأربع سنوات أي في سنة ١٢٤٤ ، انتزع الخوارزمية حلفاء الملك الصالح نجم الدين أيوب آنذاك ، بيت المقدس من الصليبيين ، وقد تتبع الخوارزمية الصليبيين الفارين من المدينة المقدسة الى يافا فقصوا على الكثيرين منهم ، أما كنيسة القيامة وغيرها من الأماكن الدينية المسيحية داخل بيت المقدس فقد اعتدى عليها الخوارزمية ودمروا وأتلفوا معظمها ، وأعادوا بيت المقدس نهائياً الى المسلمين ، ولم يقدر لجيش مسيحي أن يقرب من هذه المدينة بعد ذلك حتى الحرب العالمية الأولى (٣) .

حطين الثانية وتدمير الصليبيين والخوارزمية :

وحدثت بعد ذلك موقعة غزة الثانية في أكتوبر سنة ١٢٤٤ بين الملك الصالح نجم الدين وحلفائه الخوارزمية وبين الصليبيين ومعهم الاستبارية والداوية وبعض المنحرفين المسلمين ، ودارت الدائرة على الصليبيين

(١) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٣٩ والسلوك للمقريزي ج ١

ص ٣٠٤ ، ٣٠٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٣ .

(٣) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٤٥ .

وحلفائهم وخرّ منهم أكثر من ثلاثين ألفا وسبق المئات من الأسرى إلى مصر ، وتسمى هذه الموقعة لهذا « حطين الثانية » ، وعلى أثرها استولى الصالح أيوب على دمشق ، ولما واجه أطماع الخوارزمية وعيّنهم حاربهم وقضى عليهم سنة ١٢٤٦ ثم استولى على حصن طبرية سنة ١٢٤٧ من الصليبيين وعلى عسقلان في نفس العام من الاسبتارية ، وقد أحدثت هذه الانتصارات ذعرا في أوروبا ودفعت لحرب صليبية جديدة هي الحرب الصليبية السابعة •

الحرب الصليبية السابعة

لويس التاسع وأسره في مصر

(١٢٤٩ — ١٢٥٠)

كان هدف هذه الحرب أن يعود الصليبيون مرة ثالثة الى بيت المقدس ، ولكن أصبح من المتأكد لديهم أن بيت المقدس من غير مصر لا يمكن أن يبقى في أيديهم ، ولذلك اتجهت هذه الحرب الى مصر كما اتجهت حروب مثلها من قبل ، وكانت هذه الحرب بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد حمل لويس الصليب عند سقوط بيت المقدس سنة ١٢٤٤ وأخذ يدعو الى حرب صليبية جديدة ولكنه تأخر في البدء بها لأنه كان مشغولا بمحاولة الإصلاح بين البابا وامبراطور المانيا ، ولم تتجح هذه المحاولة ، فاصطحب اخوته وحاشيته وبدأ رحلته الصليبية في أول الشتاء سنة ١٢٤٨ وأمضى الشتاء في قبرص ثم استأنف سيره موجها حملته الى مصر كما قلنا .

لويس التاسع في دمياط :

وكان سلطان مصر (الصالح نجم الدين الذي سبق الكلام عنه) موجودا بالشام يزاول بعض الحركات العسكرية التي يحاول بها أن يثبت ملكه ، فانتهاز الصليبيون هذه الفرصة ونزلوا دمياط واحتلوها سنة ١٢٤٩ ومرض الملك الصالح فعهد لولده المعظم توران شاه بالسلطنة على مصر وكان آنذاك أميرا على حصن « كَيْفَا » (١) وجعل الأمير حسام الدين بن علي نائبا للسلطة بالقاهرة والأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قائدا عاما على الجيوش المصرية التي عسكرت في جديلة والمنصورة لمواجهة

(١) بلدة تاريخية على مجلة الأعلى ، وهي الآن داخل الحدود التركية المجاورة للعراق ، ويطلق عليها حاليا اسم «حرف» هو «حسنكف» .

الزحف الصليبي ، ومات الملك بعد ذلك فأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته وأخذت تصدر باسمه الأوامر إلى المماليك ، وفي الوقت نفسه أرسلت تستدعى توران شاه .

الصليبيون يصلون إلى ضواحي المنصورة :

ولم تستطع حملة لويس التاسع أن تواصل سيرها إلى الجنوب من دمياط بسبب أنواع العقبات المائية والصينية التي تخلفت عن مياه الفيضان في هذه المنطقة المعروفة باسم جزيرة دمياط ، وذلك فضلا عن العمليات التعويقية التي قامت بها الخيالة الأيوبية المصرية خير قيام (١) وأخيرا وبعد جهد جهيد استطاعت الحملة الصليبية أن تصل إلى معسكر يقابل المعسكر المصري الموجود في جديلة إحدى ضواحي المنصورة ، ولم يبق من فاصل بين القوتين إلا البحر الصغير ، وقد أخذ لويس التاسع يعدد العدة لعبور هذا النهر ، ولكن القوى المصرية قضت على كل الوسائل التي اتخذها ، وأخيرا اهتدى الصليبيون إلى مخاضة سلمون حيث يمكن للخيالة أن يعبروا النهر راكبين خيولهم ، وفي أمسية من أيام فبراير سنة ١٢٥٠ قفز الخيالة بقيادة روبرت كونت أرتوا أخى الملك لويس ومعه طائفة الفرسان الداوية وفرق أخرى عن الفرسان ، واستطاعوا أن يصلوا إلى الشاطئ الآخر وأن يهاجموا المصريين في معسكر جديلة فسقط ثل جديلة في أيديهم وقتل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وهو يناهض المعتدين ، وانسحبت القوة المصرية متراجعة إلى المنصورة ، ووقعت أخبار هذا الزحف المفاجيء وقع الصاعقة على المصريين في المنصورة والقاهرة .

معركة عنيفة بالمنصورة :

غير أن روبرت لم يكف بهذا الانتصار بل أصر على أن يتعقب القوات المنسحبة إلى مدينة المنصورة دون أن ينتظر القوات البرية التي كان

(١) دكتور محمد مصطفى زيادة : حملة لويس على مصر ص ١٢٨ .

يقودها أخوه الملك والتي كانت تنتظر عون الفرسان لاقامة جسر تعبر عليه ، وكان هذا غرورا دفع روبرت ثمنه غاليا ، فان الظاهر بيبرس قائد القوات المصرية بالمنصورة أفسح الطريق للمهاجمين ، وأكمن فرقا من جنده في مناطق خاصة ، وأمر الأهلين بالاختفاء في بيوتهم مؤقتا ، وفي لحظة مفاجئة صدرت الأوامر بالانقضاء على الصليبيين ، واذا بهؤلاء بين وائل ينصب عليهم من الجنود ومن الأهلين جميعا ، حتى أصبحت البيوت والأزقة مقابر لعدد كبير منهم ، وسقط روبرت نفسه قتيلًا في أحد شوارع المنصورة .

على أن الملك لويس استطاع بين صخب المعارك أن يقيم الجسر المطلوب ويعبر بالمشاة الى معسكر جديدة ، وهكذا وقف الجيشان وجهًا لوجه ، وقف الصليبيون في جديدة ، ووقف المصريون في المنصورة .

ولم يثقل الظاهر بيبرس بالنصر الذي أحرزه مع الفرسان ، بل راح يهاجم معسكر الملك في جديدة ، وقد أحرز نصرا مؤزرا في هجماته ، وفي إحدى معاركه الضارية أوشك شارل كونت أنجو الأخ الثاني للملك لويس أن يسقط في أيدي المصريين ، لولا أن الملك غامر فانقض اليه وأنقذه ، ويعرف هذا اليوم بيوم جديدة الكبرى ، وقد حدث في ٢١ فبراير سنة ١٢٥٠ .

توران شاه يقود المعركة الفاصلة :

وحضر الملك توران شاه عقب ذلك ، وتغيرت خطة المعركة فأدارها توران شاه بحريّة ، وقد استطاع أن يقطع التموين عن الجنود حتى عزّ عليهم الطعام ، وحاول الملك لويس التاسع أن يلجأ لوسيلة المفاوضات ، ولكن أحدا لم يصغ اليه ، وحاول أن ينسحب بجيشه الى دمياط ، ولكن المصريين سدوا عليه المنافذ ، وحدثت عدة معارك بحرية انتصرت فيها القوى المصرية انتصارات باهرة ، وسقط أكثر جنود الصليبيين قتلى وجرحى ، كما مرض كثيرون منهم بسبب الأوبئة

التي انتشرت والمجاعة التي تقشت ، ولم يقبل المصريون الا التسليم دون قيد ولا شرط .

لاستسلام وأسر الملك وصحبه :

وعلا فجأة صوت جاويش فرنسي اسمه مارسيل بأن الملك لويس أصغر أوامره بالتسليم العام للقوات الأيوبية ، ولم يشعر بالضبط الدافع الذي دفع ذلك الجاويش لهذه الصيحة ، على أن الأحوال كانت مهيأة لهذا التسليم ، ولم يقبل الملك على أى حال أن يستسلم ودافع عنه جمع من الخيالة الصليبية بقيادة كونت شاتيون ، ولكن القوى المصرية دكت هذا الدفاع وقبضت على الملك وعلى أخويه شارل كونت آنجو وألفونس كونت بواتييه وجماعة كثيرة من بارونات وجاشيته ، وسبق الملك الى دار ابن لقمان حيث سجن ، أما مجموعة الأسرى وعدتهم عشرة آلاف من الفرسان يضاف اليهم كبار البارونات وعددهم كبير فقد وضعوا في خيمة كبيرة تحت حراسة مشددة ، ودارت المباحثات بعد ذلك للجلاء دون قيد ولا شرط على أن يدفع الصليبيون فدية كبيرة لتحرير الملك السجين . ودفع الملك الجزية وأفرج عنه ، وانسحب الجيش من دمياط خائبا (١) .

وعند ذلك :

وقد تعهد لويس التاسع في اتفاقيته مع المماليك الا يقصد سواطيه الاسلام مرة أخرى ، ولكن شق عليه عقب إطلاق سراحه في مايو سنة ١٢٥٠ أن يعود الى بلاده مباشرة وقد لطخت سمعته فضيحة الهزيمة وعار الأسر ، واختار أن يقصد بلاد الشام أولا عسى أن يتمكن من القيام ببعض الأعمال الصليبية التي تعيد اليه ماء وجهه ، وكان الصليبيون في بلاد الشام وقتئذ أحوج ما يكون الى زعيم قوى ينظم صفوفهم ويحل

مشكلاتهم وييث فيهم روح الأمل والثبات، ولذلك فرحوا بمقدم لويس التاسع اليهم ورحبوا به ترحيبا كبيرا (١) . وقد قضى لويس التاسع بالشام أربع سنوات (مايو ١٢٥٠ — أبريل ١٢٥٤) عمل فيها جهادا لتصفية الخلافات بين أمراء الصليبيين بعضهم والبعض الآخر من ناحية ، والاحتفاظ بكيان الصليبيين وسط الخلافات التي تأججت بين بنى أيوب في الشام والمماليك في مصر من ناحية ثانية ، ثم القيام بمباحثات هامة مع القطار من ناحية ثالثة ، ولكن كل ذلك لم يأت بطائل ، فغادر الشام وهو مدفوع بعصبية مجنونة ضد المسلمين ، فهاجم تونس قبل أن يصل الى بلاده ومات بها ودفن في إحدى مدنها وهي مدينة قرطاجنة (٢) .

(١) الدكتور سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٥٦ .

(٢) التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية للمؤلف ج ٤ ص ١٧٢ .
ومن الكتب المفصلة الدقيقة عن الحرب الصليبية السابعة ينبغي أن نذكر كتاب « حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة » لـ الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وهو مرجع حافل ، انتفعنا به كثيرا فيها اوردناه عن هذا الحرب .

الحروب الصليبية تقرب من نهايتها

قلت في مكان آخر من كتيبى (١) إن أوروبا قد توقفت عن مد يد العون للامراء الصليبيين في فلسطين بتركهم يهرون تحت أقدام المسلمين ، لسبب ظاهر هو ظهور المغول في التاريخ ، وسيامهم بحركة التدمير للعالم الاسلامى ، وإراقتهم دماء المسلمين ، وتكليفهم بالمفكرين والعلماء ، ولهذا أحست أوروبا أن المغول يقومون بالدور الذى كانت أوروبا قد اضطلعت به ، وهو القضاء على الاسلام والمسلمين بشكل يشبه فى بشاعته وقسوته اتجاهات الغربيين .

ولهذا توقفت أوروبا عن مساعدة الصليبيين بالشرق ، وإذا كان المسلمون سينتصرون عليهم فان هذا ليس كبير خطر ، فالهم هو القضاء على الاسلام والفكر الاسلامى .

وعلى هذا كانت حملة لويس التاسع آخر عون ذى بال قدمته أوروبا لحملة الصليب ، وترك هؤلاء المساكين تحت رحمة المسلمين ، ولما حقق المسلمون النصر ضد المغول فى عين جالوت وفى المعارك التى تلتها ينس الصليبيون من الانتصار على المسلمين الذين أوقعوا الهزائم بقوة المغول الرهيبة التى كان الصليبيون يعتقدون أنها لا تهزم .

الجهاد حتى النصر :

وهكذا اذا كانت حملات أوروبا للشرق قد توقفت ، فانه كان على المسلمين أن يباشروا « الجهاد » كى يحرروا البلاد التى كانت لا تزال فى أيدي المسيحيين الأوربيين ، وحدث بعد موقعة المنصورة أن قتل توران شاه فكان آخر سلاطين الأيوبيين ، وانتقل السلطان الى شجرة الدر

التي كانت زوجة أبيه الملك الصالح نجم الدين يعاونها عز الدين أيبك ، وبهذا انتقل السلطان الى المماليك ، وتم لهم السلطان عقب التخلص من شجرة الدر ، وتحمل المماليك بذلك عبء القضاء على بقايا الغاصبين ، وكان في المماليك سلاطين جديرون بحمل هذا العبء الكبير .

وقد كان في وسع المماليك أن يعجلوا بطرد الصليبيين ، ولكن عاملا مهما ، أتاح لهم البقاء بالشام حوالى أربعين سنة بعد سقوط بيت المقدس ، ذلك أن المغول كانوا قد بدعوا زحفهم على العالم الاسلامى كما قلنا من قبل ، ثم أسقطوا الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ م وراحوا يهرقون المدن ويدمررون الحضارة الاسلامية ، ووصلوا في زحفهم الى الشام متجهين الى مصر ، وكان المماليك يعدون العدة لاستقبالهم في معركة حياة أو موت ، لا بالنسبة لمصر فقط بل بالنسبة للعالم الاسلامى كله ، ومن ثم فقد أجل المماليك صراعهم مع الصليبيين ، وكان هؤلاء مشغولين في خلافتهم الداخلية فلم يستثيروا حقد المماليك ، وتقابل الجيش المصرى بقيادة البطل السلطان قطز وبجواره « الظاهر بيبرس » في ٢٥ من رمضان سنة ١٢٦٠ بالمغول في عين جالوت ، فاندحر المغول وانهزموا هزيمة ساحقة ، وأتيحت الفرصة للمماليك ليستديروا للصليبيين ويصارعوهم للقضاء عليهم ، .

وفيما يلى أبرز السلاطين الذين قادوا الجيوش الاسلامية وخاضوا معارك حاسمة ، قضوا فيها على بقايا الصليبيين المعتدين .

الظاهر بيبرس

بطل عظيم من الأبطال الذين أنجبتهم مصر ، وسلطان من خيرة سلاطين المماليك ، له في كل بجانب موهبة ، وفي كل مجال قدرة ومكانة ، فأياديه واضحة في الصراع ضد الصليبيين ، وقصد المغول واصلاحاته الداخلية ناطقة بجهده ومكانته .

ويقول عنه ابن خلكان : كان ملكا عالى الهمة ، شديد البأس لم نر في هذا الزمان ملكا مثله في عزمه و همته (١) .

ويقول عنه صاحب كنز الدرر : إن بيبرس كان ملكا هماما شجاعا مقداما لا يرهب الموت كثير الحيلة ، حسن السياسة ، جميل التقدير ، ميمون الحروب ، مؤيد العزم (٢) .

ويقول عنه استانلى لين بول : كان شجاعا يطمح في أن يكون نظيرا لصالح الدين (٣) .

ويقول عنه بزوكلمان : ان عهد بيبرس كان كعهد الرشيد وصالح الدين أحمد عصور الاسلام الذهبية (٤) .
ماذا فعل بيبرس مع الصليبيين ؟

سنورد فيما يلى لمحات عن معاركه الكثيرة الرائعة :

قيسارية :

— في سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٥ م خرج بيبرس الى قيسارية الشام ، وضربها ضربا استسلمت عقبه ، ودك ما بها من حصون .
وكان لويس التاسع قد حصنها عندما كان بالشام ، ولكنها لم تستطع الصمود أمام قوة مصر ، فسقطت في أيدي جنود بيبرس .

حيفا :

وبعد فترة وجيزة هاجم حيفا وقلعتها وأمر بتدميرها ، وقتل الكثيرين من حراسها ، وفر الآخرون الى السفن الراسية بالميناء .

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٥٥ .

(٢) كنز الدرر : ج ٨ ص ٢١٤ .

(٣) The Story of Gairo p. 214

(٤) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٣ ص ٢٢٥ .

أرسوف :

ثم سار بيبرس الى قلعة أرسوف البحرية ، وهى الى الجنوب من
قيسارية ، وبعد حصار طويل استسلمت القلعة له .

عسفد :

ثم سار بيبرس الى عسفد ، وحاصرها قرابة شهر ، واستولى
عليها ، وخرَّب قلعتها ، وطلب الفرنجة منه الأمان على أن يخرجوا
بدون سلاح أو مال عائدين الى أوروبا ، فوافقهم السلطان على ذلك .
وكان كل من يخفى منهم مالا أو سلاحا يدفع دمه نظير هذا الغدر ،
وبعد أن استولى على القلعة أعاد بناءها ، وكتب على الجدران عبارة
تصور مدى سروره بانتصاره على الصليبيين فيها ، وهذه العبارة هى :

عماد الدين الظاهر بيبرس الذى حوّل
الكنائس الى مساجد ، ورنين النواقيس الى
أصوات المؤننين ، والهمهمة بالإنجيل
الى ترتيل القرآن ..

يافا :

وسار بيبرس بعد ذلك الى يافا ، وكانت شديدة التحصين ،
وقد بدأ مسيرته ليلا فلما أصبح الصباح كان الظاهر بجيشه
يدق أبوابها وعجز جنودها على المواجهة بعد هذه المفاجأة الخطيرة ،
وأخذوا يولون الأذبار ، فاندفع جنود بيبرس الى المدينة ودخلوها ،
وطلب سكانها الأمان فوافق السلطان على ذلك ، وخرجوا من يافا الى
سفنهم التى حملتهم الى عكا ، وأمر الظاهر بهدم قلاع يافا .

حصن الكرك :

ثم استولى بيبرس على حصن الكرك ، ولهذا الحصن فى تاريخ
النضال أهمية عظمى من عهد صلاح الدين الأيوبي :

امارة أنطاكية :

وقد هيات له هذه الانتصارات أن يتجه بضربة شديدة ضد امارة أنطاكية ، وكانت أقوى الامارات الصليبية الباقية بالشام إذ كانت تتلقى امدادات من أوروبا ، ثم لأنها كانت قد عقدت معاهدة حربية مع المغول ضد المسلمين ، وقد حاصرها الظاهر بيبرس واستنفذ حصارها جهدا كبيرا ووقتا طويلا ، ولكن بيبرس تغلب عليها ، وأحال مدنها أطلالا ، وكان لسقوطها صدى ضخم ، إذ أدركت الجيوب الباقية للصليبيين عدم استطاعتها البقاء في وجه المصريين ، فطلبت عقد صلح مع السلطان ، وكان ذلك الصلح بمثابة راحة واستعداد لجولات أخرى قام بها السلاطين المصريون بعد بيبرس .

ومما يذكر لبيبرس أنه كان يستعمل الزعب النفسى ليقلق أعداءه بالاضافة الى قوته العسكرية ، ومن ذلك أنه كتب الى بوهيمند أمير أنطاكية ، وكان هذا عند سقوط امارته مقيما في طرابلس ، فأراد الظاهر أن يدمر نفسيته حتى لا يفكر في استرداد امارته ، فكتب له خطابا طويلا جاء فيه :

نزلنا أنطاكية في مستهل رمضان وخرج عساكرك
لمبارزة فكسروا ، وتناصروا فما نصرُوا ،
وفتحناها بالسيف رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل
من اخترته لحفظها والدفاع عنها ، فلو رأيت خيالك
وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهاية
فيها تصول ، وأموالك وهى توزن بالقنطار ،
وجواريك وكل أربع منهن تبعن بدينار ، ولو رأيت
كنائسك وصلبانها قد كُسِرت ، وقبور البطارقة
قد بُعْثِرَت ٠٠٠٠ لتيقنت أن قوة الله أعادت
أنطاكية الى أهلها الى الابد ، وتركتك بدون عون
أو مدد .

وبالإضافة الى البلاد التي فتحها الظاهر بيبرس كانت مجمعاته هنا وهناك لا تتقطع ، فلم يخلُ يوم من أيامه من ضربة للصليبيين وتدمير لسلطانهم ، وكان أحيانا ينال النصر كاملا ، وأحيانا يثير الخوف والرعب ، تمهيدا لهجوم آخر تكون فيه النهاية لأعدائه ، وقد وصف الظاهر بيبرس هذه السياسة بقوله : **أجىء عاما لأرعى زرعكم وأخرّب بياركم** ، ثم **أعود في العالم التالى اليكم لأخذ أرواحكم** .

ولا شك أن الذى يقرأ من المسلمين سيرة الظاهر بيبرس في عصرنا الحاضر ، ينتج الى الله خائسما متضرعا أن يمنحنا قائدًا في صلابته وموهبته ، ليستعيد الأرض السليبية ، وليقضى على أعداء الله الذين فجروا في فلسطين محاولين الاستقرار في أرض غير أرضهم ، وديار ليست بديارهم .

قلائون

بعد الظاهر بيبرس جاء ابنه بركة خان وسلامش ، ولكن عصرهما كان قصيرا للغاية ، كان عصر الأول سنتين والثانى سنة ، ثم جاء الى الحكم واحد من أبطال السلاطين هو قلاوون . وفى عهده أغار المغول على حمص فى أول عهد قلاوون ، فزحف لهم السلطان وأوقع بهم هزيمة ساحقة مما جعلهم ينكمشون طيلة عهده ، وبهذا تفرغ قلاوون للصليبيين ، وكانت أولى معركة ضدهم **معركة اللاذقية** التى حاصرتها جيوش مصر حتى استولت عليها ، ثم جاء بعد ذلك دور امارة طرابلس وهى آخر امارات الصليبيين فى الشرق .

امارة طرابلس :

كانت طرابلس محصنة تحصينا قويا مكنها من أن تصمد حتى ذلك الوقت ، ومما مكن لطرابلس أن البحر يحيط بها من أكثر الجهات ، وبالتالي تتلقى فيض المعونات من أوروبا ، ولكن قلاوون اختار الوقت المناسب ، لنهبهم ، وفاجأ حراس طرابلس مفاجأة كانت شديدة التأثير عليهم ، فقد جاءهم من طرق لم يتوقعوها ، وبعدد وعدة لم يحسبوا لها أى حساب .

وحاصر الجيش المجرى طرابلس ، وبدأ يضربها بالمجانيق ، وأخذ بعض الجيش في نقب الأسوار ، ولم تستطع طرابلس أن تصمد أكثر من شهر ، ثم سقطت بعد أن دمرتها قوات قلاوون وخرعت حصونها ، ودخل المزيون المدينة وأسروا عددا كبيرا من جنودها واستسلم السكان .

وعقب سقوط طرابلس أرسل السلطان قلاوون الى الملك المظفر صاحب اليمن رسالة توضح فزع الصليبيين من هجوم جيش مصر ، وقد جاء فيها : قد تركناهم مسلوبى الزايا ، مشغولين بالرزايا ، أنلهم عدم النصير ، وأصارهم الخوف بدون نصير .

ولم يبق للصليبيين إلا صور وبيروت وعكا ، وقد حاول قلاوون أن يستولى على هذه المدن ولكن المنية عاجلته وهو في الطريق .

الأشرف خليل ومفخرة إسقاط عكا

قائد الأشرف خليل الجيش الكبير الذى كان أبوه قد أعده وزحف على عكا آخر مدينة محصنة بأيدي الصليبيين ، وقد تركز بها المنسحبون من الصليبيين من كل مكان ، ولذلك كانت منيعة وقوية ، وقد حاصرتها جيوش الأشرف خليل وألقت عليها وابلا من أسلحة الدمار ، ويقص شاهد عيان من المؤرخين صراع المسلمين حول عكا بقوله : حارب المسلمون

مرة بالأبراج وأخرى بالمتجنقات ، ورأفة بالديابات ، وأحيانا بالكباش
وآونة باللوالب ، وطورا بالنقب وآنا بظم الخنادق وآونة بالتسرب أو
نصب السلاالم بالاضافة الى الزحوف في الليل والنهار من البر أو من
فوق السفن (١) حتى ظنوا أن القيامة قد قامت ، ولم تجد عكا بذا
من النضوع للقوة فاستسلمت ، ودخلها جنود المسلمين ودمروا حصونها
وأسروا أكثر رجالها .

وباستسلام عكا استسلمت صور وبيروت دون مقاومة فسلمتا من
التخريب ، ودالت بذلك دولة الصليبيين في الشام ، وانتهت فصول هذا
الصراع الطويل .

ملاحقة الصليبيين خارج الحدود

الناصر محمد بن قلاوون :

وفي عهد الناصر حاول الصليبيون المطرودون والفرارون من الشام
الهجوم على الساحل الاسلامي متخذين بعض الجزر في البحر المتوسط
مراكز لهم ، وقد تصدى الناصر لهذا العدوان وأعد أسطولاً بحرياً
قوياً ، لم يكف بالانشاع عن الساحل الاسلامي ، وإنما هاجم مراكز
العدوان حتى أسكت صوته .

برسباي :

وقد حدث في عهد برسباي حدث كبير هو استيلاء المماليك على
جزيرة قبرص وتهديد جزيرة رودس ، وكانت جزيرة قبرص قد خضعت
لسلطان ريتشارد قلب الأسد ، وأصبحت قاعدة لإمداد الصليبيين بالمعونة
العسكرية ، وبعد طرد الصليبيين من الشام أصبحت جزيرة قبرص ملجأ

(١) نقلا عن « الاسلام والحضارة العربية » للأستاذ دهمود كرد على

للسرازم الآخيرة من الصليبيين الذين طردوا من الأرض الإسلامية ، كما أصبحت الجزيرة ملجأ للقراصنة ولأعداء العرب والمسلمين ، ومن هنا بدأ التوتر يظهر بين قبرص ودولة المماليك ، وهاجم القبرصيون سواحل مصر والشام عدة مرات في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ، وقد اضطر برسباى أن يفكر في احتلال قبرص ، فأرسل لها بضع سفن لجس نبض القوة بالجزيرة ، فعادت هذه السفن بالغنائم والأسرى مما شجع برسباى على الزحف للاستيلاء على الجزيرة ، وقد تم ذلك سنة ٨٣٠ هـ - ١٤٢٦ م وخرت الجزيرة أمام قوى المصريين وأسر ملكها وجيء به الى القاهرة ، وظل بها حتى افتدى نفسه بفدية كبيرة ، وبقيت الجزيرة تحت سيطرة المماليك ، وظلت تدفع جزية سنوية حتى دخل العثمانيون مصر .

أما رودس فقد حاولت مناصرة جزيرة قبرص ، ولكن قوى مصر تصدت لها في عهد السلطان جقمق وغزتها ثلاث مرات حتى أسكتت صوته .

أسباب فشل الحروب الصليبية

أعلنت أوروبا كلها العداء للشرق ، واختارت الوقت المناسب لتعلن العداء وأهدافه ، ووضعت أوروبا كل إمكانياتها وكل شبابها في خدمة هذا الهدف ، ولكن الفشل كان نصيبها وآبت من هذه الجولة الطويلة بخفي جنين كما يقول المثل العربي ، ويختلف الكتاب الفرنجة في ذكر الأسباب التي أدت لهذا الفشل الذريع لتلك الحروب التي قضت دون نتيجة على مئات الآلاف من القتلى ، والتي دمرت الكثير من العمران طيلة قرنين حالكين من الزمان ، وسفقتبس فيها يلى خلاصة ما يذكرون من أسباب :

سوء سياسة الكنيسة :

فيرى بعض الكتاب أن الفشل كان نتيجة لسياسة الكنيسة التي كانت تضع مصلحتها فوق كل مصلحة ، وكان لا يهمها النصر بمقدار ما يهمها أن تجنى هي نتائجه ، ومن هنا لم تبارك النصر العجيب الذي حصل عليه فريديك الثانى ، وأعلنت حرمان الامبراطور المنتصر ، وحاصرت روحيا الأماكن المقدسة فتوقف سيل الحجاج اليها طيلة إقامة فريديك بها .

أمراء الإقطاع :

ويلقى بعض الكتاب اللوم على أمراء الإقطاع الذين اهتموا بمصالحهم الخاصة وتكوين إمارات يحكمونها ويورثونها أولادهم ، أكثر من اهتمامهم بالمصالح العام الأوروبى والمسيحى ، فلم يكن الصليب إلا وسيلة للتغريب بالجماهير ، كانه غطاء يخفون به أطماعهم الشخصية ، ولكن هذا الإحساس اتضح لكثير من المسيحيين فقلل من حماسهم للحرب .

التجار الأوربيون اتجهوا للمال :

وجماعة ثالثة من الكتاب تنسب الهزيمة للتجار الأوربيين الذين أقدموا في كثير من الحالات على عقد معاهدات تجارية مع المسلمين ، إذ كان

الهدف الاقتصادي هو أهم باعث لهم على خوض هذه الحروب والتشجيع عليها ، فلما رأوا الهدف يتحقق بطريق المعاهدات مع المسلمين آثروا السلامة وخذلوا ذويهم من المسيحيين .

الصلبيون يكتفون بزحف التتار :

ومن أسباب فشل الحروب الصليبية زحف التتار المدمر الذي بدأ على العالم الاسلامي في مطلع القرن الثالث عشر ، وراح يهدم المدن ، ويلهب السيوف في رقاب المسلمين . ويدمر الحضارة الاسلامية ، فقد كان الصليبيون يعملون لنفس الغاية ، فلما رأى الأوربيون زحف التتار يحقق لهم نفس الهدف أغناهم ذلك عن مواصلة بذل الجهد من جانبهم ، وقنعوا بهذا السيف الحاد الذي تسلط على رقاب أعدائهم المسلمين . فلم يقدموا مزيدا من العون للصلبيين بالشرق (١) .

وقد عقد الصليبيون حلفا مع التتار ليتعاونوا معا ضد المسلمين ، ولكن التتار كانوا يؤدون المهمة التي أرادها الصليبيون ولو بدون حلف أو مساعدة من أحد ، ولذلك رأى الصليبيون أن التتار وحدهم يوفون بالغرض ، فتركوا الميدان لهم ، وتوقف عون أوروبا لفتيانها المعتدين (٢) .

تجمع المسلمين وقت الشدة :

ومن أسباب فشل الصليبيين تجمع المسلمين من مختلف الأنحاء لمواجهةهم ، وسرعان ما اتضح للصلبيين أنهم ليسوا فقط أمام مصر وسوريا ، بل أمام القوى الاسلامية من مختلف البقاع .

ومن أسباب فشل الصليبيين في هذه الحروب تلك الحماسة التي

(١) انظر المجتمع الاسلامي للمؤلف ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٢) انظر : Kirk : A Short History of the Middle East p. 79 .

أظهرها المسلمون ولم تكن في حساب المسيحيين • فلم يكد المسلمون
يُهزمون في الشوط الأول من هذه الحروب حتى تناسوا إلى حد كبير
ما بينهم من خصومات ، وتجمعت كلمتهم لاستعادة الأرض التي
افتقدوها ، ويتضح هذا من ميل المصريين إلى نور الدين زنكي وترحيبهم
بصلاح الدين الأيوبي ، وميل حاكم دمشق لنور الدين وتسليمه المدينة له ،
كما يتضح في ظروف كثيرة تغلب الجانب العام فيها على المصالح الخاصة ،
ووقفت الجماهير تنصر من يعمل لتجميع الكلمة ، وتفضل من يسعى لمصالح
ذاتية كما رأينا من قبل •

نتائج الحروب الصليبية

فشل الصليبيون في استعمار الشرق خلال العصور الصليبية ، ولكنهم على العموم كسبوا الحرب مع المسلمين ألواناً من الفوائد الثقافية والدينية والاجتماعية ، وقد دون مؤرخو الفرنجة هذا الكسب ، ومنهم نقتبس العبارات الآتية :

أقتباس الثقافة الإسلامية :

يقول Kirk إن للحروب الصليبية أهمية لا تقدر في تاريخ الثقافة بأوروبا ، بسبب ما كان لها من عظيم الأثر في تفتيح أذهان الناس الى مستوى الحضارة في الشرق الأوسط ، ذلك المستوى الذي كان يفوق حضارة الغرب بكثير ، ولم تقدر بلاد شرق البحر المتوسط من معارف الصليبيين شيئاً يذكر اللهم إلا في بعض المنشآت والخطط الحربية (١) .

ويقول Emerton (٢) أن الثقافة التي حصل عليها الصليبيون من المسلمين انتزعت الصليبيين من الحياة البربرية ودفعتهم قدماً الى عالم الحضارة ، ويترجع هذا الباحث تاريخ اقتباس الأوربيين من المسلمين الى عهد شارلمان مقررًا أنه منذ ذلك العهد أخذت حضارة المسلمين الأصلية ، وحضارة اليونان التي أعاد المسلمون إبرازها في حلة جديدة ، أخذت طريقها الى أوروبا ، ولم ينقطع اقتباس الأوربيين من المسلمين طيلة القرون التي سبقت الحروب الصليبية ، وكان هذا الاقتباس عن طريق لقاء المسلمين بالأوربيين في صقلية وأسبانيا ، فلما جاءت الحروب الصليبية كانت سوريا ميداناً لهذا اللقاء ، وبخاصة في فترات السلم والمعاهدات ، حيث زاد الاختلاط وكثر التعامل ، وبالتالي كثرت الاقتباسات العلمية .

١) A Short History of the Middle East p. 71.

٢) Mediaeval Europe p. 393. f.

وفي الناحية الأدبية كان اقتباس الصليبيين أكثر وأوسع ، فلقد أصبح الصليبي واسع الخيال كثير الحساسية ، فالبعد عن الوطن ، والتحرر الذي حصل عليه العبيد لأول مرة ، والمخاطر التي شهدها في الطريق وفي المعارك ، كل هذا انعكس شعرا جميلا وأقاصيص ممتازة .

تصحيح فكر الغربيين عن المسلمين :

وكان الأوروبيون يسمعون من القسيس أشياء كثيرة عن المسلمين ، ولكن هاهم المسلمون أصبحوا في مرأى العين بالنسبة للصليبيين فوجدوا فيهم انسانية عالية ، وشرقا وشجاعة ووفاء بالوعد ، وغير ذلك من الصفات التي لم يكونوا يسمعون بها وهم في ديارهم ، وقد ساعد ذلك على تكوين الناحية الانسانية في الأوروبيين ولم تكن هذه الناحية من قبل ذات ببال عندهم .

أخلاق جديدة عاد بها الصليبيون :

وعندما عاد الصليبيون الى أوربا لم يعودوا الى مباشرة حياتهم على النحو الذي كانوا عليه قبل هذه الرحلة ، بل عادوا بأخلاق جديدة ، وثقافة جديدة ، وتفكير جديد ، وأكثر من ذلك ، لقد ألفوا التجوال والرحلات ، ولم تعد حدود الاقطاع تقف حائلا أمامهم ، فراحوا في كل ربوع أوربا ينشرون هذا الفكر الجديد ، حتى أن كثيرين منهم كان يمكن أن يعدوا مدارس متقلة في ربوع أوربا .

تقليد المسلمين في التجارة والصناعة :

ومن الناحية التجارية كانت هناك علاقة كبيرة بين المسلمين والصليبيين ، إذ وضع الصليبيون أيديهم على كثير من موانئ المسلمين بسوريا ، فأصبحت هذه الموانئ مفتوحة للتجارة حتى يحصل الأوروبيون على حاجياتهم ، ومن الملاحظ أن الأوروبيين عجزوا عن تطوير الصناعة

بالشرق الأوسط ، بل عجزوا عن تقليد جيرانهم فيما وصلوا له من إتقان في هذا المجال ، وذلك لأن حكام الامارات لم تكن لهم خبرة بالأمور الصناعية ، فقد جاءوا من عالم الإقطاع فلم يكن الواحد منهم يصلح الا كمالك للأرض ، وكان كل منهم حريصا على أن يحصل على الربح دون كثير غناء ، وهكذا أصبح النصلييون في حاجة الى كثير من منتجات المسلمين وبخاصة الى الأسلحة والخيول والملابس والحبوب •

صك النقود :

واضطربهم ذلك الى صك النقود ، ولم تكن النقود ضرورية لهم من قبل ، إذ أن النظام الإقطاعي لم يكن يمنح الموظفين به نقودا ، ولا مرتبات منتظمة ، بل كان يمنحهم شيئا ماديا يمكنهم استبداله بما يحتاجونه ، ولكن هذه الحال لم تكن ممكنة في سوريا ، فالبائعون لم يكونوا ليمنحوا حاصلاتهم دون أثمان يتقاضونها عند التسليم •

الإلهام والأساطير :

ويختم Emetron (١) حديثه عن نتائج الحروب الصليبية بقوله ان حياة أوروبا اغتنت خلال الحروب الصليبية ، لأنها اقتبست من حياة المسلمين ألوانا من الفكر والثقافة ، ولا شك أن أفق أوروبا اتسع بارتباطها ببلاد الشرق ذات الإلهام والأساطير ، ولئن فشلت أوروبا في تحقيق هدفها فقد كسبت ما هو أعظم منه ، فالحقيقة أنه ليس مهما أن تسيطر أوروبا على الأماكن المقدسة ، وانما المهم أن هذا الهدف حقق مالم يكن في الحساب وهو النهضة الأوروبية ، ولم تغفل أوروبا ، ولا عيون الأوربيين بعد أن تفتحت هذه العيون في الشرق •

جهل الصليبيين قلل استفادتهم :

ويرى غوستاف لوبون أن استفادة الصليبيين من علوم العرب كانت أقل مما يجب ، ويعطى ذلك بقوله : أن الجيوش الصليبية كانت جاهلة ، ولم تكن لتبالي بالمعارف ومن أجل هذا كانت عنايتها أكثر في ميدان البناء والعمران والصناعة أكثر منها في ميدان الفكر والفن (١) .

تلاميذ آمام علماء المسلمين :

ويقول هرنشو المؤرخ الانجليزى وقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، ولكنهم سرعان ما جلسوا عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . ولقد بهت أشباههمج (الصليبيون) عندما رأوا المسلمين ينعمون بحضارة علمية ترجح حضارتهم رجحانا لا تصلح معه المقارنة بينهما (٢) .

مقارنة :

ويقول الدكتور فيليب حتى (٣) : ان الافرنج قصصوا الأراضي المقدسة وهم يحسبون أنفسهم أرفع منزلة من أهلها ، وكانوا يظنون أن أهلها وثنيون يعبدون محمدا ، ولكن ما كادوا يتصلون بهم حتى زالت الغشاوة عن عيونهم .

أما الأثر الذى تركه الفرنجة في مخيلة المسلمين فان أسامة بن منقذ (٤) يعبر عنه بقوله : أنهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير .

(١) حضارة العرب ص ٣٣٨ .

(٢) علم التاريخ لهرنشو تعريب الأستاذ عبد الحميد العبادى .

(٣) History of the Arabs p. 761.

(٤) الاعتبار ص ١٣٢ .

ويقول الدكتور فيليب حتى في موضع آخر (١) : وغالب الظن أن تدابير الاستشفاء إنما انتظمت في الغرب بحوافز تسربت من الشرق ، ففي القرن الثاني عشر ظهر في أوروبا عدد من المستشفيات ودور الصحة ، لا سيما محاجر الأمراض السارية ، بحيث يسوغ اعتبار المستشفيات الأوربية وليدة نظائرها في سوريا .

ويقول كذلك : لقد أبدع الصليبيون حقاً في مجال البطولات والمعارك ، إلا أنهم كانوا دعاة لخبيسة الأمل في مآتى الفكر ومآثر الحضارة ، فكانوا من حيث غايليتهم الحضارية أبعد تأثيراً في الغرب منهم في الشرق ، إذ فتحوها أمام بصائر الأوربيين آفاقاً جديدة ، صناعية وتجارية واستعمارية ، ولم يخلّفوا في الشرق إلا النفور بين المسلمين والنصارى الذى لا يزال باقى الأثر حتى اليوم .

التأثير الاجتماعى :

وتأثر الفرنجة كثيراً بجيرانهم المسلمين في اللباس ، فقد ألقوا عن لباسهم الأوربى وتعلقوا بالأزياء الوطنية التى كانت أدعى الى الراحة ، واكتسبوا شيئاً من الذوق الشرقى في الأطعمة والأشربة ، أخضه ما يتعلق بالسكر والتوابل ، وآثروا لـ كنسهم البيوت الشرقية الطراز ، وما فيها من إيوانات واسعة ومياه جارية .

ويرى Henne - Am Rhyn's (٢) أن تطورات العصور الوسطى في شتى النواحي بأوروبا معزّوة الى هذه الحروب ، فقد عملت في المحيط الدينى على محو نفوذ البابية ، ناهضت الرهبة مناهضة لم يمكن أن ترجع بعدها الى عهدا الأول ، وفي المحيط الاجتماعى والاقتصادى أدت الى مساواة أعم بين الطبقات ، وإلى تقدم الصناعة والتجارة ، وفي ميدان

(١) تاريخ سوريا : ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

(٢) التاريخ العام ص ٤٩٨ — ٥٠٠ .

السياسة أعقب هذه الحروب قيام الدول والحكومات المركزية ، وفي عالم الثقافة الواسع ظهر كبار المفكرين في الفلسفة بعد الحروب الصليبية وما تبعها من اتصال بالعرب ، وحتى التصوف تلون بلون العلم ، واتسع نطاق دراسة اللغات القديمة ، وازدادت خصوصيتها ، واكتسبت علوم التاريخ والجغرافية نشاطا جديدا .

يرى Hans Pantz (١) أن الحروب الصليبية كانت العامل الوحيد في تقدم أوروبا وانتقالها من عهد إلى عهد .

ويرى Oman (٢) أن استخدام الدرع للفارس ولفرسه في الغرب مأخوذ عن الشرق إبان الحروب الصليبية ، كذلك كان استعمال الخمام الزاجل في الحروب شيئا جديدا عرفتته أوروبا من العرب .

نواة الاستشراق :

ووضعت الحروب الصليبية نواة الاستشراق ، إذ اتجه الرهبان لدراسة اللغة العربية والفكر الإسلامي لمعرفة اتجاهات المسلمين في مختلف الشؤون ، وقد أسست كلية للرهبان سنة ١٢٧٦ م . في ميراما لدراسة اللغة العربية ، كما أنشئت الكراسي للغات الشرقية في باريس ولوفان (٣) .

الارسلالات والتبشير :

ولجأ المسيحيون للاعتماد على الارسلالات المسيحية للتبشير بين المسلمين ، فقد اقتنع رجال الفكر بفشل الحروب ، واخفاق الوسائل

(١) Kulturgeschichte der Kreuzzuge.

Oman C. W. The Art of War in the Middle Ages p. 112. (٢)

Barker : The Legacy of Islam p. 125. (٣)

العسكرية في معاملة المسلمين ، فأخذوا يركزون الاهتمام على الوسائل السلمية ، ومن مؤسساتهم في هذا المضمار مدارس الفرنسيين سكان والدومينكان التي أنشئت في أوائل القرن الثالث عشر في سوريا وتنسب الأولى الى القديس فرنسيس والثانية الى القديس دومنيك (١) ، وكان المبشّر يتعدّد لهذه المهمة قبل أن يرسل لمباشرتها ، ومن أهم وسائل اعداده ، تعليمه اللغة العربية وشيئا من الدراسات الإسلامية ، وأصبح ذلك دستور التبشير الى العهد الحاضر .

نهاية النظام الإقطاعي :

وكان النظام الإقطاعي من أهم الدوافع للحروب الصليبية ولكن النظام الإقطاعي انتهى تقريبا مع انتهاء هذه الحروب ، فقد أدرك الصليبيون أن الدول أبقى وأقوى من امارات الإقطاعي ، وبخاصة أنهم أدركوا أن عدم التجانس في جيوشهم وقلة الوحدة في قيادتهم كانت من أسباب هزائمهم أمام الجموع الإسلامية ، ومن ثم بدأت تظهر الدول ، واتجهت هذه الدول الى نوع من الوحدة الأوروبية لا يزال واضح الأثر في حياة أوروبا .

تحرير رقيق أوروبا :

ومما يتصل بالاقطاع الأوربي كذلك نذكر أن الحروب الصليبية كانت عاملا هاما من عوامل تحرير رقيق الإقطاع ، فالذين التحقوا بالجيوش الصليبية من الرقيق نالوا حريتهم كما ذكرنا من قبل ، وقد أشاع هذا الوضع فكرة إمكانية التحرر للعبيد ، وبخاصة أن الصليبيين لم يجدوا أرقاء في الجيوش الإسلامية ، ووجدوا فكرة التحرر سائدة في الشرق بوسيلة أو بأخرى ، لمن كان الرق قد فرض عليهم ، ثم إن ملاك الإقطاع باعوا بعض اطفالهم ليُعتدّوا أنفسهم للمساهمة في الجيوش الصليبية ،

(١) فليب حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ص ١٣ .

وباعوا أحيانا لساكن الاقطاع حريتهم ، وبذلك أصبح شراء المدن لحريتها مبدءا عاما ، فقامت مدن مستقلة ، وأصبح ارتباط هذه المدن بملك فرنسا مثلا ارتباطا مباشرا وليس عن طريق مالك الاقطاع (١) .

بروز سلطان الملوك أو أمراء الاقطاع :

ولعل مما يتصل بذلك أن نذكر أن أمراء الاقطاع في فرنسا وايطاليا أسهموا في الحروب الصليبية أكثر مما أسهم أمراء الاقطاع في انجلترا وألمانيا ، وقد نتج عن ذلك فيما يتعلق بفرنسا وايطاليا بروز سلطة الملك على حساب انحلال سلطة أمراء الاقطاع ، وحدث عكس ذلك بالنسبة لألمانيا وانجلترا فان ملوكها تورطوا في هذه الحروب دون أمراء الاقطاع ، مما قوى نفوذ الأمراء على حساب سلطان الملوك ، ويرى بعض الباحثين (٢) — كنتيجة لذلك — أن أصول دستور انجلترا السياسى المتين ترجع الى حوادث الحروب الصليبية .

وقد وفد على الشام أمراء الاقطاع لتكوين ثروات لهم عن طريق الزراعة في أرض الشرق الخصبة الواسعة ، ولكن الحروب المستمرة حالت دون تطور الزراعة وكسب المال عن طريقها ، ولذلك لجأ كثير من الصليبيين الى إنشاء المدن والاستغال بالتجارة لكسب المال عن طريق التجارة ، فكان إنشاء المدن التجارية من نتائج هذه الحروب ، وقد ظهرت عملة مشتركة يمكن أن تستعمل في البلاد الاسلامية ، وفي امارات الصليبيين ، بل في أوروبا نفسها ، وكانت هذه العملة من عمل الصليبيين وتحمل بعض آيات قرآنية كما تحمل التاريخ الهجرى (٣) .

(١) انظر حضارة العرب لغوستاف لوبون : ص ٣٣٥ .

(٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٣٦ .

(٣) The Legacy of Islam p. 621 .

عداء ملقر من القسطنطينية :

ومن نتائج الحروب الصليبية أن المسلمين رأوا في القسطنطينية عدوا يجب التغلب عليه وإزالته من الطريق ، فالقسطنطينية هي التي استعانت بالصليبيين ضد المسلمين ، وهي التي مهدت لهم الطريق وأمدتهم بالوأن من العون في معمة هذه الحروب ، وعلى هذا بدأت حماسة المسلمين التي انتهت بإسقاط العاصمة الكبيرة على يد الأتراك العثمانيين بعد ذلك بحوالى قرن ونصف (سنة ١٤٥٣ م) وانتهت بذلك الحروب حول القسطنطينية ، تلك الحروب التي استمرت حوالى ثمانية قرون .

نواة التجسس :

ومن نتائج الحروب الصليبية أن المسلمين أدركوا أن هزائمهم الأولى كانت بسبب جهلهم بمعرفة أخبار عدوهم ، في حين كان العدو يعرف أخبارهم بدقة ولذلك عمل المسلمون على تلافى هذا النقص فأصبحوا أكثر عناية باستقصاء أخبار الصليبيين بحيث لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة من أحوالهم ، فلم يعد يخلو مكان من صاحب خبر وبريد ، بحيث لم تعد تخفى على المسلمين أخبار الأتاسى والأدائى ، وكان ذلك من الأسباب التي حققت انتصارات المسلمين فيما بعد (١) .

أضرار لحقت بالمسلمين

تدمير الكثير من المدن الإسلامية :

ولكن وجود الصليبيين بهذه البلاد مدة قرنين من الزمان عاد عليها بأبلغ الأضرار لما اقترن به إغلاؤهم النهائى عنها من تدمير بعض المدن العظيمة أمثال أنطاكية وطرابلس وعكا .

ويعيد بعض الباحثين الى هذه الحروب مسؤولية الانهيار الذي

(١) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠٦ .

تعرضت له البلدان العربية في أواخر العصور الوسطى بعد أن استنفدت هذه البلدان جهودها في الدفاع عن كيائها ، وكرست مواردها ونشاطها للقضاء على الأخطبوط الصليبي الذي ثبتت أقدامه في بقعة بمثابة القلب من الوطن العربي ، وأخذ يسمى من ذلك المركز المتوسط الى تهديد بقية الشام والعراق ومصر والحجاز ، فضلا عن المغرب والأندلس (١) .

الاستعمار :

ومن النتائج القائمة للحروب الصليبية أنها فتحت عيون الأوربيين للاستعمار ، فقد كانت هذه الحروب أول تجربة من الاستعمار الغربي قلمت بها الأمم الأوربية خارج أوربا لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق ، وقد بقيت الأطماع الاستعمارية حتى اليوم .

عدم التسامح :

ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد عدم التسامح العالم عدة قرون ، وإن صبغت هذه الحروب بصبغة القسوة والجور وهو ما لم تعرفه ديانة من قبل خلا اليهودية ، أجل ، كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشيء الكثير من عدم التسامح ، ولكن نذكر أن كان عدم التسامح يصل الى هذا المدى من الجور والطغيان ، وإن ما نعانيه الآن من نفرة بين الشرق والغرب ليس إلا نتيجة لعدم التسامح الذي خلقتته الحروب الصليبية ، ثم إن رجال الدين المسيحي بعد أن حرصوا على القتل والتعذيب في الشرق عادوا الى الحرب وقد تأصلت فيهم هذه الروح ، فمارسوا هذه الفظائع مع كل من خالفهم في دين أو مذهب ، وقد نتج عن سريان روح عدم التسامح ، مذابح اليهود ، والفظائع التي ارتكبت في الحروب السياسية ومحاكم التفتيش وأمثال هذه مما ضرر أوروبيا بالدماء على مر السنين (٢) .



(١) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣ .

(٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب من ٢٣٤ — ٣٣٥ .

نماذج لبطولات إسلامية

وفي ختام هذا البحث نورد بعض نماذج قليلة لأعمال البطولة والشرف التي قام بها المسلمون والتي شهدها عصر الحروب الصليبية ، فقد أبرزت هذه الحروب صورا ينحني أمامها القلم مأخوذا بما بها من شرف الإسلام ومجد العروبة ، وبطبيعة الحال كان هناك أشباه رجال آثروا أمجادهم الشخصية وفضلوا الدنيا الزائلة غنى خلود الذكر وثناء التاريخ ، ويروى لنا المقرئى وابن تغرى بردى صورا تحمل هذين الاتجاهين نورد منها صورة عيقة ، سبق أن أشرنا لها آنفا ، ففي سنة ١٢٤٠ تحالف اسماعيل صاحب دمشق مع الصليبيين على غزو مصر ، وجمع هذا جيشا من أهل الشام سار به متعاوننا مع الجيش الصليبي لتحقيق هذا الهدف ، ولما أشرف الجيش الشامى على غزة وأصبح عليه أن يتخذ موقفه ضد الجيش المصرى مؤيدا للصليبيين ، حدثت المفاجأة التي لم يتوقعها الحاكم الخائن ، ولم يتوقعها الصليبيون ، تلك أن عساكر الشام استداروا في لحظة سريعة ، وانضموا الى الجيش المصرى ، ومالوا جميعا على الجيش الصليبي فهزموه شر هزيمة (١) .



بطولات خلقية :

وعندما دخل صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس ظافرا وضع شروط الصلح ، وكان منها أن يؤدى الفرنجة مالا يفتقدون به أنفسهم ، ولكن كثيرين من فقرائهم عجزوا عن تأدية ما فرض عليهم ، فأخلى صلاح الدين سبيل ألف منهم نزولا على رغبة أخيه ، وتوسط البطريرك لفريق آخر منهم فأطلقه السلطان ، ثم قال صلاح الدين : لقد زكى كل من أخى والبطريرك عن نفسيهما وأنه ينبغي ألا يفوتنى أن أزكى عن نفسى ، وأطلق سراح الباقيين دون فدية .

(١) السواك ج ١ ص ٣٠٥ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٣ .

صراع لوجه الله :

وفي أثناء حصار عكا كان هناك رجل من دمشق يشرف على آلات النفط وتحضير المواد اللازمة للمفرقات ، فأحرق ثلاثة أبراج للعدو ، فأمر صلاح الدين بأن يمنح جائزة ، ولكن الرجل رفض قبولها وقال إنما فعلته لله ولا أريد أنجزاء إلا منه (١) .



أدى الأمانة وهو ميت :

وكان هذا الحصار محكما ، وكانت وسيلة صلاح الدين للاتصال بحامية عكا هي الحمام الزاجل والسياحون ، وفي إحدى المرات غرق سباح شد على وسطه أكياس المال وعدة رسائل للجنود ، وغاصت الجثة في الماء وحملها التيار حتى قذف بها البحر عند الحامية المحاصرة ، فتعبرف المسلمون على الجثة وأخذوا المال والرسائل ، وأوحت هذه الحادثة لأبن شداد أن يقول : فما روى من أدى الأمانة في حياته وبعد مماته إلا هذا الرجل (٢) .



معلق :

وفي أثناء الصراع حول عكا غنم المسلمون فيما غنموه طفلا رضيعا ولا عرفت أمه ذلك صاحبت باكية مستغيثة ، وأمضت ليلة مريرة ، ولما يئس قادة الفرنجة من تهديتها ، حاولوا التخلص منها فأوعزوا لها أن تذهب إلى معسكر المسلمين تطلب استعادة الطفل ، وكانوا يريدون دفعها إلى

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٢٢١ .

(٢) سيرة صلاح الدين ص ١٢٠ .

حتفها ، ولم تفكر المرأة في مصيرها ، ولكنها اندفعت نحو هذا المعسكر
تطلب مقابلة صلاح الدين ، وقادها جند صلاح الدين الى معسكره ،
وهناك وجده راجيا في طريقه الى الميدان ، فاعترضته واستغاثت به ،
فترق لها قلبه وسألها عن حاجتها ، ولما عرف قصة طفلها لم يبرح المكان
حتى أعيد اليها ، فاحتضنته وأرضعته ساعة ، وصلاح الدين واقف يظهر
السعادة بهذا الزائر ، ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكر
الفرنجة مع طفلها .



جهود المرأة :

ولم تقتصر الشجاعة التي أبدتها المسلمون في الحروب الصليبية على
الرجال ، بل أسهمت المرأة بنصيب كبير في هذه المعارك ، ويروى أسامة
ابن منقذ أن عجوزاً يقال لها فنون ، أخذت سيفاً وخرجت الى القتال
وأبليت فيه .

وأن امرأة من شيزر استطاعت أن تأسر ثلاثة من الصليبيين
واحداً بعد الآخر ، وكانت كلما أسرت واحداً حبسته في بيتها ، ثم استدعت
جيرانها ليتسلموا الأسرى ويأخذوهم الى معسكر القائد .

وقد أشرنا من قبل الى أن الباطنية (الحشاشين) تعاونوا أحيانا
مع أعداء صلاح الدين ، كما تصدوا الى حربه ومحاولة الاعتداء عليه ،
وفي النضال بين قوات صلاح الدين وبين قوات الباطنية حول حصن
شيزر ارتدت أم ليث الدولة يحيى خوذة وزردا ، وتسليحت بسيف
وثرس وشاركت في القتال .

ويروى أسامة كذلك أن أمّاً زودت ابنتها الكبرى بالسلاح وأمرتها
بالخروج للقتال ، وفي معمة المعركة كشفت هذه الفتاة عن نخوة أشد
من نخوات الرجال ، كما يروى أسامة ذلك .



الوطن أغلى من الولد :

ولم تأخذ الناسَ ولا قادتهم هودة فيمن كانوا يفتشون في عضد المسلمين ، أو يتتبعون بأن هواهم كان مع الصليبيين حتى أن صفوة الملك (خاتون) عندما علمت أن ابنها شمس الملوك متعاون مع الصليبيين دبّرت من يقاتله ، فقد كانت بلادها أغلى عليها من ابنها الخائن (١) .

(١) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠٢ .

الإمبراطورية العثمانية «تُرْكِيَا»

الأتراك العثمانيون : نشأتهم وتطورهم

آسيا الصغرى مفتاح لتاريخ طويل :

انتهى الزحف الاسلامى الأول شمالى الشام عند حافة آسيا الصغرى ، وأصبحت الحدود بين المسلمين والبيزنطيين فى هذه المنطقة مثار معارك متصلة تقريبا ، ولكن هؤلاء وأولئك اكتفوا بالغارات التى لم يقصد بها الاحتلال والاقامة وإنما قصد بها التخويف والاستيلاء على الغنائم والأمتعة . وظل الحال كذلك حتى عهد السلاجقة ، وفى هذا العهد اقتحم السلاجقة آسيا الصغرى ، وخاضوا معارك كان يقصد بها القضاء على البيزنطيين فى تلك البقاع وطرد سكانها الروم من آسيا نهائيا ، وقد نجح السلاجقة فى ذلك فأوقعوا سنة ١٠٧١ م هزائم حاسمة بالجيوش البيزنطية فى موقعة ملاز كرد التى سبق أن تحدثنا عنها ، واستولوا فى أثرها على معظم آسيا الصغرى التى لم يتح للعرب فتحها قط ، وجعلوها مقرا لنزول الأتراك فيها (١) .

وقد كان هذا التصرف مثيرا لأوروبا فكان من العوامل التى سببت الحروب الصليبية كما رأينا من قبل .

هذا من جهة ومن جهة أخرى كان الأتراك العثمانيون من بين الطوائف التى اشتركت فى هذه المعارك وأقامت فى آسيا الصغرى واحة بذور الدولة العثمانية التى ستظهر فى الأفق فيما بعد .

Kirk : A Short History of the Middle East p. 67. (١)

وانظر سلاجقة ايران وفارس للدكتور عبد النعيم حسنين ص ٥٧ .

أصل الأتراك العثمانيين :

والأتراك العثمانيون ينسبون الى عشيرة قابى احدى قبائل الغزو التركية ومَنشُوها بلاد تركستان ، وأقدم زعيم معروف لهذه العشيرة اسمه سليمان ، وكان يهيم بقبيلته في آسيا الصغرى بعد موقعة ملازكرد ، وقتل سليمان عند مشارف حلب ، وترددت فروع القبيلة بين العودة لوطنها الأصلية أو مواصلة المغامرة ، وانقسمت القبيلة في ذلك ، فاختار ابنه أرطغرل مواصلة السير ، فدخل آسيا الصغرى والتحق بخدمة الإمبر السلجوقى (علاء الدين الثانى) الذى كان يواصل الحرب ضد البيزنطيين وساعده في هذا الكفاح ، وأبلى في ذلك بلاء حسنا ، فأقطعه السلطان السلجوقى المستنقعات الواقعة على الحدود البيزنطية ، وترك له توسيع ممتلكاته على حساب البيزنطيين ، فاتخذ « شكود » عاصمة له ، وولد له ابنه عثمان سنة ١٢٥٨ ، ونشأ أبوه تنشئة حربية ، وأصبح خير عون لأبيه في حروبه وفي أعماله الادارية ، وفي هذه الأثناء كانت الحروب الصليبية تدور وشغلت جانبا كبيرا من نشاط البيزنطيين مما أتاح فرصة الاستقرار للعثمانيين .

عثمان :

توفي أرطغرل سنة ١٢٨١ متجاوزا التسعين من عمره فتولى عثمان مكان أبيه بموافقة علاء الدين السلجوقى ، وسار عثمان سيرة أبيه في مساعدة السلجوقيين وتأييدهم في حروبهم ، فزاد علاء الدين في اكرامه ، ومنحه نوعا من الاستقلال ، وأقطعه كافة الأراضى والقلاع التى فتحها ، وأجاز له ضرب العملة باسمه ، كما أجاز أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة مقرونا باسم السلطان السلجوقى ومنحه لقب (بك) ، وهكذا قرب عثمان من الاستقلال التام ، وصار زعيم اسارة من أهم الامارات ، واستمر في التوسع حتى استولى من دولة الروم الشرقية على مدينة « قرّة حصار » فاتخذ هذه المدينة عاصمة له .

السلطة العثمانية :

زالت دولة السلاجقة من آسيا الصغرى سنة ٦٩٩ = ١٢٩٩ بمداومة المغول ، وتوفي السلطان علاء الدين في نفس العام ، فأعلن عثمان استقلاله التام مكونا السلطنة العثمانية التي أخذت تسميتها من اسمه ، ووفد له أمراء البيت السلجوقي وأعيانه ليعيشوا في كتفه وحمائته ، ووفدت له أيضا جماعات المجاهدين ضد التتار ، كما وفد له الصوفية والمغامرون وبعض العلماء ، اذ لم يبق في هذه البقاع الا العثمانيون ملجأ للمسلمين بعد زحف التتار وطمعائهم ، ولم يبق الا العثمانيون يرفعون السيوف ضد أعداء الاسلام البيزنطيين . ووفد كذلك على الدولة العثمانية الجديدة عناصر تركية ترقد الأتراك العثمانيين .

وانتهز عثمان فرصة انشغال المغول بحروبهم مع سلاجقة قونية فسار في فتوحاته ووسع مملكته .

وانتهى الطوفان الأول للمغول ، ذلك الطوفان الذي قاده جنكيزخان وهولاكو ، ولم يصل منه شر يذكر للعثمانيين .

التوسع العثماني في آسيا الصغرى :

بعد وفاة عثمان جاء ابنه أورخان سنة ١٣٢٦ ففتح مدينة بروسه وفي العام التالي سقطت أزمير ، وفي ١٣٣٠ استولى على طائوشانلى ، وفي سنة ١٣٥٤ استولى على أنقرة بقيادة ابنه سليمان ، وفي عهد أورخان تم تكوين أول فرقة من طوائف الانكشارية (العسكر الجديد) واستكمل عنها فيما بعد .

الدولة العثمانية تنتقل الى أوروبا :

توفي أورخان سنة ١٣٥٩ فخلفه ابنه مراد (الأول) فتخطى المضيق متجها نحو أوروبا وهاجم شبه جزيرة البلقان بعد أن أقر النظام وتطلب على

بعض العصاة في آسيا الصغرى ، وكانت البلقان خاضعة لمدد من صغار الحكام فتسلطوا واحدا بعد واحد في قبضة العثمانيين ، وفي سنة ١٣٦٢ استولى العثمانيون على أدرنة ثم اتخذوها عاصمة لهم ابتداء من سنة ١٣٦٦ وظلت عاصمة العثمانيين حتى سقوط القسطنطينية ، وتوالت انتصارات مراد فأتم فتح مقدونية وصوفيا وسالونيك وجميع القسم الشمالى من اليونان ، وفي سنة ١٣٨٩ وقعت معركة عنيفة في قوصوه بين العثمانيين بقيادة مراد نفسه وبين أحلاف النصارى التى تكونت من القوات الصربية وقوات من البشناق والمجر والبلغار والألبانيين ، وانتصر مراد في المعركة ولكن صريبا كان بين القتلى طعنه غدرا فقتله ، وتولى بايزيد (الأول) بن مراد مكان أبيه سنة ١٣٨٩ وتأثر له فيقبض على ملك الصرب وقتله وقتل أعوانه •

وفي سنة ١٣٩٠ فقد البيزنطيين آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى وهى مدينة آلا شهر وفي سنة ١٣٩٤ منح الخليفة المتوكل بالقاهرة بموافقة السلطان برقوق سلطان مصر ، لقب سلطان الروم لبايزيد بناء على طلبه ، وكان سبب موافقة برقوق على هذه المنحة أن الخطر المغولى كان يهدد كلا من الممالك بمصر والعثمانيين بآسيا الصغرى وشرق أوروبا ، وكان برقوق يأمل أن يكون العثمانيون حلفاءه ضد هذا الخطر الذى يهدد الاثنين •

هروب صليبية ضد العثمانيين :

عمّ الهول والفرع معظم الأوربيين ، من كثرة فتوح العثمانيين وسرعة تقدمهم في أوربا ، وقامت فسجة دينية للحض على حربهم ، فقام السابا يدعو الناس باسم الدين الى مقاتلتهم ، وخرج لذلك جيش أوربى عظيم بقيادة « سيجسمند » ملك المجر ، ضم بين كتابه كثيرا من فرسان فرنسا وألمانيا ، وكان بايزيد إذ ذاك غائبا في آسيا ، ففاز الأوربيون في بادئ الامر ، واستردوا من الترك كثيرا من المدن ، ثم

شرعوا في حصار مدينة « نيقوبولس » وهي من أمنع المدن على نهر « الطونة » فلما علم بايزيد بذلك أسرع للقائهم فهزمهم هزيمة تعد من أنكر الهزائم التي دوتها التاريخ ، بحيث لم ينج من جيوشهم إلا النذر اليسير ، وكانت هذه الموقعة سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦) (١) .

الخطر المغولي يعترض الزحف العثماني :

في ذلك الحين كان خطر المغول يشتد في دورهم الثاني تحت قيادة بطل عسكري شهير هو تيمورلنك الذي ولد سنة ١٣٣٦ واستولى سنة ١٣٩٩ على خراسان وما وراء النهر واتخذ سمرقند عاصمة له ثم خطا خطوة أخرى نحو استعادة ملك جنكيزخان (١١٥٥ — ١٢٢٧) وهولاكو (١٢١٧ — ١٢٦٥) الذي امتد من موسكو الى الصين فسوريا .

أدرك بايزيد أنه لابد من نزول معركة فاصلة بينه وبين تيمورلنك فأخذ يعد نفسه لها ، فقوى جيشه ، واستولى على بعض مناطق استراتيجية متاخمة لآسيا الصغرى كانت خاضعة لبعض الأمراء ففر هؤلاء الأمراء ولجئوا الى تيمورلنك طالبين عونه .

وقامت المعركة الأولى بين القوتين الهائلتين سنة ١٤٠٠ عند سيواس وانتصر فيها المغول وقتل القائد أرطغرل أكبر أبناء بايزيد .

وفي سنة ١٤٠٢ بدأت المعارك الحقيقية بين المغول والعثمانيين عند جبوق آباد فانتصر فيها المغول واتجهوا نحو أنقرة ، وكان المغول قد دخلوا الاسلام ، ولهذا كانت جيوش العثمانيين تتقصرها الحماسة الدينية التي كانت من قبل عاملا مهما في انتصاراتهم ضد البيزنطيين ، وكان بايزيد نفسه يقود المعركة ، وقد صمد صموداً باسلاً أمام الزحف المغولي

(١) عمر الاسكندري وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثماني ص ٢٠

(م ٥٢ - موسوعة التاريخ ج ٣٥ .

ولكنه هزم في النهاية ووقع في الأسر في « أنقرة » هو وابنه موسى ومات
بإيزيد سنة ١٤٠٣ •

الدولة العثمانية تحت سلطة المغول :

تولى سليمان بن بإيزيد مكان أبيه ، ووافق تيمورلنك على ذلك على أن
يحكم سليمان البلاد كتابع للسلطان المغولي ، ولكن هذه الفترة كانت
قصيرة ، فقد مات تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وتقسم أبنائه مملكته ووقعت
خلافات بين بعضهم والبعض الآخر وبينهم وبين بعض جيرانهم ، مما
أضعف سلطانهم في آسيا الصغرى وفي أكثر ممالكهم ، فأخذ سلطان
العثمانيين يعود لهم مرة أخرى ، وبدعوا يتخلصون من سلطة المغول .

صراع بين أمراء العثمانيين :

ولكن العثمانيين عندما تخلصوا من القوة الخارجية ظهر بأسسهم
بينهم ، فكثر الخلاف الداخلي على السلطة بين أبناء بإيزيد (محمد جلبي
وعيسى وسليمان وموسى) وكان سليمان بعض النصر ولكنه لم يكن
مستقيما في خلقه بل كان مستهترا جليعا فلم يحتفظ بالنصر الذي أحرزه
وهزمه أخوه موسى ، فهرب سليمان فقبض عليه بعض الفلاحين وقتلوه
سنة ١٤١٠ •

أما محمد جلبي فقد رجحت كفته بعد ذلك ، إذ استطاع أن يتغلب
على أخيه عيسى ، ثم استدار إلى أخيه موسى فقتله سنة ١٤١٣ • وبذلك
آلت أمور العثمانيين للسلطان محمد ، فأخذ يستعيد ما فقدته الدولة من
أماكن خلال خضوع العثمانيين للتتار ، وخلال الخلاف بين أمراء
العثمانيين بعد التتار •

وفي سنة ١٤٢١ توفي محمد في أدرنة فخلفه مراد الثاني الذي وضع قواعد الأمن والاصلاح ثم اتجه للفتوحات فاحتل سالونيك عنوة من البنادقة سنة ١٤٣٠ ، ولكن تكتلا مسيحياً جديداً قام في وجهه بقيادة « هونثياد » القائد المجري العظيم ، وقد حقق هُذا القائد كثيراً من النصر في البلقان ، ثم عقدت معاهدة إزجيدن سنة ١٤٤٤ وفيها تنازل العثمانيون عن بلاد الصرب وأعطوا الأفلاق للمجر ، ولكن المسيحيين نقضوا المعاهدة واستأنفوا القتال فالتقى بهم مراد الثاني مرة أخرى وأنزل بالمسيحيين هزيمة شاملة (نوفمبر سنة ١٤٤٤) وقتل في المعركة بعض ملوك أوروبا وأمراءها وتم إخضاع البوسنة والصرب ، ووصل العثمانيون بذلك إلى ما يعرف بعصر القسوة .

عصر القوة

فتح القسطنطينية :

مات مراد الثاني سنة ١٤٥١ فتولى مكانه ابنه محمد الفاتح أو محمد الثاني وأخذ يخضع الثوار في آسيا الصغرى ، فانتهز الامبراطور البيزنطى (قسطنطين التاسع) فرصة انشغاله بهذه الحروب ، وأرسل اليه يهدده بأنه اذا لم يضاعف مبلغ الجزية السنوية التى كان يدفعها والده الى البيزنطيين لقاء احتفاظهم بالأمير أورخان حفيد سليمان ، فإنه سيدفع بالأمير للمطالبة بالعرش ويؤيده فى ذلك وقد غضب محمد من هذا التهديد ، فعمد الى إقامة حصار حول القسطنطينية ، فلما نبث الامبراطور بسفرائه للاحتجاج على هذا التصرف ، قطع محمد رؤوسهم وكان ذلك بمثابة إعلان للحرب ، وهاجم العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وكانوا قد أحاطوا بها من جميع الجهات ، وقد تم لهم النصر فخضعت لهم المدينة ، وقتل الإمبراطور فى المعركة ودخل محمد القسطنطينية ، ثم اتجه الى كنيسة أياصوفيا الشهيرة فدخلها وحوّلها مسجداً ، وافتتح القسطنطينية انمحت البقية الباقية من بيزنطة ، وأصبحت القسطنطينية تسمى « استانبول » أو دار السعادة ، وأصبحت عاصمة الامبراطورية العثمانية ، حتى نقل اتاتورك العاصمة الى أنقرة سنة ١٩٢٣ م .

القسطنطينية : لمحات من تاريخها :

كانت روما هى عاصمة الدولة الرومانية حتى عهد قسطنطين الأكبر (١) الذى أصبح إمبراطوراً من سنة ٣٠٦ الى سنة ٣٣٧ ، وفى سنة ٣٣٠ اختار قسطنطين مدينة « بوزنطة » الواقعة على شاطئ البوسفور

(١) قسطنطين هذا هو الذى أعلن حرية الدين المسيحى سنة ٣١٣ فى قرار ميلانو ثم دخل المسيحية بعد عشر سنوات ولم يعد الا وهو على غرائس الموت .

لتكون عاصمة للإمبراطورية وأطلق عليها اسمه فأصبحت تعرف بالقسطنطينية ، (ظلت تعرف بهذا الاسم حتى استولى عليها العثمانيون فاشتهرت باسم قديم هو « استانبول ») وعندما قُسِّمَت الإمبراطورية الرومانية قسمين سنة ٣٩٥م بقيت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وعادت روما عاصمة للإمبراطورية الرومانية الغربية (١) ، بيد أن هذه سقطت سنة ٤٧٦ في أيدي القوط بعد غارات المتبربرة الطويلة عليها ، وظهرت على أثر ذلك سلطة الكنيسة الغربية التي أعلنت أن لها دوراً سياسياً وأن لها سلطاناً على الملوك *

وإذا كانت الدولة الرومانية الغربية قد سقطت فإن الدولة الرومانية الشرقية ظلت تصارع بعد ذلك حوالى ألف عام ، وقد تصدت لها قوة الفرس فالعرب من الشرق ، كما هاجمتها الأمم المتبربرة من القوط والسلاف من الغرب ، وقد استطاعت أن تحمي نفسها من المتبربرين ، ولكنها تهافتت أمام العرب المسلمين الذين حرروا من سلطانها سورية وفلسطين ومصر وشمالى إفريقيا وجزر البحر المتوسط الشرقية ، وبالإضافة الى ذلك التقلص فقد حدثت أحداث أخرى أضعفت الإمبراطورية ، وأهم هذه الأحداث ما يلي :

١ - انقحام الصليبيين للقسطنطينية في الحرب الصليبية الرابعة كما شرحنا من قبله وبمقاوهم بها ستين عاماً ، وكان الامبراطور يتخذ من نيقية بآسيا الصغرى عاصمة له خلال هذه الفترة ، وعندما ضعف الصليبيون واستعاد الامبراطور القسطنطينية وجدها مملوءة بالفتن والانحلال وما يقرب على ذلك من فساد وفقر *

(١) حدث انشقاق بعد ذلك (سنة ٤٣١) في الكنيسة قامت على اثره الكنيسة الشرقية (الأرثوذكس) والكنيسة الغربية (الكاثوليك) .

٢ — أراد أباطرة القسطنطينية — وقد أحسوا بقوة البابوية في روما — أن يوحّدوا الكنيسة المسيحية تحت سلطة بابا روما فأثار ذلك رجال الدين بالقسطنطينية وتمّ توحيد الكنيستين على أى حال سنة ١٤٣٩ دون موافقة عامة من قساوسة الشرق ، بيد أن ضعف البابوية بعد ذلك قوًى جانب المعارضين للتوحيد ، فكثر الاضطرابات في القسطنطينية •

٣ — ويضاف الى ذلك خلافات على السلطة ، وغارات من شعوب البلقان لم تنقطع ، والوباء الأسود الذى اجتاح أوروبا والذى بدأ ظهوره سنة ١٣٣٧ م •

٤ — وهناك قوّة دقت باب القسطنطينية عدة مرات ، وكانت تتربص لها وهى قوة المسلمين ، وجدّير بنا أن نخصّص فراغاً أوسع لنحدث عن تاريخ هذه القوة التى آل لها النصر فى النهاية على يد الأتراك المسلمين •

ومن تتبّع التاريخ يتبين لنا أن المسلمين حاربوا خلال عهدى أبى بكر وعمر فى جبهتين كبيرتين هما جبهتا الفرس والروم ، وكانت انتصاراتهم فى الجبهة الأولى حاسمة وسريعة ، وأما الجبهة الثانية فقد طال أمد الحرب فيها واستمر عدة قرون ، ويعود المؤرخون أن من الأسباب الهامة التى أدت الى سرعة انهيار الفرس سقوط العاصمة (المدائن) ، والعاصمة دائماً مكان الذخيرة والمال والجاه ، فسقوطها يسبب اضطراباً وارتباكاً ، أما جبهة الروم فقد حقق المسلمون فيها انتصارات كبيرة ولكن الحروب طالت بها لأن العاصمة (القسطنطينية) كانت بعيدة المنال ، وظلت تدبر الأمر ، وتجدد العدة كلما هزمت الدولة فى أية موقعة من المواقع : وكان المسلمون يدركون هذه الحقيقة ، ولذلك بذلوا غاية الجهد رجاء الاستيلاء عليها ، ولكن موقع المدينة أخّر

هذا الحدث الجليل ، وقضى أن تنكح محاولات المسلمين قائمة عدة قرون .

وقد شهد القرن الهجرى الأول حملتين كبيرتين وجهتهما دمشق عاصمة المسلمين للاستيلاء على القسطنطينية ، وكانت الأولى في عهد معاوية بن أبى سفيان وقلدها ابنه يزيد سنة ٤٩ هـ وكان من أبطالها الصحابى أبو أيوب الأنصارى الذى استضاف الرسول صلوات الله عليه في دار الهجرة ، وقد استعمل المسلمون في هذه الحملة ما غنموه من سفن ومعدات هربية وبخرية في موقعة ذات الصواري التى حدثت سنة ٣٤ هـ ، وقد أحس أبو أيوب الأنصارى بدنو أجله ، كما أحس بأن النجاح في فتح القسطنطينية لا يزال بعيدا ، ولذلك أراد أن يسهم - حتى بعد موته - في إثارة حماسة المسلمين ليميدوا الكرة مرة أخرى ، فكان أن أوصى وصيته الشهيرة إذ يروى أنه قال ليزيد بن معاوية :

« إذا مت فأركب بى ، ثم سنح بى في أرض العدو ما وجدت مساغا ، فإذا لم تجد مساغا فادفنى ثم أرجع » .

وتوفى أبو أيوب سنة ٥٢ هـ وحاصر المسلمون للمدينة لا يزال قائما ، فأنفذ يزيد وصيته ، ودفنه تحت أسوار القسطنطينية ، وفشلت الحملة وعادت أدراجها ، ولكن المسلمين ظلوا يحسون بهتاف أبى أيوب بهم ، ودعائه لهم أن يملؤوا الكرة حتى لا يظل جثمانه غريبا عن الأهل والعشيرة .

أما الحملة الثانية فقد كانت في عهد سليمان بن عبد الملك ، وكان قائدها مسلمة بن عبد الملك ، وهو رجل شجاع مشهود له بالصرامة ، وقد حققت الحملة في طريقها صورا من النجاح ووصلت إلى القسطنطينية

وحاصرتها ولكنها لم تحقق هدفها الرئيسى ، وجاء عمر بن عبد العزيز فأمر بفك الحصار (١) .

وفى خلال العصر العباسى قامت محاولات لاسقاط القسطنطينية خلال عهدى المهدي والرشيد ، ولكن النجاح لم يحالفها (٢) .

وهكذا قاومت العاصمة العتيدة محاولات المسلمين حوالى ثمانية قرون حتى تم فتحها على النحو السابق سنة ١٤٥٣ (٨٥٧ هـ) ويعتبر فتح القسطنطينية أهم نجاح حققه الأتراك العثمانيون ، وبه أصبحت مملكتهم تعد من الامبراطوريات الاسلامية العظيمة ، إذ حققت مساهمة طمع فيه المسلمون عدة قرون ، وقد هيا لهم ذلك ألوانا من الانتصارات الأخرى فى العالم الاسلامى ، اذ اعتبر الانضمام اليهم نوعا من الوحدة الاسلامية لا من الفسوع المستعمر غريب كما سبق القول ، وهكذا دانت لهم مصر وسوريا والعراق فيما بعد دون مقاومة تذكر .

الاسلام والصالح العيسى :

وبعد فتح القسطنطينية عاد محمد الفاتح الى أدرنة وأمر ببناء جميع الحصون الغربية ليجعل من هذه المدينة عاصمة لامبراطوريته ، وعمل السلطان على تنظيم أهوال اليونان (الروم) المغلوبين للقوة والساعة ، والواقع أنه أبقى على استقلال البلغار الكنسى ، فعمل أسلافه من قبله ، واعتزف — وفقا للفكرة الاسلامية المعززة بالتقاليد الدينية — بجميع السلطات الدينية اليونانية ، بل إنه زادها قوة بأن وكل اليها أمر القضاء العيسى وتطبيق أحكامه على أتباعه (٣) .

(١) اقرأ تاريخ هذه المحاولات مفصلا مع المراجع الأساسية لها فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة .

(٢) اقرأ تاريخ هذه المحاولات فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٤٢ .

ويصف فولتى الفيلسوف الفرنسى الشهير موقف المنتصر المسلم من المهزوم المسيحى بقوله : ان الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيين كما نعتقد نحن ، والذي يجب ملاحظته ان أمة من الأمم المسيحية لا تسمح أن يكون للمسلمين مسجد في بلادها بخلاف الأتراك فانهم سمحوا لليونان القهوريين بأن تكون لهم كنائسهم ٠٠٠ ومما يدل على أن السلطان محمد الفاتح كان عاقلا حليما تركه للنصارى القهوريين الحرية في انتخاب البطريرك ، ولما انتخبوه ثبته السلطان وسلمه عصا البطارقة وألبسه الخاتم ، حتى صرح ذلك البطريرك عند ذلك بقوله : إني خجل مما لاقيته من التجبيل والحفاوة ، الأمر الذى لم يعمله ملوك النصارى مع أسلافى (١) .

ولعل من الخير أن نشير هنا الى الفرق بين هذا التصرف وتصرف غير المسلمين مع المسلمين عندما يحظى غير المسلمين بأية انتصارات ضد المسلمين ، كانتصارات المسيحيين المدمرة في الحرب الصليبية الأولى ، وكانتصاراتهم في أسبانيا على المسلمين في عهودهم الأخيرة ، وكالانتصارات الزائفة لليهود ضد العرب في فلسطين ، فقد كانت دائما انتصارات فيها حقد وغل ودماء ودمار .

بعد القسطنطينية

استمر العثمانيون يسيرون بنجاح في فتوحاتهم بأوربا ففتحوا بلاد الصرب وشبه جزيرة المورة وبلاد البانيا الى حدود البندقية ، وحاول محمد أن يفتح ايطاليا ليرفع علم الاسلام على روما كما رفعه على القسطنطينية ، ولكنه نكص عن ذلك لمشاغله الكثيرة ، ولم يستول من ايطاليا الا على مدينة « أنترنتشو » سنة ١٤٨٠ ومات محمد الفاتح سنة ١٤٨١ فأغلى خلفه هذه المدينة .

(١) نقلا عن دائرة معارف القرن العشرين للاستاذ غريد وجدى ج ٢

وكان محمد قد أوصى بالملك لابنه الأصغر « جم » ، ولكن الابن الأكبر بايزيد (الثاني) تغلب عليه واستولى على الملك بعد مفاوضات استمرت حتى سنة ١٤٨٨ ، وفي آخر عهد بايزيد أوصى هذا بالعهد لابنه أحمد ولكن الابن الثاني (الأصغر) واسمه سليم ثار في وجه أبيه وأخيه ، وقام صراع مرير انتصر فيه سليم سنة ١٥١٢ ويقال انه دس السم لأبيه نيظلي منه كما سيأتي .

وأراد سليم أن يؤدب الأسرة المالكة الجديدة في فارس وهي أسرة الصفويين لمساعدتها لأخيه خلال الصراع بينهما ، وبالتالي أراد أن يمد سلطانه الى آسيا ، ولكن حال دون ذلك منافس آخر هو المماليك بمصر الذين كان سلطانهم ممتدا الى سوريا ، وكان نفوذهم يشمل الأماكن المقدسة بالحجاز ، فوجد سليم أن لا بد من البدء بسوريا ومصر قبل أن يدخل المعركة مع فارس .

فتح سوريا ومصر :

كانت الدولة المملوكية بمصر وسوريا قد أصبحت — كما سبق — بانحيار اقتصادي في نهاية القرن الخامس عشر عندما استطاع البرتغاليون كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، فارتبطت تجارة أوربا بالهند دون المرور بالموانئ المصرية والعربية ، وقد بدأ هذا الكشف بواسطة هنري الملاح (١٣٩٤ — ١٤٦٠) الذي استطاع أن يصل الى سيراليون (Sierra Leone) ، وتلاه برتولوميو دياز (Bartholomew Diaz) الذي دار حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨ ، وبعد ذلك بعشر سنين استطاع فاسكودي جاما (Vasco de Gama) أن يسير من شواطئ افريقية الشرقية الى شواطئ الهند ، وبذلك اتصلت البرتغال بالهند وبجزر الهند الشرقية عن طريق البحر مباشرة دون الحاجة للموانئ العربية وللخطوط البرية العربية ، وقد حاول المماليك الوقوف في وجه البرتغاليين منعهم من سلوك هذا الطريق ، ولكن محاولاتهم ذهبت هباء إذ استطاع

البرتغاليون احتلال جزيرة سوقطرى قرب مدخل البحر الأحمر وجزيرة
هرمز عند مدخل الخليج العربى بأمل حبس الاساطيل الاسلامية داخل
البحر الأحمر والخليج العربى (١) .

ومن الواضح أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح لم يقض على
التجارة عبر الخطوط العربية قضاء تاما ، ولكنه أضعفها بشكل ظاهر ،
وبقيت الخطوط العربية تباشر نشاطها المحدود بجوار الخط البصرى
الجديد الذى اجتذب أكثر النشاط .

وكان الضغط الاقتصادى الذى طرأ على الجبهة المملوكية من الأسباب
التي يسرت على العثمانيين التغلب على المماليك فى سوريا ومصر .

فى ضوء هذه الأحداث قامت معركة بين المماليك والعثمانيين فى مرج
دابق (شمالي حلب) سنة ١٥١٦ م انتصر فيها العثمانيون وسقط قنصوه
الغورى (سلطان مصر) قتيلا فيها ، وضم العثمانيون بذلك سوريا
لممتلكاتهم ، وتقدم سليم الى مصر فجرت معركة بينه وبين السلطان
المملوكى الجديد طومان باى ، وهى معركة الريدانية على أبواب القاهرة
سنة ١٥١٧ ، وانتصر فيها الأتراك أيضا وعقب ذلك اعترفت الأماكن المقدسة
للعثمانيين بالافوذ والتبعية ، وقد سبق أن أوضحنا أن العثمانيين خطروا
هذه الخطوات باسم الاسلام مما يسر الطريق أمامهم ، ومات السلطان
سليم سنة ١٥٢٠ فتولى ابنه سليمان العرش ، وهو المعروف بسليمان
القانونى .

نشاط سليمان فى أوروبا وآسيا :

وبلغت الدولة أقصى قوتها فى عهد سليمان القانونى أو العظيم كما
يسميه الأوروبيون ، وقد شمل بنشاطه الميدانيين الغربى والشرقى ، ففى

(١) انظر مزيدا من الدراسة حول هذا الموضوع فى الجزء السابع من
هذه الموسوعة عند الحديث عن عمان .

أوروبا استطاع السلطان الجديد أن يستولى على بلغراد سنة ١٥٢١
وجزيرة رودس سنة ١٥٢٢ •

وفي سنة ١٥٢٦ حصلت موقعة مهاج الأولى بينه وبين ملك المجر ،
وقد انتصر السلطان سليمان انتصارا كبيرا فيها ، فقتل الملك الشاب لويز
وصفوة رجاله ، ولما تنازع أمير ترانسلفانيا وملك النمسا حول تاج المجر
تدخل السلطان سليمان وناصر أمير ترانسلفانيا واحتل بودابست •

حصار فيينا :

وقد حاصر العثمانيون العاصمة الساحرة (فيينا) عدة مرات كانت
أولها عقب الانتصار السابق وتمت سنة ١٥٢٩ ، وكانت الثانية سنة
١٥٣٢ ، وفي سنة ١٦٨٣ حاصر العثمانيون العاصمة للمرة الثالثة بقيادة
الصدر الأعظم عمر مصطفى ولكن تحالف ألمانيا وبولنדה أنقذ العاصمة من
السيوط •

وقد ظهر سليمان البحار من أعدائه ، وكان للقباطنة الأتراك
السيطرة الكاملة على البحر الأبيض والبحر الأحمر •

فتح العراق والصدام مع الفرس :

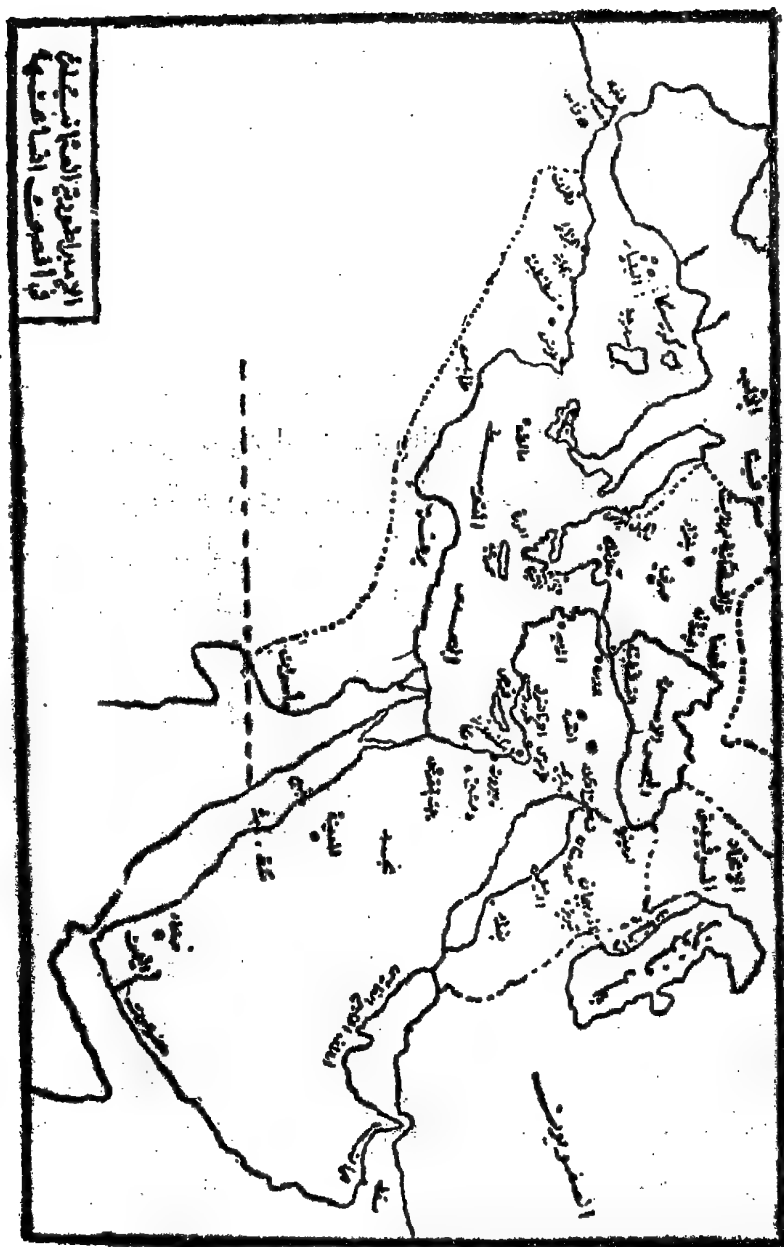
وفي آسيا حارب سليمان القانوني الفرس ، إذ أن عامل بغداد من
قبل الصفويين تمرد عليهم لتشجيعهم وانحاز الى سليمان القانوني لأنه
سنى ، ليحمي نفسه وأتباعه السنيين بالعراق من ضغط الشيعة ، فجهز
الشاء الصفوى حملة ضده وأخضعه ، فذهب سليمان يدافع عن حليفه
وانتصر له سليمان ضد الفرس ، وتقدم حتى وصل « تبريز » عاصمتهم ولكنه
رجع اكتفاء بسيطرته على العراق ولحدوث تمرد في جيشه ، وكان فتح
سليمان للعراق سنة ١٥٣٤ •

الشمال الإفريقي وباقي البلاد العربية :

وكانت دول الشمال الإفريقي مضطربة بسبب محاولة أسبانيا الاستيلاء عليها عقب هزيمة المسلمين بأسبانيا وانسحابهم منها ، وقد انتهر الأتراك هذه الفرصة فتدخلوا في شئون هذه البلاد ، واستولوا على الجزائر بواسطة خير الدين بربروسا سنة ١٥١٨ ، واستولى خير الدين على تونس باسم الباب العالي سنة ١٥٣٤ من بنى حفص ، واستولى سنان باشا على طرابلس وطرد فرسان القديس يوحنا المالطيين سنة ١٥٥١ ، وهكذا دخل الشمال الإفريقي تحت سلطان العثمانيين ما عدا المغرب الأقصى ، وقبل منتصف القرن السادس عشر قامت حملة تركية بحرية بقيادة « بيري رئيس » أخذ الأمراء البحريين ببعض الأعمال البحرية على شواطئ الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية ، فاحتلت عدن سنة ١٥٣٨ ثم واصلت زحفها باليمن حتى احتلت صنعاء سنة ١٥٤٧ ثم احتلت مسقط سنة ١٥٥١ ووصلت حتى رأس الخليج العربي وسارت حملة من مصر فأكملت احتلال اليمن سنة ١٥٦٨ (١) ، وبذلك بلغت الامبراطورية العثمانية أقصى مداها ، فقد امتدت من بودابست على نهر الطونة الى أسوان بالقرب من شلالات النيل ، ومن نهر الفرات وقلب ايران الى باب المندب جنوبى الجزيرة العربية •

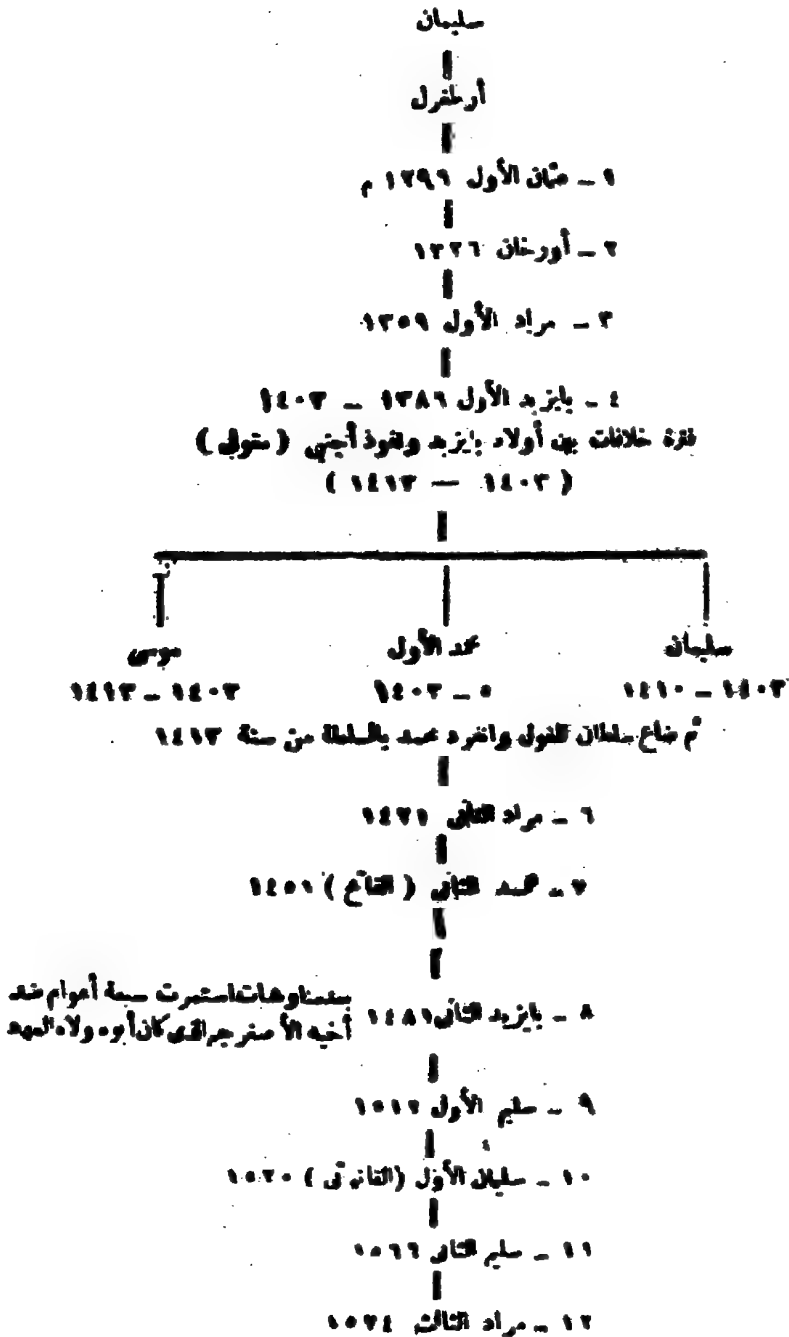
وفي النصف الثانى من القرن السادس عشر توقف نشاط العثمانيين على أثر خلاف بين أبناء السلطان سليم على السلطة ، وتجمعت عوامل متعددة أوقفت تقدم العثمانيين ، ثم جعلتهم هدفا لهجمات الآخرين ، فانقلبوا من الهجوم للدفاع ، ثم تمهقروا أمام زحف أعدائهم وأخذت الامبراطورية تنقلص وتتهار على ما سنوجزه فيما بعد •

(١) للحديث عن نشاط العثمانيين بالجزيرة العربية اقرأ الجزء السابع من هذه الموسوعة •

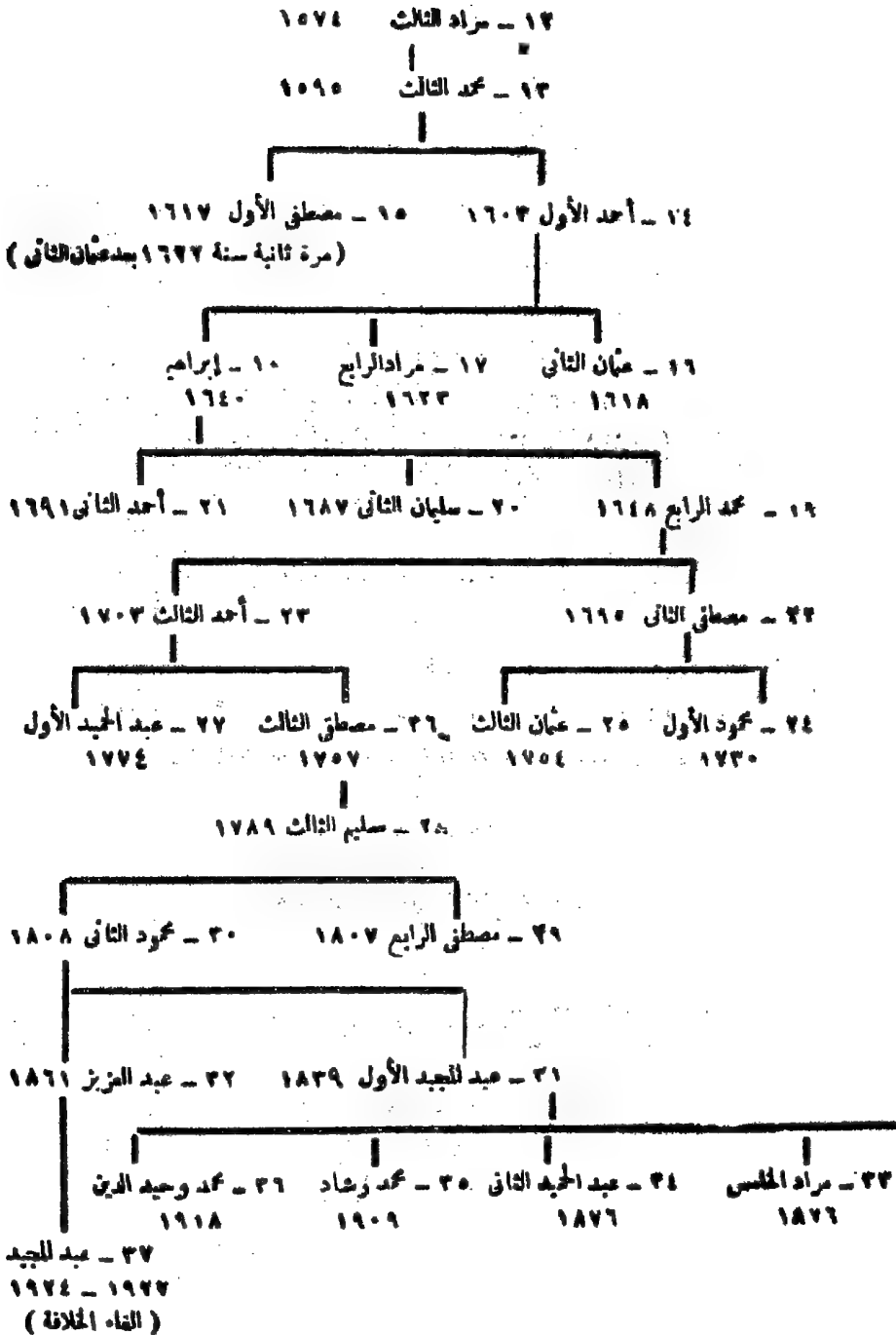


جدول نسب سلاطين آل عثمان

(أولاً) دور القوة :



(ثانياً) دور النصف :



وقد تحدثنا بشيء من التفصيل عن دور القوة ، وسنشرح فيما بعد ظروف انهيار الدولة وأسباب ذلك الانهيار ، ولكننا هنا نبادر فنضع أمام السلاطين الذين لم نتحدث عنهم أهم الأجندات التي شغلت عهودهم وأدت بالدولة الى الانحدار ، وهي كالآتي :

سليم الثاني : — فتح قبرص

— هزيمة تركيا في موقعة ليبانتو ضد الحلفاء ثم
— عودة النصر الى تركيا في البحر •
— استبعاد تونس من دون جوان

مراد الثالث : — حرّم البرتغال والفرس

محمد الثالث : — بدء تدخل نساء القصر في شؤون الدولة
أحمد الأول : — صمدت النمسا لأول مرة في حروبها مع الترك
— فاستمرت الحروب خمسة عشر عاما ، مما قلل من
هيبة الترك في نظر الأوروبيين ، وحسّوت الجزية
الى هدية غير ثابتة المقدار •
— انتصارات للفرس •

سليمان الأول : — سادج خليج أصدر شيخ الاسلام فتوى بخلعه •

عثمان الثاني : — غلام في الثالثة عشرة •

مراد الرابع : — كان لا يخرج من السراي الا نادرا ، واشتد
سلطان نساء القصر •
— ثورة للانكشارية عزلت السلطان •

محمد الرابع : — اتمام فتح كريت •

— قيام اتحاد ضد الترك من البنادقة وبولونيا والبابا
ورهبنة مالطة وروسيا والقوزاق وتوسكانه

- والنمسا باسم « الاتحاد المقدس » •
- موقعة مهادج (١) الثانية التي منزم فيها الأتراك
- على يد شارل الخامس ملك لورين •
- أسرة كوبريلي •

سليمان الثاني : كوبريني زاده يحقق للدولة بعض الانتصارات
أحمد الثاني : حروب عادية
مصطفى الثاني : — عاد يقود الجيوش بنفسه أملا في اصلاح
الأحوال

— صلح كارلويج

— قتل شيخ الاسلام واستقالة السلطان •
أحمد الثالث : — انتصارات على روسيا في عهد بطرس الأكبر
— قبول الصدر الأعظم رشوة من زوجة بطرس
الأكبر لينجو الامبراطور الروسى وجيشه من
أسر محقق •

محمود الأول : حروب عادية مع الفرس والروس والنمسا •
عثمان الثالث : عهد سلام لانشغال أوروبا بحرب السبعة أعوام
مصطفى الثالث : انتصارات روسية •

عبد الحميد الأول — حروب مع الروس والفرس
— معاهدة قينارجة

(١) — مهادج لو مهادج مدينة على الدانوب •
— موقعة مهادج الأولى حقق فيها سليمان القانون سنة ١٥٢٦ نصرا
سلحقا ضد لويس الثاني ملك المجر •

- سليم الثالث : — هزائم الدولة من الروس
— ظهور فساد الانكشارية
— محاولة للإصلاح الداخلى فى الجيش والادارة
— حروب انجلترا ضد فرنسا لاحتلالها مصر
— عزل السلطان
- مصطفى الرابع : — نكسة للإصلاحات الداخلية التى قدمها سليم
الثالث
— عزل السلطان
- محمود الثانى : — القضاء على سلطان أمراء الاقطاع
— ثورة اليونان وتدخل مصر
— موقعة ناورين
— زيادة الانكشارية
- عبد المجيد الأول : — فرمان الوراثة لأسرة محمد على
— اصلاحات داخلية (المدارس الحديثة — تنظيم
الميزانية — استقلال المحاكم)
— هزائم فى الخارج وثورات فى الداخل (ثورة بين
الموارنة والدروز)
- عبد العزيز : — هزائم فى الجبل الأسود والصرب والاملاق
والبغدان
— الثورة الوهابية وتدخل مصر
— تذمر عام ضد السلطان
— خلع السلطان
— انتحاره أو قتله بعد بأربعة أيام وسنشرح
ذلك عند الكلام عن عبد الحميد الثانى
- مراد الخامس : — عزله بعد فترة قصيرة لتخليطه أو اتهامه بالجنون

عبد الحميد الثاني : — مشكلة الدستور

— مدحت أبو الدستور

— الثورات الداخلية والاستبداد الحميدى

— هزائم خارجية

— معاهدة سان ستيفانو ومعاهدة برلين •

وسنقدم عن عبد الحميد الثانى ومدحت دراساته

مهمة وواسعة فيها بعد •

محمد رشاد : — السير نحو النهاية •

— الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا •

محمد وحيد الدين : — تركيا الفتاة

— الحد من سلطان الخليفة

— مصطفى كمال يتسلم السلطة المدنية

— عزل السلطان وتولية بدله سنة ١٩٢٢

عبد المجيد : — اعلان الجمهورية سنة ١٩٢٣ وجعل الخلافة

للمشؤون الدينية فقط •

— انتهاء الخلافة وطرد بيت السلاطين سنة ١٩٢٤

حضارة العثمانيين

مقدمة :

لعل من الأفضل أن نتحدث هنا عن حضارة العثمانيين وألوانها ، قبل أن نصف الدولة وهي تتهاور وتتخمش ، وذلك لأن الحضارة التي سنتكلم عنها الآن هي في الحقيقة وليدة عصور القوة ، وقد طرأت ظروف على عصور الضعف جعلت بها اتجاهات من نوع آخر ستكون موضوع حديثنا عند الكلام عن هذه العصور .

مصادر الحضارة العثمانية :

يقول الدكتور فيليب حتى : إن ثقافة العثمانيين كانت مزيجا من العناصر المتنوعة ، فقد أخذوا الترك عن الفرس كثيرا من الأفكار الأدبية ، كما أخذوا منهم بعض الأفكار السياسية كتمظيم الملك ، وقد اقتبس الترك هذه الموضوعات عن الفرس لصلاتهم بهم قبل هجرتهم الى غربى آسيا وبعد هذه الهجرة ، وكان مما منحته بداوة آسيا الوسطى للترك النزعة للحرب والفتح والميل للاختلاط بالآخرين والامتزاج بهم ، وقد انتقل الى الترك أيضا من البيزنطيين بعض المؤسسات الحربية والنظم الحكومية ، ولكن العرب كانوا قبل الجميع معلمى الأتراك كما كان اليونان معلمى الرومان ، فقد أخذ الترك عن العرب علومهم ودينهم بما فيه من المبادئ الاقتصادية والاجتماعية والتشريعات المقدسة ، وأخذوا أيضا الحروف العربية للكتابة ، فظلت شائعة حتى سنة ١٩٢٨ ، وباعتناق الترك دين الاسلام واقتباسهم الحروف العربية انتقل اليهم من اللغة العربية ألفوف الاصطلاحات الدينية والعلمية والشرعية والأدبية ، ولا يزال كثير من هذه الاصطلاحات في قلب اللغة التركية على الرغم من المحاولات القومية الأخيرة لإخراجها منها (١) .

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ٢ من ٤٨٢ - ٤٨٣ .

ولكن المطلع على حضارة العثمانيين التى سبىلم بها يرى ألوانا منها بعيدة عن الفكر الاسلامى وعن الشىهامة العربية كالنزعۃ للغدر ومصادرة الأموال والانهماك فى اللذات أحيانا ، ولذلك فنحن نرى أن الأتراك تعلموا من الاسلام ومن العرب الكثير ولكنهم لم يعملوا بها فى كل الأحوال ، وغلبت عليهم أحيانا نزعۃ البداوة والجمجية فى سلوكهم السياسى والعسكرى .

الهيئة الحاكمة

السلطان وحكمه المطلق :

كان السلطان العثمانى يحكم حكما مطلقا فى أغلب الأحوال ، وكان هذا الاتجاه مخالفا للاسلام وسببا من أسباب الكوارث ، وقد قامت محاولات دستورية ولكنها كانت عقيمة ، وكان السلطان يحس أنها حرمة من اكتمال السلطة فكان يطاول التمرد عليها والعودة لحكم الفرد ، مع أن الشورى اللازمة فى الاسلام تخفف العبء عن الرؤساء ، وتشارك معهم فى المسئولية بعض أولى الأمر ، ولكن متعة السلطة كثيرا ما أعمت الرؤساء المستبدين .

ويعتبر بعض الباحثين عن السلطنة العثمانية بأن الحكم المطلق كان أسلوب العصر ، ولم تكن الغالبية العظمى من دول أوربا يمارس فيها الحكم النيابى الذى هو من معالم الديمقراطية ، وكان أكثر ملوك الأرض يتبعون الحكم المطلق . . . (١) .

ولكننا لا نوافق هذا الباحث فيما قال ، فملوك أوربا لم يكن عندهم كتاب الله الذى يلزم بالشورى ولم يكن عندهم التاريخ الشامخ للرسول وصحبه الذين كوثوا حولهم مجالس الشورى قبل العثمانيين بمئات السنين

(١) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية : دولة اسلامية

وعلى كل حال فقد كانت الشريعة الاسلامية تحول دون انطلاق الديكتاتورية وتخفف من غلوائها ، فهناك كثير من الأحكام وردت نصوص واضحة فيها ، وكان على الخلفاء العثمانيين أن يمثلوا لها ، وإن كان الواقع يقرر للأسف أن السلاطين العثمانيين كانوا يجدون في جميع الحالات — إلا ما ندر — استجابة فورية لرغباتهم من كبار علماء الدين : شيخ الاسلام وأمين الفتوى وقاضى العسكر ، إذ كانوا يصدرون فتاوى تحقق مأرب الخلفاء ، وتضفى على تصرفاتهم طابع الشرعية ، ونخلص من هذا كله الى أن الاستبداد الذى مارسه السلاطين لم يكن استبدادا مقيدا بل كان استبدادا مطلقا (١) .

ويجب أن نوضح أن الاستبداد المطلق كان يوجد إذا كانت هناك رغبة خاصة للسلطان ، أما في الأمور التى لا دخل لرغبات السلاطين فيها ، فإن الشريعة الاسلامية تأخذ مجراها الطبيعى ، فمشروعات القوانين العادية كانت تعرض على شيخ الاسلام ليقرر مدى مطابقتها للشريعة الاسلامية ، وأحكام الاعدام على المتهمين في القضايا الجنائية كانت تعرض على شيخ الاسلام قبل تنفيذ حكم الاعدام للتأكد من سلامة السير في القضية .

الشباب السلطان :

وكان للسلطان التركي سلسلة من الألقاب لعلها اكتملت في عهد القوة إبان حكم سليمان القانونى ، وقد كتبها سليمان في مطلع رسالة منه الى فرنسيس ملك فرنسا ، ونحن نقبسها عن Roger Mirreman (٢) .

أنا سلطان السلاطين ، وملك الملوك ، مانح التيجان للملوك على وجه البسيطة ، ظل الله في الأرض ، سلطان البحرين الأبيض والأسود :

(١) المرجع السابق ص ١١٠ .

(٢) Suleiman the Magnificent p. 130.

وخالقان البرين ، وملك الرملى والأناضول ، وبلاد الكرمان وبلاد الروم ،
وديار بكر وكردستان ، وأذربيجان وفارس ، ودهشوق وحلب والقاهرة
ومكة والمدينة والقدس واليمن وكل البلاد العربية وبلاداً كثيرة أخرى
افتتحها آبائى الأشراف وأجدادى الأمجاد نوره الله مراقدهم بقسوة
سلاحهم ، وجعلتها جلالتي المهية تابعة لمسيقى المذهب ومينادى المنتصر .

لقب « الخليفة » :

أما لقب « الخليفة » فكان الأتراك يسمونه الألقابهم منذ عهد مراد
الأول (١٣٥٩ — ١٣٨٩) ، ويقول كارل بروكلمان (١) : ان ما يقال من أن
سليمان الأول حمل الخليفة العباسى بالقاهرة على أن يتنازل له عن هذا
اللقب سنة ١٥١٧ لم يرد الا فى رواية متأخرة . ويؤيد سير توماس أرنولد
اتجاه كارل بروكلمان ويعطى الأدلة ليبين أن هذا التنازل لم يتم (٢) .

ويبدو أن الأتراك العثمانيين لقبوا أنفسهمهم بلقب الخلافة قبل
دخولهم مصر بزمان طويل حتى ليقال ان مراد الأول (١٣٥٩) اتخذ
لنفسه هذا اللقب عقب الانتصارات التى حققها فى آسيا الصغرى وفى
أوربا ، ومن الواضح أنه لم يكن بسلطان العثمانيين حاجة لينتظروا حتى
يتنازل لهم الخليفة العباسى عن هذا اللقب ، فقد عرف المسلمون قبل ذلك
بأمد طويل فكرة تعدد الخلفاء ، ففى آخر القرن الثالث الهجرى وأوائل
الرابع (العاشر الميلادى) اتخذ الفاطميون لقب الخليفة لقباً لهم بالشمال
الأفريقى اذ كانوا شيعية ، لا يعترفون بالخلافة السنية ببغداد ، وبعد
ذلك بقليل أعلن عبد الرحمن الناصر بالأندلس أن هذا اللقب حق له
امتداداً لأبائه وأجداده بدهشوق ، ولام من سبقوه بالأندلس الذين اكتفوا
بلقب الأمير ، وعلى هذا فما حاجة العثمانيين للانتظار اذا كانوا يريدون
حمل هذا اللقب ؟

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) انظر : The Caliphate p. 139 .

ويقول فيليب نخسى : وسواء أضحكت الدعوة الثالثة ان الخليفة العباسى بالقاهرة أوصى بالخلافة للسلطان العثمانى أو لم تصح ، فالواقع أن أمير القسطنطينية التركية اكتسب تدريجياً امتيازات الخلافة ، ثم اتخذ أخيراً لقب الخلافة لنفسه ، وأول وثيقة دبلوماسية معروفة أشير فيها الى السلطان العثمانى بلقب الخلافة ، واعترف فيها بسلطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانية هى المعاهدة الروسية التركية الموقع عليها فى كوتشوك كينرجى سنة ١٧٧٤ (١) .

السلاطين بين القوة والضعف :

كان سلطين العثمانيين قسامين :

١ - قسم يمكن تسميتهم « السلطين العظام » وعددهم عشرة ، يبدأون بعثمان أول السلطين وينتهون بالسلطان سليمان القانونى وقد حكموا ٢٦٧ سنة من سنة ١٢٩٩ الى سنة ١٥٦٦ م وقامت على سواعد هؤلاء عظمة الدولة من حيث التوسع الاقليمى فى آسيا وأوروبا وافريقية ، ومن حيث النظم والمنشآت الحضارية .

٢ - والقسم الثانى هم السلطين الضعاف وعددهم ٢٦ سلطاناً أولهم السلطان سليم بن سليمان القانونى وآخرهم محمد السادس آخر الخلفاء وقد حكموا حوالى ٣٥٧ من سنة ١٥٦٦ الى سنة ١٩٢٤ ، وفى عهد أكثر هؤلاء تدخلت سيادات القصور فى إدارة الدولة ، كما مال الخلفاء للترف وطالت اقامتهم بين الجوارى والمغنيات ، وأصبح المصدر الأعظم فى كثير من الأحوال صاحب السلطة فى الدولة ، وقد بلغ من هوان سلطين هذا العصر أن سُمى بعضهم باسم « السلطين التتابلة » وكان بعضهم فيه لوثة عقلية ، وعدم قدرة على السيطرة .

ونتيجة لهذه الأوضاع أعقب المدء جزر ، وتراجعت الدولة في كثير من الميادين وكثير من النظم (١) .

ولاية العهد وأثارها القائمة :

لم يكن هناك قانون ينظم ولاية العهد في الامبراطورية العثمانية ، وهذا فتّح الباب لصراع دام لشتر منصب السلطان عقب خلوه لسبب من الأسباب .

وكانت القصور خلافة جذابة ، والمطامع في شغل هذا المنصب قوية وواضحة ، وبخاصة أن من يتولى السلطنة كان يمكنه أن يتخلص من منافسيه بالقتل ، ومعنى هذا أن المنصب كان هو الذي يحمي الانسان من القتل ، ومن هنا نشط الكثيرون لنيله حتى يحظوا بمتع القصور من جانب وبالسلامة من جانب آخر .

وفي فترة من الفترات جعلت ولاية العهد للابن الأكبر وذلك لوضع حد للمنافسة والصراع ، ولكن أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) اختار أخاه مصطفى وليا لعهد ، وتخطى ابنه عثمان ، ولكن هذا كافح حتى أخذ السلطنة من عمه سنة ١٦١٨ وبقيت معه أربع سنوات ثم أصبح مصطفى الأول سلطانا مرة أخرى ، وكان الباب يفتح على مصراعيه للقتال كلما خلا منصب السلطان ، وإن كان الصراع على المنصب كان قد بدأ قبل ذلك بعهد طويل كما اتضح ذلك من الدراسات التي قدمناها فيما سبق والتي سنوردها هنا بعد قليل .

وقد وصلت مشكلة إراقة الدماء من أجل هذا المنصب قمتهما وفظاعتها عندما أصدر محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) قانونا يتيح لمن يتولى العرش أن يقتل من يرى من أخوته تامينا لسلامة الدولة ،

(١) انظر كتاب الدكتور الشناري بسالف الذكر ص ٣٤٥ وص ٦٧٢ .

ولم يقف الأمر عند قتل الإخوة بل تعداهم الى قتل الأبناء ومن يحتمل أن ينافسوه بوجه عام . ويقول كارل بروكلمان (١) إن محمدا الفاتح استغل عهده بأن أمر بقتل أخيه أحمد ، ومن ذلك الحين صار قتل السلطان إخوته عادة شبه مطردة ، فلما جاء محمد الثالث (١٠٩٥ هـ = ١٦٠٣) أمر بقتل إخوته الذكور وكان عددهم تسعة عشر أميرا ، وأمر بإغراق نساء أبيه وجواري أبيه الحوامل ، وكان عددهن عشر نساء (٢) ويقول الأستاذ محمد كرد علي ما يلي :

ولا شك أنه من أعمال العنف والوحشية أن يبتدع العثمانيون ذلك القانون باسم اقرار الأمن ، وقد نشأت عن ذلك سلسلة من الفجائع ، ورأى الزمان لهذا النوع من القتل مبرراً ، فوُضِعَ في قالب الحرص على سلامة الأمن العام ، ولم يقف الأمر عند الإخوة ، بل تعداهم الى غيرهم ، فأصبح قتل السلطان إخوته وأولاده وأحفاده وبناته والحاملات من نساء السلاطين مما لا يستتكر ، وظلت هذه العادة القبيحة جارياً حكمها حتى عهد محمد الرابع (١٦٤٨) إذ حاول قتل شقيقه فمنعته أمه ، وصحبا المفتي الأكبر فأورد للسلطان كلام الله وحذره عقابه ، وبذلك انقضى دور قتل أبناء الملوك بعد أن دام فترة طويلة ، وأخذ كل سلطان بعد ذلك يراقب أولياء العهد مراقبة شديدة ويقيمهم بمعزل من الناس لا يختلطون بهم (٣) .

وأكثر من ذلك ، لقد كان العقوق واضحاً بين الأب وابنه والابن وأبيه ، ويرجح أكثر المؤرخون أن سليما الأول هو الذي دس السم لأبيه بايزيد الثاني ليحصل على السلطة لنفسه بدلا من أخيه الأكبر « أحمد » الذي كان يرشحه الأب ، ومن أجل هذا كان سليم يخاف

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ٢ : ٤٠ .

(٢) محمد غريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ٢ : ٥٩٣ .

(٣) الحضارة العربية ٢ ص ٢٨ و ٥٢٩ .

ابنه سليمان وينظر اليه نظرة شئك وريبة ذاكراً حدثته هو ، ومن أجل هذا عاش سليمان طيلة حياة أبيه مستكيناً خوفاً من نقمة أبيه الذي كان يمكن أن يأمر به فيلقى للنفاء .

وأحيانا كان يدور الصراع بين أبناء السلطان في حياته كما حدث في حياة بايزيد ، إذ اقتتل أبناء أحمد وسليم ، أو بعد وفاته كما حدث في حالات أخرى كثيرة من أهمها ما وقع بين بايزيد الثاني سالف الذكر ، وبين أخيه « جم » الذي كان أبوه محمد الفاتح ولاء عهده ، وقد بدأت هذه الحرب بعد وفاة محمد الفاتح سنة ١٤٨١ ، وظلت حتى تغلب بايزيد على أخيه سنة ١٤٨٨ .

تجديد الإقامة :

وعندما توقفت إراقة الدماء استجابة للاستتكار الاسلامي وللشعور العالمي ، اتجه السلاطين اتجاهاً جديداً لحماية أنفسهم من منافسيهم ، وكان ذلك الاتجاه هو أن يحددوا إقامة الإخوة والأبناء ، بأن يوضع كل منهم في قصر صغير ، تحيط به حديقة ، وتكثر به الجوارى والقيان ويكون له سور مرتفع صامت ، بحيث لا يراه أحد من الخارج ، ولا يرى هو أحداً بالخارج ، وتوضع مع هذا المسكين بعض الكتب الدينية وبخاصة التي تحت على طاعة ولي الأمر .

وكانت هذه القصور الصغيرة تسمى « أقفاصاً » (١) ، وظالما تحول السجين فيها الى معتوه أو أصابته علة صحية أو نفسية .

وعلى العموم فكل جوانب القسوة التي ذكرناها كانت ردءاً تعمل للثورات العنيفة التي قام بها الطامعون في السلطة من حين الى حين .

(١) دكتور عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية .. ص ٣٥٠

أعوان السلطان :

وبجانب السلطان كان يوجد الصدر الأعظم ، وهو يعادل منصب رئيس الوزراء في العهد الحاضر ، وكانت الرشوة الباهظة ، والمتعبد بتلبية مطالب السلطان وسد حاجة بلاطه من أهم الشروط للترشيح لهذا المنصب الخطير ، ويجيء بعد هذا المنصب الولاية (الباشوات) وهم حكام الولايات ، وكان الوالى لا يعين إلا إذا أجاز العطاء للصدر الأعظم ، بل لقد فُرض على باشوات الولايات أن يجددوا مراسيم تعيينهم كل عام لتتكرر الرشوة التى يدفعونها ، وكلما كان يخلو منصب وال كانت المساومة تظهر ، فلا تمنح الولاية إلا لمن يدفع أكثر من سواء ، وطبيعى أن الوالى يسترد ما دفعه وأضعاف أضعافه من السناجق أو الألوية ، التى كانت تنقسم لها الولاية ، إذ كان تعيين حكام الألوية من اختصاص الوالى ، وكان ذلك يتم بعد دفع الرشوة الكافية ، ويسترد حكام السناجق ما دفعوه من الملتزمين أو من الرعية مباشرة .

الباب السالى :

ومن الواضح أن الصدر الأعظم كان هو المنصب القالى لوظيفة السلطان ، وابتداء من عهد السلطان محمد الرابع يسمى "مبنى" لهم يتقيم به الصدر الأعظم وأعوانه ، وكان درويش محمد باشا أول صدر أعظم سكن هذا المبنى ، وسمى هذا المركز الذى تصدر منه أعظم الأحكام « الباب العالى » .

غير الترك فى الوظائف الكبيرة :

كان عنصر الأتراك فى الامبراطورية الشاسعة أقلية صغيرة وكانت المناصب الكبيرة تُستد اليهم عادة ، ويقول Kirk إن الأتراك فتحوا الباب لكفاءات أخرى للترقى ، فكان لكل رجل مهما كان مولده مجال لتقلد مناصب الدولة بشرط مراعاته للتقاليد المرعية فى الدولة

واصطباه بالصبغة الثقافية العامة فيها ، وبشرط مراعاة مذهب أهل السنة ، وتعلم الفنون الحربية مع التدريب عليها ، وإجادة اللغة التركية ، تلك اللغة التي — مع اقتباسها لكثير من العبارات والألفاظ العربية والفارسية — قد ناصرها العثمانيون حتى صارت اللغة الرسمية في الحكومة وتغلبت على اللغتين العربية والفارسية اللتين تَمَتَّتْ كل منهما إلى حضارة أعمق وأرقى من الحضارة التركية (١) .

ولسنا نتفق مع Kirk في هذا الإطلاق ، فحقيقةً كان عدد الأتراك أقل من عدد المناصب الكبرى ، ومن ثمَّ احتاج الترك إلى عناصر أخرى لتُسَنِّدَ لها هذه المناصب ، ولكنهم اتجهوا في الكثير الغالب إلى الأوروبيين ، واكتفوا منهم بالتظاهر بدخول الإسلام فأسندوا لهم أرقى المناصب ، ويدلنا الإحصاء الذي أورده جلز (٢) على أن الصدور العظام الذين تعاقبوا على الحكم خلال ازدهار الامبراطورية العثمانية (١٤٥٣ — ١٦٢٣) كانوا ثمانية وأربعين ، خمسة منهم فقط يجرى في عروقهم الدم التركي أما الباقون فكان توزيعهم على الشكل التالي :

١١ البانيا كانوا حديثي عهد بالإسلام .

١١ صقليا (سلافيا) .

٦ من اليونان كانوا حديثي عهد بالإسلام .

١ جركسي واحد من القوقاز .

١ إيطالي واحد حديث عهد بالإسلام .

١ أرمني واحد .

(١) A Short History of the Middle East p. 90.

(٢) H. Gelzer : Geistliches und Weltliches aus dem griechisch.

Türkischen orient p. 179.

١ كرجى من جورجيا (بلاد الكرج) •

١٠ من أصول غير معروفة (١) •

وهكذا ليس من بينهم عربى واحد أو مسلم عميق الأصول فى الإسلام ، ولم يستند للعرب إلا أتفه الوظائف ، وكانت الطبقات الفقيرة من العرب والمصريين تعامل معاملة مزرية (٢) •

الإقطاع

وكانت الدولة تقوم على أساس النظام الإقطاعى الذى نظمته الحكام الأولون على الفرار البيزنطى ، وكان الإقطاع الأصغر يدعى (تيمار) ويمتدح لبعض الطموحين ، ويظل الفلاحون بالإقطاع يزرعون لصاحب التيمار. ويقدمون له المحاصيل (الإيجار أو الحاصلات فيما عدا ما يمسك حياتهم) ، وعلى المقطع اليه تنظيم هذا الإقطاع أن يقدم للدولة عددا من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة أو عدداً من البحارة لخدمة الأسطول ، بالإضافة الى بعض الضرائب المالية •

وهناك إقطاع أكبر يدعى (زعامت) ويمتدح أن يقدمون خدمة شخصية للخليفة أو للدولة ، ويقدم (الزعيم) وهو لقب صاحب هذا الإقطاع ، مالا للسلطة المركزية وجنوداً للجيش يترايد عددهم تبعاً لإيراد الإقطاع •

والتيمار والزعامة كانا يخضعان لتفتيش رجال الإدارة المركزيين •
وهناك إقطاع أعلى هو (الخاص) ويمتدح للولاة ولا يخضع لتفتيش •

(١) يلاحظ أن المجموع ٤٧ لا ٤٨ كما ذكر فى الاصل •

(٢) انظر موجز تاريخ الشرق الاوسط لكريك ص ٩١ •

ولما اتسعت الإمبراطورية كثر الباشوات الذين كانوا يعينون حكاما للأقاليم ، وكان الإقليم كإقطاع لكل منهم يتولى هو توزيعه إقطاعات صغيرة على أتباعه وعبيده ، وظل الحال كذلك حتى أصدر سليمان (قانون نامه) سنة ١٥٣٠ الذى جعل حق منح الإقطاع فى يد الباب العالى (ديوان الصدر الأعظم) وأصبح الباشا يقترح من يستحقون الإقطاعات وتصدر البراءات لهم من ديوان الصدر الأعظم ، ولكن كثيرين من الباشوات احتالوا على (قانون نامه) وظلوا يباشرون سلطاتهم الكاملة . ولم يكن هناك قانون واضح للوراثة فى الإقطاع ، فكان ابن صاحب الإقطاع أحيانا يكتفى بتمار ليبدأ به ، وأحيانا كان يقسم الإقطاع بين الأولاد ، وفى آسيا كانت الوراثة جائزة فى الإقطاعات حتى للنساء .

وطالما حاول ملتزمو الإقطاعات أن يتهربوا من الالتزامات العسكرية والمالية التى يفرضها عليهم النظام الإقطاعى .

الالتزام

وبجوار الإقطاع وجد فى الامبراطورية العثمانية نظام الالتزام فى الأقاليم والمناطق التى لا تتبع نظام الإقطاع ، وبمقتضى هذا النظام تسلم مساحة من الأرض المملوكة للدولة لمن يديرها ويشرف عليها ، ويجبى هذا خراجها ويلتزم بتسليم الدولة مقدارا معيناً منه يتفق عليه ، وقد شرحت نظام الإقطاع والالتزام بكتابى « الاقتصاد فى الفكر الإسلامى » وبيّنت رأى الإسلام فيه (١) .

والمقرئ يوصّر الالتزام (٢) تصويراً دقيقاً حين يقول : إن متولى الخراج فى مصر كان يجلس فى مسجد عمرو بن العاص فى الوقت الذى

(١) الاقتصاد فى الفكر الإسلامى ص ٢٠٢ — ٢٠٤

(٢) الخطب المقرئى ج ١ ص ٨٢ .

تنتهياً فيه قبالة الأرض (أوائل شهر سبتمبر) ويجتمع الناس من القرى والمدن ، ويقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج يكتبون ما تنتهى اليه المزايدة ، وعلى مَنْ يرسو الالتزام •

ويلاحظ أن الذين يدخلون المزايدات كان يجامل بعضهم بعضاً في الغالب ، وكان لكل منهم منطقة يندر أن يقتصمها غيره ، وكان هذا يجعل المزايدة صورية في أكثر الأحوال •

تكوين الجيش التركي ونشأة الانتكسارية :

اعتمد الأتراك العثمانيون في إقامة دولتهم على كفاءتهم الحربية ومقدرتهم كفرسان بارعين فيهم جرأة الى حد التهور ، ولكنهم كان ينقصهم التنظيم الفني ، غير أن هذا النقص لم يتضج في الفترة الأولى ، فقد كان التنظيم الفني ناقصاً عند أكثر الجيوش ، ولكن صدام العثمانيين بالغربيين اضطرهم الى تكوين جيش يستكمل مقدرته الحربية والفنية ، إذ كان الأوروبيون قد تعلموا من صراع الحروب في العصور الوسطى ألواناً من التنظيمات التي خلقتها التجارب العسكرية ، وعلى هذا كوّن الأتراك لهم جيشاً نظامياً من رجالهم الأثداء ، وكن مؤلّاء الجنود كانوا لا يحسون بإحساس الجند ، وكانوا يرون لأنفسهم الحق في أن يكونوا سادة ، فبالغوا في مطالبهم المالية مما دعا أورخان (١٣٣٦ — ١٣٥٩) الى حل هذه التنظيمات •

ولجأ الأتراك بعد ذلك الى تكوين جيش من غير الترك ، ومالوا الى تكوينه من النصارى الذين كانوا يألّفون التنظيمات العسكرية ، غير أن الترك كدولة إسلامية لم يكن في إمكانهم أن يكون جيشهم من النصارى ، فلجأوا الى حيلة هي أخذ أولاد النصارى منذ طفولتهم ، ودفعهم الى الدخول في الإسلام ، وتنشئتهم تنشئة إسلامية ، وتعليمهم

فنون الحرب ، وقد أقبل هؤلاء الغلمان على هذه الوجهة بشغف أملا في الجاه والسلطان ، ومن هؤلاء تكونت نواة الانكشارية ، وكان الغلمان النصارى الذين يختارون لهذا العمل ينشئون في قصور خاصة بأدرنة واسطنبول ، وكانت تتقطع صلتهم بأهليهم تماما ، وبدلا من ذلك تعقد الصلات بينهم وبين السلطان ، فيرون فيه كل شيء لهم ، وكان تدريبهم يسير في صرامة وشدة . وكانوا يختارون كل خمس سنوات ثم تقاصرت المدة حتى أصبحت عامين فعاما واحدا ، وكان بعض غلمان الأسرة يؤخذون ويترك الباقون للأسرة ، ولكن بسبب كثرة الحروب أخذت الدولة في بعض لأوقات جميع الغلمان الذين يتراوح سنهم بين العاشرة والخامسة عشرة ، وهناك مناطق كانت تتمتع بالإعفاء ، كما كان نظام البدل معروفاً وهو عبارة عن دفع مقدار من المال لإعفاء بعض الغلمان ، وكان الغلمان يظلون في معسكرات التدريب حتى سن الخامسة والعشرين ، وأحيانا كانت تنقص هذه السن في ظروف الحرب ، وكانت التنظيمات العسكرية من هذا اللون تعرف بالانكشارية ، ولم يسمح لجنود الانكشارية بالزواج إلا في نهاية القرن السادس عشر ، فكان ذلك سبباً في أن أصبح الالتحاق بهذه الفرق بالوراثة بصرف النظر عن المقدرة العسكرية .

وبجوار الانكشارية كان يقوم جيش من جنود الإقطاع الذين كان أصحاب الإقطاع يقدمونهم للحكومة المركزية كما سبق ، ومن هؤلاء كان يتكون جيش « الطوبجية » .

وبواسطة الانكشارية حقق الأتراك العثمانيون كثيرا من ألوان النصر في الميادين المختلفة وبخاصة في الفترة الأولى ، ولكن سرعان ما أصبح الانكشارية مصدر قلق واضطراب في الدولة ، وبخاصة عندما سمح لهم بالزواج وعندما أتيح لهم أن يعملوا في التجارة والصناعة ويسرد لنا الأستاذ محمد فريد مؤلف « تاريخ الدولة العثمانية » صوراً من هذا العصيان العنيف نقتبس بعضها فيما يلي :

— في سنة ١٥٢٥ تأمر الانكشارية بعد عودة السلطان من مدينة أدرنة التي كان قد توجه للإقامة بها في فصل الشتاء ، ونهبوا سراى ابراهيم باشا الصدر الأعظم الذي كان إذ ذاك بمصر ، ونهبوا محل الجمر ، وعدة أماكن أخرى من منازل الأعيان ، وحارة اليهود ، ولولا أن تدارك السلطان الخطب بنفسه لامتد العصيان ، لكنه أسكتهم عن السلب والنهب بتوزيع العطايا عليهم ، ثم بعد ذلك عزل بعض رؤسائهم الذين كانوا سبب هذا العصيان وقتل بعضهم (١) .

في سنة ١٦٣١ أصدر السلطان أمره بعزل خسرو باشا وإعادة حافظ باشا للصدارة ، فسعى المعزول لدى الجند وأفهمهم أنه لم يعزل إلا لمساعدته لهم ، فثاروا وأرسلوا إلى الإستانة يطلبون إرجاعه ، ولما لم يجيب السلطان طلبهم ساروا إلى القسطنطينية وقاموا بثورة شديدة خيف فيها على حياة السلطان ، اذ دخلوا السراى السلطانية سنة ١٦٣٢ وقتلوا حافظ باشا ، فاغتاز السلطان وقتل خسرو باشا محرك هذه الفتنة ، وأزعج السلطان العزم على مجازاة رعوس الانكشارية وغيرهم ممن كان يهيج الخواطر (٢) .

— في سنة ١٧٢٧ ثار الانكشارية على السلطان وحاشيته ليلهم للصالح مع ملوك العجم ، وأهاج الانكشارية الأهالي ، وطلب زعيم هذه الثورة من السلطان قتل الصدر الأعظم ، والمفتى ، وقيودان باشا أميرال الأساطيل البحرية ، بحجة أنهم مائلون لمسالمة العجم ، فامتنع السلطان عن اجابة مطالبهم ، ولما رأى منهم التصميم على قتلهم طوعا أو كرها سلم لهم بقتل الصدر الأعظم والأميرال دون المفتى ، فقتلوهما وألقوا جثتيهما في البحر ، ولم يكتفوا بذلك بل نادوا بإسقاط السلطان نفسه ، وأعلنوا ذلك واختاروا للدولة سلطانا جديدا (٣) .

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٨٣ — ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٤٦ — ١٤٧ .

وهكذا أصبحت الانكسارية خطرا على الدولة ، ولذلك حاول السلاطين محاولات متكررة أن يتغلبوا على هؤلاء العصاة الذين وجهوا خطرهم للدولة والسلطان وأصبحوا يعصون الأوامر إذا صدرت لهم بالتصدي لأعداء الدولة أو الاشتراك في الحروب ، كما كانوا يعصون الأوامر التي تتصل بالتطور الحربى والعسكرى . ولذلك أجمعت الاتجاهات على التخلص من هذه الفئة الباغية ، ويقول الأستاذ محمد فريد مؤرخ الدولة العثمانية ما يلى (١) .

لما تحقق السلطان محمود أفضلية النظمات العسكرية المستعملة في جيوش أوروبا ، وسمع بما أفته الجنود المصرية المنتظمة من الأعمال الباهرة في شبه جزيرة المورة نتيجة للتنظيم العسكرى الحديث الذى يسيرون عليه ، زاد تعلقه باصلاح العسكرية ، وأراد اتمام المشروع الذى لم يتمكن السلطان سليم الثالث من اتمامه ، فجمع أعيان المملكة وكبار ضباط الانكسارية في بيت المفتى سنة ١٨٢٦ ، ولما تكامل الحضور خطب فيهم الصدر الأعظم مظهرا ما وصلت اليه حالة الانكسارية من الضعة والانهطاط وعدم الانقياد لرؤسائها حتى صارت من أكبر دواعى تأخر الدولة العلية بعد أن كانت هذه الفئة من أكبر عوامل تقدم الدولة وامتداد فتوحاتها ، ثم أبان لهم ضرورة ادخال النظام العسكرى الأوربى في فرق الانكسارية ، إذ لا يمكنها بحالتها هذه الوقوف أمام الجيوش الأوربية المنتظمة ، ووافق الجميع على ذلك ، ووقعه جميع الطاقيرين ، وأصدر المفتى فتواه بجواز ذلك ومعاقبة من يعارضه .

ولكن موافقة الانكسارية كانت ظاهرية ولذلك سرعان ما ثاروا عندما بدىء في تنفيذ هذه الاصلاحات بتدريبهم حسب التعليمات الجديدة ، وأعلنوا أن هذه التنظيمات ستفقدهم امتيازاتهم وأنهم يعارضونها واستعدوا للثورة وتبعضهم بعض الفوغاء .

وفي يونية سنة ١٨٢٦ بدأت الثورة ، فاستدعى السلطان مستشاريه ، فأعلنوا ضرورة مقاومة الانكشارية هذه المرة ، واستدعى السلطان فرق الطوبجية ونزل بهم يتبعه العلماء والطلبة ميدان معركة ضد الانكشارية ، وأطلقت مدافع الطوبجية نيرانها على الانكشارية الثائرين فأخذت تحصدهم ، وصدرت الأوامر بقتل الفارين منهم وبخفيهم الى الاطراف على الأقتل ، ولجا بعضهم الى الثكنات فدمرتها المدفعية عليهم ، وانتهت بذلك هذه الطائفة ، التي كانت مصدر تقدم الدولة يوما ومصدر تخلفها فيما بعد (١) .

البحرية العثمانية :

كانت أهم عناية العثمانيين متجهة الى الجيوش البرية ، ولكن سرعان ما أرغمتهم الظروف على العناية بالقوة البحرية ، فقد خاضوا غمار حروب مع اليونان والبنادقة ، فكان على الأسطول أن يلعب دورا هاما في هذه الحروب ، كما كان عليه أن يلعب دورا هاما في ضم الشمال الافريقي للدولة ، وقد بلغت قوة البحرية التركية غايتها في أواخر القرن السادس عشر حتى لم يكن من الممكن لأية بحرية أخرى أن تجول في البحر الأبيض المتوسط بدون اذن من سلاطين الأتراك ، ولما أعطى السلطان محمد الثالث امتيازاً لفرنسا بحرية جولان أسطولها في البحر المتوسط اغتاز الانجليز وعملوا لدى السلطان حتى حصلوا على مثل هذا الامتياز لأسطولهم .

الموقف تجاه تكوين الانكشارية :

قبل أن نترك الانكشارية ينبغي أن نوضح موقف أتباع الديانات المختلفة تجاه أخذ أبناء النصارى ليتكون منهم جيش انكشارية .

(١) انظر تاريخ الدولة العلية وتاريخ الشعوب الاسلامية لكل بروكلمان . والنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، للاستاذ أحمد النائب الانصارى ٢٢٣١ - ٢٢٤٠ .

وكان من الواضح أن النصارى كانوا يضيّقون بهذا التصرف ويأخذون أولادهم منهم ، ويرون ذلك حرمانا لهم من أولادهم من جانب والزاما لهؤلاء الأولاد بدخول الاسلام وهو شيء لا يقبلونه من جانب آخر ، ومن أجل ذلك كانت أسر كثيرة من أسر النصارى تحتال لينجو أولادهم من الانضمام للانكشارية ، فكانوا يتفخعون فديات واسمة ، أو كانوا يزوجونهم وهم في سن مبكرة لأن قانون الجيش كان يحتم أن يكون المتحققون بالانكشارية غير متزوجين .

ومرّ الزمن واتضح ما يستمتع به الانكشارية من تربية عظيمة ، ونفوذ كبير ، فبدات الأنظار تنزل هذه المناصب في شغف ، حتى أن بعض المسلمين واليهود كانوا يدفعون أبناءهم لأسر النصارى لتدفع هذه الأسر بهؤلاء الأولاد إلى الانكشارية ، كما أن النصارى أحسوا بالقوة في أيديهم إذ كانت الانكشارية من أولادهم ، فلم يكن خافيا على الأولاد تحقيق أنسابهم وأديانهم الأولى ، وكان هذا من الأسباب التي أدت لثورات الانكشارية وكثرة هياجهم .

الآثار المعمارية

يعتبر المسجد الذي تحولت له كنيسة القديسة - ونيّا عقب الفتح أهم مساجد العاصمة ، وقد بذل مهندسو السلطان محمد الفاتح جهدا كبيرا لجعل هذه الكنيسة مسجدا ، فغطّيت صور الكائنات الحية بطبقة من الكلس ، إذ كان معروفا أن الاسلام يعارض التصوير ، وأدخل في وسط جناح الكنيسة الجنوبي محراب للقبلة ، وإلى يمين المحراب شيد المنبر ، وابتدعت مساحات واسعة كتب فيها الخطاطون بعض أسماء الله الحسنى واسم الرسول وأسماء الخلفاء الراشدين . وفي خارج الكنيسة شيدت مأذن شاهقة ، أولاهها في عهد السلطان محمد وباقيها بعده .

ولم يكتف السلطان الفاتح بهذا المسجد ، بل بنى مسجدا آخر بدأ

فيه سنة ١٣٦٣ وسماه المحمدى أو جامع السلطان محمد الفاتح ، كما بنى مساجد أخرى هنا وهناك ، وبالإضافة الى ذلك فقد بنى السلاطين العثمانيون مجموعة كبيرة من المدارس والربط والمستشفيات ومطاعم للفقراء ، ومجموعة من الخانات والحمامات والآبار والملاجئ وغيرها .

ومن الآثار المعمارية العظيمة التى تنسب للسلاطين العثمانيين مسجد أبى أيوب الأنصارى الذى سبق الحديث عنه . وقد شُيِّدَ فى عهد محمد الفاتح ، وكان هذا المسجد موضع اجلال سلاطين العثمانيين ، فكان الخلفاء الجدد يذهبون اليه حيث يتقلدون سيف عثمان اشعارا ببداة خلافتهم ، وبالقرب من هذا المسجد كان مدفن السلاطين وكبار رجال الدولة .

ومن أهم آثار العثمانيين مسجد بايزيد الذى يمتاز بفخامة مواده البنائية وبزخرفته على الطريقة الفارسية ، ومسجد سليمان القانونى الذى تضاءلت أمامه جميع مساجد العاصمة لضخامته وجلاله ، وألوان الابتكار فى تصميمه ، والارتفاع فى مآذنه ، والسخاء فى الانفاق عليه .

وكان كثير من الوزراء وولاة الأقاليم يبنون الربط والمساجد والمدارس ، وكان يدفعهم لذلك تهريب الأموال . أو محاولة التخلص منها بطريق يخدع ولاة الأمور ، اذ كانت الرشوة منتشرة وكان هؤلاء ينالون منها نصيبا كبيرا ، فاذا أحس الواحد منهم بأن مصادرة مالية ستقرر عليه بادراً بأن يعلن أنه سيقوم ببعض الأعمال الخيرية ، ويبدأ فعلا فى تشييد المدارس والربط والمساجد وما ماثلا .

إهمال المؤسسات الزراعية والصناعية :

ويلاحظ فى الآثار المعمارية أنها ذات صلة بالدين بين مساجد ومدارس دينية وربط وزوايا فى أكثر الأحوال ، وليس فى الآثار المعمارية التركية شق طرق أو إقامة سدود ، فان الأتراك لم يبذلوا عناية تذكر بالزراعة والصناعة وغيرها مما يرفع شأن الرعية ويكسب لها الرفاهية .

المؤسسات الدينية للتمويه :

كانت بعض المؤسسات الدينية تعبيرا عن روح الاسلام وخدمة المسلمين ، ولكن في كثير من الحالات شيدت هذه المؤسسات للتمويه والتضليل ، فكثير من السلاطين الذين عرفوا بالمجون وادمان الخمر أنشئوا مساجد شامخة بلغت غاية الروعة في الجمال ، وكانوا يقصدون بذلك تضليل الناس ، وصرفهم عن الحديث عن المجون والخلاعة التي كانوا يعيشون فيها ، ومن هؤلاء الذين فعلوا ذلك : السلطان سليم الثاني ، والسلطان أحمد الثالث .

سيدات البلاط وأنشاء المساجد :

وقد اشتركت كثيرات من سيدات البلاط في انشاء المساجد الضخمة في أمكة متحدة ، وكان ذلك مظهرا عن مظاهر التقوى ، كما كان يصرف النقد عن تدخل النساء في الحياة السياسية .

تعالى الترك على طوك أوروبا :

قبل أن نتحدث عن ضعف الامبراطورية العثمانية وانحلالها ينبغي أن نورد لمحة عن عظمة السلاطين إبان قوتهم ، تقول المصادر أن سلاطين العثمانيين كان من شأنهم الاستعلاء على الملوك المعاصرين لهم بالدول الأوربية ، بل كانوا يعدون هذه الدول كأنها امارات تابعة لهم ، ويتضع ذلك لمن ينظر في اتفاقية الهدنة التي وقعت بين العثمانيين والنمسا ، فقد وردت العبارة التالية في مقدمة الاتفاقية :

منحت هذه الاتفاقية عن تفضل من السلطان
أبدى الانتصار الى ملك النمسا المخطوب دوما

وقد ظل سلاطين العثمانيين أمدا طويلا يرفضون تعيين سفراء لهم لدى الدول الأوروبية ، اعتقادا منهم أنهم في غنى عن سائر العالم ، أما الدول الأخرى فكان لها تعيين سفراء في اسطنبول باعتبارها عاصمة العالم ، •

وكانت مقابلة السفراء للسلطان تتم وسط مراسم وتقاليد هزلية لهؤلاء السفراء . . . • (١) •

وعندما انتصرت أوروبا المسيحية أنزلوا القصاص الظالم بالامبراطورية العثمانية ، وبالدول العربية جميعا

(١) انظر الدولة العثمانية للدكتور عبد العزيز الشناوى ص ٣٢١

الخلافة العثمانية في الميزان

لماذا لم ينتفع العثمانيون بالفكر الاسلامي أو بالفكر الغربي ؟

لقد اتضح لنا مما سبق أن العثمانيين لم تكن لهم ثقافة الا في الشؤون العسكرية ، ثم انهم عاشوا عصرهم في نضال عسكري ضد أربابا وضد روسيا وضد الصفويين بايران ، ومن هنا لم يجدوا الوقت الكافي ليجلسوا مجلس المريد أمام الفكر الاسلامي الذي كان العرب يحملون لواءه ، ولا أمام الفكر الحديث الذي كان الأوروبيون يقودون آنذاك نهضته ، وظلوا يعيشون في صراعهم العسكري دون الاهتمام بالاتجاهات الفكرية .

وتعرفوا أحيانا على بعض الأفكار الصالحة أو التقوا ببعض المصلحين ، ولكن طبيعتهم العسكرية لم تكن خصبة تحسن استقبال بذور الإصلاح وتتميتها ، فكانت هذه البذور تذوى في رحابهم وتضمحل .

وبسبب ذلك وقعوا في كثير من الأخطاء في مجالات متعددة كما أشرنا من قبل .

ولكن ، ألم تكن لهم حسنات تذكر فتشكر ، وتوضح في الكفة الأخرى من الميزان ؟

في الحق ان الخلافة العثمانية كانت ولا تزال هدفا للهجوم وللحرب ، وان قارئ تاريخهم يواجه سلسلة من الأخطاء تنسب لهم ، ولا يكاد يقابل حسنات ذات بال . هل ما نقرأه يمثل الحق ويعطى صورة صادقة للذي حدث أو أن أقلام المؤرخين انحازت ضدهم ، فأهملت جانب الخير وأبرزت جانب الشر وضخمته ؟

في الاجابة عن هذا السؤال نقرر أنه لا يمكن أن تخلو دولة كالامبراطورية العثمانية من الحسنات ، وما كان من الممكن أن تعبر هذا

الزمن الطويل وهي تعيش في سلسلة من الظلام والتخلف ، ولا بد أن لها بعض الحسنات ولكنها ضاعت في ضجيج الأخطاء من جانب ، وبسبب تحيز المؤرخين من جانب آخر •

ولهذا فمن الأفضل هنا أن نعرض لموضوع مهم سيساعدنا في التعرف على أهم الأبواب التي زرعت الضباب حول تاريخ العثمانيين ، وهذا الموضوع هو :

تدوين تاريخ العثمانيين :

يعتبر تاريخ الخلافة العثمانية من التاريخ الغامض الذي تحيط به الشبهات ، وذلك راجع الى الإنحراف في تدوينه ، فمن الذي دوّن تاريخ العثمانيين ؟

ان المحايدون الذين دوّنوا تاريخ العثمانيين قليلون ، وقد اعتمدنا عليهم في هذه الدراسة ، ومع رغبتهم في الحيادة فان عناصر غير منصفة دخلت دراساتهم من المصادر البعيدة عن الحيادة •

ان الغربيين كانوا أكثر اهتماما بتدوين تاريخ العثمانيين ، وهؤلاء كانوا يبعدون عن المساف ، وشديدى العداء للدولة العثمانية ، وبالتالي ظهر في كتاباتهم اتجاه التعصب ضد العثمانيين الذين كانوا خلال فترة طويلة ممثلين للإسلام وعاملين على نشره بأوربا ، وذلك شيء يضايق الغربيين الذين لم يستطع التقدم العلمى أن يقتلع جذور الصليبيين القديمة من رعوسهم (١) •

ودوّن التاريخ العثمانى بواسطة العرب ، ولكن العرب حينما دوّنوا التاريخ العثمانى كانوا يعيشون فترة صراع مع العثمانيين بسبب

(١) شكيب أرسلان : حاضر العالم الاسلامى د ٢ ص ٢١٧

العناء الذى لاقوه من هزائم العثمانيين ومن بعض ولايتهم ، ثم ان العرب كانوا آنذاك قد ساد في حياتهم الثقافية أثر الفكر الغربى الذى كان يُمقت العثمانيين ، وقد جاء الفكر الغربى الى مصر عن طريق الاحتلال الانجليزى ، ووفد الفكر الغربى الى سوريا ولبنان مع النفوذ الفرنسى الذى بكر في غزو الشام ، ثم أن العرب تأثروا بالصحافة العربية المبكرة ، تلك التى كان محرروها من المارونيين غانبا ، وكان هؤلاء مسيحيين تربوا في معاهد الارساليات التى كانت مركزا لعداء الاسلام والمسلمين .

ودون تاريخ العثمانيين كذلك بواسطة الأتراك بعد سقوط الخلافة ، ومن الواضح أن مدونى التاريخ من الأتراك آنذاك كانوا واقعين تحت نفوذ النظام الجديد المعادى للخلافة وللإسلام .

من أجل هذا ولسواء يعتبر تاريخ الخلافة العثمانية غير دقيق ، وقد حاول الدكتور عبد العزيز الشناوى أن ينصف هذا التاريخ ، وبدأ كتابه بروح فيها وُد ، وسمى كتابه :

الدولة العثمانية : دولة اسلامية مفترى عليها

وهو كتاب جاء في ثلاثة أجزاء ، ولكنك تقرؤه فتجد أن المؤلف يقدم القضايا التى تدّين العثمانيين أكثر مما تنصفهم ، ويمكن أن يُلْتَمَس له العذر للأسباب التى أوردناها .

وعلى كل حال هناك حسنات ومساوىء لا يمكن تجاهلها ، وفيما يلى أهم ما يمكن تدوينه منها :

حسنات العثمانيين :

إن الدارس لحياة العثمانيين يستطيع أن يسجل لهم مجموعة كبيرة من الحسنات ، ويمكن إيجازها فيما يلى :

أولا - توسعات عسكرية فتحت مجالا للإسلام :

يوضع في القمة في هذا المجال إسقاط القسطنطينية العاصمة البيزنطية التي قاومت المسلمين عدة قرون واستعصت عليهم ، وكان سقوط هذه العاصمة في نفس القرن الذي سقطت فيه أسبانيا في أيدي الفرنجة فاندمل بذلك جرح المسلمين بعض الشيء ، وعند ما حدث الانكماش الإسلامي في غرب أوروبا كان هناك زحف إسلامي يخطو من جهة الشرق .

ومن الواضح أن العثمانيين لو اتجهوا بفتوحاتهم الى مناطق آسيا لكان الطريق أكثر يسرا ، فان هناك مناطق في الهند وفي جنوب شرقي آسيا كانت ترحب بالعثمانيين وتهدد بهم الأعداء ، ولكن زحف العثمانيين على أوروبا حقق ثارا للضم الذي أنزلته أوروبا بالمسلمين في الأندلس منذ وطئت أقدام المسلمين هذه البلاد ، وسواء قصدت الخلافة العثمانية ذلك أو لم تقصده ، فان ذلك كان أمرا واقعا لا يمكن تجاهله .

ومن أبرز ما ينسب للعثمانيين كذلك أنهم استطاعوا الاستيلاء على عدد من جزر البحر المتوسط ، فدخلوا رودس سنة ١٥٢٢ وقبرص سنة ١٥٧١ ، وكريت سنة ١٦٦٩ ، وجذبوا لهذه الجزر دين الاسلام عن طريق الهجرات التركية اليها وبخاصة الى قبرص وعن طريق دعوة غير المسلمين الى الاسلام .

وحرص العثمانيون على أن يجعلوا البحر الأحمر منطقة اسلامية ومن هنا مدوا نفوذهم في عهد سليمان القانوني الى مصوِّع وسواكن سنة ١٥٥٧ .

وكان امتداد الاسلام بأوروبا وسعا في عهد العثمانيين فقد وصلوا الى فيينا عاصمة النمسا ، وقد حرص العثمانيون على نشر الاسلام بالبقاع التي دخلوها بأوروبا ، اذ كانت حملاتهم العسكرية يصحبها الوعاظ والمعلمون الذين يقومون بنشر الاسلام في الامتدادات التي وصلت لها

الدولة ، كما أن السلاطين والأمراء والأثرياء العثمانيين اهتموا اهتماما كبيرا بإقامة المساجد والمعاهد والخوانق لتعليم الاسلام والدعوة له مما جعل عددا كبيرا من الأوربيين يعرفون الاسلام ويرتبطون به حتى الآن .

ثانيا : الدفاع عن الأرض الاسلامية ضد الزحف الأوربي :

وبذل العثمانيون جهودا مشكورة في مجال الدفاع عن الأرض الاسلامية التي تعرضت لمحاولات غربية للسيطرة عليها ولعل من أقدم المحاولات التي قام بها الغرب للتضييق على العالم الاسلامي هذا الكشف الذي قامت به البرتغال حين دارت حول افريقية واكتشفت طريق رأس الرجاء الصالح وحاولت أن تسيطر على الامارات العربية الساحلية وعمان وقد حققت البرتغال بعض النجاح ، ولكن جهود السكان العرب بهذه المناطق وجهود العثمانيين ، قضت على المحاولات البرتغالية التي كانت سياسية ودينية في نفس الوقت .

ومن أهم ما قدمته الدولة العثمانية لخدمة الاسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي الذي اتجه بخطته للمساس بالاماكن المقدسة بالحجاز في أوائل القرن السادس عشر حيث كان الزحف البرتغالي يجعل من خطته اجتياح الحجاز عن طريق السيطرة على البحر الأحمر ، ولكن الأسطول العثماني وقف لهم بالمرصاد وأرغمهم على التراجع عن هذا العدوان .

ومن المعروف في التاريخ أن الشهاب الافريقي تعرض لزحف من الفرنجة عقب انتصار هؤلاء على المسلمين بالأندلس واتجه الصليبيون الغربيون الى احتلال أجزاء واسعة من الشمال الافريقي وبخاصة الجزائر وطرابلس ، وقد لجأ سكان الشمال الافريقي للدولة العثمانية يطلبون عونها ضد المعتدين فاستجابت الدولة العثمانية لهذا الطلب ، وكان في

ذلك حماية للشمال الافريقى ، أوضحتها بشئ من التفصيل بالجزء الرابع من هذه الموسوعة .

ومن الواضح للمؤرخين أن الصليبيين عندما طردوا من الشام لم يستسلموا استسلاما تاما أمام المسلمين وأخذوا يعدّون العدة لزحف جديد وأرادوا في هذه المرة أن يكون زحفهم أوسع ، وغير متجه الى الشام فقط ، ولكن وجود الدولة العثمانية قاوم هذا الاتجاه ، مما يمكن معه أن نقرر أن الوحدة الاسلامية في ظل الامبراطورية العثمانية قد أخترت الزحف الاستعماري الى الدول العربية ، وقاومته بشدة ، ولم تتجح الدول الاستعمارية في تحقيق غاياتها الا بعد أن ضعفت الامبراطورية العثمانية .

ثالثا : الامبراطورية العثمانية تواجه الصهيونية :

اتجه الصهاينة منذ عهد بعيد للسيطرة على فلسطين وبخاصة المناطق المقدسة بها ، وكانوا يزعمون في هذا النطاق أنهم يستطيعون أرضهم التي عاش فيها أجدادهم الأبعدون فترة من الزمن ، وكان مولد الحركة الصهيونية الجديدة معاصرا للنشاط العثماني في الأرض العربية ، واكثر الصهاينة لم يحققوا أى مآرب لهم في ظل العثمانيين .

وقد تجددت محاولة الصهاينة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ — ١٩٠٩) ولكنه رفض بقوة السماح باقامة وطن يهودى للصهاينة بفلسطين ، ويروى أنه بعد عقد مؤتمر بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ الذى قرر اقامة وطن لليهود بفلسطين ذهب أحد قادة التنظيم الصهيونى واسمه « قره صو » الى الخليفة عبد الحميد وذكر له أن الحركة الصهيونية مستعدة أن تقدم قرضا للدولة قدره خمسون مليوناً من الجنيهات وأن تقدم هدية لخزانة

السلطان الخاصة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات نظير منح اليهود الحق في اقامة وطن قومي لهم بفلسطين ، وكان رد السلطان أن صرخ في حاشيته قائلا « مَنْ أدخل على هذا الخنزير ؟ » وطرده من البلاد وأصدر أمرا بمنع هجرة اليهود الى فلسطين ، ويقال ان هذا الصهيوني كان ضمن الذين أعلنوا اقضاء الخليفة من السلطة سنة ١٩٠٩ مما يزرع الثقة في الاتحاديين ، وبخاصة أن حكمهم سرعان ما انقلب الى عنف وطمحان .

رابعا : الدولة العثمانية وحماية سيناء من اليهود :

اتجه اليهود الى سيناء لتكون مهجرا لهم ، وبخاصة أن منطقة الطور هي المنطقة التي تلقى فيها موسى رسالة ربه ، وقد اتجه اليهود الى الهجرة نحو هذه المنطقة ، واتخاذها مكانا لهجرة يهودية واسعة الى سيناء ، وقد أحس سلاطين العثمانيين منذ فتح مصر بهذه المحاولات اليهودية ، ولذلك أصدر السلطان سليم الأول وابنه السلطان سليمان القانوني فرمانات تمنع اليهود من الهجرة الى سيناء ، ولكن في عهد ضعف الخلفاء العثمانيين بدأ اليهود يهاجرون سرا قراصي وجماعات الى هذه المنطقة ، بيد أن رهبان دير سانت كاترين أحسوا بالخطر يهدد المنطقة ، فشكلوا الى الوالى العثمانى بالقاهرة من أن اليهود سيكونون مصدر خطر على الدير وعلى مصر ، واستجبت الدولة العثمانية لهذا النداء ، وأمرت باخراج اليهود واسرهم من منطقة الطور ، وعدم السماح في المستقبل بهجرة اليهود الى سيناء جميعها .

خامسا : الدولة العثمانية ومحاربة التشيع :

ذكرت في الجزء الثانى من هذه الموسوعة خطر من أسميناهم (مدعى التشيع) هؤلاء الذين لم يتعمق الاسلام في قلوبهم ولم يعرفوا التشيع الصحيح لآل البيت ، وانما ادعوا الاسلام ، وادعوا التشيع ليحدثوا بالعالم الاسلامى صورا من الصراع والتدمير ، وذكرنا أن هؤلاء ينحدرون من الأصول اليهودية التي كانت قد بقيت ببلاد فارس منذ عهد الأسر

البابلي ، كما ينحدرون من حاشية الأباطرة التي روعها انتصار المسلمين
وسلب سلطانها .

وذكرنا كذلك أن مبادئ هؤلاء انسابت بين الشيعة الحقيقيين في
فترات ضعف الشيعة أمام أعدائهم الأمويين حتى أصبح من العسير
التمييز بين المبادئ المنحرفة لدعى التشيع ومبادئ الشيعة الحقيقيين ،
فقد أصبح موضوع الإمامة موضوعا رئيسيا عند أكثر الشيعة أو كلهم ،
ويتبعه الاعتقاد بأن عليا خير البشر ، وأنه قد تم تعيينه إماما بعد
الرسول ، وأن استبعاده عن السلطة كان اغتصابا لها . . .

والمهم أن شيعة الفرس الذين أصبحوا يمثلون التشيع الجديد
حرصوا على نشر مذهبهم في الأماكن المتعددة ، وبخاصة في العراق
وبلاد الخليج لاتصالها بإيران ، بيد أن هذه البلاد كانت تدين بالسلطة
للعثمانيين ، وقد استطاع العثمانيون أن يوقفوا المد الشيعي الفارسي ،
ولولا العثمانيون لكان من الممكن أن تنساب أفكار مدعى التشيع الى عدة
مناطق بالعالم الاسلامي .

وبهذه المناسبة نذكر أن الشيعة الحقيقية تتمثل في حب آل البيت
وتقديرهم ، وفي مظاهر الاجلال الكامل لعلي بن أبي طالب رضى الله
عنه لقربه من الرسول ، ومصاهرته له ، ولعلمه وفضله وخدماته
للإسلام ثم لأولاده كذلك . وذلك شيء يتضح تماما لدى كثيرين من
المسلمين ، ولدى المصريين بوجه خاص .

أما التشيع بمعنى الإمامة اللازمة لعلي وأولاده ، ومعنى الظاهر
والباطن فلا يميل لها أكثر المسلمين .

ذلك حديث موجز عن حسنات العثمانيين ، أما الحديث عن المآخذ
فقد تناولناه عند حديثنا عن أسباب « ضعف الامبراطورية العثمانية »
ولكننا هنا نستطيع أن نضيف بعض المآخذ التي لم يشملها كلامنا فيما سبق :

مآخذ على العثمانيين

هناك مآخذ خطيرة تؤخذ على العثمانيين ، وقد ورد أكثرها في وثيقة مهمة هي « الخط الهمايوني » أي الاعلان السلمي الذي أصدره السلطان عبد الحميد معدداً أمراض الدولة ، وواعداً بإصلاحها .

الحكم المطلق :

ويقف في قمة السيئات نظام الحكم المطلق وقد تحدثنا عنه من قبل ، وكان هذا النظام يضع مقدرات هذه الامبراطورية الفسيحة في يدي شخص واحد هو السلطان ، فيجعله مصدر القوانين ، ويجعل سلطانه بدون حدود ، ويطبيقي أن الاستبداد والحكم الفردي المطلق كانا من الانحطاط وأسباب ضعف الدولة ، وقد عيّرت الامبراطورية أكثر عمرها في ظل هذا النوع من الحكم ، وكانت النتيجة اضطراباً في الداخل وهزائماً في الخارج ، وقد تحدثنا من قبل عن الهزائم التي منى بها العثمانيون في الميدان الخارجي ، ونريد هنا أن نقول كلمة عن صور الاضطراب الداخلي :

تدخل خارجي باسم الأديان :

كانت الدولة خليطاً من أجناس غير متعلونة : وكان هذا يحدث فيها نفوراً واضطراباً دون انقطاع ، وكانت الدولة كذلك خليطاً من الأديان ، فاليهود لا يعرفون الولاء للدولة وهم ينتهزون الفرص للارتواء ولا هم لهم سواء ، والمسيحيون يوثقون صلاتهم بالدول الأوروبية التي تدعى أنها مسئولة عن حمايتهم ضد التعصب الديني الذي كانت ترمي به زوراً الدولة العثمانية ، والمسلمون مغلوبون على أمرهم ، ليس لهم نصير في الداخل ولا لهم عون خارجي .

اضطرابات اقتصادية واجتماعية :

ومالية الدولة فاسدة ، فلا ميزانية ، ولا إصلاحات ، والرشوة تملأ كل مكان كأنها قانون لا يعترض عليه ، والحرية مفقودة ، والمصادرات

تهدد كل مالك ، حتى لم يعد أحدٌ يصص بالاطمئنان لغده ، والدولة تستدين من الخارج حتى بلغت ديون الدولة في عهد السلطان عبد العزيز ٥٣٠ مليون ليرة • والفقر الشائع والجوع المنتشر يدفعان الناس للمسرقات وقطع الطرق •

وصحة أبناء الشعب تتدهور ، والجهل يتفشى ، والذخاء يضرئ صاحبه ، والثقافة ينظر اليها على أنها تدفع للتمرد والعصيان ، والجواسيس ينتشرون في كل مكان ، حتى أصبح أهل البيت يخشى بعضهم بعضا ، والشعوذة والدجل تسيطر على أكثر العقول ، وصاحب « الجلالة الشاهانية » وبخاصة في بعض الفترات كما سنرى بعد قليل ، لا يهتم غالبا إلا هواه ، والا الموسيقى والبذخ والنعيم ، وأما العدالة فليست كاملة ، فالمحاكم كثيرا ما تحكم في القضايا المهمة كما تريد شهوة الحكام لا كما يشاء القانون •

صور من طغيان السلاطين :

وتوالى السلاطين المنصرفون على الحكم ، واشتدت أزمات الدولة في الداخل والخارج ، ولكن هؤلاء ظلوا في طريقهم ، وظلوا يهيمنون بالمتسع ينعمون بها على حساب الشعب المحتاج ، وشهد القرن التاسع عشر مجموعة من أشد الخلفاء استبدادا وأعنفهم بطشا ، بدأت بمصطفى الرابع (١٨٠٧) فمحمود الثاني (١٨٠٨) فعبد المجيد الأول (١٨٣٩) فعبد العزيز (١٨٦١) فمراد الخامس (١٨٧٦) فعبد الحميد الثامن وليس في هؤلاء واحد يفضل الآخرين ، وكان كل منهم عندما يتولى يعدُ بإصلاح الحال ، ولكن سرعان ما تصبح كلمة الإصلاح أبغض الكلمات اليه وأكثرها لإثارته ، بل صارت كلمة إصلاح أو مصلح في كثير من الأحيان تهمة ينكرها أكثر الناس خوفا من عواقبها ، كتهمة الشيوعية والإلحاد في بعض الدول في العهد الحاضر • وبلغ عبد العزيز في التمسك مداه ، فاحتال عليه هواة التجديد ودبروا مؤامرة عزله

بها ثم قتلوه ، وتولى بعده مراد ولكن سرعان ما ظهر اختلاط عقله فعزل ، وجاء بعده عبد الحميد الثانى الذى سنتكلم عنه فيما بعد .

وهناك مأخذ اقتصادى يمكن أن نستجملها الباحت على الدولة العثمانية ولكننا نبادر فنقرر أن أكثر هذه المآخذ راجع الى الصراع الطويل القاسى الذى دار بين العثمانيين ، وبين الصليبيين الغربيين ، فقد استنفد هذا الصراع المال والسلاح والجهد ، ، ولم يكن للدولة خيار فيه فالعدوان صليبي يعتبر امتدادا للحروب الصليبية بالشرق .

صراع مدمر مع الصفويين :

ثم كان هناك صراع آخر بين العثمانيين والصفويين وكم أريق فيه من دماء ، وضاعت فيه من أموال .

حالة العرب :

وكان طبيعيا أن تؤثر هذه الحروب وتلك على الجانب الاقتصادى للدولة ، وبالتالي على مستوى معيشة الفرد فى الامبراطورية العثمانية بوجه عام والشعوب العربية بوجه خاص ، فمن الثابت تاريخيا أن العالم العربى عانى اقتصاديا خلال تبعيته للعثمانيين فقد كانت العاصمة العثمانية تتطلب من الضرائب أكثر مما يطيقه الشعب ، ولم تكن تقدم خدمات ذات بال فى المرافق نظير هذه الضرائب ، ومن هنا فإن مستوى معيشة الفرد فى العالم العربى أصبح هابطا للغاية ، بل إن كثيرين من القادرين اضطروا أن يخفوا أموالهم حتى لا تتعرض للمصادرة أو السلب وتظاهر هؤلاء بالفاقة مما جعل الفقر يسيطر على القادر والمسكين على حد سواء .

مذابح باسم الدين :

وقد حدثت فى الدولة مذابح بين المسلمين والمسيحيين ، وكان المسيحيون يبدؤون بهذا العمل الوحشى ، ولكن الانتقام يجيء عقب

ذلك ، ويكون من باب معالجة الخطأ بخطأ مثله مما زاد الدولة اضطرابا وصراعاً .

ويأخذون عن الدولة العثمانية أنها منذ عهد المبر في مصر صدرت أوامرها بترحيل أعداد كبيرة من علماء الفكر الاسلامي ورجال الإفتاء ، والفوايح في الحرف ، ورجال الأعمال ، وقد بلغ عددهم زهاء ألف وثمانمائة رجل ، أنزلتهم السلطات العثمانية تبعاً في سفن نيلية شقت طريقها الى الاسكندرية ومنها استقلوا السفن العثمانية الى استانبول (١) .

ويعلق ابن إياس (٢) على هذا التصرف بقوله : تعطل في مصر نحو خمسين صنعة .

ويمكن أن نقول : إن هذا العدد لا يمكن أن يكون شديد التأثير على الحياة الفكرية والصناعية بمصر ، هذا بالإضافة الى أن السلطان سليمان القانوني عندما جاء الى الحكم سنة ١٥٢٠ بعد ثلاث سنوات من فتح مصر ، أصدر فرماناً بعودة المصريين الى مصر (٣) .

ويذكر الدكتور عبد العزيز الشناوي أن كثيرين منهم رفضوا العودة وآثروا البقاء في استانبول (٤) .

وهكذا عندما نضع في الميزان حياة الامبراطورية العثمانية نجد الميزان متأرجحاً ، وبخاصة إذا لاحظنا المساوىء التي سفردها فيما يلي عند حديثنا عن أسباب ضعف الامبراطورية .

(١) دكتور عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ص ٦٩٠ .

(٢) تاريخ مصر د ٥ ص ٢٧ حوادث شعبان سنة ٩٢٣ .

(٣) ابن إياس : تاريخ مصر د ٥ ص ٣٩٤ .

(٤) المرجع السابق .

ضعف الامبراطورية العثمانية

تفاوت الامبراطورية العثمانية كما أشرنا من قبل وكما سنرى فيما بعد ، حتى انتهى أمرها الى دولة صغيرة في الأناضول مع شريط ضيق في الجانب الأوربي لبحر مرمرة ، ما العوامل التي هدمت هذا الوحش الكاسر وحطمت أنيابه ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستحمل المزيد من مساوىء الحياة العثمانية ، وهالك هذه الإجابة :

اتساع الرقعة مع سوء الإدارة :

يقول الدكتور أحمد السعيد سليمان (١) إن إدارة بلد واسع الى هذا الحد أمر صعب جدا ، وبالإضافة الى ذلك فقد كان فقدان العدالة وفساد الادارة والرشوة والسرقات كان كل ذلك من العوامل الداخلية التي ساعدت على التدهور ، ولقد كان من الممكن أن يتأخر الانهيار لو قنع العثمانيون بمساحة صغيرة من الأرض دون هوس الفتوح الذى وسع مملكتهم وأدخلهم حروباً كثيرة دمرتهم ، وجعل امبراطوريتهم محاطة بالأعداء من كل جانب .

ضعف السلاطين المتأخرين :

ابتداء من حكم سليم الثالث سنة ١٧٨٩ بدأ ضعف السلاطين يتضح ، فلم يعودوا يقودون الجيوش ، أو يرأسون جلسات الديوان السلطاني ، وتركوا تلك المهام للصدر العظام ، وانجذب السلاطين لأجنحة الحريم مما جعل بعض الحريم يطمعن في السلطة واصدار الأوامر ، وهان الخلفاء بذلك فصدرت قرارات عزل بعضهم ، بل قتل بعضهم على يد الانقلابية وغيرهم .

(١) تاريخ الدول الاسلامية ج ٢ ص ٤٤٤ .

تخلف بالنسبة للأوربيين :

كانت الامبراطورية على صلة بأوروبا منذ تعمقت في القارة ، ولكنها عجزت عن تطوير حياتها عسكريا وسياسيا واقتصاديا بالنسبة للدول الأوربية المحيطة بها ، وهذا أبرز عجزها وضعفها .

تعدد الاجناس والاديان :

ويقول الدكتور فيليب حتى (١) : « إن دولة يوضع نظامها لغرض حربى دون الالتفات الى مصلحة الشعب ، وتتسع رقعتها فتمتد الى حدود بعيدة وتشمل مساحات غير متشابهة دون أن ترتبط بوسائل منظمة للنقل ، فيها خليط من السكان غير متجانسين ، بل مختلفون شيعاً وأحزاباً دينية وطائفية وعنصرية ... إن دولة مثل هذه لتحمل في طيات كيانها بذور الانحلال والفساد » .

مساوى القسطنطينية تنعكس على الدولة :

ويقول Sir Mark Sykes (٢) : كان فتح القسطنطينية تاجاً يزين مفزق الترك ولكنه كان لهم — الى جانب ذلك — ضربة قاصمة ، فلقد ورث الترك فيها «أسد بيزنطة» ، ومساوى أبنائها ، من الخصبان وحراس القصر ، والجواسيس ، والمرتشين ، والوسطاء ، إذ ظل هؤلاء جميعاً كما كانوا ، لقد حسب العثمانيون أنهم وجدوا كنزاً ، ولكنهم في الحقيقة تردوا في وباء .

الزواج من الأوربيات :

وتزوج السلاطين من بنات أمراء الغرب المغلوبين ، ففتح هذا الزواج الطريق الى خلق عيون للغرب في بلاط الخلفاء المسلمين ، وطالما

(١) تاريخ العرب ج ٢ ص ٨٤٤ .

(٢) The Turkish Empire p. 185.

أفشت هؤلاء الزوجات من أسرار السلاطين ما تسبب لهم الهزائم في حروبهم وسبب كشف خططهم ، كما أدعى نظام الحريم الى صور دنيئة من الفتن والاعتيالات والمؤامرات ، فهد ذلك من كيان الدولة وأضعف الناحية الروحية بها .

انحسار التنكارية :

وانحسر التنكارية كما رأينا من قبل الى المساوىء والمفاسد ، فكانوا معولا يقوض بناء الدولة بعد أن كانوا دعائم لقوتها وانتمياتها .

نبوغ الرشوة :

وأسرف الولاة وكبار الموظفين الترك في سوء السيرة ، وكانت الرشوة تمارس كشيء مشروع لا غبار عليه ، ومن أعجب صور الرشوة ما تقاضاه الصدر الأعظم من الروس أعداء الدولة ليهيئ لبطرس الأكبر وجيشه أن يفلتوا من أسر كاد يكون أمرا لا مفر منه في المعارك التي جرت بين الروس والعثمانيين سنة ١٧١١ على نهر البروت (١) . ويحكى الأستاذ محمد فريد وجدى خبر هذه الحادثة فيقول : « إن الصدر بالطة جى محمد باشا تقدم على رأس جيش كثيف ليرد زحفا قام به الروس بقيادة بطرس الأكبر متتبعين شارل ملك السويد الذى كان قد هزم في معارك ضد الروس ولجأ الى البلاد العثمانية ، ونجح الصدر في تقدمه فعبّر نهر الدانوب وأحاط ببطرس الأكبر وجيشه ، ونقذت المون من الروس كما نفذت الذخائر ، وأوشك الجيش والامبراطور أن يقعوا أسرى في أيدي الترك ، ولكن كاترين امرأة بطرس جمعت جميع حليها وحلى من معها من الأميرات

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٣ ص ١٥٥ .

ونهر بروت يصب في الدانوب ويفصل بين الاتحاد السوفيتى ورومانيا .

وأرسلتها هدية الى الباشا فقبلها وأبرم صلحا مع بطرس الأكبر أنجاه وأنجى جيشه من الأسر (١) .

انهلال القصور :

وانتشرت المفاصد في القصور وأصبح بعض الخلفاء يحيون حياة غريبة عن روح الاسلام وعن العقل السليم ، ويقول الأستاذ محمد كرد علي (٢) . إن مراد الثالث كان مظهرا من مظاهر الافراط في كل شيء ولا سيما في الاسترسال في مساوئه ، وقد سهلت له أمه وزوجته الطريق للحصول على شهواته ، وخلف ١١٨ ولدا . وكان ابراهيم الأول متهتكا سبي السيرة ، قيل إنه قتل ١٠٠٠٠ إنسان ، منهم ٢٥٠٠٠ أمام عينيهِ ، وكان يبتلى كل أسبوع ببيكر وتقام له الأفراح ، وكان بايزيد الثاني على جانب من السفاهة ، فانتشرت المفاصد والمنفقات في أيامه في كل مكان بين الخاص والعام ، ونسى الناس الشرع وعيثوا بأحكام الدين ، وكانت تحمّل اليه أطيب المسكرات وألطف المغنين والمغنيات والموسيقيين والموسقيات ، ولا شأن للكبراء الا أن يأتوه بما ترغّب فيه نفسه من الجوارى والغلمان .

أتحروب ومواجهة أقوى دول العصر :

ومن عوامل الضعف أيضا تلك الحروب التي طال أمدها في ميادين مختلفة وما تأكله من أرواح وما تطلبه من أسلحة وأموال ، وبخاصة مع امتداد خطوط القتال والابتعاد عن مراكز الامداد ، والتوغل في جهات مختلفة من العالم ، فحروب في المجر ، وحصار لاذنية فيينا ، ومعارك في الجزائر ، وحملات الى اليمن ، وصراع في فارس ، ولا شك أن هذه الحروب تنهك الجند وتستنزف الأموال (٣) .

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ص ٦٠١ .

(٢) الاسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١ .

(٣) انظر تركيا والسياسة العربية ص ٤٢ .

على أن من أهم عوامل ضعف الدولة اصطدامها بدول ثلاثة كبيرة في الشرق والغرب هي الروس والألمان والصفويون ، ويوضح Kirk أثر الحروب التركية الفارسية في إضعاف الأتراك فيقول (١) :

قد كانت دولة الأتراك العثمانيين ، كسابقتها الدولة البيزنطية مضطرة الى توزيع عناصر قوتها الفعالة ما بين الشرق الأوسط وبلاد البلقان ، التي ربما أربت مصالحهم فيها على مثلها في الشرق الأوسط ، وقد كان المركز الرئيسي لكل من الدولتين الشطر الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، ولكنهما جميعا طرحا بمواردهما في حروب مستمرة ضد خصم قوى هو دولة فارس التي تباعدتها عن حظيرتهما اختلافات دينية (أو مذهبية) شديدة ، كما أن الحروب البيزنطية الفارسية كانت غير حاسمة وأضعفت من شوكة الدولتين المتحاربتين وعرضتهما لغزو العرب وفتحهم لبلادهما ، كذلك كانت الحروب العثمانية - الفارسية التي دامت من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر غير حاسمة أيضا . وأضعفت الدولتين معا ، وعرضتهما لسطوة التجارة الأوروبية التي أفضت في القرن التاسع عشر الى تدخل الدول الأوروبية في شئونهما رغم أنفهما ، وفي عهد العثمانيين ، كما في عهد الدولة البيزنطية ، كان امتلاك العراق ماثرا للمقاومة من هذا الجانب أو ذاك .

القروض :

لجأت الامبراطورية العثمانية للقروض ، وللاسف كانت تقترض من أعدائها الأوروبيين ، فأتاح هذا الوضع الفرصة لهذه الدول وبخاصة انجلترا وفرنسا للتدخل في الشؤون الاقتصادية للدولة ، واضطرت الدولة لانشاء البنك العثماني برياسة فرنسي . وكان له نائب انجليزي ، وكان ذلك سنة ١٨٣٦ م وبعد ذلك بحوالي عشر سنوات أعلنت الحكومة عجزها عن سداد فوائد الديون فأساء ذلك لحقها اساءة كبيرة .

إغفال مصالح الشعب :

ومن أسباب الاحتلال والضعف في جسم الدولة العثمانية ما يقرره كل الباحثين من إغفال الحكومة للخطط الانشائية ، وإغفالها التام لمصالح الشعب . ويقرر Kirk أن تشكيل الدولة في جوهره كان حربيا يرمي في صراحة الى المحافظة على قوة العاهلية ورعاية مصالحها الممثلة في شخص التجالس على عرشها ، دون اعتبار يذكر لمصلحة رعاياها ، فالحكم العثماني لم يسفر عن انشاء شيء يذكر من الطرق أو المستشفيات أو المدارس ، وقد كان أحد السياح يمر بمدينتي حلب ودمشق عام ١٨٣٨ أى بعد طول عهدا بالحكم العثماني فلم يجد فيهما متجرا واحدا للكتيب ، كذلك لم يتبدد الإهتمام اهتماما يذكر بتحصين حال الزراعة والري أو صيانة مرافقهما .. وقد هجر الفلاحون الكثير من القرى ، وانكشفت رقعة المدن حتى انتقلت الاسكندرية من مدينة زاهرة عامرة بالسكان الى بلدة لا يكاد يبلغ سكانها ١٠٠٠٠٠ من الأتقى .

وكان الفلاح لا يفلح من أرضه سوى ما يكفي لإنتاج محصول يستطيع جنيه على عجل وإخفائه عن أعين جامع الضرائب ، وفي سوريا هجر الزراع حقولهم ، وهرع بعضهم الى المدن يلتمسون فيها العيش ، ولجأ آخرون الى أودية الجبال الوعرة الوصول ، وفي مصر أهمل الري حتى تدهورت حالة الزراعة واختل نظام نوبات المياه ، فكانت القرى يقتتل بعضها مع بعض على مورد الماء ، ولما اشتد الحرمان بالفلاحين ، وضاقوا بما يلاقونه من الملاك ، هجر الكثير منهم الأرض وتحولوا الى طوائف من اللصوص ، وقطاع الطرق ، ومرتكبي الاجرام في الخلاء المحيط بالقرى (١) .

ونتيجة لكل ذلك كثرت المجاعات والأوبئة ، وكانت أحيانا تشد حتى

تقضى على مئات الآلاف من البشر وتدع بعض القرى خالية تماما ، وفي
أواسط القرن السابع عشر كانت شركات الأراضي الواقعة بين حلب وأقرب
أطراف الفرات إليها ، خصبة وفيرة الحاصلات فاستحالت الى صحراء
مقفرة بعد قرن من الزمان (١) .

القوميات والأحلاف المقدسة :

ومن عوامل الضعف كذلك أن القوميات المختلفة التي كان يضمها
نطاق الدولة أخذت تستيقظ ، فاتجه المسيحيون منهم كالأرمن واليونان
الى الدول الغربية يستعدونها على الدولة ، وانتفض الأكراد في جبالهم ،
والعرب في صحاريهم ووديانهم ، وساعد على ذلك فقدان الكفاءة وانتشار
روح التمرد بين الجنود ، وتفشى الفساد والرشوة بين الموظفين في مختلف
نواحي الدولة ، وإهمال الدولة للشئون العامة ، من تعليم وأمور الصحة
وأمور المواصلات ، فقد كانت نسبة التعليم أقل من ١٪ ووصلت نسبة
وفيات الأطفال ٨٠٪ وكانت السكك الحديدية بالدولة قليلة ومضطربة (١) .

وهكذا تجمعت كل هذه العوامل وسواها على الامبراطورية فأخذت
في الضعف والانكماش والانهيار ابتداء من القرن السادس عشر ، وقد
اتخذ الصراع الأوربي ضد تركيا شكلا دينيا واضحا ، اذ تكون ضدها
« حلف مقدس » من امبراطور النمسا ومن بولنده والبندقية ، وكان لهذا
الحلف أثر كبير في التغلب على تركيا وضعضة قوتها ، ثم دخلت روسيا
باسم الدين أيضا هذه الحرب تؤيدها جميع الدول المسيحية ، وأنزلت
بالخلافة الاسلامية ضربات قاصمة وخسائر فادحة ، وكانت نتيجة هذه
الأحداث أن هوت تركيا من شاهق ، وهان أمرها حتى أصبحت تعرف
« بالرجل المريض » ، وكان من الممكن القضاء على « الرجل المريض »
بسرعة لولا اختلاف دول أوروبا على تركته ، فمن الذي يرث بولغاري الدردنيل

والبوسفور ؟ إن ورثتهما روسيا امتد نفوذها الى البحر المتوسط وهددت مصالح انجلترا وفرنسا ، وإن ورثتهما انجلترا خنقت روسيا في البحر الأسود ، وحلها لهذه المشكلة اتفقت الدول على ألا تُجهز على « الرجل المريض » وأن تبقى على قيد الحياة لا حرصا عليه ولكن كراهة لما ينجم من خلاف حول ميراثه (١) . وموقف أوربا من الامبراطورية العثمانية سواء إن كان امتدادها وزحفها أو إبان انكماشها وانهزامها يعرف في العرف السياسي بـ (المسألة الشرقية) وسنتحدث عن هذه المسألة الشرقية فيما يلي :

المسألة الشرقية :

هل المسألة الشرقية مسألة سياسية أو مسألة دينية ؟

يدعى أكثر المؤرخين الغربيين أن المسألة الشرقية مسألة سياسية ، ويقولون انها ليست الا تحركات للحدود ضامنا للأمن ، وهذه التحركات تحصل بين المسيحيين بعضهم والبعض الآخر .

والذي نراه أن المسألة الشرقية مسألة دينية ، وأنها تعبير يساوي التعبير الذي استعمله المسيحيون من قبل وهو « الحروب العلية » ، وقد أراد المسيحيون باستعمال التعبير الجديد التلمويه وعدم إثارة المسلمين ، ويقول الأستاذ محمد فريد مؤرخ الدولة العثمانية معلقا على معركة ليبانتو البحرية ما يلي (٢) : واشتراك البابا في هذه المعركة يدل على أن الحرك الأول لهذه التآلجات ضد الدولة الاسلامية هو الدين كما أكدت الحوادث والحروب فيما بعد لا السياسة كما يدعون ، وكان لفوز المسيحيين رنة فرح في قلوب المسيحيين أجمع ، حتى أن البابا خطب في

(١) المجتمع الاسلامي المؤلف ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١١٢ .

كنيسة ماري بطرس برومة وشكر دون جوان قائدها على انتصاره على السفن الاسلامية ، وذلك مما لا يجعل عند المطالع أقل رغبة أو شك في أن المسألة الشرقية مسألة دينية لا سياسية كما ادعاه ويدعي الأوروبيون ويفتروا به السذج غير المطلعين *

وعندى أن مفهوم « المسألة الشرقية » قد تغير لدى الأوروبيين من عصر الى عصر ، ففي القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر كانت الامبراطورية العثمانية قد وصلت الى مدى واسع واحتلت جانبا كبيرا من جنوب أوروبا الشرقى يشمل القسطنطينية وأمالك الدولة البيزنطية وأمالك امبراطورية الصرب وامبراطورية البلغار في البلقان ، كما استولت على ولايتي الأفلاق والبغدان (رومانيا الحالية والقرم) فأصبح البحر الأسود بحيرة تركية ، واستولت كذلك على دولة المجر وهددت مدينة فيينا أكثر من مرة • وقد أزعج هذا الزحف دول أوروبا ، وبدأت هذه الدول تتعاون للموقف في وجه ما أسموه « المسألة الشرقية » ، وهنا كان مدلول هذا التعبير التصدى للأتراك ، والتعاون لإضعاف شوكتهم • والصراع هنا أقرب للاتجاه الصليبي •

ثم بدأ الضعف والهزال يظهران في جسم الدولة للأسباب التي سبق إيرادها ، من اضطرابات في صفوف الجيش التركي ، وإسقاط لارعايا ، وحرب ضد الفرس ، وثورات داخلية قادها في البلاد العربية بعض القادة والمفكرين ، ومن ظهور النمسا وروسيا كدولتين وأخذها في مهاجمة الدولة ، وكذلك ظهور إنجلترا وفرنسا كدولتين تتأثران بما يستول اليه أملاك الأتراك العثمانيين وتتنافسان في هذا المجال ، وهكذا أصبح تطلع دول أوروبا لما يستول اليه أملاك الامبراطورية العثمانية يعرف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بـ « المسألة الشرقية » ، ويمكن أن يُعَدَّ الصراع هنا صراعا سياسيا •

وإذا كانت « المسألة الشرقية » بمعناها الأول وحدثت أو قاربت بين

وجهات نظر الأوروبيين للوقوف في وجه القوة الشرقية الزاحفة بدينها وعاداتها على أوروبا ، فإن « المسألة الشرقية » بمعناها الثاني أثارت ألوانا من الخلافات والحروب والمؤامرات بين دول أوروبا بعضها وبعض الآخر ، فلكل منها أطماع تتعارض مع أطماع الأخرى ، ولذلك أدت هذه الخلافات — كما ذكرنا من قبل — الى اطالة عمر « الرجل المريض » ريثما يحل الزمن أهم المشكلات المتصلة بترائه .

وفيما يلي أبرز أطماع الدول الأوروبية في ممتلكات الامبراطورية العثمانية :

روسيا : تطلعت روسيا باهتمام الى الوصول للبحر الأسود الذي كان يعتبر بحيرة تركية لأن أملاك الترك تحيط به ، فلما وصلت روسيا الى البحر الأسود تطلعت الى السيطرة على المضائق التي تصله بالبحر الأبيض المتوسط لتكون على صلة بحرية وتجارية بجنوب أوروبا وبلاد الشرق ، كما تطلعت الى أن تصبح وريثة للدولة البيزنطية لتكون لها حماية المسيحيين وبالتالي تستعيد عاصمة الدولة المسيحية الغابرة .

النمسا : كان يهمها تأمين حدودها بإضعاف العثمانيين الذين طالما هددوا هذه الحدود ، ولذلك عملت النمسا على الحصول على أجزاء كثيرة من الأملاك المتصلة بها والتي كانت خاضعة للأتراك العثمانيين كالبوسنة وطريق سالونيك ، وقد تم لها ذلك ، وأخذت تعمل على تحرير المناطق الأخرى المجاورة لها والتابعة للعثمانيين كالجبل والبلقان .

انجلترا : خافت أن تتصل روسيا بالبحر الأبيض المتوسط فيسبب ذلك خطرا على مصالحها السياسية والاقتصادية في الشرق ، وتطلعت انجلترا الى الخليج العربي ، كمنطقة لها نفوذ في الخطوط الملاحية بين انجلترا والهند ، ولما حفرت قناة السويس زاد اهتمام انجلترا بمصر كطريق رئيسي بين أجزاء الامبراطورية البريطانية .

فرنسا : كانت تتطلع الى الشمال الافريقي المواجه لحدودها الجنوبية ، كما كانت تحاول السيادة على مصر والشام لتضرب بذلك انجلترا ، وكانت المنافسة بينها وبين روسيا قوية حول رعاية شؤون المسيحيين بالامبراطورية العثمانية .

وهكذا ضمنت هذه الخلاقات عمرا أطول للامبراطورية العثمانية ، بل كانت تركيا أحيانا تنال مساعدات وتشجيعات من بعض الدول لايقاف نشاط دول أخرى مما حقق لها بعض الانتصارات حتى في فترة الوهن والانحلال ، كما مدء في عمرها أيضا فرصة ظهور أسرة كوبريللي على مسرح السياسة وتوليهم الوزارة (١٦٥٦ - ١٦٩٠ م) ، وكان لكفاءة أفراد هذه الأسرة واخلاصها أثر ظاهر في إعادة القوة التي شتتت العثمانيين حينما من الزمن ، ولكن هذا كله لم يكن دواء ناجحا ، وإنما كان أشبه بخقنة تبغث نشاطا صناعيا وسرعان ما يختفى النشاط مع اختفاء أثر الدواء ، لتعود الدولة الى وهنها وضعفها .

إضعاف العرب ونتائجه على الأتراك :

وللدول العربية دور سلبي هام أثئر في المسألة الشرقية ، فلو أن الدول العربية آتيحت لها الفرصة لتقوم بدورها الايجابي لكان من الممكن أن تتغير نتائج المسألة الشرقية ، وسنشرح هذا الرأي فيما يلي :

أثبت العرب في أزمت كبيرة من أزمت التاريخ أنهم أبطال مغاوير ، وأنهم يصمدون أمام الأحداث ولا يهنون أمام المشكلات ، وحسبك أن تتذكر اكتساح الجيش العربي لدولتي الفرس والروم في مطلع الاسلام ، وأن تتذكر كذلك موقف الجيش العربي المصري من المغول حيث دحرمهم وهزمهم شر هزيمة في عين جالوت سنة ١٢٦٠ م ، وهنح النجاة والسلامة للثقافة العربية والاسلامية بل وللإنسانية من شر هؤلاء البرابرة ، وحسبك أن تتذكر كذلك موقف مصر والشام من الصليبيين حيث ناوروهم ونالوهم

طيلة قرنين من الزمان حتى كتب لهم النصر ، ومن أجل هذا كان المسيحيون يحسبون ألف حساب للبطل العربي قبل أن يقدموا على الهجوم عليه .

وجاءت الدولة العثمانية واستطاعت باسم الاسلام أن تشق طريقها للنصر في الصفوف العربية ، ولا تم لها النصر جردت المارد العربي من أسباب القوة ، فحرمته الأسلحة والتدريب ، كما حرمتها الثقة والتقدير ، بل حرمتها الأمن ولقمة العيش .

ولقد كانت فرصة للمسيحيين أن يخلّو الجيش العثماني من الرجل العربي الذي كان يبعث الرعب في قلوبهم بتاريخه الطويل ونضاله القوي .

ومما زاد الأمر سوءا في هذا المجال أن الدول العربية كانت تقف موقف العداء من تركيا عندما كانت هذه تتناضل في أوروبا ، فقد هبت بمصر والشام والعراق حركات استقلالية وقفت وجها لوجه أمام العثمانيين وحققت أحيانا كثيرا من الانتصارات ، حتى أن دول أوروبا أرجأت أحيانا نضالها ضد الأتراك العثمانيين بل ساعدت الأتراك العثمانيين ليكبحوا انطلاقا المارد المصري والمارد العربي على العموم .

انهيار الإمبراطورية العثمانية

والآن ، بقى علينا أن نصف واقع الأحداث كما جرت لنزى ما آل إليه أمر الامبراطورية ، مع ملاحظة أن انكماش الدولة لم يكن مطردا ، بل أثرت العوامل التي سبق ذكرها على هذا الانكماش ، فاذا الدولة بين مد وجزر تفقد بلدا اليوم وتعود فتسترد غدا ، وقد أورد Harry Hazard (١) صورة سريعة لحركات هذا المد والجزر فتحدثت عن إحدى وسبعين مقاطعة

(١) Atlas of Islamic History p. 38.

من المقاطعات التركية تناولتها هذه التحركات ، ونحن نورد منها بعض النماذج لترينا مدى هذا الاضطراب الذى طال ولم يصل الى نهايته الا خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها :

الصرب وتبعيتها للامبراطورية العثمانية : تبعية وجزية ١٣٨٦ — ١٤٠٢ ، خروج على السلطة ١٤٠٢ — ١٤٣٩ ، تبعية وجزية مرة أخرى ١٤٣٩ — ١٤٤٤ ، ضمها للامبراطورية لتكون ولاية ١٤٥٦ — ١٨٧٨ ، فى فترة ١٨٠٤ — ١٨١٣ ، ١٨١٥ — ١٨١٧ ، شبه مستقلة ذاتيا ١٨١٧ — ١٨٢٩ ، مستقلة ذاتيا ١٨٢٩ — ١٨٧٨ استقلال تام بعد ذلك — بلغراد العاصمة تبعت الامبراطورية فى السنوات التالية : ١٥٢١ — ١٦٨٨ ، ١٦٩٠ — ١٧١٧ ، ١٧٣٩ — ١٧٨٩ ، ١٧٩١ — ١٨٦٧ وانشقت بعد ذلك حتى استقلت سنة ١٨٦٧ .

البوسنة : تبعية ١٣٨٩ — ١٤٠٢ ، ١٤٦٣ — ١٩٠٨ : وتفصيل هذه المدة كالآتى : تابعة ١٣٨٩ — ١٤٠٢ ، فى فترة ١٨٢١ — ١٨٥١ ، ١٨٧٥ — ١٨٧٨ ، فى حكمهم بالاسم ١٨٧٨ — ١٩٠٨ .

البنانيا : ١٤٣٠ — ١٤٤٣ ، ١٤٦٧ — ١٩١٢ — فى حكمهم وان كانت قبضتهم عليها متراخية .

فلسطين : ١٥١٦ — ١٧٩٩ الحملة الفرنسية ١٧٩٩ — ١٨٠١ العثمانيون مرة أخرى ١٨٠١ — ١٨٣٢ ، مصر (محمد على) ١٨٣٢ — ١٨٤٠ — العثمانيون ثالثا ١٨٤٠ — ١٩١٧ — الاحتلال الانجليزى ١٩١٧ .

هذه أمثلة موجزة لتحركات الحدود العثمانية ، وهى تحركات طبيعية اقتضتها العوامل التى سبق شرحها ، ومن هنا لم يكن من الممكن أن نورد حديثا منتظما عن تقلص الدولة وانكماشها ، وكل ما يمكن ايراده هو بعض المواقع الحربية الهامة وبعض المعاهدات التى دفعت حدود الدولة نحو الانقباض والانعسار .

في أوروبا والآناسول

موقعة ليبانتو :

موقعة بحرية هامة تنسب الى خليج ليبانتو اليونانى ، حدثت سنة ١٥٧١ بين الأسطول العثمانى وأسطول مسيحي مؤلف من البحرية الاسبانية وبحرية البنادقة وبحرية البابا وبعض سفن رهبنة مالطة ، وكان يقود أسطول المسيحيين دون جوان الاسباني ، وقد انتصر أسطول المسيحيين على أسطول الأتراك انتصارا حاسما ، فأسر آلافا من رجال البحرية العثمانية ، وضاعت أكثر السفن الحربية العثمانية بين غرق واحتراق ، وكان لهذه الموقعة صدئ كبير في نفوس المسلمين والمسيحيين ، ومن العجيب أن دون جوان لم ينتفع بانتصاره ولم يهاجم أية بلدة عثمانية ، واكتفى باحتلال تونس عند عودته من هذه الموقعة سنة ١٥٧٢ . وقد تم له احتلالها دون مقاومة نظرا لهزيمة أسطول العثمانيين الذي كان يحمي الشاطئ الافريقي ، ولكن هذا الاحتلال لم يدم طويلا ، فقد جددت الدولة اسطولها واسترجعت تونس سنة ١٥٧٥ بمعرفة سنان باشا (١) . وهكذا كانت هذه الموقعة الضخمة قليلة النتائج .

صلح كارلويج :

في أواخر القرن السابع عشر منى العثمانيون بهزائم متتالية أمام القوات الألمانية وقوات البندقية ، وبولندا وروسيا وختمت هذه المعارك بمعركة مهاج الثانية (٢) في المجر سنة ١٦٨٧ حيث كانت هزيمة العثمانيين قاصمة في الميدان وتلاها اضطراب داخلي ، وهزيمة أمام الجيش الروسى

(١) محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية ص ١١١ — ١١٢ .

(٢) مهاج الاولى حدثت سنة ١٥٢٦ وكانت القيادة للسلطان سليمان القانوني ومعه الصدر الاعظم ابراهيم باشا وقد حقق الترك فيها انتصارات كبيرة ، وامتد سلطانهم الى المجر . . وقد سبق الحديث عنها .

أدت الى أن يستولى القيصر بطرس على آزوف ، وكان من نتائج هذا كله أن عقّد صلح يصفه كارل بروكلمان ^(١) بأنه « صلح غير مجيد » بالنسبة للعثمانيين ، هو صلح « كارلويج » سنة ١٦٩٩ ، وفي هذا الصلح تخلى الباب العالي عن ترانسلفانيا (مقاطعة نمسوية) لآل هابسبورج ، وعن الجبل برمتها تقريبا ، وعن القسم الأعظم من سلاوونيا وكرواتيا ، وتنازل للبولنديين عن أوكرانيا وغيرها من المناطق التي فتحوها ، وتنازل للبنادقة عن المورة .

معاهدة قينارجة :

شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر معارك طاحنة بين الروس وبين الأتراك العثمانيين ، وكان النصر للروس في أغلب هذه المعارك ، وقد استطاع الروس سنة ١٧٧٠ أن يجتاحوا البغدان والأفلاق وأن يصلوا الى نهر الدانوب ويأخذوا يمين الولاء للملكة كاترينا (١٧٩٦) أرملة بطرس الثالث ^(٢) التي كانت تعتبر نفسها وريثة القيصر بطرس الأكبر (١٧٢٥) وأداة لتحقيق أحلامه ، وفي نفس العام (١٧٧٠) أضرمت الروس النار في الأسطول العثماني المربط في خليج جشمة مقابل جزيرة ساقر بالأرخبيل اليوناني ، ولما توالى هزائم العثمانيين عقدوا صلحا مع الروس سنة ١٧٧٤ يعرف بمعاهدة قينارجة ، وقد أورد الأستاذ محمد فريد نص المعاهدة ^(٣) ، وأهم ما جاء فيها أن تتنازل تركيا لروسيا عن بعض الموانئ بالبحر الأسود من أهمها آزوف ، فصار لروسيا قواعد حربية على هذا النحو ، ومنح أسطول روسيا حق عبور المضائق التركية الى البحر الأبيض المتوسط ، ومنها الاعتراف باستقلال بتار القرم ، وأن

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٣ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) كانت أحب الى القادة من زوجها بطرس الثالث فتقرر خلعها وجعلها قيصرة روسيا ، ثم مات زوجها عقب ذلك ، واتخذت بطرس الأكبر مثالا لها .

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٦٠ — ١٧١ .

تبني روسيا كنيسة بالأستانة ، ويكون لها حق حماية جميع المسيحيين التابعين للمذهب الأرثوذكسي من رعايا الدولة العلية ، واعفاء الرعايا الروس الذين يذهبون للحج من دفع أية ضرائب ، وتسهيل الحياة لمن يفضل من الرهبان أو الرعايا أن يبقى بالدولة العلية ، وجاء في الملحق السري لهذه المعاهدة أن الأتراك ملزمون بدفع غرامة حربية كبيرة متسطة على ثلاث سنوات ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ •

ومن الملاحظ في هذه المعاهدة أنها لم تكتف باقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية ، بل تعدت ذلك الى اعطاء الروس حق حماية المسيحيين من رعايا الدولة ، وذلك يفتح الباب لتدخل الروس في الشؤون الداخلية للامبراطورية ، وهو انتقاص كبير لسيادتها •

موقعة نوارين ومعاهدة لندن :

وفي القرن التاسع عشر كانت قوة نابليون ترعب أوروبا وترعب العالم كله ، وأصبحت فرنسا بذلك عدوا كبيرا للأتراك العثمانيين ، وقد رسمت فرنسا خططها على اقتحام الدول العربية التي كانت تابعة لتركيا ، وعلى اثاره الاضطرابات فيما تبقى لتركيا في أوروبا من أملاك ، وساعد على ذلك رغبة هذه الدول في التحرر منتهزة فرصة الضغط على تركيا من جهات متعددة ، ولكن الصراع بين الدول الأوروبية بعضها وبعض لمواجهة قوة نابليون أطل حياة تركيا ، ولما انتهى نابليون بدأت الثورة في جزيرة كريت سنة ١٨٢١ ثم عمت شبه جزيرة المورة ، وقد استعان السلطان بواليه على مصر آنذاك محمد على فأرسل هذا ابنه ابراهيم على رأس جيش كبير استطاع به أن يخضع الثوار ، وهنا تدخلت دول أوروبا ، اذ عقد حلف بين روسيا واثجلترا وفرنسا ، وانضمت له بروسيا فيما بعد ، للتدخل بين تركيا واليونان على أساس استقلال اليونان • وكانت هذه الدول تتوعد أن ترفض تركيا ومصر • ولذلك أرسلت أسطولا مشتركا بقيادة كورنجتو الى المياه اليونانية ، وكان من أهداف هذا الأسطول القضاء على القوة

المصرية النامية ، ولذلك تلمس القائد الأسباب للاضطدام بالأسطول
التركي المصري واستطاع أن يضربه ذرية قاصمة في موقعة نوارين سنة
١٨٢٧ وتلا ذلك أن أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وفي ضوء هذه
الأحداث تم في لندن في نوفمبر سنة ١٨٢٨ اتفاق بين محمد علي والدول
المتحالفة على جلاء المصريين عن اليونان ، وفي ٣٠ مايو سنة ١٨٣٠ اضطر
الباب العالي أن يصدّق على « معاهدة لندن » التي قضت باستقلال
اليونان .

معاهدة سان استيفانو ومعاهدة برلين :

وجاءت نهاية الأتراك في أوروبا بمعاهدتي « سان استيفانو »
و « برلين » ففي سنة ١٨٧٧ هبت الحرب بين روسيا وتركيا ، واجتاحت
روسيا الأراضي العثمانية بأوروبا وبالأناضول ، وأدركت تركيا ألا قبيل
لها بمواصلة الحرب فطلبت الصلح ، وعقدت بينها وبين روسيا
معاهدة سان استيفانو في مطلع سنة ١٨٧٨ ، وبمقتضاها خسرت تركيا
الولايات الأوربية جميعها ، وأنشئت دولة بلغاريا تابعة للروس بحيث
تكون منفذا لهم على البحر المتوسط ، كما أذن للروس في الاحتلال فارص
وباطوم في أرمنية ، وفرض على الأتراك غرامة حربية كبيرة
(٢٤٥٢١٧٣٩١) جنيتها تركيا .

ونارت أوروبا لهذه المعاهدة التي أخذت فيها روسيا نصيبا كبيرا من
تركة تركيا ، وكان الانجليز والألمان أكثر أوروبا ثورة على هذه المعاهدة
أما الانجليز فعارضوا وصول الروس الى البحر المتوسط خوفا على
طريق الانجليز الى الهند ، وأما الألمان فاحتجوا باضطراب ميزان القوى
بسبب ما حصل عليه الروس من مناطق في آسيا وفي أوروبا ، ودعا
دزرائيلي رئيس وزراء انجلترا لعقد مؤتمر جديد لإعادة النظر في
معاهدة سان استيفانو ، واقترح بسمارك أن تكون برلين مكان الاجتماع ،
وعلى هذا عقد مؤتمر برلين في يونيو سنة ١٧٧٨ الذي اشتركت فيه

ألمانيا والنمسا والمجر وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسيا وتركيا ، وأرسلت بعض الدول الأخرى مندوبين لها لتقديم طلباتها الى المؤتمر ، ولم يصرح لهذه الدول بحضور الجلسات إلا اذا استدعيت لإيضاح نقطة ما تخص دولهم ، وهذه الدول هي رومانيا ، والصرب ، والجبل الأسود ، واليونان ، رومانيا ، كما أرسل الأرمن واليهود مندوبين لنفس الغرض .

وعقد هذا المؤتمر جلسات بدأت في ١٣ يونيو واختتمت في ١٣ يوليو وقد اشترطت فرنسا ألا يناقش المؤتمر مسألة مصر والشام مما يدل على أن نية كانت تدبر للانقضاض على الدول العربية ، ويعتبر هذا المؤتمر خطوة هامة نحو تصفية « المسألة الشرقية » ومن أهم قرارات هذا المؤتمر ؟ منح الاستقلال التام لرومانيا والجبل الأسود والصرب ، ومنح البوسنة والهرسك للنمسا وتوسيع حدود اليونان ، وضم ميناء (بارى) على بحر الأدرياتيك للجبل الأسود ، هذا بالإضافة الى بعض الشروط الخاصة بالاصلاحات الدينية لغير المسلمين (١) .

ومن الواضح أن هذه الخسارة الكبرى حلت بالعثمانيين في مطلع عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وقد تسبب عن هذه الخسارة ، وعن تردد السلطان بين الإصلاح والحفاظ على القديم أن هبت حركة « تركيا الفتاة » وجماعة « الاتحاد والترقي » وسنراهما فيما بعد تضعان نهاية للخلافة العثمانية وتوجهان بتركيا اتجاهها جديدا .

العثمانيون يخسرون أملاكهم في أوروبا

والمهم هنا ان الدولة أخذت تخسر أملاكها بأوروبا جزءا بعد جزء ، ولكن بين شد وتراخ حتى أفلتت جميع أملاكها بهزيمتها مع ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ، وتكون من أملاك الدولة بأوروبا الدول التي تعرف

(١) اقرأ هذه المعاهدة في تاريخ الدولة العلية لحمد فريد ص ٣٨٧ —

الآن بالأسماء الآتية : اليونان ، رومانيا ، بلغاريا ، يوغسلافيا ،
ألبانيا ، والمجر ، ويمكن إبراد بيسان موجز عن استقلال الأجزاء الأوربية
عن الدولة العثمانية فيما يلي :

المجر : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٦٩٩ وكسبتها
النمسا .

القرم وجنوب روسيا : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٧٧٤ ثم ضمت
إلى روسيا سنة ١٧٨٤ .

صربيا (جزء من يوغسلافيا) : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٨١٥ إذ استقلت
جزئيا ، ثم استقلت استقلالاً ذاتياً سنة ١٨٢٩
واستقلالاً تاماً سنة ١٨٧٨ .

رومانيا : فقدتها الدولة سنة ١٨٢٩ بزوال الحماية التركية
عنها واستقلت استقلالاً تاماً سنة ١٨٧٨ .

اليونان : فقدتها الدولة سنة ١٨٢٩ ثم استقلت استقلالاً
تاماً سنة ١٨٣٠ وبعد ذلك أضيف إليها بعض
مقاطعات عثمانية في الأعوام ١٨٨٢ ، ١٩١٣ ،
١٩٢٠ .

القوقاز : فقدتها الدولة سنة ١٨٨٢ ثم ضم بعض أجزائها
إلى روسيا .

بلغاريا : فقدتها الدولة سنة ١٨٧٨ إذا أصبحت الحماية
اسمية ، ثم ضم إليها الروميلى الشرقي
سنة ١٨٨٥ وتم استقلالها سنة ١٩٠٨ .

قبرص : فقدتها الدولة سنة ١٨٧٨ إذ ضمتها بريطانيا
لإستعمراتها .

- البانيا : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ •
مقدونية : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ وتم تقسيمها بين
صربيا واليونان وبلغاريا •
تراقية : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ وقسمت فيما بعد
بين بلغاريا واليونان •
جزائر بحر إيجة وكريت : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ وضمت الى
اليونان (١) •

في آسيا وإفريقية

الدولة الصفوية في مواجهة تركيا :

قامت الدولة الصفوية الشيعية في فارس (١٥٠٢ — ١٧٣٦) بعد
فترة من الاضطراب تلت الحكم المغولي ، وكان العراق — كما أشرنا آنفا —
مثار الحروب بين الدولتين الكبيرتين ، فكان كالكرة تلتقطه هذه الدولة أو
تلك من حين الى آخر ، ولم تقف الأطماع عند العراق بل كان المنتصر
يحاول أن يتجاوز حدود العراق ، وقد نص صلح سنة ١٦١٢ الذي تلا
انتصارات الشاه عباس ، على أن تترك الدولة العلية لملكة العجم
جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون من عهد
السلطان سليمان القانوني بما فيها مدينة بغداد (٢) •

الدول العربية في مواجهة تركيا :

أما الدول العربية فقد قامت بعدة انتفاضات ؛ والحقيقة أن الدول
العربية كانت تقع بين عاملين كبيرين أحدهما يجذبها الى تركيا وهو

(١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢) أنظر : « الشرق الأوسط » للدكتور عبد الرحمن زكي ص ١١٥ —

العامل الاسلامى فقد كان معروفاً أن الامبراطورية العثمانية وريثة الامبراطوريات الاسلامية الكبيرة كالأُمويين والعباسيين ، وكان ارتباط الدول العربية بها لا يُعد من الاستعمار والتبعية كما سبق القول ، وانما كان نوعاً من الوحدة الاسلامية ، أو هكذا كان يذيع الأتراك من حسين الى آخر ، أما العامل الثانى فهو رغبة الدول العربية فى الاستقلال وبناء نفسها بعيداً عن الدولة العلية التى اتضح أنها تستغل الاسلام لاختضاع الدول العربية ، ولا تدين بهذا الدين الا بقدر الانتفاع به فى عالم السياسة . وعلى هذا هبت حركات استقلالية من حين الى آخر ، وكانت هذه الحركات تتكسح أحياناً بسبب انتعاش العامل الأول ، أو بسبب ضريات قاسية يسدها الأتراك العثمانيون لزعماء هذه الحركات ، وأخيراً بسبب تدخل الدول الأوروبية التى لم تُشأ أن ينطلق الأسد العربى من القفص الحديدى الذى صنعت له تركيا .

على أن القومية العربية زادت قوة واصراراً ابان الحملة الفرنسية وهبت فى كل قرية وكل مدينة ثورة طاحنة ضد المستعمر الفرنسى ، واشترك الشعب العربى فى غير مصر مع مصر فى نضالها ضد الاستعمار الفرنسى ، وانسحب جيش نابليون ولكن الصيحة الاستقلالية لم تتوقف ، فاشتدت الحركات الاستقلالية ضد تركيا فى كل البازد العربية تقريباً ، ومن أبرز هذه الحركات ما يلى :

فى مصر : حركة على بك الكبير فى القرن الثامن عشر وحركة محمد على فى القرن التاسع عشر .

فى فلسطين : حركة الزعيم البدوى ضاهر العمر الذى كان معاصراً لعلى بك الكبير .

فى لبنان : حركة الأمير فخر الدين المعنى الثانى فى القرن السابع عشر وحركة الشهابيين فى القرن التاسع عشر .

في العراق : حركات الباشوات المماليك وفي قممهم سليمان باشا
(أبو ليلى) في القرن الثامن عشر •

في اليمن : حركة الزيدية التي نجحت في فصل اليمن عن سلطان
العثمانيين في القرن السابع عشر (عباد العثمانيون لليمن في القرن
التاسع عشر) •

في الجزيرة العربية : قيام الدولة السعودية مع فكر الشيخ
محمد عبد الوهاب •

في شمالي افريقية : حركات استقلالية في ليبيا والجزائر وتونس
انتهت بنجاح جزئى ، فقد استبد بالسلطة في كل منها زعماء مواطنون أو
مستوطنون ولم يبق الا خيط دقيق يربط بين هذه الدول وبين العثمانيين
في تركيا ، وقد لعب السنوسيون دورا كبيرا في مصير بعض أجزاء الشمال
الافريقى •

وهناك أحاديث مفصلة عن هذه الحركات ترتبط بهذه الأقطار العربية ،
وردت مع كل قطر عربى عند الحديث عنه (١) ، فلن نتكلم عنها هنا ، بل
سيظل حديثنا الآن ، مرتبطا بالامبراطورية العثمانية التي نحكى قصة انحلالها ،
وهذه الحركات الاستقلالية دفعت أوروبا للتفكير في أمر الدول العربية ،
وكان واضحا أن « الرجل المريض » لم يعد يستطيع أن يحتفظ بسلطانه
على هذه الدول ، كما أصبح واضحا أن استقلال هذه الدول معناه عودة
المارد العربى الى النشاط ، وبخاصة أن مصر حققت انتصارات في اليونان ،
وامتد سلطانها الى سوريا وأخذت في أوائل القرن التاسع عشر تتوسع
في الجزيرة العربية عقب انتصاراتها في الدرعية ، واتصلت بأمير

(١) رصدنا أحاديث مفصلة عن حركات سوريا ومصر بهذا الجزء وعن
الحركات بالشمال الافريقى بالجزء الرابع وعن الحركات بالجزيرة العربية
والعراق بالجزء السابع .

البحرين ، وأصبح هذا يعنى أن نفوذ مصر ونشأتها سيهدد مصالح بريطانيا ويحف بالخطر طريقها البحرى الى الهند . كما أن سيطرة مصر على الشام (١٧٣٣ — ١٨٤٠) هدد مصالح فرنسا ونفوذها الثقافى والاقتصادى فى هذه المنطقة .

هذا وأمثاله دفع أوربا الى التدخل للسيطرة على العالم العربى ، فأخذت تنتهز الفرص لاحتلاله دولة بعد دولة ، ولما جاءت الحرب العالمية الأولى وهزمت تركيا مع ألمانيا ، أتيح للحلفاء أن يستكملوا احتلال البلاد العربية ، وهكذا وقعت هذه البلاد فريسة الاستعمار الأوروبى على النجوى التالى : —

الجزائر : احتلتها فرنسا سنة ١٨٣٠ .

تونس : احتلتها فرنسا سنة ١٨٨١ .

مصر : احتلتها بريطانيا سنة ١٨٨٢ .

المغرب : احتلتها فرنسا سنة ١٩١١ .

ليبيا : احتلتها إيطاليا سنة ١٩١١ .

العراق : احتلته بريطانيا سنة ١٩١٧ .

الشام : تم تقسيم الشام الى الدول الآتية : سوريا — لبنان — فلسطين — شرق الأردن ، وقد احتلتها قوات الحلفاء فى أثناء الحرب العالمية الأولى ثم تم توزيعها سنة ١٩٢٠ — فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ووضعت فلسطين والأردن تحت الانتداب البريطانى كما سبق القول .

جنوب الجزيرة العربية : احتلت بريطانيا جزيرة بريم المواجهة لباب المندب سنة ١٧٩٩ ومكنت لنفوذها فى لحج بمعاودة عقدتها مع سلطانها سنة ١٨٠٢ ، ثم احتلت عدن وهى من أملاك هذا السلطان سنة ١٨٣٩ ومكنت

لنفوذها كذلك مع سلطان مسقط والبحرين والكويت بسلسلة من المعاهدات تمت في القرن التاسع عشر ، وكانت كل معاهدة منها تضيف جديدا لنفوذ البريطانى الذى رأى فى ذلك حماية لطريق بريطانيا للهند •

وهكذا كان مصر الدول العربية التى خضعت عدة قرون للإمبراطورية العثمانية ، والعجيب أن تركيا أعلنت فى مؤتمر لوزان الذى عقد سنة ١٩٢٣ تنازلها المطلق عن السيادة العثمانية على مصر والدول العربية من غير أن تحدد المتنازل اليه أو تذكر استقلال هذه البلاد ، وقد أصبح مفهوم هذا الاعلان اعتراف تركيا بالأمر الواقع ، وبالاحتلال الذى نزل بالمدول العربية نتيجة انهيار السيادة التركية المقوتة •

معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ ونتائجها

ولنعد الى الأناضول لنرى أنه أيضا قد مسته الهزائم التى وقعت بتركيا فى الحرب العالمية الأولى • فالتجهت له أنظار المنتصرين وبخاصة روسيا التى استولت على بعض ممتلكات الدول الواقعة شرق البحر الأسود ودفعت حدود تركيا تجاه الجنوب ، واحتل اليونان كذلك أزمير سنة ١٩١٩ ثم جاءت معاهدة سيفر التى عقدت سنة ١٩٢٠ بين السلطان محمد السادس سلطان تركيا وبين الحلفاء (بدون روسيا وأمريكا) وكانت هذه المعاهدة بمثابة تصفية نهائية للإمبراطورية العثمانية ، وقبـد أرغم الحلفاء فريد باشا رئيس الوزراء على قبول هذه المعاهدة ، وبمقتضاها لم يبق للعثمانيين إلا ما تبقى من الأناضول بعد ما اقتطعت روسيا منه ، وألا استانبول وما حولها فى أوروبا ، وفصلت أرمينية وأصبحت جمهورية ، ومنحت تراقيا لليونان ووضعت أزمير تحت الإدارة اليونانية حتى يجرى استفتاء حول وضعها ، ودولت منطقة المضائق ، ومنحت ايطاليا منطقة الأناضول الجنوبي وأصبح للحلفاء الأتـراف الفعلى على اقتصاديات تركيا •

وعلى العموم فقد اتجهت هذه المعاهدة الى استعمال القوة لتحقيق
أطماع المنتصرين والى تمكين اليونان من سلب أكبر قسط من الممتلكات
العثمانية .

انحراف المسيرة :

ولكن الأمور لم تسر في هذا الطريق ، بل ظهر في تركيا قائد جديد
نال في مطلع ظهوره ثقة مواطنيه وثقة أوروبا جميعا ، فتغيرت على يده
الأمور ، ثم سرعان ما اتجه بتركيا اتجاها مجافيا للإسلام ، فزاد قرب
أوروبا المسيحية منه ، ذلك القائد هو مصطفى كمال « أتاتورك » الذي
اضطربت عنه الأخبار حيناً ، ثم أخذت الأضواء تبرز صداقته للصهيونية
وبعدّه عن الاسلام ، وسنتتبع فيما يلي حركات هذه الفترة وانعطاف
« جماعة الاتحاد والترقي » وزعيمها أتاتورك بالامبراطورية العثمانية من
حال الى حال .

ثورة الأناضول وظهور مصطفى كمال

ثار الأناضول ثورة عنيفة ضد اليونان وضد معاهدة سيفر سالفة
الذكر : وتلقى الثائرون ألوانا من العون المادي والأدبي من الدول
الاسلامية ، وانضم للتوّار فيلق من الجيش العثماني بقيادة مصطفى
كمال ، وكان مصطفى كمال وصحبه صلات مشبوهة ، سنتحدث عنها فيما
بعد ، فانتهزت أوروبا المسيحية هذه الصلات ، وأرادت أن تجعل منه
صنيعة لها ، فتراخت قبضتها في معركة أزمير ، وأتاحت له بعض الانتصارات
العسكرية والسياسية لتخدع جماهير الأتراك والمسلمين حتى يسلموا
له القيادة ، ويستطيع أن ينفذ خطط أوروبا عقب ذلك ، وسنشرح فيما
يلي بعض الانتصارات التي حققها أتاتورك وجيشه بعد أن تخلت أوروبا
عن مصارحته ، وتركت اليونان وحدها لتقاتلته :

انتصارات مزيّقة :

استطاع أتاتورك أن يحصل على انتصار عظيم في معركة « إين أوكى » في يناير سنة ١٩٢١ ، وعلى اثر ذلك عقد الحلفاء مؤتمرا في لندن في فبراير سنة ١٩٢١ لتعديل معاهدة سيفر التي اتضح أنها لن تضع حدا للحروب والمشكلات ، وقرر المؤتمر انيفاد هيئة الى أزمير وتراقيا ، ولكن اليونان رفضت هذا القرار ، فاستمرت الأعمال الحربية في الأناضول ، وانهزمت اليونان مرة أخرى في « إين أوكى » أيضا في مارس سنة ١٩٢١ ، ثم دُعيت الجمعية الوطنية للانعقاد بأنقرة فانعقدت في ابريل سنة ١٩٢١ وانتخبت مصطفى كمال رئيسا لها •

واستعد اليونانيون استعدادا كبيرا لمواجهة هذا الخطر واستطاعوا أن يحققوا بعض النصر في قرة حصار وكوتاهية في نفس العام ، وأخذوا يستعدون للزحف الى أنقرة ، ولكن الجيش التركي قرر أن يخوض المعركة ضد اليونان باستماتة وصمود هائلين ، وبدأت ملحمة كبرى في سقاريا بين الدولتين في أغسطس سنة ١٩٢١ واستمر النضال حتى منتصف سبتمبر ، ونزلت باليونان هزيمة قاصمة جعلتهم يتقهقرون بدون نظام ، ولم تفلح بعد هذه المعركة محاولات اليونان ، ولم يأت أغسطس سنة ١٩٢٢ حتى كان جيش اليونان الذي كان تعدادة يزيد عن مائتى ألف رجل قد انتهى بين قتيل وأسير وهارب ، وبناء على هذا النصر منحت الجمعية الوطنية لقب « غازى » لمصطفى كمال ، وأصبح سلطان تركيا مستقرا في يده دون منافس •

وعلى هذا عقد مؤتمر لوزان (١٩٢٣) الذى سبق أن أشرنا اليه وتمت فيه معاهدة بسطت تركيا بمقتضاها سلطاتها من جديد على جميع آسيا الصغرى وعلى القسطنطينية وتراقيا الشرقية ، وتعيّن على اليونانيين الذين كانوا يقيمون بآسيا الصغرى أن ينتقلوا الى وطنهم على أن يعود الأتراك المقيمون باليونان الى الأناضول •

وقد فرح المسلمون فرحا عظيما بهذه الانتصارات ، وحسبوا أنها انتصارات اسلامية سيتلوها ازدهار للاسلام والمسلمين ، ولكن أتاتورك سرعان ما أعلن ما كان يضمّر ، فأعلن عداؤه للخلافة وعدائه للاسلام والمسلمين ، وقد عبر الشاعر المصري أحمد شوقي عن فرح المسلمين بانتصارات تركيا ، وحزنهم لموقف أتاتورك من الخلافة ومن الاسلام بقصيدة رائعة ينمّ مظهرها عن أفكارها وهذا المطلع هو :

عادت أغاني العرس رَجَع نواح

ونشيت بين معسـبـالم الأفراح

أوريا وأتاتورك ومراحل إلغاء الخلافة :

وفتت أوريا بعهدا لمصطفى كمال ، فأتاحت له أن ينتصر على اليونان وتوقفت عن صراعها ضده ، ووفيت الرجل بوعوده المقابلة ، فأسرع بإلغاء الخلافة التي كانت رباطا بين دول العالم الاسلامي ، ولم يفكر في تصحيح وضعها ، أو اختيار خليفة صالح ، بل اتجه للعقد فقرّر أن يقضى عليه وأن يبعثر حياثته ، واتجه للخلفاء بالعزل والتفكيك ثم بإلغاء الخلافة ، وعثمانية الدولة ، وكل ذلك تمّ بسرعة حتى يرضى انحرافه الخاص وسادته الجدد .

ففي سنة ١٩٢٢ عزل محمد السادس (وحيد الدين) واختار بدله عبد المجيد بن عبد العزيز .

وفي أكتوبر سنة ١٩٢٣ أوعز الى الجمعية الوطنية التي ألغتها فاختذت قرارا بإعلان الجمهورية واختيار مصطفى كمال رئيسا لها ، وكان معنى هذا أن يصبح منصب الخليفة منصباً دينياً ، وليست له سلطات سياسية .

وللمبالغة في التقليل من مركز الخلافة أعلن أتاتورك اتخاذ أنقرة عاصمة للدولة ، واكتفى بإرسال ممثل لحكومة أنقرة الجمهورية لدى

الخلافة بالاستانة ، وسرى فيما بعد أنه عرض على التجليز إلغاء
الخلافة ليضمن صداقتهم •

وفي مارس سنة ١٩٢٤ أصدرت الجمعية قرارا بإلغاء الخلافة
، وإخراج الخليفة وأسرت من البلاد •

وتنهي لمصطفى كمال بذلك أن يحقق باقى وعوده لأوروبا وأن يقف
بتركيها بعيدا عن الاسلام والمسلمين كما سئرى •

ثورات ضد أتاتورك وقمعها :

كان من نتائج إلغاء الخلافة وإبعاد الدولة عن الفكر الإسلامى أن
هبت ثورة الأكراد سنة ١٩٢٥ بقيادة الشيخ سعيد شيخ مشايخ الطريقة
النقشبندية ، وشملت الثورة الولايات الشرقية التى يكون الأكراد أغلبية
فيها ، ولقيت هذه الثورة تأييدا ظاهرا أو خفيا من منافسى مصطفى كمال
الأترك ، وقد ضرب مصطفى كمال هذه الثورة بيد من حديد ، وانتزها
فرصة للقضاء على كل منافسيه السياسيين فألقى أحزاب المعارضة بحجة
أنها ساندت ثورة الأكراد ، وأقام محاكم الاستقلال حيث حكمت على
الكثير من منافسيه بالإعدام والسجن المؤبد والنفى ، وهكذا لم ينج من
حكم المحاكم كل من نجا من معارك القتال ، وانتهت هذه الحركة باطلاق
يد مصطفى كمال واطلاق فكره واتجاهاته التى سنشرحها بعد قليل (١) :

(١) من المقارنة التاريخية نذكر أن جمال عبد الناصر إقضى باتاتورك
فى إلغاء الأحزاب والسيطرة على الصحف وإقامة المحاكم للتكيد بأعدائه •

أسماء وهيئيات

أسهمت في التحركات بتركيا بدءاً من عهد عبد الحميد الثاني :

ان الدارس لتاريخ الامبراطورية العثمانية بدءاً من العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر الى الآن يتحتم عليه أن يقف وقفات طويلة عند الأسماء والهيئات التالية :

- ١ — السلطان عبد الحميد الثاني .
 - ٢ — مدحت (أبو الدستور) (١٢٢ — ١٨٨٣ م) .
 - ٣ — جماعة الاتحاد والترقي .
 - ٤ — أتاتورك (أبو الأتراك) الذي لم يخلّف لوطنه الا الالام .
 - ٥ — تركيا الحديثة والعودة للإسلام والثقافة الإسلامية .
- وفيما يلي حديث عن هذه الموضوعات :

السلطان عبد الحميد (الثاني) (١٨٧٦ — ١٩٠٩)

هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية ، وهو ابن السلطان عبد الحميد ، وأمه من أرمنية ، ولد باستانبول سنة ١٨٤٢ م وتوفيت أمه وهو في الثامنة من عمره ، ثم توفي أبوه عام ١٨٦١ وهو في مطلع الشباب ، فتبنته إحدى زوجات أبيه .

أجاد اللغة العربية والفرنسية ، كما أجاد الفروسية واصابة الهدف ، وكان بعيداً عن اللهو والخمر ، ولكنه كان مولعاً بالتدخين .

تولى عمه عبد العزيز الخلافة بعد أبيه فكان عبد الحميد من خواص عمه ، وصحبه في زيارته للقاهرة سنة ١٨٦٣ وهي أول زيارة يقوم بها

أحد خلفاء العثمانيين لمصر ، وكانت في عهد اسماعيل باشا بن محمد علي ،
ويعتقد الصلة الطيبة بين الخليفة ووالي مصر منح اسماعيل لقب
خديوى كما منح امتيازات أخرى •

وقد جرت أحداث خطيرة في استانبول تقرر فيها عزل السلطان
عبد العزيز في مايو سنة ١٨٧٨ ولم يمض على عزله بضعة أيام حتى
أعلنت وفاته ، وقد اتهم مدحت باشا بأنه كان وراء اغتياله •

وبعد عبد العزيز تولى ابن أخيه (مراد الخامس) ولكن اضطراب
الأحوال أثر في نفسية الخليفة الجديد ، فاتهم بالجنون وعزل ، وتولى
عبد الحميد الثانى السلطة بعد نهاية مريرة لسلطانين قبله ، واتخذ قصر
« يلدز » مقرا له ، وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٨٧٦ •

ويعتبر عبد الحميد الثانى من أشهر سلاطين العثمانيين ، ومن
أطولهم خلافة ، ويعتبر عهده مفترق الطرق ؛ ففيه اتجاهات الى الإصلاح
ثم تكوص عنها وعودة للتشبث بالماضى ، وقد بدأ عهده باعلان « خط
همايونى » سجل فيه الأخطاء والمفاسد التى أشربنا إليها ، وقد جاء فيه :

« ••••• وقصارى آمالى ومقاصدى معطوفة بالحصر لتأييد أساس
شوكة دولتنا ومكانتها ، بحيث تنال صفوف رعيتنا — بلا استثناء —
الحرية ، وينعمون جميعا بنعمة العدالة والرفاهية ، وقد عرف الناس أجمع
أن حال الاغتشاش الملم بدولتنا له جهات وأسباب متنوعة يمكن أن تجمع
في نقطة واحدة هى عدم جريان القوانين والنظامات المؤسسة على الأحكام
الجليلة والشرعية ، واتباع كل فرد أهواء نفسه في ادارة الأمور ، واتساع
ميدان عدم الانتظام الطارئ على ادارة دولتنا ملكا ومالا ، وتعذر وصول
الحاكم الى الدرجة المتكفلة بتأمين حقوق الناس ، وتأخر استفادة دولتنا
من وسائل العمران والتقدم في الزراعة والصناعة والتجارة ••••• »

« وأول ما يلزم لاصلاح الحال هو أن نبدأ بنقطة مهمة هي أن يكون مجلس عموم تكون أفعاله وآثاره مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم ، ويكون موافقا لقابلية مملكتنا وأخلاق أهلها . . . ينظر كذلك في موازنة واردات الدولة ومصاريفها . . . »

« ثم لما كانت مسألة توديع المأموريات الى غير أهلها من المأمورين وتبدلاتهم المتوالية من غير سبب مشروع هي من جملة الأمور الباعثة على ايقاع القوانين والنظامات في حيز الاشكال ، فينبغي أن يتعين من الآن فصاعدا مسلك مخصوص لكل نوع من الخدم والمأموريات وتتخذ قاعدة ثابتة ليستخدم بمقتضاها في كل عمل من يكون أهلا له ، ولا يعزل أحد أو يبدل من مأموريته بلا موجب . »

« ومن المعلوم أن ترقيات ملك أوروبا المادية والمعنوية انما حصلت لهم بقوة الفنون والمعارف ، ولما كان استعداد كافة رعييتنا وما غطروا عليه من الذكاء — والحمد لله — يؤهلهم من كل وجه للترقيات ، وأهم ما لدينا من الأمور الاسراع بتعميم المعارف ، فأخص ما نتمناه والحالة هذه أن يحصل الاجتهاد بابلاغ تخصيصات المعارف الى الدرجة الكافية : حسبما يساعد الامكان ، وأن تستحصل الوسائل الموصلة لتعميم نشر المعارف على الفور ، ويبادر عاجلا باصلاح أصول الملكية والمالية والضبط في الولايات بحيث توضع ضمن دائرة الانتظام في صورة مناسبة للقاعدة التي تتخذ في المركز » (١) .

ومن هذه الفقرات التي اقتبسناها من هذا المنشور الذي بدأ السلطان عبد الحميد به عهده يتبين لنا أن أمراض الدولة كانت معروفة ، وأن وسائل العلاج كانت معروفة كذلك ، وفي قمتها الحياة الدستورية حيث

(١) انرا المنشور كله في تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ص ٢٢٦ —

يمكن أن تكون الأعمال المالية والادارية وغيرها تحت رقابة ممثلى الأمة ،
وسنعود للحديث عن الدستور والحياة الدستورية بعد قليل .

متاعب فى طريق السلطان :

واجهت السلطان عبد الحميد مجموعة من المتاعب من أيل عهده ،
فقد سقط قبله سلطانان عبد العزيز الذى خلع ثم قتل ، ومراد الذى
جن ، وقد شارك كبار ضباط الجيش ورجال الدولة وبخاصة مدحت باشا
فى الحديث .

وتسلم عبد الحميد دولة مثقلة بالديون ، وكان الجيش والأسطول
فى عهد عمه السلطان عبد العزيز قوين مما أزهب الروس والفرنسيين
والانجليز فحاولوا بواسطة عملائهم اسقاط السلطان عبد العزيز
بالشائعات ، ونجحوا فى ذلك ، وتمزق الجيش والأسطول عقب ذلك (١) .

واقترنت الستتان الأوليان من حكمه بهزائم عسكرية أليمة ، نزلت
بالدولة التى واجهت تكتلات دولية أوربية مسيحية لم تستطع الدولة لها
دفعاً ، وفقدت الدولة بهذه الهزائم شطرا لا يستهان به من ممتلكاتها فى
أوربا وآسيا وأفريقية ، ووصل الجيش الروسى الى ضواحي العاصمة .

واستغل خصوم الخلافة فرصة هذه الهزائم ، وقاموا بمحاولات
عزل السلطان ، ولما فشلوا فى محاولاتهم عمدوا الى إحراق الباب العالى ،
فقابل السلطان هذا التصرف بمسائل قمع عنيفة .

وهكذا قابل السلطان فى مطلع عهده مشكلات خارجية وداخلية
قاسية (٢) .

(١) شيخ الاسلام مصطفى صبرى : الاسرار الخفية وراء الغاء الخلافة
العثمانية ص ٩٩ .

(٢) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية .. ج ٣ ص ١١٥٣ —
١١٥٥ بتصرف .

وحفل عهده بهزائم دولية واسعة ، فقد احتلت بريطانيا قبرص سنة ١٨٧٨ واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ ، ثم احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ بالإضافة الى فرض الرقابة المالية الدولية على الدولة سنة ١٨٨١ وضم الروملى الشرقى الى بلغاريا سنة ١٨٨٥ ، وفرض المراقبة الدولية على مقدونيا سنة ١٩٠٣ ، وهذه النقطة الأخيرة أُنشأت لفساد الجيش العثمانى فى مقدونيا مزيدا من الحرية والحركة والاتصال بالأوروبيين .

قصته مع الدستور :

ذكرنا أن الخط الهمايونى الذى أصدره السلطان عبد الحميد كانت فيه اشارة الى ضرورة الحكم النيابى ، والتقى السلطان بمحدث باشا ، واستندت له الصدارة العظمى ، وكان هذا قد أعد العدة خلال عهده عبد العزيز ومراد لمثل هذا اليوم المشهود ، ولم يمض عليه فى منصبه الا أربعة أيام حتى جعل السلطان يعطى مجموعة من القوانين الهامة ، ويعلن كذلك الدستور المؤسس على الشورى ، وعلى اشتراك جميع الرعايا فى شئون تحسين الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين ، ونظم الدولة مجلسين مجلس ينتخب من الأهالى ويسمى « مجلس المبعوثان » ومجلس تعيين الدولة أعضائه ويسمى « مجلس الأعيان » ، وتلقى هذا الدستور المشتمل على ١١٩ مادة بالأستانة فى محفل عام فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦ ، وأمر السلطان بأن يكون العمل بمقتضاه فى جميع أنحاء المملكة العثمانية ، وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية واستبشر الناس خيرا ، وأقيمت الأفراح ، والليالى الملاح ، وكان هذا الدستور يتضمن حقوق الدولة وواجبات الوزراء ، ورجال الادارة ، واختصاص كل مجلس من المجلسين ، وتنظيم المحاكم ، والديوان العالى ، والمالية ... وغيرها من الشئون الرئيسية (١) . ومن أهم ما جاء به من تفصيلات أنه ضمن لجميع

رعايا الدولة الحرية والمساواة أمام القانون ، وأباح حرية التعليم مع جعله اجباريا على جميع أفراد العثمانيين ، وضمن حرية المطبوعات وبيعت حق الانتخاب وكيفيته ، وأن جميع الرعايا يطلق عليهم اسم عثماني ، وأن الدين الرسمي هو دين الاسلام ، واللغة الرسمية هي اللغة التركية ، وقرر ابطال المصادرة في الأموال ، والتعذيب في التحقيق ، وابطال السخرة ، ووضع ميزانية سنوية تعرض على هيئة المبعوثان ثم الأعيان ، وإذا أقرها المجلسان تكون واجبة التنفيذ ، ونص على عدم جواز عزل القضاة الا بسبب شرعي ... (١) .

وجرت انتخابات عامة عقب ذلك ، واجتمع مجلس النواب ، كما اجتمع مجلس الأعيان وكان أعضاؤه يعيّنون مدى الحياة .

إيقاف الدستور :

ولكن قبل أن يتمّ المجلس دور انعقاده الأول أصدر السلطان عبد الحميد قرارا في ١٤ فبراير سنة ١٩٧٨ بفضّ المجلس وتأجيل اجتماعاته الى أجل غير مسمى . وقيل في أسباب ذلك ان الدولة كانت تواجه حروبا وصراعات تستلزم أن يكون بيد السلطان تصريف الأمور حتى لا تتعطل حاجات الدولة في هذه الحالات الخطرة بين المؤيدين والمعارضين ، على أن الدلائل في الحق اندفع بسبب تقييد سلطاته الى تعطيل هذا المجلس وظل الدستور معطلا احدى وثلاثين سنة ، مما يؤكد أن تعطيله لم يكن لمواجهة حالة طارئة ، بل لتحقيق رغبة السلطان في الحكم المطلق ورغبة أعوانه الذين يستفيدون من انطلاق الحكم وعدم الرقابة .

ويجب هنا أن نذكر أن الدستور ضايق دول أوريسا ، لأن وجود الدستور معناه انتظام الحياة ووجود المراقبة ، وهذا سيصيب بالشكل

(١) في محفوظات قصر عابدين صورة فوتوغرافية للدستور موهورة بتوقيع السلطان عبد الحميد .

طموح أوروبا أو على الأمل سيقال من نشاطها الذي كانت ترمى به الى
افساد الحياة في الامبراطورية العثمانية ، ولذلك أثاروا السلطان بطريق
غير مباشر ضد الدستور ، وعندما أحس السلطان بأن أوروبا لا تريد
الدستور اتخذ من ذلك قوة فأوقف العمل به ، ووقع بذلك في قاع الخديعة .

ونجحت جمعية الاتحاد والترقي في إبراز كيائها ، واتخذت من
سالونيك مركز قوة لها ، وكان على رأسها الفريق شوكت باشا والاميرلاى
صادق بك والضابطان أنور بك ونيازى بك ، وأعلن هؤلاء الدستور في
سالونيك وما حولها سنة ١٩٠٨ عندما أحسوا بالقوة .

إعادة الدستور :

ولما بلغت هذه الأخبار للسلطان انزعج لها ، وحاول التغلب على
هذه الجماعة المتمردة ، ولكنه عجز ، وبدأت هذه الجماعة تتحرك للزحف
على العاصمة ، فأسرع السلطان وأعلن إعادة الدستور ، وكان ذلك في
٢٤ من يوليو سنة ١٩٠٨ وأصدر أمره بأجراء الانتخابات ، وأطلقت
المدافع مرة أخرى كتلك التي أطلقت منذ احدى وثلاثين سنة ، وأجريت
الانتخابات العامة ولكن نفوذ جماعة الاتحاد والترقي كان واضحا فيها
فنجح في الانتخابات كثير ممن ارتضتهم هذه الجماعة .

الايقاف الثانى للدستور :

وبعد تسعة شهور من الاعلان الثانى للدستور اندلعت ثورة
بالعاصمة ، أغلب الظن أنها كانت ثورة مصطنعة ، وكانت تتادى بإلغاء
هذا الدستور والعودة للشريعة الاسلامية ، وعدم التدخل في سلطة
السلطان الذى يمثل السلطة التشريعية بالبلاد . وكانت هذه الثورة
بقيادة الدراويش وانضم لهم بعض الجنود ، وأريق فيها كثير من
الدماء ، وقتل في هذا الشغب وزير الحقانية وجرح وزير الحربية ،
فظاهر اليهبطان بعاطفة التوفيق بين المجلس النيابى والجنود الثائرة ،

فعدّل الوزارة التي كانت قد اقترحتها جماعة « الاتحاد والترقي » وعين توفيق باشا صدراً أعظم ، وعهد إليه إعادة الشريعة أو القانون المقدس الى حيز التنفيذ ، وفر آنذاك الأعضاء البارزون في مجلس المبعوثان ؛ وأصبح واضحاً أن السلطان قد تم له التسلط على مجلس المبعوثان وعلى الحكومة ، ولكن جيش سالونيك كان بالمرصاد فزحف الى الأستانة بقيادة محمود شوكت باشا وأوقع الهزيمة بالجيش الموالي للسلطان ، وأمن الحياة الدستورية ، وعاد الفارون من مجلس المبعوثان .

عزل السلطان :

وانعقدت جلسة أجمع فيها جميع الأعضاء على وجوب خلع السلطان عبد الحميد ، فخلع بناء على فتوى من شيخ الاسلام ، وأخرج من سراي يلدز الى سالونيك ، وصودرت جميع أمواله ومجوهراته لمصلحة بيت المال ، وكان ذلك في أبريل سنة ١٩٠٩ .

تركيا الفتاة :

قلنا من قبل إن السلطان أوقف العمل بالدستور في فبراير سنة ١٨٧٨ بعد إصداره بمدة وجيزة ، وقلنا إنه أعاد العمل بالدستور بعد حوالي إحدى وثلاثين سنة تحت ضغط جمعية الاتحاد والترقي ، والذي نريد أن نقوله هنا أن أحداثاً خطيرة جرت خلال هذه المدة ، ومن أهم هذه الأحداث تكوين جمعية « تركيا الفتاة » .

وقد كان قيام جمعية « تركيا الفتاة » نتيجة لإيقاف الدستور من جانب ، وللهزائم التي نزلت بالدولة من جانب آخر ، وهذا وذاك دفع مجموعة من الأتراك بالمنفى الى تأليف جماعة « تركيا الفتاة » وانخفضت الجماعة من باريس وجنيف مركزاً لها ، وانضم لها بعض القادة العرب ، وكان من أبرز ما قصده وضع حد للتدخل والهزائم الخارجية ، وإصلاح الأحوال بالداخل ، وأخذ هؤلاء الأحرار يكتبون

ويخطبون ليثيروا الرأي العام بتركيا معهم ، كما حاولوا أن يوصلوا
أمسواتهم للجيش التركي لينضم اليهم • ونجحوا أخيرا في عقد رباط
بينهم وبين الجيوش التركية في مقدونيا حيث تألفت جمعية « الاتحاد
والترقي » كما سنرى بعد قليل •

الجامعة الإسلامية :

وننتقل هنا من الحديث عن « تركيا الفتاة » للحديث عن الجامعة
الإسلامية ، فإن السلطان عندما أحس بصوت المجاهدين الأحرار من
أبطال « تركيا الفتاة » يثير الناس عليه ، أراد بذكائه ودهائه أن يقوم
بعمل مضاد يرعب به أوروبا ويتظاهر به أنه راغب في الإصلاح ليؤجل
بذلك العاصفة أو يقضى عليها ، فكان أن هب يدعو للجامعة الإسلامية
معلنا أنه يرمي لربط المسلمين في شتى البلاد بأصرة قوية هي أصرة
الدين ، متخلياً عن عصبية الجنس واللغة ، وأنه ينوى أن يهيئ للبلاد
الإسلامية صنوف الحرية والرخاء ، ووجد هذا الاتجاه صدى كبيراً
في نفوس المسلمين ، وحسبوا أنهم يستطيعون به أن يردوا اعتداءات
الأوروبيين التي بدأت تأخذ شكل الاحتلال لأكثر أقطار الاسلام ، فانجلترا
مدت نفوذها في جنوب الجزيرة في أوائل القرن التاسع عشر واحتلت مصر
سنة ١٨٨٢ وأطبقت بنفوذها على الهند ، واحتلت فرنسا الجزائر فتونس
وأخذت تتدخل في شؤون سوريا ولبنان ، كل هذا دفع المسلمين الى
الاستجابة لنداء الجامعة الإسلامية •

والجامعة الإسلامية فكرة قريبة الصلة بنفوس المسلمين ، وقد
عاشوا فيها أنضر أيامهم في ظل الخلفاء الراشدين وغيرهم من خلفاء
المسلمين ، وهي حلم لذيذ يرجو كل مسلم أن يتحقق ، وأن يبنى على
على أساس سليم ، وقد هتف بها حديثاً دعاة الوهابيين والسنوسيين ،
فجذورها عميقة في التاريخ عمقها في نفوس المسلمين ، والدعوة اليها
متجددة من حين الى حين •

وقد بدأ السلطان نداه للجامعة الاسلامية باتجاه نكي ماهر ،
هو أن أحاط نفسه بلثيف من المفكرين المسلمين في طليعتهم العلامة
السيد جمال الدين الأفغانى الذى استدعاه السلطان لينزل ضيفاً عليه
في الأستانة ، وقرّبه اليه ، وأفدق عليه المال ، وأفسح له من صدره
ليتكلّم ويقترح وينقد ، وكان السلطان بذلك يرمى الى إبعاد جمال الدين
عن جماعة تركيا الفتاة إذ كان جمال الدين قد اجتمع بهم في باريس ،
وعرف خطتهم في الإصلاح وأيقدها ، كما كان السلطان يرمى أن يضع
هذا التأثير العالم قريبا منه ليسيّط على حركاته ثناء أو لم يشأ ،
ويقول الأستاذ أحمد أمين (١) : « إن جمال الدين ما أن وضع قدمه في
الأستانة حتى كان في قفص من ذهب أحكم بابه » ، ولم يكن جمال الدين
الأفغانى هو وحده الذى افقتن بالدعوة للجامعة الاسلامية بل افقتن بها
كثيرون من زعماء العرب ، وروج لها الدعاة الذين كانوا ينتشرون في
الولايات العربية ، يحاولون إقناع الناس بأن الخلافة هي أملهم الوحيد
في النجاة من أطماع الغرب ، وأن الجامعة الاسلامية هي السبيل لإنقاذ
الشرق من براثن الغرب (٢) .

وهتف كثير من الناس للدعوة الحميدية ، وأمكّلوا أن تتحقق الجامعة
الاسلامية ليتحقق بها إيقاف الزحف المسيحي وإعادة القوة الى معسكر
الاسلام ولاقت الدعوة الى الجامعة الاسلامية نجاحا كبيرا في العالم
الاسلامى ، واستقبلتها الشعوب المسلمة التى كانت تترزح تحت عبء
الاستعمار الأوروبى بالحماسة والابتهاج ، وكان لها في مصر صدى بالغ
تمثّل فيما كتبه المجاهد مصطفى كامل عندما قال : « الخلافة الاسلامية
هي لكل مسلم السلطة العالية التى يستمد منها القوة والنور والهداية »
وهي الحصن الحصين الذى يحصن به الاسلام ويعتز به المسلمون . . .

(١) زعماء الإصلاح ص ٩٦ .

(٢) دكتور عبد الحميد البطريق : الأمة العربية ص ٨٥ .

ولقد أدرك الأوروبيون قوة الخلافة الإسلامية ومعنى سلطتها على المسلمين ، فسعوا لحل عقدها ، وتقويض أركانها وتدمير بنائها ، ليسهل لهم استعباد مناطق العالم الإسلامي ، وامتلاك بلاده وربوعه « (١) » .

وهكذا استغل السلطان عبد الحميد شعور المسلمين بالحاجة الى التضامن والتكامل ، فجعل نفسه زعيما للدعوة للجامعة الإسلامية ، ليدعم مركزه في الداخل ، ويرهب الدول الأوروبية في الخارج ، واستطاع أن يخفي عن رعاياه هياته الخاصة في قصر « يلدز » (٢) وأن يظهر للناس أنه متدين وأنه يسعى لخدمة المسلمين .

امسلاجات عبد الحميد :

هناك امسلاجات مهمة تنسب للسلطان عبد الحميد الثاني ، وفي مقدمتها الاهتمام بالتعليم ، فقد كانت الجهود متجهة للتعليم العسكى وحده ، فاهتم السلطان بالتعليم المدنى أيضا ، فأنشأ جامعة استانبول وكانت تعرف باسم « دار الفنون » ثم أطلق عليها « جامعة استانبول » وكانت تضم أربع كليات هى : كلية العلوم العالية الدينية وكلية العلوم الرياضية وكلية العلوم الطبيعية وكلية العلوم الأدبية (كلية الآداب) ، واعتبرت مدرستا الحقوق والطب كليتين ملحقتين بالجامعة .

كما أنشأ مدرسة الفنون الجميلة ومدرسة التجارة ومدرسة الهندسة المدنية ومدرسة الطب البيطرى ومدرسة الشرطة والمدرسة السلطانية للشئون المالية (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٢) كان سكاته في عهد السلطان عبد الحميد ١٢٠٠٠ نسمة .

(٣) د. عبد العزيز الشناوى ص ١١٥٩ نقلا عن :

Bernard Lewis : The Emergence of Modern Turkey p. 182.

وأنشأ كذلك عددا من دور المعلمين وعددا من المكتبات العامة والمجلات ، وخطت الصحافة والمجلات في عهده خطوات واسعة ، ومن إصلاحاته جهوده لإصلاح القضاء وتنظيم المحاكم .

ومن إصلاحاته الاهتمام بالسكك الحديدية من ناحية النوع ومن ناحية الزيادة في الخطوط ، كما اهتم كذلك بالطرق البرية وبالبريد والاتصالات البرقية (١) .



وعلى العموم فالرجل كانت له حسناته وسيئاته ، وأخطر سيئاته هو حرصه على الحكم المطلق الاستبدادي ، ولكن الرجل واجه تكتلا مسيحيا ضده ، لم يكن ينفذ حتى يجتمع ، كما واجه الصهاينة الذين وقفوا مصارعين له لأنه رفض مطالبهم ، وواجه كذلك جيشا يقوده جماعة انحرفت ذممهم وأخلاقهم كما سنرى ، وخلف سيرة لا تزال بين مادم ومهاجم ، ولكن الذي لا شك فيه أن الذين جاءوا بعده كانوا أشرا را هاجموا الدين ودمغوا الدنيا ، جاءوا لمقاومة الاستبداد ولكنهم كانوا في محال الاستبداد أقصى مئات المرات من السلطان المعزول ، وقد هاشوا فترة من الزمن خلف ستار من الكذب والوهم ، ولكن الستار قد سقط فظهرت انحرافاتهم للعيان .

مدحت باشا (١٨٢٢ - ١٨٨٣)

ولد مدحت باشا باستانبول سنة ١٨٢٢ م وحفظ القرآن الكريم ، وتعلم بالديوان الهمايوني وجاور بمسجد الفاتح .

(١) المرجع السابق ص ١١٦٠ وما بعدها .

ثم درس العلوم السياسية ، واتصل بالثقافة الغربية وشغف بها ، وتقلب في الوظائف العالية حتى أصبح صدرا أعظم •

كان زعيم حزب الإصلاح الذي خلع السلطان عبد العزيز ، وكان منزعجا حركة المطالبين بالدستور ، وقد ذكرنا من قبل أنه كان قد أعد الدستور ، فلما اختاره السلطان عبد الحميد الثاني صدرا أعظم حث السلطان على إعلان الدستور ، فوافق السلطان ، وأعلن الدستور بعد بضعة أيام من توليه منصبه •

ظن مدحت باشا (أبو الدستور) أن آماله تحققت ، وأن البلاد ستقبل عهداً جديداً ، ولكن سرعان ما ظهر له ولرفاقه المجددين أن آمالهم قد بنيت على غير أساس ، وأن السلطان أقر رأيهم ريثما يثبت عرشه ويقوى شأنه ، وأن حول السلطان قوًى كثيرة تجد في الحكم المطلق بغيتها ، وفي الاضطراب فرصتها ، وأن كثيراً من رجال الدين اشتريت ذمهم بالمسالك ، فهم يذيعون في الناس أن كل تجديد بدعة وكل بدعة ضلالة ، وحول السلطان كذلك محترفو السياسة الذين روجوا لأفكارهم المضادة للدستور مدعين أن الحكم النيابي لا يصلح للدولة العثمانية لاختلاف أئتناسر شيها ، وليل كثير من المسيحيين الى خدمة مصالح الأمم الأوروبية •

أما الجواسيس وتجار الرشاوى الذين كسدت سوقهم أو كادت فلم يخلدوا للسكون ، بل راحوا يدبرون المؤامرات ضد مدحت ورفاقه ، ووجدوا من السلطان أذناً واعية ، فسكبوا فيها سمومهم منذرين أن مدحت يسعى لإقامة الجمهورية وللفصل الدين عن الدولة ، ولإعادة مراد الى الحكم ... وغير ذلك مما أزعج السلطان وأثاره •

ولم يكظم السلطان غيظه ، فسرعان ما عزل مدحت وألقى القبض عليه ونفاه قبل أن يتم شهران على إعلان الدستور ، وضاعت كل المشروعات

التي كان مدحت قد بدأ بتنفيذها ، وكثرة للرماد في العيون سمح باتخاذ الإجراءات الخاصة بالانتخابات ، ولكن حياة المجلس كانت قصيرة لم تتجاوز بضعة أشهر فقد أصدر السلطان قرارا في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨ بإرجاء اجتماعه لأجل غير مسمى ، وأوقف الدستور كما ذكرنا من قبل .

ولنسر مرحلة أخرى مع مدحت لنذكر أن السلطان سجنه بتهمة قتله أو اشتراكه في قتل السلطان عبد العزيز ، وحوكم مدحت فحكمت عليه المحكمة بالإعدام ولكن السلطان عفا عنه ونفاه الى الطائف ، وتقول بعض الروايات أن السلطان دبر قتله هناك ، ونفذ تدبيره .

ويدفع شيخ الاسلام مصطفى صبري هذا الاتهام ، ويقدم بعض الأدلة لذلك ، ونحن نقبس بعض كلامه في هذا الموضوع (١) ، ولنا بعد ذلك تعليق على ما يقول :

١ — ينقل شيخ الاسلام من مذكرات السلطان عبد الحميد أن مدحت ارتكب بعض الأخطاء الجسيمة مثل تعيين ولاية من الأقليات في مناطق أكثرها مسلمون ، وأنه قبل طلبه من الأروام في المدرسة الحربية ، وهذا وذاك خطأ كبير .

٢ — كان مدحت من الماسونيين ، وبالتالي كان متعاوناً مع الانجليز .

٣ — قبل بعض الأموال والرشاوى من الانجليز .

٤ — لم يكثر الشعب لعزل مدحت باشا ، ولكن الذي ثار هو انجلترا مما يدل على صلة بين مدحت وساسة الانجليز .

(١) الاسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ص ١٠٣ — ١٠٨ .

٥ — عندما حوكم مدحت وأدين وعفا عنه السلطان ، لجأ الى قنصلية انجلترا حتى يخرج من البلاد ، فلما وجد القنصل في اجازة لجأ الى القنصلية الفرنسية ، وكانت هذه خيانة وطنية منه .

وينتهي الشيخ مصطفى من ذلك الى تبرئة السلطان من قتل مدحت أو الإيعاز بقتله ، ويقول : لو أن السلطان أراد أن يقضى عليه لترك حكم المحكمة ينفذ .

والناظر في هذه الاقتباسات لا يثق تمام الثقة فيها ، فمصدرها السلطان المتهم . ثم إن التهم التي نسبت لمدحت باشا عامة لم تتضح ، فمن هو الوالى من الأقليات الذى عيّن بولاية أكثرها مسلمون ؟

ومن هم الطلبة الأروام الذين قبلهم بالمدارس العسكرية وما عددهم ؟ وإذا كان الشعب لم يثر لعزل مدحت باشا فذلك كان نتيجة لسلوك طويل تموّد عليه الشعب تجاه أعمال السلاطين .

ولجوء مدحت للقنصلية الانجليزية أو الفرنسية عمل لا نقره ، ولكنه كان الوسيلة الوحيدة لسلامته .

ويعبقى بعد ذلك أن يترك الأمر في غموضه ، أو أن نرجّح تورط السلطان فيه .

جماعة الاتحاد والترقى

قلنا من قبل أن بعض الأتراك الذين كانوا بعيدين عن تركيا ألغوا جماعة أطلقوا عليها « تركيا الفتاة » واتخذوا من العواصم الأوربية مراكز لهم ، وأخذوا يكتبون المقالات ، ويخطبون في المحافل لمقاومة الحكم المطلق الذى لجأ له السلطان عبد الحميد بعد أن ألغى الدستور أو أوقف العمل به ، وكذلك لمقاومة الهزائم التى نزلت بالدولة تباعا .

وكان رجال « تركيا الفتاة » حريصين على توصيل نداءاتهم للجيش
لعلهم يجسدون القوة التي تهيم النجاة لأفكارهم ، وقد وجد زعماء
« تركيا الفتاة » طلبتهم في مقدونيا ، ففي هذه المنطقة كان يوجد نظام
الرقابة الدولية على الشؤون المالية وأجهزة الأمن ، وكان قوام هذه
الرقابة خمس دول هي : بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا ،
وكان معنى هذه الرقابة ضعف سلطة استانبول على المنطقة من جانب ،
ومن جانب آخر إمكان الاتصال بالقوى الأجنبية الموجودة بها ،
وهذا هي الفرصة لزعماء « تركيا الفتاة » للاتصال بالجيش
التركي بهذه المنطقة ، وهيا الفرصة كذلك لعقد تفاهم بين قيادة الجيش
التركي وبين ممثلي أوروبا المسيحية لتحقيق الأغراض المشتركة »
وفي هذا الجو تكوّنت جماعة « الاتحاد والترقي » بقيادة شوكت
باشا وأنور بك ونيازی بك من قادة الجيش ، وهي التي أعلنت إعادة
الدستور كما ذكرنا من قبل .

وقد انضم أتاتورك الى جماعة الاتحاد والترقي .

الصهيونية والاتحاديون :

ويذكر الدكتور عبد العزيز الشناوى أن جماعة الاتحاد والترقي كانت
على صلة بالصهاينة ، وأن الصهيونيين كانوا يتعاونون مع بريطانيا في تأليب
أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد ، لأن السلطان كان
حازما في منع الهجرة اليهودية لفلسطين ، وكان متعاوناً مع الألمان في
مواجهة الإنجليز ، وكان مكروها من جمعية الاتحاد والترقي ، وعندما
تلاقت أهداف الجماعات الثلاثة (الصهاينة والإنجليز والاتحاديون)
تعاونت ضد السلطان ، ولهذا عمل الصهيونيون للوصول الى الانقلاب
الدستوري سنة ١٩٠٨ والانقلاب العسكري الذي عزل السلطان سنة
١٩٠٩ ، وأيدوا حدوث هذا وذاك بحماسة .

وكان من نشاطهم لاحداث هذين الانقلابين أن أصدروا في العاصمة العثمانية صحيفة باسم « التركي الشاب » وكانت تساند رجال الاتحاد والترقي .

وقد وجد الصهاينة في قرار عزل السلطان فرصة نادرة فاستركوا للأصف في حمل قرار العزل للسلطان ، فقد كان الوفد الذي حمل هذا القرار مكونا من ثلاثة أفراد أحدهم يهودي اسمه « قره صو » وكسطن السلطان قد طرده من قصره عندما عرض على السلطان أن يتساهل في أمر هجرة اليهود الى فلسطين ، وما هو الآن يحمل قرار طرد السلطان من سلطته ومن قصره بل من الامبراطورية كلها (١) .

ديكتاتورية رجال الاتحاد والترقي :

وبعزل السلطان عبد الحميد انتهى نفوذ السلاطين من الناحية العملية ، فأخوه السلطان الجديد كان طاعنا في السن من جانب ، وكان مساهداً للأحداث التي غلب فيها عبد الحميد من جانب آخر ، ولهذا ترك السلطة الفعلية لرجال الاتحاد والترقي ، وكان يقول انه سلطان دستوري ، والحق أنه لم تكن له وسيلة لغير هذا الموقف ، وكان مثله أو أقل منه في السلطة السلطانان الأخيران اللذان جاء بعده وهما وحيد الدين وعبد الحميد ، وكان هذا آخر السلاطين .

والمهم أنه عندما آلت السلطة الفعلية لرجال الاتحاد والترقي باشر هؤلاء حكما مطلقا غير مباليين بالدستور والمجالس الدستورية ، وأسرفوا اسرافا شديدا في الاستبداد حتى أن الأتراك آنذاك كانوا يترحمون على حكم السلطان عبد الحميد (٢) الذي كان يوجد في التشريع الاسلامي

(١) الدولة العثمانية : د ٣ ص ١٠٢٣ — ١٠٢٧ بتصريف .

(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ص ١٧٨ .

ما يوقفه في كثير من الأحوال عند حدٍّ لا يتجاوزه ، ولكن رجال الاتحاد والترقي لم يحترموا الدستور ، ولم يخضعوا للتشريع الاسلامي ، فكان حكمهم مطلقا بدون حدود ، وجاء على شاكلتهم بعد قليل « كمال أتاتورك » الذي سنتحدث عنه فيما يلي :

مصطفى كمال

الغازي — أتاتورك (أبو الأتراك)

(١٨٨١ — ١٩٣٨)

زعيم تركي ، ولد في سالونيك ، والتحق بالمدرسة الحربية ، وأصبح ضابطا بالجيش العثماني ، اشترك في « تركيا الفتاة » التي تحدثنا عنها من قبل ، وأبعد من أجل ذلك الى دمشق ، ثم اشترك في حرب طرابلس ضد ايطاليا ، وبرز اسمه سنة ١٩١٥ عندما استطاع رد هجوم الحلفاء على الدردنيل ، وفي عام ١٩١٩ نظم الحزب الوطني التركي الذي حل محل جماعة الاتحاد والترقي .

ومن أشهر أعماله حروبه ضد اليونان وضرب جيشهم الذي احتل أزمير وانتصاراته العظيمة في سقاريا وقد أشرنا لها من قبل ، واستطاع بذلك أن يطرد اليونان من الأناضول فمُنح لقب « الغازي » وكانت له ميول غربية غير متمسكة بالروح الاسلامية مما وثق علاقاته بالغرب وسهل حياته معهم ف عقدوا معه معاهدة لوزان (١٩٢٣) التي بسطت تركيا بمقتضاها سلطانها من جديد على جميع آسيا الصغرى وعلى القسطنطينية وتراقيا الشرقية ، وقد أشرنا لها من قبل .

مهادنة أوربا وصداقة الصهيونية :

وتدل الدراسات والبحوث المختلفة التي سنشير اليها أن أتاتورك أدرك أن تكتمل أوربا ضد تركيا كان لأنها تمثل الاسلام وتدافع عنه ،

وتأكد له كذلك أن الصهاينة سيوقفون الصراع ضد تركيا لو أنه ألغى الخلافة ، وهكذا أدرك الرجل أن إبعاد بلاده عن الاسلام ، وإلغاء الخلافة الاسلامية سيضمن له تأييد الغرب والهدنة مع الصهاينة ، كما يضمن له النفوذ الكامل ولو باسم الديكتاتورية التي تظهر بمحاربتها ، فالغنى الخلافة وأصبح رئيسا للجمهورية ولكنه رئيس مدى الحياة فهي رئاسة ديكتاتورية فقد انتخب سنة ١٩٢٣ رئيسا للجمهورية ، ثم جدد انتخابه سنة ٢٧ و ٣١ و ٣٥ وكان كل مرة ينتخب بالاجماع ولم ينقذ النفس منه الا موته سنة ١٩٣٨ وقد أحيا عبد الناصر بعده هذا النظام

بعض

وابتعد أنتتورك تماما عن الاسلام ، وحاول — عثا — أن يبتعد تركيا عنه . وسنملى فيما يلي بعض التفاصيل عن حياة مصطفى كمال ، تلك الحياة التي دفعت تركيا الى ما يسمى « علمانية الدولة » :

الكماليين :

تحدثنا من قبل عن جماعة « الاتحاد والترقي » وتلك الجماعة كانت تسمى « الاتحاديين » وكان لمصطفى كمال صلات بها ، ولكنه لم يلبث أن كوّن لنفسه جماعة تسميت له فسميت « الكاليين » فهل الكماليون امتداد للاتحاديين ؟ أو أنهم جماعة متغايرة ؟

يقول شيخ الاسلام (١) : ان المجموعتين تمثلان شذمة مختلفة العروق والأجناس حرصت على اختلاس السلطة واحتكارها بقصد المنافع الذاتية ، مهما سبّب ذلك من خراب للدولة ، وقد تسمّوا الى نهاية الحرب العالمية الأولى باسم « الاتحاد والترقي » وانساقوا خلف جمال وأنور وطلعت (من العجب أنها نفس أسماء جمال (عبد الناصر) وأنور (السادات)) وبعد الهدنة جمعوا شملهم تحت قيادة القائد

(١) الاسرار الخفية ص ٢١١ و ٢١٢ (الهامش) .

الجديد مصطفى كمال وسُمّوا « الكماليين » وهم هم بأعيانهم وميولهم المنحرفة وأهدافهم الخطرة ، وقد يوجد من بين الكماليين من يشنّع على الاتحاديين كما فعل « فالح رفقي بك » الذي نشر مقالا طويلا في صحيفة « اقتسام » في ٢٨/١٢/١٩٢٣ ضد الاتحاديين ، اتهم فيه قادتهم بأنهم نروا بمدمرة أجنبية بعد أن سلموا الأمة الاسلامية الى الأعداء الأوربيين وأن الاتحاديين لهذا ولمسواه كانوا مجرمين في حق الدين والوطن ، وهم الذين دفعوا الأمة للحرب العالمية الأولى بجهلهم وحمافتهم ، فغرقت الأمة وقرثوا هم .

ويضيف شيخ الاسلام أن الكماليين لم يدينوا الاتحاديين بسل ساروا في نفس الطرق ، فهم جميعا في الشر سواء .

جذور يهودية :

يقول شيخ الاسلام أن مصطفى كمال عميق الصلة بطائفة « الدونمة » اليهودية ، بل هو منها (١) وينقل الدكتور يوسف القرضاوي عن هربوت ابري أنه لم يكن أحد من الناس يجرؤ على أن يكتَبَ أن هذه الفئة المغمورة المعروفة بالدونمة ستلعب دورا رئيسيا في ثورة كان لها نتائج خطيرة في سيرة التاريخ (٢) ، واستمرارا مع هذه الصلات العرقية يذكر شيخ الاسلام أنه لم يسلم من اعتداء الاتحاديين والكماليين الا اليهود ، وفيما عداهم فقد وقع الاضطهاد على كافة العناصر من الألبان والعرب والأكراد والروم والشراسة والأتركا (٣) .

صلة بالاسوئية :

ينقل شيخ الاسلام عن بعض الوثائق التي نشرتها الحكومة البريطانية أن أعضاء جماعة الاتحاديين والكماليين تابعون جميعا لمفكر

(١) الأسرار الخفية ص ١٦ و ٤٩ .

(٢) د. يوسف القرضاوي : الطول المستوردة ص ١٥٣ .

(٣) الأسرار الخفية ص ٤٦ — ٤٧ .

الشرق الماسونى ، وعند هزيمة الامبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى اتفقت أحزاب ايطاليا جميعها على أن تحتل ايطاليا طرابلس الا جهازة الماسونية الايطالية التى أعلنت قولها : لا يجدر بنا أن نصول على الأتراك حال كون حكومتهم فى أيدي الماسونيين (١) .

سوء صلة مصطفى كمال بأسرته واتباعه :

يروى كتاب الأسرار الخفية لشيخ الاسلام أن مصطفى كمال عثر ف بأساليب المذابح والغدر والكذب والحيل الملا أخلاقية التى لم يسلم منها حتى زوجته وأقرب المقربين اليه من أصحابه وزملائه ومعاونيه الذين استخدمهم للوصول الى أغراضه ثم لفظهم فى النهاية (٢) . ولم يبق على زميل أو صديق علوته ، بل كان مصيرهم جميعا القتل غيلة .

تضحيات مصطفى كمال لإرضاء الغرب :

فى تقديمنا لهذا الموضوع نذكر أن الغرب كان يصارع التجمع الاسلامى ويخشى الخلافة الاسلامية لأنها ملجأ المسلمين ، وبخاصة أن بعض الدول المسيحية كانت تحكم أجزاء من العالم الاسلامى ، وتترى فى الخلافة تهديدا لها ، وقد جاء فى مذكرات عبد الحميد الثانى ما يلى عن هذا الموضوع « ولكن الدول الكبرى التى تحكم شعوبا مسلمة فى آسيا مثل انجلترا وروسيا ترتعد من سلاح الخلافة الذى أحمله ، ولهذا اتفقوا على إنهاء الدولة العثمانية » (٣) .

وكان من وسائل الغرب لإنهاء الدولة العثمانية تلمش الأسباب لإعلان الحرب على هذه الدولة ، وكان الخليفة يتحاشى الحرب بقدر الامكان ، ولكن الاستقراز والعدوان المباشر كان يقع من الأعداء .

(١) شيخ الاسلام : الأسرار الخفية .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة الدكتور محمد حرب

الغرب يتطلع إلى مصر والقسطنطينية :

واتجه الغرب الى الأقطار الحساسة ليأخذها من الدولة العثمانية وقد كتب الفيلسوف الفرنسي « ليينتر » سنة ١٦٧٢ الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا يقول : « انه اذا انتزعت مصر من يد الأتراك آل أمرهم الى البوار » (١) ويعتل لذلك بقوله « انها وكر الدين الاسلامي ، وملاذ المسلمين » (٢) واتجه الغرب كذلك الى القسطنطينية وعنها يقول نابليون : « من ملك القسطنطينية أمكنه أنه يسود الدنيا » ووصفها مرة أخرى بأنها « مفتاح العالم » (٣) .

هكذا كان طموح الغرب للقضاء على الامبراطورية العثمانية ، فماذا قال مصطفى كمال لارضاء الغرب ؟

يقول الشيخ محمد الصواف (٤) :

إن مصطفى كمال أوفد زميله عصمت اينونو الى لندن برسالة يقول فيها :

لماذا تقاتلوننا مرة أخرى ؟ لقد كنا امبراطورية كبيرة وكنتم تخشون جانبنا فانسلخت عنا أكثر البلاد ، ولم يبق الا العنصر التركي في الأناضول ؟

وبعد محادثات طويلة اشترك فيها حاييم تاحوم حاخام اليهود الأكبر في تركيا ، قال الانجليز : اننا نخشى أن تعودوا مركز تجمع للمسلمين ونواة لوحدتهم .

(١) شكيب ارسلان : حاض العالم الاسلامي ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩١ .

(٤) المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ص ١٧٤ .

وهنا عرض مصطفى كمال الشروط الأربعة الآتية لإرضائهم :

- ١ — إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيا في تركيا .
 - ٢ — أن تتكلم تركيا كل صلة لها مع الاسلام والدول الإسلامية .
 - ٣ — أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية بتركيا .
 - ٤ — أن تستبدل الدستور العثماني القائم على الاسلام بدستور مدني بحت .
- وهكذا كان موقف مصطفى كمال من الخلافة ومن الاسلام والمسلمين .

خيالة وطنية :

نشرت صحيفة Sunday Times برقية السفير البريطاني في أنقرة الى وزارة الخارجية البريطانية التي شكر فيها أن أتاتورك استدعاء وهو مريض ورجاء أن يخلفه في منصب الرئيس ، وقد نقلت صحيفة الأهرام المصرية نص هذه البرقية في عددها الصادر في ١٥/٣/١٩٦٨ (١) .

مخالفاته للإسلام :

كان مصطفى كمال مدمنًا لشرب الخمر ، وكثير السخريه بالمقدسات الإسلامية ، وأباح زواج المسلمات من غير المسلمين ، وترك الحليف باسم الله في الأيمان الرسمية ، وعرقل سفر الأتراك لأداء فريضة الحج ، ومنع حجاب المرأة ، وأزال الفواصل التي كانت تفصل بين الرجال والنساء في وسائل المواصلات .

ومن أجل هذا كان الأتراك يتهمون الحكام الجدد بالالحاد واعتناق

(١) انظر كذلك كتاب الفكر الصهيوني للاستاذ مصطفى السعدني

المبادئ الهدامة ، ويقولون عنهم : إنهم يهود وماسونيون وليسوا أتراكا ولا مسلمين ، وكل ما يهدفون إليه هو القضاء على الاسلام والخلافة (١) .

ويقول السيد رشيد رضا في مجلة المنار (٢) : ان ملاحدة الترك هم الذين يمتحنون الدعوة الى تشويه الدولة العثمانية ويمشون الدعوة الى الإلحاد ويهزضون الزنادقة على ترك الاسلام واحتقار تشريعه وآدابه ، وليس قلائس الاقترنج وإثارة الفرقة القومية والعصبية الجنسية ، وقلكما ثبت لهؤلاء الملاحدة نسب صحيح في الشعب التركي الذي كان عريقا في الاسلام ، بل هم أوشاب ، منهم الروسى والرومى والبلغانى ، واليهودى الأصل ، وان السواد الأعظم من الترك يمقتون هؤلاء الكماليين أشد مما كانوا يمقتون اخوانهم الانتحامين .

الأتراك وطبقية الدولة ؟

اتجهت جماعة الاتحاد والترقى في سياستها اتجاها مطبيا ، واستمبعت منذ سنة ١٩٠٨ الاسلام والوحدة الاسلامية ، ووجهت كل عنايتها الى تركيا والى الأتراك ، في حدود نظرتهم العادية للاسلام وكان مصطنى كمال صوت هذه الأفكار والاتجاهات ومنفذها ، ولهذا دفع تركيا الى السلطانية عندما آلت له السلطة .

وما المقصود بالعلمانية ؟

لعل المقصود بالدقيق بالعلمانية هو ألا يتدخل دين الشخص أو مذهبه الدينى في تقدير قيمته أو يقف حائلا دون تليه ما تستحقه مواهبه ، ولكن المعنى الشائع للعلمانية يكاد يعادل معنى اللاتينية ، وذلك المعنى هو الذى اتشجع بالنسبة لتركيا آنذاك ، وقد آن لنا أن نستكمل ذكر أهم صور الانقلاب

(١) ارسترونج : مصطنى كمال ص ٢٨ .

(٢) نقلا عن كتاب « تاريخ الصحافة الاسلامية » للاستاذ انور

الجندى ص ١٢٩ .

الدينى والاجتماعى الذى أحدثه أتاتورك (أبو الأتراك) فى حياة تركيا فى عهد الكماليين امتدادا لاتجاهات جماعة (الاتحاد والترقى) : ففى الجلسة التى عقدتها الجمعية الوطنية فى مارس سنة ١٩٢٤ ، وقررت فيها إلغاء الخلافة ، وافقت الجمعية الوطنية أيضا على قانون بإلغاء وزارتى الشرعية والأوقاف ثم سارت خطوات مصطفى كمال دون توازن لإكمال الصورة التى رسمها لتركيا الحديثة بإبعادها عن الدين إبعادا تاما أو قريبا من التمام ، فأعلن إلغاء المحاكم الشرعية وإضافة أعضائها الى المحاكم المدنية ، وألغى المؤسسات والمدارس الدينية ، وجعل إنشاء المدارس مقصورا على وزارة المعارف .

أتاتورك يناهض الإسلام :

وألغى الغازى من الدستور النص على أن دين الدولة الإسلام ، وألغى التشريع الإسلامى الذى أطلق العهد الجديد عليه « شريعة عتيقة » أى القانون البالى واستبدل به القانون المدنى السويسرى والقانون الجنائى الإيطالى ، وأصدر الغازى قانونا يجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد بدلا من يوم الجمعة ، وألغى التقويم الهجرى ، وغيّر أحكام المواريث فسوى بين الذكر والانثى ، وجعل أصحاب الحق فى الارث هم الفروع دون غيرهم (١) .

وخطت حكومة أتاتورك خطوات أخرى فى سبيل التخلص من الإسلام أو إضعافه ، فحددت عدد المساجد ولم تسمح بغير واحد منها فى كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها خمسمائة متر ، كذلك خفض عدد الوعاظ الذين تدفع الدولة أجورهم الى ثلاثمائة واعظ ، وفرض عليهم ألا يقصروا خطبة الجمعة على الأمور الدينية فحسب ، بل أن يضموا اليها فوائد عملية فيما يتصل بالشئون الزراعية وغيرها أيضا ، وأوصدت حكومة أتاتورك

(١) انظر تركيا والسياسة العربية للاستاذ سعيد العريان وآخرين

أبواب جامعين من أشهر جوامع اسطنبول في وجه المصلين ، ليحوّل أولهما
(أيا صوفيا) الى متحف ، وثانيهما (مسجد الفاتح) الى مستودع •

وأصبح تعدد الزوجات — بسبب اقتباس القانون السويسرى —
محرمًا وقد كان من الوجهة العملية مقتصرًا على الطبقات الموسرة •

وهكذا أدارت تركيا ظهرها للإسلام واتجهت لأوروبا ، ويؤثر عن هذه
الجماعة جملة في هذا المعنى وهى : « شرقت وداع » أى وداعا أيها
الشرق • واكتمالا لهذا حرم مصطفى كمال الزى الدينى (الجبة والعمامة)
الا على رجال الدين ، وفرض الزى الأوروبى والقبعة ذات الحافة ، وأصدر
قانونا يقضى باحداث اسم الأسرة ولم يكن ذلك معروفًا من قبل في تركيا ،
وحُرِّمت جميع الطرق الصوفية وأغلقت زوايا الدراويش ، وقضت
الحكومة في قسوة وعنف على كل نقد دينى لتدابيرها ، ونزلت المرأة التركية
ميدان العمل ، وألغيت الحروف العربية واستبدلت بها الحروف اللاتينية ،
وأصر الغازى نفسه أن يظهر أمام الناس بمظهر المعلم لهذه الأحرف ،
وأنشئت المدارس في طول البلاد وعرضها لتعليم الناس على اختلاف
أعمارهم الحروف الجديدة التى أصبحت « وطنية » وحذف من مناهج
الكلليات تعليم اللغة العربية والادب العربية ، رهما اللتان كان الأتراك
يعتبرون دراستهما ضرورة لفهم الأدب التركى ، وحرّم استعمال الحرف
العربى لطبع المؤلفات التركية ، أما الكتب التى سبق لمطابع اسطنبول
أن أخرجتهما في العهود السابقة — وهى كثيرة لا تكاد تُعدّ — فقد
صدّرت الى مصر وفارس والهند •

والواقع أن هذا الانقلاب أدى الى قطيعة صعبة بين تركيا وماضيها
الاسلامى من جهة ، وبينها وبين اخوان الأتراك في الدين في سائر
الأقطار الاسلامية من جهة أخرى ، وهى قطيعة قاسية النتائج (١) •

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٧ — ٢٠ •

ومن أبرز اتجاهات تركيا الحديثة اتجاهها نحو الغرب في ميولها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتقليل علاقاتها مع الشرق الاسلامي ، وقد دفعها مصطفى كمال في هذا الطريق بقوة وعنف .

خلفاء سنتي كمال

وانتهى مصطفى كمال الذي لقب نفسه (أبو الأتراك) ولكنه لم يخلّف للأتراك الا الفقر والضياع وقد ظل مصطفى كمال يشغل منصب رئيس الجمهورية حتى توفي سنة ١٩٣٨ فخلفه عصمت اينونو الذي ظل رئيسا للجمهورية حتى مات سنة ١٩٥٠ وجاء بعده جلال بايار في رئاسة الجمهورية وشغل عدنان مندريس معه منصب رئيس الوزراء . .

ثورة عسكرية :

وفي مايو سنة ١٩٦٠ حدث انقلاب عسكري قاده جمال جورسيل وقد جمع زمام الأمور في يده بصفته العسكرية ، ثم رشح نفسه لرئاسة الجمهورية ، دون منافس فاختير لهذا المنصب في العام التالي ، وقد أدانت الثورة رجال العهد الماضي بألوان من الرشوة واستغلال النفوذ واهمال مصالح البلاد تحقيقا للمصالح الشخصية وحكمت بالاعدام على عدد كبير من كبار الرجال من بينهم عدنان مندريس نفسه ، وقد نفذ فيه حكم الاعدام .

وهذه الأحكام دليل على انحراف القادة انحرافا قضي باعدامهم ولم تغير ثورة جمال جورسيل من اتجاه تركيا ، بل مسارت في نفس السياسة الغربية التي كانت طريق تركيا منذ عهد مصطفى كمال .

وقد ظل جمال جورسيل في الحكم حتى مرض في أوائل سنة ١٩٦٦ ، وفي مارس اشتد عليه المرض وفقد الأمل في شفاؤه فأنهى البرلمان رئاسته

واختار لرياسة الجمهورية « جودت سوناي » • وبعد جودت سوناي
اختير غزري كورتوك سنة ١٩٧٣ •

انقلاب عسكري جديد :

وفي سبتمبر سنة ١٩٨٠ هب انقلاب عسكري آخر بقيادة الجنرال
كيناي ايفرين فاطاح بمسكومة سليمان ديميريل ، وأعلن مجلس الأمن
القومي الذي تشكل من العسكريين أن هدف الانقلاب هو منع نشوب
حرب أهلية وإيقاف موجة العنف السياسي التي تجتاح تركيا منذ ٤ سنوات
والتي يروح ضحيتها حوالي عشرين شخصا كل يوم •

وقد تم حل الحكومة والبرلمان التركي وتعطيل الدستور ، وتم
القبض على كثير من الزعماء ، وهذه الانقلابات أكبر دليل على أن ثورة
أتاتورك كانت مدمرة ولم تؤد للبلاد شيئا ذا بال •

وبعد استقرار الأمور عاد الحكم المدني الدستوري للبلاد •

رؤية شامد هيان :

وقد زرت تركيا سنة ١٩٥٠ أي بعد إعلان الجمهورية وبعد سيرها
في ركاب الغرب أكثر من ربع قرن ، ولكني وجدت تركيا كما لا تزال حتى
الآن شرقية الشعب غربية الحكم ، ولا يزال شعبها يعيش في مستوى
اجتماعي متدهور ، وقد حسب قادة الأتراك حيناً أن الاسلام كان سبب
تخلفهم ، فاطرحوا الاسلام ولكن تخلفهم لم يعالج وربما زاد ، وقد
عثرت الثورات على بعض الأسباب الحقيقية لتخلف هذه الدولة من رشوة
واستغلال نفوذ وليتها تعثر على باقي الأسباب ، ثم ليتها تحاول
أن تملجها ، وربما كان من أنجح الأدوية أن توقف الاتجاهات الروحية
التي تسود في الشرق دائما قويا نحو الخلق الصالح وحارسا أميناً على
الأهداف السامية •

تركيا في العهد الصامر

تبلغ مساحة تركيا الآن ٧٦٧م٣٦ ك . م ، منها ٢٣م٤٨٥ ك . م بأوروبا والباقي بآسيا ، وأهم المدن التركية أنقرة وإستانبول وأزمير وأدنة وبورصة واسكى شهر ، ويبلغ عدد سكان تركيا حوالى ٣٠ مليون نسمة تقريبا منهم ١٤ مليون من الأتراك والباقيون ينحدرون من أجناس متعددة أهمها الأكراد والتركمان والأرمن ، والمسلمون من سكان تركيا هم ٩٨٪ وهم يتبعون مذهب السنة .

نشاط اسلامى بعد أتاتورك :

وابتداء من سنة ١٩٤٠ نشط الفكر الإسلامى واستعاد قوته ، بعد وفاة أتاتورك ، وبعد أن زالت الأسباب التى كانت تدعو الى التزمّت والشدّة ، فعُيّن وعاز وائمة وانضموا للجيش التركى ، كما كان متبعاً في عهد الخلافة ، ويقول الدكتور برنارد لويس انه قد ظهر اتجاه جديد في الحكومة التركية التى جاءت في أعقاب أتاتورك ، وهذا الاتجاه أزال كثيرا من مظاهر الدكتاتورية التى اتصف بها عهد مصطفى كمال ، فانتهزت العناصر الاسلامية هذه الفرصة وجددت حماسها لبعث الحياة الدينية من جديد في تركيا (١) .

ومن الواضح أن الدكتور برنارد لويس ينبه بذلك من يهتم الأمر ومخاصة من دول الغرب ليوقفوا هذه الحماسة الدينية قبل أن تعود جذورها الى ما تخشاه هذه الدول من تعمق وأصالة .

وقد بدأ تحوّل الاتجاهات الدينية بواسطة كلية الدراسات الدينية التى أنشئت في جامعة أنقرة ، والتى وضعت مناهجها لتخرّج عالما غربى النزعة ، مسلم العقيدة عارفا بمقارنة الأديان وبالدراسات المختلفة يجيد

(١) من مقال في مجلة الشؤون الدولية عن البعث الإسلامى بتركيا .

عددا من لغات الغرب ، يدين بالولاء لتركيا الديمقراطية ويعتق الاسلام (١) .

مؤتمرات اسلامية في تركيا :

ولكن الحق، أن تركيا اتجهت بعد ذلك نحو ماضيها الاسلامي دون توقف ، وفي سنة ١٩٧٦ عقد بها مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية وكان أول مؤتمر اسلامي يعقد بتركيا منذ الخلافة سنة ١٩٢٣ ، وقد كان العنوان الرئيسي بصحيفة :

Turkish Daily News هي :

Istanbul Again Heart of Islam

أي « استانبول تعود مرة أخرى لتصبح قلب العالم الاسلامي » .

وتقول صحيفة الاهرام الصادرة ١٩٧٦/٥/٢١ عن هذا المؤتمر ان الحكومة التركية طبعت بمناسبة المؤتمر كتابا عن الدول المشتركة في مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية اسمته « الاقطار السائرة في طريق الصواب » .

وتلك كانت مفاجأة المؤتمر الحقيقية .

وثمة حماس شديد للإسلام في تركيا تفجر بعد طول كبت وخوف ، بل أن هذا الكبت دفع الناس الى مزيد من التمسك بالاسلام لا التحول عنه ، وهذه ظاهرة اكتشفها الساسة الاتراك قبلنا في انتخابات عام ١٩٧٣ . عندما تأسس في ذلك العام حزب السلامة الوطني الاسلامي النزعة ، وخاض المعركة الانتخابية ، وفوجيء الجميع بأن هذا الحزب الوليد قد جاء ترتيبه الثالث من بين ٨ أحزاب في تركيا .

وقد فرض الحزب نفسه داخل الحكومة ، وعين زعيمه الدكتور نجم الدين أريكان نائبا لرئيس الوزراء • مشتركا في الائتلاف الوزاري الذي حكم البلاد عقب هذه الانتخابات •

ومنذ ذلك الوقت — عام ٧٣ — تنبه الجميع الى أن الاسلام لا يزال مزدهرا في تركيا ، وأن قرار إلغائه ظل حبرا على ورق •

وتقول مجلة « ديانة » التركية : ان معالم المنظر الديني بتركيا تحدها الأرقام والحقائق التالية : في تركيا الآن ٤٤ ألف مسجد ، تتزايد بمعدل يتراوح بين ٨٠٠ وألف مسجد كل عام — والمسائل الاسلامية من اختصاص هيئة الشئون الدينية التي يعمل في فروعها ستة آلاف من الأشخاص ، بينهم ٤٣٩ مفتيا ، و٨٨٠ واعظا ، و ١٤٠٠ مدرس لتعليم القرآن ، و ٤٣٣ اماما وخطيبا — أما مدارس تعليم القرآن فعددها ألفان تضم ٥١ ألف طالب وطالبة — ومدارس الأئمة والخطباء عددها ١٧١ وفي جامعة أنقرة كلية للإلهيات ، وفي جامعة أرضروم كلية للعلوم الاسلامية • وتهتم تركيا اهتماما كبيرا في العهد الحاضر بالمؤتمرات الاسلامية وبرعاية القرآن الكريم وعلومه •

بلاد زراعية :

وتركيا بلاد زراعية عموما اذ أن أكثر سكانها يشتغلون بالزراعة ، والملكيات الزراعية الآن موزعة بين المزارعين ، وأهم حاصلات تركيا الحبوب والتبغ ، والحركة الصناعية بها ناشئة ونشيطة ، وبتركيا بعض المعادن أهمها الفحم والحديد والنحاس •

تركيا والمسلم العربي الآن

مرت السفن ، واستطاعت الدول العربية أن تحصل على استقلالها بعد صراع طويل ، كما استطاع الشعب التركي أن يسترد أنفاسه بعد المسيرة المجهدة التي عاناها ابان الخلافة وبعدها ، والمخلصون يتوقعون أن تزدهر الصلات الطيبة بين تركيا والدول العربية ، احتراماً وتقديراً للدين والتاريخ والجوار وغيرها من الصلات التي ربطت الترك بالعرب ، وان معرفتي الشخصية بجماعات من المثقفين الأتراك تجعلني أحس بتفاؤل عميق نحو مستقبل العلاقات بين الترك والعرب ، وقد عبر لى صديق تركي عن عتب بعض المفكرين الأتراك عما يقوله العرب عن الامبراطورية العثمانية ، وأجبتة بأنه ليس سهلاً أن ينسى العرب مآلئهم من عناء ، ولكن من اليسير أن نتعاون لنخلق مستقبلاً أجمل وأنصح ، يضع على الماضي غلالة أو ساتراً حتى يوشك أن يحجبه عن الفكر ، واتفقنا على الدعاء مخلصين أن يتجه السياسة الترك الى الشرق بوجه عام وإلى العرب بوجه خاص لنعيد رباط الود ، متناسين مشكلات الماضي ومؤملين في مستقبل أحسن وأنفع ، وأنا أقول كلمة « السياسة » وأعنيها ، أما الشعب التركي فقد عانى معاناة قسوة الخلافة ، والكماليين وسخط مثلنا بسبب الانحراف عن هدى الدين ، وأنا أعرف هذا الشعب في داره ، وأعرفه في بلادى العربية ، متعلماً وزائراً ، وأكثر هذا الشعب بيادلنا ونبادله الأحاسيس الطيبة وبيارك نهضتنا ويؤيد جهادنا ، ونحن بالتالى ننص بأحاسيسه ، ونرجو له كل تقدم ورفق .

مشكلة الموصل والاسكندرونة

، بقيت مشكلتان عربيتان تستحقان مزيداً من الشرح والايضاح ، وهاتان هما مشكلة الموصل ومشكلة الاسكندرونة ، وذلك أن المؤتمرات التي عقدت لتصفية أملاك « الرجل المريض » لم تضع حلاً لمشكلتي الموصل والاسكندرونة ، وتنازعت العراق وتركيا الموصل ، كما تنازعت سوريا

(سوريا) ، ثم نراها تمقد معاهدة مع سوريا سنة ١٩٣٦ مَعِدَ فيها
بمنح سوريا استقلالها بما في ذلك لواء الاسكندرونة .

وشارت تركيا ضد هذه المعاهدة التي تناقض الاتفاق الذي أجرى
معهما بشأن المنطقة المتنازع عليها ، ورفعت شكوى ضد ذلك الى عصابة
الأمم سنة ١٩٣٧ ، وقضى مجلس العصبة بعدم تسليم اللواء الى سوريا وبحكم
ثنائي له ، وبضمانات خاصة للسكان الأتراك ، وأطلق شبح الحرب العالمية
الثانية عقب ذلك ، واتجهت فرنسا الى الاستعداد ضد تحركات النازيين
واستعداداتهم ، ومن أجل هذا تساهلت في الاتفاق مع تركيا حول هذه
المشكلة ، فمعدت معها اتفاقاً في يوليو ١٩٣٨ يقضى بحكم ثنائي للمنطقة
وأن تقوم دوريات فرنسية تركية بحراسة اللواء الى أن يثبت في مصيره
بانقلابات علنة .

ودخلت القوات التركية اللواء ، وأجريت الانتخابات في هذه الظروف
التي لم تتكافأ فيها القوى ، فأدت الى فوز تركيا بأغلبية المقاعد التي
كانت المنافسة تجري عليها ، إذ حصلت على ٢٢ مقعداً من ٤٠ مقعداً ،
وفي ٢ سبتمبر أعلنت أغلبية المجلس المنتخب الحكم الذاتي تحت اسم
« جمهورية هاتاي » وأرسلت وفداً الى أنقرة يطلب الانضمام الى تركيا .

وتم لتركيا ما أرادت تحت ضغط تهديد الحرب العالمية الثانية :
فسرعان ما اعترفت فرنسا رسمياً بسيطرة تركيا على لواء الاسكندرونة ،
وكان ذلك ضمن معاهدة عدم الاعتداء التي عقدت بين فرنسا وتركيا في
٢٣ يونيو سنة ١٩٣٩ .

وانتهت المشكلة بالنسبة لفرنسا ، ولكنها لم تنته بالنسبة لسوريا
وبالنسبة للوطن العربي ، فهذه المنطقة عربية والناظر الى الخريطة يجد
أنها زاوية انحدرت بها تركيا الى ما وراء حدودها الطبيعية ، وليس من
حق فرنسا أن تمنح من أرض سوريا ما تشاء لتركيا أو لغيرها ، ومن هنا
فإن سوريا لا تزال ترى أن اللواء جزء لا يتجزأ من أراضيها وأن احتلال
الترك له ليس مشروعاً .

تركيا والمشكلة القبرصية

وبمناسبة الحديث عن مشكلة الموصل والإسكندرونة ، هناك مشكلة مهمة يجدر بنا أن نتحدث عنها هي المشكلة القبرصية .

والناظر لخريطة البحر الأبيض المتوسط يجد بين جزرِه جزيرة تعتبر جزيرة آسيوية فهي تقع في شرقى البحر المتوسط وتحتضنها تركيا ، لأنها تقع الى الجنوب منها وعلى مسافة غير بعيدة من حدودها ، والمسافة بين هذه الجزيرة وبين اليونان طويلة جدا إذا قيست بالمسافة بين الجزيرة وتركيا ، وكان من الطبيعى أن تتبع هذه الجزيرة تركيا ، كالجزر الكثيرة التى تتبع الأقطار التى تقع هذه الجزر قريبة من حدودها ، ولكن السياسة دفعت الكثيرين من اليونانيين لسكنى هذه الجزيرة فكونوا بها أغلبية تصل الى حوالى ٨٠٪ من السكان ، أما الأتراك فيمثلون حوالى ٢٠٪ فقط من السكان يعيشون في شمال الجزيرة ، وهذا الوضع خلق مشكلة لتركيا لا تزال مشكلة قوية وحساسة .

وجزيرة قبرص (Cyprus) جزيرة جبلية ، بها سلسلة جبال « سرين » شمالا و « كرودس » جنوبا ، وبينهما سهل « نيكوسيا » وهو سهل زراعى خصب تجود به الحبوب والفاكهة والزيتون ، وعاصمة الجزيرة « نيكوسيا » أو « نيقوسيا » .

ومن الناحية التاريخية نذكر أن معاوية بن أبى سفيان استولى على هذه الجزيرة وهو وال على الشام سنة ٥٢٨ (٦٤٨م) في عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وذلك لأن هذه الجزيرة قريبة من حدود سوريا من جهة الشرق ، ونقل لها معاوية كثيرا من الأسر الإسلامية ، ثم تناقلتها أيدي العرب والرومان واليونان . . . خلال الصراع على

جزر البحر المتوسط ، ثم استولى عليها الأتراك سنة ١٥٧٠ م. وظلت تحت سلطة الأتراك أكثر من ثلاثة قرون ، وفي خلال الصراع بين الامبراطورية العثمانية وأوروبا الصليبية استولت بريطانيا على قبرص سنة ١٨٧٨ وظلت الجزيرة خاضعة لسلطاتها حتى سنة ١٩٣١ وفي خلال هذه المدة دفعت بريطانيا الكثيرين من اليونانيين للحياة بها ، فالليونان أقرب الدول المسيحية للجزيرة ، ولزم بها صلات تاريخية ، وبدأت بذلك المشكلة الموجودة الآن .

وفي سنة ١٩٣١ أعطى للجزيرة نظام الحكم الذاتي ، ولكن السكان اليونان طالبوا سنة ١٩٤٧ بالاتحاد مع اليونان .

وظهر الاسقف مكاريوس وكان أميل للاعتدال ، فتوقفت اتفاقية سنة ١٩٥٩ بين بريطانيا وتركيا واليونان لإقامة جمهورية قبرصية مستقلة ، ذات مجلس تشريعي ثلثه من القبارصة الأتراك وثلثاه من القبارصة اليونانيين ، واختير الاسقف مكاريوس رئيسا للجمهورية ، ونالت الجزيرة استقلالها سنة ١٩٦٠ .

وفي الستينات اشتد التنافس بين الطائفتين ، ووقعت معارك دموية ، وأحسّت تركيا أنها مضطرة لحماية الأتراك بالجزيرة فأرسلت قوة تركية قوامها ٣٠ ألفا احتلت شمال الجزيرة في يوليو سنة ١٩٧٤ ، وزادت المشكلة بذلك تعقيدا .

وفي نوفمبر سنة ١٩٨٣ أعلن القبارصة الأتراك تأسيس جمهورية خاصة بهم في شمالي الجزيرة ، وسارعت تركيا فاعترفت بالجمهورية الجديدة ، وكان ذلك ردا على بعض المحاولات التي اتجهت لضم الجزيرة لليونان ، واختير رعوف دنكاش رئيسا لهذه الجمهورية التي تسيطر على حوالي ٤٠٪ من أرض الجزيرة .

وقد اقترح السكرتير العام للأمم المتحدة حلولاً لهذه المشكلة قوامها إعادة توحيد الجزيرة في ظل حكومة اتحادية بين طائفتين ومنطقتين ، على أن يكون رئيس الدولة من القبارصة اليونانيين ونائبه من القبارصة الأتراك ، مع منح الجانبين سلطة الاعتراض على أية قرارات يصدرها البرلمان الذي يتكون من مجلسين . واقترح أن تشكل الحكومة الاتحادية من عشرة وزراء سبعة منهم من القبارصة اليونانيين وثلاثة من الأتراك ، مع تطبيق نفس النسبة على أعضاء مجلس النواب ، أما مجلس الشيوخ فيكون مناصفة بين الطائفتين ، مع كفالة الحريات الأساسية لكل المواطنين على السواء .

ومع أن رؤوف دنكتاش قد أعلن قبوله للمقترحات التي قدمها السكرتير العام للأمم المتحدة مؤخراً لتكون أساساً لمفاوضات بين زعمي الطائفتين اليونانية والتركية ، فقد رفضها الرئيس القبرصي سيبرو كبريانو الذي يصرّ على انسحاب قوات الاحتلال التركية ومعهم المستوطنون الجدد من الأتراك ، وتقديم ضمانات دولية لاستقلال قبرص ووحدتها أراضيها . وعودة حوالي ٢٠٠ ألف قبرصي يوناني إلى منازلهم التي طردوا منها أبان الاحتلال التركي وذلك قبل الجلوس أمام مائدة المفاوضات حول مقترحات السكرتير العام للأمم المتحدة .

ولا تزال المشكلة قائمة حتى كتابة هذه السطور في أواخر عام

نظرة الدول الإسلامية للإمبراطورية العثمانية

اتجاه المسلمين الى الوحدة :

كان الاتجاه العام في الدول الإسلامية هو الوحدة والتشكل ، وهذا الوضع عميق الجذور في تاريخ الإسلام ، فقد نشأ الإسلام وامتد مكوناً دولة واحدة ، وهو كذلك عميق الجذور في الفكر الإسلامي الذي يرى أن المؤمنين إخوة ، ويحث المسلمين على التعاون والتآزر ، ويتفق في هذا كل الدول الإسلامية على السواء .

عجرفة لبعض القادة الترك :

هذه هي الفكرة العامة ، ولكن موقف أكثر الأتراك من الدول التي خضعت لهم كان موقفاً مشيناً ، فقد رأينا أن الإسلام لم يكن إلا هدفاً يحاول العثمانيون أن ينتفعوا به كلما اشتدت عليهم الخطوب ، أما روح الإسلام ، وآداب الإسلام ، واتجاهات الإسلام ، فلم يكن لها صدى في قصور الخلفاء الذين حكم الكثيرون منهم هذه الدول باسم الإسلام دون أن يدينوا بفلسفاته وتعاليمه .

واتجه الفكر التركي في أواخر عهد الخلافة العثمانية الى « تنريك » العرب ليكون ذلك ضماناً لاستمرار سيطرتهم على العالم العربي ، وفي ذلك يقول جلال نوري أحد كتاب الترك المشهورين في كتابه (تاريخ المستقبل) :

« ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الأقطار العربية الى أقطار تركية ، لأن النشء العربي الحديث صار يشعر اليوم بعصبية جنسية ، وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها من الآن » .

ويقول أحد كبار الصحفيين في جريدة (طنين) : إن العرب لا يزالون يلهجون بلغتهم ، وهم يجهلون اللغة التركية جهلاً تاماً ، كأنهم ليسوا تحت حكم الترك . فمن واجبات الباب العالي في هذه الحال أن ينسبهم لغتهم ويجبرهم على تعلم لغة الأمة التي تحكمهم ، فإذا أهمل هذا الواجب كان كمن يسعى إلى حثفه بنفسه ، لأن العرب إن لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم فإنهم سيعملون عاجلاً أو آجلاً على استرجاع مجدهم الضائع وتشديد دولة عربية على أنقاض الترك (١) .

وبالإضافة إلى ذلك ذاقَت الدول التي تبعت تركيا صوراً من المرارة والحرمان المادي والأدبي ، وطالما تصور قادة المسلمين أن الاضطراب والطغيان يصدران عن شخص الخليفة فوجهوا بغضهم نحوه فقط وعملوا على خلعه وتغييره ، ولذلك ظل الكثيرون منهم تحت ضوء هذه الفكرة يدين بالولاء للخلافة والوحدة الإسلامية كما رأينا في ميل جمال الدين الأفغانى ومصطفى كامل وغيرهما .

فريقان :

ومرت الأيام وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، وفتح المصريون عيونهم على التقدم والمدنية والرفاه التي حرّمهم الترك منها ، وهب المصريون يناضلون الاستعمار الفرنسى وهتفوا بالاستقلال ونالوه ، واستمر هتاف الكثيرين يدوى ضد تركيا ويسعى للتبشير بالقومية العربية كما كانت جماعة الاتحاد والترقى تبشر وتعمل للقومية التركية ، وهذا ينشط المسلمون في تفكيرهم ، فيتجه المسلمون الذين ذاقوا الآلام تحت سلطان الترك إلى التخلص من هذه الخلافة ، ويبقى المسلمون الذين لم يخضعوا للإتراك على ما كانوا عليه من ولاء للخلافة وعمل على تأييدها واستهجان لمناوئتها ، وكانت هذه المجموعة من الدول الإسلامية ترى في الترك حماة من الاستعمار ، ومما يدل على اتجاه هذه الدول

(١) نقلاً عن الأمة العربية للدكتور عبد الحميد البطريق ص ٩٥ - ٩٦ .

أن سلاطين آتشة بسومطره تقدموا — عندما هددهم الهولنديون — الى سلاطين آل عثمان بالولاء ، وهددوا بهم المستعمر الهولندي ، وطلبوا من الترك العون لدفع الخطر عن الوطن الاسلامي .

ومثل موقف سلاطين آتشة موقف مسلمي الهند الذي نقتبسه من الباحث الكبير الأستاذ عباس العقاد (١) فيما يلي :

« والمسألة التي تضاءلت الى جانبها كل مسألة من مسائل العالم الاسلامي في حساب مسلمي الهند ، هي مسألة الخلافة الاسلامية ، التي كانت في آل عثمان بالقسطنطينية . فقد كان أمراء الهند أنفسهم يستقبلون تلك الخلافة في الشدائد ، وينظرون اليها نظراتهم الى البقية الباقية من الاسلام ودولته الدنيوية .

« ومنذ عهد الاحتلال البريطاني ، توجهت الأنظار الى سلاطين آل عثمان ، وكان في طليعة المتوجهين اليه سلطان « ميسور » على مقربة من سلطنة حيدر آباد ، فإنه كتب الى الخليفة يبلغه حقيقة الخطر على الديار الآسيوية ، ولم يكن في وسع الخليفة أن ينجده بالعون الذي أراد ، فكتب الى نابليون يطلب منه العون ، وجاءه الجواب منه بانتظار المدد في جيش جرار يضرب الدولة البريطانية في مقتلها ، ويخلى أنطريق الى الهند من شباكها .

« ولم يزل أمراء الهند — فضلا عن سوادها — يتطلعون الى الخلافة في القسطنطينية حتى زالت وانتهت بخاتم الخلفاء السلطان عبد المجيد ، فسعى سلطان حيد آباد الى التزوج من إحدى بناته ، وقيل فيما قيل من أسباب هذا الزواج إنه « زواج سياسي » يمهّد به السلطان الى إمامة المسلمين في الهند على الأمل ، إن لم تتعقد له الإمامة على العالم الاسلامي بأجمعه .

(١) العقاد الأعظم محمد علي جناح .

« ولم يتفق لمسلمى الهند ما يضعف مكانة الخلافة بينهم ، كما اتفق للمسلمين الذين حكمتهم الدولة العثمانية فتمردوا على حكمها ، وتغلّبت في نفوسهم دفعة الوطنية على الولاء لحكومة ساءت سياستها ، وخرجت في رأى الأكثرين عن أحكام دينها ، فقد كان مسلمو الهند يزدادون عطفاً على دولة الخلافة كلما اشتدت بهم المحن من داخلها وخارجها ، وينسبون الثورات عليها أحياناً الى دسائس الاستعمار ، وغواية الدول الأجنبية بالرشاوى والوعود الكاذبة » .

وهكذا عاشت الامبراطورية العثمانية أربعة قرون ثم سقطت ، وكان عهدها في الغالب عهد ظلام ، وقد أسلمت العالم العربى الى الاستعمار الأوروبى ، بعد أن ضعف بنيانه وانهار كيانه ، وعندما تخلت تركيا عن مكانها القيادى اتجه قادتها الاتحاديون والكماليون الى الغرب متناسين هذا التاريخ الطويل الذى ربطها بالشرق وبالاسلام ، ومن المؤكد — كما قلنا من قبل — أن أى مسوت ينبعث في تركيا لإبعادها عن الاسلام وعن الفكر الاسلامى سيكون صرخة في واد ، فالشعب التركى عريق في اسلامه وفي تمسكه بسواه من الشعوب الاسلامية .



ولنفختم حديثنا عن تركيا بالدعاء أن تتردهر الحياة فيها ، وأن يحقق شعبها ما يطمح له من مجد وسؤدد ، في ظل الاسلام والتعاون الشامل مع الدول العربية والاسلامية .

مراجع البحث

ملاحظات:

١ — الكتب التي ستذكر في هذه القائمة هي مقتطع الكتب التي وردت في ذيل صفحات الكتاب ، أما الكتب التي أسهمت في هذا البحث بطريق غير مباشر فلم تثبت في هذه القائمة لكثرتها .

٢ — نظمت المراجع فيما يلي حسب الترتيب الأبجدي للاسم الذي اشتهر به المؤلف مع صرف النظر عن الملحقات (ابن — ألب) .

- ١ — Encyclopaedia of Islam في عدة مقالات .
- ٢ — Encyclopaedia Britannica في عدة مقالات .
- ٣ — صحف ومجلات كثيرة .
- ٤ — وثائق رسمية ومعامدات .
- ٥ — مقالات شخصية لزعماء أسهموا في صنع التاريخ .
- ٦ — لقطات مما أذاعه الزعماء بالراديو أو بالتليفزيون .
- سناء : الطبيعة والتاريخ والانسان والامل (دار الهلال يونيو ١٩٧١) .
- ٧ — الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) .
- ٩ — Cambridge Medieval History
- ١٠ — إبراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد .
- ١١ — إبراهيم طرخان : مصر في عهد دولة المماليك الشراكسة .
- ١٢ — أبو شامة : كتاب الروضتين في تاريخ العولتين .
- ١٣ — أبو شامة : ذيل الروضتين .
- ١٤ — أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر .
- ١٥ — أبو المحاسن بن تغري بردى : النجوم الزاهرة .
- ١٦ — أبو يوسف : الخراج .
- ١٧ — ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء .
- ١٨ — ابن الأثير : الكامل في التاريخ .
- ١٩ — Armstrong : مصطفى كمال : الذئب (الترجمة العربية) .

- ٢٠ — افانجلوس بابا يوانو : دير طور سيناء (الترجمة العربية) .
 ٢١ — ابن ايلس : بدائع الزهور في وقائع الدهور .
 ٢٢ — أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث .
 ٢٣ — دكتور أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية « الاجزاء الاخرى » .
 ٢٤ — دكتور أحمد شلبي : السياسة والاقتصاد في الفكر الاسلامي .
 ٢٥ — دكتور أحمد شلبي : المجتمع الاسلامي .
 ٢٦ — دكتور أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية .
 ٢٧ — دكتور أحمد شلبي : تاريخ التشريع والقضاء في الاسلام .
 ٢٨ — دكتور أحمد شلبي : اليهودية « من سلسلة مقارنة الأديان » .
 ٢٩ — دكتور أحمد شلبي : المسيحية « من سلسلة مقارنة الأديان » .
 ٣٠ — دكتور أحمد شلبي : الاسلام « من سلسلة مقارنة الأديان » .
 ٣١ — دكتور أحمد شلبي : مصر في حربين .
 ٣٢ — دكتور أحمد شلبي : المكتبة الاسلامية لكل الأعمال (١٠٠ جزء) .
 ٣٣ — دكتور أحمد الصاوي : الصقالبة في اسبانيا .
 ٣٤ — أحمد عرابي : مذكرات أحمد عرابي .
 ٣٥ — الشيخ أحمد كاتب الشونة : تاريخ ملوك السودان .
 ٣٦ — أحمد النائب الأنصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب .
 ٣٧ — أنور الجندي : من اعلام الحرية في العالم العربي .
 ٣٨ — أنور الجندي : تاريخ الصحافة الاسلامية .

Midiæval Europe : Emerton — ٣٩

A Short History of the Fatimid Caliphate : O' Leary — ٤٠

The Art of War in the Middle Ages : Oman C. W. — ٤١

The First Crusade : August Krey — ٤٢

The Legacy of Islam : Bsrker — ٤٣

The Fall of Constantinople : Bear Edwin — ٤٤

The Origin of Ismailism : (Dr.) Bernard Lewis — ٤٥

* The Emergence of Modern Turkey : Bernard Lewis

Religious of the World : Berry G. — ٤٦

- ٤٧ — Burton Bernstein : سيناء ارض المعارك والتداسة
(الترجمة العربية) .
- ٤٨ — بل : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى
(الترجمة العربية) .
- ٤٩ — البلاذرى : فتوح البلدان .
- ٥٠ — البلوى : سيرة احمد بن طولون .
- ٥١ — History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia : Budge. F. A.
- ٥٢ — The Arab Conquest of Egypt : Butler
- ٥٣ — The Caliphate : Thomas Arnold
- ٥٤ — النعمانى : يتيمة الدهر .
- ٥٥ — Turkistan Orient : Gelzer H.
- ٥٦ — The History of the Decline and Fall of the Roman : Gibbon E.
Empire.
- ٥٧ — الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .
- ٥٨ — ابن جبير : الرحلة .
- ٥٩ — The Syrian Desert : Grant C. P.
- ٦٠ — Ghildren Crusade : Gray G. Z.
- ٦١ — The Jaws : James Hosmer
- ٦٢ — جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى .
- ٦٣ — جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث .
- ٦٤ — ابن حجر : الدرر الكلىة فى علماء المئنة الفاهة .
- ٦٥ — دكتور حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر .
- ٦٦ — دكتور حسن ابراهيم : عمرو بن العاصى .
- ٦٧ — دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام .
- ٦٨ — دكتور حسن ابراهيم ودكتور طه شرف : المعز لدين الله الفاطمى .
- ٦٩ — حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية بمصر .
- ٧٠ — دكتور حسن محمود : مصر فى عهد الطولونيين والاششيديين .

- ٧١ — حسين سرى : بحث عن « الأعمال الهندسية والمنشآت العامة في عهد اسماعيل » نشرته وزارة المعارف المصرية في كتاب عن « عهد اسماعيل » سنة ١٩٤٥ .
- ٧٢ — حنا النقيوسى : تاريخ حنا النقيوسى .
- ٧٣ — ابن حوقل : صورة الأرض .
- ٧٤ — ابن خلدون : المقدمة .
- ٧٥ — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر .
- ٧٦ — ابن خلكان : وفيات الأعيان .
- ٧٧ — خليل شبيب : عبد الرحمن الجبرتي .
- ٧٨ — ابن الداية : سيرة احمد بن طولون .
- ٧٩ — الذهبي : دول الاسلام .
- ٨٠ — Suleiman the Magnificent : Roger Merriman .
- ٨١ — زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى .
- ٨٢ — دكتور زكى حسن : كنوز الفاطميين .
- ٨٣ — زكى شنودة : تاريخ الاقباط .
- ٨٤ — ساويرس « ابن المقفع » : سير الاء البطارقة .
- ٨٥ — Histoire Générale des Arabes : Sédilot L. B. .
- ٨٦ — Muhammadan Dynasties : Stanley Lane -- Poole. .
- ٨٧ — السخاوى : الضوء اللامع في علماء القرن التاسع .
- ٨٨ — Egypt in the Middle Ages : Stanley Lane -- Poole .
- ٨٩ — ابن سعيد « على بن موسى » : المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق .
- ٩٠ — دكتور سعيد عاشور : العصر المالىكى في مصر والشام .
- ٩١ — دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية .
- ٩٢ — دكتور سعيد عاشور : السيد احمد البدوى : شيخ وطريقة .
- ٩٣ — سعيد العريان وآخرون : تكيما والسياسة العربية .
- ٩٤ — دكتورة سيدة كاشف : مصر في عهد الولاة .

- ٩٥ — دكتورة سيدة كاشف : سيرة أحمد بن طولون .
- ٩٦ — السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة
- ٩٧ — السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة
- ٩٨ — السيوطي : غزوات قبرص ورودس .
- ٩٩ — شاهنشاه بن أيوب : ذيل القواعد .
- ١٠٠ — ابن شداد « بهاء الدين » : سيرة صلاح الدين .
- ١٠١ — شكيب أرسلان : حاضر العالم الاسلامي .
- ١٠٢ — المصدي : الوافي بالوفيات .
- ١٠٣ — طارق البشري : المسلمون والاقباط في السياسة المصرية
- ١٠٤ — الطبري : تاريخ الأمم والملوك .
- ١٠٥ — عباس العقاد : القائد الأعظم محمد علي جناح .
- ١٠٦ — عباس العقاد : بحث عن « الفتوح في عهد اسماعيل »
بالكتاب الذي نشرته وزارة المعارف
عن « عهد اسماعيل » .
- ١٠٧ — عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد .
- ١٠٨ — ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب .
- ١٠٩ — عبد الحميد البطريق : الأمة العربية .
- ١١٠ — عبد الرحمن الراغب : تاريخ الحركة القومية .
- ١١١ — عبد الرحمن الراغب : مصر من عهد اسماعيل .
- ١١٢ — عبد الرحمن الراغب : في أعقاب الثورة .
- ١١٣ — عبد الحميد العبادي : علم التاريخ (مترجم) .
- ١١٤ — دكتور عبد الرحمن زكي : الشرق الأوسط .
- ١١٥ — دكتور عبد الرازق السنهوري : بحث عن « التعليم في عهد اسماعيل » .
- ١١٦ — دكتور عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية : دولة اسلامية مفترى
عليها .
- ١١٧ — عبد اللطيف البغدادي : الاغادة والاعتبار .
- ١١٨ — دكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق .
- ١١٩ — دكتور عبد الوهاب عزام (ناشر) : مجالس السلطان الغوري .
- ١٢٠ — ابن العبري « أبو الفرج » : مختصر تاريخ الدول .

- ١٢١ — ابن عريشاه : عجائب المقدور في تاريخ تيمور .
 ١٢٢ — ابن عساکر : تاريخ دمشق .
 ١٢٣ — دكتور على ابراهيم : مصر في العصور الوسطى .
 ١٢٤ — دكتور على ابراهيم : جواهر الصقلي .
 ١٢٥ — عماد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق .
 ١٢٦ — عماد الدين الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي .
 ١٢٧ — عمر الاسكندري وميجر سفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثماني .
 ١٢٨ — عمر الاسكندري وميجر سفدج : تاريخ مصر من الفتح العثماني .
 ١٢٩ — العيني : عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان .
 ١٣٠ — الاتيا غرغوريوس : وثائق للتاريخ .
 ١٣١ — غوستاف لويون : حضارة العرب .
 ١٣٢ — قدرى قلعجي : سلاح الدين الايوبي .
 ١٣٣ — القفطي : اخبار العلماء باخبار الحكماء .
 ١٣٤ — ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق لهلal الصلبي .
 ١٣٥ — التلقشندي : صبح الاعشى .
 ١٣٦ — ابن القيم : زاد المعاد .
 ١٣٧ — كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية .
 ١٣٨ — Caulbeaux : Hist, d' Abyssnie .
 ١٣٩ — Kirk : A Short History of the Middle East .
 ١٤٠ — كرومر : مذكرات كرومر .
 ١٤١ — الكندي : كتاب الولاة والقضاة .
 ١٤٢ — Syria : Lammance .
 ١٤٣ — The Turkish Impire : Sir Mark Sykes .
 ١٤٤ — مجير الدين : الانس الجليل .
 ١٤٥ — محجوب زيادة : الاسلام في السودان .
 ١٤٦ — دكتور محمد حامد فهمي : بحث عن « مركز مصر الدولي في عهد اسماعيل » .
 ١٤٧ — محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني .
 ١٤٨ — محمد حبيب احمد : نهضة الشعوب الاسلامية .

- ١٤٩ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب .
- ١٥٠ — محمد حسنين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية .
- ١٥١ — محمد الحنيني زخا : خلاصة تاريخ مصر الحديث .
- ١٥٢ — د. محمد حرب : مذكرات السلطان عبد الحميد (تحقيق) .
- ١٥٣ — محمد رفعت : بحث عن « مكانة مصر الدولية في عهد اسماعيل » .
- ١٥٤ — محمد شفيق غريال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .
- ١٥٥ — محمد صبرى : تاريخ العصر الحديث .
- ١٥٦ — الشيخ محمد الصواف : المخططات الاستعمارية لكافة الاسلام .
- ١٥٧ — دكتور محمد ضياء الدين الرئيس : تاريخ الشرق العربى والخلافة العثمانية .
- ١٥٨ — دكتور محمد ضياء الدين الرئيس : فى التاريخ الاسلامى الحديث .
- ١٥٩ — دكتور محمد عامر : الممالك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر .
- ١٦٠ — محمد عبد الجواد : تقويم دار العلوم .
- ١٦١ — محمد بن عبد الله الانتصارى : تحفة المستفيد .
- ١٦٢ — محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله .
- ١٦٣ — محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية .
- ١٦٤ — دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان .
- ١٦٥ — محمد كرد على : خطط الشام .
- ١٦٦ — محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية .
- ١٦٧ — دكتور محمد المبارك : تركيب المجتمع السورى .
- ١٦٨ — دكتور محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة .
- ١٦٩ — محمد مصطفى عطا : مصر بين ثورتين .
- ١٧٠ — محمود ابورية : جمال الدين الانغلى : تاريخه ورسالته ومبادئه .
- ١٧١ — محمود الشنيطى : قضية ليبيا .

- ١٧٢ — مصطفى السعدني : الفكر الصهيوني .
- ١٧٣ — مصطفى صبري (شيخ الاسلام) : الأسرار الخفية وراء الغشاء
الخلافة العثمانية .
- ١٧٤ — دكتور مصطفى صفوت : مصر المعاصرة .
- ١٧٥ — دكتور مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة .
- ١٧٦ — المفلوف : تاريخ الأمير فخر الدين الثاني .
- ١٧٧ — المنريزي : السلوك .
- ١٧٨ — المقريزي : الخطط .
- ١٧٩ — المقريزي : اتعاظ الحنفاء (تحقيق الدكتور محمد
حلمي) .
- ١٨٠ — A Short History of the Crusades : Mombert
- ١٨١ — ابن اليسر : تاريخ مصر .
- ١٨٢ — نعموم شخير : تاريخ سيناء .
- ١٨٣ — النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس .
- ١٨٤ — النويري : نهاية الأرب .
- ١٨٥ — History of the World : Hall H. R.
- ١٨٦ — Kulturgeschichte der Kreuzzuge : Hans Prantz
- ١٨٧ — Atlas of Islamic History : Harry Hazard
- ١٨٨ — His. Générale : Henne - am Rhy's
- ١٨٩ — History of the Arabs : Hitti Ph.
- ١٩٠ — History of Syria : Hitti Ph.
- ١٩١ — هرنشو : علم التاريخ (الترجمة العربية) .
- ١٩٢ — هلال الصابى : تاريخ دمشق .
- ١٩٣ — ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بنى ايوب .
- ١٩٤ — وايزمان : مذكرات وايزمان .
- ١٩٥ — Outline of History : Wells

History of William al Tyre : William of Tyre — ١٩٦

١٩٧ — ياقوت : معجم الادباء .

١٩٨ — ياقوت : معجم البلدان .

١٩٩ — يحيى بن آدم : الخراج .

٢٠٠ — يحيى بن سعيد : تاريخ يحيى بن سعيد .

٢٠١ — د. يوسف القرضاوى : الحلول المستوردة .

فهرس الأعلام

ملاحظات:

- ١ — تحاشيا للاطالة لم أضين هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها في ذيل صفحات الكتاب وفي قائمة المصادر والمراجع .
- ٢ — رتبت هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملحقات (ابن — الـ) ومع عدم اعتبار الانقلاب (الملك — الخديوى — باشا — بك ...) .
- ٣ — حرف (م) يوضع بعد الرقم للدلالة على ان الاسم تكرر في الصفحة أكثر من مرة .

حرف الألف

- ابحر الطبيب ٧٢
 ابراهيم (سلطان عثمانى) ٨٢٢ ،
 ٨٧٢
 ابراهيم باشا « الصدر الأعظم »
 ٤٠٥
 ابراهيم باشا « ابن محمد على »
 ٢٧ ، ١٤٧ ، ٣٩٠ ، ٤٠١ ،
 ٤٠٥ ، ٤١٠ ، ٨٨٥
 ابراهيم بن خمارويه ١٠١
 ابراهيم بن صالح العباسى ٤١ ، ٦٦
 ابراهيم فرج باشا ٥٣٠
 ابراهيم عبد الهادى ٥٠٣
 ابراهيم بن محمد « ابن الصوفى »
 ٩١
 ابراهيم هنانو ٦٧٦
 ابراهيم الوردانى ٤٨٥
 ابراهيم اليازجى ٦٧١
 ابو اسحق المروزى ١١٥
 ابو أيوب الأنصارى ٨٢٣ ، ٨٥٥
 أبو بكر الصديق ٣٥
 أبو بكر بن الناصر محمد ٢٢٨

- ابو تمام ٧٥
 ابو الحسن الاخشيدى ١٠٨ ، ١١١
 أبو حنيفة ٨٨
 ابو ركوة ١٣٩
 ابو طاهر الزهلى ١١٤
 ابو الطيب المتنبى ١١٥ ، ١١٦ ،
 ١١٩
 ابو العباس أحمد ٢٤٤
 أبو عبيدة بن الجراح ٤٠
 أبو العساكر جيش ٩٣
 أبو العلا الحرن ١٧٤
 ابو داود الكندى ١١٥
 أبو فراس الحمدانى ١١٨
 أبو القاسم (الخليفة العباسى
 بمصر) ٢٤٤
 أبو قرّة ٥٦
 أبو الظفر بهرام ١٥٥
 أبو موسى هارون ٩٤ ، ٩٥
 أبو نصر الفارابى ١١٨
 أبو الهدى الصيادى ٦٦٨
 أبو الهيجا بن عبد الله ١١٧
 أحمد الأول ٨٣٣ ، ٨٤٢

أحمد الثاني ٨٢٤
 أحمد بن الأفضل ١٥٩ ، ١٦٠
 أحمد أمين ٥٣٤
 أحمد بن اينال ٢٣٠
 أحمد بن بليزيد ٨٢٦
 أحمد باشا الجزار ٢٢٥ — ٦٦٤
 أحمد خورشيد باشا ٢٣٧
 أحمد زكي باشا ١٨٩
 أحمد زيور ٥٠٢
 أحمد الفخري ٦٩٨
 أحمد شوقي ٥٣٤ ، ٨١٦
 أحمد بن طولون ٢٠ ، ٤٠ ، ٥٥
 ٥٦ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣
 أحمد غرابي ٤٢١ ، ٤٧٠ — ٤٧٩
 أحمد عزت باشا ٦٦٨
 أحمد بن علي بن الاخشيد ١١٣
 أحمد فؤاد الأول (الملك) ٤٩٣
 ٤٩٤
 أحمد فؤاد الثاني (الملك) ٣٩١
 أحمد بن كيتلغ ١٠١ ، ١٠٨
 أحمد ماهر ٥٢٢
 أحمد بن محمد بن المدير ٩٠
 أحمد بن محمد الواسطي ٦١
 أحمد بن محمد التميمي ١١٥
 أحمد بن المؤيد ٢٢٩
 أحمد بن الناصر محمد ٢٢٨
 أحمد بن يحيى التجيبي ٧١
 الاخشيد ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩
 ادريس بن عبد الله ٦٧
 ادنوند النفي ٤٣٨
 ادهمار ٧٣٢

أديب الشيشكلي ٦٨٠
 أسامة بن منتقذ ٨٠٨
 اسحاق بن كنداج ٩٦ ، ٩٧
 اسعد العظم ٦٦١
 اسماعيل باشا (بن محمد علي)
 ٤٠٣
 اسماعيل (الخديوي) ابن ابراهيم
 ٤١٢ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٣١
 ٨٩٩
 اسماعيل بن صالح ٣٣
 اسماعيل صبري ٤٨٤
 اسماعيل العظم ٦٦١
 اسماعيل بن لؤلؤ ١٧٠
 اسماعيل بن الناصر محمد ٢٢٨
 اسماعيل بن نور الدين ١٩٦
 ١٩٧ ، ٢٠١
 الاشراف بارسبای ٢١٨ ، ٢٦٥
 ٢٧٢
 ازبك ٢٣٤
 اشرف جاتبلاط ٢٣٠
 الاشراف خليل ٢٢٧ ، ٢٥٣ ، ٧٩٠
 الاشراف قاتصوه الغوري ٢٢٠
 ٢٦٥
 الاشراف مظفر الدين موسى ٢٣٢
 الاشراف موسى ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
 افتكين التركي ١٢٨ ، ١٦٥ ، ١٦٦
 الأفضل (الملك) ٧٦٥
 الأفضل بن بدر الجمالي ١٥٥
 ١٥٨ ، ١٥٩
 الأفضل بن صلاح الدين ٢٠٢
 ٢٠٣
 الأفضل محمد ٢٠٥
 الب ارسلان ٧٢٤

برجوان التركي ١٢٣ ، ١٢٩
بركة خان بن بيمرس ٧٨٩
برسبای ٧٩١ ، ٧٩٢
برقوق ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٤١
برنارد (القديس) ٧٤٥
برنارد لويس (دكتور) ٩٢٦
برويس ٣١٩
البساسيرى ١٥٣م
بسمارك ٨٨٦
بشارة الخورى ٦٧٧ ، ٦٨٢
بشير الشهابى ٤٠٧ ، ٦٦١ ،
٦٦٢ ، ٦٦٥
بشير العظمة ٦٨١
بشير الجميل ٦٨٣ ، ٦٩٠
بطرس الاكبر ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٨٤ ،
٨٨٧
بطرس غالى ٤٣٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ —
بطرس الناسك ٧٣
بكار بن قتيبة ٩٨
البكرى ٣١٠
بلباى ٢٣٠
بلغور ٧٠٤
بنيلين ٣٩
بهرز ١٨٥
بولدوين ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٧ ،
٧٤١ ، ٧٥٠
بولس ٧١٦
بوهيموند ٧٣٢ ، ٧٣٤ ، ٧٣٧ ،
٧٤٦
بييرس الجائشكير ٢٢٨
بيرو ٦٧٨

الفونس كونت بواتيه ٧٨٢
الكسيوس كومتين ٧٢٥ ، ٧٢٦ ،
٧٣١
الياس بن منصور ٩١
ام كلثوم ٥٣٤
ام ليث الدولة ٨٠٨
الامين ٦٧
الامر ٢٩ ، ١٥٤ ، ١٥٥
امين الحافظ ٦٨٢
اقتوتى ناتج ٢٨١
اتوجور (ابو القاسم) ١١١
اتور بك ٨٩٥ ، ٨٩٦
اوجانيوس ٧٤٥
اوربان الثانى ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨
اورخان بن عثمان ٨١٥
اورخان حفيد سليمان ٨٢٠ ، ٨٣١
اويسر باشا ٢٩٥ ، ٣٠٠
ايبك ٢٣٢ ، ٢٥٩
اتاقم التركي ٣٢
ابواز بك ٣٠١

حرف الجاء
باك بك التركي ٨٩
باليان دى ايبالين ٧٥٦
بالطة جى محمد باشا ٨٧٢
بليزيد الاول ٢٥١ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ،
٨١٨
بليزيد الثانى ٨٢٦ ، ٨٤٤
البهترى ٧٥ ، ٧٦
بدر الجمالى ٨١ ، ١٥١ ، ١٥٤ ،
١٦٠ ، ١٥٧
بدر الدين لؤلؤ ١٧٠
براتراند ٧٣٨

حرف التاء

- تاج الملوك يورى ١٦٨
تنش ١٦٨
تنش بن الب ارسلان ٧٢٠ ، ٧٢١
تشرشل ٥٧٥
تشمبرلان ٥٠٧
تقى الدين عمر ١٩٥
تكين التركى ١٠١
توران شاه ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٢
توران شاه اخو صلاح الدين ٧٧٦
٧٨١ ، ٧٨٢
توفيق (الخديوى) ٤٧٠ ، ٤٧١
٤٧٢
توفيق نسيم ٥٠٢
تيمور بفا ٢٣٠
تيمور لك ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥١
٨١٧
تيودورز ٤٢

حرف الالف

- ثروت باشا ٥٠٧
ثوبان بن ابراهيم المصرى « نو
النون » ٧٢

حرف الجيم

- جان بردى غزالى ٢٦٥ ، ٦٥٧
الجدناوى ٣١٠
الجرجرانى ١٤٩
جركس ٣٠١
جريجورى السابع ٧٢٥ ، ٧٢٦
جعفر البرمكى ٣٣ ، ٤١
جعفر الصادق ١٥٢ ، ٧١٠

جعفر بن الفضل بن النيرات ١١١٣ ،
١١٥

- جعفر بن فلاح ١٦٤ ، ١٦٥
جقيق ٧١٢
جلال بايار ٩٢٥
جم بن محمد الفلاح ٨٢٦ ، ٨٤٤
جمال جورسيل ٩٢٦
جمال عبد الناصر ٣٨٧ ، ٣٩٨ م
٥٣٦ ، ٥٤٢ ، ٥٧٦ ، ٥٩٠
٥٩٤ ، ٨٩٧ ، ٩١٦
جمال الدين الافغانى ٤٣٩ ، ٤٤٠
٤٥٠ ، ٩٠٧
جنگيز خان ٢٤٦ ، ٨١٥ ، ٨١٧
جودت سوناي ٩٢٥
جوردون ٤٨١
جودفرى ٧٣٢ ، ٧٣٧ ، ٧٤١
جولدا ماير ٥٥٧
جوهر المصطفى ١٢٣ ، ١٢٤

حرف الحاء

- ابن الحاجب ٦٤١
حاجى بن شعبان ٢٣٣
حاجى بن الناصر محمد ٢٢٨
حافظ ابراهيم ٥٣٤ ، ٦٦٩
حافظ الاسد ٦٨٢ ، ٦٨٨
حافظ رمضان ٥٢٠
الحاكم بأمر الله ١٣٢ ، ١٣٣ ،
١٣٦ ، ١٣٨ ، ٦٣٢ ، ٧٠٩ ،
٧٢٠
ابن الحرفوش ٦٥٧
حسام الدين بن على ٧٧٩
الحسن بن احمد القرمطى ١٦٥ ،
١٦٦

حرف الخاء

خالد العظم ٦٨١
خالد بن الوليد ٤٠ ، ٦٤٧
خسرو باشا ٣٢٧ م ، ٤٠٧ ، ٨٥١
خشقدم ٢٣٠
خليل بن قلاوون ٢٣٠
خليل مطران ٥٢٤
خمارويه ٩٠ م ، ٩٢ م ، ٩٣ م ،
٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ٢٢٢
خورشيد باشا ٣٦٩
خوشيار ٤٧٥
خير بك ٢٦٥ ، ٢٩٨
خير الدين برباروس ٨٢٩

حرف الدال

دانتى ١٧٥
داود يكن ٤٧١
دحية بن مصعب ٦٦
نذرانيلى ٨٨٦
دقاق بن الب أرسلان ٨٢٠
دقاق بن تنتى ١٦٨
دقلديانوس ٢٥٧
الدمنهورى ٢٨٢
دوفرين (اللورد) ٤٧٧
ديجول ٦٧٦
ديليسيس ٤٧٣ ، ٤٧٤

حرف الذال

ابن ذكرويه ٩٤
ذو النون ٧٢ ، ٧٣

حرف الراء

راشد الدين سنان ١٩٣
رأف ستيفنسن ٥٣٦

الحسين بن رشيد المعري ١١٥

الحسن بن الحافظ ١٥٥
حسن صبرى ٥١٧
الحسن بن عبيد الله بن طنج ١١٣
الحسن بن على بن أبى طالب ١٥٢
حسن بن موسى ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٨٢
حسن بن الناصر محمد ٢٤٠
حسن ثبات ٥٢٢
الحسن بن الهيثم ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٧٣

الحسن اليازورى ١٥٠
حسنى الزعيم ٦٨٠
الحسين بن أحمد الزرقانى ١٠٢
الحسين بن جوهر ١٣٦
حسين (الملك) ٦٦٦ ، ٦٦٧
حسين (الشريف) ٦٧٢ ، ٦٧٤
الحسين بن أبى زوعة ١١٤
حسين رشدى باشا ٤٣٧
حسين سرى ٥٠٣ ، ٥٢٢
حسين شفت ٣٦٨
الحسين بن على بن أبى طالب ١٥٢
الحسين بن على بن النعمان ١٣٦ ،
١٣٩

حسين المصطفى ٤٢٥
حسين كامل ٤٩٣
حفص بن الوليد ٣٣
الحكم بن قيس ٢٣
الحكم بن مسلم ٤٠٠
حمد الباسل ٤٩٧
حمدان بن حمدون ١١٧
حمزة بن أحمد ١٤٥
حميد بن قحطبة ٦٦
ابن الحنظل ٦٥٧
عبد الشهابى ٦٥٨

سلس الخاوي ٦٨٠
 ساويرس ٥٥
 ست الملك ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٤٠ ،
 ١٤١ ، ١٤٩
 ستيفن ٧٦٨
 سرج الغول ٧٦
 السرى بن الحكم ٣٦ ، ٦٧ ، ٨٦
 سعد الدولة ١١٨
 سعد الله الجبيري ٦٧٧
 سعد زغلول ٢٨٦ ، ٤٣٧ ، ٤٨٧ ،
 ٤٩٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٧
 سعيد حمدان ١١٧
 سعيد الدولة ١١٨
 سعيد بن يزيد ٦٥
 سيف الدولة ١١٧ ، ١١٨
 سعيد نسيخ المشايخ النقيبندى
 ٨٩٧
 سعيد بن محمد علي ٣٩١ ، ٤١١ م
 سفيان النوري ٧٤
 ابن السلاط ١٦١
 سلامش بن بيبرس ٧٨٩
 سايم (السلطان) ٢٦٢ ، ٢٦٥ م ،
 ٨٢٦ ، ٨٢٧
 سليمان الثاني بن ابراهيم ٨٣٤
 سليمان باشا « ابو ايلي » ٢٩٩ ،
 ٨٩١
 سليمان بن بلزيد ٨١٨
 سليمان تيريل ٩٢٩
 سليمان بن الحافظ ١٥٥
 سليمان الطلي ٣٢٧ ، ٣٧٠
 سليمان القانوني ٢٨٥ ، ٢٩٩ ،
 ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٤٤ ، ٨٥٥ ،
 ٨٦١ ، ٨٦٩

ابن رائق ١٠١ ، ١٠٦
 رجاء بن ابي الحسين ١٣٩
 رجند ٧٥١ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤
 رزيق بن طلائع ١٥٦
 رشيد باشا ٤٠٧
 رشيد الدولة بن شبل الدولة ١٦٧
 رشيد رضا ٩٢١
 رضوان بن تقي بن الب ارسلان
 ٧٢٠
 رضوان بك كنفدا ٢٠٣ ، ٢٠٧
 رضوان بك الولخشي ١٥٥ ، ١٦٠ ،
 ١٦١
 رفاعه الطهطاوي ٥٦
 رفاي باشا ٤٧١
 روبرت كونت ارقوا ٧٨٠ ، ٧٨١
 روجر باتون ١٧٢
 رومانس الرابع ٧٢٥
 روف نكتش ٦٢٨
 رياض الصليح ٤٣٦ ، ٤٨٤
 ريتشارد قلب الاسد ٣٦٠ ، ٧٦٠ ،
 ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦١
 ريموند الرابع ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٣٢ ،
 ٧٣٣ ، ٧٣٧

حرف الزاي

زكا الرومي ١٠١
 زيد الحريري ٦٨٢
 ابن زولاقي ١٨٢

حرف السين

السلطات (الشيخ) ٥٧٣
 ساسي البارودي ٤٧١

شعبان بن حسن ٢٢٩
شعبان بن الناصر محمد ٢٢٨
شفيق غريال ٤٩٢
شكري الأيوبي ٦٧٤
شكري القوتلي ٦٧٧ ، ٦٨٠
شكري بن مرمي ٢٦٦
شكدة ٢٥٧
شكيب ارسلان ١٤٨
شمس الدين الدمشقي ١٦٦
شمس الملوك اسماعيل ٨٠٩
شهاب الدين محمود ١٦٨
شيبان بن احمد بن طولون ٩٥
شيكوه ١٥٦م ، ١٦٢ ، ٧٤٧

حرف الصاد

الصالح اسماعيل ٢٠٦ ، ٧٧٦ ،
٧٧٧

صالح بن علي ٣٨
صالح بن مرداس ١٦٧ ، ١٧٤
صالح بن الناصر محمد ٢٢٨
الصالح نجم الدين أيوب ٢٠٦ ،
٧٧٦ ، ٧٧٨ ، ٧٨٥
صالح القاسمي ٣٠٤ ، ٣٠٨
صبري العسلي ٦٨٠
صدقي ٤٦٧ ، ٤٨٢
صلاح الدين الأيوبي ١٥٦ ، ١٦٢م ،
١٦٩ ، ١٧١ ، ١٨٥ — ٢٠٣
٢٢٤ ، ٢٧٤ ، ٦٣٦ ،
٧٤٧ — ٧٦٢ ، ٧٧٣ ، ٧٨٧
٨٠٦ — ٨٠٨
صلاح البيطار ٦٨٢
صلاح الدين بن حاجي ٢٢٩

سليمان بن محمد بن مصال ١٥٥
سليمان فرنجية ٦٨٣
سليمان الفرنساوي ٣٩٢م
سليمان النابلسي ٦٩٧
سنان باشا ٢٩٩ ، ٨٨٣
سنجر بن ملكشاه ٧٢٠
سولسيري ٤٧٨
سويلم بن حبيب ٣٠٤
سيد قطب ٥٥٣
سيف الدولة ١١٧ ، ١١٩
سيف الدين اينال ٢٢٠
سيف الدين غازي ١٦٩ ، ١٩٦
سيف الدين ططر ٢٢٩
سيكو توري ٥٩٦
سينوت حنا ٤٩٩
سيمامون ٢٥٨م

حرف الشين

شادي (جد صلاح الدين) ١٨٥
شارل حلو ٦٨٣
شارل خونت آنجو ٧٨٢
شارلمان ٧٦٤
شائنيق ٢٥٣
الشافعي « الايام » ٧٠١
شاور بن بجر ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٨٧
شبل الدولة ١٦٧
شجرة الدر ٢٠٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٢م ،
٧٨٠ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥
شرحيل ٦٤٧
شرف الدين عيسى ٢٠٦
شريف باشا ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،
٤٤٠

حرف التصاد

ضرغام بن عامر ١٥٦ ، ١٦٢

حرف الطاء

طاهر باشا ٣٣٧ م

طاهر بن الحسين ٤١

طنج أبو الاخشيذ ١٠٧

طلال « الملك » ٦٦٦

طلائع بن رزيك ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٢

٧٤٣ ، ١٨١ ، ١٦٢

طلعت حرب ٥٣٠

طه حسين ٥٣٤

طوسون ٤٠١

طوغتكين ١٦٨ ، ٧٣٨

طويمای باي ٢٦٥ م ، ٣٦٦

حرف الظاء

الظاهر ١٦١

الظاهر بيبرس ٢١٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥

٢٣٥ ، ٢٤٤ ، ٢٥٣

الظاهر بن الحاكم بأمر الله ١٤٣ ، ١٤٢

٧٢٠ ، ٧٢١

ظاهر العمر ٣٠٩ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٨٦٠

٨٦٠

الظاهر بن صلاح الدين ٢٠٢

الظاهر قنصوه الأشرفي ٢٣٠

حرف الزين

الملك المادل ٧٦٥ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٥ ، ٧٧٧

٧٧٥ ، ٧٧٧

الماثل سيف الدين ١٩٦

الماضد ١٥٦ وما بعدها

عائشة (السيدة) ١٢٨

عباس شاه ٨٨٩

عباس العقاد ٥٣٤

عبد الحكيم عامر ٥٨٩ ، ٥٩٣

عبد الحميد الأول ٨٣٤

عبد الحميد الثاني ٨٣٦ وما بعدها

عبد الخالق ثروت ٤٩٩

عبد الرحمن بن عمر (الأوزاعي) ٧٤٠

عبد الرحمن الكواكبي ٦٧١

عبد الرحمن الناصر ٨٤٠

عبد الشهيد بطرس ٤٧٤

عبد الصمد بن علي ٣٣

عبد العزيز (السلطان) ٨٣٥ ، ٨٣٦

عبد العزيز بن برقوق ٢٢٩

عبد العزيز الجارود ٦٧

عبد العزيز فهمي ٥٢١

عبد العزيز مروان ٣٢ ، ٣٧

عبد الغني الدهيان ٦٨١

عبد الفتاح حسن ٥٢٩ ، ٥٣٣

عبد الفتاح يحيى ٥٠٣

عبد الكريم زهر الدين ٦٨١

عبد الكريم تاج ٦٨١

عبد الكريم الفحلوي ٦٨١

عبد الله برشنيو ٢٥٩

عبد الله الجزار ٤٠٦

عبد الله بن الرشيد ٨٩

عبد الله بن سعيد بن أبي سرح

٣٥ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٢٥٥

عبد الله بن طاهر بن الحسين ٦٨

عبد الله بن عبد الملك ٣٧ ، ٢٨

عبد الله بن علي ٦٩

عبد المجيد الأول ٨٢٥

عبد المجيد بن عبد العزيز ٨٣٢ ، ٨٩٦

٨٩٦

عبد الملك بن صالح ٣٣ ، ٤١
عبد الملك بن مروان بن موسى بن

نصر ٣٣

عبد الملك بن هشام ٧٢
عبد الملك بن يزيد الخراساني ٣٣

عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ٤١
عتبة بن ابي سفيان ٣٢

عثمان ذو الفقار ٣٠٢ ، ٣٠٣

عثمان بك البرديسي ٣٣٦ م

عثمان بن سعيد (ورثى) ٥٣ ، ٧١

عثمان الاول ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨٤١

عثمان الثاني ٨٣٣

عثمان الثالث ٨٣٤

عذلي يكن ٥٢٨

عفنان مندريس ٨٤١

عز الدين ابيك ٧٨٥

عز الدين بن مسعود الاول ١٦٩

العزیز عثمان ٢٠٦

العزیز غيث الدين ٢٠٧

العزیز بن صلاح الدين ٢٠٢ ، ٧٦٥

العزیز بالله الفاطمي ١٢٩ ، ١٦٥ ،

١٦٦

العزیز بن الظاهر ٢٠٤

عزة النص ٦٨١

عصمت اينونو ٩٢٤

علاء الدين بن قلاوون ٢٣٩

علاء الدين السلجوقي ٨١٤ ، ٨١٥

على بن ابي طالب ٣٤ ، ٤٩ ، ٦٤ ،

٦٥ ، ٦٧ ، ٩١ ، ١٤٦ ،

٧١١

على بن اماجور ٨٩

على بن ابيك ٢٢٧

على بن رضوان ١٧٣

على بن السلار ١٥٥

على بن عبد الله المفاخرى ١١٥

على بن فخر الدين المعنى ٦٦٠

على فهمى ٤٧٠ ، ٤٧٣

على بك الكبير ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ،

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٤٩٦ ، ٨٩٠

على ماهر ٥١٧ ، ٥٢٢

على يوسف ٤٨٧ ، ٥١٩

على بن يونس ١٧٣

عماد الدين زنكى ١٦٨ ، ١٦٩ ،

١٨٦ ، ٧٤١ ، ٧٤٣

عمارة البيهقي ١٩٣

عمر الخيام ١٧٥

عمر بن الخطاب ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٧ ،

٥٩ ، ٧٧ ، ٩١ ، ٢١٨

عمر بن عبد العزيز ٣٧ ، ٤٩ ، ٧٠ ،

٧٣ ، ٨٢٤

عمر مكرم ٣١٢ ، ٣٢٧ ، ٣٦٩ ،

٣٩٠

عمرو بن العاص ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٢ ،

٤٣ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٨ ، ٢٥٥

٦٤٧

عنيسة بن اسحق ٣٩

عيسى بن محمد النوشري ٨٦ ،

١٠١

عيسى بن نسطورس ١٣٢

حرف الفين

غلاب بن مالك ١٣٩

غوث بن سليمان ٦٢

الغوري « السلطان » ٢٢٠ ، ٢٦٥

غورو ٦٥٣

غى ده لوسيان ٧٥١ ، ٧٦١

حرف القاء

غاتك الرومى ١١٤

غارلس الخورى ٦٨٠

غاروق « الملك » ٥٩٤ وما بعدها

ماسكو دى جاما ٢٦١

الفائز ١٥٦ ، ١٦٢

فناير رفاعى ٦٨١

فتح الله بركات ٢٣

فخر الدين المعنى الاول ٦٥٨ ،

٨٩٠

فخر الدين المعنى الثانى ٦٥٨ ،

٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٨٩٠

فخر الدين بن لقمان ٢٣١

مخرى عمر ٦٨١

مروخشا داود ٧٥٠

مروج بن برقوق ٢٥١

مريزر ٣٩٠

مرديناند ديلينيس ٤٧٣ ، ٤٧٤

مردنريك بارباروس ٧٦١ ، ٧٧٢ ،

٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٩٣

مردريك الثانى ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤

الفصل بن صالح ٦٦ ، ١٣٩

فنون ٨٠٨

فؤاد شهاب ٦٨٣

فولتر ٨٢٥

فيصل الاناسى ٦٨٠

فيصل بن الشريف حسين ٦٧٢ ،

٦٧٣

فيليب اوغسطس ٧٦٠ ، ٧٦١

الفيومى ٣١٧

حرف القاف

قاييتاي ٢٢٤ ، ٢٤١ ، ٢٩٨

قاسم زعيم القاسمية ٢٩٥

قيودان باشا ٨٥١

قره صو اليهودى ٩١٤

قراقوش ١٩٩

قرة مصطفى باشا ٣٠٠

قرة بن شريك ٣٨

قسطنطين ٥٦٣ ، ٨٢٠

قطب الدين مودود ١٦٩

قطر الندى ٩٣

قطز ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٧٨٥

قلاوون ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٥١ ،

٧٨٩ ، ٧٩٠

حرف الكاف

كاثرينا « الملكة » ٧١١ ، ٧٢٤

كافور الاختيديدى ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٥

الكاظم « الملك » ٧٦٩ ، ٧٧١ ،

٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦

كخيفا ٢٢٨

كخشر ٤٨٦

كخيچك ٢٢٨

كرنيس ٢٥٨ ، ٢٥٩

كرومر ٤٢٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٦٥

كليس ٣٢٥

كميل شمعون ٦٨٣

كمشتكين ١٩٦ ، ١٩٧

كفراد ٧٤٥

كفر الدولة بن شجاع ١٩٣ ، ٢٥٩

كوباريللى ٨٨٠ ، ٨٨١

كورنچتون ٤٠٥ ، ٨٨٥

كوتشك باشا ٦٦٠

كيزون ٤٩٨
كيناي ايفرين ١٢٥

حرف الالم

لاجين ٢٢٨ ، ٢٣٩
لورانس ٦٧٢
لويس السابح ٧٤٥ ، ٧٦٠
لويس التاسع ٢٣١ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠
٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣
لؤى الاتاسى ٦٨٢
لى استاك ٥٠٤
الليث بن سعد ٧٢

حرف الميم

مارسيل ٧٨٢
الميون ٥٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٣١
الميون البطلى ١٥٩
مليون التكريرى ٦٨١
مايلز لاميسون ٥١٠
المتقى ١٠٩ ، ١١٠
التوكل ٣٩ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١٠٧
مجاهد شريكوه الثانى ٢٠٥ ، ٢٠٨
مجبر الدين ابق ١٦٨
محمد الثالث ٨٣٣ ، ٨٥٣
محمد الرابع ٨٣٣ ، ٨٤٥
محمد السادس ٨٩٣ ، ٨٩٦
محمد بن أبى بكر ٣٥ ، ٦٥
محمد احمد المهدى ٤٧٩
محمد بك الالنى ٣٣٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠
محمد بن أبى حذيفة ٦٤
محمد بن بايزيد ٨١٨ ، ٨١٩
محمد بن بدر الصيرفى ١١٤

محمد بك جركس ٣٠١
محمد بك الفتى دار ٤٠٣
محمد بن رائق ٩٧ ، ١٠٩
محمد رشاد ٨٣٦
محمد بن مسعود ٤٠١
محمد بن سليمان الكتيرى ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠١
محمد بن ططر ٤٠٣
محمد بن طنج ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١١
محمد عيد الوهاب ٥٣٤
محمد بن عيد الوهاب ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣
٨٩١
محمد عيده ١٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٠ —
٤٦٩
محمد على يينا ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ ،
٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨
٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩
٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢
٨٨٢ ، ٨٨٦ ، ٨٩٠
محمد بن على الخالنجى ٨٦ ، ١٠١
محمد بن على الميرانى ١٠٨
محمد الناتج ٨٢٠ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦
٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥
محمد فريد ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٤٨٤
محمد كريم ٢١٤ ، ٢٢٠
محمد بك لاطوغلى ٤٠٣
محمد محمود ٤٩٧ ، ٥٢١
محمد بن ملكشاه ٧٢٠
محمد نجيب ٥٣٥ ، ٥٤١ ، ٥٤٢
محمد وحيد الدين ٨٣٦
محمود الثانى (السلطان) ٤٠٥ ،
محمود سالى البارودى ٤٧١ ، ٤٧٣
محمود غمى التتراشى ٥٠٣ ، ٥١٢

مصطفى كمال « اتاتورك » ٨٩٤ ،

٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٨ ، ٩١٨ ،

٩٢٠ وما بعدها

مصطفى مرعي ٥٢٩

مصطفى النحاس باشا ٣٨٥ ،

٤٩٦ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢١ ،

مطر مؤني المنصور ٢٢

المظفر الاول تقي الدين ٢٠٥ ،

٢٠٧

المظفر الثاني محمود ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،

المظفر الثالث ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،

معاوية بن ابي سفيان ٢٤ ، ٢٨ ،

المعتصم ٢٤ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٢٤ ،

١٠٧ ، ٢٢٤

المعتضد ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

١٠٣ ، ٢٢٤

المعتد ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

معروف الدواليبي ٢٨١

معز الدين سنجر شاه ١٧٠

المعز لدين الله الفاطمي ١٢٢ —

١٢٨ ، ١٧٤ — ١٨٠

المعز بن باديس ١٥٣

معين الدين اتر ٧٤٧

المعظم عيسى ٢٠٤

المفوض بن المعتد ٩٦

المقوقس ٥٩ ، ٦٠

المكتفي ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠١

مكرم عبيد ٤٩٩ ، ٥٢٢

ملحم بن يونس ٦٦١

ملكشاه ٧٢٠

ملنر ٤٩٨

منشا اليهودي ١٣٢

المنصور الاول ٢٠٥

محمود فوزي ٥٥٧

محمود بن ملكشاه ٧٢٠

محدث (ابو الدستور) ٨٩٨ ، ٩٠٩

وما بعدها

مراد الاول ٨١٥

مراد الثاني ٨١٩

مراد الثالث ٨٢٣ ، ٨٧٢

مراد الرابع ٨٢٣

مراد الخامس ٨٢٥ ، ٨٦٧ ، ٨٩٩

مراد بك ٣١٠ ، ٣١٣

مراد بن اورخان ٨٣١

مروان بن محمد ٣٨ ، ٦٦

مزاخم بن خاتان ٢٤

المستعلي ١٥٥ وما بعدها

المستنصر ١٤٩ وما بعدها

مسعود بن غياث السلوقي ١٨٥ ،

١٨٦

مسلمة بن مخلد ٣٧

مسلمة بن عبد الملك ٨٢٣

ابن مصال ١٦١

مصطفى الاول ٨٣٣ ، ٨٤٢

مصطفى الثاني ٨٣٤

مصطفى الثالث ٨٣٤

مصطفى الرابع ٨٣٥ ، ٨٦٧

مصطفى باشا ٣٢٥

مصطفى صبرى (شيخ الاسلام)

٩١١

مصطفى فهمي باشا ٤٥٥ ، ٤٨٣

٤٨٤

مصطفى كامل ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤٨٤

٥١٩ ، ٥٢٠

نفيسة بنت الحسن بن علي ١٧
نلسن ٢١٩
نويل باشا ٤٣٥ م ٤٨٤
نوح بن اسد الساماني ٨٧
نور الدين الاتلي ٦٨٢
نور الدين ارسلان ١٦٩
نور الدين زنكي ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧١
١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢١٠
٧٤٣ ، ٧٤٨

حرف الهاء

هارون الرشيد ٤٠٠ ، ٤٢٢
هارون بن خمارويه ٨٧
هاشم الاتلي ٦٨٠
ابن هاشم الاتلي ١٥٨
هتار ٥٠٨ ، ٥٠٩
هربرت صونيل ٦٥٤
هرثة بن امين ٣٣
هشام بن عبد الملك ٥٥
هكس باشا ٤٨١
همام بن يوسف ٣٠٤ م
هنترسون ٥٠٨
هربرت ابري ٩١٧
هنري السادس ٧٦٤ ، ٧٦٥
هنري مكماهون ٦٧٢
هنري الملاح ٨٢٦
هولاكو ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٨١٥
٨١٧
هونريوس الثالث ٧٦٩

حرف الواو

ولسن ٤٨٢
وليم جوردان ٧٣٨

النصور الثاني ٢٠٥ ، ٢٠٧ م
النصور ابراهيم ٢٠٥
النصور بن العزيز ٢٠٢ ، ٢٠٥
بهيب هندي ٦٨١
نومى بن بلزيب ٦٧٣ ، ٦٧٣ م
٦٨٧
الموفق ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ م
٢٢٤
موفق عصاصة ٦٨١
المؤيد ابو الفدا ٤٠٣ ، ٢٠٥
المؤيد شيخ ٢٢٩
موسى بن عيسى بن موسى ٢٨
ميخائيل السابع ٧٢٤ ، ٧٢٥
السلطان ميسور ٩٣٤

حرف القون

نابليون بونابرت ٢٦٠ ، ٢١٣ م
٨٨٥
نزار المستنصر ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩
الناصر داود ٢٠٤ ، ٢٠٦ م
الناصر كلج ارسلان ٢٠٧
الناصر محمد بن قلاوون ٢٢٨ م
٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٧٩١
ناصر خسرو ١٥٢ م
ناصر الدولة الحمداني ١٥١ م
ناظم القدسي ٦٨١
نصر بن عباس ١٦١
نجم الدين اريكان ٩٢٨
نجم الدين ايوب ١٨٥ ، ١٨٦ م
١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٢٦ م
نجيب الريحاني ٥٣٤
نجيب الهالي ٥١٥
نظام الملك ١٧١

حرف الياء

يحيى ابراهيم ٥٠٢

يزيد بن حاتم ٣٣

يزيد بن ابي سفيان ٦٤٧

يعقوب بن كلثوم ١٠٦ ، ١٥٦

يوحنا القديس ٨٢٩

يوحنا النحوي ٤٣

يوسف زعين ٦٨٢

يوسف العظيمة ٦٧٦

يوسف وهبة ٥٠٢

يوسف وهبي ٥٣٤

يوليوس قيصر ٤٢

يوهان كيلر ١٧٣

فهرس الأمكنة

لم أضمن هذا الفهرس الكلمات الآتية : مصر — القاهرة — سوريا ،
لكثرة ورود هذه الكلمات في أكثر الصفحات بما لا يجعل ذكرها مفيداً للكاشف .

حرف الألف

آسيا الصغرى ٢٢٥ ، ٧١٥ —
٧٤٥ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٦ —
٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨٢١
أترنتو ٨٢٥
أدنة ٤٠٥ ، ٨٢٤ ، ٨٥٠ ، ٨٥١
أدنة ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٩٢٦
أفريجيان ١٨٥
الأردن ٨٩٢
أرمينية ٢٨١ ، ٨٨٦ — ٨٩٨
أرسوف ٧٨٧
أرضروم ٩٢٨
أزمير ٢٥١ ، ٨٩٣ ، ٨٩٥ ، ٩٢٦
اسبانيا ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٩٦ .
استانبول « الأستانة » ٢٣٦ —
٣٣٧ — ٣٤١ ، ٤٥٣ ،
٨٢٠ — ٨٢١ ، ٨٥٠ — ٨٥٧
٨٩٣
أسكندرون ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١
الأسكندرية ٨٧٥
أسوان ٩١ ، ٢٥٦ ، ٣٠٩ ، ٨٢٩
أشنة ٩٣٤
أقريطش ٤٠٥
الأشهر ٨١٦
البانيا ٨٨٢ ، ٨٨٩
أم رشرش (أيلات) ٥٥٤
أمريكا ٥٨٥

الاناضول ٧١٨ ، ٧٢٣ ، ٧٢٧ .

أنطاليا ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٩١٣ .

الأنطلي ٧٢ ، ٧٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ،
٧٢٢

أنطونيسيا ٢٠ ، ٢٦١ ، ٧٢٦ .

أنطاكيا ٧٤ ، ٩١ ، ٢٥٣ ، ٧٣٣ ،

٧٣٤ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٤١ ،

٧٤٦ ، ٧٨٨ ، ٨٠٤

أنقرة ٢٥١ — ٨١٥ — ٨١٧ —

٨١٨ — ٩٢٦

أبيجه ٨٨٩

أيران ٢٠ — ١٤٥ — ٤٤٨ — ٤٥٣

أيطاليا ٤٨٢ — ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٦٧ ،

٩١٣

حرف الباء

بابلليون (حصن) ٥٩ ، ٧٧ ، ٨٠
باريس ٤٤٨
باتيلاس
البحجة ٧٤
بربرة ٤١٩ ، ٤٨٢
البرتغال ٣١٣
برقة ٩١
برلين ٨٨٦
بروسه ٢٥١ ، ٨١٥
بروسيا ٨٨٥
بريمة ٨٩٢

البشناق ٨١٦

بعلبك ٧٤ ، ٩٤ ، ٢٠٢ ، ٦٥٤
بغداد ٢٩ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٧ ،
١٠٧ ، ١١٨ ، ١٥٣ ، ٢٢٣ ،
٢٣٥ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٦٣٢ ،

٨٢٨

البقاع ٦٥٤ ي

بلييس ٤٩ ، ٥٥ ، ١٨٨

بلغاريا ٦٠١

بلغراد ٨٢٨

بلقان ٨١٦ — ٨٢٢

بمباي ٢٦٣

بنران ٨٧٨ ، ٨٨٤

البندقية ٢٦٣ ، ٨٧٦ ، ٨٨٣

بواتيه ٧٢٧

بودابست ٨٢٩

بروسه ٨١٥

البوسنة ٨٨٢

بولاق ٢٨٣ ، ٢٠٥ ، ٢٩٣

بولندا ٨٧٦ ، ٨٨٣

بيت المقدس ٢٣٦ ، ٢٥٢ ، ٨٠٦

بيروت ٤٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٦٥٤

بيزنطة ١٥٢

حرف القاء

تراقية ٨٨٩ ، ٨٩٥

ترانسلفانيا ٨٨٤

تركستان ٨٧ ، ٢١٧ ، ٢٢٥

تركيا ٧٠٨ ، ٨٢٧ ، ٨٧٦

تكريت ١٨٦

القل الكبير ٤٧٣ ، ٤٧٤

تنيس ٣٩ ، ٧٤

تورز ٧٢٧

تولوز ٧٢٧

تونس ٩١ ، ١٠٢ ، ١٩٨ ، ٧٤٨ ،

٧٨٣ ، ٨٨٣ ، ٨٩٢

تيران ٥٥٤ ، ٥٥٦

حرف الجيم

جبل الدروز ٧٠٧

جبل طوروس ٦٦٢

جبل الطويين ٦٥٦

جدة ٧٤

جديلة ٧٧٩ ، ٧٨٠

جزيرة المورة ٤٠٥

الجزائر ٢٩١ ، ٨٧٣ ، ٨٩١

جنوة ٧١٨ ، ٧٢٧ ، ٧٤٠

جولان ٥٨٤

حرف الحاء

حاصبيا ٦٥٤

الحبشة ٧٤ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ١٥٣ ،

١٩٨ ، ٤٠٧ ، ٧٤٨ ، ٧٦٩ ،

٨٠٥ ، ٨٢٦

حران ٧٤

حضرية ١٥٢

حطين ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٥

حطب ٤٠ ، ٥١ ، ٧٦ ، ١٠٩ ،

١١٧ ، ١٤٥ ، ١٦١ ، ١٦٦ ،

١٩٦ ، ٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ،

٢٩٨ ، ٤٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٢٠ ،

٧٢١ ، ٧٤٣ ، ٧٥١ ، ٨٧٥ ،

حطوان ٣٧ ، ٧٨

حماه ٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٤٦

حصص ٧٥ ، ٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٥١ ،

٤٠٦ ، ٧٤٩

حرف الراء

راسى نصرانى ٥٥٤
 راثيا ٦٥٤
 رشيد ٤٨ ، ٣٠٥ ، ٣٩٠
 الرقة ٩٦ .
 الرملة ١٦٥ ، ٧٤٣ ، ٧٥٠ ، ٧٦٣
 الرها ٧٤ ، ٧٢١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٧
 ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٦١
 رودس ٢٦٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢
 روسيا ٧١٠ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٩
 ٨٨٣
 روما ٧١٧
 الريدانية ٢٦٥ ، ٢٨٢

حرف الزاى

الزاب ٣٨
 الزقازيق ٣٩٦
 زيلع ٤١٩

حرف السين

سالونيك ٣٨٩ ، ٨١٦
 سامرا ٨٨ ، ٩٦ ، ٩٩
 سان ريمو ٦٥٤
 سلمية ٩٤
 سمرفند ٢١٨
 سنار ٣٩٢ ، ٤٠٣
 السند ٧٤
 سواكن ٢٣٦ ، ٢٥٦ ، ٤١٩
 سوريا ٢٥٤
 السودان ٢١٧ ، ٧٤٨
 سومطرة ٢٩١
 سيراليون ٨٢٦
 سيثيل ٤٩٩

حيدر آباد ٧٦٦

حيفا ٤٠٦ ، ٧٥٦

حرف الخاء

خراسان ٦٦
 الخرطوم ٤٨٠
 خليج العقبة ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨
 الحزر ٢١٧
 خوارزم ٢١٨

حرف الدال

دارفور ٢٥٣
 دانبرك ٧٢٧
 الدرنفل ٨٧٦
 الدرعية ٤٠١
 دمشق ١٨ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٠٧ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٢٦ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢٣٢ ، ٢٨٧ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٨٢٣ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٥٠ ، ٨٢٣
 دمياط ٤٨ ، ٧٤ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ، ٢٨٧ ، ٣٠٥ ، ٣٣٧ ، ٣٩٠
 ٣٩٧ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧٩
 ٧٨١ ، ٧٨٢

دفشواى ٥٢٠

دقطة ٣٥ ، ٢٥٥ ، ٤٨٠

ديار بكر ٢٠٢ ، ٢٠٣

ديار ربيعة ١٠٩ ، ١١٠

دير سانت كاترين ٢٩ ، ٥٦٤

دير سيناء ٤٧

الدبلم ٢١٩

حرف الطاء

طبا ٥٥٢ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٢
طبرق ٥١٠
طبريه ١٦٥ ، ٦٦٣
طبرية (بحيرة) ٧٥٢
طبرية (حصن) ٧٧٨ ، ٧٥٥
طرابلس ٤٦ ، ١٩٨ ، ٢٥٣
٢٨٧ ، ٥١٠ ، ٦٠٦ ، ٧٣٥
٧٣٨ ، ٧٤٦ ، ٧٤٨ ، ٧٨٨
٧٨٩
طرسوس ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
طنجة ٧٤
الطونة ٨١٧
طوروس ٧٣٣

حرف العين

عين ٧٤ ، ٨٩٢
العراق ٢٠ ، ٢٠٢ ، ٧٠٨ ، ٧٢٠
٨٨٩
العريش ٣٢٤ ، ٧٧٤
عسقلان ١٧٨ ، ٧٢١ ، ٧٤٤
٧٧٨ ، ٧٦٣ ، ٧٤٨
العسكر ٢٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٩٤
عكا ٩٨ ، ١٦٥ ، ١٧٨ ، ١٩٩
٣٢٤ ، ٤٠٨ ، ٤٠٦ ، ٧٢١
٧٣٨ ، ٧٥٥ ، ٧٦٢ ، ٧٧٣
٧٩١
علوة ٢٥٤
عمان ٧٤
عمورية ٧٥
عذاب ١٧٨ ، ٢٥٦
عين جالوت ٢٠٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥

المويس ٧٣ ، ٧٨ ، ٢٨٧
٢٩٢ ، ٢٩٣
سيلان ٤٧٣ ، ٤٩٩
سيفاء ١٨ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٥١
٢٩٢ ، ٥٣٧ ، ٥٥٦ ، ٥٥٩
٥٧٠

حرف اللعين

الشم ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢١
٧٧٤ ، ٧٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨٢
٨٨٥ ، ٨٨٨ ، ٨٩٢
شلتلا ٦٩٠
شبراخيت ٣١٤
شرم الشيخ ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٩٧
شكود ٨١٤
شندى ٤٠٣
شيزر ٨٠٨

حرف الصاد

الصالحية ٣٠٩
صابرا ٦٩٠
الصرب ٨٨٢ ، ٨٨٧
صفد ٧٨٧
صقلية ١٩٣ ، ٦٠٥ ، ٧٩١
٧٧٢ ، ٧٩٦
صنافير ٥٥٤
صنعاء ٧٤
صور ٦٧٨ ، ٧٢١ ، ٧٢٨
٧٣٩ ، ٧٤٣ ، ٧٩٠ ، ٦٥٤
٧٩١
صوفيا ٨١٦
صيفا ٤٠ ، ١٣٥ ، ٧٥٠ ، ٧٥٦
الصين ٢٠ ، ٧٤ ، ٢٤٦ ، ٢٦١

القطائع ٨٠ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٩٤
 القسطنطينية ١٥٢ ، ٢٨١ ، ٢٩٨
 ٤٩٢ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧٢٤
 ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٢ ، ٨٧١
 ٩١٩

القنجاك ٢٢٥.

قلعة يعقوب ٧٥٠ ، ٧٥١

قناة السويس ٤٣٠ ، ٤٤١

القوقاز ٢١٥

قوله ٣٨٨

قونيه ٣٩٢ ، ٤٠٧

قيصرية ٢٥٠

قينارجة ٨٨٤

حرف الكاف

كاتب ديفيد ٥٧٩

كرديستان ٨٤٠

كرديان ٢٥٣ ، ٣٩٢

الكرج ٢٢٧

الكرك ٧٥١ ، ٧٥٥ ، ٧٨٧

كريت ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٨٨٩

كسلا ٤٨٠

كليربونت ٧٢٦

كوتاهية ٤٠٧

كوش ٢٥٤

الكوفة ٩٤

كيفا ٧٧٩

حرف اللام

اللاذقية ٧٠٨ ، ٧١١ ، ٧٨٩

لبنان ٦٩ ، ٢٠ ، ٥١ ، ١٤٦ ، ١٤٧

٨٩٠

اللد ٧٦٣

٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٦٣٥

٨٨٠ ، ٧٨٥

عين شمس ٣٢٦

حرف الفين

غزة ٢٣٣ ، ٣٢٤ ، ٤٠٦ ، ٧٤٤

٧٧٧ ، ٧٧٦

غندكرو ٤١٨

حرف الفاء

فارس ٢٢٥ ، ٧١٥ ، ٧٦٩ ، ٨٧٣

فرشوط ٣٠٤

الفرما ٧٤

فرنسا ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٣٠

٨٧٨ ، ٨٨٠ ، ٩١٣

الفسطاط ٣٤ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ٧٨

٨٠ ، ٩٩ ، ١٩٤

فلسطين ١٩ ، ٢٠ ، ٥٢ ، ١٩٤

١٩٥ ، ٢٣٣ ، ٤٩٣ ، ٥٦٣

٨٨٢ ، ٨٩٠

فنييسيا ٧٦٧

فينا ٨٧٣

حرف القاف

قابس ١٩٨ ، ٧٤٨

قبرص ٧٤ ، ٢٦٠ ، ٧٧٩ ، ٧٩١

٧٩٢ ، ٨٨٨ ، ٩٣٢

قبة الصخرة ٧٥٨ ، ٧٧٠

القدس ٢٣٣ ، ٧٢١ ، ٧٥٦

٧٦٤ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧

قرطاجنة ٧٨٣

القرم ٢٢٥

قره حصار ٨١٤

حرف التون

نيلانا ٢٥٤.
نابلس ٢٤٦ ، ٢٤٨
الناصرية ٧٥٦
نجيد ٤٠١
نصيبين ٤٠٧
النمسا ٤٩١ ، ٨٧٦ ، ٨٧٨
٨٧٩ ، ٩١٢
نوارين ٨٨٥
النفوة ٣٥ ، ٦٣ ، ٧٤ ، ٢١٧
٢٥٣ ، ٧٥٦
نهاوند ١١٧
نيقية ٧٣٣

حرف الهاء

هاتاي ٧٤٧
هرر ٤٨٢ ، ٤١٩
هرمز ٨٢٦
الهند ٢٠ ، ٧٤ ، ٢٦١ ، ٣١٣
٧٦٦
مولندا ٢٩١ ، ٣١٣

حرف الياء

يانا ٣٢٤ ، ٤٠٦ ، ٧٧٢ ، ٧٧٥
٧٧٧
اليمن ٧٤ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٩٨
٢٠٢ ، ٧٤٨ ، ٧٩٠
يوغسلافيا ٤٩١
اليونان ٨٨٨

لندن ٤٤٨ ، ٨٨٥

لوزان ٨٩٣

ليبيا ٤٩٣ ، ٦٠٧ ، ٨٩٢

حرف الميم

ماستدى ٤١٨
مالطة ٢٦٠ ، ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ٤٩٧
٦٠٦
ما وراء النهر ٢١٧
المدائن ٨٢٢
المدينة ١١٠
المجر ٨١٦
مرج دابق ٢٦٥ ، ٢٨٢
مسقط ٨٩٣
مصراته ٥١٠
مصوع ٤٨٢
المغرب ٨٩٢
معرة النعمان ٩٤
مقرة ٢٥٤ ، ٢٥٧
مقنونية ٨١٦ ، ٨٨٩
مكة ٣٦٣
ملازكرد ٧٢٤ ، ٨١٣
المنصورة ٧٨٠ ، ٧٨١
مهاج ٨٣٤
الموصل ١٠٩ ، ١١٧ ، ١٦٨
١٩٦ ، ٧٢١ ، ٧٥١ ، ٩٢٩
٩٣٠

رقم الايداع ٥٠٨٥ لسنة ١٩٨٦

مطابع سجل العرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

A study, in Ten Volumes,
on History and Civilization of Islam
in All Muslim Ages and Lands



دكتور أحمد شلبي

- 5 -

- Egypt and Syria from the Beginning of Islam up to the Present Time.
- Crusades: Reasons, Evolution, Results.
- Ottoman Empire (Turkey) from its Rise up to the Present Time.

By

AHMED SHALABY,

B.A. (Hon.) Cairo University,

Ph. D. Cambridge University,

Professor and Head of the Department of
Islamic History and Civilization

Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Seventh Edition (1986) Revised

Published by :

THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo.

- تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دارالعلوم (جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كامبردج.
- زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا وآسيا وأفريقيا، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية.
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الإنجليزية والاندونيسية.
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل إلى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، وقد حاضر - مستدياً وزائراً ومُعاضراً - في جامعة الأزهر، وعين شمس، واندونيسيا، والسودان، وماليزيا، والمملكة العربية السعودية، وليبيا، وفي معهد الدراسات الإسلامية، ومعهد البحوث والدراسات العربية، ومعهد الدراسات الدبلوماسية.
- مؤلفاته تزيد عن خمسين كتاباً ظهرت الطبعة الثامنة عشرة من بعضها وأهم هذه المؤلفات :

- ١- موسوعة التاريخ الإسلامي في عشرة أجزاء.
- ٢- موسوعة الحضارة الإسلامية في عشرة أجزاء.
- ٣- مقارنة الأديان في أربعة أجزاء.
- ٤- كيف تكتب بحثاً أو رسالة.
- ٥- المكتبة الإسلامية لكل الأعمار : ١٠٠ جزء من السيرة والتاريخ وقصص القرآن للأطفال والشباب والسيدات والرجال.

٦- ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS

٧- HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

- كتب بعض كتبه بالإنجليزية والاندونيسية، وترجمت أكثر لفاته إلى الأردية، والتركية، والاندونيسية، والماليزية، والفارسية.